الموسوعة الشاملة

في تاريخ الحروب الصليبية

المجلد السابع



تأليف وتحقيق وترجمة

د. سهيل زكار

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

أعمال يوحنا ومانويل كومينوس

تأليف
يوحنا كينا موس
مع ماوردلدى
أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية

الجزء الثامن والعشرون

دمشق
١٤١٨ / ١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

تبين لي أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أنه على الرغم من الأهمية العظمى لمعركة حطين، ان اخفاق الحملة الثالثة، شكل الحدث الفيصل بالنسبة لجميع وقائع الحروب الصليبية، لأن الذي توفر لهذه الحملة لم يتوفر لسواها، لذلك سعيتُ نحو الحصول على كل ماكتب عنها في الأصول، لاسيما غير العربية، ولم يكن هذا بالأمر الهين، وكان كل الذي توفر لي آنذاك حولها هو ذيل تاريخ وليم الصوري.

وقمت في شتاء العام الماضي برحلة بحث علمي أخذتني إلى عدد من المكتبات العالمية والعربية فحصلتُ من لندن على عدد من الأصول ومن مكتبة الكونغرس على خمسة أصول نادرة كنتُ بأمسّ الحاجة إليها، وهكذا توفر لدي ماكنت بحاجة إليه من مصادر غربية وعربية، منها مواد هذا المجلد الذي أقدم له، وتعلق جلّها بالحملة الثانية، ومواد نثرية وشعرية عملاقة تعلقت بالحملة الثالثة، ثم مواد أخرى عن بقية الحملات.

وقمتُ وأنا أتولى إعداد الفهارس للمجلدات التي طبعت وكان عددها خمس وعشرون والتي دعيتها باسم الحلقة الأولى من الموسوعة، بإعداد هذا المجلد، الذي يشكل الجزء الأول من الحلقة الثانية.

وقوام خطتي الآن أن أقدم أولاً الأصول الأوربية حتى نهاية الحملة

السابعة المخفقة، ثم سأعقب ذلك بتقديم أعمال الرحالة الذين جاءوا من أوروبا أثناء الحروب الصليبية، وسيأتي إثر هذا كل من كتابي: «الأسرار» و«استرداد الأراضي المقدسة» اللذان كتبا بعد تحرير عكا وانهاء الوجود الفرنجي في بلاد الشام.

وبعد الفراغ من هذا العمل سألتفت نحو المصادر العربية وكلها جديد وهام وغني لاسيما مواد البدر العيني في «عقد الجمان» التي جاءت في عدة آلاف من الصفحات، هذا وسألحق الموسوعة بعدد من الأجزاء حول تاريخ المغول والعلاقات المغولية الصليبية، وفي الحقيقة إن مجلد العلاقات جاهز للطباعة.

ويحوي المجلد الحالي كتاب «أعمال جون ومانويل كومينوس» الذي ألفه يوحنا كيناموس، وتكمل مواد هذا الكتاب مواد كتاب الألكسياد لآناكومينا، ولقد تمّ التعريف بالمؤلف وبعمله في المدخل المقبل، وبالاضافة إلى كتاب كيناموس انتزعت ماأورده أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية في كتابيه: «المدينتان» و«أعمال فردريك بربروسا».

ويعدّ أوتو أسقف فريزنغ أعظم المؤرخين الألمان في العصور الوسطى، ثم إنه يتمتع بمكانة قومية ووطنية لدى الألمان، وقد كان عضواً في واحدة من أعظم الأسر الاقطاعية الحاكمة في ألمانيا، فأسرته هي أسرة بابنبيرغ Babenberg ، ووالده هو مارغريف ليبولد الثالث صاحب النمسا، وكان واحداً من المرشحين لعرش الامبراطورية الغربية أثناء الانتخابات الملكية لعام١١٢٥، وأمه هي أغنس ابنة الامبراطور هنري الرابع، وكان زوجها الأول هو فردريك هوهنزتوفن Hohenstaufen دوق سوابيا، وعلى هذا كان أوتو أخاً من جهة الأم لكونراد الثالث وعماً لفردريك بربروسا نفسه، وبذلك كان مؤهلاً ليؤرخ لأيامه وللمرحلة المبكرة من حياة بربروسا.

فلقد ولد أوتو في حوالي سنة ١١١٠، وتوفي عام ١١٥٨، أي قبل سنين طوال من وفاة فردريك بربروسا، وغرقه الأمر الذي مرت أخباره معنا من قبل أثناء التأريخ للحملة الثالثة.

والتحق أوتو منذ سنواته الأولى بالسلك الكهنوتي، وقاده هذا إلى الدراسة في باريس حيث أمضى عدة سنوات هناك، التقى خلالها بكبار علماء عصره ورجال اللاهوت، كما أنه نال بعض الثقافة الفلسفية، ويرجح أنه كان في باريس سنة ١١٢٧أو١١٢٨، وقد غادرها سنة ١١٣٣، وتوقف في طريقه في شامبين حيث دخل في سلك كهنة أخوانية دير سيستيرشيان Cistercian ، وصار فيها بعد راعياً لهذا الدير، لكن تظل أهم مرحلة في حياته الكهنوتية، حينما أصبح في سنة ١١٣٧ ومن خلال نفوذ أسرته أسقفاً لمدينة فريزنغ، وظلّ يشغل هذا المنصب حتى وفاته التي حدثت سنة ١١٥٨ كما أسلفنا أعلاه.

ونبعت شهرة أوتو في ميدان كتابة التاريخ من خلال كتابه «المدينتان»، وهو كتاب أراد أن يؤرخ به للعالم حتى سنة ١١٤٦، وقد جعله في ثمانية أقسام [كتب] وتأثر بكتابته بمثل القديس أوغسطين وكتابه «مدينة الرب»، ومدينة الرب لدى أوغسطين هي روما التي كانت قبل المسيحية مدينة الشيطان، ثم غدت مدينة الرب يحكمها «نائب الرب على الأرض، بابا الكنيسة الكاثوليكية»، وظهرت في حقبة الحروب الصليبية مدينة أخرى هي مدينة القدس السماوية، يضاف إلى هذا أن روما غدت مدينة الرب من خلال الصراع الأبدي بين الخير والشر، فعلى فكرة الصراع هذه دارت فلسفة أوتو التاريخية في كتابه، وهذا هو الذي منحه شهرته في ميدان الفلسفة التاريخية، ومكانته القيادية في هذا الميدان خلال العصور الوسطى الأوروبية ولأن كتابه عن حياة فردريك وأعماله يدخل في فن السيرة والتراجم فقد انعدمت في ثناياه فلسفة الصراع هذه، وجاء بالتالي كتاباً خلواً من المرارة وروح التراجيديا، وأوتو في كتابه

عن فردريك مـؤرخ عادي، وليس فيلسوفاً محلقاً حسبما شهـدناه من قبل، فهو على هذا يشكل انتكاسة في حياته الفكرية.

ونظراً لوفاة أوتـو قبل فردريك، هو على هذا لم يؤرخ لحيـاته كلها، ومع أنـه جرت محاولات لإكمال عملـه والتذييـل عليـه، الهام بالنسبـة لنا مـن كتابيه ماجـاء حول الحروب الصليبية، حيث يبدو أن أوتو كـان مع كونراد الثالث أثناء الحملة الثانية وترك اخفـاق هذه الحملة في نفسه مرارة قاسية جعلته يقلع عن الحديث عن تفاصيلهـا لاسيما حصارها لدمشق، ثم عن أسباب هذا الاخفاق.

ويوجـد في كتابه «المدينتان» مادة مفيـدة عن الحملـة الصليبية الأولى تعلقت بتفصيل مـاذكره وليم رئيس أسـاقفة صور، عن قـدوم وفد أرسلته الخلافـة الفاطميـة للتفـاوض، أو بـالحري للتحالـف مـع الفـرنجة أثنـاء حصـارهـم لأنطـاكية، وكـانـت أهـداف هـذا التحـالف مـوجهـة ضـد السـلاجقـة، ويضيـف أوتـو خبراً فيه أن وفـداً مـن الفـرنجـة ذهـب إلى القاهـرة، ويومي إلى أن من نتـائج المباحثات مـع هذا الـوفد هنـاك كان تجهيز حملـة فاطميـة ضد القـدس، احتلت المدينـة وطردت منهـا الأراتقة التركمان، ولاشـك أن رجالات الـوفـد الفرنجي عـرفـوا أثناء رحلتهـم في الـذهـاب والإياب طـرق وأوضـاع بـلاد الشـام، ومصر مع صـورة وافيـة لأوضاع القدس ودفـاعاتها، علماً بأن هذه المدينـة —كما رأينا— ستسقط بعد أمد وجيز للحملة الأولى، التي تولى رجالها ذبح جميع سكانها.

واليـوم وأنا أكتـب هـذه التوطئـة أجـدّد الشكـر للقائد العـربي الكبير الرئيس حافـظ الأسد، الذي رعى هذا المشروع منذ البـداية ووجّه محموداً بمتابعة العمل فيه ومن ثم طباعته ونشره.

هناك تشابه كبير بين أوضاع الأمة العربية الآن وأيام الحروب الصليبية، فحين تخاذل من تخاذل وكـاع من كاع، وقف سـاعة المحنة نور الـدين في

دمشق، فكان بـارقة الأمل التي مهـدت السبل لبزوغ شمس التحـرير يوم حطين، وفي يـومنا هـذا يقـف الـرئيس الأسـد وحـده متصـدياً للهجمـة الشرسـة للاستعمار الأمـريكي الصهيـوني، ويسعـى بدون كلـل وبعبقريـة عملاقة لجمع شمل العرب والمسلمين.

إن رجال الفكـر في الوطن العـربي مع موقف الـرئيس الأسد، وكـذلك الأحرار في جميع العالم، والعرب والمسلمون الـواقفون في ظل رايته لايأبهون بمواقف الذيـن غلبتهم شهوة الحكم وحرفهم شبـق السلطة، إنهم يقرأون وهم معه قوله تعالى:

﴿قل يـاأيها الكافـرون. لاأعبد مـاتعبدون. ولاأنتـم عابـدون ماأعبـد. ولاأنا عابد ماعبدتم. ولاأنتم عابدون ماأعبد. لكم دينكم ولي دين﴾.

التحـرير مقبـل لامحالـة وسيـزول العدوان الصهيـوني كما زال العـدوان الصليبي طال الـزمن أم قصر، فالله تعالى وعـد هذه الأمة ووعد رسـالتها بالحفظ بقوله جلّ وعلا:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

من الله أستمدُ العـون، وأنشدُ السداد والتوفيـق، وله جلّ شأنـه الحمد والشكـر والصـلاة والسـلام على سيـد البشر النبـي المصطفـى وعلى آلـه وصحبه وكل من اتخذه مثلاً أعلى له.

سهيل زكار

دمشق ١٠/ ربيع الثاني١٤١٨

١٤/ آب١٩٩٧

مدخل

تمتع تطور تاريـخ الامبراطورية البيزنطية، التي كانـت بالنسبة لسكانها امبراطورية رومانية مسيحية، بسلسلـة من المؤرخين البارزين، ولقي عصر آل كـومنين وآل أنجيلوس ١٠٨١-١٢٠٤ اهتمام ثـلاثة مـن المعاصريـن تغطـي كتـابـاتهم المدة بطـولها، فبعـد مـوت ألكسيـوس الأول (١٠٨١-١١١٨) بأمد كتبت ابنته آنا ملحمـة حياته، بكتاب حمل عنوان الألكسيـاد، بنغمة فيهـا حـرارة وعاطفـة قـويـة تجاه أبيها، وصحيـح أنها ركزت الأضـواء على انجازات أبيهـا العسكرية، فقـد غطت خـلال ذلك جوانـب هامة مـن تقاليد وتفكير الامبراطـورية البيـزنطية وسلوكهـا، وقام يوحنا كيناموس بمتابعة التأريخ لبيـزنطة من حيث توقفت آنا، فقد خطط لكتابـة تاريخ عـن حكم جـون الثاني [١١١٨-١١٤٣] ومانـويل الأول [١١٤٣-١١٨٠]، لكـن النـص الـذي وصلنـا يتـوقـف مـع أحـداث سنـة١١٧٦، وكتـاب كينـامـوس هـو أيضـاً كتـاب اطـراء وتمجيـد للامبراطـورين، لاسيما لمانـويل، ومثـل كينامـوس بدأ نكيتـاس كونيـاتس روايته منذ وصـول جون الثاني إلى الحكم حتى سنة١٢٠٤ عنـدما استولى الفرنجة الغربيون على القسطنطينية، ثم أضاف بعض الأخبار حول بعض ماتلا ذلك من أحداث حيث تـوقف مع سنة١٢٠٦، وكتابه كتاب ازدراء متصنع لـلأباطرة الـذين عاش في ظلهـم، حيث استهدف تحديـد الملامة عن مسؤوليـة سقوط القسطنطينية وانهيار الامبراطوريـة سنة١٢٠٤، وكان بحكم كونه مـؤرخاً، وشخصيته رئيسية متألماً لما حدث، ومرعـوباً من وقع مأسـاة أيامـه، ولذلـك كتب بقلم حـاد مقيت يشبـه أسلوب تـوسيدس، وكتابه الطويل، الذي يستحق عناية أفضل متوفر في ترجمة ألمانية(١).

لماذا على هذا نقوم بترجمة كيناموس، الذي هـو الأدنى مكانة وأهمية بين الثلاثة؟ لأننا بدونه ستكون معلوماتنـا عن التاريخ البيزنطي وعن العقلية البيزنطيـة هي الأفقر، فبالنسبـة للسنوات من ١١١٨ حتـى ١١٧٦ يغطي هو ونكيتاس كونياتس الأرضيـة نفسها، لكن وفق طريقتين مختلفتين كلياً، وهذا واضـح وحقيقي بـالنسبة لحكـم مانـويل، الـذي وصفه كينـاموس بشكل مطـول بينما عرضـه نكيتاس بـاختصار، غير أن نكيتـاس كشف في كثير من الأحيان أموراً جـرت تغطيتها من قبل كيناموس، لـذلك لايمكن قراءة أحدهما دون الآخر.

زد على ماتقـدم كان كل مـن آنا كـومينا ونكيتاس شخصين متميـزين بثقـافتهما التـي تفوقـت على ثقـافـة معظـم معـاصريهما، وكان بـالمقـابل كينامـوس متعلماً بيزنطياً عـادياً، فهو قد قـرأ بشكل مفيد الكـلاسيكيات، وكـان متقبلاً بـلا جـدال للأشكـال العـامة للعقـائد المسيحيـة، وكانـت عقيدته وديانتـه هي ديانة الامبراطورية والامبراطور: الامبراطـورية كمركبة لتوحيـد بني البشر، والامبراطـور كقائد مختـار لأجل شعبـه، وجعلت هـذه المفاهيم التي شاركه فيها غالبية النـاس من عمله عرضاً رئيسياً للبساطة، والفهم المبـاشر لطبيعة التاريـخ وأهدافه حسبما رعـاها وتصورهـا الكتّاب البيزنطيون.

وولد كينـاموس حسبما ذكـر مراراً بعـد وفاة الامبراطـور جون الثـاني في نيسان١١٤٣، لكن كما يبدو ليس بعد هذا التـاريخ بوقت طويل(٢)، وفي الوقت الذي لانعرف فيه شيئاً عن أسرته، غير:

كـان باسيـل كينـاموس أسقفـاً لبـافـوس في قبرص عام١١٦٥ وبعـد ذلك(٣)، ويبدو أنـه تدرب منذ صغره على أسـاليب البلاغة، ممـا يعكس تأثير ونفـوذ نقفور بـاسيكلس عليه، وكـان هذا مـن الخطباء المشهـورين، وربما كـان أستاذه(٤)، ويـؤكـد عنـوان تاريـخ كينـامـوس أنه كـان مـن

العـاملين في البلاط الامبراطـوري(٥)، وبذلـك كـان واحداً مـن مجموعـة كبيرة مـن الكتّـاب الـذيـن ارتبطــوا بـالبـلاط الامبراطـوري وبشخـص الامبراطور، واستخـدم هؤلاء أحياناً في مهـام دبلوماسية أو أرسلـوا لمرافقة بعض الجيـوش(٦)، ويبدو أن بعـض العاملين مـن هؤلاء، مثـل نكيتاس كـونياتـس، قد ميـزوا أنفسهـم، وتمكنـوا من الارتقـاء إلى مراكـز عاليـة في الادارة الاقليمية أو المركـزية، لكن يبدو أن كينـاموس لم يفعل ذلـك، وقد ذكر أنه دخل في خـدمة مانويل منذ أن كان صبيـاً: «حتى قبل أن أصبح يافعاً، رافقـت عدداً من حملاته في كل من القـارتين»(٧)، ونستخلص من اهتماماته العسكرية ومن القليل الذي نعـرفه عن حياته، أنه قضى معظم عمره خلال حقبـة حكم مانويـل مع الجند(٨)، ومن المحتمـل أنه شارك في الحملـة الايطاليـة لعامـي ١١٥٥-١١٥٦، فـوصفه لها فيـه حيويـة، وتحديـداته الجغـرافية دقيقـة تماماً، مـع أنه كـان آنذاك —كما يبـدو— لم يتجاوز الاثنتي عشر سنة(٩)، ومثل هذا لـدى حكايته أخبار السفارة التي أرسلـت إلى روما عـام١١٥٧، فهنا قـدم لنا بشكـل مفاجـيء معلومـات لامثيل لها عن سياسات مدينة روما، وعـن ممارسة البابوية لأعمال الحرمان (الذي كـان غير معروف في الكنيسة الشرقيـة) وأيضاً عـن سياسة الـرسل البيزنطيين، فلو لم يكن حاضراً، لما امتلك مثل هذه المعلومات الهامة، وقد غـدا أخيراً قريبـاً من الامبراطـور إلى حد أنـه —كما قال— تنـاقش معـه حول قضايا من فلسفة أرسطو(١٠).

وكانـت المناسبـة الأولى التي ذكـر أنه كـان شاهـد عيان فيهـا هي في عـام١١٦٥ لـدى حصـار مـانـويــل لـزيغمنـون (زيمــون الحاليـة) في يوغـوسلافيا(١١)، ولـدى جمعنا مـابين نصين منقولين عنه نتـوصل إلى أن كينـامــوس كـان حـاضراً سنة١١٧٦ معــركـة ميريـوكيفــالــون My-riokphalon المسـاوية، فقـد حكى النـص الأول شكـوك كينامــوس بشأن اقدام مانويل في المعركة:

«حتى وصلت حقائق الأمر إلى ادراكي، لأنه صدف أن كنت وسط العدو مطوقاً من قبله، أراقب عن قرب مقاومة الامبراطور لفرقة تركية كاملة، لكن التاريخ سيصف هذا في الوقت المناسب»(١٢)، ثم قال فيما بعد: «لأنه بعد كثير من السنين أصبح قلج أرسلان لايعبأ بارتباطاته نحو الامبراطور، وقد جعل هذا الرومان يقاتلون الترك بكامل القوات، وصدف أن وقع الجيش في منطقة صعبة، وفقد كثيراً من الأعيان، واقترب من المعاناة من مأساة عظيمة، لولا أن الامبراطور شوهد هناك أنه تفوق في فن الحرب وتجاوز البراعة البشرية، لكن كما سلف وقلت: هذه الأمور ستتم حكايتها فيما بعد من قبلي»(١٣)، ومما لاشك فيه أن النص الأخير يومي إلى ميريوكيفالون، والإحالة فيه تشير فقط إلى النص المتقدم، الذي ورد قبل عدة صفحات، ويبدو أن كيناموس كان واحداً من حفنة الرجال الذين نجوا من المأساة، والمؤسف أن نص تاريخه كما وصلنا ينقطع عند بداية الحملة قبل تلك المعركة.

وكانت المحطة التالية في حياة كيناموس مرتبطة عن قرب بتصنيف تاريخه، فقد كتب بعد موت مانويل يقول: «لقد هلك مخلفاً الامبراطورية إلى ولد في سن المراهقة» وأشار فيما بعد إلى ولادة هذا الوريث، أعني ألكسيوس الثاني بعبارات مسايرة محكمة، ووعد بتقديم وصف شامل له في اللحظة المناسبة(١٤)، وقدم رواية فيها اطراء زائد عن العلاقات بين لويس السابع ومانويل أثناء الحملة الصليبية الثانية، وهي رواية تجاهلت عدداً كبيراً من نقاط الخلاف والصراع بين الحاكمين(١٥)، ومن الممكن فهم هذه المعاملة عندما يقيم المرء التقدير لحقيقة أن لويس كان حمو ألكسيوس الثاني، هذا ولم يول كيناموس أسرة أنجيلوس المدح بشكل منفرد، وفي الحقيقة وصف قسطنطين أنجيلوس جد الأباطرة المقبلين بعدم الكفاءة بسبب فقدانه أسطولاً أمام النورمان(١٦)، وتلقى أندرونيكوس كومينوس معاملة فيها بعض التناقض: فقد تولى وصف

كراهيته الشديدة لمانويل وخيانته له بالتفصيل، لكن نجاته ببراعة من السجن نال اعجاب كيناموس، فهو لم يمدحه ولم يطريه وكأنه الامبراطور الحالي، ولم يشتمه على أنه طاغية ساقط، بل قدمه بمثابة منافس خطير للأسرة الحاكمة(١٧)، وتشير هذه التفاصيل جميعها إلى الحقبة فيما بين أيلول ١١٨٠ إلى نيسان١١٨٢، وإلى وصاية ماري —اكسينا مع ألكسيوس كومينوس— البروتوسيباستوس— على الصبي ألكسيوس الثاني، وهي الحقبة التي صنف فيها كيناموس تاريخه، فوقتها كان ألكسيوس الثاني مازال حياً، وقد تلقت أمه تقديراً كبيراً، ثم عدّ أندرونيكوس عدواً خطيراً، ولم يكن نائباً للامبراطور أو امبراطوراً، فأسرة أنجيلوس لم تكن قد اعتلت العرش بعد(١٨).

لكن لماذا اختار كيناموس هذا الوقت للكتابة، هذا مايمكن استخراجه من بعض التفاصيل في تاريخه، فلقد كان هو شخصياً شديد العداء للاتين، ونادراً ماترك فرصة دون أن يهاجمهم، وهناك استثناء واحد هو ريموند أوف بواتيه ولويس السابع اللذان كانا الجد ثم الحمو لألكسيوس الثاني، ونال الألمانيان كونراد الثالث وفردريك بربروسا، والبنادقة والبابوية كل نصيبه من الشتائم، اللهم باستثناء بعض المناسبات عندما كان يصدف عملهم بالتوافق مع ارادة الامبراطور، حسب تعابير كيناموس، وكانت هيئة الوصاية على العرش، من جهة أخرى تؤثر اللاتين إلى أبعد الحدود، وموقف كيناموس العدواني من هؤلاء يومي بأنه أرغم على الانسحاب من الخدمة العامة، وهذا الافتراض يعلل اشارته في مطلع كتابه إلى متعته وراجته لكتابة التاريخ حيث قال:

«الفرصة المناسبة حالياً»(١٩)، ويعلل هذا أيضاً عدم تمكنه من الوصول إلى الوثائق الرسمية (أو على الأقل عدم تمكنه من استخدامها) أثناء كتابته (٢٠)، ثم حين حاول كيناموس اطراء الأسرة الحاكمة، كان

يسعى لاستعادة الحظوة الامبراطورية ونيل مكان في الحكومة.

وآخر مرة نلمح فيها كيناموس تؤكد هذا الرأي فيما يتعلق بتاريخ تصنيف الكتاب، فقد رآه نكيتاس كونياتس في ربيع ١١٨٤ يتناقش باللاهوت مع يوثيميوس مالاكس مطران نيا—باتري Neai-Patrai في خيمة الامبراطور في لوباديون، وكان وقتها أندرونيكوس كومينوس هو الامبراطور، وقد هدّد المتجادلين برميهما بالنهر إذا لم يتوقفا(٢١)، ويفيد هذا أن كيناموس قد استرجع مكانه في الادارة، وكسب ثقة الامبراطور، ورافقه في حملته ضد الثوار في بيثينيا، وكان يتردد على الخيمة الامبراطورية، ويبدو أن مواقفه العدوانية ضد اللاتين وطرده من قبل الوصاة على العرش قد ساعده ليتم تقبله من قبل مغتصب العرش.

ومعرفتنا عن نهاية مصيره بعض الشيء أكثر وضوحاً، فقد عاش حتى سقوط أندرونيكوس (أيلول١١٨٥)، وقد ألقى خطاباً —هو مفقود الآن— أمام واحد من أباطرة الأنجيلوسيين(٢٢)، ومع هذا يبدو أن الحاكم أرغمه الآن على التقاعد أو العيش في أحد الأديرة.

ومصادر كيناموس بعيدة عن الوضوح، فهو لم ينقل ولاوثيقة امبراطورية، مع أنه كان يعرف محتوى بعض هذه الوثائق، كما أنه لم يدون أخبار ومناقشات أياً من المجامع اللاهوتية(٢٣)، وذكر نكيتاس، الذي عالج الحقبة نفسها، أنه استعان بروايات شفوية استقاها من بعض الذين كانوا أحياء، وشاركوا في حروب الامبراطور، ولقد أشار كيناموس إلى مصاعب الكتابة حول تلك الحقبة، لذلك عزم أن يقدم عرضاً عاماً فقط «بشكل مختصر وكأنه موجز، لأنني كما ذكرتُ، لم أكن موجوداً في تلك الأوقات»(٢٤).

وقال في مكان آخر، فيما يتعلق باحتلال جون لكليكية: «لكن أن ندون هذه القضايا بالتفصيل، فأمر يتجاوز —كما أعتقد— مهمتنا

الحاليـة، فلقد كـانت غـايتي هـي الحديـث حول الأحـداث التي نحـن بصددهـا باختصـار، لأنني لم أكـن شاهـد عيان لهم، كما أنني لم أتسلم رواية مـوثوقة حـولهم»(٢٥)، ومن المؤكد أنه استقى مواده الأساسية من مصـادر شفويـة حصـل عليهـا من بعـض الأفـراد، لكـن يبدو أنـه مـن سنة١١٥٥ فصاعداً قد اعتمد على ملاحظاتـه، ثم إنه من الممكن أحياناً تعقب مصـدره من ذلـك مثلاً: كان جـون كومينـوس البروتوفستيـارويس والبروتوسيبـاستوز منـذ زمن مصـدره فيما يتعلق بمـؤامرات أنـدرونيكوس ضد الامبراطور في بيـلاغونيا (حوالي سنـة١١٥٤)(٢٦)، وربما أعطاه جون كانتاكـوزينوس روايته حول الصراع مع الصرب والمنغـار على درينا وتارا، وكان جـون دوقاس مصدره عـن الحملة الايطـالية (إن لم يكن كينـاموس نفسـه قـد شـارك فيهـا)، ومـايكـل بـرانـاس عـن الحملـة لاسترداد سيرميون(٢٧).

وذكرت آنـاكومينـا انها استطاعـت أن تدوّن أخبـارها ببسـاطة عظيمـة وبدون تصنع اعتماداً على واحـد كان من عساكـر والدها، كان قـد تقاعد فيما بعـد في أحد الأديـرة(٢٨)، ويمكن للمـرء أن يغرى بـالتفكير بوجـود روايـات مشابهة أقحمـت داخـل كتـاب كينامـوس، وسيكـون على رأس الاحتمالات روايـة حول هجـوم مـانويـل في ١١٤٦ على قـونية، والنتيجـة المأساوية والتراجـع(٢٩)، فهذه أول رواية طويلـة متواصلة حواهـا كتاب كينامـوس، والمعلومات الجغـرافية هنا صحيحة بشكـل مدهش، تسـاعد على إعادة بناء تفـاصيل معظم الطريـق، وما من شخص هنـا واضح أنه «البطل» (وربما المطلع) غير الامبراطور، هذا من جـانب ومن جانب آخر كـان سوء قيـادة الجيـش البيزنطـي أثنـاء التراجـع قاسيـاً (وهـو بالنسبـة لكينامـوس قريـب بشكل فـريد) ومجرداً، وتـوحي هـذه المزايا أن الـرواية اعتمدت على واحـد من ضباط الجيـش المحترفين، ممن كانـت رتبته دون رتب الأرستقـراطية، وربما جاءت روايته عـن الحملة الصليبية الثانيـة من

المصدر نفسه أو من مصدر مشابه(٣٠).

ومع هـذا لقد جمع كينامـوس الكتلة العظمـى من مادة تـاريخه مما رآه ولاحظه ومن روايات شهود عيان.

وكان كينـاموس مثل غيره مـن المثقفين العلمانيين البيزنطيين قـد عرف واستفاد مـن كتابات الكتّاب الكـلاسيكيين الاغريق، فقد أشـار في مطلع كتـابـه إلى ماكتبـه اكـزنفـون عن تـربيـة قـورش، وأنابـاسيـس، وربما إلى هيرودوت، زد على هـذا هنـاك ايماءات استغلهـا هذا الكـاتـب واستفـاد منها(٣١)، ففـي إحدى النقاط نشعـر بوجـودأصداء لتوسيـدس وذلك في قـوله: «لقـد انتهت السنـة بعدمـا أحدثـت هذا التغيير»(٣٢)، ويبـدو أن بـروكوبيـوس قـد زوده بنمطـه الأدبي، وعنه نقـل روايـة حـول رومولـوس أغطستولوس، وأودوفاكار، وثيـودورك(٣٣)، ومن الممكن أن نتلمس بشيء مـن الضبـابية آثـار بعـض الكتّـاب الآخـريـن مثل بلـوتـارخ أو أرّيـان، وليبانوس(٣٤) خلف صفحاته، وعلى كل حـال لايمكن مقارنة كيناموس مع آنـاكومينا بالنسبـة لسعته الثقافة والقـراءة لكتابات الكتّاب القـدماء، ولاحتى بنكيتـاس، ذلك أن هذا تمثل كتـاباتهم واستطاع بعد ذلـك صنع أسلوب خاص به.

وبشكل عام ومقارنة له ببقية الكتّاب البيـزنطيين الذين كتبوا بالتاريخ نلاحظ أنـه بذل جهده لتغليف مـواده وتمويهها بثوب قديـم، وهكذا كان كلما استطاع يعطـي شعوب العصـور الوسطى أسماء قـديمة، فلقـد أطلق على جميـع شعوب الـدول الاسـلاميـة في المشرق «الفرس»، وعلى القبـائل المنتشرة من شمال البحر الأسـود اسم «السكيزيين»، أما الهنغار فكـانوا إما «بانونيين» (من هيرودوت) أو «هون» (من بـرسكوس وبروكوبيوس) ومزج بعـض الأسماء فـدعـا الفـرنسيين بـاسـم «الجيرمـان» والجيرمـان بـاسـم «ألمانيو»(٣٥)، وكـان البيزنطيـون عنده دومـاً «رومان» اللهـم إلاّ في بعض

المناسبات النادرة، عند الاشارة إلى سكان العاصمة، ويعكس هذا الاستخدام أصالة الشعور القوي بالهوية الرومانية التي آمن بها الشعب البيزنطي، فهم حتى بالاغريقية الشفوية «رومانيو».

وأخيراً استعار من توسيدس اختراع «الكلام الزائف» و«الرسالة المصطنعة»، فما من واحدة من الرسائل التي نقلها كيناموس يمكن عدّها أكثر من مجرد تركيب صنعه هو، وتختلف الوثائق الأصيلة التي وصلتنا (خاصة المراسلات فيما بين البيزنطيين والحكام الألمان) بمحتواها عما ادعاه كيناموس ورواه(٣٦)، والأفكار التي وردت لدى توسيدس وتصورها بمثابة مقدمات لتأتي في بداية مناقشات بعض الفرقاء قد انحدرت لدى كيناموس وتشوهت إلى عبارات مثل: «بضع كلمات مناسبة» و«تمارين طفل مدرسة ومسرح خطابات»، وأكثر الكلام احكاماً بالصنعة ذلك الذي وضع في فم جون الثاني وهو على فراش الموت، وهو الأكثر زيفاً، علماً بأن كيناموس كان في هذا المقام ضحية مؤامرة استهدفت اخفاء الحقائق المتعلقة بوفاة جون(٣٧)، هذا وينبغي ألاّ يغيب عنا أن مثل هذه الخطابات والرسائل المصطنعة غالباً ماجرى استخدامها لتغطية عملية انسحاب بيزنطية أو هزيمة(٣٨).

وبعيداً عن الخطابات والرسائل جاء أسلوب كيناموس على العموم أسلوباً واضحاً ومباشراً، وهذا هام بالنسبة لكاتب بيزنطي، ونادراً ماجاءت تراكيبه متداخلة، وجمله بالعادة جمل قصيرة، ومفرداته ليست غير اعتيادية خالية من التشدق، وهذه السمات التي تجعله مقبولاً بالنسبة للقارىء المعاصر، قد نظر إليها على أنها علامات تدل على نقص الثقافة من قبل أبناء جلدته من الكتّاب البيزنطيين، فاستخدام الأساليب المحكمة والمعقدة مع القدر الأكبر من الكلمات الكلاسيكية هو السمة التي تميز بها الكتّاب الأعلى ثقافة من معاصري كيناموس مثل نكيتاس كونياتس ويوتاثيوس السالونيكي، ونتيجة لهذا وجدنا أن روايته ما ان

وصلت حكم مانويل حتى تدفقت بسرعة لكن بنعومة غالبة، وكان قادراً على تقديم بعض المشاهد المشرقة والحية، من ذلك مثلاً: التراجع البيزنطي من قونية، والمعركة مع رتشارد أوف أندريا، والساحرة العجوز أثناء حصار زيمون(٣٩)، ولقد وصف ببراعة أندرونيكوس كومينوس، على أنه كان رجلاً صاحب قدرات عظيمة، وقد دُمّر بطموحه غير المستقر، وكراهيته الموروثة لمانويل، وشروره الشخصية التي لايمكن التخلص منها(٤٠).

وبالنسبة للقارىء المعاصر تشوه أسلوبه بمبالغته في مدح مانويل كومينوس ويدلل حديثه عن كل سمة من سمات مانويل مثل: شجاعته واقدامه في الحرب، وعبقريته في تصور وادراك الأوضاع الاستراتيجية للأعداء، وفروسيته، وبراعته في ميدان الطب، وثقافته العالية، ان هذا كله دفع كيناموس إلى اعجاب هائل به، وحماس منقطع النظير نحوه، وليس لما ادعاه من أنه كان يقوم فقط برواية أشياء رآها بنفسه أو رويت موثوقة له جاذبية، ومع أنه لاشك هناك بعض الحقيقة قائمة وراء رواياته عن انجازات مانويل —شابه الامبراطور الفرسان الغربيين في سعيهم نحو المبارزات الفردية واظهار براعتهم واقدامهم— إن الحقائق التي ليست لصالح مانويل هي الطاغية، لاسيما وأن نتائج مؤامرات البلاط، وأخبار الدسائس والاتهامات، لم تتم روايتها قط بطريقة معادية لمانويل، فعلى سبيل المثال وتبعاً لنكيتاس إن التهم حول محاولة اغتصاب العرش التي أثيرت ضد ألكسيوس اكسوكوس كانت كلها زائفة(٤١)، وعلى هذا إن تاريخ نكيتاس كونياتس وسيلة ثمينة لتصحيح روايات كيناموس.

ولم يشكل كيناموس، على كل حال، في أعمال اطرائه ومديحه، حالة استثنائية، فقد كان بكل بساطة يعمل في نطاق تقاليد مقبولة بالنسبة لآداب التاريخ والبلاط، ولابأس هنا بعرض بعض الأمثلة القليلة من كتابات سلفه المباشرين، فقد ختم ميخائيل بزللوس تاريخه المشهور

بمديح طويل لميخـائيل السابع دوقاس، ووجّه ميخائيل أتـالياتس تاريخه وأهداه إلى نقفـور الثالث بـوتانياتـس، لابل حتى أقحـم فيه رواية نـاشزة حول الاستيلاء على كريت من قبل بوتـانياتس الذي زعم أنه جد لنقفور الثاني فـوقاس، ولقـد كتب كـل من نقفور بـرينيوس وآنـاكومينـا لتمجيد ألكسيـوس الأول(٤٢)، فلقد كـانت خطـابات المتعلمين وأعمال الاطـراء للحاكـم المتسلط، جـزءاً من الرسـوم الاحتفالية للبـلاط البيزنطـي، ولقد كان جميع الأشخاص ذوي الثقـافة العالية قادرين على كتـابتهم، ولم يكن هنـاك مــن حـاجــة لا إلى الاخـلاص ولا إلى الصــدق في انشـاء هــذه الخطـابات، ونكيتـاس المعاصر كـان في خطابـه معاكسـاً تماماً وبشـدة لما ضمنه في تاريخه الـذي صنفه فيها بعد(٤٣)، وبالنسبة لكينـاموس لم تكن مقاطع المديـح هامة فقط بـل أساسية لمقاصـد كتابه، وذلك بسبـب أمله باستعادة الحظـوة ونيل وظيفة، وكانت اعـلاناته المتكررة عـن ايجابيته هي مجرد كلام للزينة ووسائل رخيصة(٤٤).

وتـاريخ كينـاموس بعيـد عن الكمال، ولقـد اتبـع بالعـادة خطاً زمنيـاً متتابعاً بشكل معقول، ونجـم عن هذا في بعض الحالات تغييرات سريعة في المشاهـد الجغرافية، واقحـام مواد لاعلاقـة لها بالموضوع أو شطـائر من التاريخ اللاهـوتي، وقادته في بعض الأحيان ضرورة تقديـم خلفية، والميل لمتابعة التعايـش مع بعض الأفكار، إلى تبدلات وتلونـات لانهاية لها، ففي إحدى المرات، وبمناسبة حديثه عن ابـرام معاهدة مع هنغاريا (١١٥٣) أشـــار كينـــامـــوس ضمــــن أربــع جمل أو خمس، إلى حـــرب أثيرت (١١٥٤-١١٥٥) بسبـب أعمال أنـدرونيكـوس التـآمـريـة، وإلى ارسـال أندرونيكوس «في ذلك الحين» (١١٥٢) إلى كليكيـة لإخماد ثورة طوروس، ثم إلى هرب الأخير مـن القسطنطينية (حوالي١١٥٤)، والنشاطـات التالية في كليكية، وكـان أندرونيكـوس —على كل حـال— قد اصطحـب معه القيصر جـون روجـر، الذي كـان مـرشحـاً لخطبـة كـونستانـس صـاحبـة

أنطاكيـة، وهنا جرى عـرض أسباب تـرملها (١١٤٩) باسهـاب، وعادت الحكاية بعـد عدة صفحات تالية إلى أنـدرونيكوس في كليكية (١١٥٢)، وكـان الرابـط هنا بين هـذا كله شخصيـة أندرونيكـوس وضرورة تقديـم ملخـص عـن حيـاتـه، غير أن كينامـوس لم يكـن يخشـى مـن التعقيـب والتذييل(٤٥).

وكـان مـن الممكـن لهذه الفـوضـى أن تتلطـف بعـض الشيء، لـو أن كينـامـوس قـام بمـراجعة عملـه، كما يفترض أنـه نـوى ذلـك، وتنقطـع المخطوطـة الفريدة لهذا الكتـاب والتي وصلتنـا من العصور الـوسطى في نهاية الوجه الخلفي للورقة وسط إحـدى الجمل، ويبدأ وجه الورقة التالية بكتاب آخر، ومـن غير المعروف فيها إذا كان المؤرخ قد أكمـل كتابه، أو أن هنـاك بعض الأوراق مفقـودة من المخطـوطـة، أو أن الناسـخ تعب مـن عملـه فتوقـف هنـا(٤٦)، والبينـة الرئيسيـة حـول عـدم قيام كينـامـوس بمراجعة عمله، هو توفر عدد من الاحالات مثل قوله:

«كما قلنا في الغالـب» أو عبارة مشابهة، وعدم توفـر الصفحات المحال عليها أو النصوص المشار إليها، ومن أهـم الأمثلة الصارخة على هذا ذكره للـزواج الذي تـمّ سنـة ١١٤٨ بين ثيودورا ابنـة أخـي الامبراطور وهنـري صاحب النمسا، فقد أسقطت هذه الرواية من مكانها الصحيح من قبل كينـاموس(٤٧)، ولـدى جمع هذه العيـوب مع بـداية عنـوان النص وهـو «ملخص للمتواليـات......» الذي يعكس بدوره العنوان الـلاتيني الذي أعطاه المحقـق وهو «ملخص للأعمال.....» يـؤكد أول تلميذ لكينـاموس أن النص المتوفر حـالياً هو مختصر تولاه أحدهم في وقـت تال، ولم يعد هذا الرأي مقبولاً الآن:

ذلـك أن المتولي لـلاختصار كـان مـن المفترض أن يقوم بحـذف المواد الخطـابية الفـائضـة، بينما في حال وجـود عيـب الاحـالات، هذا يمكـن

تعليله بأن المصنف أخفق في مراجعة نصه أي لم يقم بذلك، وبرهان آخر على أن كيناموس قد ترك كتابه ناقصاً هو الطبيعة الاختصارية المتوالية لأجزاء الأخبار المتعلقة بمانويل في عقد سنواته الأخيرة، وتعطي هذه الصفحات الانطباع بوجود ملاحظات كانت تنتظر عناية المؤلف وانتباهه في النهاية(٤٨).

وتأكد لدينا بشكل غير مباشر أن الكتاب لم ينشر من خلال إعلان نكيتاس كونياتس في مطلع كتابه أن ما من مؤرخ سواه قام بتغطية هذه الحقبة منذ وفاة ألكسيوس الأول(٤٩)، ومع هذا من المؤكد أن نكيتاس استفاد شخصياً من كتاب كيناموس (٥٠) واستقى منه، ولابدّ أن نجد تعليل هذا الأمر في حقيقة أن الكتاب لم يختم وبالتالي لم ينشر، ولم يتداول خارج وسط طائفة العاملين في البلاط الملكي، وطبعاً كلاهما انتمى إلى هذه الطائفة نفسها.

وجرى نسخ أصل النص في القرن الثالث عشر، وهكذا بقي لنا ووصلنا، وتفيد الاشارة هنا إلى أن عدداً كبيراً من كتابات مؤرخي تلك الحقبة كادت أن تضيع، فلقد وصلتنا نسخة وحيدة من تاريخ بزللوس، ونسختان (كلاهما من القرن الثاني عشر) فقط من النص الكامل لكتاب الألكسياد هما اللتان عاشتا حتى العصر الحديث(٥١)، ولدى عقد مقارنة بين كتابات المؤلفين الاغريق الكلاسيكيين وكتابات المؤرخين البيزنطيين، نجد أن نتاج البيزنطيين كانت له قيمة قليلة في أعين باعة الكتب والنساخ، وكانت نسخة تاريخ كيناموس العائدة للقرن الثالث عشر موجودة في القسطنطينية عام١٤٥٣، وقد وصلت بشكل ما إلى مكتبة الفاتيكان، حيث هي الآن، وقد أخذت عنها نسخة في القرن السادس عشر، ثم ثلاث نسخ أخرى في القرن السابع عشر، وقام اسحق فوسيوس بنسخ إحدى هذه الثلاث، وهذه استخدمها كورنيليوس توليوس أساساً لأول طبعة للكتاب في أوترخت عام١٦٥٢، مع نص

لاتيني مرافق، وقام الاختصاصي العظيم بالبيزنطيات شارل دي فرزن Sieur Du Cange بنشر طبعة أخرى في باريس عام١٦٧٠ مع ترجمة لاتينية جديدة، وحواشي ماتزال هامة، وبالنسبة لطبعة أ.مينك التي نشرت في بون عام١٨٣٦، فقد اعتمد على الطبعتين القديمتين مع نسخة عن مخطوطة الفاتيكان أعدّها ثيودورهايس، ويبقى إن هناك حاجات أساسية لإعادة نشر هذا الكتاب من قبل الاختصاصيين بالبيزنطيات(٥٢).

مختصر عن نجاحات الامبراطـور الأخير والبروفيروغنتوس المولى يـوحنا كومينـوس، ووصف لأعمال ابنه الشهير الامبراطـور والبرفيروغنتوس المولى مـانــويل كـومينـوس. [كتبت مـن قبل السكـرتير الامبراطـوري يــوحنـا كيناموس].

الكتاب الأول من التواريخ

١ - لم ينظـر إلى كتابـة التـاريخ انه عمـل غير مشرف من قبل القدمـاء الـذين كـانـوا حكماء، فعدد كبير منهم حصلـوا على تقـديـر كبير لعملهم بـالتأريخ، ويــذكـر انسـان في التـاريـخ أعمال الهيلينيين، ويصف آخـر تدريبـات قورش منذ طفـولته، والأعمال التي أنجزهـا عندما بلغ مـرحلة الرجولة.

وهناك خطـر ان ماكشف عنه في وقت مـا قد يتعـرض للإخفاء ثـانية، لكن الـرجــال الـذين دونـوا الأشيـاء في الكتـب، كما لـوأنها نقشت على أعمدة لن تفنى، منحوها حياة مستمرة، ومن هذا القبيل العمل الحالي.

وإنني أرى أن هـذه الأعمال هي ليست مما لايستحق القيـام به أبـداً، وهـذه الأعمال يتوجب تـزويـدها بشكل جيـد بالمعلـومـات عن الوقـائع الفردية، وكقاعدة عامة ينبغي عـزل ذلك عن القضايا الوثيقة الصلة بهذه الحياة، ومـا من شيء من هذه الأمـور، التي أراها ضروريـة، يمكن الأخذ بها بالنسبة لنـا، ومع هذا، ينبغي لذلك ألا نلتزم بالصمت حيـال الوقائع التي حدثت في أيامنا، وبـالحري طالما توفرت فرصة مناسبـة أمامنا، علينا

أن نلتزم بـالعناية حتى لانصدّ النـاس عن العودة إلينا ثـانية، ويمكن أن ننجح إذا ما نظـرنا نظرة عابـرة إلى أخبار جميع الأشياء العـائدة إلى الحياة العامة للبشريـة وقدمنا عرضاً لأعمال امبراطورين، واحـد منهما فارق هذه الحياة قبل قـدومنا إلى هذا العالم، وازدهـر الآخر في أيامنا، ثم هلك تـاركاً الامبراطـوريـة إلى ولـد في مقتبل العمـر، وهـــذان هما يـوحنـا ومـانـويل كومينوس.

ولانحتـاج نحن الـــذين تـولينـا القيـام بهذا العمل أن نحكـي ثـانيـة أصـولهما ومن أين جـاءا (لأن أحدهما عهـد إليـه بالمنصب الامبراطـوري بحكم علاقتـه بأبيه —ألكسيـوس الأول كومينوس— والثـاني بحكم أنه حفيـده)، ولاكيف أدارا الشـؤون الـرومـانيـة العــامـة، لأن ذلك —كما أعتقد— قد أشبع وصفاً من قبل الـذين دونوا هذه الأعمال، كما اننا لسنا حتى بحاجـة لأن نروي كيف ثار ضـدّ نقفور [الثـالث بوتانيتـاس] الذي حكم الامبراطوريـة آنذاك، وكـان رجلاً قـد تخطى كثيراً مرحلـة الشباب، وكـان في مرحلـة تقهقر الحيـاة، وكما قلت: لقد روي هـذا بشكل صحيح من قبل أشخاص كتبوا دون أن يحملوا مشاعر عداء نحوه(١).

وسأتـولى عرض أعمال يـوحنـا باختصـار، أو لأقل بـايجاز، بسبب أنني —كما قلت— لم أكن مـوجوداً في أيـامـه، ولاأعرف هل يمكن لأحـد أن يتـولى عـرض أعمال خليفته مـانـويل أفضل مني، بسبب أنني رافقتـه في عدد من حملاتـه في كلا القـارتين قبل أن أكون شـاباً، وقصـدي طالما أن المناسبة مواتية أن نعود بروايتنا إلى البداية، ومن هناك نبدأ تاريخنا.

٢- عندمـا ختم ألكسيـوس حياته [١١١٨] خلفـه يوحنـا في منصب الامبراطورية، الـذي سلف ووعد به من قبل والده، وبعـدما أوقف نفسه على الشؤون المدنيـة بقدر ماسمح الـوقت له، انطلق نحـو آسيا [١١١٩] وعلى مقــربـة من نهري ليكــوس Lykos [شـوروكســــــــوشي]

وكابـروس Kapros [قاضي كـوي ديري] الفـريجية قـامت مـدينة لودقيا [قـرب دنزلي] ، وكان الترك قـد استولوا عليهـا فيما مضى منذ بعض الـوقت، وقد نـوى الامبراطور اعـادتها إلى الأراضي الرومـانية، وقـد وجّـه حملته الملحـوظة ضـدّهـا، وعندمـا كان على مقـربـة من فيلادلفيـا [علاشهـر] أقام سياجاً وعسكـر هناك، وبعث بواحـد من المحظيين عنده واسمه يوحنـا [أكسوكوس] وكان قريبـاً من الترك عن طريق أجداده(٢)، بعثـه مع قوة كي يحاول الاستيـلاء على المدينة، ثم قـام بعد قليل —بنـاء على رغبة جيشه كله— بالاستيلاء عليها بـدون مقاومة تقريباً. وكان هناك حشـد من البرابرة، ولايقل عن ثمانمائة من مشـاهير رجالهم، وكـان بينهم ألب—قـرا(٣)، وكان رجـلاً واسع التجربـة في عدد كبير من المعـارك، ثم قـام بترك حاميـة كافيـة في المدينة وشحنهـا بما يكفيها من مـؤن، ومن ثم انطلق يريد بيزنطة.

وبعـدمـا عسكـر لبعض الـوقت ضـد سـوزوبـولس Sozopolis (أولوبورلو)(٤) تمكن بسهولة من وضعهـا تحت السيطرة الرومانية، وأنا سأحكي كيف حدث ذلك، كـانت سوزوبـولس في الماضي إحدى المدن البـازرة في آسيا [الصغـرى] متمركـزة على منحـدر، وذات موقع مسيطر، وكـانت صعبة الـوصول إليهـا من كل جـانب، باستثنـاء جانب واحـد، الـذي وفر ممـراً ضيقاً جـداً يوصل إليهـا، وكان من المحـال سحب آلات ورفعهـا إليهـا، كما لم يكن بإمكـان أيـاً من مـواد الحصـار الحربي أن تهيأ ضدها، وكان الوصول إليها من قبل الـرجال صعباً مالم يزحفوا ضدها في مجموعات صغيرة. لقد امتلكت المدينة هذه الأحوال.

وفي الحقيقـة جلب التفكير بـالاستيـلاء عليهـا في البـدايـة اليأس إلى الامبراطـور، لكـن تهيأ لـه خطـة جعلت من السهل اعطـاء المدينـة إلى الرومـان، وجعلته يحصل على شهـرة عظيمة بين النـاس جميعاً، وسأوضح ماهية هذه الخطة:

لقد قام باستدعاء اثنين من حملة الرماح لديه، وكان اسم أولهما باكتياريوس Paktiarios واسم الآخر ديكانوس Dekanos ، وأمرهما مع قوتهما بأن يمضيا مباشرة إلى أبواب المدينة، ومن ثم يتوليا رمي الذين كانوا متمركزين فوق الأسوار، وعندما يتقدم هؤلاء، توجب على [البيزنطيين] الفرار دونما خجل، حتى يتمكنوا من استدراج المطاردين لهم إلى أقصى مسافة ممكنة، وتوجب عليهم لدى تركهم للمكان الضيق، وقد امتلكوا التفوق، الانعطاف بشكل مفاجيء والهجوم من هناك، بغية احتلال منطقة الأبواب، وهكذا انطلقوا نحو المدينة، وعندما رآهم البرابرة يقتربون، فتحوا الأبواب واندفعوا مسرعين نحوهم بقدر ماامتلكوا من قوة، وما ان أدار [البيزنطيون] ظهورهم، حتى بدأت عملية المطاردة تأخذ أبعادها، ثم قام أحد الرجال بالانعطاف، فلحق به عدد كبير من الرومان، وعندما وصلوا إلى الأبواب، ترجلوا عن ظهور خيولهم ووقفوا هناك، وإثر ذلك عرف البقية من الجيش الروماني ماحدث، فزحفوا بسرعة كبيرة، ووقع العدو في الوسط، ففر في هذا الاتجاه، وفي ذاك نحو السهل المجاور، وتمّ الاستيلاء على المدينة.

٣- وانطلق الامبراطور من هناك، فاستولى على حصن هيراكوكوريفايت(٥) Hierakokoryphite وعلى عدد كبير آخر، كان معظمها قائماً في أحواز أطاليا [أنطاليا]، وهكذا عاد إلى بيزنطة، وبعد إقامة قصيرة هناك انطلق يؤم مقدونيا، فقد كان البشناق(٦) قد عبروا الدانوب مع جيش، وتولوا خرق الحدود الرومانية، لكن بحكم أن الشتاء [١١٢١-١١٢٢] فاجأه هناك، فقد أمضى الفصل في مكان حول مدينة برهويا Berrhoia [ستارازغورا] وكان يستهدف من بعض الجوانب الاستعداد للحرب، لكنه أراد بالدرجة الأولى أن يكسب إلى جانبة بعض مقدميهم، ذلك انه عندما كان سيمزقهم بهذه الصورة، كان سيسهل عليه التغلب على الآخرين،

وبعدما تمكن من اقناع كثير منهم بالالتحاق به، وذلك بوساطة الرسل، قام في الربيع بالزحف ضدّ البقية، راغباً في حسم الأمور عن طريق القتال.

وعندما اصطدم الجيشان ببعضهما بعضاً، بقيت المعركة متأرجحة لبعض الوقت، ثم أصيب الامبراطور نفسه بسهم في رجله، إنما بما أن الرومان قاتلوا بشجاعة فقد هزم البشناق هزيمة ساحقة، وقتل بعضهم، ووقع بعضهم الآخر بالأسر، وكان عدد البشناق الذين تراجعوا إلى معسكرهم معتبراً، وقد عدّ هؤلاء الفرار عملا ليس فيه جدوى، واختاروا تحمل المخاطرة هناك مع زوجاتهم وأولادهم، وقد قاتلوا أمام عرباتهم، التي كانوا قد غطوها بجلود الثيران، وربطوا بعضها مع بعض ووضعوا في هذه العربات زوجاتهم وأولادهم، وهكذا وقعت ثانية معركة حامية، وسقط القتلى من على الجانبين، واستخدم البشناق العربات بمثابة حصن وهكذا ألحقوا أذى عظيماً بالرومان، وعندما أدرك الامبراطور هذا الحال، رغب في أن يترجل عن ظهر حصانه، وأن يتابع القتال على الأقدام مع جنوده، وعندما لم يوافقه الرومان على ذلك، أمر حملة الفؤوس من حوله (وكان هؤلاء من الأمة البريطانية، داخلين في خدمة الامبراطور الروماني منذ زمن طويل) أن يقوموا بقطع [العربات](٧) المواجهة لهم بفؤوسهم، ونظراً لدخولهم المعترك على الفور، غدا الامبراطور بذلك سيداً مسيطراً على معسكر البشناق، وجاء عدد كبير من الذين طلبوا السلامة بالفرار طواعية إلى الامبراطور، راغبين في أن يؤخذوا أسرى، وقد جرى تدريبهم على طرائق الرومان، وبعدما جرى تجنيدهم وتسجيلهم بالسجلات العسكرية، خدموا لزمن طويل.

٤- هكذا كان مرور البشناق في أراضي الرومان، لكن الامبراطور انشغل ثانية بشؤون آسيا، وحيث انه هاجم البرابرة بشكل غير متوقع في الشتاء هناك [١١٢٤؟] أخذهم أسرى تقريباً، وقام بتحويل عدد كبير

منهم إلى الايمان الصحيح، وبـذلك زاد من عدد القـوات الرومـانية، وبما انهم كـانـوا غير مدربين على الأعمال الـزراعيـة، بل يعتمـدون على شرب الحليب وأكل اللحـوم، مثلهم في ذلك مثل البشنـاق، وبما انهم كـانـوا يعسكرون متفرقين في السهل، كانوا فريسـة جاهزة لكل من كان يرغب في قتالهم، فعلى هذه الصورة عاش الأتراك من قبل.

واندلعت حـرب بين الرومان والهنغار الـذين سكنوا في المنطقة الـواقعة فيما وراء الدانوب، وذلك للأسباب التالية: كان للازلو الأول Laszlo ، ملك هنغاريـا ولدين هما ألموس وستيفن [اصطفان الثاني](٩)، وعنـدما تـوفي والـدهما تسلم ستيفن —الـذي كان هـو الأكبر— العـرش الملكي، والتجأ الآخر إلى الامبراطور، ذلك ان عادة الهنغار كـانت انه عندما يموت حاكمهم مخلفـاً أولاداً، فإن الذي يتسلم السيـادة عليهم مادام بـدون ولد ذكر، يتعايش الاخـوة مع بعضهم ويتمتعون بعلاقة طيبة أحـدهم بالآخر، لكن عندمـا يلد طفل لـه، فإنه [أي الملك] لن يمنحهم أيـة استمرار في البـــلاد، إلا إذا اقتلعت أعينهم، ولهذا السبـب جـاء ألموس إلى بـــلاط الامبراطور، وقد عامله الامبراطور برعاية، واستقبله بلطف، لأن الامبراطور جون كـان متزوجـاً من [بيروسكا Piroska] ايرين ابنـــة لازلو، وكـانت امـرأة فاضلـة جـداً لم تـر العين مثلهـا أبداً، في درجـات السمـو الأخـلاقي التي امتلكتهـا، فكل مـاكـان يـزودهـا بـه زوجهـا الامبراطـور والامبراطـوريـة، لم تكن تدخـره على شكل حصص لأولادهـا، كما انها لم تنفقـه في زيادة زينتهـا وترفهـا، بل أمضت حيـاتها كلها تقـدم النفع لمن استجداهـا شيئاً، أو لمن طلـب منها عونـاً، وقد أسسـت ديراً كـرّسته على اسم البـانتوكـراتور Pantokrator [المسيح القادر](١٠) ،وكـــان من أجل الأديرة وأكبرها حجماً، هكذا كانت هذه الامبراطورة.

وعنـــدمـا سمـع الملك الهنغـــاري أخبـار أخيـــه، أرسل مبعـــوثين إلى الامبراطـور وطالب بطـرد [ألموس] من الأراضي الرومـانية، وعنـدما وجـد

[اسطفان الثاني] نفسه غير قادر على فرض مطالبه على الامبراطور، عبر نهر الدانوب، وحاصر بلغـراد [بيوغراد] وهي مدينة قائمـة إلى جانبه، واستولى عليهـا [١١٢٨]، واجتثهـا هـدمـاً حتى الأسـاسـات، ونقل أحجـارهـا بالقـوارب، وبهم عمّر زيـوغمي Zeugme [أو زيوغمنـون وهي زيمـون المعـاصرة](١١) وهي مـدينـة بـاتجاه سيرميـون Surmoin [سرمسكامتروفيكـا] وقد عاشت لسنـوات طوال، لكنها سـويت بالأرض أيام حكم الامبراطـور مانويل، وهكذا بتغير [السعد] استخـدمت كلها في سبيل بنـاء أسوار مـدينة بلغـراد، غير أن هـذا سأحكيه فيما بعـد، عندمـا يصل سياق الرواية إلى هذه السنوات.

وعندمـا سمع الامبراطور بهذا، انـدفع عابراً للـدانوب مع جيشـه كله، آخـذاً معـه قوة حليفـة [أي مـرتـزقة] من الترك(١٢)، وعسكـر هنـاك إلى جـانب ضفة الـدانوب واستعـد للمعركـة، لكن حدث أن ستيفن كـان مـريضاً في بعض جسـده، كما وكان مشغـولاً بإعادة الاستيـلاء على بعض الأمـاكن في وسط أراضيـه، ومع ذلك لم يـرغب بـالظهور بعـدم المبـالاة، لذلك أرسل قواتاً بأقصى سرعة ممكنـة، مع أوامر بالحيلولة بين الامبراطور وبين العبـور، ونفـذ الهنغـار المهمـة وقـامـوا بما أمـرهم بـه، وحتى يجعل الامبراطـور المواجهـة غير فعّالـة خطط كما يلي: فقـد قـام بفصل القـوات الحليفـة، وأمرهـا بأن تسايـر صعـوداً مجرى النهر إلى منطقـة اسمها تمبـون Tempon، حيث هناك ربـوة مرتفعة من الأرض الهنغاريـة وممتدة حتى النهـر، فمن هنـاك تـوجب عليهـا الجواز، ومكث الامبراطـور مع القـوة الرومانيـة الأخرى في مواجهة مخاضـه كرامون Kramon [كاما]، وتـظاهر أنـه سيعبر من هناك فـوراً، وعندمـا تم تنفيذ ذلك، عبر الـرومان بدون صعوبـة، وكان الهنغار غير قادرين في البدايـة على مقاومتهم، فلاذوا بالفـرار مسرعين، وتمت المطاردة ضاغطـة باتجاه النهر حيث انـدفع الهنغار في جماعات لعبور جسر قائم فـوق مجرى النهر، وسقط الجسر، وجرف النهر

عـدداً كبيراً منهم، بعـدمـا فـارقـوا أرواحهم، غير أن كثيراً منهم سقط في أيـدي الـرومـان، وكـان من بينهم آكـوص Akus وكلدي Keledi (١٣)، وكانا من أبرز رجالات المنغار.

وعنـدمـا نجح الامبراطـور بهذا، استحـوذ على حصن كـرمـون دون مقـاومـة، ثم قـام على الفـور بعبـور النهر عـائداً إلى الأراضي الـرومـانيـة، وبعدما قام بتقوية برانيتشيفو Branitshevo [قرب دوبرافيكا] بحامية من الجنـد، تحت إمرة كورتكيوس Kourtikios عاد إلى بيزنطة، وبعـد وقت قصير حاصر المنغار برانيتشيفو واستولـوا عليها، وقتلوا بعضاً من الرومـان فيها، وأخذوا البقية أسرى، لكن كـان هناك بعضاً ممن طلب السـلامة بـوساطـة القتـال، وغضب الامبراطور ممـا حصل، وحكم على كـورتكيـوس بتهمـة الخيـانـة، وأنـزل على ظهـره عـدداً كبيراً من الضربـات، مع انـه لم يغادر الأسـوار [كما قـالوا] حتى انـدفع العـدو إلى داخل المدينة بكامل القوة، وجعل البيوت طعمة للنيران.

٥- وفي هـذه الآونـة (١١٢٩-١١٣٠) تـآمـر الصرب أيضـاً —وهم شعب دلماشي— وثـاروا وأخضعـوا حصن رهسـون Rhason [رصنج] ولهذا السبب انتقم الامبراطور من كريتوبلوس Kritoplos ، الذي كان مـوكلاً إليـه أمور الـدفاع عن ذلك الحصن، وأمـر فطيف به في الأسـواق، وقـد ارتـدى ثياب امرأة، وهـو راكب على ظهـر أتان، ومضى ثـانيـة إلى برانيتشيفو، وأعـاد بناءها بسرعة، وكان الجيـش منذ وقت مضى يعاني من برد الشتاء ومن نقص بالضروريات، ولذلك كـان في حالة يائسة، وعندما علم الملك المنغـاري بهذا، قـرر عبـور نهر الدانـوب بأقصى سرعـة ممكنـة ومهاجمة الجيش وهـو غير متوقع لذلك، وكان في بـلاد المنغار، سيدة ذات منبت لاتيني، متميزة بثرائها وبـأشياء أخرى، فأرسلت إلى الامبراطور تخبره بما كان قـد خطط، وحيث انه لم يكـن قادراً على الاشتباك معهـم بقوات مكافئة، بسبب ماذكرنـاه عن معاناة جيشه من المرض ونقص الحاجيات،

قام بتحصين المدينة بالقدر الممكن وانسحب، وفي الحقيقة قام بغية تجنب الاصطدام بالجيش الهنغاري باتخاذ طريق وسط منطقه ذات شعاب وعرة، كانت تدعى محلياً باسم سلّم الشيطان، وانقض الجيش الهنغاري هناك بشكل غير متوقع على الوحدات الموكل إليها حماية الساقة، لكنه لم يلحق الأذى بالرومان، وانسحب الهنغار بعدما جمعوا بعضاً من الأشياء المعلقة التي شكلت الخيمة الامبراطورية، والتي كانت قد تركت لعدم توفر حيوانات الحمولة، ونجا الجيش الروماني دون أن يصاب بأذى.

وبعد وقت قصير، زحف الامبراطور إلى آسيا، وأسرع بغية الاستيلاء على مدينة قسطمون Kastamon [كاستامونو] التي هي مجاورة لمدينة بفلاغونيا Paphlagonia [١١٣٢](١٤). فقد اعتاد الأتراك الساكنين هناك على الاغارة على المنطقة المجاورة التي كانت خاضعة للامبراطور، وأساؤوا دوماً معاملة الرومان الذين كانوا هناك، وفاجأ الامبراطور الأعداء بضخامة استعداداته للحرب، وأرغمهم على التخلي عن المدينة وعن أنفسهم لصالح الرومان، وإثر عودته إلى بيزنطة أقام احتفالاً رائعاً بانتصاره، وعندما تمت صناعة عربة من الفضة محلاة بشكل كثيف بالذهب أعد نفسه لدخولها، ومع ذلك لم يركب بها، ولعل سبب ذلك تجنب العجرفة والغرور.

وعوضاً عن ذلك وضع فيها تمثالاً لأم الرب، وسار هو يحمل شارة الصليب وتبعته العربة، وكان منظراً رائعاً للبيزنطيين أن يروا شيئاً —كما أعتقد لم يروه من قبل— ولم يشهدوه منذ الأيام التي قاد فيها أباطرة أسرة هرقل وأسرة جستنيان المملكة الرومانية.

٦- وكان الشعب الروماني مشغولاً بهذه المسائل، لكن [كمشتكين غازي ابن دانشمند]، الذي كان وقتذاك حاكماً لكبادوكيا، قام بتطويق قسطمون Kastamon وحاصرها بجيش(١٥). وحال الحظ بين

الامبراطـور وبين شن الحرب، (لأن قـرينته ايـرين فـارقت الحيـاة الدنيـا، وكان هو نفسـه قد أصيب بمرض ثم شرع يتعافى منـه في بيزنطة)، وانهك [كمشتكين غازي] المدينة أولاً بـالتجويع، ثم استولى عليهـا بقوة الحصار [١١٣٢-١١٣٣]، واثرت هـذه الفاجعة كثيراً على معنويـات الامبراطور، وحدث آنـذاك أن توفي [ابـن] دانشمند [١١٣٤-١١٣٥] واستحـوذ ابنه محمد على السلطة، وكان على عدم وفاق مع صـاحب مدينة قونية، الذي قـدره الأتـراك أكثـر من ســواه، ودعـوه بـاسم السلطــان(١٦)، وأرسل الامبراطـور جـون رسـلاً من قبلـه إلى قـونيـة، وبعـد أن كسبـوا صـداقـة السلطـان، أقنعـوه أن يقـاتل إلى جانـب الرومـان وضـد محمـد، وقبل أن يمضي وقت طويل جـاء واحد من أعيانه إلى البـلاط ومعه جيش ليعطي رهائن ولينخرط بالقتال.

وجاء الامبراطور إلى غانغـرا [جنكيري] مع الرجال المذكورين، ونصب خيمتـه أمام السـور، بغيـة الإعـداد لهجوم على التحصينـات في الصبـاح، وتصور محمد نفسـه انه لن يكون قادراً على مواجهـة الامبراطور في القتال، وعرف ان عليه ان يكسب إلى جانبه السلطـان، الذي كان مثله من أصل واحد، وأزال الـرجلان خـلافاتهما واتحدا على مـواجهة الـرومان، وفي تلك الأثناء قامت القـوات الرديفة من الترك بالمغادرة والفـرار ليلاً وذلك بناء على دعـوة من السلطـان، ولـدى ادراك الامبراطـور لهذه الخيـانـة غضب غضبـاً شـديـداً، وخطط لـلانطــلاق من هنـاك على الفـور، لكن بعض الرهبان، الذين صدف أن كانوا مـوجودين، حالوا بينه وبين القيام بذلك، وأصروا أن الـذي يحتاجـه للاستيـلاء على غانغـرا هو أن يكـون شجاعـاً، ولاقتناعـه بما قالـوه قام في الصبـاح التالي بمهـاجمة الأسوار، غير أنـه صدّ عنهـا، فـانتقـل إلى رهينـديكن(١٧) Rhyndakene حيث أمضى الشتاء هنـاك مع الجيش كله، وعـانى الرومـان الذين أمضـوا وقتاً طويلاً هنـاك معاناة كبيرة من الجوع، حيث لم يوجد مكـان للحصول منه

على المؤن من أجل الشتاء.

وانطلق من هناك، ومضى إلى قسطمون Kastamon ، وبعدما استولى عليها بالاتفاق، قاد الجيش إلى غانغرا، وعرف الأتراك الذين كانوا مستولين على المدينة، أن قواتاً [تركية] قد احتشدت ثانية عند رهينديكن، وتردد هؤلاء في البداية بشأن تسليم المدينة إلى الامبراطور، حيث كانوا يأملون بالنجدات، ولكن بما أن تلك القوات، لم تكن قد اجتمعت بعد في المكان نفسه حتى تفرقت [لأنها لم تكن قادرة على القتال في فصل الشتاء، حسبما سلف وبينت فيما مضى] فقد أرغمتهم الحاجة فسلموا المدينة له، بشرط أن يغادروا هم والأتراك الذين أسرهم الرومان عندما كان [كمشتكين غازي بن] دانشمند مايزال حياً دونما أذى، ويتحرروا من السيطرة الرومانية، غير أن الأتراك آثروا على الحرية التي توفرت لهم، الخضوع عن طواعية للامبراطور والحصول على فضل رعايته، وشكلوا رديفاً هاماً للقوات الرومانية.

٧- وفيما يلي تبيان لأصول مسألة الحروب الرومانية الايزورية، ذلك ان ليون الأرمني«١٨»، استولى على عدد كبير من المدن الايزورية [أي الكليكية] التي كانت خاضعة للرومان، وشرع بشكل خاص بحصار سلوقية [سيليفكي]، وعندما علم الامبراطور بهذا، حشد قواته، واندفع بسرعة كبيرة نحوها [١١٣٦-١١٣٧]، ولهذا السبب، ولسبب آخر سأقوم بايضاحه، زحف الامبراطور إلى كليكية، فعندما غادر بوهيموند«١٩» حاكم انطاكية هذه الحياة الدنيا [١١٣٠] أرسل أعيان البلاد إلى الامبراطور يقولون: إنه إذا ما وافق على خطبة ابنة بوهيموند إلى مانويل، أصغر أولاده، فإن مملكة انطاكية ستؤول إلى سلطانه بعد الزواج مباشرة، لكن حتى قبل أن يصل إلى كليكية، غير [الأنطاكيون] نواياهم، وعوضاً على الصداقة والتحالف أصبحوا معادين جداً له، ولادراكهم انهم لايضارعون الجيش الروماني في قدراته، قرروا انه يتوجب عليهم كسب

ليون إلى أنفسهم، وهكذا قاموا باخراج هذا الرجل من السجن، وأطلقوا سراحه —ذلك أنهم كانوا من قبل قد قهروه بالحرب وأودعوه السجن لديهم— وحرروه بعدما أخذوا عليه العهود انه سيكون صديقهم وحليفهم ضدّ الامبراطور، وهكذا سرحوه بكل لطف، وعندما وصل الامبراطور إلى كليكية استولى على المصيصة، وكان ذلك بعد اخضاعه لطرسوس وأذنة، ثم عسكر أمام عين زربة جنوب سيس.

وحدثت في الوقت نفسه بعض الأشياء حسبما يلي:

كان لدوق بويتو Poitou ، القائمة دوقيته حول خليج ايسونيا [كذا] ولدين، وعندما توفي الأب، استقر واحد منهما على عرش آبائه، ووصل الآخر إلى كنيسة القيامة في القدس متخفياً على شكل رجل فقير، وعندما رآه المحافظ هناك، أثاره مظهره الجميل وحجمه، فاقترب منه وطلب منه أن يكشف عن هويته، وأجابه الآخر بأقل ما اعتقد انه يمكن توضيحه، لكنه كان غير قادر على اقناعه، لذلك قام هذا [الغريب] بإعلان جميع الحقائق حول هذا الرجل، وبعدما استدعى [الملك] ريموند (ذلك أن هذا الاسم أطلق عليه) إليه، أقنعه أن يخطب ابنة بوهيموند، التي لم تكن قد بلغت سن الزواج(٢٠).

وبناء عليه انطلق [ريموند] مسافراً نحو انطاكية، وبالصدفة وقع بين الكشافة الرومان، وكاد أن يؤسر من قبلهم، وقام واحد من الجند الذين تصدوا له بتوجيه ضربة له على الخوذة، لكنه لم يقع لأنه أمسك بكلتا يديه برقبة الحصان، ثم لحق به عدد كبير من أتباعه، فتمكن من العودة إلى ظهره، وهكذا تجنب الخطر، ووصل إلى انطاكية.

وعلى كل حال، كان الامبراطور مشغولاً بحصار عين زربة، وكان الذين في داخل المدينة يخططون لجعل الحصار مخفقاً، لذلك قاموا بتسخين قطع الحديد بوساطة النيران بمافيه الكفاية، ورموها بالآلات،

على رماة الحجارة، وكانت هذه عندما تصبح قريبة تشعل النيران في الأخشاب القائمة أمام الرماة، وأغضب هذا الذي حدث مراراً الامبراطور، وفي حالة الانزعاج اقترب منه ابنه اسحق [السيباستوكراتور Sebastokrator] وقال: «تعال يا أبي وأصدر أوامرك بتغليف المنشآت الخشبية بالقرميد».وعندما أنجز هذا، وجد الذين في داخل المدينة أنفسهم غير قادرين على مقاومة الهجمات المتوالية، ولهذا فتحوا الأبواب وقدموا الطاعة للقائد الروماني.

٨- ووقعت عين زربة، بهذه الطريقة تحت النير الروماني، غير أن ريموند وبلدوين، الذي كان آنذاك صاحب مرعش، وقد شعرا أن الخطر لم يقف بعد أمام أبوابها، جمعا مايكفي من القوات وسارعا نحو فلسطين لانقاذ الملك هناك من الخطر[١١٣٧]، ذلك أن المسلمين الذين عاشوا على مقربة من فلسطين هزموه بالحرب، وكانوا يحاصرونه في قلعة مونت فيراند Mont ferrand [بارين] التي كان قد التجأ إليها.

وبعدما استولى الامبراطور على عين زربة توجه إلى حصار حصن فهكا Vahka [فيكي] قرب انطاكية، وعاد لذلك ريموند وبلدوين مسرعين إليه، وغير في الوقت نفسه الجيش الروماني أوضاع حصار فهكا، ونصب معسكره حول النهر الذي يجري ماراً بالمدينة [أنطاكية]، وكان الانطاكيون في البداية غير خائفين، واثقين بمتانة أسوارهم وبقية الدفاعات، ولهذا عندما طال الحصار لوقت معتبر قام بعض المسجلين بين [المشاة البيزنطيين]، كما يحدث عادة في كل جيش كبير، بالاندفاع نحو الحدائق القائمة أمام المدينة لجمع الفواكه، وهاجمهم [الأنطاكيون] بشكل مفاجيء وقتلوا كثيراً منهم، وعندما انتشر هذا الخبر بين الجنود الرومان، اندفعوا بحماس للانقاذ، وهنا هرب [الأنطاكيون] نحو أبواب المدينة، وفقدوا عدداً كبيراً من رجالهم أثناء الفرار، وعندما استأنف الرومان عمليات الحصار بنشاط وفعالية، أصيب الانطاكيون برعب كبير،

ولهذا غالباً ماقصد ريموند الامبراطور ورجاه بحرارة أن يتخلى له عن المدينة، بشرط وجوب اعلان الامبراطور سيداً لها، واعلان ذلك، لكن على أساس أن يكون ريموند وصياً شرعياً عليها، بموجب سلطان الامبراطور جون، وعندما أخفق ريموند في الحصول على مطلبه، عاد بدون نجاح، لكن بعد مضي عدة أيام، عندما اتخذ المجلس الروماني قراراً حول هذا، استقبل ريموند على أساس الشروط المذكورة، ورضخ بقية اللاتين وسلموا للامبراطور، وكان منهم الذين عرفوا بالاخوان [الاسبتارية والداوية] والذين سكنوا في تلك المنطقة وهكذا جرت الأمور.

وكان الامبراطور جون يمقت أن يضيع الفرصة المناسبة التي تهيأت، فقام بوساطة القوات المذكورة بمهاجمة أعالي سورية، فاستولى بقوة السلاح على حصن بزاعة، وحصل على كميات وافرة من الغنائم منه [١١٣٨]، وأرسل هذه الغنائم مع حشد من الأسرى إلى انطاكية، وذلك بعدما أسند المسؤولية عنهم إلى توماس، الذي كان رجلاً من أصول غير هامة، لكنه دخل —كما أعتقد— منذ طفولته بين موظفي الامبراطور، وذهب الامبراطور نفسه نحو حلب، وهي مدينة قديمة وواسعة الشهرة، وبما أن توماس هوجم بشكل مفاجيء، فقدْ فقدَ الغنائم وقافلة الأسرى التي كان يقودها، ونجا بصعوبة بالغة من الخطر، وعندما وصل الامبراطور إلى حلب، تصور أن المنطقة من حولها كانت بدون ماء تماماً، ولذلك اجتازها دون توقف، وبعدما تغلب على حصني حماة وكفرطاب بالقتال، انتقل نحو شيزر، وهي مدينة مزدهرة وكثيرة السكان، وقد حاصر المدينة هذه واستولى عليها، لكنه عندما تقدم نحو القلعة صدّ خائباً، وفيما هو على وشك الاقلاع بهجوم جديد عليها، وصل إليه بعض الرسل ووعده بمال يدفع إليه فوراً، وأن يوظفوا عليهم مبلغاً يدفعونه سنوياً إلى الرومان، ولقد كان هذا محتوى عرضهم، ورفض الامبراطور هذا العرض، لأنه كان يأمل في أن يتغلب عليهم بالحرب، لكنه بعدما قام بعدة

هجمات مخفقة ضدهم اقتنع انه كان يحاول المستحيل، لذلك استقبل رسولهم، وارتحل وفق شروط(٢١).

وقد زودوه بكثير من المال، وأضافوا إلى ذلك صليبا، وكان شيئاً مدهشاً، وهدية تليق بامبراطور، فقد كان عبارة عن حجر لونه أحمر، وبحجم معتبر، وعندما حفر على شكل صليب، فقدَ بالحفر شيئاً من لونه الطبيعي، وقالوا إن قسطنطين الأول، الذي هو الرسول بين الأباطرة، قد أمر بصنعه، وقد آل أمره إلى أيدي المسلمين بطريقة ما، وبعدما تسلم هذا، وأخذ العهود عليهم فيما يتعلق بالجزية المستقبلية، انطلق عائداً نحو كليكية ثانية، وما ان استولى على حصني فهكا وكابنسكيرتي Kap-niskerti ، بقي في تلك المنطقة، لكنه عزل قطعة من الجيش وأرسلها لنهب بقية الحصون، هذا وأن أقوم بتدوين هذه المسائل بالتفصيل، خارج كما أعتقد، عن المهمة التي نحن بصدد تأريخها، فقد كان هدفي الحديث عن الوقائع الحالية باختصار، لأنني لم أكن شاهد عيان لها، كما انني لم أتلق رواية موثقة حولها، وعلى كل حال لقد رافقه الحظ، لذلك استطاع أن ينجز هذا القدر في عامين[١١٣٧-١١٣٨].

٩- لقد حاز الامبراطور على شهرة واسعة في الحروب في آسيا، باستثناء المسائل المتعلقة بنو—قيسارية [نكسار الحالية] فهي لم تسر وفق ماكان قد خططه، فقد كان الوقت بداية الانقلاب الشتوي [كانون أول١١٣٩] عندما عسكر ليس بعيداً عنها، وفكر باخضاعها بوساطة الحصار، لكن بما أن الترك الذين كانوا مستولين على المدينةذوي فعالية عظيمة في ممارسة الحرب والهجوم بعنف عليه، ولأن برد شتاء قارص غير معتاد ضغط بشدة على جنوده، غادر المدينة وابتعد عنها(٢٢)، وفي أثناء زحفه في المناطق المجاورة للترك، استحوذ على غنائم هائلة، وأعاد إلى الأراضي الرومانية حشداً من الرجال، كان الترك قد استرقوهم منذ زمن طويل.

وفي هـذه الحملـة، أعني عنـدما كـان مـايـزال يحتل منـاطق في نو—قيسـارية، حدث شيء يستحق الـذكر والسماع، فعندمـا وقع اشتباك عنيف بين الـرومـان والترك، صـدف أن نـال الترك اليـد العليـا، ولـدى ملاحظـة مانويل —الذي غـالباً [كذا] ماذكـرت أنه كان الولـد الأصغر للامبراطـور— ماكان يحدث، انقض على وسـط العدو —دون معرفـة أبيه بـذلـك— ومعـه حـاشيتـه، وتمكن من صـده ورده إلى الـوراء، وأنعش شجاعـة جنود الـرومان التي ضعفت، وغضـب أبوه —محقاً— مـن هذا ولامه وانتقد تهوره، لكنه في قرارة نفسه أعجـب به وتملكته الدهشة، لقيام مانـويل، الذي لم يكن قـد بلغ الثامنة عشرة من عمـره بعد، بـرمي نفسه وسط خطـر عظيم من هذا القبيل، ولهذا أطلـق عليه ودعـاه علناً بمنقـذ الجيش الرومـاني، وهكذا إن الشجاعة ليست مقصـورة على أي عمر أبداً، وفي هذه الحرب بالكاد استطاع أي من الرومان أن يعود على ظهر فرس.

١٠- وهكذا اختتمت قضية نو—قيسـارية، وما إن علم الامبراطور أن الترك يشنون حـرباً ضدّ سـوزوبولس، حتى سـارع نحوها بكـامل القوى [١١٤٢]، وعندمـا أخفق في لقاء أي عـدو، (لأنهم ماإن علمـوا باقتراب الرومـان حتى انطلقوا فـارين)، قاد الجيش نحـو بحيرة تدعى بـوسغوس Pousgouse[بيشيرغولـو](٢٣)، وهي بحيرة تمتد طـولاً وعرضـاً بشكل عظيم، واستولى على الجزر القـائمة وسط الماء كل منها معـزول عن الآخر، وكان مبني عليها منذ القدم حصون، وعـدّ الناس الذين سكنوا فيها الماء بمثابـة خندق، وكان من الممكن بالنسبـة لهم الذهاب إلى قونيـة والعودة في يوم واحـد(٢٤)، ولهذا السبب بـالذات أولى الامبراطـور أهمية خـاصة للاستيلاء على البحيرة، وعنـدما رفض الرومـان الساكنين في الجزر الخضوع له والتسليم (لأنهم كـانوا منـذ وقت طويل وممارسـة مديـدة، متحدين في مواقفهم مع الأتراك) وضع خطة وفق مايلي:

بعـدما جمع أكبر قـدر ممكن من القـوارب والعـوامـات ربطها ببعضهـا

بعضـاً بوسـاطة ألـواح على ظهرهـا، ووضع آلات حربه عليها، وقـادهم مباشرة نحو الحصون المذكورة، وعندمـا اضطربت البحيرة بالرياح الجافة، فُقد عـدد كبير من الرومـان، ومع هذا، وبعد عنف لامـزيد عليـه استولى عليهم.

وعندمـا علـم أن ريموند أمير انطاكيـة قد ثار، زحف مبـاشرة عائداً إلى كليكية[١١٤٢]، وعـزم على منح كليكية وانطاكية مع اطـاليا وقبرص إلى مانويل، ليكونوا حصته، وسأروي لماذا عـزم على هذه النية، فقد كان منذ وقت طـويل مضى قد وعـد الرومـان باعطـاء الصولجان إلى ألكسيـوس، الـذي كــان أكبر أولاده(٢٥)، في حين كـان مـانــويل آخـر أولاده ولادة، وراجت حكـايــات واشـارات تتعلق بـالحكم قــد ظهـرت وأفشيت إلى الشاب، وبالنسبة لي هناك حكاية أو حكايتين ليستا غير مناسبتين للرواية:

مرة عندما كان مانويل نـائماً، ظهرت له امرأة في الحلم، وكانت مبجلة المظهر، متـدسرة بالسـواد، وفي يدهـا الحذاء [اللؤلـؤي] الذي يسمـح به القانون لـلأباطرة، وقدمت الحذاء إلى مـانويل حاثة إياه على استخدامه، وخلع هــذا: مشيرة إلى حـــذائه العـــادي الأزرق اللــون والخاص(٢٦) بـ[السباستوكراتور]، واستيقظ مليئـاً بالخوف، وحيث انه لم يجد مـاظهر له، انفجر باكياً مثل طفل، وظن انـه أخذ من قبل شخص من أفراد بيته، هذا مايتعلق بهذا الأمر، لكن هناك شيء آخر لم يقلّ أهمية بالنسبة له:

كان هنـاك راهب من الـرهبان بلاده هـي طبرية، وكـان طريق حيـاته بعيداً، وكـان من سكان الجبـال، وعندما وقف مـرة أمام الامبراطـور جون للوعظ، لاحظ اقتراب الأبناء منه، وقد عـامل البقية مثل معاملة المواطنين العـاديين، لكن عنـد اقتراب مـانـويل منـه، خاطبـه بتـواضع، وعنـدمـا استوضح الامبراطور منه سبب صنيعه هذا، أجابه الراهب قائلاً:

«لأن من بينهم جميعاً يبدو لي مانـويل امبراطوراً»، ومن هذا الأمر، ومن

أشياء أخرى مرت بالامبراطور بمثابة اشارات لا عدّ لها ولا حصر، وبما انه لم يكن قادراً على أن يغير مابدا له صحيحاً في البداية، تحول بانتباهه ونواياه نحو الخطة التي سلف ذكرها.

لكن يبدو أن مامن واحدة من هذه المسائل، كان متوقفاً على الخطط البشرية، فهو لم يكد يصل كليكية حتى حرم من ولديه الأكبر سناً [ألكسيوس وأندرونيكوس]، في حين عاد [اسحق]، أحد المتبقين الذي لم يكن صحياً بشكل جيد، إلى بيزنطة مرافقاً للجسدين(٢٧)، ثم تقدم إلى عرش الامبراطورية.

ومن المفيد التوقف هنا قليلاً لتبيان كيفية نهاية جون: فبينما كان يصطاد، غلبه خنزير بري، وكان كبيراً، ذلك أن كليكية وجبال طوروس تنتج أعداداً كبيرة من الخنازير، وقد قيل:

وجّه إليه الامبراطور طعنة بالرمح، غير أنه تغلب عليها أثناء اندفاعه وحين انغرس السنان في صدره، اشتعل غضباً بسبب الطعنة، فازداد ضغطاً واندفاعاً، ولذلك التوت ذراع الامبراطور، وسحبت جانباً بسبب شدة المقاومة، كما والتسوت في الاتجاه الخاطىء جعبة كانت مليئة بالنشاب، كان الامبراطور مجهزاً بها، وكشط رسغه برؤوس النشاب، وتلا ذلك جرح أصابه فوراً، وفار الدم واندفع من الجرح، ووضع على الجرح رباط رقيق، يدعوه العامة ايكديرا Ekdera (٢٨)، بهدف الربط معاً لما انشطر، ولشفاء الجرح، لكنه ازداد التهاباً وتحرك الألم، وكان ذلك السبب لما نجم بعد ذلك من التهاب، لأنه نقل التسمم إلى بقية الجسد من رأس النشاب الذي كان قد انغرس عميقاً، لكن هذا كان فيما بعد.

وبينما كان مايزال لايشعر بالألم، مدت له طاولة، ووضعت له مساند ليتناول الطعام (٢٩)، وفي أثناء الأكل وقف الأطباء من حوله لمراقبة الرباط، وسألوا عن سبب الجرح، وعندما عرفوا ذلك، اشتكوا بشأن

الطاولـة، وطلبوا فك الـرباط ورفعـه مباشرة عن ذراعـه، وأصرّ هو —على كل حال— بشـدة على أن الجرح قد أغلق، وانه لايشعر بـوجود أي خطر فيما يتعلق بتورم الجرح والتهـابه في المستقبل، لكنـه بعدما تنـاول الطعام، وما ان استلقى لينـام، شعر فجأة بألم حاد قد اعتراه والـورم يهاجم ذراعه، وتمّ استدعـاء مجموعـة الأطباء، وقام نقـاش حول مـاينبغي صنعه، ورأى بعضهم أن الأفضل هو فتح التـورم، لكن عدم نضجه لم يـرض الآخرين، وفضلوا التخلص من الورم بطريقة أخـرى، لكن بما انه بدا مريضاً بشكل كبير انتصر يـومذاك رأي الجراحـة، وعندمـا فتح الجرح ازداد التورم أكثر، وبات الذراع كله متورماً.

وبدأ الامبراطور يرتجف في قرارة نفسه لتـوقعه الموت، خاصة بسبب انه لم ينفـذ خطتـه التي نـاضل من قبل في سبيل تحقيقهـا، وذلك فيما يتعلق بزيارة فلسطين، فلهـذه الغاية كان قد صنع شمعدانـاً وزنه عشرين رطلاً من الذهب، أعده كتقـدمة للكنيسة هناك، وبما انه كان وقتـذاك في حالة مستعصية على الشفـاء، استدعى رجـلاً مقدساً، وكـان راهباً من بـامفيليا Pamphylia، وسألـه أن يطلب لـه الـرحمة الـربـانية بـالصـلاة طـوال الليل، ولقـد قيل انـه بينما كـان الـراهـب مكـرسـاً نفسـه للصـلاة سمع أصوات غنـاء، وانبعث ضوء رؤي مـن مكان مـرتفع، وكان هنـاك شاب رباني أوقف روحه المضطربة، وهكذا كانت هذه القضية.

ولدى شعور الامبراطـور انه في حالة ميؤوس منها، أمـر بحضور النبلاء، مع جميع من عدّ بين الأعيان وأمراء الجيش، وخاطبهم كما يلي:

«أيها الـرومان الـذين اجتمعتم للمشاركـة في هذا المجلس معي، لقـد رأى عدد من أباطرتنا مع كثيرين انه من المناسب نقل منصب الحاكم إلى ابنـائهم بمثابـة عمل توريثي، وأنـا نفسي أعلم انه لهذا تسلمت السلطـة من أبي الامبراطور، وكل واحـد منكم يعلم ان الشيء نفسه قـد تمّ صنعه

من قبلي في هذه الحالـة، وبناء عليه اعرفوا، انني أنـا الذي وصلت —كما ترون— إلى نهاية هذه الحياة الحاضرة، قد نقلت المنصب والعرش إلى أكبر أبنـائي البـاقين لي، وذلك تماشيـاً مع عـادات بني البشر، لكنني شـديـد الاهتمام بموقفكم، إذا كان الأمـر يتعلق بأي واحد من الاثنين، فيما يخص السمات الصحيحة، انني سأختار كل من لايبدو معـارضاً لرأيكم ولرأيي، لأنني أرى انـه لـن يكـون مفيـداً، لاللمعطي ولاللمتسلم، إذا مـا تـولى موجه الـدفة اغراق السفينة بالجهـل، حتى وإن كان سيهلك مع العطية، ولن يستطيع إقـامـة ادعـاء ضدّ المُعطي، انـنـي أقدر ان هـذا بـلا ادراك، وجهل في تقديم الأعطيات، وعمل غير سليم بالبتة.

لهذا انني شخصياً أعطي الأفضلية لما تقدرونه، وهاكم البرهان التالي:

انتبهوا، لفـائدتكم، بقدر مـايحتاج الأمر من سرعـة، انني جاهـز للقيام بعمل مضاد للطبيعـة، إن ولديّ كلاهما جيد، وأحـدهما متقدم على الآخر بالسن، لكن المنطق الصحيح يرفض الأسن، ويطـالب بالأحسن، ويقول إن الجودة تتـوافق مع الجودة، وهذا الصراع في جميـع الأشياء صعب، إنـه صعب أن تحصـل على الأفضل، وبما أن الانســان يــود أن يعين الجزء الأفضل للشخـص الأفضل (لأنــه مـــا الـــذي هـــو أعلى من شرف الامبراطوريـة؟) إنني أرغب، ياجنـودي، أن تكون الجودة التـامة خـاصة بـالابن الأكبر، لكن القرار ينظـر نحـو الأصغر، ويشير معيـار الامبراطوريـة بـالحري نحـو الآخـر ولادة، إننـي لست مـرغماً على الخوف من أن مـاأراه متأثراً بالتفضيل، فأنا أحب ولديّ تمامـاً بالقدر نفسه، وما من واحد منهما متقـدم على الآخر بـالأفضليـة، ولهذا إن هذا القـرار فيما يخصهما ينبغي أن يوكل إليّ أكثر من أن يعهد به إليكم.

وما سأقوله ينبغي أن نتفحصه بكل دقة معاً، ماأعنيه هو:

يـاترى عنـدما يكـون ولـد أفضل من أخيه، ووضع على العـرش، هل

برهن قط على أنه أدنى، أنا نفسي لاأشعر بالثقة حول ان الإثرة قد أبعدت تماماً من خططي، كلما تعارضت مع الكفاءات، ذلك انها كافية لافساد كل قرار، وبناء عليه هل ترغبون في أن ألقي على مسامعكم سماته ومؤهلاته، ومن ثم أنتم تتخذون القرار؟ إنه لواضح لكل انسان كم يمتلك من القوة والقدرة والشجاعة في أعمال الحرب، إن في أحداث نو—قيسارية براهين على مصداق ماأقوله، فعندما كانت أوضاع الرومان آيلة بوضوح إلى التلاشي، قام باستردادها واعادتها، وإذا كان يكفي الاستشهاد عنه بما يعرفه والده فقط فاسمعوا: غالباً، عندما كان البقية في ضياع، كان يظهر لي متماسكاً وصحيح المشورة، وذلك كان كلما عانيت من مصاعب شؤون لاتعدّ ولاتحصى، ولقد كان دوماً قادراً على رؤية العاصفة المقبلة، وبارعاً في تجنب الزوابع وفي مواجهة الرياح العاتية، ويمكننا أن نسوغ أمر اعتبارنا له أمام الآخرين، بحكم أن قرار الرب قد وقع على الأصغر، خذوا بعين التقدير كيف أن ألكسيوس قد جرى استدعاؤه إلى العرش من قبلي، وأعلن القرار ونشر قبل عدة سنوات، لكن الرب قد كشف لي للتو، في اللحظة الأخيرة التي توفي فيها، وأخذ بعيداً ذلك الرجل الشاب من بيننا، وسأخبركم أيضاً ببعض المعطيات التي كشفت فيما يتعلق بقدرة [مانويل] الحالي، باستثناء انني متنبه إلى أن هذه الأشياء ينظر إليها بشكل غير معقول من قبل الجمهور، لأنه مامن شيء أسهل إثارة لخواطر الناس من حكايات الأحلام ونبوءات المستقبل، وكل ماكنت قادراً على معرفته بالنسبة لابني قد رويته أنا نفسي. والآن جاء دوركم لاضافة ماترونه».

وما ان قال الامبراطور هذا، حتى وافقه الآخرون بالسرور، والبكاء، وقام الشاب (الذي أحب والده أكثر من أي شيء آخر) احتراماً منه لقوانين الطبيعة، بالانحناء ووضع رأسه على صدره، وغسل الأرض بدموعه، وبعدما لفّ برداء أمير الجيش، ووضع على رأسه اكليل من

الماس، تمّ إعلانه امبراطوراً من قبـل الجيش أجمع، وعاش الامبراطور جون بعد هـذا لعدة أيـام، ثم غادر هـذه الحياة، وكان قـد حكم الـرومان لمدة خمس وعشرين سنة وسبعة أشهر (كذا) معاً، وقد توفي في اليوم الثامن من الشهـر الذي يـدعـوه الاغريـق Xanthikos ، أي نيسان عنـــــد الرومان [١١٤٣] (٣٠).

الكتاب الثاني من تاريخ الرومان

١ - لندع روايتي عن أعمال الامبراطور جون تتوقف هناك، وكان الامبراطور مانويل الذي تسلم الصولجان مايزال شاباً، قد بدأت لحيته بالظهور، ولم يكن هياباً من تحمل أعباء السلطة، كما انه لم يسمح لأي شيء أن يكون متراخياً، وبما أن أخاه اسحق كان آنذاك في بيزنطة، راودت الحشود شكوك، انه لن يتمنع عن إحداث ثورة، وحيث انه كان بطبيعته ميالاً للخصام، تحركه الانفعالات وتقوده، فإنه لابدّ وأن يجد مسوغاً يتمسك به من أجل الثورة، ومع هذا لم يول مانويل ذلك أدنى اهتمام، فقد مكث مدة ثلاثين يوماً كاملة في ذلك المكان بعد موت أبيه، ولم يغادره حتى أكمل بشكل لائق الطقوس المتعلقة بأبيه (وذلك بالاضافة إلى أشياء أخرى منها تأسيس دير في البقعة التي أسلم فيها روحه)، وأعدّ مايلزم من إجراءات أمنية بما يخص شؤون كليكية.

وكان قبل ذلك، أي بينما كان الامبراطور جون مايزال حياً، كان الانطاكيون قد شرعوا بالتملص من سلطته، وقد بعثوا إلى الامبراطور مانويل يطلبون منه مغادرة حدود الأراضي التي أعلنوا أنها تعود بملكيتها إلى مدينتهم، وهي الآن متملكة بالقوة وبشكل غير عادل من قبل الرومان، ولقد كان هذا ماقالوه غير ان الامبراطور تصدى لهم وأجابهم قائلاً مايلي في دفاعه:

«من الواضح لكل انسان، أيها الرسل، ان الانطاكيين لم يعانوا من أيّ ضرر صدر عنا، وإذا سرق الانسان شيئاً ما من الآخرين، عندها من العدل أن يعيد إلى الآخرين ممتلكاتهم، وعلى هذا لماذا لم تتخلوا عن

انطاكيـة للرومان مـن قبل، بل استـوليتم عليها بـالعنف وسلبتموهـا من أبي؟ ألم يستول عليها الترك أولاً عندمـا كانت مملوكة من قبلنـا، ثم ماهذا الـذي تطلبون تسلـم ملكيته منـا؟ ألا تطلبـون مدينـة انطاكيـة؟ إنها أولاً كـانـت مملوكـة مـن قبـل دولتنـا (١)، وإذا كنتـم لاتستحون مـن خـرق اتفاقـاتكم، لماذا أتيتـم لتتهمونـا بالاعتـداء على حقوقكـم، في حين نحن الـذين ينبغـي أن نطـالـب بتصحيـح الأمور منكـم؟ لكـن ستكون هنـاك فرصة منـاسبة لعرض مانحـن بصدده من مسائل، والآن آمـركم بمغادرة ماليس عـائداً إليكم، وإنني سأزيـد —ولن أنقص— ماوصـل إلى يدي من أبي».

لقد كـان هذا ماقـاله للرسـل. وحمل جثة أبيـه على كتفه، وقام يعـاونه النبلاء بـأخذهـا بوسـاطة مسيرة، إلى السفـن التي كـانت متـوقفة في نهر بيرامـوس Pyramos [سيحـان]، وكـانـت هـذه السفـن ستعبر مـــن خلال موبسـوستيا Mopsueistia ومن ثـم تأخذ طريقهـا إلى البحر، وعندمـا انطلقت الـدرمونـات [سفن حـربية] إلى البحـر من هنـاك، أمر بإزالـة المعسكر وتـولى بنفسه قيـادة الجيش، وزحـف غير هياب في وسـط أراضي الترك(٢)، واندهـش الترك رعباً، وكـانوا معجبين بسرعـة اندفـاعه الزائدة، ولـذلك لم يتجـرأوا على التصدي للـرومان، وسـار الرومـان وسط بلاد أجنبيـة كما ولو أنهم كـانوا يعبرون أراضيهـم الخاصة بهم، ولم يمـض وقـت طويـل حتى وصـل إلى الأراضي الرومـانية، ووصلـت السفن التـي حملـت بقـايـا الامبراطـور إلى أرض بيـزنطـة، وخـرج أعيـان(٣) الـرومـان لاستقبـالها بشكل رائع، ونقلـوا هذه البقـايـا إلى الديـر المقدس، الـذي —كما سلف القـول— قد أقـامته الامبراطـورة ايريـن من قبـل على اسم البانتوكراتور Pantokrator.

وكان الامبراطور مانويل مشغولاً بـرحلة العودة، حيث انه لم يكن يعلم شيئاً فيما يتعلـق بالسيباتوكـراتور [أخيه اسحـق]، فإن الذين عهـد إليهم

من قبل بشؤون الامبراطورية قد أوقعوه في شراكهم بخداعه، وذلك على أساس انه كان يخطط لاغتصاب العرش، ولذلك سجنوه في الأفنية الخاصة بالبانتوكراتور، ولم تحصل فائدة من هذه الخطة وأخفقت، وحمل اسحق مشاعر سيئة نحو بعض الذين كانوا مع مانويل، ولاسيما نحو الذين كانوا يديرون المراكز السامية، وكان من الممكن أن يقوم بالحاق الضرر بأهليهم وحواشيهم في بيزنطة، وفكر مانويل في الحقيقة في كيفية منعه ببراعة من تلك المحاولة، وهكذا ارتأى أن من الصواب ارسال مراسيم إلى بيزنطة يتهم فيها أولئك الرجال [مؤيدي مانويل] بتهمة الخيانة، ولذلك عاقبهم بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وخيل إليه انه بهذه الطريقة سيفترض السيباتوكراتور أن هؤلاء الرجال قد تآمروا لصالحه هو ذاته كامبراطور، ولهذا سيرعى مصالحهم بشكل أفضل، حتى يكون قادراً على كسبهم ونيل مساعدتهم.

٢- لكن درجات العقلانية جاءت كلها بلا محصلات مغيّرة ، وبدون حاجة إلى مواجهة تقديرات الناس، لأن مانويل كان قد نوى هذه الأشياء، وقام بالكشف عن خططه للذين من حوله، وبالنسبة لكل من أخيه اسحق، وعمه، كان كما أسلفنا القول أولهما محافظ عليه ومحروس داخل الدير، وكان الآخر مقيداً بقيود حديدية، وكان عم الامبراطور مسجون من قبل أبيه، أعني أنه كان مسجوناً بأمر من جون في هرقلية [ايرغلي] (٤) البنطشية، وكان اعتاد أن يعيش هناك بشكل لائق، وذلك بعدما كان قد نفي من قبل أخيه الامبراطور عندما كان على قيد الحياة، وبسبب مؤامراته ورغباته بالعرش مابرح ينقل من هذا المكان إلى ذاك، إلى أن وصل إلى حالة التعاسة هذه بالسجن بقرار من قبل الذين كانوا مسؤولين آنذاك عن بيزنطة، وذلك بعدما عرفوا أنه ينوي الثورة مجدداً، ولكن —كما قلت— جعلت الحكمة طريق الامبراطور إلى السلطة ليناً، فما ان وصل مانويل إلى بيزنطة، وعلم بهذه الأشياء التي تخص

السيباتوكراتور حتى بادر على الفور إلى استدعاء أخيه، فعانقه وحياه بطريقة أخوية، ثم استدعى عمه من المنفى، وألغى التهم التي كان أبوه [جون] قد عاقبه من أجلها من قبل بالنفي، وطلب منه المسامحة، ثم بعدما أعطى الجيش المال، أرسله إلى الوطن، ومنح كل بيت في بيزنطة قطعتين من الذهب.

وبسبب أن القسطنطينية كانت بلا بطريرق، رفع إلى عرش البطرقية ميخائيل الثاني كوركواس، الذي كان راعياً لدير قائم على الجزيرة التي يدعونها أوكسيا Oxeia [«شارب» سيوري أدا الحالية] وذلك اعتماداً على مظهرها(٥)، وامتلك حسبما قالوا ثقافة عامة بسيطة، وتعليماً دنيوياً برأس اصبعه، ولكن بالنسبة لأوليات الأخلاق ودراسة الكتابات المقدسة لم يكن أدنى من أحد من المرموقين بالمعرفة في تلك المنطقة، وبيديه توج فيما بعد مانويل بالتاج الامبراطوري في الكنيسة، ثم إنه بعدما قدم مائة وزنة من النقود الذهبية ووضعها على المذبح، غادر مخلفاً الشهرة بكرمه، والتعظيم في فم كل انسان، وأمر منذ ذلك الحين فصاعداً بمبلغ سنوي قدره مائتي وزنة من الفضة من القصر إلى رجال الدين، وقد دعوا هذا: المال الاضافي.

٣- هكذا كانت بداياته في المنصب، وبما انه كان متشوقاً للانتقام من ريموند أمير انطاكية، بسبب جرائمه التي اقترفها ضدّ أبيه (ولأنه لم يقم بعد بفرض الغرامات المستحقة عليه، ولأنه كان بالطبع مشغولاً بأمور أعاقت زحفه) أرسل قوة ضده بالبر والبحر [حوالي١١٤٤] (٦)، وقاد هذه القوة أندرونيكوس وجون اللذان أرجعا نسبيهما إلى الكونتو ستيفانيو Kontostephanoi ، وكان معهما برسق(٧) الذي كان ضليعاً في فن الحرب، وقاد القوة البحرية ديمتريوس الذي كنيته براناس وعندما وصل برسق والكونتوستيفانيونين حدود كليكية، استطاعوا خلال مدة وجيزة أن يستردوا الحصون التي كان الانطاكيون قد سلبوها من الرومان،

ودخلوا في مواجهات مع ريموند فأرغموه على التراجع، وقتلوا عدداً كبيراً من أتباعه، لكن كيف حدث ذلك؟ هذا ماسأبينه لكم:

عندما استولى الرومان على الحصون المذكورة، اقتربوا من مدينة انطاكية بلا مقاومة، معاملين كل ماوجدوه أمامهم بمثابة غنائم من المسينيين(٨)، وعندما رأى ريموند الرومان يقتربون، بقي هادئاً خلف الأسوار، وبعدما قاموا بالاستعداد زحفوا من هناك (لأن ما أمن أحد تقدم ضدهم) ثم قام هو سراً باتباعهم عازماً على مهاجمتهم من الخلف، ووصل الرومان إلى بقعة رأوها مناسبة لامضاء الليل،فأقاموا معسكرهم هناك، وبعدما مركز ريموند جيشه في مكان مناسب، زحف مع عدد صغير من رجاله ليتجسس ويستطلع أخبار العدو، ولم ينج اقترابه من ملاحظة الرومان، فقد تصدى له بعض الذين كانوا قد خرجوا لجمع المؤن والأسلاب، وكان ذلك غير بعيد عن المعسكر، ولذلك أسرعوا باخبار القادة، وبما أن الوقت كان ليلاً، أقاموا الحرس وانتظروا، وعندما لم يكن اليوم التالي قد جاء، وقبل انبلاج الفجر، عادوا، وخططوا للانقضاض على الذين كانوا مايزالون معسكرين مع ريموند، لكن ريموند لم يكن بالانسان غير الحذر، ففي أول الفجر، وبعدما عمل مارآه لائقاً مع أتباعه، تركهم هناك، وزحف هو للاستطلاع، ودون أن يتوقع سقط أمام الرومان، فأدار ظهره وفرّ، وبعث إلى بقية جيشه يأمرهم بالانطلاق من هناك بأقصى سرعة ممكنة، غير أن القوات الرومانية وصلت بسرعة مساوية، وطاردتهم وأوقعت بهم مذبحة كبيرة، واستمرت المطاردة حتى أبواب انطاكية، وأحاطوا بالعدو بصعوبة حتى أن ريموند نفسه دخل إلى المدينة خلال الليل.

وما ان أنجز الذين كانوا مع برسق كل هذا ضد ريموند حتى انطلقوا نحو كليكية، هذا ووصل آنذاك ديمتريوس براناس مع الاسطول فنهب المنطقة المحازية للبحر، وأخذ حشداً كبيراً من الرجال أسرى، وأحرق

كثيراً من السفن المحلية التي كانت راسية عند الشاطيء، حتى أن واحداً كان يجمع الأموال العامة لهم وقع أسيراً بأيدي الرومان، وعندما سمع ريموند بهذا، جاء إلى هناك وهو عظيم الحنق، لكنه عندما لاحظ أن السفن الرومانية قد أقلعت من هناك، عاد خائباً، وحيث أن البحر لم يكن موافقاً للرومان، فانهم احتاجوا إلى عشرة أيام للملاحة في تلك المنطقة، وعندما قلّت لديهم المياه، تقدموا نحو الساحل بشكل غير متوقع، ونزلوا إلى اليابسة فهزموا العدو، ونهبوا اثنين من الحصون الساحلية، وملأوا سفنهم بالقدر الممكن من الخمر وماء النهر، ثم واجهو ريحاً طيبة فأبحروا نحو قبرص.

وأرغمت هذه النوازل ريموند على الرحيل إلى بيزنطة [١١٤٥]، وعندما وصل إلى عند الامبراطور لم يوله في البداية أدنى انتباه، وذلك حتى استجار بضريح أبيه الامبراطور، وهنا كسب عفوه، ثم أصبح ريموند واحداً من أتباعه(٩).

٤-وتزوج في هذه الآونة [كانون الثاني١١٤٦] الامبراطور من [بيرثا—] ايرين [السولزباكية Sulzback] التي كانت مخطوبة له قبل أن يكون امبراطوراً، وهي فتاة قريبة من الملوك، ولم تكن أدنى من أي فتاة أخرى في محاسن الأخلاق القويمة والروح(١٠)، وفيما يلي ماروي عنها:

عندما وصلت للمرة الأولى إلى بيزنطة[١١٤٢] التقى بها عدد من النساء النبيلات المتميزات، وكذلك الفتاة التي كانت متزوجة من الامبراطور ألكسيوس [أكبر أبناء جون] وكانت [بيرثا] مرتدية رداء من الكتان، وبالنسبة للأخرى فقد كانت ترتدي ثوباً أرجوانياً موشى بالذهب، هذا وجعلها لون ثوبها الأرجواني الداكن تلاحظ من قبل القادمة الجديدة، فاستوضحت على الفور من الواقفات هناك سائلة:

من هي هذه الراهبة التي تتكلـم بشكل فيه أبهة عظيمة، وبدا أن هذه الاشارة ليست طيبة أبداً بـالنسبة للمستمعين، ولقد جاءت الخاتمة مسرعة ليس بعد وقت طويل(١١).

وشغلـت منطقـة آسيا القـائمـة عبر المضـائق [البوسفـور] الامبراطـور، الذي كان يبحـث عن كيفية جعل حـدود بيثينيا بإمكانها أن تتـوقف عن كونها نقـاط دخول بـالنسبة لأمة الترك، ذلـك انه بحكـم أن التحصينات التي كانت تصـد فيما مضى أعمال خرق البرابرة قد أهملت رعـايتها، فقد غدت تلك المنـاطق هناك منافـذ سهلة لوصول الترك، لكـن في السنوات الأخيرة بات هذا أكثر أعمال الامبراطور الطموحـة فائدة، حيث أقام عدداً من المدن هنـاك، وقرر في هـذه اللحظة انشاء حصـن في المنطقة المعـروفة باسم ميـلانغيا Melangeia [أو ملاغنيا على سكاريـا شرقي ازنيق] (١٢)، وبينما كان هذا العمل جـارياً، روي له أن مرضاً متقدمـاً يوحي انه وبـاء لايمكن التغلـب عليه قـد أصاب مـاريا الابنـة الأكبر للامبراطـور جـون، التـي كـان القيصر جـون روجـر(١٣) قد تـزوجهـا وبعـدمـا أقـام الامبراطور مـافيه الكفـاية في المكـان لإكمال الأعمال، أخذ الطـريق نحـو بيزنطة.

لكن في الوقت نفسه كانت قضت قـدرها، وكانت سيدة رفيعة النفس كثيراً، كما وكـانت ذات مظهـر معبر تماماً. وبـوصولي إلى هـذه النقطـة في روايتي، جئت إلى ذكـريات تتعلق بأعمال هذه المرأة التي مـاتزال تستحق الاعجـاب، لأنهم قالـوا إن القيصر روجر رنـا ببصره على الامبراطوريـة، في الساعـة التي تلـت وفاة الامبراطور جـون، فقبل أن تستقبـل القسطنطينية الامبراطور الجديد، أحـاط نفسه بعدد كبير من الميليشيـات الأخرى، وربح بشكل خاص إلى جانبـه رجلاً ايطالياً، وكان من أبناء جلدتـه من جانب أبيه، وذلـك مع أتباعـه الذين بلغ عـددهم أربعمائة، وكان هـذا الايطالي متميـزاً ومشهوراً بنسبـه، إنه روبـرت أمير كابـوا Capua ، وهي

مدينة ايطالية كثيرة السكان ومزدهرة، وكانت مناسبة اقامته في بيزنطة كما يلي:

كان روجر الثالث، الذي كان وقتذاك الطاغية المتصرف بصقلية، والذي سنقدم عنه مادة كبيرة في الكتب التالية عندما سنكتب عن الحروب الايطالية، كان شديد الرغبة في تملك امارة كابوا، وضغط بالحرب كثيراً على أميرها، الذي عندما قهر من قبل، أخذ الطريق إلى بيزنطة، وبناء عليه لقد كان هذا ماصنعه القيصر جون روجر، وبعد جهود مضنية اقتنعت زوجته انه مصرّ ومتشوق إلى اغتصاب العرش، ولن يتزحزح عن غايته مهما حدث، فاستدعت إليها الذين كانوا مسؤولين عن الشؤون العامة، وأخبرتهم بالقضية، وقالت لهم:

«إما أن تسلموا أنتم لي زوجي، أو تتولون القيام بما يحفظ المملكة لأخي»، ولقد كان هذا ماقالته، لكن لسبب يبدو تعلق ببعض الأشغال أخذوا القيصر بالخديعة تماماً، وحملوه إلى إحدى الضواحي قرب بيزنطة، وعندما وصلوا إلى ذلك المكان، تركوه يقيم هناك ثم عادوا إلى المدينة.

٥- هكذا كانت ماريا، وعندما روي خبر مرضها إلى الامبراطور، توجه إلى بيزنطة، وعسكر بعد وقت قصير[١١٤٦] في السهول القريبة من ريندا كوس Rhyndakos [أورهانلي] حيث وجد حصناً كان الامبراطور جون قد أنشأه منذ وقت قريب، وكان اسمه لوباديون Lo-padion [أو لابات قرب قراكابي]، فهذا ما أطلقه عليه العامة(١٤)، وجمع هناك جيشاً، لأنه نوى غزو الأراضي التركية، ذلك أن الترك كانوا في الوقت ذاته قد خرقوا هدنتهم مع الرومان، ونهبوا براكانا Prakana واستولوا عليها، وهي مدينة ايزورية تقع إلى الغرب من سلفكي(١٥) Silifke، وأنزلوا كثيراً من الأضرار الأخرى بالرومان، وبعدما استعد بقدر الامكان، انطلق من هناك، وتقدم مسرعاً،

عاقداً العزم على تـدميرهم من الشبـاب فصاعداً، وذلـك عندمـا ينقض عليهم بشكل مفـاجيء، ويأخذهم على حين غرة، ومهما يكـن من أمر، لم يخفق تماماً بخططه، وفي الحقيقة لم يستخدم يديه في ذلك الصراع، لأنه بعدما عاث بشكل سريع بميسيان أوليبموس Mysian olympus [أولوداغ] ووصل حتى بيثيكاس Pithekas (١٦)، حيث أنشأ حصناً قـوياً، زحف أثناء الليل خلال الجبال هنـاك، التي هي عـالية لا بل بالحقيقة شاهقة(١٧)، ونـامية أكثر مـن اللازم، وعنـدما امتلأ رأسـه من الضباب المنبعث فوق الأشجار، سقط فجأة، وكان غير قادر على النهوض ثانيـة، وقد بقي حتى حوالي منتصف الليل بدون وعي، غير أنـه تحسن بعد ذلك قليلاً، واستعاد وعيـة في اليوم التـالي، ومع ذلـك بقي هـادئاً، وأرسل شطراً منـاسباً من الجيش، أرسلـه على كل حال مع القـادة لتنفيذ واجباتـه، وعندما اصطـدموا بقوات العـدو على مقربـة من هناك، تفـوقوا عليه بالقتـال، ولذلك استحوذوا على كميـات هائلة من الغنـائم، وعادوا من هناك مع دلائل النصر. ولقد كان هذا ماأنجزه الامبراطور.

وانقـض الترك، الـذيـن أعدوا حملـة كبيرة، آنـذاك على أراضي تـراقيـة [بندتراقية في وسط غربي آسيـا الصغرى]، ولم يكن هناك من يتصدى لهم (ذلك أن تيودور الذي كنيته كـونتوستيفانوس Kontostephanos ، الذي أرسل لهذه الغـاية إلى هناك من قبل الامبراطور، لم يكـن قد تمكن من جمع جيـش حتى يحافظ به عليـه)، ومضى الترك ينهبون وصـولاً حتى إحدى المنـاطق القريبة مـن البحر التي اسمها كلبيـانون Kelbianon [وادي كيستر Csyster] (١٨)، وعـادوا وهم يسـوقـون أمامهـم أسـلاباً كثيرة،وعنـدمـا سمع الامبراطـور بهذا لم يستطـع أن يحبس نفسـه، فبعدمـا أجرى استعداداتـه بكل سرعة، وانطلق بسرعـة وافية نحو قـونية، قام بـاخبار السلطان (مسعود) صـاحبها برسالـة، وجاء نص الرسـالة كما يلي:

«نحن نرغب أن تعلم أنك اقترفت أشياء أثارت هجومنا عليك، فأنت نفسك الذي سلبت منا براكانا Prakana، التي ليست عائدة إليك، وأنت نفسك أغرت مؤخراً على الأراضي الرومانية، كما أنك لم تتمنع عن المقاتلة بالطريقة نفسها مع يغي —بسان [بن دانشمند] (١٩)، الذي هو حليف الرومان، ومع عدد آخر كبير من المقدمين هناك، إنك رجل عاقل، وعليك أن تدرك أن الرومان لن يسمحوا لأنفسهم بالاغضاء عن هذا، ويبقى، أنك ينبغي —بعون الرب— أن تدفع الغرامة لهذا مرات عديدة، وعليك إما أن تتوقف عن هذه الحماقات، أو أن تكون مستعداً بالحال لمقاومة الرومان»، هكذا على هذا الشكل كانت الرسالة، وبعدما قرأ السلطان الرسالة أجاب كما يلي: «تسلمنا رسالتك أيها الامبراطور العظيم، وقد أعددنا أنفسنا حسبما أمرت، ثم يتوجب عليك أن تأمر زحفك ألا يؤخرنا بطول الاتصالات، ويبقى فيما يتعلق بسير الأمور، فتلك ستكون مسؤولية الله ومسؤوليتنا، ولتكن فيلوميلون Philomilion [أق شهر الحالية] المكان الذي سنتصادم به، لأننا معسكرون هناك في الوقت الحاضر».

على هذه الشاكلة، وبصورة عامية متدنية، ردّ السلطان على الامبراطور، وقد بقي السلطان مع الجزء الأكبر من الجيش التركي هناك في فيلوميلون، حيث كان معسكراً من قبل، وكان قد انتقى بعضاً من جيشه، وأرسل هذا البعض لاعتراض تقدم الرومان، واشتبك الترك لوقت قصير مع الامبراطور، وكان ذلك قرب مدينة أكرنوس Akrounos [أفيون— قراحصار الحالية]، وكان الامبراطور معسكراً في مكان يدعى تل كالوغرايا Kalograia ، وعانى الترك من هزيمة ساحقة، وعادوا مثل اللاجئين إلى السلطان، وكان بين الذين باتوا طعمة للسيف الحيري(٢٠)، وكانوا مشهورين بين الأتراك، وأصاب الرعب السلطان، بسبب الفاجعة، ولذلك لم يبق في

المكـان لتحضير أي شيء، أو التحضير لأي شيء ضروري، بل غـادر فـاراً من هنـاك، ولدى معرفـة الامبراطور بذلـك عزم على الاستهزاء بـه، لتهوره السالف ولخذلانه وجبنه الكامل فيما بعد، فكتب إليه كما يلي:

«عليك أن تفهم أيها السيد الشريف التالي جيداً: إنه مهما بلغت درجة عارك بسبب جبنك، لقد ازددت عاراً بسبـب قحتك التي تقدمت ذلك، ثـم إن ذلك لم يمكـن رحضه مـن قبل الآخـرين في القتـال، وحيث بـدا وكـأنك نسيـت تمامـاً فخـارك المبكر، ولم تقـم وزنـاً لما كتبتـه مؤخـراً إلى امبراطـوريتنا [بيـزنطة التـي هي مصـدر جلالتنـا] بل هـربت إلى حيـث لاأدري، انتبه إننا نذكرك: إذا كنت لـن تنتظر قدومنا إلى فيلوميلون حسبما أعلمتنـا يبقـى على ذاتـك الشريفة والكـريمـة أن تسرع وتتجـاوز دنـاءة جبنك». مثل هذه الكلمات كانت برسالته.

ووصل الامبراطور إلى فيلـوميلون، واستولى عليها عنوة، وأحـرقها جميعاً، وقد وجد هناك بعض الرومان الذيـن كانوا في الاعتقال منذ وقت طويل، فحرر البؤسـاء هؤلاء من أغلالهم، وسمح لهم أن يروا النـور والحرية، وكان الترك عنـدما اقترب الامبراطـور أولاً واثقين من قـوتهم، فقـرروا عدم نقـل هؤلاء الرومان إلى أي مكان آخر، لكـن عندما أرغمهم الخوف، ليس فقط لم يعيروا الأسرى الرومان أي انتبـاه، بل عدّوا أن ممتلكاتهم أقـلّ قيمة من أن ينظروا إليها.

وعندما أحضرت الرسـالة إلى السلطان، إما انه شعر بـالارباك، أو كان يخطط لشيء آخر، لذلـك تراجع، ووصل بسرعة إلى مكان يـدعى بالتركية أندرخمان(٢١)، وعسكر هناك وعندمـا سمع الامبراطور بهذا قام على الفور بصف جيشه، وعبر مدينة أدرنة (لأن ذلك الاسم انتقل إلى ليكونيا Ly-konia نفسها) وعسكر في مكان يـدعى غيتا Gaita [أكيت](٢٢)، وعبـأ في اليـوم التـالي قـواته [لأن الجيشين كـانـا معسكـريـن على

مقربـة] وزحف، وعندمـا اقترب من الترك، بدأ القتـال، ولم يستطع الترك الصمود أمـام هجوم الـرومان، فانعطفـوا للتراجع، وطـاردهـم البيـزنطيون وقتلوا بعضهم وأخذوا بعضهم الآخر أسرى.

ولم يتـوقف السلطـان عـن الفـرار حتى وصـل في فـوضـى إلى قونيـة، فاندفع إلى داخلهـا واعتصم خلف أسوارها، وما ان شعر بـالسلامة حتى تصور خطة كما يلي: هـو لم يتجرأ على البقاء في الداخـل، خشية أن يصبح محاطـاً به مـن قبل المحـاصرين الـرومـان، فذلـك سيجعله عـاجزاً عـن الظهور، وبشكـل عام، وبـدون أن يعرف إلى أي نقطـة من الحظ ستصـل نهاية الحرب إليها، فقـد ارتأى انه غير مفيد لـه أن يعاق في مكان محاصر، ولهذا وضـع قسماً مـن جيشـه شحنـة في المدينــة، ثـم شطـر المتبقـي إلى شطرين، حيـث مركز أحد الشطـرين على السفوح خلف المدينـة، وأبقى الشطـر الآخر معـه حيث قـاده صاعـداً نحو اليمين، فقـد اعتمد بشكـل خـاص على قـوة الجبـل الممتـد بين قونيـة وحصـن قبـالـه Kabalh (٢٣).

٦- وكان الترك على هذه الوضعية، وعندمـا وصل الامبراطور إلى قباله، كان متحمسـاً حماساً عظيماً، وشـديد الـرغبة في مهـاجمة السلطان، ونظـراً لأنـه كـان في البدايـة غير قـادر على الفـور معـرفـة أين يمكـن أن يكـون مسعود، تمهل قليلاً وتريث عن الهجـوم، وبوساطة الخبرة العسكرية لاحظ أن مسعوداً كان يقود الفرقة المتمركـزة على يمين المدينة، (لأن مانويل كان في هذه المسـائل أبرع من أي واحـد آخر) وقام على الفـور بامساك حـامل الرايـة، وسحبه بـوساطـة المقود، وأداره نحـو تلك الفـرقة، وعنـدما تـردد الجيـش الرومـاني، ونظر إلى الحركـة بدهشـة كبيرة، وتساءل لماذا عليـه أن يرغب بالمغـامرة بشكل غير حذق وضدّ مثل هـذه القوة غير المتفوقة (لأن انعدام ظهور ذلك الجيش قد أدهشهـم، وبناء عليه اعتقدوا أن هؤلاء هم مقدمة الفيلـق الذي كان مع السلطان، والذي ربما كـان مختفياً في مخابىء

الجبل)، ولأن الرومان كانوا هكذا مندهشين، خفف الامبراطور من اندفاعه قليلاً وقال: «أيها الرومان لاتدعوا حيل البرابرة تحول قوة انتباهكم إلى خوف، وبما أنه هناك نقص في الرايات في الجيش المشاهد أمامنا، عليكم ألا تتخيلوا أن الرايات في مكان آخر مع قوة أخرى، لأنني لاأعتقد بوجود فرقة أخرى من العساكر قد بقيت للأتراك،وأن راياتهم قد وضعت بالخفاء فوق هناك في الأماكن الكثيفة، وذلك بغية اخافتنا بمظهر وجود حشود، عليكم ألا تحتاروا وتندهشوا أمام البربري لعدده، بل عليكم ازدراء ضعفه، ولايتعايش الصدق بشكل طبيعي مع التخيلات، وعلى كل حال إنني سأنطلق مع أكبر عدد من الأتباع للاشتباك معهم فوراً، وعليكم أنتم بعدما تنظموا صفوفكم أن تلحقوا بي مع بقية الجيش، خشية الوقوع في كمائن العدو».

وما أن أنهى الامبراطور كلامه هذا، حتى اندفع للانقضاض على العدو، وتوضع هو نفسه على اليسار، لأن ذلك كان يواجه قلب جيش الأعداء، وحيث وجد أكبر عدد من خيرة الترك، واعتقد أن الترك فقدوا شجاعتهم أثناء سير القتال، فعندما رأوا سيوف الرومان اضطربت صفوفهم وتفرقوا في فوضى، وكل واحد كان راغباً في أن يكون أول الناجين من هناك، وراجت اشاعة أن السلطان كان موجوداً هناك، وأضاع الرومان وقتاً كبيراً بالانشغال في مطاردة الفارين وهكذا انشغلوا بهذا العمل.

أما بالنسبة للجيش الروماني الآخر الذي كان —كما قلنا— موجوداً في الساقة فقد زحف فوقع أثناء زحفه بكمائن غير متوقعة، فانعطف وأعطاهم ظهره، ثم قام الآخرون بالانقضاض عليهم، وأعني بهم الذين تشكلت منهم شحنة قونية، (فقد تشجع هؤلاء بسبب أن الامبراطور كان يقوم بعمليات المطاردة بعيداً عن قونية لذلك خرجوا مهاجين) وفعل الشيء نفسه الترك الذين كانوا متمركزين على السفوح خلف المدينة،

وبدأ الرومان يتخبطون وتدب بين صفوفهم الفوضى، وما ان سمع الامبراطور بهذا حتى بادر بارسال قوة من حرسه إليهم، عبر أسرع الطرق وقادهم بيرهوجرجيوس Pyrrhogeorgios ، وكان رجلاً نشيطاً وفعالاً، وهو الذي سيشرّف فيما بعد برتبة أمين البلاط(٢٤)، وقادهم أيضاً كوروب Choaroup، الذي كان من عبيد الامبراطور، وكان من الذين يرتدون الثياب الأرجوانية، ومجدداً كانت القوة المنهكة تماماً في وضع ليس أقلّ رعباً.

وقرر الامبراطور —الذي كان ذكياً جداً في ايجاد المحتاج إليه، وبارعاً في استنباط ماينبغي صنعه— أن المسألة تحتاج إلى المهارة أكثر من القوة، فاستدعى واحداً من الجنود، واسمه بمبتزيوتس Bempitziotes ، وأصله من أدرنة، وأمره أن يخلع خوذته من على رأسه، وأن يلوح بيده بها في الهواء في كل اتجاه من حوله، ليعلن للجيش مايشبه أسر السلطان، وعندما أنجز هذا استردت القوات الرومانية شجاعتها، ودفعت بالعدو إلى الخلف، هذا العدو الذي كان يضغط عليهم بشدة، فغالباً ماتفوقت هكذا خطة بارعة على قوى مضاعفة، ومهارة رجل واحد كانت أعظم قوة من عدد من الدروع.

ونظراً لحلول الظلام سريعاً، عسكروا هناك، وانطلقوا من هناك عند الفجر، وعسكروا قرب قونية، وبعدما أحاطوا بها، تصور مانويل انها بعيدة النوال، كما ان اشاعة راجت ذلك اليوم محذرة أن أمم الغرب، شرعت بحكم طباعها الموروثة عن أسلافها بالعصيان، وأنها ستقوم بغزو الأراضي الرومانية بكامل القوى، لذلك تخلى الامبراطور عن الحصار، معتقداً انه يحتاج وقتاً أطول، واستعدادات أعظم مما كان لديه في تلك اللحظة، وبعدما نهب وخرّب تلك الأحواز، غادر من هناك(٢٥).

وروي انه بينما كان كان الجيش الروماني يعيث فساداً في قبور الأتراك

خارج المدينة وينبشها ويخرج أكبر عدد من الجثث منها، لم يرغب الامبراطور، على الرغم من ضغط اللحظة بالاساءة إلى مكانة أم السلطان، فأمر بحفظ رمادها وبعدم ذروه، وأعلن باختصار أنه يتوجب على الرجال العقلاء الاستحياء لدى فواجع النبلاء، وقام بكتابة رسالة لم تكن بعيدة عن اللطف، وأرسلها إلى زوجة السلطان، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«نرغب إليك أن تعرفي أن ابن امبراطوريتنا(٢٦)، السلطان حي ومازال باقياً، ذلك انه فرّ من شدائد الحرب»، وكانت هي، على كل حال، قد أعدت حوالي الألفين من الأغنام وكميات كبيرة من الثيران، وأنواع أخرى كثيرة مما يؤكل، لتستقبل بهم الامبراطور وللترحيب به،لكن بما أن الجيش الروماني قام —كما سلف الذكر— باحراق أماكن السكن خارج المدينة، لم تنفذ مانوته. وهكذا كانت هذه المسألة.

وعندما شرع الامبراطور بالانسحاب، أرسل ثانية رسالة إلى السلطان، وقد جاء نصها كما يلي:

«لقد طلبناك مراراً، غير اننا لم نستطع التصادم معك، فقد فررت دوماً، وتلاشيت كما يتلاشى الظل، ولكي لانبدو كأننا نقاتل ظلالاً، نقوم الآن بالمغادرة، ونحن في طريقنا إلى الوطن، وسنعود إليك بالربيع باستعدادات أعظم، وعليك التنبه وعدم الفرار كلياً بطريقة غير لائقة بك».

٧- هكذا كانت الرسالة، ووصلت قوى كثيرة من الأتراك الذين سكنوا وراء قونية، ممن كانوا تحت حكم المرحوم ابن دانشمند(٢٧)، لقد وصلوا متحالفين مع السلطان، والتحقوا به، واعتماداً منه عليهم لم يرغب الآن بالفرار كما فعل من قبل، بل انه ما ان ضمّ صفوفه حتى سارع نحو قتال الرومان، الذين كانوا قد وصلوا إلى مكان اسمه [illegible]

البرابرة زبـريلزمـاني Tzibrelitzemani (٢٨)، وهو مكـــان كان الـوصول إليـه أصعب مـن أي مكان آخـر، ليس فقـط بالنسبـة للرجـال المنظمين على شكل صفوف، بل لم يكن من السهـل الجواز به للمسافرين على شكل جماعـات صغيرة، وكان الجيش يعـاني من مصاعـب جمة حول المعسكر، لكـن الامبراطور، مدفـوعاً بحداثـة سنه، وبما انه لم يمـض وقت طويل منـذ اتخاذه زوجة، رغب في ذاته في تحقيق شيء مـا خلال القتال، وذلـك تماشياً مـع عادات الـلاتين، لأن الـلاتيني الـذي اتخذ زوجة منـذ وقت قريب، إذا لم يظهر بمظهر النبل، لايجلـب نعمة عامة، ولذلك وضع في اثنين من الشعـاب الجبلية من على يمينـه وشماله جماعـات على شكل كمينين، وتألـف أول الكمائن من الـذين كـانوا أقـرب الناس إليـه نسباً، وكان بينهم أشد الناس لصوقاً به والذين تزوجوا من اخواته(٢٩)، وحوى الثاني على وحـدتين عسكريتين، قادهما نيكـولاس الذي كنيتـه أنجيلوس Angelus ، وكــان رجـلاً شجــاعـاً في العمــل ومـزوداً بكثير مـــن الشجاعة، وأمـرهما بالمكوث هناك هادئين حتـى يرياه يقوم بـالهجوم ضد العدو.

واستجـاب على غير رضى لطلبـات أخوه اسحـق وجـون [أكسوكـوس Axouchos]، دمستـق قوات الشرق والغـرب(٣١)، فمضــى معهما إلى بقعـة حيـث رأى بعـض الـرومـــان ذاهبين على شكـل جماعـات لجمـع الأعلاف، ووضع هناك سلاحه تحت ردائه خشية أن يعرف من قبل الترك نظراً لما تمتعـوا به مـن سمات استطلاعية بـارزة، وانتظر قـدوم بعض الترك الذيـن قد يأتـون لإحداث بعض الأضرار، لكن حيـث مامن واحـد منهم كان باديـاً له في أي اتجاه، بعث فأحضر واحـداً من جنود الرومـان واسمه بوبكـس (أبو بكـر) (٣٢)، وكان تـركي المولـد، وامتلك شجـاعة عظيمـة ونشــاطاً كبيراً، وأمـره أن يتقـدم، ويفتش بحـذر علّـه يـرى أياً مـن الترك يقترب، وانطلق على هـذا الأساس، وعاد بعـد قليل ليـؤكد انه لم يـر أكثر

من ثمانية أتراك، وهنا ترك الامبراطـور أتباعه في كمين، ومضى ومعه أخوه والدمستـق نحوهـم بأقصـى سرعة ممكنـة، وذلك بعـدما أراهـم أبو بكـر الطريـق، وغضب ختنه زوج أخته —الـذي تمّ تجاوزه— غضباً شـديداً، لأن كـل واحد منهـم، لابـل هم جميعـاً ربطوا أنفسهـم وأوثقـوها بـأيمان مخيفة، قضـت انهم سيلتحقون عـن صدق بـالامبراطور (الـذي لم يرغـب بذلك) ويساندوه في هذه المعركة، إذا كانت هناك معركة.

ولم يكن الامبراطـور قد اشتبك مـع الأتراك الـذين شوهـدوا، وقد تبين أن عـددهم حـوالي الثمانية عشر، وكـان متشوقـاً ومتحرقـاً لقتالهم، لكـن خشية منه أنهم ربما قد يهربون لأنهم كانـوا مجهزين بشكل جيد، (وحيث انه كـان مايـزال واقفاً بعيـداً عنهم لم يكـن قادراً على الاشتبـاك بهم عن قرب) فقد بذل جهـده كما يلي: أمر أبا بكر بالمضي حتى يكـون قريباً جداً منهـم، وعندمـا يرى انـه اقترب منهم، يفـرّ بكل مـا أوتيه مـن قوة حتـى يصبح قـريباً منـه، وهكذا فعـل أبو بكـر ماأمـر به، وعنـدما أخـذ البرابرة يطاردونـه، هرب، ولم يهرب هـروباً كـاملاً مـن العدو، بـل راوغه وأعطـاه بعض الأمل في أسره، ثم فرّ، وبذلك استدرجهم إلى قرب الامبراطور.

ومع ذلك لم ينجح الامبراطور نجاحاً كلياً في خطته، لأنهم ما إن رأوه، حتى غـادروا راكضين بسرعة أكبر ممـا أظن، ولكـن عندمـا التقوا بحـوالي خمسين آخـرين كـانـوا قـادمين من خلفهـم، تشجعـوا بسبـب عددهـم، وقـدروا ان بامكـانهم التصدي لـه إذا هاجمهـم، ومهما يكن الحال، فـإن الذين كانوا مـع مانويل عارضوا بشدة الاشتباك (لأنهم قـالوا: إنهم باتوا بعيدين جداً عـن الجيش)، ومع هذا لم يضع الامبراطور الـوقت بل هجم بسرعة قصـوى، ورافقه السيباتـوكراتور [أخـوه اسحق] وركب محازيـاً له، لكن عنـدما لم يعد قـادراً على التقدم —لأن فـرسه كان منهكـاً— تخلف وراءه، ونظراً لخوفـه الشديد على سلامـة أخيه، رجاه بحـرارة كبيرة، وذكّره بزوجته وأولاده، ووبخـه مانويل وانتقـد رأيه المستخف به قـائلاً: «حسناً

ياأخي العـزيز، هل تظن انني مـاعشت سأتركك في أيـدي العدو؟ ليس أنت؟ فكـر ولاتتكلم بـاستخفاف عـن نفسك»، وعنـدما أضـاف اسحق هذه الكلمات: «لكن ابـق هنا، حتى أستطيع الالتحاق بك وأنـت تقاتل البرابـرة»، قال مـانـويل: «إذا أعطـاني الـرب سأعـود مسرعـاً إليك بعـد الاشتبـاك، والآن انني أنـوي أشيـاء أخرى، ومتلهـف إلى أفعـال جريئـة جذبتنـي تماماً إليهـا». وقال هـذا لأخيه وانـدفع نحـو العدو. وعلى هـذه الصورة سارت الأمور بالنسبة إلى الامبراطور.

وأمـا بالنسبـة للـذين ذكـرنـاهم في الكمائن، فقـد أرسلـوا واحداً مـن نبلائهم واسمه كوترزس Kotertzes ليقف على أوضاع شؤون الامبراطـور وليعلـم الأحـوال، وأعاده الامبراطـور مصـدراً أوامـره إليهـم للقدوم بـأقصى سرعة ممكنـة، وما ان وصل مـانويل إلى تلـة مجاورة حتى واجه قـوة تركيـة كبيرة وصل عددهـا إلى حوالي الخمسمائة، وزحـف ليس بعيداً عنهـا، من خلفها السلطـان ومعه الجيـش كله، وما ان رآهـم حتى قام على الفـور بتسديـد رمحه، واندفـع مسرعاً نحـوهم، فطعـن كثيراً منهم وألقاهم أرضاً.

ووقـف الترك بـلا حـراك، وكأن ألسنتهـم عقـدت وأصيبـوا بـالخرس، وعندمـا حدث هذا ظهـرت القوة الرومـانية التي سلـف ذكرها، وكـانت تشكـل الكمائن، ظهرت على مقـربة مـن الامبراطـور الذي أرسـل —كما ذكرنـا— يستدعـي رجالها، أمـا الأتراك الـذين فهمـوا هذا وأدركـوه فقد اختاروا قطعة من قواتهم وأمروا الذين كانوا في السـاقة بالتصدي للرومان، المقتربين، وظنوا انهم طوقـوا مانويل، وأدخلوه في الشبكة. ولـذلك عملوا كما يلي:

غير أنـه وقف مستنـداً على رمحه، منتصبـاً على الأرض، ووجـه أبا بكـر (لأنه كان مايزال مرافقاً له) أن يـراقب عن قرب، خشية أن يمنع الرومان

من الوصول إلى أقرب التلال، وذلك بوساطة الترك، فوقتها يكون قد أحيط به تماماً، ولكن أبا بكر وقد أخذ يتصرف بطريقة معاكسة لما أراده قال: «قف، حقاً قف، ياسيدي، ألا ترى كم من المشاكل محيق بنا؟ اهتم بسلامتك» وبعدما قال هذا وأكثر، وكان غير قادر على اقناعه، تصرف وفق أوامره، ولم يبال الامبراطور ولم يصغ لما قاله (فقد كان من غير الممكن بالنسبة له الفرار إلاّ مع عار مستقبلي) بل شرع ثانية بحملات على العدو،وبعدما قتل واحداً منهم، أوقع الاضطراب في صفوف البقية، وبذلك اغتنم الفرصة فمضى ووقف على تلة صغيرة، حيث التحق به بقية الرومان، وكان أولهم جون، الذي بسبب كونه [مانويل] ابن أخيه أدخل فيها بعد في صفوف الـ Protosebastoi ‏(٣٣)، وهكذا نجا الامبراطوربهذه الطريقة، من هناك، لأن فرسه كان مغطى تماماً بالعرق، ومنهكاً حقيقة.

وبينها كان الامبراطور مشتبكاً مع العدو، كان الدمستق جون [أكسوكوس] قد ترك بالخلف، وخشي أن يقع بين أيدي الأعداء، ذلك أن العدو استمر بالظهور هنا وهناك على شكل جماعات، وكان هو بلا عون، وألف فيها بعد تسويغات ضعيفة لصالحه، قائلاً إن المكان الذي وقف به كان مناسباً جداً، وكان من المتوجب عليهم التجمع هناك، لاتخاذ نقطة حشد للامبراطور، وبهذه الطريقة كان قادراً على أن يُبقي على مقربة منه عدداً كبيراً من الذين كانوا —كما ذكرنا— خارجين من المعسكر إلى الامبراطور، وبعدما أنقذ بوساطتهم، وصل إلى الامبراطور، ثم انتقد جون [أكسوكوس] نفسه وعدد كبير آخر من بقية الرومان شجاعة مانويل، وأصروا على أن مثل هذه الأشياء ليست بعيدة عن التهور، وعندما تفحصت المسألة، أصبت بالدهشة، كيف أنه في ذلك اليوم، كان في وسط مثل ذلك العدد من المهالك، ولم يصب بجراحة أو بضربة، ولاأجرؤ على القول فيها إذا كان بسبب أعماله الجريئة المتكررة ضد هؤلاء

البرابرة، حيث زودهم بمعرفة أصالته ونبله، وأصبح من المتعذر بالنسبة لهم الحاق الضرر به، أو أن مرد ذلك كان إلى عناية حكيمة به حسبما بات مفهوماً، وأنا شخصياً لاأرى ماقام به بين الأشياء التي تستحق الادانة، كما لايمكنني تصديق شجاعة الاسكندر، عندما أتفحص بشكل منهجي الحقائق المتعلقة بذلك الرجل، مالم يمنح المرء شيئاً ما إلى بداية الشباب، لأن الشباب لايقاوم، وإذا ماارتبط بالقوة والقدرة يصبح غير مرئي، لكن لندع كل انسان يفكر ويقول مايجب قوله حول هذه المسألة.

وعندما تعرض الامبراطور —كما سلف بنا القول— إلى ملامة أتباعه قال: «نحن لانحتاج في الوقت الحالي مثل هذه الكلمات، بل ينبغي عقد اجتماع بأحسن صيغة ممكنة خشية فقدان المزيد من الرومان في هذا اليوم، لأن أعداداً كبيرة مازالت تأتي ممن تركوا خلفنا»، وبدا من المناسب اقامة كمين في أقرب شعب جبلي، لمساعدة الذين مازالوا يتقاطرون، من حاشيته، وأيضاً ترك نيكولاس أنجيلوس —الذي تقدم ذكره— في الخلف في الكمين مع الوحدتين العسكريتين، اللتين وضعهما الامبراطور تحت قيادته، عندما قاتل الترك، ولم يكن الامبراطور قد سار بعيداً عندما وصل إلى شعب جبلي، وشاهد الأتراك يقتربون، وقد تصرف وفق مايلي: فقد وقف مع عدد قليل من رجاله على طرف الوادي، وأمر الآخرين الذين كانوا صاعدين في أن يتوجهوا مباشرة نحو العدو، وما ان اصطدموا بالبرابرة، حتى سمع ذلك الذين كانوا في الكمين، فخرجوا مسرعين، وطعن نيكولاس السالف الذكر برمحه واحداً من الأتراك، ومع ذلك لم يستطع زحزحته من مقعده، ذلك أن الطعن بقوة لم يكن ممكناً بسبب انحدار الأرض، وبذل مانويل أقصى ماأمكنه لدفع الترك إلى الوراء بعيداً، فأمر أتباعه بالذهاب إلى الشعب الجبلي فيما بدا بسرعة قصوى، لكن توجب عليهم عدم صعوده، وعندما لاحظ الأتراك هذا، انسحبوا بهدوء، وفي هذه اللحظة التقى النبالة الذين كانوا مع كوترزس

Kotertzes بالامبراطـور، وكان هـؤلاء —كما سلف القـول— قد أرسلهم الامبراطـور نفسه لتقـديم العـون للرومان الـذين تـركوا بـالخلف، وهكذا قاتل الامبراطور الأعداء ثـانية، وفجأة عطف هؤلاء رؤوس خيولهم وشرعوا بـالفرار، وعنـدما رأى الامبراطـور هذا، قـال لأتباعـه: «تشجعوا، هناك قـوة قادمة إلينا مـن المعسكر»، وعندما أخفـق الأتراك في الاقتراب، علّل بعضهـم السبب بقولـه: «لقد أدار الأتـراك ظهورهم وغـادروا فجأة، مـع أنه لم يكـن هنـاك خوف يـدفعهم (ذلـك أننـا لم نكن معـادلين لهم بالقوة) بسبب أنهم كـانوا قادرين على رؤية شيء كان مـايزال خفياً عنا، ذلك أنهم كانـوا ينظرون نحو الأسفل مـن مكان مرتفع» وتبرهـن أن هذا كان صحيحاً تمامـاً، فقد كان مارأوه هـو الرومان من المعسكـر، فهؤلاء قد عرفوا أن الامبراطور كان بالفعـل واقع في مكان ضيق تماماً، فهبوا مسرعين لتقديم العون له.

وقـد روي أنـه حـدث آنـذاك ان قـام السيبـاتـوكـراتـور اسحـق عـم الامبراطور مـن جهة أبيـه، الذي كـان آنذاك في المعسكـر، بالاقتراب مـن الخيمـة الامبراطوريـة، وذلك عنـدما علـم بأن الامبراطـور كان في وضـع يائس، ودخل إلى البيعة المجهزة بالفـراش اللازم، وانتظر الذي سيحدث، عـازماً على اغتصـاب العرش، الـذي كـان منذ زمـن بعيد —كما سلـف القول— الشوق إليـه قد استولى عليه، وتنـامى الأمر لديـه، ولم يقف عند حد النمـو، بل نظر إليـه بمثابـة ميراث من الآباء إلى الأبنـاء، وستتحدث الرواية المقبلة، —على كل حال— عن هذا الأمر فيما بعد.

٨- عنـدما —كما قلـت— (انني عـائد إلى حيـث بدأتُ الاستطـراد) التحقـت القوات القـادمة مـن المعسكـر بالامبراطـور، تشجع الامبراطـور بعددهم، فقـام مجدداً بمهاجمة العدو، وأصبح البطل لأفعال شجـاعة، ثم عاد إلى المعسكر بنظام جيد، ونهض عند الفجـر، وركب الطريق، وهاجم الأتراك (الـذين كـانوا معسكـرين بـالقرب كثيراً) القـوة الرومـانية، التـي

كـانت ثـانيـة في أرض وعرة، لقـد هاجموهـا مـن الجانبين وآلموها بشـدة، وسقط كثير من وحـدات الرجالة للسبـب التالي: كان في الجيش الـروماني مقاتـل رائع، اسمه كريتـوبلس Kritoples ، وكان هذا الـــرجل يقود قوات الـرجالة، وعندمـا حرف جانباً تشكيلتـه، صار في قبضة الترك الذين كـانوا يتبعونه عن قـرب، ولدى تغلبهم عليه بأعـدادهم الضخمة، تطلع نحو فـرار علني، وبهذه الطريقة، وبعـدما فقد كثيراً ممن كـانوا معه، نجا بصعوبـة، وعندما علم الامبراطـور بهذا، عهد بالوحـدة التي معه إلى أخيـه وإلى عدد كبير آخـر مـن كبار الأعيـان، وأسرع مـع عدد صغير مـن الـرجـال لانقـاذ الجزء الـذي كـان يعـاني مـن تلـك القـوة، ووصـل إلى وسطهـم، فأمـرهم بـالوقـوف بشجـاعة، وقـاتل بنفسـه الأتراك، ولاحظـه الأتراك وعرفوه، فلم يعودوا يقاتلون الرومان يداً بيد.

وأعمل الامبراطـور فكره، حـول كيف يمكن للقـوة الرومـانية أن تسترد شجـاعتها، فبسبـب مـاحدث لقـوات الرجالـة —كما ذكـرنا— بـدأت شجـاعتهم تتـلاشـى، لأنه مـامـن شيء يؤثـر على النفس مثل أن يـرى الانسان عن قـرب نزيف دم زميله، وسحـب الامبراطور من جيبه مـدرجاً كان مدونـاً عليه أسماء كل واحدة مـن الفرق،وأعطى توجيهـاته بما ينبغي على كـل واحدة، أن تفعلـه في مثـل هذه الظـروف الـدقيقـة من الأزمـة، ورفض عدد كبير مـن الوحدات طوال النهـار مواجهة العدو، وتخلـوا عن صفـوفهـم، وساروا نحـو قـافلـة أثقـال الجيـش، ولم يقيموا وزنـاً لأوامـر الامبراطور إلى حـد أنه على الرغـم من أن كثيراً منهم قـد عوقبوا جسـدياً ذلك اليـوم من قبله، فـإن البقية لم يبالـوا تقريباً بكـل ماكان يُفعـل، فقد جعلهم الجبن المنقطع النظير ناسين تماماً لشجاعتهم.

وعندما امتـزجت على هذه الصورة قوات السـاقة بالثقل، طـوقت بقية قـوات العدو بـأكملها الامبراطـور، وضغطت عليـه بشدة بـالغة، غير أنـه تصدى للعـدو بخبرته القياديـة، وهكذا استطاع أن يبقـى دون أن يصاب

بأذى، ثم بدا مـن المناسب لبعضهم العسكرة هناك، وعـدم متابعة السير؛ غير أن هذا لم يـرض الامبراطور، خشية انه إذا مـا استمر الرومان في حـالة الفوضـى وعدم الانتظـام التي كـانوا فيهـا، فإنهم سيهـزمون فـوراً، أو في الصباح التالي عندما يكونون قـائمين بالتجهز للمغادرة(٣٤)، وقال عليهم بالحري القتـال، فإذا مـا تمكنوا بطـريقة مـا من ردّ العـدو، فبإمكـانهم زرع الحسـك دونها اعـاقـة، والعسكـرة حيثما أرادوا وليـس في فسحـة محدودة، وبعـدما قـال هـذا، وعنـدما رأى أن غـالبيتهـم لم تقبـل النصيحة عهـد بالمسؤوليـة عن المعسكر إلى زيكانـديلس Tzikandyles (٣٥) وسينوباتيس Senopates ، وكذلك إلى كـريتوبلس Krit-oples وعدد كبير آخر من القادة.

وأخذ الامبراطـور الراية الامبراطوريـة، وقام بمهاجمة العدو بكـل سرعة ومعـه أتبـاعه، وقـد اعترى العـدو الـدهشـة بسبـب الهجوم المفـاجـىء، وأرغمهـم الامبراطور على التفكير بـالفـرار، ثم تبـع ذلـك مطاردة فخمـة، وقتل الرومان الـذين تولوا أعمال المطاردة عدداً كبيراً مـن الأعداء، وأخذوا قليلاً منهـم وهم أحياء، وكـان بينهم بركـوساس Pharkousas ، وكان شخصية بارزة بين الأتراك، فهو الـذي كان يقدم بيده الكأس إلى السلطان أثنـاء تناول الطعـام، ويدعـو الرومـان هذه الشخصيـة «حامـل الكأس»، وكـان في الجيش الرومـاني واحداً له قـرابة بالـرومان من نـاحية المولد، لكن بما أنه نشـأ وتربى بين الأتراك، فقد تهيأ لـه حظ تسلم امارة بينهم، وكان اسمه غبراس Gabras (٣٧)،وعندما قتله الرومان في ذلك اليوم، حملـوا رأسه وطافوا بـه حول المعسكر، وتوقـف الامبراطور عن المطاردة (لمضي هزيـع طويل من الليـل) وعاد مع علامـات الظفر، ليجد الرومـان مايـزالون في فوضـى عظيمة وعدم انتظـام، (حتى أن حيـوانات النقل لم تكن قـد تحررت بعد من الأثقال التي على ظهورهـا) فقام بسرعة برسـم دوائر المعسكر كله، وعين مسـاحة مناسبـة لكل واحدة مـن القطع

العسكريـة، لكن عـدد الجنود الـذين أمضـوا الليل على ظهـور خيولهم لم يكن قليـلاً، فبسبب الجبن المتنـاهي، كانـوا غير قادرين على الترجـل عن ظهور مطاياهم، وعلى هذه الصورة عسكروا في تلك الليلة.

ومـا ان أشرقت الشمـس، ورؤيـت على وجـه الأرض حتى مضـى إلى وسـط الجيش، ووقـف على ظهر فـرسه، كما هـي العـادة بالنسبـة للذيـن يتولون قيـادة الوحدات العسكريـة، وتحدث كما يلي: «أيها السادة الشرفاء، انني لم آت لأحثكـم على أن تكونوا شجعـاناً، بسبب ادراكـي لجبنكم أو أي جـانـب ضعف آخـر، إن الـرومـان لايتصرفـون بمثـل هذه الـدنـاءة ولايقودون أنفسهم بمثـل هذا الانحطاط، ولايلطخون هكذا بـالعار فخار أجدادهم، ولكن بما انني أنفذ هذه العادة العسكرية بمخاطبتكم، لاأريد أيضاً اقناعكـم باتخاذ سبل أكثر أمـاناً للمستقبل، لأن هناك لحظـات تقع فيهـا مخاطر غير مـرئيـة أو متوقعـة وتلقـي بالحزم والشجـاعـة في فوضـى، وعليكم أيها الأتبـاع من الجند أن تعلمـوا اننا تـواجه اليوم صراعـاً أعظم من الصراعـات الماضية، وكأني بهذا الصراع هو الصراع الأخير، ويتـوجب علينـا أن نكون على خير استعـداد، على أسـاس جهـودنا المتقـدمـة، وإلاّ سنلطخ بـالعار أفعالنا الـرائعة السالفـة، ونكون السبب في جلب تعـاسة عظيمة إلى أنفسنا، وكما أن القطعة الخاتمة مـن حسن الحظ تقوّم بشكل طبيعي مـاتقدم من سوء حـظ، كذلك تدمّـر المأساة اللاحقة النجـاحات المتقـدمـة، وخشيـة أن يقـع هذا لأنفسنـا، على كـل واحـد منـا، يـاخيرة الرجـال، أن يحافظ على النظام بقـدر ما هو ممكـن، ذلك اننا جميعـاً ندرك اننا إذا ماحافظنا على صفوفنا متراصة تماماً، وإذا ماأسهم كل منا بنصيبه إلى البقية، سيبقـى لنا امكـانية أن نـربح وأن نبقـي لأنفسنا شهـرة سوف تعيـش للنـاس وللزمـن، وعلى كـل حـال، إذا ماحـدث العكـس، في أن افترقنـا عن بعضنـا بعضاً، اعلمـوا إننا سنكـون على الفور فـريسة سهلـة للأعـداء، وكما الحال عندمـا تكون هناك مـدينة محاصرة فتتـدمّر أسـوارها

وتنهار، وبذلك يسهل دخول الأعداء إليها، يندرج كذلك الأمر على الجيوش، وعلى هذا الأساس، ولهذا السبب اخترع القدماء: الفئات، والوحدات، والمقدمة والساقة، والجناحين الأيمن والأيسر، والصفوف المتناظرة، وأشكال الزحف، لأن الجيش أيضاً مدينة، إنه يتطلب أبوابا، وأسواراً، وخنادق، وجميع أنواع المستلزمات مثل المدن، وعليه ينبغي أن نعدّ أنفسنا لأننا مازلنا في وسط بلاد العدو، وتجولنا بعيداً عن حدود رومانيا»(٣٨).

وبعدما قال هذا، وعبأ الجيش ونظمه، انطلق مباشرة نحو البحيرة التي كان الناس يدعونها من قبل «سكلروز Skleros »، ويسمونها الآن «بوزغور(٣٩) Pousgouse » ، وعندما وصل السهول من ذلك المكان الضيق، وأصبح في منبسط مفتوح، أمر الامبراطور واحداً من الجنود في أن يصرخ بصوت مرتفع جداً، ويستدعي واحداً من الأتراك، ونفذ الجندي ماأمر به، وقال الامبراطور إلى التركي الذي اقترب: أخبر سلطانك بما يلي:

«يقول لك الامبراطور العظيم عبري هذا: لقد جئنا إلى قونية نفسها، لقد دمرنا أرضك، لأننا بشكل خاص نرغب في معاقبة جرائمك ضد امبراطوريتنا [أي: جلالتنا]، إنك على كل حال، قد فررت بشكل مستمر، مثل عبد آبق، تتنقل من مكان إلى آخر، ولذلك لم تبق لتواجهنا وجهاً لوجه، وبناء عليه، نحن مغادرون لأرضك، لكن عليك أن تستعد، واعلم جيداً انه عندما يأتي الربيع سنعود إليك ثانية باستعدادات أعظم»، وبعدما أعطى هذه الرسالة إلى التركي، وقدم له درع واحد من النبلاء، ليكون دليلاً على أنه قد أرسل من قبل الامبراطور، أمره بالانصراف.

وعندما سمع السلطان بهذا، بعث بعد وقت قصير برسل من عنده

من أجل السؤال عن السلام، وقدر الامبراطور المسألة حق قدرها ولم يغفل عن أهميتها، وأجل الاجابة على الوفد بشكل متكرر من يوم إلى اليوم الذي يليه بحجة الانتقال من مكان إلى آخر، والسبب وراء ذلك كما أعتقد هو أنه أراد أن يعلم شيئاً يقيناً ومحدداً حول الذين متوقع —كما قلنا— قدومهم من الغرب.

٩- وعندما وصل إلى موقع توجد فيه ينابيع نهر منادر [بيوكمنادرز]، ظاناً أنه بات بعيداً عن الأراضي العدوة، وملاحظاً أن المنطقة كانت غزيرة المياه، ومريحة وسارة للعين البشرية، رغب أن ينال نقاهة من متاعب المعارك بالراحة والصيد، غير أنه لاحظ وجود بعض التحركات عن بعد في الأحراج، وبسبب بعد المسافة كان غير قادر على تحديد ماراه، لذلك بعث ببعض من رجال حاشيته ليستطلع، فسمع بوجود عدد كبير من الخيم تجمعت هناك، والحركة في ذلك الحرش كانت حركة خيول هذه الخيم، وكانت ترعى الأعشاب بدون وجود لجم في أفواهها، ولقد عرف على الفور من كان أولئك الأتراك، وسماهم تبعاً لقبيلتهم: متنبهاً إلى أن رجلاً اسمه رامان Raman كان مقدمهم، وانهم قد جاءوا تماشياً مع عادتهم في نهب بعض الأحواز الرومانية، وأنهم الآن يحملون غنائم كبيرة(٤٠).

وبعدما اختار بعض الجنود الذين كانوا معه، أرسلهم بسرعة للقيام بأعمال المطاردة، وبادر مسرعاً إلى مكان يمكنه من الرؤية الجيدة، ووقف هناك يراقب ومعه عدد قليل من الرجال، وكان الأتراك في الوقت نفسه قد حملوا أثقالهم، وحزموا أمتعتهم وانطلقوا من هناك، ولأنهم أدركوا بسرعة أنهم سيقعون بأيدي الرومان، وذلك بعدما رأوهم مندفعين على شكل جماعات، انعطفوا ووقفوا لمواجهتهم، وعندما دفعهم الرومان، أداروا ظهورهم ثانية، وفي الحقيقة عندما فعلوا هذا مراراً جعلوا كثيراً من الرومان يترنحون، ولهذا تخلوا عن المطاردة، ونشدوا راحة أنفسهم بالعودة.

ولدى مـلاحظة الامبراطور ذلـك (لأنه —كما قلنا— وقـف على مكان مرتفـع يراقـب الأمور) توجـه نحوهـم بأقصى سرعـة ممكنة، بـدون درعه، وعندما رأى الأتراك عـدداً من الرومان قد لحقهم الإعيـاء، نتيجة المطاردة —حسبما ذكـرنـا— وانهم تفـرقـوا وابتعد أحـدهـم عـن الآخـر، ولـدى ادراكهم تماماً كم كان عـدد الآخريـن قليلاً، هاجموا البيـزنطيين من على الطرفين، وقـاربوا أن يلحقوا بهم بـالحال ايذاءً عظيماً، لـولا ان الامبراطور ظهر لهم بشكـل غير متوقع وأنقـذهم من الخطـر، وأمضى وقتاً طـويلاً في متابعة مطـاردة الهاربين الأتراك، لكن لدى ادراكه أن حصـانه قد انهك، وقـف هنـاك منتظراً أن يـزود بحصـان يكـون مـن نوع الخيـول السريعـة المتميزة، والتـي لسرعتها، دعيت بـالخيول «البرية»، ووجـه الرومان الـذين كانـوا يتقاطـرون على شكل أفـراد أو جماعات، وتمسكـوا معه مـن الخلف بالمطـاردة أبعد، وألا يتخلوا عـن حماسهم، وقـرر آخرون من الـرومان انهم بعدمـا قاموا بمطـاردة بعيدة المدى، وبما انهم غير قادريـن على تحقيق أي شيء، ثم لأنهم لاحظـوا ان المكان الـذي جاؤوا منـدفعين نحوه معظمـه خلواً ومهجـوراً، وفي الحقيقة يتعـذر الوصول إليـه، قرروا ادارة ظهـورهـم، وسُعد مانويـل بابن عمه أندرونيكوس(٤١)، الـذي تحدثنا عنه مطولاً فيما مضى [كذا]، والـذي كان مندفعاً نحـو العدو،وقد تخلى بعد الضغـط عن حصان له [لمانويل]، وبعدما امتطـاه سمح له بالانتظار هناك، ووجهه أن يأخذ الحصـان البري المذكور، الذي سيجلب فوراً، ومن ثـم يلتحق به في القتال، وبعدها اندفع مانويل ضد العدو.

وكان الجيش التركي مقسومـاً إلى قسمين: مضى قسم منهما نحو الأمام لجلب قطيع الخيل كله، الذي تبعهـم على شكل جماعات بدون أحلاس، وجاء البقية خلفهم لصـدّ الرومان الواصلين، وحيث أن ما مـن أحد من الـرومـان ظهـر في أي مكـان، فقـد تشجعـوا للمستقبـل، واتحدوا معـاً، وخططوا لجمع القطيع المذكور في مكان واحـد، وكان هذا القطيع مندفعاً

هنا وهناك بدون سيطرة عليه، وعندما لاحظوا أن الامبراطور لوحده من دون الرومان، يقاتلهم بدون درعه، تقاطروا نحوه بشكل حاشد، مفوقين قسيهم، ومشجعين بعضهم بعضاً، واتخذ الامبراطور موقفاً فوق الشجاعة، فبعدما أدرك أن تطويقه من قبل الأعداء كان من غير الممكن هناك (المكان الذي امتد على الجانبين معاً، منعهم من ذلك) جعل نفسه هدفاً لهجماتهم، فرمى بعضهم أرضاً وأرغم الباقين على طلب الفرار، ثم إن واحداً من البرابرة كان غير قادر على مقاومة طعنة الامبراطور، فانبطح على الأرض، وما ان لاحظ قيام مانويل بالهجوم والتقدم نحو الأمام، حتى رماه بسهم أصاب به نهاية رجله من الخلف، أي أصابه في الجزء الوحشي البارز من كعبه، ثم سارع التركي ليرميه ثانية، لكن قبل أن يفعل ذلك أخذه الامبراطور أسيراً بامساكه من شعره، وفيما هو عائد وهو معه إلى الجيش، واجه أندرونيكوس، ذلك أنه عندما جلب له الحصان الامبراطوري، امتطاه وهاجم الأتراك، وحاول مانويل بالحاح أن يثنه عن الذهاب بعيداً، ذلك انه كان مجرداً تماماً من السلاح، وبما أنه كان غير قادر على اقناعه (لأن أندرونيكوس تابع المطاردة بشجاعة وبدون حدود، وشخر ونخر شوقاً للحرب، وكان يحمل رمحاً وترساً بشكل جيد، فهو لم يستخدم سلاحه، بل ما أخذه من واحد من النبلاء) تركه يذهب، وتابع مانويل سيره على الطريق والتحق ببقية الجيش الروماني، ولم يجب على أسئلة الذين استوضحوا منه كيف تدبر الأمور في القتال عندما مضى لوحده تماماً ضدّ العدو، كما أنه لم يذكر شيئاً عن الأعداء الذين —كما ذكرنا— تولى قتلهم، متجنباً بذلك شكوك دناءة التبجح، لأن الفعل الذي لايقع على مشهد من الناس ويعرض لسماع الثناء عليه، يقود بسهولة إلى الانكار.

وأمر على الفور بمعالجة جرحه والعناية به خشية أن يلتهب وتتعذر معالجته، ثم حدث بعد ذلك حدث يستحق الذكر، فعندما لم يعرفوا

كيف يعالجونه، سحب واحد من الجنود مديته وعـزم على ازالة قطعة من لحمـه، بغية وضعهـا وهي سـاخنة على الجرح فلـربما تمنع الالتهـاب، وفي الوقـت الذي تقبـل فيه الامبراطور رغبـة الرجل الطيبـة، منع ذلـك، وأمر بقطع قطعـة من لحم واحد مـن الخيول التـي هلكت على الطريـق نتيجة للانهاك، ووضعها مباشرة على الجرح.

وبعـدما ثـابر على الـزحف خـلال منتصف الليـل وصل إلى المعسكـر المنصوب قـرب ينابيـع نهر منادر، وكانـت هناك كميات هـائلة مـن المياه تتدفق مـن الصخور تحت الجبال، وكأنها تنبعث مـن عشرات الألوف من الأفواه، وتغطـي المنطقة المجاورة ثم تتجمـع أولاً في بحيرة، بعدها تنـدفع حافـرة قناة، ومشكلة نهراً من هنـاك(٤٢)، وبالنسبة لأندرونيكـوس الذي —كما ذكرنـا— تابـع سيره نحو الأمام، فـإنه لم يحقق شيئـاً، باستثنـاء أنه ساق إلى المعسكر كثيراً مـن الخيول كانت ممتطـاة من قبل الأعداء الـذين قتلهـم الامبراطـور، وبعـد الاكتفـاء بهذا، ركـب الامبراطـور الطـريـق إلى بيزنطـة، وعندمـا وصل إلى بيثينيـا Bythynia أسكن الـــروماني الذين أنقذوا من فيلوميلون، وذلـك حسبما ذكرنا من قبل، وأمن ممتلكات لهم بالتبـادل مع أحد الأديرة المقـدسة، وأشاد هناك حصنـاً سماه بيليا Pylia (٤٣).

١٠- في حوالي ذلك الـوقت، جرى خلع كـوزماس Kosmas —الذي كان آنـذاك مسؤولاً عن الشؤون الـلاهوتية، وكان رجـلاً أديباً [Kosmios] في الحياة والحديث— مـن العرش البطريركـي للأسباب التالية(٤٤):

كان هناك رجلاً مارس حياة الرهبنة، واسمه نيفون Nephon ، لم يكن عرضة للاغـراءات العامة للثقافة، والعلوم الدنيويـة، بل كرّس نفسه منذ الطفولة للكتـابات المقدسة، وبينما كان ميخائيـل، وهو رجل مقدس،

ومتميز بصلاحه، يحتل العرش اللاهوتي، بشر نيفون هذا بأفكار غير مقبولة، نشرها بين كثيرين من حوله، تعلقت بالعقائد المسيحية، ولهذا السبب تمت ادانته بقرار مجمع ديني مقدس، فقصت لحيته، وسيق إلى السجن ووضعت الأغلال حول قدميه، لكن بعدها توفي ميخائيل، وزين كوزماس العرش —كما ذكرنا من قبل— تلقى نيفون على الفور حرية أعظم للكلام، ونشط كثيراً في الاجتماعات والأسواق، وهو لم يفعل شيئاً تعدى توزيع أفكاره، ورفضه لرب العبرانيين(٤٥)، ورغب بالافادة من مثل هذه الأشياء، وأعجب به كوزماس اعجاباً عظيماً، وجعل من هذا الشخص خدينه، وأعلن أن ماصدر بحقه كان ظلماً، وسارع إلى إلغاء العقوبات التي صدرت من قبل بحق الرجل، وقد احترم فضائله، ومنح شيئاً ما إلى كلماته، لأنه كان في وقت مبكر قد تنبأ باعتلائه العرش البطريركي.

وكانت الجماهير غير راضية عن هذا، ولهذا تقدم بعض من المتعلقين بكوزماس والمهتمين به، منه، عندما كان مرتاحاً مسترخياً، وقالوا: «لماذا، أيها الراعي المقدس، عهدت بنفسك إلى ذئب؟ ألا تعلم أن رأي الرعية انك مخدوع في هذا الجانب؟ انفصل عن صداقة الفاسد، وأن تتعايش مع رجل مزدول أمر يكفي للادانة».

هكذا تكلموا، أما الذين كانوا معادين للبطريرك فقد اشتكوا علناً ضده، واتهموه أمام أعين الرب والامبراطور، غير انه تابع غير عابىء بأي شيء، وظل متعلقاً بقوة بنيفون، وكان غير راغب بالانفصال عنه، مهما حدث، وبسبب بساطته المتناهية ماكاد ينجو من العقوبة القاسية، وبعدما أمر الامبراطور بايداع هذا الشخص بالسجن، وعندما جاء الرجال لأخذ [نيفون]، أصيب كوزماس أولاً بالذهول إلى أبعد الحدود، ثم استرد وعيه، وجمع نفسه، وذهب ماشياً إلى صحن الكنيسة، حيث حاول انتزاع الشخص من الرجال الذين كانوا آخذيه، وعندما تشبثوا ولم

يتراجعوا، رغب في أن يؤخذ معه إلى السجن، واستولى صراع على الكنيسة بسبب هذه المسألة، وتورط كوزماس بالاتهامات، ولم يتخلص من هذه المشاكل حتى وصل الامبراطور إلى بيزنطة (لأنه كان منشغلاً بالأعمال العسكرية)، وخلع كوزماس من العرش وفق الطريقة التي أنا مقبل على حكايتها:

فبعدما استقبل الامبراطور كل واحد من الأساقفة على انفراد، سأله كيف بدت تقوى نيفون له، وبعدما أوضح كل واحد منهم الأحوال بكل صدق، أحال آخر الأسئلة إلى كوزماس، وكما هي العادة أعلن باصرار رأيه بنيفون فيه مديح وتبجيل، وسماه علناً تقياً، ولايوجد من يباريه بفضائله، وعرضت القضية أمام المحكمة، واستشار الامبراطور الأساقفة، لكن ليس مرة أخرى على انفراد، بل سألهم مجتمعين عن رأيهم بنيفون، فأجمعوا على ادانته بعدم التقوى، وتمسكوا بهذا الموقف، فوجّه الامبراطور السؤال إلى كوزماس قائلاً: «لكن، أنت أيها السيد، ماالذي تراه بالرجل؟» وعندما أعلن ببساطته عن طواعية تمسكه بالآراء نفسها، صرخت الجماهير ضده، وعدّوه غير أهل للبقاء على العرش، وهكذا أزيح من وسطهم، لهذا السبب، والذي أراه انه باستثناء سذاجته، كان رجلاً غنياً بجميع الفضائل.

١١- وبعد وقت قصير عاد الامبراطور إلى معالجة مشاكل الترك [١١٤٧]، فبعد وصوله إلى نهر ريندا كوس Rhyndakos ، انشغل بالتحضير لحصار قونية وللعيث فساداً بكل ماحولها، ولم يكد —على كل حال— الجيش ينتقل من هناك، حتى جاء رسل من عند السلطان يطلبون السلام، وكان على رأس السفارة رجل عالي المكانة قوياً جداً بين الأتراك اسمه سليمان(٤٦)، وكان رجلاً مشهوداً في كثير من الحروب، وتبرهنت لديه قدرة الامبراطور، عندما —كما رويت— واجه الجيش الروماني عند الموقع المعروف بتلة كالوغرايا Kalograia ، وهزم

بشكل ساحق وكانت أهداف السفارة كما يلي:

أن يعيدوا إلى الامبراطـور براكـانا Prakana ، وكل شيء آخر أخذوه مـن قبل من الرومـان، وهكذا اتفقوا على أن يكون هنـاك سلام في المستقبـل بين الترك والـرومـان، وقبــل الامبراطـور بهذه الشروط، وأوقـف الحرب، وعاد إلى بيزنطة.

١٢- وكانـت في هذه الآونة بـداية تحرك جـديد في الغرب، للنـورمان والفـرنسيين، وأمم الغـاليين، وكـل من سكـن حـول روما، والبريطـانيين والبريتـون، وببساطـة تحركت جميـع صفوف الغـربيين، وانطلقت بحجـة ظاهـرة هي أنهم سيجـوزون من أوروبـا إلى آسيا بقصـد قتال الترك أثنـاء الـزحف على الطـريق، ولاسترداد الكنيسـة في فلسطين، ولحمايـة الأماكـن المقـدسة، غير أنهم، كـانـوا في حقيقة الأمـر يـريـدون الاستيلاء على بـلاد الـرومان، بـوسـاطـة الاغتصاب، وسحـق كـل شيء أمـامهم(٤٧)، وكـان جيشهم لايعد ولايحصى، وعندما علـم الامبراطور بخبر دنوهم من الحدود الهنغاريـة بعث إليهـم برسولين هما: ديمتروس مـاكريمبـولايتس De-metrioes Makrembolites ، والاسكنـدر، وكـان ايطـالي المولد، وكـان كونتاً لمدينة غـرافينا Gravina الايطالية، لكـــن قد تمّ طرده منـذ زمن طويل مع عـدد كبير آخر من المملكة، وذلك بـوساطة طاغية صقلية [روجـر الثاني]، وعقب ذلك، أصبح عن طواعيـة من رعايا الامبراطـور(٤٨)، ووجههما الامبراطـور للبحـث في نـوايـا الغـربيين، وإذا كـانوا قـد قدمـوا وهـم لاينوون الحاق الأذى بـالـرومان، فليـؤكدوا هـذه المسائل بالأيمان.

وعندما مثـل الرسولان أمام قـادة البرابرة قالا مايلي: «إن تـوجيه حرب خفية ضدّ الذين لم يقترفوا ذنباً، ليـس من التقوى، وليس أيضاً أمراً لائقاً بـرجـال ذوي منزلـة رفيعـة مـن حيـث الأصل وشـدة البـأس، لأنهم إذا

ماكانوا المنتصرين، فانتصاراتهم هباء، ربحوها بدون شجاعة، وبما انها هباء، فإنهم لن يعرضوا أنفسهم للمخاطر، من أجل التميز، ثم إن ذلك لن يكون محموداً، وإنه سيكون من المستحيل بالنسبة لكم عبور أرض الرومان دون أن تقدموا للامبراطور ضمانات بعدم الايذاء، ومالم تكونوا أديتم أيماناً زائفة، لماذا تثيرون الحرب سراً؟ وسيكون من الصعب بالنسبة لكم قتال الرومان مباشرة، وسيكون الأمر أكثر صعوبة إذا خرقتم مواثيقكم وآثرتم الحرب ضدهم سراً، لأنكم في تلك الحالة إنما تحاربون الرب، وتقاتلون قوة الرومان، وعلى كل حال، إذا كانت صداقتكم أصيلة، وخالية من الرياء، وليس في باطنها خيانة، وتؤكدون هذا الأمر بالأيمان، وقتها سيكون بإمكانكم جواز أرض الامبراطور العظيم، وكأنكم تعبرون أرضاً صديقة، وبالتعقل والتبصر سوف تتمتعون بكرم الضيافة وبجميع أنواع اللطف». هكذا قال الرسولان.

واجتمع الآخرون [الصليبيون] معاً في خيمة كونراد ملك ألمانيا، لأنه استحوذ على مكان الصدارة بين أمم الغرب، وأعلنوا أنهم لم يقدموا لالحاق الأذى بالرومان، وإذا كان الأمر يستدعي ضمانة القسم، فهم على استعداد لأداء ذلك، مذكرين أن حملتهم هي إلى فلسطين، وضد الأتراك الذين نهبوا آسيا، وبناء عليه بات من المناسب للرومان أن يترجموا أقوالهم إلى أفعال، أي أولئك الذين كانوا على مقربة من الملوك، وكل من كان بارزاً بينهم، وأعني الأدواق والكونتات، الذين مناصبهم متميزة، ومثلها تميزهم بتحدرهم من أعيان الامبراطورية، وبحكم أن الأعظم نبالة يتفوق على الآخرين، وبما أن الدوق يتقدم على الكونت، والملك أعلى من الدوق، والامبراطور أرفع من الملك، من الطبيعي أن يخضع الأدنى للأعلى والأسمى مكانة، يسانده في الحرب، ويطيعه في مثل هذه المسائل، وبناء على ذلك فإن اللاتين اعتادوا على تسمية الذي يدعوه الرومان «باسليوس» بالامبراطور، وذلك اشارة منهم إلى منزلته الرفيعة، ثم

إن الملوك هم الذين يحتلون المرتبة الأدنى. وهكذا يكون الحال.

وعندما أنجز الرسولان المهمة التي توجها من أجلها إلى البرابرة ونجحا، عادا إلى بيزنطة، بينما تابع الملكان سيرهما على الطريق، وبالطبع لم يختلط الجيشان ببعضهما، وسار الألمان أولاً، وخلفهم سار الفرنسيون، وأنا لاأعرف لماذا فعلوا هذا، ولعل مرد ذلك إلى أن كل منهما كان يود أن يتفاخر بأنه خاض معركة هامة لوحده، أو أنهم اهتموا بموضوع المؤن، وانها ماكانت لتكفيهم مجتمعين معاً، وساروا بأعداد لاحصر لها ولاعد، تزيد على رمال الشاطىء، وعندما نصب اكزرسيس Xerxes جسراً من المراكب فوق الهلسبونت، لم يتفاخر بأعدادها الكبيرة، لأنهم عندما وصلوا إلى الدانوب، اتخذ هناك الامبراطور اجراءات محددة لجوازهم، وأمر الشطر الأكبر من الموظفين الذين تمركزوا على ضفتي النهر ليكتبوا حمولة كل سفينة، وبعدما وصلوا بالعدّ إلى تسعين عشرة آلاف [٩٠٠,٠٠٠] لم يستطيعوا أن يعدوا أكثر(٤٩).

١٣- هكذا كانت عظيمة هذه الحشود، وعندما وصلوا إلى القرب من مدينة نيسوس Naissos [نيش]، التي هي حاضرة داشيا(٥٠)، قام ميخائيل، وكنيته براناس، الذي كان الامبراطور قد عهد إليه بحكومة تلك المنطقة، بتزويدهم بالحاجيات الأساسية، ولدى وصولهم إلى سارديكا [صوفيا] Sardika ، تلقاهم اثنان من الأعيان، ورحبوا بهم بشكل لائق وزودوهم بالضروريات، وكان أحد الرجلين ميخائيل سيباستوس، من أسرة باليولوغي Palaiologoi ، وكان واسع التجربة، خبيراً في كثير من الشؤون، وكان قد طرد من قبل، من قبل الامبراطور جون، لسبب أجهله، وصار منفياً، غير أنه استدعي من قبل الامبراطور مانويل، وأصبح أثيراً لديه، وموقفاً على دولة الرومان خاصة، فهكذا كان هو.

أمـا الآخر فكـان شخصاً اختـاره كل من الامبراطورين ليشغل وظيفـة كـارتوليريـوس Chartoularios [رئيس ديـوان الانشاء]، ونــال رعاية الامبراطور جـون ونظر إليه نظرة تقدير، فعنـدما توفي ألكسيوس أكبر أبنائه، اعتمد عليه الامبراطور بدعـوة مانويل لاستلام صولجان الملك بعد مـوتـه وأن ينقل إليـه المنصب الامبراطـوري(٥١)، ولهذا السبب ذهب إلى ساردیکا.

وكان البرابرة في منطقة وعرة صعبة (لأنـه من نهر الدانوب إلى سارديكا يرتفع عـدد كبير من الجبال عـالياً، وهي في الحقيقـة متعذرة العبـور) وقد تقدموا بهدوء، ولم يفعلوا شيئاً يتعارض مع رغبـات الرومان، ولكن عندما دخلوا إلى السهول التي أعقبت المصاعب في منطقـة داشيا، بدأوا يظهرون نواياهم الشريرة، فقـد استخدموا قوتهم الظالمة ضد الذين كـانوا يقدمون لهم البضائع للبيع في الأسـواق، وإذا ماقاوم أحد سلبهم، جعلـوه ضحية لسيـوفهم، وكان الملك كـونراد غير مبـال تماماً بما كـان يجري، وهو إمـا لم يهتم بـالمتهمين، أو كان إذا مـاأولى الاهتمام تـولى عزو كل شيء إلى حماقـة الحشود.

ولــدى سماع الامبراطــور بهذا، أرسل جيشــاً تحت قيـادة بــروســوك [برسق] Prosouch وهو رجل قوي المراس في الحرب، وبعدما قابلهم قـرب أدرنة، تتبعهم لبعض الـوقت على مسافة قـريبة، سـاعياً إلى كبح جماح الحشود، والحيلولة دون انتشار فـوضاهم، وعندما رآهم أصبحوا أكثر وقـاحة، اشتبك معهم وقتها في منـاوشات عسكرية مكشـوفة، وذلك للسبب التالي:

حـوى أحد الأديـرة في أدرنة واحـداً من الشخصيـات الألمانية، وكـان يعاني من مرض في جسـده، وكان معه أمواله وتجهيزاتـه كلها، وقام بعض الرومان من وحدات الـرجالة بنهبه، ثم أشعلوا النار في مقـر اقامته، وبعد

أن دمروا على هـذه الصورة الـرجل، استولوا على بضـائعه جميعـاً، وما ان وصل الخبر إلى مسـامع فـردريك، ابن أخي كـونـراد، وهـو رجل لايمكن السيطـرة على انفعالاتـه، وكـان بالفعل يتسـم بالـوقـاحة، بسبب غضبـه المفرط، فلقـد عاد سريعـاً، وبات بذلك عليـه امضاء يـومين على الطريق للحـاق بكونـراد، لقد عـاد مسرعـاً إلى أدرنة، وأحـرق الديـر حيث هلك الألماني من قبل، وبذلك أوجـد بهذه المناسبة فرصـة الحرب للرومان ولهم أنفسهم، وعلى هذا الأسـاس جاء بـروسوك للسيطـرة على الموقف، وصد فردريك وطـرده وأوقع مذبحـة كبيرة بين البرابرة، وكـان فردريك هـذا هو الذي تـولى حكم الألمان بعد كـونراد، للسبب الـذي سأحكيه في الـرواية التالية(٥٣)، وتخلى الألمان منـذ ذلك الوقت عن تبجحهم السالف، وذلك بعدما تعرفوا إلى مقدرة الرومان بالفعل.

١٤- وبينما كـان هذا يحدث هنـاك، فإن أنـدرونيكوس، الـذي كانـوا يدعونـه أوبوس، والذي كان الامبراطور قد بعث بـه لهذا الغرض، ذكرهم بأيمانهم، وغـالباً مـا أوضح لهم الذي تعهـدوا به من قبل بعـدم الحاق أي أذى بـالـرومـان، ولامهم لغـدرهم، ونصحهم، انهم إذا مـا أرادوا تفـادي الوقـوع بالخطر، فما عليهم سـوى متابعة السير إلى العبّارات عنـد أبيدوس [جنق قلعـة] والجواز من هناك، وبعـدما كـرر قول هـذا ورَدده، وكان غير قادر على اقناعهم، عاد أندرونيكوس مخفقاً إلى بيزنطة.

واجتمع الألمان للتشاور، ولتقـدير الأمر المعـروض أمامهـم، وعندمـا بدا لهم أن الصـواب بـالتمسك بالطـريق إلى بيـزنطـة، انطلقوا نحـو الأمـام، وساروا على طـريقهم، وكانوا ثانيـة ليسوا أقل وقاحة وتبجحـاً، حتى بعد هزيمتهم، فقـد ذبحوا الماشية دونما رحمة، وقتلـوا كثيراً من الرومـان الذين قاوموهم، ومع ذلك فإن الحرب المكشوفة لم تتطور.

وعنـدمـا علـم الامبراطـور بهذا، قـرر بأن عليـه هـو نفسـه القيـام

بالاستعـدادات، وهكذا شحنـت القسطنطينية على الفور بـالعساكـر، التي قـام بعضهـا بـالعسكـرة أمـام الأسـوار، واتخذ آخـرون مـواقفهم داخل الأبـواب، وبعث بيـاسيل الـذي يكنيـه قـومـه زيكـانـدلس(٥٤) Tzikandyles الـذي كـان قـد حقق مجداً في كثير من الحروب في المنـاطق الواقعـة عنـد مشرق الشمس، وفي القتـال هناك مع البرابـرة، وكان هو ومعه بروسوك السالف الـذكر من أصل تركي، ولكنه كان واحداً ممن حظي بالتربية الـرومانية والتعليم، ووقف منتظراً مع قواتـه عند مكان اسمه لـونغيو Longoi ، وأمرهم أن يبـذلوا قصـارى جهدهم في ردع الألمان إذا ماحاولوا مجدداً الشروع بأعمال عنف جائرة.

ولـدى وصولهم إلى تلك البقعـة، تعـرفـوا إلى أرقام الألمان، واستطلعـوا بـدقة كيف كـانت تشكيلاتهم، وفيما إذا كـانت في فوضى أو في انتظـام، وكان ممـا لاحظوه أن بنيتهم الجسـدية كـانت مفرطـة الضخامـة، ومغطاة تماماً بـالسـوابغ، لكن خيـالتهـم لم تكن خفيفـة الحركـة وسريعـة أبـداً، ولاحظوا أيضـاً أنهم يمارسون فـوضى عظيمة أثنـاء الزحـف، وافترضوا أن قـوتهم لهذا سـوف تكـون من السهل التغلـب عليهـا من قبل الـرومـان، الذين يقـاتلون بشكل علمي، وبعثـوا إلى الامبراطور، بتقـدير حـوى هذه الأشيـاء، وسألوه مـاالذي ينبغي صنعـه، وكان حتى الآن مـايزال حـذراً بشأن الغـرض الظـاهري للبرابـرة، وأعني حملتهم المزعـومـة إلى فلسطين، ولهذا تمنع عن القيـام بـاجـراء ضدهـم، وآثر الانتظـار حتى يقـدمـوا على القيـام مجدداً بمـزيد من محاولات العنف، وهكـذا تمسك الامبراطـور بهذا القرار.

واستمر البرابرة بالسير على طريقهم، وعنـدما زحفوا في السهول القائمة قـرب كيوروبـاكيـو(٥٥) Choirobacihoi (لأن المنطقة هنـــاك واسعة الامتـداد، وتوفر بشكل خاص كثيراً مـن الأعشاب لرعايـة الخيول) عسكـروا هناك، وقـد حلت بهم كـارثة هنـاك بـالتأكيـد تفوق الـوصف،

يمكن أن يستخلص منهـا بشكل منطقي أن الـرب كان غـاضبـاً عليهم، لأنهم أفسـدوا أيمانهم وزيفوهـا، ومارسـوا كثيراً من الأعمال الـلاانسانيـة نحـو أناس يـدينـون بـالدين نفسـه، ولم يقترفـوا بحقهم أي خطأ، فحينما هبت عـاصفة غير متـوقعة، فـاض النهـران اللذان يمـران بذلك المكـان، وكـان أولهما يعـرف بين السكان المحليين بـاسم ميـلاس Melas (قـراسـو) وثـانيهما بـاسم أثيراس Athyras ، ولقـــــد ازدادت ميـاههما بشكل تخطى بعيـداً المستـوى المعتـاد، وغمـرت الجزء الأكبر من السهل، وجرفت المياه شطـراً كبيراً من الجيش الألماني بخيولهم وسلاحهم، واقتحمت المياه الخيم نفسها، وجرفتها أمامها من البر إلى البحر.

وعندما علـم الامبراطور بهذا تحركت نفسه اشفاقاً على الـرجال، وبعث بعـدد من الأعيـان إلى كـونـراد لمواسـاتـه بسبب النكبـة التي حلت بـه، ودعوته للمشاركـة في مباحثات وخطط تخص مسائل هامـة، وكان كونراد مـا يـزال حتى الآن غير راغب بـالتخلي عن كبريائه، وطـالـب أن يقـابلـه الامبراطور عنـدما يقترب من بيزنطة، وقـدّر أن محادثاته جديـرة بمثل هذا الاهتمام، ولدى ادراك الامبراطور أن غـروره لاحدّ له، تركـه وشأنه يخلد إلى الراحـة، وسارع كـونراد ومعه جميع قـواته، إلى بيـزنطة، وعنـدما وصل إلى المقـر الامبراطـوري مقـابل الأسـوار، والـذي يـدعـوه النـاس فيلـوبـاشن Philopation ، ولاأدري هل الاشـارة بهذه التسميـة إلى لطافـة المكان، (لأنه يوفر الراحـة والاسترخاء من المتاعب للذين يهربون إلى هناك فـراراً من صخب المدينـة) أو لأن أشجـاره وارفـة الظـلال، وأرضـه تنتج نباتـات خضراء غنية (وكـان المكان واسعـاً جداً، ويحمل من كل جـانـب مظهر الخضـار) (٥٦)، ومن هناك أولى كـونراد انتبـاهه إلى أسـوار المدينة، وعنـدمـا رأى الأبـراج المرتفعـة إلى علـو شـاهق، وأبصر الحجم الكبير للخندق العميق الـذي يحيط بها، أصيب بالـذهول، وعندمـا رأى حشداً من النسـاء والسكـان يقفـون بـدون سـلاح وبـدون عمل، على الأبنيـة

الخارجيـة، (لأن جميع الـذين كـانـوا يستخدمـون في الأعمال العسكـريـة الصعبة، وقف بعضهـم للحراسة فـوق الأسوار الـداخلية، ووقف البـاقون أمـام تحصينات المدينـة، ينتظرون شروع الألمان بـالقتـال)، وعندمـا لاحظ هذه الأشياء، قرر على الفور أن المدينة مـابرحت منيعة الجانب لفرط قوتها، التي كـانت حقيقيـة، ولهذا انطلق من هنـاك بسرعـة، وعبر الجسر، الـذي يقـوم على كتفي مايمكن للمـرء أن يـدعوه وصلـة النهـر البحري [القـرن الـذهبي] ووصل إلى واحد من الأربـاض المواجهة لبيـزنطة، التي كـانت تدعى بيكـريديون Pikridion [هاسكوي] (٥٧)، ويقوم هنـاك المجـاز الطبيعي المعقـول، ويكـوّن بحـر يـوكسين Euxine [البحر الأسـود] هناك خلفية من المياه، وذلك بـدورانه إلى اليمين، في حين أن مساره نحو الغرب يشكل ميناء واسعاً للبيزنطيين، وهنا يتكوّن نهر يندفع في بعض الأمكنة عاليـاً ويجري بين السهول هناك، ثم يصل إلى رأس الميناء على مسـافة قليلة من بيزنطـة، ثم إلى المكان الذي يقـوم عليه الجسر.

١٥- هكذا كـان الحال هناك، وعنـدما وصل كـونراد إلى هنـاك بعث برسالة إلى الامبراطور، لم تكن في الحقيقة بعيدة عن الغرور، وجرى سياقها على النحو التالي:

«يتـوجب على الامبراطـور المتملك للـذكـاء، ألا يتفحص المشكلـة في ذاتها، بل عليه أن يبحث في السبب الذي صـدرت عنه، وكل من يعتمد على الأحكام المسبقة غالباً مايخفق في اصـلاح ما هو جيد، ولايلوم بالطبع مايبدو أنه دنيء، وعلى عكس الرأي الـرائج، يقابل الانسان أحياناً ببعض الترحـاب مـن قبل الأعـداء، غير أنـه قـد يعـاني مجدداً من بعـض سـوء المعاملـة من الأصدقـاء، لاتعزو إلينـا أسباب المضار التي أنـزلت بأرضك من قبل بعض العـامـة في جيشنـا، ولاتغضب لهذا السبـب، حيث أننـا أنفسنا لم نسبب مثل هـذه الأشياء، لكن الغوغاء كانـوا قادرين على فعل

ذلك بإرادتهم وهم مندفعون بلاضبط وراء شهـواتهم، ثم إنه عندما يكون هنـاك جيشاً أجنبيـاً خارج بـلاده يطـوف ويتجول في كل مكـان، جزئيـاً لاستطـلاع الأرض، وجزئيـاً لجمع الحاجيـات الضرورية، وقتهـا ليس من غير المعقول حدوث مثل هذه الأضرار على كل يد». هكذا قال الألمان.

أما الامبراطور الذي نظـر إلى المسألة بشيء من الاستخفاف فأجاب كما يلي:

«لم يكن بعيداً عن ادراك امبراطـوريتنا مسألة أن أهواء العـامة يصعب دومـاً التحكم بها وقيـادتها، وفي الحقيقة إن مـاكـان موضـع اهتمامنا هـو وجـوب جـوازكم أنتم أيها الأجـانب الغـربـاء لمملكتنـا دون أذى، ودون شكوى، أو بـالحقيقة دون أن تعانوا أي أذى من قبلنـا، خشية أن نكسب سمعة سيئـة بين الناس بـالتصرف بها هو مضـاد لكرم الضيـافة،وعلى كل حال، بما أن مثل هـذه الأشياء واضح انها لاتستحق الملامة بـالنسبة لك، ونظراً لأنـك بارع جداً، وعظيـم المهارة في البحث في طبيعـة الأشياء على الوجـه الصحيح، فنحن مدينـون لك بالشكـر، ذلك أننا سـوف لن ننظر من الآن فصاعداً بكيفيـة وجوب كبح جماح العامة من شعبنا وانـدفاعها ضـدكم، بل ســوف نعـزو ذلك إلى حماقـة الغـوغــاء، طبقـاً لما تعطفت ووجهتنا إليـه، وعليه لـن يكون من الآن فصـاعداً نافعـاً بالنسبـة لك أن تأخــذ الطـريق مع الجيـش بشكل جماعي، ولا التجـول أيضــاً في أرض أجنبية، وبالنظر إلى أن العامة مسمـوح لها بممارسة أهوائها في كل جانب، لأن ذلك صواب كما تقـرر، لابدّ أن الأجـانب سيكونون عـرضة للمعـاناة من السكان المحليين». بمثل هذه الأقوال أعاد الامبراطور الرسل.

ولمعرفة الامبراطور أن الجيش الرومـاني كان أقل عدداً من البرابرة، لكنه كان مكافئاً بالتفوق بالعلوم العسكرية والثبات في القتال، فقد خطط كما يلي:

أمر بروسـوك وباسيل زيكاندلس مع عدد آخر من القـادة الرومان، أن يقودوا قوة كـافية، وأن يتخذوا مواقع تواجـه الألمان، وقد اصطفوا كما يلي: وقف الجزء الأقل دربة من الجيش مع العـوام بعيداً إلى الأمام، على شكل أربع فـرق، وجاء بعـدهم الجنـد الأفضل تسليحـاً والدارعين، ثم الـذين امتطوا خيـولاً سريعة، ووقف أخيراً خلف خط المعركة الكـومان مع الترك وقوات النبالة الرومان، وعمل الـرومان على هذه الصورة، حيث أنه ما ان رأى الألمان هـذا حتى استولت عليهـم شدة الـرغبـة والفوضى، وزحفـوا مسرعين، وأعقب ذلك معـركة حادة، ووقع قتلى كثـر بين الألمان، ذلك أن الرومان قاوموهم بكفاية وقتلوهم.

وبقي كونراد متغطـرساً، ذلك انه لم يكن عالماً بما حـدث، وكان مقوداً بآمـال عظيمة، ورغب الامبراطور بـالسخريـة من رعونته السـالفة، فكتب إليه مايلي:

«يتـوجب علينـا أن نـدرك تمام الادراك، أن الفـرس الـذي لايحتمل اللجـام لايفيد راكبـه، لابل حتى ربما لن يحملـه فـوق منحدر صخـري، وهذا الجيش الـذي أخفق في الاصغاء إلى آمريه، غـالباً مايورط قـادته في المهالك، وعلى هـؤلاء القادة عدم السماح لقواتهم بالسير حسـب أهوائها، غير انني لاأعـرف مـاالذي اعتراك من آلام، فلقـد ازدريت هـذا وأقنعت جلالتنا بذلك، ولقد كانت تعـاملك معاملة الصديق، ولتبقى محافظاً على مـوقفك نفسه، قـدّر الآن إلى أين قـادك السماح للغـوغاء من مصـاعب، ذلك انني عـرفت أن قطعـة صغيرة جـداً من الجيش الـرومـاني هي التي تصدت لأعداد هائلة من الألمان وعاملتهـم بكل قسوة ورجولة، والقاعدة هي أن الجيش الوطني والمحلي يكـون متفوقاً على الغربـاء الأجانب، وإذا لم يكن لدينـا رغبة في معاقبـة العامـة لعدم التزامهـا، كيف يمكننا ذلك؟ لقد سمحنا لهم باستئصالهم تماماً واستئصال عنفهم، لكن إذا مارتأيت، أن علينا معـاً كبح كلا الجانبين بمكبح رسمـي، وأن نوقف نـزوات الجند

نفعل، أما إذا كان هذا لايروق لك، فدع الأمور تبقى على ماهي عليه الحال في الوقت الحاضر، وبناء عليه بيّن لنا بوضوح ماالذي ينبغي صنعه».

١٦- لقد ختمت كلمات الامبراطور على هذه الصورة، وبما أن كونراد لم يكن قد سمع بعد بما حلّ بالألمان، لم ير من المناسب الاهتمام بأي شيء من هذا، هو بالحري طلب أن ترسل إليه السفن الامبراطورية الحربية مع العبارات المعتادة، وأن يتولى ذلك الامبراطور، وذلك بغية استخدامها بالجوار، وهدّد انها إذا لم تصل إليه بسرعة، سيطوق المدينة في اليوم التالي بآلاف مؤلفة، وأغضب هذا الامبراطور، ومع ذلك كان مايزال غير راغب بالرد على هذا المتبجح، فتصبر إلى حد اللطف المصطنع، ولهذا كتب إليه وهاجمه بكلمات قاسية كما يلي:

«بالنسبة للذين هم قادرين على فحص الأمور بدقة لايحكم بالعادة على الأمور بالكم بل بالكيف، وبوساطة التفوق وسد الخلل، وبناء عليه ينبغي على المرء ألا يميز بين المتصارعين في الحرب بناء على العدد، بل بوساطة التفوق والممارسة والبراعة هناك، ولئن كان الجيش الذي يتبعك جيشاً كبيراً، إنه لايتفوق على الجيش الوطني إلاّ قليلاً، وصحيح أن الجزء الأعظم من الجيش المحلي مقسم وموزع بين أجزاء كثيرة من المملكة الرومانية، فإن الأصح أيضاً أن قوات كونراد قطيع من الدهماء، وأعداد كبيرة من غير العسكريين، هل يعتد بقطيع من الأغنام، تزهو بعشرات ألوفها، إذا ماصادفت أسداً واحداً متوثباً عليها تتبعثر، أولست غير مدرك أنك مثل عصفور تحت سلطتنا؟ أولسنا إذا مارغبنا، فإنك ستهلك مباشرة؟ خذ بعين التقدير أن الذين يمتلكون هذه البلاد هم الذين جاب أجدادهم بأسلحتهم جميع أنحاء الأرض، وأصبحوا سادة عليكم أنفسكم وعلى كل عرق آخر تحت الشمس، وقدّروا أيضاً أنكم لن تعلو متن السفينة الامبراطورية، ولن تنفذوا بيننا ماتسعون إليه، لكن أرجل

خيولكم سوف تحملكم عائدين على الطريق نفسه، ويجب ألا تلومونا إذا ماجعلنامن أنفسنا غير لطفاء جداً مع الذين رغبوا باقتراف الاثم والعدوان، لأن اقتراف الاثم والعدوان ليس مثل الأخذ بالثأر والانتقام، فالأول يصدر عن تقدير خاطىء، بينها يقود الحذر إلى الآخر، ويعطينا تملكنا الماضي الحق باستحواذ أي أرض سوف تسترد من الأتراك المجاورين، وفي الحقيقة سوف يتملك الرومان هذه الأراضي بدون صعوبة، والذي لم نستطع تحمله هو مطالبة شعبنا [بمقاتلة الألمان]، ومع هذا سنجازف الآن بالعمل فوراً بالذي تحثنا على عمله».

وعندما سمع كونراد بهذا، وعلم بالوقت نفسه بالبلايا التي نزلت مؤخراً بالألمان، اعتلى ظهر عبارة بائسة كانت مربوطة هناك على الشاطىء، وجاز مضيق داماليس(٥٨) Damalis ، وبسرعة وصل إلى الشاطىء المقابل، ذلك أن واحداً من البرابرة المعاندين قاد الرجل وأرشده، ومع أن البربري يتباهى ويتفاخر بلا حدود في حالات الرخاء، لكنه يتواضع ويتذلل في حالات النكبة أكثر من اللازم، فقد فكر الامبراطور في اذلاله أكثر، ففعل مايلي: لقد أرسل عدداً من الرومان إلى ساقة الجيش الألماني، فأفسدوا بالرشوة عدداً لايحصى من أعيانه ليسحبوا ولاءهم لكونراد.

وما ان لاحظ كونراد هذا، لم يعد كما كان من قبل الرجل الفائق المهارة، فكتب إلى الامبراطور يسأله أن يبعث إليه بواحد من الرومان ليقوده على الطريق، ويوجهه بأمان، وجرى ارسال الذي كان يشغل وظيفة أكولاوثوس(٥٩) Akolouthos ، ووجه للبحث في اقامة حلف مع كونراد، وبعدما دخل الرومان والألمان في نقاش طويل، توجب على كونراد الموافقة على اقامة تحالف مع الامبراطور، لكن مقابل ثمن كبير جداً، إذا ماتوجب عليه الانضمام إلى الامبراطور في القتال ضدّ الأتراك، وأخبر ستيفن (الأكولاوثوس) كونراد أن أمامه طريقين، والذي

عليه هو أن يختار أيها ليتابع سيره عليه، وبعدما تشاور كونراد مع أتباعه، رفض التحالف واختار الطريق الذي يقود إلى فيلوميلون.

وسار الألمان حتى وصلوا إلى ميلانغيا Melangeia ودوريليون Dorylaion [اسكي شهر] ولم يعق سبيلهم عائق مزعج، وعندما وصلوا إلى هناك هاجم تركي اسمه ممبلينز(٦٠) Mamplanes مع قوة صغيرة، مقدمة جيشهم، ليختبر قوتهم وليعلم أي نوع من النظام يتبعون، وعندما ظهر أمامهم للوهلة الأولى، زحف الألمان بشكل فوضوي، واستبد بهم حماس شديد وفوضى، واندفعوا نحوهم، وبما أن الألمان لم يكونوا بعيدين كثيراً عن معسكرهم، أدار الأتراك ظهورهم وتظاهروا بالفرار، وعندما أصاب الانهاك الفرسان الألمان، وباتوا بعيدين عن المعسكر، قام الأتراك بهجمات سريعة وقتلوا الخيول والرجال، وتكرر حدوث هذا الشيء نفسه مراراً، وألقى برعب لاحدود له في قلوب الألمان، وبات من الممكن آنذاك ملاحظة أولئك الذين كانوا مفرطين من قبل في الغرور، كيف أنهم عندما هوجموا بأسلوب وحشي لايمكن مقاومته، قد باتوا عاجزين بجبن وضعة عن فعل أي شيء أو التخطيط له، ثم إن كونراد (وكان شجاعاً في الحرب) اندفع ضد الأتراك، ففقد بشكل خاص الخيول السريعة التي أهداها له الامبراطور، وكاد نفسه أن يقع أسيراً في أيدي هؤلاء البرابرة.

١٧- وبينما كان الألمان في هذه الضائقة، كان [لويس السابع] ملك الفرنسيين (حسبما جاء بالتقارير قد عبر الدانوب وتقدم أكثر) قد عزم على ألا يصبح بالضرورة وقحاً مثل كونراد، فقد رحب باللذين قدما إليه من عند الامبراطور، وأقصد بذلك السيباتوس ميخائيل باليولوغوس، وميخائيل الذي كنيته برانـاس وبها يدعى، ووعد بحسن السلوك مع الامبراطور، ولوحظ انه لم يلحق أي أذى بالرومان منذ ذلك الحين، ولاأستطيع القول فيما إذا كان قد تلقى درساً مما أصاب كونراد من سوء

حظ، أم ان أخـلاق الـرجل كـانت بشكل طبيعي هكـذا! ولهذا أنهى حديثه مع الرسولين معبّراً عن بهجته لـلاستقبال العظيم من جانب الامبراطـور، وعندمـا بات قـريبـاً من بيزنطـة، أرسل رسلاً إلى الامبراطـور واعـداً بمزيـد من الصداقـة، ووافق على التعاون معـه في المسائل الهامـة، وإذا كـان من المفيـد لهما الالتقـاء مع بعضهما والاشتراك في بحث في القصر، لم يـرغب في اهمال ذلك، وأصغى الامبراطـور بـاهتمام إلى هـذه الرسائل، ووجهه للقدوم مطمئناً.

ولدى وصوله، استقبله هناك رجـال يمتون بصلة القرابة إلى الامبراطور وبالمكانة، وكانوا يحتلـون وقتها أهم المناصب، وكان عليهم اصطحابه إلى الامبراطـور في أبهة، ومنحه التشريف الـلائق به، وعنـدما بـات في داخل القصر، كـان الامبراطور جـالساً على عـرش مرتفع، وقـدم للويس مقعـداً منخفضاً، وهـو الذي يسميه النـاطقون باللاتينيـة كرسياً، وبعـدما جلس عليـه تكلم وسمع ماهـو مناسـب، ثم غادر إلى الـربض خارج الأسـوار، الذي تسميـه العامـة —كما قلنا— فيلـوباشن، ليقيم هنـاك، وذهب بعد وقت قصير مع الامبراطـور إلى قصر بـلاشرين في جنـوب المدينـة(٦١)، ليتفحص هناك الأشياء الجديـرية بالتفحص، وليشاهد الآثـار المقدسة في الكنيسة هنـاك، وأعني بذلك الأشياء التي كانت متعلقـة بجسد المسيح، والتي هي علامات حمايـة ربانية للمسيحيين، وبعدما أنجـز هذا كله في بيزنطة وأعطى العهـود بالأيمان أن يكون صديقاً للامبراطـور وحليفاً مادام حياً، عبر هو بدوره إلى آسيا(٦٢).

١٨- لقـد كان هـذا ماحصل، وقـام الامبراطـور بترقية شخص اسمـه نيقولا وكنيته مـوزالون Mouzalon إلى عرش البطريـركية(٦٣)، وكـان منتميـاً من قبل إلى النظـام الـرهبـاني، لكنـه بعـدمـا تسلم عـرش الكنيسـة القبرصية، استقـال عن طـواعية منهـا، لكنـه ما ان تـولى الادارة حتى انفتح كل فم ضـده، وادعـوا انـه اعتلى العـرش بشكل غير شرعي،

بسبب أنـه تخلى من قبل عن الـرهبنة وعن الكنيسـة المعينـة له، وكـان في البداية عنيداً وغير راغب بـالتخلي عن العرش، لكن ماإن اتخذ الامبراطور قراراً حول المسألة، حتى أدرك [موزالون] أنه اختار الجانب الخاسر، ودون أن ينتظر فحصه ثـانية، تخلى عن العرش، وتابع العيش بمثابـة فرد عادي، وعين مكانه ثيودوتوس Theodotos ، الذي كان عميق الخبرة في النظام الصوفي(٦٤).

وكما ذكـرنـا من قبل، كـان الألمان قد هـزموا مـراراً من قبل الأتـراك، وفقدوا كثيراً من رجـالهم، وما ان تخلوا عن المرور خلال فيلـوميلون، حتى سارعوا بـالعودة، ولدى وصولهم إلى نيقية [إزنيق] التقوا هنـاك بالفرنسيين الذين كانوا سائرين على الطريـق، والتقوا أيضاً بالملكين الآخرين اللذين كانا قد أحضرا معهما قواتاً كبيرة:

وكـان واحد منهما يحكم أمـة التشيك، وكان فيما يبـدو، قد عين ملكـاً من قبل كـونـراد، وكـان الآخـر ملـك البـوليسيين، الـذين كـانـوا شعبـاً سكيثيا Scythie ، وقطنوا إلى جانب الهنغار الغربيين(٦٥).

وعندمـا اتحد الجيشان معـاً، تردد بشكـل مكشوف كلمـة عابـرة اعتاد الفرنسيون على استخـدامها وتلفظها واطلاقهـا على الألمان، ومعناها شيء يشبه «الفقـاعة الألمانيـة» (٦٦)، ولما كان لهذا الشيء أصلـه الصادر عنـه، فسأبينُ ذلك على الفور:

إن أسلوب هـاتين الأمتين في القتال ليـس نفسه، فـالفرنسيـون قادرون بشكل خـاص على امتطاء ظهور الخيـل في نظام جيـد، والقتال بالـرمح، وخيالتهم متفـوقة على الألمان بالسرعة، والألمان —على كل حـال— أقدر على القتال على الأقـدام وأفضل من الفرنسيين، وهـم ممتازون في استعمال السيف الكبير، ولذلك عندما كان الألمان يقومون بحملات عسكرية ضد الفـرنسيين، فإنهم كانـوا يـرتابـون بقـدرة خيالتهم، ويصرّون على خـوض

الحرب على الأقدام، وكان الفرنسيون يواجهون خيالتهم غير المنتظمة ويهزمونها، وبعدما كانوا يطاردون القسم الأكثر خبرة من الألمان، كانوا يعودون بالكرة على الذين يسيرون على الأقدام، ومع انهم كانوا أقل منهم كثيراً بالعدد، كانوا يسخرون منهم بالعبارة السالفة الذكر، لأنهم في الوقت الذي من الممكن لهم فيه القتال مع الخيول كانوا يختارون الحرب على الأقدام، وكما قلنا تكرر اطلاق ذلك من قبل الفرنسيين على الألمان، مما أغضبهم كثيراً.

وبناء عليه، وبسبب أن المخاطرة في أخذ المركز الثاني بعد الفرنسيين على الطريق كانت تهددهم، فإنهم ساروا معاً(٦٧) حتى فيلادلفيا، وعندما لم يعد كونراد قادراً على تحمل السخرية منه من قبل الفرنسيين، قرر العودة، فكتب إلى الامبراطور وكشف له عن خطته، ولما كان مانويل يرغب في انفصال الملكين عن بعضهما بعضاً، ولتعاطفه مع الرجل، أجابه بما يلي:

«ينظر الرجال الذين يدعون أنهم ازدادوا حكمة بالعادة إلى المسائل، ليس وفقاً لدورة الحظ، بل على انفراد، بعيداً عن التبدلات المفاجئة، ولهذا عندما كنت موفقاً محظوظاً، قررنا عدم معاملتك فوق قدرك وقيمتك، والآن بما أنك في حالة بائسة جداً، إننا لن نتردد بالترحاب بك عائداً مع الأشياء نفسها التي كنا متشوقين للقيام بها على شرف قريب، وحاكم لأمم كثيرة، ولنتشاور معاً تجاه الأوضاع الحاضرة، على أساس الأسباب المذكورة، وكذلك لأننا ندين بدين واحد، وبالنسبة لك لاأدري كيف استهترت، ونظرت بقليل من الأهمية نحو ماكان يمكن أن يكون مفيداً لك، واخترت شيئاً أقل فائدة، لكن طالما انه من غير الممكن تغيير ماقد حدث، تعال إلينا بدون ابطاء، ودعنا نفكر، على الوجه الأفضل، ماالذي بقي ممكناً لنا، وماالذي لم تخسره حتى الآن، للحظ ميزة التغير المستمر، وهو لم يقف قط جامداً، فإذا ما جنى أحدهم في البداية شيئاً،

من الممكن له أن يمتلك الكل، لكـن ماهلك في الماضي، من غير الممكن إعادته ثانية، ومادامت أمورك ممكن اصـلاحها بطريقة ما، أسرع للامساك بما هو سيكون مفيداً لك».

١٩- على هذه الصورة انتهت الرسالـة. وكان كونراد قد أدرك من قبل حماقتـه، ولكن بما أنـه لم يعـرف ماالـذي ينبغي فعلـه، تبع بـدون ارادتـه الفرنسيين، ولدى وصـول رسالة الامبراطور إليـه، آمن أن هذا الحدث جزء من الحظ، فتقبل نصـائحـه بـالسرور وعـاد مسرعـاً، ولـدى وصـولـه إلى الهالسبونـت، جاز إلى تـراقيا بالعبّـارة من هناك، وقـابل الامبراطـور الذي كان مقيماً هنـاك، وعاد إلى بيزنطـة معه [شتـاء١١٤٧-١١٤٨]، وتتابعت هنـاك أعمال التسلية الـواحد تلـو الآخر: مسـاكن امبراطوريـة، ومشاهـد متنوعـة، وسباق خيل، واستقبالات فخمـة، وبذلك زال ارهاقـه الجسدي ونقه.

وبعـدمـا زود بما يكفـي من المال، انطلق إلى فلسطين مع عـدد من السفن الحربية، وقاد سفينتـه نقفور داسيوتس Dasiotes ، وأمن بقية الخدمـات، والتقى هنـاك ببقية الملـوك، وأدى طقوسـه المطلوبـة عند ضريح المسيح المانح للحيـاة، وبينما انطلق الآخرون كل منهم نحـو وطنه بخير مـايمكن، رحل هـو من هنـاك مع السفن المشـار إليها، ورسـا عنـد سـالونيك، ورأى الامبراطـور هنـاك للمرة الثـانية، واشترك مجدداً معـه في مناقشـات ومحادثات، وذكـره الامبراطور بما جـرى الاتفاق عليه من قبل، وكان هذا قـد قضى بأن تعود ايطاليا [أي أبوليـا وكالبيرا] إلى الامبراطورة [بيرثا] ايـرين، لتكون هديـة زواجها [بائنة] لأنها كـانـت قريبة [كـونراد] وهـو الـذي خطبها إلى الامبراطـور، وبعـدمـا وثق هو وفـردريك اتفـاقهما بـالأيمان الاضـافيـة، غـادرا الأراضي الرومـانيـة، ذلك أن أعمال كـونـراد واجهت نهايتها هناك [شتاء١١٤٨-١١٤٩] (٦٨).

ووقـع شيء —كما يلي— للملك الفـرنسي أثنـاء عـودته مـن فلسطين [١١٤٩] مع سفن رسـت هناك بأعداد كبيرة، فقد عرض للنقـل بالأجرة إلى اوروبا لأشخاص رغبوا بذلك، وكانـت هناك سفن صقلية طافية على وجه الماء في تلك الجوار، وكانـت هذه السفن قد قامت مـن قبل بالاغارة على الأراضي الرومـانية، وكـان هناك أسطـول روماني يقـوده كوروب Chouroup ، قـد قـابـل هـذه السفـن وقـام بمهـاجمتهـا، وبينما الأسطـولان يتحاربـان، حدث أن أبحـرت سفينة الملـك إلى وسطهما، ولما كان الرومان متفوقين بالقتال، كاد الملك أن يقع بالأسر، للسبب التالي:

كان عندمـا —كما ذكرنا— التقى بـالسفن الصقلية، نزل مـن سفينته، وصعد إلى ظهر مركـب صقلي، ولولا أنه عندما شعر بالخطـر، تمّ رفع علم واحد من حلفاء الـرومان، لكان سقط سريعاً في أيدي القـوات الرومانية، وبعدما فقد عـدداً كبيراً من أتباعه الذين أصبحـوا ضحايا الحرب، جرى انقاذه نفســه بصعوبـة، وما ان قـام بتقديـم شكوى إلى الامبراطـور، حتى كسب حرية الأسرى، واستعاد كل ماكان قد أخذ منه، وعلى هذه الصورة انتهى تدخل الأمم الغربية في الأراضي الرومانية(٦٩).

٢٠- وبعد عودة كـونراد إلى بلاده مالبثت أن وافتـه منيته، وذلك دون اكمال انجـاز أي شيء مما وعـد به الامبراطـور، ووصـل إلى السلطة بعـده فردريك(٧٠)، لكـن لماذا آلت مملكة كونراد الألمانية إلى فـردريك، سنقدم الرواية التالية:

قام الملـك الألماني هنري [الخامـس] بسجن أبيه [هنـري الرابـع] وهو على قيد الحياة، وهو الـذي أشعل الحرب مع أسقف روما [البابـا باسكال الثـاني]، وهو أيضـاً استولى على الملـك بشكـل غير شرعي، ولهذا السبـب انتقم الألمان منـه، عندمـا مات، حيث قـرروا عدم منـح السلطة لأولاده، (كان أولاده كـونراد هذا ووالد فـردريك) (٧١)، بل استدعـوا إلى السلطة

رجلاً عجـوزاً هو لـوثر (٧٢)[الثـاني]، ومنحوه السيـادة على الألمان، ولكن بما أن الآخريـن [كونراد وفردريـك الأكبر] لم يستطيعا تحمل حرمـانهما من ملكهما الموروث، قـررا محاولـة الثـورة، وعنـدمـا عـرف لـوثـر بهذا، وكـان بـالحقيقة عجـوزاً، ومتقدمـاً بالسـن كثيراً، كما كان يمتلـك طبيعة نبيلـة، ولايعرف كيـف يتكلم ويعمل إلاّ ببساطـة، وافق على نقل الملـك منه لهما عندما يتوفى، وإثـر وفاته، آل الملك الموروث إلى أسن الأخويـن، وأعني به والد فردريك، مـع ذلك بما أنه كان مصاباً بـالجرح في إحدى عينيه، فقد اختار أخاه كونراد عوضاً عنه، ووافق كـونراد في البداية، بعدما أقسم، أنه عندمـا توافيه المنيـة سينقل السلطة إلى فـردريك الأصغـر، لذلك عنـدما كان —كما ذكـرنا— على فراش الموت، وضـع التاج على رأس فـردريك، ومضت هـذه الأمور على هـذه الصورة تقـريباً، وإثـر ذلك كـانت بـداية الحروب الصقلية.

الكتاب الثالث

١ - كان روجر في البداية كونتاً بين الكونتات(١)، غير انه كان رجلاً فعالاً ونشطاً، بارعاً في التصدي للمشاكل، وماهراً في تحريك ماكان مستقراً، وأقرض مالاً إلى وليم دوق لومبارديا [أي أبوليا] الذي كان هو تحت سلطته، وكان منطلقاً إلى فلسطين، وعلى هذا الأساس تسلم حكم لومبارديا بالضمان(٢)، وبعدما مارس الطرد ضدّ أسقف روما، بطريقة أنا مقبل على حكايتها، تمّ تكريسه ملكاً من قبله.

وعندما سمع الجالس على العرش [البابوي] في روما أن روجر قد تملك لومبارديا، امتلأ حنقاً تجاه هذا العمل الوقح، وادعى أن هذه البلاد تعود ملكيتها منذ زمن طويل إلى كنيسته(٣)، وقام لوثر بغزو لومبارديا بجيش كبير، وذلك بعدما ادعى أنه تعرض للتهديد، وانه يعارض سلب البابوية واهانتها، وقد احتل جزءاً عظيماً من البلاد، وبات على مقربة من طرد روجر من جميع البلاد، لكن روجر نسج —كما هي العادة— خططاً تآمرية، وطرد لوثر بلا قتال من هناك، وأنا سأحكي فيما يلي كيف حدث هذا:

كان للوثر قريب عن طريق الزواج، وكان صاحب سلطان عظيم في بلاطه، وعدّ من قبل الألمان الثاني بعد لوثر، ودون معرفة من لوثر، اتصل به روجر، فأفسده بالمال، وأقنعه أن يعطي اشارة انتهاء الحرب إلى الجيش الألماني، ولم يكن هذا بنفخ البوق أو أي شيء مشابه بل وفق عادة البرابرة وحماقتهم، وكان وفقاً للتقاليد يجري عزف نغمة محددة في المعسكر، بعدها يكون غير مسموح للعساكر بالبقاء، ولكن بمجرد سماع ذلك، يفترقون ويقوم كل واحد بالاستعداد للعودة، وسعى قريب لوثر خيانة إلى أن يتم عزف هذه النغمة بشكل مفاجىء، وبذلك سبب ارفضاض الجيش

وتبعثره مباشرة، وغضب لوثر مما حدث، وحاول ايقاف عملية اندفاع الحشود هذه، بايقاف خمسمائة رجل للقيام بذلك، لكنه لم ينجح، وتسلل الألمان وتبددوا، متجاهلين العقوبات والحرمان معاً، واستولى اليأس والرعب على لوثر، ومالبث أن أصابته حمى حادة، فارق بسببها الحياة، وطبقاً لما ذكرناه من قبل خلفه على الحكم كونراد(٤).

٢- وما ان حدث هذا حتى شدد روجر من قبضته على لومبارديا مرة ثانية، وقام أسقف روما، الذي لم يستطع تحمل هذا، بإقامة تحالف بينه وبين الألمان، وسارع بالعمل ضد روجر بحماس شديد[١١٣٩]، غير ان روجر ظهر بشكل مفاجىء، وعسكر أمامه، فهزم أتباعه، وأخذه أسيراً، وعندما أصبح في قبضة يده، أمر بنصب خيمة من الكتان، وجعل الأسقف يجلس فيها، وألقى بنفسه أرضاً ووجهه نحو الأسفل، ثم زحف على قدميه ويديه نحوه متظاهراً بطلب المغفرة لجريمته، وسائلاً تكريسه ملكاً، واستقبله الرجل الآخر عندمااقترب منه (ماذا كان بامكانه أن يفعل غير هذا؟) وعندها سماه ملكاً، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، بات حاكم لومبارديا يحمل لقب ملك(٥).

وعندما نجح روجر في خطته، أرسل رسلاً إلى الامبراطور جون —وكان مايزال على قيد الحياة— يسأله الحصول على عروس ذات دم امبراطوري، لابنه، ولم تحقق السفارة هدفها عندما توفي جون، واتصل بعد مرور بعض الوقت بمانويل، الذي كان حاكماً للامبراطورية آنذاك، وصنع الطلب نفسه [حوالي١١٤٣-١١٤٤]، وبناء عليه توجه باسيل الذي كنيته اكسروس Xeros إلى صقلية للبحث في هذه المسألة مع روجر، وبعدما أغواه بالذهب، وعده ببعض الأشياء غير المرغوبة، كان على رأسها أن يكون في المستقبل كل من الامبراطور وروجر على سوية واحدة بالعظمة، وتلا ذلك قيام صراعات كبيرة، وعاد اكسروس إلى بيزنطة ليموت مباشرة، وبذلك لم يدفع عقوبة عمله المتسرع، وعالج

الامبراطـور مسألـة سفارتـه بمثابـة عمل عـابث، وأزاح روجـر نفسه مـن تفكيره(٦) ،وغضب روجـر، وعدّ المسألـة مسألة خـداع وغش، فأمـر ببناء اسطول، ووضعـه على أهبة الاستعـداد، ينتظر لحظة منـاسبة يتمكـن فيها بطريقة مامن الانتقام من الرومان.

ونجـح البربـري في خططـه، وفي ذروة تـدخل أمـم الغـرب وخـرقهـا للأراضي الـرومانيـة، قام بنهـب: كورنثـا، ويوبيـا Euboea ، وبيتين Boeotionفي طيبـة [١١٤٧-١١٤٨]، وبما أن الجيـش الرومـاني كـان مشغولاً بـالمشاكـل التي يواجههـا أمامه، فقـد قام البرابـرة بمهاجمة المدن المذكـورة، دون أن يعترض سبيلهـم أحـد مطلقـاً، وشحنـوا سفنهـم بالأسلاب، وعبر مـن هناك إلى كيركيرا Kerkyra (كورفو)، فـاستولى عليهـا عنوة، مـدعياً أنها ملكـاً لـه، ثم حكمهـا حكماً مطلقاً(٧)، ولـدى سماع الامبراطور بذلك غضب غضباً شديداً، وأعمل فكره في كيفية تمكنه من الانتقـام من روجر، وأن يفرض عليه العقوبـة التي يتطلبها مثـل هذا العمل الوقح، وأمـر على الفور باعداد اسطول فيه خمسمائة سفينـة حربية، مع ألف ناقلة للخيول، وقام بشحن الاسطول، وفي الوقت الذي أخذ فيه الطريق البري، أبحر الأسطول وتجول هناك بأقصى سرعة ممكنة.

٣- وما ان وصل الامبراطـور إلى فيلبه [بولفديف] حتى ذاعـت اشاعة وعمـت أفادت ان جيـوش الكومـان قد عبرت الـدانوب، وكـانت تقـوم بنهب وسلب كل ما كان أمامهـا، حتى ان هذه الجيوش قد استولت على مدينـة بارزة، قائمة على شـاطيء الدانوب [١١٤٨]، وبهذا القـدر والنوع كانت فحوى محتويات الاشـاعة، لهذا غيّر الامبراطور اتجاهه، وخف نحو الدانـوب من خلال أنكيـالوس Anekialos [بوموري Pomorie]، وبما أنهم لم يكـونـوا قد وصلـوا إلى هنـاك، فقـد شغـل نفسه بـالتجـوال بـالسهول هنـاك صـائداً، لأن كميات هـائلة مـن الـوحوش قطنـت على شكـل قطعـان في تلك السهـول، ذلـك انها كـانت مهجـورة تمامـاً وغير

مسكونة منذ زمن طويل.

وفيما هـو مشغول هكـذا، نقـل إليـه خبر أن الكومـان كـانـوا يسوقـون أمامهم في طـريق عودتهم غنائم من الأراضي الرومـانية، وأنهم عبروا للتو نهر الدانوب، وكانوا معسكرين على مقربـة منه،وعندما سمع بذلك، بادر مسرعاً بـالقدر الممكن نحـو الدانوب، وصدف أن وجـد هناك قارباً، من النوع الذي يصنـع من جذع واحد، ويترك بالعادة على الشـواطىء هناك، وأمر بـاحضار القارب إليـه، غير أن الملاح كان عنيـداً، وعندما سمـع بأن الامبراطـور يدعـوه قال: «لـو كـان الامبراطور مهتماً بشـؤوننا، لما سقطـت ديمنزيكـوس(٨) Demnitzikos (فهكذا كـان اسم الحصـــن الذي استولى عليه الكومـان كما سلف بنا الذكر) ولم تنهب ممتلكـاتنا وتحمل ثم تؤخـذ بعيداً من قبـل الكومان دونما اعـاقة»، ولدى سماع الامبراطـور هذا الكلام، غضـب غضباً شديـداً، وأعلن: «تأكدوا، انـني لن أكون الـرجل الذي عهـد الرب إليه بشؤون الـرومان، إذا لم يدفـع الكومان الغرامـة عن عملهم الطائش».

وعلى هذا تـرك بقية الجيش يقوم ببنـاء المعسكر هناك على الشـواطىء، ولما كـانـت السفن لم تصـل بعـد —كما ذكـرنـا مـن قبل— قـام بجمـع القـوارب وربطها مـع بعضهـا، وعبر الدانـوب مـع خمسمائة من الأتبـاع، وواجه هناك نهريـن كبيرين، ولعدم رؤية قوارب هناك يمكـن استخدامها للعبور، أمر الـذين كانوا معه أن يـربطوا القوارب التي كـانت على سطح الدانوب إلى ذيول خيولهم، ومن ثم نقلهـم إلى النهرين المذكورين، ولدى انجاز هذا العمـل، تمكنوا من العبور بسهـولة، وجالوا بعـد ذلك في طول المنطقة إلى أن وصلوا إلى جبـل تلي—أورمان(٩) Teli-orman، الذي امتد على مقربة من حدود روسيا، ووجد معسكـر الكومان خالياً تماماً من الرجال، (لأنهم انطلقوا راحلين منذ وقت قصير) ولذلك تابعوا تقدمهم.

وبما أن النهار كان قد شارف على الانتصاف، وما من أحد من العدو قد ظهر، اختار الامبراطور الكومان الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الرومان، مع قائدهم جفردوس Giphardos ، وكان رجلاً مجرباً في عدد كبير من المعارك، وأرسلهم لملاحقة الأعداء، ولتتبع آثارهم، والاشتباك معهم عندما يكون ذلك ممكناً، وسار خلفهم بخطوات واسعة، لذلك لم يمض وقت طويل حتى اصطدم جفردوس مع العدو، ونظراً لعدم جرأته على الاشتباك معه (لأن عدد العدو قد ظهر له لايعدّ ولايحصى) أرسل إلى الامبراطور ورجاه أن يقدم بأقصى سرعة ممكنة، وعندما سمع الامبراطور بهذا، بادر إلى حمل سلاحه، وحملت القوة كلها أسلحتها، وانطلقت نحو مطاردة الكومان، ووصل الرومان إليهم ودنوا منهم، وفي البداية وقف الكومان صامدين لاستقبالهم، وعبأوا صفوفهم، ورغبوا في القتال للدفاع عن أنفسهم، وعن الغنائم التي ساقوها معهم، وتطور الصراع، من حملات كرّ وفرّ إلى اشتباك عنيف على كلا الجانبين، وكان عدد من الرومان شجعاناً يومذاك، غير أن الامبراطور كان أشجعهم، وعندما رصّ العدو صفوفه، انقض عليه بكل قوة وحمل برمحه فخرق سور دروعه، وقتل عدداً كبيراً من الأعداء ليس بشكل فردي، بل ازدواجي، وعندما تمّ صدّ العدو بحملة الامبراطور التي لاتقاوم، اندفع الرومان نحوهم بكامل القوى، وحققوا حملة رائعة، حيث سقط عدد كبير من البرابرة قتلى، وتمّ أسر مائة منهم، كان بينهم لازاروس Lazaros ، وهو رجل احتل مرتبة عالية في الشجاعة، وكان محترماً من قبل المقدمين بينهم، وحفظ باقيهم سرعة خيولهم، وانتشار أحراش الجبال، التي توفرت وامتدت بأعداد كبيرة، واسترد الرومان منهم جميع الأسلاب وعادوا، وحدث في هذا الوقت أيضاً أن تم تحرير سوتاس Sotas ، الذي كان —كما ذكرنا من قبل— [كذا] واسع الثراء عالي الأسرة، وكان قد وقع في أسر الكومان، وقد عاد إلى معسكر الرومان بمثابة لاجيء.

٤- بعدما حقق الامبراطور هذا النصر السريع والحكيم. تقدم الامبراطور نحو الأمام، ليعد العدة للحرب مع الصقليين، وبالنسبة لمسألة التعب العسكري، كان لايظهر عليه التعب، مع أنه —كما اعتقد— لم يكن أدنى من أي عسكري عادي، وليس حتى من الأباطرة أو القادة، وتقدم يفكر ببراعة حول صقلية وجميع ايطاليا، لكن بدا أن القدر رفض توقعاته المخلصة، وفهم بشكل جيد كيف ينهي قيادة علمية بشكل مضاد تماماً، بدون جهود، لأنه مع أن الكومان عادوا في الوقت نفسه، وكان هو نفسه قد وصل في موسم مناسب إلى المنطقة التي منها يتم الابحار إلى [كيركيرا]، لكن الأسطول قد تأخر، على كل حال إما بسبب ريح غير مواتية أو بسبب جهل أميراله بالأمور، ثم وصل متأخراً عن الوقت المناسب، فقد كان قد أقلع من موانىء بيزنطة في الربيع، غير أنه وصل إلى الامبراطور في الخريف، لذلك باتت أمور الرومان في وضع سيء، وصعد الامبراطور ظهر إحدى السفن الحربية، وأقلع الأسطول كله للعبور فوراً، لكن وقوع عاصفة غير متوقعة مع رياح شديدة أعاقت مشروعه، وكان البحر واسع الامتداد هناك، والابحار في الحقيقة خطير، لاسيما في الشتاء، ولهذا توجه إلى مكان قريب من بيرهويا Berrhoia [فيرويا إلى الغرب من سالونيك] وأمضى الشتاء هناك [١١٤٨-١١٤٩].

وأرسل قريبه بالمصاهرة ستيفن الذي ينبذه الناس بلقب كونتوستيفانوس [ستيفن القصير] [لأنه كان قصير الحجم]، أرسله مع الأسطول كله إلى كيركيرا، التي —كما ذكرنا— كانت آنذاك بأيدي الصقليين، وذلك بغية استردادها إلى الرومان، وبعدما وصل إلى المدينة وجرب كل نوع من القتال ضد أسوارها، وبينما كانت الأمور ماتزال متأرجحة، فقد حياته بطريقة أنا مقبل على حكايتها، فقد أنشأ سلماً طويلاً جداً، امتد أعلى من الأسوار الخارجية، وبوساطته قاد الجيش ضد

المدينة، وتساقطت مجموعات هائلة من الحجار المقذوفة من المجانيق في المدينة فوق السلم، وحطمته بالضربات، ونشرت شظاياه في كل مكان، ووصلت إحدى هذه الشظايا إلى الدوق، وأصابته إصابة قاتلة.

وشعر أن منيته قد دنت، وفكر في عقابيل هذا الأمر، مقدراً أن الخبر عندما يصل إلى الطرفين، سيسبب ربما الاحباط إلى الرومان، لكنه سيشجع الصقليين الذين كانوا يتقهقرون، لذلك أمر بتمديده بهدوء على ظهر سفينة، وأن يعودوا إلى القتال، وقام باستدعاء ابنه أندرونيكوس، الذي كان أصغر أولاده، والذي كان مقدم حملة البلطات، وأشار عليه أنه ينبغي على الرومان عدم التخلي عن الشجاعة، بل عليهم الآن النشاط بشكل خاص، لأنهم وقفوا غير بعيدين عن تحقيق آمالهم بالاستيلاء على المدينة، وكان هذا —كما أعتقد— تعبيراً عن روح الرجولة والشجاعة الحربية والوطنية، لكن ما ان كمل العمل وانتشر الخبر وعمّ بين الجميع، حتى سارت الأمور جميعها بالاتجاه المعاكس، فقد صدّ الصقليون الرومان، مع أنهم كانوا قد اعتلوا فوق الأسوار، وسادت الفوضى واستولى الاضطراب على كل شيء.

٥- وكانت أحوال الرومان كما يلي: كان الامبراطور حزيناً لدى سماعه بهذا، وعين أميراًلاً مكانه، وأمره بالحفاظ على الحصار دون انقطاع، وبما أنه لم ينتج شيئاً يستحق الملاحظة، (لأن خصاماً تفجر فجأة بين الرومان والبنادقة، الذين قاتلوا كحلفاء لهم، وقد حرم هذا الخصام الجيش الروماني من النجاح) صمم الامبراطور نفسه أخيراً على الذهاب إلى هناك والانشغال بالحصار، وقام أولاً بانهاء الخصام فيما بين البنادقةوالقوات الرومانية، بايقاعه العقوبات المناسبة بحق المجرمين على كلا الطرفين، وإثر هذا هاجم بقوة الأسوار، وهكذا كان مشغولاً[١١٤٩].

غير أنه ما إن علم روجر طاغية الصقليين أن الامبراطور يصرف وقته

في كيركيرا حتى أرسل اسطولاً ضد الأراضي الرومانية، عازماً على ارغام الامبراطور على ترك الحصار، بإعماله العيث هناك، وقام الامبراطور، بفصل جزء من السفن التي كانت معه، وسارع بارسالها تحت قيادة كوروب، لمواجهة الصقليين، عندما —كما قلت— يهاجمون الأراضي الرومانية، وقام هو نفسه بتشديد الحصار على الصقليين بحدة أعظم، وأوقف أمام الأسوار سلالم عملاقة امتدت من السفن، وقاد الجيش صعوداً بصعوبة ومشقة، وانكسر أحد السلالم تحت ضغط ثقل الذين صعدوا عليه، وقذف بكثيرين إلى البحر، حيث لفظ هؤلاء التعساء أرواحهم، مخلفين إلى الرومان كمية كبيرة من الشجاعة، ومع أن الصقليين رأوا الرومان قد صاروا فوق الأسوار وفيها، كانوا على غير استعداد للتخلي عن المدينة للامبراطور، وسارعوا نحو الحصن بأقصى ماأمكنهم، ومن هناك كانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، وأخذوا يسقطون على الرومان الحجارة والنشاب وأي شيء طالته أيديهم، مثل زخات المطر الساقطة من السماء، ذلك أن القلعة كانت ذات ارتفاع شاهق، وكان من المتعذر اصابتها بحجارة المنجنيق.

ثم إن الامبراطور قام وهو يغلي غضباً، بسبب سوء الحظ الشرير هذا، فوقف عالياً فوق ظهر السفينة التي كانت تحمله، وأمر المجذفين بالاندفاع بالسفينة نحو الأسوار، في محاولة منه —كما أعتقد(١٠)— للهجوم بنفسه، لكن بعضاً من القادة ومن أقربائه بالدم، بذلوا جهد طاقتهم، لايقافه والحيلولة بينه وبين تنفيذ رغباته، إن هذا ماأعتقده، لأنه كان على درجة عالية من الاقدام والشجاعة، ولقد سمعت بعض الناس يتهمه بالتهور، لكن المسألة انه امتلك إقداماً رائعاً وشجاعة فوق الشجاعة العادية، وفي الحقيقة، عندما كان في السادسة عشرة من عمره، أمسك بيديه بكثير من البرابرة وجعلهم أسرى، ولهذا قالت السيدة الألمانية التي تزوج منها [بيرثا—ايرين]. بادراك كامل بأنها انحدرت

من عرق محب للحرب كثيراً جداً، لكنها لم تر بينهم، ولم تسمع عن أحد قط قام بالتفاخر بمثل ماأنجزه في عام واحد.

ثم دنت إحدى سفن الاسطول الروماني من أسوار كيركيرا، ولم تكن من السفن الكبيرة الحمولة، كما أنها لم تكن من السفن المنخفضة والطويلة، بل كانت من السفن التي امتلكت ارتفاعاً كافياً وعرضاً مناسباً، وكانت مشحونة كلياً بالخيول، ومليئة بالسلاح، وحملتها قوة الريح إلى مكان خاص من السور، كانت أكوام الحجارة تغطي أطراف أرض الشاطيء هناك، مما جعل المكان شديد الصعوبة للوصول إليه، وفي الحقيقة مخيفاً، وصب عليها صخور كل منها بحجم عربة ونشاب وكل شيء كان متوفراً، ولهذا تخلى عنها الذين كانوا فيها بسبب ماحدث، وأصابهم رعب عظيم، وزحفوا مرعوبين تحت ظهر السفينة، وما ان لاحظ الامبراطور هذا حتى بادر فحمل بإحدى يديه ترساً لم يكن من الأنواع العادية التي تتخذ لحماية فرد واحد، لكنه كان من الترسة العراض، التي لم يكن من السهل على الرجل حمله، وأمسك باليد الأخرى وحرك بمهارة الآلة التي تزود بها بالعادة السفينة الامبراطورية، واستهدف من ذلك درأ نفسه من الرمايات التي كانت تأتي من الأسوار، حتى لاتصيبه احداهن، وأسرع نحو السفينة، وبعدما ربطها بالحبال، كان قادراً على جرها وانقاذها من المخاطر.

وروي أن الرجل الذي كان معهوداً إليه من قبل روجر بتسيير أمور كيركيرا والدفاع عنها، قال وقتها، وهو يرى الناس من المدينة وهم يقومون بقذف الحجارة نحو الامبراطور:

بحق خلاصكم، توقفوا أيها الجنود عن رمي أي سهم آخر نحو مثل هذا البطل، وإذا مالزم الأمر في تقديم تسويغ لهذا، فأنا نفسي سوف أتحمل غضب [الملك].

على هذه الشاكلة مضت الأمور هناك، وكان الأسطول الصقلي عندما اصطدم مع كوروب، هزم معظمه، ولم ينج من المخاطر سوى أربعين سفينة، وصلت إلى بيزنطة، وبعدما حاولوا النزول إلى البر هناك، لم يحققوا شيئاً يستحق الذكر، وعندما بذلوا جهودهم في اشعال النار في المستودعات المنتشرة حول منطقة داماليس [جزء من أوسكودار] عبر القسطنطينية، غادروا المكان والعار يجللهم، وقد فقدوا كثيراً من رجالهم، ثم إن الذين هربوا من المخاطر لم ينجوا تماماً، لأنهم واجهوا سفناً كانت تنقل الخراج العام من كريت، وغدا كثير منهم أسلاباً للقتال.

وتمكن الامبراطور من الاستيلاء على مدينة كيركيرا بوساطة التجويع ووسائل الحصار، ثم انطلق من هناك، وفيما يخص صقلية والأرض الايطالية، وضع الخطط لاستردادهما في المستقبل لصالح الرومان.

٦- واكتشف أنه عندما كان يستعد للحرب في صقلية، عرف الألمان والصرب والهنغار بهذا وانضموا إلى تحالف مع بعضهم بعضاً في سبيل قتال الرومان من الغرب، كما وعرف أن يغي—باسان، الزعيم التركي، قد قرر نهب آسيا بالتعاون مع سلطان قونية، وسارع هنا الامبراطور بنفسه بالتوجه ضد الصرب، وكان متشوقاً لازاحة زعيمهم زوبان الكبير(١١)، الذي كان وقتذاك قد شرع بالنشاط، وأوكل الامبراطور أمر الأسطول كله إلى جون أكسوكوس Axouchos دمستق الجيوش الشرقية والغربية، وأمره أن يقف في أنكونا Ancona (أنكونا جزء من ايطاليا) وأن يتخذها قاعدة ينهب منها ايطاليا، وعلى كل حال، عندما وصل جون إلى نهر فيجوسي Vijose [في ألبانيا] قرر عدم التقدم أكثر، وفعل ذلك إما لأن هذا الدمستق أخفق في مجال الخبرة البحرية، أو أن قادة البنادقة أشاروا عليه بهذا خشية منهم أن يستولي الرومان على ايطاليا، وبذلك يتمركزون بمثابة جيران لبلادهم، وبذلك يستخفون بهم ويقللون من الرغبة بالتحالف معهم، وهكذا فإنه إما لهذا السبب أو ذاك لم ينجز

الدمستق شيئاً مما أمره به الامبراطور، لكن عبثاً أضاع وقته، ولهذا عندما هبت عاصفة مفاجئة (لأن الوقت كان قريباً من الاعتدال الخريفي) فإن كثيراً من السفن التي كانت متروكة ومهملة من قبل الأميرال تحطمت، وفي حين أن السفن التي كانت راسية عند النهر، كان من الممكن سحبها من أحد الطرفين، وتركها واقفة على شاطىء البحر(١٢).

وهاجم الامبراطور بلاد الصرب، وأخضع حصن راسون Rhason، ونهب كل شيء في جواره [١١٤٩](١٣) وبعدما وضع حشداً لايحصى من الناس في فوج الأسرى، تركهم هناك مع العساكر تحت قيادة قسطنطين الـ Sebastohypertatos ، الذي يكنيه الناس أنجيلوس(١٤).

وزاد الامبراطور من تقدمه، واستولى على منطقة نيكافا Nikava، التي كانت من ممتلكات زوبان العظيم، وأخضع جميع بقية الحصون التي كان قد بناها هناك، بدون جهد، ووصل إلى غاليتزا(١٥) Galitza، فوجد البرابرة يثقون بأعدادهم الكبيرة وبوعورة الأرض، ولذلك كانوا على غير استعداد للتخلي عن الحصن الذي كان هناك، وأقام الامبراطور معسكره، وأمر رجاله —دون أن يفقد وقتاً— برمي التحصينات بالسهام والحجارة من العرادات، وهكذا تمكن في اليوم الثالث من الاستيلاء عليه عنوة، فوجد فيه حشداً من البرابرة، عاد جزء منهم إلى طبقة الفرسان، والبقية كانوا من العامة، وقد اقتادهم جميعاً بمثابة أسرى.

وعندما وصل في طريق عودته إلى راسون، بعث بهم لاسكانهم في ساريدكا Sardika وفي بقية الأراضي الرومانية، وقد أخبره أنجيلوس أن زوبان كان ينتظر الفرصة بعد انسحابه، ليبدأ بقتال الرومان، ولم يلق مانويل سلاحه، وظل مشغولاً بالحرب، لذلك عاد بأقصى سرعة ممكنة، متشوقاً لمفاجئته، لكن زوبان، ما ان سمع باقتراب

الـرومان، حتـى اندفـع نحو الممـرات الجبليـة، وهرب مـن الخطر بسرعـة هـائلة، ودخـل الامبراطـور إلى المنطقة، وقـام في غياب مـن يـدافع عنهـا بنهبها، وفي أثنـاء عبوره ألقـى النار في أمـاكن الاستقـرار التي أقـامها على حذه زوبان العظيم من أجل بناء قصر له، وأحرقها.

٧- ومـا ان حـلّ الشتـاء القـاسي [١١٤٩-١١٥٠)] ولأن الحرارة الجسديـة تتمركز في المخلوقـات الحية حول القلـب، وفي كثير من الحالات يهاجم الجرح الأطراف، رأى مانـويل أنه بات من المناسـب التفكير بأخذ الطريق إلى بيـزنطة، وقام في السنة التـالية [١١٥٠]، عندما بـات الفصل هو فصـل الخريف، في ذلـك الوقـت الذي تغـدو فيه الطـرقات في بـلاد الصرب بشكل خاص في متناول العـدو، ولأن الاخضرار قد غادر الأشجار آنذاك، قام بحشـد جيش في نيسوز Naissos ، وعندما عرف هناك أن قـواتاً أرسلـت مـن هنغاريـا إلى الصرب، تنفيـذاً للتحالـف، أسرع في قيـادة جيشـه خلال المنطقـة المعـروفـة بـاسم لـونغـوميروس(١٦) -Lon gomeros وذلـك بهدف تمكين الجيـش الـرومـاني مـن الاشتبـاك مـع الهنغـاريين، الذيـن كانـوا يزحفـون على اليمين، ولـدى وصولـه إلى سافـا Sava عبر مـن هنـاك إلى نهر آخـر اسمـه درينـا Drinaالموجـــــودة ينابيعه في مناطـق أعلى بعض الشيء، وهو الذي يفصل البوسنـة عن بقية بلاد الصرب، والبـوسنة نفسها غيرخـاضعة لصرب زوبان العظيـم، لكنها قبيلة قائمة بذاتها، وتحكم بشكل منفصل.

وسأبين على الفور لماذا اصطدم الهنغار بالرومان:

كان بين الصرب شخص بـارز، لا أعرف اسمه، وكان أخـوه هو بيلوس Belus ، وكانا معـاً بارزين بين الصرب، وكان هذا الشخـص متزوجاً مـن أخت زوبـان العظيم، لكـن لما حدث أن أصيـب في إحدى عينيـه، بطريقة أنـا غير قادر على حكايتها، سـافر إلى هنغاريا، وبعـد امضائه وقتاً

طويلاً هناك بات عالي المكانة عندالملك غيزا(١٧) Geza بشكل خاص، ذلك انه أسهم في تربيته وتعليمه منذ الطفولة.

وبسبب هذه العلاقات الطيبة، سعى إلى جعل بلاد الصرب خاضعة بالتحالف إلى غيزا، وقد عرض هذا الأمر وناقشه في كل مناسبة ممكنة، وبذلك استطاع اقناع الرجل، بوساطة الطلبات الملحة، وبناء عليه عندما سمع غيزا أن الرومان كانوا يهاجمون بلاد الصرب، بعث بقوات من عنده تنفيذاً لتحالفه مع الصرب، وكانت هذه هي المناسبة التي جعلت الرومان يبدون مشاعر سيئة نحو الهنغار.

وبينما كان الجيش الروماني يتقدم، اصطدم الرومان الذين كانوا يتجولون لجمع المؤن، بالهنغار، وهم على الطريق نحو هدفهم، وجاؤوا وجهاً لوجه معهم، وما ان وصلت الأخبار عن هذا إلى الامبراطور، حتى بادر بارسال جون [كومينوس] (١٨) البروتوسيباستوس، وأرفقه بقوة لمساعدته، وما ان وقع الاشتباك حتى انهزم الهنغار من قبل الرومان، وفروا إلى أن وصلوا مجرى نهر ستريمون(١٩) Strymon [كذا] فتخلوا عن أثقالهم وجدّوا فارين بدون توقف، لكن الرومان تابعوا اللحاق بظهور الفارين إلى أن وصلوا إلى نهر تارا(٢٠) Tara ، وعندما لم يعد الرومان يلاحظون وجود من يقاومهم، فكروا بالعودة، وأقام الامبراطور معسكراً في وسط الطريق المؤدي إلى سيتزينيتزا(٢١) Setzenitza ، ولم يكن قادراً على معرفة مكان وجود زوبان العظيم، ولهذا مكث بعض الوقت متوجساً، وعندما سمع من الأسرى الصرب أن قواتهم كانت تنتظر وصول الحلفاء الهنغار، الذين دنا وقت وصولهم، حرك جيشه نحو الأمام، ولم يظهر أي خصم أمام الرومان من أي اتجاه حتى وصلوا إلى نهر تارا.

وعندما وصلوا إلى هناك، وبينما كانت الشمس ماتزال تمر بالأفق الغربي، رؤي حشد من الصرب شاكي السلاح، واستولى على الرومان

التعب والرعب، فعادوا لاخبار الامبراطور بما رأوه، وحكم الامبراطور بشكل صحيح أن القوة المشاهدة كانت قوة الهنغار المتوقع وصولهم إلى الصرب، وعلى الفور أعلم كشافة كوروب بما كان يتوقعه قائلاً: «ينوي الصرب الآن الانقضاض بشكل مفاجيء على الرومان» لأنهم كانوا معسكرين غير بعيد عن هاهنا، وبما أن الليل بادر إلى السقوط، فقد وضع خطة هي كمايلي:

لقد كان من عادة الرومان أثناء ذهابهم إلى الحرب، إذا ما أراد الجيش أن يتخذ موقفاً في أحد الأماكن، أن ينفخ بالبوق في أواخر النهار، وكان صوت البوق بالنسبة للحشود اشارة تعني أن عليهم منذ تلك الساعة البقاء في تلك البقعة، وبناءً عليه ولكي يتمكن من خداع الذين يعرفون العادة الرومانية، أمر بالنفخ بالبوق فوراً، غير أنه أفشى بشكل سري إلى القادة على انفراد بما كان قد خطط له: عندما تشرق الشمس، على كل واحد منهم أن ينتقي من الوحدة التي تحت قيادته كل من كان كامل التسليح، وأهلاً لأن يكون بين عناصر قوات النخبة، وأن يقف هؤلاء بكل هدوء بانتظار الأوامر منه، وخشية منه أن يتمّ كشفهم، أمر بلف الأسلحة بقطع من الأقمشة الرخيصة.

٨- وهكذا فعلوا، وعندما اقترب النهار، غادروهم برفقة المعسكر، وكأنهم ذاهبون لجمع المؤن، ولهذا الغرض أمر بعض الرجال المجردين تماماً من السلاح أن يسيروا في الطليعة ومعهم الكلاليب والمذاري، التي اعتاد أن يستخدمها الذين يجمعون المؤن للجيش في البحث عن الأطعمة في مخازن ماتحت الأرض، وأمرهم أنهم عندما يرون العدو زاحفاً ضدهم، أن يفروا حتى يلتحقوا بالرومان القادمين من خلفهم، وبذلك يكونوا آمنين، ومن أجل وصول المعلومات حول ماكان يحدث بالسرعة المتوجبة إلى القادة، أمر قائدين أن يمضيا في المقدمة، وأن يتبعهما على مسافة قريبة أربعة، ثم من بعدهم ستة، وإثر ذلك عشرة، وبعدها عدد

أكبر، وأمر بعدها بمركـزة فرقة أخرى من النبالة، وأمرهـا بمحاربة الأعداء مـن جـانـب آخـر، وتـوجب انـه إذا مـابـدأ الصرب بـالقتـال، أن تقـوم الوحـدات الأقل عدداً بـالفرار، لكـن إذا لم يهاجمها أحد، عليهـا أن تلتزم بالوقـوف هادئة أمام المعسكر، وفعل هـذا بغية أنه في الوقـت الذي يبقى هـو فيه مـع القوة الأخـرى، سيتمكنون مـن الحاق الهزيمة بـالصرب أولاً، وبـالوقـت نفسه مـن الممكـن قتل المهـزومين بـوساطـة القوات الخفيفـة التسليح.

وهكـذا زحفـوا نحـو الأمـام، وقبـل أن يبتعـدوا كثيراً، وصـل بعـض الكشـافة يـركضون نحـو الامبراطور، وهـم يولـولون بصوت مرتفـع، وفي الحقيقة كـانت وجوههـم مصفرة من الرعـب تمام الاصفرار، وقالـوا هناك جيش لايعد ولايحصى واقف ومعبأ على الطـرف الآخر من النهر، ولم يكن جيشاً محلياً، بل فيه قوات لاتعد ولاتحصـى من الحلفاء من فرسان الهنغار وكذلك كـان بينهم قوة من الهراطقـة الـ «الخاليسونيين Chalisioi » [الخزر اليهـود]، لأنه في الـوقت الـذي كـان فيه الهنغـار يبجلون العقيـدة المسيحية، كانـوا يتبعون الشرائع الموسوية، حتى وإن كـانت هذه الشرائع ليسـت جميعها نقيـة، وقـال الكشـافة: إن هـؤلاء سيقـاتلـون إلى جانـب الصرب ومعهم البشناق، وعندما سمـع الامبراطور بهذا، احتاط خشية أن يتم تطـويق الرومـان الذين سـاروا في الطليعة، ومن ثـم قهرهم بـالقوات المتفوقـة عددياً، لهذا سار وهـو شديد الانـدفاع، وحثهم على اتباع حـامل الراية، وبما أن ذلـك الشخص اضطر إلى السير ببطء، لأن فرسـه قد أعياه الزحـف، فقد تناول الامبراطـور نفسه الراية منـه وتابع الطـراد إلى الأمام، ولدى وصـوله إلى نقطة بـارزة هناك، جعل العـدو يعرف من هـو ويعرف الراية.

وفي الوقـت نفسه وقف الرمـاة الذين وصلـوا إلى النهر وجهاً لوجـه مع الصرب، وبما أن أياً من الفـريقين لم يبدأ القتال، وقفوا هـادئين بلا حراك

تقريباً، وعندما ظهر العلم الامبراطوري ورآه الصرب، قاموا بالتخلي عن الجسر، وبذلك أعطوا الرومان الفرصة من أجل التناوش، ولدى ابصار الامبراطور هذا (لأنه وقف —كما ذكرنا— فوق مكان مرتفع بعض الشيء، يراقب ما كان يحدث) تقدم ليعبر الجسر بنفسه معهم، لأنه —كما ذكرت مراراً من قبل— كان يتحرك دوماً في المعركة على شكل فوق الطاقة البشرية، لابل حتى أعلى بكثير من مجرد الشجاعة.

ومع أن الذين تبعوه تألفوا من عدد قليل من الجند، فقد هرب الصرب حتى وصلوا إلى أرض وعرة، وانعطفوا من هناك، واقتربوا من الرومان، وعندما اشتبك الطرفان بالقتال، سقط قليل من كلا الطرفين، ولدى معرفة الصرب بوجود الامبراطور هربوا مجدداً، وتابع الرومان مطاردتهم فقتلوا عدداً كبيراً من الهنغار ومن الصرب أنفسهم، وسقط في ذلك الوقت في أيدي الرومان غرديشا Grdesa وفلسين(٢٣) Vlcin، وكان من أبرز الشخصيات بين الصرب، وبالنسبة للبقية، فقد رأى الامبراطور أنه من المهم جداً أن يصب عليه دروعه، وعندما أضاع بعض الوقت في هذا السبيل (لأن الذين كانوا يحملون الدروع لم يكونوا قريبين منه) كان بعض القادة الرومان، وكان من بينهم غيفاردوس Gi-phardos وميخائيل الذي كنيته براناس، بين آخرين كثر من القادرين على العمل على انفراد، وبارعين في القيادة، كانوا قد وصلوا إلى أماكن مستعصية وكثيفة الانحدار على طريق المطاردة، وكانوا في وضع يائس، لأنهم زحفوا نحو خطر واضح، وحيث أن الصرب قد تصوروا أنهم باتوا بعيدين جداً عن الرومان الآخرين انعطفوا ووقفوا مواجهين لهم.

٩- وفيما الرومان في هذه المآزق، كان الامبراطور قد أكمل لبس لأمته، فقام باللحاق بهم بسرعة كاملة، وعندما وصل إليهم وجدهم قد تجمعوا ووقفوا إلى جانب بعضهم بعضاً في بقعة منفردة، فتوجه إليهم باللوم والتوبيخ بكل حدة وبشكل علني، وأهانهم بأن وجّه إليهم تهمة الجبن

وجهـل التكتيكات العسكـرية، وعنـدما أومـأوا إلى طبيعة الموقـع وكثافـة الثلوج، ركـب بذاته الطريـق بعد اختياره له، وأمـرهم باتباعـه، وفي تلك الأثناء وصـل حشد مـن الرومان وانضمـوا إليهم، وفيما هـم سائرون على طريقهـم، خرج عليهم كمين للعـدو كان مختبئاً، وقـاتل الرومـان من على الطـرف الأيسر، ونظـراً لادراك الامبراطـور أن حجـم الكمين كـان صغيراً جداً، ارتـأى عدم وجود حاجـة للدوران والعودة، واستمر بـالمطاردة دون راحة بغيـة إلقاء القبـض إما على زوبـان الكبير نفسه، أو على الـذي تولى ذلك اليوم القيـادة بين الهنغار، أو على واحد ممن شهر بـالشجاعة، وبما أن الـذيـن كانـوا في الكمين لم يحققـوا شيئـاً يستحـق الـذكر، فقـد تملصـوا وابتعدوا من جديد.

وبعدمـا استأنف المطاردة لمسـافة قصيرة، لاحظ الامبراطور أن أتبـاعه كانـوا في مأزق حاد، فقـام بتخليصهم، مستعيناً بـاثنين من أقربـائه، كان أحدهما جـون دوكاس(٢٤)، وكـان اسم الآخـر أيضاً جـون ويحمل كنيـة كانتاكـوزينوس Kantakouzenos الذي كـان متزوجاً من [مــاريا] ابنة أنـدرونيكوس السيباتـوكراتور [أخو مـانويل](٢٥)، فقـد زحف معهما ضـد الأعـداء، الـذيـن عـرفـوه من خـلال لأمتـه (لأنها كـانـت مـزينـة بالذهب)، وعـرفوه بسموه وبرشاقة جسده وبقوامـه الذي لانظير له (كان في الحقيقة يشبـه الأبطال [القدمـاء] وذلك بقدر مـا كان متميزاً بفـروسية لاشبـه لها أبداً، وبقـدرتـه على التعامـل مع السـلاح واستخـدامه بكلتـا يديه)، ولم يكن عاراً بالنسبة لهم ادارة ظهـورهم فراراً، وفيما هو يقاتل ضد الفـارين، روي أنـه ألقى أرضـاً بخمسـة عشر واحداً مـن الأعداء بطعنـة واحـدة برمحه، ولأنهم سيقـوا إلى حالـة من الفـوضى والاضطـراب ضرب أحدهم الآخـر لدى اختلال الصفوف، وبعدمـا رمى على الأرض بأربعين منهـم سـاق البقيـة وطـاردهـم، وأعمـل الطعـن والضرب بـاستمـرار في الهاربين، مستخدماً السيف والرمح معاً.

ثم حدث شيء هو كما يلي:

كان واحداً ممن طعنه برمحه من قبل (لم تكن طعنته مميتة) قد استرد وعيه بعد سقوطه، ونظراً لاعتقاده أنه قد انتهى أمره، تحامل على نفسه وخرج من بين الجرحى، وعندما شاهد الامبراطور يقترب، سحب سيفه واندفع نحوه ليطعنه، لكن الامبراطور لبطه بقدمه على صدره، فألقاه أرضاً، وتجاوزه بعدما لاحظ أنه مصاب بجرح مرئي حول إحدى عينيه.

وفي تلك الأثناء شعر مانويل أن الإعياء لحق بحصانه بسبب ثقل السلاح، ومع هذا لم يرغب بالعودة، فأمر كانتاكوزينوس Kan-takouzenos (صدف أن كان وحده من بين رجال الامبراطور مثابراً إلى جانبه) بالتقدم نحو الأمام والاشتباك مع البرابرة، ذلك أنه بوساطة انشغاله معه، سيكون من الممكن له الايقاع بهم، ولقد نجح في مقصده هذا، فعندما اقترب جون [كانتاكوزينوس] بسرعة من الأعداء ضرب باكشينوس Bakchinos [باغين Bagin] (٢٦) على ظهره، وكان متشوقاً لتمرير الرمح فيه، ومع ذلك هو لم ينجح لأن الدرع قاومه، واستدار هذا الرجل فرأى أنه مطارد من قبل رجلين، لأننا —كما أسلفنا القول— كان جون الآخر مصاحباً للامبراطور، فجمع سبعة من أتباعه واشتبك مع كانتاكوزينوس، وصار القتال يداً بيد، وفي هذه الآونة عندما كان واحداً من البرابرة قادماً من أحد الاتجاهات، وآخر قادماً من اتجاه آخر، بات كانتاكوزينوس في خطر عظيم، ولولا أن الامبراطور ظهر إلى جانبه، وأنقذه من الخطر، أظن أن الرجل، ماكان لينجو من أن يصبح ضحية لسيف البرابرة، كما أن الامبراطور نفسه لم يكن بعيداً بالمرة عن المخاطر، لأنه عندما لاحظ أنه إذا ماتصدى للسبعة الذين كانوا يطوقون جون، سيكون بإمكان الآخرين الذين يصل عددهم إلى ثلاثمائة القتال على الجانبين، لذلك قرر ان عليه الاشتباك مع القوة الرئيسية أولاً، وعندما تخلى هؤلاء عن القتال وهربوا، بات من المتصور أن الذين كانوا يطوقون

جون سيقومـون أيضاً بالانسحاب، فقـام بغمز حصانه، وانـدفع فكان في وسطهم، وعزم على طعـن واحد منهم برمحه، غير أنه لم يصبه، لأنـه عندما استدار البربري على ظهـر حصانه، مرّ الـرمح إلى طرفه دون أن يصبـه، ثم اشتبك معه يداً بيد.

ولدى مـلاحظة بـاكشينوس هـذا قام بنفسـه ومعه أتبـاعه بترك جـون هناك، وحملوا بكل سرعـة على الامبراطور، وكانـت الحادثة محشوة بـالرعب، وقام الامبراطور بإلقاء رمحه والتخلي عنه، وجـرد السيف الذي كان يحمله، وشرع يضرب ويتلقى الضربـات وهو يدور حولهم وبينهـم، وإلى أن تفرق البقية، تطـورت نتيجة المعـركة وتمحورت حـوله نفسـه وحول بـاكشينوس الذي كـان مشهوراً بشجاعتـه، ويمتلك بنية بدنيـة هائلة، وبعـد اشتباك طويـل، وجّه باكشينـوس ضربة أوصلـت سيفه إلى فك الامبراطـور، ومع هذا لم يستطـع قطع واقية [سلسلـة اللأمة] التـي تدلت مـن الخوذة فوق العينين، وكانـت الضربة —على كـل حال— مـن القوة بما يكفـي لجعل الحلقـات الموضـوعـة فـوق الجلـد تضغـط بعمـق عليـه، وبعـدمـا حـرم الامبراطور البربري من إحدى يديه بوسـاطة سيفه، سلمه بسرعة إلى قريبه [جون كـانتاكـوزينوس]، وفي الـوقت الذي كـان فيه عـديم الصبر يـريد مهاجمة العـدو ثانيـة، بذل كـل من جـون والبربري بـاكشينوس جهـدهما لايقافـه عن الحملة، لأن هـذا الأخير كان قد أعلن عـن طاعته، وتظـاهر بـالصـداقـة، فعنـدمـا كشـف عـن شعـر رأسـه، أعطـى بـذلـك شـارة [استسلامه] للغوغاء الـذين كانوا قادمين للقاء به، وحرم كـانتاكوزينوس في هـذا الصراع مـن اصبعين مـن إحـدى يديـه، وعـاد الامبراطـور نحـو المعسكر، وهو يـدفع أمامه حـوالي أربعين أسيراً من الأعداء، وتذكـر هناك الرجـل الذي رماه أرضـاً وخلّفه وراءه، وذلك بعدمـا حفظ العلامـة فوق عينه، وطلـب البحث عنـه في المعسكر، ذاكـراً علامتـه الفارقـة، وبذلـك وقف عليه، وعرف الرجل المهزوم، وعُرف من قبله.

ووصل قبل مضي وقت طويل إلى المعسكر رسول من عند زوبان العظيم، هو [بيرفوسلاف أوروش الثاني Pervoslav Uros] يطلب العفو عن جميع مااقترفه من أعمال، وبناء على طلب من الامبراطور جاء الرجل بعد وقت قصير، وقدم نفسه بمثابة تائب متواضع، وقبل الامبراطور توبته، وعفا عن ذنوبه، وبعدما نهض [زوبان العظيم] قليلاً، وارتفع عن سطح الأرض، وذلك بعدما رمى بنفسه على قدمي الامبراطور، تعهد بالأيمان بما وافق عليه، وأعلن أمام العالم أجمع أنه سيكون خاضعاً للرومان، وإذا ماأراد [مانويل] القيام بحملة في الغرب، وافق على أن يلتحق به ومعه ألفين من رجاله، أما بالنسبة للقتال في آسيا فلسوف يبعث بمائتين من الرجال وذلك بالاضافة إلى الثلاثمائة التي اعتاد من قبل على ارسالهم.

أما وقد نجح في هذه الأشياء، فقد عاد الامبراطور إلى القسطنطينية، وعاد في الوقت نفسه الاسطول الذي لم ينجز شيئاً في ايطاليا، إلى بيزنطة، وحافظ الصرب إثر هذا على خضوعهم للرومان، وبعد مضي عدة سنوات، وبعدما طردوا من الملك أوروش الثالث، قاموا بدون رضا من الامبراطور بمنح الملك لواحد من اخوانه، وكان واضحاً أن الامبراطور سيغضب منهم لما حدث، وخشية منهم أن يقوم باستدعاء كل من ديسا Desa وأوروش إلى حضرته، قائلاً بوجوب اطاعتهم لمن سيعينه عليهم، حاولوا ايجاد حل للقضية بأنفسهم، فأخفقوا، ثم كان أن عاد أوروش إلى منصبه ثانية، كمنحة له من الامبراطور لكن هذا حدث بعد مضي بعض الوقت [حوالي١١٥٥].

١٠ - وزحف الامبراطور على هنغاريا، عاداً تحالفهم السالف الذكر مع الصرب، حجة لاعلان الحرب عليهم، ولم يفاجئهم بالقتال، لكنه راسلهم أولا مبينا لهم سوء تصرفهم نحوه، وحذرهم من الهجوم الروماني الوشيك، وعندما وصل إلى شاطىء الدانوب [خريف١١٥١] لم تكن

السفن التـي تمّ اعدادهـا في بيزنطة قد تـوفرت وحضرت أمامـه، وخشية منه أن تذهـب الفرصة التي تهيـأت سدى، وبحثاً منه عـن شيء يفيد في مثـل هـذه الحالات ويسـاعـد على النجاح، أمـر بصـف قـوارب جـذوع الأشجار التـي كانت ملقـاة على الشاطـىء هناك، وأسرع نحو الشـاطىء الآخر لنهر [السافا Sava] ، حيث قام بجر فـرسه بمقوده ولجامه، وبعـدما عبر الجيـش الـروماني على هـذه الشاكلـة، وضـع هنغاريـا تحت قدميه، وبينما كـان هذا الجيش يتقدم نهب بدون رحمة كـل شيء عثر عليه في طريقه.

وكان يـوجد على إحـدى ضفتي النهـر هناك قلعـة اسمها زيـوغمينون Zeugminon [أو زيوغمي—زيوم الحالية]، وكانت مجهزة بأسوار قويـة وبدفـاعات أخرى، ولما وجـد استحالة الاستيـلاء عليها فـوراً، ترك هناك ختنه ثيـودور باتاتزس مع جيـش، وقام باجتياح جميـع القرى هناك، وحمل تقريباً كل من كان فيهـا أسرى، ووقتها جاء جيش هنغاري لمواجهة الرومان، ولدى ادراك هذا الجيـش أنه كان يحاول المستحيلات، ذهب إلى الامبراطور، وإثـر ذلك تدبـر الأمر وحمل كـل شيء دون تدخل مـن أحد، وبعد هذا بات مـن الممكن رؤية أجيال بكاملها تزحف مـأسورة مع أمم تتحرك مهـاجرة، وفـرغت الجزيرة بكـاملها [كذا]، وأعنـي بذلـك الجزيرة التي يشكلهـا كل من نهري الـدانوب والسافا، فـأثناء تدفقهما وجـريانهما مـن الألب إلى هنغـاريا ينفصـلان عن بعضهما في الأعـالي، وبعد عمليـة دوران كبيرة يجتمعان معاً ثانيـة، لقد فرغت هذه الجزيرة مـن سكانها، ثم قام الرومـان بتمزيق المساكن الملكية، وهـو أمر جدير بالتـدوين بين أعظم انجازات الرومان ونجاحاتهم.

ونجـح الامبراطور في هـذا، وإثـره عـاد إلى زيوغمنـون، حيـث —كما ذكرنا— كـان قد ترك باتاتـزس الذي حافظ على الحصـار، غير أن الذين كانـوا يديـرونها من الـداخل بـإحكام حـافظوا عليهـا وظلوا متملكين لها

ماداموا يأملون بأن الملك سيصـل إلى عونهم بعد وقت قصير، لكن بما أنه لم يرد في الأخبـار حديث عـن وجوده في أي مكان قـريب، وكان الـرومان على أهبـة الهجوم على الأسـوار، ولكـراهيتهم البقـاء تحت المخـاطر، فقـد سألوا الامبراطور عما إذا كان يمكنهـم تسليم القلعة إليه، بشرط مغادرتهم لها وأجسـادهم سليمـة حرة، وعنـدما رفـض هذا ربطـوا رقابهم بحبـال، وجاؤوا كـاشفين عن رؤوسهم، وبـذلك أخضعوا أنفسهـم إلى الامبراطور بكل خنوع، ومنـع الامبراطور الرومان من التعرض لأي منهـم بالقتل، غير أنه نهب القلعة وكانت مشحونة بمؤن لاتعدّ ولاتحصى.

١١- وبعدما حقق الرومان هذا، بـادروا إلى جواز السافا، وهـم يقودون أجيـالاً من الهنغـار أسرى، وكان عـددهم أكبر بكثير مـن تعداد جيشهـم، لكنهم مـاكادوا يعبرون حتى وصلتهـم أخبار قالـت بأن ملك الهنغـار، قد نجـح للتـو في إنهاء حـرب في غـاليشيـا Galicia ، التـي كـانـــت مقاطعـة روسية، وهو قـادم بسرعة عظيمة لمواجهـة الرومان، وتحت امـرته قوات عظيمة.

وإنه بشكل خاص بسبب حربه لغـاليشيا كان الامبراطور يعاقبه، لأنه [غيزا] قـام نكاية بمانويـل بمحاربة فـلادميركو (لأن هذا كان هـو الاسم الذي أطلق على أمير غاليشيا) الذي كان حليفاً للرومان(٢٧).

ولدى سماع الامبراطـور بهذا أمر بقيـة الجيش، والـذين كـانوا في قطـار الأثقال وحشود الأسرى التـي كانت فوق الحصر، والتي كـانت قد عبرت النهـر، بالبقـاء على الطـرف الآخر مـن النهـر، وبعدمـا أخـذ النخبة مـن جيشه، بـادر نحو الاصطدام بـه [غيزا]وسعى إلى ذلـك بأعظـــم سرعة ممكنة، ومع أن القـادة عارضوا خططه بكـل قوة، فقد أوضح مـانويل لهم أن الهجوم على قطيـع من الماشيـة هو عمل الـذئاب وليس الأسـود، لكن عندما يظهر الـرعاة أو الكلاب من أي مكان لايشعرون بـالعار إذا مافروا،

ويعنون بذلك فقط أنهم نادراً ماكانوا قادرين بكل صعوبة على الحفاظ على فريستهم.

ثم كان أن حدث أمر، إذا ماكان قد بدا له لدى اختياره له صحيحاً، فأنا لاأوافق عليه، لكن إذا كان الاختيار قد تمّ بناء على تبصر أو بعد نظر حتى يبذل الرومان غاية جهدهم ليكونوا على درجة عالية من الشجاعة، فأنا أرى في ذلك مثلاً رائعاً من أمثلة الابداع العسكري، ذلك أنه عندما كان يعد العدة للانطلاق من السافا إلى مواجهة الهنغار، وجه الأوامر إلى الشخص الذي عهد إليه بقيادة الأسطول بالبقاء راسياً مع سفنه على الطرف الآخر من النهر، حتى إذا ماجاء أي واحد من الرومان طالباً الالتجاء، إلى الضفة الأخرى من النهر ونقله إليها، عليه أن يتظاهر بعدم رؤية ذلك الشخص، وقال: «إذا ماجئت أنا نفسي الامبراطور إلى هناك ورغبت إليك بشيء يتعدى الأوامر الحالية، عليك أن ترفض ذلك، وإذا لم تفعل هذا لن تنجو من عقابي المباشر»، وهكذا أعدّ الأمور، فاتحاً بذلك باب الشجاعة —كما أعتقد— لجنوده، وذلك حسبما ذكرت من قبل، لأنه عندما تنعدم الفائدة من الخوف، يبات من الضروري أن يكون الانسان شجاعاً حقاً.

وفيما هو على نية الانطلاق، جاء إليه واحد من الأسرى الرومان، ملتجئاً إليه بعد فراره من عند الهنغار، وأخبره أن ملك الهنغار قريب الوصول، وعندما سمع الامبراطور هذا، لم يعد قادراً على ضبط نفسه، خشية أن تصل القوات الهنغارية فوراً، وأن تبدو وكأنها تقاتل الفارين الرومان، لذلك عبأ قواته ونظم صفوفها، وانسحب، وبما أن ملك الهنغار —على كل حال— لم يكن هو الواصل، بل بيلوش `Belus الذي شغل أعلى مرتبة بينهم (دعا الهنغار هذه المرتبة باسم«بان»)(٢٨) وكان قد دنا وصوله، أسرع مانويل نحوه، ونظراً لحلول الظلام، ترجل من على ظهر حصانه ونام بسلاحه، فوق ترسه المقلوب، وأمضى الجيش كله الليل على

هذه الحال نفسها، وفي اليوم التالي علم بيلوش باقتراب الامبراطور، فقام بالمغادرة ومعه قواته كلها، بعدما فبرك بعض الأعذار الواهية، وبذل بيلوش غاية جهده لتعليل فراره، فأعلن أنه مأمور من قبل الملك بالتحول عن الطريق المرسوم، والذهاب إلى مدينة برانيتشيفو Bra-nitshevo وبذلك يتمكن من محاربة الرومان بشكل أفضل هناك.

وتمنع الامبراطور عن مطاردته، وعبر نهر [الساڤا] وتوجه إلى برانيتشيفو، وعسكر هناك، وبعد مضي بعض الوقت عزم على نهب جزء آخر من هنغاريا، حيث الجبال التي يطلق عليها المحليون اسم تيميسس(٢٩) Temises فبعث بالقائد بوريس Boris مع جيش، وبوريس هذا نفسه قيل إنه جاء من الأبوين نفسيهما مثل غيزا، ولكن بسبب بعض الخصومات التي وقعت منذ زمن طويل مضى، جاء إلى عند الامبراطور جون ملتجئاً(٣٠)، وقدم له جون مايكفي من التشريف، ووحده معه عن طريق القران بزوجة من أسرته الخاصة، وعندما وصل بوريس هذا إلى المنطقة، قام بالاغارة على البلدات هناك، التي كانت مكتظة بأعداد كبيرة من السكان، وكانت مثقلة بكل نوع من الأشياء الثمينة، ثم إنه اصطدم بثلاث فرق هنغارية، وأوقع هزيمة قاسية بهؤلاء الذين تصوروا أن الامبراطور كان موجوداً، ولدى انسحابه، عاد إلى المعسكر الروماني محملاً بالأسلاب من هناك، وبعدما عرف الملك أن بوريس هو الذي صنع هذه الأفاعيل المرعبة في هنغاريا، قام بملاحقته، متشوقاً إلى قتاله، ومع ذلك لم يتمكن من الالتقاء ببوريس، الذي كان قد عبر الدانوب ليلاً، معتمداً ضوء المشاعل، التي كان الامبراطور قد أشعلها له بأعداد كبيرة من المعسكر، ثم إن اثنين من أفراد فرقة الرجالة، اللذين خلفا على الضفة الأخرى، اختبئا هناك تحت الأحراش، بعد وصول الهنغار، ونجحا بالنجاة.

ومكث الامبراطور بعد هذا النجاح هناك ليقوي بقدر الامكان المدن

الباريسترينيـة Paristrian [القـائمـة على امتداد الـدانـــوب أو «ايستر Ister»]، وكان في نيته عبـور الدانوب مجدداً والاصطدام بـالملك، الذي كـان هو نفسـه معسكراً على الـدانوب على الضفـة المقابلـة، ولدى معرفتـه بهذا، وخوفاً منه فيما يمكـن أن يأتي به الحظ، وخشية منـه (غيزا) أنه إذا مـاهزم هـذه المرة، فإن هذا سيـورط الباقي مـن القوات الهنغـارية ويقودهـا إلى الدمار، لهذا كلـه قام بـالاتصال بالامبراطـور، وبحث شروط السلام، وإثر هـذا وبناء عليه، عاد الامبراطور إلى بيزنطـة واحتفل بالنصر، وقدّم للرب شكراً عظيماً.

وفي هـذه الآونـة، ولـد لـه أول مولـود، وكـان ابنـة رائعـة الجمال مـن الأوغسطه [بيرثـا] ايريـن، وأطلق عليها اسـم ماريـا، واحتفي بها بمثـابة امبراطورة(٣١).

١٢- وفيما الـرومـان منشغلين بهذه الأحـداث، وصـل روجـر [الثـاني] طاغيـة صقلية إلى نهايـة حياته[١١٥٤]، وكـان ابنه وليـم [الأول] الذي تسلم الحكم واعياً تمام الـوعي وعارفاً بجرائم أبيه ضدّ المملكـة الرومانية، فارتأى أن عليه ارسـال رسل إلى الامبراطور لتسوية خلافـاتها، وبناء عليه جاء رجال، قـام كل واحد منهم بـالبحث مع دائرة من الـدوائر الكنسية، وكانت مقترحات السفارة كما يلي:

لقد وعـد بإعـادة جميع الأمـلاك والأشخاص —الـذين كما سلـف في الرواية— كان روجر قد حملهم [في سنـة١١٤٧] بالسفن من يوبويا Eu-boeaوطيبـة في بـلاد الاغـريـق ومـن كـورنثـا، ووافـق على أن يخدم الامبراطور، وأن يكون جاهزاً حيثما أراد(٣٢).

غير أن الامبراطـور رفض السفـراء، وقام بـإعداد اسطـول من السفـن، حمل عليه جيشاً تحت قيـادة قسطنطين الذي كنيته أنجيلوس، والـذي هو خالـه، وأمره أن يـرسو في مكان مـا حول لاكـونيا Laconia، وأن ينتظر

بقية الاسطول الذي كان وشيك الوصول، وبناء عليه أقلع من بيزنطة ووافته ريح طيبة، لذلك رسا عند رأس لاكونيا، الذي يعرف بشكل عام باسم مونبمباسيا (أي المدخل الوحيد) وذلك صدوراً من شكل المكان.

وعلى كل حال، علم الامبراطور، أن غيزا ملك الهنغار، الذي كان منزعجاً لما حدث من قبل، قد عزم على مهاجمة المدن الباريسترينية بشكل غير متوقع، وبادر الامبراطور مسرعاً ليصل قبل المحاولة [١١٥٢]، وهكذا عاد إلى شواطىء الدانوب بأقصى سرعة ممكنة له، ووقف أمام الجيش الهنغاري الذي كان معسكراً على الطرف الآخر، ولم يرغب أي واحد من الطرفين —لبعض الوقت— بالدخول في المعركة، خاصة وأن الرومان لم تكن سفنهم قد توفرت بعد، وتمكن الرومان بعد مضي عدة أيام من بناء أكبر عدد ممكن من القوارب الخفيفة، اعتماداً على المواد التي كانت متوفرة، وسحبوها إلى النهر، ولاحظ الملك الهنغاري ماكان يحدث، وكما ذكرنا، خشي أن يهزم للمرة الثانية فتدمّر مملكته، لذلك لجأ إلى طريق المفاوضات، وقام بارسال سفراء من عنده طلبوا ألا تعاقب هنغاريا بحرمانها من أكثر من عشرة آلاف شخص، وأن يسترد البقية من حشد الأسرى، وبموجب ذلك أعلن أنه سيبقى صديقاً إلى الرومان طوال حياته، وأنه سينتظم بين حلفائهم إلى الأبد، وبعدما عقد اتفاق السلام طبقاً لهذه الشروط، شرع الجيش الروماني بالعودة من هناك(٣٣).

١٣- هكذا كانت أحوال الأوضاع على الأرض، لكنها انتهت على البحر بالطريق المعاكس بسبب حماقة القائد [١١٥٤]، فقد علم أنجيلوس، أن أسطول وليم كان عائداً من الأراضي المصرية ونهر النيل، مشحوناً بالغنائم والثروات من هناك، فعزم على تحقيق انجاز كبير، ولهذا أقلع نحو البحر بقدر ما أوتي من سرعة، ليلتقي به، وذلك دون أن ينتظر وصول بقية الأسطول من بيزنطة، ومع أن الامبراطور قد اعترض مراراً على هذا، ونصحه بوساطة الرسائل وبين له أنه لاينبغي لقوة صغيرة أن

تدخل في صراع مع قوة أكبر منهـا بكثير، وأكد أن مامن شيء سيحول بين أنجيلوس نفسه وبين أن يؤسر من قبل البرابرة، وتقع الواقعة، ولايعود من هنـاك —كما يقـول النـاس— مخبر [Angelos] يخبر بها حـــــدث، وأصغى أنجيلـوس إلى هذا قليلاً، ولـذلك دخـل في معركة مـع الأسطول الصقلي لحظة ظهوره.

واستدار الصقليـون في البداية وانسحبوا في نظـام جيد، لكنهم عنـدما أدركوا أن الـرومان كـانوا في فوضـى عظيمة، وأنه مـن الواضـح أن عدد سفنهم أقل عدداً مما لديهم، استـداروا مسرعين، وعادوا مندفعين نحوهم، وحدث آنـذاك أن الريـح التي كـانت سـاكنة فـوق السواري الـرومانيـة، تحركت فجـأة إلى زوبعة عاتية، وهنـا قامت بقيـة السفن الرومانيـة، التي هـي تحت امرة أنجيلـوس آخر، كـان أخـاً للأميرال الـرئيسي (كان يقـود عدداً ضئيلاً من السفـن) بالفرار بشكل فوضوي، أمـا بالنسبة لقسطنطين [أنجيلـوس] الذي بقـي في وسط الأعـداء، فقد وقـع في أيديهم، وهكـذا نال جزاء حماقته، وبعدما فعلت السنة هذه الأفاعيل المغيرة، انتهت(٣٤).

١٤- وسمع الامبراطور أن الحاكم الهنغـاري قد أعلن العصيان مجدداً، (كـان لايستطيع تحمـل مثل هـذه المواجهات العـدوانية) لـذلك ركـب الطـريق عـائداً إلى الدانـوب، وبما أن الطرف الآخـر كـان مرعـوباً لـدى اقترابه، لذلك فتح باب المفاوضـات حول السلام، وهكذا انتهت حربهما، وأشرقت ابتسامـة منافع السلام [١١٥٣](٣٥)، وبعـد وقت قصير —على كل حـال— عندما هيـأ ابن عمه أندرونيكـوس مناسبة، قـام غيزا مجدداً بمقاتلة الرومان، غير أن هذا حدث فيما بعد.

ففـي ذلك الـوقت [١١٥٢] أرسـل الامبراطور أنـدرونيكوس هـذا إلى كليكيـة وايـزوريـا، وذلـك بعدمـا سماه قـائداً أعلى للحـرب هنـاك، لأن طوروس الأرمنـي، وكان رجـلاً عالي المكـانة، قـد وقع في أسر الامبراطـور

ـرب، وعندما قام الامبراطور بحملة على الحدود الايـزورية [أي الأرمنية] عاد طـوروس إلى كليكية هارباً من بيـزنطة [حوالي١١٤٥]، وحـاول إثر اعـلانـه العصيـان أن يجعـل المدن هنـاك تثـور لتتخلـص مـن السلطـة الرومانية(٣٦)، ولهذا السبب أرسل الامبراطـور أندرونيكوس، وبعث أيضاً بالقيصر [جون روجر] بغية الاقتران عن طريـق الزواج بكونستانس، زوجة الأمير ريمونـد [صاحب انطاكيـة] الذي كان قـد فارق الحياة،بطريقـة أنا مقبل على حكايتها:

حاول البرابـرة الذيـن يقطنون في تلك الأحـواز احتلال إحـدى القلاع بعد حصـارها، وهذه القلعة قـائمة على مقربة مـن حلب، وكانت تـدفع الجزيـة إلى الانطاكيين، وقـد حاولـوا ذلك بعـدما علمـوا بقلة المؤن فيهـا [١١٤٩]، وكان ريمـوند متفوقـاً بالنشـاط العسكري وفعالاً أكثـر من أي انسان آخر، لذلك ما ان سمع بذلك حتى بادر على رأس القوات المتوفرة لديـه نحو القلعة، ونظـراً لانسحاب الأعداء ولعـدم انتظارهم لـه، اكتفى بتزويد القلعـة بالمؤن والعتاد، ثم كـرّ راجعاً، وكان الوقـت عصراً، ولذلك بدا لـه أن الأفضل هـو متابعـة السير، لأنه لم يكـن هناك مكـان قريـب، يمكنهـم بأمـان الترجـل والعسكـرة فيه، وكـان الـذيـن معه قـد أصيبـوا بالانهاك الشديـد بسبب الرحلة، فقد أرادوا العسكـرة في أي مكان هناك، وقـد أروه مكـاناً محاطـاً غـالبيتـه بـالمستنقعـات، وبقيته مغلـق بـالتـلال والشعاب البـارزة هناك، ومـع أنه كـان عنيداً، فقـد أعلن، وهـو يشير إلى التل، «انـه يخشى أن الأعـداء إذا ماقامـوا بهجوم ليلي، فسيجـدون المكان مغلقاً ليـس فيه منفـذ للخروج لنا، ووقـت ذاك سنكون غير قـادرين على الدفاع عـن أنفسنا، وسنذبح مثل الشياة المحصـورة في حظيرة»، وهنا قام واحد مـن الذين كـانوا معه فـألقى متسرعاً نحـو الرجل بكلمات قـاسية، وأعلـن أن هـذا التردد مصدره الجبـن، وليـس الحكمـة، وسمح ريمـونـد لغضبه وعناده أن يسيطـر عليه فقال: «إنني أعرف أيها السيـد النبيل، أننا

إذا مارحلنا من هنا وغادرنا هذا المكان، أنك لن تتوقف مطلقاً عن اتهامنا بهذا، لذلك سوف نعسكر هناك، مادام ذلك يبدو مناسباً لك، لكن انتبه لنفسك، ولاتكن عاجزاً عن التعبير بالأفعال عن الشجاعة التي أعلنتها هنا بدون حاجة إليها، ولاتخف ولاترتعب عندما تنقض الأعداء علينا من المكان الذي قمت أنا بذكره»، وما ان أنهى ريموند كلامه هذا حتى دخل إلى ذلك المكان، الذي كان مناسباً لفصله والاحاطة به كلياً، وبعد مضي قسم طويل من الليل، هاجمهم الأتراك من الاتجاه الذي ذكره وقتلوا خيولهم وقتلوهم هم أنفسهم، دون أن يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، أو حفظ ذواتهم(٣٧).

إنه في ظلّ هذه الظروف، وضمن هذه المعطيات ذهب القيصر جون إلى انطاكية[١١٥٢]، لكنه لم يحقق شيئاً مما جاء من أجله، (لأنه كان مسناً، ونظرت كونستانس إليه بدون سرور ورغبة) وعاد إلى بيزنطة، وعندما نزل به المرض، حلق شعر رأسه، ولبس اللباس الأسود الذي يرتديه [الرهبان](٣٨).

١٥- وعندما جاء أندرونيكوس إلى كليكية[١١٥٢]، ووجد طوروس مقيماً في المصيصة، شرع بحصارها ومعه الجيش كله، وكان من الممكن له أن ينجز بسرعة شيئاً مفيداً، وأن يلقي القبض على المتمرد، بسهولة كبيرة، لولا أنه كرّس نفسه وأوقفها على اللهو واللعب في خيمته، وهكذا حبطت شؤون الرومان وهوت، لأن طوروس عندما تعرف إلى عجز أندرونيكوس، ولاحظ التوافه التي شغلته بلا فائدة، انتظر قدوم ليلة ظلماء بدون قمر، فرمى بأجزاء كبيرة من سور المصيصة، وقاد بشكل غير متوقع جميع قواته، وهاجم الرومان الذين كانوا غير مستعدين تماماً، وألحق بهم هزيمة شنعاء، وبعد مضي وقت طويل، علم أندرونيكوس بهذا، (لأنه كما ذكرت مارس اهمالاً كبيراً جداً)، فما كان منه إلاّ أن امتطى ظهر حصانه، وحمل وبيده رمحه، وأظهر أفعالا رائعة وقدرة عظيمة (لأنه

كـان كما ذكرت مـراراً [كذا] متفـوقاً على غيره بـالشجاعـة ولا ندّ لـه في ميدانها) غير أنـه عندمـا وجد نفسـه غير قادر على انجـاز أي شيء، انهزم بصعـوبة كبيرة، ووصـل إلى انطاكيـة، وفي أثناء ذلـك القتال، حـدث أن تعرض ثيـودور كونتـوستيفانـوس، الذي وصـل إلى مرتبـة سيباستيـو Se-bastoi ، لفقدان فـرسه برمية سهـم، وحرمانـه من رأسه بوسـاطة أحد المرتزقـة الرومان، الذي كان يكـن له عداوة قديمـة، لأن ثيودور كان —كما قيل— قـد طرد هـذا الشقي مـن البلاط الامبراطـوري منذ وقـت طويل انقضى بسبب سوء أخلاقه(٣٩).

١٦- لقد كـان هذا مـاوقع في كليكية في ذلـك الوقـت، وعندمـا عاد أنـدرونيكوس مـن انطاكيـة إلى بيزنطـة، لم تتأثـر مكانتـه في القصر، وعلى عكـس ماكـان متـوقعاً تمتـع بحقوق خطـابتـه السالفـة، وقـد قيل، بـأن الامبراطور قد استقبله على انفراد، ووبخه بمرارة، ووجه اللوم إليه لإهماله للشؤون العسكـرية، وأدان تهاونـه وتراخيـه غير المسوغ، وكـان —على كل حال— يبـدي نحوه في العلـن تشريفاً وتقـديراً فـوق الآخريـن، ويتحفه بأعطيـات فخمة، وبالفعـل قام فيما بعد بتعيينـه حاكماً لكل مـن نيسوس وبرانيتشيفـو Branitshevo ، وإضـافة إلى هـذا منحـه كـاستوريــا Kastoria [١١٥٣].

هل كـان أندرونيكـوس يسعى جاهـداً للثورة منـذ البدايـة، وأن ذلك كان حبيسـاً في نفسه؟!، فهذا مـا لاأستطيع تأكيـده، ولكن انطلاقـاً من الساعـة التي وضحـت فيها نـواياه السيئـة سوف أحكـي: عندمـا احتل الامبراطور مانـويل العرش الامبراطوري، أصبح أندرونيكـوس مسؤولاً عن كيف يمكن للرومـان تطويرتسليحهم من أجل المستقبـل، وكانت العادة بالنسبة لهم مـن قبل التسلح بترسة مستديرة، وأن يحمـل معظمهم جعباً، وتقديـر مصير المعركـة بالقسي، وقد علمهـم حمل [ترس] واحـد يصل إلى أقـدامهم، كما وعلمهـم استخـدام الرمـاح الطـويلة، وممـارسـة الفروسيـة

ببراعة، راغباً في جعلهم يتقلون من الاستعداد لحرب إلى حرب، وغالباً ماإعتاد على ممارسة الفروسية، وتطبيق مايشبه المعركة، وذلك بوضع تشكيلة أمام أخرى، والقيام بحملات برماح بدون أسنة، وأقاموا مناورات بالسلاح، وهكذا برع الرومان في حقبة قصيرة في الأسلحة الفرنسية والايطالية، ولم يعش الامبراطور نفسه نائياً عن هذه الصراعات والتدريبات، بل كان يصطف في الصفوف الأولى، يستخدم رمحاً لا قرين له في الطول والحجم، ثم إنه بالاضافة لما قيل ربطت راية ذات طول عظيم إلى رمحه هذا، ونظراً لأنها كانت مقسمة إلى ثمانية أقسام أطلق عليها بالعادة اسم «أقدام ثمانية»، وقد قيل في الحقيقة انه عندما جاء ريموند إلى بيزنطة اندهش وظن أن في المسألة خدعة ما، علماً بأن ريموند هذا كان رجلاً يشبه هرقل الأسطوري، ولذلك اقترب من الامبراطور وسأل أن يرى الرمح نفسه والترس، ولدى حمله لهما، أدرك الحقيقة، وأعلن عن دهشته لما اكتشفه.

١٧- وعندما كان الامبراطور مرة مشغولاً في هذه الصراعات [الوهمية] في هرقلية السالفة في منطقة مسينا [بيلاغونيا —بيتولا الحالية](٤٠) أصيب جون بن أندرونيكوس السيباتوكراتور [أخو مانويل] مباشرة بجرح في إحدى عينيه، وذلك بطعنة من رمح ايطالي، وكان شاباً وسيماً ورشيقاً، وقام مانويل بترقيته إلى Protovestiarios ، ثم رفعه إلى رتبة الـ Protosebastoi (٤١) ، وقيل أثر هذا كثيراً على نفسية أندرونيكوس، فعمل منذ ذلك الحين بلا انقطاع بالتآمر والنشاط الخياني، وعندما كان بعد ذلك في القيادة في كليكية، ربح إلى جانبه ملك فلسطين وسلطان الترك، وبعدما عهد إليه بحكم نيسوس وبرانيتشيفو، كما ذكرنا من قبل، تعهد في رسالة بعث بها إلى الملك الهنغاري، أنه إذا ما أسهم في مساعدته على تنفيذ نيته باغتصاب العرش، سيتنازل في حال نجاحه في أغراضه، عن كل ادعاء بكل من برانيتشيفو ونيسوس، وذلك اعترافاً

بفضله، واحتياطاً منه أنه إذا ما تمّ كشف هذه الأشياء، ولكي لايكون موضع شك في المستقبل، قرر التحول إلى اتجاه آخر، وبناء عليه أفشى إلى الامبراطور عن وجود مؤامرة خيانية يدبرها بعض الشخصيات القوية في هنغاريا، فهؤلاء اتصلوا به ليتملكوا علاقات صداقة معه، والذي قصده من ذلك أنه يمكن وضعهم تحت سلطته بكل سهولة، وكان الامبراطور —على كل حال— على دراية بما يدبر، فقد وصلت إلى يده الرسالة التي وافق فيها أندرونيكوس على التعهدات السالفة الذكر مع الحاكم الهنغاري، ورغب مانويل في امتحانه، فسمح له أن يفعل هذا دون تستر، وتصور أندرونيكوس مقتنعاً أن كلّ نوع من الريبة قد زال من حوله بالنسبة للمستقبل، فبعث برسل من عنده إلى كل من ملكي الهنغار والألمان ليجذبهما نحوه ليقدما حتى إلى تقديم العون له في اللحظة المناسبة.

وبعدما دبر أندرونيكوس هذا، عاد إلى بيزنطة [١١٥٤] متظاهراً بأنه أتم ابرام المعاهدة بين الرومان والهنغار، وظل الامبراطور متمنعاً عن الحاق الأذى به، ولاأدري هل كان سبب هذا حبه له وعنايته به (ذلك أنه كان معجباً به إلى أبعد الحدود، لأنه كان من العمر نفسه مثله، وتشارك معه في النشأة والتعليم، لابل في الحقيقة تدرب معه على السباق والمصارعة ورياضات أخرى كثيرة) أو كان في ذهنه شيئاً آخر.

عندما كان أيضاً مرة في هرقلية المسينية —والتي يدعوها الرومان الآن باسم بيلاغونيا متبعين بذلك إحدى اللغات المحلية— ذهب الامبراطور في إحدى رحلات الصيد الليلية، حسبما كانت عادته مراراً [١١٥٤]، وبعث به النبلاء المشرفون على تدريباته الجسدية ضد دب، وسلحوه بكل ماهو محتاج لمنازلة دب متوحش على الأقدام بوساطة الرمح، وروي أنه كان بالدرجة الأولى واضعاً على صدره درعه، وكان بالوقت نفسه شاكي السلاح تماماً، محترساً —كما قيل— ضد مؤامرة يدبرها اسحق

(أخوه) (٤٢) السيباتوكراتور، والـ Stratarchos الأكبر، علماً بأن اسحق لم ينجح بالنهاية في أكثر من الاستيلاء على الأختام الامبراطورية، التي كان الامبراطور يصدق بها عادة على المنح، هذا وهو لم يأخذهم بدون تسويغ، بل أخذهم لسبب، أنا مقبل على قصه:

بينما كان مقيماً في ميلانغيا في موضع اسمه ميتابول Metabole، ألقيت أثناء إحدى الولائم خطب أمام الامبراطور، وفي الوقت الذي أجمع فيه الخطباء على الثناء على أفعال الامبراطور، آثر اسحق مدح أبيه وتفضيل أعماله على أعمال أخيه، وكان الامبراطور مسروراً لما قاله، فقد كان يعجبه أن يكون أدنى من أبيه، وفي الوقت الذي بدت فيه كلمة اسحق مملة بالنسبة للآخرين، لم يقف في خطابه عند هذا الحد، ولئن كان معقولاً التفوه بمثل هذه الأشياء اظهاراً للاخلاص للامبراطور الراحل، وهذا شيء، أعتقد أن كثيراً من الرجال يعرف كيف يقوم به، ثم إن تقديم المديح من قبل الأحياء إلى الذين ليسوا على قيد الحياة، هو بالتأكيد برهان على المشاعر الطيبة نحوهم، غير أن اسحق أضاف إلى هذا أشياء من قوارص الكلام، وتكلم بمشاعر بغيضة نحو الابن، مما أدى إلى نشوب شجار واحتدامه، واندفع أندرونيكوس هذا يشتم السيباتوكراتور، وكان على وشك حرمانه من رأسه، لولا أن الامبراطور مدّ ذراعه، وقام ابن خاله جون دوكاس بادخال السوط الذي يغمز به بالعادة فرسه، تحت السيف الهاوي، فأنقص بذلك من تأثير الضربة وأضعفها وجعلها تصيب حنك أندرونيكوس، وأنقذ بهذه الطريقة، وذكرنا أن الامبراطور مدّ يده فوق أندرونيكوس، ولذلك أصيب، ولم تكن اصابته في الحقيقة اصابة قاتلة، بل جرح قطع اللحم قليلاً، وخلف ندبة على رسغه طوال الحياة، وعلى هذا أطفئت هذه الخصومة التي اشتد أوارها، وأبعده الامبراطور، وطرده من حضرته لبضعة أيام، واستجابة منه لما حكم به جون، فرض عليه غرامة أدنى مما تحدد بالقانون(٤٣).

ودعونا الآن نعود إلى حيث كنا من سياق الخبر.

١٨- وبما أن أنـدرونيكوس كـان يعرف أن الامبراطـور ذاهب في حملـة صيد تستمر طـوال الليل، قام بتسليح عـدد كاف من أتباعـه الايزوريين، الذين تقـدم لهم أن حلفوا له أنهم سيقاتلـون إلى جانبه ضد كـل انسان، وبعدمـا أخذ أسرع فـرس بين خيولـه، ذهب معهـم إلى البقعة المحـددة، ومركـزهم هناك بعيـداً قليلاً في المكان الأكثـر كثافة في الأشجـار، وأوقف فرسـه، واقترب من خيمـة الامبراطور وهـو على ظهر بغـل، وهناك تـرجل، وتوجه يجري متقـدماً سيراً على الأقدام بكل هدوء وقد حمل مـدية في يده اليمنـى، وخشيـة منه أن يجري تعقبـه مـن قبـل أي انسان، فقـد ارتـدى معطفاً إيطالياً عوضاً عن معطفه العـادي، ولكن عندما لاحظ أنه شوهد، (لأن الذيـن كانـوا يحيطون بالامبراطـور النائم قد شهـروا سيوفهـم، وكان بينهم ابن اخت الامبراطور جون [الـ Protosebastos] فهو كان أول مـن رأى اقبال أنـدرونيكوس) وأدرك أنـدرونيكوس تمامـاً ذلك، فجلس فـوق الأرض، وتظاهـر بالقيام بـافراغ مـافي أحشائه، وبعـد وقت قصير انسحب، وبذلك أخفقت هذه المؤامرة هناك.

ولكن بعد مضي بعـض الوقت، جاء مـع مزيد من الايـزوريين، وأقبل في الليـل وهو شـاكي السـلاح لمهـاجمة الامبراطور، وعنـدما رفـع الخبر إلى الامبراطورة [بيرثا—ايرين] من قبل ألكسيوس، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الاستقرار في القصر (يـدعو الرومان هـذا المنصب Protostrator) (٤٤)، ذهب واحد مـن رجال الحرس مباشرة نحو الامبراطـور ليحذره من المؤامرة، ثـم أرسل اسحـق(٤٥) —وكان مـن أصل بـربري، ومحط الثقـة الخاصة والعنايـة من قبل الامبراطور— مع ثلاثمائة رجـل مسلح، لكن لم يكد اسحـق يصل إلى البقعـة حتى كـان الامبراطور قـد علم بمجـريات الأحداث، وبينما كـان البقية قلقين وحائريـن حول أنفسهم (لأنـه حدث أن كان معظمهـم ممتطين البغال) بين أن عليهـم تجنب الطـريق المبـاشر

الذي يقود إلى المعسكر والخيمة الامبراطورية، بل أشار بيده ليسيروا على الطريق غير العادي وغير المطروق، كما وتوجب عليهم عدم السير بشكل معلن، بل على شكل أفراد موزعين، وقال: «بهذه الصورة نبدو وكأننا بعض الأشخاص العائدين من جمع المؤن ومتوجهين نحو الخيم المرئية هناك»، وذهب الامبراطور على هذه الحالة غير هياب إلى خيمته، لكن حدث أن دباً متوحشاً قد اصطدم بجون السالف الذكر (البروتوسيباستوس) وعضه بأنيابه، وما ان علم الامبراطور بهذا حتى عاد نحوه، واتخذ الاجراءات المناسبة للعناية به، ثم غادر،وتصرف بذاته بشكل كريم كبير تجاه هذه القضية إلى حد أنه لم ينتقد أندرونيكوس حتى بنظرة، وتظاهر أندرونيكوس أنه لايعرف شيئاً عن المسألة، واعتنى عناية فائقة بالفرس الذي سلف وذكرته، وكان واضح التحامل بحديثه وآرائه ضد جون، وعندما سأله الامبراطور لماذا يفضل العناية بهذه الفرس قال: «من أجل انني عندما أحرم أشد أعدائي مرارة من رأسه، سوف أهرب عليه وأنجو»، وظهر بذلك وكأنه يشير إلى البروتوسيباستوس [جون]، وأعتقد [مانويل] أن الرجل كان مصاباً بعقله، ولهذا السبب فصله وأبعده عن حاشيته وأتباعه وأودعه السجن في القصر [حوالي١١٥٥-١١٥٦]»(٤٦).

١٩- وهكذا أزيح من الطريق، لكن بالنسبة لملك الهنغار الذي لم يسمع شيئاً عما حلّ بأندرونيكوس، فقد قام بحشد قوى من التشيك، والساكسون ومن أمم أخرى، وتهيأ لحصار برانيتشيفو [١١٥٥]، وأعتقد أن الذي أثاره وحركه ماكان أندرونيكوس قد وعده به، ولدى سماع الامبراطور بذلك استطار دهشة تجاه ماسمعه، وتساءل حول مصداقية الهنغار، وعن السبب الذي حدا بهم إلى عدم مراعاة العهود التي قطعوها على أنفسهم مؤخراً، وتقرر لديه أن المسألة لابدّ وأن تثير بسرعتها الخوف، لهذا بادر على الفور بالذهاب نحو الدانوب، وإدراكاً منه أن أتباعه لن

يكونـوا مكافئين في القتال للجيش الهنغـاري (لأن القوات الرومانيـة كان كل منها باقيـاً في منطقته بسبب أن الدولة لم تواجه عدوانـاً من قبل أحد من أي اتجاه منذ زمن بعيد) قرر أن يعمل كما يلي: كان هناك مكاناً اسمه سميلس(٤٧) Smeles يمتلك خصـائص دفاعية معتبرة، لذلــك قرر الاستيلاء عليه، واتخاذه قاعدة لحملته ضد الهنغار.

ومن أجـل أن يقوم أهـل برانيتشيفـو بالوقـت نفسه بحـراسة مـدينتهم لصالحه، كتـب إليهم رسـالة أخبرهـم فيها أنـه سيصل إليهـم بعد وقـت قصير، وعهد بالرسـالة إلى واحد من جنوده، وأمره أن يـرمي بها إلى المدينة بعد ربطها على سهم، ونفـذ الجندي ماأمر به، غير أن الرميـة ذهبت أبعد مما هـو محتاج، ووقـع السهم في أيـدي الهنغار،فـاستولى عليهـم الانزعـاج ودبـت بين صفوفهــم الفوضـى، فـألقوا النـار في آلات دك الأسوار، وكـل ماكـانوا أعـدوه للحصار، وتـوجهوا نحـو نقطة عبـور الدانـوب، فوجـدوه فائضـاً (ذلك أن عـاصفة قد أوصلـت مياهـه إلى أعلى ارتفاع) فـأسرعوا بالتوجه نحو بلغراد.

وعرف الامبراطور بهذا، وعلـم أن بورج Boric` ، حاكم البـوسنة، وهي منطقة صربية(٤٨) —وكان قد التحـق بحلفاء الحكام الهنغار— قد عـاد إلى أراضيه، فـاختار الجزء الأعظـم شجـاعة بين الجيـش الذي كـان معه، وأرسلـه للاشتبـاك مع بـورج، وقاد هـذا الجيش بـاسيل، الـذي ورد ذكـره من قبـل، والـذي جاء مـن أسرة متواضعـة، لكـن الامبراطور عينـه Chartoularios(٤٩)، وذهب الامبراطور مع بقيـة الجيش، وتبعه لكن على مهـل، وكان بـاسيل، على كـل حـال، ناسيـاً، كما أظن، لماذا أرسلـه الامبراطور وليتحارب مـع من، وفيما هو زاحف بـالسرعة القصوى، اقترب من الجيـش الهنغاري، واصطـدم بطلائعه، وردهـا إلى الخلف، ثـم انقض على وسـط القـوة الهنغـاريـة، وخطط لنيـل نجـاح كبير، وقـاتلهـم وهـم مذعـورين ورمى بهم في لجة الفوضـى، وهكذا حقق بسرعة شيئـاً لم يكن

مطلقاً في حسبانه.

ذلك أنـه خيّل للهنغار في البـداية أن الامبراطور، كـان هو الذي يـدير دفة هـذه المعركة، فهـربوا بشكل فوضـوي، وغرق كثير منهم في النهـر من الـذيـن تكاثـروا فـوق القـوارب أثنـاء جـوازه، لكنهم مـا ان لاحظـوا أن الامبراطور من خلفهـم ولم يصل بعد، وأن باسيل هو الـذي يقود الجيش، حتى تشجعـوا، واستداروا، وواقفوا الـرومان، وصحيـح أن الرومان كـانوا أقـل بكثير عدداً مـن الأعداء، مـع ذلك قـاوموهـم، وسقط العـديد مـن القتلى على الطرفين، واستمر الحال كذلك حتى بدأ البلغار —الذين كانوا بخـدمة ستيفـن بن غيـزا(٥١)، وكـانوا حلفـاء مـع الرومـان يقاتلـون إلى جانبهم— بالفرار، وسقط أثناء المطـاردة على الطريق التي تلت عن قرب جميع الهنغـار الذين كانـوا مع ستيفن مـع كثير من الرومان، وأنقـذ آخرون حياتهم بالهرب وكان من بينهم القائد باسيل.

وعنـدما حملـت هذه الأخبـار إلى الامبراطـور، وذلك بـالاضافـة إلى أن سكان بلغـراد كانـوا يفكرون بالثـورة والتخلص من الـروماني، شعـر بقلق عظيـم، فبعث بجـون كـانتـاكوزينـوس Kantakouzenos ليقوم أولاً بالاستقـرار بالمدينة التي اضطـربت بمشاعـر العصيان، وثانياً ليتـولى دفن أجساد القتلى الرومان، وليـدعو البقية من الفرار من حيـث كانوا منتشرين في المنطقة ومختبئين فيهـا، وكان مـانويـل على كل حـال غاضبـاً إلى أبعد الحدود بسبب ماحدث، وكان متحرقاً ومتشـوقاً للحاق بالهنغار، وعندما لم يـوافقه الـرومـان على هـذا قال: «لكـن أيها السـادة، إنـه عار عليّ، وأنـا أناضل في سبيل رفـاه الرومان، أن أتراجع أمام المصـائب»، وعندما سمع أن قوات الهنغار لم تكـن بعيدة عنه، تخلى عن المحاولة، وفي الـوقت نفسه كان كـانتازينوس قـد أكمل الأعمال التي أرسـل من أجلها، وعـاد، ومعه مربوط بـالسلاسل الناس من بلغـراد الذين كانـوا —كما قيل— يحاولون العصيـان، ثم تحرك مـانويـل من هنـاك وأمضـى الشتاء على مقـربة مـن

مدينة بيرهويا Berrhoia [ستارازاغورا Starazagora].

وفي الربيع[١١٥٦] عاد إلى هنغاريا، وذلك بعدما جمع قواتاً من كل اتجاه، ذلك أنه كان متشوقاً ومليئاً بالرغبة ليخترق البلاد إلى أقصى أجزائها، وفي هذا المقصد أقام معسكراً على شواطىء الدانوب مباشرة ومعه جميع قواته، ورست السفن التي جاءت من بيزنطة، هناك في أعداد كبيرة، وأقامت تنتظر القيام بحمل القوات المسلحة أثناء الجواز، ولدى ادراك الملك الهنغاري أن أموره كانت بالفعل في حالة صعبة، تحول نحو الرسل، فبعث إلى الامبراطور برجال كانوا ذوي مناصب عالية في بلاطه، ووعد باعادة الأسرى الرومان على الفور، وأنه من الآن فصاعداً سيطيعه في كل شيء يرغب به، وبدا الامبراطور في البداية ميالاً تماماً لرد الرسل ورفض عروض السلام، ثم تراجع نحو قبول مطالبهم، وأنهى السفارة بالاتفاق على الشروط المذكورة، وعلى هذا الأساس تمت إعادة جميع الأسرى الذين أخذوا —كما ذكرنا— في المعركة المتقدمة، ولقد أعيدوا إلى المعسكر الروماني، وأعيد معهم أيضاً الأسلحة والخيول وكل شيء كان من أسلاب المعركة، أما بالنسبة لما هلك من خيول وثيران، فلقد تمّ التعويض عنهم ببدائل حيوانية جمعت من السكان المحليين بين الهنغار، وبإنهاء الحرب على هذه الصورة، عادوا إلى الوطن.

ومن هذه اللحظة بدأت الحرب الايطالية وتحركت بشكل كبير، وهي الحرب التي كنتُ قد تحدثتُ عن بداياتها، وإذا ماعدنا قليلا إلى الوراء ننتقل للحديث عنها.

الكتاب الرابع

١ - شغل فردريك –ابن أخي كونراد– منصب حكم الألمان، بعدما واجه كونراد منيته(١)، وكونراد هو الحاكم الألماني الذي سلف وذكرناه بما فيه الكفاية في روايتنا المتقدمة، وبما أن فردريك قدّر النبالة تقديراً عالياً، (بالنسبة للزواج كان أهم الأشياء لديه أصالة العروس، فالعروس الأصيلة كانت لديه مفضلة على كل شيء آخر) وقد سمع أن ماريا ابنة السيباتوكراتور اسحق [أخو مانويل] كانت متميزة بالمولد، ومتفوقة بالجمال، وقد بلغت سن الشباب في بيزنطة، فوقع على الفور في أسر الفتاة، وبعث بالرسل إلى الامبراطور، وطلب أن تخطب إليه لتكون زوجته، ووعد بالوفاء بكل ما وعد به عمه كونراد وهو معه، عندما كانا عائدين من فلسطين، ووعد كذلك بتقديم العون للرومان في الاستيلاء على ايطاليا، ولقد حملت سفارة فردريك هذه الشروط وطلبت الموافقة عليها(٢).

وقبل الامبراطور هذه العروض، وقام نفسه بارسال رسل إلى فردريك، وأمرهم بتأكيد الاتفاقات، وعندما جاء هؤلاء السفراء للحديث مع فردريك لاحظوا عدم وجود أي شيء صلب في نواياه، فعادوا دونما نجاح، وذلك بعدما أقنعوه بارسال سفارة ثانية إلى الامبراطور، وعندما رفضت أيضاً من قبل الامبراطور، أرسل الامبراطور رجالاً من الارستقراطية [١١٥٥] فيهم ميخائيل باليولوغوس، وجون دوكاس، وكلاهما قد وصل إلى مرتبة سيباستيو Sebastoi، وكان بينهم أيضاً الاسكندر صاحب [كونفيرسانو Conversano] الذي كان يحكم غرافينا Gravina فيما مضى، وهي مدينة ايطالية، لكن

عنـدما طـرده روجر جـاء ملتجئـاً إلى الامبراطور(٣)، وعهـد إليهم بكمية كبيرة من المال مـن الامبراطور عند سفرهـم، وقد توجـب عليهم أنهم إذا عرفوا أن فردريك مقيم في جنوب الألـب أن يذهبوا جميعاً لمقابلته، أما إذا كان موجوداً في مكان أبعد، فعلى ميخائيـل الذهاب إلى ايطاليا مع المال، وأن يذهـب البقية إلى فردريك، وإذا مـاعبر عن عدم اعتراف بالاتفـاقية، فالمتـوجب عليهم آنـذاك أن يتقدموا بـأنفسهم بـاعلان الادعاء بـامتلاك ايطاليا،وكان هذا ماحدث بالفعل.

٢- كان لروجر [الثاني] طاغيـة صقلية ابن اخت اسمه [روبرت أوف] بازونفيـل(٤) Bassonville ، وفي أثنـاء حياة روجـر، كان يتـــولى ادارة حكومة ايطاليـا [أي أبوليا]، وبعدما مات وانتقلـت السلطة إلى ابنه وليم [الأول]، أنزل بـازونفيل إلى مرتبة معـاون لحاكم ايطاليا، حيـث تولى رجل آخر حكومـة ايطاليا، ورفض بازونفيل تحمل هـذه الاهانة، فعزم على الثورة، وبنـاء عليه كتـب إلى فردريـك، ووعده بـوضع ايطـاليا كلهـا مع صقليـة بين يـديـه، وفي الـوقـت الــذي كـان فيـه فـردريـك أسير التردد والمصاعب عـاد رسل بازونفيل مخفقين، وفيما هم على الطـريق صدف أن التقوا بـالاسكندر، وكـان الاسكندر بدوره عـائداً من بـلاط فردريـك بعد اخفاقـه في تحقيق أي شيء كان قـد قصد ذلـك البلاط من أجلـه، وكان أثنـاء عودتـه مـن هناك بـرفقتـه [جون] دوكـاس، وعنـدما تحدث رسـل بازونفيل مـع الاسكندر، وعلم الاسكندر السبـب الذي توجهوا مـن أجله إلى بلاط فردريك، تـوجه إليهم بالخطاب يقول: «أيها الأصـدقاء الأعزاء، على مقربـة منا شخص يمكنـه منح النجاح لسفـارتكم»، وعندمـا رغبوا إليه في معـرفة من هـو، أجابهم قائلاً: «امبراطور الـرومان»، وحدثهـم عن كـل شيء بانتظـام، وأضاف بـأن بـاليولـوغـوس، الذي كـان عضواً مـن المجلس الرومـاني، والذي تمت [ترقيته](٥) إلى مـرتبة الـ Sebastoi، كـان موجـوداً ومعـه مبلغ كبير مـن المال، وقد جـاء إلى هـاهنا لاخضـاع

ايطاليا لصالح الامبراطور.

وعندما سمـع رسل بازونفيل هذا، أوصلـوا إليه هذه الحقائق بـرسالة، فأبـدى رغبته في منـاقشة المسـائل مع الـرومان في بيسكـارا Pescara ، ولدى اطلاع باليولوغوس على هذه المستجدات، قام بدون تأخير بالابحار إلى بيسكارا ومعه عشرة سفن، واستولى وهو في طريقه على فيستي Vies-ti ، وآلت ملكيـة هذه المدينـة إلى الامبراطور، وهنا بـدا لبازونفيـل أنه من المفيد اللقـاء معه في فيستي، لذلـك أبحر عائداً إليها، فـالتقيا هناك، وبعدمـا تبادلا الأيمان حـول المسألـة قيد البحـث بينهما، انضم وقتهـا إلى عمليه الصراع(٦).

وكـان دوكاس قـد جمع قـوة، قـادها إلى خصـار قلعـة كـانت حسنـة التحصين، يتولى قيـادتها ايطالي اسمه بـراونتزوس Prountzos، وعندما هاجمها الرومـان، دفعوا بالأعداء من وراء الأسوار، وانقضـوا على الفارين، وهرب البقية إلى داخل الحصـن، لكن عندما أخذ الرومـان بإلقاء النار في أماكـن السكنى، وبنهب الممتلكـات والمقتنيات في البيـوت، شرع الناس بالنـزول وهم يهتفون بحياة الامبراطـور وينادون به سيداً لهم، وهكـذا باتت الـرومان متملكين لها، وعنـدمـا وصلوا إلى مـدينة تحمـل اسـم القديـس المبجل هناك، وهو القديس(٧) Flaviano ، اندفع السكان جميعاً عبر الحقول، يسـألون ويرجـون عدم تعـرضهم للأذى، أو أي ضرر مـن الجنود الرومـان، ووافقوا على أن يـدينوا بـالطاعـة إلى الامبراطور وأن يفعلـوا كل شيء يرغـب به الرومـان، واستجاب لهم القائد الـروماني بكل لطـف، ثم زحف من هناك وكأنه يسير وسط بلـد صديق، وفيما هو على نية الانطلاق من هنـاك، جاء وليم أخو بـازونفيل، وكان صديقـاً للروماني منذ القـديم، جاء يحمـل رسالة من أخيـه يحث فيها دوكاس أن يطمئن نحـو المستقبل، لأن المنطقة الواقعة آنذاك أمامه باتت تدين بالطاعة له نفسه(٨).

٣- وكما ذكرنا من قبل بعدما استولى باليولوغوس على فيستي بموجب معاهدة، تابع زحفه نحو تراني Trani ، وعندما رأى شعب تراني الجيش الروماني، أرسلوا رسلاً إلى القائد الروماني وطلبوا منه المغادرة، ذلك أنهم كانوا لايرغبون في تسليم المدينة له، وأعلموه انه من غير الممكن له الاستيلاء على تراني إذا لم يحتل باري Bari أولاً، وبناءً عليه غادر من هناك مصطحباً معه ليس من أقل من عشرة سفن، وقصد باري، وذلك على الرغم من معارضة جنوده، (ذلك أنه كان بارعاً جداً، ولم يكن أدنى من أي انسان في الخبرة العسكرية) فهو كان مدركاً تماماً أنه لم يكن من السهل الاستيلاء على تراني، ولذلك رأى عدم اضاعة الوقت فيها لايفيد.

ومع هذا بدت باري مدينة مستعصية على الفتح، فقد أحاطت بها أسوار عملاقة، كما كان فيها جيشاً من البرابرة، وقف بعضهم بأسلحتهم فوق ووراء الدفاعات واندفع البقية، وكانوا حشداً لايحصى، من الأبواب نحوه، وتألفوا من المشاة والفرسان، في كامل السلاح، وكان البحر هائجاً بفعل عاصفة عنيفة هددت بجرف السفن، ومع أن أموره كانت محاطه بالمصاعب من كل اتجاه، هو لم يفقد الأمل، وبعدما تدبر أمره ونجا من الأمواج خلال عدة أيام، أبدى رغبته بانشاب القتال، ولأن الأمور لم تتيسر له كما كان يأمل فقد أرغم على التراجع فوراً (ذلك أن بعض الأعداء رماه بالحجارة والأخشاب وأي شيء كان متوفراً من فوق الأسوار، وغطى آخرون، كانوا على الأرض، السماء بزخات من النشاب) وابتعد عن مدى رماياتهم، وجرب أن يتخاطب معهم بلغة الكلام، فأخبرهم عن الأشياء الجيدة التي سيصنعها لهم على الفور إذا ماقاموا بتقديم مدينتهم إلى الامبراطور العظيم بدون قتال، وضمن لهم آمالاً عظيمة بالنسبة للمستقبل، وعندما سمع الذين كانوا بالمدينة هذا، اندفع بعضهم نحوه على ظهور خيولهم، وبعضهم على متن الطوافات، ودعوه

إلى الاقتراب من المدينة مشيرين إلى الأبواب المفتوحة، وخشية منه أن تكون المسألة —كما ثبت— خدعة، لجأ أولاً إلى الاختبار، فأمر لهذا الغرض إحدى السفن التي كانت معه إن تقترب من الشاطىء وكأنها تريد الرسو، لكن ما إن رآها الأعداء تقترب حتى صعد حوالي الخمسمائة منهم فوق الأسوار، ووقفوا وراء الدفاعات.

ولاحظ هذا الاكسندر [أوف كوفير سانو]، وخشية منه أن يلجأوا إلى السلاح ، خرج ذهباً من حافظته، واعتلى بسرعة ظهر السفينة، عارضاً الذهب أمام الذين كانوا في المدينة، وصاح بأعلى صوته: «على كل من يريد الثروة والحرية، أن يقدم إلى هنا ليتمتع بهم فوراً» وما كاد ينتهي كلامه حتى اندفع عدد كبير منهم نحوه من داخل المدينة، والتحقوا فوراً بجانب الامبراطور، وفور استقبال القائد الروماني واقسامهم يمين الطاعة، قام بدون تردد بقيادة الجيش ضد المدينة، وعلى هذا مامن شيء يخدع الناس أكثر من جاذبية الذهب، وعندما عرف بقية السكان ماحدث، وكانوا غير راضين عما وقع، بادروا مسرعين نحو القلعة، وما ان أصبحوا وراء أسوارها، حتى شرعوا بالقتال في سبيل [ممتلكاتهم]، وكان ما حدث بالفعل شيئاً يبعث على الدهشة، فمثير أن ترى الناس الذين كانوا متحدين منذ قليل بالأصل والهدف ينقسمون اليوم بوساطة الذهب، وينفصلون عن بعضهم كما وكأن بينهم أسوار، ومشاعر كراهية نحو بعضهم بعضاً. على هذه الشاكلة مضت الأمور هناك.

وكان هناك قلعة أخرى عبر المدينة، قام في داخلها كنيسة القديس نيقولا، وفكر القائد بالاستيلاء عليها، فعمل كما يلي: وشح رجالاً بالأردية السوداء، وأمرهم بالنهوض عند الفجر والذهاب إلى الكنيسة، وعندما صاروا في داخلها أشهروا سيوفهم وقاتلوا، وبذلك اقتربوا من القلعة عند الفجر، وقرعوا على الباب، وافترض الذين كانوا بالداخل أنهم من الرهبان، فرفعوا مغاليق الأبواب، وسمحوا لهم بالدخول، وبهذه الطريقة

باتت القلعة بأيدي الرومان.

وصحيح أن هذه القلعة قد احتلت، فإن الذين كانوا بالقلعة الأخرى ظلوا صامدين، لقد وقفوا حتى اليوم السابع يواجه أحدهم الآخر، لكن عندما وصل بازونفيل إلى هناك على رأس جيش كبير جداً، سلموا القلعة إلى الرومان، وحدث إثر هذا أنهم لكراهيتهم نحو روجر ولحقدهم عليه تولوا هدم القلعة حتى الأساسات، وتخلصوا منها، مع أن القائد عارض ذلك بشدة، وعرض شراءها مقابل مبلغ كبير من المال، ومرد كراهيتهم لروجر، هو أنه تصرف نحوهم بشكل غير انساني، وذلك وفق عادة كل طاغية.

٤- على هذه الصورة جرت الأمور في باري، وبعدما استحوذ باليولوغوس عليها، عاد مبحراً نحو تراني، فاستولى عليها صلحاً، ثم استولى على جيوفينازو Giovinazzo ، وهي مدينة مشهورة وكان هناك واحداً اسمه رتشارد [صاحب أندريا Andria] وكان رجلاً مجرماً متوحشاً، كان يذبح الناس كذبح قرابين الضحايا، فإذا ما اختلف مع انسان حول أي شيء تافه، كان إما أن يأمر بتوسيطه، أو بحرمانه من يديه أو قدميه، وكانت مثل هذه العقوبات عادية جداً بالنسبة له، ولقد كان آمراً لقلعة أندريا، وعندما سمع أن الرومان يريدون الاستيلاء على جيوفينازو، حذرهم أولاً من فعل ذلك، ثم هددهم بأنه سيمنعهم من القيام بذلك، ولكن كما هو معلوم تجاهلوا تهديداته، واستولوا صلحاً على جيوفينازو، وخططوا للزحف على أماكن أخرى، ولذلك اتحد مع عدد آخر من الكونتات، ومع [أثكلتين Asclettin] حاجب وليم، الذي يقال له بالاغريقية لوغوثيت Logothete ، وقد ذهب معهم إلى تراني لاسترداد هذه المدينة بدون مقاومة، ولحق به جيش، تألف من ألفين من الفرسان، وحشد هائل من الرجّالة المسلحين.

وكان الرومان الذين خلفوا في داخل تراني عددهم قليل وقوتهم صغيرة جداً، ولذلك كانوا مرعوبين كثيراً، خوفاً منهم على المدينة وعلى أمورهم، ولهذا بادروا مسرعين إلى استدعاء دوكاس، موضحين له برسالة القدر الذي حاق بهم، وعندما تسلم الرسالة تهيأ، وانطلق في اليوم نفسه، وأخذ الطريق إلى تراني، ولدى وصوله إلى بقعة اسمها روفو (٩) Ruvo، تقدم الناس الذين كانوا هناك نحوه، وقاموا بحث الجيش الروماني على تملك مدينتهم بدون قتال، ورأى دوكاس —على كل حال— أن التوقف هناك عديم الفائدة، وخشي من أن ذلك سيسمح لرتشارد بالاخلال بموازين القتال بدون معيق، ولذلك تجاوز المدينة مؤقتاً، ومرّ دون وقوف، طالما أنه سيكون بإمكانه الاستيلاء عليها مؤخراً في الوقت المناسب، وبادر ضد رتشارد بأقصى سرعة ممكنة.

وكان على الطريق مدينة ساحلية اسمها بارليتا Barletta، صدف أن كان القنصل بها، وفيما دوكاس يتقدم نحوها، كان هناك قوة من جيش [أسكلتون] قوامها ثلاثمائة فارس مع فرقة من الرجالة تقوم بأعمال الدورية، واصطدم دوكاس فجأة بهذه القوة، فقام بدون أن يفقد وعيه تجاه الحادثة غير المتوقعة، بكل سرعة بتعبئة رجاله وصفهم على شكل كتلة صلبة، وانقض عليهم بهجوم فعّال، وبعدما قاوموا لبعض الوقت، لحقت بهم الهزيمة، وأنا غير قادر على وصف كيف قاتل الرومان هناك، وأظهر كل واحد منهم أفاعيل شجاعة، فقد حمل دوكاس وبيده رمحه، فطرح أرضاً —كما قيل— بطعنة واحدة ثلاثين رجلاً منهم، وبعدما فقدوا كثيراً من رجالهم، هربوا حتى غدوا وراء أبواب بلدتهم، وقام الرومان الذين طاردوهم، بالعودة إلى المعسكر، وكان النهار قد مضى أكثره، وكانوا لم يعانوا من أية خسائر باستثناء واحد من المرتزقة الخيالة، وصحيح أنهم عسكروا هناك لإمضاء الليل، فقد ركبوا الطريق مجدداً مع انبلاج الصباح.

وعندمـا علم رتشـارد بالـذي حدث، هـرب من هنـاك بأقصـى سرعة ممكنة، خشيـة أن يطوقه الرومـان، ويحصل له كسر لايمكـن جبره، وما ان وصل إلى أندريا، حتـى مكث هناك، وبعدما أنقذ دوكـاس الجيش الذي كان مـع باليولوغـوس، قام بالزحـف خلف رتشارد، مع أن القـوات التي كـانت مـن حولـه متفوقـة على قـوات الرومـان بأعـداد كبيرة، فقد كـان الـرومان ستمائة بـلازيادة، وذلـك فيما عدا الـرجـالة، الـذين كـانوا هـم أنفسهم أدنـى كثيراً من الأعـداد الهائلة لقـوى الرجـالة التـي كانـت مع رتشارد. فقـد تبع رتشارد ألف وثمانمائة مـن الفرسان مع جيـش لايحصى عدداً من الرجالة.

وعندمـا سمع رتشـارد أن الرومـان يقتربون، قـام بنفسه بقيـادة جيشه والتقدم نحـوهم، ولـدى اقترابهم من بعضهـم بعضـاً، انقسم الـرومان إلى ثلاثة أقسام، تعبأوا كما يلي:

وقف الكومـان وحملة الأقواس من الـرجالة في الأمام بصـف متلاحم، ووقف دوكاس مع نصف الخيالة، وخاصـة جماعة من الكومان في الساقة، بينما احتـل بـازونفيل مـع الكـونتـات الآخـريـن وبقية الفـرسـان الأرض المتوسطـة، وكان رتشارد غـاضباً جداً، وغير قادر على تـأدية أية بـراعة لها علاقـة بالعلـم الحربي، لذلك حمل والفـرسان من حـوله حتـى وصل إلى مركـز الجيش الـروماني نفسه، وبـذلك عطـل حركة القتـال وكاد يـوقفها، ذلـك أن الصف الأمـامي للجيـش الرومـاني الذي تـألف مـن النبالـة لم يستطـع الصمـود أمـامه جتى ولا لمدة قصيرة، ثـم مـارس الضغـط على بازونفيـل، فأرغمه على التراجع نحـو الخلف، ثم قـاتل بعد ذلك الـذين كـانوا حـول دوكـاس، وهنا تطـور قتـال عنيد، وقتـل عـدد كبير ممن مـع رتشـارد، ولكن بما أنهم سقطـوا وسـط الضغط العظيـم لم يعـرف بذلـك الجيش، وكـان القتال عنيفاً جداً، ومـا كنت تسمع سوى أصـوات قعقعة السـلاح والضربات العنيفـة على الترسة، وتطـايرت أعـداد لاتحصى مـن

النشاب في كل مكان، وأحـاقت المخاطر بكل مكان، حتـى حملت قوات رتشارد حملة عنيفة وضغطت بشدة فـأرغمت الرومان على ادارة ظهورهم، فدوكاس نفسه، سقط أرضاً بفعل طعنة رمح، وكاد أن يقع بالأسر.

ولكن العناية الربـانية تقود وتوجه جميع الشؤون البشرية وفـق ماتريد، فصحيـح أن الـرومـان وصلوا إلى هـذه الحالـة مـن سـوء الحظ، غير أنهم نجحـوا في النهايـة، ذلك أن دوكـاس نجـا فراراً إلى واحـد من الأسـوار المقامـة من الحجـارة، بدون ملاط أو إكسـاء، فلقد كـان من النـوع الذي يقف خارج أبـواب المدينة ليكون بمثابة عـلامة فارقة للمـروج، ولقد كان آمناً هناك، ثم جاء الرجالة الرومـان إلى عونه، وقذفوا بالحجارة على الذين كانوا مـن حول رتشارد، وهكذا تجمع هنـاك معاً كثير من الذيـن فروا من قبل، ولـدى ملاحظـة رتشارد لـذلك، انـدفع نحـوهم مـع ستة وثـلاثين فارساً، وقام واحـد من أهل تراني، وكان صاحب مرتبـة بين رجال الدين، بـالوقـوف فـوق مكان مـرتفـع، وقذف بكميـة كبيرة مـن الحجارة نحـوه، فأصابه على إحدى ركبتيه، فـألقاه أرضاً، وفيما هو منبطح على الأرض يئن من الألم، قام رجـل الدين هذا بتوجيـه قذيفة نحو رقبتـه، ولشعور رتشارد بالهزيمة بدأ يستعطـف بحرارة ليرحم ويبقى حياً، لكن رجـل الدين ألقاه على ظهـره، وطعن بمـدية في بطنـه، فشقهـا وأخرج منهـا أحشاؤه، مثـل اخـراج الطعام مـن الفم، وقـدم رتشـارد بذلـك مثالاً على وحشيتـه تجاه الأسرى التعساء، ثـم خرج أهل أندريـا وجاؤوا ومعهم القـوات المسلحة إلى الرومان وتصالحوا معهم، وعاد الرومان، الـذين كانوا لايتوقعون النجاة مـن المخاطـر، إلى باري، تخفـق فوق رؤوسهـم علامـات النصر، فوجـدوا هنـاك كميـات وافرة مـن المؤن، فنقهـوا فيهـا واستراحـوا مما عانـوه مـن المتاعب العسكرية.

٥- وبعد مضي بعـض الوقت، بدا مفيـداً قسمة الجيش إلى شطـرين، شطـر يبقـى هنـاك مـع واحـد مــن القـادة، ويمضي القسـم الآخر مع

القـائدالآخر ليقـوم بـالاغارة على القـلاع المجـاورة، ووقـع اختيار القتـال الخارجي على دوكـاس، وكان هنـاك مدينـة، يحكمها رجـل عالي المكـانة اسمـه كاسترو، فقـام دوكـاس بتطـويقها وحصـارهـا بكـل نشاط، لكنـه مالبـث أن لاحظ أنه كـان يحاول المستحيل، وذلـك بسبب أنه قـام بعدة محاولات متكـررة لـلاستيـلاء على الأسـوار (فتبرهن لـديـه انعـدام الأمـل بخرقها بالحجارة مع أنها ضربت مـراراً بآلات الحصار)، فانطلق من هناك ساعـة حلول الظـلام، وبادر مسرعاً نحـو مونـوبولي Monopoli، عازماً على مهاجمتهـا بشكل مفاجـيء، وصدف آنذاك أن كـان شعب مونـوبولي مـرسلين جيشـاً ضـد الـرومـان، ليكتشـف أولاً مـاذا كـان يجري هنـاك، وليصطدم بهم حيثما يكون ذلـك ممكناً، وصدف أن التقى رجال مـونوبولي بطلائع الجيش الرومـاني، ووقفوا وجهاً لوجه معهم، وعنـدما وصلت هذه المعلومـات إلى الذين كـانوا في الساقـة، هرب غـالبية الفرسـان، وركضوا نحو المدينة، وحدثوا أهل المدينة وأخبروهـم، بأن الجيش الروماني قد حان وصولـه، ووقع كثير مـن الرجالـة بالأسر، واضطـربت المدينـة لسماع هذا، ومع هذا قرر أهلها مقاومة الأعداء وهـم على الحالة التي كانوا فيها، وبناءً عليه تقدم مايـزيد على مائتي فارس ومعهم أكثر مـن ألف من المشاة، في حين لحق بهم حشد لايحصى عدده من حملة المقاليع، ووقفوا أمام المدينة.

وعندمـا كان الوقـت مايزال نهاراً، تـوقف دوكاس، واحتفـظ لنفسه بما يزيد على نصف الجنـود، وأرسل البقية للقيام بنهب المناطـق المجاورة، ثم استأنف زحفه بعـدما قسم الجيش إلى نصفين، غير أنه بالـواقع لم يشتبك مع رجال مونـوبولي مباشرة، بل تظاهر أنه يقوم بـالتجسس حول الأسوار، ثم تقدم قليلاً، مظهراً أنه يقوم بتفحص المدينـة بالتفاصيل، ثم قام بدون سابق انذار، فأمر ثلاثين من رجـاله بالانقضاض على الأعداء، واندفع هو إلى وسطهم، وأذهلتهم المفـاجأة، فأداروا ظهورهم هـاربين، وطاردهم، ولم يتخـل عن ذلـك حتى وصـل خلفهم حتـى أبواب المدينـة، وقام بطعـن

أحدهم بنفسه فألقاه أرضاً داخل الأبـواب، وبعدما قام باسترداد من كان وقـع من أصحـابه بـالأسر، غادر المكـان، وفي تلـك الأثناء كـانت القـوة الأخرى قـد قامت بالطـواف في المنطقة وعادت ومعها الأسـلاب، ثم انها عادت أيضاً مع دوكاس إلى باري.

وأثناء حدوث هذه الأشياء، جاء رسـل إلى القائدين الرومانيين مرسلين مـن قبل أسقـف روما، الـذي اعتاد الـلاتين على منحه لقـب بابـا(١٠)، ورغبـت السفـارة أن يـذهبا كـلاهما أو واحـد منهما إلى رومـا للبحـث في مسائل هـامة مـع الأسقف، ذلـك أنهما قالا بأنـه قد حشـد ماأمكنـه من قـوات وكـان يستعد للقتـال إلى جـانـب الـروما، واستجـاب القـائدان الرومانيان لهذا المطلـب برسالة، كما أرسلا رجلاً اسمـه باسيلكوس، وكان من موظفـي ديوان الامبراطور، لكنه كـان آنذاك مرافقاً لهما، وأعطيـاه ذهباً لاستئجار فرسان من هناك.

وقام القـائدان الرومانيـان بالإعداد للحرب ضـد مونوبـولي، وحيث أن سكـان مونـوبـولي لم يمتلكوا الشجـاعـة للتصدي للـرومـان، فقد طلبـوا منحهم وقتاً محدداً، إذا لم يـأتهم خلاله أية مساعدة مـن أي مكان، فإنهم سيسلمون المدينة طواعية وبدون قتال، وتـمّ هذا، وقامت هدنة لمدة شهر منحت إلى أهالي مونوبولي.

٦- وفيما الـرومـان منشغلين بهذه المسـائل، كانـت القـوات الصقليـة تقاتل بـازونفيل، فقام هذا باستدعـاء القائدين الرومانيين برسـالة وطلب منهما القـدوم إلى مساعـدتـه بأقصـى سرعة ممكنـة، وعنـدما لم يلتفتـا إلى طلباته، كرر مـراسلته لهما، وتساءل عن المسألة نفسهـا، ورد عليه القائدان الرومـانيان في البدايـة أنهما لم يقدما إلى هناك مـن عند الامبراطور ليقـاتلا لصالـح بازونفيل (ثـم ان المعاهدة بينهما وبين بـازونفيل ليس فيهـا هذا) بل قدما بشكل محدد للاستيلاء على ايطـاليا لصالح الامبراطور، وأن ينالا

المساعـدة منه، لقد أجابا بازونفيل على هـذه الصورة، غير أنه لم يتـوقف عن حثهما قـائلاً بأنـه مطوق بالمخـاطر، وبعـد تقدير للمسـألة ذهبـا من باري إلى مـدينة بيتيتـو Bitetto ، وكـان الطريـق يحتاج يـوماً واحـــداً للـرجل المسلـح، هـذا وكانـت قد راجـت شـائعة تقـول قبـل هذا بـأن بازونفيل قد خطط لخيانة الرومان لصـالح رتشارد صاحب أندريا، عندما كان مايـزال حياً، ولهذا السبب قرر الـرومان أنه كان مـن الضروري ربطه بمزيد من الأيمان، وعندما تمّ تنفيذ هذا، عاملوه بدون المزيد من الريبة.

وأرسل الامبراطور في الوقت نفسه اسطولاً إلى ايطـاليا، مشحوناً بفرسان من الـلان(١١)، والفرنجة والرومـان، وكـان ايانـاكيوس Ioannakios الذي كنيته كريتوبلس Kritoples يقود اللان، أما الفـرنسيون فكان يقودهم الاسكندر [أوف كونفيرسانو Conversano] وهو لـومباردي [أي أبـولي] المولد، لكنـه كان مـوقفاً نفسه تماماً على خدمـة الـرومان وشـؤون الامبراطـور، وكان لجون الـذي كنيتـه أنجيلوس القيـادة العامة(١٢)، وعندما سمع قائد قـوات وليم بهذا، وبأن جيشاً رومانياً كان يقترب منه، وهـو يقوم بحصـار أندريا وبنهـب الأراضي هناك، ذهـب مع جيشه كله إلى مدينـة مولفيتا Molfetta ، التي كانت حصينة بما فيه الكفاية.

وعزم الـرومان على اخضاع بـوسكو Bosco ، وهي قلعة كــــانت تخضع إلى رتشارد المتـوفى، وهي أقوى من أي قلعة أخـرى، ومن الصعب جداً الـوصول إليهـا، وكان هنـاك معرضـاً هائلاً فيـه كل نـوع من أنـواع الـوحوش النـادرة، لكل منهـا مقـرّ خاص بـه، وذلك بهدف تيسر الصيد بالنسبة له كلما أراد، وقـاد دوكاس عدداً قليلاً من رجالـه وجاء ليتفحص المكان، وعندما اقترب منه، تشجع الذيـن كانوا في داخله، وتقدموا حيث انقضوا على وسـط الرومـان، فأوقعـوا فيهم أربعـة قتلى، غير أن اثنان مـن رجـالهم سقطا، وتحول القتـال إلى اشتبـاك بالأيـدي، وبعـدما اجتمعـت

القوات الرومـانية، تمكنت من دفع الأعداء إلى داخـل موقعهم، وعبّر كثير من الرومان مع اثنين من اللان في هـذا القتال عن شجاعة ونبل، وانتهى القتال هنـاك، وقام دوكاس، عنـدما جاءت بقية القـوات باقامـة معسكر أمضـى الليل فيـه، حيـث قام في الفجـر بتعبئة رجـالـه، وزحف بشكـل نظامي، وفيها الهجوم مستمـر، قام الرومان بازعاج الذين كـانوا في الداخل بـالنشـاب والمقذوفـات مـن آلات الحرب، ودافـع الآخرون عـن أنفسهـم بفعالية ونشاط من وراء الشرافات.

وحدث آنذاك حدث جدير بالـذكر، فقد رأى اثنان من حرس دوكاس القلعة وقد تضررت مـن رميها بالحجارة وتهدمت، ومـع ذلك لم تستسلم، لذلك سترا رأسيهما بـالترسة، وحمل كل منهما بيده الأخـرى مشعلاً وقصدا الأبـواب لاحراقهـا، ولكن بما أن المواد كـانـت غير قابلـة للاحتراق، فقـد تراجعا مخفقين، وتجنبا —خـلافاً لجميع التوقعات— الأشياء التـي قذفت نحوهما من فوق الأسوار مثل زخات المطـر. وبعدما استمرت المعركة حتى غياب الشمس، تراجع الرومان إلى المعسكر، وذلك لأنهم لم يحققوا شيئاً.

وعلم قـادة وليم بهذا، فعقـدوا اجتماعاً للتداول حـول امكانيـة القتال ضـد الـرومان، وكـان رأيهم أن يجمعـوا قـواتهم، ويزحفـوا على المعسكـر الروماني، وعلم الـرومان بذلك فاستعدوا للتصـدي لهم، وكان تسعة من القادة يتـولون قيـادة الايطاليين، وكـان الحاجب هـو القائد العـام، وكان جيشهم كـامل التسليـح، وكانـوا يمتطون خيـولاً قويـة، ويحملون رمـاحاً طويلـة، ولدى وقوف الـرومان على هذه الأشيـاء، استولى عليهم الـرعب، وتسـاءلوا كيـف يمكنهم بجيـش صغير القتـال ضد قـوة جيدة التسليـح وهي لاتعدّ ولاتحصـى، ومع هذا وقفوا مصطفين على شكـل جماعات، في حين اقترح عليهـم القـادة أشيـاء كثيرة أوصلتهم إلى الشجـاعـة، ووقـف الجيشان لـوهلة دون مباشرة القتـال، ولكن عندمـا صدحت الأبـواق من الجانبين، وأعطيـت شارة الهجـوم، انقض الفـريقان على بعضهما، وأخـذا

يقاتـلان يداً بيد، وكـان بإمكانك أن تقـول إنه لا أشعة الشمـس ولاضوء النهار كـانا مشـاهديـن، فقد امتـدت سحابـة من الغبـار فوق كـل شيء وصعدت نحو عنان السماء، وارتفعت أصـوات الضربات وتصاعدت رنة السلاح.

وظل القتـال حتى منتصـف النهار متكـافئاً، لكـن الطليان شقـوا بعد ذلك طريقهم وذلـك بفضل تفوقهم العددي، وضغطوا على الـذين كانوا حـول دوكـاس، ولاحـظ دوكـاس بسرعـة المشكلـة، فـانـدفـع إلى وسـط تشكيلات العـدو، وهو يطعـن فيه على الجانبين، وتبعـه الرومـان بالهجـوم وهـم يصرخون، وهكـذا اشتبكت القـوات ثـانية، واحتـدم القتال واشتـد كثيراً حتى تمكـن الرومـان بشجاعتهـم من دفـع العدو إلى الخلـف، وفقد العـدو أثناء الفـرار مالايقـل عن ثـلاثمائة من فـرسانـه، وحشد لايحصـى عـدده من المشـاة، غير أن البقية نجـوا فراراً، وبعـدما نجـح الرومـان في هذا، تحولوا عائديـن نحو قلعة بوسكو، وبعدما تغلبـوا عليها، وجدوا فيها كميات وافرة من المؤن، وبعدمـا زودوا أنفسهم بمختلف الأنواع الجيدة، عادوا إلى باري.

٧-وبعد مدة وجيزة صاروا متملكين لـ «مونتبيلوسو-Montepelo-so» وهي مدينة واسعة الشهرة، واستولوا على «غرافينا Gravina»، التي كان الاسكنـدر صاحب كـونفيرسانو يحكمهـا من قبل، كما واستـولوا على عدد كبير آخـر من البلدات والحصـون، ويضاف إلى هـذا أنهم استحوذوا على خمسين قـريـة، وهكذا ازدهـرت شـؤون الامبراطـور مـن كل جـانـب بشكل عظيم، لكن قواته كانت تتجنـب وليم وتبتعد عنه باستمرار، وكان هو في الحقيقـة، في وضع صعب، وراجت في ايطـاليا كلها أقاويـل تعلن عن أن الرومان لايقهرون، ثم إن الايطـاليين لاحظوا أن الرومان، الذين لم يعانوا من فنون القتـال لديهم منذ حقبة طويلة من الزمـن، كانوا ينتزعون كل مايمتلكون تقريباً ويحملون معهم جميع مقتنياتهم.

كانت الشؤون الرومانية تتحرك حتى الساعة مع التيار، لكن منذ ذلك الحين بدأ القدر يحسد بعض الشيء حسن حظهم، وحل مرض على باليولوغوس، ألهب الرجل بحمى حارقة، ولم يتوقف عن امتصاص نضارته الطبيعية وقواه، حتى تم ارغامه على أن يصبح أولاً بلا شعر(١٣)، ثم بعد مضي وقت حمله هذا المرض بعيداً عن بني البشر، وقبل وفاته لبس شعراً مستعاراً، وبدا وكأنه يتحسن، فقام بتوجيه دوكاس للهجوم على بقية المدن التي لم تكن قد دخلت في حوزة الرومان، وبعد هذا بثلاثة أيام، ساء وضعه كثيراً، وعندما علم دوكاس بذلك عاد إلى باري، فوجده قد مات، فأمر بوضع جسده داخل تابوت، وذلك بعدما جهزه وفقاً لما سمحت به العادات المسيحية والطقوس المتبعة، وإثر هذا قام بترتيب الأمور بشكل جيد في باري، وبذلك بات صاحب السلطة، والمشرف على القضايا بالنسبة للمستقبل.

٨- وهكذا فارق باليولوغوس الحياة، وكان رجلاً فطناً وبارعاً جداً في التعامل مع المسائل العسكرية، وقاد دوكاس جيشه وتوجه مباشرة إلى برانديزي، فقد كان متشوقاً بشكل خاص لأن يلحق بازونفيل به، ذلك أنه كان قد انفصل وابتعد للسبب التالي:

فهو قد ابتعد —إما كما أظن— ليعطي نفسه حجة للحصول على المرابح، أو كان بالواقع يعاني من قلة المال، فقد كان قد سأل باليولوغوس —عندما كان حياً— أن يقرضه عشرة آلاف قطعة ذهبية، فاقترح عليه على الفور أن يمنحه أربعة آلاف بمثابة أعطية من الامبراطور وليس ديناً، ورفض تماماً امداده بالباقي، فغضب بازونفيل لهذا، وانفصل عن الجيش الروماني، ولكن ما ان توفي باليولوغوس، وحل محله دوكاس في المسؤولية عن الأمور، حتى جاء بازونفيل إليه، فحصل على مبلغ المال الذي أراده، وشارك من جديد في الجهود العسكرية الرومانية.

وأخذه دوكاس معه وتوجه نحو مسافرا Massafra وبرفقته بقية الجيش، وكان هناك مدينة اسمها بوليميلون(١٤) Polymilion ، وكان فيها واحد من أتباع وليم اسمه فلامنغ Flameng، وعندما سمع هذا باقتراب الجيش الروماني، غادر المكان وذهب إلى تارنتو Taranto ، واستولى الرومان على بوليميلون ونهبوا أحوازها، فأثقلوا جيشهم بالغنائم، وذهبوا من هناك إلى مدينة موتولا Mottola ، التي كانت قائمة فوق مكان مرتفع، وكانت قوية وجيدة التحصين من جميع الجوانب، فقد قام على طرف منها شعاب ووديان جبلية حقاً يستحيل الوصول إليها، وأحاط بها من جانب آخر نهر عميق يصلح للملاحة، لكن بدا أن مامن شيء يمكنه أن يعيق الذين يبحرون بريح طيبة، ومع أن موتولا بدت آمنة محصنة من جميع الجوانب، فقد استولى عليها الرومان دون بذل جهود كبيرة وفي وقت قصير، وذلك وفق طريقة سأتولى حكايتها:

لقد كانت معنويات الرومان عالية جداً نتيجة لانتصاراتهم الماضية، وعندما شاهدوا أهل المدينة ومصدر شجاعتهم هو طبيعة المكان، وكانوا واقفين خارج الأبواب التي كانت هناك وهي مفتوحة من أجل القتال، وقتذاك حمل الرومان وصعدوا الرابية مسرعين، وتملكت الدهشة أهل المدينة لما رأوه من جرأة، واندفعوا يقاتلون قرب أبوابهم، وعندما انقض الجيش الروماني عليهم، لم تكن هذه الأبواب قد أوصدت، وهكذا تمّ الاستيلاء على المدينة عنوة، وبعدما أنجز الرومان هذا، انطلقوا من هناك.

وبعد وقت قصير، التقى بهم فلامنغ وهم يزحفون، وقفز بعض الرومان أمام وحداتهم واصطدموا بالأعداء، وأظهروا براعة ومهارات رائعة، لكن بما أنهم كانوا أقل عدداً من خصومهم فقد تراجعوا، وفي تلك اللحظة اشتبك دوكاس ومعه جميع قواته بقوات فلامنغ وأرغموها على التراجع، ثم هاجموا مسافرا فاحتلوها عنوة، واكتشف دوكاس وجود كميات هائلة من المؤن والعتاد مخزنة في القلعة، وكان بينها سلاح كثير ومالايقل عن

مائتي فرس، ولدى سماع أهالي تـارنتو بذلـك قام رجالهم بعدمـا جمعهم الحرفيون ومعهـم جيرانهم بتوجيه الاهانـات بشكل مكشوف إلى فـلامنغ، واتهموه أنـه بجبنه الشخصي سبب شجاعـة الرومان، ولم يستطع فـلامنغ تحمل هـذه الاهانـات، لذلـك أعاد جمع عسـاكره، ووقـف ينتظر الجيـش الرومـاني، لكن مـا ان أصبح هـذا الجيش مـرئياً مـن قبله، حتـى أصيب بالرعب، ولم يستطـع تمالك نفسه أو يسترد شيئاً من شجاعتـه، وقامت ثلة من الرومان بقتال أتباعه وهـم منهزمون فقتلوا بعضهـم.

وعنـدما أصبـح الـرومان على مقـربـة من تـارنتـو، تصوروا أن المدينـة لاترام، ولـذلك تـركوهـا عازمين على الوصـول إلى مونـوبولي، ونظـراً لقلة مـاكان بحـوزتهم من أسلحـة الحصـار، استدعـوا —بـوساطـة رسالـة— الأسطول الـراسي في باري، للقدوم بـأقصى سرعـة ممكنة، وبذلـك يمكنه أن يحمل منهـا الكثير من الأشيـاء، وعبر الرومـان في الوقـت نفسه خـلال منطقة خصبـة، مليئة بأنواع كثيرة مـن المنتجات، لذلك أشبعـوا أنفسهم بـأشيـاء جيدة، فقـد قيـل كـان بـإمكان الجنـدي شراء عشرة رؤوس مـن الماشية بقطعـة ذهب واحدة، وأن يشتري بالمبلـغ نفسه مائة وثـلاثين من الأغنام، ووجدوا هناك أيضاً بعض الرومان الـذين كانوا مودعين بالسجن منذ زمن طويل، فأطلقوا سراح هؤلاء المساكين وفكوا أغلالهم.

٩- ولـدى وصـولهم إلى مـونـوبـولي في اليـوم الخامـس، لم يخرج أحـد للتصدي لهم، (لأن الأقـاويل التـي راجت حـولهم أرعبت أهـل المدينة، وألجأتهم لـلاختبـاء وراء الأسـوار) لكنهـم وقفـوا شـاكـي السـلاح فـوق أبراجهـم، مستعدين للـدفاع عـن أنفسهم، إذا ما وصلـت الحملات إلى الأسـوار، ونصب البيـزنطيون معسكـرهـم، ومكثوا في مكـان موائم ليـس بعيداً جـداً عن المدينـة، وبما أن دوكاس كان قـد استدعـى الاسطول إلى مونـوبولي، فقد جـاء من باري، وأمـد عملية الحصار بما يكفـي من المؤن، ثم هاجموا الأسـوار بالقوى كاملـة، لكن بما أن السكان كانـوا يصبون على

أعدائهم أشياء كثيرة، فقد تمكنوا من ردّ المهاجمين الرومان وقتل بعضهم، وكان القتال قد بدأ بالصباح، وقد استمر حتى الليل، وبسبب حلول الظلام عاد الرومان إلى معسكرهم، وعين أهالي مونوبولي حراساً لحماية الأبراج وجعلوهم يتناوبون ذلك خشية أن يطمع الرومان فيلحقون الأضرار بالمدينة أثناء الليل، ولهذا أشعلوا الآلاف من النيران في كل جهة، وكانت الأبواب وأدوات النفير تزعق.

وعندما أخذت الشمس طريقها نحو الأفق الشرقي، وبدأ نورها يشع فوق سطح الأرض، خرج الرومان من المعسكر، وعادوا إلى القتال، وفي الوقت نفسه اندفع رجال مونوبولي إلى مواقفهم، وحملوا أسلحتهم، ومرة أخرى جرى صراع عنيف واشتباكات مع الرومان الذين كانوا يحاولون جاهدين شق طريق للوصول إلى الأسوار، لكن العدو المهاجم أمكن صده من قبل رجال مونوبولي، وبذل الرومان غاية جهدهم في هذه الظروف، ثم قام جيشهم فيما بعد بإلقاء النار في سفن أهالي مونوبولي التي كانت راسية هناك، وسببوا بذلك صعود لهيب عظيم.

وقام واحد من الجنود الرومان، واسمه هيكانتوس Hikantos بعمل رائع يستحق الحكاية والسماع:

كان يحيط بمدينة مونوبولي سور مزدوج، وكان السور الداخلي مرتفعاً جداً، وكان من غير الممكن ادراكه برماح الأعداء، في حين كان السور الآخر الذي استدار حول قاعدة الأول يساوي بالارتفاع ثلثه، وتسلق اثنان من رجال مونوبولي فوق هذا السور، وأخذوا يرمون نحو الأعداء ويحثون الآخرين للالتحاق بهم، ولاحظ هيكانتوس هذا، فقام بالهجوم برمحه فأمكنه اصابة واحد من الرجلين، فوقع فوراً على الأرض، وتبع هذا صدور صوت عظيم عن الجيش الروماني، وصار الصراخ هائلاً، ولايمكن تحمل سماعه، وأدهش ذلك الواقفين فوق الأبراج، وخيل إليهم أن

المدينة قد سقطت، فتخلوا عن الدفاعات وركضوا نحو مركز البلدة، ولولا أنهم أدركوا الوضع بسرعة، وعادوا فاعتلوا الدفاعات لسقطت المدينة على الفور بيد الرومان، وعلى هذه الصورة انتهى الهجوم الثاني على مونوبولي.

وبسبب معرفة شعب مونوبولي أنهم باتوا في مآزق مؤلمة، بعثوا برسالة إلى فلامنغ وسألوه أن يقدم إليهم بما أمكنه من سرعة، فأجابهم بأنه سيلحق بهم بعد وقت قصير مع جيش كبير، ليتولى طرد الرومان وإبعادهم، وظلّ الرعب ساكناً داخل فلامنغ، وامتلأ بجبن لاحدود له عندما قدّر من سيقاتل، وضد من ستكون المعركة، وبناءً عليه عندما حلّ اليوم السابع، ولم يظهر فلامنغ من أي جهة من الجهات، وقتها استولى اليأس على شعب مونوبولي، وقنطوا من وصول المساعدة إليهم من أي اتجاه، لذلك بعثوا برسلهم إلى الجيش الروماني، مع عرض بتسليم المدينة وأنفسهم إلى الامبراطور العظيم، وأخبرهم دوكاس أن تعهداتهم لاتكفي في هذه الاتفاقية، مالم يقبلوا بوضع حامية فوقهم من قبل الامبراطور، وعندما وافقوا على هذا، جرى تحديد تاريخ لعقد الاتفاق [وابرامه وتنفيذه].

وقام بعض سكان مونوبولي (ممن كان غير راضٍ بما تمّ صنعه) باخبار فلامنغ بهذه الأشياء، وذلك دون معرفة الآخرين، وأثارت فلامنغ هذه الأخبار، فاختار مالايقل عن مائة من الفرسان المسلحين من بين أتباعه، وبعث بهم على الفور، وقال إنه سيلحق بهم بعد قليل، وتحت لوائه قوة معتبرة، وانتظر الذين وافقوا على هذه الأفعال وصول هؤلاء الجنود في ليلة استمر فيها هطول الأمطار من فوق، وأدخلوهم إلى المدينة من خلال باب جانبي، وبناءً عليه خططوا لحمل السلاح ثانية، وما ان وصلت هذه الأخبار إلى مسامع دوكاس حتى عدّ السفارة التي جاءته من مونوبولي خدعة، وقام على الفور بالتقدم على رأس جيشه زاحفاً من

المعسكر، لكن ما ان أدرك أهل مونوبولي أن المائة فارس لايكفون لعونهم، وبما أن الجيش الروماني كان في حالة استعداد للقتال وحماسة أكثر من قبل، قاموا وراسلوا دوكاس ودعوه إلى المدينة ثانية عازين المشكلة إلى آخرين، سارعوا إلى اقتراف الأعمال الحالية بدون موافقة جماعية، وأظهر دوكاس رفضه في البداية، وتمسك بوجود خداع كبير، وتعجرف معلناً أن المسألة قد تقرر البت فيها بواسطة الحرب، ولكن عندما ضغط عليه السكان أكثر، ورجوه أن يعفو عنهم مااقترفوه من إثم، استجاب مؤخراً وقاد قواته إلى داخل المدينة.

وساعة استيلاء الرومان على المدينة، وصلت تقارير تحدثت أن فلامنغ بات على مسافة قرابة عشرين غلوة من المدينة [ميلان ونصف الميل]، وما ان علم دوكاس بهذا حتى بادر إلى اختيار فرسان من أتباعه على أساس براعتهم، وبعث بهم لاعتراض سبيل فلامنغ، وبقي هو نفسه بالمدينة للاشراف عليها، غير أنه عندما رأى فلامنغ عن بعد أعلام الامبراطور مرفوعة فوق الأسوار، أدار ظهره وعاد قبل أن يتلاقى مع الفرسان الرومان، الذين كانوا قد باتوا على مقربة منه، ثم طارده الرومان وقتلوا كثيراً من أتباعه، وأسروا مائة من فرسانه كاملي السلاح، وحفظ فلامنغ من المخاطر سرعة حصانه، فقد كاد أن يقع بالأسر، وبعدما حقق الرومان هذا النجاح عادوا إلى مونوبولي.

١٠- ولم يكن دوكاس، الذي لاحظ أن الحظ يبتسم يومياً للرومان قادراً على الوثوق به كثيراً، بل كان حذراً بشكل معقول من انقلابه، وكان يقول إنه مثل شخص ساذج متقلب يتبع قوماً مسافرين لابدّ من أن يعود أدراجه، ويدعهم في وسط الطريق، ولهذا كتب رسالة بعث بها إلى الامبراطور، وقد جاء بالرسالة مايلي:

«أيها الامبراطور العظيم، إذا لم يكن قد بقي أمامنا المزيد من الصراع

في ايطاليا، فلن يكون هناك حاجة لجيش آخر أو أي شيء آخر، وتعلمون أن كل شيء قد سار بالنسبة لنا حتى هذا اليوم وفقاً لما نبتغيه، حيث سيطرنا على معظم المدن الموجودة، في ايطاليا [أي أبوليا] مع الموجود على خليج ايونيا [البحر الأدرياتيكي]، ولقد كنا نحن المنتصرين في معارك عظيمة بطريقة تليق بعظمة امبراطوريتك والعرق الروماني، وبما أنه مازال أمامنا صراعاً أعظم، (لأن وليم الذي يتولى نهب صقلية، لاشك منزعج جداً بسبب تدمير أتباعه، وهو يقوم الآن بحشد العساكر من كل مكان، وقد قام بانزال أسطول فيه عدد هائل من السفن، على سطح البحر، وهو عازم على حربنا براً وبحراً) علينا ألاّ نستخف باستعدادات الجزري [وليم]، وألاّ نواجه هذه الحرب بسذاجة، خشية أن نخسر سمعتنا ونستعيض عنها بالعار، ثم إنه من المتفق عليه أن النجاحات التي تحققت على أيدي عدد قليل من الرجال، لابدّ من أن تكون أعظم بكثير على أيدي عدد أكبر، ومع هذا إن الاخفاق يجلب أضعافاً مضاعفة من العار، لأنه كما علمتنا ياصاحب الجلالة إن الهزيمة تدلل على جهل بالاستراتيجية لدى المهزوم، ولذلك ينبغي حتى لايقع شيء من هذا القبيل لنا، نطلب ارسال قوة بحرية أكبر مع جيش بري إلى هاهنا». هكذا كانت محتويات الرسالة.

وبما أن الأمور سارت بشكل طيب لدوكاس في مونوبولي، فقد انطلق من هناك بصحبة قواته كلها، وبعدما استولى صلحاً على أوستيني Os-tuni، هي مدينة واسعة الشهرة بقوتها، سارع بالزحف نحو بلدة أخرى، هي برنديزي، التي كان اسمها القديم تيميسي، فلقد غير مضي الوقت معظم الأسماء القديمة وعسكها، وغيرها إلى أسماء تختلف عن سالفتها تماماً، أو تختلف بعض الشيء(١٥)، وعندما وصل الرومان إليها [١٤نيسان١١٥٦] مكثوا هادئين (لأن اليوم التالي كان يوم عيد الفصح المسيحي) وخيّل للذين كانوا في المدينة أن مرد هذا هو الخوف، لذلك

قاموا بحملات متوالية ووصلوا إلى المعسكر، ووقتها انقض الرومان عليهم بدون ارادة منهم، لكن عندما دفعوهم إلى الخلف، عادوا إلى المعسكر.

وهكذا عاد الرومان إلى انشغالاتهم المتقدمة، يقدمون التبجيل للموسم المقدس، لكن واحداً منهم، واسمه توماس، أصله من أنطاكية، كان منذ زمن طويل قد أصبح من المتعلقين عن قرب بالامبراطور(١٦)، وضع عليه سلاحه، وتقدم من المعسكر على ظهر حصانه نحو السهل، وعندما بات قريباً من المدينة استدعى سادة القوم للنزول للقيام بمبارزة فردية معه، وكان هناك واحداً اسمه أنجيلو، مشهوراً بشجاعته، فعندما رأى توماس يطلب مبارزة فردية، صب سلاحه على نفسه وخرج إلى السهل، وسار حتى بات وجهاً لوجه مع توماس، ثم استولت الحيرة على الذين وقفوا على الجانبين ينظرون نحو رجلين متسلحين بشكل كثيف وعلى درجة عالية من الشجاعة، استعدا للمبارزة في ذلك المكان، كما لو أنهما في حلبة للصراع، وهمزا فرسيهما، بعدما شرعا رمحيهما نحو بعضهما، وخرق رمح توماس ترس ودرع خصمه ووصل حتى الجلد، في حين دفع أنجيلو برمحه فنفذ من خلال ترس توماس، وهو رافع إياه فوق رأسه، وكان هذا العسكري آنذاك قد رفع ترسه ليحمي المنطقة التي حول رأسه، وهكذا خرق الرمح البيضة وجرح جلدة الرأس، وإثر هاتين الضربتين المتبادلتين افترق أحدهما عن الأخر، فعاد واحد منهما إلى معسكر الرومان، ومضى الآخر عائداً إلى المدينة.

وعندما أكمل الرومان الاحتفال بعيدهم، زحفوا ضد المدينة، وعندما تقرر لديهم أنهم عبثاً يفعلون بقذف الأسوار بالحجارة (لأن الرجال القدماء الذين أبدعوا وسائل العناية بأعمالهم العامة، ربما كانوا أكثر تفوقاً في بناء المدن) توقفوا عن ذلك، وشرعوا برماية الحجارة مثل صحون طائرة، تحلق عالياً من فوق الأسوار، لتسقط بعد ذلك داخل المدينة، ولما

أطلقوا الـرمية االأولى، كان في المدينـة عجوز تعول وتـولول جيئة وذهـاباً، فأصـابتها على رأسهـا، فشطرت الـرأس، وحطمت كـل عظم مـن عظام أطرافهـا، وارتفع العويل والصراخ، واستـولى على الناس مظهر مـن جرى الاستيـلاء على مدينتهـم، ونـال هذا حتـى الذيـن لم يمتلكـوا الشجاعـة للذهاب لرؤية تلك المرأة التعيسة، ولدى متابعـة الرومان برماية أخرى ثم رمايـات، اعتقد كل واحـد من السكـان الخائفين أن الحجارة باتـت فوق رأســه، لكـن ليـس وفــق الطـريقــة المحكيــة في الــروايـة المتعلقــة بـــ«تانتالوس(١٧) Tantalus» ، وشعــر الجنـــود الــــــواقفين للحراســة في الأبراج أن أهل المدينـة يخططون لادخـال الرومان، ولـذلك ذهبوا راكضين نحو القلعة، وفتح السكان الأبواب، وأدخلوا الرومان.

وإثر استيـلاء دوكاس على برنـديزي بـاستثناء القلعة، قسـم جيشه إلى قسمين، احتفظ بقسـم في المدينة لقتـال الذيـن كانـوا في القلعة، وأرسـل القسـم الثـاني للقيـام بأعمال جمع المؤن والغـلال، وهكـذا عملـوا، وقـام سكان المنطقة الخصبة المسماة هـاليتزيون(١٨) Halitzion بتقدير ماحـدث في برنديـزي، فقرروا الالتحـاق بالامبراطور، والاعتراف بسلطـانه لكن قوة صغيرة من الأعداء (كانوا من النورمان)(١٩) كانت تنتظر داخل الأحراش وتتربص بـالفرسان الرومان الـذين يرعون الخيـول، وعندما رأت هذه القوة الـرومان قد توقفـوا وناموا، قامـوا بسرقة خيولهم وسوقهـا بعيداً، ووصلـت الأخبار إلى الـذين كـانوا عـائدين مـن جمع المؤن، فبادر هـؤلاء الـرومـان مسرعين وقـامـوا بمطـاردتهم، فـاستردوا الخيـول، وأسروا معظـم الأعـداء، وكان وقتهـا بينهـم رجل ايطـالي عـالي المقـام اسمه سيكيريـن Sycheren [سيغر Siger ؟] قـد وقع بـالأسر، غير أنه بسبـــب عـدم معرفتـه استطـاع أن يخدع آسره فـأطلق سراحـه مقـابـل منحة مـن الذهب.

١١- ووراجـت بين صفـوف الـرومان اشـاعـات تحدثـت عـن اقتراب

وصول وليم وهو يقـود قوى عسكرية كبيرة برية وبحريـة، وبناءً عليه أعدّ الرومـان أنفسهم بقـدر الامكان، ومكثـوا من دون حـركة، ولم يـأت اليوم الخامس حتى وصـل واحد من الفاريـن من جيش العدو، وأنـذر الرومان وأعلمهم بأن وليم بـات على مقربة منهم، ومن الممكن ايقـاعه بالشباك، وعندما سمع القـادة الرومان بهذا، عبأوا قواتهم وأعدوهـا للقتال، وارتؤي أن من المنـاسب أن يتولى بازونفيـل وجون أنجيلوس اللذان كـان برفقتهما مجمـل قـوات المرتـزقـة، القيـام بـالقتـال البري على أن يـرافقهما أيضـاً الايطـاليون الـذين انضمـوا إلى صف الامبراطـور، وبـالوقـت نفسه يقـوم دوكاس بالقتال ضد الأعداء بحراً، وقـالوا بهذا يمكنهم التعاون ومساعدة بعضهـم بعضـاً، وعنـد الفجـر زحـف دوكـاس بخطـوات سريعـة نحـو الشاطىء مـع الفرسان المسلحين الذيـن يحيطون به، وجعل السفـن تبحر على صـف واحد، في حين كـانت بقيـة القوات جـاهزة للقتـال براً، وقـد تقدمـت هذه القوات على تعبئـة، ولم تكن السفـن الصقلية، التي كـانت على مقربة مـن المدينة، قادرة على دخول الميناء دفعة واحـدة (فهذا الميناء كـان عريضـاً بما فيه الكفـاية بـالداخـل، لكنه انتهـى بما يشبه المضيـق) ولذلـك دخلت بالتعاقـب، وانقسمت إلى مجموعـات كل مجموعة مـؤلفة من عشرة سفن.

ثـم إن دوكـاس خـاف مـن عـدد السفـن الصقليـة، بعـدمـا رأى أن الاسطول الرومـاني كان صغيراً جداً بالمقـارنة (لأنه تألـف من أربع عشرة سفينة فقط) ولذلك خطط لشيء كان حسبما يلي:

لقد تدبـر صنع رسالة كأنها قـدمت من الامبراطور، تـذكر بشكل محدد وشوك وصول قوة كبيرة برية وبحريـة، وأن هذه القوات ستصل بالتحديد حوالي منتصف النهار، وعنـدما رفع من معنويات الجنـد وآمالهم خاطبهم قـائلاً: «أيها الجنـود، لقـد تعهــدت أننـا سنحـوذ النصر أولاً خشيـة أن نتشـارك ببركـات النصر مـع الـذيـن سيلتحقـون بنـا مـؤخـراً ليشـاركـوا

بالصراع»، ومع انهائه لكلامه لاحظ هذا القائد أن سفن العدو بدأت بالوصول إلى داخل الميناء، فأمر بانشاب القتال، وهكذا بدأت المعركة على الفور، ولم يستطع الصقليون تحمل الرمايات الرومانية من البر والبحر، ذلك أنهم كانوا عرضة للنشاب من على الجانبين، ولذلك تراجعوا، وطاردهم الرومان وقتلوا الكثير منهم، واستولوا على أربعة سفن مع ملاحيها، بعدما اصطدمت بالأرض، ومرد هذا أن المجذفين فيهم كانوا أكثر سرعة من اللازم، ولذلك اصطدموا بالشاطىء، فكانوا فريسة جاهزة للقوات البرية،وقتل في المعركة مايزيد على الألفين من الأعداء، وسقط أيضاً من الرومان عدد كبير، ولاسيا واحد من الأعيان اسمه سكارامانكاس Skaramankas ، وكان من الخاضعين مباشرة لإمرة دوكاس فهو عندما شاهد العدو يفكر بالفرار، همز فرسه، وأمسك بدفة مؤخرة إحدى السفن التي كانت تحاول المغادرة، وحاول بالقوة أن يمنع مغادرتها، وبذلك قام بعمل أوسع شهرة من عمل كينيغيروس القديم(٢٠) Kynegeiros ، ولدى تأثره بضربات صدرت نحوه من داخل السفينة، اضطر إلى تركها تغادر، لكن بما أنه أعاق نجاتها لبعض الوقت، فقد سبب أسرها من قبل الرومان الآخرين الذين اندفعوا وقتئذ نحوها.

وما ان حقق الرومان هذا النجاح حتى زحفوا ضد قلعة برنديزي، وذلك بعدما اخترعوا آلة اعتادوا على تسميتها «السلحفاة»، وقد دفعوها حتى القلعة، وعندما رآها الذين كانوا واقفين فوق الأسوار ضحكوا بصوت مرتفع، ظانين أن المقصود من هذه الآلة تدمير جزء من منشآت السور، وكان هذا شيئاً غير ممكن التحقيق تماماً، لأن الأحجار كانت شديدة التلاصق حتى أن السور بدا وكأنه مؤلف من قطعة حجر واحدة، لكن عندما أوصل الرومان هذه الآلة إلى الأسوار وألصقوها بها، ولجوا إليها خلال الليل، وحفروا على مقربة من الأساسات، وأخذوا الأوساخ

بعيداً، بعدما وضعت فيها ثم أفرغت من الجانب الآخر، وظلوا متابعين لعملهم حتى تجاوزوا آخر حجرة في الأساسات، ووصلوا إلى الأرض دونها، وهنا أزاحوا الآلة، فأوجدوا بهذا ثغرة واسعة، فشحنوها بالأخشاب حتى امتلأت، ودعموا بذلك جزء السور الذي صار معلقاً، وبعدما لاحظوا أن المدافعين من الداخل ظلوا متشبثين بمواقعهم، ألقوا النار في ذلك المكان، والتهمت النيران جميع المواد، وسببت انهيار السور هناك حتى الأساسات، وأدت إلى سقوط الذين كانوا وراء الشرافات، لكن البرابرة تراجعوا إلى السور الداخلي، ولم تضعف مقاومتهم.

١٢- وبينما كان الرومان مشغولين في هذه المسائل، حشد الامبراطور اسطولاً من السفن وبعث به إلى ايطاليا مع جيش بري، وتولى ألكسيوس ابن بنت الامبراطور ألكسيوس الأول(٢١)، قيادة هاتين القوتين، وكان آنذاك يشغل منصب الدوق الأعظم، [الأميرال الأعلى]، وأمره الامبراطور بحشد قوة أخرى ومن ثم الابحار إلى ايطاليا، لكنه أبحر إلى برنديزي دون أن يفعل ذلك، ومرد ذلك أن مجريات الأحداث كانت مخيفة للقيام بمثل هذه الرحلة، وكذلك خشية من المخاطر التي قد تحيق بهم من العدو.

وبدأ السعد منذ الآن فصاعداً باشاحة وجهه علناً عن الرومان، لأن روبرت صاحب [بازونفيل] بدأ بالتخلي عنهم، وذلك بعدما حارب حتى الآن إلى جانبهم، فهو عندما سمع بأن وليم قادم مع قوة كبيرة، وشهد أن الرومان عجزوا حتى الآن عن اخضاع قلعة برنديزي، تظاهر أنه ذاهب لجمع قوات تساعده في القتال هناك، لكنه لم يعد، يضاف إلى هذا أن الفرسان الذين جاؤوا من تخوم أنكونا Ancona ، طالبوا بأن يُدفع لهم في المستقبل ضعف إيجارهم السالف، وعندما أخفقوا في تحقيق مطلبهم غادروا، ولدى سماع وليم بهذا حشد قواته وزحف مباشرة ضد الرومان.

وشرع الرومان يخططون بشـأن كيفية ادارة الحرب، فقد رأى بعضهم أن الصحيح هـو الذهاب إلى باري، ومـن ثم الحصول على الأمن بـالتحصن بها، لكن هـذا لم يحز على رضا الآخرين، الـذين أعلنوا أنه سيكـون عملاً جبانـاً إذا ماانسحبوا، وتخلوا عما كـان في أيديهم، وبما أن هذا الـرأي بدا هو الصحيـح، ومن أجـل عدم ترك الـوقت يـذهب سدى، قـاموا ثـانية بمهاجمة أسـوار قلعة بـرنديـزي،وهدمـوا قسماً كبيراً منها بـوساطـة الآلات الحربيـة، ومع هـذا لم يستطيعـوا اقتلاع البرابـرة، فهـؤلاء قد تشجعـوا في البداية، وأقلعـوا بهجوم على الرومان، لكـن عندما ضغط الـرومان عليهم بشدة هربوا عائدين إلى الأسوار، ولـولا وقوع حادث عرضي أعاق الرومان، لأمكن الاستيـلاء على برنديـزي عنوة وبكل سرعة، فقـد كان الرومـان قد اعتلوا فـوق الأسوار، وأخـذوا يقاتلون الـذين داخـل المدينة مـن الأبراج، لكن عدداً كبيراً من الأبـراج التي كانت قد تضررت كثيراً من قبـل لرميها بآلاف الحجـارة، تساقطـت إلى الأرض وأوقعت معهـا كثيراً من الـرومان، ولهذا اضطر جيشهم إلى الانسحاب خائباً.

ولاعتقاد الصقليين أن وليم كان بعيداً، وضعوا خطة لتسليم القلعة إلى الرومـان وفق شروط، ولكن بما أن السعـد قد وعد بخدمـة الرومان لـوقت محدد، ولشعـوره أن هـذا الـوقـت قد انتهـى، فقـد تخلى عنهـم في وسـط المدينة، لأنه بينما كان الصقليون يخططون هكـذا جاءتهم الأخبار بأن وليم وصل، وبـات قاب قوسين أو أدنـى مع جيش كبير، ولـدى سماعهم بهذا تخلوا عما عـزموا عليـه، وصعدوا فـوق الأسوار، ورفعـوا أصوات سرورهـم عالياً، وأخذوا يحتفلون وكأنهم قد حققوا فعلاً طرد الرومان.

١٣- لقد كان هذا ماتحقق هنالك، وزحـف وليم، الذي أقلع من مسينا مع كـامل جيشه، مباشرة نحو برنـديزي، وفي ذلك الـوقت كان اسطـوله راسيـاً قرب جـزيـرة على مسافـة جـد قصيرة مقـابل بـرنـديزي، وخطـط الصقليون لمهاجمة الرومان من الجانبين في وقـت واحد، وحال سوء التدبير

—كما أعتقد— مع ماقدر للرومان من هزيمة، بينهم وبين الهجوم البحري فوراً، وقبل أن يظهر وليم لهم ويقف ضدهم، فعندما قاتلوا ضد الطرفين، جلبوا الدمار للمصالح الامبراطورية، وكانوا قد انتظروا آنذاك وصول جيش من بيزنطة، وهكذا أجلوا الهجوم حتى وصوله المنتظر بسرعة، لكن عندما وصلت الأخبار باقتراب وليم، أرغموا وقتها على خوض المعركة ضد الطرفين معاً.

واختار الرومان رجلين مجربين بالقتال هما: يواناكيوس كريتوبلس Ioannakios Kritoples وبيرم(٢٢)، الذي كان من أصل تركي، وبعثوا بهما مع جورجيين ولانيين لمناوشة الأعداء عندما يلتقون بهم، وكان هؤلاء الأعداء قد أقاموا معسكرهم على بعد خمس وأربعين غلوة [خمسة أميال ونصف الميل]، وبعد ذهابهم إلى هناك هاجموا العدو وقاتلوه في الساقة، واشتبكوا عن قرب به وقتلوا بعض رجال المؤخرة، وساقوا أمامهم عدداً كبيراً من الخيول من قطار الأثقال، وبعدما انتزعوا منهم واحداً من أعلامهم، عادوا إلى برنديزي، غير أن الصقليين لم يأبهوا بهذا (بسبب أعدادهم الهائلة، لم تصلهم أخبار ماحصل)، وعسكروا بالفعل على مقربة من الرومان، حتى أن الذين كانوا يبحثون عن الأعلاف من الطرفين غالباً ماتصادموا مع بعضهم بعضاً، وخطط الصقليون للمعركة، وكان أسطولهم راسياً في الميناء على مقربة منهم، واقفاً بانتظارهم، إذن على هذه الشاكلة انشغل الصقليون.

وكان الرومان أقل عدداً من جيش العدو، وذلك بسبب الذين تخلوا عنهم من قبل، ثم لاستمرار تناقص قواهم لكثرة حالات الفرار، ولأن عدداً كبيراً من حلفائهم الآخرين قد هجروهم، وبشكل خاص قيام جماعة معتبرة من النورمان كانت مستأجرة من قبل الرومان بالالتحاق سراً بوليم، ولاحظ وليم ماكان يجري فقرر الامساك بالفرصة التي توفرت له تلك الساعة خشية أن تفوته بعد وقت، بسبب أنه إما أن يأتي روبرت

صاحب بـازونفيل لمساعدتهم (لأنه روي أنه جمع جيشـاً وكان عائداً) أو ان نجـدة بحريـة ستصل إليهـم مـن عند الامبراطـور، ولهذا صف وليـم جيشه على شكـل وحدات وتقدم، ونظـراً لأن روبرت قـد تأخر، إمـا عن قصد أو صـدفة، قام الـرومان بإعـداد أنفسهم والتهيـؤ بقدر ماهـو ممكن، ووقفوا في وجـه العدو، وكان مثيراً آنذاك أن تـرى قوة صغيرة من الـرومان استعـدت للقتـال مـع جميـع القـوات الصقليـة [٢٨-أيـار١١٥٦](٢٣) ووقف الجيشـان لبعض الوقـت دون التحام، ثم قفـز واحد من الفـرسان المرتزقة من بين صفوف الرومـان، ووقف بين الصفين، ودعا إلى من يبارزه وينازله بشكـل فردي، وهكذا بدأ القتال، وانـدفع كل فريق ضـد الفريق الآخر، وكان النزال قد بدأ عند الفجـر، واستمر القتال متوازناً لمدة طويلة، قاتـل فيها الـرومان بشجـاعة، ثـم إن الصقليين شقوا طـريقهم لتفـوقهم العـددي، ودفعوا بـالرومـان إلى الخلف، ووقـع كثير من الفـارين وأخـذوا أسرى، وشـق البقية طـريقهـم إلى المدينة بعـد كثيرمـن الجهد والعنـف، وكان بينهم القـائد ألكسيوس [كومينوس]، أما دوكاس الـذي ترك خارج الأسوار، فلـم يتوقف عـن الضرب وتلقي الضربـات حتى جرى تطـويقه من قبـل الأعداء، وأخـذه أسيراً، لكن بعـد صراع طويـل، وعندمـا أسره الصقليون بات من السهولة بمكان إلقـاء الذين داخل المدينة في الشبكة، وكأنهم وقعوا في فخ.

إلى هذه النهـاية جلـب الأحمقان كومينـوس ودوكاس شهـرتهما المبكرة، وهكذا رجال هـذه الأيام: عاش بعضهم وهو مجرد مـن العلم العسكري، فقـاد المصالـح إلى الـدمـار، وعرف آخـرون بـالصـدفة قسماً مـن العلـوم العسكـرية، لكنهـم أخطأوا في الجزء الأهـم، ذلـك أن الاستراتيجية فـن، وينبغـي على من يمارسهـا أن يكون مـرناً ومـاهراً، وأن يعـرف كيف يقـوم بالتغيير بـالوقـت المناسـب أثناء كل مـرحلة مـن المراحل، فهنـاك أوقات ليـس من العـار فيها الفـرار، إذا سمحت المنـاسبـة بذلـك، ومرة أخـرى

المطاردة بدون توقف، كل ذلك حسب منفعة الفرد، وعندما يبدو أن النجاح مضمون بالبراعة أكثر منه بالقوة، المخاطرة وقتها بكل شيء أمر مأسوف عليه، وبما أن عدداً كبيراً ومتنوعاً من المسائل يستهدف غاية واحدة هي النصر، فالمسألة هي مسألة خلاف حول الطريقة التي يستخدمها المرء للوصول إليه.

وبما أن ألكسيوس لم تكن لديه القوات التي أمره الامبراطور بجلبها، ولو أن الرومان لاحظوا أنهم ليسوا مساوين للصقليين، فحملوا جيشهم على ظهر سفنهم، واشتبكوا مع الأسطول أولاً، لكانوا حققوا النصر عليه بالقوة، ولكانوا أيضاً سوغوا بانتصاراتهم في البحر عملية انسحابهم من البر، حتى إذا ماحانت الفرصة، نزلوا ثانية على الأرض وربحوا المعركة في ايطاليا بقوات أكبر، لكن بما أنهم احتفظوا بأذهانهم بفكرة التراجع الخسيسة، سقطوا في حمأة العار لتعرضهم للدمار مع جميع قواتهم.

١٤- لقد كان هذا ماوقع هناك، وعندما سمع الامبراطور بذلك ظهرت عليه علامات الغضب، خاصة بسبب أن هذا حصل بعد عدد كبير من النجاحات المتقدمة، لأن الفاجعة التي تقع بعد الأعمال المجيدة تجلب العار، وتسبب هذه الأمور بالعادة الحزن الشديد بشكل خاص، لأنها تفتقر كلياً حتى إلى قليل من النجاح، ثم يعقب ذلك دمار لكل شيء، ولهذا كان حزيناً جداً، ومع هذا لم يقهره الحزن، فبعث بألكسيوس [أكسوكوس Axouchos] الذي شغل انذاك منصب بروتوستراتور، إلى أنكونا، ليعمل ثانية في سبيل الاستيلاء على ايطاليا، ولو من البداية، لأن الناس هناك كانوا قد أقسموا للامبراطور، أنهم مع عدم رغبتهم في قتال الملك الألماني، سيتولون حماية أموال الامبراطور والرومان الذين سيبعثهم إلى هناك مثل حمايتهم لأنفسهم، لكن لماذا اقتنع الامبراطور بالقيام بهذا، هذا ماسوف أحكيه، فعندما كان من قبل قائماً بحملة على كيركيرا، لاحظ أن أمة البنادقة كانت مخادعة وعنيدة، ولهذا

ارتأى أنـه من الأهميـة بمكان الاستيـلاء على أنكونـا، فبذلـك يمكنه أن يقلل إلى حدّ بعيد مـن عجرفة البنادقة، ويصبح سهلاً لـه من هناك شن الحروب في ايطاليـا، ولذلـك توجه ألكسيـوس إلى أنكونـا وحمل معه كثيراً من المال [١١٥٧]، وأرسـل من هناك إلى ايطـاليا [أي أبـوليا] قسطنطين أوتو، وأنـدريه كـونت إحدى المدن الايطـالية [روبي كـانينا Rupe Ca-nina] وكـان شجاعـاً جباراً، ومِتلئـاً بـالاقدام، وحشـد ألكسيوس قـوة كبيرة من المرتزقة، فأخضع عدداً كبيراً من المدن للرومان(٢٤).

ثم حدث شيء كان كما يلي:

بما أن أسقف روما [البابا هادريان الـرابع] سلف له ووافق على تحالف مع وليـم، فعندمـا لاحظ هذيـن الرجلين [قسطنطين وأنـدريه] مـاضيان خلال منطقة روما، عارض ذلك بشـدة، غير أن بعض أعيان روما، الذين تقدم لهم الموافقة على اقـامة صداقة مـع الرومان (لأن الامبراطور مـانويل اعتـاد على التحـالف مـع عـدد كبير مـن هـؤلاء) أثاروا الشعـب ضـده، وطلبوا رايـة امبراطورية،وتلقـوها بتشريف عظيـم، وسمحوا عن طـواعية لكونتـوستيفانوس بتجنيـد كل من يـرغب بـذلك، ولغضب الأسقـف مما حدث وضـع الناس تحت الحرمـان [الكنسي]، وهو الشيء الـوحيد الـذي كـان بإمكـانه أن يفعلـه، قائلاً إنـه لايوجـد ما يجمـع بين روما الجديـدة [القسطنطينية] ورومـا القديمـة، ذلك أنهما انفصـلاعن بعضهما منـذ زمن قديم، «وبالحري علينا أن نقاتـل إلى جانب أمير الصقليين، وإنه لإثم إذا لم نذهب إلى عون الـرجل الذي هو عضو في جماعتنا، فضـلاً عن ذلك إنه الرجـل الذي يناضـل بصعوبة ضـد واحد أقـوى منه نفسه»، وقـام واحد ممن تـدبر شؤون الامبراطـور، بعدما خـاف من العقـوبة، بعكس مـواقفه، ومضى لـلانضمام إلى جانـب الأسقف، لكـن القائدان الـرومانيـان شداه بكـل عنف، وشهـرا به لخرقـه عهوده، وعلقـاه بطـريقة وحشيـة معدومـة المثال، فقـد علقا سلاحه وسـابغته وحصانه بـوساطة حبال، ربطـوها إلى

شجرة، وحشـدا قوة بشكـل علني ضـد الأسقف حتـى أرغماه على اعفاء النـاس مـن العقـوبـات، وهكـذا حظيت شـؤون الـرومـان ثـانيـة بحـظ عظيم(٢٥).

واستولى الرومان حرباً على مدينة نالـت اسمها من القديس جرمانوس [سان جرمانو، كازينو الحالية]، ووضعوا أيضاً ثلاثمائة آخرين تحت حكم الامبراطور، ومـن الممكن قـراءة اسم كـل واحد مـن هؤلاء مـن قبل كـل راغـب، لأنهم مثبتين خـارج القصر القـائم جنوب [كـذا] المدينـة، وهـو القصر الذي بنـاه هذا الامبراطـور، وذلك بـالاضافـة إلى القصور القـديمة [أي بـلاشرين](٢٦)، وإذا كـان قـد دون هنـاك أكثر مـن أسماء هـؤلاء، فتلك مبـالغة فيها ادعـاء باطل بطريقـة مفضوحة مـن قبل الذيـن ادعوا مثل هذه الأعمال، كما هـي الحال عادة مع العامة، وبسبـب هذا سمعت أنا مرة الامبراطـور نفسه يعبّر عن غضبه تجاه ذلـك، هذا وأنا الآن لاأدري هل أزيلت هذه الأسماء أم ماتزال باقية.

١٥- وهكذا بـدت الأراضي الايطاليـة وقد دنت مـن أن تصبح ثـانية خـاضعة للـرومـان، لكـن ألكسيوس كـومينـوس ودوكـاس وبقية القـادة الرومان، الذيـن سيقعون أسرى في قبضة صاحب صقلية، دمـروا القضايا ثـانيـة[١١٥٨]، ذلـك أنهم تعهدوا بـأشيـاء كثيرة إلى الصقليين، لم تكـن برضى الامبراطور، وبذلك استلبوا من الرومان أعظم الانتصارات وأكثرها نبلاً، فما الـذي يمكن لـلانسان أن يـوافق عليـه، عندمـا تكون الأغـلال ممسكـة به، وهـو سجين في زنزانـات تحت الأرض؟ لقـد فعل الصقليـون هذا، وهكـذا قام الرجـال الذين كـانوا هناك —وكـانوا يتوقعـون أن يقوم الامبراطور بصنع سـلام مع وليم— بانتـزاع المدن من الرومان وحـرمانهم منها بكل سرعة.

وعندمـا سمع الامبراطـور بهذا، وفهم الذي حـدث، بعث بـرسائل إلى

صقلية، وكتب مايلي إلى الرومان الذين كانوا بالسجن:

«إنني أتساءل أيها السادة كيف يمكنكم متابعة ممارسة الدناءات في الأعمال، لأنكم هكذا قمتم من قبل بتدمير الانتصارات السالفة والرائعة، وجلبتم إلى أنفسكم القدر الذي أنتم الآن فيه، والآن، عندما كان آخرون متلهفون إلى أن يعالجوا بالحرب وبعون من الرب، ماقمتم من قبل بافساده، تقفون في الطريق، ألم يخطر ببالكم أن الصقليين يريدون بهذا إعاقة تقدمنا نحو الأمام؟ لأنه من هو الذي بين الايطاليين، سيسمع أن الأرض التي نمتلكها اليوم سوف ترد إلى وليم من قبلنا، من هو هذا الذي عندما يسمع بذلك، لن يثور علينا ويمضي مباشرة إلى التحالف مع وليم؟ لن يكون هناك من أحد، باستثناء الحمقى والذين بدون عقل، وهم كما يحدث كثر، أسألكم، أخبروني بحق الرب، متى بدت أرض آباءكم أكثر نبلاً بالنسبة لكم؟ متى، بعدما أصبحت ايطاليا وجزيرة صقلية موضوعة تحت سلطانكم، أم عندما كنتم أبطالاً متميزين تمّ انقاذهم بعبقرية من قبل أبناء قومهم، أم عندما تعودون إلى بيزنطة أبطالاً شجعاناً للرومان، ويكون ذلك بمثابة مشهد ترحيب بالنسبة لزملائكم؟ أو متى عندما نكون تخلينا عن لاشيء، وربحنا لاشيء، فقط حسبما تحدد أيمانكم لوليم، أو عندما نستدعيكم إلى هاهنا؟».

لقد كان هذا ماكتبه للرومان، أما ماكتبه إلى وليم فكان مايلي:

«لاتظن أيها السيد النبيل، أننا سوف لن نلاحظ لماذا تمّ تدبير هذا من قبلك، مادام ليس من الضروري تقديم أعذار لما تمّ صنعه تحت الاكراه، وعلى هذا إن ماتعهد به هؤلاء المكبلين، والرجال المسجونين مرفوض من قبلنا كلياً ولانرضى به البتة، ولن يتوقف الرومان عن الحرب في ايطاليا حتى يضعوها مع الجزيرة كلها تحت سلطاننا كما كانت من قبل».

وعندما تسلم الذين كانوا يحيطون بوليم الرسالة، ردّوا عليها كما يلي:

«إذا ما كنتُ ترغب، أيها الامبراطور الجليل، أن تفرض عقوبات علينا بسبب الأخطاء التي اقترفت بحق جلالتك من قبل، فلقد عذبت ايطاليا فوق ماهو ضروري، فلقد استوليت على مالايقل عن ثلاثمائة مدينة في وسطها، بعضها لم يكن داخلاً في المملكة الرومانية منذ زمن طويل مضى، ولقد نلت شهرة لم ينلها غير جلالتك منذ أيام جستنيان، الامبراطور السالف للرومان، نحن نطلب منكم مقارنة ذنبنا (نعني عندما استولينا على كورنثا ويوبويا) مع الانتصارات الرومانية في ايطاليا، التي استولت منذ زمن طويل على ممتلكات كثيرة هناك ونقلت كثيراً من المقتنيات، وغالباً ما ملأت الأرض بثلاثة أضعاف من الدماء، ثم إنكم لم تقتصروا في عملكم على مجرد نهب الكثير من المدن بل حولتوها إلى رعية لكم. أيها أعظم بالنسبة لكم؟.

وإذا لم ترغب بقياس هذه الأشياء ضدنا، نحن الذين أدنى كثيراً النسبة لجلالتكم، إلتفت وعد بالذاكرة إلى الأباطرة القدماء، وقدّر معي إعات الرومان في الأيام الماضية، أم أنه لم يحدث أن قام أحد بتسبيب الاضطراب للمملكة الرومانية؟ أو لم تكن دولتك هي التي عانت كثيراً على أيدي شعوب الترك والهون [البشناق]، وفيما بعد على أيدي روبرت [غويسكارد] الذي عبر من ايطاليا إلى إيبيدامنوس Epidamnos [دورازو، حالياً دوريس] وناهض جدك [ألكسيوس الأول] بعدد كبير من المعارك؟ فلقد تمكن جدك بكل صعوبة، لابل نادراً ماتمكن من دفع روبرت من الأراضي الرومانية، غير أنك استطعت أن تسيطر تقريباً على كل مالدينا، وإذا ماكنت قد فعلت هذا انتقاماً لنفسك منا، فلقد حصلت على مافيه الكفاية من انتصارات، ولقد عاقبتنا بما فيه الكفاية.

وبما أنك أنت الذي دست ترابنا، ليس من العار أبداً قبول عروض السلم، كما أن ذلك لايتخطى الفخار أبداً، وإنك —في حال القبول— سوف تتسلم على الفور جميع الرومان، الذين وقعوا في أسرنا، مادام القدر

هو الذي أعطانا مثل هؤلاء الرجال العظماء، مع أنك لست محقاً بغضبك علينا، لأنه ليس من المعيب للانسان الذي يخوض الحرب أن يتخذ اجراءات ضد أعدائه، هذا ويبقى أنك محق في اثارة الحرب ضدنا ولسبب واحد، لكن ماالذي اقترفناه من ذنب تجاه يوبويا؟ لأنك —كما قلنا— تجاوزت التوزيع العادل، وعلى هذا إذا ماكنت راغباً في فرض عقوبات علينا بسبب ماقمنا به في أراضيك، فلقد فعلنا مايساويه في الدفاع ضد جلالتك، إنما إذا ماأردت اثارة الحرب دوماً ضد شعبنا، لقد حان الوقت لتقدير هذا الأمر فيما إذا كان مناهضاً للقوانين الانسانية، لأنه انسانياً أن تقوم بقياس الحروب بأسبابها، وربما يقول انسان آخر ان تمضي أبعد فذلك عمل وحشي، لكن هذا لن يقال من قبلنا، نحن نطلب منك إبرام معاهدة وإنهاء هذه الحرب».

وبعدما استعرض الامبراطور هذه الرسالة عدة مرات، وافق على ماقيل فيها، وعندما تسلم مانويل الأسرى الرومان واسترد أسلاب الحرب التي كانت هناك، وحصل بالاضافة إلى ذلك على أيمان أداها وليم أنه سيكون حليفه فيما يتعلق بقضايا الغرب، عند ذلك أنهى الحرب، وقام بعد وقت قصير بتشريف وليم بأن جعله ملكاً، حيث أنه لم يكن قبل ذلك كذلك، واحتفظ نحوه بعواطف جيدة، حتى انه عندما استفرغ وليم ماكتب له من حياة، واتصل أخوه به [مانويل] وطلب تقديم المساعدة له ليحكم صقلية، لم يستقبله أبداً(٢٧).

١٦- وهكذا وصلت الانشغالات الرومانية في الحروب الايطالية إلى نهايتها هناك، وبما أن الشؤون في آسيا كانت متحركة منذ أمد، بينما كان الامبراطور مايزال يتابع الصراع في ايطاليا، ولذلك كان مهموماً كثيراً بشأن المسائل هناك، لكنه كان مستغرقاً كلياً بمشاكل ايطاليا، ذلك أن سلطان الأتراك(٢٨) كان قد استولى على كل من مدينتي بونورا Pou-noura وسبيلا(٢٩) Sibyla وكانتا من قبل خاضعتين للرومان، كما

أن طـوروس السالـف الـذكـر كان قـد استـولى على عـدد كبير من مـدن كليكية، وقـام في الوقت نفسه يغـي—باسان، الـذي كان مقدماً لـلأتراك وحاكماً لمنطقة كبدوكية، بالاستيلاء على أونايون Oinaion [أوني] وبوري Pourae [بـافـرا]، وكلتـاهما مـن مـدن بحـر بنطـش(٣٠)، وقـام الامبراطور بإرسـال ألكسيوس غيفاردوس [حوالي١١٥٨] ضـد السلطان، فاستطاع استرداد المدينتين المذكـورتين، ونجح الامبراطور في الوقـت نفسه في جهوده في جعل يغي—باسان يتخلى عن حملة ضد الأراضي الرومانية، وأن يغـدو حليفـه المخلـص، ومـن ثم خطـط ليقـوم بنفسـه بحملـة إلى كليكية.

وحـدثت آنـذاك في بيـزنطة الحوادث التـالية: كـان هنـاك لاوياً، مـن الذين نـدعوهم قسس، كان اسمـه باسيل، كان معهـودا إليه القيام بنشر وتفسير الكتابات المقـدسة للجماهير في أوقات الاجتماعات الـدينية في كل مكان، وقـد أراد أن يقوم بشكل علني بـذيء بالاساءة أثنـاء الطقوس إلى بعض الذيـن تخاصم معهم مؤخـراً، لاسيما ميخائيل السالـونيكي ونقفور الذي كنيته باسيـلاكيوس (أوباسيلاكس)، وكان واحداً مـن هذين الذي اسمـه ميخـائيـل آنـذاك أستـاذاً للبـلاغـة يتـولى شرح وعـرض الكلمات المقدسـة للأناجيل في كنيسـة آيا صوفيا، ونظـر إلى الآخر نظرة تقديـر من قبل رجال الأدب، خـاصة لبراعته في تأليف الخطابـات، وفي الحقيقة كان مدربـاً بشكل بارع في كثير مـن أقسام البلاغـة، وعمل هذان الـرجلان في هـذه الأشيـاء، وكانـا ينـزعجـان إذا مارأيـا انسـانـاً متقدمـاً في المعـارف العلمية، ومن ثم يقومان بالدس ضـدّ مثل هذا الانسان، وبذلك أصبحا الأسباب لمضار بالغة لحقت بهما وبكثير غيرهما.

لأنه عندما كـان باسيل يؤدي قداسه العادي في كنيسة الـرسول يوحنا اللاهوتي خارج المدينة، ذهبـا للاصغاء إليه، وبنوايا تآمريـة عدوانية مليئة بالشرور، لأنه عندمـا كان ماضياً في القراءة لواحـد من نصوص الانجيل،

يخيل أنه أعلن أن ابن الرب والروح كانا واحداً، بدون تمييز وأنهما تلقيا أضحية قربان التعميد مع الأب«٣٠»، وقاما على الفور بالتمسك بهذه العبارة، وصارا يصعدان وينزلان وهما يستهزئان بها، قائلين إن باسيل أعطى طبيعتين [تتعلقان بحال المسيح]، إذا كان واحد قد ضحى وتلقى الآخر الأضحية، ووافق آخرون ممن احتلوا مكانة ونالوا تقديراً لعلمهم على هذا التفسير، وخاصة سوتريكوس Soterichos الذي كنيته بانتيوجينوس Panteugenos ، وكان رجلاً قد تفوق على الآخرين في تلك الحقبة في المعرفة وفي البراعة الخطابية، وكان قد نال عرش البطركية في انطاكية، لكنه لم يكن رسم بعد، ودافع سوتريكوس عن عقيدتهما ليس فقط باللسان والفم، ولكن بحشد كمية هائلة من الأدلة المنطقية، التي إذا عرضت على شكل حوار، تتملك شبهاً عظيماً بأفلاطون، ووحد في تصنيفه بين كثير من الأشياء المتناقضة، وبسبب ذلك خضع للخلع من العرش البطركي هو وكل الذين تعاونوا معه، وكان ذلك عندما تولى الامبراطور الحكم على المسائل موضع الخلاف، واسترد باسيل مرتبته ثانية، ذلك أنه كان قد فقدها من قبل، ومع هذا لقد خسرها ثانية في وقت متأخر، عندما اتهم أنه غير أرثوذكسي العقيدة (٣٢).

١٧- وما ان وصل هذا الخلاف اللاهوتي إلى هذه الخاتمة حتى انطلق الامبراطور ضد طوروس، ذلك أنه عندما كان مشغولاً —كما ذكرنا من قبل— بشؤون الغرب، قام هذا البربري الذي كان ينتظر هذه الفرصة، بالاستيلاء تقريباً على مجمل مدن كليكية، ذلك أنه كان أعظم مهارة من أي انسان في الامساك باللحظة المناسبة، وقادراً على تحريك القضايا.

لهذا السبب ذهب الامبراطور إلى آسيا، وكذلك لأسباب أخرى أنا مقبل على حكايتها: عندما كان ريموند صاحب أنطاكية قد انتقل من بين الأحياء، أقدمت زوجته كونستانس على منح نفسها والممتلكات الأنطاكية إلى الامبراطور، لكن —كما سلف بنا القول— عندما أرسل

الامبراطور القيصر جون روجـر للزواج منها، غيرت رأيها بموافقة عـامة من الأنطاكيين، وارتبطـت بالـزواج[١١٥٣] بواحـد اسمه رينـودي شاتلـون [أرناط]، ذلـك أن الانطاكيين كـانوا يخشـون أنه عنـدما تتـزوج المرأة من روجر سيصبحـون تابعين للرومـان ومن رعـاياهم يـدفعون الضرائب لهم، وعندمـا لم يستجب الامبراطـور لما طلبه أرناط منـه، حاول هـذا أن يخيفه، وعـرض كثيراً مـن التهــديـدات، وأكّـد أنـه يـريــد المال، وهنـا قـام بما يلي[١١٥٦]:

بعدما قـام ببناء عدد من السفـن، أبحر بها نحو قبرص، وقاتـل الذين فيها بطريقـة القراصنة، وحمل من هنـاك كميات هائلة مـن الثروات، وفي البدايـة تمكن ابن أخـت الامبراطور جون (كـومينوس البروتوسيبـاستوس) الذي كـان آنذاك حـاكماً للأرض ومعـه ميخائيل بـراناس والـذين كـانوا متمركـزون هناك للـدفاع عنهـا، من رده والتعـامل معـه برجـولة، ثـم إنه عندما كـان براناس يتولى مطاردته بـاندفاع لم يكن ضرورياً عنـد ليكوسيا (نيقوسيا)، تقـدم جون للالتحاق به، فـوقع الاثنان بالأسر بـأيدي أرناط، وبناءً على هذه الأحداث زحف الامبراطور إلى كليكية(٣٣).

وعنـدما وصـل إلى فـريجيا الصغـرى(٣٤)، اصطـدم بـالأتراك هنـاك، فهزمهم بـالقتال، وقتل منهم كثيراً، وعـاث فساداً بالمنطقة المجـاورة التي كانت عائدة للترك، وفعل ذلك وهـو مسرع نحو كليكية، متظاهراً بالحرب ضدّ الأتراك، فقد ارتأى أنه بهذا الأسلـوب يمكنه أن يفاجأ طوروس وهو غـافل، ومـن أجـل أن يصـل بشكل غير متـوقـع، قـام زيادة على ذلـك بالعمل كما يلي:

أمر ألكسيوس كاسيانوس Kasianos ، الذي كان يحكم آنذاك منطقة سلـوقية بأن يقـوم بحشد القـوات المحلية وأن يكون مستعـداً، ثم اختار الجزء الأفضـل تسليحاً مـن جيشه وبادر مسرعـاً إلى سلوقيـة، وأمر

بقية الجيش الروماني الذي بقي في بعض الأماكن حول أضاليا، أن يعتني بخيوله، لانتشار مرض كان مؤثراً بشكل خاص على المخلوقات النادرة، فقد هاجم حوافر الخيول وسبب لها قروحاً مؤلمة.

وعندما وصل إلى سهول سلوقية(١١٥٨) لم تكن القوات جاهزة حسبما كان قد أمر (لأن ذلك كان قد أهمل من قبل ألكسيوس) فتحول نحو شيء آخر، ذلك أنه كان متشوقاً لالقاء القبض على طوروس بكامل قواه، وقام بارسال ألكسيوس أمامه حتى يتمكن بشكل ما من اعاقة طوروس، الذي التقى به هناك، في حين قام هو [مانويل] بالزحف خلفه وهو يقود قوة لم تزد على خمسمائة رجل مسلح، وكان هذا الطاغية سيقع بسرعة أسيراً بأيدي الرومان، لولا أن القدر تدخل بشكل غير متوقع وأنقذه، ذلك أن واحداً من المتسولين [الحجاج] الذين كانوا بأعداد كبيرة من الأجناس اللاتينية، ذاهبين إلى فلسطين، وكانوا قد عانوا أثناء تجوالهم بالجبال والحصون ولم يدعوا شيئاً لم يحتاجوه بحشودهم، وقد التقى هذا اللاتيني بالامبراطور، وحصل منه على قطعة ذهبية، ثم بادر مسرعاً بقدر ما أوتي من قوة إلى طوروس وحذره من دنو الامبراطور، ولدى سماع طوروس بهذا اندهش، غير أنه لم يفش الأخبار إلى أحد من الناس باستثناء توماس وكوركيس اللذان كانا مقربين منه، وسارع بالفرار ملتجئاً من مكان إلى آخر.

ودخل الامبراطور إلى كليكية، غير أنه لم يعثر على طوروس في أي مكان، وقد تمكن من الاستيلاء على حصن لاموس [على اللاموس جي]، وكان جيد التحصين، ومع ذلك أخذه بدون قتال، ثم استولى على كستراموس وعين زربة،وهي مدينةواسعة الشهرة، وزحف نحو الأمام فعاث فساداً في المنطقة وأخضع لونغينياس Longinias وجميع المنطقة المحيطة بها، وعبر يريد طرسوس التي كانت حاضرة تلك الدولة، فاستولى عليها بسهولة، وقام بارسال بعض عساكره إلى تلي [توبراكل

Toprakkale تـل حمدون] وهـو حصـن حصين جـداً، فـوضعـه تحت سلطة الـرومان(٣٥)، لكن كيـف استولى على طـرسوس التي لم يكـن من السهل الاستيلاء عليهـا بآلاف الحملات، كيف فعل ذلـك في يوم واحد، هذا ما أنا مقبل على حكايته:

لم يرغـب الامبراطور بـالإقامـة طويـلاً هناك، لـذلك تـوجه نحـو مدن أخرى، غير أنه أرسل ختنه ثيـودور باتاتزس Batatzes ليتولى حصـارها، وقبـل أن يصـل ثيـودور إلى المدينة، تخيـل الـذيـن وقفوا فـوق الأسـوار أن الامبراطـور هـو الـذي يقترب منهم فـأصـابهم رعـب منقطـع النظير، حتى أنهم ألقوا بـأنفسهم من الأبراج، فمات هـؤلاء الأشقياء ميتة تعيسة، وبهذه الطريقة تمّ على الفور الاستيلاء على المدينة.

١٨- وهكـذا تمّ الاستيـلاء على طـرسـوس، ولاحظ طـوروس وأرنـاط هذا، فلم يتجـاسرا على التوجه نحو الامبراطور رسـلاً لنفسيهما، لأنهما كانا يعرفان عظيم مـااقترفاه من ذنوب، ولهذا آثرا بعث بعـض الرسل من بين الأعيـان(٣٦) إليه، مـع أمـل أن يصـالحهما الامبراطور ويغفـر لهما، ونظـراً لاخفـاقهما فيما ابتغياه، وافـق أرنـاط، الـذي طوقتـه المصـاعـب من كـل الجهـات، على تسليـم قلعـة أنطـاكيـة إلى الامبراطـور، إذا مـاعفـي عـن جرائمه، وكان من حيث المبدأ مدركاً لسوء مشاعر أسقف أنطاكية نحوه، وهو رجل مـن بني قومهم أقامـوه راعياً لأنفسهـم، وأعطوه لقـب بطريرك، وكان قد نشب نزاع بينه وبين أرناط للسبب التالي:

لقد شعر أرناط —كما ذكرنا مـن قبل— بفقر شديد، فقرر نهب قبرص، والتقى أرناط بالبطـريرك على انفراد، وحيث أنه كان يعلـم أنه ثري جداً، فقد طلب منه منحه بعض المال، وبما أنه لم يكن قادراً على الحصول على أي مبلغ منه، قام بانتزاع ثياب البطريـرك وأخذ منه أرديته، ثم قام بضربه بالعصـا مراراً، وبما أن الموسم كـان فصل الصيـف في ذروته، قام بـدهن

جروح البطريرك بالعسل، وتركه يحترق بالشمس، وهكذا استقر الذباب والبعوض والدبابير والنحل وكل حشرة ماصة للدماء، حول جسده العاري تماماً، ومصت دمه، وأمام هذا العذاب استسلم الرجل، ووافق على التنازل عن جميع ثروته إلى أرناط، وقام أرناط حتى ينال رضا [البطريرك] بجعله يرتدي جميع ملابسه المعتادة، ثم أركبه على ظهر حصانه وقاده خلال المدينة، وقد سار إلى جانبه وهو ممسك بالحزام المتدلي من سرجه، ومع أنه فعل هذا، فقد كان البطريرك أكثر غضباً على أرناط، وبات ينتظر الفرصة لينتقم منه، وقد كتب مراراً وتكراراً إلى الامبراطور وعرض عليه القيام بخيانة أرناط لصالحه، وعندما رفض الامبراطور هذا العرض (ولأنه كان يؤثر الربح بوساطة الحرب لا بوساطة الخيانة) تخلى عن هذه المحاولة.

ولدى معرفة أرناط بهذا، قام بالوعد بالأشياء السالفة الذكر إلى الامبراطور، وعندما لم يأذن الامبراطور بقبول ذلك، تصرف أرناط وفق الأسلوب التالي:

رفع الغطاء عن رأسه.. وشمر عن ذراعيه حتى المرفقين، وسار داخل المدينة حافياً مع حشد من الرهبان، ثم ظهر أمام الامبراطور، وقد لف حبلاً حول عنقه، وحمل سيفاً بيده الأخرى، وأقيمت دكة رائعة هناك، ووقف أرناط بعيداً عن الخيمة الامبراطورية، وكأنه غير متجاسر على الاقتراب منها، بينما اقترب من الامبراطور حشد من الرهبان —الذين لم يكونوا رهباناً— وكلهم حفاة، ورؤوسهم عارية، وجثوا على ركبهم، وهم يبكون والدموع تنحدر من مآقيهم، وقدموا نحوه أذرعتهم، وفي البداية رفض الامبراطور، لكن فيما بعد استجاب لكثرة الرجاءات، فأمر الأمير أن يتحرك نحوه، فمشى نحوه بالأسلوب الموضح من قبل، فغفر له ذنوبه وتجاوز عن آثامه العظيمة، وفي الوقت نفسه ربط أرناط نفسه بعدد كبير من الأيمان تعهد بها بأشياء كثيرة، منها أنه سيعمل وفقاً لارادة

الامبراطور، وسيقبل بشكل خاص بالعادة القديمة في ارسال أسقف إلى أنطاكية من بيزنطة.

وفي الحقيقة استولت الدهشة على الذين كانوا حضوراً، لاسيما هؤلاء الذين جاؤوا رسلاً من دول آسيا: من خوارزم، وزوزن، وأقباط، وجميع ميديا وبابل، اللتان يعرف حاكمها باسم السلطان الكبير(٣٨)، ومن نور الدين أتابك حلب، ويغي—باسان مقدم الترك، ومن أباسغاي Abas-gai ومن الايبيريين [الجورجيين] لابل حتى من الفلسطينيين [الدول الصليبية] ومن أرمن ماوراء ايزوريا [أي مملكة أرمينيا السالفة شمالي بحيرة وان].

١٩- لقد كان هذا ماوقع هناك، وقام بلدوين [الثالث] ملك فلسطين بمراسلة الامبراطور وطلب الالتقاء للتباحث في بعض الأمور الهامة كما قال، لكن العمل هو المسوغ والمطلب، فقد كانت عينه متمركزة على إمارة انطاكية، التي وقعت على مقربة منه، ومع ذلك هو لم يعرف كيف يمكنه نيلها، وبما أنه لم يكن قد عرف بعد شيئاً عما حدث لأرناط، فقد أشار على الامبراطور ألا يطلق سراح أرناط أبداً، فعندما لايكون أرناط موجوداً يمكنه التعامل مع الانطاكيين وجعلهم بمثابة رعية له، لاسيما وأنهم كانوا قد أنقذوا من قبله، أو على الأقل يمكنه أن يفرض نفسه على الذين كانوا يرفضون أن يحكموا من قبل الفريقين [أرناط ومانويل](٣٩).

وما ان فرغ بلدوين من التخطيط لهذه الأشياء، حتى وصل إلى أنطاكية، وخاطب الانطاكيين مخادعاً لهم بتذكيرهم كيف جاء من فلسطين من أجل منفعتهم، وأنهم مدينين له بفضل عظيم، وعندما وافقوا على ذلك، طلبوا مرة ثانية من الامبراطور استقباله، ولادراك مانويل لنوايا الرجل، فقد رفض في البداية، مدعياً أن بلدوين لن يتلقى

التحيات الرسمية المناسبة، ولاالترحيب، إذا كان سيتباحث معه بينها هو غارق في وسط الأعمال العسكرية، لكن مانويل وقد رأى بلدوين قد ازداد اصراراً والحاحاً بالرجاء حول المواضيع نفسها يومياً، وافق أخيراً، وأمره بالقدوم، وعندما توجه للقاء الامبراطور، وخرج من المدينة أحاط به الانطاكيون، ورجوه أن يبذل المستطاع من أجل مصالحتهم مع الامبراطور ورضاه عنهم.

وحدثت في الوقت نفسه أشياء كانت كما يلي في معسكر الامبراطور:

كان هناك واحداً من أمناء سر الامبراطور اسمه ثيودور وكنيته ستيبيوتس Stypeiotes ، وكان ستيفن هذا من المقربين بشكل خاص من الامبراطور ومعهود إليه بوظيفة الدوادار، وهي وظيفة رئيسية، ولكن عندما برهن هذا التعيس أنه سيء النوايا نحوه ومختل فقد لسانه مع عينيه، ذلك أنه تنبأ لعدد كبير من الناس وأخبرهم على شكل مايفعله الأنبياء، أن مدة حياة الامبراطور قد شارفت على الانتهاء، وأعلن أنه يتوجب على الشيوخ الرومان إعطاء السلطة إلى واحد ليس في شرخ الشباب وممتلىء بالفخار، بل إلى رجل مسن أصيل، قد تجاوز مرحلة الشباب، من أجل أنه عندما تجري مناقشته، أن يتولى توجيه أعمال الدولة بشكل ديموقراطي، وهكذا انقضت الأمور بالنسبة لثيودور، وحدث أيضاً بعد ذلك أن رجلاً اسمه جورج وكنيته بيرهوجرجس Pyr-rhogeorgios ، وكان مسؤولاً عن الأبواق الامبراطورية، وكان يدعى عادة بـ Primikerios البلاط(٤٠)، هذا الرجل اختلف مع الامبراطور حول مسائل هامة وكبيرة، ومع أنه تمتع ثانية برضاه عنه، ولم يعان من أية أضرار، لكنه فقد وظيفته فقط.

٢٠- ولدى معرفة الامبراطور باقتراب الملك أرسل بعض الأعيان إلى أحد الأماكن، وأرسل البقية لاستقباله، والسير خلفه بأفضل طريقة مميزة،

كما وبعث ابن ختنه لتقديم التحيات له ولتشريفه بالشكل اللائق حتى يصل إلى حضرة الامبراطور، ثم شرّفه مانويل ورحب به بطريقة تليق بعرش داوود، لكن بلدوين تصرف بشكل آخر فيه عجرفة مردها إلى شعوره بأهميته، أو لما جبل عليه من رعونة، ذلك أنه عندما وصل إلى الخيمة الامبراطورية يحيط به حملة الصولجان الامبراطوري والارستقراطية الرومانية، ترجل من على ظهر حصانه حيث كان من عادة الامبراطور أن يفعل ذلك، وتقديراً من الامبراطور وفهماً لتفاخره غض النظر عن كثير من هذه الأشياء التي تتعلق بمكانته، ومع ذلك أولاه الأهمية، وتوجه إليه بالخطاب، وقدم له مقعداً منخفضاً ليجلس عليه، وتحادث معه، وكرّمه بدعوته إلى مائدته.

وبعدما عقد أرناط هذه الاتفاقيات، لم يرض الأنطاكيون بارسال قوات فرضت عليهم لمساعدة الامبراطور في الحرب، لأن قواتهم القديمة قد اضمحلت وزالت من المدينة، وكذلك لم يعجبهم ارسال أسقف إلى انطاكية من قبل بيزنطة، ولهذا السبب جاءوا يشتكون إلى الامبراطور، وتدخل بلدوين لدى الامبراطور حول هذا، ولاحظ بلدوين أن هذه المطالب لم ترفض بشدة لذلك جعل الرسل يلقون بأنفسهم على قدمي الامبراطور، وتفحص الامبراطور وفكر حول أي الشرطين فيه كرامة أعظم للرومان، وسمح لهم مانويل على الفور بالاسهام بقوات أقل، (لأنه ينجم عن طلب شيء يتجاوز طاقات الانسان في كثير من الأحيان مصاعب جمة، ويكفي على العموم تقديم شيء رمزي للدلالة على التبعية والخضوع في الوقت نفسه) غير أنه قال: لايمكن قبول الأسقف من أي مكان غير بيزنطة، وقبل الانطاكيون هذا بكل سرور، وعادوا إلى المدينة.

٢١- (أ)(٤١) وهكذا ختمت مسألة أرناط هناك، وعزم الامبراطور بعدها على مهاجمة طوروس، وهرب طوروس في البداية إلى مكان مهجور في جبال طوروس، ثم إنه عندما تدخل بلدوين لصالحه لدى الامبراطور،

جاء إلى المعسكر الروماني بمثابة تابع تائب، ورحب به الامبراطور، وأدخله ضمن الرعايا الرومان، وهكذا ألغى الحرب.

وبما أن الامبراطور كان مقبلاً على الدخول إلى مدينة أنطاكية [نيسان١١٥٩]، خاف الانطاكيون —كما يبدو— من أنه حالما يتم السماح للقوات الرومانية بالدخول إلى المدينة، فإن هذه القوات ستحاول طرد الانطاكيين منها، وهكذا لم يعرفوا كيف يصرفون الامبراطور عما عزم عليه، فاخترعوا بعض الأعذار الزائفة، وقدموها له، وكانت هذه الأعذار أن بعض الأشخاص من المتهورين من بينهم قد تآمروا انه عندما يدخل الامبراطور المدينة مجرداً من السلاح (لأنه لم يكن غير ذلك لائقاً) سيتولون بعض الأعمال الخيانية ضده، وفهم الامبراطور الخدعة، فأعلن لهم أنه لن يحدث شيئاً من هذا القبيل، وأوضح بجوابه للذين كانوا من حوله كيف أن ذلك لم يكن ممكنا، ليس فقط لأن الملك كان سيقوم بالاستعراض أمام الامبراطور، بعيداً عنه وهو مجرد من السلاح، بل لأن أرناط مع آخرين سيحيطون بالامبراطور ممسكين بلجام فرسه وبأطراف سرجه، وذلك أثناء سيرهم على الأقدام مجردين من السلاح، وستحيط بالوقت نفسه بالامبراطور وتتولى حراسته جماعة كبيرة من حملة الفؤوس من البرابرة [الحرس الفريجي]وذلك وفقاً لما جرت عليه العادة.

وهكذا رفض هذه المعاذير، لكنه عندما كان على دخول المدينة، لبس درعين فوق بعضهما، معتمداً على قوة جسده وقدرته على التحمل، ولبس فوق الدرعين رداءً مزيناً بالأحجار الكريمة لم يكن أقل وزناً مما كان تحته، كما وضع على رأسه تاجاً وأشياء أخرى اعتاد عليها الأباطرة، وأنا مندهش حول هذا الأمر، فبعدما احتفل بالنصر بالطريقة التي اعتاد عليها في بيزنطة، ووصل إلى كنيسة بطرس الرسول ترجل بكل سرعة ورشاقة، ثم لما عاد لامتطاء صهوة حصانه، امتطاه بقفزة واحدة، وكأنه مجرد تماماً من السلاح.

واستقبله هنـاك أسقف المدينـة، وقد ارتدى الثيـاب الكهنوتيـة، وكان معه جميع رجال الـدين، وقد حملوا في أيديهم صلبانـاً، كما حملوا الكتابات المقـدسة، وانـدهش الأجـانب والغـربـاء عندمـا رأوا بالاضـافة إلى هـذه الأشيـاء أرناط ومعـه أعيان انطـاكية يـركضـون على أقدامهـم من حـول الحصـان الامبراطوري، وكـان بلدويـن، وهو رجـل متوج، يسير في عـرض بعيـداً، وهو على ظهـر حصـانـه، لكن بـدون شـارات وعـلامات، وبعـد الانتهـاء من احتفـال النصر هذا وفـق هـذه الطريقـة، بقي الامبراطـور في المدينة مدة ثمانية أيـام، ثم غادرها، وأظهر الانطاكيـون تذللاً كبيراً نحوه، وذلك أثنـاء اقامته في قصر أرنـاط، حتى انه مـامن أحد عـرض قضية أو شكوى أمام المحكمين المحليين للبت بها، بل أمام الرومان.

٢١- [ب] وبعدمـا نجح في هـذه المسائل، استعـد الامبراطور لقتـال نور الـدين، لكـن بما أن نور الديـن قد عـرف بزحفه ضـده، قام بـاطلاق سراح واحـد من الايطـاليين، هو ابـن [كـذا] صنجيل(٤٢)، مـع الرجـل الذي كـان يتولى قيـادة الفرسان في فلسطين، الـذي يطلق عليـه اللاتين اسم مقدم الداوية(٤٣)، وكانا من الـرجال الأعيان، وبالاضافة لهما أطلق سراح عدد كبير من النبلاء ومـن العامة، فقد أطلق نور الـدين سراح ستة آلاف من الناس العـاديين الذين كان قد أسرهم مـن بين صفوف الجيش الألماني والفرنسي أثنـاء زحفهما في آسيا [الحملـة الصليبية الثـانية]، ولقـد فعـل نـور الـدين هـذا كلـه، ووافـق بـالاضـافة إلى ذلـك على مسـاعـدة الامبراطـور في حروبـه في آسيا، وتقبلـه مانـويـل حليفاً على قـاعدة هـذه الشروط، ومن ثم تخلى عن أغراضه في حربه.

لكن بعد مضي وقت قصير عزم الامبراطـور على إلغاء الاتفاقية، لكنه لم يتوصل إلى مااستهدفه، كما سيتضح معنـا فيما يلي من أخبار: فبدون معرفة من نـور الديـن قام حشـد من المسلمين بصنـع كمين أوقعوا مـن خلالـه أضراراً بالـرومان الـذين كـانوا يقـومون بجمـع المؤن والأعلاف، وعنـدما

سمع الامبراطور بها حدث أقام كمائن في أماكن مناسبة هناك، وقام عند الفجر بالهجوم على المسلمين، وهم لايتوقعون ذلك.

وبعدما تولى طرد المسلمين، رغب بالقيام بالصيد، فتوجه لهذا الغرض إلى السهول العليا من سورية، وهو أمر مرعب، السماع به في تلك الأوقات، ومضى أمامه عدد من الرجال لايزيد عددهم عن الستة، لاقامة الفخاخ أمام أجحار الحيوانات، وقبل أن يقطع هؤلاء مسافة طويلة التقوا بأربعة وعشرين من مقاتلي الأعداء، وقد اشتبكوا معهم، وحاولوا بالخداع جذب بعض الرومان نحو جيشهم، الذي كان من ورائهم، وما ان رأى الصيادون هذا حتى ألقوا بأنفسهم في مجرى نهر كان أمامهم، وسبحوا عبره، وتوجهوا إلى الامبراطور كي يخبروه بما نزل بهم، ولم ينزعج الامبراطور لسماعه هذا الخبر، بل قال: تعالوا أخبرونا أين هو العدو؟ ومع أن الآخرين كانوا يرتجفون ومضطربين كثيراً، فقد أطلق الامبراطور العنان لفرسه وحمل على الأعداء، وظهر فجأة جيش لايحصى عدده من المسلمين كان مرابطاً هناك في تلك المناطق، وانقض الامبراطور دونما توقف على وسط عدد كبير من الرجال المسلمين، وكان اندفاعه شديداً، وقد تمكن من دحرهم، ولم يتوقف عن المطاردة حتى التجأ العدو المهزوم إلى داخل حصون كانت قد شيدت هناك، وقد امتلأ السهل بجثث القتلى، ولهذا السبب، أراد عندما عاد إلى المعسكر، أن يقوم —كما ذكرنا— بإلغاء الاتفاقية مع نور الدين، لكن بعض الأخبار التي وصلته من الغرب، والتي تحدثت عن اضطراب شديد هناك، حالت بينه وبين تنفيذ مارغب القيام به.

وفي هذه الآونة انكسر ذراع بلدوين للسبب التالي: فلقد شارك الامبراطور في الصيد، وكان مساهماً في التمارين، وقد تولته الدهشة تجاه الامبراطور من جميع الجهات، وهكذا رغب في أن يعرف هل هو مقدّر في أعماله، وأراد أن يظهر أنه مكافىء للامبراطور في حملاته، وفيما هو منشغل

في نشاطه الرائع، انزلق فجأة مع حصانه، وأصيب —كما ذكرنا— بذراعه، وتولى الامبراطور على الفور تضميدها، وقدم له مايلزم من عناية، لذلك فك الرباط بعد أيام قليلة.

وتفوق الامبراطور في هذه المسائل على عدد كبير من الناس الذين انشغلوا طوال حياتهم في فن المعالجات الطبية، وفي الحقيقة رأيته وسط عدد من الرجال المدربين يعالج الجروح، ويقدم الأدوية والعقاقير للمرضى، كما أنه أسهم كثيراً في علم المعالجة والإبراء، الذي ظلّ مجهولاً لوقت طويل، ولايُعرف أي عقار يصلح للدهن وأيها يصلح للشرب، وذلك مع أشياء كثيرة يمكن لأي راغب أن يجمعها من المشافي العامة، التي تدعى بالعادة «بيوت الضيافة»، لابل قدم أكثر من هذا كله.

ثم ركب الامبراطور الطريق إلى بيزنطة، وارتحل على أقصر الطرق، فانطلق من بامفيليا، وقاد جيشه من خلال وسط ليكونيا، مع أن السلطان قد عارض ذلك بكل شدة، وعندما اقترب من مدينة لاراندا Laranda [قرامان] (٤٤)، غادرها الأتراك الخائفون وفروا منها، حيث خيّل إليهم أن الرومان سيقومون على الفور بالهجوم على قونية، لكن عندما لم يلحق بهم أدنى أذى على أيدي الرومان، استردوا شجاعتهم، وجلبوا كميات من المؤن وقدموها لهم، وزودوهم بها، بيد أنه كان من غير الممكن بالنسبة للأتراك التخلي كلية عن الكراهية التي جبلوا عليها، وهكذا عندما وصل الرومان إلى كوتيايون Kotiaion [كوتاهيا] قاموا بمهاجمة بعض الذين تخلفوا عن بقية الجيش، وقتلوا عدداً منهم وأخذوا البقية أسرى، ثم عاد الامبراطور إلى بيزنطة،وبعدما احتفل بانتصاره العظيم، وقدم الشكر للرب على انتصاراته، عاد إلى قصره(٤٥).

٢٢- وجرى تذكيره بعد أمد قصير ليأخذ الثأر وينتقم من الأتراك لأعمالهم الحمقاء التي مارسوها ضده، فقام بحشد جيش في سهول

كيبسيلا Kypsella [إبسالا في تراقيا]، وكتب بالوقت نفسه إلى حاكمي المناطق الرومانية في آسيا، يأمرهما بمهاجمة الأراضي التركية في وقت محدد: واحد من جانب، وآخر من جانب آخر، وبما أن هذا قد وقع بالفعل، فقد أدى إلى إلحاق أضرار عظيمة بالأراضي التركية، وعندما وصل الموسم إلى الانقلاب الشتوي، عبر الامبراطور المضيق وجاز إلى آسيا، ووصل إلى دوريليون عبر نهريها الذي يدعى أحدهما باثيس Ba-thys [موتاليب ديري أوساريسو Muttalip Dere-Sarisu] وذلك من قبل السكان المحليين، واسم الآخر ثيبريس Thybris [أوتمبريس وحالياً بورسول جي]، وبعدما اجتاح المنطقة المجاورة بأكملها، طرد حشداً كبيراً من الناس مع كميات من مختلف أنواع الحيوانات، وبعدما عرف الأتراك بما لحق بهم من أضرار، شرعوا يظهرون على شكل فئات وجماعات، وأرسل الامبراطور إحدى التشكيلات الرومانية لتتولى نهب المنطقة الممتدة أمامها، وقام هو نفسه بالصعود إلى المناطق المرتفعة في تلك المنطقة مع قليل من أتباعه، وأمرهم بالنفخ بصوت مرتفع بالأبواق الامبراطورية، ساعياً من وراء ذلك إلى إلقاء الرعب بين الأعداء، حيث سيتصورون أن الامبراطور يقود بنفسه أعمال القتال.

وكما حدث دوماً، في ايقاعه مذابح عظيمة بين صفوف هؤلاء البرابرة، كلما ظهر بشكل غير متوقع بالنسبة لهم، فقد ظهر كالصاعقة، وقيل إن آلافاً قد ذبحوا منهم، لابل إن عشرات الآلاف من الرجال المسلحين وغير المسلحين قد فروا غير مبالين بالعار، وعندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامعي، بدت لي لايمكن تصديقها، مثلما، لايمكن تصديق أفعال [نقفور الثاني] فوكاس ويوحنا الأول تزمكس، اللذان لم يكونا بين الأباطرة القدماء، أو أعمال أباطرة آخرين كانوا مشهورين لشجاعتهم ومن الممكن مقارنتهم بهما، لأنه فوق المعقول أن تتم هزيمة آلاف من قبل رجل واحد، وأن يتم التغلب على أعداد كبيرة من الرجال المسلحين

تمام التسليح بوساطة رمح واحد، ولهذا، كان كلما أقمت في البلاط وسمعت بصوت مرتفع عن أعمال الامبراطور هذه، كنت أنصرف من الاجتماع وأنا فاقد لصوابي، لأن أخلاقي لاتتماشى بشكل طبيعي مع الاطراء الكبير، كما انني لاأسمح بارادتي بمرور عبارة واحدة باستثناء العبارات الصادقة وليس الاطراء الكاذب، واعتدتُ أن أدع هذه الأشياء لتنسج ولتصنع باستمرار في العاصمة وداخل القصر، وبين الذين يشغلون الوظائف العالية، وذلك حتى تصل الحقائق إلى ناظري، وهذا ماحدث عندما صدف أن وجدتُ نفسي وسط الأعداء، ورأيت عن قرب قريب الامبراطور وهو يتولى مقاومة وحدات تركية كاملة، وسيتولى التاريخ وصف هذه الأشياء في اللحظة المناسبة، ودعونا الآن نتابع السير نحو ماهو قائم أمامنا.

وكان الامبراطور في أعالي تلك المنطقة، في حين زحف الجيش الروماني نحو الداخل، واصطدم بشكل غير متوقع مع القوات التركية، وبما أن الصراع بدأ يداً بيد، وبما أن القوات الرومانية بدأت تشعر بالضيق، عندما علم الامبراطور بذلك سارع بأقصى مايمكن، دون أن يرتدي درعاً، ودون أن يحمي جسمه بأي شيء آخر باستثناء ترس، وانقض بسرعة وسط الأعداء، وقام بأعمال رائعة عبّر فيها عن قوة جبارة، حيث كان يضرب بسيفه كل من اقترب منه، وعندما شرعوا بالهرب، لم يضع وقته، وقام بمطاردتهم إثر تزويد يده برمح، ودون أن يلتفتوا نحو الخلف هربوا بعيداً، وحقاً من غير الممكن تصور جيش كبير بهذا التعداد قد تمت مطاردته من قبل رجل واحد، لأن الخوف الذي حلّ بهم أغلق تماماً أعينهم، لكن عندما لاحظوا الحال الذي كانوا به، أخذ كل واحد منهم يهزأ بالآخر ويعيره بالجبن، وهنا انعطفوا فجأة، ووقفوا مواجهين له، لكنهم والرعب مازال يقودهم، امتنعوا عن الاندفاع نحوه والانقضاض عليه بأنفسهم، غير أنهم أفرغوا ماكان بجعبهم من سهام أطلقوها عليه،

ولـذلك كـان يحول ترسـه من جـانب إلى آخر، يدفـع بذلـك عن نفسـه الرمايات، ويحمي جسده من السهام.

وكـان بين الأتراك واحـداً شجاعـاً وفرداً نشيطـاً، وعندمـا رأى ما مـن واحـد بين هؤلاء جميعـاً تصـدى للامبراطـور بـالقتـال، كان يغلي غضباً، فتناول سيفاً من أيدي واحد من أتبـاعه، واندفع ليضرب الامبراطور، لكن الامبراطور أمسكـه من شعره وأخـذه أسيراً، وأخذ معه ثـلاثة آخريـن من الأعيان، وعنـدما وجد البقية أنفسهـم غير قادرين على مواجهتـه، غادروا المكـان فراراً، وعـاد الامبراطور إثـر ذلك إلى المعسكـر ومعه أسراه هـؤلاء، ولدى ادراكه أن الشتاء جاء قاسياً جداً، قرر العودة إلى بيزنطة(٤٦).

٢٣- وفي ذلك الـوقت تماماً [أوائل ١١٦٠] كـان في ثغر بيثينـا، حيث كان قـد أسكن مـن قبل الأسرى الـرومان مـن فيلوملنيـون [كان اسمهـا فيليا] (٤٧)، وتعـامل هناك مـع الرسل الذيـن جاءوا من عنـد السلطان، وعندما لاحظ أنـه لم يكن لديهم شيئاً جاهزاً لإعلانـه، صرفهم، وهددهـم أنهم مالم يعملـوا متماشين مع ارادتـه سيقوم الفـرسان الـرومان بعـد وقت قصير باجتياح أراضيهـم، ونهب كل شيء بشكل أسوأ حتـى مما تم الآن، وبعدما أمضى بعـض الوقت في أوغسطي Augouste ، انطلق من ثم من هناك (من قرية دعيت آنـذاك محلياً باسم رتزيون Rhitzion)، وقد استقبلـه السكان المحليـون عنـدما عبر إلى الطـرف الأقصـى من [خليـج أستاكينـوس Astakenos] ، وذهـب إلى الشاطـىء المقابـل، وزحف من هناك راكباً الطريق المار بـالمدن الساحلية، ووصل إلى فيلادلفيا، وقام من هناك —بعدما أعدّ عدته— بمهاجمة الأراضي التركية (٤٨).

وكـان الرسـل الأتراك يسيرون عبر سهـول دوريلايـون Dorylaion ، حيث كـانوا يجهلون تمامـاً أخبار حملـة الامبراطور على قومهـم، ذلك أنهم كانوا واثقين أنـه كان مقيماً في أحواز مدينة بيـزنطة، وعندما كـانت أخبار

الحملـــة الـــرومـــانيـــة لاتتعـــدى الاشـــاعـــات في كـــل مكـــان [شتاء١١٦٠-١١٦١]، شعر الأتراك بالبـداية أن الأمرلايصدق، غير أنهم عندمـا سمعوا عنهـا من عـدد كبير من شهـود العيان، حـركوا جيشهـم، وبادروا مسرعين للتصـدي لها، لأنه لم يحدث أن عـانى البرابـرة من قبـل مثلها عانوه الآن من خسائر بالمال والعتاد، وظناً من الامبراطور أن الأتراك مازالـوا لايعرفون شيئاً عما فعلـه، قدّم أمامـه بقية الجيش الرومـاني، وسار خلفهـم مع عـدد قليل مـن الرجـال، وسمع الـرومان أن الأتـراك كانـوا يزحفون بقـوة، وقد انزعجوا لذلك واضطـربوا كثيراً، لاسيما لأن الامبراطور لم يكـن معهم، غير أنـه مالبث أن التحق بهم، ذلـك أنه سمـع بزحـف الأتراك، فـاستردوا شجاعتهم، وزحفـوا بحماس أكبر، وبما أن الوقـت كان آخر النهـار فقد تـرجلوا من على ظهـور خيولهم، وقدمـوا للخيول طعـامها المعتاد، واستراحوا لبعض الوقت، ثم استـأنفوا انطلاقهم، وكان الليل قد حلّ، لذلك ركبوا الطريق وساروا عليه مستخدمين ضوء المشاعل.

وصنعت المشاعل كما يلي:

بـاثبات أقـداح معـدنيـة على قاعـدة تشبـه الصحـن، وهذه الأقـداح المعدنيـة مثبتة نحو الأعلى، وهي منفصلـة، وتتضاءل صعوداً مـن العرض إلى أن تصبح مدببـة، ويثبتون على الصحن شوكة معدنيـة أخرى، تختلف عن البقية، بـأنها في أولها سميكة ثم تغدو مـدببة، وبعدما يتـولون ربطهم صعـوداً حـول بعضهـم بـربـاط مـا، يصبحـون أشبـه بقـاعـدة مشعـل، ويـربطونهم على رأس رمـح، ثـم يأتـون بقطع مـن الكتـان جرى قصهـا طـولانياً، يجعلـونها تمتص ما أمكـن مـن دهن الخنـزيـر(٤٩) ثم يلفـونها بعنايـة، ويثبتون كـل منها فـوق إحدى النقـاط المدببة للشـوك المعدنيـة، وهذه عنـدما كـانـت تشعـل كانـت تعطي ضـوءاً ساطعـاً، يصدر عنهـا، فيكون الحال بالنسبة للعساكر أشبه بضـوء النهار، وماقلناه هذا يكفي عن المشاعل.

وكان الثلج يتساقـط بغزارة، وهكذا اختفي الطريق تماماً، وتاه الجيش الـرومـاني، وأضـلّ الطـريـق، وكـاد أن يقـع في منطقـة خطـرة، لـولا أن الامبراطور شعر بالخطأ، فحمل بيده مشعـلاً، وتحرك ذهاباً وإياباً، وفي هذا الاتجاه وذاك، حتـى عـرف الطريـق، ومـن ثـم قـاد الجيش عبر الطـريـق الصحيح، وعندما وصـل الجيش إلى قرية سماها السكان المحليـون باسم ساراباتا ميلونوس(٥٠) Sarapata Mylonos حتى شرع بالعمل على جمع المؤن والأعـلاف، وكان اسـم الـذي تولى حكـم جميـع تلك الامـارة (اسمه سليمان) (٥١)، وقـد سمع بـالأخبار التـي انتشرت في كل مكـان، ومع ذلك كـان متردداً في تصديق ماقيل، لـذلك بعث بابـن أخيه واسمه بوباكس (٥٢) (أبـوبكر)، الذي غالباً ماكـان قد رأى الامبراطور، وأمره أن يقترب ماأمكن من الجيش الرومـاني ويتجسس أخبار الامبراطور، وعندما رأى أبو بكـر الامبراطور ترجـل على الفور من على ظهـر حصانه، وخـاطبه بعبودية ولـدى معرفة مانـويل الرجل مـن كان ومن الذي أرسلـه قال له: «قل مايلي لسليمان:

أنـت الـذي تـرغـب الآن في معـرفـة مـن الـذي يتـولى نهب الأراضي التركية، اعمـل كما لو أن النار قد ألقيـت على بيتك، وأنت لم تقـم اعتباراً للطريقـة التي يمكـن أن تتغلب بها عليهـا، والذي عليـك هوأن تبحث جيداً لتعرف من أيـن جاء أصلها، ومن الذي أشعلها، لايجوز لـك الرغبة بالتخفـي وراء جبنك بالتظـاهر بالجهل، وكـأنك قابـع تحت ردائك، لأنه من غير المنطقي أن يعفي التظاهر بالجهـل مستخدمه من الملامة، والمنطق العام يعرف شيئـاً واحداً رائعاً فقط: إن الشجـاع وقت المخاطر هـو الذي يوازن بين الأمور، وهـو إذا لم يتمسك بهذا يفقد كل شيء، وفيما عـدا ذلك فـإن عذرك لا مكـان له، حسنـاً، لقد أدركـت، أنك لاقيـت الذي أنـزل القوارع بالأتراك، فإذا ماكنت ترغب بالتصدي له، لاتمتلك عذراً، [أن لا تفعل ذلك]».

وما ان أكمل كلامه هكذا حتى أعاده، وبعدما تولى نهب ماوقع أمامه، وعرضه للهدم، والتخريب، ركب الطريق عائداً، لكن حدث أولاً شيئاً لايمكن أن يصدق، لأنه قيل بأن الجيش الروماني لم يكن فيه أكثر من ستين رجلاً مقاتلاً، بيد أنه عندما باتت أمور الرومان في وضع خطير جداً، تمّ انقاذهم بشكل غير متوقع، ولقد تجمع الأتراك بأعداد كبيرة، كما أنهم امتلكوا أجزاء من الأراضي زادت تفوقهم، وكان الأتراك يرمون من الأعلى، لذلك آلموا الرومان ايلاماً شديداً، وأرغموهم على التجمع مع بعضهم والتكتل، ومع هذا لم يكن الأتراك على دراية بشجاعة هؤلاء، ذلك أن طبيعة المكان لم تكن موائمة لمرورهم، ثم أحاق الخطر بالامبراطور نفسه، لأن بعض الذين كانوا يتولون حراسته أخذوا يتبددون خفية، ومع أن الامبراطور في هذا الوضع الخطير، لم يتخل عما اعتاد عليه من الشجاعة ، قام بابعاد جون قريبه بالمصاهرة(٥٣)، الذي غالباً ماورد ذكره من قبل، وكان قد اقترب منه، وكان متشوقاً لتزويده بترس (لأنه كان آنذاك مجرداً من السلاح)، قائلاً بأنه كان من غير الممكن لترس واحد أن يكون كافياً لحماية جسدين، وتمكن الرومان بعد صعوبات جمة من الجواز خلال تلك المنطقة، وعندما أصبحوا في منطقة أعرض وأوسع، سمحت للخيول بالتحرك وللرجال بفرصة البرهنة على قوتهم، فرددوا عالياً صرخة الحرب، ومدوا رماحهم وأشرعوها باتجاه العدو، وانقضوا عليه، فردوه إلى الخلف، وذبحوا عدداً كبيراً من أفراده، وعادوا جالبين معهم جميع أسلاب كل من طردوه، وصحيح أن كثيرين قاتلوا بشجاعة، فقد تفوق الامبراطور على كل الموجودين، فما من واحد تقدم عليه بالاشتباك مع العدو، ومامن أحد قام بمثل ماقام به من أفاعيل شجاعة، ولقد عاد الأمبراطور إلى بيزنطة بعد نجاحاته هذه.

٢٤- وبعدما نزل بالأتراك مانزل من فواجع، قرروا رداً على ذلك إلحاق الأذى بالرومان، وحزموا أمرهم واستغلوا وقتهم فاستولوا على

فيليتا(٥٤) Phileta ، وهي مدينة شرقية، ثـم هاجموا أيضاً بشكل غير متـوقع لـوديكيا في فـريجيا الصغـرى، وألحقوا بها أضراراً كبيرة وكـادوا يدمـرونها، وساقـوا أمام سيـوفهم كثيراً مـن السكان مـن الشبان فما فـوق حيـث اتخذوهم أسرى، وفي الحقيقـة كان عـدد الأسرى كبيراً وتكوّن مـن حشود لايمكن عدّها.

وعنـدمـا سمـع الامبراطور بهذا غضـب غضبـاً عظيماً وتـألم كثيراً، وود —لو أنـه كان ممكنـاً— أن يجوز على الفور إلى آسيـا ويشرع بقتال قـونية، لكن لما كان يعلـم أن هذا يحتاج إلى وقت موائم لتنفيذ مثـل هذا العمل، ولاستعدادات أعظم للحرب، فقد قرر التخلي عن الفكرة والابتعاد عنها.

ووضـع في ذهنه أن يقـوم بجمع قـوات مـن كل اتجاه، ولـذلك بعـث بجـون كـونتوستيفـانـوس إلى فلسطين [أوائل١١٦٠] كـي يقابـل الملـك بلـدوين، ويجلـب معه مـن هناك الـرجال الـذين جرى الاتفاق حـولهم بمـوجـب تحالفهم الـذي قضـى بتـزويـد الامبراطور بما يطلبـه، وأن يقـوم كذلك بتجنيد وحـدة من المرتزقة،وأمر أيضاً أرنـاط أمير أنطاكية أن يشرع بأقصـى سرعة ممكنة بـالتحرك مع القـوات التي من حـوله، وكذلـك أمر قادة الأرمـن آنذاك وهـم: طوروس وتيغـرانيس وكـريسافيـوس الكيلكي، والذيـن يدعـوهم النـاس كوغ فـاسلي(٥٥)، وهم قـادة قوات عسكـرية، لكنهم كانـوا قد التحقوا متطوعين منـذ أمد بعيد بالامبراطـور وصاروا من رعـاياه، وحشـد مـن الشرق بهذه الطريقـة جماعـة كبيرة، واستـدعى مـن الغـرب الفـرسان الليغـوريين [أي اللـومبـارديين]، كما واستدعـى زوبـان العظيم صاحب صربيـا مع القواد الذين كانـوا تحت أمرته، واكترى كثيراً مـن بين السكيـزيين من بين القبـائل التـي عـاشت حـوالي تـاروس [أي تاروس سكيزيـا أو الروس]، ولم تقتصر استعداداته للحـرب على هذا فقط وبهذه الحدود، بـل كـان يعـرف أن بين الأراضي التـي وقعـت في أيـدي اللاتين المستـولين على فلسطين، كانـت جزيرة رودس، وقـد استأجـر من

هناك جماعات كثيرة من الفرسان المرتزقة، ومن أجل المؤن والخدمات الأخرى أمر بجلب أعداد لاتحصى من الثيران مع عرباتهم من قرى تراقيا(١٥٦).

وقام بهذه الاستعدادات، وفي الوقت نفسه أراد أن يحول عداوة السلطان نحو بني جلدته وقرابته، فكتب إلى أخيه شاهنشاه الذي كان يحكم غانغرا Gangra وأنكيرة غلاطية [أنقرة]، وإلى صهره يغي—باسان الذي كان يحكم كل من قيصارية [قيصاري] وأميسيا [أماسيا] مع مدن أخرى هامة قائمة في أراضي كبدوكية، وبعدما جعلهم يشكون بالسلطان، بات على وشك انجاز الاستعداد للحرب، وعلم السلطان بهذا كله، وبما أنه لم يكن قادراً على مواجهة كل هؤلاء الذين ثاروا ضده بتحريض من الامبرطور، تخلى عن ملكية عدد من المدن، خاصة المدن التي احتلها منذ وقت وجيز بعد بذله لجهود كبيرة، تخلى عنها لصالح الذين عاشوا على مقربة من أراضيه، وكتب إلى الامبراطور وسأله العفو عنه، ووعد أنه إذا ما حظي بذلك فإنه سيتولى إعادة الأسرى الرومان، حيثما كانوا مختفين في مملكته، وأن البحث عنهم هو مسؤوليته وعمله.

وبينما هذه الأمور قيد التجربة، حدث شيء ما كان كما يلي: عندما كان جون [كونتوستيفانوس] منطلقاً من فلسطين [خريف١١٦١] مع الفرسان، اصطدم بجيش تركي زاد على العشرين ألفاً من الرجال المقاتلين، ولقد فوجيء بالبداية، ولذلك توجه مسرعاً مع أتباعه إلى رابية كانت قائمة هناك، واتخذا موقفاً، ومن ثم بعث الحماس في الجيش كله، وانقض على الأتراك، وبما أن حملة الرومان كانت شديدة جداً على الأعداء، والقتال كان قاسياً، فقد شرع الأتراك بالتراجع، وهنا سقط عدد كبير منهم، كما وسحق الفرسان كثيراً تحت أقدامهم، وحدث أن عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين حققوا انجازات وقاموا بأفاعيل جديرة

بالتـدوين، ودللـت على شجاعتهم، لكـن في ذلك الصراع أبـدى القائد ماتفـوق به على الآخرين شجـاعة واقداماً، وعاد جون بعد هـذا النجاح يحمل معه إلى الامبراطور غنائم نصره.

وعنـدما سمـع السلطان بهذا، تملكـه الغضب والأسـف، ولعن نفسـه لتسرعهم هذا الـذي جاء في غير وقته، ولم يزعجـه ماحدث لأتباعـه بقدر مابقي أمـامه وعليه مواجهته بسبب زحـف الامبراطور ضده، ولهذا تصرف وكأن البيزنطيين يهددون الـذين لم يستعدوا بعد، وبناءً عليه سـارع بزيادة عروضه المتقدمة بـأشياء إضافية وبتقدمات أعظم، فوعـد بإعطاء الرومان سنوياً قوة حليفـة بناءً على الطلب، كما ووافق على أنه مامـن تركي سوف يدوس بقـدمه الأراضي الـرومانية بـدون إذن من الـروم، وإذا مـاحاول أحد من بقية الامارات التركية إزعـاج الروم وتسبيب الأذى لأراضيهم، فإنه سيعلن الحرب عليه، ويباشرها ضـده فوراً، ولسوف يعيق بكل وسيلة أي عمل تـآمري مهما كان مصـدره ومنشأه، وسيكون على استعـداد لفعل أي شيء يـأمر بـه الامبراطور بـدون تردد، ووافـق على إعادة إحـدى المدن التـي كـانـت تـابعـة من قبـل للـرومـان، غير أنها وقعـت تحت السيطـرة التركيـة، واقتنـع الامبراطور بهذه الأشيـاء، فـأخـذ عليه العهـود والمواثيـق المغلظة، فأنهى عمله العسكري، وعاد إلى الوطن.

ولـدى معرفتـه بخبر أن الكومـان قد عبروا الـدانوب، لنهـب الأراضي الرومانية، تحول عـن الطريق الذي يقوده إلى بيزنطـة، وزحف نحو مكان الجواز قرب مدينـة أبيدوس، حيث قامت بلدة سـاحلية صغيرة في منطقة تراقيا، أعتقد أنها نالـت اسمها من كالياس Kallias ، وكان قائداً للأثينيين(٥٧)، وعبر من هنـاك، وأسرع في زحفه ضد الكومـان، أما هؤلاء فـإنهم حزمـوا أمتعتهـم بسرعة وغـادروا المكـان، عندمـا سمعـوا بزحـف الروم، وحدث هذا حتى قبل أن يصل الامبراطور إلى الدانوب.

الكتاب الخامس

١- هكذا سارت الأمور هناك، وبما أنه لم يبد في الأفق أي شيء من أي اتجاه يهدد المملكة الرومانية، فقد توجه الامبراطور إلى إحدى القرى الواقعة على مقربة من بيزنطة للاستراحة، وكان اسمها لونغوي Longoi، وبينما هو مقيم هناك، حلّ اليوم الأخير من حياة الامبراطورة [بيرثا] إيرين، وكانت امرأة، حسبما ذكرت من قبل، تفوقت كثيراً على الأخريات في ذلك الحين، بالحكمة، وصواب الرأي، والرحمة تجاه الذين كانوا بحاجة(١)، وكانت أما لابنتين، كانت أكبرهن [ماريا كومينا البروفيروجنيتا Prophyrogenita] قد بقيت حية وأقامت مع أبيها، أما الثانية فقد فارقت الحياة بعد قليل من اكمالها لعامها الرابع.

وبينما كانت تصارع ضد مرضها، عاش الطفل مع ذلك، ومهما يكن من أمر فقد استدعت أوضاع الغرب الامبراطور إليها، وقد خلف الامبراطور مسائل بيته الخاصة خلفه، وزحف ليعالج المشاكل هناك، ذلك أنه سرت وقتذاك أخبار أفادت أن فردريك ملك الألمان، كان قد حرك جميع شعبه لمهاجمة الأراضي الرومانية، ولهذا السبب، وبسبب، انقضاء أجل غيزا ملك هنغاريا(٢)، ذهب إلى سارديكا، وقد تأخر هناك مافيه الكفاية، لأنه أولى اهتماماً كبيراً مسألة السيادة في هنغاريا، ولأن ما روي عن الألمان لم يكن يقيناً وأصيلاً بعد، ودعونا الآن نبين لماذا رغب الامبراطور في الادعاء بحق له في حكم هنغاريا، فلقد كان لغيزا أخوين هما: لازلو Laszlo ، وستيفن [أسطفان]، وقد اختصما معه، وأنا لاأعرف لماذا أصبحا مكروهين كثيراً منه، وبعد نفي طويل، لأحدهما في مكان وللآخر في مكان آخر، توصلا إلى الامبراطور، وحضرا بين يديه، وقد

تزوج ستيفن ابنة أخي الامبراطور، ماريا ابنة اسحق السيباتوكراتور، التي كانت —كما ذكرت— فائقة الجمال، وبقي الآخر بدون زواج، وعندما توفي غيزا استدعى قانون العدالة، واحداً من الأخوين إلى السلطة (لأن القانون بين الهنغار قضى بذهاب التاج دوماً إلى الأخوة الأحياء) وكان الامبراطور راغباً بشدة في اعادتهما إلى أرض أجدادهما، ذلك أن غيزا قام قبل وفاته بتجاوز العادة الوطنية، وحول المنصب الملكي إلى ابنه، وكان الهنغار من بعض الجوانب يدينون بهذا القانون، وخائفين من جانب آخر من قدوم الامبراطور، فانتزعوا المنصب من ستيفن ابن غيزا [اسطفان الثالث] ومنحوه إلى لازلو [الثاني] الذي كان واحدا من الأخوين، وأعطوا ستيفن، وأعني به الأخ الأكبر، منصب أوروم Urum ، وكان معنى اسم هذا المنصب بين الهنغار أن صاحبه سيكون الخليفة في تولي السلطة الملكية(٣).

٢- هكذا سارت الأمور بالنسبة للأخوين، ووصلت المسائل إلى خواتمها، وإثر هذا تابع الامبراطور زحفه إلى فيلبه، وهي مدينة مقدونية، وكان هدفه إنهاء المشاكل في صربيا، ذلك أن بريميسلاف، الذي كان يحكم البلاد آنذاك، كان —كما سلف بي القول من قبل— قد حدثته نفسه بالثورة، لأنه يمتلك روح الاستقلال، وأنه بعدما أوشك أن يفقد سلطانه لهذا السبب، وذلك على يدي الامبراطور، رأى الرحمة مجدداً أمام ناظريه، وبقي في [منصبه] نفسه(٤)، ثم إنه لم يقم الآن وزناً لاتفاقاته وأيمانه، وتورط ثانية بالعصيان، وقام الامبراطور الذي فهم الرجل، بتنحيته من منصبه، وأقام مكانه أخاه بلوس Belus ، وعطفاً منه على مصيره، قام بنفي بريميسلاف، حتى لايحدث ضرراً مرة ثانية، غير أنه أعطاه منطقة خصبة جداً، وجيدة للرعي من قبل الحيوانات، وبعدما عاش بلوس في منصبه لوقت قصير ممجداً، تخلى عن الملك، وهجر أرض آبائه، وذهب إلى هنغاريا، ولقد عاش هناك لوقت طويل، غادر بعده

هذه الحياة، وأمر الامبراطـور باستدعاء آخر الاخوة الذي كـان يدعى ديسا Desa وكان يحكم منطقة دندرا، وهي منطقــة خصبة ومكتظة بالسكان، وتقع على مقربة من نايسوس(٥) Naissos ، وبعدما تلقى مانويل منه يمين الـولاء، والوعـد أنه سيحتفـظ طوال حيـاته بنقـاء بشرط الطاعـة، وذلك بالاضـافة إلى تخليه نهائياً عن دنـدرا لصالح الرومـان، وهي منطقة —كما ذكرت— كانت خصبة، قام بمنحه لقب «زوبان العظيم».

٣- وحوالي هذا الـوقت [١١٦٢] حدث أيضاً أن جـاء السلطان قلج أرسلان(٦) [الثاني] متطوعاً وباختياره إلى بيـزنطة ليتوسط لدى الامبراطور بشـأن مسـائل مفيدة لـه، وهـذا شيء هـائل، وفوق العـادة رائع، فمثلـه لاأعرف أنـه حدث للرومـان من قبل، فهل تقـدم لأحد من بين الأبـاطرة العظـام أن ظهر رجـل في بلاط الـرومان على شكـل عبد، مـع أنه يحكـم أراضي واسعة شـاسعة، وهـو سيد لعـدد كبير من القبـائل، ولكي أصـف الاحتفالات والرسوم التي تمت لمن يود أن يسمع:

فقد نصبـت دكة رائعة، ووضع عليهـا عرش، ارتفع ارتفاعـاً كبيراً عن الأرض، وكـان مشهداً جـديراً بـالملاحظة، ولقـد صنع كـل شيء فيه مـن الذهـب، لكن كميات كبيرة من أحجـار الياقوت والـزفير كانت مرصـوفة على جميع أطرافه، كما أنه لم يكن بـإمكان أي انسان احصاء عدد اللآلىء، فقد وضع عـدد كاف منها حول كل جـوهرة، وكانت مثبتـة في الفراغات المناسبة، فقد كانوا ذوي استدارة كاملـة، ويشعون اشعاعاً أشد بياضاً من الثلج، وكـان العرش مليئـاً بمثل هذه المشعـات، وتفوق بـالروعـة القسم الأعلى الذي يمتد فوق الرأس، عن البقيـة، بقدر مايتفوق الرأس على بقية أعضاء الجسد المرتبطة به، وجلس عليه الامبراطـور، وملأ المكان بالفخامة لحسن تـوزيع جسده، وقـد التف بثوب أرجـواني، وكان شيئاً رائعـاً، وقد رصع الثوب من الـرأس حتى الأسفل بالياقوت والـلآلىء المشعة، لكن في الحقيقة ليس بـدون نظام، وإنما طرّز ببراعة حـرفية رائعة، فقد رسـم الفن

على الثوب منظـراً أصيلاً لمرج جميـل، وتدلى مـن رقبته إلى صـدره سلسلة ذهبية نظمـت جواهر تميـزت في الحجم والألوان، وكان فيهـا ياقوتـة لونها وردي، لكنها أخذت شكلاً يشبه شكل تفـاحة، وأرى إنه من غير الممكن الكتابة عن الترصيعات التي كانـت فوق رأسه، ووقف على كل طرف من طرفي العـرش —تبعاً للعادة— فريقـاً من الرسميين، انتظم وفقـاً للأسرة والرتبة فذلـك حدد مكان كل واحد منهم، وعلى هذه الصـورة كان فريق الاستقبال الامبراطوري الرسمي:

وعندمـا وصل قلج—أرسـلان إلى وسط هذا الفريـق، كانت الـدهشة مستوليـة عليه، ومـع أن الامبراطور قد حثـه على الجلوس، فقـد تمسك في البداية بـالوقوف وتشبث بذلـك، لكنه وقد رأى الامبراطور يتـابع الضغط عليه، جلـس على مقعد منخفض،كان متـواضعاً جداً إلى جانـب العرش المرتفع، وبعـدما قال وسمـع ماهو منـاسب غادر إلى المقـر المعين لسكناه داخل القصر.

وبما أن الامبراطور قد ازداد عظمة وعلت مكانته بسبب نجاحاته، فقد أعدّ العدة لإقامـة استعراض موكب نصر من القلعة نفسهـا إلى كنيسة آيا صوفيـا الواسعة الشهرة، وكـذلك ليسير معه في الاستعراض، ومـع هذا لم ينجز ماعزم عليه، لأن [البطريرك] لـوقا(٧)، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل الـلاهوتية عـارض هذا العمـل، قائلاً لايجوز للرجـال غير الأتقياء المرور في ثياب كهنوتية مكرسة ومزينـة، ثم إن شيئاً آخر قد حدث ليحول دون تنفيذ المسـألة، ففـي الهزيع الأخير من الليـل هزّ الأرض فجـأة زلزال عظيم، وهنا لاحظ البيـزنطيون أن رأي لوقا قد تمّ تجاهلـه وتخطيه، لذلك أعلنـوا أن المشروع مضـاد لارادة الـرب، ذلك أن النـاس يـولـون بشكـل طبيعـي اهتمامـاً إلى المســائل الحاضرة، ولايبحثــون في أي شيء بعيــد المتناول، وعلى كل حـال أعطت خاتمة المسألة شرحاً لما حـدث، لأنه بعد مضي كثير مـن السنين أصبح قلـج—أرسلان قليـل الاهتمام بارتبـاطاتـه

نحو الامبراطور، مما سبب قيام الرومان بالهجوم على الأتراك بكامل القوى، ولبعض الصدف وقع الجيش في مشاكل ومصاعب أرضية، ففقد كثيراً من الارستقراطية، وبات على شفير المعاناة من مأساة عظيمة، لولا أن الامبراطور كان موجوداً، وقد نظر إليه على أنه كان متفوقاً في فن الحرب براعة على بني البشر(٨)، لكن، كما سلف وقلت من قبل: هذه الأمور ستتم روايتها فيما بعد من قبلي، وقد تم اصطحابه إلى القصر الواقع إلى الجنوب [كذا] من المدينة، وقد استقبله الامبراطور بمائدة رائعة، كما وعامله معاملة ودودة تامة(٩)، ثم أغراه بسباق للخيل، ووضع تبعاً للعادة النار في بعض القوارب والمشاعل التي زودت بسائل قابل للاحتراق، وقد أدهش هذا الرجل تماماً، لاسيما منظر ميدان السباق، فهناك تظهر بشكل خاص عظمة المدن، وبعدما أمضى قلج—أرسلان الوقت الكافي في بيزنطة، وتولى تأكيد الاتفاقات الماضية بأيمان اضافية، عاد إلى بلاده، وكانت شروط الاتفاق كما يلي:

أن يكون خلال حياته كلها معادياً للذين يرعون العداوة ضد الامبراطور، لكن أن يكون صديقاً للذين يتخذون موقفاً معاكساً، فهؤلاء يحظون باحسانه، وسيعطي إلى الامبراطور من بين المدن التي استولى عليها المدن الأعظم والأكثر أهمية، ولايحق له إبرام أي اتفاق سلام مع واحد من الأعداء مالم يكن ذلك بتوجيه من الامبراطور، ولسوف يقاتل بمثابة حليف مع الرومان بناءً على طلب، وسيقدم مع قواته كلها للمشاركة بالحرب سواء أكان الصراع صراعاً شرقياً أم غربياً، ولن يسمح لأي واحد كان يخضع لسلطانه، لاسيما الذين يعيشون ببراعة من أعمال اللصوصية ويدعون بالعادة باسم التركمان، بالقيام بالحاق أي أذى مهما كان نوعه بالأراضي الرومانية، ولن يمرر ذلك بدون عقوبة، وقد وافق على هذه الأشياء، وتعهد الذين رافقوه من الأعيان، أنه إذا ماحاول عدم مراعاتها، سيمنعونه من محاولة ذلك بكل ماأوتوه من قوة.

وكان هذا ماتحقـق في بيزنطة، وقد عبرت الأخبار [لذلـك] من قبل من أوروبا إلى آسيـا، وارتأى قادة القبـائل هناك أنه لـن يكون من صـالحهم إذا ماتعامل الامبراطـور مع السلطان، فبعثوا برسلهم يـرجون أن يتصالحوا مع السلطان، واستمـع إليهم مانويـل بروح الصداقة، وقـد ترك كل شيء لاختيـار السلطـان، فبعـث بهم إليه، وكـان كما سلفـت الاشـارة مقيماً في القصر، وما ان مثلـوا أمامه للمنـاقشة، حتى سـألوه برجـاء أن يتخلى عن عداوتـه نحوهـم، وأقنعوه أن يتـوسط لصـالحهم لـدى الامبراطور، وتبعـاً لذلـك جلب مانـويل هؤلاء المستعطفين إلى جـانبه، واتخذهـم أصـدقاء، ومنذ ذلك الحين استقر السلام في مملكة الرومان.

٤- وبما أن الامبراطـورة [بيرثـا] —ايريـن كـانـت قد غـادرت هـذه الحياة، والامبراطور لم يكن بعـد قد صار أباً لطفل ذكر، لـذلك فكر آنذاك بـزواج ثانٍ، وكـانت هنـاك فتاة في طـرابلس في فينيقيـة [لبنان]، لاتينيـة المولـد، لكـن ذات جمال متميـز، لـذلـك أرسـل لخطبتهـا [١١٦٠] السيباتـوس جون كـونتوستيفـانوس وايطـالي اسمه ثيـوفيلاكـت Theo-phylact ، الذي أطلق عليه رجاله لقب اكسوبيتوس(١٠) Ex ou-bitos ، ورأى الرجلان الفتاة وأعجبـا بجمالها، وبما أنه لم يكن هناك مايعيقهما مطلقاً، قـاما بدون انتظار بالصعود إلى ظهـر الغليون للسفر بها، وحـدث —على كل حـال— أنهم وهـم على نيـة الاقلاع والسفـر، حلّ مرض شديد بـالفتاة، وباتت في الحقيقة بوضع خطير جـداً، ولذلك أخذا يؤجلان سفـرهما ومغادرتها كل يوم إلى الغد، وأمضيا الأيـام بدون عمل، ينتظران أن تتحسن حال الفتاة وتتحرر قليلاً مـن الوجع حتى يمكن توقع المغادرة، لكـن لحكمة خفية كانـت المعاناة تعاودهـا من جديد، وعنـدما اضطجعت كـان جسدهـا يرتجف ويرتعـد بشكل شـديد، فقـد استبدت الحمـى بها، وتبع ذلـك فقدانها وتـلاشيها، فـالبريق الـذي علا طلعتهـا، والذي أشرق جمالاً، مـالبث أن تغير إلى ظلام، وكان كـل من يراهـا يبكي

حزناً على هذه النضارة التي ذوت في غير وقتها، وهكذا كانت الفتاة في حالة سيئة، وهي ماتزال مقيمة في بلدها وقبل أن تصعد ظهر السفينة وتبتعد ولو قليلاً عن طرابلس، حلّ بها فيضان مضاعف هناك، وهكذا بقيت السفينة مجدداً في طرابلس، وجاءها هناك المزيد من الأمراض، ولم تغادرها البتة، ونظراً لتكرار حدوث هذا الأمر، سبب ذلك قيام كونتوستيفانوس بتفحص القضية وإعادة النظر بها بدون توقف، وفي حزنه وأساه كان يستبدل الفكرة بواحدة أخرى بدون توقف، وأخيراً دخل إلى إحدى الكنائس هناك، واستخار هل من المفيد أن تخطب الفتاة إلى الامبراطور، وأجابه الهاتف المقدس بقوله: «العرس جاهز، لكن الذين تمت دعوتهم لايستحقون الدخول»(١١)، وعندما سمع هذا، فهم المعنى، لأن أقاويل راجت هناك، وصلت مسامعها، أفادت أن الفتاة ولدت من زواج غير شرعي، وهو شيء يمكن أن يسبب العار بشكل خاص، لذلك تخلى عن المسألة وانطلق عائداً إلى بيزنطة(١٢).

وكان لأرناط أمير أنطاكية ابنتين كانتا آنذاك فائقتي الجمال، وفي سبيل رؤيتها أرسل الامبراطور باسيل الذي كنيته كاماتيروس Kamateros والذي كان آنذاك قائداً للفريجيين [Akolouthos]، وعندما وصل أنطاكية مسرعاً، وجدهما معاً جميلتين، غير أن ماري بدت له الأكثر جمالاً، وتبرهن أن استقصاء هذا الرسول كان صحيحاً، واعتاد البيزنطيون في أيامنا على القول، أنهم لم يعرفوا مثل هذا الجمال من قبل، لكن هذا حدث فيما بعد، وبما أن القرار آثر ماري، فقد علم الامبراطور بذلك،فبعث بأعضاء من الأرستقراطية إلى أنطاكية للقيام بخطبة الفتاة له، هم: ألكسيوس [كومينوس] ابن ابنة الامبراطور ألكسيوس الأول، وكان آنذاك هو الدوق العظيم، ونقفور برنيوس، وكان من أنسباء الامبراطور من خلال ابنة أخيه، وقد أصبح سيباتوس، وكان بينهم أيضاً أندرونيكوس كاماتيروس، الذي شغل آنذاك منصب إبارك(١٣)

Eparch ، وكان أيضا من أقرباء الامبراطور، وقد عـدّ جديراً لأن يصبح سيباستـوس، ولقد رأوها، وأعجبوا بها أيما اعجـاب، وصعدوا ظهر غليون، واصطحبوها بكل حفاوة إلى بيزنطة.

وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر أبيلايوس Apellaios ، الذي يطلق عليه الذي يتكلمون باللاتينية اسم كانون الأول [١١٦١]، وبعدما نقلت بشكل رائع إلى كنيسة آيا صوفيا الواسعة الشهرة، تم عقد قرانها هناك، وكان مع لوقا الذي كان على رأس كنيسة القسطنطينية، صفرونيوس بطريرك الاسكندرية، وأثناسيوس بطريرك أنطاكية [ثيوبولس]، وقد وضع يديه عليهما، حسبما كانت العادة آنذاك بالنسبة للمسيحيين، وبعدما أعلنها الامبراطور أوغسطه عاد إلى القصر، واحتفل هناك في مقامه العالي بولائم رائعة، وأقام الموائد للشعب في جميع طرقات المدينة، ودعا في اليوم التالي البطاركة إلى مائدته، وبعدما رحب بكل واحد منهم بوساطة كميات هائلة من الذهب، ودعهم عائدين، وفي الحقيقة قام قبل صنعه أي شيء آخر بإهداء الكنيسة مائة وزنة من الذهب، وبعد وقت قصير متّع الشعب بسباق للخيل، ورغب في عدم إهمال أي شيء يجلب المسرة(١٤).

٥- وكان هذا ماحدث في بيزنطة، وحدث أنه بعدما توفي لازلو صاحب هنغاريا [١٤-كانون ثاني١١٦٢]، أن أصبح أخوه متملكاً للسلطة باسم [اسطفان الرابع]، وقد بدا عبوساً وظالماً بشكل منقطع النظير بالنسبة للشخصيات الرئيسية، لذلك أبغضه الهنغار كثيراً وازدروه، وكانوا على وشك خلعه وانتزاع السلطة منه، واضطرب ستيفن أمام هذا الحال، فتوجه ثانية يستنجد بالامبراطور، وقام الامبراطور عندما حلّ الاعتدال الربيعي [ربيع١١٦٢] بالمبادرة مسرعاً نحو فيلبه، وقد مكث هناك مع الجزء الأعظم من الجيش الروماني، وعهد بقيادة قطعة من الجيش إلى ابن أخيه ألكسيوس كونتوستيفانوس، وبعث بها إلى هنغاريا،

وحدث —على كل حـال— في هذا الوقت أن اعتقد ستيفن أنـه تصالح مع الهنغـار وبالتالي ليس بحـاجة لهذه القطعة، ولهذا السبب عـاد الجيش الـروماني إلى وطنـه، لكـن وقـع في ذلك الحين أن ثـار الهنغـار ثـانية ضـد ستيفن، واتهموه بأشياء كثيرة، وأصروا على أن الدولـة الهنغارية قد تدمرت تماماً في ظلّ حكمـه، ولهذا حشـد الامبراطور جيشـاً مـن جديـد، غير أن ستيفن الـذي شعر بـالمخاطـر من البـداية، جـاء لاجئاً إلى إحـدى المدن القريبة من الدانوب، والتي كانت خـاضعة منذ وقت طويل مضى لحكم الامبراطـور، وتابع هذا السير إلى سرديكـا، وهناك التقـى الامبراطور، وقـد تأثـر الامبراطور كثيراً بما حـدث، وعطف على الـرجل لما نـزل به، فـأعطاه المال، وزوده بما يكفي من قوات، تولت اصطحـابه عائداً إلى عرش آبائه، وقـاد هذه القـوات ألكسيـوس كونتـوستيفـانوس، المتقـدم الـذكر، وسـار الامبراطور خلفها، وعلى بعد قليل منها.

وعندمـا وصل نيسوس، ورد إلى ذهنـه خطة وهو معسكـر هناك، في أن يقوم خـلال جوازه بحلّ المشـاكل في الصرب، لأن ذلك المكـان كان على الطريـق إلى كل من هنغـاريا والصرب، ولابدّ للانسـان من الدخـول من احداهن إلى الأخرى مـن هناك، فقد كان ديسا، الذي كـان وقتذاك يحكم الصرب كتقدمـة له من الامبراطور، كـان ما أن أصبح مسؤولاً عـن البلاد قد نسي حتـى الاتفاق، وادعـى مجدداً الحق في ملكية منطقـة دندرا، فقـد ثار ضـد السلطة الرومـانية، وكتـب إلى الألمان، عازماً على أن يقـرن نفسه بعروس مـن هناك، وفعل كـل شيء كان مضاداً لرغبـات الرومان، ثـم انه عندما استدعاه الامبراطور للالتحاق بـه في الحملة ضد الهنغار، ظهر نائياً، وعنيداً، معللاً ومدافعاً، بـآمال عظيمة، وثابر على تقديم الوعـود بالوصول في المستقبل، ولـذلك عنـدما وصل الامبراطـور إلى نيسوس، حيـث هناك طريقـان، يقود أحـدهما إلى الصرب، والآخر إلى الدانـوب وهنغاريـا، أقام معسكره في وسـط الطريـق بينهما، ولدى شعـور ديسا بـالخطر الـذي حام

فوقـه، جمع ماحضر لديـه من عساكر، ووصـل إلى المعسكر الرومـاني، ولقد عامله الامبراطور بعطف، وأضفى عليه من التشريف كل ماهو لائق.

وعلى كل حال، مامن إثم أعظم عـاراً من لسان غير ملجوم، لأنه ما ان تصـور ديسا أنـه مامـن أذى نجم عـن حماقتـه السالفـة، حتى صعّـد غايـاته وقـرر الاقدام على إحـداث ضرر إلى الرومـان أعظـم مـن ذي قبل، ومع هـذا فقد أبقى المؤامرة سريـة، وهكذا يغدو بـالعادة افتراض الجودة في أعظم النـاس إثماً، العمل المادي لكل جـرائم عظيمة، لأنه جـاء بعد وقت قصير رسل إلى الامبراطور من لدن أمة الهنغـار، لكن بالصدفة حدث أن التقـوا بديسـا، وقـد سئل كـالعـادة من قبلهـم كيـف سارت أمـوره، فـأجابهم بـدون تحفـظ، بأن أمـوره سارت بشكـل جيـد، وهي تستحـق تقديـم الشكر لـه من قبل ملكهـم الذي سماه بشكـل مكشوف «المولى»، ولدى معرفة الامبراطور بذلك، استدعـاه إلى المحاكمة بدون تردد، وعندما أدين، بما أن التهـم ضده وازت المخففـات وجهاً لـوجه وأظهـرت خيانـة الرجل، قـرر مانويل التحفظ عليه بـأمان بدون إهانته، وقـد أحاط خيمته بخندق، وأبقاه مطوقاً بشكل متواصـل، وهكذا منه نال المكان اسمه وهو معسكـر ديسـا (لأن العوام هكـذا أطلقـوا بـالـدارجة هـذه التسميـة على الخنـدق) وأرسلـه بعـد أمـد قصير إلى بيـزنطـة، واحتفـظ بـه أسيراً في القصر(١٥).

كـان هذا مـاحدث هنـاك، ورأى الامبراطور الـذي كان يتبـاحـث مـع الرسل الذيـن وصلوا من عند الهنغار، أنهم لم يقدموا شيئـاً أصيلاً، لذلك أمرهـم بمغادرة المعسكـر الرومـاني على الفور والعـودة على الطريـق الذي جاءوا عليـه، وهكذا غادروا المكـان، وعندمـا وصل الامبراطور إلى مـدينة بلغراد، عسكـر هناك، وهي مدينـة —كما سلف القول— قد قـام الجيش الرومـاني ببنائهـا، وذلك بعدمـا هدمـوا زيغمنون Zeugminon ، وقد شاركهم في عملهم ذلـك عدد من الهنغار، وكانت في الحقيقـة لعبة حظ،

تهزأ باستمرار، نحو الشؤون البشرية، ويمكن للمرء أن يضحك نحو الذين أزالوا الأبنية، وهم يرون المعمرين ثانية، وأعتقد أنه من هذه الأشياء بات استخدام كلمة حظ شائعاً جداً بين الناس، وعندما يكونوا غير قادرين على فهم الأسباب لأعمال التدبير، وعلى أساس مابدا لهم صحيحاً، نراهم يعزون المصائب إلى الحظ، ولندع كل واحد يفكر ويتكلم حسبما يرضيه حول هذا، ولكن دعوا الرواية تنعطف نحو مسألتها المبكرة.

وعندما وصل الامبراطور إلى بلغراد، ولاحظ أنه من غير الممكن بالنسبة لستيفن [اسطفان الرابع] أن يحكم بلاد الهنغار (لأنهم كانوا قد سارعوا إلى تنصيب ستيفن ابن غيزا [اسطفان الثالث] ثانية) انصرف نحو شيء آخر، وكما تقدم الذكر، كان يرغب في أن يستحوذ على هنغاريا، التي قامت وسط الأمم الغربية، ولذلك عزم على أن يربط بالزواج بيلا الذي كان ابن غيزا تاليا لستيفن، بابنته ماريا، فأرسل إلى هنغاريا جورج الذي كان باليولوغوس Palaiolagos من حيث المولد، والذي كان آنذاك يتولى إمرة الحرس الامبراطوري الأجنبي، وكان قد ارتقى إلى مرتبة سيباستوي Sebastoi، وأمره أن يبحث في مسألة رباط الزواج، ثم أخذ هو نفسه الطريق مجدداً نحو بيزنطة، وبعدما ناقش الهنغار المسألة مع باليولوغوس، سلموه مسرعين بيلا، وبكل سرور عينوا له الأراضي التي كان والده قد خصصها حصة له عندما كان على قيد الحياة، وحمله باليولوغوس معه؛ ومعه الاتفاقية المذكورة، وجاء إلى بيزنطة، ونظر الامبراطور بإيثار نحو القضايا المتعلقة برباط الزواج، وأعيدت تسمية الشاب، فبات اسمه ألكسيوس، وبات ينادى بلقب «دسبوتس Despotos» [أي سيد](١٦).

٦- وهكذا توافق وصول بيلا إلى بيزنطة مع هذه البداية في الافتراض أن كل شيء كان يسير على مايرام في الغرب، لذلك أولى الامبراطور بعد

اهتمامه إلى آسيا، وبعدما أثير بها حدث، تحول عنها بسبب الشؤون الغربية، والذي دعاه للتوجه إلى آسيا هو أن نور الدين، الذي كان حاكماً لكل من حلب ودمشق، وكلتاهما من أهم مدن سورية، قد ابتسم له الحظ وكان لصالحه، فحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى التي شربت ماء نهر الفرات، كما واستولى على كثير من المناطق التي لايستهان بها، ووقع في قبضته عدد عظيم من الأمراء هناك، وقد احتفظ ببعضهم أسرى، وكان بينهم جوسلين حاكم الرها(١٧)، وقتل آخرين في المعركة، ونذكر من هؤلاء: ريموند أوف بواتو، الذي قدمنا حوله مادة كافية في الروايات المتقدمة، وكان رجلاً يشبه الهرقلات الأسطوريين في القوة والقدرة، وكذلك بلدوين الذي كان وقتذاك حاكماً لمرعش، وتابع تقدمه، فاصطدم في القتال مع دوق كليكية، الذي كان اسمه قسطنطين، وكنيته، كالامانوس Kalamanos الأصغر(١٨)، وكان بهي الطلعة، وفعّالاً في الشؤون الحربية، وكان في البداية قد هزم هزيمة ساحقة على يد الأصغر، ووقع في مصيبة لايمكن النهوض منها، ثم حدث أن أسره، وأسر أرناط أمير أنطاكية، كما وكان بينهم أيضاً حاكم طرابلس الفينيقية، وكان قسطنطين عندما ربح منه المعركة، لم يكبح نفسه، بل اندفع بشكل أحمق، وانخرط بدون توفيق في أعمال المطاردة، فكان أن وقع بالأسر، وهكذا هوت مصالح الرومان [آب١١٦٤] (١٩)، وهزم نور الدين أيضاً طوروس في المعركة، وعلل نفسه بآمال الاستيلاء فوراً على أنطاكية، ولهذا كله كان الامبراطور في البداية قلقاً تجاه ماوقع، وعزم على الجواز إلى آسيا، واغتنام الفرصة، وعندما كان على نية الاسراع إلى هناك مع جميع قواته، حدث أن منعته مشاكل الغرب من جديد.

وبالنسبة للملك الجديد [اسطفان الثالث] قام مجدداً باغتصاب ميراث بيلا، ثم عمد إلى خرق المعاهدة علناً، يضاف إلى هذا أن ستيفن [اسطفان الرابع]، الذي سلف للهنغار أن طردوه من منصبه، استطاع أن

يتسلـل عائداً إلى هنغـاريا مـن خلال أنخيلـوس Anchialos ، وعزم على استرداد السلطة [١١٦٣]، وتـولى السعي لـذلك بشكـل سري، لكن باندفاع بـدلاً من أخـذ الحيطة، وربـح في أثناء تجوالـه إلى جانبـه بعض الهنغـار، وعندمـا علـم ستيفن [الثـالـث] بهذا اندفـع نحـوه ومعه جميـع جيشه، ولهذا بعـث الامبراطور إلى كليكية جيشاً كـافياً للدفاع عنهـا، وقام بالزحف عائداً إلى الدانوب، وعبر السافـا، ومركز قواته مقابل تيتليون Ti-telion [تيتـل على التيسـا Tisa] (٢٠)، عـازمـاً على استرداد ميراث الأجـداد إلى بيلا، ولينقـذ ستيفـن [الرابـع] مـن المصـاعب التـي تـواجهه، فقـد كـانت قـواتـه تتبـدد وتتشتت، وكـان بـالحقيقة في وضـع صعب، بسبب أن الهنغـار كانوا في كل منـاسبة ذاهبين للالتحاق بـالملك [اسطفان الثالث]، وأرسـل الامبراطور أندرونيكوس بن كونتـوستيفانوس، الذي سيصبح بعد وقت قليل دوقاً أعظـم، مع جيش، فتولى انقاذ ستيفن من وسط المصاعب.

وانطلق الامبراطور من تيتليـون مع قواته كلها، وتابـع زحفه إلى الأمام، أما بالنسبة لستيفن [الثالث] الذي اغتصب السلطة، فقد وجد نفسه غير قـادر على التصادم مـع الامبراطور بقـوات متكافئـة، ولهذا زحف أولاً مـع القوات المحيطـة به إلى مكان ما وقـع في الجزء الأقصى من هنغاريـا، ثم إنه بعدما قام بجمع قوات حليفـة، بادر مسرعاً للتصدي للرومان، ووصل الامبراطـور إلى مكان يـدعى بيتريكـون Petrikon [بيتروفارديـــن Petr?ovardin]، وعسكـر هنـاك، وهذا المكـان هـو الحد الأقصـى للـوصول إلى داخـل هنغاريـا، وبعدمـا وصل إلى هنـاك، كتب مـايلي إلى ستيفن [الثالث]:

«لقد قدمنا يابني لالإثـارة الحرب ضد الهنغار، بل لاستعادة أرض بيلا —أخوك— وهو ليـس شيئاً انتزعناه بقوتنـا، بل إنه مامنحتـه أنت وأبوك من قبـل، منذ زمن طويـل، وكذلك لننقـذ من المصاعب عمـك ستيفن،

المرتبط برباط الزواج بجلالتنا، وإذا كان تبعاً لارادتك الحرة أصبح بيلا صهرنا، وهو شيء كنتُ قد وافقت عليه من قبل، لماذا سارعت إلى التخلي عن صداقتنا، بعدم قيامك باعطائه أرضه؟ وإذا كنت تعارض الزواج وشيئاً آخر يبدو بالنسبة لك صحيحاً فيما يتعلق به، اعلم اننا سنمتنع عن الضغط عليك أكثر».

٧- كان هذا ماكتبه الامبراطور، أما الآخر، فكان —كما ذكرت— قد حشد قواتاً حليفة من الألمان والسيزيين من تاوروس [تاوروس سيز أوروس]، وتعايش مع أمة التشيك منذ أن قدم إلى عنده حاكمها ومعه جميع جيشه، وهذا الحاكم هو الذي ذهب بالحملة مع كونراد ملك ألمانيا، عندما —كما حكيت من قبل— انطلق نحو آسيا، ولهذا السبب أصبح ملكاً تحت سلطانه.

ومع هذا فكلاهما قد غشا: الذي منح اللقب والذي قدم الشكر، لأن لقب امبراطورية كان قد اختفى من روما منذ زمن طويل مضى، ولأن منح السلطة قد انتقل —بعد أغسطس الذي يدعى أغستولوس، وذلك اشارة إلى سنه الصغير عندما وصل إلى السلطة— إلى أودوفاكار Odov-akar ثم إلى ثيودورك حاكم القوط، وكانا معاً طاغيتين [أي مغتصبين]، ولأن ثيودورك دعا نفسه طوال حياته ملكاً وليس امبراطوراً، وذلك حسبما روى بروكوبيوس، وتعيش روما منذ أيام ثيودورك، لابل قبل ذلك بقليل، حتى الآن في حالة ثورة، مع أنها استردت مراراً من قبل بليزاريوس ونرسيس، قائدا الرومان في أيام جستنيان، ثم انها تحولت إلى مرتبة ليست أقل من العبودية تحت ظل الطغاة البرابرة، الذين حملوا ألقاب ملوك في مضاهاة لثيودورك الملك الأول والطاغية، وبما أنهم لم يدعوا المقام الأعلى، وهو مقام الامبراطورية، من أين يحق لهم الاقتراح بالنسبة لأنفسهم مناصب [الملكية] التي —كما سلف وقلت— صدرت عن الجلالة الامبراطورية بمثابة تمييز(٢١).

ولم يكن هـذا وحده كـافياً بالنسبـة لهم، فاغتصبـوا —مع أنـه لايليق بهم— أعلى منزلة للسلطـة وأضفوا على أنفسهم لقب الامبراطـور، وتحتاج هذه الحماقة وفقدان العقل الشرح:

أسرعوا الآن بالاعلان أن الامبراطورية في بيـزنطة تختلف عن تلك التي في رومـا، ولدى تفحصي لهذا، تسبـب ذلك لي مـراراً بالبكـاء، فلقد بيـع الحكم في روما، مثل قطعة مـن المتاع، إلى البرابرة، وفي الحقيقة إلى العبيد، ولهذا إنهالاتستحق أسقفاً، وأكثر من هذا إنها لاتستحق حاكماً، لأن الذي صعـد إلى عظمة الامبراطـور ركض على الأقـدام بشكل غير لائق بنفسـه مماشاة لـلأسقـف الراكـب، وكـان مثل سـائسـه(٢٢)، غير أن الآخريـن يـدعونـه امبراطـور، مقـدرين أنـه كـان مسـاوياً وبـالـدرجـة نفسها مـع البازيلوس [الامبراطور البيزنطي].

[وبالنسبـة للبابا:] كيـف لك ياسيدي النبيـل، ومن أين وقـع لك أن تعامـل امبراطور الـرومان مثـل سائس؟ لكنـك لاتعرف مـن أين، وأنـك أسـأت إلى لقب أسقـف، في حين زيـف هـو [الامبراطور الغـربي] لقـب امبراطور، لأنـك إذا لم توافـق على أن عرش الامبراطوريـة هو في بيـزنطة، وهو عرش روما، من أين أصبحت مستحوذاً على مرتبة بابا؟

هنـاك قسطنطين واحد فقـط، وهو المسيحـي الأول بين الأبـاطرة، ولـه سائغ منحه هذا اللقب، كيف يمكنك أن تـرحب بجزء منه بايثار، وأعني بذلـك العرش البابـوي، وغاية العظمـة، لكن تـرفض قبول بقيـة السيادة الامبراطوريـة، عليك إمـا أن ترضـى بكلا النـاحيتين أو ترفـض النواحـي الأخرى أيضاً.

غير أنه يقول:

أنـا يمكنني أن أعين أبـاطرة، نعـم، هـذا فيها يتعلق بـوضع الأيـدي،

وكذلـك فيما يتعلق بالتكـريس، فهـذه مسائل روحية، لكـن لافيما يتعلق بمنح امبراطـوريات واختراع مثل هذه الأشيـاء، ومادام بإمكانـك تحويل الامبراطوريات، لماذا لاتقوم أنت نفسك بتحـويل الامبراطورية القائمة في روما؟ لكـن عندمـا يرسـم واحد آخـر شيئاً مـا، على الذي وقتهـا يمتلك الكنيسـة بينكـم أن يعتـاد رغم ارادتـه على احترام مـراسيمـه(٢٣)، لقـد وقعـت —على كل حـال— في مصيـدتك، وتفعـل بشكـل مُقنع أشيـاء متعـارضة، هـؤلاء الـذين لم تـرض قبول طلبهـم واستقبـالهم، منذ وقـت قصير، عندمـا كنت تتصرف بشكل صحيـح نحو الامبراطـور، لأن ذلك لم يكن ممكناً، لكن أن تدرجهم الآن بين سواسك، لاأعرف كيف ذلك، ولا كيف تتقبلهم بمثابـة أباطرة، إنك تدرك أن الذي بوساطتـه ومن خلاله، ومنه ادعيت العـرش البابوي، لايمكن أن يُطـابق مع البربري، والطـاغية والعبـد، إنـه يقول: أنـا أرغمـت، إنني تحت الضغط، إن عـذرك ليس مسوغـاً، لقد تخليت مـن قبل، لكن ليس قبل وقـت طويل مضـى، عن هذه الأشيـاء إلى الامبراطور مـانويـل، وإذا ما رغبـت بانكـار ذلك، فـإن الـوثائق التـي تلقـت توقيعـك في الأسفـل تعلـن ذلك، وفي الحقيقـة إن القضية هي مزحـة، وخدعة سخيفة ودنيئة، وحسب طريقـة الذي يراهن على مضي الوقت، لقـد لزمت بخط تبدلات الحظ(٢٤)، ولقـد تشعبنا مع هذه المسألـة أكثر مما يتوافق مع الـروايات التاريخية، لذلك لنـدع الحكاية تعود إلى مسألتها السالفة.

٨- بعدمـا قام ستيفـن [الثالث] هكـذا بالاستعـداد، أسرع بالـزحف ضـد الـرومـان [١١٦٤]،وعنـدمـا كـان الامبراطـور في داخـل الأراضي الهنغارية، جاء النـاس الذين كانوا هناك على شكـل حشود للترحيب به، وضموا كـلاً من الذيـن كانوا مـدرجين بين رجال الـدين، الذيـن التفوا بأردية صوفية، وحملوا بأيديهم الكتابات المقدسة، والذين كانوا من العامة والناس العاديين، وقد غنـوا بشكل جميل جداً، مزموراً نظمـه ببراعة واحد

ممـن كـان بيننـا، ونصـه هو كما يلي: «أيها المولى، يـامـن سـاعـدت داوود المتـواضع»، وهكـذا، وبعدمـا مـرّ الامبراطور بهذه المنـاطق، أسرع لعبـور الدانوب، وذهب محاذيـاً لجزيرة كانت هناك(٢٥)، فقد عـزم على الزحف نحو الداخل.

ثـم إنه عنـدما كـانت القـوات الرومـانية تعبر، حـدث أن واحداً مـن القوارب، امتـلأ حتى حـوافه بالبضـائع والسلاح وبـأكبر عدد ممكـن من الرجـال،وعندمـا لم يكن بعيداً عـن الشاطـىء، جنح إلى أحـد الأطراف، ولذلك تدفق الماء إلى داخله، أما بالنسبـة لبقية الجيش الروماني من الذين صعدوا إلى السفن وكانوا محمولين على وجه النهر، والـذين كانوا مايزالون واقفين على اليـابسة، فـإن بعضهـم قد استـولى عليـه الخوف من الخطـر، وبعضهم الآخر كان مهملاً، ولذلـك أهملوا القضية، ولم يبق سوى القليل أمـام السفينة حتـى تغـرق وتذهـب إلى القعر مـع جميـع رجالها، لـولا أن الامبراطور قفـز إلى الماء، وقصد على قدميـه نحو السفينة، وذلـك في وقت كان فيه التيار يدور بعنف عظيم، وشكل بعضاً من الطين هناك، كان من الصعب جـداً تجاوزه، وقد وضـع الامبراطور كتفيـه تحت المركب، وأوقـف بذلك لحظـة الخطر، وأعطى بذلـك الفرصة للآخـرين للقدوم لمساعـدته، فقد خجلوا من غيرته، فذهبوا إلى مساعـدة الذين كانوا وسط المصاعب، وأنقـذوهـم مـن الخطـر، ولـذلـك حصـل الامبراطـور على احترام عظيـم لانسانيته.

ثم إنـه بعدما عبر الامبراطـور الدانوب مـن مكان أكثر ارتفـاعاً، أسرع نحو مـدينة اسمهـا باغـاتزيـون Pagatzion [باكـــــس أوبج] —وهـذه المدينة هـي مطـرانيـة شعب سيرميـون Sirmion ، وهناك يسكن أسقف الشعب— وجاءت حشود مـن السكان خارجة من المدينة للخـدمة بمثـابة حـرس هناك(٢٦)، وهكـذا عسكر هنـاك، لكنه علـم في اليـوم التـالي أن ستيفـن [الثـالـث] كـان يقترب آنـذاك، فـاستعـد فـوراً

للمعـركة، واستـدعى واحـداً من الـرومـان، كان يعـرف اللغة التشيكيـة، فطلب منه أن يخفي نفسه ويتسلل إلى معسكـر العدو، وعندما يصبح على مـرأى من ملـك التشيك أن يخاطبـه كما يلي: «إلى أين أنـت مسافـر؟ أي حملة أنت قـائم بها مع الجيش الذي تحت امرتك؟ أو انـك لاتعرف أنك تتجرأ برفع يديك ضد الامبراطور العظيـم؟ إنه مرعب بالنسبة لأي انسان أن يقف ضده في المعـركة لأسباب كثيرة، دون أن نذكـر أن مخاطرات المرء مزدراة من قبـل هؤلاء الهنغار، الذيـن أعطوا بيلا ميراثه ثـم أخذوه، لأنهم يعاملـون أيمانهم وكأنها مـزاح، فلو أن الانسـان يتعامـل مع فـرد خاص، وحدث مثل هـذا، بخرق اتفاقيته، هـل يمكن أن يمر ذلك بـدون عقاب بوساطة القانون، فهل ياترى يمكـن للهنغار الذين عملوا ضد معاهداتهم مع مثل هذا الامبراطور، أن يبقوا بـدون عقاب؟ لايمكن هذا، وعلى ذلك أوليسـت الحرب المثـارة من قبـل الامبراطـور عـادلـة؟ إن نتيجة المعـركـة ستكون دومـاً وفقاً للعدالة، وقـدر هذا: إنك قـدمت بمثابة عبـد متشوق للقتال ضد سيد، وبمثابة عبد يحمل النيربدون إكراه، (وإذا لم يكن الأمر كـذلك، سيكـون مـن الطبيعي هنـاك سبب مثـل الكـراهية لسيـد) وفي الحقيقة كتابـع متطوع (ولاؤك [Lizion] يدلـــل على هذا) (٢٧) إذا كان ماصنعته في بيزنطة من قبل، عنـدما انطلقت إلى آسيا مع كونراد، إن لم يكن ذلك قد أفلت من ذاكرتـك، وإذا كانت نتيجة الأمور متوقفة على قـرارك، اختر مـاسيكـون مفيداً لـك ولجميـع التشيكيين، الأسـف قـادم، والمنافع بالعادة قليلة جداً لمن يمارسه».

هكذا تكلم، وأجـابه فالديسـلاف [الثاني] (كان هذا هـو الاسم الذي أطلـق عليه) (٢٨) حسبما يلي: «أيها السيـد النبيل، نحـن لم نأت إلى هنـا لاثـارة الحرب ضـد امبراطـور عظيـم (ولا أن نكــون بـذلـك متجـاهلين لاتفـاقاتنـا نحوه) بـل أتينا للـدفاع عـن ستيفن هـذا الذي لحقـه الضرر بشكـل غير عادل مـن قبل عمـه الشقيق، الـذي كان قـد طرده أولاً مـن

أرض آبائه ومن ميراثه، ثم إنه عندما استرد الحق إليه، هاجمه الآخر، وعزم على أن يستعيد بالقوة المنصب الذي كان قد فقده لسوء حكمه، ولهذه الأسباب جئت لأطلب من الامبراطور ولأرجوه في أن يقوم بحماية طفل يتيم، ولكن إذا كان تمّ صنيع شيء ما للاضرار بالامبراطورية من قبل ستيفن الأصغر (لأنني علمت أن مامن شيء من الأرض العائدة إلى بيلا نفسه قد استولى عليه) سنقوم بأنفسنا بعمل الوساطة ولسوف يقوم بالتنازل عن الأرض على الفور، ويجهد بكل سبيل بالعمل للتكفير عن أخطائه»، لقد كان هذا ماقاله، ثم أعاد الرجل.

وعاد الرجل إلى المعسكر الروماني، وأوصل إلى الامبراطور الجواب، واستمع مانويل إلى هذه الكلمات ليس بدون سرور، ومع ذلك لم يكن قادراً على تصديقهم كلياً، وشعر بالقلق خشية أن يكون فالديسلاف لم يكن قد عبّر عن نواياه الحقيقية، بل يوجد خلفهم شيئاً من الخيانة، فقام بارسال بعض أعوانه إليه، وأمر أن يتم تأكيد الاتفاقية بيمين، وقام الطرف الآخر بدون تردد بفعل ذلك على الفور، ولم يكتف بذلك، بل زاد التأكيد بأيمان اضافية على ماكان قد تعهد به من قبل، كما تقدم وذكرنا.

وبعد قليل بعث ستيفن رسلاً إلى الامبراطور، أعاد بوساطتهم الأرض، وطلب من الامبراطور ألاّ يسمح لعمه ستيفن [الرابع] القيام بمهاجمة هنغاريا(٢٩)، وقبل مانويل هذه الشروط، وبناءً عليه أنهى الحرب، وذلك بهدف الجواز إلى الأراضي الرومانية، ونصح ستيفن [الرابع] بمغادرة هنغاريا، لأنه علم من خلال التجربة بأن أبناء جلدته لايرضون به، لكن بما أنه لم يكن قادراً على اقناع الرجل قال له: «إنني الآن مغادر، فبعدما استرددت أرض بيلا، لم يبق من سبب مسوغ للصراع، إلا سبب غير عادل، واعلم أنك ستتعرض للخيانة على الفور لصالح أعدائك، وإذا ما كنت ترغب فإنني أبرهن لك وأريك الحقائق حتى أمام ناظريك، يوجد هنا ابن أخيك ستيفن، وهو مشابه لك تماماً بالمظهر، إلى حد أنه يصعب

على الـذين ينظـرون إليك عـن بعد تمييـز أحدكما عـن الآخر، قـم بعدمـا تلبسه سلاحك بـأمره بأخذ جيشك، والزحف ضـد الأعداء، وابق نفسك مختفياً في مكان ما هاهنا، وستعلم على الفور كيف سيعاملك الهنغار».

وهكـذا دخـل [ستيفـن الـرابـع] إلى إحـدى السفـن، وأقلـع دون أن يُلاحـظ إلى مكان ماعلى شـواطىء الدانـوب، بينما بادر ابن أخيـه ستيفن والهنغار من حولـه للاشتباك مع الملك ستيفن، ولكن حتـى قبل أن يواجه الجيشان أحدهما الآخر، بادر الهنغار الذين كـانوا مع ستيفن بإلقاء القبض عليه، وأسرعوا بتسليمـه إلى الملك على أنه ستيفن الأكبر، وانتهـت خطيئة الهنغار عند تلـك النقطة، لكن عندما علم الامبراطـور بهذا، أرسل ينصح ستيفـن [الـرابـع] قـائلا: «يكفـي أيها الـرجـل، وكما أنـه مـن الخطـر أن تنسحب بدون حاجـة، كذلك من الحماقة أن تكون جسـوراً بدون حاجة، تبصر أنك في مـرتين كنت قادراً على أن تعلـم كم من الشرور جـاءت من كـل منـاسبة، ولاتحاول مـرة ثـالثـة، أيها السيـد النبيل، لايمكـن بسرعـة اصلاح الأمور وتـرميمها حسبما ترغب». لقـد كان هذا ماقـاله الامبراطور لكن الآخر أجابه: «بدلاً عن ذلك، يشعر الهنغار الآن بالخجل، لانغماسهم بالخيانة»، وهكذا تبدلت الروح التـي استولت عليها الشهوة مرة، وأوقفت كل نقاش في اتجاهها.

وبعدمـا رفض قبول [المساعـدة] لهذه الأسباب، ترك الامبراطـور هناك نقفور كالـوفيس Chalouphes مع جيش لمصاحبـــة ستيفن، وليتولى معالجة كـل مايمكـن أن يحدث، وعاد هـو نفسه إلى الأراضي الـرومانيـة، وبعد مضي مدة وجيـزة [١١٦٤] علم الملك الهنغاري أن ستيفـن مايزال في هنغاريـا، فقام بجمع المزيـد من القـوات، وبادر مسرعاً لتقـدير مصير كـل شيء بوسـاطة القتـال، وحدث في الـوقت نفسـه أن عدداً كبيراً ممـن كانوا مع ستيفـن [الرابع] تخلوا عنه والتحقوا بالملـك، وهكذا تركوه مجرداً من كل جانب، وعندما علم كـالوفيس بهذا، عرض عليه خطة قضت أن

يقوم بمغادرة هنغـاريا وأن يأتي إلى سيرميون، وبما أن تلك المنطقـة كانت واقعة تحت سيطرة الامبراطور، فسيكون ممكنـاً له —كما قال— أن يقوم بما يريده دونها اعاقة، ولكن بما أن الرجل رفـض بثبات، فقد خطط كالوفيس ونفذ الخطـة التاليـة: لقد تظـاهر أن رسـالة وصلـت إليه مـن الامبراطور، فزحف نحو الـدانوب من أجل مقابلة الـذين حملوا الرسالة إليـه، والذين كانوا لخوفهم من الهنغار مقيمين في مكـان ماعلى محاذاة الدانوب، وعندما وصل إلى هناك، عبر ومضى إلى سيرميون، وبعـد وقت قصير وصل ستيفن إليه ملتجئاً وذلك بعـدما كاد أن يـؤسر من قبل الأعـداء، وعندمـا سمع الامبراطـور بهذا أرسـل جيشـاً معتبراً إلى سيرميـون، لكـي يتـولى —مـن جهة— حماية المنطقـة (لأنه عامل الهنغـار بشيء عظيم من الريبـة، وكان يخشى أن يثـوروا ثانيـة)، ومن جهة أخـرى بحجة تـأمين الأمن لأتبـاعه، ولبذل الجهـد في سبيل سـلامة ستيفن، وقـاد هذه القـوة ميخائيـل الذي كنيته غـابراس[٣٠] Gabras ، وبما أنه كـان زوجاً لإحـــدى بنات أخيه فقد حمل لقب سيباستوس.

وحمل الامبراطور ذراع القديـس بروكوبيوس، الذي كان قـد أخذه من سيرميـون، وأعاده إلى بقيـة الجسد في الكنيسـة في نيسوس، وكـانت هـذه الذراع قد فصلت عن بقية الجسد منـذ وقت طويل مضى للسبب التالي: كانت أمـة الهنغار قد استولـت مراراً على الأراضي الرومانيـة، وكان هؤلاء الهنغار قـد استولوا على سيرميـون قبل حكم ألكسيـوس كومينوس بـوقت قصير، وبعـدما استعبـدوا كثيراً مـن مدن الـدانـوب،وصلوا إلى نيســوس، فـوجدوا هنـاك جثة الشهيـد المقـدس، وقدروا —كما أعتقـد— أنه كـان عملاً غير انسـاني القيام بحمل الجسد كلـه، ولذلك اكتفوا بقطـع الذراع ومـن ثم غـادروا، وعنـدما وصلـوا إلى سيرميون، تـركـوا الذراع هنـاك في كنيسـة الشهيد ديمتريـوس، التي كـان قد بنـاها الـذي حكم في متقـدم الأيام مقاطعة اليركيوم Illyricum ، وعندما اكتشف الامبراطور

الـذراع هناك، حملهـا، وعاد بها —كماذكـرنا— مسرعـاً ليضمها إلى بقيـة الجسد.

٩- كانت هـذه الأشياء قد حدثـت وأنجزت من قبل الامبراطـور ضد الهنغار في ذلك العام، كما أنه أرسل ألكسيـوس ابن الدمستق [أكسوكوس Axouchos] الذي كـان —كما ذكرنا— قـد تولى مـراراً منصب البروتونوتاريوس Protonotarios ، أرسلة إلى كليكية، مع حملة معتبرة، وعيّنه قائداً عـاماً مسؤولاً عن الصراع هنـاك(٣١) [١١٦٥]، ذلك أن نـور الديـن أتابـك حلب، كـان قد ارتفـع شأنـه نتيجة الانتصـارات المتقدمـة، فبات يحدوه الأمـل في أن يسيطر حـالاً على أنطاكيـة، وكذلـك كان طـوروس المتسلط على الأرض هنـاك، قد استـولى غدراً على كثير مـن المدن الإيـزوريـة مما كـان خـاضعـاً للامبراطـور، ذلـك أنـه كان معـاديـاً لأنـدرونيكـوس يـوفـوربينـوس Euphorbenos ، ابـن عــــــم الامبراطور، الـذي كان آنذاك حاكماً لكليكيـة، فقد اتهمه طوروس بـأشياء كثيرة، ولامه بشكل خاص لقتله [١١٦٢] أخيه ستيفن [سديفان].

لقد كان هذا ماحدث هناك.

وكانت قـوة فردريك ملك ألمانيا تتقدم لحظـة فلحظة وتتصلب كثيراً، لأنه تدبـر أشياء كثيرة ومتنوعة في سبيل استقرار الـدولة، ولاسيما في سبيل تأمين المال، وهـو شيءلم يكن بالعـادة من قبـل، فقد استولى على ميـلانو، وهي مـدينة شهيرة [١١٦٢]، وهـزم أمة الليغـوريين أو اللومبـارديين، ثم تابع المزيد من التقدم، فزحـف إلى أقصى أجزاء الغرب، وهذا الذي كان من قبل غير قادر على الحاق الهزيمـة أثناء القتال بالذين كـانوا على مقربة منه، استطاع إثـر ذلك الاستيلاء على المناطق البعيدة كثيراً، فـأخضع روما نفسها في الحرب(٣٢)، ولهذا شعر الامبراطـور مانويل نفسه بـالقلق، وأخذ يبحث عـن الوسيلة التـي يوقف بها تقـدمه، خشية أن يجعلـه نجاح غير

متوقـع يقدم على الالتفـات ضد الأراضي الرومـانية، التـي نظر إليهـا منذ زمن طويـل مضى بأعين جشعة، ولهذا أرسـل سراً بعض الأشخاص غير المعروفين إلى الأمـم هناك، وإلى المقيمين داخـل خليج إيـونيان Ionian [البحر الأدرياتيكي]، وأمـرهم بتذكيرهم بجشع فردريـك الذي لاينتهي، وليثيرهم لمقـاومته، وبعـث إلى شعب البنـدقية نقفـور كالـوفيس مـع مال ليكسب مشاعر أولئك الناس نحوه، وليوجه الأمور هناك لصالح الرومان.

وكان فـردريك بعدما أخضـع روما قد أحدث تغييرات كثيرة، خـاصة بإزاحـة الاسكندر [الثـالث] عن عـرشه، ذلك أنـه كان الأسقـف هناك، ووضع مكـانه أوتـافيانـو(٣٣) Ottaviano وبذلـك كان يمكنـــه —كما أعتقد— جعل نفسه مسـاوياً بالمرتبة امبراطور الرومـان، لأنه مامن أحد —باستثناء امبراطـور الرومان— مخول بتسمية أسقف لرومـا، وعندما أزيلت هـذه العادة بسبب اهمال أبـاطرة بيزنطـة، مامن واحـد أقدم على إقامة أية أسقف في روما، بل كان ذلك يتم من خلال مجمع ديني خاص يضم حكـومة الكنيسـة وأعلى رجال الكهنوت رتبـة [يعني الكـرادلة] في روما، وكـان فردريـك، قد رنـا بناظريـه من قبـل نحو منصـب امبراطور، ولدى توليه تعيين الأسقـف، بدا وكأنه يمتلك مسوغـات هامة ومعطيات لنيل هذا المنصب، فلقد كسب إلى جانبـه عدداً من الأساقفـة، وظهر أنه مقبل على نيـل ماأبـدعه من خـلال مجمع ديني، أمـا بالنسبـة إلى الملوك الآخرين، فقد بدا هذا أمراً ليس مـرضياً، لكن مامن واحد كان قادراً على مـواجهة فـردريك، الـذي صعد إلى أعلى درجـة من القـوة، باستثنـاء أن الامبراطور كان قادراً على اعـاقته بالمال وبطرق مبدعة أخـرى لخدمة هذا الغرض، فقـد أعاد تثبيـت الاسكندر على عـرشه، غير أن هـذا حدث فيما بعد.

وعندما وصـل كالوفيس إلى ايبيـدامنوس Epidamnos ترك معظم المال الذي عهد به إليه هناك، ومضى إلى البنـدقية بوساطة سفينة، لاقت

ريجاً طيبة [حوالي١١٦٦]، وعندما جاء ليتحدث إلى الدوج في تلك المنطقة [فيتالي ميشيلي الثاني] وإلى بقية الأعيان وسط ذلك الشعب، خاطبهم قائلا:

«لايفكرن أحد أيها السادة أنني قدمت إلى هاهنا من عند الامبراطور خوفاً، أو خشية أن المشاعر الطيبة لديكم نحو الامبراطورية الرومانية يمكن على الاطلاق أن تتخلى عنها نباهتكم، فأنتم لستم أدنياء بمثل هذه الدرجة، ولاغير جديرين بأصلكم، ولم يخطىء الامبراطور في رأيه فيكم، لكن بما أنه —باستثناء الخاضعين لسلطانه— مطمئن تجاه حسن نواياكم، قرر أن يمدّ عواطفه الملكية الأمينة نحوكم، وبما أنه من العار استغلال الرعايا المزدهرين، ورفض انقاذ الذين يعانون من المصاعب، ولأنكم مع آخرين ممن يشارك في المشاعر الطيبة للامبراطور قد تعرضتم للخطأ من قبل فردريك، الذي لشدة رغبته بالسلطة قد جهد أن يغير بدون توقف ماتقرر منذ زمن بعيد وصار عادة، ولهذا أرسلني إليكم، كما ترون، لأزودكم بكل شيء يمكن أن ترغبوا بالحصول عليه منه، فبمساعدة الامبراطور توليتم بأنفسكم الصراع ضد فردريك في ميلان، وأنتم تعلمون كيف انتصرتم عليه، ولهذا بات يحمل الحقد على الامبراطور، وثقة منه في نجاحه غير المتوقع يطلب شيئاً غير لائق، إنه يطلب أن يحمل لقب امبراطور الرومان، وهو لايعلم أن نجاحات الحظ غير المتوقعة تتبدد بالعادة بسرعة وتختفي، لأنها لم تقم على قاعدة ثابتة، إن هذه هي الأسباب التي جئت من أجلها إليكم، ويتوجب عليكم مراعاة التنفيذ الفعلي لما وافقتم عليه مؤخراً عندما راسلتم البلاط الامبراطوري، فلقد قلتم إن مدن الليغوريين [أي اللومبارديين] المجاورة ستساندنا إذا جاء أحد من بيزنطة ليشارك في المهمة معكم، وهذا —كما ترون— قد وقع». هكذا تكلم نقفور، ورحب البنادقة بكلماته، وتعهدوا بتنفيذ كل شيء، وفي الحقيقة انضمت كريمونا وبادوا وكثير من المدن

الشهيرة الأخرى في ليغوريـا إلى الامبراطور، وكان هذا مـاأنجزه الامبراطور في ايطاليا، لكن ليس بشكل مكشوف، فقـد كان مايزال يرغب في اخفاء كراهيته نحو فردريك.

١٠- واستـولى [اسطفـان الثـالث] ملـك الهنغـار مجدداً على سيرميـون وانتـزعهـا مـن الـرومـان وتمسـك بها، وادعـى ملكيـة زيغمينـون نفسهـا [١١٦٥]، وعندما علم الامبراطور بهذا كتب له كما يلي:

«أيها السيـد النبيـل، انـك لاتتصرف بشكل عـادل، فقـد استخففـت بـالأيمان التي سلـف أن أقسمتها لجلالتنـا فيما يتعلق بسيرميـون وأماكـن أخرى، وخرقتها، (ويحتاج البرهان على ماقمـت به إلى كلام طويل) وما لم تقم بالانسحاب بسرعـة مما ليس عائداً إليك، فإنـك لن تحقق شيئاً كثيراً بالاستيلاء على سيرميون لأنك سوف تعاني من ذلك قريباً، وذلك عندما تجتاح القوات الرومـانية بلادك كلها من جديد بقـوة السلاح، فهل نسيت كم مـن آلاف المرات قد انتزعـت هنغاريا من أبيـك، عندما تخاصـم منذ زمن بعيد مـع الدولة الرومـانية؟ الاعتذار عما اقترف هو سبيـل خلاصك: فكر بهذا وإلا فـإنك لن تستفيـد حتى من اعتـذاراتك المتقدمـة، وسيف العدالة التي شحـذ من قبل خلال عدد كبير من السنـوات تحول بالحقيقة لأن يكـون مظلماً، خـلال عدد مسـاو مـن السنـوات، لكنني أعتقـد أنـه لايمكـن للمرء أن يتجنـب حده قبـل الآخـرين»، هكـذا كانـت كلمات الامبراطور وعباراتـه، لكن ستيفن أهمل هذه الكلمات، ورجـع إلى الطريق نفسه، ولهذا استعـد الامبراطور بكـل وسيلة لقتـاله، لابـل حتى رغـب في إعادة اعطاء العـرش إلى عمه الشقيق ستيفن [الرابع]، وهـذا أمر لم يفكر به من قبل.

ووصل بـالحقيقة إلى دولة روسيـا رجل اسمه مـانويل، يعـود بنسبه إلى الكومنيني [حوالي١١٦٥] ليـذكر حاكمها بالاتفاقية التي كـان قد عقدها

من قبل مـع الامبراطور وأكدها باليمين، بـالاضافة إلى لومه لصـداقته مع ياروسلاف Iaroslav [أوسموميس Osmomys] حاكم غاليشيا، لأن ياروسلاف خـرق تعهداته نحو الرومان في عـدد كبير من المسائل، ولاسيما في استقبالـه أندرونيكـوس والاحتفاء به بشكـل ينم عـن الصداقـة، وعن أندرونيكوس هـذا سوف نتحدث ملياً، فقـد جاء إليه ملتجئاً بعـد فراره مـن السجن في القصر، حيـث كان مسجـونـاً —كما أعتقد— لمدة تسـع سنوات، وفيما يتعلـق بالحقائق حـول فرار أندرونيكـوس، هذا ماسأحكيه الآن:

١١- وكان في وقـت متقدم مضى قـد فرّ مـن السجن بطريقـة رائعة، لكـن القدر كما أعتقـد كان مـايزال يتطلـب العقـوبة لما كـان قد اقترفـه، ووضع دون جهـد هذا البـائس في أيدي مطـارديه، فقـد روي أنه عنـدما وصل إلى نهر سانغـاريوس Sangarios [ساكـاريا Sakarya] اضطر بسبب البرد الشـديد إلى الدخـول إلى كوخ حقير، لكـن مالبث أن لـوحظ من قبل الرجال هناك، لأنه كـان بطبيعته دائم الحركة، وبدا حاداً إلى حد مـا ومخيفـاً، وبسبـب أن الحركـة الداخليـة ظهـرت كما أعتقـد، وبـاتـت مسمـوعة في الخارج، قـام الفـلاحون بتطـويقه، وعلى الـرغـم من انكـاره وتأكيده أنه ليس أندرونيكوس، ربطـوه وذهبوا إلى بيزنطة، وأخذوه معهم، ومرة ثانية تولت القيود والزنزانة حبسه.

ثم قام أخيراً بطبـع المفاتيح على الشمع، وأرسلهم مـع أحد المساجين إلى زوجتـه وابنه[١١٦٤]، وبـاستخـدامهم لبعـض المتآمـريـن الآخريـن صنعوا المفاتيح من الحديد وأرسلوهـم له، وبعدما استلمهم، وعند غروب الشمـس، وهـو وقت كـان متفقـاً عليـه، وبعد أن انتظـر غيـاب الحراس خرج، وكان هناك سـاحة ما، لها سور، فهناك كان مسجـوناً، وكان هناك، بحكم أن المكان نادراً مـاطرق، بعض الأعشاب التي نمت بكثـافة وطول شديـد، فركـض هناك، وخبأ نفسـه مثل الأرنب، بـإلقاء نفسـه في أصغر

بقعة ممكنة، وبما أن الوقت بات ليلاً، كان على حرسه الليلي المعتاد القيام بتطويق السجن، وقام الذي عهد إليه من قبل الامبراطور بالاشراف على ذلك بمركزة الحرس، وهزّ بيده القضبان، حسب عادته اليومية قبيل ذهابه إلى الفراش، وكان هدفه تفقد الوضع ومعرفة فيما إذا كان أي تخريب قد وقع، وعندما لم يجد أي تخريب على الاطلاق، ترك المكان وذهب إلى النوم، وكان أندرونيكوس قد خشي أن يجد كلادون (كان هذا اسم الرجل) الباب مفتوحاً فيشرع على الفور بالبحث عنه، أغلق الباب وغادر بسرية وأمان.

وعندما حلّ منتصف الليل، ذهب إلى أقصى جزء من الساحة هناك، حيث نهاية السور المشرف عليها، ولم يكن السور مرتفعاً جداً هناك، بل مايكفي فوق الماء هناك، وكان البحر عندما يرتفع بقوة الريح غالباً مايضربه بمائه بعنف، وربط هناك حبلاً قصيراً وأمسك به وتدلى إلى الشاطىء، وهناك واجهه الحظ لوقت قصير بوجه عبوس، ثم ابتسم له وأطلقه وتعطف عليه، ذلك أنه كان خجولاً بعض الشيء، ويمزح كما هو واضح، فقد كان هناك واحداً من الحرس الذين اعتادوا على الاقامة في الأبراج،وكانوا يداومون الحراسة بالصراخ من أحدهم إلى الآخر بالتناوب مع التفوه بالكلمة المتفق عليها، فعندما رآه هذا الحارس اقترب منه وطلب منه أن يعلن عن هويته، فأجابه السجين بأنه كان واحداً من الذين يقفون في القصر عند الـ Papicas (٣٤)، لأسباب مالية، وقال له: «إذا تركتني أذهب، فهذا سيكون معروفاً وفضلاً منك نحوي»، وفيما هو يقول ذلك سحب التميمة من حول صدره وأراه إياها، وعندما رأى الآخر (الذي كان فلاحاً ويتصارع بشكل مستمر ضد حقائق الفقر) الذهب يلمع أمام عينيه، أخذ التميمة وترك أندرونيكوس يذهب، ووصل بالوقت نفسه إلى القارب الذي كان موضوعاً بالقرب من المكان، وكان معدّاً لنقله، وحملوه بالقارب، وأوصلوه إلى البيت، وهناك فكوا

القيود التي ربطت قدميه، ثم قـام مجدداً بالصعود إلى ظهر سفينة، أقلعت به، وأبحرت إلى خارج الأسوار، وهناك وجد الخيـول التي كانت معدّة من أجله، فامتطى أحدها وغادر هارباً، وهكذا بعدما هرب أندرونيكوس من السجن، مضى إلى روسيا، والآن ينبغي أن تعود روايتنا إلى موضوعها المتقدم.

١٢- وللأسباب السالف ذكرها جاء مانويل إلى بلاط بريميسلاف، وطلب منه قوات حليفة للرومان، لأنه بعث إليه وإلى روستيسلاف الذي كان أيضاً حاكماً في روسيا للبحث في عقد تحالف(٣٥)، وفي الحقيقة نجح في غرضه، وكانا على درجة عالية من السرور لأن الامبراطور استخدم مثل هذا الرسول وبعثه إليهما، وقد وعدا بتلبية كل شيء يطلبه الامبراطور، ولم يغفل الامبراطور بهذه المناسبة ياروسلاف [صاحب غاليشيا] بل أثاره للحرب ضد ستيفن بعدة وسائل وسبل، فقد كتب إليه كما يلي: «إننا لن نقلد انعدام عواطفك نحونا، باهمالك الشروط والمعاهدات التي أقسمت عليها من قبل، بل سأضع أمام ناظريك حقائق أذاه بسبب أنك تخاطر في أن تغضب وتثار إلى أقصى الدرجات، قدر أنك مزوج ابنتك إلى ملك هنغاري ضعيف الأخلاق ومريضها، وفي الحقيقة غير ثابت في أغراضه: فهو لايقدم أي احترام على الاطلاق للعدل والصدق، وأعتقد أن أي شيء يمكن بسهولة أن يصنع من قبل انسان مهمل بالطبيعة، ويعمل بشكل عام ضد القوانين، وبناءً عليه لن يتزوج ستيفن من ابنتك، ولن يفعل أي شيء قانوني نحوها، لابل حتى إذا تزوجها فإنه سيعاملها مثل إحدى الماشيات في الطريق، لأنه على هذه الصورة سبب المضار لجلالتنا، وبلا حياء لم يرع أياً من الأيمان التي أقسمها منذ زمن وجيز، بحجة المزاح، قدّر مايمكن أن يفعله لك من أعمال غير انسانية»، وأصغى بريميسلاف(٣٦) إلى هذه الكلمات بنوع من السذاجة البربرية، وكان على الفور عظيم الغضب، وقد عدّ صهره عدواً،

ووافق على مساعدة الرومان الذين كانوا يقاتلونه بأي طريقة ممكنة.

ويوجد في روسيا مدينة اسمها كييف، كانت متفوقة على كل مدينة موجودةهناك، وقد عدّت بمثابة عاصمة لاهوتية لتلك الدولة، وجاء إليها أسقف من بيزنطة، وكانت تدعي السلطة على البقية، لأنهم ألصقوا بها شرفاً خاصاً ومنزلة عالية، ووافق حاكم هذه المنطقة على مباشرة الحرب ضد ستيفن، وأكّد معاهدته بالأيمان(٣٧).

وفي الوقت الذي حدث هذا فيه، علم فردريك ملك الألمان، أن الامبراطور يعارض بشدة أعماله في الغرب، لذلك قرر ازالة خلافاتهما، وأقام سلاماً مع الرومان، واتفق هو شخصياً مع الامبراطور على اثارة الحرب ضد ستيفن، ولم يشأ هنري، الذي غالباً ماقلنا [كذا] أنه تزوج من ثيودورا ابنة أخي الامبراطور، أن يكون غائباً عن هذا الصراع(٣٨)، وكان هناك أيضاً جيشاً كبيراً من الكومان والصرب الذين كانوا من رعايا الرومان، وقام السلطان، طبقاً لموافقته بارسال قواته الحليفة، وهكذا تجمعت قوة جبارة من كل جانب.

وجاء في الوقت نفسه فالديسلاف —وكان من الشخصيات الرئيسة في روسيا— ملتجئاً إلى الرومان ومعه أولاده وزوجته وقواته كلها، وقد تمّ منحه ممتلكات على طول الدانوب، وهي الممتلكات التي سلف للامبراطور أن أعطاها إلى اللاجىء فاسيليكا بن جورج، الذي كان يتمتع بمكانة رئيسية بين الزعماء في روسيا(٣٩).

ووافق البنادقة أيضاً آنذاك على مساعدة الرومان باسطول فيه مائة سفينة حربية للصراع بالبحر، وبذلك جددوا معاهداتهم السالفة مرة ثانية، وبالاضافة إلى هذا قدموا تعهدات بالمحافظة على معاداة فردريك ملك الألمان وبقية المناطق الغربية طوال حياته إذا ماأثار الحرب ضد الرومان.

١٣- هكذا سارت الأمور فيما يتعلق بالغرب، وكان بلدوين [الثالث] ملك فلسطين الذي تزوج ابنة أخي الامبراطور(٤٠)، قد هلك وزال من بين البشر[١١٦٣]، ولأن حياته انتهت دون أن ينجب ولداً، انتقلت الملكية إلى أخيه [عموري الأول]، وفور اعتلائه العرش بعث إلى الامبراطور يسأل الحصول على عروس من بين الرومان، واستهدف بالوقت نفسه معرفة موقفه فيما يتعلق بالوضع في أنطاكية، وبحكم أن الانطاكيين كانوا بطبيعتهم خرقة للأيمان، قد عادوا إلى بلدوين في فلسطين، وتمكنوا بذلك وبتدبير أمورهم بأنفسهم وفق ارادتهم، تمكنوا من تأمين حكومة مدينتهم(٤١)، وكان عموري يعرف أن المدينة كانت خاضعة إلى الامبراطور، لذلك ارتأى أن يتعرف إلى الأمور منه أولاً، وقد أجابه مانويل كما يلي: «بالنسبة للطلب المتعلق باقامة وشائج القربى بالزواج، وبما أنك ترغب بالحصول على عطفنا، إن مطلبك سيلبى قريباً، لكن فيما يتعلق بمدينة أنطاكية، فقد كانت قديماً تابعة ضرائبياً إلى الرومان، وهي الآن خاضعة لجلالتنا، وسيكون من غير الممكن مادمنا أحياء بالنسبة لك أو لأي انسان آخر أن يمارس أية سلطةعليها، وعندما سيتلقى شعب أنطاكية العقوبة من جلالتنا بسبب كفرهم تجاه الرومان، سيعرفون وقتها مع من تجرأوا على الاختصام»، لقد حوت رسالته هذه المواصفات، وحيث أن عموري قد خاب أمله بالنسبة لأنطاكية، زاد بذلك من ضغطه في سؤال الامبراطور حول رباط زواج، وقام بعدما تزوج إحدى بنات [جون كومينوس] البروتوسيباتوس، بدوره أيضاً بالتعهد بالقسم إلى الامبراطور، مثلما فعل أخوه بلدوين من قبل.

وبما أن الامبراطور لم يكن قد أكمل بعد استعداداته للصراع الذي أمامه، خشي كثيراً على مدينة زيغمي Zeugme ، التي كانت محاصرة من قبل ستيفن [الثالث]، وأرسل قبل أن تنشب الحرب الشاملة في جميع المناطق، جيشاً متميزاً لمساعدتها، وكان تحت قيادة الأميرين

ميخائيل غابراس وجوزيف برينيوس، وكان تحت قيادتها آخرين من أكثر المتميزين بين الرومان، منهم جون الذي كنيته أنجيلوس، وكان رجلاً صاحب خبرة عسكرية، وجون ايسس [عيسى] (٤٢)، وهو تركي من حيث المولد، شارك الرومان في النشأة وطرائق الحياة، ورغبة من الامبراطور في ضمان المدينة أكثر، ملأ عدداً كبيراً من السفن بالجنود والمؤن، وأمرهم بالابحار عبر طريق الدانوب، بغية تزويد الشعب في داخل المدينة بالضروريات، وذلك حتى يتمكن هو نفسه من الوصول إلى هنغاريا مع الجيش كله.

وأضاع الهنغار كثيراً من الوقت حول أسوار [زيغمينون]، وبعدما حاولوها مراراً أدركوا أنهم كانوا يحاولون شيئاً مستحيلاً (لأن السفن الرومانية التي كانت راسية على مقربة من شاطىء نهر الدانوب، قدمت الكثير من المساعدات إلى الرومان في الداخل، يضاف إلى هذا أنها نقلت الرجال الذين عانوا من الجراح أثناء القتال، وعوضتهم برجال أصحاء الأجساد)، أما الهنغار أنفسهم فقد جمعوا عدداً من المراكب، وذلك قبل وصول قوة غابراس وبرينيوس إلى هنغاريا، وبادروا مسرعين مندفعين ضد السفن الرومانية بهدف اغراقها، وبالتالي الانتصار في المعركة بسهولة، ومع ذلك فقد تبرهن أنهم أقل شأناً بوساطة هذه المحاولة، وكانت سفنهم أقل سرعة من السفن الرومانية، لأنها لم تبن ببراعة، ولأنها تتسع بشكل غير اعتيادي في الوسط، وعندما انطلقت عبر النهر، قام الرومان الذين شكلوا نمطاً من صفوف الاقتتال، باعتراضها وسط المجرى، ورموها مراراً بالنار بوساطة النشاب، وقد أعاقها هذا، فبعض السفن دخلته المياه، وانسحب البقية إلى مقربة من شاطىء النهر وبذلك تجنب الخطر، لكن إحدى السفن، وكانت مليئة بالرجال الذين شغلوا مناصب قيادية بينهم، أصبحت فريسة للرومان عندما أصابوها بالنار الاصطناعية.

وبما أن الهنغار كانـوا غير موفقين في هذه المحاولـة، فقد تحولوا إلى شيء آخـر، فقد أفسـدوا بوسـاطـة المال بعض الهنغـار الـذين خـدموا ستيفـن [الرابـع]، وأقنعوهم بتقـديم شيء مميت للرجـل، ولذلك جـرى الاستيلاء على المدينة، وغـدت سيرميون مجدداً خاضعة للهنغـار [نيسان١١٦٥]، ولم يتعرض الرومان والهنغار الذين كانـوا في الداخل، والذين وقفوا إلى جانب ستيفـن [الـرابـع] لـلأذى، لأنهم تخلـوا عـن المدينـة بشروط على هـذا الأسـاس، وبعـدمـا انتصر الهنغـار على جثة ستيفـن، لم يقـدمـوا للميت الطقوس المقدسة، ولم يـروا أنه يستحق تقديم أي شيء قانـوني آخر، وكل مافعلوه أنهم رموا الجثة أمام أبواب المدينة، وجرمـوها بابقائها غير مدفونة، ثـم تحركوا فيما بعـد بدافـع طبيعي، فنقلـوها إلى كنيسـة الشهيد ستيفـن، ووضعوها في قبر(٤٣).

١٤- عندما سمعـت الامبراطورة بهذا، أصيبت بمرض خطير، أمـا هو نفسه فقد تجاوز ذلك كالعادة بحماس شـديد، وانطلق نحو الحرب، ولدى وصوله إلى سرديكا، عاصمة الإليريين، جمع جيشاً هناك، وانطلق مع آخر أيـام حزيـران [١١٦٥] وذهـب إلى الدانـوب، وفيما هـو ذاهب للجـواز، عمل كما يلي: مركـز الجزء الأفضل تسليحاً من جيشه والـذي كان مستعداً للقتال أمام كرامون(٤٤) Chramon وهي مدينة هنغارية، معطياً بذلك توقعات بأنه سيقوم بالعبـور من هناك، وبناءً عليه عندما لاحظ أن القوات الهنغاريـة تمركزت في الجانب الأقصى المقابـل، انطلق إلى بلغراد، وقام عنـد الفجر بالابحـار عابراً من هنـاك(٤٥)، وبذلك قسـم العدو إلى عدة أقسام، ذلك العدو الذي خطط لمواجهته موحداً.

واستبد بالرومان حالة من الرعـب الشديد، وهم يقومون بالعبور، ولدى ملاحظة الامبراطور نفسه ذلك، قام كما تجرأ غـالباً من قبل، بدخول عبارة قبـل الجميـع وأسرع نحو الشـاطـىء الآخـر، وبنـاءً عليه خجـل الجيـش الروماني لدى رؤيتـه اندفاع الامبراطور، فتابع السير نحـو المراكب، وعندما

رأى الهنغار أن الامبراطـور قد عبر، تخلـوا عن تشكيـلاتهم، وانسحبوا، ثـم انه لدى رسـو الامبراطور على الأرض العدوة قفز أكثر ممـا ينبغي (لأن عدم عمـق الماء، لم يسمح للسفينـة بـالرسـو على أرض جـافة)، وتجاوز حـده، فلوى إحدى رجليـه بشدة، ولم يرغب في التخفيـف من حماسـه، بل سارع إلى إحـدى فجـوات النهـر، حيـث أمضـى النهـار متـألماً، وازداد القسـم المجروح من الرجل انتفاخاً وتورماً(٤٦).

وركـض عدد كبير مـن البرابـرة الذيـن كـانوا متمـركـزين في زيغمـي Zeugme وغادروا الأسوار، واتخذوا موقفاً أمـام [الرومان]، لكن ما ان رأوا الامبراطور، حتى أسرع كـل واحد منهم سابقاً الآخر بـالفرار، وبشكل فوضوي وبصخـب شديد اندفعـوا مسرعين للدخول عائديـن إلى المدينة، ولم يتجـرأوا على الخروج منها، ثـم استعد الـرومـان للحصار، وأنشبـوا في اليوم الثـالث القتـال، وملأ البرابرة الـذين دافعـوا من فـوق الأسوار الهواء بصراخهـم، وبأصـوات غير مميـزة، واستمروا بـالـرمي وتلقـي الـرمايـات، واستهلك بهذه النشاطـات ذلك اليوم واليوم الذي تلاه، ولم يـربح خلال ذلـك لا الـرومـان ولاالهنغـار، ولقـد تملكتنـي الـدهشـة تجاه أشيـاء كثيرة صنعت أثناء هذا الحصـار، وكان من الصعب عليّ تصديق التقـارير التي تحدثت عـن اقدام الامبراطور، لولا انني كنت حاضراً وشاهـداً لما حدث، لأنـه عندمـا بنى الـرومان بـرجـاً خشبياً، وعـزموا على نقلـه نحو المدينـة ليقاتلـوا البرابرة المتمركـزين فوق الأسـوار يداً بيد، طلـب أن يصعد البرج قبل بقية الرومان قائلاً: «أيها الرومان إنكم تستحقون شكري أكثر من أي انسان آخر، إذا لم تعيقـوا صعودي»، ومع هذا لم تتحقق رغبتـه، فقد منعه القادة الرئيسيون الذين صحبوه بالقوة.

وقام بـالدوران حول الأسـوار، بحثاً عن مكـان يكون مناسبـاً للهجوم، ونظراً لانعدام الحجـارة أمر بطم الخندق الذي طوق المدينـة، وكان عميقاً وعريضاً بالفضلات وأخشـاب الحرق، وذلك بهدف تمكن الآلات الحربية

من العبور، لكن مامن شيء كان قد أنجز نحو السيطرة على المدينة، ذلك أن الهنغار، مع أنهم تعرضوا لضغط حاد من قبل العساكر الرومان، كانوا يصرخون أكثر من ذي قبل، وكانت لديهم آمال بأن الجيش الهنغاري الآخر كان على وشك الوصول إليهم.

١٥- وفي الوقت الذي كانت فيه الأمور معلقة على هذا الشكل، عاد الكشافة الرومان وجلبوا أخباراً تحدثت عن قرب وصول جيش كبير، وقد شوهد الغبار يتصاعد في معظم أجزاء الهواء، وأكد واحد من كبار شخصيات الهنغار، ممن التحق بالرومان واسمه فاساس(٤٧) Vasas، أن الملك الهنغاري لم يكن بعيداً، وهو يقود جيشاً يفوق الحصر، لاسيما بعدما التحق به الكومان وجيش روسي، بالاضافة -كما قال- إلى أن أمير التشيك قد عاد معه بكامل قواه، وعندما سمع الامبراطور بهذا، دعا إلى اجتماع ضم كبار الشخصيات، بهدف النظر في كيفية معالجة الوضع الحاضر، وقد خاطب المجتمعين قائلاً: «أيها السادة الرومان، إن النظام الطبيعي للأمور لايكفي بشيء واحد فقط، أي لايكفي أن يكون الانسان شجاعاً، بل ينبغي ألا يقاتل باندفاع أزمات لايمكن تجاوزها، وأعتقد بشكل خاص، أنه عظيم الأهمية بالنسبة للمرء أن يتعلم قليلاً فقليلاً السيطرة على الذات، ثم، بما أن تلك الدولة كانت ناجحة لبعض الوقت فيما مضى، بدوران غير متوقع للحظ، بشكل بات الأمر فيه صعباً بالنسبة للدولة الرومانية لمواجهته، علينا لهذا ألا نفكر أنه يكفي بالنسبة لنا اذا ماقمنا بالقتال فوق ترابها، بل علينا أن نستخدم ماهو موائم لكل مناسبة، وأن نقوم بالعمل الضروري والمفيد بالنسبة للحالة الحاضرة، ولاتفيد السياسات المعتادة ولاتناسب -كما أعتقد- للنجاح ولعدم النجاح، أما مايتعلق بالمملكة الرومانية -مع أنها لم تعد تتمتع بسعدها القديم الجيد- لكن (أقول بعون الرب) سوف تتمتع بحظ أعظم بفضل جهودنا كأبطال لها، وسيسيء إلى أمجادها اساءة تامة لدى تجنب

ملك الهنغار، الذي قيل إنه يقترب مع جيش محلي كبير، ومعه أكثر من ذلك قوات من المرتزقة جمعها بالمال، وعلى هذا إنه في سبيل الاحتفاظ بكل من الشهرة التي تحولت نحو الأحسن، والقوة التي ينبغي أن تنجو سالمة، علينا التشاور حول الجيد والممكن». لقد تكلم الامبراطور على هذه الصورة.

وارتأى بعض الرومان الذين كانوا بالاجتماع أن المناسب هو المغادرة والعسكرة عند سافا، حيث من هناك يمكن مواجهة الأعداء بدون خسائر، وكان آخرون غير مسرورين بذلك، وارتأوا أنه أفضل لهم ترك الحصار، والتوجه لمقاومة الأعداء الوشيكي الوصول، بكل قواهم، ولم يوافق الامبراطور على أي من الرأيين، ولذلك وصم أحدهما بالجبن، والآخر بالحماقة فقال: «من الممكن اننا عندما نترك الحصار أن تتشكل قوة أكبر من الحالية، مع مايكفي من المؤن، يمكن نقلها إلى الهنغار الذين يشكلون قوة الحامية في المدينة»، وبدا الأفضل له أن يترك الجزء الأدنى نشاطاً من الجيش مع قوات الحشم بعد تسليحها هناك قرب المدينة، تحت قيادة بعض الضباط غير المهمين، في حين تذهب بقية القوات معه نفسه لقتال الهنغار الآخرين، وبما أن هذا الرأي هو الذي أخذ به، استعدوا للانطلاق في اليوم التالي.

لكن عندما لم تصلهم أيه تقارير محددة، تسلحوا عند الفجر، وقادوا ثالث محاولة ضد المدينة، ومن جديد نشب القتال، ودافع الهنغار من فوق الأسوار عن أنفسهم ضد جيش الرومان بالحجارة والنشاب وأي شيء توفر لهم، وتمكن الرومان أكثر من قبل من لغم أساسات الأسوار، ودمروها ورموها بالحجارة من المنجنيقات، وكثيراً ماسمعت أصوات التشجيع والتحريض من على الجانبين، وكان هناك صراخ، وأصوات مرتفعة جداً، ثم سمع صوت هائل متميز، عندما لاحظ الهنغار أن بعض الرومان كان يستخدم عتلات عند الأساسات، فتصرفوا كما يلي:

كانت هناك حجرة كبيرة مرمية داخل الأسوار، فوضعوها فوق عوارض كبيرة من الخشب وربطوا حبالهم بالخشب، وسحبوها نحو برج خشبي صغير كانوا قد شيدوه فوق الأسوار، واستهدفوا من وراء ذلك رمي الحجرة على الرومان الذين كانوا هناك، وعندما وصلت الحجرة البرج لم يستطع تحمل وزنها (لأنها كانت كبيرة جداً)، وفجأة تحطم البرج الخشبي، وسقط نحو الأرض مع عدد كبير من الهنغار، الذين لم ينج واحد منهم من الخطر، ومرة ثانية ارتفع الصوت الهادي، وحمي وطيس القتال أكثر، ثم لاحظ الامبراطور أن واحداً من الرومان كان يرمي بشكل دقيق جداً، فركض نحوه، ورفع ترسه أمامه بهدف ابقاء الرجل وحمايته من النشاب.

١٦- وعندما لاحظ الهنغار أن أمورهم كانت بالفعل في وضع صعب، راسلوا الامبراطور وترجوه أن يقبل تنازلهم عن المدينة له شريطة مغادرتهم دون أن يلحقهم أذى، وقال بالبداية بالرفض حتى يقوم غريغوري وبقية الزوبان لديهم بربط حبال حول رقابهم وأن يقدموا إليه عراة الأقدام والرأس، وأعاد الرسل حاملين هذه الشروط، وزاد الروم من ضغطهم وقاتلوا بحدة أكبر حتى استولوا على المدينة، وبعدما باتت مُستولى عليها بالكامل، وصل غريغوري مع بقية قادة الهنغار إلى الامبراطور بحالة مزرية، تتوافق مع الشكل المطلوب، لابل جاءوه على شكل متسولين، وأقاموا مناحة، ورفض مانويل لبعض الوقت النظر إليهم، وعلى كل حال، تدخل بينلا فيها بعد، وبناءً على طلبه منع اعدامهم، غير أنه أرسلهم إلى السجن.

واندفع الرومان بغضب شديد إلى داخل المدينة، وذبحوا الناس هناك مثل الأغنام، مما جعلني أبكي تعاطفاً مع الحياة الانسانية، فكم من الشرور المؤسفة ربط هذا العرق نفسه بها عن طواعية، وحملت الأشياء الثمينة والثياب والمصنوعات الفضية، ونهبت بضائعهم، وقام حتى

المقاتلون العراة وغير المسلحين بحزم كل واحد منهم نفسه بسلاح العدو، ثم وجدت امرأة عجوز تعيسة، كانت مصابة بسهم خرق قاعدتها، فلماذا حدث هذا، هذا ماسأحكيه على الفور: عندما كانت المدينة غير مستولى عليها بعد، وقفت على أعلى الأسوار، ورمت بالقاذورات نحو الأسفل، وصدف انها سحبت ثيابها، ودارت حول نفسها، عارضة مؤخرتها على الجيش الروماني، وهي تغني ببعض التفاهات بلا نهاية، وفكرت في أن تلقي سحراً تربطهم به، غير أن واحداً من العساكر أطلق سهماً نحوها أصاب مؤخرتها ونفذ إلى المكان الموجودة فيه القناة التي تحمل البراز.

وشبيه بهذا، وجد واحد من الرومان كان يعاني من السجن، ذلك أنه مسجوناً في زنزانة سيئة وبلا ضوء للسبب التالي: عندما أخذه الهنغار أسيراً، ولأنه كان معروفاً ببراعته بالرماية، أرغموه على الرمي على الرومان من خلف السور، وكان هذا العمل مضاداً لرغبته، ومع ذلك سمح بذلك عن ذكاء، وعمل على ألا يصيب أحداً، وعندما لاحظ الهنغار هذا، ضربوا الرجل مراراً على ظهره، ووضعوه في سجن محكم الاغلاق.

وهكذا أخذت زيغمي ثانية، ووقتها عمل بعضهم أعمالاً شجاعة بارزة، غير أن أندرونيكوس لم يكن أقلهم(٤٨)، لأنه عندما رأى الرومان يتسلقون الأسوار بوساطة سلم، ذهب إلى أندرونيكوس ابن عم الامبراطور، وكان موضوعاً تحت قيادته، وذلك بعدما عاد هذا الأخير من روسيا واستقبل بكرم من قبل الامبراطور، وطلب أندرونيكوس من قائده أندرونيكوس أن يسمح له بمحاولة التسلق، وعندما سمح الأخير له، ذهب إلى هناك مسرعاً،وعندما حاول اللاتين الذين كانوا قادمين من الخلف جاهدين الذهاب متجاوزين له، اعترضهم بثبات، ولم يرغب أن يفقد فخاره، وبينما كان هذا يحصل، انكسر السلم بشكل مفاجىء، ووقع أرضاً، غير أن أندرونيكوس [دوكاس] تمسك بشجاعته المعهودة، ولدى

رؤيته بعض الرجال يعتلون سلماً آخر جلبوه، ركض وصعد عليه. وهكذا مضت الأمور هناك.

وكان الملك ستيفن [الثالث] قد وثق بـأمن المدينة، (لأنه بالاضافة إلى أشياء أخرى كانت هناك قناة مغطاة تزودها بالماء من الـدانوب، وكانت من قبل مكشوفة للهواء حتى وصولها إلى المدينة، ثم جعلت تحت الأرض من قبل الامبراطـور، عندما كان متحـالفاً مع ستيفن [الـرابع] الأخير) ولم يصدق الملك خبر سقوط المدينة ولم يكن قـادراً على تصور سقوطها بمثل هذه السهـولة والاستيلاء عليهـا من قبل الـرومان، وانتقل الامبراطـور من هناك بسرعـة، واسترد السيطرة على حصـن آخر، أسكنـه بسرعة كثيراً مـن الهنغار من سيرميون، ممن يعرف عـادة باسم كاليسيو Chalisioi ، (وهم كما قيل هـراطقة يجارون في عقيـدتهم الأتراك ويـوافقونهم)(٤٩)، ومـا ان علم [ستيفـن] بالأمر الـذي حلّ تماماً بمدينـة زيغمي، حتى بعـث رسلاً إلى الامبراطور، وكـانوا رجالاً مـن الارستقراطيـة، ومعهم واحد ممـن شغل منصـب أسقف، ووافـق على إعادة تسليـم سيرميون إلى الـرومان، وذلـك بالاضافة إلى دلماشيا كلها.

وعنـدمـا رأوا الامبراطــور، تلفظـوا بما أمـروا بـالتلفــظ بـه، وتعطفـوا الامبراطور ورجوه الاقلاع عن غضبه، ورفض بـالبداية قائلاً: «أيها الرسل، إنه بالحقيقة لأمر جدير بالتقـدير، لو ظنّ حقاً أن هناك إعادة لهذه الأشياء التي سلبت من قبـل، إننا الآن نمتلك سيرميـون، وأعدنـا الاستيلاء على زيغمي، كما اننـا الآن سادة دلماشيا، نحن سـادة هذه الأماكن كلهـا معاً، فالـذي تريدون اعطـاءه قد حرمتـم منه، وبنـاءً عليه هل هنـاك سيرميون أخـرى؟ أو هل هنـاك زيغمي أو دلماشيـا أخرى، جئتـم لاعطائنـا؟!، إذا كان موجوداً، أرونـا إياهما حتى نقوم بتسلمهما على الفور بأيـدينا الفارغة، عـارفين اننـا لـن نستطيـع أخذهما وضمانهما بـالنسبـة لقـوتكـم (لأنكـم لاتهتمـون مطلقـاً حـول خـرق القانـون)، إننـا —بفضـل مـن الـرب—

محتفظين بها بوساطة قوتنا، مثل هـؤلاء، وإذا كانت هذه الأشياء موجودة تحت سيطرتنـا، فما من شيء قـد بقي لتتحـدثوا عـن اعطائه، فحـول أي شروط ستكون الاتفـاقية؟، أو مـاالذي سيكون هنـاك لتبادلـونهم معنا؟»، هكذا أجـابهم في البداية، ثم غير عقلـه وقال: «لكن عليكم بعـد هذا أن تعلموا أننـا نرغـب في أن نقيم سـلاماً معكـم بمثابـة هديـة منا إليكـم، لأنكـم مسيحيين، اقـدموا، وأقسمـوا»، وكـان هـذا مـاقالـه الامبراطـور، وبعـدمـا أقسمـــوا حـول كـل شيء، غـادروا،، ثـم عـاد الامبراطـور إلى بيزنطة(٥٠).

١٧- وسلم جون دوقاس، الذي أخضع دلماشيا، هذه البلاد إلى نقفور كالوفيـس، وكان ذلك بناءً على توجيـه من الامبراطور، وقد تقـدم لمانويل ارسـال [دوقاس] إلى هنـاك مع عسـاكر لـلاستيـلاء عليها إمـا بالقـوة أو بالاتفـاق، وذلك بسبـب أن الهنغار كـانوا قـد عينوا هـذه البلاد بـواسطة المعاهـدة وجعلوهـا ميراثاً لبيـلا، ولدى مـروره ببلاد الصرب خـرقها، وفي مـدة وجيزة تحولـت سلطـات البلاد كلهـا إلى أيـدي الامبراطور، ومـدّت فوقها بالكامـل، ثم أصبحت تروغير Trogir وسيبنيك Sibenik تحت السيطـرة الـرومانيـة، وذلـك بـالاضافـة إلى سبلـت Split ودولة كاتـزيكوي Katzikoi وديوكليا Dioklieia، وهي مـدينة مشهـورة سلف أن بنيت مـن قبل الامبراطور الرومـاني ديوكليشيان Diocletian، وكذلـك سكراديـن Skradin وأوستروفيكا Ostrovica وسولين So-lin، والمدن الأخرى كلهـا القائمـة في دلماشيا، وكـان عددهـا كلها سبـع وخمسين مدينة. على هذه الشاكلة سارت الأمور في دلماشيا.

وعاد الامبراطور —كما قلنـا— إلى بيزنطة، فقاد موكـب نصر من القلعة حتى كنيسة آيا صوفيا الكبيرة، واحتفـل هناك بالصلوات والشكر، وأتحف رجـال الكهنوت بشيء مـن الذهـب وصـل من الجزيـة التي أرسلـت إلى الرومان من سيرميون، وإثر هـذا استراح بالقصر، وكاد يفوتني أن أذكر، أن

عربة موكب ذلك النصر كانت قد صنعت من الذهب الخالص، وكان من المفترض أن يركب بها الامبراطور، لكنه لم يركب، جزئياً بسبب عدم رغبته بالتباهي ولتواضعه، ومن جانب آخر بسبب انه عندما جلبت الخيول التي كانت ستجر العربة، وربطت بالمقاود كانت جموحة جداً، وخشي من خطر انقلاب العربة.

ولم يمض وقت طويل حتى علم [مانويل] أن كل من الصرب ودولة الهنغار كانا ثانية يجهدان [في سبيل الثورة]، لذلك بادر مسرعاً إلى هناك لاستباق القتال، لكن ما إن سمعوا بقدوم [مانوين] حتى أقلعوا عن أعمال العدوان، وحافظوا على المعاهدات بشكل تام.

الكتاب السادس

وشرف الامبراطور أنـدرونيكوس —الذي عـاد كما ذكرنا مـن روسيا— وأولاه كل أنـواع العطف وقـدم إليه كميـات من الـذهب، وبعـث به إلى كليكيـة ليعالـج الأمور هنـاك ويحقق الاستقـرار [١١٦٦]، ومن أجـل أن يتمكـن مـن الانفـاق والبذخ، منحـه ضرائب قبرص، ومكـث في المكـان المعين له قليـلاً من الوقـت، ثم قام بجعل فيليبـا [الأنطاكية] خطيبـة له وزوجة، وهذا شيء لايسمح به قانوننـا لأنها كانت أخت الامبراطورة، ثم تركها بدون أي سبـب، وتحول إلى فلسطين [أوائل١١٦٧] آخذاً معه كثيراً من أمـوال الامبراطور التـي فرضها كضرائب وجبـاها مـن أراضي كليكية وقبرص.

والتقى هناك بثيودورا ابنـة السيباتوكراتور اسحق، التـي —كما ذكرنا— تزوجت من الملك بلدوين [الثالث]، والتي بعدما توفي وآلت السلطة إلى أخيه، عاشت كـأرملة في عكا، ولأنها كانت قريبته، غالبـاً مازارها، وعقد محادثات خاصة مع المرأة، ومع الاستمرار بـذلك أصبح مرتبطاً بها بشكل غير اعتيادي، بحسب غير قانوني وغير مقـدس، وبعدمـا جامعها وعـاشرها حملها معـه وذهب معها إلى أراضي المسلمين، وحملـت منه وأعطتـه طفلاً فيما بعـد، ثم إنـه بعـدما مـرّ بعدد كبير مـن البلـدان الأجنبية، دخـل إلى الأراضي الشرقية للإيبيريين [الكـرج=الجورجيين]، وذهب ثانية بعـد وقت قصير إلى الأتـراك وبصحبته المرأة، وقـام هذا الـرجل التعيـس من هنـاك بغـارات كثيرة ضـد الأراضي الرومـانيـة، وأخـذ عـدداً كبيراً من الـرجـال الأسرى، وحـول أسلاب الحرب إلى الأتـراك، ولهذا حكم عليـه بالحرمـان من قبل الكنيسة(١).

٢- وحدث في حوالي هذا الوقت [١١٦٠-١١٦٦] بحث بين البيزنطيين حول عقيدة المسيح، للأسباب التالية: كان هناك شخص اسمه ديمتريوس، وهو روماني المنحدر، جاء من لامب Lampe، وهي قرية آسيوية [قرب أتراميشن Atramyttion] (٢)، وقد درس —كما أعتقد— قليلاً من الثقافة العامة مع شيء من التعليم العلماني، ولكنه أمضى بالعادة وقته حول العقائد المقدسة، وتحدث بشكل مستمر بحماقات لانهاية لها، وبما أنه أرسل مراراً رسولاً إلى الغرب وإلى الشعوب الإيطالية، عاد من هناك بكثير من الحماقات، وتورط في أشياء غريبة، ولم يستطع بشكل خاص الاقلاع عن العبث والانشغال فيما يتعلق بطبيعة الرب، وهو موضوع غير مسموح بالخوض به إلا للمختصين ورجال الدين الرئيسيين وبالدرجة نفسها للأباطرة بحكم منزلتهم ومكانتهم.

وإثر عودته في تلك الآونة من الأراضي الألمانية، أكد أن الشعب هناك قد اتخذ بشكل واضح موقفاً خاطئاً، وكان في إحدى المرات يتحادث مع الامبراطور، فأثار مثل هذه المسائل، وعندما سأل الامبراطور عما يعنيه هذا، قدم لدى اجابته عرضاً كاملاً لعقيدته، وجاء كلامه كما يلي: «هم يتجرأون على القول إن الشخص نفسه [المسيح] أدنى من الرب، ومساوياً للرب الذي أوجده»، وعندما قال الامبراطور: «لكن لماذا؟ أولسنا ندعوه رباً وانساناً»؟، فقال: «نعم»، فقال الامبراطور: «إذن نحن نوافق على أنه أدنى بالنسبة لناسوته، ولكنه مساوي بالنسبة للاهوته، ونسمع أن المخلص يقول هذا الشيء نفسه، حيث قال في أحد الأماكن «أبي أعظم مني أنا»(٣)، وإذا لم يتوجب تطبيق هذا على الطبيعة [اللاهوتية] (لأن ذلك لن يكون موائماً بالبتة) عندما من الضروري توجب تطبيق هذه المقولة على [انسان] آخر، وقد قيل إن كل منهما لايمكن التفكير به، ولذلك إن عقيدة النوع البشري سليمة، وذلك حسبما عرف جلالتنا منذ وقت طويل»، وقال الآخر —على كل— ثانية: «ومع

ذلك إنهم يتكلمون بشكل مكشوف بدون تقوى»، وعلى هذا الشكل أنهيا المناقشة، لكن بعد وقت قصير وضع ديمتريوس أفكاره في كتاب قدمه إلى الامبراطور، وقال له مانويل: «إذا كان من الممكن دفن هذه الأشياء تحت الأرض، ادفنها على الفور، خشية أن تكون بها سبب تدمير كثير من الناس، لأنه بالنسبة للرأي القائم الآن، أنا متمسك به بشدة، ولاأعتقد أنه سيكون بإمكان أي كان أن يزحزحني عنه بسهولة».

وعلى كل حال أصبح الآخر أكثر جرأة، ونقل أفكاره وأوصلها إلى الناس: إلى الأفراد، وإلى الجماعات، ثم أوصلها إلى عدد كبير من الأساقفة، وإلى الذين يشكلون طبقة اللاويين الذين ندعوهم شماسة، وعندما وجد كثيرين يوافقونه، تنفس الصعداء، وتكلم بشكل مكشوف ضد الذين كانوا بشكل ما أقل اهتماماً به، وقام بتطوير وتوسيع مناقشاته إلى حجم كبير، ولم يكن هناك أي واحد لم يتكلم آنئذ عنها وقام بالبحث والاستقصاء حول أي عمل حدث أن قام به، وعندما علم الامبراطور بهذا تردد، ثم اتجه نحو عرض المسألة أمام مجمع ديني للنظر فيها، وعامل القضية بشيء من الحذر، فلدى ملاحظته أن الغالبية كانوا تقريباً يميلون نحو موقف ديمتريوس، استقبلهم واحداً واحداً، ثم اثنين اثنين، ثم على شكل جماعة كبرى، ولقد تفحص الذين قالوا، وبذلك استطاع أن يحول كثيراً منهم إلى العقيدة الأخرى الصحيحة، وذلك لأنهم كانوا غير قادرين على المناقشة ضده.

ومع أنه لم يكن لديه خبرة في تداريب المنطق، استطاع بذكائه وبسعة ثقافته أن يتفوق على كل واحد عاش في أيامنا، ولم يكن هناك انسان ينكر هذا، ليس فقط بين الذين تعايشوا مع الامبراطور عن قرب (مما يدفع المرء إلى التشكيك بأنهم يمالئون) لكن حتى من قبل الذين كانوا معروفين من قبله، وكان إذا مارغب في شرح شيء ما، كان يقدم عرضه بحكمة غير اعتيادية، مع وضوح وبساطة بالعرض، ولم يكن هاماً بالنسبة

له نوع الفلسفة التي اعتمد البحث في المسألة عليها، سواء أكانت طبيعية أو لاهـوتية، أو مـن أي نـوع آخر، ذلـك أنـه شغل نفسـه كثيراً بـالثقافـة اللاهوتية وغير الـدينية، مع أنه بالكاد كـان بإمكانه توفيرالوقـت لانشغاله المستمر بالأعمال العسكرية، وهكذا نجح بذكائه وبقدرته الطبيعية —كما قلنا— فربح إلى جانب موقفه عدداً كبيراً ممن قابله.

في البـداية لم يكـن هنـاك مـن أحد ليـس مشـاركـاً في الموقف ضـده باستثناء لوقـا، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن المسائل الـلاهوتية، غير أنه لم يتجرأ على الكلام بحـرية، ومعه ليس أكثـر من ستة من الشمامسـة، ولدى ملاحظة البقية أن كثيراً منهـم تخلوا عن مواقفهم اللاهوتيـة إثر المناقشات الفردية مع الامبراطـور، ولتوقعهم انه بعقله الرائع ولسـانه البارع سيتمكن من جذب عدد كبير منهـم إلى نفسه من خلال المقابلات الفـردية، لذلك اتخذوا قراراً بعدم الالتقاء بالامبراطور فـردياً أو بشكل خاص: «ومن يفعل ذلك سيكون الآن، وكـذلك بعد موته خـاضعاً للحرمان الكـامل»، فهذا مـاقـالوه لـدى عقـدهـم اجتماعـات في بيوت بعضهـم، لاسيما في بيـوت الشخصيات البارزة بينهم.

ولم يكن الامبراطور عـارفاً بهذه الأمور، إلى أن دعا يوثيمـوس إلى زيارته زيارة خاصة، وكـان آنذاك أسقفاً [مطراناً] لني بـاتريا Neai Patrai [هيپاتي قرب لاميـا](٤)، فسأله عما قيل، ورغب أن يـدرس العقيدة معه، غير أنه أغلـق شفتيه ولزم الصمـت، وعندما سـأله الامبراطور عـن سبب صمتـه، أجابـه في أن وضـع أمـامه الحكـايـة كلهـا، فغضب وأقـدم على تهديـده [مـع أنـه اعتـاد في جميــع الظـروف أن يحافـظ على هـدوئه وألا ينفعل]، لقد هـدده في رميه من فوق شاهق، إذا كـانوا يعملون على تغيير العقيدة الصحيحـة المتعلقة بالـرب، واتهمه بـذلك، لكنه مـالبث أن غيّر عقله قائلاً: «بناءً عليه إنك ستقوم أولاً بفهـم من أنت وكيف تفكر حول الرب، أنـت الذي رميت بـالشكوك حولي، (لكـن مع انني أهنـت، إنني

أكبح نفسي، خشية مني أن أقوم بعمل ما بالوقوف ضد الأرثوذكسية، ذلك أن هناك عددا كبيراً من الكتب الجيدة مقابل السيئة لنقل مترادفات الأمور المؤكدة التي ينطلق منها كلا الفريقين)، سلح نفسك حتى تكون قادرا على مبارزتي، فأنا دون الآخرين، سوف أتصدى لك، ليس بقوة السلاح، بل بفعالية الكلمة، لأنه بغيض بالنسبة لي أن أقهر من هو أدنى مني، وهذا العمل هو شاهد، وكما ترى، إنني مع أنه من الواضح قد تعرضت للاهانة، إنني موقف انتقامي، ومع هذا ينبغي ألا تستخف بهذه المسائل وتزيحها جانباً، لأنه من الذي يحجر عليك؟ من الذي أزال حريتك بالكلام؟ متى طردت من قبلي وأنت تتكلم أمام المنبر؟ ماالذي سأربحه إذا ماقمت بالدفاع عن عقيدة فاسدة؟ ثم إنه خشية مني أن أسيء إلى عقيدتي بكلمات، وهو شيء حدث لكثيرين بينكم، (في الحقيقة انني لم أعتقد قط بمثل هذه الأشياء) يبقى تماماً إنه ينبغي عليّ ألا أخون عقيدتي المتعلقة بالرب، ومع هذا إذا ماتحدث انسان ماتبعاً للكتابات المقدسة، وكان قادراً على أن يغير رأيي، لن يكون مخجلاً بالنسبة لي قط تغيير آرائي، وأبق هذا الشيء محتاطاً بشأنه: أن لايكون الرب موضع سؤال، ولهذه الغاية تحملت أنا نفسي، مراراً كثيرة الاهانات».

هكذا مضت الأمور هناك، وبعد مضي عدة أيام، قدم عدداً كبيراً من الكتب تحدثت بوضوح حول هذا الشأن، ووضع القضية أمام مجمع ديني للبحث فيها [١١٦٦]، وأخذت أعداد كبيرة من الفئات المتصارعة تتملص من لحظة إلى أخرى، حتى بات الجميع مع الرأي نفسه مع البطارقة الآخرين، ووافقوا على أن الامبراطور قد جمع أهداف الكتابات المقدسة، ومع هذا كانوا غاضبين جداً على لوقا، واستخفوا به وأهانوه، ونادوا بخلع هذا الانسان وطرده من عرشه، لعلمهم أنه عالج المسائل بشكل لامعرفي تماماً، واعترفوا أنهم هزموا بوساطة موقف لوقا، لأن هذا الموقف عرض قبل موقف الامبراطور، ولأنهم هزموا من قبلهما [البطريرك

والامبراطور]، أرادوا توجيه التهمة حول أمور أخرى، وهنا لاحظ الامبراطور —كما أعتقد— أنهم يقاتلون لوقا بأسباب موبوءة، فقال: «دعوا هذا يبقى سرياً لبعض الوقت، فعندما تظهر محصلات القضية الحالية، سنقوم بتفحص هذا الأمر، ولسوف نطبق عليه مايستحقه من جزاء».

وهكذا هزمهم على أساس هذه القواعد، وتمّ الاعلان عن استمرار العقيدة وصحتها، وأمر الامبراطور بكتابتها، ثم أمر بعد ذلك بنقش النص على حجر، وضعوه بكل سرعة في آيا صوفيا على يسار الداخل، وهكذا تحقق لهذا البحث نهايته(٥).

ولقد فكرت دوماً حول هذه الأشياء، فوجدت أنه لايمكن لانسان حي أن ينجو من اللوم عندما يعبث في طبيعة الرب، ومع هذا إنني مصاب بالدهشة بشأن ما روي لي فيما يتعلق بهذا الامبراطور، فقد حدث مرة، عندما كان يبحث بهذه المسألة (لأن القضية ظلت تناقش بين أخذ ورد لمدة ست سنوات) جاء إليه واحد من المتعلقين بالبيت الامبراطوري، وروى إليه بكل هدوء أن الامبراطورة عانت من اجهاض، وأن ماأسقطته كان ذكراً، وهنا لم يظهر عليه أي أدنى تأثر بماروي له، ولم تبد آلامه على مظهره، بل ظلّ مصغياً متنبهاً لما كان يقال، لكن عندما انتهى البحث حول المسألة المطروحة، انتصب قائماً، ثم ألقى بنفسه على أقدام الكهنة، وقال: «أيها الآباء المقدسين، وصلني للتو خبر من جناح النساء يقول: إن طفلاً ذكراً —وهو أعظم آمالي— قد ولد في غير وقته، إنني أطلب من قداستكم، الدعاء إلى الرب، افعلوا ذلك، أرجوكم، وإذا كنت قد تبنيت في هذا الصراع المقدس الجانب الخاطىء، ليجعل الرب ذريتي تلد مجدداً في غير أوانها، مهما كان نوع المولود، ولأحرم من التمتع بنيل آمالي، لكن إذا كان موقفي يرضي الرب، ليمنحني هذا الأمل بعد وقت قصير»، وما ان أكمل حديثه، حتى نهض من على الأرض، غير أن

كل واحـد من الآخـرين ركع ودعـا إلى الرب ورجاه والـدموع تنهمـر من عينيه، وعلى هذه الصـورة غادروا، هذا ولم يمض وقت طـويل حتى رزق الامبراطور ولـداً ذكراً، وكـان قطعة مـن النعمة، ووردة مـن الطبيعة، هـذا وإنـه في اللحظة المنـاسبة سيكـون ممكناً لـروايتي أن تصـف أي نوع مـن الأشخاص كان(٦).

وهكذا وعلى هذه الشاكلة انتهت هـذه الخلافات، وبما أن لوقا لم يقدم ضده أي اتهام جديـر بالملاحظة، فقد بقـي على عرشه، لكن جـون الذي شغـل المنصب الـديني الـرئيسي في كيركيرا Kerkyra ، وواحد من الرهبـان، الذي كانوا يلقبـونه بـ«إيرينيكوس Eirenikos» اللذان ظلا متمسكين بعقيدتهما القديمـة، قد تعرضا للحرمان، وطـردا واحداً تلو الآخر من التنظيمات الكهنوتية(٧).

٣- ثم تحركت الأمـور من جديد، تلـك الأمور التي عرفـت الاستقرار، فقـد أرسـل ملك الهنغـار دايـونيسيـوس(٨) Dionysius ، وكان واحداً من الارستقراطيين في بلاطه، وصاحب خبرة حربية نالها من خلال عـدد من الحروب، أرسلـه للاستيـلاء على سيرميـون بوسـاطة جيـش كبير [١١٦٦]، وعندمـا علم القـادة الرومـان بذلـك، وضعوا خططهـم حول المسألـة، غير أن الخطط التي تشـاوروا حولها لم تنجح، لأن المتشـاورين لم ينظروا إلى مـاكان مفيداً للـرومان، بل نظـروا إلى كيف يمكن لأحـدهم أن يخدع الآخر، خاصة كل مـن الميخائيلين: الذي كنيته غبراس، ورتبته دوق تلك المنطقـة، وبرانـاس الذي تولى منفصـلاً قيادة الجنـد، فكلاهما كـانا مقاتلين، لكن برانـاس كان بالحري هو الأقوى، وعندمـا بدا للمشتاورين أن الأفضل مهـاجمة دايونيسـوس ليلاً، انطلقـوا وزحفوا بكـامل القـوات، وعندما وصلـوا إلى معسكر دايونيسوس، وجـدوه فارغاً تماماً مـن الرجال، لـذلك بـدأوا يشعـرون بالخوف، لأنـه في أراضي العـدو، إذا كان المكـان مهجوراً،وخـدماتـه المعتادة مفقـودة، ذلك كـان كافيـاً للتأثير على الـروح

المعنوية للجند.

وفي محاولة منهم لتتبع آثارهم، تقدموا نحو الأمام، وقد تهيأ لهم انجاز شيء بسرعة، لو أنهم هاجموا الهنغار على الفور، وبما أن ضوء النهار بات واضحاً، فقد رآهم الهنغار، وبدأ فرسانهم بإنشاب القتال ضد المعسكر الروماني (لأنهم كانوا منطلقين من أجل الرعي)، ولذلك شكلوا صفوفهم، وهاجموا الذين اعتادوا على الوقوف أمام الخيم، ولدى ملاحظة الهنغار أن الرومان كانوا يركضون بلا نظام وفي فوضى عظيمة (لتعرضهم لهجوم الهنغار الذين كانوا خيالة، فإن الجزء الأكبر منهم قد تفرق) حملوا [الهنغار] عليهم وبعدما أرغموهم على ادارة ظهورهم، كانوا قادرين على مطاردتهم وسوقهم أمامهم حتى أدخلوهم في وسط قطعة رومانية كانت قادمة من المؤخرة، واضطرب أمر هؤلاء، وانعطفوا بغية الانسحاب، ثم انهم هربوا بسرعة كبيرة، معتقدين أنهم هوجموا من قبل قوة أكبر بكثير من الجيش الذي رأوه معهم، وبدا لهم، لأنه في مثل هذه الظروف يستطيع فقط قلة من الناس فهم واستيعاب الحقيقة.

وبما أنهم كانوا هاربين بكل سرعة فقد أصابهم الإعياء، ولذلك توقف القائدان لبعض الوقت ومعهما الرايات وقليلاً من أتباعهما، ظانين أن الرومان سيتجمعون ثانية، لكن بما أنه لم يلتحق بهما أحد من أي اتجاه، أدارا أيضاً ظهريهما، وحدث آنذاك أن استدار براناس وطعن واحداً من الأعداء برمحه، في حين تابع القائد الآخر فراره، وهنا ظهرت بوضوح قضية خلافهما المتقدم في الاجتماع، لأنه عندما عاد براناس والتحق بغابراس الفار، سخر منه وقال مستخفاً به: «ثم انك توافق معي أيها السيباستوز كما تعلم أنني قاومت الأعداء، وقاتلتهم بالرمح»، وعندما وافق الآخر، تابع يقول:

«لكن بحق رأس الامبراطور، إنني لم أرك إلاّ أثناء التراجع»، وهكذا

كان ذلك اليوم فريداً بالنسبة للرومان دون أن يحقق لهم مرابح عامة، لكن بذلك يمكن للمرء أن يرى باعجاب، أنه تولى القيام بكل مهمة.

ولم يقتل المطاردون الهنغار عدداً كبيراً من الرومان، ولم يأخذوا كثيراً من الأسرى، لأن رعباً عظيماً استولى على الرومان، ويمكن استخلاص ذلك ومعرفته مما يلي:

قام فرد من وحدات المشاة بالفرار طوال الطريق حتى التجأ إلى زيغمي، ولم يوقفه طوال الطريق أحد من الرومان، وهكذا رحلوا ببطء، ثم عزم دايونيسيوس على اعلاء أهمية ماقام به، فجمع أجساد عدد من الذين قتلوا، وأقام نصباً كبيراً فوقهم، مقدراً أن حجم المذبحة يمكن تعويضه بحجم الصرح(٩) المقام.

لقد سارت الأمور هنا هكذا، غير أن الامبراطور أثاره التهديد، ورغب في حرب الهنغار بنفسه، ورغب أولاً في عرض قدرات الرومان أمامهم، فخطط في سبيل ذلك كما يلي:

أرسل إلى الدانوب ألكسيوس [أي بيلا أخو ستيفن ملك هنغاريا] الذي كان قد زوجه من ابنته، ومعه قوات كثيرة، كان ألكسيوس البروتوستراتور يقودها واستهدف من ذلك اعطاء الهنغار توقعاً أنه سوف يهاجمهم مرة ثانية عبر المناطق المعتادة، وأمر بالوقت نفسه ليو الذي كنيته باتاتزس Batatzes ، الذي كان يقود قوات من الخارج ضمت أنواعاً كثيرة كان من بينها الـ«الفلاش Vlachs» الذين كانوا —كما قيل— مستعمرين من شعب ايطاليا، أمره بالانقضاض عن طريق المناطق القريبة مما يعرف بيوكسين Euxine البحر [الأسود] حيث لم يتقدم لأحد من قبل أن هاجمهم، وهكذا وصل ألكسيوس [بيلا] والجيش الروماني الآخر إلى الدانوب، فأدخلوا بذلك الرعب إلى قلوب الهنغار، خشية أن يقوموا بالجواز من هناك، وفي ذلك الوقت كان باتاتزس، يوجه

ضرباته من ذلك المكان حيث تولى نهب كل شيء بدون رحمة، واجتاح كل شيء واجهه، ثم تولى قتل عدد كبير جداً من الناس، ولم يكن الذين أخذهم أسرى أقل عدداً، يضاف إلى هذا أنه عندما عاد إلى الامبراطور، ساق أمامه قطعاناً من الماشية والخيول مع كل نوع من أنواع الحيوانات الأخرى.

ورغبة من مانويل في انزال ضربة ثانية بهم، أرسل ثانية جيشاً ضدهم، وأمره أن يقاتل من أماكن أكثر علواً الهنغار الذين عاشوا على مقربة من روسيا، وقاد هذه القوات أندرونيكوس لامبارداس ونقفور بتراليفاس مع عدد كاف من الآخرين، ومع هذا جُعل جون دوكاس السالف الذكر مراراً مسؤولاً عن الجميع، وبعدما مروا خلال بعض المناطق المتعبة والوعرة، مضوا من خلال مناطق كانت خالية تماماً من الناس، ثم انقضوا على هنغاريا، ولقد استولوا على كثير من القرى المكتظة بالسكان، وجمعوا كميات عظيمة من الغنائم وقتلوا كثيراً من الناس، لكن الذي أخذوه من الأسرى كان أكثر، وعندما باتوا على نية العودة من هناك أقاموا صليباً من النحاس كتبوا عليه العبارات التالية:

هنا قامت العصبة الأرسية Ares والايطالية

بذبح عدد لايحصى من قبائل العرق البانوني Pannonian

عندما كان مانويل النبيل يحكم روما الشهيرة

فخر الملوك الحكماء من الكومينيين(١٠)

٤- وبينما كان هذا يحدث، جاء هنري دوق النمسا ومعه زوجته ثيودورا ابنة أخي الامبراطور، إلى سارديكا، وذلك من أجل مصالحة فردريك، ملك ألمانيا مع الامبراطور، ولمطلب إقامة هدنة في الحرب مع الهنغار [١١٦٦]، لأنه —حسبما تقدم ورويت— كاد فردريك أن يقترب

مـن فقدان حكـم روما، وذلـك منذ أن بـدأ الامبراطـور نشاطـاته ضـده، لاسيما عنـدمـا وافـق أسقـف رومـا على العـودة إلى الاستخـدامـات القديمـة(١١)، وقد وعد فـردريك بـأشياء كثيرة ضد ارادتـه، لأن الناس هبوا هنـاك لحمل السـلاح والقتال ضده، نتيجـة للضغوط الصـادرة عن الامبراطـور، ولـذلك حـدث قبـل وقـت قصير، أنه رغـب في كسـب ود الامبراطور، ذلك أنه كـان في ضيق شديد، ولذلك كتب لـه وتناقش معه، بطريقة ودودة، وأعلـن —كما ذكرنا— عن موافقته على التعـاون معه ضد الهنغار.

وعندمـا —على كل حال— تحولـت اتفاقية مـانويـل مع البابـا بشأن الحكـم في روما إلى الافـلاس، بسبب أن الامبراطـور أصرّ على بقاء عـرش روما في بيزنطـة، رفض البابا قبـول هذا، وطلب بحكم رومـا لنفسه، هنا استرد فردريـك مكره وخداعه، وأظهـر من جديـد دهاءه، وبالنظر لعـزمه على غزو الأراضي الـرومانيـة، بدأ بحماقـة بربـرية، بتـوزيعها بين أتبـاعه، ولأنه لم ينجح من قبل في خططه الأخـرى، بسبب معارضة الامبراطور له، فقـد لجأ إلى استخـدام سفـارة هنري وأوتـو صـاحـب وتلسبـاك Wit-telsbach، وخطط بالتظاهر بالصداقة أن يقنع الامبراطور بالتخلي عمّا كان يقـوم به ضـده، فبذلك يمكنـه أن يستعد بسهـولة للحـرب ضد الرومان، وقدر الامبراطور جهود هنري وعاملة بشكل لطيف ، ووافق على طلبه مـن أجل هـدنة في الحرب ضـد الهنغار، لكنـه لم يتوصـل إلى نتيجة نهائية فيما يتعلق بفردريك، وعندما كـان هنري في طريق عودته إلى بلاده، أقنع ستيفن —الذي رفض الزواج مـن فتاة روسية— أن يتزوج من ابنته، ولقد حدث هذا بالفعل.

ولم يمـض وقـت طويـل حتـى خطـط الهنغـار إلى سلبنا دلماشيـا مـن جديـد، فأرسلوا قـوى مختلفة إلى هناك، كما وبعثـوا الذي يحمل رتبـة بان Ban (١٢)، بينهم (ويعني هذا الذي سيمتلك السلطة بعد الملك في

الدولـة)، وبعدما أخفقوا بـالتغلب على الرجال الـذين كانوا هنـاك قتالاً، انسحبوا، لكن بعـدما حملوا قسراً معهم كالوفيـس [الدوق] وجعلوه تحت سلطانهم، أما كيف حدث هذا لنقفور [كالوفيس] فسأحكيه فيما يلي:

فهو عندمـا علم أن القوات الهنغارية كانـت تحارب تلك المنطقة، جمع قليلاً مـن جيشه، وخـرج من مدينـة سبلت، غير أنـه ماان زحـف قليلاً، حتى تخلى عنه أتبـاعه قليلاً قليلاً، وسببـوا بذلك وقوع الـرجل أسيراً بكل سهـولة في أيـدي الأعداء، فقـد طوقـوه بعـدما قـام بأعمال فيهـا بطولـة وشجاعة، وأخذوه أسيراً.

٥- عنـدمـا سمـع الامبراطـور بهذا، عاد إلى بيـزنطـة، عـازمـاً على أن يغزوهم في الربيع بحملة أكبر، وفي الحقيقـة هو لم يكن قادراً على الذهاب إلى هنـاك في موسـم الحملات التـالي، فقد أعـاقه قطعـة من سـوء الحظ، ماالذي كانت هذه؟ الرواية التالية سوف توضح ذلك:

مضـى شتاء [١١٦٦-١١٦٧]، وعنـدما زال الطـل أوقف نفسـه على بعض التمـاريـن المفيدة، وهي تماريـن اعتاد الأبـاطرة وأبناء الأبـاطرة على ممارستها منذ وقـت طويل مضى، وكان عدد من الشبـاب يقومون بتقسيم أنفسهم بـالتساوي، ثـم يرمـون بكرة من الجلـد تقارب بـالحجم تفـاحة، وكانوا يلقونها على بقعـة مستوية، تبدو لهم مناسبة عندما يتـولون قياسها، وحيث أن الكرة كانت تمكث ملقـاة على الأرض في الوسط وكأنها جائزة، كانوا يطلقون خيولهم نحوها بسرعة كـاملة، ويتوجه كل واحد ضدّ الآخر، ويمسك كـل واحد منهـم بعصا ذات طول منـاسب تنتهـي على شكل شعب فـارغ، مقسم في الـوسط بوسـاطة أوتار لحميـة، جفت مـع الأيام، وتـداخلت فيها بين بعضهـا بعضـاً لتشكل مـايشبـه الشبكـة، وكان كـل جـانب يسعـى بسرعـة عاليـة جـداً لجرف الكـرة ولنقلها أولاً إلى الطـرف الآخر، الذي يكـون قد عين لهم منذ البدايـة، وكلما جرفت الكرة بـوساطة

العصـا، ووصلت إلى إحـدى النهـايتين، فقد عـدّ ذلـك انتصاراً للطـرف الذي أوصلها، وكـانت هذه الرياضـة خطيرة جداً ومرعبة، فقـد كان من الضروري لكـل مشـارك بها أن يتحـرك على ظهـر مطيتـه إلى الأمـام وإلى الخلف، وكـذلك أطرافـه يمنة ويسرة، وأن يقود فـرسه ويجعله يـدور حول نفسه، وأن يسـاهم في كل نـوع من السبـاق، مما احتاج إلى عـدد كبير من أنواع الحركات وذلك مسايرة لحركات الكرة.

وكان الامبراطـور مغرمـاً بهذا النوع من الـرياضـة، لكن حـدث أن كبا حصانـه ووقع فـوقه على الأرض بكـل ثقله، وتحمـل ثقل الحصـان فوقـه وجهـد كثيراً للقيـام مـن سقطتـه، غير أنـــه لم يكـن قـادراً على أن يبعـد الحصان عنـه، بعد أن بـات تحته، فقد قبـع فوقه —كما ذكـرنا— بكـامل وزنه، ولـذلك جرح جرحـاً بليغاً في طرفه، وكـذلك بذراعه الـذي التوى بشكل سيء بسبب من ردائه، ولقد تحمل ذلك كلـه بشجاعة، مع أنه تألم من ذلـك آلاماً شديدة جـداً، وعندما تجمـع حوله عدد كبير مـن الناس، نهض مسرعاً، وقفز على ظهـر حصانه ثانية، وقام ببعـض الدورات بشكل بطيء بما فيه الكفـاية، وذلك حتى شعر بآلام مبرحـة فمضى إلى الفراش، وإثر ذلـك قهره الوجع وغـاب عن وعيه، ولم يعد يتـذكر الغد، ثم مـاقيل ومافعل.

هكـذا كانـت الأوضـاع، لكن بعـد مضي يـومين تحسـن، فذهـب إلى أباميـا(١٣)، ثم انه بسبـب الرحلة —كما يبـدو— ومتاعبها، عـاد التورم ثـانيـة، ورجعـت إليـه نـوبـات الآلام، وقـد أمضـى عيـد الفصـح [٩نيسان١١٦٧] في سيليمبريا [سيليفري]، وعندما شعر بالتحسن ذهب إلى فيلبه، وتبـاحث هناك مـع رسل جاءوا مـن عند الهنغار، وعنـدما رأى أنهم لايمتلكـون شيئاً مفيـداً لتقديمـه، سـوى أنهم كانـوا يجهدون بكـل وسيلـة للحصـول على هـدنـة ولتعليـق الحرب، قـام بصرفهـم وإعـادتهم خائبين، غير أنه بعث معهم واحداً من الرومان، ليتقصى حول كالوفيس،

وليهـدد [اسطفان الثـالث] انـه إذا لم يحترم الاتفاقيـة ويحافظ بـاستقامـة عليهـا، سيكون مـن الممكـن رؤيـة الامبراطور والجيـش الـرومـاني ثانيـة، ووصل إلى ساردیکا، وقام هناك بتجميع قواته.

٦- وعندما كان مقيماً هناك وقعت واقعة كانت كما يلي:

كان ألكسيوس الـذي شغل منصب بروتـوستراتور —كما أشير إلى ذلك مراراً من قبـل— يعمل في سبيل ثورة، فـأدين بعدما كشـف أمره، وحلق شعر رأسه، وبعـدما جرى وضعه بين الـرهبان، اقتيد بعيداً إلى واحـد من الأديـرة الجبليـة، التـي انتشرت بـأعـدادٍ كبيرة في جبـل بـابيكيـون Papikion على نهر ستريمون Strymon [ستروما]، وقد أقام هناك بعض الوقت ثم توفي.

لكن لماذا، ولأي سبـب وصل هـذا الانسان إلى هـذا النصيب، دعـونا نوضح ذلك الآن: عنـدما كان قد سافر فيها مضـى إلى كليكية، وذلك إثر تعيينه قـائداً عاماً للحـرب هناك مـن قبل الامبراطور، قصـد السلطان في قونيـة، وكسب بشكل سري صداقتـه، وتباحـث معه حـول أشياء كثيرة في اتجاه القيام باغتصاب العرش، وقد تسلم منـه رسائل، وبعث إليه بأجوبة كتبـت حول اتفـاقيتهما،، وبعد هـذا توجـه إلى كليكية، ثـم عاد لبعـض الوقـت فيها بعد إلى بيـزنطة، وهنـا عندمـا عزم على تـزيين مسكن لـه في الـريـف بمـواد تجميليـة لجدرانـه، لم يصـور على هـذه الجدران المفـاخـر الاغـريقية القـديمـة، كما انه لم يصـور أفعـال الامبراطـور، والأشياء التـي حققهـا في الحروب أو في صيـد الحيوانـات، كما جـرت العـادة بالغـالـب للذين شغلوا مناصب حكومية عالية.

فلقد نـازل [مانـويل] وقاتـل بشكل طبيعـي وحوشـاً كثيرة، بشكل لم نسمـع لـه بنظير بين بني البشر، وخشيـة منـي أن أبتعـد عـن أحكـام المؤرخين، دعوني أذكر فقط بعـض انجازات مانويل وبراعـاته، ففي وقت

كان في حوالي الانقلاب الشتوي، حيث تـراكمت كميات من الثلوج على الأرض، إلى حد لم تكـن فيه الـوديان والشعاب الجبليـة مغطاة فقـط، بل الأجساد كـانت أقرب إلى التجمـد بسبب شدة البرد، وحـدث في الحقيقة أن جميع الحيـوانات التـي لم يتوفـر لها مكان تختبـيء به، أن خـرجت مـن الأماكن الكثيفـة، واندفعت فوق الثلـج على شكل جماعات، ولقد كـانت قطعان من الطيور غير قادرة على استخـدام أجنحتها (لأن الجليد ربط فيها بينها وأمسك بها مثل القيود، مثلما كان مـن الممكن رؤية ذلك في حالات صيد الطيـور) وكذلـك سارت على أقـدامها بـدلاً من أجنحتهـا، وباتـت عرضـة للصيد من قبـل الوحـوش والانسان وذهب الامبراطـور للصيد في إحدى المنـاطق الشرقيـة، التي اسمهـا داماتـريس(١٤) Damatrys

وبينما كان مشغـولاً بنشاطـاته، واجهـه وحش جبلي كبير، ولم يكـن هذا الوحـش أسداً، ولم يكن فهـداً، ذلك أن حجـم الأسد وشكله يمنـع هذا التشبيه، لقـد كانت لـه طبيعة مضاعفـة، فلقد تجمـع فيه كل مـن الفهد والأسـد، وهكذا كـان أسـداً وفهـداً معاً، كـان وحشـاً مخيفـاً فيه صفـات مزيجة، لقد كان مـرعباً في شجاعته، مقداماً في ارعـابه، وكل السمات التي تعود إلى كل من الأسـد والفهد فيه اجتمعت، لقد كان هـذا الوحش على هذه الشـاكلة، وهربت غـالبية الذين كـانوا حول الامبراطور عنـدما رأوه، لأن منظره كان غير محتمل بالنسبة لكثير من النـاس، وعندما بات قريباً، لم يكن هناك مـن أحد للتصدي له، لكـن أثناء فرارهم، سحـب الامبراطور سيفـه الـذي كان مسلحـاً بـه، وانـدفـع نحـو الأمام ليضرب الـوحـش، وأصابـت ضربته مقدمـة رأس الوحش وظلـت ماضية حتـى وصلت إلى الصدر، فهكذا كان الامبراطور في الصيد.

وفي عـودة إلى الموضـــوع الـذي استطــردت منـه، أهمل نقفـــور، هــذه الموضـوعـات، وبـدلاً عـن ذلـك أثبـت شـواهـد تخلّـد أعمال السلطـان العسكريـة، ويجنون صـوّر بشكل علنـي في مسكنه، مـاتوجـب عليه أن

يخفيه في الظـلام، وعلم الامبراطـور بهذا، ومع ذلـك غالبـاً مااستقبلـه في مباحثات خاصـة، وسمع منه نصائحه، وكان راغبـاً في أن يبعده عما كان يسعى إليه، لكن هذا الرجل تمسك بشـدة بخطته، وغالباً ماكان يدعو إلى الاجتماع به رجلاً، من أصل لاتيني، غير أنـه كان ساحراً ومتفوقاً في أعمال الخداع، وكان يتحادث معـه بشكل مكشوف، ويخططان لمؤامـرات مرعبة، وتمركزت المؤامـرات حول كيفية ابقاء الامبراطـور بدون وريث، وقـد اعتاد على أن يتسلـم كثيراً مـن العقـاقير مـن هـذا السـاحـر لتستخـدم لهذه الغايات، ولم يتوقـف هذا التعيس عن ممارسة هذه الأشيـاء، ولذلك لامه الامبراطور مـن جديـد، وبين جنونه، وتظـاهر بالأسـف، غير أنه ظـلّ هو نفسه، لأنـه بعد مضي بعض الـوقت، عاد من جـديد إلى ذلك السـاحر، وأخذ يبحث معه المسألة نفسها.

ثم انـه التقى بقسطنطين دوكاس، الـذي كان نفسـه متزوجاً مـن ابنة أخي الامبراطور(١٥)، فقال:

«سيدي النبيـل، إذا كان يـوافقك أن نتشـارك بهدف واحد، اعلـم أنه مامن أحد سيكون قادراً على قهرنـا»، وطبعاً هو لم يقل هذا بشكل واضح تمامـاً، إنما بشكـل يمكـن فيـه تمييز هـذا واستخـلاصـه منـه، والتقـى كاسيونـوس مرة بألكسيوس، بعدمـا لاحظ أنه أخفق بـدون قصد وانكفأ عندما كـان في حملته في هنغاريا مع بيلا، وشرع في اشـارته فيما يتعلق بهذا الموضوع، وبعد ذلك استقبل ألكسيوس الرجل على انفراد فقال:

«هل تعلـم لماذا أبعدت نفسي كثيراً عن الحروب؟ لأنني أمتلـك شفقة كبيرة على بني البشر»، وعنـدما انتقـده الأخير على هذا القـول، قال بـدون وجـل مـن أي شيء يمكـن أن يحدث: «إن الامبراطور يـرغـب في تـدمير القوات الرومـانية، فقد أمرني أن أنـدفع وأتقدم بقوة في المعـركة، لكن إذا أبقيت ماسمعتـه مني سراً، ستكون صديقـاً لنا»، هكذا قال وأكثـر، لكن

كاسيونوس أخبر الامبراطور بذلك.

لقد كان هذا ماحدث من قبل، لكن ماأوصل الأمور إلى الانشغال الكامل كان شيئاً هو كما يلي:

كانت هناك قوة من الكومان اكتريت للعمل مرتزقة في خدمة الرومان، وقد سببت هذه الفرقة في البداية بعض المشاكل التي تعلقت بالدفع إليها، ثم تمّ ارضاؤها، لكن البروتوستراتور التقى بالكومان سراً، وأقنعهم بالمال بالتظاهر بالعودة إلى أرض آبائهم وانهم عند منتصف الليل، يقومون بمهاجمة خيمة الامبراطور بحشدهم، وينشبون القتال، وكان هذا في الحقيقة ماتقرر وخطط له، غير أن صبياً صغيراً من الذين كانوا يخدمون في خيمته، ذهب بعدما عرف بالمؤامرة مسرعاً إلى الخصي توماس، الذي كان يحظى آنذاك برعاية الامبراطور العالية، وحذره من الخطة، وحمل الخصي الحكاية كلها إلى الامبراطور، ثمّ قدم إليه الطفل، وكان الامبراطور حتى الساعة رافضاً أن يصدق ماقيل له، حتى جاء الفجر، وبدأ الكومان بالانسحاب بدون سبب، واستطاع الامبراطور اقناعهم ببعض الوعود، وعندما نجح في ابقائهم، أرسل بعضاً منهم لاعتقال ألكسيوس بالحال، وبسرعة قصوى بات الشقي سجيناً، ثم أمر الامبراطور بعد ذلك بعض الأعيان بالقدوم إليه، واستدعى جون دوكاس، وميخائيل الذي كان المتحدث باسم [الهيئة؟]، وذلك بالاضافة إلى الخصي توماس، وكذلك نقفور الذي كنيته كاسباكس Kaspax وهو الذي كان قاضي الأحوال السرية، وقد وجهوا إلى ألكسيوس ثلاث تهم، وأمروه بالرد على أية واحدة منها هو قادر أن يدافع فيها عن نفسه، لكنه عندما سمع التهم، أقرّ بجرمه في الجميع، ورجاهم أن ينزلوا به العقوبة الصحيحة التي يستحقها، لكن بعد حلق شعره، وحضوره القداس، أشفق الامبراطور عليه، واكتفى بحلق شعره وجعله راهباً(١٦).

٧- بالنسبة لألكسيوس انتهى مصيره وقدره هنا. وبما أن القوات الهنغارية كانت تعبر باتجاه سيرميون، قام الامبراطور بارسال قوات إلى هناك، كانت تحت امرة عدد من القادة الرومان، وخاصة أندرونيكوس ابن أخي الامبراطور، الذي كان يكنى بـ «كونتوستيفانوس»، وقد سماه الامبراطور قائداً عاماً للأعمال الحربية، وقد تم توجيهه كيف يقوم بصف الرجال، وأين ستكون المعركة، كما لو أن الأمر رسم على صورة، وهكذا قام أندرونيكوس بعدما جاز السافا، وبات قريباً من معسكر الهنغار بالتصرف كما يلي: لقد أدرك أن ارسال جواسيس وكشافة —كما جرت العادة— إلى جيش العدو، لن يكون مجدياً، غير أنه أمر بعض الرومان الذين تقدموا أمام الجيش الروماني أن يحاولوا وهم عائدون جلب عدد من أفراد العدو معهم، وتنفيذاً لأوامره، عادوا ومعهم واحد من الأعداء، وسأله كونتوستيفانوس عن وضع الامدادات لدى الهنغار الذين قدموا إلى سيرميون، وعن خططهم، وأجابه هذا الرجل بصدق وأوضح له كل شيء حيث قال:

«بيننا سبعة وثلاثين قائداً يتولون قيادة هذه القوة، لكن دايونيسيوس له السلطة عليهم جميعاً، وعدد الجيش كله خمسة عشر ألف رجل فيهم فرسان مسلحون، ورماة، وفرسان خفاف، وهم شجعان جداً، يعتقدون أن الرومان لن يستطيعوا الصمود أمام أول حملة لهم.

وعندما سمع أندرونيكوس هذا، ترك الرجل يعود ليروي لدايونيسيوس، أن الامبراطور الذي لم يستطع تحمل الأذى الذي ألحقوه بالرومان، قد تعهد بانزال العقوبة المناسبة بالهنغار بيده، وقاد الجيش الروماني، وهو شاكي السلاح، إلى خارج المعسكر، وجرى صفه كما يلي: أمر الكومان مع معظم القوات التركية وقليل من الفرسان الذين قاتلوا بالرماح، أن يشقوا الطريق، ثم تقوم كل الوحدات الرومانية بالهجوم من على الجناحين، وهي القوات التي كان يقودها كوغ فاسيل وفيلوكالس،

وذلك بالاضافة إلى الـ «تاتيكيوس Tatikios» الذين يلقبون بـ «أسبيتس Aspietes»، وزحف من خلفهم الرجالة وقد اختلط بهم النبالة ووحدة مسلحة من الأتراك، وتقدم خلف هؤلاء، وزحف من على الجناحين جوزف برابنيوس وجورج براناس مع أخيه ديمتريوس، وقسطنطين أسبيتس السيباستوز، ثم تلا هؤلاء أندرونيكوس الذي كنيته لامبارداس Lampardas الذي كان كاتب الامبراطور، و...(١٧)، مع نخبة من القادة الرومان والألمان والأتراك، وزحف وراء هؤلاء القائد أندرونيكوس [كونتوستيفانوس]، ومعه عدد كبير من الرجال الجديرين بالتقدير، الرجال الذين اعتادوا على الانضواء تحت قيادة الامبراطور عندما كان يذهب إلى الحرب.

وايطالين من قوات المرتزقة، وكذلك صربيين، ساروا خلفه، حاملين الرماح وترسة عريضة، وهكذا شرعت صفوف الرومان تأخذ طريقها نحو المعركة، وعندما وصلوا إلى المكان الذي أقام فيه دايونيسيوس النصب التذكاري، ترجلوا من على ظهور خيولهم، وانتحبوا بحرقة، وعاهد أحدهم الآخر، أن كل واحد منهم سوف يموت في سبيل ابن بلده وقرابته.

وعندما علم دايونيسيوس أن الرومان كانوا يقتربون، امتلأ شجاعة، وأمر الهنغار بكل قحة بأن يرفعوا كؤوسهم ويشربوها بصحة الرومان، فرفعوها، وشربوها مسرعين، ثم توجهوا نحو أسلحتهم، وأخذوا صفوفهم حسبما هو معتاد، فقد كان من عادتهم دوماً أن يملأ الرجال النخبة بينهم الصفوف المتقدمة، وكان الامبراطور المدرك لهذا الأمر والعارف له منذ زمن طويل، قد وجّه أندرونيكوس أن تكون صفوفه في الاحتياط، وهكذا عندما باتوا على مقربة من بعضهم بعضاً، أمر أندرونيكوس الوحدات الأمامية أن تطلق نشابها نحو الهنغار، وعندما رآهم الهنغار حملوا عليهم، فقاموا بالفرار، لكن ليس نحو الخلف، إلى الجيش الروماني، بل بالحري

نحو الجناحين، وهكذا انقسموا على كلا الطرفين، وبذلك ترك الهنغار في مكان فارغ في الوسط بين الصفوف المقاتلة، لكن لدى حملتهم على بقية ساقة الرومان جعلتهم يديرون ظهورهم ويهربون بأقصى سرعة حتى وصلوا السافا، وصمد أخيراً اثنتان من الوحدات الرومانية التي كانت على اليسار، وكانتا تحت قيادة كوغ فاسيل وتاتيكيوس، غير أن البقية جرفت جانباً، وقام ديمتريوس براناس، الذي ترك مع ثمانين من أتباعه الذين تفرقوا، بالالتحام مع العدو، وقد سقط هناك بعدما ناضل بشجاعة، ونال ضربة قاتلة على وجهه، وحدث أنه بعدما سقط أن أخذ أسيراً، وحمل إلى المعسكر الهنغاري، أما أخوه جورج، الذي أرعبه تفوقهم العددي، فقد افتقر إلى الشجاعة من أجل الصراع.

وهكذا تحول الجناح الأيسر للجيش الروماني إلى الفرار، لكن الجناح الأيمن قاتل ميسرة الهنغار، وصدّ العدو بشكل واضح نحو الوراء، وعندما لاحظ دايونيسيوس هذا، فكر في مهاجمة الذين كانوا حول القائد أندرونيكوس، وبدأ الخوف على كل حال يستولي على كثير من أتباعه، وهم يقودون خيولهم، ولاحظ دايونيسيوس ذلك. فلامهم لجبنهم، وفي الوقت نفسه، رجاهم بالبقاء هناك، وذلك خشية منه أن يجعلوا خوفهم ظاهراً للرومان، وتفهم أندرونيكوس لامبارداس الذي كان يحدث، وخشية منه أن تقوم الحشود التي مع دايونيسيوس، إذا ماتحولت إلى جهة أخرى، أن تقوم بالانقضاض على القائد أندرونيكوس، لذلك قرر أن عليه الالتحام بدايونيسيوس أولاً، ولدى اصطدامهم ببعضهم بعضاً، ارتفع الضجيج، وسمعت الأصوات في كل مكان بسبب تحطم الرماح على الترسة، وسقوطها على الأرض، ومع أن الصفوف التي كانت تحت إمرة براناس الآخر وجورج جاءت لمساعدة الرومان، فإن هؤلاء الرومان تولاهم الانهاك.

وعندما لاحظ القائد أندرونيكوس هذا، وخشية منه أنه إذا ماانهزم

الذين كانوا مع لامبارداس بشكل حاد، فإن الصراع كله سينصب عليه، لهذا اندفع نحو العدو بشدة، وقام بحملة هائلة، ونتيجة لذلك سقط للوهلة الأولى ثمانون من الرومان، لكن أكثر منهم كان الذين سقطوا من البرابرة، وتمكن الرومان، بفضل شجاعتهم، وثباتهم أثناء القتال، وقدراتهم الخارقة، تمكنوا أخيراً من صدّ العدو، وارغامه على الفرار، ووقعت مذبحة بين صفوف الأعداء، بلغت حداً مخيفاً، لدرجة أن السهول هناك غطيت بجثث القتلى، لأنه عندما انقصفت رماحهم، وتكسرت سيوفهم، حطم الرومان رؤوس هؤلاء الأشقياء بحرابهم، ثم تمّ الاستيلاء على رايتهم، وكانت كبيرة جداً، حملها هؤلاء البرابرة على عربة، كما واستولي على حصان دايونيسيوس مع كامل سلاحه، ونجا هو نفسه من المخاطر بصعوبة، أنا غير قادر على وصفها، أما بالنسبة للبرابرة الذين فروا ووصلوا إلى النهر، فقد تولى أسرهم الاسطول الروماني، وجرى أسر خمسة من كبار قادتهم الذين يدعون «زوبان»، وأخذوا وهم أحياء، ومعهم حوالي ثمانمائة من العساكر، وكان بينهم أعداد كبيرة من النبلاء والرجال الأعيان، وسقط في هذا الصراع عدة آلاف، ولم يكن بين الرومان من لم يكن بطلاً، قام بأعمال مجيدة، لكن تميز بينهم بشكل خاص جون كونتوستيفانوس، وأندرونيكوس لامبارداس.

وعندما اكتمل نجاح الرومان هكذا، وكان الوقت يقارب منتصف الليل، عاد جند الجيش الروماني إلى المعسكر، يقودون معهم الأسرى الهنغار، وجلبوا حوالي الألفين من الدروع، ولم يكن من الممكن احصاء الخوذ والترسة والسيوف التي غنموها، وعسكروا على هذه الصورة تلك الليلة، ثم حملوا أسلحتهم عند اشراق الشمس، وتوجهوا نحو المعسكر الهنغاري، فوجدوه فارغاً من الرجال، لذلك نهبوه وعادوا، وعرفت الحرب ضد الهنغار نهايتها هناك(١٨).

٨- وصرف الامبراطور عنايته إلى أسوار القسطنطينية، التي تدمرت

بفعل الزمـن في كثير من الأجزاء، وعندما عـانت العاصمة مـن قلة المياه، قام بتنظيـف الأقنية بكـل عناية، ولـدى ملاحظتـه أن الأقواس القـديمة التي حملت الأقنية الناقلة للمياه إلى بيزنطـة، قد سقطت منذ زمن طويل، وأنه سيكـون من الصعـب جداً إعـادة بنائهـا، وأن ذلك يحتـاج إلى وقت طويـل، قام بعـدما تفحـص المكان الـذي لم يكن على مسـافة كبيرة مـن بيزنطة، وكـان اسمه بيترا(١٩) Petra ، ببناء خـزانات تحت الأرض، وقـد أقيمت في منخفـض وسـط التلال على كـلا الجانبين، ولهذا كانـت ذات سعة كبيرة، ولـوجود مـآخذ كثيرة لها، وفجـوات فقد تلقـت الميـاه التي نزلـت إليهـا مـن خـلال منحدرات وفتحـات، وكـأنها آلاف الأقنية، ونقلت هذه الميـاه إلى المدينة، بوساطة الطرق العاديـة التي كانت قائمة تحت الأرض.

واجتـث الامبراطور مـن عادات الاتحاد الـرومـاني، واحدة كـانت مـن أكثرهـا ارعابـاً، وهي عـادة تفتقر ولـو إلى القليل مـن الشرعية، فما الـذي كانته هذه العادة؟ هذا ماسوف أرويه الآن:

سببت حـاجة الانسان للبقـاء حياً ابـداع أشياء كثيرة في طرق حيـاته، ولاسيما ارغام الكثيريـن على التخلي عن حريـاتهم وتأجيرها، حتـى بعض الذيـن ولدوا من أسر كـريمة —فكيف بك بـالناس العاديين— خـدموا أجراء لدى الذيـن كانت أوضاعهم أعلى، ومراتبهـم أرفع، فكم هي كثيرة الشرور التي سببها الجشع الانساني؟ وكان الـذين يتسلمون هؤلاء التعساء بعد شرائهم لخدماتهم يعاملونهم معاملـة أشخاص شروهم بالفضة، وكان ايجار اليوم المدفـوع مقابل الاكتراء، يعادل شراء انسـان حر، وبذلـك كان عـلامة على سـوء الحظ، وود الـذين تحملـوا متـاعب هـذه العبـودية لـو يستطيعون رفضها، وعـاملهم الذين اكتروهم وكأنهم عبيـد آبقين، وفرضوا عليهم العقوبات لجرأتهم، ثم كـان الحال مثل حكاية ايسوب Aesop، التي قعـد فيها الأسد مـريضاً في عرينه، ومضـت الحيونات إليـه: وهكذا

مضى في إثر الرجال الأحرار أعداد كبيرة، لكـن الذين خرجوا عبر الطريق نفسـه لم يكونـوا أبـداً، وعلى هـذه الصورة المرعبـة كـانـت هذه العـادة، ورغب الامبراطور في اجتثاثها من وسط الدولـة، لذلك أصدر كتـاباً حرر فيه الـذين كـانوا بشكـل طبيعي أحـراراً، لأنه رغـب في أن يحكم رومـاناً أحراراً، وليس رومانا أسرى.

ورسم الامبراطـور في السنة الخامسـة عشرة لحكمه بـألا يعتدي انسـان على الـديرة في بيـزنطـة، وذلك بـالنسبـة لممتلكـاتها التي بحـوزتها في أي مكان [آذار١١٥٨]، وأكّد هـذه التقدمة بوثيقة، دعيـت بشكل عام لأنها ممهورة بختـم ذهبي بـ "Chrysbull"[الوثيقـة الممهورة بـالذهـــب]، ولهذا السبب مـامن واحـد من الـرهبان يمكـن أن يرى قـابعاً أمـام باب المحكمة، لأنـه لم يعد هنـاك من سبـب يدعـو أحداً مـن رجال الحكـومة للمثول أمام القانون معهم، هكذا باتت الأمور(٢١).

بما أن القانون عـزل عدداً كبيراً من المجموع العام للأيـام، مثل: الأيام التـي يحتفـل بها بـذكـرى تضحيات الـرب وذلـك مـن قبـل المسيحيين، وكذلك الأيـام التي تخلّد الرجـال العظام [أي القديسين]، فقد نتـج عن ذلك أن القضايا القانونية داخل الـدولة بقيت معلقة بدون نهاية، ولذلك رأيت رجالاً أصبحوا شيوخاً دون أن يبت بقضـاياهم، لابل مات بعضهم والقضايا معلقة، غير أن القانون الجديـد [آذار١١٦٦] ألغى هذه الفوضى ونفاهـا من داخـل الدولة الـرومانيـة، لأن المرسوم الامبراطـوري قضى ألا يشغل الاحتفال بـأي عيد كل النهار، وقضى أيضاً بعـدم السماح للقضايا بجرها من يوم ليوم وتأخيرها، وجـرى تحديد الأيام التي يتوقف النظر فيها بالقضايا القانـونية، بالأيام التي جلب فيها الرب شيئـاً نافعاً لبني البشر، وتركت بقية الأيـام كاملة للنظر في الأعمال القانونية، ففـي الأعياد تمّ منع النظر بـالقضايـا صباحـاً، لكن توجـب أن تفتح المحـاكم أبـوابها طوال مابعد الظهر، مع السماح بالدخول إلى كل من أراد(٢٢).

ونقل الامبراطور إلى بيزنطة أيضاً الحجر المقدس، الذي كان منذ وقت طويل مضى في أفسوس [عرب سوس]، ووضعها هناك مع بقية الآثار المقدسة[١١٦٩]، فما هو هذا الحجر، وكيف وصل إلى بلاد أفسوس ومن أين؟ إن هذا ماسوف أحكيه الآن:

لقد كان بالنهاية تضحية المنقذ على الصليب، وعندما تسلمته أمه، مددته منكباً على وجهه، حسبما كانت العادة، وكان ذلك على هذا الحجر، وانكبت فوقه، وندبته بعمق، وهذا كان أمراً معقولاً، ووصلت الدموع التي انحدرت من مآقيها بسبب بكائها، إلى الحجر، وبقيت هناك دون أن تجف، وكان شيئاً اعجازياً، ثم كان —كما قيل— أن أخذت مريم المجدلية الحجر، وأبحرت تريد روما، حتى تلتقي بالقيصر تايبيروس، من أجل أن تتقدم بشكوى ضد بلياط واليهود لأن يسوع قد قتل ظلماً، وعندما توقفت لسبب ما في أفسوس، تركت الحجر هناك، ثم غادرت وذهب إلى روما، ومنذ ذلك الحين إلى الآن والحجر موجود في أفسوس، وعندما حمل من هناك، ووصل إلى منطقة داماليس Damalis للعبور به من هناك إلى القسطنطينية، خرجت مسيرة رائعة من بيزنطة استقبلته، وضمت المسيرة أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وجميع رجال الدين والرهبان، وتقدم قبل ذلك لوقا، الذي أدار الكنيسة، وكذلك الامبراطور، كل على انفراد، دون بقية الرسميين، وقام الامبراطور بالحقيقة برفع الحجر، ووضعه على كتفه، فهو قد اعتاد على التواضع أكثر من اللازم في مثل هذه الحالات وعبر عن تواضع عظيم وتعبد كبير(٢٣).

٩- نجت مصر في تلك الأيام من مخاطر الاحتلال من الرومان، وبرهنت على قدرتها على الاستمرار والبقاء حية، بطريقة أنا مقبل على شرحها: كانت فيما مضى تشكل جزءاً من المملكة الرومانية، وقد زودت هذه المملكة سنوياً بمبالغ ضخمة جداً، وعندما تعرضت آسيا بشكل حاد للغزو، وسيطر عليها العرب آنذاك، تمّ الاستيلاء على مصر، ووقعت

تحت حكم المشارقة، وتطلع الامبراطور بشكل كبير لاعادة السيطرة على مصر، لاسيما بعدما نجح في استرداد كثير من المناطق في الشرق لصالح الرومان، ولهذا الغرض بعث إلى مصر رسلاً، أمرهم أن يذكروا تلك البلاد بعادتها القديمة بدفع الجزية، التي تزن كثيراً، والتي جرت العادة بوصولها إلينا، وإذا مارفضت مصر، فإنه يعدها بأنه قبل مضي وقت طويل ستتعرض للحرب، فلقد كان هذا ماحمله الرسل، ولأن المصريين رفضوا هذا بفعالية، بنى الامبراطور أسطولاً من المراكب، وناقلات الخيول، مع عدد كبير جداً من السفن الحربية، وحمل جيشاً على هذا الأسطول، وأرسل به إلى مصر[١١٦٩]، وتولى قيادة هذه الحملة أندرونيكوس كونتوستيفانوس السالف الذكر، والذي كان قد أصبح منذ زمن الدوق الأعظم [الأميرال العظيم]، وأبحر الأسطول مسرعاً إلى مصر ووصل إلى هناك في أقرب وقت، وبعث إلى فلسطين، فاستدعى الملك الذي كان هناك [عموري الأول] للالتحاق بالرومان والمشاركة في هذا الصراع، حسبما قضت المعاهدة.

وبالنظر لتأخر الملك، وخشية من أندرونيكوس، أن يبدد الوقت هناك بلافائدة، قرر انزال الجيش إلى اليابسة، وقد استطاع بلا جهد الاستيلاء على مدينة تنيس(٢٤) Tenesion ، وقام بغارات نحو الأمام، فاستولى على المنطقة، وعندما وصلت الأخبار باقتراب وصول الملك، نقل ساحة الحرب إلى دمياط، وهي مدينة مليئة بالسكان وغنية جداً، وخاض الرومان هناك معارك مخيفة، لكن بدون نجاح، لسبب أنا مقبل على ذكره:

لقد تمّ الاتفاق بين الامبراطور والفلسطينيين الذين شاركوا في الحملة على مصر، أن يتسلم الرومان نصف حصة من البلاد المستولى عليها، وللفلسطينيين البقية، ولهذا بما أن الرومان وصلوا أولاً إلى مصر، قام الملك فقرر خيانة التأخر عن الحرب، ففي هذا الحال في الوقت الذي يتحمل فيه الرومان جميع المخاطر، يأتي هو بالنهاية، ويصير ممكناً له الاستيلاء

على البلاد بدون جهـد، ولأنه وصل متأخراً، أجّل القتـال بشكل مستمر، ونصح الرومان بفعل ذلك، وفيما كـان الرومان لايهتمون إلاّ قليلاً بكلماته، خـاضــوا يـوميـاً صراعـات بطـوليـة، ولسـتُ على درايــة فيما إذا كـان الفلسطينيـون —كما قلت— قـد رغبوا في أن يتحمـل الرومـان مسؤوليـة المخاطرة، حتى يمكنهم التمتع بـدون جهد بالنصر، أو أنهم كانوا يخشون من استيـلاء الامبراطور بشكل كامـل على مصر ولا يريدون ذلـك، إن هذا مالاأستطيـع قولـه، ويقال إن الذيـن كانوا في داخـل دمياط قـد أفسدوا الملك بالمال، وأقنعوه بفعل ذلك.

ولدى ملاحظة الرومان أنهم غير قادريـن لوحدهم على متابعة الحرب، انسحبوا وعادوا إلى بيـزنطة، وفي الطريق فـاجأتهم عاصفة، ففقـدوا عدداً كبيراً من السفن، وهكـذا حظيت الحملة الرومـانية على مصر بهذه الخاتمة، وخشية من أهـل مصر، أن تأتي حملة رومانيـة ثانية ضدهـم، أرسلوا رسلاً إلى الامبراطور، وأعلنوا عـن موافقتهم على ارسال مبلغ محدد مـن الذهب سنوياً إلى الرومان، ورفض الامبراطور السفـارة، وأعاد الرسل بدون نجاح، ذلك أنه كان عازماً على الاستيلاء على البلاد بأكملها من جديد(٢٥).

١٠- وقدم في الوقـت نفسه ملك فلسطين إلى بيزنطة ليتقـدم بمطالبه إلى الامبراطـور [١١٧١] وحصـل على مـاطلبــه، ووافـق على عـدد مـن الأشياء الكثيرة، بما في ذلك خضوعه للامبراطور حسب شروطه(٢٦).

وأمر في ذلك الـوقت الامبراطور مانويل بـايداع البنادقة الذيـن عاشوا في بيـزنطة وبقيـة الأراضي الـرومانيـة، في السجـن العـام، وأمر بمصـادرة ممتلكاتهم لصالح خزينة الدولة، وذلك لسبب أنا مقبل على حكايته:

قامـت أراضي البنادقـة على الجزء الأقصى مـن خليج يـونيان [البحـر الأدرياتيكـي]، وتمتد بعيداً عـن الساحـل، على شكل حزام بحـري، مثل شاطىء رملي، وغالباً مايتقدم البحـر خلال النهار، مما يجعل الملاحة ممكنة

خلال ذلك الوقت، ثم يتراجع ثانية، جاعلاً الأرخبيل لايمكن عبوره لابالسفن ولامن قبل الناس، وهذه الدولة فاسدة الأخلاق، لاتعرف الخجل ووقحة أكثر من سواها، لأنها مليئة بالبحارة الرعاع(٢٧)، وبما أنها قدمت فيما مضى قوة حليفة إلى الامبراطور ألكسيوس الأول، عندما قام روبرت كويسكارد الواسع الشهرة بالعبور من ايطاليا إلى دورازو [دورس الحالية]، وحاصر ذلك المكان [١٠٨١]، وقد تلقوا مقابل ذلك تعويضات، ولاسيما بمنحهم مساحة محددة في بيزنطة، وهي باتت تعرف بشكل عام باسم الامبولون Embolon [الحي](٢٨)، وكانوا هم دون سواهم من بين الايطاليين الآخرين والتجار البيزنطيين، لايدفعون في حيهم أياً من العشور عن تجارتهم للرومان، وجعلتهم ثرواتهم الهائلة التي حصلوها من ذلك المصدر بسرعة متعجرفين، فقد اعتادوا على معاملة الناس مثل العبيد، ولم يقتصر تصرفهم هذا على العامة، بل تجاوزوا بذلك نحو الذين حازوا على مجد مرتبة سيباستوس، والذين تقدموا نحو أعلى المناصب الرفيعة بين الرومان، فلهؤلاء وجهوا الاهانات.

وغضب الامبراطور جون من هذا السلوك فطردهم من الدولة الرومانية [١١٢٢]، ولذلك رغبوا وتشوقوا للانتقام من الرومان، وبعدما قاموا بإعداد أسطول من سفنهم، أغاروا على الأراضي الرومانية واستولوا على كيوس، ونهبوا جزيرة رودس الشهيرة وكذلك لسبوس Lesbos، وتوقفوا عند الأراضي الفلسطينية، فحاصروا صور واستولوا عليها، وأقنعوا سواهم بالتعاون معهم، ومارسوا حملة من القرصنة في البحر لم تعرف الرحمة على الجنس البشري [١١٢٢-١١٢٥]، ولهذا تقبلهم الامبراطور على أساس الشروط المتقدمة، ثم رقاهم إلى مزيد من المجد والفخار [١١٢٦](٢٩).

إن الرغبة الصادقة التي بدت أنها ناجحة، أمكن للحماقة ازالتها ومحقها، ولهذا وجهوا ضربات قاسية لعدد كبير من أبناء الأسر الذين كان

بعضهم أقـرباء الامبراطور عن طـريق الدم، وقامـوا بشكل عام باهـانتهم بشكل وحشي، حتـى في أيام الامبراطـور مانويـل تابعـوا ذلك ولم يكـونوا أقـل في ممـارسـة الأعمال نفسهـا، واتخذوا لأنفسهـم زوجـات رومـانيـات وسكنوا مثل الـرومان الآخرين في بيـوتهم خارج منطقة السكنى الممنـوحة إليهـم من قبـل الامبراطـور، ولم يستطع الامبراطـور تحمـل هذه الأشيـاء، لـذلك شرع بـايقاع العقـوبـات بهم بسبب أعمالهم السيئـة، ولقد عُـرف البنادقة القدمـاء باسم «البرجوازية» وذلك نقلاً عن اللغـة اللاتينية، ذلك أنهم تعهدوا بالحفاظ على طاعة الرومـان، ماداموا يعيشون بينهـم لأن اسم [برجـوازية أو مـواطنين] يفسر هكذا، وقـد ميز الامبراطـور بين هؤلاء وبين البنادقة الذين جاءوا إلى بيزنطة للعمل بالتجارة.

وقبل مضي وقـت طويل، ثـار البنادقـة ضد اللومبـارد [أي الجنويين]، ذلـك أنهم كانـوا غاضبين منهـم، ولذلـك دمروا بيـوتهم إلى الأساسـات، وألحقـوا بهم أذى كبيراً [١١٧٠]، واستـدعـاهـم الامبراطـور إلى مجلـس القضاء، وقضى عليهـم بإعادة بناء بيوت اللومبـارديين، وأن يعيدوا إليهم على الفور ما أخـذوه منهم، غير أن البنادقة لم يرغبوا في فعـل أي من هذه الأشياء، وهددوا بالحاق الضرر بالرومان، وذكـروه بالذي فعلوه عندما كان الامبراطور جون مـايزال حياً، وعندمـا فهم الامبراطور هذا، قـرر ألاّ يتأخر بالعمل، ولأنـه عزم على أخذهـم في اليوم نفسه ووضعهـم داخل الشبكة، بعث برسائل إلى جميع الأراضي الرومانية، حيـث حدد للذين تولوا الحكم في تلك المقـاطعات الساعـة التي توجـب عليهم فيها إلقـاء القبض على البنـادقة، وهكـذا حدث في وقـت واحـد أن ألقي القبـض على البنادقـة الـذين كـانـوا في بيزنطـة، وكـذلك على الـذيـن انتشروا في أقصى زوايـا الأراضي الرومانية، وقد تلقتهم السجون ومعها الديرة [١٢آذار١١٧١].

وبعـد مضي بعـض الـوقـت، وبما أن السجـون اكتظـت بمثـل هـذه الحشـود، تجرأ البنادقـة (لأنه يبـدو أنه مـامـن شيء أصعب مـن هزيمـة

الناس اليائسين) تجرأوا على عمل مايلي:

بعدما قدم كل واحد نفسه بمثابة ضمانة للامبراطور من أجل الآخر، كانوا قادرين على الخروج من السجون، وكان بينهم رجلاً كان متميزاً من حيث الأسرة ومن حيث الثروة، فابتاع نفسه من الخزينة مقابل مبلغ كبير مع سفينة ذات حجم كبير، لم ينزل مثلها قط في ميناء بيزنطة، ولهذا عهد إليه الامبراطور بالعناية بها، فتآمر مع البنادقة أنهم عندما يصعدون إلى ظهرها، سوف يبحرون بها ليلاً نحو بلادهم، فتوافقوا على هذا الاقتراح، وعندما هبت ريح مناسبة، قفزوا إلى ظهرها، وغادروا هاربين، وما ان علم الرومان بهذا حتى طاردوهم، وباتوا على مقربة منهم في مكان قرب مضيق أبيدوس [الدردنيل]، وهنا عزموا على احراقهم بالنار الاغريقية، لكن بما أن البنادقة كانوا على دراية بطرائق الرومان، فقد قاموا باجراءات جريئة، وذلك بأن نقعوا بعض الأقمشة بالخل، ولفوا بها جميع السفينة، وبما أن الرومان كانوا غير قادرين على النجاح (لأن النار التي قذفت باتجاه المراكب، إما وقعت أبعد مما هو ضروري، أو انها لم تصل إليها، لابل حتى وإن وصلت صدت بوساطة الأقمشة وانطفأت في الماء عندما سقطت) عادوا مخفقين.

وبعدما مضى وقت ليس بطويل على وصول البنادقة إلى بلادهم، بنوا أسطولاً، وقاموا بمقاتلة الرومان [١١٧١-١١٧٢]، وهاجموا أولاً يوريبوس Euripos [أي يوبيا]. لكن عندما صدوا سارعوا إلى جزيرة كيوس، وسبب صدهم أن الامبراطور مركز حاميات من الجند كافية في تلك المدن، ولدى وصولهم إلى كيوس سحبوا سفنهم وربطوها هناك، ثم تقدموا لنهب الموقع، وعلى كل حال لقد واجهوا هناك قوة كانت قد عبرت إلى الجزيرة، لأن الامبراطور كان متوقعاً ماحدث، وعندما وقعت الاشتباكات، فقدوا عدداً كبيراً من رجالهم، وأداروا ظهورهم وتراجعوا نحو سفنهم، وفكر الامبراطور بقهرهم بالقوة، ولذلك خطط لارسال قوة

عسكرية، وبحرية ضدهم، لكن كان هناك واحداً، اسمه هرون، شغل منصب أكولاوثوس Akolouthos [قائد حرس البنادقة]، وكان والحق يقال شخصاً مقامراً ومغامراً، غير أنه كان دوماً معادياً لشؤون الامبراطور، وقد اعتقل مراراً بسبب سوء أفعاله، وأدين لتكريس نفسه لأعمال شيطانية، لكن هذا حدث فيما بعد، عندما تناولت العدالة المجرمين، أما الآن، فإنه بسبب اقدامه على افشاء الخطة إلى دولة البنادقة، جلب الاخفاق لمشروع الامبراطور.

وأبحر الأسطول الروماني ليصل إلى ماليا Malea (وهذا رأس [للبلبونيز] يفصله عن جزيرة كيوس رحلة عدة أيام) ليكمن هناك منتظراً البنادقة، وكان البنادقة يتوقعون أن يتم صدهم ثم طردهم بوساطة الرجالة الرومان الذين —كما قلنا— كمنوا لهم فوق الجزيرة، واشتبكوا معهم من مواقع متفوقة، ثم إنهم بسبب تغلب الرومان عليهم في القتال على الجزيرة، وبذلك عانوا من خسائر عظيمة نزلت بجيشهم، وبسبب أنهم علموا أن الأسطول الروماني كان على الطريق نحوهم، قاموا في آخر النهار بمغادرة الجزيرة، ووصل الأسطول الروماني عند الفجر إلى ليسبوس Lesbos، وعندما سمعوا أخبار ماحدث قاموا بمطاردتهم، غير أن [الأسطول البيزنطي] لم يكن قادراً على تقرير الأمور في معركة تصادمية، لأن العدو تابع فراره ولم يتوقف، وتمكنوا من قهر الكثير من سفنهم الحربية واغراقها مع جميع ملاحيها، لكن البقية وصلت هاربة إلى بلادها وبالنظر لنقص الرجال لديهم، فروا مرعوبين، حيث انه عندما حدث واصطدموا مع جماعة من أهل إبيدامنوس Epidamnos [دورازو] لم يستطيعوا أسر واحد منهم بالقوة(٣٠).

وحصد البنادقة نتيجة تبجحهم ورعونتهم، وأراد الامبراطور أن يسخر من تفريطهم فكتب إليهم كما يلي:

«أظهرت دولتكم منذ زمن بعيد جهالة عظيمة فيما يتعلق بما ينبغي صنعه، لأنكم عندما تقاطرتم من قبل على الأراضي الرومانية بمثابة آفاقين كنتم وقتها، والحق يقال، قد استولى عليكم الفقر، ومع هذا أظهرتم استخفافاً عظيماً نحو [الرومان]، وكانت لديكم مطامح كبيرة لخيانتهم لصالح أعدائهم، ومن فضول القول أن نعدد ونذكر ماهية أوضاعكم الحالية، وتذكروا أنكم قد طردتم بحق وعدل من أراضيهم، وعبثاً فعلتم حين قررتم أن الصراع معهم سيكون على مستوى واحد، فأنتم دولة لاتستحقون من حيث القدم هذا الاسم، ولقد بتم الآن تتمتعون أخيراً ببعض الشهرة، لكن ذلك على حساب الرومان، مع أنكم لاتماثلونهم في القوة، لنتأمل هذا، لقد بتم مضحكة من كل جانب، فكيف حدث هذا؟ إنه لايمكن حتى بالنسبة للنخبة بين الدول، في أي مكان، على الاطلاق، إثارة حرب ضد الرومان دونها عقوبة»، هكذا كتب إليهم الامبراطور، وبهذه الشدة، وبما أنهم كانوا غير قادرين بعد على القتال مع الرومان بوساطة أسطول كبير، قاموا منذ ذلك الحين بالتربص والانتظار، ونشطوا كقراصنة حتى عانوا من ضربة ثانية(٣١).

وهكذا سارت هذه الأمور، وبدأت الأحوال في كليكية تصبح في أوضاع سيئة، لأنه بعدما قضى طوروس أجله [١١٦٨]، استولى أخوه مليح على المنطقة، وبدأ يتصرف بشكل لم يكن أقل سوءاً من أخيه، نحو الرومان، وجرى اختيار ميخائيل برانـاس أولاً حاكماً للكليكيين [حوالي١١٦٠-١١٦١]، ثم جاء بعده أندرونيكوس الذي لقبه يوفوربينوس، وقد ذكرنا من قبل أن كان ابن عم للامبراطور [١١٦٢]، ولكن بما أنه لم يحقق شيئاً يستحق الذكر هناك، فقد باتت أحوال الايزوريين منهارة، ولذلك تتابع الحكام بكثرة، وخلف أحدهم الآخر بالحكم، وكان بينهم قسطنطين، الذي كنيته كالا مانوس، متميزاً، ومع ذلك لم يحقق شيئاً [١١٦٣-١١٦٤ وثانية حوالي ١١٧٣]، وكان

كـالامانـوس بالحقيقـة هو الّـذي أزعـج الأرمن في كثير مـن الطرق، وقـد أصيب بجرح كبير في إحدى المصادمات(٣٢).

وجاء في هذه الآونـة [هنريَ الأسد] دوق السكسون، وهـم شعب كبير العدد ومزدهر، إلى بيزنطة، ومعه حـاشية عظيمة، وذلك من أجل مصالحة ملك ألمانيا [مـع مانويل] (لأن كل واحد منهما حمل شكـوكاً عظيمة تجاه الآخر)، وبعدما أنجز ماجاء منْ أجله، غادر عائداً [١١٧٢](٣٣).

وفي هذه الآونة، تطلع الصربيون نحو الثـورة(٣٤)، وذلك بعدما ضغط عليهم البنـادقة كثيراً في هـذا الاتجاه، وبما أن ستيفن [اسطفـان الثالـث] الذي حكم هنغاريا، قد غادر هذه الحياة [١١٧٢]، فقد أصبحت الأمور هناك مليئـة بالغليـان، وتنبه الامبراطور للمخـاطر، فـذهب إلى سـارديكا، وعندما كان مقيماً هنـاك، راسله الهنغار، وسألوه ارسال بيـلا، ليكون ملكاً عليهم، لأنـه بعدما مـات ستيفن، تطلع معيار العـدالة نحوه، وكـان بيلا قـد أفرد مـن قبـل ليكـون صهراً لـلامبراطـور —كما ذكـرنا في الـروايـات المتقدمة— ولكن بما أن قـانون القرابة كان يمنع ذلـك، فقد تزوج أخت الامبراطـورة، وبناءً عليـه، تمتـع، بعـدما تـمّ إعـلانـه قيصراً، بأعلى رتبـة عرفتهـا بيزنطة آنـذاك، ثم كان بعـدما سماه مـانويل ملكـاً، أن أرسله إلى هنغاريا مع زوجتـه، إنما بعدما تعهد بالأيمان أن يرعـى مادام حياً ويحافظ على كـل مـافيـه فـائدة لـلامبراطـور ولـلرومـان، ورافقـه إلى هنـاك ممثلاً للامبراطـور، ومساعداً لـه في عمله: جون [كـومنينوس] البروتوسيبـاتوس، مع آخرين من الأرستقراطية(٣٥).

وبعـدمـا ثبـت الامبراطـور أركان بيـلا بـالسلطـة، انصرف نحـو دولـة الصرب، وكان متشوقـاً للانتقام منهم بسبب تسرعهـم وحماقتهم، وحدث أمر، أنـا نفسي تتملكني الدهشة نحـوه، هو أن الجيش لم يكن قـد اكتمل اجتماعه، ومـع هذا قام الامبراطور بغـزو تلك البلاد ومعه آلاف قليلـة من

الجنود، على الـرغم من كـون البلاد بـلاد منحدرات وشعاب، وقـد زحف الامبراطور نحـو الأمام ليقـاتل الـزوبان العظيـم، ومع أن هـذا جمع حول نفسه حشوداً هـائلة من القوات الحليفـة من كل جانـب، فقد هرب على الفور، لأن الرعـب استولى على روحه، وأرسل رسلـه إلى الامبراطور، وسأل أن يحظـى بعفو الامبراطـور عن أعمالـه الشريـرة، وعندمـا أخفق في اقنـاع الامبراطور بهذا، سـأل عما إذا كان ممكناً لـه أن ينال اجتماعاً بـالامبراطور، دون أن يلحقه أذى أو ضرر شخصي.

وبنـاءً عليـه، عنـدمـا وافــق الامبراطـور، جـاء واقترب مـن فسطـاط الامبراطـور وهو مكشـوف الـرأس والـذراعين حتى المرفقين، وكـان حـافي القدمين، وقـد ربط حبـلاً حول رقبتـه وحمل سيفاً بيـده، وقدم نفسـه إلى الامبراطـور ليفعـل به مـا يشـاء وليعـاملـه حسبما يـرغب، وعطـف عليـه مانـويل، وألغـى التهم المثارة ضـده، وبعدمـا نجح الامبراطـور على هذه الصورة، غـادر بلاد الصرب، وكان برفقتـه الزوبان العظيـم(٣٦)، وحدث في هـذه الأثنـاء أن ألقـي القبـض على هرون، الـذي ذكـرتـه مـن قبـل، وسملت عيناه للأسباب التي تقدم ذكرها.

١٢- هكذا مضت الأمـور في الغرب، لكن آسيا عانت مـن المصاعب ثانيـة، لأن نور الديـن أتابك حلب، والسلطـان الذي حكم ليكـانيا [أي قلج أرسـلان الثاني صـاحب قونيـة] ومليح مقدم الأرمـن، وحاكـم أنقرة وبقيـة غالشيـا وافقوا على شيء واحـد، وهو القيـام بحملة ضـد الرومـان [١١٧٣](٣٧)، ولهذا زحف الامبراطور مسرعاً مـن الغرب وعسكر في أحد الأماكن حول فيلادلفيا.

وفيما هو مشغول بهذا، جـاء الألمان والبنادقة وحاصروا أنكـونا، بعضهم بالبحـر، والبقية بوسـاطة جيش بري [١١٧٣]، وكـان واحداً من الـرجال بينهم [كرستيـان أوف مينز] الذي حمل رتبة أسقف، هو الـذي تولى قيادة

الألمان، وبعد مضي بعض الوقت على الحصار، نقصت الحاجيات في أنكونا، وبات من المتوقع سقوط المدينة خلال وقت قصير، وعلى كل حال، كان هناك امرأة، ذات أصل ايطالي [ألدرودا فرانجيبين Al-druda Frangipane كونتية بيرتينورو Bertinoro]، وكانت أكرم من أي واحد آخر، ولاسيما الرجال، ونظراً لأنها كانت محرومة من زوجها، فقد حافظت على حياة نقية منذ ذلك الحين فصاعداً، وعندما علمت بحقائق الأمور المتعلقة بأنكونا، وأنها باتت على شفير الهاوية، امتلأت غيرة (لأنها حافظت على صداقتها مع الرومان)، وبادرت مسرعة لمساعدة المدينة من منفذ من داخل ممتلكاتها، وبحكم أنه لم يتوفر لديها مايكفي من ضروريات الحرب، أوقفت أولادها [أي ممتلكاتهم] وبذلك قدمت كميات كبيرة من الذهب، وكتبت إلى أهل المدينة، وقالت إنه ينبغي عليهم أن يحافظوا على شجاعتهم عالية، وألا يتخلوا عن أنفسهم إلى العدو، وعندما علم شعب أنكونا بهذا، ازدادت شجاعتهم وخططوا لمهاجمة الأعداء، وما ان لاحظ الأعداء ذلك حتى بادروا إلى تقليص انتشارهم، وفي الوقت نفسه، قامت بعدما عينت قائدة للمدينة، بتوحيد رجال أنكونا مع جيشها، وعندما تمّ الهجوم، لم يستطع الألمان الصمود أمام المهاجين، فهربوا أمام حشود امرأة وفقدوا العديد من رجالهم، وكاد قائدهم الأسقف أن يقع بالأسر، لولا أنه نال السلامة بالفرار، وما كان منها إثر هذا إلاّ أن تحولت ضد البنادقة، الذين حاصروا المدينة —كما ذكرنا— وهاجموها من جهة البحر، وبعدما تغلبت عليهم بالقتال، عادت إلى المدينة، وهي تهلل باسم الامبراطور العظيم، مع هتافات مديح له(٣٨).

وخطط الامبراطور الذي كان معسكراً —كما ذكرنا— في فيلادلفيا، لايجاد طريقة يتمكن فيها بسهولة من ابعاد البرابرة المذكورين عن بعضهم بعضاً، وفي الحقيقة كتب إلى سلطان قونية، ووبخه لقلة وفائه،

وسأل عن السبب الذي أدى به إلى اعلان الحرب بشكل مفاجيء ضد الرومان، ولقد تعلل بعدد كبير ومتنوع من المعاذير وقال إن خليفتهم(٣٩)، وهو أعلى رجال الدين بينهم، كان غاضباً منه، لأنه وافق على هذا الحد من الصداقة مع الرومان، ولقد كان هذا ماقاله، وقد أعاد الرسول فارغ اليدين، وعندما سمع الامبراطور بهذا، رد على ذلك بارسال سفارة ثانية، وكتب إليه هكذا:

«إذا كان قد بدا لك منذ بعض الوقت الذي مضى أن تتحد مع الآخرين من أتباعك، في سبيل مهاجمة الرومان، تخل عن حماقتك وتسرعك، وأقم حرساً على بلادك، لأن الجيش الروماني سوف يصل إليها خلال خمسة عشر يوماً»، وعندما تسلم السلطان هذه الرسالة، ارتجف قلبه رعباً، وتخلى عن خططه، وبحث في شروط للسلام من أجل المستقبل، وبالنسبة للفئات التركية التي لم يتأكد لديها أمر المؤامرة، انفصلت، لأن شطراً كبيراً منها تخلى عن السلطان والتحق بالامبراطور(٤٠)، ولقد ازدادالامبراطور فخاراً بهذا النصر الذي ناله دون بذل للدماء، وقام إثر ذلك بأخذ طريق العودة إلى القسطنطينية.

وعلم بهذا ملك فلسطين مع أمير أنطاكية، فامتلآ لذلك بالشجاعة، وتحركا ضد برابرة حلب، وألحقا بهم أضراراً بالغة(٤١).

١٣ - وقام الامبراطور في هذه الآونة، فصنف بنفسه الخطاب الذي سيلقيه في المجلس، ولم يصنفه بالتعاون مع العاملين(٤٢)، الذين اعتادوا على املائه وكأنه من عند الامبراطور، وكانت مقاصده عميقة التفكير، انطلقت من روح على درجة عالية من النبل، وقد زود الخطاب بما فيه الكفاية من الأفكار، وجُهز بعدد كبير من الحجج المنطقية، وكانت صياغته نقية، وأسلوبه بسيط، وباختصار لم يكن مزوقاً، بل كان طبيعياً، يعبّر بوضوح عن كاتبه، فلقد كان الامبراطور، كما قلت مراراً، شخصاً

لايمكن مقارنته بأحد في القدرات الطبيعية، فلقد لاحظت أنا شخصياً، عندما ناقشت معه مراراً كتابات أرسطو، أنه تمكن بشكل طبيعي من حل الكثير من المسائل العميقة المختلف حولها، وهذا أمر أعتقد أنه لم يتهيأ مطلقاً، وكان ممكناً لأي واحد آخر، ولقد تمكن ببساطة رائعة من توضيح عدد كبير من النقاط في الكتابات المقدسة، التي بقيت حتى الآن بدون حل، أو أنها لم تفسر تفسيراً صحيحاً، وفي الحقيقة يبدو لي أن كتابة هذه الأشياء هنا، معارض لأحكام التأريخ.

الكتاب السابع

١- لقد كان هـذا ماأنجزه الامبراطور مانويـل حتى الآن في القارتين، وسأقدم فيما يلي تسجيلاً لما حلّ به، عندما كان في حملة في آسيا، ذلك أن قلج أرسـلان، الذي ورد ذكره كثيراً فيما مضـى من روايـات، والذي زوده الامبراطـور بكميات كبيرة مـن المال، حسبما قلـت [كـذا]، قد ارتقـى إلى درجة عالية جـداً من القوة، وكان قادراً على حرمـان عدد كبير من الحكام من إمـاراتهم، لاسيما أنه حجـر على شاهنشاه، الـذي كان أخـوه، وصدرا عن الأصل نفسه، وكان يحكم غانغـرا وأنقره، وهما من مدن غاليشيا، فقد وضعهما تحت سلطته، وبما أنه لم يكن قـادراً على قتله، اضطره للتجول بين جميـع الـدول وبنـي البشر بمشـابهة غـريـب وأجنبـي، كما أنـه لم يُعـد إلى الامبراطـور أياً مـن المدن التي كـان قد استـولى عليها، كما أنـه لم يرغـب بتنفيذ أي من بقية الأشياء، التي كان وافـق عليها فيما مضى، ولقد عامل جميـع الناس بتكبر ورعـونة، ولم يكـن منضبـط الرغبـات، ولدى تفحـص الامبراطـور لهذا وتقديـره له غضـب غضباً شـديـداً، وكان مـزعوجـاً تجاه القضية، لكن بما أنه شغل عن هذه الأشياء بمشاكل الغرب، لم يرغب في اثارة الذين كـانوا في آسيا، وعندما لم تبق هنـاك أية حروب في الغرب، ولم يظهر بالأفق القريب أي شيء من هـذا القبيل، لأنه كان ناجحاً هناك في كل شيء، قام بحشد قوة كافية، وقرر الجواز إلى هناك(١) [آسيا].

وما أن سمع قلج أرسلان بهذا حتى بعـث برسله إلى الامبراطور، معلناً موافقتـه على القيام بتنفيذ مختلـف القضايـا تبعاً لارادته، وطلـب أن تقوم القوات الرومـانية المنوي ارسالها إلى آسيـا، بالعسكرة بالمدن التـي يختارها الامبراطور، وهو سيقـوم شخصياً بالالتحاق بالقوات الـرومانية في الصراع

من أجل هذا المقصد، وبعدما تسلم الامبراطور هذه [الرسالة] بعث ألكسيوس بتراليفاس ومعه جيش وصل تعداده إلى ستة آلاف، وعهد إليه بمبلغ من المال، اعتقد أنه يكفي للانفاق على الحرب، وعلى هذا الأساس انطلق ألكسيوس نحو آسيا، وعندما سمع قلج أرسلان أن الجيش الروماني بات قريباً، أنذر المدن التي مازالت لم تقهر من قبله،وعرض عليها الاستسلام قبل وصول جيش الامبراطور، وادراكاً من هذه المدن أنها لن تستطيع مقاومة كل من الجيشين الروماني والتركي، تخلت بدون رغبة له، وما ان كسب السلطة على هذه المدن، حتى رفض التخلي عن أي منها وتسليمها إلى الرومان.

وكان الامبراطور لهذا السبب مزعوجاً، وعزم على الانطلاق نحو الحرب فوراً، لكن بما أن شؤونه لم تسمح له (لأن ربيع [١١٧٥]، كان قد مرّ، وهو الموسم الموائم بشكل خاص للأعمال العسكرية، وكان قد خطط ليقوم بأشياء متنوعة مفيدة للرومان، وعلى الخصوص بناء مدن حيثما رغب، اضافة إلى المصيصة، وهي مدينة شرقية، كانت تسعى آنذاك للالتحاق به، وكان لهذا سيكون سهلاً للرومان الاستيلاء عليها) لذلك عمل حسبما يلي:

أرسل إلى بافلاغونيا ميخائيل الذي كانت كنيته غابراس، وهو رجل —كما قلت مراراً— قد ارتقى إلى مرتبة سيباستوي، وكان خبيراً ممتازاً بالأعمال العسكرية، وأخذ معه شطراً من جيش، وكانت البقية سيتم حشدها من قرى قامت هناك حول طرابزون وأوينانيون Oinaion ، ومدن بنطش، وبعدما قام بجمعها، أمره [مانويل] بالسير إلى المصيصة.

وحدث في الوقت نفسه حادث كان كما يلي: كان لجون كانتاكوزينوس —الذي تحدثنا عنه مراراً في الروايات المتقدمة— ولد اسمه مانويل، بهي الطلعة وسيماً، وكان متفوقاً بالقوة على جميع قرنائه وأتباعه(٢)، وقد

تورط في أعمال ممنوعـة [أي خيانية]، ولهذا وجه إليه الامبراطـور في البداية النصيحة، محاولاً منعه من التورط بمثل هـذه الأشياء، ولكن عندما تمسك بتهوره، دون أن يكبـح نفسه، أمـر به الامبراطـور إلى السجن، وقـد حدث [أمـر ما] هـو طبيعي بـالنسبـة لبعض الـذيـن في وظائف عليـا، (عندمـا يحاولـون في كثير من الحالات جـذب انتبـاه الامبراطـور لهم ونيل عطفـه)، فعندمـا وصل إلى السجـن حرموا الفتـى من عينيـه، وذلك خـلافاً لارادة الامبراطور، وعنـدما سمـع الامبراطور بهذا، غضـب كثيراً، وأقسم أن هـذا اقترف بحق الفتى دون معرفته، ومع هـذا فقد تحمل الآلام، لأنه لم يعرف كيف يمكنه تسويغ معاقبة الذين فعلوا ذلك.

٢- وكنا قـد ذكرنـا أنه قد بعـث ميخائيـل [غابـراس] إلى المصيصة، وقـام هو نفسـه بجواز مضيـق داماليـس [البـوسفور]، وتـوجه مبـاشرة إلى ميلانغيا Melangeia [١١٧٥]، وبعدمـا قام بحشد قـوة كافيـــة من بيثينا والريندا كوس Rhyndakos ، توجه إلى سهول دوريليون Dor-ylaion ، بهدف شحن الحصون الـرومانية هناك بـالمؤن، مادام السلام مازال قائماً، وأيضـاً بهدف تشجيع الذين كـانوا معادين للسلطـان، وكان هذا هاماً بالنسبة له، وذلك بالاضافة إلى إعادة بناء دوريليون.

وكانـت دوريليون فيما مضـى مدينـة عظيمة مثـل أي مدينـة في آسيا، وتستحق اهتمامـاً كبيراً، فقد كـانت تهب عليهـا نسمات لطيفة، وامتـدت السهول حـولها، وكانت نـاعمة جداً، وتقدم منظـراً على درجة عاليـة من الجمال، وكـانـت هـذه السهـول خصبة جـداً تنتـج كثيراً مـن الأعشـاب وتعطـي قمحـاً رائعاً، وكـان هنـاك نهر، جميـلاً أن تراه، حلـواً أن تتـذوق مياهه، يجري في وسطهـا، وفيه كميات هائلة من الأسماك التـي تسبح فيه هنـاك، ويصطاد السكـان الكثير الكثير ولايعانـون مـن النقص، وكـان في هذه المدينة أبنيـة جميلة بُنيت في أيام القياصرة المتقـدمين من الميليسينوي Melissenoi ، كما وكان هناك قـرى مكتظة بالسكان وينـابيع دافئة،

وحمامات ذوات أعمـدة وقناطـر، مما يحقق البهجـة ويجلبها للنـاس، وكان بالعـادة أن يعطي المكان وفرة من المنتوجات، لكـن عندما وصـل هجوم الأتـراك على الأراضي الـرومـانيـة ذروته، هـدمـوا المدينـة ودمـروا حتـى الأساسات، وجعلـوها خالية مـن السكان، وباد هناك كـل شيء، ولم يبق هناك أدنى أثر من عظمتها الماضية، هكذا كانت هذه المدينة(٣).

وكان في تلك الآونـة حوالي الألفين من الأتراك المتجـولين، معسكرين حسب عوائدهم حولها، وبعدما قـام الامبراطور بطردهم من هناك، وضع حاجـزاً أحاط بـالمكان ليس بعيـداً عن المدينة، وأعـدّ العدّة لبنـاء أسوار هناك، وهكذا بُنيت المدينة بسرعة، ممثلـة في داخلها خطة المدينة القديمة، مع سور يحيط بها، وله أبعاد متساوية مـن كل جانب، ولم تكن بعيدة عن رابية اصطناعية شيدت فيما مضى لبنـاء قلعة عليها، واعتاد الامبراطور أن يخرج يومياً من هنـاك مع عـدد قليل مـن الرجـال، ويكمن، ويفـاجيء الأتراك وجهـاً لوجه وبـذلك قتل عدداً كبيراً منهـم، لابل حتى إنـه قتل بعـض الشخصيات البـارزة بينهم، لأن كثيراً مـن الأتراك لم يتـوقفوا عـن القدوم من المنـاطق الداخلية، والتهـور بالغارة بقصد اعـاقة أعمال البناء، ثم قام الامبراطـور أيضاً بارسال شـاهنشاه، الذي سلف لي ذكـره، والذي جـاء فيما مضى بمثـابة لاجـيء إلى الامبراطـور، لقد بعـث به إلى مـاوراء أراضي قونية، وذلك بعـدما زوده بالمال، ورافقه أيضاً جيش عنـدما ركب الطريـق إلى بافلاغونيـا، ولكنه لم يذهب بعيـداً، لأنه اصطدم بقوة تـركية كانـت تنتظره، قتلت كثيراً مـن الرومان الذيـن كانوا معـه وحصلت على غنائم كـافية،ونجا شاهنشـاه بكل صعوبـة، وعاد إلى الامبراطور مرعـوباً، وهكذا انتهت أعمال هذا الـرجل دوماً بنهاية سيئة، فهذا مـاكان قد صنع في دوريليون.

ووصـل ميخائيـل غـابراس مـع جيشـه إلى المصيصـة، ووجهت إليـه الدعوة من قبل الذين كانـت المدينة في أيديهم للدخول إليها مباشرة(٤)،

ونظراً لوجود قوة أخرى بعث بها قلج أرسلان للغرض نفسه كانت معسكرة هناك ليس بعيداً عن المدينة، أعوزته الشجاعة للدخول، ذلك أنه حمل في نفسه ريبة عظيمة نحو الذين كانوا بالداخل، وكان يخشى أنهم يخططون لمؤامرة ضده، ولهذه الأسباب أرسلوا رهائن إليه، وقدموا عن طواعية القلعة إلى الرومان، لكن بعض الخوف استولى على الرجل فجأة، مما دفعه إلى الانسحاب لعذر أو آخر، حتى ان الذين كانوا في المدينة باتوا يخشون أنه عندما سيتولى قلج أرسلان على المدينة، بسبب تأخر الرومان وتقاعسهم الطويل، سيصبحون في وضع يكرهون فيه بشكل دائم سيدهم المستقبلي، وقاموا، بدون معرفة من حاكمهم، بالتخلي عن المدينة إلى الأتراك، وانطلق ميخائيل من هناك وعاد إلى الأراضي الرومانية، دون أن يتذكر الرومان، الذين —كما قلنا— كانوا في القلعة، أو يتذكر سواهم من الآخرين.

وانتهت على هذه الصورة الأعمال في المصيصة، وعندما علم الامبراطور —الذي كان مايزال مقيماً حول دوريليون— بما حدث، بعث بالخصي توماس إلى قلج أرسلان، وقد ضغط عليه بطلبه إعادة المصيصة، واتهمه بإهمال أيمانه، وهدده أنه إذا لم يتوقف عن إلحاق الأذى بهذه الطريقة بالرومان، لسوف يعاني بعد وقت ليس بالطويل من انتقام عادل، لكن من كان توماس هذا، إن هذا ما سأوضحه فيما يلي:

لقد ولد في جزيرة ليسبوس Lesbos ، وجاء من أسرة مغمورة، وبالنظر إلى أن لديه صنعة جديرة بالتقدير، فقد ذهب إلى بيزنطة، وأخذ يمارس صنعة قطع عروق الناس [حجام]، وبذلك كسب نفقات معيشته، ولكن يبدو أن مامن شيء على الاطلاق لن يكون مفيداً عندما يكون الحظ مواتياً، فصحيح أن توماس مارس أدنى الحرف مكانة، لكن ببراعته أصبح عظيماً مثل أي رجل آخر في البلاط الامبراطوري، وبعدما حصل على مبلغ كبير من المال في وقت قصير، غادر بعد مضي

عـدة سنوات هـارباً إلى فلسطين مـع أموالـه، لكن بما أن الأمـور لم تمض هناك بما يتـوافق مـع رغباتـه، عاد ثـانية إلى الامبراطـور. إنما بعدمـا لاقى العطف منه والرعـاية، برهن فيما بعد أنه غير مُرض، ولهذا ألقي بالسجن في القصر، وهو السجـن الذي يعرف بـاسم الفيلي [أي العاجـي]، وهناك أمضى بقية حيـاته، لكن هذا حـدث له فيما بعد، المهم أنـه ذهب آنذاك إلى السلطـان —كما قلنا—، وبما أنـه لم يمتلك الـرغبـة في تنفيذ أي مـن هذه الأشياء التـي جاء من أجلها، فقـد عاد فارغ اليديـن إلى الامبراطور، وكاد في ذلك الوقت أن يتمكن الأتراك الـذين تربصوا له على الطريق أن يقتلوه(٥).

٣- وتمكن الامبراطـور في مدة أربعين يوماً مـن تشييد المدينة، وبعـدما أحـاطهـا بخندق أسكـن فيهـا كثيراً مـن الرومـان، وتـرك حـامية كـافيـة لحمايتها، غادرهـا وعسكر في منطقة حول ريندا كوس، وبعـد توقف قصير هناك، قـاد جيشه وتقدم نحـو الأمام، وعندمـا لاحظ أن عدداً قليـلاً بقي برفقتـه (لأن الجزء الأعظم من الوحـدات العسكرية قد ذهـب إلى بلاده، دون أن يعلم بذلـك، مع أنه كان من قبـل قد أعطى أوامر مـؤكدة بعدم مغادرة أي واحـد من ذلك الجيش) أرسـل رجلاً اسمه ميخائيـل، وكان من أصل بربـري (في الحقيقة كان اسمه السالف اسحـق)(٦) من الذين خدموا في حـواشي بيته، أرسله لإنزال عقـوبات جسدية ببعـض الفارين من الجنـد، وقام الامبراطور شخصياً بـالمرور خلال السهول التـي تقود إلى لامب Lampe [في فريجيـا](٧)، وأعاد بناء إحدى القـلاع (وكان اسمها سـوبلايـون Soublaion)(٨)، وقد أقيمـــت في مكان حـول ينابيع ميانـدر، وكانت قـد سقطت بفعل الأيام، ومـن هناك شرع الامبراطور بالاشتباك مع الأعداء، لكن ليـس بالطريقة التي اعتادها، بل ثار واندفع بشكل لايقاوم مثل النار أو الماء.

وبينما الامبراطور مشغـول بهذه الأعمال، كان ميخـائيل المذكـور أعلاه،

يحمل حقداً دفيناً ضد الرومان منذ زمن طويل مضى، لذلك اتخذ غضب الامبراطور عذراً له، فكان يمدّ على الأرض كل من التقاه، ويجعله ينكب على وجهه، ثم يقوم بدون استجواب بغرس الحديد في عينيه، ويتركه هناك تعيساً، لايفقه حتى لماذا أنزل به البلاء، وكان بعض الذين ابتلوا في بعض الأحيان ليسوا حتى أعضاء في الجيش، بل فلاحين، أو عاملين بالتجارة أو أنواع أخرى من الناس، وقد انتقل إلى أماكن أخرى، وشوه أجساد أعداد كبيرة من الرجال، واستمر هذا حتى علم الامبراطور بالذي كان يحدث (لأنه كان قد أكمل بنجاح الأعمال بالحصن، وعاد إلى بيزنطة) فأوقفه وأوقف أعمال انتقامه، لابل أكثر من ذلك كاد أن يتعرض إلى نوع الجزاء نفسه، لكن الامبراطور قدّر أنه لن يتجرأ ثانية على إنزال مثل هذه الأشياء ثانية بالرومان، لذلك عفا عنه، وحرره من التهم الموجهة إليه، وعلى كل حال لم يمض وقت طويل على هذا، حتى تناولته العدالة، وأزالته من بين الجنس البشري، وأنزلت بأولاده سوء المصير.

ثم استدعى الامبراطور ميخائيل غابراس للمحاكمة، وعندما أدانه (لأنه رسم أنه من الممكن انزال عقوبات به وفقاً لارادته) وضع الأغلال في قدميه مع الحديد، وألقاه لبعض الوقت في واحد من سجون القصر، لكنه استدعاه بعد ذلك وأعاد إليه اعتباره ثانية مع رتبته السالفة.

وعندما علم قلج أرسلان بهجوم الامبراطور (لأن ماحدث حول دوريليون أثر بشكل حاد على معنوياته) أرسل إلى بيزنطة واحداً من ذوي النفوذ العظيم في بلاطه وكان اسمه غفراس(٩)، ليتقدم بالرجاء إلى الامبراطور علّه يرضى بأخذ أي من القلاع تبدو مرضية له، ومن ثم يقلع عن غضبه عليه [السلطان]، ومهما يكن من أمر، رفض الامبراطور هذه الرسالة، وأعاد غفراس، وحشد عساكر كثيرة جداً من الصرب والهنغار، واستعد بكل عناية للحرب، وخشية منه أن يحتاج الجند والخيول إلى ضروريات الحياة، جرى سوق عدد من الثيران من القرى في تراقية، وكان

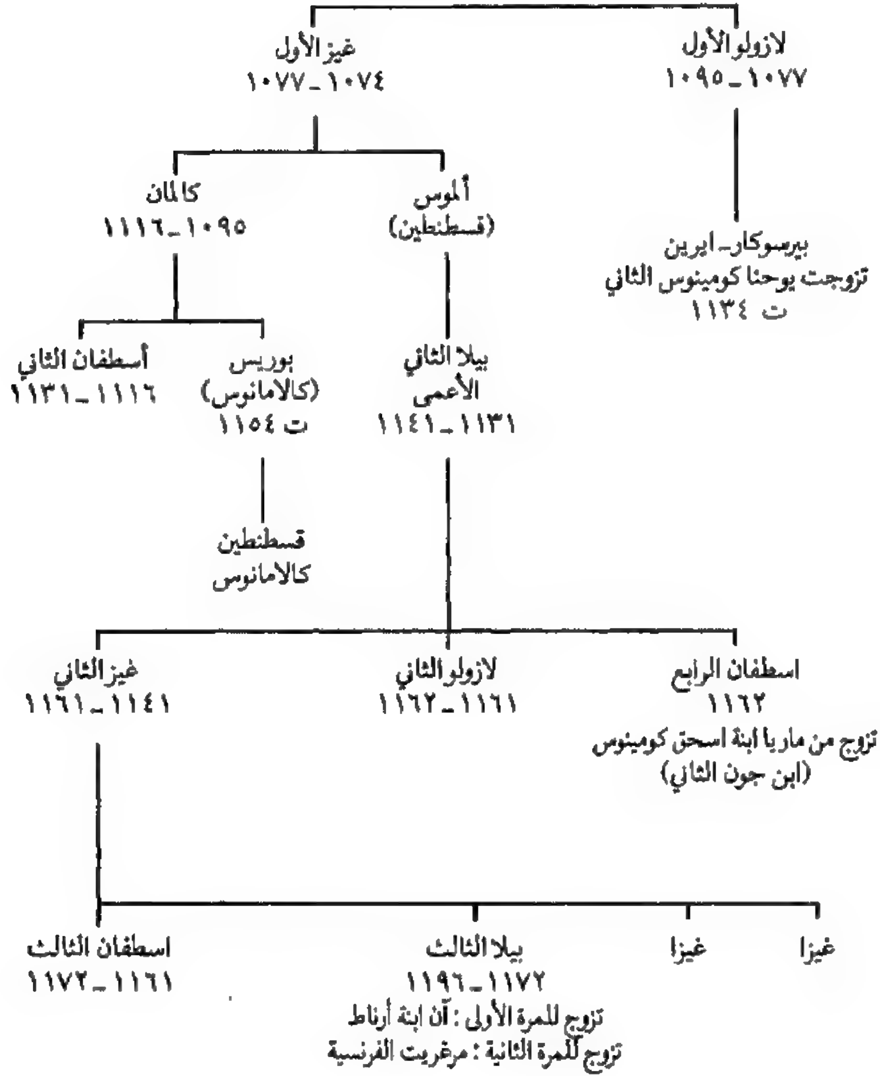
هناك مايزيد على ثلاثة آلاف عربة.

وعندما ظهر ربيع [١١٧٦] جاز إلى آسيا، وحسبما جرت العادة حشد عساكره عند ريندكوس Rhyndakosولم يصل الحلفاء من الهنغار والصرب —الذين كانوا رعايا للرومان— في اللحظة المناسبة، مما سبب قيامه بالحملة في موسم الصيف، ولذلك السبب بالذات واجهت أموره الدمار: ففي الأمور العسكرية والنشاطات الحربية، التوقيت هو الأكثر أهمية من أي شيء آخر، وهكذا سار الامبراطور خلال لوديكيا والمناطق المجاورة لمياندر، واضعاً بذهنه العسكرة والاستقرار مع القوات جميعها من أجل حصار قونية، وبما أن نو—قيسارية كانت تسعى للانضمام إليه، فقد بعث بابن أخته أندرونيكوس باتاتزس Batatzes إليها مع جيش، على أن يرتحل من خلال مناطق بافلاغونيا، وكان مانويل قد قام قبل مغادرته بيزنطة بارسال أسطول قوامه مائة وخمسين سفينة إلى مصر، وذلك بالوقت الذي كان ذاهباً به مع القوات جميعها للحرب ضد قلج أرسلان(١٠)، ولهذا السبب افتقر إلى مايكفي من قوات [للحملة] ضد مصر...

[انقطع النص هنا، فخلال زحفه نحو قونية، انهزم مانويل في ١٧-أيلول ١١٧٦ هزيمة ساحقة، وسحق جيشه إلى أبعد الحدود في معركة ميريوكيفالون Myriokephalon . ثم كان أن توفي عام١١٨٠].

الملحق الأول

شجرة نسب ملوك هنغاريا



8. Ibid., 221–27 (esp. 224): Soublaion allegedly derives from ancient Siblianoi, and is also called by the Byzantines Choma (Nicetas, *Hist.*, 231), hence is equivalent to modern Homa, northwest of Dinar.

9. Bryer, "Gabrades," 180 (No. 9).

10. Chalandon, II, 504–07, 550. No Byzantine attack was made on Egypt at this time; the attack on Nea Kaisareia by Andronicus Batatzes and the Dānishmendid Dhū-n-Nūn failed, because of disagreement of the two commanders, and Batatzes was slain. On the route Manuel followed in 1176, and the location of Myriokephalon, see W. M. Ramsay, "Preliminary Report to the Wilson Trustees on Exploration in Phrygia and Lycaonia," *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire,* ed. W. M. Ramsay (Aberdeen, 1906), 235–38.

36. Jireček, *Serben*, I, 261–62.

37. The ruler of Ankyra and Galatia at this time was probably Shāhan-Shāh, restored by pressure of Nūr-ad-Dīn on Kilidj Arslan. The latter was compelled to yield to Nūr-ad-Dīn in 1173, and restore the Dānishmendid heir to Sebasteia/Sivas. The alliance was destroyed by the deaths of Nūr-ad-Dīn and Mleh in 1174, which left Kilidj Arslan free to expand his realm at the expense of lesser princes: Chalandon, II, 494–98, 501; Gibb, "Nūr-ad-Dīn," 527; Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 678–79.

38. Chalandon, II, 597; Lamma, *Comneni e Staufer*, II, 244–53; Paolo Lamma, *Oriente e occidente nell' alto medioevo*, Medioevo e umanesimo, 5 (Padua, 1968), 383–94; Peter Schreiner, "Der Dux von Dalmatien und die Belagerung Anconas im Jahre 1173. Zur Italien- und Balkanpolitik Manuels I.," *Byzantion*, 41 (1971), 285–311 (includes German translations of this passage and of Nicetas' account of the siege).

39. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 339.

40. At the death of Nūr-ad-Dīn, 1174, Shāhan-Shāh and the Dānishmendid heir, Dhū-n-Nūn, fled to Manuel: Chalandon, II, 498.

41. Baldwin, "Latin States," 561.

42. The *a secretis* were notaries; the *protoasecretis*, probably referred to here, was director of the imperial chancery: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 167.

BOOK VII

1. Late 1174 or early 1175: Chalandon, II, 502.

2. Nicol, *Kantakouzenos*, 4–5 (Nos. 2 and 3).

3. Ramsay, *Historical Geography*, 212–213 (he considers the fish inedible); Vryonis, *Asia Minor*, 123, 153 (with a translation of this passage). The caesar in question must have been Nicephorus Melissenos, who received his title at the outset of Alexius I's reign. P. Wirth, "Kaiser Manuel I. Komnenos und die Ostgrenze. Rückeroberung und Wiederaufbau der Festung Dorylaion," *Byzantinische Zeitschrift*, 55 (1962), 21–29, compares the accounts of Kinnamos, Nicetas, Eustathius (in an unpublished oration), and Euthymius Malakes on this event.

4. Chalandon, II, 502–03, suggests that partisans of Shāhan-Shāh held the town, and that the latter had been sent from Dorylaion to join the Byzantine expedition.

5. Ibid., 502–04.

6. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 140.

7. Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, 227–28: the plains are between the upper Büyükmenderes and the Acigöl; the modern place-name Lappa, mentioned by Ramsay, is no longer found on maps.

NOTES TO BOOK VI

24. Perhaps Tinnis, a mistake for Pelusium (modern al-Faramā'), captured at this time.

25. While this account makes numerous factual errors and distortions, it vividly reflects the hostility which sprang up between the Palestinian and Byzantine commanders during this expedition: Chalandon, II, 536–45; Baldwin, "Latin States," 556–58.

26. Chalandon, II, 546–50; Baldwin, "Latin States," 558–60.

27. Libanius, *Or.* XI, 38 (ed. R. Foerster, I, 449). Except in the northern Adriatic, tides are unknown in the Mediterranean and, evidently, were unfamiliar to Kinnamos.

28. Horatio F. Brown, "The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century," *Journal of Hellenic Studies*, 40 (1920), 75, says, "An *Embolum*, it seems, was a place where merchants stored and sold their goods and generally transacted business. . . . It was a building with an open loggia running round it and was of the nature of an Exchange-house rather than of a bazaar. But the word *Embolum* soon acquired a secondary and wider meaning and came to be applied to the whole quarter; '*In Embolo Peramatis*' means in the quarter and district of the Ferry. We find the word *Embolani* signifying the Pisans dwelling in the Pisan Quarter."

29. Chalandon, II, 156–58.

30. The text of this sentence is corrupt; the translation is based on the suggestions in the editor's notes.

31. Chalandon, II, 582, 584–91; H. Kretschmayr, *Geschichte von Venedig*, Allgemeine Staatengeschichte, Abt. 1, No. 35, Vol. I (Gotha, 1905; repr. Aalen, 1964), 254–62. The "second blow" was perhaps the Venetians' defeat at Ancona (Kinnamos, 289).

32. In 1173, Mleh seized Tarsus, Adana, and Mopsuestia from the Byzantines, and captured Constantine Kalamanos, then in his second term as governor: Chalandon, II, 526, n. 2, 531–33; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 642–43. Mleh was murdered by his soldiers in 1174.

33. Chalandon, II, 596.

34. Stephen Nemanja had been grand župan since 1168, and eagerly attacked Byzantine Dalmatia: Jireček, *Serben*, I, 258–61.

35. The real reason for the termination of Béla's engagement to Maria Porphyrogenita was the birth of Manuel's son, who was proclaimed co-emperor in 1172. Béla's bride was Anne, daughter of Reginald of Châtillon, and thus half-sister to the empress. A Byzantine army assisted Béla III to obtain his throne: Chalandon, II, 491–92.

NOTES TO BOOK VI

12. Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

13. Janin, *Constantinople byzantine*, 443: Aphameia or Apameia, a village with an imperial villa, northwest of Hebdomon and north of San Stefano/Yesilkoi, perhaps modern Bosnaviran.

14. Ibid., 496: Samandira and adjacent Alemdaği, ca. 16 miles east of Üsküdar.

15. Polemis, *Doukai*, 192–93 (No. 226): Constantine Doukas or Makrodoukas, who later figured prominently in the reign of Andronicus I.

16. Chalandon, II, 219–20; Nicetas, *Hist.*, 187–88, maintains that the accusation against the protostrator was false, the work of hostile courtiers. He names Isaac Aaron as his chief opponent.

17. According to Babos, *Adalékok*, 13, MS *Vat. gr.* 163 leaves a short gap here; the editor, Meineke, suggests that the name of John Kontostephanos (see below) has dropped out of the text.

18. This battle occurred on 8 July 1167; Chalandon, II, 488–90; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 85–89.

19. Janin, *Constantinople byzantine*, 215, 465, is unable to offer an exact identification, but suggests the vicinity of Eyüp. Eustathius of Thessalonica addressed an oration to Manuel on the water shortage in Constantinople, ed. W. Regel, *Fontes* (see Introduction, n. 43, above), I, 126–31; the editor (xvi–xvii) dates the shortage to the winter of 1168 and Manuel's construction to 1169, but on what grounds are unclear. The oration was definitely prior to 1174, when Eustathius was appointed to the see of Myra.

20. Chalandon, II, 611–12; Franz Dölger, *Regesten der Kaiserurkunden des oströmischen Reiches von 565–1453*, Corpus der griechischen Urkunden des Mittelalters und der neueren Zeit, Reihe A, Abt. I, Teil 2 (Munich, 1925), No. 1476 (dated shortly after 8 July 1167, solely on the basis of its position in the text of Kinnamos; Kinnamos, however, is here giving a non-chronological review of some important civil acts of the emperor); A. P. Kazhdan, "Odin netochno istolkovannyĭ passazh v 'Istorii' Ioanna Kinnama," *Revue des Etudes Sud-Est Européenes*, 7 (1969), 469–73.

21. J. and P. Zepos, ed., *Jus graecoromanum*, I (Athens, 1931), 381–85; Dölger, *Regesten*, No. 1419; N. Svoronos, "Les Privilèges de l'Eglise à l'époque des Comnènes: Un Rescrit inédit de Manuel I[er] Comnène," Centre de recherche d'histoire et civilisation byzantines, *Travaux et mémoires*, 1 (1965), 330–33 (No. 4 of his series), 375–76.

22. Zepos, *Jus*, I, 397–402; Dölger, *Regesten*, No. 1466.

23. Chalandon, II, 204 and n. 2; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 662; Janin, *Les Eglises et les monastères*, 530.

the walls of Zeugminon/Zemun. On the other hand, the discontinuity may be the result of the author's haste, evident in this rather disordered section of his history.

47. Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

48. Polemis, *Doukai*, 190 (No. 220), as a "Doukas of unknown family background." He suggests he may be Andronicus Doukas Angelus, father of Isaac II and Alexius III (p. 86, his No. 39), but this person would in 1165 have been rather elderly to be behaving in so impetuous a fashion.

49. See Kinnamos, 107.

50. Chalandon, II, 484–85.

BOOK VI

1. Chalandon, II, 221, 526, n. 2, 529–30.

2. Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, 228 and n. 4.

3. John 14:28.

4. Euthymius Malakes, metropolitan of Neai Patrai, was a prominent theologian and author of the second half of the century; see his writings, Τὰ σωζόμενα, ed. Konstantinos G. Mpones [Bonis], 2 vols. (Athens, 1937–49).

5. The synodal decision came in 1166: Jean Gouillard, ed. and trans., "Le Synodikon de l'Orthodoxie," Centre de recherche d'histoire et civilisation byzantines, *Travaux et mémoires*, 2 (1967), 75–77; Chalandon, II, 564, 644–51; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 58, 622–23; the inscribed stones from Hagia Sophia have been recovered: C. Mango, "The Conciliar Edict of 1166," *Dumbarton Oaks Papers*, 17 (1963), 315–30.

6. Alexius II (emperor, 1180–83) was born 14 September 1169; Peter Wirth, "Wann wurde Kaiser Alexios II. Komnenos geboren?" *Byzantinische Zeitschrift*, 49 (1956), 65–67.

7. This revival of the debate, and the condemnation of John (Constantine) of Kerkyra and Eirenikos, occurred in 1169–71, under Patriarch Michael of Anchialos (1169–77): Gouillard, "Synodikon," 77–81; Chalandon, II, 651–52; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 623, 627.

8. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 118.

9. Chalandon, II, 486–87.

10. Ibid., 487; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 83–85. These campaigns are analyzed in Năsturel, "Valaques" (see above, Book III, n. 8), 177–86.

11. I.e., accept Manuel as emperor. The year 1166 marked the peak of Manuel's negotiations for the western throne (see Kinnamos, 218–20); one of the causes of their collapse was, as Kinnamos notes below, Manuel's refusal to reside in Rome.

NOTES TO BOOK V

32. Probably a reference to Alexander III's flight from Rome to France, 1162; even in 1167, Frederick was able to occupy only the Leonine section of the city.

33. Ottaviano, anti-pope as Victor IV, 1159–64; Alexander III was pope from 1159 to 1181. On this conflict and on Manuel's role in the subvention of the Lombard League, see Chalandon, II, 572; Balzani, "Barbarossa and the Lombard League," 430–47.

34. Guardian and doorkeeper of the palace: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 355.

35. Rostislav I Mstislavič, grand prince of Kiev, 1158–67; Primislav or Pervoslav is unidentified, but perhaps was prince of Volynia: Chalandon, II, 482; Vernadsky, *Kievan Russia* (see above, Book III, n. 27), 219–20.

36. This would seem to be a scribal error for Iaroslav.

37. This appears to be an accidental repetition of the previous reference to Rostislav; Kinnamos is not very well-informed on Russian affairs. The MS gives "Kiama" as the name of the city, but this is considered to be an error by Kinnamos or the scribe for "Kioba," i.e., Kiev.

38. Henry Jasomirgott, who was from 1156 duke of Austria; he had married Manuel's niece Theodora (daughter of Manuel's brother Andronicus) in 1148, at the time of Conrad III's residence in Constantinople during the Second Crusade.

39. Vladislav is unidentified; George might be George (or Iuri) Dolgoruky, prince of Suzdal and grand prince of Kiev, 1155–57: Chalandon, II, 482, n. 4.

40. Theodora, daughter of Manuel's brother Isaac.

41. After the capture of Reginald of Châtillon (1160), the people of Antioch had turned to Baldwin III, who assumed guardianship of the principality. In 1163, after Baldwin's death, the populace, with aid from Ṭoros of Armenia, drove out Constance and established her son (by Raymond of Poitiers), Bohemond III, as prince. Amalric I's embassy to Manuel is thought to have occurred soon after his accession, but only in 1167 did Maria, daughter of John Comnenus the protosebastos, wed him: Baldwin, "Latin States," 546–47, 554.

42. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 141.

43. Chalandon, II, 483.

44. Probably Kama, east of Branitshevo.

45. Probably across the Sava: note that Manuel proceeds to attack Zeugminon/Zemun, on the south bank of the Danube. Since "all Sirmion" (i.e., the territory between the Sava and the Danube) was in Hungarian hands, this would equally be a crossing into hostile country, yet the enemy forces would be effectively divided by the Danube: Chalandon, II, 484.

46. Tentatively, I would here suggest a lacuna of a sentence or two in the text: Manuel is seen in one sentence with an injured leg, then, in the next, attacking

NOTES TO BOOK V

Bohemond. Toros of Armenia was also a member of the defeated coalition: Der Nersessian, "Cilician Armenia," 641.

20. On the locality, and the geographic difficulties posed by Kinnamos' reference to a crossing of the Sava (rather than of the Danube), see Chalandon, II, 477 and n. 2. The text, however, says that Manuel sat down opposite Titel; this could have meant on the south bank of the Danube, opposite the mouth of the Tisa (or Tisza); Titel is only a few miles upstream. The emperor's next stopping place, Petrikion, may be Petrovaradin, on the south bank of the Danube opposite Novi Sad; therafter, he reached Bač, north of the river; the three sites show a generally northwestward line of march. This agrees with Kinnamos, 221, who puts the crossing of the Danube in the subsequent part of the campaign.

21. Kinnamos, 68–69.

22. Frederick Barbarossa himself had balked at the requirement of serving as squire to the pope, but had had to yield to precedents: Ugo Balzani, "Frederick Barbarossa and the Lombard League," *The Cambridge Medieval History*, V (Cambridge, Eng., 1929), 419–20.

23. The allusion is somewhat mysterious, perhaps a reference to previous papal obedience to decrees of the Byzantine emperor ("someone else").

24. This tirade was inspired by Pope Alexander III's prolonged dispute with Frederick Barbarossa, during the course of which the pope at least discussed (in 1166) accepting Manuel as the single emperor of a united Roman Empire: Chalandon, II, 558–67. Eventually, after his defeat by the Lombard League, Frederick was reconciled with Alexander. On the political philosophy expressed in this passage, see Chalandon, II, 556–57.

25. Perhaps at Novi Sad.

26. On this Orthodox population, mentioned here and on Kinnamos, 221, see N. Oikonomides, "A propos des relations ecclésiastiques entre Byzance et la Hongrie au XI[e] siècle: Le Métropolite de Turquie," *Revue des Etudes Sud-Est Européenes*, n.s., 9 (1971), 530.

27. See above, Book II, n. 9.

28. See above, Book II, n. 65.

29. On this campaign and negotiations, see Chalandon, II, 476–80, who gives some credit to Kinnamos' story of Manuel's relations with Vladislav II.

30. Bryer, "Gabrades" (cited above, Book II, n. 37), 180 (No. 7). He was married to Eudokia, daughter of Manuel's brother Andronicus: Chalandon, II, 480–81.

31. Chalandon, II, 526, n. 2 (for the chronology), 528–29; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41.

NOTES TO BOOK V

6. Kilidj Arslan II, 1155–92. On this visit, see Chalandon, II, 462–66; Vryonis, *Asia Minor*, 122; Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 678.

7. Patriarch Loukas Chrysoberges, 1157–70.

8. The reference is to the Byzantine disaster in 1176, at Myriokephalon. The earthquake mentioned in this section is not included in the lists by Grumel, *Chronologie*, 480, or Glanville Downy, "Earthquakes at Constantinople and Vicinity, A.D. 342–1454," *Speculum*, 30 (1955), 600.

9. Again, the reference is to Blachernai Palace: see Book II, n. 61.

10. Chalandon, II, 517, renders this as Excubitor, chief of the interpreters.

11. Matth. 22:8.

12. The girl in question was Melisend, sister of Raymond III, count of Tripoli. The tale told by Kinnamos is a fiction: neither miraculous diseases nor (groundless) allegations of illegitimacy prevented the marriage. Rather, negotiations were prolonged for a year (1160–61) by Manuel, then broken off by him, because a more favorable match seemed possible in Antioch: Chalandon, II, 517–21; Baldwin, "Latin States," 546.

13. Chief official of the city of Constantinople: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 186–92.

14. Chalandon, II, 520–24; Baldwin, "Latin States," 546–47.

15. Chalandon, II, 392–93 (who, however, errs in identifying Desa with Stephen Nemanja, and also in dating the event 1163: see 475, where Manuel's campaign is dated 1162); Jireček, *Serben*, 252; Grumel, *Chronologie*, 390; Radojčić, "Vazalnikh," 347–54.

16. Chalandon, II, 474–76; the territory ceded as Béla's inheritance was "Sirmion" (i.e., the region between the Sava and the Danube) and Dalmatia: 475 and n. 3. On the title of Despotes, see Ostrogorsky, "Urum-Despotes," 448–60.

17. Joscelin II of Edessa was captive 1150–59, and died in captivity: Baldwin, "Latin States," 533; Robert Lawrence Nicholson, *Joscelyn III and the Fall of the Crusader States* (Leiden, 1973), 21.

18. Chalandon, II, 525, n. 2, says he was called this because his father had also been titled Kalamanos.

19. Hamilton A. R. Gibb, "The Career of Nūr-ad-Dīn," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 524; Baldwin, "Latin States," 551; Chalandon, II, 524–25; Nicholson, *Joscelyn III*, 33. Reginald of Châtillon, regent of Antioch, had been captured by Nūr-ad-Dīn in 1160 (Gibb, "Nūr-ad-Dīn," 523; Baldwin, "Latin States," 546); the captives in 1164 included Bohemond III, prince of Antioch; Raymond III, count of Tripoli; Joscelin III, titular count of Edessa; and Hugh of Lusignan, as well as Kalamanos. Kinnamos has confused Reginald and

and 300. On these attacks, see Chalandon, II, 460–61; Vryonis, *Asia Minor*, 122, 189.

55. Evidently descendants or followers of Kogh Vasil, an Armenian who ruled Kesoun/Keysun (east of Marash/Maraş) at the time of the First Crusade. Kesoun formed part of the County of Edessa; in 1150, after the loss of its capital, the remnants of that county were ceded to Manuel Comnenus (Baldwin, "Latin States," 533–34). Possibly some of the Armenian inhabitants, using their former leader's name, remained in Byzantine service.

56. Chalandon, II, 459–60.

57. Kallipolis or Gallipoli, modern Gelibolu.

BOOK V

1. Kinnamos has here erred in his chronology: she died in early 1160, perhaps while Manuel was staying at Rhitzion (Kinnamos, 194): Chalandon, II, 211–12, 459. Part of John Kontostephanos' mission to Palestine, 1160–61, was to seek a bride for Manuel: Kinnamos, 199; Chalandon, II, 459, 517–19.

2. 31 May 1161. On this stage in Manuel's lengthy intervention in Hungarian affairs, see Chalandon, II, 469–73. For the genealogy and dates of the various rulers who follow, see Appendix I. The dating of these events is disputed; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 82–83 and appended genealogy, gives the reign of Géza II as 1141–62, László II as 1162–63, István IV as 1163, and István III as 1162–72. Chalandon gives the dates a year earlier, basing his data largely on western chroniclers.

3. According to Chalandon, II, 469–73, László II ruled 1161–62. On "Urum," "My Lord," see Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 238; G. Ostrogorsky, "Urum-Despotes: Die Anfänge der Despoteswürde in Byzanz," *Byzantinische Zeitschrift*, 44 (1951), 448–60; repr. in his *Zur byzantinischen Geschichte*, 153–65.

4. Grumel, *Chronologie*, 390, believes Primislav (or Prvoslav) is another name for Uroš II; see Kinnamos, 113, on his earlier restoration by Manuel's decision.

5. Borislav Radojčić, "La Region de la Dendra de la Serbie au XII[e] siècle," *Balkan Studies*, 11 (1970), 249–60, is able to show that Dendra was Serbian territory, granted to Desa in 1155 by Manuel's judgment regarding the županate of Serbia, between Uroš II and Desa; he is, however, unable to give any more exact identification of the region than Kinnamos' expression here. Desa ruled ca. 1161–65. See Chalandon, II, 391–92 (but the identity of Desa and Stephen Nemanja, there asserted, is not generally accepted); Jireček, *Serben*, I, 250–52; Borislav Radojčić, "Prilog proučavanju vazalnikh odnosa Srbije prema Vizantiji pedesetikh i šezdecetikh godina XII veka," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 8, Pt. 2 (1964), 347–54.

NOTES TO BOOK IV

42. Bertram of Toulouse, grandson of Raymond of Saint-Gilles, had been captured in 1149: Baldwin, "Latin States," 532, 545.

43. Bertrand of Blancfort, master of the Templars, had been captured in 1157: Baldwin, 539, 545.

44. Ramsay, *Historical Geography*, 382n. In 1158 Manuel had followed the coast from Attaleia/Antalya in Pamphylia; in 1159, he chose to return from Cilicia through the center of the plateau, by way of Laranda/Karaman and Kotiaion/Kütahya, a route which could have taken him near Ikonion.

45. On this campaign of 1158–59, see Chalandon, II, 435–56; Baldwin, "Latin States," 543–45; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41.

46. Chalandon, II, 457–59.

47. See Kinnamos, 63.

48. Augouste was perhaps an imperial estate on the Astakenos Gulf; Rhitzion was probably near Chalcedon: Ramsay, *Historical Geography*, 185–86. Possibly Manuel stayed near Constantinople, but did not enter it. He then turned south to Philadelphia/Alaşehir.

49. Dubious word.

50. Alternate translation, equally possible: "Reaching a certain village, Sarapata, called by the natives Mylonos. . . ." In the opinion of Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, pp. 19, n. 1, and 341; Pt. 2, pp. 598, n. 4, 679, and 696, the name is Turkish-Greek, Mylonos or Mylon perhaps the original Greek name, Sarapata representing "Hissar-Abad," "Place-of-the-Castle." He suggests modern Sandikli (on the Glaukos/Kufi River, a northern tributary of the Maeander). The area was clearly in Turkish hands: Vryonis, *Asia Minor*, 122, 190.

51. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 285.

52. Abu-Bakr: ibid., 256–57; see Kinnamos, 48, 50.

53. At first glance, the "oft-mentioned John" would seem to be John Comnenus the protosebastos, but he was a nephew of the emperor, not a relative-in-law (*gambros*): see L. Stiernon, "Notes de titulature et de prosopographie byzantines: Sébaste et gambros," *Revue des Etudes Byzantines*, 23 (1965), 222–43, esp. 223. Probably this is John Doukas, former Byzantine commander in Italy and future great heteriarch; he is identified in very similar language by Kinnamos, 260, line 24. This possible date in his career is not mentioned by Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas." John Doukas is not elsewhere called a *gambros* of the emperor, and some other individual might be meant.

54. For Phileta as a late-Byzantine name of Phaselis (near modern Tekirova), on the Lycian coast southwest of Attaleia/Antalya, see Ramsay, *Historical Geography*, table facing p. 424; Ramsay, *Cities and Bishoprics*, I, Pt. 1, pp. 19, n. 2,

NOTES TO BOOK IV

26. Chalandon, II, 232–33; on Kinnamos' misconception of the location of Blachernai, see above, Book II, n. 61.

27. Perhaps Simon, illegitimate son of Roger II: Chalandon, *Domination normande*, II, 307.

28. Kilidj Arslan II, 1155–92.

29. Unknown locations, apparently in Cilicia, south of Laranda/Karaman: Ramsay, *Historical Geography*, 369, 450.

30. Chalandon, II, 434–35. Oinaion/Ünye is on the Black Sea coast; Pauraë/Bafra is on the lower Halys/Kizil.

31. According to Chalandon, II, 640–41, the text is from the liturgy of Saints Basil and John Chrysostom: "You are He Who offers and Who is offered and Who receives."

32. Chalandon, II, 640–43; Beck, *Kirche und theologische Literatur*, 623–24.

33. Chalandon, II, 437–39; Baldwin, "Latin States," 539–41, 559–60.

34. Apparently the region of Laodikeia/Denizli: Ramsay, *Historical Geography*, 150–53, 382.

35. Kistramos and Longinias are unknown (Ramsay, *Historical Geography*, 348, 380, 382), but Anazarbos is 'Ain Zarbā or Andvorza, an abandoned fortress sixteen miles south of Sis/Kozan. Tili or Til is modern Toprakkale, Arabic Tall-Hamdūn, on the Adana-Alexandretta railway line, just west of the pass between Cilicia and the plain of Alexandretta: J. Gottwald, "Die Burg Til im südöstlichen Kilikien," *Byzantinische Zeitschrift*, 40 (1940), 89–104 (esp. 96–97). Kinnamos seems to have disordered events slightly: the capture of Anazarbos and Tili probably followed that of Tarsus. On this campaign, see Chalandon, II, 441–45; Der Nersessian, "Cilician Armenia," 640–41; Baldwin, "Latin States," 543.

36. Probably John Comnenus and other captives taken in Cyprus and the Cilician wars.

37. On Reginald and Aimery of Limoges (Latin patriarch of Antioch, ca. 1139–96), see Cahen, *Syrie du nord*, 505–06; Baldwin, "Latin States," 540; Chalandon, II, 443.

38. Presumably Muḥammad (II), the Great Selchükid sultan of Persia, 1153–59; C. E. Bosworth, "The Political and Dynastic History of the Iranian World (A.D. 1000–1217)," *The Cambridge History of Iran*, V (Cambridge, Eng., 1968), 175–76.

39. The text here is corrupt; I have read παρά for περί.

40. Bréhier, *Monde byzantin*, II, 148.

41. By an error of the editor the number "21" has been repeated for chapters commencing on pp. 186 and 188.

12. On this relief force, see Chalandon, II, 363; Chalandon, *Domination normande*, II, 215–16, but by a slip he makes the Germanoi of the text into Germans instead of French. This John Angelus is probably John Doukas Angelus, son of Constantine Angelus and Manuel's aunt Theodora, but this expedition is not cited in the note on him by Polemis, *Doukai*, 87–88 (No. 40). This appearance of John, with the name Angelus, repeated in Kinnamos, 162 and 238, is omitted in his survey of references to John by Lucien Stiernon, "Les Origines du Despotat d'Epire: A propos d'un livre récent," *Revue des Etudes Byzantines*, 17 (1959), 102–17, who is thus able to write: "Nulle part JEAN, *fils* de Constantin Ange . . . ne porte le patronyme d'Ange ou de Comnène, mais celui de DOUKAS . . ." (p. 114). While the references by Kinnamos do not specify his relationship to the emperor, I know of no other John Angelus in this period, and Manuel's proclivity for using his relatives as army commanders is well known. Kinnamos doubtless calls him "Angelus" to distinguish him from the John Doukas who was commanding land forces in Italy.

13. Tonsured as a monk, the normal preparation for death.

14. The name given in the text is Polymilion; Chalandon, *Domination normande*, II, 217, identifies this as Polignano (on the east coast between Bari and Monopoli). But the village of Palagiano is close to Massafra and Mottola, the scene of Byzantine operations. Also, the fact that the Norman garrison of "Polymilion" fled to Taranto (not Monopoli or Brindisi, both still in Norman hands) suggests Palagiano, scarcely ten miles from Taranto.

15. This is a paraphrase of Procopius, *De bello gothico*, IV, 1, 11 (ed. Haury, II, 489), as Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 96, pointed out.

16. Probably a Latin from the principality of Antioch, a mercenary in Byzantine service.

17. Archilochus, Frag. 55 (Diehl).

18. Probably Alezio, between Otranto and Gallipoli.

19. Keltoi in the text: see Kinnamos, 67 and 167. The bulk of the Byzantine army consisted of Norman rebels and mercenaries, not troops sent from the empire.

20. He had done a like feat at Marathon: Herodotus, VI, 114.

21. Alexius Comnenus [Bryennios], son of Anna Comnena.

22. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 243.

23. Chalandon, *Domination normande*, II, 229.

24. Chalandon, *Domination normande*, II, 248–54; Chalandon, II, 377–81.

25. Chalandon, *Domination normande*, II, 250, thinks this an accurate account of events in Rome in the summer of 1157.

49. On Basil Tzykandeles Goudelios, see Kinnamos, 56, 72, 77.

50. Probably Géza II's *brother* Stephen, later István (Stephen) IV: Chalandon, II, 413, n. 1.

BOOK IV

1. Frederick I Barbarossa, 1152–90.

2. On this sequence of embassies, and the offers made, see Chalandon, II, 343–50, esp. 344, n. 3, which examines the chronology in detail; Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 137–47.

3. On Michael Palaiologos, see Kinnamos, 70, 82. John Doukas is possibly John Doukas [Kamateros]: Polemis, *Doukai*, 127–30 (No. 99), but Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," 262, considers this to be the future great heteriarch. On Alexander of Conversano, Count of Gravina, see Book II, n. 48, above. See Chalandon, II, 349.

4. Robert II of Bassonville, Count of Loritello, son of Roger II's sister: Chalandon, II, 352, n. 5; Chalandon, *Domination normande*, II, 182–83. Under William I, 1154–66, Robert led the barons' opposition to the low-born chief minister, Maio or Maione of Bari.

5. This word has been added to the text by the editor.

6. Chalandon, II, 358, and Chalandon, *Domination normande*, II, 191, 204–10, dates the events narrated here and following (Kinnamos, 137–46) to late August–September 1155. See Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 149–231.

7. According to Chalandon, *Domination normande*, II, 205–06, possibly Fano, ancient Flavia Fanestris, north of Ancona. Doukas, however, was moving from Ancona to Apulia, and the now-ruined site of San Flaviano, adjacent to the present town of Giulianova, at the mouth of the Tordino River, between Ancona and Pescara, would better suit the text. According to [*Murray's*] *Handbook for Travellers in Southern Italy and Sicily*, 9th ed. (London, 1892), I, 234, San Flaviano owed its name to the body of a saint brought from Constantinople in the Middle Ages. Chalandon, II, 353, n. 4, was unable to locate this place in the directories available to him.

8. Chalandon, *Domination normande*, II, 206, believes the Byzantine force had now entered the Bassonville lands.

9. Ibid., 209.

10. Hadrian IV, 1154–59. Chalandon, *Domination normande*, II, 210–14; Chalandon, II, 358–62.

11. In the text, Masagetoi; see Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 183, citing this passage.

NOTES TO BOOK III

39. Der Nersessian, "Cilician Armenia," 638–39; Chalandon, II, 426–28.

40. Chalandon, II, 408–09. Bitola in Yugoslavia is the modern center of the plain of Pelagonia. Chalandon II, 408–09, dates this incident to Manuel's 1153 stay at Pelagonia, but Kinnamos, a few lines further on, indicates that it was prior to Andronicus' first governorship in Cilicia (1152). Manuel was probably at Pelagonia in 1149 and 1150: Chalandon, II, 385, 387; see 408, n. 3, on the difficult chronology of this period.

41. Chalandon, II, 408–09; Babos, *Adalékok*, 9, gives an important correction to the text. Protosebastos was a rank in the court hierarchy (sebastokrators, protosebastoi, sebastoi, etc.), protovestiarios or chief chamberlain was an honorary position in the palace services. See Hohlweg, *Beiträge*, 34–40 (esp. 39–40).

42. Chalandon, II, 410; on the grand stratarches (an undefined, apparently honorary military title), see Hohlweg, *Beiträge*, 131.

43. This quarrel at Melangeia seemingly occurred during one of Manuel's early campaigns: he was at Melangeia in 1144 or 1145 (Kinnamos, 36), and passed close by (Pithekas) in 1146 (Kinnamos, 38). On the latter campaign, both his brother Isaac and his cousin Andronicus attended him (Kinnamos, 49, 61). Some names in the text have evidently suffered scribal corruption, and I have followed the emendations suggested by Chalandon, II, 215, n. 6. Polemis, *Doukai*, 113, n. 1, believes the John Doukas, cousin of the emperor, here mentioned, was John Doukas [Bryennios], son of Nicephorus Bryennios and Anna Comnena. But John Doukas [Kamateros] could equally well be meant, and John Doukas [Angelus] would also qualify. Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," 261, is unable to identify this person, but would reject John Doukas the future great hetериarch on grounds that he is not elsewhere called cousin of the emperor. John Doukas was presumably punished for raising his whip against a prince of the blood. Apparently out of pique, Isaac stole the seals. Andronicus was probably offended by the light penalty imposed on Isaac, and then infuriated by the favor showered on John Comnenus the protosebastos at Pelagonia. The incident is briefly discussed in Chalandon, II, 215.

44. This seems to have been Alexius Axouchos, son of the grand domestikos John Axouchos: see Kinnamos, 170, line 5, and Chalandon, II, 377–78.

45. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 140.

46. The dates can only be approximate, but Andronicus was in prison nine years and fled to Russia in autumn 1164: Chalandon, II, 220–21, 410–11, 482, 483, n. 2.

47. Perhaps Svilajnac on the Morava: Chalandon, II, 412. On this campaign, see Chalandon, II, 411–13; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 81–82.

48. Borić ruled from before 1154 to 1163.

seven individuals; she is not, however, ready to state which of Manuel's close r atives this particular individual was.

25. Donald M. Nicol, *The Byzantine Family of Kantakouzenos (Cantacuzenu ca. 1100–1460: A Genealogical and Prosopographical Study*, Dumbarton Oa Studies, XI (Washington, D.C., 1968), 4 (No. 2).

26. So Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 85. Bakchinos' identity is disputed: l was not the grand župan of Serbia proper (who was Pervoslav Uroš II), but prob bly was the leader of the Hungarian contingent: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I 85; Chalandon, II, 390, n. 2; Jireček, *Serben*, 248, n. 2.

27. Just as Géza II and the Serbs were allied, so the Byzantines were linked t Vladimirko, prince of Galicia (1130–52): George Vernadsky, *Kievan Russia*, History of Russia, II (New Haven, 1948), 217–18; Chalandon, II, 402–05; C Vernadsky, "Relations byzantino-russes au XII[e] siècle," *Byzantion*, 4 (1927/28 273–76. Géza had just defeated and made peace with Vladimirko: Chalandon, I 401–03.

28. Beloš or Bela was a son of Uroš I of Serbia (Rascia or Raška), and Géza II' maternal uncle: see above, n. 17, and Chalandon, II, 399, 405–07.

29. Chalandon, II, 406, suggests the mountains along the Timiş, now in wester Romania.

30. He was a son of king Kálmán: see Appendix, and Chalandon, II, 62–63, 401 406–07. His son was Constantine Kalamanos, who played a prominent role i Manuel's later years.

31. Maria, often called "Porphyrogenita," "Born-in-the-Purple," was born i March 1152: Chalandon, II, 212. On this Hungarian campaign, see Chalandon, II 403–07; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 81.

32. Chalandon, *Domination normande*, II, 188–89; Chalandon, II, 347–48.

33. On this campaign, see Chalandon, II, 407–08; and, on Kinnamos' chronolog ical slips, 408, n. 3.

34. The Byzantine year ended August 31; these events then fell in the summer o 1154: Chalandon, II, 348.

35. Chalandon, II, 408–09.

36. Der Nersessian, "Cilician Armenia," 638–39: this was Toros (or Thoros) II. Chalandon, II, 418–29.

37. Marshall W. Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I. 1143–1174," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 532–33.

38. Baldwin, "Latin States," 536; Chalandon, II, 426–27. To become a monk before dying was normal for a Byzantine.

NOTES TO BOOK III

13. Chalandon, II, 384–86, believes that on his return from Kerkyra (autumn 1149), Manuel marched from Valona/Avlona/Vlonë through Pelagonia to the Vardar and Morava valleys; Rhason/Ražanj is near the Morava, north of Niš. Constantin Jireček, *Geschichte der Serben*, Allgemeine Staatengeschichte, Abt. I, No. 38, Vol. I (Gotha, 1911), 246–47, has little to contribute on these campaigns.

14. Manuel's uncle by marriage, the progenitor of the Angeli dynasty.

15. Galitza was allegedly at the mouth of the Morava: K. v. Spruner, ed., *Spruner-Menke Hand-Atlas für die Geschichte des Mittelalters und der neueren Zeit*, 3rd ed., ed. Th. Menke (Gotha, 1880), Map No. 84; Jireček, *Serben*, 247, n. 3, however, suggests a location in south-central Yugoslavia, consistent with his identification of Rhason as Ras (modern Novi Pazar), and Chalandon, II, 385, n. 4, places Galitza on Mt. Golija, north of Novi Pazar. Nikava is unidentified; Chalandon, II, 385 and n. 4, thinks it the Nišava valley. That the entire campaign was in the Nišava and Morava valleys seems probable.

16. Identification uncertain; Chalandon, II, 388, n. 1, cites several possibilities. On this campaign, see Chalandon, II, 387–91. Moravcsik's opinion (*Byzantium and the Magyars*, 80) that Kinnamos participated in this campaign is scarcely acceptable; he could have been only six or seven years old at the time.

17. Géza II, 1141–62. Kinnamos is confused about the genealogy: Uroš I of Serbia's daughter Helen married Béla II the Blind of Hungary; her brother Beloš or Bela became very influential at the Hungarian court; Chalandon, II, 74–75, 384–85, 399.

18. See above, Book II, n. 33.

19. Evidently a scribal error for the Drymon/Drina: Chalandon, II, 389, n. 1.

20. An upper tributary of the Drina.

21. Perhaps Sjenica, on the Uvac River, west of Novi Pazar: Chalandon, II, 389.

22. The Chalisioi were probably refugee Jewish Khazars: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 338–39; D. M. Dunlop, "The Khazars," *The Dark Ages: Jews in Christian Europe 711–1096*, ed. Cecil Roth and I. H. Levine, The World History of the Jewish People, Ser. II, Vol. II (n.p. [New Brunswick, N.J.], 1966), 356.

23. Dj. Sp. Radojičić, "Kinamov Γουρδέσης," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 8, Pt. 1 (1963), 255–59, provides documentary and inscriptional evidence for this person.

24. Allegedly John Doukas Kamateros: Demetrios I. Polemis, *The Doukai: A Contribution to Byzantine Prosopography*, University of London Historical Studies, XXII (London, 1968), 127–30 (No. 99). P. Karlin-Hayter, "99. Jean Doukas," *Byzantion*, 42 (1972), 259–65, suggests that Polemis has conflated six or

namos' allegation that Conrad pledged to return "Italy" (i.e., Apulia and Calabria), once conquered, to Manuel. Lamma, *Comneni e Staufer*, I, 90–93, is dubious. It was at this time that Henry of Austria wedded the emperor's niece, Theodora; see Kinnamos, 236, 261. On this Theodora's identity, see my *Byzantium Confronts the West*, 34, n. 9 (p. 322–23).

69. Berry, "Second Crusade," 511; Chalandon, II, 330–32.

70. Frederick I Barbarossa, 1152–90.

71. Actually, sons of Henry V's sister Agnes, who married duke Frederick of Swabia.

72. Lothar II, 1125–37.

BOOK III

1. Roger II was count of Sicily from 1105.

2. Duke William of Apulia, 1111–27, was a grandson of Robert Guiscard. The story of a loan and mortgage on Apulia is a fiction; William died without an heir, and Roger II speedily moved to appropriate his domain: Chalandon, *Domination normande*, I, 321–26, 380–89.

3. Roger II was opposed by both Pope Honorius II, 1124–30, and Innocent II, 1130–43. Roger supported the anti-pope Anacletus II, 1130–38.

4. See Chalandon, *Domination normande*, II, 69–70.

5. Roger II had first been recognized as king by the anti-pope Anacletus II in 1130. On the capture of Pope Innocent II in 1139 and his subsequent acceptance of Roger as king, see Chalandon, *Domination normande*, II, 89–91.

6. On this exchange, see Chalandon, *Domination normande*, II, 129.

7. Ibid., II, 135–37; Chalandon, II, 317–20.

8. Perhaps modern Zimnicea, Romania: Chalandon, II, 324, n. 2; on this campaign, see 323–25. In regard to this place, P. Ş. Năsturel, "Valaques, Coumans et Byzantines sous le règne de Manuel Comnène," *Byzantina*, I (1969), 169–75, suggests the late-medieval place-name Holevnic (modern Turnu-Măgurele).

9. So Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 305–06; for another interpretation, see Chalandon, II, 325, n. 1. Năsturel, "Valaques," 175, identifies the site as the hill of Măgura Aranului, near the Teleorman River.

10. The citadel at Kerkyra is a rocky peninsula. On the siege, see Chalandon, II, 325–33; Chalandon, *Domination normande*, II, 137–45.

11. Pervoslav Uroš II, ca. 1131–60 (briefly dispossesssed ca. 1155).

12. Chalandon, II, 333–34.

NOTES TO BOOK II

54. See Kinnamos, 56, and n. 35 above.

55. Near modern Bahşayiş in Thrace, west of Istanbul: Constantin Jos. Jireček, *Die Heerstrasse von Belgrad nach Constantinopel und die Balkanpässe: Eine historische-geographische Studie* (Prague, 1877; repr. Amsterdam, 1967), 102.

56. On the park and palace of the Outer Philopation, see R. Janin, *Constantinople byzantine: Développement urbain et répertoire topographique*, 2nd ed., Archives de l'Orient chrétien, 4A (Paris, 1964), 143–45, 452–53. The statement by Kinnamos involves punning etymologies; "*philopatein*" could mean "enjoy frequenting;" "*phyllopatein*," "walk on leaves."

57. Janin, *Constantinople byzantine*, 465–66; this passage is further evidence for the existence of a bridge over the Golden Horn outside the city wall, just west of Blachernai, in the modern Eyüp district: see my *Byzantium Confronts the West*, 237–38 and nn.

58. A section of Üsküdar (Scutari): Janin, *Constantinople byzantine*, 495–96.

59. Commander of the Varangian Guard: Hohlweg, *Beiträge*, 49–50.

60. Identity uncertain: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 181; Vryonis, *Asia Minor*, 121, 188.

61. Kinnamos always regards the Blachernai Palace (situated at the western extremity of Constantinople) as south of the city: Kinnamos, 171–72, 207. A number of famous relics were kept at Blachernai: Janin, *Eglises et monastères*, 169–79.

62. Franco-Byzantine relations were actually more strained than Kinnamos states: Berry, "Second Crusade," 489–92.

63. Patriarch Nicholas IV Mouzalon, Dec. 1147–Mar./Apr. 1151.

64. Theodotos II, elected between Mar./Apr. 1151 and Apr. 1152; died between Oct. 1153 and Oct. 1154, having held office two-and-a-half years.

65. Vladislav II of Bohemia, 1140–74 (but he was not crowned king until 1158), and Boleslav IV of Poland, 1146–73.

66. L. Oeconomos, "Remarques sur trois passages de trois historiens grecs du Moyen Age," *Byzantion*, 20 (1950), 180–82, and H. Grégoire's note on p. 183; I have adopted Grégoire's suggestion.

67. Actually, only to Ephesos at this time (Dec. 1147): Berry, "Second Crusade," 497–98. Conrad's actual reason for temporarily returning to Constantinople was illness.

68. On Conrad's meeting with Manuel near Thessalonica, and his subsequent second stay in Constantinople, see Chalandon, II, 326–28: Berry, "Second Crusade," 510–11. The purpose of the treaty alluded to by Kinnamos was a joint attack on Roger II of Sicily. Chalandon, II, 326–27 (esp. 327, n. 2) accepts Kin-

NOTES TO BOOK II

Cites and Bishoprics (see above, Book I, n. 3), I, Pt. 2, 454, and map facing p. 353.

43. Actually, both the name and the site were older: it is on the north coast of Bithynia, just outside the Astakenos Gulf: Ramsay, *Historical Geography*, 157; Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Dc.

44. Kosmas II Attikos was patriarch of Constantinople from April 1146 to 26 February 1147.

45. Nephon was thus propagating a Bogomil dualism, whereby the Divinity of the Old Testament was alleged to be the Evil Principle: Hans-Georg Beck, *Kirche und theologische Literatur im byzantinischen Reich*, Handbuch der Altertumswissenschaft, Abt. XII, Teil II, Band I (Munich, 1959), 661; D. Obolensky, *The Bogomils* (Oxford, 1948), 221–22.

46. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 285; on the fight at Kalograia, see Kinnamos, 40. On these negotiations, see Chalandon, II, 257–58.

47. On the Second Crusade and the Byzantine Empire, see Chalandon, II, 262–315; Virginia G. Berry, "The Second Crusade," *The First Hundred Years* (see above, Book I, n. 19), 463–503; on western plans to seize Constantinople, see Sibyll Kindlimann, *Die Eroberung von Konstantinopel als politische Forderung des Westens im Hochmittelalter: Studien zur Entwicklung der Idee eines lateinischen Kaiserreichs in Byzanz*, Geist und Werk der Zeiten, 20 (Zurich, 1969), esp. 149–68.

48. On Alexander of Conversano, Count of Gravina, who became a leading diplomat in John II's and Manuel's service, see Chalandon, II, 170, 226–27, 270, and index; Chalandon, *Domination normande*, II, 27–29, and index; Paolo Lamma, *Comneni e Staufer: Ricerche sui rapporti fra Bisanzio e l'occidente nel secolo XII*, Istituto storico italiano per il Medio Evo, Studi storici, 14/18 and 22/25, 2 vols. (Rome, 1955–57), indices of each vol., s.v. "Gravina."

49. An exaggeration: Berry ventures no estimate, but Steven Runciman, *A History of the Crusades*, II (Cambridge, Eng., 1952), 259, suggests "nearly twenty thousand" for the German force.

50. This is a literary usage, in no way reflecting official nomenclature.

51. The *chartoularios* was chief of the archive office in the treasury department Bréhier, *Monde byzantin*, II, 257. This individual would seem to have been the *chartoularios* Basil Tzintziloukes: Chalandon, II, 196, 273, n. 3. Michael Palaiologos was a cousin of Manuel, and later commanded a force in Italy: Chalandon, II, 218–19.

52. See above, Kinnamos, 33.

53. The future Frederick I Barbarossa; Kinnamos' estimate of him is based on his later prolonged opposition to Manuel and the Byzantine Empire.

NOTES TO BOOK II

30. Perhaps a brother of Constantine Angelus, husband of Manuel's aunt Theodora: G. Ostrogorsky, "Der Aufstieg des Geschlechts der Angeloi," *Zur byzantinische Geschichte: Ausgewählte kleine Schriften* (Darmstadt, 1973), 168–69.

31. Commander of the armies, second only to the emperor. John Axouchos was a former Turkish captive reared alongside John II, whose trusted minister he became. Axouchos was a leading supporter of Manuel in the difficult outset of his reign; he was chief of Manuel's advance representatives to the capital, and by his ability bloodlessly suppressed the conspiracies (real or potential) of Manuel's brother Isaac and of the caesar John Roger.

32. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 256–57.

33. John Comnenus was eldest son of Manuel's older brother Andronicus; he was a favorite of Manuel, and is often mentioned by Kinnamos. The title of protosebastos was one of the highest in the Comnenian scheme: Hohlweg, *Beiträge*, 36–38.

34. The text of the sentence is confused; I have followed the editor's suggestion.

35. Probably Basil Tzikandyles Goudelios: Chalandon, II, 648.

36. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 331, has no suggestion.

37. On the Gabras family, see Claude Cahen, "Une Famille byzantine au service des Seldjuqides d'Asie Mineure," *Polychronion: Festschrift Franz Dölger zum 75. Geburtstag*, ed. Peter Wirth (Heidelberg, 1966), 145–49; Anthony Bryer, "A Byzantine Family: The Gabrades, c. 979-c. 1653," *University of Birmingham Historical Journal*, 12 (1970), 164–87 (Bryer's No. 6, pp. 179–80); Vryonis, *Asia Minor*, 231–32.

38. Literally, "Rhomaïs," evidently a rhetorical variant of "R(h)omania," which by the 12th cent. was in official Byzantine use to designate the empire: Robert Lee Wolff, "Romania: The Latin Empire of Constantinople," *Speculum*, 23 (1948), 5–8.

39. This is the correct reading of the manuscript: Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 253. The ancient name was Lake Karalis, of which "Skleros" is thought to have been a medieval corruption; it is now Beyşehir Gölü: Ramsay, *Historical Geography*, 359, 389. Rather than return the way he had approached Ikonion, Manuel withdrew nearly due west, through the Ala Dağ, and made for the upper valley of the Maeander.

40. On this important evidence of Turkomen pressure westward, into the Maeander valley, see Vryonis, *Asia Minor*, 121, 147, 189; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 259, has no suggestion to identify Rama(n).

41. Son of John II's brother Isaac the sebastokrator: see above, n. 4.

42. This clearly refers to the region from Apameia/Dinar to Soublaion/Choma/Homa and further west: Ramsey, *Historical Geography*, 79, 434; Ramsay,

18. The Kaystros or Cayster valley (modern Küçükmenderes): Ramsay, *Historical Geography*, 130, and map facing p. 104.

19. The second son of Gümüshtigin Ghāzī ibn Dānishmend, and emir of Sebasteia/Sivas, 1140/42–64: Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 677–78; Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 96–97, 100–01.

20. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 337.

21. Neither Ramsay, *Historical Geography*, 359, nor Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 69, have any identification to suggest.

22. Adrianople or Hadrianopolis was on the route between Philomilion and Ikonion, south of modern Cavuşçugölü: Ramsay, *Historical Geography*, 140; Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Fe. Ramsay, *Historical Geography*, 359, identifies Gaïta as Aghait, now Akait, southeast of Akşehir: this suggests that Kinnamos has confused the sequence of stopping places.

23. Ramsay, *Historical Geography*, 359; the location is apparently a pass through the Ala Dağ, west of Ikonion/Konya. Kaballa is possibly an abandoned fort atop Takali Dağ (also called Gevele Dağ) eight miles west-north-west of Konya; see notes to Calder and Bean, *Asia Minor*, reference square Gf. Medieval Ikonion was on an oval mound, perhaps a third of a mile long and seventy-five feet high, in an otherwise level plain.

24. An important domestic official: Bréhier, *Monde byzantin*, II, 148. Chouroup is not discussed by Moravcsik, but the name is possibly Turkish.

25. Not word of the Second Crusade, but news of the Turkish allies' gathering to the sultan's banner probably turned Manuel back: Chalandon, II, 254–55.

26. On the hypothetical family of rulers, see Franz Dölger, "Die 'Familie der Könige' im Mittelalter," *Byzanz und die europäische Staatenwelt* (Ettal, 1953), 34–69.

27. Evidently Muḥammad, 1134/35–1140/42. Since the eleventh century the Dānishmendid family of Cappadocia had been the chief Turkish rivals of the Seljuks established at Ikonion. After Muḥammad's death, however, the principality was divided between his son Dhū-n-Nūn at Kaisareia/Kayseri (1140/42–64), and Muḥammad's two brothers, Yaghi-Basan at Sebasteia/Sivas (1140/42–64) and 'Ain-ad-Daulah at Melitene/Malatya (1140/42–52). These princes and their sons became pawns in power struggles between the Seljuks of Ikonion, the Byzantines, and Nūr-ad-Dīn. See Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 91–110.

28. Not precisely identified, but one of several passes west of Ikonion: Ramsay, *Historical Geography*, 359.

29. These might have included Manuel Anemas (married to Theodora), Stephen Kontostephanos (Anna), and Theodore Batatzes (Eudokia): probably John Roger was still in custody, although he was at some date restored to favor.

6. Chalandon, II, 239–41; Nicholson, "Latin States," 445–47.

7. Evidently a Turk in Byzantine service; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 257.

8. A classical byword for easy spoil: Liddell-Scott-Jones, s.v.

9. The Byzantine term is λίζιος, adapted from Old French *liege;* it is used by Anna Comnena and later authors to designate western Europeans who had become imperial vassals. See Jadran Ferluga, "La Ligesse dans l'Empire byzantin: Contribution à l'étude de la féodalité à Byzance," *Zbornik radova Vizantološkog Instituta*, 7 (1961), 97–123.

10. Kinnamos' chronology is here somewhat erroneous. The negotiations for Manuel's engagement were managed by John II between 1140 and 1142; seemingly it was in the latter year that Bertha of Sulzbach (renamed Irene, in accord with Byzantine custom) arrived in Constantinople. She was sister-in-law to the German emperor Conrad III; her birth evidently made her seem unsuitable to Manuel when he unexpectedly became emperor, and only pressure from Conrad and need for alliance with Germany brought about the marriage, in January 1146: Chalandon, II, 169–72, 209–12, 259–62.

11. That is, the death (1142) of co-emperor Alexius, which caused his wife to enter a convent.

12. The date of this expedition to re-fortify the Bithynian frontiers is vague, but prior to Manuel's attack on Ikonion in 1146: Chalandon, II, 247–48; Vryonis, *Asia Minor*, 120, 187–88. On Melangeia-Malagina, see Ramsay, *Historical Geography*, 202–09, and map facing p. 178.

13. John Roger was a Norman of unknown background and lineage, who married John II's eldest daughter, Maria. For his attempted coup in 1143 he recruited prince Robert of Capua, who was in Constantinople as an envoy of Conrad III: Chalandon, II, 11–12, 197–98; Chalandon, *Domination normande* (see above, Introduction, n. 36), II, 126–29 (I have adopted the textual correction suggested on p. 127, n. 4).

14. The fort of Lopadion, where the modern Orhaneli River leaves the Apolyont Gölü, figures repeatedly in 12th-cent. history: Ramsay, *Historical Geography*, 160 (Uluabat is the modern spelling of Ulubad).

15. Prakana, in Cilicia Tracheia, lay almost due west of Seleukeia/Silifke: Ramsay, *Historical Geography*, 364, and map facing p. 330, is to be corrected by W. M. Calder and George E. Bean, *A Classical Map of Asia Minor*, published by the British Instiute of Archaeology at Ankara (London, 1958), reference square Hg.

16. Apparently located between Melangeia and Nikaia/Iznik: Ramsay, *Historical Geography*, 201–02; Vryonis, *Asia Minor*, 21, 31, and map facing p. 14.

17. Evidently the road to Kotiaion/Kütahya; the route led to Akroenos/Afyonkarahisar, Philomilion/Akşehir, and Ikonion/Konya: Ramsay, *Historical Geography*, 199. On this campaign against Ikonion (1146), see Chalandon, II, 248–57.

NOTES TO BOOK II

valric culture. The discovery of the true circumstances, from several contemporary rhetorical compositions, is the achievement of Robert Browning, "The Death of John II Comnenus," *Byzantion*, 31 (1961), 228–35.

Note that John II actually reigned 24 years, 7 months, 25 days (15 Aug. 1118–8 Apr. 1143): Kazhdan, "Eshche raz," 23.

BOOK II

1. Antioch had been regained by the Byzantines from the Arabs in 969; the Turks took it in 1085 from Philaretos, once a lieutenant of Romanus IV Diogenes; he had established himself as an independent ruler after Romanus' downfall. When the First Crusade seized it in 1098, Bohemond refused to acknowledge Byzantine overlordship. Alexius I had vainly struggled to achieve this; John II had in 1138 momentarily imposed himself, when Raymond did homage: Chalandon, II, 119–50, 183–90; Cahen, *Syrie du nord*, 357–68.

2. On the route (through Attaleia and Chonai/Honaz), see Chalandon, II, 198–99. On dromonds, triremes, and biremes, repeatedly mentioned by Kinnamos, see Hélène Ahrweiler, *Byzance et la Mer: La Marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux VII^e–XV^e siècles*, Bibliothèque byzantine, Etudes, 5 (Paris, 1966), 410–18, esp. 418: "Le bateau à voiles est en effet l'une des unités principales des flottes impériales du XII^e siècle. Le tonnage des bâtiments byzantins s'est alors considérablement accru, les unités de guerre sont maintenant des bâtiments ronds et lourds, ils continuent cependant à être désignés comme *dromons* et surtout comme *chélandia*, terms indiquant à ce moment le navire de guerre en général sans aucune précision spécifique."

3. The senate was then an advisory body of officials.

4. This Isaac Comnenus the sebastokrator, after initially enjoying the trust and confidence of his brother John II, turned against him; from 1130 to 1138 he wandered the Near East, striving to create a league against John. His exile at Herakleia Pontika apparently dates from soon after his return and reconciliation with John. In 1140, during the siege of Nea Kaisareia, his son John went over to the Turks, turned Muslim, and married a daughter of the sultan of Ikonion. Isaac's other son, Andronicus, continued the family tradition of opposition to the ruling Comneni. He figures largely in the histories of Kinnamos and Nicetas Choniates; in 1182 he effectively deposed Manuel's son Alexius II and ruled as Andronicus I. From him descend the so-called Grand Comneni, emperors of Trebizond. Chalandon, II, 17–18, 83–85, 152–53, 179–80, 195, etc.

5. Patriarch Leo Styppes had died in Jan. 1143; Manuel's first patriarch, Michael II Kourkouas Oxites, held office from July 1143 to March 1146: V. Grumel, *La Chronologie*, Traité d'études byzantines, I (Paris, 1958), 436; Chalandon, II, 196, 199–200; Peter Wirth, "Leon Styppes oder Styppeiotes?" *Byzantinische Forschungen*, 3 (1968 [publ. 1971]), 254–55.

by king Fulk of Jerusalem to marry Constance: Nicholson, "Latin States," 434, 436–38. Raymond of Poitou was prince of Antioch from 1136 to 1149.

21. This campaign and the siege of Shaizar in 1138 mark a high point of Byzantine intervention in the Crusading States; Kinnamos exaggerates the extent of John's success, especially in the siege: Chalandon, II, 130–46; Nicholson, "Latin States," 439–40; Cahen, *Syrie du nord*, 359–63; Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 252.

22. Chalandon, II, 175–79; Vryonis, *Asia Minor*, 119–20, considers this failure the beginning of the end for the Comnenian reconquest of Anatolia.

23. Ramsay, *Historical Geography*, 359, 389; I have corrected the MS reading "Pasgouse" on the basis of Wirth, "Zur asiatischen Toponymie," 253. On Sozopolis/Uluborlu, see Kinnamos, 6; on the campaign, see Chalandon, II, 180–83; Vryonis, *Asia Minor*, 120, 215.

24. An exaggeration; the distance is "over sixty miles" by road: Ramsay, *Historical Geography*, 389.

25. Alexius was born in 1106, crowned co-emperor in 1122 (after John's victory over the Petchenegs), and died in 1142; he married a Russian princess, and left a daughter: Chalandon, II, 12–13. Alexius' portrait, as co-emperor, survives in the south gallery of Hagia Sophia: Thomas Whittemore, *The Mosaics of Haghia Sophia at Istanbul: Third Preliminary Report, Work Done in 1935–1938: The Imperial Portraits of the South Gallery* (Boston, 1942), 7, 26–28, and plate facing p. 21.

26. Purple boots were in Byzantine usage the prerogative and special mark of the emperor; a sebastokrator (Manuel's rank) was entitled to blue boots: Louis Bréhier, *Le Monde byzantin*, L'évolution de l'humanité, XXXII[bis] (Paris, 1949), II, 12.

27. The co-emperor Alexius died in 1142 at Attaleia; Andronicus the sebastokrator, the second son, died while taking his brother's body back to Constantinople by sea; he was accompanied on this mission by the third brother, Isaac the sebastokrator, who remained in the capital: Chalandon, II, 12–14, 182–83.

28. This word, evidently signifying "membrane" or something similar, is not found in the lexica of Du Cange, Liddell-Scott-Jones, Sophocles, or Demetrakos.

29. The ancient custom of reclining while dining continued among the Byzantines: Louis Bréhier, *Le Monde byzantin*, L'évolution de l'humanité, XXXII[ter] (Paris, 1950), III, 52.

30. The actual circumstances of John II's death were quite different: he was apparently murdered, possibly by the Latin mercenaries in the army, who disliked his aggressive policy toward Antioch and the other Crusading States. They favored Manuel, who was known to be partial to Westerners and to Western chi-

NOTES TO BOOK I

8. So Chalandon, II, 51, dates these engagements.

9. Kinnamos is confused about the genealogy of the Hungarian kings. See table in the Appendix, based on that in Gyula Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, trans. Mihály Szegedy-Maszák, Miklós Szenczi, and Zsigmond Ritoók (Amsterdam, 1970). Álmos and István II were uncle and nephew; neither descended from László I.

On the text of this passage, see Moravcsik, "Συμβολαί," 295.

10. R. Janin, *Les Églises et les monastères*, La Géographie ecclésiastique de l'Empire byzantin, Part I, Tome III (Paris, 1953), 529–38 (modern Zeyrek Kilise Cami).

11. Located on the Danube, three miles northwest of Belgrade; modern Yugoslav Zemun appears in Kinnamos as Zeugme or Zeugminon, in Nicetas, *Hist.*, 25, as Zeugminon, in Hungarian as Zimony, and in German as Semlin. See Jovanka Kalić, "Zemun u XII veku," *Zbornik radova Vizantološkog instituta*, 13 (1971), 27–56 (esp. 32–50).

12. Chalandon, II, 56–62; Moravcsik, *Byzantium and the Magyars*, 78–79.

13. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, II, 59, 158.

14. On this campaign, see Chalandon, II, 81–87; Claude Cahen, "The Turks in Iran and Anatolia Before the Mongol Invasions," *The Later Crusades, 1189–1311*, ed. Robert Lee Wolff and Harry W. Hazard, A History of the Crusades, ed. Kenneth M. Setton, II, 2nd ed. (Madison, Wis., 1969), 677; Vryonis, *Asia Minor*, 119, 162.

15. Gümüshtigin Ghāzī (ca. 1105–34/35), leader of the Dānishmendid dynasty: Cahen, "Turks in Iran and Anatolia," 676; Cahen, *Pre-Ottoman Turkey*, 94–95; Chalandon, II, 87–89.

16. Mas'ūd, 1116–55, of the Seljuk (Selchük) dynasty, opponents of the Dānishmendids.

17. Apparently the valley of the Rhyndakos, the modern Orhaneli River.

18. Leon or Levon I, 1129–37: Chalandon, II, 107–12; Sirarpie Der Nersessian, "The Kingdom of Cilician Armenia," *The Later Crusades* (see above, n. 14), 636–37.

19. Bohemond II, 1126–30: Chalandon, II, 121–39; Robert L. Nicholson, "The Growth of the Latin States, 1118–1144," *The First Hundred Years*, ed. Marshall W. Baldwin, A History of the Crusades, ed. Kenneth M. Setton, I, 2nd ed. (Madison, Wis., 1969), 431–32, 436–39; Claude Cahen, *La Syrie du nord à l'époque des croisades et la Principauté franque d'Antioche*, Institut français de Damas, Bibliothèque orientale, I (Paris, 1940), 349–50, 357–61.

20. This is a fiction of Kinnamos; Raymond of Poitou was purposely summoned

NOTES TO BOOK I

BOOK I

1. Nicephorus Bryennios, Alexius I's son-in-law, commenced a biography of him; it was revised and completed by his wife, Anna Comnena.

2. Moravcsik, *Byzantinoturcica* (see above, Introduction, n. 4), II, 70–71. Ἰωάννης should evidently be corrected to Ἰωάννην.

3. Moravcsik, "Συμβολαί" (see above, Introduction, n. 52), 295. On this campaign, see Chalandon, II (see above, Introduction, n. 20), 46; Claude Cahen, *Pre-Ottoman Turkey: A General Survey of the Material and Spiritual Culture and History, c. 1071–1330*, trans. J. Jones-Williams (New York, 1968), 92–93; Speros Vryonis, Jr., *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh Through the Fifteenth Century*, Publications of the Center for Medieval and Renaissance Studies, U.C.L.A., No. 4 (Berkeley, Calif., 1971), 117–19. On Laodikeia, see W. M. Ramsay, *The Historical Geography of Asia Minor*, Royal Geographical Society, Supplementary Papers, IV (London, 1890), 134–35; W. M. Ramsay, *The Cities and Bishoprics of Phrygia: Being an Essay of the Local History of Phrygia from the Earliest Times to the Turkish Conquest* (Oxford, 1895–97), I, Pt. 1, 32–71; on the Kapros River, 35: "the river of Serai-Keui," i.e., Sarayköy, but recent maps call it the Kadiköy Dere.

4. On Sozopolis, see Ramsay, *Historical Geography*, 400–01; Vryonis, *Asia Minor*, 154–68.

5. An unknown location near Attaleia/Antalya: Ramsay, *Historical Geography*, 381, 420; Peter Wirth, "Zur asiatischen Toponymie im Geschichtswerk des Johannes Kinnamos," *Byzantinische Forschungen*, 3 (1968 [publ. 1971]), 251–52.

6. A Turkic people who had occupied much of the Ukraine, Moldavia, and Wallachia since the 10th cent. In 1091 they had been severely defeated by Alexius I, acting in cooperation with the Cumans (Polovtzi), who subsequently occupied the same regions: Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 87–90; Constantine Porphyrogennetos, *De administrando imperio*, Vol. II, Commentary, ed. R. J. H. Jenkins (London, 1962), 12–14, 142–45. On this campaign, 1121–22, see Chalandon, II, 48–51.

7. On the Anglo-Saxons, who made up the chief part of the Varangian Guard from early in Alexius I's reign, see A. A. Vasiliev, "The Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century," *Annales de l'Institut Kondakov (Seminarium Kondakovianum)*, 9 (1937), 39–70; Richard M. Dawkins, "The Later History of the Varangian Guard: Some Notes," *Journal of Roman Studies*, 37 (1947), 39–46 (see rev. by V. Laurent, *Revue des Etudes Byzantines*, 6 [1948], 114); Armin Hohlweg, *Beiträge zur Verwaltungsgeschichte des oströmischen Reiches unter den Komnenen*, diss. Munich, 1962, Miscellanea byzantina monacensia, I (Munich, 1965), 46–50.

NOTES TO INTRODUCTION

Du Cange's edition, Paris, 1670, in the Paris Corpus of Byzantine historians, was reprinted in Venice in 1729 in the Venice Corpus. Meineke's edition (see n. 1, above) was reprinted in J.-P. Migne, ed., *Patrologiae cursus completus*, Series graeca, Vol. 133 (Paris, 1864), col. 309–677. Fritz Hörmann, *Beiträge zur Syntax des Johannes Kinnamos*, diss. Munich, 1937 (Munich, 1938), discusses Kinnamos' grammar as a prelude to what proved an abortive new edition.

Even before Tollius' edition, the existence of Kinnamos' work was known; the title page of P. Poussines' edition of Anna Comnena reads in part as follows: *Annae Comnenae Porphyrogenitae Caesarissae Alexias . . . Notae mox opportunius edentur, unà cum Sinnamo Continuatore Annae . . .* (Paris, 1651), and on folio T. ij[r] appeared the statement, "Hanc Alexiadem continuauit *Ioannes Sinnamus Regius Grammaticus*: quae nunc lucem aspexit e Codice Vaticano 319. cum Versione & Notis P. Possini." The projected publication was evidently forestalled by the appearance of Tollius' text.

There is a general, rather uncritical study of Kinnamos as a historian by M. M. Freĭdenberg, "Trud Ioanna Kinnama kak istoricheskiĭ istochnik," *Vizantiĭskiĭ Vremennik*, 16 (1959), 29–51; the bulk of it (pp. 30–47) analyzes Kinnamos' account of Byzantine relations with the Slavic states, Hungary, and Western Europe (except for the Italian cities); pp. 47–50 relate to Kinnamos' interests in military affairs. Peter Wirth, "Zur Frage nach dem authentischen Titel von Johannes Kinnamos' Geschichtswerk," *Byzantion*, 41 (1971), 375–77, points out that, in addition to the lengthy title given at the beginning of the MS (Kinnamos, 3), there are the titles given to the only two books attested by the manuscript, "Histories" and "Roman History." The long title, he thinks, might go back only to a scribe or epitomator, but which of the two other names Kinnamos applied to his whole work remains unknown.

New editions of Kinnamos have repeatedly been projected, most recently by B. Schartau, in XIV[e] Congrès international des études byzantines, Bucarest, 6–12 September 1971, *Résumés—Communications* (Bucharest, 1971), 196–98, and by P. Wirth. I have been privileged by some communications from Dr. Wirth.

Since these notes were composed, a French translation of Kinnamos has been published: Jean Kinnamos, *Chronique*, trans. J[acqueline] Rosenblum, Publications de la Faculté des lettres et des sciences humaines de Nice, 10 (n.p. [Paris], 1972). The translation is occasionally defective: e.g., in Book I, Ch. 1 (Kinnamos, 4–5), John Comnenus is made out to have rebelled against Nicephorus Botaneiates, and the last sentence in the chapter has been misunderstood (Rosenblum, p. 18). The annotation is incomplete and often inaccurate: Laodikeia on the Lykos, mentioned in Book I, Ch. 2, is identified as "Lattakieh" (Rosenblum, p. 199), a mistake for Syrian Laodikeia, now Latakia. Mlle Rosenblum's introduction takes a different view of Kinnamos' trustworthiness from the one expressed here (Rosenblum, pp. 7–9). See the review by D. Stiernon, *Revue des études byzantines*, 32 (1974), 407–09.

NOTES TO INTRODUCTION

48. For the view that the existing Kinnamos text is an abridgment, see Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 80–84, who originated the hypothesis; Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur*, 279–80; Chalandon, II, xiv–xv. The opposite view was put forward (I think successfully) by V. Grecu, "Nicétas Choniatès a-t-il connu l'Histoire de Jean Cinnamos?" *Revue des Etudes Byzantines*, 7 (1949), 202–03; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325, states both views and leaves the question open. Epitomes exist for Anna Comnena's *Alexiad* (see edition by Leib, I, clxxi–clxxv), and for Nicetas Choniates' *History*: the B version partially published at the base of the text of the Bonn edition, and the simplified version by [Theodore Scutariotes,] in K. N. Sathas, Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη (*Bibliotheca graeca medii aevi*), VII (Venice and Paris, 1894). Leib, I, clxxiv, notes that Anna Comnena's epitomator made senseless excisions which destroy the meaning of the text; such is never the case in Kinnamos' history.

49. Nicetas, *Hist.*, 7.

50. Grecu, "Nicétas Choniatès," 194–204; A. P. Kazhdan, "Eshche raz o Kinname i Nikite Khoniate," *Byzantinoslavica*, 24 (1963), 4–31, which is a detailed comparison of the two authors' treatment of the reign of John II (pp. 6–23), and a brief review of some aspects of Manuel's reign (pp. 23–27).

51. Psellos, *Chronographie*, ed. Renauld, I (Paris, 1926), lxi–lxii; Anna Comnena, *Alexiad*, ed. Leib, I, clxiii–clxxi.

52. The 13th-cent. manuscript of Kinnamos is designated *Vaticanus graecus* 163 (fol. 221r–268v); for its being in Constantinople in 1453, see the marginal note published by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 101–02. The best discussion of the history of the text, with a stemma of manuscripts and editions, is Gyula Moravcsik, "*Συμβολαὶ εἰς τὴν χειρόγραφον παράδοσιν τῆς Ἐπιτομῆς Ἰωάννου τοῦ Κιννάμου*," in his *Studies Byzantina* (Amsterdam, 1967), 293–96. The variants from *Vat. gr.* 163 for the sections of Kinnamos touching on Hungarian affairs were published by Ferenc Babos, *Adalékok Kinnamos Szövegtörténetéhez: Symbolae ad historiam textus Cinnami*, Magyar-görök Tanulmánok: *Οὐγγροελληνικαὶ μελέται*, 26 (Budapest, 1944), 6–13, and have been utilized for the present translation. The first edition is: Ioannis Cinnami, *De Rebus Gestis Imperat. Constantinop. Ioannis & Manuelis, Comnenorum Historiar. Libri IV*, Cornelius Tollius, Primus edidit, vertit, castigavit, Trajecti ad Rhenum [i.e., Utrecht], 1652; note that this edition was in four books (Books II, III, and IV begin where the present Books II, III, and IV do, so that the last book is extremely long). A Latin translation accompanied it, but a new one was made by Du Cange, and it is essentially his translation which is given in the Bonn edition; Du Cange divided the text into six books, the Bonn editor, into seven, but the divisions are not at the same points. The MS gives only two books, the modern Book I (John's reign), and the modern Book II as the entire remainder (Manuel's reign), but does have a paragraph mark or an ornamental stripe at the points where the Bonn editor's other books commence (Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 82–84).

NOTES TO INTRODUCTION

38. Kinnamos, 30, 58–59, 67–68, 76–80, 172–75, and many other places. On the question of the genuineness of the documents quoted, see the discussion in n. 23 above.

39. Kinnamos, 46–58 (esp. 55–56), 143–45, 246.

40. See above, n. 17.

41. Kinnamos, 265–69; Nicetas, *Hist.*, 187–89. For examples of panegyric to Manuel, see Kinnamos, 42–43, 47, 56, 61, 99–100, etc. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 99–101, offers a particularly good discussion.

42. Michael Psellos, *Chronographie, ou Histoire d'un siècle de Byzance (976–1077)*, ed. and trans. Emile Renauld, Collection byzantine publiée sous le patronage de l'Association Guillaume Budé, II (Paris, 1928), 172–85; Michael Attaleiates, *Historia*, ed. Immanuel Bekker, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1853), 3–6, 216–29; Nicephorus Bryennios, *Commentarii*, ed. Augustus Meineke, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1836); for Anna Comnena, see n. 1, above.

43. A number of 12th-cent. court orations are to be found in W. Regel, ed., *Fontes rerum byzantinarum*, I, fasc. 1–2 (all pub.) (Petrograd, 1892–1917); see my own translation of an oration by Nicephorus Chrysoberges to Alexius IV, in "A Byzantine Plan for the Fourth Crusade," *Speculum*, 43 (1968), 462–75. For Nicetas' orations, see the new edition: Nicetas Choniates, *Orationes et epistulae*, ed. Ioannes Aloysius van Dieten, Corpus fontium historiae byzantinae, III (Berlin, 1972 [pub. 1973]).

44. See in particular Kinnamos, 192; Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 98–99, a particularly good discussion; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 326, places excessive trust in Kinnamos' claims of objectivity.

45. Kinnamos, 121–22. This confused chronology reappears at pp. 125–26, where again the necessity of explaining the fatal destiny of Andronicus leads the historian into rapid temporal and topical shifts. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 85–88, discusses the composition.

46. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325.

47. Kinnamos, 236, 261; other back-references without corresponding texts are to Manuel, oft-mentioned as John's youngest son (21), but really only once before; to Andronicus as having received an extended account already (61), while he has only been alluded to among the unnamed sons of Isaac (53–54); to Suleimān's having been in command at Kalograia (66); to a certain Sotas (95); and to subsidies paid by Manuel to Kilidj Arslan (291). This is the list furnished by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 80, augmented by the case of Kilidj Arslan, which he had not noted. Neumann, 81, also mentions that Kinnamos fails to fulfill a promise (Kinnamos, 10) to record the rebuilding of Zeugminon, although he alludes to the event.

spondence of Manuel and Conrad III, it bears no relationship to what Kinnamos alleges was written. Only Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325–326, has supported the accuracy of Kinnamos' alleged documents as summations from a register. But his examples are nearly all manifest rhetorical creations by Kinnamos himself; only the papal documents (alluded to, not quoted, in Kinnamos, 220) can have any real validity.

24. Kinnamos, 5; see Nicetas, *Hist.*, 7.

25. Kinnamos, 20.

26. Ibid., 127, 129–30; Chalandon, II, 410. John Comnenus and Andronicus were bitter enemies. Note that John Comnenus was killed in 1176 at Myriokephalon, so Kinnamos must have listened to his recollections before then.

27. Kinnamos, 109–13, 136–69 (see above, n. 9), 257–59.

28. Anna Comnena, *Alexiad*, XIV, vii, 7 (ed. Leib, III, 175–76).

29. Kinnamos, 38–63.

30. Kinnamos, 67–83, 84–87. If Kinnamos did *not* participate in the Italian expedition, and if John Doukas was *not* his informant, a written narrative by a participant should confidently be hypothesized.

31. Kinnamos, 3–4, 163. Among other possible Herodotean usages would be Kinnamos, 42, line 23 (Herodotus, VII, 18), and Kinnamos, 139, line 3, contains the same thought ("darken the air with arrows") as Herodotus, VII, 226, but not in the same words.

32. Kinnamos, 121. Kinnamos' style in general seems to imitate that of Thucydides.

33. Ibid., 218; the reference is to Procopius, *De bello gothico*, I. 1; see Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 86.

34. Kinnamos, 52, 280. Kinnamos, 232, line 20, seems to reflect Hesychius, *Lexicon*, ed. Kurt Latte, II (Copenhagen, 1966), 112.

35. On this Byzantine practice, see Herbert Hunger, "Die byzantinische Literatur der Komnenenzeit: Versuch einer Neubewertung," *Anzeiger der Phil.-Hist. Klasse der Österreichischen Akademie der Wissenschaft*, 105 (1968), 61–62. For the sake of clarity, these names have ordinarily been translated into their medieval equivalents: see Preface. A similar classical echo is the consistent designation of Roger II as the "tyrant" of Sicily (Kinnamos, 118, and elsewhere), which merely signified that his title to rule had not been recognized by Constantinople.

36. Chalandon, II, xvi; the same author's *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile* (Paris, 1907; repr., New York, 1960), II, 253 n. 4.

37. Kinnamos, 26–28; see below, Book I, n. 30.

16. Kinnamos, 119, 120–21.

17. Kinnamos, 123–25, 129–31, 232–34 (his escape from prison), 250–51. The orations of Michael Choniates, before and after 1185, show what could be said both in eulogy and excoriation of Andronicus I: Michael Choniates, *Τὰ σωζόμενα: Τὰ πλεῖστα ἐκδιδόμενα νῦν τὸ πρῶτον κατὰ τοὺς ἐν Φλωρεντίᾳ Ὀξωνίῳ, Παρισίοις καὶ Βιέννῃ κώδικας*, ed. Spyridon P. Lampros, I (Athens, 1879).

18. On the regency period, see my *Byzantium Confronts the West (1180–1204)* (Cambridge, Mass., 1968), 30–40. Several other details point to the regency period as the date of composition: Pope Alexander III (1159–81) is subjected to a violent invective (Kinnamos, 219–20), as if he were still alive, and the Kontostephanoi family, who were important supporters of the regency, receive consistently favorable treatment (96–98, and many other places). The date of composition of Kinnamos' history has aroused debate: Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 99–100, believed most of the work was compiled during Manuel's reign, only the introduction being later; this ignores Kinnamos' reference, p. 4, to his present special opportunity for writing history (see below). Karl Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur von Justinian bis zum Ende des oströmischen Reiches (527–1453)*, 2nd ed., Handbuch der klassischen Altertums-Wissenschaft, IX, Pt. 1 (Munich, 1897), 279, believed the work was published after 1185, as shown by the statement in Kinnamos, 53–54, but this does not seem a clear reference to Andronicus' usurpation, only to his repeated treacheries toward Manuel. Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 325, dates the composition to 1180–83, the lifetime of Alexius II.

19. Kinnamos, 4.

20. Ferdinand Chalandon, *Jean II Comnène (1118–1143) et Manuel I Comnène (1143–1180)*, Les Comnènes: Etudes sur l'Empire byzantin au XI^e et XII^e siècle, II (Paris, 1912; repr., New York, ca. 1960) [hereafter cited as Chalandon, II], xvi–xviii; on Kinnamos' hostility to Latins, see xx–xxii.

21. Nicetas, *Hist.* (see n. 1, above), 430–31. The subject under debate was the Gospel expression, "My Father is greater than I." Since Euthymius had earlier supported the heterodox view on this point (Kinnamos, 254–55), he probably restated this position, while Kinnamos would have defended the conventional orthodoxy he expresses in his history (251–57, esp. 256).

22. E. Miller, *Catalogue des manuscrits grecs de la Bibliothèque de l'Escurial* (Paris, 1848), 218; Krumbacher, *Geschichte der byzantinischen Litteratur*, 279, 281.

23. Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 91–93, pointed out that there was no tradition of documentary accuracy in ancient history; Chalandon, II, xvi–xvii, joined in rejecting the texts of the documents allegedly quoted by Kinnamos, pointing out that where we have genuine surviving documents, as in the corre-

4. György Bánhegyi, ed. and trans., *Kinnamos Ethopoiiája: Cinnami Ethopoeia*, Magyar-görök Tanalmánok: *Οὐγγροελληνικαὶ μελέται*, 23 (Budapest, 1943), which has not been available to me. See brief accounts of its contents by F. D[ölger] in *Byzantinische Zeitschrift*, 43 (1950), 59, and Gyula Moravcsik, *Byzantinoturcica*, 2nd ed., Berliner byzantinische Arbeiten, 10–11 (Berlin, 1958), I, 324.

5. Kinnamos, 3.

6. Kinnamos, 69, 146–147.

7. Kinnamos, 5; it was possible to be enrolled "since childhood" among the imperial secretaries (19).

8. This has been the conventional view; see Carl Neumann, *Griechische Geschichtschreiber and Geschichtsquellen im zwölften Jahrhundert: Studien zu Anna Comnena, Theod. Prodromus, Joh. Cinnamus* (Leipzig, 1888), 93–95, 98–99; Moravcsik, *Byzantinoturcica*, I, 324. One must, however, bear in mind that the ancient historians who formed his model concentrated on warfare, and his Byzantine predecessors (Attaleiates, Anna Comnena, and Bryennios, to name but a few) found only the emperor's person and especially his martial deeds worthy of attention. Convention thus dictated his concentration on military history.

9. Kinnamos, 134–69. The description of Mottola, for instance, seems accurate: 152; his account of the siege of Bari, 139–40, seems to be that of a witness. If he was present, to whom was he attached? Possibly Michael Palaiologos, for whom he has outstanding praise, 70, 151. For John Doukas, the other leader of the expedition, he has very high regard and lavish praise (indeed, he claims to be able to state his thoughts, 158), but condemns his conduct after his capture by the Normans: 168–69, 172–73. He did not participate in every part of the campaign, since at one point he says that "allegedly" booty sold at specified prices (154). Nor does he seem to have shared the captivity of the leaders, so he may have returned to Constantinople at a late stage in the struggle. If he did not participate in this expedition, he had available an unusually complete and reliable source, whether a written memoir or living persons.

10. Kinnamos, 170–71, 290–91.

11. Ibid., 241.

12. Ibid., 192–93.

13. Ibid., 207. These quotations were noticed by Neumann, *Griechische Geschichtschreiber*, 93.

14. Kinnamos, 4, 257.

15. Kinnamos, 82–83; for the French version of these events, see Odo of Deuil, *De profectione Ludovici VII in Orientem: The Journey of Louis VII to the East*, ed. and trans. Virginia G. Berry, Records of Civilization, Sources and Studies (New York, 1948).

Notes

INTRODUCTION

1. Anna Comnena, *Alexiade: Règne de l'empereur Alexis I Comnène (1081–1118)*, ed. and trans. Bernard Leib, Collection byzantine publiée sous le patronage de l'Association Guillaume Budé, 3 vols. (Paris, 1937–45). The English translations are: Elizabeth A. S. Dawes, trans., *The Alexiad of the Princess Anna Comnena* (London, 1928); E. R. A. Sewter, trans., *The Alexiad of Anna Comnena* (Harmondsworth and Baltimore, 1969). Ioannes Kinnamos, *Epitome rerum ab Ioanne et Alexio* [sic] *Comnenis gestarum*, ed. Augustus Meineke, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1836; repr., Athens, n.d.); there is an unannotated Russian translation, *Kratkoe obozrienie tsarstvovaniia Ioanna i Manuila Komninov, (1118–1180). Trud Ioanna Kinnama*, trans. V. N. Karpov, Vizantiĭskie istoriki, perebedennye s grecheskago pri S. Peterburgshoĭ dukhovnoĭ akademii (St. Petersburg, 1859), and a Serbian translation, thoroughly annotated, of the sections relevant to Serbia and Hungary in *Vizantiski izvori za istoriju naroda Jugoslavije*, IV, trans. J. Kalić and N. Radošević-Maksimović, Vizantološki institut Srpske akademije nauka i umetnosti, Posebna izdanja, Knj. 12 (Belgrade, 1971), 1–105; Nicetas Choniates, *Historia*, ed. Immanuel Bekker, Corpus scriptorum historiae byzantinae (Bonn, 1835; repr., Athens, n.d.); the German translation is by Franz Grabler, in the series Byzantinische Geschichtsschreiber, VII–IX (Graz, Vienna, Cologne, 1958). There were other Byzantine historians in the 12th century, but they either wrote on short periods (Eustathius of Thessalonica, on the Norman capture of Thessalonica) or on world history (John Zonaras, Michael Glykas).

2. Kinnamos, 4–5; all citations to Kinnamos are to pages of the Bonn text (cited in n. 1 above), represented by numbers inserted between virgules in the translation which follows.

3. See the Typikon of St. Neophytos, in Ioannes P. Tsiknopoullos, ed., *Κυπριακὰ Τυπικά*, Κέντρον ἐπιστημονικῶν ἐρευνῶν, *Πηγαὶ καὶ μελέται τῆς κυπριακῆς ἱστορίας*, No. II (Leukosia [i.e., Nikosia], 1969), 78. In 1195 a Manuel Kinnamos was one of the clerks of the Bureau of the Sea: F. Miklosich and J. Müller, *Acta et diplomata graeca Medii Aevi*, VI (Vienna, 1890), 129.

ماوردلدى
أوتو أسقف فريزنغ
عن الحروب الصليبية

المدينتان

الكتاب السابع

١- عندما توفي غريغوري —الحبر الأعظم، صاحب الذكرى المباركة— في سالرنو باتت الكنيسة في وضع صعب، لأن غيوبرت، استولى بقوة الامبراطور على الكرسي الروماني وعلى المدينة، وقلة هم الرومان الذين نهضوا ضده، وتمّ جلب الكادرينال ديسيدروس [فكتور الثالث: ١٠٨٦، توفي في١٠٨٨] راعي ديرمونت كازينو (الذي دعي أيضاً باسم فكتور) لاستلام العرش البابوي، وبعدما رشا حراس مدينة ليونايين Leonine أدخل إلى كنيسة بطرس المقدس، ليرسم هناك ليلاً، وذلك خوفاً من الانشقاق، وأصيب هناك باسهال شديد، ومالبث أن غادر المدينة ليفارق حياته بعد ذلك بوقت ليس بطويل، وقد ترك حكم الكنيسة إلى أوتو أسقف أوستيا، الذي عرف أيضاً باسم أوربان.

٢- في ذلك الوقت —بينما كان هنري الرابع مايزال يحكم في روما، وألكسيوس يحكم في القسطنطينية— قامت أمم (باسم كلمات الانجيل) ضد أمم في جميع العالم، وعانت الكنيسة الشرقية بشكل حاد من الاضطهاد على أيدي الكفرة، وارتعدت المدينة المقدسة تحت أقدام الكفار، وفقط القبر المقدس للرب احتفظ باحترام عظيم لديهم، مع أن ذلك —والحق يقال— كان في سبيل جني الأرباح وهكذا عانى عبدة المسيح هناك من التعاسة والشقاء، وكان مفروضاً عليهم دفع الجزية، ولذلك أرسل هؤلاء، عبر ألكسيوس امبراطور القسطنطينية، رسالة إلى

البابا أوربان، وسألوه مساعدتهم، وتحرك البابا لمواساة شعب الرب، فقام برحلة متعبة في بلاد غاليا ليعقد مجمعاً هناك [في كليرمون -١٨-٢٨ ت٢-١٠٩٥]، واستطاع بخطاب موعظته المقدسة أن يوحد حوالي مائة ألف رجل من مختلف الدول للحرب في سبيل المسيح، وعيّن قائداً عليهم غودفري دوق اللورين، وروبرت كونت فلاندرز، وريموند كونت صنجيل، وهيو أخي فيليب ملك فرنسا، وعدداً آخر من النبلاء، ورجال الحرب، وعهد بالاشراف على هؤلاء الرجال إلى المبجل [أدهمر] أسقف بوي، وأثارت التقارير حول مافعله أوربان شعوباً معروفة قليلاً في أكوتين، ونورماندي، وانكلترا، وسكوتلاندا، وايرلاندا، وبريتاني، وغالشيا، وغاسكوني، وفرنسا، وفلاندرز، واللورين، وشعوباً أخرى، ليس من بين الذين يعيشون في القارة، بل من الذين يعيشون في جزائر البحر وأقصى المحيط، وكان بين هؤلاء الناس، شعوب تميزت تماماً بلغاتها وعاداتها ومواردها، حتى أن بعضها —كما قيل— عاش فقط على الخبز والماء، بينما استخدم آخرون الفضة فقط في أدواتهم، واتحد هؤلاء الناس الذين جاءوا من كثير من الأمم، واستخدموا لغات مختلفة، في جسم واحد، وقد ارتدوا الصليب فوق ثيابهم، ووعدوا أنهم سيكونون بالقول والفعل أتباع صليب المسيح، وانطلقوا وهم على ثقة بكفاية الصليب وقدراته، في رحلتهم إلى الشرق مع غودفري قائداً لهم، ليقاتلوا باسم الرب ضد أعداء الصليب، وكان لهذه الحملة تأثيراً أدنى على الفرنجة الشرقيين، والسكسون والثورنجيين،والبافاريين، والألمان، وذلك بسبب الانشقاق الذي كان قائماً آنذاك بين الدولة والكنيسة، ومع هذا كان هنالك بعض الناس، الذين حملوا ذلك الشعار نفسه، بشكل زائف، مدعين أنهم يفعلون ذلك باسم الدين، وكان بين هؤلاء واحد اسمه إميكو Emicho ، كونت منطقة الراين، وكان أرعناً في ذاته، وقد قاد مايقارب الاثني عشر ألف رجل، وقد كرّس نفسه لتدمير اليهود أينما وجدهم، أو، إذا أمكن، جلبهم للالتحاق بالكنيسة والاتحاد بها، لكن بما

أن سكان بانونيا اعترضوا سبيلهم لدى مرورهم بالممرات الضيقة، كانوا مرغمين على العودة إلى أوطانهم، غير أن غودفري والقادة الآخرين، الذين ذكرتهم أعلاه، تمكنوا بفضل الرب من الجواز خلال بلغاريا، لكن بصعوبة، ووصلوا إلى القسطنطينية، وعانوا هناك كثيراً من خيانة الامبراطور ألكسيوس، ثم إنهم نجوا من خطر الموت، بثورة قاموا بها هناك، فقد اقتحموا جسر المدينة الملكية، ودمروا ضواحيها، ثم تابعوا زحفهم إلى نيقية، وكان عددهم ثلاثمائة ألف مقاتل، بدون تعداد النساء أو الأطفال، وكانت نيقية في يوم من الأيام حصناً للعقيدة الكاثوليكية، وبعدما هزموا [قلج أرسلان بن] سليمان قائد الكفار، استولوا عليها، وسلموها إلى الامبراطور، وتابعوا زحفهم نحو الأمام إلى أن وصلوا إلى مناطق سكيزيا البحرية، حيث وجدوا وفرة من المؤن، إلى حد أن الكبش بيع بديناري واحد، والبقرة باثني عشر ديناري، وذلك حسب مارواه الكونت روبرت، ثم إنهم تمكنوا بعون الرب من الانتصار على أمراء أو ملوك المسلمين الذين تصدوا لهم، وشجعتهم هذه النجاحات، فقاموا بحصار أنطاكية، التي كانت حاضرة سورية، غير أنهم بعدما أمضوا هناك تسعة أشهر، ضعفوا كثيراً بسبب تناقص جيشهم وانكماشه ونقص المؤن، ولهذا نظر الرب فرأى متاعب شعبه ومعاناته، فأعطاه المدينة، مع مؤن الأتراك، ووضع ذلك في أيديهم.

٣- وفي حوالي هذا الوقت نفسه، وفيما المسيحيون منشغلون بحصار أنطاكية، وشعوب المشرق كلها قد أصابها الرعب، وصل رسل من قبل ملك المصريين —وهو المعتقد أنه ملك بابليون— إلى الدوق غودفري، ووعده بشكل خيالي بالعون ضد الأتراك، الذين كانوا آنذاك مستولين على القدس مع جميع فلسطين، وكانوا قد انتزعوها من العرب، لأنه تأكد لنا عن طريق رجال ثقة من بلادنا فيما وراء البحار، أن جزءاً من بابل القديمة يُدعى بغداد، وهو جزء مايزال مسكوناً، وهو جزء كما تقرأ في

النبوءة «مهجور ولايمكن الوصول إليـه»، يمتد إلى نحو عشرة أميال، لابل حتى بـرج بابل، والقسـم المسكون، والمدعـو بغداد، واسع جـداً، ومكتظ بالسكـان، ومع أنها بشكل صحيح جـزء من امبراطورية الفـرس، منحها ملك الفرس إلى كاهنهم الأعلى، الذي يـدعونه الخليفة، هناك بينات (كما تقدم القـول مراراً) على وجود بعـض التشابه بين بـابل وروما، لأن مـاهو ممنوح في جزئنـا من العالم من قبل الامبراطـور المسيحي، إلى الحبر الأعظم في مـدينة رومـا، مثلـه قد جـرى منحـه من قبـل الملـوك الفرس الكفـار —الذين كانت بـابل ومابرحت خاضعة منذ زمـن طويل— إلى كاهنهم الأعظم، ومثلما اختـار حكامنا مـدينة ملكية اسمهـا آخر، كذلـك جعل ملوك الفـرس مقر مملكتهـم ايكباتـانا Ekbatana (التي نقرأ في سفـر يهوديـت أن أرفخشد قـد أسسهـا) وهـي مـدينـة تدعـى بلسـانهم «همذان»، وهـم يمتلكـون مائة ألـف مقـاتـل أو أكثر، ولقـد اتخذوا هـذه المدينة مقرهـم الملكي، ولم يحتفظوا لأنفسهم بشيء خـارج بغداد فيما عدا اسم «امبراطـور»، والمدنية التـي قلت إنها تعـرف الآن بشكل عـام باسـم بـابليون ليسـت قائمـة على الفرات (كما يفترض النـاس) بل على النيـل وتبعـد مسافـة حوالي ستـة أيـام من الاسكنـدريـة، إنها بالحقيقـة مدينـة ممفيس، وكـان قمبيز بـن قورش قـد سماها بـابليون، وهنـاك فيهما يسكـن ملك المصريين وذلك بسبـب حديقة البلسم، مع أن عاصمـة مملكته هي الاسكنـدريـة، ويمكـن استنتـاج مـن حقيقـة أن المسيحيين يسكنـون في المدينتين، ومـع أنهم خـاضعين للجـزيـة، فإن أسقـف ممفيـس خـاضـع بمـوجب القـانـون اللاهـوتي إلى بطـريرك الاسكنـدريـة، ونحن نجـد في الترتيبات الأساسية، وبموجب سلطات مجمـع نيقية أن البطريرك قد أقيم ليس على الآشوريين والبابليين بل على المصريين والأفارقة.

٤- عندما قـدم رسل الملك المذكور آنفاً أنفسهم إلى الـدوق غودفري، جرى ارسال بعض نبلاء الفرنجة —فهـذا هو الاسم الذي اعتاد المشارقة

اطلاقه على الشعوب الغربية، كما أعتقد على أساس المجد القديم لذلك الشعب وبسبب شجاعته— الذين جرى اختيارهم بكل عناية، إلى بابليون، وأعلن البرابرة، الذين أعجبوا بقوة هؤلاء الرجال، وبنيتهم الجسدية، ولباسهم وتصرفاتهم، ونقاوتهم، أنهم آلهة وليسوا من بني البشر، وبعد اجتماع جرى عقده، قام ملك بابليون، فأخذ سفراء الفرنجة معه، وحاصر القدس، وعرض في منظر عام الأبطال المتقدم ذكرهم، وأعلن أنهم حلفاءه، وبهذه الطريقة تسلم طاعة المدينة [آب١٠٩٨م] —بسبب الرعب الذي بثوه فيهم، وليس لسبب مخيف آخر— وطرد الترك، وأسكن العرب هناك.

وفي الوقت نفسه كان المسيحيون (كما قلنا قد استولوا على أنطاكية) لكنهم لم يقدموا الشكر المستحق للرب، ولهذا جرى تطويقهم من قبل حشد هائل من المسلمين، ولذلك حلّ بين صفوفهم مجاعة —تلت وفرة عظيمة— لايمكن تحملها، حتى أنهم تمنعوا بكل صعوبة عن أكل لحوم البشر، وعطف الرب الرحيم، على شعبه التائب المنيب ورحمه، ونظر إليه بعين النعمة، بوساطة رؤيا جاءت من عليين، فأظهرت للمؤمنين من أتباعه الحربة المقدسة (وكانت حتى هذا الحين غير معروفة) التي بها طعن —كما نقرأ— طرف ابنه المسيح، وهو على الصليب، ووثق المسيحيون بهذه الحربة واعتمدوا عليها، ومع أنهم كانوا ضعفاء بسبب المجاعة، خرجوا وتقدموا نحو الأمام، وهزموا المسلمين، ليس بوساطة أية قوة هي قوتهم بل بوساطة قوة المسيح، ثم زحفوا داخل سورية، فاستولوا على مدن كفر [طاب و] البارة ومعرة النعمان، وبينما كانوا مشغولين بمحاولاتهم هذه، تعرضوا للعناء ثانية، حيث روي أنهم عانوا من نقص شديد بالمؤن، إلى حد أنهم أكلوا لحوم بشر كانت آيلة للفساد، ثم إنهم وجهوا بعد هذا جيوشهم ضد المدينة المقدسة، التي كان يسكنها الآن العرب، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على الاستيلاء عليها بالقوة،

عقدوا مـؤتمراً، وقرروا تقليـد تواضـع المعلم، فمشـوا حول المدينـة حفاة، وتبعاً لهذا، حدث في اليوم الثامن، ذلك اليـوم الذي يوافق انتشار الرسل، والـذي يحتفل بـه ، أن تمّ الاستيـلاء على المدينة [١٥تموز١٠٩٩]، وقتلـوا الأعـداء الـذين وجـدوهـم فيهـا، وكانـت مـذبحـة هائلـة حتـى أن دم المذبوحين وصلت إلى قوائم خيول مقاتلينـا داخل بناء المعبد، ولاحظ أنه بعدمـا قام شعب الـرب بالتواضـع والتذلـل شخصياً، والتقاطـر للصلاة للرب، أصبحـت المدينة المقدسة التـي كانت تحت أقدام أبنـاء الشعوب، في اليوم الثامن مبتهجة بشكـل رائع لأنها استردت من قبل شعبنا، ومثلما تمّ الاستيلاء على أريحا في اليوم السـابع، لدى مراعاة يوم السبـت، كذلك حدث هنا أن مـدينة القدس المحاصرة جـرى اقتحامها من قبـل الشعب المسيحي في اليـوم الثامن (جـاء يوم القيامـة بعد يوم السبـت)، وفي ذلك اشارة إلى أن الشريعـة [اليهوديـة] ونظام الأيام السبعـة قد طبـق، وغدت القدس من ذلك اليوم مع ضريح الرب في حوزتنا.

٥- وقام ملك شعب ممفيس، أو الاسكندريـة —الذي يدعوه الحجاج باسم أمير جيـوش أهل بابليون— بـالتوجه إلى عسقلان، مصطحبـاً رسل الفرنج معه، ثم وجه زحف قواتـه نحو أنطاكية، في سبيل الاستيلاء عليها بنوع من أنواع الخداع الذي كان قد سيطر بوساطته على المدينة المقدسة، غير أن المسيحيين تركـوا أثقالهم ومرضاهـم في المدينة، وقادوا قـواتهم ضد المسلمين، وعنـدما أبصروا عـن بعد حشـود العدو التـي لاتحصى عـدداً، أقاموا الصلـوات للرب، ثم انقضوا على الأعداء بكل جـرأة مع أن قواتهم كانت صغيرة، ومن الغريب القول، إنـه بنعمة من الرب، القادر على فعل كل شيء، تمكنوا وعـددهم لم يتجاوز خمسة آلاف فـارس وخمسة عشر ألف راجـل مـن ارغـام مـائة ألــف فـارس وثـلاثمائة ألـف راجـل على إدارة ظهورهم والفـرار، ثم انهم حصلوا على غنائم هائلة، وهلـك بحدّ السيف في هـذه المعركـة أكثـر من مـائة ألف مـن المسلمين، وقيـل اختنق أيضـاً

بالتدافع عند باب المدينة أكثر من ألفين، كما وروي أن أعداداً أخرى لاتحصى غرقت أو ماتت على الخازوق، وبعد نيل هذا النصر، عاد بعض القادة إلى أوطانهم، لكن غودفري بقي، ومارس بكل حماس حكمه كدوق على الذين مكثوا، وتدخل أيضاً وسيطاً بين الفرنجة الرومانسيين والألمان، الذين اعتادوا على الخصام دوماً، مستخدمين حركات تعبّر عن المرارة والحقد، وتمكن غودفري من التوسط بينهم بحكم أنه نشأ على الحدود بين الشعبين، وكان عارفاً بلغة كل منهما، وعلّمهم بطرائق مختلفة كيفية الصبر والتحمل.

٦- وتمكن أوربان بعد عودته مع مجمع كليرمونت—فيراند، بمساعدة الذين ألهبهم حماساً للقيام بحملة إلى القدس، من طرد غيوبرت من المدينة (لكن ليس من قلعة كرسسنتوس) وحكم كرسيه المقدس، ثم سافر من خلال أبوليا وكالابيرا إلى صقلية، التي كانت آنذاك مقطونة من قبل النورمنديين، وجمع من هناك مبلغاً كبيراً من المال، ثم عاد إلى المدينة، ورشا بالأعطيات الذين تولوا حراسة قلعة كرسسنتوس، وبهذه الواسطة تمكن من طرد غيوبرت من القلعة مثلما طرده من المدينة، وبذلك استحوذ على كامل المدينة [١٠-آب١٠٩٨]، لكن بعد أمد قصير فارق هذه الحياة، وترك كرسيه لباسكال.

٧- وفي السنة الألف ومائة بعد تجسيد الرب، عندما أخذ المؤمنون يحتشدون من جميع أجزاء العالم للذهاب إلى القدس الأرضية (نظيرة القدس السماوية) للصلاة، كثيرون ماتوا من المناخ الصعب، ونقل غودفري أيضاً الباكون عليه، بعدما بقي دوقاً لمدة سنة فقط، ودفن في كنيسة قرب الضريح المقدس، وحظي أخوه بلدوين بشرف اسم ملك، بوساطة سلطات الحبر الأعظم، وتعين مكان غودفري —وهذه اشارات تشير إلى التمييز بين المملكة وبين الحملة إلى القدس— ويكفي أن ذلك قد تم تدوينه من قبل الآخرين، ومات في تلك الآونة غيوبرت، وبذلك

جلب نهاية للانشقاق الرهيب الذي طوقنا مثل دخان مصر الكثيف، وتوفي في السنة التالية كونراد الابن المسيحي الأكيد للامبراطور هنري، الذي كان أبوه قد عهد إليه بإيطاليا، لقد حمله الموت المبكر في السنة التاسعة التي افترق فيها عن أبيه، وكانت وفاته ثم دفنه في فلورنسا التي هي مدينة في توسكانيا، وفي الوقت نفسه قام كل من وليم كونت بواتو ودوق أكوتين، وتيمو Tiemo ، رئيس أساقفة سالزبورغ، وولف دوق بافاريا (الذي تولى في حرب أثارها ضد الامبراطور هدم مدينتي فريزنغ وأوغسبيرغ)، والدوقة ايثا Itha التي كانت أم ليوبولد [الثالث] (الذي كان حاكم النمسا) ووليم [كونت نافار] وستيفن [كونت بليوس] وهما بارونان ايطاليان [كذا] مع كثير من ايطاليا وأكوتين وألمانيا، قاموا بالانطلاق نحو القدس عبر طريق هنغاريا واليونان، وحشرهم الامبراطور ألكسيوس بشكل خياني في ممرات ضيقة، وقتل معظمهم بشكل وحشي، وأخذ الشخصيات الأكثر لمعاناً بينهم أسرى، وأهداهم إلى ملك، أو أمير الجيوش في ممفيس، وقام واحد، ذكر أنه شارك بهذه الحملة، فكتب هذه الرواية، بشكل واضح ومؤكد، وفق طرائق التراجيديا، وقيل إن صاحب الغبطة الأسقف تيمو قد وقع بالأسر مع البقية، فأمر بأن يعبد الأصنام، وطلب منحه فرصة للتفكير والراحة [وحصل على ذلك] فدخل إلى المعبد، وبما أنه امتلك القوة الفعالة للعقل والجسد، فقد حطم إلى قطع الأصنام التي كان متوجب عليه عبادتها، مرياً بذلك أنهم لم يكونوا أرباباً بل أعمال أيدي الناس، ولهذا السبب اقتيد، وبعدما تعرض لتعذيب شديد مع جميع أنواع الارهاب، تتوج بالشهادة الرائعة، بيد أنه من الصعب تصديق قيامه بتدمير أصنام، لأنه معروف بشكل جيد ومتداول بين الناس أن المسلمين يعبدون إلهاً واحداً، وهم يقبلون بكتب الشريعة، وعادة الختان، ولا يرفضون المسيح والحواريين، والرسل، وقد نأوا عن الخلاص بشيء واحد فقط، هو حقيقة انكارهم أن المسيح هو الذي يجلب الخلاص إلى الجنس البشري، وانه رب، أو ابن الرب، ويجلّون

ويقدسون محمداً بحكم كونه نبياً عظيماً لله العظيم، وهو الشخص الذي تقدمت الاشارة إليه من قبل، وبدأت نبوته —كما يدعوها نفسه— وتبعاً لتقاليدهم، بدأ دعوته حسبما جاء في مطلع انجيل محمد قوله: «ابن الرب، بني الرب الأعلى، غسلك، وجعلك نظيفاً» [كذا]، ويقوم هذا الشعب المشار إليه بحماقته بعادة تمسكوا بها تبعاً لهذه الأوامر وذلك بغسل الأجزاء السرية من أجسادهم يومياً.

٨- في السنة الثالثة بعد المائة وألف من تجسيد الرب، احتفل الامبراطور هنري بميلاد الرب في مينز، وقام هناك بتعيين ابنه هنري ملكاً يكون خلفاً له، وأعلن أمام الناس أنه سيقوم بزيارة ضريح الرب، مما جعل الكثيرين من مختلف أجزاء مملكته يتخذون القرار نفسه، وبينما كان في السنة التالية يشاهد الاحتفال بميلاد الرب في ريغنزبيرغ Re-gensbaurg ، حدث شجار، وقتل الكونت سيغهارد Sigehard من قبل كتلة النبلاء الذي عرفوا باسم «المنسترال Ministeriales(*)» لأنه تعدى على حقوقهم، وفي السنة التالية، بينما كان الامبراطور يحتفل أيضاً بميلاد الرب في مينز، قام ابنه هنري، بناء على نصيحة مارغريف ثيبولد وكونت برنغر بالتآمر للثورة على أبيه في بافاريا، وقام بهذا تحت غطاء ديني في أن والده قد حرم من قبل الحبر الأعظيم الروماني، وجمع حول نفسه بعض النبلاء من شرق فرانكونيا، وألمانيا وبافاريل، ثم دخل ساكسوني، وهي بلاد وشعب من السهل اثارته ضد المملكة، واستقبل هناك بكل التشريف، وبقي في كويدلنبيرغ Quedlinburg للاحتفال بفصح الرب [٩نيسان ١١٠٥]، وقد ربح إلى جانبه جميع الشخصيات القيادية لذلك الشعب، وجرى عقد مجمع

(*)- حاشية الامبراطور من غير الأحرار الذين جلبوا من أراضي العرش أو من ممتلكات الامبراطور الشخصية الموروثة.

للأساقفة في المدينـة الملكية نوردهوزن Nordhousen ، برئاسة روثارد Rothardرئيس أساقفة مينـز (الذي كان قد عزل من منصبـه منذ أمد طـويـل من قبـل الامبراطـور)، وأدان هنـري في هـذا المجمع السيمـونيـة والممارسات الأخرى المخـالفة لكنيسة روما، وحالما فرغ مـن الاحتفال بعيد الشعانين في ميرسبيرغ Merseburg قام بتنصيـب هنري (الـذي انتخب، لكـن رُفض من قبل مـؤيدي أبيه) بحكـم كونه رئيساً لأسـاقفة مغدبيرغ Magdeburg ، ثم جمع هنـري جيشاً، قاده بـاتجاه مينز بقصد إعـادة تنصيب رئيـس الأساقفة، ولكـن بما أن والده كـان مع كثير من أتباعه ينتظـرون قدومه مع قوى مسلحة وراء الأسوار، لم يكـن بإمكانه تنفيـذ رغبته،ولـذلـك ذهـب إلى وورزبيرغ وطرد ايـرلنـغ Erlung وأقام روبرت مسؤولاً عن تلك الكنيسة، وإثر قيامه بهذا سرّح السكسون، وتولى مع البافـاريين حصار نورنبيرغ Nurnberg وتمكن خلال شهـرين أو ثلاثـة من الاستيـلاء عليها، ثم تـوجه نحـو ريغنزبيرغ Regenburg وكانـت مقرّ مطرانية دوقيـة بافاريا، وكـان والده يتتبع خطاه بكـل شدة، فـألحق الهزيمـة بروبـرت، واسترد ايـرلنـغ، ثـم تـابع تقـدمـه، واستطـاع بمساعـدة شعب ريغنزبيرغ أن يطرد ابنـه من المدينة، وأقام هنـاك واحداً اسمه أولريك Ulricأسقفاً، وعاث فســاداً في تخوم ثيبولد Theobald من خلال وكالة بوهيميا.

٩- وبعدمـا انقسمت المملكـة هكذا بشكـل مؤلم ضـد بعضها، فقـد حشدت جميع امكـاناتها العسكرية مـع بعضها، وتعرضت البـلاد بشكل وحشي للتخـريب بـالنـار والسيف، وتمركـز الفـريقـان المتصارعـان: الأب والابـن على طرفي نهر ريغنـغ، وكـان معسكـراهما قد تميـزا عـن بعضهما، وبدأت معسكرات القتـال لديهما بالتشكل، وكـان الأب غاضباً كثيراً على ابنه بفعل تحريضـه من قبل مؤيـديه، وكذلك الابـن في صراع عائلي ضد أبيـه، وقد أعـاق صراعهما القـذر مجرى النهر، وكـان بـإمكـانك أن تـرى

استعدادات محزنة ومؤلمة، لقد كان من الممكن لك أن ترى العالم يعاني من الأعمال الخيانية بشكل أشد وضوحاً من شعاع الشمس، وكانت الأمور بلاريب مضادة لقانون الطبيعة، لأن ابناً قام بعصيان ضد والده، وبشكل ظالم كان الجندي يستعد للقتال ضد ملكه، والعبد ضد مولاه، كما ووقف الأخ ضد أخيه، والقريب ضد قريبه، وكان كل واحد من هؤلاء يخطط لسفك دم شريكه الخاص بالدم.........

وبناءً عليه، عندما غمر في هذه الأيام حب السلطة المملكة الرومانية وأدى بها إلى الحرب الأهلية، لابل حتى إلى قتل الابن لوالديه، قام بعض الناس، من أجل المسيح، بالتخلي عن مصالحهم، وعدّوا أنهم ليسوا للعبث كانوا يلبسون حزام الفروسية، ولذلك انطلقوا نحو القدس، وهناك أخذوا يعملون في مجال جديد من القتال، حين وجهوا أنفسهم ضد أعداء صليب المسيح، وعندما حملوا في باطنهم عقيدة الموت في سبيل الصليب، بدوا بطريقة حياتهم وحديثهم لابمثابة جند بل بالأحرى رهباناً، زد على هذا، بدأت الحياة المستقيمة المتشددة مع السلوك تزداد بين الرهبان ورجال الدين، وذلك منذ تلك الآونة حتى اليوم الحالي، وهكذا بفضل من عظمة الرب وصحيح حكمه أخذ أتباعه يلتزمون أكثر فأكثر بفضل نعمته بتطبيق كامل والتزام كامل بأوامره ونواهيه مع أن سكان العالم يزدادون دنساً في سلوكهم الدنس.

١٠- في هذه الآونة نفسها ألقى الملك بلدوين الحصار على عسقلان وجعلها تدفع الجزية له، كما وخاض معركة مع المسلمين، ومع أنه امتلك قليلاً من الرجال فقط —أي أربعة آلاف فقط— فقد تمكن من إلحاق الهزيمة بخمسين ألفاً، وذلك بفضل القوة الربانية وليس بالقوة البشرية، وقد أسروا واحداً من قادتهم وقتل الباقين، لكن الامبراطور ألكسيوس، رأس الخونة، وقد غدا غير قادر على إخفاء خطته الشريرة التي أخفاها من قبل في قلبه، دخل الآن بكل وقاحة في حلف مع

الأتـراك، الذيـن كانـوا وقتذاك في وضـع يائس تقـريباً، وقـام بكل قحـة بـالتخلي لهم عن نيقيـة، التي تـمّ الحصول عليهـا مقابـل سفك كثير مـن دماء شعبنا. لاحـظ هذا الزمان الصعـب الذي فيه امبراطوريـن —واحد في الشرق وآخر بالغرب— كلاهما عدو للرب..

٢٨ - في سنة ألف وأربـع وثلاثين لتجسيد الرب، قـام الامبراطور جون كومينوس، امبراطور القسطنطينيـة (الذي عقد معاهدة صداقـة مع الملك الرومـاني كونـراد بوساطـة زواج ابنه مـانويل مـن أخت الملكـة غيرترود) بـالـدخـول إلى سـورية على رأس جيـش كبير، بسبـب أن ريمـونـد أمير أنطاكيـة قد أقسم على اعطـائه تلك المقاطعـة مع المدينة نفسهـا، وذلك مقابـل مبلغ من المال، لكن لم يـف بوعده، ذلك أن [هـوغو HUGO] المحترم، أسقـف جبلة، قـاومـه بـرجولـة ووقـف في وجهـه، وحذره بكـل شجاعة، باسـم كل من أسقف روما والامبراطور، وطلب منـه التوقف عن الهجوم على المدينـة التي أتيـت على ذكرها، لأنها كـانت ضمـن ممتلكات اللاتين، غير أن جـون الذي خـدع من قبل الأمير قـام —على الرغـم من عـدم مهاجمة المدينـة— بالعيـث فساداً في جميـع أرجـاء المقاطعـة بالنـار والسيـف، حتى أنـه اقتلع النسـاك والرهبـان، الذيـن هناك أعـداد كبيرة منهم في تلـك المنطقة، وساقهـم أمامه بعـدما أخـرجهم من صـوامعهم، وعاملهم بوحشية متناهية، ولم يقـم جون هنا بدور المعطي —أي أن تقول الجيد— ولم يمـض وقت طويل بعـد هذا، أن تعرض، وهو يقـوم بأعمال الصيـد ويستخدم سهـامـاً مسمومـة، إلى الاصـابة بـأحـدها بشكـل غير متوقـع، وهكذا مات الملـك الغني بشكل بـائس جداً وسط جيشـه،وترك العرش لابنه مانويل.

وفي الوقت نفسـه مات فولك، ملك القدس، وسلـم قيادة المملكة إلى ولده فـولك [كذا: الـذي خلفه هو بلدويـن الثاني وكان في الشـالثة عشرة من عمـره] وكان وقتها مجرد صبـي، وإثر اعتلاء مـانويل للعـرش، أرسل

رسلاً إلى الملك كونراد مع هدايا ثمينة (وذلك مثلما فعل أبوه من قبل) وجدّد المعاهدة، وغالباً ما جرى مراعاة هذه العادة بين الامبراطورين، وذلك لاعتبارات متنوعة، أعني بعدما انتقل اللقب الامبراطوري إلى الفرنجة، وفي هذه الآونة كان الاتفاق بين جون والد هذا الامبراطور وكونراد ضد روجر الذي تولى غزو كل من الامبراطوريتين...

٣٠- عند بداية العام ألف ومائة وخمسة وأربعين مضت على تجسيد الرب، وفي ذروة الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، وقعت واقعة في الشرق، جاءت نتيجة لآثام الشعب المسيحي، وكانت واقعة محزنة ومريعة فيها سوء حظ عظيم، هي أن زنكي: أمير حلب، في سورية وأمير الجزيرة (باستثناء أنطاكية ودمشق)، والذي كان من أتباع ملك أو سلطان الفرس والميديين، قام بحصار إديسا مع حشد من المسلمين لايعد ولايحصى، وكانت هذه المدينة (التي تعرف الآن باسم الرها) على أساس حجمها وثروتها الملاذ الوحيد لكنيسة القدس، ففي يوم ميلاد الرب، كما قلت، اقتحم زنكي المدينة وقتل بحد السيف جميع المسيحيين مع أسقف المدينة، أو حولهم إلى مرتبة العبودية، ودنس بإثم كنائس المسيح، وبشكل خاص بازيليكا مريم المقدسة (العذراء دوما) التي دفن فيها جسد الرسول توما، وجلب إلى داخلها أشياء غير لائقة، وذلك استهزاء بمخلصنا، وبعدما فرغ من ابادة شعبنا، وحولهم إلى دافعي الجزية، مركز المسلمين هناك لسكنى المدينة....

٣٢- ووصل في هذه الآونة وفد ديني مرسل من الأساقفة الأرمن ومطرانهم (الذي هم أنفسهم يسمونه الجاثليق، أي الأسقف الكوني، وذلك بسبب العدد الذي لايحصى من الأساقفة الذين يتبعونه) وجاء هذا الوفد إلى الحبر الأعظم في فيتربو VITERBO ، قادماً من أقصى الشرق ومكملاً رحلة متعبة استغرقت سنة وستة أشهر، وبعدما بعثوا إليه بالتحية باسم تلك الكنيسة، وأكدوا له خضوعهم التام،

انطلقوا مسافرين إلى فيترالا(*) VETRALL ، التي كانت هدف قدومهم وغايته، وكنت أنا موجوداً أثناء تلك المقابلة مع عدد كبير آخر، وكانت الأسباب كما يلي:

إنهم يتفقون مع الاغريق في ممارسة جزء من طقوس القربان المقدس، ويخالفونهم في جوانب أخرى، فهم يأخذون الخبز المخمر مثلما يفعل الاغريق، لكنهم لايمزجون الماء مع النبيذ مثلما نفعل نحن ويفعل الاغريق، زيادة على هذا إنهم يجمعون معاً بين عيدي الميلاد والغطاس ويجعلون منهما عيداً واحداً، ونظراً لخلافاتهم حول هذه المسائل وقضايا أخرى، وقع اختيارهم على الكنيسة الرومانية لتكون حكماً، وجاءوا للتشاور معها، وسألوا التوجيه حول شكل الأضحية تبعاً للعادة الرومانية، واستقبلهم الأسقف الروماني بسرور، وسمح لهم بحضور القداس العظيم، ومشاهدة الطقوس السرية للتضحية، ووجههم لمتابعة كل ماجرى هناك بكل دقة، وفيما هم يفعلون ذلك، ويقفون بانتباه شديد، أمام المذبح المقدس، رأى أحدهم وكان يحمل رتبة أسقف —شيئاً حكاه فيما بعد— في اجتماع عام عقد في اليوم الثامن الذي تلا عيد مارتن المقدس، وذلك أثناء الاحتفال المعتاد بتكريس كنيسة بطرس المقدس [١٨تشرين ثاني] والذي رآه —كما قال— هو مايلي:

بينما كان الحبر الأعظم يقوم بالقداس المقدس، أضاءت الشمس وانتشرت أشعتها فجأة حول رأسه بشكل كله بهاء، وأثناء ذلك كان هناك حمامتان تصعدان وتهبطان وسط نور الشمس، ولدى اطافته ناظريه في هذا الاتجاه وذاك، ولعدم رؤيته وجود فتحة يمكن للضوء أن يتخذها

(*)- على بعد اثني عشر كم إلى الجنوب من فيتربو حيث كان البابا مقيماً في كانون أول: ١-١٦ عام١١٤٥م، ويستخلص من هذا النص أنه كان موجوداً هناك منذ حوالى بداية تشرين الثاني.

طريقاً له، أدرك أن هـذا كان من عمـل الرب، وهنا ازداد يقيناً باطـاعة الكنيسة الـرومانيـة، وجعل معـروفاً مـارآه أيضاً إلى جميـع الناس، غير أن الأب المبجل رفض أن يعـزو هذا إلى فضائله الخاصة، وأعلـن أنه بالحري بسبب إيمان هذا الأسقـف أبيحت له هذه الرؤيا مـن السماء، ففي سبيل تيسير الاعتراف بالكنيسـة التي تولت ارسـاله، تمّ غسل قـدرة القداس في نور الحقيقـة، ومن ثـم بالمعـرفة، وكـذلك بـالتبجيل وبـالشكل المتـوجب الاحتفاء به بهم.

وروى الأسقـف المتقـدم ذكـره أنـه يـوجـد على تخوم أرمينيـا بعـض الشعـوب التـي تحمـل أطفـالاً برائحـة مخيفـة، وأنهم يـأخـذونهم مبـاشرة ويجعلـونهم يستحمون في ميـاه أرمينيـة ويطرد الأرمـن عنهـم برشهـم بماء العماد تلك الـرائحة النتنة، لكـن ما يلبثـون لدى عودتهم أن يتحـولوا إلى طقوسهم الوثنيـة وإلى قذارتهم، وسألوا أيضاً رأي الكنيسة الـرومانية هل ينبغي أن يصنع هذا.

٣٣- ورأيت في ذلـك الزمـان والمكان أيضاً أسقـف جبلة في سـورية المتقـدم ذكره، —الـذي بفضـل جهوده بشكـل خـاص بـدأت أنطاكيـة تصبح تابعة تمامـاً للكنيسة الرومانية— وقد جاء ليقـدم شكوى ضد كل من بطريركـه في أنطاكية وأم(*) الأمير ابنة بلدوين —الـذي كان مرة ملك القدس— وطـالب بحقوق قديمـة، قياساً بما فعله ابـراهيم، (ذلك أنه أعطى عشر الأسلاب إلى ملكيصادق، بحكـم أنه عزا نصره إلى الرب) أن يُـدفـع له عُشر الأسـلاب المأخـوذة مـن المسلمين، وطالـب أن يمنـح التفويـض من الكـرسي الرسولي بشـأن هذه المسألـة، ولقد سمعتـه يقدم شكوى مريـرة تتعلق بالمخاوف المحيقـة بالكنيسة في بلاد مـاوراء البحار

(*)- لم تكن الأم بـل حماة الأمير ريمونـد الأول أمير أنطاكية، وكـانت أرملـة الأمير بوهيمـوند الثاني وأم كونستانتيا، زوجة ريموند.

منـذ الاستيلاء على الـرهـا، وقـال إنه يفكـر لهذه الغـايـة بعبور جبـال الألب إلى ملك الرومان والفرنجة ليطلب العون.

وروى أيضاً أنـه حدث قبل عدة سنـوات مضت أن قام واحـد اسمه بريستر جـون(**)، وهو ملك وكـاهن يسكن فيها وراء ايـران وأرمينيا في أقصى الشرق، وجميـع شعبه مسيحيـون، لكن نسـاطرة، وحكـى أنه شن الحرب على أخي ملوك الفـرس والميديين الذي اسمه سـانياردي (سنجر) وأنه اقتحـم ايكباتنـا EKABATANA (حاضرة ملكهـــم) والتي تقدم ذكـرها مـن قبل، وعنـدما التقـى به الملـوك المتقدم ذكـرهم ومعهـم جيش تألـف من الفرس والميديين والآشـوريين، حدثت معركـة استمرت ثلاثة أيـام، لأن كل فريق كـان يؤثر الموت على الفرار، وألحق بـريسترجون —ذلـك أنهم يـدعونـه هكـذا حسبها اعتـادوا— بـالفرس الهزيمـة بعـد اصابـات بالغة، وأخيراً ظهـر منتصراً، وحكى أنه بعـدما نال بـريسترجون هذا النصر قاد جيشه لتقديم المساعدة للكنيسة المسيحية في القدس، لكن عندمـا وصل إلى نهر الـدجلة ووجد نفســه غير قادر على نقـل جيشه عبر ذلك النهر بأية وسيلة، انعطف متجهـاً نحو الشمال، لأنه قيل له إن النهر متجمد هنـاك بفعل برد الشتـاء، وبعدمـا انتظر هناك لمدة عـدة سنوات، دون أن تتحقق رغباتـه القلبية (لأن المناخ اللطيف المستمـر منعه)، ونظراً لفقدانـه كثيراً من جنـوده بسبب المناخ الـذي لم يعتادوا عليـه، أرغم على العودة إلى وطنه، ولقـد قيل إنه يمت بنسبه إلى المجـوس، وينحدر منهم، وهـم الذيـن ورد ذكـرهـم في الانجيـل [متـى: ٢/ ١]، ولقـد تولى حكـم الشعوب نفسها التي حكموها، وتمتع بشهرة عظيمة وثروة هائلة ومع ذلك لم يستخـدم عصـا صـولجان سـوى واحـدة مـن الـزمـرد، وكـان عظيـم

(**)- سـأورد عنـه المزيد مـن التفـاصيـل في أول المجلـدات التي ستبحث في العـلاقـات الصليبية المغولية وذلك قبل الشروع بتقديم مصادر تاريخ المغول.

الرغبـة في أن يحذو حذو آبائه الذيـن جاءوا لعبادة المسيح وهـو في مزوده، ولـذلك خطـط للذهـاب إلى القدس، لكـن السبب المذكـور آنفاً منعـه، فهكذا يروي الناس....

أعمال فردريك بربروسا

الكتاب الأول

(٣٤،٣٥) عندما كان يوجين (الثالث ١١٤٥-١١٥٣) بابا في روما، وكونراد [الثالث ١١٣٨-١١٥٢] يحكم هناك، ولويس [السابع ١١٣٧-١١٨٠] في فرنسا، ومانويل امبرطوراً في المدينة الملكية، وفولك [ت١١٤٤ وخلفه ابنه بلدوين الثاني] في القدس، أرغم لويس بوساطة رغبة داخلية على قرار الذهاب إلى القدس لأن أخاه فيليب كان قد ربط نفسه بالتعهد نفسه، لكنه منع بالموت، ولم يمتلك الرغبة في زيادة تأجيل هذا القرار، ولذلك استدعى بعضاً من أمرائه وأباح لهم ماكان يدور في خلده.

وكان في تلك الآونة في فرنسا راعياً لدير كليرفو اسمه برنارد، وكان محترماً في الحياة والأخلاق، عظيماً في طريقته الدينية، تمتع بالحكمة والمعرفة الأدبية، ومشهوراً في الشارات والكرامات العجيبة، وقرر الأمراء استدعاءه بغية سؤاله —وكأنه يملك الالهام الرباني— ماالذي ينبغي فعله بالنسبة لهذه المسألة، وتمّ استدعاء الراعي المتقدم الذكر، وطلب منه تقديم نصيحته بشأن رغبة الأمير التي ذكرتها، ورأى أنه لايجوز اعطاء الجواب لمثل هذه المسألة الكبيرة والحكم عليها انطلاقاً من موقفه ورأيه لوحده، ولهذا أجاب انه من الأفضل احالة المسألة إلى مسامع وتقدير الحبر الروماني، وبناءً عليه جرى إرسال سفارة إلى يوجين، ووضعت القضية بأكملها أمامه، وفكر يوجين فيها ملياً، وانطلق من قاعدة سلفه —أي اعتمد على حقيقة ماقام به أوربان في مثل هذه المناسبة، وكيف

أنه ربح بإعادة الوحدة والسلام إلى كنيسة ماوراء البحار مع بطريركتين (أي أنطاكية والقدس) كانتا قد قطعتا نفسيهما عن طاعة الكنيسة الرومانية— فأعطى موافقته على رغبات الملك السالف الذكر، وذلك في سبيل مد انتشار الايمان المسيحي ومراعاته، ومنح الراعي الذي ذكرنا اسمه من قبل —والذي نظر من قبل شعوب فرنسا وألمانيا كنبي وحواري— صلاحيات وسلطة التبشير وتحريك قلوب الذين كانوا هناك، وهاكم نص الرسالة التي وجهها إلى الملك مع أمرائه فيما يلي:

٣٦(٣٥) «الأسقف يوجين عبد عبيد الرب، إلى ابنه العزيز في المسيح، لويس الملك الممجد واللامع للفرنجة وإلى أبنائه الأحباء الأمراء، وإلى جميع الشعب المؤمن بالرب، الذي يسكن في أرجاء فرنسا، تحيات وتبريكات رسولية.

كم كان عظيماً، مابذله أسلافنا من البابوات الرومان، في سبيل تحرير الكنيسة الشرقية، فلقد عرفنا ذلك من روايات المسنين من الرجال، ووجدناه مدوناً في تواريخهم، ذلك أن سلفنا البابا أوربان صاحب الذكرى المباركة، أرسل النداء،وكأنه صوت من السماء، وتولى حشد أبناء الكنيسة الرومانية المقدسة من أقاصي الأرض للتداول حول هذا، واستجابة لندائه، قام الذين فيما وراء الجبال، وبشكل خاص أكثر المقاتلين شجاعة ونشاطاً لمملكة الفرنجة وكذلك المقاتلين من ايطاليا الذين التهبوا حماساً واندفاعاً، فتدفقوا جميعاً واجتمعوا، وعندما اجتمع حشد عظيم منهم قاموا بتحرير تلك المدينة من دنس الكفار، تلك المدينة التي عانى فيها مخلصنا عن طواعية من أجلنا، وتركها لنا لتكون ذكرى لمعاناته ولضريحه الممجد، ولقد فعلوا ذلك بدون أن يسفكوا كثيراً من دمائهم، فقد رافقتهم العناية الربانية والمساعدة، وحرر هذا الحشد أعداد كبيرة من مدن أخرى، تجنباً للاطالة لن أقوم بذكرها، فقد ناضل هؤلاء بنعمة من الرب وبفضل حماس آبائك وغيرتهم فيما تقدم من

السنين ، ناضلوا بقوة لحمايتهم ولينشروا في الخارج اسم المسيح، وفي تلك الأجزاء التي مازالت بأيدي المسيحيين حتى أيامنا هذه، وكذلك مدناً أخرى من مدن الكفار التي استولوا عليها بشجاعة، لكن الآن، بسبب من ذنوبنا وذنوب هؤلاء الناس، جرى الاستيلاء على مدينة إديسا من قبل أعداء صليب الرب، وإديسا هي المدينة التي لانستطيع ذكرها دون عظيم أسى ونحيب، إنها المدينة التي ندعوها بلساننا الرها، التي قيل إنها الوحيدة التي خدمت الرب وبقيت تحت الحكم المسيحي وذلك في وقت كانت فيه جميع بلدان الشرق مملوكة من قبل الكفار، نعم لقد استولى عليها أعداء صليب المسيح وعلى عدد كبير من الحصون المسيحية التي كانوا قد انتزعوها منهم، وحدث إثر هذا أن جرى هناك قتل رئيس أساقفة تلك المدينة مع رجال دينه وعدد كبير آخر من المسيحيين، كما أعطيت آثار القديسين إلى الكفار للدوس عليها وبعثرتها.

وعلى هذا كم هي عظيمة المخاطر التي تهدد كنيسة الرب وجميع المسيحيين، فهذا مانلاحظه نحن أنفسنا، ونعتقد أنه ليس خافياً على حكمتكم، وسيكون جلياً وأعظم برهان على نبلكم وتماسككم إذا ماتمّ الدفاع عما امتلكه الآباء بقدرتهم، بوساطة قدراتكم أنتم أبناؤهم، لكن إذا ماكان الأمر غير ذلك —الذي يحرمه الرب— فإن شجاعة الآباء التي ظهرت سوف تتلاشى في أبنائهم.

وبناءً عليه نحن ننذركم، ونرجوكم، ونأمر كل واحد منكم، وقد قضينا بغفران ذنوبكم، وهذا الذي قضيناه هو قضاء الرب، وخصصنا بالغفران الذين هم أكثر قوة ونبلاً، الذين حملوا أسلحتهم بكل شجاعة، ويناضلون بشدة لمواجهة حشود الكنيسة الشرقية التي جرى —كما قلنا— تحريرها من طغيانهم بسفك كثير من دماء آبائكم وسيتولون انقاذ الآلاف المؤلفة من الأسرى، وتخليصهم من أيديهم، فهم اخواننا، حتى يزداد شرف اسم المسيحية عظمة وانتشاراً في أيامكم، ومن أجل أن تبقى

شجاعتكم التي عمّ الثناء عليها في جميع أرجاء الدنيا سليمة غير محدوشة.

وليكن ميثاثياس [المكابيون: ١/ ٢] مثلاً أعلى لكم، فهو لم يتردد أبداً في تعريض نفسه مع أولاده وأبويه للموت في سبيل الحفاظ على شريعة آبائه، كما لم يتردد مطلقاً في التخلي عن كل مايملكه، وأخيراً وبمعونة ربانية، وبعد جهد طويل، انتصر هو مع أبنائه برجولة على أعدائهم.

واعتماداً على صلاحياتنا الأبوية وعملنا من أجل سلام شعبكم، وإعادة بناء تلك الكنيسة، وبموجب السلطات المضفاة علينا من الرب إننا نمنح ونؤكد منح الغفران من الذنوب الذي أعطاه سلفنا البابا أوربان إلى الذين قرروا بموجب غيرتهم الدينية وحماسهم القيام بالواجب المقدس جداً، وتنفيذ الأعمال الضرورية كثيراً، ونرسم أن أزواجهم وأولادهم وبضائعهم ومقتنياتهم سوف تبقى تحت حماية الكنيسة المقدسة، وتحت حمايتنا، وتحت حماية رؤساء الأساقفة، وحماية الأساقفة ورجال الدين الآخرين في كنيسة الرب، زيادة على هذا إننا نحرم بموجب سلطاتنا الرسولية القيام بأي اجراءات قانونية تتعلق بأي من ممتلكاتهم القائمة في الآونة التي قبلوا فيها حمل الصليب، حتى تتوفر معلومات أكيدة تتعلق بعودتهم أو وفاتهم.

زد على هذا، بما أن هؤلاء الذين هم جنود الرب، سوف لن يهتموا بأي شكل من الأشكال، أو يلتفتوا نحو الملابس الثمينة أو الزينة الشخصية، أو الكلاب أو النسور، أو الأشياء الأخرى، التي تعبّر عن حياة الرفاهية إننا نتمنى على حكمتكم باسم الرب، في أن لايلتفت الذين وصلوا إلى قرار القيام بمثل هذا الواجب المقدس، نحو هذه الأشياء بل أن يكرسوا حماسهم وعنايتهم مع جميع طاقاتهم، على السلام والخيول والأشياء الأخرى التي يمكن بها محق الكفار.

زيادة على هذا، إن جميع المثقلين بالدين، ممن قرروا بقلبٍ نقي القيام بهذه الرحلة العظيمة القداسة، لايحتاجون إلى دفع الفوائد المستحقة عليهم، وإذا ماكانوا هم أنفسهم قاموا ، أو أحد سواهم لصالحهم بقسم أو تعهد من أجل هذه الفوائد، إننا نقوم بموجب سلطاتنا الرسولية بتحليلهم من هذه العهود والأيمان، كما ونسمح لهم في حال أن أقربائهم أو مواليهم الاقطاعيين، كانوا بعدما سئلوا غير قادرين أو غير راغبين بتزويدهم بالمال، في أن يقوموا برهن أراضيهم أو ممتلكاتهم لدى الكنائس أو لدى الشخصيات اللاهوتية أو لدى المؤمنين الآخرين، حسبما يرغبون ودون أن يعترضهم معترض.

ونحن نمنح الغفران من الذنوب والتحليل، وفقاً للسابقة التي أسسها سلفنا، وكذلك بموجب سلطات الرب القادر، وبطرس المقدس، رئيس الحواريين، وبموجب السلطات الممنوحة إلينا من قبل الرب، وبناءً عليه: كل من تولى عن طواعية وإيمان القيام بهذه الرحلة العالية القداسة، وأكملها أو توفي هناك، سيحصل على غفران تام لجميع ذنوبه التي تقدم له واعترف بها بقلبٍ ذليل، كما وسيحصل من بين جميع الجوائز، على ثمرة المثوبة السرمدية.

منح في فيترالا Vetralla في شهر كانون الأول [١١٤٥]».

(٣٦)٣٧) ولنعدبعد هذا إلى سياق الرواية:

لم يسىء الراعي برنارد المبجل استخدام السلطات التي أضفاها عليه الكرسي الرسولي، فقد حزم نفسه وتمنطق بسيف كلمة الرب، وبعدما أيقظ قلوب العديدين من أجل القيام بالحملة إلى ماوراء البحار، قام أخيراً [١١٤٦] بعقد اجتماع عام في فيزلي، وهي بلدة فرنسية حفظت فيها عظام مريم المجدلية المباركة، وحضر الاجتماع عظماء وأعيان مقاطعات فرنسا، فقد تسلم هناك لويس ملك الفرنسيين، بنشاط عظيم

وروح عاليـة الصليب من الـراعي الآنف الذكـر، وتطوع للقيام بـالعمل العسكري فيها وراء البحـار، ومعه الكـونتين: ثيري أوف فلانـدرز، وهنري ابن ثيبود أوف بليوس، وبارونات آخرين ونبلاء من مملكته.

٣٧)٣٨) وفي الوقـت نفسه كان هنـاك الراهـب رالف، وكان بـالحقيقة رجلاً متمسكاً بالتقاليد الدينية، وآخذاً بـذكاء بصرامة الدين، مع أنه كان متوسـط الثقافـة، وقد دخـل هذا الـراهب إلى المنـاطق الفـرنسية المتـاخمة للراين، وألهب اثـارة عدة آلاف من سكان: كولـون، وميتز، وورمز، وسبير، وستراسبـورغ، ومـدن مجاورة أخـرى، وبلـدات وقـرى، وجعلهـم يقبلـون بحمل الصليـب، لكنه قـام أثناء تبشيره بالـدعوة بكل صراحـة بأنـه من المتـوجب ذبـح اليهود الـذين تبعثـرت مساكنهـم خلال المدن والبلـدات لأنهم أعداء الـديانـة المسيحية، وتـرسخت جـذور هذه الـدعوة وانتشرت وتنامـت في عدد كبير من مدن فـرنسا وألمانيا وقادت إلى قتـل أعداد كبيرة من اليهـود أثناء هـذه الزوبعـة الهائجة، في حين التجـأ الكثيرون واحتموا تحت حماية أمير الرومان، وهكذا حدث أن الكثيريـن منهم هربوا من هذه الأعمال الـوحشية بهدف انقـاذ حيـاتهم، وحملـوا أنفسهم إلى بلـدة الأمير التي اسمها نوركيوم أو نورنبيرغ وإلى مدن أخرى تابعة له.

٣٨)٣٩) وقـام راعي كليرفـو المتقدم الـذكر بـاعطاء تعليمات حظـر بها هذه الدعـوة، وبعث برسل ورسـائل إلى شعبي فرنسا وألمانيـا أوضح فيها بشكـل جلي أنه بمـوجب سلطـات الكتابـات المقدسـة ليس لليهـود أن يقتلوا بسبـب جرائمهم الدائمـة، بل ينبغي بعثرتهم، ولفـت الانتباه بهذه المنـاسبـة إلى مـاكتبـه صـاحــب المزامير الـذي قـال في المزمـور السـابـع والخمسين:

«الرب يريني بأعدائي. لاتقتلهم» ويقول أيضاً: «تيّهم بقوتك » .

[المزامير: ٥٩/ ١٠-١١] .

٤٠ (٣٩) والآن بعـدمـا استجابـت حشـود لاتحصـى في غربي فـرنسـا للقيام بالحملة فيما وراء البحـار، قرر برنارد الالتفات بنشاطـاته نحو شرقي مملكة الفـرنجة، ليحـرك بقوة التبشير وليثير قلب أمير الـرومان حتـى يقبل بحمل الصليـب، وكذلك ليقـوم باسكات رالـف، الذي يدفـع الناس في المدن للثورة على أسيادهـم وذلك أثناء تبشيره وحملته ضـد اليهود، وإثر سماعه بهذا، قام الأمير بتوجيه الدعوة إلى اجتماع عام يعقد في مدينة سبير يـوم ميلاد الـرب [عيد ميـلاد ١١٤٦]، وقدم الـراعي المتقـدم الذكـر إلى هناك، فتمكـن من اقنـاع الملك مـع ابن أخيـه فردريـك، وأمراء آخـرين وأعيـان مشهوريـن بقبول حمل الصليـب، كما أنه قـام بعدد مـن الأعمال الاعجازية بشكل علني وبشكل خاص.

هـذا وكان قـد ذهب أيضـاً إلى مينـز [تشرين ثـاني ١١٤٦ قبل عقـد الاجتماع العـام في سبير] حيـث وجـد رالف يعيـش هنـاك وسـط حظـوة عظيمة مـن الناس، فـاستدعـاه إليه وحـذره من تـوريط نفسـه بموجـب سلطات التبشير، وذلك بالتجوال في البلاد خارقـاً بذلك أحكام الرهبنة، ثم ضغط عليه وشدد حتى أقنعه بالـوعد بالطاعة والعودة إلى ديره، وكان الشعب غاضبـاً جداً لهذا ، وأراد الشروع بالثورة، لكنه تمنـع وحبس نفسه بسبب قداسة برنارد.

٤١- في الـوقت نفسـه حمل الدوق فـردريـك العالي النبـالة، في قلبـه غضباً عظيماً ضـد مولاه وأخيه الملـك كونراد، لأنـه سمح لابنه فـردريك —الذي كان بكره والـولد الوحيد الذي ولد لـه من زوجته النبيلة الأولى، وجعله الـوريث لجميـع البلاد وأوكـل إليه المسـؤولية عـن زوجته الثـانية وابنها الصغير— وذلك بغية قبوله بالصليـب، وكان الدوق فردريك معوقاً في فرنسـا بسبب مـرض خطير ألمّ به، وقـد جاء الـراعي السـالف الـذكر لزيارتـه، وباركه وصلى من أجله، غير أن هذا الـدوق لم يستطع تحمل آلام مرضـه وأحزانه، فتـوفي بعد أيام قليلـة، ودفن في الـدير الذي يحمـل اسم

القديس ولبيرغ، والقـائم على حدود الألزاس، وقد خلفه ابنـه فردر
دوقيته.

٤٠١٤٢، ٤٠) دخل بعد هذا الأمير إلى بافاريا، وعقد هناك اجتماعاً ف
شهر شبـاط [١١٤٧]، واصطحب معـه بدلاً مـن راعي كليرفـو آدم
إبراخ Ebrach وكان رجلاً مـؤمناً ومثقفاً، وقد أقام هنـاك قداساً
حسبما جرت العـادة، وبعدما استمطر الـرحمات من الروح القـدس
المنبر، وإثـر قراءتـه لـرسالتـي الكـرسي الرسـولي وراعـي كليرفو، اس
بوسـاطة إشارة بسيطة أن يقنـع الجميع تقـريباً ممـن كان للتعهـد با
بالخدمة العسكريـة، ذلك أنه لم تكن هناك من حـاجة لاستخدام
الحكمـة الانسانيـة للاقنـاع أو للاستعـانة بـوسائل الاثـارة الاصطن
اعتماداً على أسـاليب البـلاغـة الخطابيـة، بسبـب أن جميع الـذيـن
حـاضرين قـد أثيروا من قبـل وجاءوا مسرعين عـن طواعيـة واختيا
أنفسهـم لاستلام الصليـب، وتقبـل في تلك السـاعة نفسهـا ثـلاثة
الأساقفة الصليب وهـم:

هنـري أوف ريجنسبيرغ، وأوتـو أوف فـريـزنـغ ورينبيرت أوف بـ
وكذلك دوق البـافاريين، واسمه هنري، الـذي هو أخو الملك، وجـا
بين سلك الكونتات والنبلاء والأعيان البـارزين حشد لايمكن عدّه،
الغريـب الحديث عن إلتحاق حشـد عظيم من قطاع الطـرق واللص
حيث قدموا مسرعين، إلى حد أن ما مـن انسان فيه عقل يخفق في إ
أن هذا التحول المفـاجيء وغير الاعتيادي قد جاء مـن أيدي الرب ا
سمواً، وألا يـأتي ادراكه مـن قلب أصيـب بالـدهشة، وتعهـد ولف،
الآخـر لهنري، وهـو الـدوق المتقدم، والـذي كـان واحـداً من أعلى
المملكة مكـانة، بالقيـام بالمهمة العسكريـة نفسها، وكان معـه عدد
آخر، وتمّ تعهدهم في مساء يوم ميلاد مولانا، وجرى ذلك في اقطاعي
ستيريا Styriaولم يمـض وقت طـويـل حتـى أخذ الصليـب أيض

فلاديسلاف دوق البوهيميين (*)، وأوتوكار أمير تخوم ستيريا، وكونت برنارد اللامع صاحب كارينثيا Carinthia ، وتبعهم أعداد كبيرة من أتباعهم وشعبهم، غير أن السكسون، رفضوا التوجه نحو الشرق، لمجاورتهم لبعض القبائل التي انصرفت عن قذارة الوثنية، ولذلك حين حمل السكسون الصليب مثل سواهم قصدوا حرب هذه الأجناس، ومن هذا الجانب اختلفت صلبانهم عن صلباننا، في أنها لم تكن مخاطة ببساطة إلى ثيابهم بل حملت عالية فوق عجلات.

٤٣(٤١)- وفيما يلي نسخة الرسالة التي بعث بها راعي كليرفو إلى المناطق الشرقية من مملكة الفرنجة [١١٤٦]:

«إلى الأمراء الأعزاء جداً والآباء، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة وجميع رجال الدين والشعب في شرقي فرنسا وبافاريا. من برنارد راعي دير كليرفو، فيض من روح الشجاعة.

إنني متحدث إليكم عن أشياء تتعلق بالمسيح، خاصة حول الأمور التي يوجد فيها خلاصكم، وأقول مايمكن لسلطات الرب أن تسوغ عدم صلاح الشخص الذي يتحدث، كما تعطي الاعتبار للكلمات المتفوه بها، إنني في الحقيقة ضعيف، غير أنني لست ضعيفاً في رغباتي نحوكم في حب يسوع المسيح، وهذا هو السبب الدافع لي للكتابة إليكم، إنها مناسبة اقدامي على التشاور معكم جميعاً بالمراسلة، ولدي رغبة تفضل بحث هذا معكم بوساطة كلمات الفم، إذا ماتوفرت الارادة، وتأمنت المناسبة.

(*)- فلاديسلاف الثاني، زوج غيرترود أخت أوتو، ونصف أخت كونرادالثالث، وقد أقيم دوقاً في بوهيميا سنة ١١٤٢ بمساندة من كونراد، وكثيراً مايتداخل اسمه مع اسم فلاديسلاف الثاني صاحب بولاندا، الذي تزوج من أنجس أخت أوتو.

انتبهوا أيها الأخـوة إن الوقـت الآن هو وقت الاجـابة. انتبهـوا إن اليوم الآن هو يوم الخلاص في جميع المعـايير، لأن الأرض تحركت وجاشت، لأن رب السموات سيخسر أرضه، أرضه التي ظهر فيها، وعاش فيها لمدة تزيد على الثلاثين سنة بمثابة رجل بين الرجـال، أرضه التي تمجدت بمعجزاته والتي كـرسها بـدمه الذاتي، والتـي ظهرت فيهـا أول زهور القيـامة، والآن حدث بسبـب ذنوبنـا أن رفع أعداء الصليـب رؤوسهم الملعـونة، وعـاثوا فسـاداً بحـدّ السيف في تلـك الأرض المبـاركـة التي هـي أرض الميعـاد، الوقـت بات قريبـاً، لابل إنه لـن يمضي كثيراً قبل أن يندفعـوا إلى داخل مـدينـة الـرب الحي، ليـدمروا الأعمال التـي صنعهـا مخلصنـا، وليلـوثـوا الأماكـن المقدسة ويلطخوهـا بالدم القـرمزي لحمل بلا عيـب ولا دنس، لقـد أطبقوا —وأسفـي لـذلك— بمقـابـض ملـوثة على الحرم المقـدس للديـانة المسيحيـة، ويسعون إلى تدنيـس، وإلى أن يضعوا تحت أقـدامهم مكان الـراحة الـذي ترتـاح فيه حيـاتنا بـالموت، ماذا نحـن أيها الرجـال الشجعـان؟ ماذا أنتـم يـاعبيـد الصليب؟ هـل ستعطـون مـاهو مقـدس للكلاب ودرركم للخنازير؟ كم من مـذنب اعترف هناك بذنبه وهو يبكي ونال العفـو، وذلك منذ أن أزيلت قـذارة الكفار بسيوف آبائنـا! لقد رأى الشرير هذا، فكان جسـوراً فالتهم بأسنانه ذلك كله وذهـب به، وقد أثار عبيد طغيانـه حتى لايبقى أدنى أثـر أو شارة من التقوى أبـداً —لاسمح الرب— ولذلك قواهم حتـى ينتصروا، وحقيقة إن هذا مصدر آلام لجميع الأجيـال المقبلة لأن الخسـارة لايمكن تعـويضهـا، لكن بـالنسبة للجيـل الشرير الحالي سيكون بشكل خاص مصدراً للعـار وللانتقاد بلانهاية، ومع هذا مـاالذي تـرونه أيها الاخوان؟ هـل بات ذراع الـرب قصيراً أو ضعيفاً لايستطيع الانقـاذ، لأنه حشـد هذا القليل فقـط للدفـاع عنه، ولاسترداد ميراثه؟ ألا يستطيع هـو ارسال أكثر من اثنتي عشرة فرقـة من الملائكة، أو حتـى أن يتفوه بـالكلمـة فقـط، ستكون البـلاد حـرة؟ لاشـك أن قوتـه موجودة حيثما أراد ومتى شاء.

لكنني أقول لكم إن الرب مولاكم يقوم بامتحانكم، إنه يحدق ببني البشر ليرى بمجرد الصدفة واحداً يمكنه أن يفهم وأن يبحث، وهو آسف من أجله، لأن لدى الرب الرحمة لشعبه، ويزود الذين سقطوا نحو الأسفل بعلاج الخلاص، قدروا كم هي بديعة طرائقه للانقاذ ورائعة، تمعنوا أيها المذنبون كم هو عميق حبه، وآمنوا، هو لايريد موتكم، بل يريدكم أن تتحولوا وأن تعيشوا، لأنه ينشد فرصة لاتكون ضدكم بل لصالحكم...».

بهذه الكلمات، وبالاشارة إلى الموضوع نفسه شغل راعي كليرفو نفسه، وفق طرائق الخطباء وأساليبهم، وأكد أن اليهود ينبغي ألا يقتلوا وبرهن ذلك بالمنطق وباستخدام السلطة....

٤٤)٤٢) وهكذا تحركت شعوب لاتحصى عدداً وأمم ليس فقط من داخل الامبراطورية الرومانية وإنما أيضاً من الممالك المجاورة، أي من فرنسا وانكلترا وبانونيا، تحركت جميعها لحمل الصليب، وفجأة غدا الغرب كله تقريباً هادئاً ليس في عدم إنشاب الحروب بل في عدّه حمل السلاح بشكل علني خطأ........

٤٦)٤٤) وهكذا عندما انقشع برد الشتاء، وبدأت الورود والنباتات تخرج من بطن الأرض تحت زخات مطر الربيع المباركة، وابتسمت المروج الخضراء للعالم، جاعلة وجه الأرض مسروراً، وقتها قاد الملك كونراد قواته من نورمبرغ في تشكيل عسكري، وأخذ سفينة عند ريجينسبيرغ ليبحر نزولاً في الدانوب، وفي يوم أحد الصعود أقام معسكره في الجهة الشرقية من بلدة اسمها أرداكير Ardacher وانتظر هناك لمدة يومين أو ثلاثة أيام رجاله الذين كانوا قادمين، وتابع من هناك تقريباً حتى حدود مملكته، وتوقف ليس بعيداً عن نهر فيسكا Fischa ، وبعدما احتفل هناك بأحد العنصرة عبر الليثا Leitha مع جميع قواته تقريباً،

حيث أبحر بعضهم نزولاً في الدانوب بينها تـابع آخرون السير براً، وقد أقام معسكره في بانـونيا، غير أنه جرّ من ورائه حشداً كـان عظيماً إلى حد بدت فيـه الأنهار وكأنها غير كـافيـة للملاحـة فـوقهـا أو أن امتدادات السهـول لاتكفي للسير عليها، وسار لـويس ملك الفرنسيين مع رجالـه خلفه لكن ليس بعيـداً عنه، وقـد جلب معـه من شعبنا أهـالي اللوريـن الذيـن كان أمراؤهم أو قادتهم من الأساقفـة: ستيفن أوف متز، وهنري أوف تول، ومن الكونتـات: رينالـد أوف موزون وهيـو أوف فودمـونت Vaudemont ومـن ايطاليـا أماديـوس أوف توريـن مـع أخيه وليـم مركيـز مونتفـرّات، وأعمامهما وعدد كبير آخر........

(٤٥) وبعد بانـونيا جرى اجتياز بلغاريا لكـن على حساب الكثير من المتاعـب ومصاعـب الطريـق، وبعد عبـور تراقيـا العليا تـمّ تسلق جبـل هبروس، ثـم كان أن سرنـا لعـدة أيـام ونحن نشعـر بكثير مـن السرور في قلوبنـا في مناطق خصبـة في تراقيا الـدنيا، وذلـك في طريقنا نحـو المدينة الملكية [القسطنطينية]، وفي اليوم السابع قبـل الثالث عشر من أيلول، أي في اليـوم [٧-أيلول] الـذي تقـدم على الاحتفال بميـلاد مـريـم المباركـة وصلنا إلى أحـد الوديان على مقـربة مـن بلدة تدعـى شيرفاخ Chere-vach [كـاتالكـا إلى الغـرب من القسطنطينيـة]، وكان مكـانـاً جذابـاً بسبـب حقولـه الخضراء ولتميـزه بمجـرى نهر صغير يمر في وسطـه، ولقـد استولى علينا سحر المكان فقررنـا نصب خيمتنا هناك والاستراحة في ذلك المكان ذلك اليـوم، بهدف الاحتفال بسرور كبير وفرح بيوم ميـلاد أم الرب، العذراء دوما، وفقـط نصب الدوق فردريـك ومعه حاشيته وكـذلك عمه ولف —لأن عساكر اللورين لم تكـن قد التحقت بنا بعد— معسكراً على مقـربـة مـن طـرف أحـد الجبال المواجـه لنـا، وذلـك ليـس بعيـداً عـن البروبنطش الـذي يدعـى الآن باسـم ذراع القديـس جورج، فهنـاك على شاطئـه بلدتان صغيرتان هما: سلمبريـا وأثيرا، فمنهما كنا نتوقـع الحصول

على فرص للتجارة.

وقد عرف هذا البحر مرة باسم الهلسبونت، من خلال القصة المعروفة كثيراً حول فريكسوس وهيللي(*)، أو باسم البروبنطش (أي مطلع بنطش) لأنه يندفع نحو الأمام من البنطش بقوة نهرين عظيمين هما الدون والدانوب يتدفقان كما يقولون مثل سيل لطيف، ويصبان في البحر الأدرياتيكي أو البحر الطروادي قرب طروادة القديمة(**). وأعترف أننا لم نحصل خلال حملتنا على معسكر أجمل، ولم يكن معسكرنا قط مثل هذا (بحسب مايمكن للمرء أن يحكم من طريقة التعبير) مغطى باطار أوسع.

لكن حدث عند الصباح أن ظهرت غيمة صغيرة أخذت تنزل مطراً لطيفاً، وفجأة تغيرت الأحوال وقامت زوبعة تلاها ريح شديد اقتلع الخيم ومزقها، ودفعها بعنف نحو الأرض، وقد بعثنا ذلك من فرشنا التي أوينا إليها متأخرين، وقامت زوبعة ملأت الجو من حولنا، لأن النهر الصغير ازداد حجمه كثيراً —لعل ذلك كان بسبب تدفق مياه البحر المجاورة، أو نتيجة للأمطار المتساقطة، أو أن تساقط الأمطار بهذه الغزارة كان انتقاماً من قبل الرب في علاه، فهذا كله غير مؤكد— ونتيجة لازدياد الماء فيه فقد طافت زيادة عن عادتها إلى حد أنها غطت جميع البقعة، ماالذي كان من الممكن لنا فعله؟ فقد عددنا هذا عقوبة ربانية، وليس كارثة طبيعية، ومع ذلك امتلأنا جزعاً، ومهما يكن الحال أسرعنا نحو خيولنا القوية، وحاول كل منا عبور النهر بأفضل طريقة ممكنة له، وكان بإمكانك أن تشهد بعضنا يسبح، وبعض تمسك بظهور الخيل، وربط بعضهم أنفسهم بلا حياء بحبال بغية النجاة من الخطر، واندفع

(*)- هرب فريكسوس وأخته هيللي عبر المضائق على ظهر كبش صوفه ذهبي، غير أن هيللي وقعت وغرقت.

(**)- خطأ —يصبان في بحر ايجه.

بعضهم بشكل فوضوي إلى داخل النهر وأخذوا يغطسون لأنهم بدون انتباه تمازجوا واختلطوا، وكان هناك أعداداً كبيرة اعتقدت أن بإمكانها السير والعبور فجرفها بعيداً اندفاع النهر، فأصيبت بجراح بسبب الصخور، وغرقت بقوة تيار الدوامات، ففقدت حياتها في النهر، وقام بعض الذين لايعرفون السباحة بالامساك بهؤلاء الذين كانوا يسبحون، وكان هدفهم النجاة غير أنهم سببوا الانهاك لهم، ولذلك أعيقوا، حتى توقفت أذرعتهم عن الحركة فاستلقوا على ظهورهم، وغطسوا جميعاً وغرقوا.

واستطاع بعضنا الآن أن يحملوا أنفسهم إلى خيام الدوق فردريك التي بقيت لوحدها دون أن تصاب بأذى من هذا الفيضان المدمر، واستمعنا هناك إلى قداس مهيب وغنينا «دعونا نبتهج» ولكن بدون بهجة أو سرور لشعورنا بكثير من المرارة في القلب، ولهذا سمعنا أنين وبكاء رجالنا، وتمكن أخيراً بعضهم من جواز هذا الرعب بوساطة الكثير من الجهد والخوف، وقام بعضهم الآخر وهم في حالة من اليأس فربطوا معاً عدة عربات مع تجهيزات أخرى مما أمكن تأمينه، ووضعوا هذه المواد لتشكل حاجزاً ضد الماء المندفع منتظرين توقف الفيضان.

لكن كم كان عظيماً ماخسره جيشنا هناك في الرجال والبضائع والعتاد الضروري لمثل هذه الرحلة الطويلة، لاأحتاج أن أذكره، ففي اليوم التالي عندما تناقصت المياه وظهر وجه الأرض، كنا جميعاً مبعثرين هنا وهناك، ويمكنك حين ترانا أن ترى صورة محزنة لمعسكرنا على عكس الصورة المبهجة التي يمكنك رؤيتها في اليوم المتقدم، ولذلك ليس —كما يبدو— خطأ القول كم إن القوة الربانية أهم من النور، وكيف أن السعادة الانسانية غير مستقرة، وتزول بسرعة. لكن يكفي هذا......

(٥٨،٦٢) وبينما كانت هذه المسائل وقضايا أخرى من هذا النوع

تحدث في فرنسا، غطى جيشنا وجه البحر، وتوزع مستخدماً مختلف الوسائل والجهود من الابحار بالسفن أو طرائق أخرى في أماكن متعددة بغية الوصول إلى اليابسة في أسرع وقت ممكن، لأن لويس ملك الفرنجة رسا في حوالي منتصف أيام الصيام في مكان يدعى ميناء القديس سمعان (السويدية) على مقربة من أنطاكية، وهي البلاد التي كان أميرها عمّ زوجته(*)، ورست مجموعة أخرى من قواتنا في بطوليس التي تدعى أيضاً باسم عكا، ومجموعة في صور، وأخرى في الصرفند فيما بين صيدا وصور، والصرفند هي ساربتا Sarepta بلدة صيدونياس، ولم يأت رسوهم خلواً من الخوف من تحطم بعض السفن، وبالفعل عانى بعضهم من تحطم سفنهم فكان أن ابتلع اليم بعضهم ونجا بعضهم الآخر وهم نصف عراة.

ودخل الذين وصلوا إلى الشاطيء مبكرين إلى المدينة المقدسة في حوالي أحد سعف النخيل، واحتفلوا هناك باسبوع آلام الرب والقيامة المقدسة، بكثير من مشاعر التقوى في القلب، وداروا حول مختلف هذه الأماكن التي وقعت فيها هذه الأحداث ولمسوها ورأوها رأي العين كما يقول الناس.

ورسا كونراد أمير الرومان في عكا في أسبوع الفصح، وكان بصحبته الأمراء:

أورتليب Ortlieb أسقف بازل وأرنولد، مستشاره، وفردريك دوق سوابيا، وهنري دوق بافاريا، والدوق ولف مع عدد آخر من الكونتات والأعيان والنبلاء، وبعد مضي عدة أيام توجه إلى القدس وسط احتفال

(*)- كان ريموند أوف بواتيه صاحب أنطاكية، أصغر أولاد وليم التاسع دوق أكوتين، وكانت زوجة لويس هي إليانور ابنة وليم العاشر دوق أكوتين.

عظيم واحتفاء به، قام به رجال الدين والشعب، حيث استقبل بتشريف كبير، وتوفي هناك في تلك الآونة فردريك [أوف بوغن] الذي كان من أتباع الملك، وكان محامياً شهيراً عن كنيسة ريجنسبيرغ، وحمل جثمانه إلى المدينة المقدسة، ودفن في مقبرة فرسان الداوية، ليس بعيداً عن معبد الرب القديم.

وبقي الملك هناك لبضعة أيام، حيث أقام في قصر الداوية، وهو المكان الذي كان فيما مضى البيت الملكي، الذي هو أيضاً هيكل سليمان، فهناك بني، وبعدما زار الأماكن المقدسة في كل مكان عاد إلى عكا من خلال السامرة وطبرية، وعندما وصل الفرسان أقنعهم جميعاً بالأعطيات المالية بالبقاء، ذلك أنه اتفق مع ملك تلك البلاد والبطريرك وفرسان الداوية على أن يتولى قيادة جيش إلى سورية في آب المقبل للاستيلاء على دمشق، ولهذا شرع في حشد ماتمكن من القوات بوساطة انفاق المال بسخاء.

٦٣- وتبع الملك لويس الفرنسي المنحى نفسه أيضاً، وذلك بقدر ما أوتي من قوة، فبعد عودته من أنطاكية مكث في صور، وإثرهذا التقى الملكان في شهر حزيران، في حوالي موعد عيد ميلاد يوحنا المعمدان [٢٤حزيران ١١٤٨] في مكان يدعى بالما (آخذاً اسمه من شجرة النخيل) فيما بين صور وعكا، لوضع الخطط فيما يتعلق بالوقت والمكان، والموعد الذي ينبغي فيه حشد الجيش، وعلى كل حال، ومهما يكن من أمر، لم يتم ابتلاع الإباء الملكي وايداعه جانباً دونما مشاق ومتاعب عظيمة، وبما أن مانتج وماحدث أثناء الحملة إلى دمشق قد تمت المعاناة منه لذلك ينبغي حكايته في مكان آخر، وربما من قبل آخرين.

٥٩،٦٤) وبعد إكمال هذه الحملة، أخذ الأمراء يعدون خططهم للعودة إلى الوطن:

الملك الـروماني مـن خلال بلاد الاغـريق [بيـزنطة]، لكـن الآخر عبر طريـق كالبريـا وأبوليا، وبنـاءً عليه أقلـع كونراد أمير الـرومان مـن عكا، وبعدما عبر البحـر إلتقى بأخيه وصـديقه مانويـل، أمير المدينة الملكية في منطقة آخيا أوثيسلي، وقد مضـى لرؤيته وكان مرهقاً بسبـب طول الرحلة، وضعيفاً نتيجة لمشاقها، كما وكان يعاني مـن إعياء عظيم، ولقد ارتاح لديه لبعض الـوقت(*)، وأعـدّ هناك العدة للعـودة، وأرسل أمـامه ابـن أخيه فردريك ليبحـث، أو بالحري ليمتن أوضاع الامبراطورية، وأخـذ فردريك الطريق خـلال بلغاريا وبانونيـا، وقد وصل بلاده في شهـر شباط، وباشر ممارسـة أعماله بمثابة قـاض جيد، فلصالـح السلام قام بشنق واحـد من وزرائه، وبناءً عليـه قام عمه الملك بعـد ا نقضاء عدد مـن الأيام استراح فيها في بلاد الاغـريق بالوصـول إلى داخل مملكته إلى يولا، وهـي مدينة في استريـا، [النمسـا] وذلك بعـد ابحـاره عبر بحـر ايليريا ودالماشيـا، وقـد جلب معه أسقـف بازل المتقدم الذكـر، والمستشار أرنولد مـع أخيه هنري دوق البافـاريين، لأن الدوق ولـف عاد عبر طـريق كـالبيريا وأبـوليا، وفي أبـوليا اتخذ كـونراد لنفسـه مطية امتطاهـا ورحل وهـو على متنها خـلال أكويليا Aquileia وقد احتفـل بأحد العنصرة في يوفـافيا التي تـدعى الآن سالسبـورغ، والمعروفـة بأنها مقـرّ مطرانيـة بافـاريا، وكـان قد مضـى عامـان على حضوره الاحتفـال بهذا العيد نفسـه في منطقة بـانونيـا، وأقام بعد هذا حفلة غذاء في ريجنسبيرغ، حضره حشد كبير من الأمراء.

(*)- رافق كـونراد مانويـل فذهب إلى القسطنطينيـة حيث مكث حتى ربيـع١١٤٩، وخلال هذه المدة عقد الملكان تحالفاً ضد روجر صاحب صقلية.

المحتوى

رقم الصفحة:	الموضوع:
٣	توطئة
٩	مدخل(دراسة ليوحنا كيناموس)
٢٥	**الكتاب الأول من التواريخ**
٢٦	وصول يوحنا كومينوس إلى الحكم وحروبه ضد الترك
٢٩	حرب يوحنا ضد البشناق
٣٠	حرب بين الهنغار والرومان
٣٢	حروب الامبراطور في آسيا الصغرى ضد الترك
٣٥	حروب الامبراطور ضد أرمن كليكية
٣٦	أخبار عن أنطاكية والقدس
٣٨	حصار الامبراطور جون لشيزر
٤١	مشاكل الامبراطور جون مع أنطاكية وحكايات عن مانويل
٤٢	وفاة الامبراطور جون
٤٩	**الكتاب الثاني من تاريخ الرومان**
٤٩	مشاكل مع أنطاكية
٥٠	مشاكل الوراثة بعد وفاة جون
٥٢	حملة ضد أنطاكية
٥٤	زواج الامبراطور مانويل

٥٥ وفاة أخت الامبراطور

٥٦ حملة ضد الترك

٧٧ مشاكل لاهوتية في الامبراطورية

٧٩ مشاكل مع الترك ثانية

٨٠ بداية تحرك غربي صليبي جديد(الحملة الثانية)

٨٧ مراسلات كونراد الثالث ومانويل

٩١ مقاومة الحملة الثانية من قبل الترك

٩٦ اجتماع مانويل بكونراد الثالث في طريق عودة الأخير

٩٧ وفاة كونراد الثالث ووصول فردريك بربروسا إلى العرش

١٠١ **الكتاب الثالث**

١٠١ مقدمات الحروب الصقلية

١٠٤ حملات ضد الكومان والصرب والهنغار

١٢٥ الحروب الصقلية البيزنطية بعد روجر، والحملة البيزنطية الصليبية ضد مصر

١٢٦ مصالحة مع الهنغار ثم عصيانهم

١٢٨ حملة ضد أرمن كليكية

١٢٨ قتل ريموند أمير أنطاكية على أيدي الحلبيين

١٣١ مؤامرات ضد الامبراطور مانويل

١٤١ **الكتاب الرابع**

١٤١ مفاوضات بين فردريك بربروسا وبيزنطة

١٤٢ مقدمات الحروب الايطالية ثم وقائعها

١٧٦ مشاكل لاهوتية في بيزنطة

١٧٧ توجه الامبراطور مانويل نحو آسيا الصغرى

١٧٨ حملة أرناط ضد قبرص

١٧٨ حروب الامبراطور ضد الترك والأرمن

١٩٩ الكتاب الخامس

١٩٩ وفاة ا يرين زوجة الامبراطور

١٩٩ عودة إلى مشاكل هنغاريا

٢٠١ زيارة قلج أرسلان الثاني إلى القسطنطينية

٢٠٣ الزواج الثاني لمانويل

٢٠٥ عودة إلى مشاكل هنغاريا

٢٠٨ أسر نور الدين لعدد من قادة الفرنجة

٢٠٩ تفجر أوضاع هنغاريا مجدداً

٢١٣ حملة كلامية ضد البابوية والامبراطورية الغربية

٢١٤ عودة إلى حرب الهنغار

٢٢٠ حملة بيزنطية ضد نور الدين

٢٢٠ صراع ضد فردريك بربروسا

٢٢١	محاولات للتحالف مع البندقية
٢٢٤	فرار أندرونيكوس من السجن
٢٢٦	مشاكل مع روسيا وهنغاريا
٢٤١	**الكتاب السادس**
٢٤١	تجدد المشاكل مع أندرونيكوس
٢٤٢	بعض المشاكل اللاهوتية
٢٤٧	تحرك مشاكل الهنغار مجدداً
٢٥٢	اصابة مانويل بجراح
٢٥٤	مؤامرة ضد مانويل
٢٥٨	عودة إلى مشاكل الهنغار وحملة ضدهم
٢٦١	اعادة ترميم أسوار القسطنطينية وأقنية المياه حولها
٢٦٣	تنظيمات ادارية في بيزنطة
٢٦٤	نقل حجر مقدس من أفسوس إلى القسطنطينية
٢٦٤	حملة ضد مصر بالتعاون مع الفرنجة
٢٦٦	تدهور العلاقات مع البنادقة
٢٧١	العلاقات مع أرمن كليكية
٢٧٢	مشاكل الصرب والهنغار
٢٧٣	حصار الألمان والبنادقة لمدينة أنكونا

٢٧٩	**الكتاب السابع**
٢٧٩	تفجر العلاقات مع قلج أرسلان
٢٨١	اعادة بناء مدينة دوريليون
٢٨٦	هزيمة مانويل وسحق جيشه
٢٨٧	**الملحق الأول**
٢٨٩	**الحواشي والتعليقات**
٣٢٥	**ماورد لدى أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية**
٣٢٧	**المدينتان —الكتاب السابع**
٣٢٧	الدعوة إلى الحروب الصليبية
٣٢٩	حصار نيقية
٣٢٩	حصار أنطاكية والاتصالات الفاطمية الفرنجية
٣٣٠	توجه وفد فرنجي إلى القاهرة ثم حضوره حملة انتزاع القدس من الأراتقة
٣٣١	حصار الفرنجة القدس والاستيلاء عليها
٣٣٢	معركة عسقلان
٣٣٣	استيلاء أوربان الثاني على روما ثم سفره إلى صقلية
٣٣٣	وفاة غودفري
٣٣٤	تقاطر الأوربيون على القدس

٣٣٥ صراعات على السلطة في ألمانيا

٣٣٧ حصار الملك بلدوين لعسقلان

٣٣٨ حملة الامبراطور جون ضد أنطاكية

٣٣٨ وفاة الامبراطور جون ووفاة فولك ملك القدس

٣٣٩ تحرير الرها من قبل زنكي

٣٣٩ وفد ديني أرمني في روما

٣٤٢ ظهور حكاية بريستر جون

٣٤٥ أعمال فردريك بربروسا —الكتاب الأول

٣٤٥ الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية

٣٤٦ رسالة البابا يوجين بالدعوة إلى الحملة الثانية

٣٥٢ تطوع أعيان ألمانيا للمشاركة بالحملة الثانية

٣٥٣ رسالة راعي دير كليرفو إلى المناطق الشرقية من مملكة الفرنجة

٣٥٦ تحرك القوات الألمانية بقيادة الملك كونراد ومن ورائه الملك الفرنسي

٣٥٧ غرق المعسكر الألماني قرب القسطنطينية

٣٥٩ وصول كونراد إلى عكا

٣٦١ وصول الملك الفرنسي إلى صور

٣٦٠ الحملة ضد دمشق واخفاقها

٣٦١ عودة كونراد ولقائه بمانويل

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تواريخ أسرة بلانتغنت

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الثلاثون

دمشق ١٤١٨ / ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تواريخ أسرة بلانتغنت

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثلاثون دمشق ١٤١٨/ ١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

شعرت أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أن الفرنسيين ساهموا فيما يعرف باسم الحملتين الأولى والثانية المساهمة الأوربية الأساسية، لكن منذ مقدمات حطين شهدت الساحات الأوربية تبدلات سياسية هامة،كان أبرزها بالنسبة لموضوعنا تعاظم دور انكلترا، واتساع رقعة مملكتها، فقد بات ملوك انكلترا سادة فعليين على جميع أجزاء بريطانيا بما في ذلك إيرلندا، وامتلكواأجزاء واسعة من القارة الأوربية ،أو بالتحديد من فرنسا، جعلت حدودهم مجاورة لحدود اسبانيا، التي تحالفوا معها عن طريق الزواج الدبلوماسي وتبادل المصالح.

لذلك كان علي البحث عن مزيد من المصادر لتغطية هذا، ولزيادة المعلومات عما يعرف باسم الحملة الثالثة ، حيث أنه باخفاقها، انتهى عصر صلاح الدين، وتمزق المشرق الاسلامي من جديد، وبالوقت نفسه عانت أوربا من الصراعات، لاسيما بين فرنسا وانكلترا، وهكذا عجزت أوربا عن توجيه حملة عملاقة جديدة نحو المشرق ، وكنا قد رأينا من قبل أخبار ومصير الحملة الرابعة، وسنرى ان شاء الله في مجلدات مقبلة أخبار ومصير الحملات الخامسة والسادسة والسابعة، التي كانت صغيرة نسبياً .

وقمت منذ عام ١٩٩٦ بعدة رحلات علمية أوصلتني الى أهم المكتبات من مكتبة الكونغرس والمكتبة البريطانية، ومكتبات القاهرة والى

غيرها كثير، وهكذا وفقت والحمد لله فحصلت على ماكنت بحاجة إليه وعلى أشياء جديدة، كان منها المجلد الذي أكتب له هذه التوطئة ،فهو قد نشر للمرة الأولى في لندن عام ١٩٩٥ ،وهو يحتوي زبدة تواريخ أسرة بلانتغت التي انحدر منها: فولك ملك القدس ، ووالد بلدوين الثالث وعموري الأول، ومنها جاء هنري الثاني ملك انكلترا ومن بعده ابنه رتشارد قلب الأسد.

وفي هذا المجلد من المواد مالانجده في غيره من المصادر، فمن خلاله نحصل على صورة مفصلة عن أوضاع كل من انكلترا وفرنسا قبل نشوب أحداث الحملة الثالثة وبعد ذلك، ونتعرف على العلاقات بين الأسر الحاكمة والاقطاعية ، وفوق هذا نشهد الفوارق بين المستوى الحضاري لعرب المشرق وبين مستويات أوربا، ونميز بين عقليات رجال الدين والكنيسة وإيمانهم بالغيبيات، وعقليات رجال السلطة، وكيف تضاربت دوما المصالح بين الكنيسة والدولة، وكيف توفر الاجماع حين تعلق الأمر بالصليبيات، لابل كانت الصليبيات هي المخرج للأزمات الحادة .

وفي هذا المجلد مجموعة من الوثائق غير متوفرة في مصدر آخر، هذا وإذا ماجمعت مواد هذا المصدر مع مواد ذيل تاريخ وليم الصوري ، ومع المجلدين المقبلين، يمتلك حينها المؤرخ العربي والقارىء المهتم من المواد ماليس أغنى ولا أهم، فهنا نشهد عظمة صلاح الدين ورجال عصره من خلال ماقاله الأعداء ، ذلك أن ماذكره الأصدقاء لايكفي ، فابن شداد حين أرخ لحياة صلاح الدين كان شيخاً لم تسعفه ذاكرته بذكر التفاصيل، فضلاً عن أن منهجه ومقاصده وقتها لم تكن مع التفاصيل ، وأغرق العماد الكاتب كل مايحتاجه المؤرخ بالصنعة ، ثم إن المؤرخ العربي لم يهتم بكل مايهتم به المؤرخ المعاصر.

بوساطة المصادر الغربية تكتمل الصورة ، وتصبح أكثروضوحاً ونقاء، صورة عصر جاء تتويجاً لما تقدمه من عصور، وصورة بطل وحدودي

مجاهد لانظير لـه،يحاول بعض المرضى في أيامنـا النيل منها، ونتلقـن منها درسـاً خطيراً، أن اسرائيل قادرة الآن على العيـش في الوسط العـربي لأنها الكتلة السيـاسية الـوحيدة الموحـدة داخل طوق عسكري وأمنـي مرعب، وأن المشرق العربي إذا لم يـوحد هـو مهدد بالـزوال، عن طريق الـدمار أو الاحتواء أو الشرق أوسطية ،أوالعولمة، أوغير ذلك.

في الماضي رأى صلاح الـدين هذه الصورة ، فنجح في تحقيق الـوحدة، فحقق النصر في حطين وحـرر القدس ، وصمـد في ملحمـة عكا، وطبعـاً كان أسـاس الوحدة لديـه وحدة الشام ومصر، ولابـد اليوم من العمل في سبيل إعادة الوحدة بين هذين البلدين لينضم بقية العرب إليها، فالأمن، والبقـاء والكرامـة والتراث مـوجود في الـوحـدة ، والوحـدة هي عمل في سبيل العـروبـة والاسـلام، وفي سبيل الانسـانيـة ، وفي سبيل النجـاة من الاستعبـاد ومن الأتـوقـراطيـة الأمـريكيـة، وكلي أمل أن يتحـول التنسيق والتعاون بين دمشق والقـاهرة الى مشروع وحـدوي، والله المستعـان، ومنه جل وعـلا يأتي التوفيق، والصـلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آلـه وصحبه ومن تمسك بهداه الى يوم الدين.

دمشق: ٩ شوال١٤١٨/ ٦ شباط ١٩٩٨

سهيل زكار

مدخل

يعود فضل ارساء قواعد أسرة بلانتغنت إلى سلسلة غامضة من شحن القلاع في وادي اللوار، الذين ارتقوا في القرن العاشر ليصبحوا كونتات أنجو، ولقد كانوا ذوي مزاج ناري، وأقوياء في القتال، يسرعون للانتقام مما لحقهم من أخطاء، غير أنهم كانوا كرماء نحو الكنيسة، وبهذه الصفات كان هؤلاء الرجال ذوي تأثير رفيع في شغل أدوارهم في النشاطات السياسية المعقدة، وبالتدريج تمكنوا من بناء قاعدة سلطوية قوية من خلال مزيج من النشاط الحربي، والدبلوماسي، والزيجاب السياسية الجيدة والتحالفات، ففي سنة ١١٢٨ غدا الكونت فولك الخامس، الذي كان محترماً وناجحاً، ملكاً للقدس، وكان حكم أنجو قد تركه لابنه غيوفري الأشقر (١١٢٨-١١٥١)، وتمكن غيوفري من الاستيلاء على نورماندي، وادعى الحق بعرش انكلترا من خلال زوجته الامبراطورة ماتيلدا، وكانت هذه نقطة حاسمة في أهميتها بالنسبة لسعد الأسرة في أوروبا الغربية، وكان موائماً أن يحمل أبناء غيوفري لقبه «بلانتغنت» كاسم لأسرتهم، وصدر هذا الاسم من ارتدائه قبعة زينت بقشة مكنسة (غنت Genet) وسار ابنه هنري الثاني على خطا الأنجيفيين التقليدية بالتحرك السياسي، فتزوج زواجاً رائعاً، وكان مهاجماً كبيراً وفعالاً، ولذلك أقام مملكة واسعة، وحافظ على ممتلكاته التي امتدت من الحدود الاسكوتلندية إلى جبال البرانس، وحوت هذه المملكة أكثر من نصف فرنسا، وخلفه بعد موته اثنان من أولاده: أولهما رتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩)، وكان قائداً عسكرياً جذاباً وفعالاً وصليبياً، وثانيهما جون (١١٩٩-١٢١٦) الذي فقد معظم ممتلكاته الفرنسية، بما في ذلك مسقط رأس أجداد الأسرة في أنجو، فقدها لصالح فيليب الثاني ملك

فرنسـا، وكاد أن يخسر تاجه لصـالح لويس بن فيليب، وكان سلـوك جون سيئاً نحـو باروناتـه، وكان قاسيـاً ومتقلباً تجاههم، فنجم عن هـذا صدور مرسوم بالاصلاحات (ماغنـاكارتا) له ذكر دائم، ولم يتعلق الأمر بالحد من سوء تصرف الملـوك وارغامهم على الاصـلاح فحسب، بل أرسى القـاعدة لحقوقنا العامة وحرياتنا.

وإلى القـرن الثالث عشر، كـانت المقدرة على القـراءة والكتابـة تقريبـاً حصراً بـالناس العـاملين في الأديرة والكنـائس، من الكهنة العـاديين، إلى العلماء ورؤساء الأساقفـة الكبار ورعاة الديرة، واحتـاج الملوك والنبلاء إلى كتّـاب يـديرون لهم حكـومـاتهم ويتـدبـرون شؤون محاكمهـم القانـونيـة، ويجمعـون لهم الضرائب، ويحافظـون على سجـلات أمـوالهم، ويتــولـون صيـاغـة وكتـابـة مـراسيمهم التي حـوت أوامـرهم المتـوجب تنفيـذهـا، وصحيح أن النـاس تحادثـوا فيما بينهم وكتبــوا الشعـر والأغـاني بلغـاتهم المحلية، لقـد كانـت لغة الكنيسة والحكـومة خـلال العصور الـوسطى في أوروبا هي اللاتينية، وشكلت هـذه اللغة جسراً فيما بين رجال الدين مهما كانت أصـولهم والبلدان التي جـاءوا منها، لكنها بـالوقت نفســه عزلتهم عن بقية المجتمـع، حتى أثناء شغلهم لواجبـاتهم الأساسيـة في الوسـاطة لدى الرب من أجل السلامة الروحية لبني البشر.

وجـاءت غـالبيــة المؤرخين في العصـور الـوسطى من الــديـرة أو من الكـاتدرائيـات الكنسيـة، وهي أماكن كـانت في يـوم من الأيام البيـوت الراسخـة للصلوات، وكانت بالعـادة مؤسسات حسنـة التنظيم، وعظيمة الفخار بتقاليدها الخاصة، وبالطبع مسـؤولة عن سلامة ممتلكاتها والحفاظ على استقلالها، ولم ينشد المؤرخون إنتاج كتابـات تاريخية عقلانية التحليل والصياغة مثلما يفعل مؤرخو هذه الأيـام، بل استهدفوا أن يظهروا ماقضاه الـرب فجـاء على شكل أحـداث، مبتـدئين بـأخبـار الخليقـة صعـوداً مع الأحـداث حتى أيامهم، وكـان من الممكن للمـؤرخ تنفيذ ذلك بـالتأريخ

لبلده، وكـذلك بالحديث عن انتصـارات وآلام ديره، أو عن حيـاة قديس أو حاكم من الحكام.

وصحيح أن المؤرخين خضعـوا لتصـاريف أحـداث أيـامهم، غير أنهم كتبـوا لأسباب متنـوعة، فبعضهم كتب لتمجيـد ملك من الملوك، أو ديـر من الديرة، أو قديس من القديسيين، وكتب آخرون للتوجيه الذرائعي، أو للشرح أو للتسليـة، لكنهم جميعـاً أظهـروا بـوضـوح الـدروس الـدينيـة والأخلاقية بشكل مـا، وتطلعوا جميعاً نحو المستقبل، وتعـايشوا مع الآمال الكبيرة في أن الأجيـال المقبلـة، ستعتمد على تـواريخهم وتنقل عنهـا بكل حريـة، ولقد حـدث هذا بالفعـل في كثير من الحالات، فعلى سبيل المثال كـان كتاب «تـاريخ الانكليز» لهنـري أوف هنتنغـدون ناجحـاً جداً، وقـد جـرى نسخـه مـراراً كثيرة في القـرن الثـاني عشر، وتنقل بين أمـاكن كثيرة ووصل حتى دير لى بك Bec النورمـاندي، ورئاسـة كاتـدرائية درم، وظل المصـدر الأسـاسي لعصره حتى القرن السـابع عشر، ووصلتنـا بعض كتبـه الأخرى من خـلال نسخة واحـدة أو نسختين قديمتين، ومن بينهـا «حياة القـديس هيوج»، ونادراً مـانسخ هذا الكتاب في انكلترا الـوسيطة، غير أنه بات واسع الانتشار في القارة منذ القرن الخامس عشر فصاعداً.

وسلف أن طبع كتاب هنتنغـدون في التاريخ، وكذلك كتابـه عن حياة القـــديس هيــوج، وكـــان ذلك في القـــرن التـــاسع عشر في انكلترا وبالانكليزيـة، ولم يطبع الكتاب الأول ثانية منـذ القرن التاسع عشر، غير أن النصـوص الأخرى في هـذا الكتاب قـد ترجمت للمـرة الأولى، وبسبب المسـاحة، لم تتم طبـاعة نصـوص الكتب كـاملة، بل جـرى اختيار نقـول تـولت وصف الـوقـائع الـرئيسيـة في كلّ سنـة من السنـوات المتتـابعـة، وإيضـاح مقاصـد الكتّاب واهتمامـاتهم الخاصة، وجـرى بالنسبـة لبعض النقـول الطويلـة، والنصوص (وأحيـاناً الجمل والمقـاطع) حذف متعمـد بغية تجنب التكرار، أو لايضاح أسلوب الأصل.

واستفدنا فائدة كاملة من بعض اهتمامات مؤرخينا بالصدق والصحة، فكتاب ديسيتو «صورة التاريخ» قد كتب بشكل واضح ومحكم في داخل اطار موثق ومرتب، وهناك على كلّ حال بعض المصادر الأخرى —مثل تواريخ كونتات أنجو— زاخرة بأساطير لافائدة منها، وهي تتحدث عن حكايات درامية، وأعمال فروسية، أكثر من اعطائنا رواية تاريخية واضحة للأحداث، وحدث بالحقيقة في بعض المناسبات أن قام الكتّاب باختراع حوادث لم تقع قط، وهي تتعارض مع روايات أخرى أكثر اعتماداً وموثوقية، حتى الروايات التي هي بادية أكثر صحة من حيث المنطلق، قد لاتتفق دوماً مع بعضها بعضاً، وتظل أقل قبولاً بالنسبة للتفسير الحديث للوقائع، أو في إعطاء تعريف وتحديد للأماكن والأسماء هو نفسه، لذا زودنا عملنا بحواشي كثيرة تساعد على ضبط وايضاح النص المحقق (وطبعت بعض الشروح بأحرف سوداء مائلة قليلاً وبوساطة عبارات وردت بين حاصرتين مربعتين في ثنايا النص)، وفيما عدا تزويدنا للنص أحياناً بتواريخ وكنى وألقاب لتمييز بعض المشاركين الرئيسيين، تركنا المؤرخين يتولون بأنفسهم حكاية رواياتهم.

المؤرخون

انطلق في أوائل القرن الثالث عشر كلّ من جيرفاس **Gervase** الذي كان راهباً ثم غدا المحافظ على الآثار المقدسة في رئاسة كهنة كاتدرائية كانتربري، ورالف راعي دير كوغشال **Coggeshall** لكتابة تاريخ للشعب الانكليزي وللملوكه، وتولى كلّ واحد منهما شرح هذا التاريخ بقدر ماهو مرتبط بتاريخ كنيسته، وزودانا بالصدفة بكثير من الحكايات المسلية والمواد المفيدة حول السياسات الانكليزية المتعلقة

بالسنوات: ١٢٠١ حتى ١٢١٠، حيث هي قليلة جداً في مصادر الأخبار الأخرى، وهناك حوليات بارنول Barnwell التي كتبها راهب أو كاهن مجهول، وهي هامة جداً وفيها شواهد ثمينة عن السنوات الأخيرة لحكم جون (١٢١٠-١٢١٦)، وتظهر بالمقارنة القليل من الميول الاقليمية (جرى حفظ النص في دير بارنول لكنه ربما لم يكتب هناك)، وتقدم هذه الحوليات مقاربة متوازنة لمسألة الصراع فيما بين الملك جون وباروناته، وقد عبّر عن شيء من التعاطف مع الثوار وكذلك مع جون، الذي هو شخصية مؤذية جداً لدى المؤرخين المتأخرين.

وأنتجت بعض الديرة تواريخ رسمية لحماتها من الملوك أو النبلاء، فعلى سبيل المثال قام الراهب جون فيما بين ١١٦٤ و١١٧٣، في دير مارموتيير Marmoutier في وادي اللوار بكتابة نص جديد من كتاب «أعمال كونتات أنجو»، وكان أصل هذا الكتاب المثير والدرامي قد صنف وجمع في الدير في بلاط الكونتات أثناء القرن المنصرم من قبل عدد من المؤرخين، بما في ذلك الراعي أودو، وتوماس أوف لوشي Louches الذي كان شماساً للكونت فولك الخامس، وكثير من محتوياته، لاسيما المواد المتعلقة بالأنجيفيين الأوائل، لاتتعدى الأسطورة سوى قليلاً، وهي على كلّ حال كتبت وأهديت إلى هنري الثاني نفسه، وقد كان أعظم ملوك أسرته، فضلاً عن كونه أيضاً ملكاً لانكلترا ودوقاً لنورماندي وأكوتين، وبعدما كمل جاء الراهب جون فسار بالحكاية وذيل عليها وصفاً ملوناً وعظيم الإطراء جاء بمثابة ترجمة لغيوفري الجميل، والد هنري الثاني.

وتتعارض حكايات الراهب جون أوف مارموتيير المتدفقة بالحياة والتي هي بالغالب غير شرعية مع مقاربات عدد كبير من مؤرخي الانكليز للقرن الثاني عشر التي هي أكثر توازناً، فقد قدم هنري رئيس شمامسة هنتنغدون Huntingdon في كتابه «تاريخ الانكليز» رواية شبه

معاصرة عن حكم ستيفن،وكانت هذه الرواية في يوم من الأيام مقروءة ومليئة بالدروس الأخلاقية، وتحتوي على مواد واقعية، لئن كانت قد اختيرت بعناية فهي قد عرضت بشكل دقيق، وحظي هذا الكتاب في البداية على موافقة روجر أسقف سالسبري، الذي كان شخصية دينية قيادية وعاملاً في الادارة الملكية، ثم أعاد المؤلف كتابته وغير توزيع مواده بحكم ازدياد شعبيته، وأعظم تدقيقاً من هذا الكتاب في صياغته كتاب «صورة التاريخ» لرالف أوف ديسيتو، وهو كاهن وموثق وفيها بعد عميد كاتدرائية القديس بولص في لندن، وقد ظل يكتب حتى سنة ١٢٠١، وهي كما يظن سنة وفاته، وكان ديسيتو مثله مثل معاصره روجر هاودن Howden (الذي من المؤكد أنه كتب تاريخاً، ولربها كتب أيضاً كتاب «أعمال الملك هنري الثاني والملك رتشارد الأول») قد انطلق لاخراج كتاب في التاريخ صحيح، وبما أنه ركز بشكل خاص على الكنيسة الانكليزية نهل بشكل كبير من الوثائق الملكية ورسائل أيامه التي حكت الرواية التي أراد الانتفاع منها، وقد حلل الأحداث، مستخدماً اشارات هامشية لإظهار مواضيع مختلفة مثل الصراعات بين الكنيسة والدولة، والشجار بين هنري الثاني وأولاده، وهي وقائع شهدها وهي تقع. ولابد لكل كاتب ينشد تقديم رواية ايجابية عن أيامه من أن يواجه مشاكل مثل: اعجاب ديسيتو بهنري الثاني، واطرائه لاستشهاد توماس بكت، وهو حادث كان الملك مسؤولاً عنه بشكل غير مباشر، غير أن هذا العائق قد أنتج نتائج ثمينة، لأن روايته عن الشجار بين الملك ورئيس الأساقفة تحتوي على شعور رائع عن الفصل بينهما.

وقدم وليم فتزستيفن، الذي كان كاهناً عمل من قبل في حاشية بكت، في كتابه «حياة القديس توماس بكت»، الذي صنفه في سبعينات القرن الثاني عشر، بعد أمد وجيز من وقوع حادث الاستشهاد، رواية حية ودرامية عن حياة رئيس الأساقفة وعن موته، وهي رواية مليئة

بالملاحظات الاجتماعية، كما وتحتوي على وصف هام لمدينة لندن، مسقط رأس بكت، وكان القصد الخاص من هذه الرواية هو تمجيد صاحب موضوعها ورفع شأنه، ومثل هذا فعل آدم أوف آينشام Eynsham في كتابه «حياة القديس هيوج أوف لنكولن»، الذي كان واحداً من أعظم شخصيات الكنيسة الانكليزية في القرن الثاني عشر، وكان هيوج مثله مثل بكت، قد اختلف مع هنري الثاني ومع أولاده حول الامتيازات اللاهوتية، غير أنه كان قادراً على استرداد الرضى الملكي بوساطة روح الدعابة الجريئة لديه، وهي سمة افتقدها —كما يبدو— بكت.

وكان كلّ واحد من المؤلفين حريص على عدم توجيه النقد للملك كثيراً، وذلك على النقيض من جيرالد أوف ويلز في سنواته الأخيرة، وكان جيرالد رئيس شمامسة بريكون Brecon خصب الإنتاج وكاتباً شعبياً حول موضوعات مثل عادات وسمات الويلزيين والايرلنديين، لكنه كان متألماً لاخفاقه الطويل في أن يصبح أسقف القديس داود، ودبج هجاء قاسياً وعدوانياً ضد القدر الذي قهر الحاكم المذنب، مع اشارة خاصة إلى هنري الثاني.

وبالاضافة للشروح والحواشي هناك تفاصيل كاملة حول المخطوطات التي اعتمدت مع أسماء المؤلفين في نهاية الكتاب.

القسم الأول

أصول الأسرة الأنجيفية

تأسس سعد بيت أنجو على طاقات انغلر **Ingelar** *وشجاعته، وهو عسكري شبه أسطوري، لكنه كان سعيد الحظ فاستطاع انتزاع دويلة لنفسه في وادي اللوار، وقام ابنه فولك الأحمر على مابناه وأسسه فاستطاع في ٩٤١ أن يصبح كونت أنجو، وتمتعت المنطقة في ظل حكم فولك الجيد (٩٤١-٩٦٠) بوقت من الازدهار والاستقرار، وحكمت أنجو خلال المائة والسبعين سنة التالية من قبل رجال متميزين وغير عاديين، وكانت بسالة غيوفري «الرمادي الثوب» (٩٦٠-٩٨٧) مزيجاً من الأساطير، وبحكايته يبدأ تاريخ أسرة بلانتغنت، وكان فولك نيرا* **Nerra** *(٩٨٧-١٠٤٠) عنيفاً وجذاباً، وقاسياً، ومعلماً في استراتيجية بناء القلاع، وجاء من بعده غيوفري مارتل (١٠٤٠-١٠٦٠) الذي كان أكثر براعة، ثم من بعد خمسين سنة أو نحوها من سنين الفوضى كان فولك الخامس (١١٠٩-١١٢٩)، وهو الذي أصبح ملكاً على القدس، وورد وصف حياتهم وأعمالهم بشكل براق، وغالباً فيه تزوير، في «تاريخ كونتات أنجو»، وكان هذا التاريخ الثمين نتاج عدد من الكتّاب، بمن فيهم توماس أوف لوشي* **Loches** *الذي كان شماس الكونت فولك الخامس، وقد أخذ هذا الكتاب شكله النهائي في ستينات القرن الثاني عشر، على يد جون الذي كان راهباً في دير مارموتيير.*

ولد لفولك الجيد ثلاثة أولاد، كان أكبرهم غيوفري، وهو الذي أصبح كونتاً لأنجو، في حين غدا غي، وهو الثاني أسقفاً لـ «لي—بوي»، وكان دروغو Drogo وهو الأصغر، الأثير لدى فولك، ذلك أنه ولد، وفولك قد صار في منتصف العمر، وانصرف هذا الابن نحو الثقافة والآداب، والفنون الحرة، وتمكن بفضل مساعي هيوج كابيه ملك فرنسا، أن يخلف أخاه، أسقفاً لـ«لي—بوي».

سنة ستين وتسعمائة

كان الكونت غيوفري عسكرياً بارعاً، وفق الطرائق الفرنسية، صامد القلب، وقوياً وناجحاً جداً في القتال.

وكان في تلك الآونة هوستن الداني Huasten يهاجم منذ ثلاث سنوات سواحل فرنسا، والتحق الآن بابني عمه (أو خاله) ادوارد وهلدوين Hilduin اللذان كانا كونتا فلاندرز، وكان معه قوة مكونة من خمسة عشر ألفاً من الدانيين والسكسون، بينهم مقاتل متفوق جداً في بنيته وشجاعته، واسمه إيثولولف Ethelulf وكان الدانيون والسويديون ينهبون معاً الأراضي الفرنسية ويعيثون فيها فساداً، ويحرقون البلدات والقرى حيثما استطاعوا، وتمكنوا بمساعدة من الفلمنكيين من الاستيلاء على معظم منطقة فلاندرز حيث جعلوها طعمة للنار وللسيف، وكانت هذه المنطقة مسكونة من قبل الفرنسيين، وقد فعلوا هذا كله قبل أن يقرروا الزحف نحو باريس واظهار الخوف والرعب هناك.

وارتعب الملك الفرنسي تجاه هذا، فوجه الدعوة إلى جميع نبلاء فرنسا للاجتماع جميعاً في باريس في يوم أحد الشعانين، واقترب إيثولولف الداني، الذي هو جالوت جديد، باستخفاف من المدينة، وطالب بمبارزة

فردية مع فارس فرنسي، وبعدما لاقى عدد من أشجع الفرسان الفرنسيين وأكثرهم نبلاً الهزيمة والقتل في المبارزة أصيب الملك بالهلع، وحظر على أي واحد آخر الخروج ضد إيثولولف.

وكان عندما سمع غيوفري صاحب أنجو الرسالة الملكية، التي دعته إلى الاجتماع يوم أحد الشعانين أعدّ نفسه لمغادرة أراضيه من شاتو—لاندون Chateau-Landon لكن عندما سمع بقوة الدانيين ووحشيتهم، سافر سراً، ومعه فارس واحد مع اثنين من التابعين.

وأخذ معه حصاناً واحداً، وعبر نهر السين مع الفارس واثنين من الطحانين، وعندما رأى الكونت الداني وسمع صيحات حربه، زمجر، وبسرعة صبّ عليه سلاحه، وامتطى حصانه، وترك رفاقه في المركب، وانطلق وحيداً فوق السهل ليشتبك مع عدوه، وهمز كلّ واحد منهما مطيته واقتربا من بعضهما بعضاً، وطعن الكونت عدوه في صدره، وألقاه أرضاً، وقد خرج السنان من بين لوحي كتفه، وعندما نظر غيوفري نحو الخلف كان بإمكانه أن يرى الداني وهو يئن ويزمجر ويحاول جاهداً الوقوف مع نظرات تهديد بعينيه الغاضبتين، ولذلك ترجل مسرعاً، ومثله مثل داود ثان، استل سيفه وقطع به رأسه، ثم عاد على الفور فامتطى فرسه وعاد مسرعاً نحو المركب ومعه رأس عدوه وفرسه، وأعطى الرأس لواحد من الطحانين ليأخذه إلى باريس، بينما عاد متستراً إلى شاتو—لاندون ليلتحق برجاله(١).

ووصل حامل الرأس إلى المدينة، وأعلن أمام الملك، أنه وإن كان لايعرف هوية الفارس، هو بلاشك سيتعرف عليه إذا مارآه ثانية.

ووصل إلى باريس في اليوم المحدد جميع الذين جرى استدعاؤهم: الدوقات والكونتات والنبلاء لجميع فرنسا، وهكذا اجتمع جميع رؤساء الرجال المتميزين بالبراعة والقدرة مع بعضهم في القصر الملكي، وجلس

غيوفري كونت أنجو بين البارونات مرتدياً مئزراً من القماش الرمادي الخشن، مما اعتاد الفرنسيون على تسميته: «الرمادي الفاقع» والأنجيفيون: «الخشن».

ونظر الطحان، الذي استدعاه الملك للتعرف بهذه المناسبة، نحو الكونت وعرفه على الفور، وبعد نيله للإذن من الملك، اقترب منه وهو يبتسم، وبعدما ركع على ركبتيه أمسك بإزار الكونت وقال للملك وللذين كانوا حاضرين: «هذا هو الرجل، الذي يرتدي مئزراً رمادياً، إنه الذي أعاد لنا شرفنا عندما قتل الداني وألقى بالرعب في قلوب جيشهم»، وأمر الملك أن يدعى غيوفري من الآن فصاعداً باسم «الرمادي الثوب»، ووافق جميع الحضور على ذلك.

وجاء بعد غيوفري الرمادي الثوب ابنه الكونت موريس، الذي كان حكيماً، وأخلاقياً ومحباً للسلام، وقد حكم بهدوء وسلام نتيجة لحكمته أكثر منه نتيجة لقتاله في المعارك، وآلت أراضيه بعد موته إلى ابنه فولك نيرا، الذي على الرغم من كونه ابن سبع عشرة سنة، برهن بنفسه على أنه جندي شجاع.

سنة سبع وثمانين وتسعمائة

كان فولك(٢)نيرا على الدوام صديقاً للنفوس التي تخشى الرب، كما وكان شاباً يافعاً، لكن ليس بروحه أبداً، وقد نهض بشجاعة واندفع للدفاع عن أراضيه ضد أعدائها الكثر، لأن العادة جرت أن الحرب كانت تثار دوماً بسرعة ضد الحاكم الجديد، فبناء على نصيحة من الوغد لاندري Landry صاحب شاتودون حاول أودو الثاني كونت بليوس وشامبين، وغلدوين Gelduin صاحب سامور Saumur طرد

فولك مـن تورين Touraine وقد خيّل إليهما أن كلّ مـن كونتي أمبويز Amboise ولوشي سوف يسـاعدانهما، وأوضح لاندري لهما أن الـوقت كـان مناسبـاً، لأن سـولبـايس Sulpice الخازن في دير القديس مـارتن في تور، قـد فقد أخاه للتو، وأنه كان يحكم أمبـويز نيـابة عن الكـونت، ولم يتأخـر بطلنا صـاحب القلب الشجـاع عن الاستعـداد لالحاق الهزيمة بـالأعداء، ولم يتقاعس عن تعريض نفسـه للخطر، فجمع أكبر جيش استطاع حشـده، وهاجم بجـرأة أراضي أعداءه، وتجاوز بـزحفه بليوس ووصل إلى شاتودون.

وطوق سكان ذلك المكان مدينتهم بأطـواق من الجند، وحافظوا عليها بأسلحتهم، وكانـوا مستعدين للقتال وفق أسلـوب المدافعين عن معسكر من المعسكـرات، فقد احتشـدوا بسرعة وتجمعـوا معـاً، وإثر ذلك هـاجموا الكونـت ورجاله، وصـد الأنجيفيون حملاتهم المتـوالية حتى المسـاء، لكن عندما حاولوا التراجع، كـانوا غير قادرين على تجنب حشود المهاجين لأن رجال شـاتودون كـانوا يضغطـون عليهم بشدة من الخلف، حتى عنـدما تراجعـوا، وعندما لم يعـد باستطاعـة جيش الكونت الكفاح مـدة أطول، ولاالانسحاب، ولاصد هجمات خصـومهم، غامر هؤلاء الـرجال المطوقين بالتراجع خطـوة خطوة وهم يقـاتلون، ووقتهـا أخذ رجـال أمبويـز يشقون طـريقهم بـالقـوة، وهنـا هــاجم الأنجيفيـون الأعـداء على كـلّ جـانب وطـوقـوهم وهـزمـوهم، واستــولى الـرعب على رجـال شـاتـودون، ودبت الفوضى في صفـوفهم، فانعطفـوا على أعقابهم، غير أن المعركـة استمرت، وطاردهم الكـونت إلى داخل معسكرهم، فأسر كثيراً مـن السكان، وجعل الآخرين طعمـة للسيف، وكان بإمكان الأنجيفيون الاستراحـة هناك تلك الليلة وهم يحرسـون المائتي فارس الـذين أخذوهم أسرى، وربطـوهم مع بقيـة الأسرى، ونهبوا وسلبـوا الأراضي من حولهم في اليـوم التالي، وألحقـوا الدمار بالذين تولوا فلاحة الأرض، وعادوا بعد مضي ثلاثة أيام إلى أمبويز

وهم منتشين فرحاً بنصرهم.

وفي أمبويز حاصر الكونت حصن لاندري، وتجمع رجاله بحماس شديد بغية اقتحام بيت ذلك الرجل، فألقوا بذلك الرعب في قلوب المقاومين، وبات هؤلاء يدركون أنهم لن يتمكنوا من الاستمرار بالمقاومة، وإذا ماأسروا لن يكونوا قادرين على تجنب عقوبة الموت التي استحقوها، ولهذا بدأوا بحث مسألة تسليم الحصن إلى الكونت مقابل الابقاء على حياتهم، وكان ذلك بوساطة بعض السفراء، ولدى تفحص هذا الأمر، بدا من المفيد لكل واحد، إزالة هذا الرعب العظيم دون تعريض المهاجمين للمخاطر، وبناء عليه حوفظ على المحاصرين، وجرى هدم الحصن تماماً، ومن ثم طرد لاندري ورجاله من معسكرهم.

وعبر الكونت بعد هذا اللوار، واستقر في مكان قام بتحصينه، وكان هذا المكان يعرف بالسنين الخالية باسم كارامنتوم، مع أنه يعرف الآن باسم مورود Moraud ثم توجه إلى سمبلانسي Semblancy حيث قام أيضاً بتقوية التحصينات، وعبر من خلال أراضي تابعه وصديقه هيوج أوف ألوي Alluyes الذي كان سيداً لشاتو-لي-فاليري Chateau -La- Valliere والقديس ستيفن، ودخل فالي Vallee وانحدر بدون عوائق إلى أنغر Angers وذلك على الرغم من عدم رضى شعب تور، واستولى بالحقيقة على ميريبو Mi-rebeau ولاندون، وشينون Chinon (التي كانت بأيدي أودو)، وسامور، ومونتسوريو Montsoreau التي هاجم منها مراراً رجال الل-بوشارد L'Il-Bouchard وذلك قبل أن يعود إلى لوشي عبر منطقة غينون Guennon صاحب نوتري Nouatre.

ولكي يكمل خططه، انتخب فولك واحداً من خيرة رجاله المحاربين، لقد كان أفضلهم وأعظم الجنود خبرة، واسمه ليسوس أوف بازوغير Li-sois of Bazougers وهو حفيد (ابن أخ أو أخت) فيزكونت أوف

سينت سوزان Suzanne وأوكل إليه المسؤولية عن لوشي وأمبويز، وأمره بفرض الطاعة على الفرسان هناك صغاراً وكباراً.

وولدت زوجة فولك غيوفري مارتل، وابنة اسمها أديلا، وبما أن فولك كان رجلاً يخشى الرب، فقد قام بالحج إلى روما لتقديم الشكر، وبعدما تسلم رسائل من البابا الروماني مع التبريكات، أخذ الطريق وشرع برحلته نحو القدس(٣)، التي كانت آنذاك بيد الكفار، وعندما وصل إلى القسطنطينية قابل الدوق روبرت صاحب نورماندي، الذي انطلق للقيام بالرحلة نفسها، (كان لرتشارد دوق نورماندي ولدين هما رتشارد وروبرت، وقد رزق بهما من يودث ابنة الكونت كونان صاحب بريتاني، وكان رتشارد هو الأكبر، وقد تجرع السم على يد أخيه روبرت، ومن أجل أن ينال العفو من الرب والغفران قام روبرت بالسفر حافي القدمين [نحو القدس] وذلك بعد سبع سنوات من غدوه دوقاً، وكان لروبرت هذا نفسه ولداً اسمه وليم، وهو رجل مشهور، ذلك أنه هو الذي قهر انكلترا) وعندما وجد فولك روبرت وتعرف عليه، أراه رسائل البابا إلى الامبراطور، وبناء على أوامر الامبراطور اقتيد الرجال عبر أراضي المسلمين بوساطة رجال من أنطاكية، صدف أن كانوا في القسطنطينية، وقد توفي روبرت على الطريق إلى بيثينيا.

واقتيد فولك نيرا تحت الحراسة إلى القدس، ولم يسمح له بالبداية بالمضي خلال باب المدينة حيث كان الحجاج يرغمون على دفع بدل دخول، غير أنه بعدما دفع عن نفسه وعن المسيحيين الآخرين المعوقين عند باب المنع، كان قادراً على الدخول معهم جميعاً، لكن عندها منعته الأبواب من الدخول إلى قبر الرب.

وعندما عُرف أنه رجل منحدر من أصل رفيع، قال له الحراس: يمكنك الوصول إلى القبر، لكن —أضافوا بسخرية وخداع— إذا بولت عليه وعلى الصليب المقدس، وبما أن فولك كان رجلاً عاقلاً، فقد أبدى

موافقته، لكن رغماً عنه، فاشترى مثانة كبش، ونظفها من القذارة التي بها، ثم ملأها بأحسن نوع من الخمر الأبيض، ثم وضعها في مكان مستور بين طرفيه، ثم إنه بعدما خلع نعليه، اقترب من قبر الرب، وصب الخمر فوقه، وبذلك سمح له بالدخول بلا أجر مع جميع رفاقه، وصلى عند القبر، وسكب كثيراً من الدموع، ومالبث أن شعر بالقوة الإلهية عندما أصبح الحجر القاسي ناعماً، وانتزع بعد هذا نفسه وابتعد عن القبر الذي بلله بقبله، ولقد غادر وهو يشعر بالحنق بسبب سخرية وجهالة الكفار الذين رافقوه، وقدم صدقات كثيرة للمحتاجين، وحصل على قطعة من الصليب المقدس من واحد من السوريين الذين كانوا يحرسون الضريح.

وعندما عاد الكونت فولك إلى لوشي، فيما وراء نهر الاندر Indre بنى كنيسة على شرف الضريح المقدس في بيوليو Beaulieu بالتحديد، وأسكن هناك بعض الرهبان مع راعي لهم، ووضع في كنيسة القديسة مريم العذراء في أمبويز قطعة من صليب المخلص وجذاذة من الحبل الذي ربطت به يدي المسيح، وإلى هذه الكنيسة نقل في أيام فولك جسد القديس فلورنتاين Florentine من بواتو إلى هناك، وأقام أيضاً مع سولبايس Sulpice خازن القديس مارتن كهنة هناك.

كان أودو كونت شامبين بالتحالف مع جدعون أوف سامور يهددان سلطة فولك في شرقي أنجو، وقاتل فولك مع حليفه كونت هربرت أوف مين ضده، وربحا اليوم، وقتلا وأسرا حوالي ستة آلاف من أعدائهما، وفي السنة التالية أسس فولك قلعة مونتبوي Montboyau ليهدد بها تور التي أمل بالاستيلاء عليها وانتزاعها من أودو، غير أن أودو تولى حصار مونتبوي.

حشد فولك أكبر عدد تحقق له في فالي Vallee ونفذ خطة ذكية، فلأنه لم يستطع لابل لم يتجرأ على القتال، عبر نهر اللوار، وسار مسرعاً طوال الليل، ودخل مع بزوغ نور الصباح إلى سامور التي كانت

بلا دفاعات، واستولى على الفور عليها كلها وصولاً حتى القلعة.

ولم يكن هناك أمل بالسلامة بالنسبة للرجال الذين كانوا في القلعة، ولامكان للالتجاء إليه، ولم يكن أمامهم سوى عار التسليم فقط، فقد كانوا يعرفون أن الأنجيفيين كانوا شجعاناً وعرق مقاتل، وأنهم لن يتخلوا عن خططهم حتى تستجاب مطالبهم، وكانوا أيضاً يعرفون أن مهاجميهم سيتخلون عن كل رحمة، لذلك توصلوا إلى اتفاق مع الكونت، وفقاً لقانون الاستسلام، وقالوا له: «أيها الانسان السعيد، لقد أمرت بوجوب التخلي عن القلعة وتسليمها إليك، احمنا من هؤلاء القتلة، واسمح لنا بالعيش لنخدمك»، وأصغى الكونت إلى هذا، وسمح لهم بالحرية مع الكرامة، وشرفهم بهدايا عظيمة، ولقد قيل بأنه فعل هذا من أجل أن يربط المحررين به شخصياً، وأن يحرّض الآخرين على الاستسلام، وبعدما جرى تسليم القلعة إلى أتباعه، أمرهم بحراستها بكل يقظة.

وبعدما سيطر فولك على سامور حسبما رغب، عبر نهر الفين Vienne قرب شينون Chinon بين نوتري Nouatre وآيل—بوشارد Ile-Bouchard على جسر صنع من السفن، وحاصر مونتبازون Montbazon وتخلى أودو عن حصار مونتبوي ووجه رجالته ضد فولك، ووضع فولك العبقري حداً للحصار وتراجع إلى لوشي حيث نصب خيامه فوق المروج.

ومكث القائدان بلا حراك، وتفرق جيشاهما، وفيما أودو مقيم في بليوس أخبره رسول أن الألمان قد حاصروا بار—سور—أوبي Bar - Sur- Aube تحت قيادة دوق اللورين، فبادر مسرعاً بالعودة إلى هناك، ثم قام أودو بمطاردة الألمان الذين كانوا قد ارتحلوا إلى اللورين، ومع أنه أصيب بجراح بالغة وهو يقاتلهم، إلاّ أنه عاد منتصراً، ومهما يكن الحال، لقد توفي بعد وقت قصير متأثراً بجراحه، وورث ابنه ثيوبولد الثالث أراضيه، وفي الوقت نفسه حاصر فولك مونتبازون مرة ثانية،

واستولى عليها هذه المرة، وعهد بحراستها إلى وليم أوف ميربو، وسلم أيرود برستولي Airaud Brustulii مع خونة آخرين سيدهم غيوفري، حاكم سينت ايغنان Aignan إلى فولك، وحدث فيما بعد أثناء غياب فولك أن تعرض هذا الرجل للشنق في سجنه في لوشي على أيدي الخونة أنفسهم.

وأعطى الكونت إلى حاجبه ليسوس حفيدة (ابنة الأخ أو الأخت) سولبايس الخازن، زوجة له، ومنحه قلعة أمبويز مع جميع ممتلكاتها، وبعدما أسس هذا الرجل على هذه الصورة، عهد الكونت بامرته إلى ابنه مارتل، وهكذا عاشت البلاد بهدوء وسلام حتى وفاة فولك التي حدثت بعد وقت قصير.

سنة أربعين وألف

استحوذ غيوفري مارتل، بعد وفاة أبيه على جميع اقطاعية الكونت، وكان مارتل جسوراً أكثر من بقية أفراد أسرته، ولقد اعتاد على انجاز مشاريعه بسرعة فعالة، وأثار شعب أنجو غضب سيدهم مارتل ضد كل من ثيوبولد الثالث، كونت بليوس ووليم كونت بواتو.

واعتاد مارتل على استخدام القوة ضد كثيرين، وعندما كان يقال له: «الناس يتكلمون بشكل سيء عنك»، كان يعقب قائلاً: «إنهم يفعلون ما اعتادوا أن يفعلوه، لا ما استحقه، وإنهم لا يعرفون كيف يتحدثون بشكل جيد»، ولهذا مركز كثيراً من القوات في أمبويز تحت إمرة ليسوس، وقامت هذه القوات بإزالة جميع ما وقف معيقاً فيما بين مونتبازون وشينون.

وأخيراً حاصر مارتل بلدة تور، وبعث ليسوس عائداً إلى أمبويز مع

مائتي فارس وألف وخمسمائة جندي من الرجالة ليتولوا حراسة الطرق خشية أن ينقض رجال بليوس على جيشه دونما عائق.

وتخلى مارتل عن الحصار، وجاء للقاء أعدائه عند بزوغ الشمس في مونتلوي Montlouis وفي الصباح اندفع رجال بليوس من معسكراتهم على شكل جماعات، وزحف الأنجيفيون ضدهم من مونتلوي، وفي أثناء تفقد كلّ واحد منهم لسلاح الآخر بالدور، خاطب مارتل الذي حمل ستة سيوف رجال جيشه بالكلمات التالية:

«إلى الأمام أيها الجنود، لقد رأيتم ووجدتم ماجئتم من أجله، وحقاً أقول، إنكم أنتم المقبلون على القتال سوف تنالون الدعم من الرب وستحصلون على القوة من فضله، لأن الرب القادر قوي وقادر على الحماية، لايفكرن أحد مطلقاً بالفرار، لأن أنجو بعيدة جداً عنا»(٤).

وتشجع جنوده بالكلمات التي سمعوها من كونتهم، فزحف كلّ رجل منهم نحو القتال، ولم يرغبوا في تأجيل المواجهة أبداً، ولم يكن هناك تردد، وقد احتشدوا في مكان مشهور باسم نوي Nowy أمام سوق بلدة سينت مارتن —لى— بو Beau.

وزعقت الأبواق مع صرخات «إلى الأمام»، وتوغلوا بأنفسهم بكل سرعة ممكنة في قلب صفوف الأعداء على كلّ جبهة، وشتتوا الذين اعترضوا طريقهم، وقد وجدوا خصومهم غير ضعفاء، بل على العكس، يقاومون بكل قواهم، وكادت قوات مارتل أن تتدمر على أيدي الحشود التي تفوقت عليها بالعدد، والتهمت المعركة تماماً اثنين من صفوفها، وسقط عدد كبير من الرجال أرضاً، وجرح كثير منهم، ومع هذا استطاع الأنجيفيون صدّ حملة أعدائهم، ثم هاجموهم بدورهم وأرغموهم على التزحزح عن مواقعهم.

وكان مارتل الذي اتخذ موقفاً وبيده سيفه قريباً من مؤخرة قواته،

يسرع إلى حيث كان يرى أن الأعـداء قد تفوقوا بأعـدادهم، وكان قد غيّر مظهره، وتخلى عن ثيـابه ككونت وبـات شكله شكل فارس عـادي، ولقد طعن عدداً من الخيـالة وألقاهم عن ظهـور خيولهم، وشطر آخـرين بسيفه وهم على سروج مطـاياهم، وأعـاد تجميع رجاله، وشجـع الذين تعـرضوا للضغط الشـديـد، ورفع معنـوياتهم، وإثـر ذلك انـدفع إلى الأمـام ضـد الأعداء.

أما ليسوس الذي توجب عليه جلب العـون إلى مولاه مع فرسانه ومائة من حملة الأعلام من الجنـود الرجالة، فقد جاء بأقصى سرعـة من أمبويز، وعنـدما رأى الـذين كانـوا في ميمنتـه القتال عن بعـد، رفعوا أسـواطهم، وهمزوا خيـولهم، ووضعـوا تـرستهم أمـام صـدورهم، وهكـذا استطـاعـوا تشتيت الحشـد الذي تجمع هنـاك، ومـزقوا خصـومهم، وتمكن كلّ واحـد منهم أن يمدد واحداً من الأعداء على الأرض.

وجـدد الأنجيفيـون الحملة، ولم يعـد بإمكـان المتعـاونين مع ثيوبـولـد مقـاومـة شدة القتـال، لـذلك أداروا ظهـورهم وشرعـوا بالفـرار، واستبـد الرعب بهم بشكل مفاجىء، وأصيب كثير منهم بنشاب مطارديهم، وشدد الأنجيفيـون من الفرسـان والرجـالة الضغط عليهم، وردوهم مـرغمين إلى الخلف، وقتلوا الخيول التي كانت حية إلا قليـلاً منها، أما الذين كانوا مع مارتل فقـد قتلوا كلّ من صـدفوه، ذلك أنهم تجمعوا تحت لـواء قائدهم، الذي كان أشجعهم جميعاً، وطاردوا الفارين ومددوهم فوق الأرض.

وسـار رجـال أمبـويز خلـف الفارين وتتبعـوا آثـارهم، وظلـوا يقهـرون خصومهم ويقتلـونهم حتى التقوا بـالكونت ثيوبـولد داخل حـرش اسمه بري Braye قرب قاعة هوستون Hastuin وأسروه مع خمسمائة من فـرسـانـه، ذلك أنـه كان مـن غير الممكن الركـوب في بـري، وجـروا الكونت خارج الحرش، ومن ثم عادوا إلى مـارتل، وهكذا كان بعون الرب أن تم صـد الأعداء الـذين فروا مجللين بـالعار إلى أجـزاء مختلفة، في حين

عاد الأنجيفيون وأمضوا السنة بسلام، ولم ينزعجوا بمخاطر الحروب.

سنة اثنتين وأربعين وألف

وعندما كان التعيس ثيوبولد الثالث في الأغلال لم يقبل مارتل فدية له لابالذهب ولابالفضة، وبما أن السجين كان يخشى على حياته، ويهتم بسلامة شخصه أكثر من أي شيء آخر مما امتلكه، تخلى عن تورين Touraine إلى مارتل ليتملكها ملكية أبدية مقابل تسريحه، وكان هذا سنة اثنتين وأربعين وألف.

وحسب تأكيد سينكا Seneca:

«لايمكن للناس أن يعيشوا حياة هادئة إذا ماأطاعوا قواعد النظام الطبيعي: لك ولي». لقد أراد الآن وليم أوف بواتو الاستيلاء على منطقة سيتأونغ Saintonge وفعلاً احتلها، وتمسك بها بالقوة على أساس أنها كانت ملكاً لأخي أبيه، وادعى مارتل ملكية المنطقة نفسها لأنها كانت ملكاً لعمه الكبير، الذي مات ورثته بدون أولاد، وأصر أنه لهذا السبب توجب عودتها إلى ورثة أخت عمه الكبير.

وكان وليم صاحب بواتو والحق يقال رجلاً محارباً، لانظير له بالجرأة، وامتلك البصيرة مع ثروة كبيرة، ولامتلاكه حشوداً من الجند كان متشوقاً للمديح والتفاخر والتبجح برعونة، وأكسبته سمعته العظيمة عدداً كبيراً جداً من الأتباع:

رجال بواتو، وليموسين Limousin وأنغوليم Angouleme وبيرغو Pergueux وكليرمونت —فيراند Clermont-Ferrand وغسكون Qascons وباسكوي Basques وتولوسين Tou-

lousains مع آخـرين أعـدادهم لاتحصى، قـام بتـوحيـدهم لتشكيل جيش هائل.

وكان البـواتيون يتجمعـون ببطء من جميع أرجـاء المنطقة، وكانـوا مثل النجوم أعـدادهم لاتعد ولاتحصى، وقد نشروا قواتهم التي لايمكن عـدّها على شكل صفـوف من جـانـب إلى جـانب، وكـان الجميع يحملـون السلاسـل التي اعتقدوا أنهم سيربطون بها خصـومهم، وكانـت وحداتهم تحتل مواقع متفق عليهـا على مسافة ضئيلة من تشف —بـوتون Chef-Boutonne وقد فعلـوا ذلك حسبما صدرت التـوجيهات إليهـم، ولقد خيل إليهم أن الأنجيفيين سـوف يفـرون على الفـور، ولم يقـدّروا أنهم أنفسهم قـد يفعلون الشيء نفسه لأنهم اعتقدوا سلفـاً أنهم ربحوا، وقـد استمدوا ثقتهم من جموعهم التي فـاقت العد والحصر، ومن روح التظـاهر التي وجدت في صدور جمعهم، وكذلك من أمر قائدهم بعدم الفرار.

وكان الطرفان الآن على استعداد للقتـال، وقد اصطفوا في مكان صغير جعل من الممكن مشاهـدة بعضهـم بعضاً عن قرب شديـد، واصطدمت الصفـوف بقوى متسـاويـة، وكان المحـرض الذي حـرك البـواتويين هـو الغضب والخوف، لكن الـذي حـرك الأنجيفيين كـان هـو الأمـل بـربح منطقـة سينتأونغ، وصرخ كلّ انسـان بصوت مـرتفع، ورددت السمـوات نفسها الأصـداء بزمجرة متـداخلة، وكـان الضجيج لايمكن احتمالـه، وقد صدر عن قـراع السـلاح، وانشطـار الخوذ، وتحطـم السيـوف، وعن أنين وصراخ الـذيـن كـانـوا يمـوتـون، وسمعت أصـوات الجرحى على جميع الجوانب.

وحمل مارتل مع الأنجيفيين على العدو، وشقـوا طريقهم بسيوفهم وهم يصرخـون حتى وصلـوا إلى وسط صفـوفه، وتبع حشـد من الفـرسـان من تورين مـولاهم، وشتتوا عدداً كبيراً وقتلـوا حامل رايـة وليم نفسه، ولحق الرجالة بكل شجاعة جماعات الفـرسان، واستولوا على الراية واحتفظوا بها

لأنها كانت قد ألقت رعباً شديداً في قلوبهم، وهنا دار جميع رجال غسكوني وليموسين على الفور على أعقابهم وذهبت بقية الحشد معهم.

وتريث البواتيون، وحافظوا وهم مرعوبين على مواقفهم لبعض الوقت، وتحول مارتل ورجاله نحوهم وبأيديهم سيوفهم، فقطعوهم مثلما يقطع المنجل القمح، وذلك بضربات أفقية، وشطر أجساد الأعداء، ولم تتبلل أرض المعركة بل بالحري فاضت بالدماء، ولم يكن أمام البواتويين المزلزلين مكان يلجأون إليه، ثم إنهم لم يبحثوا عن شيء من هذا القبيل، وجرت مطاردة الفارين، أو لنقل مطاردة الذين تدبروا بطريقة ما الفرار، وفي الوقت الذي أخذ فيه رجال تورين كثيراً من الأسرى، لم يمنح الأنجيفيون الهدنة لأي ممن صدفوه هارباً، فقد طعنوا بعضهم بالرماح، وقطعوا أعناق آخرين، ولم يبقوا على أحد حياً، وبما أن تشف —بوتون لم تكن بعيدة، فقد لاقت الأقلية المنهكة هناك إما الأسر أو الموت السريع، وهكذا كان ذلك اليوم رهيباً جداً بالنسبة للبواتويين، ولقد كان يوم آلام ويأس، يوم فوضى وقنوط، فقد ربطوا بالسلاسل نفسها التي جلبوها ليربطوا بها أعداءهم، ولقد كانت المذبحة كاملة، وأمضى مارتل ورجاله الليل بسلام في خيمهم فوق السهل، وصفوا رؤوس القتلى وأجسادهم في وجه الرياح الشمالية العاتية التي كانت تهب آنذاك.

وحمل بعد هذا مارتل على سينتأونغ بالسرعة التي أمكنته، وخرج الذين كانوا في المدينة لاستقباله وسلموا المكان إليه بأبواب مفتوحة، واستقر هناك رجاله وهم مسرورين، واستولوا على المنطقة المجاورة التي سيحكمها مارتل طوال بقية حياته، وذلك ما ان يقيم سلماً مع كونت بواتو، وما أن عوفي هذا الأخير من جراحه التي أصيب بها أثناء القتال حتى تقبل الولاء من مارتل وتخلى له عن المنطقة التي كانت الآن هادئة، وكان ذلك بناء على نصيحة من الرهبان والأساقفة، وكان هناك سرور عارم وفرح لايوصف في أنجو وتورين نتيجة لما حصل، وتمتع المنتصرون

بالسلام طويلاً في كل مكان، وقدموا الشكر للرب بكل قلوبهم.

وكـان في هـذه الأيام الـدوق وليم صـاحب نـورمانـدي يضـايق كثيراً هربرت كونت لامانس، وبما أن مارتل كـان حليف هربرت وحاميه، فقد عانى الدوق وليم —الذي صار فيما بعد ملك الانكليز— كثيراً على يدي مارتل.

وبما أن غيوفري مارتل ابن فولك كـان بلا أولاد، فقد ترك منطقة أنجو وتورين، التي استولى عليها كما وصفـت، إلى ابني أخيه: غيوفري الملتحي وفـولك ريشن Rechin وأعطى أنجـو وسينتأونـغ إلى غيـوفـــري وتورين وشاتو —لاندن إلى فـولك، وقد أصيب بمرض غير متوقع، وبعلة لايمكن مـداواتها، وقد ازدادت علته سـوءاً من يـوم إلى يوم، وعانـى منها حتى ساعة وفاته، فقد توفي وهو شديد الآلام وسط أسرته.

سنة ستين وألف

وفيما يتعلق بعـــدد الشرور وطبيعتهـا التي وقعت في البــلاد بينما كـان غيـوفـري الملتحي وفولـك ريشن مستوليـان على تـراث مـارتل: الكشف عنهـا يأمـر بـه التـاريـخ الصحيح، لكن يحظـر ذلك الـرعب ودرجـة التخـريب، ولستُ أدري أيها أفضل بـالنسبـة لهذين المقترفين: تقـديم وصف مفصل للشرور التي اقترفـاهـا أم حـذفها، أو بـالحري هل يـؤذيهما القيام بكتمان بعض الأمثلة من شرورهما.

سنة ست وستين وألف

وكـان غيوفـري الملتحي عسكريـاً نشطـاً، وقد تحالف مع رجـال مين، وتمكن بمسـاعـدة من اليـاس أوف لى —فلش Fleche من استرداد لامانس، التي تملكها وليم ملك انكلترا، وبدأ فـولك المخادع يقاتل ضد أخيـه غيوفـري، وبـذلك ألقى البلاد في لجة من الفـوضى، وعنـدها بـدأ البارونـات يحاربون بعضهم بعضاً وعمّ ذلـك جميع أرجاء المنطقة، وكـانوا يقفون الآن إلى جـانب غيوفري ثم بعد ذلـك إلى جانب فولك، فالخيـانة هي التي راجت.

وكان في سنـة ست وستين وألف لتجسيد الـرب ربنا، خيانـة في أنغر، فبعدمـا اكتمل تقريبـاً خراب أنجـو وتورين، مخادعة ألقى فـولك ريشن القبض على أخيه، واستولى على المنطقة كلها وكأنها ملك له.

وكان كونت بواتو، الذي مثلـه مثل أبيه حمل اسم وليم، عسكرياً بارعاً جداً، في التخطيط والتصنيع، وفي الوقت الذي كـان فيه أخواه يتصارعان حسبما تقـدم الوصف، هـاجم منطقة سينتأونغ واستـولى عليها، وحـارب الياس حاكم مين ومعـه بارونات فولك لصـالح غيوفري وطالبـوا باطلاق سراحه، وبـذلوا الجهد لاخراجـه من السجن بالقوة بمسـاعدة من فيليب الأول، ملك الفـرنسيين وستيفن كونت بليـوس، غير أن فولك أقـام حلفاً مع ستيفن وقـدم الولاء لـه، ثم ذهب إلى الملك الفرنسي وعقـد معاهـدة معه، وتخلى له عن شاتو—لاندن.

كان فيليب الأول ملك فرنسا، ملكاً فعالاً في جزيرة فرنسا فقط، علماً بأن باريس، عـاصمته قد غـدت مركـزاً هاماً للتعليم، وصـار أبيلارد(٥) Abelard واحـداً من أشهر أسـاتذة الجامعـة، ولقد استخـدم المؤرخ أحياناً كلمة «فرنسا» ليشير إلى هذه المنطقة.

وعندما عاد الكونت فولك من فرنسا ذهب إلى أمبويز، حيث حلّ ضيفاً على أرنول أوف منغ —سور— لوار Meung-Sur-Loire الذي كان معهوداً إليه بقلعة الكونت في المدينة بلامقابل.

وانتزع فولك منه اقطاعه مع القلعة، ووضع حراساً حيث شاء، واحتفظ بها لنفسه، وعلى هذه الصورة طرد أرنول مع ابنه ليون من أمبويز.

وغالباً ماكان فولك وهو يتصرف بهذه الطريقة يسوق تهم الخيانة ضد أولاده، علماً أن ذلك كان بدون حق «لأن الشر اعتاد أن يمتلك هذه القوة الخاصة في تلويث البريء بين الأكثرية بجرائم الأقلية، حيث عصابة صغيرة من الرجال الجيدين غير قادرة على تلطيف جرائم الأكثرية بجعلها تشاركها في فضائلها، لكن من الذي لايغضب عندما يرى الخير الخالص قد طعن بتهم عدد قليل من الناس الأشرار»؟.

ولأن عدداً كبيراً من الناس «بطيئين في صنع الخير، سريعين في الحديث ضد الشر، منشغلين بالتآمر، ضعفاء بالحب، أقوياء في الشقاق، متصلبين بالاحتفاظ بعداواتهم»، سأذكر هنا هؤلاء الرجال، لأن قصصهم جديرة بالحكاية، وهاكم هي:

اتخذ فولك لنفسه عدة زوجات: فقد كان هناك ابنة لانسلين أوف بيوغنسي Lancelin of Beaugency وهي التي غدت ابنتها كونتسة بريتاني، ثم انصرفت إلى حياة الرهبنة بعد وفاة زوجها في القدس، واتخذ فولك بعد وفاة ابنة لانسلين زوجة جديدة هي ارمنغاردين Er-mengardine ابنة آرشنبود Archenbaud قوي بوربون Bourbon وهي التي أنجبت له غيوفري مارتل الثاني، الذي كان رجلاً جديراً بالاعجاب، مشهوراً بعدله، وبرعايته لكل شيء جيد، وبارعابه لجميع أعدائه.

ثم وقع الفاسق فولك في حب عميق مع أخت أموري أوف مونتفونت Montfont «التي لم يمدحها قط انسان جيد إلا لجمالها»، ولأجلها طلق أم غيوفري مارتل الثاني، حيث أعلن أنها قريبته قرابة تحرم الزواج، وبعد ذلك تزوجها وليم أوف جالغني Jaligny.

وما أن أصبح غيوفري مارتل في سن الرجولة، وكان شاباً شجاعاً وحكيماً، حتى رأى أن البلاد مضطربة، والبارونات في جميع أرجاء البلاد يثورون ضد أبيه، فقاومهم بدون توقف، وبحث بكل اصرار عن كيف يمكنه أن ينتقم لأبيه ولرجال أبيه، وبما أنه كان أبعد بصيرة من الجميع فقد أعاد الرجال وأبعدهم عن الأعمال الشريرة، ووجه شؤونه بشكل عقلاني، ولم يحارب بشكل لطيف ولم يكن أحمقاً كثيراً في سلوكه.

وعندما سمع غيوفري الملتحي بالسمات الحسنة لابن أخيه مارتل وباستقامته كان مسروراً، واستدعاه إليه وقال له: «أنا مسرور جداً لأنك لم تبتعد عن السمات الخلقية الحسنة لأجدادك، ولهذا أمنحك الأرض التي أخذها أبوك ظلماً مني، وأريدك أن تخلفني عليها»، وأطلق مارتل الثاني عمه وحرره من الأغلال والسلاسل، وسمح له بالسفر إلى حيث أراد خلال البلدات والمدن، لكن دوماً تحت الحراسة، غير أن عقل غيوفري بات مشوشاً في السجن، وزالت قدرته على التفكير العقلاني إلى حد كبير، ولم يعش طويلاً بعد هذا.

عقد في سنة ١٠٩٥ مؤتمر كليرمونت بناء على دعوة من البابا أوربان الثاني، وهناك جرى التبشير بالحملة الصليبية الأولى.

وأعطى مارتل الثاني أخته اليزابث، التي ولدت من زواج أمه بوليم أوف جالغني، زوجة لهيوج أوف شومنت Chaumont وأعطى مع يدها جميع أمبويز، وخطب مارتل لنفسه الابنة الوحيدة للكونت الياس صاحب مين، مع أنها لم تكن في سن الزواج، وسلم لامانس مع كلّ

مايتعلق بها.

وكان مارتل قد دخل في صراع مع الملك وليم روفوس، ونهب وألقى النار في كثير من البلدات في نورماندي، وفي الوقت نفسه تلكأ الملك في انكلترا، وكان الكونت روبرت، أخو الملك، باقياً مع الجيش في القدس بصحبة كثير من الحجاج، ذلك أن الملك روفوس احتفظ بنورماندي وصاية.

سنة ست ومائة وألف

في سنة ست ومائة وألف لتجسيد ربنا، ظهر لمدة أربعين يوماً مذنباً كان يزداد حجماً كلّ مساء، وقد ملأ الدنيا بالدهشة، وكان يرسل بأشعته المضيئة والكبيرة ضد الشعاع الخافت لغياب الشمس، وبدا في أول ظهوره أكثر نارية، ثم أصبح أقل وضوحاً، وأخذ يحترق رويداً رويداً حتى أنه اختفى بعد يوم الأربعين كلية، أو هكذا قالوا.

وفي يوم القديس ميكائيل، أي في ٢٩ أيلول، تم أسر روبرت من قبل أخيه الملك هنري الأول، وتزوج وليم كليتو Clito من ابنة فولك كونت أنجو، غير أنهما افترقا فيما بعد بسبب القرابة، وتزوج من أخت زوجة الملك الفرنسي لويس السادس، وحصل بهذا الزواج على فلاندرز، غير أن يده خرقت بطعنة رمح، ولهذا لم يعش وليم إثر هذا وقتاً طويلاً.

- ٤٠٥ -

سنة سبع ومائة وألف

قتل في السنة التالية مارتل في كمين قرب قلعة كـانـدي Cande يفترض أنـه نصب بتفاهم مع أبيـه، وخـالته زوجـة أبيـه، ويبدو لي أمـراً لايصـدق أن يقدم أب لمثل هـذا الـولد على الموافقـة على قتلـه، خاصـة عنـدمـا بـات رجـلاً مسناً، وعنـدمـا وضح أن ابنـه —إذا مـامنح عمـراً أطول— سـوف يسترد له كلّ الذي خسره، لأن مارتل كـان ينازل كلّ من الملك الفـرنسي من أجـل شـاتـو—لانـدن، ووليم أوف بـواتـو من أجل سينتأونغ، وكـان مارتل قـد بنى بدون خـوف بلدتين قـرب بواتـو، واحدة عند مدخل البلدة، والثانية قرب القاعة.

وجاء الفـاسق الملك فيليب إلى تور، وبعـدما تحادث مع زوجـة فولك قرر أن يجعلها ملكتـه، وهجرت هذه المرأة الشريرة زوجها في الليلـة التالية وتبعت الملك، الذي مركز فرسانه عند مندري Mindray قرب جسر هناك فوق نهر البـوفرون Beuvron واقتادها إلى أورلين Or-leans وهكذا ملأ الملك الشبق بيتـه بجرائم زواج اقترفت تحت عقوبة الحرمـان، وحصل على ولـدين من هـذه المرأة هما: فيليـب وفلـورس Florus.

ومع أنني وجدتُ هـذه الأشياء قـد كتبت في مجلدات مخفيـة، لم أشعر بالانزعاج لاخفـائها، لصالح سمعة موالينا كونتـات أنجو، وصنفت كتابة ماتصـورت أنه أفعـالهم، مع هذه الأشيـاء التي صممت بمثـابة تعليمات لخلفائهم، داعياً الرب أن يكون عملنـا معيناً للجيل الحالي عندما يقلدون أجدادهم العظام.

سنة تسع ومائة وألف

صحيح أن «الأب سوف لن يحمل آثام الابن ولا الابن إثم الأب»، هكذا كان بعد وفاة فولك ريشن، فقد تخلى ابنه فولك الخامس، كونت أنجو عن مسالك أمه وأبيه، واتبع حياة شريفة، حيث حكم بلاده بعقلانية، وتباحث مع الياس، كونت مين، بغية الزواج من ابنته الوحيدة، وقصد مارتل الزواج من الفتاة، وكان سيحصل مع يدها على بلاد مين، وبهذه الطريقة جرى الاعتراف باتحاد مين وأنجو.

وكان فولك الخامس رجلاً مستقيماً ونشيطاً، ومؤمناً محافظاً، وعطوفاً خيراً نحو رجال الرب، وبعدما تسلم الكونتيين رفع رفاقه إلى الأعلى، وحطّ من شأن الأشرار، وباختصار لقد حصل على سمعة مجيدة ورائعة، وأصبح الأول على الجميع، ومنح هيوج أوف شومونت Chaumont جميع أمبويز، وذلك بعدما قدم إليه الولاء، وقد قلد بذلك مافعله أخاه مارتل الثاني، وأعاد مونت رتشارد التي استولى عليها أجداده بشكل غير عادل.

وحاصر فولك برولي Preuilly لكنه لم يأخذها، ومع أنه استولى على ايشيفارد Eschivard وهي قلعة كانت تحت حكم اللورد نفسه، قام بعقد سلام معه فيما بعد، واشترى مونتبازون من جون الذي كان صاحب تلك البلدة، لكن عندما شق جون هذا طريقه بالقوة عائداً إلى ذلك المكان بعدما قبل قسماً من المال، أقدم فولك بكل شجاعة على حصارها، وأجبره على إعادتها له، وبتسليمه المتبقي من المال استولى فولك أيضاً على القلعة، وأغلق مونترول —بلي Montreuil-Bellay لكنه ما ان استولى عليها، ووضع حراسه في القلعة حتى تحرك رحمة فأعاد البقية إلى صاحب القلعة.

وحارب هنـري الأول، ملك الانكليز، مـراراً عديـدة لأنه كـره الرجل، ولأن هنري خلق بـاعطائه المال إلى بارونات أنجـو ومين، مراراً ، كثيراً من الاضطراب بينهم، وسبب أذى عظيماً لفولك.

وكـان الملك وليم الـذي استولى على انكلترا قـد وزع بـلاده بين أولاده الثـلاثة: فقـد أعطى انكلترا إلى وليم روفـوس، ونـورمـاندي إلى روبـرت، وميراث الأم إلى هنـري، وعندمـا مات روفـوس استحـوذ هنري على تـاج انكلترا، بينما كان أخوه روبرت معوقاً في القدس، وبعدما عاد روبرت من القدس رزق بولد من زوجته دعي وليم كليتو.

وكـان لهنـري الأول ولـداً اسمـه وليم، وهـو الـذي تـزوج ابنـة فـولك الخامس، وتسلم معهـا كـونتيـة مين، وبعدمـا قـدم وليم الـولاء لفـولك، تسلم أيضاً نورماندي من لويـس السادس ملك فرنسا، وفي صيف عامه السابـع عشر، كان عـائداً إلى انكلترا فغرق بالبحـر ومعه كثير مـن النبلاء الذين لم تسترد أجسادهم أبداً.

كـان لفقدان الملك هنـري لـولده وليم في ١١٢٠ نتـائج خطيرة، لأن وريثه الشرعي الذي بقي ليخلفه هو ابنته ماتيلدا.

سنة عشر ومائة وألف

في سنة عشر ومـائة وألف لتجسيد ربنـا، رزق فولك الخامس ولـداً من زوجتـه ابنـة كـونت اليـاس، وقـد سماه غيـوفـري، و نشأ الطفل وصـار عسكرياً متميزاً، وقد تزوج مـاتيلدا، ابنة هنري الأول ملك انكلترا، وأرملة هنري الخامس امبراطور ألمانيـا، ورزق فولك من الزوجة نفسها بـولد آخر دعاه الياس.

سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

وبينما كـان فـولك يحكم أنجـو وتوريـن وكونتيـة مين بـازدهـار، أرسل الملك بلـدوين الثـاني، ملك القدس، رسـلاً تـوجب عليهم التشـاور مع رجـال عقـلاء، ثم اقنـاع رجل منـاسب بـالزواج من ابنتـه وقبـول مملكـة القدس، ووقـع اختيار الأساقفـة، مع عدد مـن أعيان الناس، على فـولك الخامس صاحب أنجو، الذي كان قد فقد زوجته.

سنة تسع وعشرين ومائة وألف

وعبر فـولك البحـر مع قـوة كبيرة، واستكمـل الـزواج من ابنـة الملك، وأصبح ملك القدس في ١١٢٩.

سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف

وبعـد وفاة الملك بلـدوين، حكم فـولك المملكة بـرجولـة(٦١)، وجعل سكان دمشق وعسقلان يـدفعون الجزية، وكان قبل وقت طـويل قد تزوج ريمـوند أخـو كونت بـواتو من ابنـة بوهيمـوند صـاحب أنطاكيـة، ودعم فـولك إمارة أنطـاكية ضـد الترك، بوسـاطة جهـود كبيرة، ودون أن يخسر شيئاً، وأنجبت له زوجته ولدين هما: بلـدوين وعموري، وعمّر هو إلى سن كبيرة، وتوفي وهو مـا يزال قادراً على القتال، واتخذ أهل القدس بعـد وفاته

ابنه بلدوين ملكاً خليفة له.

وفيما كـان غيـوفري بن فـولك الخامس ملـك القدس، يحكم منـاطقـه الأنجيفية بهدوء، قام أخوه الياس بمهاجمته مراراً، وذلك بعد تحريضه من قبل بعض الرجـال الأشرار، وطالب بكـونتية مين، وأسره غيوفـري، وأبقاه مسجوناً لـوقت طويل في تور، ثم بعدما أطلق سراح هـذا الرجل الشاب، توفي من مرض خطير أصابه عندما كان بالسجن.

دومـاً يصبح الأخـوة الأقـويـاء غير متحـدين، بسبب كثير من الجشع، ويرفضـون ادارة ممتلكاتهم بشكل جماعي، وعندمـا يختصمون بين بعضهم بعضاً، وعندمـا تصطدم قواتهم يهلكون، لكـن غيوفري كان رجـلاً جديراً بالاعجـاب، كرّس نفسه لـلأعمال العسكرية، وكـان بالوقت نفسـه عالي الثقافـة، فصيحاً جداً بين رجـال الدين والعلمانيين، ومع أنـه عانى كثيراً على أيدي رجالـه، كان يتمتع بشعبية كبيرة لدى الجميع لأنه أنجز أعمال الحصول على نورماندي.

وأعتقد أنـه يكفي الآن ماقيل عن أفاعيل وأعمال كونتـات أنجو، وإذا بـدا لكم أن هنـاك المزيد إلى جـانب مـاقلنـاه (وأعتقد أن هنـاك الكثير) عندها اسألوا من يعرفهم أحسن.

القسم الثاني

غيوفري بلانتغنت

١١٢٨-١١٥٤

تـزوج في سنـة ١١٢٨ غيـوفـري الجميل من مـاتيلـدا الامبراطـورة المتكبرة، وكـان قـد لُقب بـلانتغنـت لأنـه وضع قشة مكنسـة في قبعتـه (غنت=مكنسـة)، وكان سيصبـح بعد قليل كـونت أنجـو، أمـا ماتيلـدا فكـانت ابنـة هنـري الأول ووريثتـه المسماة، وكـان هنـري الأول ملكـا لانكلترا ودوقاً لنورمـاندي، وعندما توفي هنـري في سنة ١١٣٥ ، استولى ابن اخته ستيفن أوف بليوس على المملكة الانكليـزية، وتحارب بيتا أنجو وبليـوس خـلال التسع عشرة سنة المقبلـة من أجل السيطـرة على انكلترا ونـورمانـدي، وركـزت ماتيلـدا جهودهـا على المملكـة، وركـز الكـونت غيـوفـري جهوده على الـدوقيـة، وقـد أصبح دوق نـورمانـدي في سنـة ١١٤٤ ، وفي سنــة ١١٥٣ أجبر الملك ستيفن على القبـول بـالاعتراف بهنـري ابن غيوفـري وماتيلـدا، ولياً لعهـده ووريثاً لـه في حكـم انكلترا ويبـدأ القسم الثـاني بترجمة غيوفـري بـلانتغنت، العاليـة الاطـراء والتي كانت في يـوم من الأيام منمقـة جداً، وكتبت هذه الترجمة في حـوالي سنة ١١٧٠ من قبل جـون أوف مـارموتيير، وهي مليئة بصـور للفروسيـة، وبأفاعيل جـريئة، وكانت الغايـة منها ارضاء هنري الثاني ابـن غيوفـري، وأظهـر بـالمقابل هنـري رئيس شهامسـة هنتنغـدون بـالمقارنـة قليـلاً من التصورات والمواقف السياسيـة المسبقة، في كتابه «تـاريخ الانكليز»، وقد اكتمل سنـة ١١٥٤ ، ووصف في كتـابـه هـذا بشكل حي سمات ستيفن

الحسنة وكذلك السيئة، وبذلك أعاد حكمه إلى الحياة.

.

من المعروف بشكل جيد لكل انسان أن العرق الأنجيفي قد ازدهر في ظل حكام ذوي معنويات عالية ويحبون الحرب، وقد حكموا الشعب المحيط بهم بالرعب، ولاخلاف حول حقيقة أنهم تولوا جميع أعمال التدمير التي أمكنهم القيام بها والتي عانى منها جيرانهم، وبذلك أخضعوا البلدان التي من حولهم، وبالنسبة لحكام أنجو الذين رأوا أن حكم أنجو لايكفيهم، اعتمدوا وسيلة الحرب للحصول على مناطق تور، وذلك عندما لحقت الهزيمة بأودو صاحب شامبين على يدي الناجح فولك، الذي لقبه «نيرا»، وفي معركة بري Braye هزم الكونت ثيوبولد بن أودو هزيمة ماحقة، وأخذ أسيراً بموجب شريعة الحرب، فمن هذه الجبلة الرائعة من الأمراء جاء غيوفري، الابن الواسع الشهرة لفولك، ملك القدس.

وفي الحقيقة امتلك غيوفري كلّ سمات الشهرة(٧)، وكان جديراً بالمدح والثناء، فكجندي حصل على أعظم الأمجاد، واستفاد مثل ذلك من حظه الحسن، وبما بذله من جهود، وقد أوقف نفسه على الدفاع عن الجماعة ومساعدة الفنون الحرة ورعايتها، وبذل جهوداً كبيرة لأن يحب عن جدارة، وكان شريفا مخلصا لجميع أصدقائه، ولم يكن فقط عظيما في أعين العالم على اتساعه، بل كان موضع ثقة أكثر من البقية، وكانت كلماته دوما جيدة ولطيفة وفيها مداعبة، وكانت مثله موضع اعجاب وقبول، وكان متفوقاً في الجدل حول قضاياه، وامتلك معرفة جيدة حول العصور القديمة، وبما أنه كان مثقفا، كان بإمكانه أن يتذكر تماما ليس فقط ماحدث في موطنه بل أيضا الحروب والأفاعيل في جميع بلدان الخارج.

ولم يكن متميزاً بشكل استثنائي ببراعتـه في فنون الحرب فقط، بل أعاد بعد تحديـات عظيمة إمـارته إلى السـلام، وشعبه إلى الحيـاة الهادئة، وكان هـذا الرجل جنـدبـا عمـلاقاً، وكـان، كما قلت، الأكثـر بـراعة وذكـاء في معـاملاتـه المباشرة، وكـان متعلماً بشكل استثنـائي، وكريماً نحـو الجميع، وطويلا في بنيانـه الجسدي، وجذاباً له شعر أحمر، فقـد كان الأب لكونتيته وموضع فخارها.

وكان متحمساً حـول البراعات العسكرية، شديد التـدقيق في عدالته، كما أنه حبي بكل السمات الطيبة والعادات الحسنة، ولم يكن أقل شأناً في أي مجال من المجالات، من أي واحـد من الأمراء العظام في أيامـه، وكان محبوبا من قبل الجميع مع أنه تحمـل كثيرا من المشاكل من رجاله، وحيث أنه كان ذكيـا وقوي الأخلاق لم يسمح لنفسه بالفسـاد عن طريق الغلو أو التراخي في أيـام مراهقتـه، بل أمضى وقتـه راكباً حـول كـونتيته، لينجـز بـراعـات رائعة، وتحدث عـن نفسه قليـلاً، وكـذلك عن أعمالـه، وكسب بهذه الأعمال لنفسه محبة الجميـع، وقذف بالرعب في قلـوب أعدائه، وكان لطيفاً وكريما، وامتلـك نفسا رقيقة، ورحيمة نحو رعيتـه، وتحمل الإساءات والأذى برباطة جـأش، وعندما كان يسمع بنفسه توجيـه الاهانات إليه في كثير من المناطق، كان يخفي بصبر ماشعـر به، وكان بشكل استثنائي أنيساً ومرحا نحـو الجميع، ولاسيما نحو الجنود، هكذا كانت محاسنـه وكرمه حتى أن الـذين أخضعهم بالقـوة، تغلب عليهم بـالرحمة حسبما أنـا مقبل على روايته في الحكايات التالية

سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

عنـدمـا أصبح غيـوفـري في الخامسـة عشرة من عمـره، أنهى بـذلك

طفولته، وبات أشبه بوردة في أول تفتحها، وانتشرت أخبار واشاعات، تبرهن فيها بعد أنها صحيحة بوساطة وفرة من البراهين، تحدثت كلها عن طاقات الشاب في الطول والعرض، حتى وصلت أخبار اسمه وسمعته الشهيرة إلى مسامع الملك العظيم والممجد هنري الأول ملك انكلترا، وكان الملك على معرفة واضحة أن أجداد الشاب كانوا متميزين، وأنهم نبعوا من جبلة كريمة قديمة، وكانوا مستقيمين في عاداتهم وبارعين في فنون الحرب، وسمع أن الشاب لم يكن مستثنى من هذا، بقدر ماسمح العمر بالحديث، وقرر الملك أن يربط فيها بين ابنته الوحيدة ماتيلدا، أرملة الامبراطور هنري الخامس، وبين هذا الرجل الشاب بزواج شرعي.

وبناء عليه جرى ارسال سفراء فوق العادة ليتقدموا باسم الشاب غيوفري بطلب الموافقة من أبيه فولك الخامس، كونت أنجو، ولإخباره بإرادة الملك، وكان هذا الرجل حكيما ومتيقظا في كل المسائل، ولهذا عامل المندوبين بتشريف، وعن طواعية وعدهم بالموافقة المؤكدة على المطلب الملكي، وقدم العهد وعقد الميثاق وثبّت ذلك بالأيمان، مزيلاً بذلك كلّ آثار للشك(٨)، ووافق الكونت، بناء على تعليمات الملك، على ارسال ابنه، الذي لم يرسم فارساً بعد، أن يرسله بشكل رسمي إلى روان في أحد الشعانين المقبل، من أجل أن يرسم فارسا مع آخرين من العمر نفسه، وسط احتفال ملكي، ولم تكن هناك صعوبة في الترتيب لهذا، فالمطلب الحق حظي بالموافقة السهلة.

وهكذا، بناء على موافقة أبيه، انطلق الصهر المقبل لملك انكلترا، نحو روان مع خمسة بارونات هم: جاكولين أوف ميل، وروبرت أوف سيمبلانكي، وهارودين أوف سينت مارس، وروبرت أوف بلو، وباين أوف كليرفيل، وخمسة عشر من أبناء جيله، وذلك بصحبة كثير من الفرسان، والاشاعة دوماً سباقة، هكذا أعلنت عن وصول ابن الكونت إلى عند الملك، وفرح هنري الأول بما قيل عن وصول غيوفري، وبعث

بعضاً من أعلى النبلاء مكانة لـديه بمشابة ممثلين له، وليصطحبوا الرجل الشاب إلى الحضرة الملكيـة بالحفاوة اللائقـة والرعاية، ودخل غيـوفري إلى القاعة الملكية محاطاً برجاله وبرجال الملك، مع حشد من الناس العاديين واقفين من حـولهم، أمـا الملك الـذي اعتـاد ألا يقف لأحـد، فقـد نهض وذهب لاستقبالـه وأمسكه بحنـان وعانقه بعـاطفة، وأعطـاه قبلة صغيرة، وكأنه كان ابنـه، ثم أمسك غيوفري بيده وأصرّ عليـه أن يجلس إلى جانبه، وتحدث الملك حـول مختلف الموضوعـات مع الرجل الشـاب وطرح عليـه عـدداً من المشاكل، ليكتشف كم هي حكيمـة ردات فعله أثنـاء الحديث الخاص، وأجاب غيوفري بإحكام، لكن كما هي عادة العقلاء زين كلماته ببلاغة معـروفة إلى قلة، أما الملك الـذي ازداد عمق اعجابه بـه لحظة تلو الأخرى، فقـد سر سروراً عظيماً بحكمة الشـاب وبأجوبتـه، وهكذا مضى اليوم كله بسرور وانشراح.

ومع اقتراب حلـول اليـوم التـالي، استعد غيـوفـري للحمام الطقـوسي، حسبما تطلبت العادة من الرجل الشـاب الذي كان على وشك أن يصبح فارسـا، وعندما علم الملك من حجـابه بأن الأنجيفي والذين جـاءوا معه خـرجوا من الاغتسـال، استـدعاهـم إلى حضرته، وبعـدمـا طهر الشـاب جسده، جـرى لف هذا النبيل المنحدر من كونت أنجـو بقطع من الكتان الصفيق، ثم وضع عليه ثوبـاً طقوسياً حيك بالذهب، وارتـدى فوقه رداء صبغ بـاللـون القـرمـزي المستخـــرج من محار المرّيق، وارتـدى زوجـاً من الأحذيـة طرزا بأشكال أشبال، أمـا رفاقه، الذين كـان من المتوقع تلقيهم منحـة الفروسيـة، فقـد ارتدوا مثلـه الكتان والقـرمـز، وتزينـوا بشكل بهي حسبما وصفت، وخـرج الصهر المستقبلي لملك انكلترا من الغـرفة السريـة إلى أمام النـاس، وكان محاطـاً بجمع النبلاء مـن بلاده، مشرقاً مثـل زهرة اللوتس، ومغطى بالأحمر مثل وردة.

وأخـرجت الخيـول، وجلبت الأسلحـة، ووزعت على كلّ واحـد حسبما

هـو لائق، وجلب إلى الأنجيفي حصـان اسبـاني، رائع المنظـر والـزينـة، ومشهـوراً أنه يسبق كثيراً مـن الطيور عنـدمـا يعدو، ثم وضـع عليه درعـاً لانظير له، بطانتـه مزدوجة، لايمكن خرقه لابرمح ولابحـربة، ولبس زوجاً من الأحذيـة الحديديـة المدعمة بتسميكتين من الـزرد المقوى، وربط على قدميه مهمازين مـن الذهب، وحمل ترساً مغطى بصـور أسود ذهبية، ودلاه من على رقبتـه، ووضع على رأسـه خـوذة مـرصعـة بكثير مـن الأحجـار الكـريمة، وكـانت عاليـة الجودة بحيث لايمكن تحطيمها بحـد السيف، وأحضر إليه رمح طويل من خشب الدردار ولـه سنان فولاذي، وآخر شيء حمل له سيف من الخزانة الملكيـة، وكان محفوظاً بها منذ زمن بعيـد عندما صنع بعناية من قبل المعلم ويلاند Weyland.

وبعدما تسلح هكذا، انطلق إلى الأمام جندينا الشاب الذي كان زهرة الفروسيـة، واندفع مسرعـاً بشكل متوازن، وبهي في عـدوه، ثم ماذا يمكن أن يقال أكثر؟ وكرّس ذلك اليـوم لمجد وشرف الحملة الأولى، وأوقف كلية على ممارسة الألعاب العسكريـة، ولبلوغ المجد الجسدي، ولمدة لاتقل عن سبعة أيام استمرت احتفالات الحملة الأولى الرائعة للفروسية في البلاط.

ومـرة أخـرى، جـرى ارسـال الـرسـل إلى فـولك الخامس أوف أنجـو، لإعلامه هـذه المرة بوجوب ذهابه إلى لامانس، وأن يكـون هناك بعد مضي ثمانيـة أيام مـن أحد الشعـانين، لـلاحتفال بـزواج ابنـه بشكل لائق، ولم يتأخـر فـولك، بل وافق مسروراً، ووصل حسبما أمـر بأبهة عظيمـة، وكـان موجوداً باليوم المحدد والمكان المقرر.

وانطلق الملك هنـري الأول، ملك انكلترا مـن روان ومعـه ابن فـولك وابنتـه الامبراطـورة (لأنها كـانت زوجــة الامبراطـور) ووصـل أيضـاً إلى لامـانس في اليـوم المحـدد، وتقـاطـر النـاس من جميع الجهـات وتجمعـوا لشهود قـداس الزفـاف، الذي سيتـولى عقده رؤسـاء أساقفـة، وأساقفـة، ورعاة ديرة وكهنة من جميع المراتب.

وهكذا أعطيت ابنة الملك برباط الزواج إلى ابن كونت أنجو، وحصل الأساقفة على موافقة الزوجين المتبادلة على الزواج، لأن كلّ قوة الزواج وفعاليته موجودة في الموافقة، وفي الحقيقة الموافقة هي التي تصنع الزواج، ووافق الاثنان، ووعد كلّ منهما بالاخلاص للآخر، الذي كانوا على وشك زفه، واحتفل بعد ذلك بقداسات مباركة لزواجهما.

وكان هناك سرور وسط رجال الدين، ورقص من قبل الناس، وصرخات شكر من قبل الجميع بلا استثناء، سواء منهم: الأجانب أو المحليين، والأغنياء أو الوسط أو الفقراء، النبلاء أو العامة، والجنود أو الفلاحين، لقد انغمروا جميعاً في سرور عام، وكلّ من لم يهتم بالاحتفال ويشارك به، بلا شك نظر إليه على أنه خائن، وأمضى الرجال والنساء الاحتفال بالزواج في تناول مختلف أنواع الأطعمة، واستمر الاحتفال بالزواج لمدة ثلاثة أسابيع بلا انقطاع، وعندما انتهى لم يغادر أحد من الحضور بدون هدية.

ثم ترك هنري الأول صهره وابنته وودعهما بقبلة سلام، وحول انتباهه نحو مسائل أخرى، وعاد الكونت فولك مع الزوجين إلى أنغر، وعندما كانوا ما يزالون على بعض المسافة منها، سارعت المدينة بأسرها للاستعداد لاستقبالهم، وصدرت التعليمات بالزينة، وزينت جدران الكنائس بالتعاليق والأغطية، وخرج رجال الدين في موكب ولاء لاستقبالهم، وهم يرتدون الألبسة الكهنوتية والشارات الطقوسية وبأيديهم الشموع، والكتب، والصلبان، ويغنون التراتيل وأناشيد الحمد، واستقبل السيد الجديد والسيدة من قبل الكهنة والشعب برقصات مهيبة، وعاشا بعد ذلك بهناء، وشرفا جزيرة بريطانيا العظمى والأجزاء البحرية الأخرى بإنتاج وريث رائع [هنري الثاني المستقبلي].

ومنذ أن ارتقى والد غيوفري إلى مملكة القدس حسبما وصفت من قبل، أوقف الكونت الشاب وقته على إجادة استخدام السلاح، والنضال

في سبيل المجد، وقبل مضي وقت طويل جرى تسمية أحد الأيام م أجل مباريات مبارزة بين النورمان والبريتانيين فوق ربوة رملية مناسبة، وجاء إلى مساعدة النورمان ووقف إلى جانبهم: وليم كليتو كونت فلاندرز، وثيوبولد كونت بليوس مع أخيه ستيفن لورد مورتين، الذي سيكون الملك المستقبلي لانكلترا، وكان هؤلاء الثلاثة أبناء أخت لهنري الأول ملك انكلترا، وقابلهم الكونت وزاد تعدادهم، واصطف الطرفان المتنازلان، ووقف هناك صف البريتانيين، خفيف التسليح، سريع الانتباه، لكن قليل بالعدد.

وعندما رأى غيوفري أن تعداد القوات البريتانية التي تجمعت كان قليلاً، انفصل عن الحشد الكبير وقدم خدماته للبريتانيين، واحتشدت القوات واشتبكت الصفوف بالقتال، وكان هناك قراع كبير بالسلاح، وزعقت البوقات، وترددت أصوات النفير بنغمات كثيرة في حين زجرت خيولهم بأصوات مختلفة.

ولمع مونت سينت مايكل نفسه بأشعة الشمس التي عكستها ترستهم الذهبية، وكان الرجال كأنهم رجل واحد في المبارزة، وتكسرت رماحهم وتحطمت سيوفهم، وانرضت الأقدام بالأقدام، وانكدمت الأكتاف بالأكتاف، وفرغت ظهور المطايا من شاغليها وألقى بالخيالة أرضاً، وأما الخيول التي رمت بركابها، وقطعت مقاودها، فقد جرت على غير هداية وهي تصهل، وسيطر الرعب على المتصارعين بشكل واضح، وطلب غيوفري خصومه وقاتلهم، وكان يركض إلى الأمام وإلى الخلف، يرمي بالحراب ويلوح بالسيف، وقد حرم أعداداً كبيرة من حياتهم، واستمر البريتانيون يضغطون وكلهم أمل بالنصر، وكان الكونت يشق لهم الطريق ويقودهم، وقد أوقعوا كثيراً من القتلى في صفوف عدوهم، وضغط الأنجيفيون بحدة أعظم من حدة الأسد، وتقدمت صفوف البريتانيون وهي تضغط نحو الأمام، وكانت واثقة من النصر، ولحق

الإعياء بـالنورمـان نتيجة للصراع الكبير، فأبدوا ظهـورهم وأخذوا بـالفرار، وهكذا هُـزمت الأكثرية من قبـل الأقلية، وأرغم النورمـان على اللجوء إلى معسكرهم، وهنا عنـدما شعروا بالهلع نتيجة الفوضى غير المتـوقعة اقترحوا على البريتانيين اللجوء إلى المبارزات الفردية.

وعنـدما وصلت أحـاديث المبـارزات إلى مـاوراء البحر، وصل جنـدي سكسوني هائل البنيـة، وقد منحت قوته وجرأته النـورمان الاطمئنان بنيل النصر، وتقـدم هذا الجنـدي من المعسكر النـورمـاني، وكان أطـول من أي انسـان آخـر بشكل واضح جـداً، واتخذ لنفسه مـوقفـاً في مكـان واضح، وتحدى صفـوف البريطانيين في أن يتجـرأوا على تسميـة رجل يستطيع أن يـلاقيـه في مبارزة فـرديـة، وامتقعت وجـوه الـذين أصغـوا إليه وعـلاهـا الاصفرار، وتلاشت القـوة واختفت من صدور الرجال الشجعـان، وخافوا على الانسان الذي سيخرج لمبارزة مثل هذا الوحش الهائل.

وراقب غيـوفـري هـؤلاء الـرجال الشجعـان، وقـد تحولـوا إلى ضعفـاء يصرخون بـالويل والثبور عنـدما كانوا يـدعون شخصياً إلى المبـارزة، وهنا صرخ بشكل مخيف، ورفض تحمل مثل هذا العذاب والاهانة والتحديات التي كـانت تأتي متـوالية، فـامتطى فـرسـه، وحمل سلاحـه، ومضى نحـو النـزال أمام الحشـد الـذي وقف يراقب مـايجري من جميع الجوانب، لقـد توجـه ليبارز ذلك الجندي العملاق، وكـان القتال قاسيـاً، فقد حمل ذلك الانسـان، الذي فـاقت قـواه قوى الانسـان العـادي، رمحاً اسطوانتـه مثل جذع شجـرة، وعندما كان يقـاتل الشاب الأنجيفي خرق تـرس الكونت مع لأمتـه، لكن دون اراقـة كثير من الـدمـاء، غير أن بطلنـا ظلّ ثـابتـاً لم يتزلزل، وكأنه متجـذر على ظهر فرسه؛ وقام برمي خصمـه بحربة فصرعه، ومن ثم وقف فـوق جثة عـدوه فقطع رأسه بسيفـه، واقتاد فرس الـرجل المهـزوم بيده المنتصرة، وبـاستحواذه لغنيمـة حربـه هذه، جلب العـار إلى النـورمان والفخـار إلى رجالـه، وطار خبر نصره وانتشر في كلّ مكـان، ومن

عـادة النبـلاء الأشرار أن يغـاروا من الـرجـال المستقيمين، ولهذا قـالـوا: صحيح أن غيوفري هو صهر الملك، غير أنـه لايشعر بالأمان إلاّ بين رجاله حيث لايخشى من الوقـوع بالأسر، ولهذا السبب نجـد أن الفارس الأصيل والممثل الحقيقي للفروسية طلب الحصول على حـلاوة الشهرة، وكان تواقاً للريـاضة، لـذلك نشد المبارزات في فـلاندرز، ونـاضل في سبيل الحصول على فـرص يحقق فيهـا أعمالاً عظيمـة، فقـد كـان يـرغب بـالمديح وكـان يستحق ذلك.

وكان غيـوفري يتمتع بـالصيد عنـدما كـان الوقت يسمح لـه، وكانت هـذه الممارسـة مفيـدة ومتـوفـرة للبعض وفيهـا خـلاص من الاهتمامـات الثقيلة، وتعيـد الانسان متحرراً وكأنه ولـد من جديد، وهـو —فضلاً عن ذلك— مستعد للقيام بالواجب، وكـان الصيادون يدخلون إلى الأحراش، ويطلقون كلابهم الذكية حسبما جـرت العادات، وكانت الكلاب تتبع أثر الحيـوانـات بشم بقايـا روائحهـا، وهكـذا كـانت تعثر عليهـا بسرعـة من الصعب تصديقها، كما كانت تقود الكونت بوساطة عوائها.

وأسرع الكـونت هذه المرة ليجتـاز الممرات الملتـويـة والدائريـة وليبقى قـريباً من كـلابه الملاحقـة للصيد، وقـد تسلق أسرع الطرق، لكن بـدون حظ، لأن الحيوان الـذي أمل أنه اقترب منـه بوسـاطة كـلابه، أرغم على الفـرار باتجاه مـا، وفي هـذا الوقت مع أنـه اعتقـد أنه مـايـزال قريبـاً من مرافقيـه أكثر منه من كلابـه، كان في الحقيقة بعيداً عنهم كثيراً، وكـان تاه اليوم كلّه وأمضاه بحثاً، فلم يعثر لا على رفـاقه ولا على كلابه، ولم يرهم في أيّ مكـان، وأخيراً، والشمس قـاربت على المغيب رأى عن بعـد فـلاحـاً وسط بقعـة غير مزروعـة، وكـان الرجـل مغطى بالسخـام، وارتـدى ثيابـاً سوداء غطت جسده حتى حقويه، وكانت حـرفته ظاهرة مما ارتداه، وكان يشقى في صنع الفحم للصنـاع، ولهذا السبب كـان وجهـه وكانت ثيـابـه كاسبة لهذا اللون.

وعندما رآه غيوفري لم يزدره بحكم كونه رجلاً ثرياً، وله مكانة عالية، بل تصرف تصرف رجل عارف، رجل يعاني من الوحدة، وهكذا ندب سوء الحظ، متذكراً ماقاله ذلك الرجل القديم: «بعرق جبينك تأكل خبزك».

وحياه غيوفري بكلّ لطف، وسأله: «هل يمكنك أيها الرجل الطيب اخباري عما إذا كنت تعرف الطريق الذي يقود إلى القلعة في لوشي»؟.

ورد عليه الرجل: «لو أنني لاأعرف، لما كان بإمكاني أخذ فحمي إلى هناك دوماً لبيعه».

وقال الكونت: «بناء عليه، خذني أيها الصديق العزيز معك في طريقك إلى الطريق الرئيسي، قبل أن أضيع تماماً في هذا المكان المنعزل وسط الأحراش».

وأجابه الفلاح بقوله: «أنت يامن تمتطي حصاناً لاتعاني من مشكلة اطعام نفسك، وكساء جسدك، لكن إذا توقفت أنا عن العمل سأموت وستموت أسرتي معي».

فأجابه قائلاً: «أرجوك تعال بدون تأخير، وخذني إلى حيث سألت، ذلك أنني سوف أدفع لك ثمن رحلتك».

ثم نظر الرجل إليه بشيء من الريبة، وتمتم قائلاً: «لاأدري أيّ قدر سماوي حلّ بي»، ثم انحنى وقال: «إنني لن أخاف مما سيحل بي، ولسوف أذهب معك، إلى حيث تأمر».

وعانقه الكونت بسرور، وطلب منه أن يركب خلفه فيكون رديفه على حصانه، وتولى الفلاح بكلّ سرور وضع الكونت على الطريق الذي كان يبحث عنه، ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وكان طوال الطريق يتأمل تواضع هذا الرجل النبيل، ووداعته الرائعة.

لكن تبع ذلك أشياء أخرى:

فقد افتتح الكونت حواراً لطيفاً مع الفلاح، وكان بين ماسأله عنه: «ماالذي يقوله الناس عن كونتنا؟ أخبرني أيها الصديق الطيب، وكيف يرون النبلاء ويقوّموهم، وماهي مواقف الرأي العام»؟.

وأجابه الرجل الآخر قائلاً: «فيما يتعلق بالكونت، والأشياء التي وقعت في حضوره، لانقول، ولانشعر بأي سوء نحوه، لكن ياسيدي مانعاني منه هو عدد من الأعداء الذين هو ليس على دراية بهم، والأشد سوءاً بينهم، هم الأكثر خفاء وسرية، لأنه ما من عدو من الصعب الاحتراز منه، وهو جاهز للايذاء، مثل العدو الداخلي، ومثل هؤلاء نحن لانتجرأ على مقاومتهم».

وقال الكونت: «لكن هل من الممكن لمولانا الكونت التغلب على آرائهم، أو التخلص منهم»؟.

وأجابه الرجل: «يمكنه أن يفعل العملين، يمكنه فعل ذلك ياسيدي إذا لم تنفذ هذه الأفاعيل الشريرة تحت ستار تقديم الطاعة له».

فقال له الكونت: «أخبرني بعناية أكبر حول هؤلاء الأعداء، وأوضح لي أفاعيلهم الشريرة، فلعلي حينما يحين الوقت، لن أكون صامتاً أمام الكونت». فأجابه:

«ياسيدي إن الذين يتولون ظلمنا هم الكتاب والحجاب والعاملين الآخرين لدى مولانا الكونت، فكلما جاء إلى إحدى قلاعه، يستولي عماله على كثير من البضائع على أساس السلفة أو الدفع فيما بعد، ويأخذون كلّ مايجدونه بدون سؤال أو تسعير، ويظلّ الباعة صامتين، ويغادر الكونت، فيطالب أصحاب الديون بالدفع، وهنا ياسيدي من المؤلم أن أذكر، أنهم إما ينكرون كلية حصولهم على أيّ شيء أو يسوّفون ويؤجلون الدفع حتى يقبل أصحاب الديون بكلّ سرور بنصف مالهم من مال».

ثم قـال بطلنـا وهـو يبتسم للفـلاح، ولكن وهـو أيضـاً يخفي الغضب الذي كان لايمكنه منع نفسه مـن الشعور به وأنه غذي بشكل وحشي إلى هـذه الدرجـة: «لكنهم يمتلكـون أراضي خصبة لـلاشيء هـؤلاء الرجـال الـذين اغتصبوا مـاهو حق للكـونت، وجعلوه يعيش دون أن يـدري على السحت، ثم أضـاف يقـول: سـلام، سـلام، لكن لاسـلام حيث الأرض عيث بها إلى هذه الدرجة من السوء من قبل الأعداء الداخليين».

وأخبره الفلاح: «لكنك ياسيدي لم تسمع كلّ شيء بعد»!.

وقال غيوفـري: «أنا سوف أستمع بسرور إلى كلّ شيء، اشرح كلّ شيء بعنـاية ولطـف وعدل، لأنني أحب الكـونت، ومن المفترض على أسـاس صداقتي له، سوف أخبره بكلّ تأكيد بما يفعلونه».

وتـابع الفـلاح يقـول: «لعلـه بفضل ارادة الـرب أن حـدث ولقيتك لأسمعك اليوم مالايمكنني شخصياً أن أخبر بـه الكونت، وهذا لن يخفى عن الكونت بوساطتك، ولهذا استمع ياسيدي، لكن ليس لما هو أسوأ:

بعـد جمع المحـاصيل، ينطلق وكـلاء الكـونت إلى القـرى، وبـالنسبـة للقـانـون الجديد نجدهم يفـرضـون على كلّ فلاح حصـة يحصلـونها من محصـوله بكلّ عنف، ثـم —ومرعب أن نـروي— يطلب هـؤلاء الرجـال جزئاً من ستة عشر من المحصول، أو يطلبـون من أحدهم جزئين من ستة عشر، أو من بعضهم أكثـر إذا مـااستطـاعـوا التحصيل، وإذا مـاصـدف واعترض أحد الناس على هـذه الفريضة، يجر إلى المحاكمـة، ويعذب من قبل أتباع الوكلاء ويحاكم، ويتهم بجرائم مزيفة، وهكذا مامن أحد ينجو من الأيدي الجشعـة للقضاة الأشرار، حتى يفلس، ويـأسف أن جهوده لم تصمد أمام هؤلاء الذين يحفظون القانون».

وفكـر الكونت وردد في قـرارة نفسـه: «ليلحق الشر بـالذي أوجـد مثل هـذه القوانين»، ثم رفع صـوته وهـو يقول: «الانتقـام هو عملي، وسأنـزل

العقاب بهؤلاء قبل مضي وقت طويل»، ثم تابع يقول:

«أخبرني المزيد، ولاتبق شيئاً لديك، ماذا لديك أيضاً لتسمعني عن هؤلاء الرجال المشهورين؟، وهل يعلم الكونت بهذه الأعمال الشريرة»؟.

وأجابه الفلاح: «إنه لأمر مدهش كيف أنهم استطاعوا ياسيدي اخفاء هذه الأعمال عن مولانا الكونت، مع أنهم يفعلونها بحضور الجميع، مالم تكن العادة الرائجة أن يكون السادة آخر من يعلم بما يجري في بيوتهم، وسأضيف حدثاً آخر لما تحدثت عنه، ثم سأوقف حكايتي، مالم أكن أسبب أذى إلى مسامعك اللطيفة»؟.

وقد قال ذلك بنبرة اعتذار ريفية.

ورد عليه غيوفري قائلاً:

«قل ولاتخف أبداً، فما من أحد يتكلم ببيان أوضح ممن يتحدث بالصدق، ويروي الحقيقة».

وتابع الفلاح حديثه قائلاً:

«عندما تسمع بعض النذر باقتراب وقوع حرب، سواء أكان ذلك صحيحاً أو مخترعاً من قبلهم، يرسل هؤلاء الوكلاء وقتها رجالهم للقيام ببذل جهود عظيمة في نشر الاشاعة، ويقومون بوساطة الاعلانات والأوامر العامة التي يذيعها المنادون بحشد الفلاحين من جميع الأجزاء لملأ القلاع بهم، بحجة تأدية واجب الحراسة، وبذلك يتركون الأرياف مهجورة، ثم يقوم أتباعهم فيبعثون بشكل سري فيستدعون بعض الأفراد، ويظهرون لهم أسفهم لما لحقهم من خسارة، وكأنهم لايريدون سوى مواساتهم دوماً، ثم يشجعون الفلاح للقيام بشراء أذن بالعودة من الوكلاء عن طريق عرض بعض الهدايا وتقديمها بشكل سري، ويعرضون ذلك وكأنه نصيحة جيدة، وكان بالنسبة لكلّ رجل سمح له بالعودة عدد آخر، من

الفـلاحين التعسـاء، المثقلين بـالـديـون ولايمتلكـون سـوى دريهات فيقـرضونها لآخـرين وبذلك يـرغمون على البقـاء بالقـلاع، هؤلاء هم يـا سيـدي الذين تتأثـر الأريـاف بهم بكل مرارة ، والـذي يشقى في السلم مثله في سـوء الحظ مثل الذي يمـوت في الحرب» وأكمل الفلاح حـديثه وقال كل هذا عندما أخذوا يدخلون إلى البلدة.

وينبغي عـدم تجاوز الاشـاعـات التعيسـة التي ازدادت أثنـاء غيـاب الكـونت، ففي بلاطـه سأل كلّ انسـان الآخر عن غيـاب غيوفـري، وأين يمكن أن يكـون، ومامن واحـد أجاب بـأخبار طيبـة، ومع حلول الظـلام تعاظمت أحزانهم كثيراً، وتـوقف الجميع عن الحركة بأعين مرعـوبة محدقة بـالطريق التي اعتـاد أن يعـود عبرها من الغـابـة، وفجأة وصل الشخص الذي طـال انتظاره، وقـام بسرور بتقديم التحيـة لأول رجل التقاه، حسبما كـانت عادتـه، ولـدى ملاحظـة ذلك الـرجل صوت الكـونت لم يستطع اجابـة تحيته لسروره، ولأنه ركض أمامـه وهو يصرخ بكلّ ماأوتيـه من قوة بأن الكونت قد عاد، وكان يشير إليه.

ثم لاحظ الفلاح وعرف الشخصية التي كـان يقودها ويتحادث معها، فاقتنع أنـه لم يعد بإمكـانه البقاء رديفـاً للكونت، وهكـذا حاول فجأة أن يقفز نحو الأرض، وأدرك الكـونت مايجري وتنبه له فأمسـك به وهو يحاول النزول، وقال وهو يبتسم:

«هل يتـوجب عليّ هكـذا العمل للتخلص من الـدليل الـذي تمكنت بمسـاعدتـه من العودة إلى شعبي؟ إن هـذا لن يكون»، والجماهير تتـدفق حوله من كلّ جانب، حمل الفلاح ووضع عاليا على ظهر حصان الكونت سواء أراد ذلك أم لم يرده.

وجاء وقت المائدة، وكـان الفلاح قد غير مـلابسه وارتدى ثياباً فخمة زوده بها الكونت، وجلس الفـلاح وسط الرجال القياديين لـدى الكونت،

وجـرى تكريم الفـلاح وتبجيلـه بتقديـم أفخر الصحـون لـه، لقد تنـاول الفلاح طعـامه بآنيـة ذهبية، أما المغامـرة التي واجهها الكونت فقـد تولى روايتها الفلاح وكذلك الكونت.

وعندمـا عاد الكونت من القداس في اليـوم التالي، أمر باحضـار دليله، وخاطبه قائلاً:

لقـد حررتك وحـررت ورثتك من جميع الضرائب والخدمات، وأمـرت بأن تكـون رجـلاً حـراً، حـراً في كـل مجال، وبنـاء عليـه عـد إلى أسرتك ومارس الحياة الهينة التي ترغب بها، ومـا ان أنهى خطابه حتى أمر بمرافقة الرجل إلى حيث كان يقيم.

وبات الكـونت متفوقاً على الجميـع لأنه جعل واجبه حمايـة الضعفاء، وسأعـرض الآن أمـامك مثـلاً عن الطـريقـة التي عـرف بها كيف يخضع الأقوياء.

وكان الكونت ثيـوبولد الثاني صاحب بليوس وشـامبين رجلاً مشهوراً، وكان من أغنى الفرنسيين في أيـامه، وكان مستقيماً تماماً وخـالياً من اللوم، وفي داخل دويلته كان وليم كونت نافار وهيو صاحب كوسني Cosne ، الذي يعـرف بلقب مـانسيو Manceau في خصام دائم فيما بينهما، مع أن ثيوبـولد كان يـدعوهما دوماً، ويعـرض خلافاتهما أمـام محكمته، وأخيراً قام ذلك الشريـر صاحب نافـار، الذي فضل أن يهزم عدوه بـالقوة وليس باللجوء إلى القانون، بالفرار من بلاط ثيوبولد.

كـان في تلك الأثناء لـويس السادس ملك فـرنسا يسعى بهدوء نحـو تمتين سلطانه بتوجيه من سوكر راعي دير سانت دينس(٩).

وفي خلال الصراع الطويل والمستمر الذي تـلا ذلك طلب كونت نافار

مساعدة ملك فرنسا لويس السادس مع مساعدة أسقف أوتون Autun وساق هـذان الرجـلان جيْشين عظيمين وزحفا إلى جـانبه، ذلـك أنه أراد محق عـدوه تماماً، وعلى هـذا الأسـاس حشـد الملك والأسقف والكـونت جيوشهم الثـلاثة وحـاصروا هيو في القلعـة التي اسمها كـوسني، ولم يعد أمامه أدنى أمل بالنجاة، طالما أن القـوات طوقته من كلّ جانب، ولم يعد أحد يتمكـن من الدخـول إلى القلعة أو مغـادرتها، وفي حالة اليـأس هذه بعث مانسيو بـرسل إلى الكونت ثيوبولـد ليشرح له المأزق الصعب الذي هو فيـه وليطلب المساعدة، وبدون تـأخير، لوجود خطر كبير بـالتأخير، أمر ذلك الانسـان الجيـد رجـالـه بـالـذهـاب إلى هنـاك، وطلب من جيرانـه وحلفـائه المساعـدة أيضاً، ونشـد بين هؤلاء مسـاعدة غيـوفري صـاحب أنجو، وكان واثقـاً من قدومها، لأنه اعتمد اعتماداً كلياً على مسـاعدة هذا الكونت، ولم يتقاعس بطلنـا، فقد كان دوماً سريعاً جـداً في تقديم العون إلى أصـدقائه، وإذا مـا وعد بتقـديم قـوة كان يفي بتعهـداتـه لأنه كـان صادقاً.

وحشـد غيوفـري كـوكبـة تألفت من مـائة وأربعين فارسـاً من النخبـة والمسلحين بشكل جيـد، وأرفقهم بثـلاثمائه مـن قـوات الاحتيـاط وبـادر مسرعاً بـالتقدم، ووحـد قواتـه مع قوات ثيـوبولـد، وزحف الرجـلان معاً لانقاذ مانسيو المحاصر، لكن أخبـار قرب وصولهما طارت أمامهما ووصلت إلى مسـامع ملك فـرنسا، الـذي قـام بعقلانيـة وحكمـة بـازالة معسكـره والتخلي عن الحصار.

وجعلت كراهية الأعداء كونت نـافار يتأخر ويتقاعس عن الفرار بعض الـوقت، وتـولى على كلّ حـال الكـونت غيـوفري مطـاردتـه، بينما تعـامل الكونت ثيوبولد مع الذين بقـوا، ثم ما كان عليك سوى أن ترى غيوفري النبيل ومعه رفاقه الشرفاء، وهو يحمل تـرسه المزين بصورة أسد، مع أنه في الحقيقـة لم يكن أقل شجاعـة أو حدة مـن الأسد، وطـارد الفارين وكأنـه

صاعقـة عسكريـة، أو توجـه لمساعـدة رفاقـه، فاستطاع أن يفتـك بسيفه ببعض الفـاريـن، أو يلقي ببعضهم الآخـر أرضـاً وهـم مصـابين، فما من واحد من الهاربين نجا دون اصابة بجراحة.

ثم ماهـو المزيد؟ فعندما مات كثيرون، وفـرّ أكثر، أخذ غيوفـري كونت نافار نفسه أسيراً، وسلمه مكتوفاً إلى الكونت ثيوبولد.

تميز كـونتناغيوفري آنئـذ بهذه الفضائل السامية وبتماسك الـذات، فقد كان بإمكانـه بلحظة واحدة أن يكون انسـانياً ورحيماً ولطيفاً ومستقيماً، ثم قوياً شجاعاً متحمساً، فهكـذا كان بإمكانه حقاً أن يحافظ على الضعفاء، ويخضع الأقوياء.

كان في الوقت نفسه فولك صـاحب أنجو، وملك القدس يصطرع في الأراضي المقـدسة ضـد القـوى المتنـامية للمسلمين بقيـادة زنكي، الـذي حكم الموصل منذ سنة ١١٢٧، ولقد أوحت نجاحات زنكي المتوالية أن القدس ربما تسقط، لـولا أن بادر في ثلاثينات القـرن الثاني عشر كلّ من أمير دمشق وامبراطور القسطنطينية إلى مساعـدة فولك. وفي سنة١١٣٦، استدعى فولك ريمـوند أوف بواتيه، وهو الابن الـوسيم والقادر للدوق وليم التاسع صاحب أكوتين، إلى فلسطين، وجعله خطيباً لأميرة أنطاكية كـونستـانس التي كـانت في التـاسعـة من عمـرهـا، وكـان هـذا عمـلاً استراتيجياً هـاماً اعتمدت عليـه مملكة القـدس، فقد توفـرت الحاجة إلى ريموند لتقديم المساعدة لفولك في دفاعه عن الأراضي المقدسة.

بعد مـرور عدة سنـوات، وبينما كان الكونت غيـوفري ينعم بـالازدهار، شن روبرت أوف سابل **Sable** مع حلفائه الحرب ضد غيوفري.

*يتـولى الآن يوحنـا أوف مارمـوتيير **Marmoutier** بالتفصيل وصف الحمـلات الكثيرة التي قـام بها غيوفـري ضـد أصحـاب قلاعـه العصاة، الذين كان بينهم سادة سابل.*

صار روبرت صاحب سابل بارونـاً لجميع المنطقة بوساطة أيمان فاسدة أداها له رفاقه، حتى إلياس، الـذي كـان آنذاك كـونت مين Maine وهـو أخو كـونت أنجـو، تأثـر بنصائح الـرجـال الشريريـن فقاتل أخـاه، وعنـدما أسر غيوفري إليـاس، أبقـاه في السجن لأيام كثيرة في تـور، لكن بعدما أطلق سراحـه منه، توفي هذا الشاب، بسبب اصـابته بمرض خطير وهو في السجن.

وأمسك في الوقت نفسـه غيوفري بـالفرصة التي تـوفرت له، فقـام بعد استشـارته لـرجـاله، بـدخول أراضي أعـدائه، مقـدراً أنه من الحكمـة أن يهاجم في أراضيهم، بدلاً من أن يـدعهم يتولون مهـاجمته، وبناء عليـه قام الكونت نفسـه وبصحبته نخبة من فرسـانه مع أعداد كبيرة من الرجـالة، بـالزحف ضـد أولئك النـاس العصـاة والمعادين لـه، وأرغمهم فـوراً على الفرار، وكـذلك أرغم مشاتهم على الهرب، وهنـا خرج رجال روبـرت ضد الكـونت، وهنـا تمنع عن القتـال مواجهـة، ذلك أن قـوات سـابل غيرت أوضاعهـا لدى اقترابه وأقامت عـدداً من الكمائن، وهنا رأى غيوفـري أنه بات من الضروري بالنسبة له أن يعدّ قـواته من أجل القتال، فاستطاع ردّ روبرت أوف سـابل إلى داخل القلعة، وذلك بعدما عـرّض عدداً كبيراً من رجـالـه للموت أو الاصـابـة بجـراح أو السقـوط بـالأسر، وإثر هـذا قـام الكونت المنتصر بالعودة إلى مكانه.

سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف

بعد مضي أربع سنين على الزواج السالف الذكر [بين غيوفري وماتيلدا] ولد هنري الابن الأول للكونت غيوفري، وهو سيكون هنري الثاني الملك المستقبلي لانكلترا، وفي السنة الخامسة ولد غيوفري، وفي السنة السادسة جاء وليم.

سنة خمس وثلاثين ومائة وألف

في سنة ألف ومائة وخمس وثلاثين، وفي اليوم الأول من كانون الأول توفي هنري الأول ملك انكلترا،وكان عمره سبع وسبعين سنة تماماً، وجاء موته بعدما أمضى بالحكم خمساً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وحدثت الوفاة في روان Rouen في مكان يحمل اسم ليون —لى— فورت Lyons-La-Foret واحتفظ النورمان بأحشائه، وحمل الانكليز بقية الجسد إلى قبر في دير في ردنغ.

وإثر وفاة الملك هنري اعتلى العرش بشكل غير شرعي ستيفن، كونت مورتين Mortain ، وكان أخاً لثيوبولد الثاني، كونت بليوس وشامبين، وابن أخت للملك المتوفى، وتتوج ملكاً في انكلترا.

ودخل في تلك السنة غيوفري صاحب أنجو، ومعه رجال منتخبين، إلى نورماندي، عازماً على الاستيلاء عليها، لأنها ميراث لابنه.

وفي الوقت نفسه عبرت الامبراطورة ماتيلدا البحر، وبصحبتها كوكبة من الفرسان، ومع أنها امرأة، هاجمت بكلّ قوة ورجولة الانكليز، مصرة على أن ميراثها الشرعي سوف تحصل عليه بقوة السّلاح، وانتشرت الأخبار

بسرعة، ووصلت إلى مسامع الملك ستيفن، وأعلنت أن المملكة باتت في خطر، لأن الامبراطورة أخضعت بالقوة كثيراً من الانكليز، وأعداد كبيرة منهم استسلمت لها على الفور، وأنه مالم يبادر بالعودة مسرعاً إلى انكلترا سوف يفقد تاج المملكة، وقام الملك المرغم بالأخبار السيئة بالابحار مع أكبر عدد من الرجال الذين توفروا له من حشود عساكره.

ثم أعطانا يوحنا أوف مارموتيير رواية مثالية عن احتلال غيوفري لنورماندي [١١٤٢-١١٤٤] تدلل —بشكل غير صحيح— أن تقدم الكونت قوبل بحماس أعظم من العدوانية في الدوقية.

ثم إن الكونت النشيط القوي، أدرك في حربه وصراعه ضد الجيش المحشود من قبل ستيفن وتأكد أن الرب سيقاتل إلى جانبه ضدّ قلاع الملك غير التقي، ولدى معرفته بأخبار تراجع الملك، لم يضع فرصة تقدمه في تلك الساعة، بل تابع زحفه نحو الأمام، فدخل إلى البلاد، وحاصر مورتين، وأخذ رهائن وتأمينات، واستقبل السكان بسلام، وحكمهم بشكل انساني، وحافظ على ممتلكاتهم دون أن تتعرض للأذى من الجيش.

ثم نقل الكونت جيشه، وجاء إلى كيرنتان Carentan ، وبعدما تسلم هذا الموقع بدون قتال، بادر مسرعاً إلى مدينة بيو Bayeu ولدى سماع السكان والأسقف باقترابه، خرجوا بسلام وهم يبدون سرورهم، وتقبلوه وتقبلوا سلطته، وقدموا له الولاء وأقسموا متعهدين بمساعدته ضد جميع أعدائه.

وتحرك الكونت من بيو، وأخذ طريقه نحو سينت لو، حيث كان أسقف كاوتنس Cautances المسيطر على الموقع، قد تولى تحصين الموقع ضده، وكان عدد الجند في داخله حوالي المائتين، وقد خرجوا لانشاب القتال ضد الكونت، وقد أرغموا مع أول اصطدام على الفرار عائدين إلى البلدة، وصمدوا فقط في اليوم الأول والثاني، واستسلموا في

اليـوم الثالث وفتح المدافعـون الأبواب، وطلبـوا السلام، وقـدموا رهـائن، وأقسموا على تأدية الولاء، وعلى الطاعة للكونت(١٠).

ثم قصـد مـدينة كـاوتنس ووصلهـا، وهي مـدينـة واقعة في مقـاطعـة كوتنتـن، ودخل الكونت إلى هـذا الموقع، واستولى عليـه بلا مقـاومة (لأن الأسقف كان بعيداً)، وكـان مشحوناً بالقـوات والعتاد، ثم جمع بعد ذلك بارونـات مقاطعـة كوتنتن، وطلب تقـديم الـرهائن منهم، وجـاءوا جميعاً، وأدوا الخدمـات المطلـوبة، بـاستثنـاء رالف مع أخيـه رتشـارد دي لى هي Haye ، وقام الأول بتحصين قلاعه ضـد الكونت، بينما تمركز الآخر مع قـوة كبيرة من الجنـد فيهـا مـائتين أو أكثـر من العســاكـر، في شيربـورغ Cherbourg ، حيث ظن أن بإمكـانـه هنـاك امتـلاك القــدرة على الصمود في وجه الكونت، غير أن الكـونت، صاحب القلب العظيم، تولى أولاً العيث فساداً في منطقة رالف، وحـاصر قلاعه، ثم تمكن بوسـاطة قوة عسكريـة من أسر رالف نفسـه، ولقد تأخر رالـف كثيراً في تقديم التـوبة، وذلك بعـدمـا تـولى قتال الآخـرين، لـذلك تقبل بهدوء الـوقـوع بـالأسر والخضوع.

وزحف غيـوفري الآن إلى شيربـورغ، وذلك بعـدمـا قام بتنظيم الجنـود الـذين رافقـوه، وأعد بكل بـراعـة وحـرص آلات الحصار، وبـذلك كـان جاهـزاً باستعـداداته الحربية، وكـان يوليـوس قيصر قد شيـد في شيربورغ حصنـاً، وذلك أثناء استعـداده لغزو بـريطـانيا، وقـد أحاط هـذا الحصن أسـوار على درجة عـالية من القـوة، وأقيمت أبـراج كثيرة في اطار السـور، حتى بـات من المتعذر أن يستطيع جنـدي غرس رمحه بينهم، وأقـام برجـاً أعلى من الأبراج الباقيـة وسط التحصينات، وشيد قاعـة ملكية، وإلى هذا الحصن فـرّ بعد أول هجـوم قام بـه ضد بـريتاني، وأطلقت لـذلك بعض الروايات العادية اسم قلعة قيصر على هذا الحصن.

وبعـدمـا احتل رتشـارد دي لى هي هــذا الموقع، شحنـه بـالفـرسـان

والجنـود، والـرجـال المسلحين مع كميـة كبيرة من المؤن والعتـاد، ثم حرضهم على مقاومة غيوفري بكل ثبات [ذلك أن رتشارد قرر عبور البحر والذهاب إلى الملك ستيفن، على أمل أن يعود من عنـده وهو يقود قوة من الجند، يـرغم فيها الكونت غيـوفري على الفرار وذلك بعد رفعـه للحصار] وفي الوقت نفسه تابع الذين كانـوا في الحصن مقاومة الكونت، معتمدين ليس فقط على شجـاعتهم وعلى المخـزون العظيم من المؤن الـذي خـزنـه الطاغيـة رتشارد دي لى هي هنـاك، بل أيضـاً على دفاعات الأبـراج التي لاترام، وقـد قذفـوا المهاجمين بـالحراب الحربية، وبـالشتائم المقـذعة، ورد عليهم المهاجمون كلّ رماية برمية، لكن ليس كلّ كلمة بكلمة، غير راغبين في أن تكون ردودهم فارغة، وقاتل الـرب الذي بيده جميع القوى والممالك لصالح الكونت، فصـد أعداءه، وأنجح مقاصده، ذلك أنه عنـدما أبحر رتشارد دي لى هي، وقع بأسر القرصان الذين حملوه إلى أراض أجنبية.

وحملت الأخبار غير المفرحة إلى الذين كـانوا يقاومون الكونت، واربدت وجـوه المحـاصرين وعـلاهـا الحزن، وتهاوى أملهم المهـزوز، ولم يعـد في مقدورهم سوى التفكير بالفـرار، ولم يجدوا أمامهم منفذاً لفعل ذلك، ولهذا سلمـوا الحصن القوي المشحـون بالمؤن، وأعلنـوا عن رغبتهم بالاستسـلام لسلطـة الكـونت ووضع أنفسهـم تحت تصرفـه، وتعهـدوا بأيمان مغلظـة بالـولاء له، وإثـر تنفيذ هـذه الأعمال، قدر الكـونت أن حلول الشتـاء قد اقترب، وبعدما أخذ ما أخذه من القلعة أذن لجنده بالانصراف.

واستمـر الصراع طـويـلاً فيما بين ستيفن، الملك المزيف، وغيـوفـري كونت أنجـو، وكان شأن غيـوفري يـزداد علواً دوماً وهـو يزداد نشـاطاً في نفسه، بينما كان ستيفن يضعف يومياً.

واعتاد الملـوك والأمراء التـوجه إلى الحرب بعـد انقضاء الشتـاء القاسي والعاصف، وعندما تبدأ رائحـة الربيع الدافئة تملأ الهواء، وتتحول البراعم إلى زهور، وعندما تغـدو حدائق الورود تعج بالورود الجديدة بعـدما كانت

قبل قليل جرداء، وعندما تأخذ أزهار الليلك البيضاء تتمايل أمام الأعين...

يرسم هنري أوف هنتنغدون Huntingdon صورة مختلفة تماماً حول الصراع بين أسرتي بليوس وأنجو في سبيل السيطرة على نورماندي وانكلترا والتحكم بها، ولم يكتف المؤرخ في اظهار بعض التعاطف —المحق— نحو ستيفن، بل نظر إلى حوادث حكمه وتفحصها في الاطار الانكليزي —والسكوتلندي— تماماً، وسيظهر هذا على الفور في وصفه لموت هنري الأول، ووصول ستيفن إلى العرش في سنة١١٣٥.

إثر وفاة الملك هنري الكبير (١١٣٥) تناول الشعب البحث بحرية حول أخلاقه، وذلك حسب العادة ، بعد وفاة الناس، فقد أصر بعضهم واتفقوا على أنه كان متميزاً تماماً بثلاث مواهب، وكانت هذه:

حكمته العظيمة، لأن آراءه كانت عميقة، وكانت بصيرته نافذة، ولفصاحته الآسرة ولنجاحه بالحرب، فبالاضافة إلى كثير من النجاحات والانجازات، كان هو المنتصر على ملك فرنسا [لويس السادس]، ولثرائه، الذي فاق به جميع سلفه من الملوك، واتخذ آخرون —على كلّ حال— مواقف مخالفة، وعزوا إليه ثلاثة معائب: فبالنسبة لثرائه، صحيح أنه كان عظيم الثراء بالمقارنة مع أجداده، إنه أفقر الناس بالضرائب والمكوس، وأرهقهم بالمتاعب على اختلاف أنواعها، وكان بلا رحمة، وفي هذا المجال اقتلع عيني قريبه، كونت مورتين الذي كان لديه أسيراً، علماً بأن هذه الفعلة الشنيعة والمرعبة لم تكن معروفة، وكشفت بعد وفاته مع أسراره، وقد ورد ذكر أمور أخرى وحوادث، أنا لن أقول عنها شيئاً، وكان شبقاً، ذلك أنه كان مثله مثل الملك سليمان مستعبداً من قبل الاغراء الجنسي النسائي، وكانت الأخبار منتشرة من حوله ومتداولة، لكن كلّ مافعله

الملك هنري سواء بالطغيان أو عدلاً كملك يبدو رائعاً بالمقارنة مع الأيام المقبلة بعده التي ألهبت الأمور بوساطة عنف النورمان.

فقد جاء ستيفن بكلّ سرعة، وهو الأخ الأصغر لثيوبولد كونت بليوس، وكان صاحب عزيمة، ورجلاً جريئاً، لم يقم اعتباراً ليمين ولائه لماتيلدا ابنة هنري، جاء متحدياً الرب بالاستيلاء على عرش انكلترا بجرأة ووقاحة، وكرس وليم رئيس أساقفة كانتربري الملك الجديد، مع أنه كان أول من أقسم يمين الولاء لماتيلدا، ولهذا يالـلأسف زاره الرب ومعه الحكم نفسه الذي أوقع على الرجل الذي ضرب أرمياء الراهب الكبير، فمات خلال العام، وكذلك حدث لروجر الأسقف القوي لسالسبري، وكان قد أدى يمين الولاء نفسه، والآن أقنع الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه، وصرف جميع قواه في سبيل رفع ستيفن إلى العرش، وتعرض هو أيضاً لحكم الرب العادل، فألقي بعد أمد في السجن، وواجه نهاية مؤلمة، أوقعها عليه الملك نفسه الذي ساعد على صنعه.

وباختصار حوّل جميع الايرلات والبارونات الذين قد أدوا يمين التبعية لماتيلدا، ولاءهم إلى ستيفن وقدموا له فروض الطاعة، ولقد كان فألاً سيئاً أن تقوم انكلترا كلها بسرعة، وبدون تردد أو صراع، وبلحظة مثل طرفة عين، فتخضع لستيفن، وبعدما جرى تتويجه عقد بلاطه في لندن.

سنة ست وثلاثين ومائة وألف

وجاء الملك ستيفن في السنة الأولى من حكمه إلى أكسفورد، فأخبر أن داود ملك السكوتلنديين، تظاهر بأنه قادم لزيارته زيارة صداقة، فزحف إلى كارت ايل ونيوكاسل، واستولى عليهما مخادعة، ورد الملك على الرسول الذي حمل إليه الأخبار: إن ماحصل عليه بالمخادعة سأرغمه على التخلي

عنـه، وبنـاء عليه حشـد الملك ستيفن على الفـور أعظم جيش حشـد في انكلترا عرفه الناس حتى الآن، وقـاده ضد الملك داود، ولقد التقيا في دور هام، وهناك تصالح ملك السكوتلنـديين مع ستيفن وسلمه نيوكاسل غير أنـه احتفظ بكـارآيل وذلك بمـوافقـة من ستيفن، ولم يقـدم الملك داود الـولاء للملك ستيفن، لأنـه كـان أول الناس من غير رجـال الـدين، قـد أقسم يمين الولاء لابنـة الملك المتوفى، التي كانت ابنة أختـه، وقد اعترف بها ملكـة على انكلترا بعد وفـاة أبيها، لكن الملك هنـري ابن الملك داود، قدم الولاء لستيفن، وأعطاه ستيفن بالاضافة لما تقدم بلدة هنتنغدون.

وبعد عـودة الملك ستيفن من الشمال، عقد بلاطه خـلال عيد الفصح في لندن، بطريقة أروع ممـا عرف قط من قبل، ليس فقط بعدد الحضور بل بما جرى عـرضه من روائع من ذهب وفضـة وجواهر، وثيـاب ثمينة، وكل شيء كان فائقاً.

سنة سبع وثلاثين ومائة وألف

في السنـة الثـانيـة من حكمـه، أمضـى الملك ستيفن عيـد الميـلاد في دنستيبل Dunstable ، وفي الصوم الكبير أبحر إلى نـورماندي، وعبر معـه الاسكندر أسقف لنكـولن وعـدد كبير آخر من النبـلاء، ونجح الملك هنـاك بفضل خبرتـه بـالحرب في جميع ماقـام بـه، وأحبط خطط أعـدائه، وهـدم قلاعهم وحصل على أعلى المفـاخر والأمجاد، وأقـام سلماً مع الملك الفرنسي، الذي قدم ابنه يوستـاس الولاء له من أجل نورماندي، التي هي اقطاع تابع للتاج الفرنسي.

وكان غيوفـري كونت أنجو العدو اللدود للملك ستيفن، لأنـه كان قد تزوج ماتيلدا ابنة الملك هنـري، وهي التي كانت امبراطورة ألمانيا، وكانت

قد تلقت أيمان التبعية بالنسبة لمملكة انكلترا، وبناء عليه ادعى الزوج والزوجة بحقهما بالعرش الانكليزي، لكنه وقد رأى أنه في الوقت الحاضر لايستطيع التقدم بنجاح ضد الملك ستيفن، بحكم امتلاكه لقوات لاتحصى مع كميات هائلة من المال وجدها في خزائن الملك المتوفى، ولهذا تصالح كونت أنجو مع الملك ستيفن، وبناء عليه وبعدما حقق النجاحات عاد الملك إلى انكلترا منتصراً، وكانت عودته عشية عيد الميلاد.

وكانت السنتان الأوليتان من حكم الملك ستيفن سعيدتان، لأن السنة التالية التي أنا مقبل الآن للحديث عنها كانت عادية وموائمة، لكن السنتان الأخيرتان كانتا مدمرتان ويائستان.

سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف

ذهب الملك ستيفن (١١)، في السنة الثالثة من حكمه، بنشاطه المعتاد، مسرعاً نحو بدفورد Bedford ، وحاصرها عشية يوم الميلاد، وشدد الحصار خلال مدة العيد كلها، مما أغضب الرب بقدر ماجعل ذلك الموسم ضئيلاً أو بلا قيمة.

وبعد استسلام بدفورد، قاد قواته داخل اسكوتلندا، ذلك أن الملك داود، قام نتيجة لليمين الذي أداه لصالح ماتيلدا ابنة الملك هنري، وتحت غطاء ديني، فجعل أتباعه يتعاملون بشكل وحشي، فقد اغتصبوا بشكل مكشوف النساء الحبالى، وبقروا بطونهن لاخراج الأطفال الذين لم يلدوا بعد، ورموا بالأطفال وأرجحوهم على أسنة رماحهم، وذبحوا رجال الدين عند المذابح، وقطعوا رؤوس تماثيل الصلب، ووضعوهم على أجساد الذين ذبحوهم، وبالمقابل وضعوا رؤوس ضحاياهم فوق

التماثيل، وحيثما حل السكوتلنديون أو جاءوا كانت هناك المناظر نفسها من الرعب والوحشية: نساء يولولن، شيوخ يندبون وسط الذين يموتون من الآلام واليائسين من الحياة، ولهذا غزا الملك ستيفن اسكوتلندا وسلط السيف والنار على الأجزاء الجنوبية من ممتلكات الملك داود، الذي لم يتجرأ على التصدي له.

اتخذ الكاتب المجهول، لكن المعاصر الذي كتب أعمال ستيفن، موقفاً أقل حدة ونقداً تجاه السكوتلنديين.

كان ملك اسكوتلندا، الذي تحد بلاده انكلترا، حيث يفصل نهر بينهما، عظيم المشاعر الانسانية، وقد ولد لأبوين متدينين، ولم يبتعد عن فضائلهما وتقواهما، وكان مع مجموعة من الرجال العظماء، لابل في الحقيقة كان الأول بينهم، أدى يمين الولاء لماتيلدا، ابنة الملك هنري، في حضوره ولهذا غضب غضباً شديداً لأن ستيفن اغتصب تاج انكلترا، لكن بما أن ستيفن استقر بالملك بوساطة البارونات بدون حضوره وموافقته، فقد جلس بكل حكمة ينتظر النتيجة، ويراقب مجرى الأحداث.

وأخيراً استلم رسائل من ماتيلدا، تتشكى فيها بأنها حرمت من وصية أبيها، وسرق منها التاج الذي تمت ضمانته لها ولزوجها بأيمان مغلظة، فقد أزيحت الشريعة ورميت جانباً وديس على العدالة بالأقدام، وأيمان التبعية لها التي أقسمها البارونات الانكليز قد خرقت ولم يقم لها وزن، وباخلاص وأسف طلبت منه بحكم قرابته منها أن يعمل على ضمان حاجتها، وأيضاً بحكم كونه تابعاً شرعياً لها أن يقوم بمساعدتها في وقت ضيقها.

وشعر ملك اسكوتلندا بحزن عميق، وتعاظم غضبه من أجل المطلب الحق، وروابط الدم، وتقديراً ليمينه قرر القيام بغارة يخرق بها انكلترا،

اعتقـاداً منه انـه بقيامـه بهذا يمكنـه بمعونـة الرب أن يـرغـم ستيفن على التخلي عن الحكم لصالـح المالكة الشرعية للتـاج، التاج الـذي وضح له أنه تمّ الاستيـلاء عليه بصورة غير عادلة، واعتنى ملـك السكوتلنديين في بلاطه بـالمنفيين الانكليز الذين حرضوه باستمـرار لاتخاذ هذه الاجراءات، ولهذا قـام الملك داود —لأن هـذا كـان اسمه— فنشر مـرسـومـاً في جميع أرجاء اسكـوتلندا يـدعو فيه شعبـه إلى حمل السلاح، وتغيير مجرى حيـاته، ومن ثم المبـادرة لـلاقـلاع بهجـوم عاصـف ومدمـر هـائل ضـد الشعب الانكليزي.

وتـدعى اسكوتلنـدا أيضاً ألبـاني Albany ، وهي بـــلاد مغطاة بمروج واسعة، وفيهـا غابات مزدهـرة مع المراعي التي تطعم قطعان كبيرة من الأبقـار والثيران، وفيهـا مـوانىء آمنـة، وهي محاطـة بجـزر خصبـة، والسكـان المحليون متـوحشون، وعـاداتهم غير نظيفة، لكنهم غير معـاقين بـالبرد الشديـد، ولايعانـون من العوز الكبير، سرعتهم كبيرة على أقـدامهم وأسلحتهم خفيفـة، ويتخـذ منهم جنـد شجعان ذوي فعـاليـة، وهـم بين أنفسهـم لايعرفون الخوف ولايبالون بـالموت، ووحشيتهم بين الغرباء عنيفة ويبيعون نفوسهم بأثمان عالية.

ونعود الآن إلى حكاية هنري أوف هنتنغدون

ظهـرت الخيانـة الانكليزيـة وتجلت بشكل واضح بعـد فصح ١١٣٨، فقد قـام تالبـوت Talbot، الذي كـان واحداً مـن الثوار بـــالاستيلاء على إحدى القـلاع في ويلز، وأعلن العصيـان بها ضد الملك ستيفن، غير أنه حـاصرها واستـولى عليها، وتحصن الايـرل روبرت أوف غلـوستر، وهو ابن طبيعي للملك هنـري الأول في قلعة بـرستول المنيعـة وفي قلعة ليـدز، واستولى وليم فتز ألان Fitz Alan على قلعة شروبـري، التي اقتحمها

الملك أخيراً، وشنق عدداً من الأسرى.

وفيما كان الملك مشغولاً على هذه الصورة في الجنوب، قاد داود صاحب اسكوتلندا ثانية جيشاً كبيراً إلى الشمال من انكلترا، وقد عارضه بشدة وقاومه نبلاء الشمال تحت قيادة ثيرستان Thurstan رئيس أساقفة يورك، ونصب العلم الملكي في نورثألرتون Northallerton ، وحيث أن رئيس الأساقفة منعه المرض من حضور المعركة، فقد فوض إلى رالف أسقف أوركني Orkney أن يشغل مكانه، ووقف رالف على ربوة صغيرة في وسط الجيش، ورفع من معنويات النبلاء الانكليز بخطاب ألقاه عليهم.

ثم صرخ الانكليز رادين عليه بصوت واحد رددت صداه الجبال والتلال قائلين «آمين، آمين»، وإثر هذا وفي الوقت نفسه ردد السكوتلنديون صيحات حربهم «ألبان، ألبان»، حتى وصلت إلى عنان السماء، ثم اختفت الأصوات وسط قعقعة السلاح.

وفي الحملة الأولى نال رجال لوثيان Lothian شرف توجيه الضربة الأولى، فوجهوا نحو الفرسان الانكليز الدارعين زخات من النشاب، وذلك دون أذن من ملك السكوتلنديين، غير أنهم وجدوا الصفوف الانكليزية منيعة لايمكن خرقها مثل جدار من الفولاذ، واختلط النبالة الانكليز بالفرسان وتوزعوا بينهم، وفيما هم كذلك أصابوا السكوتلنديين غير المسلحين برماياتهم المتوالية، ووقف الجيش الانكليزي بأجمعه مع النورمانديين متماسكاً حول العلم في كتلة متراصة قوية.

ثم سقط مقدم رجال لوثيان نتيجة اصابته بنشابة، وأدى هذا إلى فرار جميع أتباعه، لأن الرب القادر كان غاضباً عليهم، وهكذا تحولت قوتهم وغدت أشبه بنسيج عنكبوت، وعندما رأت الكتلة الرئيسية من السكوتلنديين هذا، وكانت تقاتل في قطاع آخر بشجاعة، فقدت

إقدامها، وتراجعت هي أيضاً، وعندما رأت فرقة الملك داود هذا، بدأت أيضاً بالفرار، أولاً على شكل أفراد ثم بشكل جماعي، مع أن عساكرها كانوا نخبة اختارهم الملك من مختلف القبائل، واستمر الحال هكذا حتى وقف الملك لوحده ولم يبق معه أحد تقريباً، وبناء عليه أرغمه رفاقه على امتطاء ظهر جواده والنجاة بنفسه، لكن ابنه هنري الشجاع لم يبال بما كان يفعله بني قومه، وظل متمسكاً بالرغبة في متابعة القتال ونيل الفخار، فترك الذين يفرون وشأنهم، وقام بحملة شديدة على صفوف الأعداء، وتألفت القوات التي كانت تحت امرته من انكليز ونورمانديين ارتبطوا ببيت أبيه، واحتفظوا بخيولهم، لكن هذه الفرقة من الخيالة لم تستطع أن تزلزل الرجال الذين غطتهم سوابغهم ودروعهم وقاتلوا على أقدامهم متراصين، وهكذا أرغم هؤلاء على التراجع بخيول معقورة، ورماح محطمة، وذلك بعد حملة رائعة، لكن غير موفقة.

ويقال سقط على أرض المعركة أحد عشر ألفاً من السكوتلنديين، وذلك بالاضافة إلى الذين عثر عليهم في الأحراش وحقول القمح وقتلوا هناك، ونال جيشنا النصر بعد هدر قليل من الدماء، وكان قادته هم:

وليم كونت أوميل Aumale ، ووليم بيفيريل peverel ، أوف نوتنغهام Nottingham ، وولتر اسبك Espec ،وغلبرت دي لاسي Lacy ، الذي كان أخوه الفارس الوحيد الذي قتل، وعندما نقلت أخبار المعركة إلى الملك ستيفن، قدم هو وجميع الذين كانوا معه الشكر إلى الرب القدير، وقد وقعت هذه المعركة في شهر آب(١٢).

وخلال حلول الآحاد الأربعة التي تقدمت على عيد الميلاد، عقد المندوب البابوي وهو أسقف أوستيا ostia مجمعاً دينياً في لندن، تمّ خلاله رسم ثيوبولد راعي دير بك Bec رئيساً لأساقفة كانتربري، وذلك بموافقة من الملك ستيفن.

سنة تسع وثلاثين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة من حكمه، وبعد مضي عيد الميلاد، حاصر الملك ستيفن قلعة ليدز واستولى عليها، وقصد بعد هذا اسكوتلندا، فدخلها، وبوساطة السيف والنار أرغم ملك السكوتلنديين على طلب الصلح، وجلب إلى انكلترا هنري ابن الملك داود، ثم حاصر ستيفن لودلو Lud-low ، التي كان هنري خطف إليها من على ظهر حصانه بوساطة كلاب حديدي، فكاد أن يقع أسيراً، لكنه أنقذ من أيدي الأعداء بشجاعة من قبل الملك ستيفن.

وترك الملك ستيفن لودلو Ludlowدون الاستيلاء عليها وذهب إلى أكسفورد حيث اقترف عملاً دنيئاً جداً، تخطى به كلّ ماتقدم،فبعدما استقبل بحفاوة وود روجر أسقف سالسبري مع ابن أخيه الاسكندر أسقف لنكولن Lincoln ، قام هذا الملك باعتقاله بكل عنف في قصره، مع أنهالم يرفضا شيئاً من مطالب العدالة، وطالبا بكل اخلاص بذلك، وألقى الملك بالأسقف الاسكندر بالسجن، وأخذ معه أسقف سالسبري إلى دفزس Devizes التي كانت قلعة هذا الأسقف، والتي كانت من أقوى القلاع في جميع أوروبا، وعذب هناك روجر باجاعته، وأهان ابنه الذي كان حاجب الملك ومستشاره بربط حبل حول عنقه وجره إلى قفص جعله زنزانة له، وحصل منه بهذه الطريقة على الموافقة على تسليم القلعة، ناسياً جميع الخدمات التي قدمها له الأسقف أكثر من سواه، ولاسيما الخدمات التي بذلها له في بداية حكمه، فعلى هذه الصورة جازى الأسقف على اخلاصه.

وبطريقة مشابهة استولى الملك على قلعة شيربورن Sherborne التي كانت أدنى قليلاً من قلعة دفزس، وبعدما حصل على أموال الأسقف، استخدم هذه الأموال في سبيل تأمين زواج لابنه يوستاس من كونستانس أخت لويس الملك الفرنسي، ثم أعاد الملك ستيفن معه إلى نيوآرك Newark الاسكندر أسقف لنكولن الذي كان قد ألقاه من قبل في سجن في اكسفورد، وكان هذا الأسقف قد شيد في نيوآرك قلعة حمراء كأنها وردة بطراز عمارتها وهندستها، وكان منظرها جذاباً وسط المروج، ويمر بقربها نهر ترنت Trent ، وما ان شاهد الملك هذه القلعة ووقع نظره عليها حتى فرض على الأسقف صوماً لم ترخص به الكنيسة، وأقسم أنه سيظل محروماً من الطعام حتي يستجيب إلى تسليمه القلعة، وقد واجه الأسقف بعض المصاعب في اقناع حامية قلعته، وبالدموع والرجاء الحار استجابوا إلى التنازل عن القلعة إلى الغرباء، وكان هناك قلعة أخرى من قلاعه اسمها سلي فورد Sleaford ، لم تكن أقل جمالاً من القلعة المتقدمة، وقد تم التخلي عنها وتسليمها بطريقة مشابهة.

ولم يمض وقت طويل على هذا حتى قام هنري أسقف ونشستر، وأخو الملك، ونائب البابا بعقد مجمع ديني في ونشستر، وقد شاركه ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري وجميع الأساقفة الحضور بالطلب من الملك، وهم جاثين على ركبهم في أن يقوم برد ممتلكات الأساقفة الذين ورد ذكرهم أعلاه، مع تفاهم ضمني أنهم سوف يتغاضون عن الاهانات التي تعرضوا لها، ومهما يكن من أمر، لم يتحرك الملك ليتجاوب مع طلبات هذا الجمع المتميز، وأخذ برأي شرير واتبعه فرفض الاستجابة لهذا المطلب.

وهيأ هذا السبيل إلى الدمار النهائي لبيت ستيفن، ذلك أن الامبراطورة، ابنة الملك هنري المتوفى، والتي كانت قد تلقت عهد تبعية

الـولاء من الانكليـز، جـاءت على الفـور إلى انكلترا، وجـرى استقبـالها في قلعـة آرونـــدل Arundel وحـوصرت الامبراطـورة هنــــــاك من قبل الملك، الـذي إمـا أنـه أصغـى إلى مشـورة غير مخلصـة، أو انـه وجـد أن القلعة قـوية جداً وانه لايستطيع الاستيـلاء عليها، لذلك أعطاهـا الأمان في أن تذهب إلى برستول.

وتـوفي في تلك السنـة نفسها روجـر، الأسقف الـذي تحدثت عنـه قبل قليل، وذلك بعدما أنهكته المشاكل مع ثقل السنين، وقد يدهش القارىء تجاه هذا التبـدل المفاجىء بالحظ بـالنسبة له، لأنـه منذ شبابـه والسعادة ترافقـه، إلى حد يمكن للمرء أن يقول فيـه، بأنها نسيت أن تقلب اتجاهها نحوه، فهو لم يواجه خلال حياتـه كلها أية حوادث معاكسة حتى تجمعت سحب التعاسة حـوله، وتمكنت من قهره في آخر المطـاف، لذا ينبغي على أي انسـان ألا يعتمد على استمـرار حسن الحظ، وألا يفترض أن السعـادة دائمة، وألا يظن أن بإمكانه الاستقرار طويلاً فوق دولابها المتحرك.

سنة أربعين ومائة وألف

وقام الملك ستيفن في السنـة الخامسة من حكمــه بطرد نيغل Nigel أسقف إيـلاي Ely ، لأنـه كـان ابن أخ لأسقف سـالسبري المتـــوفى، والذي كان الملك يبغضه إلى حد أن غضبه شمل جميع أقربائه.

ولم يعد هاماً المكان الـذي أمضى فيه الملك عيد الميلاد والفصح، لأن هذا كلـه جعل البلاط رائعاً، واختفت الشعارات الملكيـة التي ورثها من الخط الطويل لأسـلافه، والخزانـة التي تسلمها مليئـة، باتت الآن فـارغة، وانعـــدم الأمن في المملكـــة، وانتشرت أعمال القتل، والاحـــراق، والنهب والـدماء خـلال الديـار، وارتفعت صرخات اليأس، والـرعب، والأسى في

كلّ مكان.

سنة إحدى وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السادسة من حكمه، قام الملك ستيفن بعد عيد الميلاد بإلقاء الحصار على قلعة لنكولن، وكان المدافع عنها رانولف Rannulf إيرل تشستر، الذي استولى عليها بالخدعة، وبقي الملك هناك حتى الثاني من شباط، ثم اجتمع الايرل مع روبرت صاحب غلوستر، وكان ختن الايرل وابن الملك الملك هنري، وانضم إليهما عدد من النبلاء الأقوياء، وقرروا رفع الحصار، وعبر الايرل الجريء سبخة كانت صعبة جداً، وصف عساكره واستعد للاشتباك بالقتال في اليوم نفسه، وتشكل الصف الأول منه ومن رجاله، وكان قوام الصف الثاني الذين حرمهم الملك ستيفن من ميراثهم، وشكل روبرت ورجاله الصف الثالث، ووقف على الجناحين حشد من رجال ويلز الذين كانت شجاعتهم أعلى من تسليحهم.

وفي الوقت نفسه حضر الملك ستيفن وهو عظيم القلق، قداساً دينياً، وفي تلك الأثناء وبينما كان يضع الشمعة —وهي التقدمة الملكية المعتادة— في يدي الأسقف الاسكندر، انكسرت، وكانت هذه الحادثة علامة فأل سيء بالنسبة للملك، وانقطعت آنذاك السلاسل الحاملة للصندوق الحاوي لجسد الرب، وذلك أثناء قيام الأسقف بالقداس، ووقع الصندوق على المذبح، وعدّت هذه اشارة إلى أن ملك الملك سيلحقه الدمار، ومع ذلك انطلق بكل شجاعة، وصف قواته بعناية، ووقف شخصياً على قدميه، وترجل وقتها رجاله ورصوا صفوفهم من حوله، وصدرت الأوامر للأمراء بأن يشكلوا مع رجالهم صفين من

الخيالة، لكن قـوات الخيالة كانت قليلة جداً، فقـد جلب الأمراء المزيفون المرائون قوى قليلة معهم، لكن قوات الملـك كانت كبيرة جداً، وقد رافق بعضها الرايـة الملكية، وبما أن الملك ستيفن لم يمتلك صوتاً مـوافقاً، فقد طلب من بلدوين فتزغلبرت، وكان رجلاً نبيلاً وفارساً شجاعاً، أن يخطب بـالجيش، وقبل أن ينهي خطـابـه سمعت أصـوات الأعـداء، وصـدحت الأبواق، وجعلت حوافر الخيول الأرض تهتز.

وبـدأت المعـركة، وانقـض المحرومـون من ميراثهم، والـذين وقفـوا في السـاقة، على الفـرقة الملكيـة التي كـان فيها الايـرل ألان كونت ميـولان، وهيوج ايرل ايست أنغليا، والايـرل سيمون، والايرل وارين Warenne ومع تلقى هـؤلاء للصـدمـة تفـرقـوا في رمشـة عين، فقتل بعضهم، ووقع بعضهم بالأسر، وفرّ بعضهم الآخر.

وهاجمت الفـرقة التي كانت تحت إمرة الكـونت صاحب أوميل Au-male ووليم صـاحب يبرس Ypres ، الـولـزيين على الجنـاحين، وأرغمتهم على الفرار، لكن مالبثت هذه الفـرقة أن هوجمت من قبل رجال ايرل تشستر، ومزقوا في لحظة مثل الآخـرين، وهكذا فرّ جميع فرسان الملك كـذلك وليم صـاحب يبرس، وكـان رجـلاً من فـلانـدرز، من أصل أرستقراطـي وصاحب مكـانة عـالية، وبما أنـه كان رجـلاً خبيراً بالحرب، ورأى من غير الممكن لـه أن يسـاعد الملـك، وفرّ عـونـه إلى وقت أفضل، وهكذا تـرك الملك ستيفن واقفاً وحـده على قدميه وسط أعـدائه، وأحاط هؤلاء بـالقوات الملكيـة وهاجموها من جميع الجهـات، وكان الشرر يتطـاير من السيوف لـدى وقوعها على الخوذ، وكانت أصوات الأسى وصرخات الـرعب يتردد صـداهـا ويعـود رجعهـا من التـلال ومن أسـوار المدينـة، وهـاجمت الخيـالـة الجيش الملكي فقتلت بعضـه، وداست بعضـه الآخـر، ووقع بالأسر أعداد كبيرة.

ولم تكن هناك استراحة أو وقت لتنفس الصعداء، إلا حيث كان الملك

نفسه، الذي كان قـوياً جداً، وكان صامداً، لأن أعـداءه كانوا يخافون من شدة ضربـاته، وعنـدما رأى ايـرل تشستر هذا حسـد الملك على صموده، وحمل عليـه حملـة منكـرة ومعـه الـدارعين من رجـالـه، ثم إن قـوة الملك أشعت بالفعل وهو يقاتل ببلطته حيـث قتل بعض مهاجميه ومزق صفوف آخرين، ثم ارتفع صـوت نادى: «على الجميع التوجه ضـده، إنه ضد كلّ واحـد»، وأخيراً تحطمت بلطـة الملك من الضربات المتـواليـة، ثم سحب ستيفن سيفـه، وكان سيفـاً جديـراً بذراع ملكي، وفعل أفـاعيل مدهشـة حتى انكسر، وعنـدما رأى وليم أوف كاهـاغنس Cahagnes هذا، وكان فـارساً شجـاعاً، حمل على الملك وأمسكـه بوسـاطة الخوذة، وصرخ: «إليّ كلّ واحـد، إليّ هنـا، لقد أمسكت بـالملك»، وانـدفع الجميع نحـوه، ووقع الملك بـالأسر، كما جـرى أسر بلـدوين الـذي تولى مخاطبـة الجنـود، وكان قـد أصيب بجراح كبيرة، وقد نـال من مقاومته مجداً سرمـدياً، ووقع رتشارد فتـز أورس Fitz Urse أيضاً بالأسر، ونـال هو فخـاراً عظيماً أثناء القتال.

وتـابع جيش الملـك القتـال حتى وقع بـالأسر، وجـرى تطـويق هـذا الجيش، وهكـذا لم يستطع رجـالـه الفـرار، فكـان إمـا أن قتلـوا أو أسروا، وأبيحت المدينة للناهبين، واقتيد الملك بشكل تعيس إليها.

وهكــذا جـرى حكـم الـرب على الملـك ستيفن، وقـد اقتيـد أمـام الامبراطورة مـاتيلدا، وسجن في قلعة بـرستول، وعدّ الانكليـز الامبراطورة سيـدتهم باستثنـاء كنت، حيث قـاتلت الملكـة ضدهـا ومعهـا وليم أوف يبرس، وذلك بكل مـاأوتيـا من قـوة، وقـد اعترف بها في البـدايـة أسقف ونشستر، ثم النائب البـابوي، ثم مالبث أن اعترف بها اللنـدنيون، غير أنها امتلأت بغـرور عظيم لأن أتباعها نجحـوا نجاحـاً عظيماً في حرب لم تكن نتـائجها مـؤكـدة، ولهذا السبب جعلت كلّ واحـد يبتعـد عنها، وهكـذا طـردت من لندن إمـا بسبب خياني أو لحكمـة ربانيـة (لأن كلّ مايفعلـه

الناس هو بإرادة الرب)، وبناء عليه قامت وهي تحمل حقد المرأة، فوضعت الملك ستيفن —وهو الملك المرسوم بإرادة الرب— بالأغلال.

وقامت ماتيلدا بعد وقت قصير ومعها خالها ملك السكوتلنديين وأخيها روبرت أوف غلوستر بحشد قواتها، وحاصرت قلعة أسقف ونشستر، وبعث الأسقف خلف الملكة وليم أوف يبرس مع غالبية بارونات انكلترا، وحشد الطرفان جيشان كبيران، وكان هناك قتال في كلّ يوم، لكن لم تحدث معارك عظيمة واقتصر الأمر على المناوشات، وسجلت خلال هذه الاشتباكات أعمال شجاعة، ومع أنهم كانوا أشبه بالعميان في الحرب، كان من الممكن رؤية شجاعة كلّ واحد مع تقدير أعماله المجيدة، وهكذا كانت هذه الفرصة وقتاً ممتعاً لكل انسان يحكم انه كان من الممكن رؤية أفعالهم الرائعة.

وبعد انتظار طويل وصل جيش اللندنيين، ولأنه زاد من تعداد أعداء الامبراطورة، قضي عليها بالفرار، ووقع بالأسر عدد كبير أثناء الفرار، كان بينهم أخوها روبرت، الذي كان الملك مسجوناً في قلعته، والذي مكن أسره الملك من التبادل به، وهكذا حدث أن الملك الذي وقع بالأسر بحكم رباني، نال حريته برحمة من الرب، وقد استقبله بارونات انكلترا بفرح عظيم.

سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السابعة من حكمه، حاصر الملك الامبراطورة ماتيلدا في اكسفورد من عيد القديس ميكائيل [٢٩-أيلول] حتى حلول الميلاد، وقبيل حلول الميلاد بوقت وجيز هربت الامبراطورة عبر نهر التيميز المتجمد، وهي متدثرة بثياب بيضاء، فخدعت المحاضرين بظهورها

وكأنها شبح من الثلج، ولقـد فرت إلى قلعـة ولنغ فورد Wallingford واستسلمت أكسفورد إلى الملك.

سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة من حكمه، حضر الملك ستيفن المجمع الديني الذي عقد في لندن في منتصف الصيـام وقد عقده نائب البـابا، الأسقف هنري أوف ونشستر من أجل الأوضـاع المتردية جـداً التي وضع فيهـا رجـال الـدين، حيث أن الاحترام لم يقدم لهم ولا إلى كنيسـة الـرب المقدسة من قبل الغـزاة، وأودع رجال الـدين السجون، واتخذوا رهـائن مثلهم في ذلك مثل المدنيين، وبنـاء عليـه قـرر المجمـع أن كلّ من يتعـرض بـالأذى إلى رجال الـدين يحرم ويطرد من الكنيسـة ولايمكن تحليله إلا بوسـاطة البـابا شخصياً، لكن هذا القرار لم يخفف الأذى عنهم بالفعل إلا قليلاً جداً.

واعتقل الملك في السنـة نفسهـا الايـرل غيـوفـري دي مـانـدفيل Mandeville ، في البلاط الملكـي في سانت ألبان، بتهمـة استحق بها الايرل الاعتقال، وكانـت للمصلحة أكثر منها تطبيقاً للعدالـة العامة، ولو لم يقدم الملك على هـذه الخطوة لكان طـرد من عرشه بـوساطة مـؤامرات الايرل ولكي يكسب الايـرل غيوفري حـريته تنازل عن قلعـة لندن، وعن قلعة والـدن Walden وقلعة بليشي Pleshey، وهكذا حـــرم من جميع ممتلكاته، ولـذلك استولى على دير رامسي Ramsey ، وطرد الرهبـان منه، وحصنه بمجموعـة من اللصوص وبذلك حـوّل بيت الرب إلى وكر للصوص، ولقـد كان في حقيقة الأمر رجلاً عظيم الشجـاعة، لكنه كان متصلبـاً وعنيداً في أعماله الـلاربانيـة، متيقظاً تجاه الأعمال الدنيـوية، ومهملاً للأعمال الروحانية.

- ٤٥٠ -

سنة أربع وأربعين ومائة وألف

ألقى الملك ستيفن الحصار في السنة التاسعة من حكمه على قلعة لنكولن، وبينما كان يعد أعمال الحصار من أجل الهجوم على القلعة، التي استولى عنوة عليها رانولف ايرل تشستر، اختنق حوالي الثمانين من رجاله في الأنفاق، لذلك رفع الملك الحصار وتخلى عنه في حالة من الفوضى.

وسبب في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل الكثير من المتاعب للملك، وميز نفسه أكثر من الآخرين، وفي شهر آب أظهرت الحكمة الربانية عدالتها بشكل رائع، حيث واجه اثنان من النبلاء الذين حوّلوا الديرة إلى مواقع حصينة، وطردوا الرهبان، عقوبة مماثلة لأن ذنبهما كان نفسه، وكان روبرت مارميون Marmion أولهما، فقد كان قد اقترف هذا الجرم في كنيسة كوفنتري Coventry كما أن غيوفري دي ماندفيل كان قد اقترف الشيء نفسه —كما قلت— في دير رامسي، وفيما كان روبرت مامرميون متقدماً ضد أعدائه، قتل تحت أسوار الدير، وكان وحده الذي سقط، مع أنه كان محاطاً بقواته، وقد مات وهو محروم كنسياً، فخضع إلى الموت الأبدي، وبطريقة مماثلة جرى تمييز الايرل غيوفري بين أتباعه، وأطلق عليه سهم من قبل أحد الجنود الرجالة العاديين، ومع أنه جرح جراحة خفيفة فقد توفي خلال عدة أيام وهو محروم كنسياً، وكان هذا هو الحكم العادل للرب، دائم الذكرى خلال الأجيال، وعندما كان هذا الدير محولاً إلى حصن رشح الدم من جدران الكنيسة والأماكن المجاورة، شاهداً بذلك على الغضب الرباني، ومبشراً بدمار غير الربانيين، وقد شوهد هذا من قبل الكثيرين، وقد شاهدت ذلك أنا نفسي بعيني.

- ٤٥١ -

سنة خمس وأربعين ومائة وألف

وفي السنة العاشرة من حكم الملك ستيفن، كان هيوج بيغود Bigod أول من قام بالتحركات، وفي الصيـف شرع الايرل روبرت مع كتلة أعداء الملك يعملـون لبنـاء قلعـة في فـارنغـدون Faringdon ، ولم يضع الملك الوقت، حيث جمع الجيـوش وزحف إلى هناك على رأس حشد كبير ومرعب من اللنـدنيين، وبعد هجمات يومية على القلعـة، وفيها كان الايرل روبـرت مع حلفـائه ينتظـرون وصول قـوات جـديـدة لم تكن بعيـدة عن جيش الملك، جرى الاستيلاء على القلعة بعد سقوط كثير من القتلى.

سنة ست وأربعين ومائة وألف

وحشد الملك ستيفن في السنـة الحادية عشرة من حكمـه جيشاً عظيماً، وبنى وسـائل حصار لاتقهـر ضـد قلعة والنغفـورد، وكـان رانولف ايـرل تشستر، الذي انضم الآن إلى الجانب الملكي، حاضراً هناك مع قوة كبيرة، وحدث بعـد هذا أنه عندمـا كان الايرل حاضراً بأمـان في بلاط الملك في نورثأمبتـون، ودون أن يخشى من أي سوء، اعتقل، وأودع في السجن حتى تنـازل عن قلعة لنكـولن الحصينة، الـذي كـان قد استـولى عليها بطـرق بارعة، كما تنـازل عن القلاع الأخرى التي عادت بملكيتها لـه، وبعد هذا أطلق سراح هذا الايرل وسمح له بالذهاب إلى حيث أراد.

سنة سبع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثانية عشرة من حكمه، لبس الملك ستيفن التاج أثناء عيد الميلاد في لنكولن، الأمرالذي لم يقدم عليه ملك قبله لأسباب غيبية، وأظهر هذا مدى تصميمه، وكيف أنه أعار قليلاً من الأهمية لمثل هذه الغيبيات، وبعد مغادرة الملك جاء ايرل تشستر إلى لنكولن مع قوة مسلحة لمهاجمة القلعة، لكن قائد قواته، وكان رجلاً عظيم الشجاعة والحظ، لاقى مصرعه عند مدخل الباب الشمالي للبلدة، ثم تبع ذلك أن فقد الأيرل نفسه عدداً كبيراً من أتباعه، ولذلك أرغم على التراجع، وبناء عليه قدم سكان البلدة أثناء احتفالهم بنجاحهم في الدفاع شكراً خاصاً إلى العذراء المباركة حاميتهم والمدافعة عنهم.

وقام في أحد العنصرة لويس ملك فرنسا، وتيري كونت فلاندرز، وكونت سانت جايل (صنجيل) مع حشد كبير من كلّ جزء من فرنسا، وعدد عظيم من الانكليز، بحمل شارة الصليب، والسفر نحو القدس، عازمين على طرد الكفار الذين استولوا على مدينة الرها(١٣).

سنة ثمان وأربعين ومائة وألف

محقت في هذه السنة جيوش امبراطور ألمانيا وملك فرنسا، مع أنها قيدت من قبل قادة لامعين، وبدأت زحفها بفخار وثقة، لكن الرب ازدراهم، وتضاعفت دعارتهم وفجورهم حتى عليين، ولأنهم تخلوا عن أنفسهم بشكل مكشوف لصالح الزنا والاتصالات الجنسية البغيضة إلى الرب، وإلى اللصوصية وكلّ نوع من أنواع الآثام، وعانوا في البداية من

المجاعة بسبب الارشاد الفاسد لامبراطور القسطنطينية، وتعرضوا بعد هذا للدمار بسيوف الأعداء، والتجأ الملك لويس والامبراطور إلى أنطاكية، ورغبوا بعد هذا وهم في القدس مع بقايا أتباعهم بالقيام بعمل مفيد، وأراد ملك فرنسا، في أن يفعل شيئاً ما يرد إليه احترامه، فألقى الحصار على دمشق وذلك بمساعدة من فرسان داوية القدس مع قوة حشدت من جميع الأرجاء، لكن كان يعوزه رضا الرب، ولهذا لم ينل النجاح، فعاد إلى فرنسا.

سنة تسع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة عشرة من حكم الملك ستيفن رسم داود ملك السكوتلنديين هنري ابن بنت أخته فارساً، واجتمعت بهذه المناسبة قوة كبيرة، وامتلك داود حاشية واسعة، وكان لدى ابن أخته أتباعه من نبلاء غربي انكلترا، وشعر الملك ستيفن بالخوف، وخشي من أن يأخذوا طريقهم إلى مهاجمة يورك، ولهذا تمركز شخصياً في تلك المدينة ومعه جيش كبير، وبقي هناك جميع أيام شهر آب، وقام في تلك الأثناء يوستاس بن ستيفن، الذي رسم أيضاً فارساً في العام نفسه، بغزو بلدان البارونات الذين كانوا حضوراً مع هنري ابن الامبراطورة، وحيث لم يجد من يعترض سبيله عاث في البلاد بالسيف والنار، غير أن ملكي انكلترا و اسكوتلندا، وكان أولهما في يورك وثانيهما في كارل آيل، خشيا من بعضهما بعضاً، فتجنبا المواجهة واللقاء، وهكذا انفصلا بسلام، وعاد كل منهما إلى بلده.

سنة خمسين ومائة وألف

وفي السنـة الخامسـة عشرة من حكمـه، هـاجـم الملك ستيفن مـدينـة وورستر الجميلة، وبعـدما استولى عليها جعلهـا طعمة للنيران، غير أنـه لم يستطع الاستيلاء على القلعـة التي كانت داخل المدينة، وكـانت ملكيتها عائدة إلى ولـران Waleran كونـت ميولان Meulan ، وكان الملك ستيفن قد منحـه إياهـا، وكانت هذه المنحـة لغير صالحه، وبعـدما أكمل الجيش الملكي نهب المدينة، عـاث فساداً بالمناطق العـائدة للأمراء المعـادين، وحيث لم يقـاومهم أحـد، حملـوا كميـات هـائلـة من الغنـائم والأسلاب.

سنة إحدى وخمسين ومائة وألف

وتوفي في هذه السنـة غيوفري الجميل، كونت أنجـو، صهر الملك هنري الأول، وابن فولك ملك القدس، وهو نفسه كان رجلاً عالي المكانة.

ونـالت وفاة غيـوفري عنـاية أكثـر اشراقاً من قبل جـون مارمـوتيير Marmoutier

وحـدث أنه عنـدمـا كـان في الحادية والأربعين مـن عمره، وفي اليـوم السابع من أيلول لسنة إحـدى وخمسين ومائة وألف، واجه الدوق المنتصر لكل من نورماندي، ولشعب أنجـو، وتورين، ومين، وهو عائد من اجتماع ملكي، مرضاً شديداً، وأصيب بالحمـى في شاتودولور، وسقط على فراشه، ثم نظر نحـو مستقبل بلاده وشعبه بروح تتطلع إلى مـاسيكون، فحظر على

ابنه هنري أن يدخل عادات نورماندي أو انكلترا إلى بلاده، أو أن يفعل العكس، حسبما يمكن أن يحدث تبعاً لتعاقب تبدلات الحظ.

ثم بعدما قام بإعطاء بعض المنح، والأعطيات والحسنات، ظهرت علامات موت هذا الأمير العظيم من خلال أحد المذنبات، فرد جسده روحه ورفعها من الأرض إلى السماء، فهل كان عجيباً لو أن الموت الذي يعارض الطبيعة ويجردها صارع من أجل غيوفري منذ شبابه، حيث أنه كما يقول شيشرون:

«غالباً مايبدو موت الشباب مثل إطفاء نار متقدة عظيمة بكثير من الماء، ومثل تفاحة غير ناضجة قطعت قسراً من الشجرة، ومع هذا إنها تسقط وكأنها ناضجة وجاهزة، وهكذا تنتزع القوة الحياة من الشباب، ويأخذها النضج من المسنين».

ودفن غيوفري في الكنيسة العظيمة القداسة المكرسة للقديس يوليان في لامانس، في ضريح عظيم جداً، بناه بشكل لائق الأسقف التقي وليم أوف بيوس فيم، وجرى صنع تابوت يشبه الكونت المحترم هناك، وقد تم ترصيعه بشكل مناسب بالذهب والأحجار الكريمة، وجاء هذا مذكراً بالموت للمتعجرف وبالنعمة للمتواضع، وجرى تعيين قسيس من قبل الأسقف، ليبقى دوماً إلى جانب مذبح الصلب حيث مدد جسد الرجل المتوفى، وفرض لهذا القسيس عطاء دائم، وكان عليه أن يقدم كلّ يوم أضحية إلى الرب من أجل الكونت، حتى يتفضل الرب المقدس والرحيم فينزل رحمة يزيل بها تعاسة الكونت، ذلك أنه الرب الذي يعيش أبداً ويحكم دوماً.

قام هنري أوف هتنغدون بعقلانية بتمجيد اتخاذ ستيفن هنري أوف أنجو ودوق نورماندي خليفة له وذلك على الرغم من عدم محبته له —ستيفن— وميله إليه.

سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف

ترك غيوفري لابنه هنري أوف أنجو ونورماندي ادعاء الحق بوراثة عرش انكلترا، الأمر الذي لم يفلح به شخصياً، وحدث الآن أن انفصل لويس السابع ملك فرنسا عن زوجته، ابنة كونت بواتو على أساس القرابة المحرمة، وإثر هذا تزوجها الدوق الجديد هنري، ومن خلالها استولى على بلاد بواتو، وزاد من مكانته وعلوه كثيراً (١٤)، وكان هذا الزواج السبب في اثارة كراهية عظيمة وخلاف بين ملك فرنسا والدوق.

وقام الآن يوستاس ابن الملك ستيفن مع ملك فرنسا بحملات على نورماندي، وقاومها الدوق بكل شجاعة وردهما مع الجيش الفرنسي، ثم حشد الملك لويس جميع خصومه، وهاجم قلعة منيعة الجانب، كانت لاترام وكان اسمها نوف مارشي Neufmarche واستولى عليها، وأعطاها إلى يوستاس ابن ملك انكلترا، الذي زوجه من ابنته.

واقترح الملك ستيفن في السنة السابعة عشرة من حكمه تتويج ابنه يوستاس، وطلب من رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين الذين جمعهم القيام برسم —يوستاس— ومباركته، فقوبل طلبه بالرفض، لأن البابا حظر برسائله رئيس الأساقفه ومنعه من تتويج ابن الملك لأن الملك ستيفن كان بالنسبة له قد استولى على العرش بشكل غير شرعي، وانزعج كلّ من الأب والابن من هذا، وغضبا غضباً عظيماً، فأمرا بسجن رجال الكنيسة في أحد البيوت وحاولا بالتهديد ارغامهم على أن يفعلوا ماطلباه منهم، وقد خاف هؤلاء وارتعبوا لأن الملك ستيفن لم يحب رجال الدين مطلقاً، وسلف له أن تولى سجن اثنين من الأساقفة، ومع هذا صمدوا على الرغم من أنهم خافوا على رؤوسهم، وبعد طويل وقت نجوا دونها

ايذاء، مع أنهم جردوا من مقتنياتهم، التي أعادها الملك إليهم فيما بعد، عندما تاب.

وحاصر الملك في السنة نفسها قلعة نيوبري Newbury ، التي لم تكن بعيدة عن ونشستر، واستولى عليها، ومن هناك تولى حصار ولنغفورد، وبنى قلعة حصار على مدخل الجسر، فحال بذلك دون الوصول إلى المحاصرين ودون ايصال المؤن إليهم، وعندما ضغط على هؤلاء بشدة، طلبوا من مولاهم، دوق نورماندي، إما أن يرسل المساعدات إليهم، أو منحهم الاذن بتسليم القلعة إلى الملك.

سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة عشرة من حكم الملك ستيفن، أرغمت الضرورة هنري صاحب أنجو ودوق نورماندي على القيام بزيارة غير متوقعة إلى انكلترا، وبوصوله بدت هذه البلاد التعيسة، والتي عانت من قبل من العيث والفساد، وكأنها تكسب حياة جديدة.

وعندما وطأ الدوق العظيم شواطىء انكلترا، امتلأت الأرض بالأخبار، مثل حقل قصب حركته الرياح، وانتشرت الأخبار بسرعة، وكما هي العادة جلبت الفرح والسعادة إلى بعض الناس والخوف والأسف إلى آخرين، لكن الذين اعتراهم السرور لدى سماعهم خبر وصوله، انزعجوا قليلاً لدى معرفتهم أنه جلب معه عدداً قليلاً من الرجال، وفي الوقت نفسه كان انزعاج أعدائه من أخبار وصوله ضعيفاً أيضاً، ورأى بعضهم أن عبوره للبحر الهائج في وسط الشتاء عمل شجاع، ووجد بعضهم أن ذلك كان حماقة، ولكن الشاب الشجاع حشد إليه جميع مؤيديه ومزجهم: هؤلاء الذين جلبهم مع الذين وجدهم، وبما أنه كان يكره

التأخير فوق كلّ شيء، ألقى الحصار على قلعة مالمزبري Malmes-bury.

وبما أن فضائل هذا الرجل كانت كثيرة وعظيمة، فإنني سأتولى معالجتها بسرعة حتى لاتطول حكاية أعماله وتأخذ حيزاً كبيراً، وحوصرت القلعة (لأنه كان رجلاً لايحب تأجيل الأعمال) وهوجمت، ومالبث أن استولى عليها، وعندما سقطت البلدة، قاوم الحصن الكبير، لصالح الملك، وتولى الدفاع فيه جوردان، وبات من الممكن السيطرة عليه بوساطة التجويع فقط، وخرج جوردان وذهب مسرعاً نحو الملك ستيفن ليخبره بما حدث، ولقد انزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار السيئة، واربد وجهه وعلاه الحزن بدلاً من مظهر الفخار والعظمة، وبادر بنشاط كبير فجمع قواته، وعسكر على مسافة لم تكن بعيدة عن مالمزبري.

واستعرض في اليوم التالي جيشه، الذي حوى عدداً كبيراً من الفرسان المتميزين الرائعين، وكان جيشاً لجباً فيه كثير من البارونات، وكانت راياتهم تلمع بالذهب، وكانت جميلة ومرعبة بالفعل، لكن الرب الذي عنده وحده ومعه الأمان والسلامة، لم يكن معهم، لأن بوابات الفيضان من السماء انفتحت، وجاء برد شديد وريح صرصر، وانهمرت الأمطار في وجوههم، حتى بدا كأن الرب نفسه كان يقاتل لصالح الدوق، غير أن الجيش زحف بانتظام، وكأنه يقاتل قدرات الرب وطاقاته، ولهذا عانى كثيراً.

واعتمد جيش الدوق الشاب على الشجاعة أكثر من اعتماده على الأعداد، خاصة وأن عدالة القضية التي كانوا يقاتلون من أجلها قد ضمنت لهم أنهم مدعومين بنعمة الرب، وقد اصطفوا ليس بعيداً عن أسوار بلدة مالمزبري، على طرف نهر صغير، أعطته الأمطار الغزيرة والثلوج قوة أصبح بها مخيفاً إلى حد أنه ما إن يصبح الانسان هناك حتى يعجز عن الخروج.

وكـان الشـاب النبيل على رأس جيشـه، وكان جماله الجسـدي أخـاذ للنفس، وقد تميز بسلاح جدير به، وكـان مناسباً له إلى درجة يمكن القول فيهـا إن سلاحـه لم يمنحـه الشهرة بل هـو منح السـلاح شهرتـه، وجعل الكونت مع رجـاله السبخة وراء ظهـورهم، وكانت هذه السبخـة في وجه جيش الملك، ولذلك كـانوا لايستطيعون إلا بصعوبـة حمل أسلحتهم فوق رماحهم المبللة.

وبما أن الـرب عزم على أن ينـال طفله البـلاد من دون سفك للدمـاء، وألا يتمكن أيـاً من الفريقين من عبـور النهـر، ولأن الملك بات غير قـادر على تحمل المطر المنهمـر والفيضان النـاتج عنه، عـاد أدراجه نحـو لندن، وبـذلك باتت هـزيمته كـاملة، ولـذلك استسلمت القلعة المحـاصرة إلى الدوق، الـذي بادر مسروراً وبكل سرعة نحو انجـاز ماتوجب عليـه وجاء من أجله، أي التفريج عن قلعة والنغفورد التي كانت على حافة المجاعة.

وقد حشد كتلة كبيرة من العسـاكر ليحمل المؤن إلى الحامية المحاصرة، وسهل الرب نـواياه بشكل كبير، حيث حمل هـذه المؤن ووصل بها دون أن يلقى معارضة، مع أنه كان هنـاك الكثير من القلاع في تلك المنطقة كانت في أيـدي القوات الملكيـة، فمن خـلال عـون الـرب وارادته لم يستطيعـوا منعه من الـذهاب والإياب، وبعد مضي وقت قصير حشـد الدوق المقدام جميع الفـرسان الـذين وقفوا إلى جـانبـه وشرع في حصار قلعـة كرومـارش Crowmarsh ، وقد بـدأ هذه المهمـة المتعبة والصعبـة بحفر خنـدق حول كلّ مـن قلعة الملك وجيشه الخاص، وبـذلك بات طـريقه الـوحيد للخروج يمر عبر قلعة والنغفورد، بينما لم يبق للمحاصرين طريق للخروج.

وعندما سمع الملك بهذا جمع جميع القوات التي تـوفرت له من المناطق الخاضعة لـه، وانحدر غاضباً نحـو الدوق، الذي لم يكن خائفـاً أبداً، مع أن قواته كـانت أقل من قوات الملك، وقد أمـر على الفور أن يطم الخندق الـذي أمـر بحفـره لحمايـة جيشـه، ورفع الحصـار، وزحف بشكل رائع

لمواجهة الملك، وعندما رأى الجيش الملكي المشهد غير المتوقع، وهو جيش عدوه، وقد اصطف للقتال واقفاً أمامه، استولى عليه الرعب فجأة، ولكن الملك لم يكن خائفاً أبداً، وأمر رجاله بالزحف إلى خارج المعسكر على شكل صفوف قتالية، لكن البارونات، أولئك الخونة لانكلترا، رفضوا هذا وعارضوه، ودعوا إلى التوصل إلى مصالحة، ومع أنهم لم يحبوا شيئاً أكثر من حبهم للتمزق، كانوا غير راغبين في انشاب القتال وحدوث معركة، لأنهم لم يرغبوا في أن يربح أياً من الطرفين، لأنه إذا ما انهزم أحد الطرفين سيكون من السهل وقوعهم تحت سيطرة الطرف الآخر، لكن إذا ظلّ كلّ طرف يخشى الآخر، فإنه من غير الممكن ممارسة السلطة الملكية عليهم.

ولم يرغب الملك ولا الدوق في أن يرغما على اقامة هدنة، وقد أدرك كلّ منهما خيانة مسانديه، لكن كما هي العادة، كان الرب واقفاً إلى جانب الدوق، غير أنهم وافقوا على أنه ينبغي هدم القلعة الملكية التي حاصرها الدوق، وعقد الملك والدوق مؤتمراً منفرداً، عبر واحد من الأنهار الصغيرة، وتباحثا فيما بينهما حول السلام، واشتكى كلّ واحد منهما إلى الآخر من خيانة نبلائه، وهنا بدأت معاهدة السلام، ولكنها لم تكتمل حتى مناسبة أخرى.

ولم ينته صراعهما عندما عاد كلّ واحد منهما إلى مقره، لكن الضوء بدأ يبزغ حول حظ الدوق العظيم، حيث أن اثنين من أكبر أعدائه وأعظمهم قوة، وأعني بهما: يوستاس ابن الملك، وسيمون ايرل نورثأمبتون تمزقا وغابا بحكمة من الرب، واختفيا في الوقت نفسه، ونتيجة لهذا فقد جميع خصومه بشكل مفاجىء الأمل والشجاعة.

لقد ماتا كلاهما بالمرض نفسه في أسبوع واحد نفسه، ودفن الايرل سيمون، الذي فعل كلّ شيء غير شرعي أو خلقي، في نورثأمبتون، ودفن ابن الملك في دير أسسته أمه في فيفرشام Faversham ، وكان

فارساً مجرباً، لكنه كان رجلاً غير رباني عنيف جداً مع قادة الكنيسة، وكان مضطهدهم الثابت المصمم، وبازالة الرب لأعظم أعداء محبوبه هنري، مهد له بلطف السبيل إلى حكمه السلمي.

وتناول الحصار الثالث قلعة ستام فورد، وسقطت البلدة دونها تأخير، لكن حامية القلعة راسلت الملك طالبة المساعدة، وكان الملك يحاصر ابسوتش Ipswich ، التي كان يدافع عنها، ويقف ضده فيها هيو بيغود، وبما أن الملك لم يكن يرغب في رفع هذا الحصار، وبالتالي لايمكنه الذهاب لنجدة تلك الحامية، فقد استسلمت القلعة إلى الأمير هنري، وكذلك استسلمت القلعة التي كان يحاصرها الملك، وترك الدوق النورماندي ستام فورد وذهب إلى نوتنغهام، واستولى على البلدة على الفور، وقد أحرقت هذه البلدة إثر هذا من قبل حامية القلعة، ولحزنه على ماحدث أخذ الدوق جيشه إلى مكان آخر.

وكان في الوقت نفسه رئيس الأساقفة ثيوبولد يبذل غاية جهده في سبيل إعداد اتفاق سلام، حيث ناقش هذا الأمر مراراً مع الملك، وعالجه مع الدوق عن طريق المبعوثين.

ورأى هنري أوف بليوس، رئيس أساقفة ونشستر، وهو الذي خبط المملكة بإعطاء أخيه ستيفن التاج، أن كلّ شيء قد دُمر بوساطة النار والقتل، وبعدما رأى هذا أسف لما حدث، وسعى نحو وضع نهاية لهذه الشرور بتمكين الأميرين من الاتفاق.

ووضعت حكمة الرب، التي خلقت كلاً من الخير والشر، نهاية لآلام انكلترا، وحققت الوصول إلى محصلة لما بدأ بجعل السلام مؤكداً على الطرفين، وأ ن ينتشر ذلك باخلاص.

ولكم كان السرور عظيماً، والبهجة كبيرة، أيها اليوم المبارك، الذي استقبل فيك الملك نفسه الأمير الشاب في ونشستر، في استعراض رائع

للأساقفة والنبلاء خلال أصوات تحيات الجماهير.

واستقبلـه الملك وكأنه ابنـه المتبنى، واعترف بـه وريثاً له، ومن هنـاك أخذ الملك الـدوق إلى لندن، حيث جـرى استقباله بفـرح عظيم من قبل الجماهير، وبمـواكب رائعـة لائقة بـرجل عظيم مثلـه، وهكـذا بفضل من رحمة الرب بزغ فجر السلام على مملكـة انكلترا المدمرة، ووضع نهاية لليلها المضطرب.

وبعـدما انتهى هـذا افترق الملك ستيفن عن ابنـه الجديد بسرور ومحبـة على أن يلتقيا ثـانية في أقـرب وقت، لأن السلام كـان قد تأكـد قبل عيد الميلاد.

سنة أربع وخمسين ومائة وألف

والتقيا ثانيـة في الثالث عشر من كانون الثـاني في أكسفورد، وذلك بعد مضي سنة أمضـاها الـدوق في الاستيلاء على انكلترا، أو بـالحري في إعادة توحيدها، وقـدم هناك جميع عظماء انكلترا —بناء على طلب من الملك— الـولاء مع يمين التبعيـة إلى مـولاهم الدوق، ولم يستثنـوا سـوى التمجيـد والاخلاص اللذين هما من حقـوق الملك طوال حيلته، وتركـوا جميعاً هذا الاجتماع الـرائع وقد امتـلأوا بـالغبطـة، وكانـوا مسرورين بسبب السـلام الجديد.

ولم يمض وقت طويل حتى التقيـا ثانية في دنستيبل Dunstable ، حيث ظهرت بعض الغيـوم المكدرة في الأفق، ولم يكن الـدوق راضياً تجاه القـلاع التي بنيت في كلّ مكـان لأسباب شريـرة بعـد وفاة الملك هنـري

الأول، والتي لم تهدم حسبما تم الاتفاق عليه في السلام الـذي عقد أخيراً بينه شخصياً وبين الملك ستيفن، وكـان عدد كبير منها قد هـدم، باستثناء بعضهـا من خلال الملك ستيفن، فهـو قد وفـرهـا لبعض رجالـه إما بنيـة سيئة أو عطفـاً عليهم، وبدا هـذا التصرف وكأنه يلغم المعـاهدة، وتشكى الدوق حـول هذا الأمر إلى الملك، لكنـه دوفع، فتغاضى مكرهـاً عن هذه القضية، وتخلى عنهـا لوالـده الجديد، ذلـك أنه خشي أن تفسـد اتفاقهما، وقد افترقا متصادقين.

وبعـد هـذا بـوقـت قصير، عـاد الـدوق بإذن من الملك، منتصراً إلى نورمـاندي، فهذا ماكـان هنري، أكثر الشبـاب شهرة، قد فعله في زيـارته الثانية إلى انكلترا.

هذا وآمل ألا يصدر حكم ضدي لإقدامي على رواية أخبار العديد من أعماله الرائعة بشكل موجز ايجازاً شـديداً، حيث يتوجب عليّ رواية أخبار العديد من الملوك مع أخبـار أفعالهم عبر عدد كبير من القرون، ولاشك أن هـذا عمل متعب سوف يحتـاج إلى عدة مجلـدات، وكانت فكـرتي هي أن أقوم باختصـار التاريخ في كتاب واحد، على أن لا أتجاهل تمامـاً ماسيكون في المستقبل.

ونعود الآن إلى العمل، فعندما عاد الـدوق إلى فرنسا، استقبل استقبالاً كلـه سرور وتمجيـد من قبل أمـه مـاتيلـدا، مع اخـوانـه وجميع شعب نورمـاندي، وأنجـو، ومين وبواتـو، وكان الملك ستيفن الآن يحكـم بسلام وذلك للمـرة الأولى، وبفضل ابنـه المتبنى نـال التشريف الـلائق بملك، لكن كم هم حمقى النـاس الفانـون، ولكم هي خطايـاهم التي لاتنتهي! فقـد حـاول بعض النـاس «الـذين أسنـانهم حـراب ونشـاب، وألسنتهم سيـوف حادة» قـدر استطاعتهم أن يـروا عدم الـوفاق بين الملك والـدوق الغـائب، ولم يكن باستطـاعة الملك، أو لم يـرغب في مقـاومة ضغـوطهم، وبعـد وقت قصير اعتقد بعضهم انـه تـوقف عن المقـاومة، وصحيح انـه

تظاهر بعدم الرضا، لقد كان بالواقع راغباً بالاصغاء إلى آرائهم الشريرة.

ومهما يكن من أمر، إن الرجال شيء، وحكم الرب شيء آخر، وهو الذي أنهى ماشرع به، بأن جعل نهاية مؤامرات ذوي الآراء الشريرة تصل إلى لاشيء، فقد حاصر الملك ستيفن قلعة دريك Drake قرب يورك، وبعدما هدمها واستولى على عدد آخر من القلاع ذهب إلى دوفر للتحادث مع كونت فلاندرز، ووقع أثناء المؤتمر مريضاً، وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول لعام ١١٥٤ فارق الحياة، ودفن في دير فيفرشام إلى جانب زوجته وولده، وقد حكم غير سعيد ومع متاعب شديدة لمدة تسع عشرة سنة.

وبسرعة أرسل رئيس الأساقفة ثيوبولد مع عدد كبير من النبلاء الانكليز رسائل لإخبار مولاهم دوق نورماندي حتى يحضر سريعاً ويتولى مقاليد المملكة، وقد تأخر بسبب الريح والبحر ولأسباب أخرى، غير أنه نزل إلى اليابسة قبيل حلول عيد الميلاد بعدة أيام في نيوفورست، ومعه زوجته واخوانه، والعديد من النبلاء وقوة كبيرة، ومكثت انكلترا بدون ملك لمدة ستة أسابيع، لكن بنعمة من الرب لم يضطرب الحال، إما بسبب حب ملك المستقبل أو خوفاً منه، وبعدما نزل هنري إلى اليابسة ذهب إلى لندن، وهناك بورك بشكل لائق ورائع جدير برجل له مكانة عالية، وحين نال المباركة كملك، تم ذلك وسط غبطة عظيمة، وصيحات كلها فرح وسرور، وجرى تتويجه بشكل رائع ومهيب.

القسم الثالث

هنري الثاني: ١١٥٤-١١٨٩

حكم في سنة ١١٢٤، فولك الخامس، كونت أنجو، إحدى أعظم اقطاعيات فرنسا فقط، وأصبح بعد ذلك بثلاثين سنة حفيده هنري بلانتغنت ملك انكلترا، ودوق نورماندي وأكوتين مع كونه كونت أنجو، وكان هنري حاكماً ناجحاً إلى أقصى الحدود، غير أن مجرد حجم ممالكه أوجد له مشاكل واسعة عملاقة، وأنجب هو وإليانور النارية، دوقة أكوتين أربعة أولاد، كانوا يماثلون ثلاثين في قوتهم مثل أبيهم، وكان لويس السابع ثم فيليب الثاني ملكي فرنسا، سادة قاريين للأراضي الأنجيفية، ولهذا كانا حليفين نافعين لهم، وذلك مثلما كانت إليانور، التي أصبحت أخطر خصوم هنري، وفيما بعد سجينته التي لاحول لها ولاطول، وكان توماس بكت **Beckt** *في البداية المستشار المخلص للملك، ثم رئيس أساقفة كانتربري المعادي له، ذلك أنه كان واحداً من الشخصيات الرئيسية.*

ورسم «تاريخ الشؤون الانكليزية» الذي كتبه وليم كاهن نيوبيرغ المشهد أثناء بداية حكمه، ولكن المصدر الأساسي هو الجزء الثالث من كتاب «صورة التاريخ» تأليف رالف أوف ديسيتو **Diceto** *عميد كاتدرائية القديس بولص من حوالي ١١٨٠ حتى وفاته في حوالي ١٢٠١.*

في السنة ١١٥٤ لتجسيد ربنا، وبعد موت الملك ستيفن، جاء هنري حفيد الملك الأول، عن طريق ابنته الامبراطورة المتوفاة، من نورماندي، واستحوذ على مملكته الموروثة أمام الجميع، وقد جرى رسمه وتعميده ملكاً، بينما صرخ الشعب في أرجاء انكلترا «ليحيا الملك حياة طويلة»، وفي الحقيقة ظهرت شرور كبيرة أثناء الحكم المتقدم، وأمل الشعب، بعد معاناته الماضية، من أجل أشياء أفضل من الملك الجديد، خاصة عندما رأى هذا الشعب انه امتلك حكمة متميزة، ومثابرة، وغيرة من أجل العدل، وظهر في كلّ خطوة من خطواته انه أمير عظيم، ومنذ البداية أصدر مرسوماً ضد المرتزقة الذين تدفقوا في ظل حكم الملك ستيفن على انكلترا من جميع المناطق الأجنبية، من أجل الحصول على الغنائم وكذلك في سبيل حرفة القتال، لاسيما الفلمنكيين منهم، حيث عمل حشد كبير منهم في البلاد، وأمر هؤلاء بالعودة إلى بلادهم، وعين لهم يوماً إذا ماتأخر أحدهم عنه وبقي في انكلترا فإنه يتعرض لبعض المخاطر ويواجهها، واستولى عليهم الرعب بسبب هذا المرسوم، وتسللوا هاربين في وقت قصير، بدوا فيه وقد اختفوا مثل اختفاء الشبح، واندهش كثير من الناس أمام سرعة مغادرتهم، وأمر بعد هذا بهدم جميع القلاع التي لم تكن موجودة في أيام جده، وذلك باستثناء عدد قليل منها قامت في مواقع هامة ومفيدة، وقد رغب في ابقاء بعض هذه القلاع لنفسه، أو وضعها في أيدي رجال أمناء للدفاع عن المملكة.

وأولى هنري الثاني في هذه الأيام الأولى لحكمه عناية حقة لمسألة النظام العام، وعمل جاهداً في سبيل بعث النشاط القانوني في انكلترا، هذا النشاط الذي بدا وكأنه مات ودفن أيام الملك ستيفن، وعين القضاة في جميع أرجاء المملكة مع موظفين قانونيين لقطع دابر مساوىء الأشرار، ولإيصال العدالة إلى المظلومين تبعاً لأهمية قضاياهم، وكان سواء انشغل في مسائل فرح ومتعة أو في شؤون الدولة يراقب مراقبة حثيثة المصالح

الملكية، وغـالباً إذا ما كـان أي واحد من قضـاته متراخياً أو خشنـاً جداً، كان يصغي هو إلى شكاوى أهل المنطقة، ويقـدم علاجاً ملكياً، وإصلاحاً فعالاً لإهمالهم أو تجاوزهم.

تلك كانت الأعمال الأولى للملك الجديـد، وقد أكسبته الحمـد والثناء من قبـل محبي الأمن وألجمـت الأشرار وقطعت أذاهم، وأرغـم الـذئاب المفترســون على الفــرار أو على التحــول إلى شيــاه، أو أنهم إذا لم يتغيروا حقيقـة، فقـد اضطـروا خوفـاً من القـانـون على السكـون دونما إيـذاء مع الشياه، وحل العمل بـالمحراث محل العمل بـالسيف، وأخذ مقص تقليم الأشجـار مكان الـرمح، ومامن أحـد ربط نفسه الآن بأعمال القتـال، بل تمتع بنعمة مـن الرب بمذاق السلم، الـذي تطلعوا إليـه وانتظروه طـويلاً من قبل، وكان هـذا شأن الناس سواء اهتموا بمباهجهـم أو انصرفوا نحو أعمالهم.

مع بداية حكم هنري، ظهـر تومـاس بكت وبرز في خدمـة ثيوبـولد رئيس أساقفة كانتربري، ويقدم لنا وليم فتز ستيفن صورة لاهوتية، لكن فيها حياة، عن طفولة بكت وأعماله المبكرة.

علم الـرب وقضى أن يكرس تـومـاس المبارك [لخدمتـه] قبل أن يخرج من الـرحم، وأظهر لأمـه أي نوع من الـرجال سيكـون، ذلك أنها رأت في المنام أثنـاء حملهـا بـه أنها تحمل في رحمهـا جميع كنيسـة كـانتربـري، وفي اللحظـة التي رأى فيها الطفل ضـوء النهـار، حملته الـوصيفة ورفعتـه بين يديها قائلة: « لقـد رفعت من الأرض رئيس أساقفة مستقبلي»، وبينما كان رضيعاً في المهـد، حلمت أمه في إحدى الليـالي أنها كانت توبخ الممـرضة لعدم وضعها غطاء عليه، وردت عليها الممرضـة قائلة: «لاياسيدتي، لديه أفضل أغطيـة» وقالت لها السيـدة: «أرينيها»، وجلبت الممـرضة الأغطيـة إليها وأرتها إيـاها، وعندمـا حاولت فتحها لم تستطع ذلك وقـالت لأمها: «إنها واسعـة جداً لاأستطيع مـدها فـوق الفـراش»، وبناء عليـه أجابتهـا

أمها: «تعالي إلى القاعة وافتحيها هناك»، وبذلت الممرضة جهدها لفعل ذلك، لكنها أخفقت، وقالت: «ببساطة إنني لاأستطيع مدها كلها هنا»، وقالت الأم المندهشة وقتها: «اذهبي إلى الشارع، إلى مكان السوق، الذي هو الآن فارغ، فلاشك أنك ستنجحي في مدها هناك»، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك لاهي ولا الممرضة، فقالت والدهشة تعلوها:

«إن الغطاء واسع إلى حد انني لاأستطيع ايجاد نهايتـــه، وأعتقد أن انكلترا كلها ستكون صغيرة جداً ليغطيها»!.

لقد ولد توماس من زواج شرعي، ومن أبوين شريفين، وكان والده غلبرت في بعض الأحيان عمدة لندن، وكان اسم أمه ماتيلدا، وكانا معاً من أهل لندن، من الطبقة الوسطى، ولم يكونا ممن يربح المال عن طريق الربا، أو متورطاً بالأعمال، بل عاشا بشكل محترم على دخليهما.

ويمكن لنا أن نستنتج أن والده تلقى بعض الاشارات العلوية فيما يتعلق بمستقبله، ونعلم ذلك من أنه عندما كان طفلاً أمره أبوه أن يذهب إلى روبرت رئيس ميرتون Merton حتى يتعلم لبعض الوقت في ذلك البيت الديني، وجاء في أحد الأيام أبوه لرؤيته، وعندما جلب الطفل إلى حضرة راعي الدير مع والده، قام الأب بالسجود أمامه متعبداً إياه، وغضب الراهب وقال والدهشة تعلوه: «ماالذي تفعله أيها الرجل الأحمق، أتسجد أمام قدمي ابنك؟ إن التمجيد الذي تفعله له، ينبغي بالحري أن يفعله لك»، ورد عليه الأب بصوت منخفض: «إنني أعلم يامولاي الذي أفعله: إن هذا الطفل سيكون عظيماً في نظر الرب».

وهكذا أمضى توماس سنوات طفولته، ثم عندما صار صبياً، وبعد ذلك عندما وصل سن البلوغ ببساطة في بيت أبيه وفي مدرسة المدينة، وعندما كان شاباً درس في باريس، وشارك بعد عودته في بعض شؤون مدينة لندن، حيث صار كاتباً ومحاسباً لدى عمد المدينة، وخلال هذه

الوظـائف وجه نفسه بطريقـة جديرة بكل مديح، وحصل على معلـومات عن العالم، لـذلك لم يجد في مستقبل الأيام صعوبة في ادارة شـؤون كنيسة انكلترا ورعـاية مصـالحهـا العامـة مع شؤون المملكـة ومشـاكلها بحـذر وحكمة، وبرهن على كفاءة وعظمة حقيقية.

وأظهر بكت امكانـات واعدة في عمله لدى رئيس الأساقفة ثيـوبولد، مما جعل الملك يتخـذه مستشـاراً لانكلترا في سنة ١١٥٥، وأعطـاه هـذا مسؤوليـة الاشراف على الأعمال الديـوانية لهنـري، وكذلـك نال دوراً في الادارة الملكية.

سنة خمس وخمسين مائة وألف

وبعد تتويـج هنري الثاني ملكاً على انكلترا على يدي رئيـس الأساقفة ثيـوبـولـد، وبنـاء على تـوصية من رئيـس الأساقفـة هـذا، وبـوسـاطتـه، وبتحـريض أيضـاً من هنـري أوف بليـوس، أسقف ونشستر، أخـو الملك ستيفن، جعل تـوماس مستشـار الملك، مؤثـراً إياه على الآخـرين، لكونـه رجلاً يقظـاً، وفاعـلاً، وعى مسائل عظيمة في عقلـه، وكان مجربـاً في عدد كبير من الأعمال، ولقد قام بأعباء واجباته العملاقة وما اقتضاه منه منصبه في سبيل شكـر الـرب ولصـالح رخـاء المملكة وتقـدمهـا كلهـا، وكـانت انجـازاته كبيرة إلى حـد يمكن للمرء أن يشك فيـه: هل خدم هـو الملك بتميز عظيم وكفـاءة أكثر، أم عمل في سبيل المنفعة العامـة أكثر في السلـم أو في الحرب.

وتمتعت انكلترا النبيلة بـربيع ثان، جاء بالفعل من خـلال نشاط وآراء المستشـار، ومن خـلال التعـاون المخلص لـرجـال الـدين والايـرلات والبـارونات، فقـد جـرى احترام الكنيسـة المقدسـة، وأضفيت المنـاصب

الشاغرة على الأساقفة ورعاة الديرة وعلى رجال الدين الأمناء من دون رشوة أو شراء، وحقق الملك بفضل من ملك الملوك في أعماله الازدهار، فازدادت مملكة انكلترا في غناها، وانهمرت عليها البركات، ونبعت من نبع الخصب والكثرة، فقد زرعت التلال، وبذرت الوديان بالقمح، وامتلأت، وعجت الحقول بالقطعان والحظائر بالأغنام.

وكانت لندن مسقط رأس بكت أوسع مدن البلاد وأكثرها ازدهاراً، وفي سبعينات القرن الثاني عشر عندما كتب فتزستيفن سيرة حياة بكت، غدت عاصمة انكلترا، فقد أعاد فتزستيفن إلى الحياة أبنيتها وشعبها من خلال وصفه المشرق.

يوجد في كنيسة القديس بولص المقر الأسقفي، وقد كانت في إحدى المرات رئاسة أساقفة، واعتقد بعضهم أنها ستكون كذلك مرة أخرى، لولا أن لقب رئاسة الأساقفة للشهيد المبارك توماس، ولولا أن وجود جسده قد حفظ ذلك الشرف والمكانة إلى الأبد لكنيسة كانتربري، حيث هو الآن، لكن بما أن القديس توماس جعل المدينتين ممجدتين: لندن بولادته، وكانتربري بموته، فإن كلّ واحدة منهما يمكنها محقة ادعاء التقدم على الأخرى وذلك بالنسبة لاحترام ذلك القديس، وفيما يتعلق بممارسة العبادة المسيحية يوجد في لندن وفي ضواحيها ثلاث عشرة كنيسة دير عظيمة، وإلى جانبها هناك مائة وست وعشرين كنيسة أبرشية أصغر.

ويوجد إلى الشرق قلعة بالاتاين Palatine [قلعة لندن] وهي قلعة عظيمة جداً وحصينة: وقامت الأسوار على أساسات عميقة، وهي مثبتة بملاط مزج بدماء الحيوانات، ويوجد إلى الغرب قلعتان محصنتان تحصيناً عظيماً، ويمتد من هناك منهما سور عملاق وكبير جداً له سبع بوابات مزدوجة، وأبراج على طول الجانب الشمالي توزعت على مسافات منتظمة، وكانت لندن في إحدى المرات مسورة وقد استدار حولها السور

من جهة الجنوب، غير أن نهر التيمز العملاق، والملىء بالأسماك بكثافة مع مدّ البحر جرى ضد الفتحات التي وجدت في السور، ومع الأيام هدم هذه الأسوار، وفي أعلى المجرى النهري إلى الغرب هناك القصر الملكي لـ [وستمنستر] وهو واضح تماماً مرئي فوق النهر، ذلك أنه بناء لامثيل له في شرافاته الدفاعية وحصانته، وهو يبتعد حوالي الميلين عن المدينة، ويتلاقى هناك مع ضاحية شعبية.

وهناك في كلّ مكان خارج هذه البيوت في الضواحي، وعلى مقربة منهم حدائق واسعة وجميلة عائدة إلى السكان، وقد زرعت هذه أيضاً بالأشجار، كما ويوجد على الجانب الشمالي مراعي وأراضي مرجية جميلة، يجري خلالها أنهار صغيرة، في نهاياتها طواحين تصدر أصواتاً مفرحة، ويقوم بالجوار القريب غابة عظيمة، فيها مراعي حيث هناك مساكن حيوانات متوحشة مثل: الوعول، والأيل، والخنزير الوحشي والجواميس، ولم تكن الأراضي المفلوحة التابعة للمدينة حقولاً جرداء، بل كانت سهولاً خصبة مليئة بالمزروعات، تنتج محاصيل ممتازة، وتملأ مخازن الفلاح بكميات الحبوب.

وكان هناك أيضاً خارج البلدة في الجانب الشمالي آباراً جوفية، مياهها حلوة نقية، تتدفق فوق الحجارة البراقة، وبين هذه الآبار آبار مقدسة منها بئر كليركن Clerken وبئر القديس كلمنت، وهي آبار مشهورة ويتردد على زيارة هذه الآبار كثير من الناس، ويؤمها عدد كبير من التلاميذ من المدارس، والشباب من المدينة وذلك عندما يذهبون في نزهات للاستمتاع بالهواء النقي في أمسيات الصيف، والحياة في الواقع في هذه المدينة طيبة عندما يكون لها حاكم طيب.

ويمضي الذين يشاركون في مختلف الأعمال، والذين يبيعون البضائع، أو يؤجرون أنفسهم للعمل، كلّ صباح إلى أماكن أعمالهم تبعاً لمصالحهم، وبالاضافة إلى هذا يوجد في لندن على ضفاف النهر بين الخمور المعروضة

للبيع في السفن والخانات العائدة لباعة الخمور حوانيت تقدم الأطعمة المطبوخة للناس، وهكذا يمكنك أن تجد الطعام تبعاً للموسم: من اللحوم المشوية والمقلية والمغلية، والأسماك الكبيرة والصغيرة، وهناك لحوم عادية للفقراء، وأنواع فاخرة للأغنياء، وتتوفر أيضاً أنواع الطيور من صغير وكبير، وإذا ماحدث بشكل غير متوقع أن استقبل أحد السكان بعض الزوار المتعبين من سفرهم، والذين يمكن أن يفقدوا وعيهم إذا ماتوجب عليهم الانتظار حتى جلب بعض الطعام الجديد لطبخه، أو حتى يجلب الخدم الخبز، أو الماء للاغتسال، إنهم يبادرون مسرعين إلى ضفة النهر فيجدون هناك كلّ مايحتاجونه، ومهما كانت عظيمة أعداد حشود الجند والرحالة الذين يدخلون إلى المدينة، أو يستعدون لمغادرتها، في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، إنهم لن يصبروا كثيراً عن الطعام، ومثلهم الذين يخرجون من المدينة من دون عشاء، فلقد كان بإمكان كلّ انسان تجديد نشاطه وانعاش نفسه بالطريقة التي يرغب بها، والذين يرغبون بتسلية أنفسهم بشكل مميز، لايحتاجون للبحث حتى يجدوا سمك الحنش أو طيور افريقيا أو الكروان الايتوني، ذلك أن هذا المطبخ العام كان موائماً جداً للمدينة، وجزء من أجزاء خدماتها اللطيفة، ذلك أن الحكمة الموروثة عن أفلاطون قررت أن فن الطبخ هو تقليد لصنع الدواء، وهو يزين مناطق الحياة الحضارية.

ويوجد مباشرة خارج أحد الأبواب حقل منبسط ناعم [سمث فيلد] بالحقيقة والاسم، ويقام هناك خلال كلّ ستة أيام من أيام الاسبوع —مالم يعترض ذلك يوم عيد رئيسي— عرض شهير للخيول الجميلة للبيع، ويحضر هناك الايرلات والبارونات والفرسان الذين يكونون في المدينة، ويخرج عدد كبير من أهل المدينة إلى المعرض للمشاهدة أو للبيع، وإنه لمن الممتع أن ترى الخيول القصيرة والسريعة بألوانها اللامعة، وهي تجري في حلباتها في حركات رشيقة تضع خلالها حوافرها الأمامية على

جهة واحدة، ثم يمكن للمرء أن يشهد إثر هذا الخيول الصالحة للسادة، وهي تتحرك حركات أقل انسيابية لكن فيها رشاقة وقوة وذلك أثناء ركضها، وتجد هنا خيولاً أصيلة، لكن لم تتعود بعد على اللجام، وهي تقفز قفزات عالية أثناء سيرها، وكانت هناك أنواع أخرى من الخيول المعدة للنقل وهي قوية ونشيطة، وبعد هذا كله هناك خيول الحرب، وهي عالية الثمن ذات قوام جميل ومنظر بهي مع أذنين تتحركان بسرعة، ورقبة مرتفعة وأرداف كبيرة، وعندما تعرض هذه وتظهر طريقة سيرها، يجرب الباعة أولاً الخيول اللطيفة، ثم الخيول السريعة، حيث تتحرك الأطراف الأمامية معاً وكذلك الخلفية، وعندما يكون هناك سباق على وشك الشروع به، تدخل به الخيول القوية والسريعة وهنا تتعالى الأصوات، وتصدر الأوامر باستبعاد الحيوانات الضعيفة، ويحضر الفرسان الذين سيمتطون هذه الخيول السريعة أنفسهم للسباق، وقد يكونون ثلاثة، وأحياناً اثنين على حسب الاتفاق، وينبغي أن يكون هؤلاء الفرسان بارعين في قيادة الخيول، ويضعون بالعادة اللجم في أفواه الخيول، ومن أجل أن يبدأ السباق بشكل جيد هناك رئيس مسؤول، وتحضر الخيول وتدخل في أجواء السباق حسب الامكان، وتتحرك أطراف الخيول، وهي عديمة الصبر أثناء الانتظار لذلك لايمكنها الوقوف بثبات، وعندما تصدر شارة السباق يعدون بأقصى ما أمكنهم، ويندفعون في الحلبة بسرعة شجاعة، ولأن الفرسان حريصين على نيل النصر، فإنهم يستخدمون مهامزهم لحث الخيول المطلقة العنان، ويحثونها أيضاً بالصراخ وبالسوط، ولابد أنك ستوافق هرقل على قوله: « كلّ شيء بالحركة»، وستعرف أن زينون قد أخطأ تماماً عندما قال: «لاتوجد حركة ولايوجد هدف للوصول إليه».

وإلى جانب هؤلاء تقف في طرف آخر من الميدان بضائع أهل المنطقة من أدوات الفلاحة إلى الخنازير بأطراف طويلة، والبقر بأثداء مليئة،

والثيران ذوات الحجم الهائل، والأغنـام ذات الأصـواف، وتقف أيضـاً أكاديش صالحة للفـلاحة، بعضها كبير مع فلوه، ويتبع بعضهـا الآخر عن قرب مهرها.

ويقدم إلى هذه المدينة كلّ أمـة تحت قبة السماء، ويجلب التجار بسرور بضائعهـم بوساطـة البحر، فـالعرب يـرسلون الـذهب، والتوابل السبـأية والبخور، ويجلب السكيزيـون الأسلحة، وتأتي زيوت التمور من بـلاد بابل الغنية والكبيرة، وترسـل بلاد النيل أحجاراً كريمة، ويجلـب رجال النروج وروسيا الفراء وجلـود السمور، ولم تكن الصين غائبة بحريـرها الأرجواني، ويأتي الغاليون ومعهم خمورهم.

وبالنسبة للتـاريخ ظهر أن لندن أقدم بكثير من مـدينة روما، ومع أنهما تنحدران من الجدود التراجانيين، لقد تأسست مـن قبل بروتوس قبل روما التي تأسست من قبـل روميلـوس وريمـوس، حيث مـابـرحـوا يمتلكـون الشرائع نفسهـا من أصلهم العـام، وهـذه المدينـة مثل رومـا مقسمـة إلى أقسـام، ولها مجلس عمـد سنـوي بـدلاً من المجـالس، ولها تنظيم للسـادة ومجالس ادارية أدنى، وتمتلك في شـوارعهـا مجاري وقنـوات ميـاه، وفيهـا أمـاكن محددة لسماع القضـايـا ولعرضهـا والحكم فيهـا، وفيهـا عـدد من المحاكم، وهي تعقد اجتماعاتها المنفصلة في أيام محددة.

ولا أعتقد بوجود مدينـة سجلها أفضل بالنسبة للكنيسة ولأعمالها، فهي تقدم الاحترام والتبجيل للأوامر الربـانية، وتحافظ على أيام الأعياد، وتقدم المساعـدة والضيافـة للغربـاء، وتؤكـد أعمال الخطوبـة، وتعقد الـزيجات، وتحتفل بـالأعـراس، وتقيم الاحتفـالات، وتحتفي بـالضيـوف، ويمكن أن نضيف أيضـاً: تهتم بـالجنـائز وبـدفن الموتى، ومصـائب لنـدن هي السكارى الحمقى الذين يشربون بلا حدود، والحرائق المتوالية.

ونضيف إلى ماتقـدم أن غالبيـة الأساقفـة ورعاة الـديرة في انكلترا هم

من أهل لنـدن ورجالها الأحـرار، ويمتلك كلّ واحد منهم بيتـه الفخم في بلدته، ففيها يعيشون ويمضون معظم أوقـاتهم، ويذهبون إلى لندن عندما يستدعون لحضور اجتماع مع الملـك أو مع مطرانهم، أو ينحدرون إلى هناك لقضاء مشاغلهم الخاصة.

وينشغل الشباب في أيـام الأعياد خلال الصيف في رياضـات الرمي، والركض، والقفـز، والمصارعـة، ورمي الحجارة، وقـذف الرمـاح إلى ماوراء اشارات محددة، وبالقتال بالسيف والترس.

وتقود أفـروديت رقصات الفتيات، حتى تجد الأرض تهتـز تحت الأقدام المتطايرة، حتى ظهور القمر.

وفي الشتاء هنـاك قبل كلّ يوم عيـد تقريباً، وقبل الغـداء، إما خنـازير وحشيـة مسلحـة بأنيـاب قـاطعـة تقـاتـل من أجل حيـاتها، أو من أجل لحمهـا، أو ثور قـوي مع قرون متينـة للنطح، أو دببة كبيرة تترك لانشـاب قتال مع كلاب صيد تطلق عليها.

وعنـدما تثـور الزوابع العظيمـة في الشمال، ويتجلد السـور الشمالي من المدينـة، ينطلـق إلى هنـاك جماعـات مـن الشبـاب للعب فـوق الجليـد، فبعضهم يركض بسرعـة فائقـة فوق الجليد وهـو مفتوح السـاقين أو يتزلج فوق كتلـة كبيرة من الجليد، ويصنع آخـرون مقاعد مـن كتل ضخمة من الجليد، وفي الوقت الذي يجلس فيه أحـدهم فوق المقعد، يركض الآخرون بأيدي متشـابكة نحـو الأمام ويجرون المقعـد خلفهم، وغالبـاً ماينـدفعون بسرعة عظيمـة إلى حد أنهم قـد ينزلقـون فينكبون جميعهم على وجـوههم، ويضع آخرون أكثـر براعـة في رياضة الشتـاء، على أقدامهم عظـام الساق لبعض الحيوانات، ويـربطوها بإحكام حول كعـابهم، ويحملون في أيديهم أعمدة مغطاة بالحديد، يضربون فيها من وقت لوقت ضد الجليد، وتراهم مندفعين بسرعة فائقة فـوق الجليد، حتى لكأن أحدهم طائر يطير، أو رمية

قـذفت من آلـة حـرب، ويقوم في بعض الأحيـان اثنـان منهم، بنـاء على اتفاق ضـد بعضهما من مسافة بعيـدة جداً، وعندمـا يقتربان من بعضهما بعضاً، يرفعان الأعمدة ويسـدد كلّ واحد منهما على الآخر، والذي يحدث هو أن يسقط أحـدهما أو كلاهما، لكن ليس بدون جراحـة جسدية، لأنهما عندما يسقطـان تندفع أجسادهما إلى مسافـة بعيدة عن بعضهما بفعل قوة ركضهما، وحيثما لامس الجليــد رأسيهما، يكشط الجلـد تمامـاً، وغـالبـاً مـايحدث أن تنكسر ذراع أو ساق، إذا مـاسقط الضحية مع عمـوده تحت خصمـه، لكن أعمارهم فيها جشع نحـو الفخـار، فالشبـاب يتشوقـون إلى النصر، ويمارسـون المبــاريـات الخادعــة من أجل تعـويــد أنفسهم على الشجاعة في معارك حقيقية.

ويجد كثير من النـاس المتعـة بـالـريـاضـة مع الطيـور في الهواء، ومع الصخـور والنسـور والعقبـان، ومع الكــلاب التي تصطـاد فـريستهـا في الغـابات، وامتلك السكـان الحق بمطـاردة الفرائس في مـدل سكس وفي هارتفورشير، وفي جميع منطقة تشلتيرن Chiltern ، وفي كنت حتى نهر كري Cray.

"وأنجبت هذه المدينة في العصـور المسيحية الامبراطور قسطنطين الكبير ابن الامبراطـورة هيلينـا (حنـه)، وهـو الـذي منح رومـا وجميع الشـارات الامبراطـورية للـرب وللقـديس بطرس، وللبـابا سلفستر، البـابـا الرومـاني [منحة قسطنطين]، فله فوّض منصب السياسة، فهو لم يعد يشعر بالسرور إذا مادعي بـاسم الامبراطور، بل بـات يفضل لقب «المدافع عن الكنيسة الـرومانيـة المقدسـة»، وخشية منـه أن ينزعج المولى البـابا بضجيج الحيـاة المدنية وصراعاتها التـي تحدث أثناء حضوره، آثر هـو نفسه أن يترك المدينة التي منحها للمولى البابا، وبنى لنفسه مـدينة بيزنطة، وفي العصور الحديثة أنجبت لندن أيضاً الملوك الرائعين المشهورين:

الامبراطـورة ماتيلـدا، والملك الشاب هنـري بن هنري الثـاني، ورئيس

الأساقفة توماس المبارك، ذلك الشهيد الرائع في سبيل المسيح، فهي لم تنجب قديساً طاهراً خيراً منه، ولا واحداً عزيزاً أكثر منه على قلوب الرجال الطيبين في جميع أرجاء العالم اللاتيني.

هناك تعارض معتبر بين رواية فتزستيفن، وماكتبه بمهارة روائية جيرالد أوف ويلز، وفي نظرة نحو أخبار حوادث أيام هنري الثاني الأخيرة، نجد هذه الرواية القصيرة عنه وعن إليانور أوف أكوتين تظهره في ذروة حقده وضغينته.

عندما انقضت سنتا الحرب (١١٧٤) وتوقف القتال مع التعذيب، عزا الملك نجاحه —مثله في مثل فرعون آخر— لا إلى الرحمة الربانية بل إلى قوته، وجعل قلبه قاسياً، وعاد برعونته إلى بؤرة شروره المعتادة، أو بالحري، عاد إلى بؤرة أعظم شروراً، ومنذ أن انحدر أخذت الأشياء تزداد سوءاً، ولكي أتولى ذكر واحدة من هذه المساوىء، وأدع البقية: لقد تولى سجن زوجته الملكة إليانور عقوبة لها على تدمير زواجها، ذلك أن خيانته الزوجية التي كانت سرية من قبل، باتت الآن مكشوفة وواضحة، وهي لم تكن مع «وردة نقية» حسبما دعيت بشكل زائف وسميت، بل بالحري مع واحدة غير طاهرة أو نقية، وبما أن الناس يقلدون ملوكهم، هو لم يسىء فقط بسلوكه الشخصي، بل بالمثل السيء الذي ضربه(١٥).

هذا ومعروف عظيم المعرفة كيف تصرفت إليانور ملكة فرنسا عندما كانت في فلسطين فيما وراء البحار، وكيف تصرفت لدى عودتها نحو زوجها الأول، ثم نحو زوجها الثاني، وكيف أن أولادها بعثوا آمالاً عظيمة عندما كانوا شباباً، لكن هذه الآمال ذبلت وتلاشت.

فمن ابنتيها: الصقلية والسكسونية، توفيت الأولى دون أولاد، وتوفيت الثانية بدون سعادة، واحدة بدون نتاج، والثانية لم تكن خلوة من

التعاسـة، أما فيما يتعلق بالآخـرين: الفرع الاسباني والفـرع الألماني، والفرع البريتـاني، ستكـون الأجيـال المقبلـة في وضع يمكنهـا من الحديث عن مصيرهم، دعونا لانمضي فيها بينهم، حيـث أن بعضهم قد يجد هذا مضراً ومؤذياً، ومن المؤمل، بإرادة الـرب أن يأتي بعض الخير من الزواج الاسباني السعيد.

ومن المعـروف أيضـاً بشكل واضح أن ابنتيهـا من الملك لـويس ملك فرنسـا: واحدة تـزوجت من هنري كـونت شامبين، وتـزوجت الثانيـة من أخيه ثيـوبولـد كونت بليوس، وقـد سقطتا مع مـاأنجبتاه في فلسطين وفي بلاد الاغريق. .

ولكي نبين كيف كان نسل الملك هنري ممتحنين، علينـا فقط أن نتذكر أن الامبراطور هنري الخامس الذي تزوجت إليـه ماتيلدا، ابنة هنري الأول وأم هنري الثاني، قـام من أجل مطامح دنيوية بـأسر أبيه الطبيعي وتقييده بـالأغـلال، ثم كرر فعلتـه هـذه مع أبيـه الروحـي —أعني بذلك البـابـا باسكـال— وبعد ذلك تخلى عن حكم الامبراطـورية، وذهب للترهبن في غـربي بريطـانيا، قـرب تشستر، وعـاش حياة قـداسة وتـوبـة حتى موتـه، وعندما عادت الامبراطورة ماتيلدا إلى أبيهـا في بلدها، زوجها من غيوفري كونت أنجـو، مع أن زوجها كان مايـزال حياً، ورزق غيوفري منهـا بثلاثة أولاد، اثنـان منهم توفيـا بسرعـة كبيرة وبترا وهما في ريعان الشبـاب على الرغم من الآمال العظيمة التي علقت عليهما، وبدأ الثالث بشكل أفضل مما انتهى إليه.

وبجدداًء عندمـا كان غيوفري أوف أنجـو كبير أمراء فرنسـا، استفاد من الملكة إليـانور، ولهذا السبب غالبـاً ماحذر ابنه هنـري، وأنذره، وأخبره ألا يلامسهـا، وقد قيل إن سبب ذلك لكونها زوجة مـولاه، ولكونه قد عـرفها هو نفسه شخصيـاً، وآخر هذه الآثار المرعبـة المغضبة، لقد روي أن الملك هنري قد نـام زانياً مع ملكة فرنسـا المذكورة، وانتزعها مـن مولاه وزوجها

من نفسه، وإنني أتساءل: كيف يمكـن لأي شيء سعيد أن يأتي من هذه الزيجات؟.

وليس على غـرار جيرالد أوف ويلـز، قام المؤرخ رالف أوف ديسيتـو Diceto بالكتـابة حـول الأحداث التاريخية بطريقـة ايجابية، وقـد بدأ حكايته عن حكم هنري الثاني مع حوادث سنة١١٥٥ .

ولـد الـولـد هنـري في لنـدن لهنـري ملك انكلترا والملكـة إليـانـور في ٢٨شباط، وقد جرى تعميده من قبل رتشارد أسقف لندن.

وتم انتخاب روبـرت عميد سـالسبري أسقفاً لإكستر Exeter ، وجرت سيامته من قبل ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري.

وجـرى تتـويج فردريـك ملك ألمانيا امبراطـوراً من قبل هـادريـان في كنيسة القديس بطرس [رومـا]، وغادر هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، انكلترا دون الحصول على إذن الملك، ونتيجـة لذلك أمـر الملك بهدم ستة من قلاعـه. وتم حرمـان وليم بيفيريل Peverel أوف نوتنغهام من ميراثـه لأنـه أعطى السم إلى رانــولف ايـرل تشستر، واستـولى الملك على حصن غلوستر وعلى قلعتي بـردجنورث Bridgnorth وويغمور Wigmore ، الـذين حصنهم هيـوج أوف مـورتـايمـر Mortimer ضده.

سنة ست وخمسين ومائة وألف

عبر الملك هنري القنـاة من دوفر، ونـزل خارج وزانت Wissant ، حيث قابل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سيبل، التي كانت عمته.

سنة سبع وخمسين ومائة وألف

أنجبت الملكة إليانور ولداً ذكراً في اكسفورد، أطلق عليه اسم رتشارد، وعبر الملك هنري عائداً إلى انكلترا، وأعاد مالكولم ملك اسكوتلندا إليه مدينة كارل آيل، وبلدة بامبره، ونيوكاسل فوق التاين Tyne، ومنطقة لوثيان Lothian.

ووصل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سيبل إلى القدس.

سنة ثمان وخمسين ومائة وألف

ذهب هنري ملك انكلترا ليلبس التاج في وورستر، غير أنه بعد القداس الديني وضع التاج على المذبح، غير راغب في أن يتوج ثانية [لأنه كان لديه اهتمام ضئيل بالرسوم].

وولدت الملكة إليانور ولداً سمي غيوفري.

وجرى صك نقد جديد في انكلترا.

وقدم توماس، مستشار الملك إلى باريس، وسط احتفال عظيم، بغية تلقي مرغريت ابنة ملك فرنسا، لتكون زوجة لهنري ابن ملك انكلترا.

وعبر هنري ملك انكلترا القنال فور سماعه نبأ وفاة أخيه غيوفري، واستولى على ننتس Nantes.

ومضى لويس السابع ملك فرنسا متقدماً خلال نورماندي، عازماً على الوفاء بنذره في جبل القديس ميكائيل، وقد جرى استقباله في الكنائس

الكاتدرائية بـرسوم دينية، وجاء الناس واحداً واحـداً للترحيب به، وقدموا له كثيراً من الهدايا.

وقـدم ملك انكلترا إلى بـاريس بناء على دعـوة الملك لـويس السـابع ملك فـرنسا، وجـرى استقبالـه بالقصر، وأعطي مكـاناً لـلاقامـة في رواق كهنة نوتردام.

سنة تسع وخمسين ومائة وألف

قاد هنري الثاني ملك انكلترا جيشاً ضد طولوز، واستولى على عدد من القلاع الحصينة في تلك المنطقة، ولقد قيل:

لم يهاجم ملك انكلترا طـولوز نفسهـا احترامـاً لملك فرنسـا الذي كـان مقيماً بها، أمـا بالنسبـة لملك فـرنسا، فقـد رغب عن طـواعيـة بالبقـاء بها مساعدة لكـونت سانت جايل (صنجيل) الذي تـزوج من أخته وأنجب منها أولاداً، وهكذا غدا الملكان متعاديان.

سنة ستين ومائة وألف

كان هناك انشقاق كنسي بعـد وفاة البابا هادريان، فقـد جرى انتخاب اثنين من البابـوات، مع أن الاسكندر كـان هو البابـا الحقيقي، وقبل ملك انكلترا وكذلك ملك فـرنسا بـالاسكندر واعترفا بـه كبابـا، لكن امبراطور ألمانيا وجميع رجـال الدين الألمان أيـدوا أوكتافيـان، وبعث الامبراطور إلى ملكي فـرنسا وانكلترا يطلب منهما أن يقـدمـا مسانـدتهما إلى هـذا البابـا

نفسه، لكنه عبثاً فعل.

وتوفيت ملكة فرنسا، ابنة ألفونسو امبراطور اسبانيا أثناء الولادة، وقد ولدت ابنة، لحسن حظها بقيت حية، ولم يتقيد الملك لويس بوقت الحداد المعتاد، بل خلال أسبوعين تزوج من آدلا، ابنة الكونت ثيوبولد كونت بليوس، ورفض سمسون رئيس أساقفة رايمس تعميدها ملكة، لأن زواج أخت آديلا من فيليب أخي الملك قد فسخ بسبب القرابة الوشيجة بينهما.

وخطب هنري ملك انكلترا مرغريت ابنة ملك فرنسا، التي كانت تحت حمايته لابنه هنري، وبهذا ربح السيطرة على قلعة غيسور Gisors وكانت لديه نوايا منذ زمن طويل تجاه هذا الحصن، الذي كان موكلاً إلى فرسان الداوية، حتى يحين الوقت، يوم العرس بين الولدين حيث يجري تثبيته، ومهما يكن من أمر لقد ادعى ملك فرنسا الآن مع اخوان الملكة أن تاريخ اليوم قد حدد أبكر مما توقعوه، وكانوا لهذا مزعوجين جداً، وانطلاقاً من شعور العداوة نحو ملك انكلترا، انطلق ملك فرنسا وكونت ثيوبولد مع حلفائهما نحو تحصين دفاعات شومونت Chau-mont ، آملين بذلك تسبيب الأذى وجلب العار لعدوهم، وجاء على كلّ حال ملك انكلترا مسرعاً مع رجاله وحاصر القلعة، وعندها انهزم الملك الفرنسي وكونت ثيوبولد، وبعد مضي عدة أيام أرغم القلعة على الاستسلام، واحتجز خمساً وخمسين من فرسان ثيوبولد أسرى في داخلها، وجرى الاحتفال بزواج ابن ملك انكلترا من ابنة ملك فرنسا بموجب السلطة المفوضة لهنري أوف بيزا، ووليم أوف بافيا، وهما كاردينالان كاهنان ومندوبان للكرسي المقدس، ومع هذا كله كان الطفل مايزال فقط في السابعة من عمره والطفلة في الثالثة، وحدث هذا في نوفبورغ Neufbourg يوم الخامس من تشرين الثاني.

سنة إحدى وستين ومائة وألف

جرت سيامة رتشارد رئيس شمامسة كوفنتري أسقفاً للكنيسة نفسها، وكان أبوه رتشارد أسقف تشستر، والذي تولى السيامة هو رئيس الأساقفة ثيوبولد، لأن القاعدة قضت أنه إذا كان أولاد الكهنة سلوكهم بالحياة جديراً بالتقدير، لايجري استبعادهم من المناصب المقدسة، ولامن الكاتدرائيات الكنسية، لابل حتى ولامن البابوية نفسها، فعلى سبيل المثال كان نيكولاس رجلاً من أصل انكليزي، وكان أبوه كاهناً، فغدا هو بابا باسم هادريان الرابع.

سنة اثنتين وستين ومائة وألف

حشد لويس ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا قواتهما من جميع الجهات، وبدا أن الصدام المسلح بينهما أمر لايمكن تجنبه، وعلى كل حال لقد تصالحا مع بعضهما بعضاً وجرى الصلح قرب فرتفال Freteval.

وولدت ملكة انكلترا بنتاً في روان، وقد منحتها اسمها، أي إليانور، وتوفي رتشارد أسقف لندن في الخامس من أيار. وأقسم أساقفة انكلترا ورعاة ديرتها يمين التبعية لهنري الابن الأكبر للملك، وكان الملك هو الذي أصدر أوامره إليهم للقيام بذلك، وكان توماس، مستشار الملك الأول بينهم في تأدية يمين الولاء، واحتفظ باخلاصه للملك مادام حياً، وبقدر مارغب في أن يحكم.

والتقى فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة مع لويس

ملك فرنسا على مقربة من بيسانكون Besancon ، لاتخاذ قرار حول أي واحد من البابوين سيفضلان، وأعنى بذلك: أوكتافيان أو الاسكندر، وبذلك ينهيا الانشقاق الذي عانت منه الكنيسة.

وأوجدت وفاة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري في ١١٦١ ضرورة اختيار خليفة له.

وجرى استدعاء جميع رجال الدين في منطقة كانتربري إلى لندن، وبحضور هنري ابن الملك والقضاة تم انتخاب توماس رئيس شمامسة كانتربري بشكل مهيب وبالاجماع رئيساً للأساقفة، وحمل هنري أسقف ونشستر الأنباء في أن توماس قد انتخب بلا معارضة، إلى قاعة الرهبان في وستمنستر، يوم الأربعاء قبل أحد الشعانين.

وتمت سيامته في يوم الأحد التالي من قبل هنري أسقف ونشستر، الذي كان آنذاك نائب الكرسي المقدس في لندن .

وجرى أرسال الرسل إلى البابا الاسكندر بأن المقترعين من الأساقفة في كانتربري قد اختاروا رئيساً لهم، بإجماع كلّ الأصوات، وقد سيم رئيساً للأساقفة من قبل مجمعهم، ولدى سماع البابا بهذا أعطى موافقته، وبناء عليه، عندما قرئت رسائل الأساقفة، ورسالة راعي دير الثالوث [أي راعي كاتدرائية كانتربري]، ورسالة الملك وضع الطلب بالموافقة أمام مجمع الكرادلة الكنسي، وقد وافق الجميع بدون اعتراض أو تردد وإثر هذا جرت مناولة طيلسان رئيس الأساقفة إلى الرسل وسط احتفاء عظيم واحتفال، وتناول رئيس الأساقفة توماس —المقيد بالشروط المعتادة، وفي ظل قيود القداسة— الطيلسان من على المذبح العالي لكاتدرائية كانتربري.

وعندما ارتدى هذه الأثواب، التي حبست، بناء على أوامر الرب، على

أعلى رجـال الـدين، لم يغير فقط مظهـره الخارجي، بل طـرائق تفكيره وتـوجهـات عقلـه، حيث تـوقف عـن الـرغبة بـالاهتمام بمسـؤوليـات المستشارية، وأراد بالحري أن يعفى منها، وبـذلك يمكنه أن يكرس المزيد من الـوقت لمخـاطبـة رعيته، والاشراف على شـؤون الكنيسـة، ولهذا بعث توماس بـرسالة إلى ملك انكلترا، الـذي كان آنذاك في نورمـاندي قدم بها استقـالتـه من المستشـارية وتخلى عن الختم، وكـان السبب الـوحيـد لهذه الاستقالة المفاجئة هو تصوره لواجبات المنصب الجديد.

يتعارض اطراء فتزستيفن حول تحول بكت مع معايير تحليل ديسيتو

في سيامتـه كان تومـاس بكت قد مسح بدهن الـرحمة الربانيـة المرئية، حيث وضع جـانبـاً الـرجل الـدنيـوي، وتلبس يسـوع المسيح، وتخلى عن الواجبـات الدنيـوية لأعمال المستشـارية، وكـان مهتماً بالقيـام بواجبـات رئيس أسـاقفة جيـد، وفي سبيل هذه الغـايـة راقب عقله مـراقبة دقيقـة، وكانت خطابـاته حزينة، ولمصلحة ونجاة المستمعين إليـه، وكانت أعماله أعمال رحمة وشفقة، وكانت قراراته مقرونة بالعدل والمساواة.

وكان يـرتدي قميصـاً من الشعر من أكثـر الأنواع خشـونة، وكـان هذا القميص يصل إلى ركبتيـه، وهــو مليء بـالطفيليـات والحشرات، وغـذى نفسه بقليل من الطعـام، وكان شرابه المعتاد هـو الماء المعد لطبخ العلف، وكـان على كلّ حـال أول من يتـذوق الخمرة قبل أن يقـدمهـا إلى الـذين يجلسون إلى المائدة معه، وكان يأكل بعض اللحم الموضـوع أمامه، غير أنه تغــذى بشكل رئيسي على الخبــز، علماً أن كلّ شيء كــان نقيــاً للنقي، والمسألـة هنـا هي لـوم الشهيـة وليس لـوم الطعام، وعرّض مـراراً ظهـره العاري لسوط النظـام، ولبس فوق قميصه الشعري مبـاشرة رداء الرهبان، بحكم كـونـه راعي رهبـان كـانتربـري، وارتدى فـوق هـذا ثـوب شماس

ليماشي عادات رجـال الدين، وكانت ربطـة العنق، وهي رمز النير الجميل للمسيح، حول رقبتـه ليل نهار، وكان مظهره الخارجي مظهـر رجل عادي، لكنه في داخلـه كان مختلفاً، وفي هـذا قلد القـديس سيباستيان والقـديسة سيشيليـا، فـالأول مارس تحت رداء جنـدي أعمال جنـدي المسيح، وبينما غطت القديسـة جسدهـا بمسح خشن لايساوي شيئـاً، تزينت خـارجياً بثوب حيك من الذهب.

وكان يغسل في زنزانتـه الخاصة كلّ يوم أقدام ثلاثـة عشر متسولاً، وهو راكع على ركبتيـه، وذلك تخليـداً لـذكـرى المسيح، ومن بعـد تـزويـدهم بالطعـام كان يعطي لكل واحـد منهم أربعة شلنات، وإذا حـدث في أية مناسبة —وهـذا أمر نادر— وحيل بينه وبين ممارسـة هذا العمل شخصياً كـان يحرص عظيم الحرص أن يوكل إلى أحـدهم القيـام بـذلك، وعندمـا يكون وحيداً، إنه لمدهش حقاً كيف كـان يستغرق بالبكاء، ويتمثل عندما يكـون أمام المذبح آلام الـرب وكأنها قائمـة بالجسـد أمامـه، وكان ينـاول القربان المقـدس بطريقته الخاصة التي كان يقـوى بها إيمان وسلوك الذين يشاهدون ذلك.

زد على هـذا كان يـرعى في بيته المعـوزين والمحرومين، فيعطي الثيـاب لعـدد كبير حتى يتمكنوا من مقـاومة قسـاوة الشتاء، وكـان في كانتربـري يستقبل كثيراً منهم شخصياً، ويجلس ملاصقاً لهم كأنـه واحد من رهبانه، فيـدرس واحـداً من أكبر المجلـدات، ويـذهـب بعـد هذا ليـزور الـرهبـان المرضى، من أجل أن يعلم مـايحتـاجون إليـه وليلبي رغبـاتهم، ولقد كـان المستشـار للمظلوم، وللـزوج الأرمل، والصديق لليتـامى، يضاف إلى هـذا كان متواضعاً مواسياً للطيف وقاسياً تجاه المتكبر.

وكان رئيس الأساقفة توماس الـرائع، معارضاً لتوقعات الملك، وكذلك لتوقعات كلّ انسـان آخر، لذلك هجر العـالم بشكل كلّي، ولهذا عانى من تلك المحنـة بشكل مفاجىء، التي هـي من عمل يد الـرب، وهي المحن

التي دهش الناس جميعاً تجاهها.

ثم نعود إلى ديسيتو ومعالجته للشقاق المتصاعد بين الملك ورئيس الأساقفة.

سنة ثلاث وستين ومائة وألف

عندما أعد الملك هنري ملك انكلترا أراضيه في نورماندي، وبريتاني، ومين، وأنجو، وتورين، وأكوتين، بما رآه مناسباً، عاد إلى انكلترا، ورسا في ثاوثأمبتون في يوم ٢٥ كانون الثاني، وجاء توماس رئيس أساقفة كانتربري لمقابلة الملك وعانقه، لكن بدون مشاعر طيبة، مشيحاً بوجهه بعيداً، الأمر الذي كان بإمكان كلّ واحد من الحضور أن يراه، ووضع توماس الذي ارتقى من رئيس لشمامسة كانتربري إلى رئيس للأساقفة، جانباً استقالته من رئاسة الشمامسة وأجلها لبعض الوقت، وذلك على الرغم من طلب الملك الملح جداً، وأخيراً استقال من هذا المنصب لأن الملك استجاب لذلك، ومع أنه بهذا استرد رعاية الملك التي حرم منها نتيجة لهذا التأخير، هو لم يعترف بهذا بشكل صريح(١٦).

جرى في ٢٢ تموز استدعاء روجر دي كلير، إيرل أوف هارتفورد إلى وستمنستر وذلك من قبل توماس رئيس أساقفة كانتربري ليقدم له الولاء من أجل قلعة تونبردج وأراضيها، لكن الإيرل رفض بتصميم طلب رئيس الأساقفة، مؤكداً أن الاقطاع المختلف عليه كان عائداً إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وحقوق الخدمات العسكرية المترتبة عليه والشؤون المالية العامة عائدة إلى الملك.

وقدم مالكولم ملك اسكوتلندا، وريس Rhys أمير جنوبي ويلز،

وأوون Owen أمير شمالي ويلز، وجميع نبلاء ويلز، الولاء إلى ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري، وجرى ذلك في وودستوك يوم الأول من تموز.

وجرى بحث عام وتقصي في جميع أرجاء انكلترا لإيجاد من يمتلك حق الخدمة المدنية تجاه كلّ واحد على حده، وفي أثناء البحث في كنت قرر القضاة أن وليم أوف روس Ros يجب عليه تقديم الولاء إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وذلك في أي عمل من أعماله، وهكذا سببت الكراهية الشخصية الأذى للكنيسة بشكل عام.

وعندما نقل رئيس الأساقفة توماس منصب مسؤولية المعيشة في آينزفورد Eynesford الشاغر وسلمه إلى واحد اسمه لورانس، ادعى وليم صاحب آينزفورد أنه هو نفسه يمتلك الحق للتعيين في ذلك المنصب وطرد لورانس، ورد عليه رئيس الأساقفة فحرمه من الكنيسة، ولأن هذا حدث دون إخبار الملك، كان الأخير غاضباً، وأكد بالحقيقة أن كرامة الملك غير مفصولة عن كرامة مملكته، وأنه مامن قائد وجندي تابع للملك، ومامن واحد من وزرائه، ولاواحد من التابعين له (مهما كانت مكانتهم) سواء احتفظوا بقلعة أو بلدة أو غابة، يجوز حرمانه من الكنيسة بقرار من أي واحد من دون علم الملك، وذلك خشية تدنيس الملك من قبل المحروم، لدى زيارة قائد محروم له وقيام الملك بمعانقته أو باستقباله في مجلسه.

وبعث الملك هنري أرنولف أسقف ليزوكس Lisieux ، ورتشارد رئيس شمامسة بواتيه بسفارة إلى البابا الاسكندر، الذي كان آنذاك في منطقة الشقاق في فرنسا، ولقد عانيا لمدة ثلاثة أشهر، وتعرضا للمخاطر من البحر الهائج والأمواج العاتية ست مرات، ومع أنهما بذلا جهوداً عظيمة ليحصلا على التأييد بشأن قوانين المملكة في سلطات البابا، لقد كانا غير قادرين على تحقيق أي شيء، لذلك عندما عادا أخيراً لم يكن بإمكانهما فعل أي شيء للتخفيف من غضب الملك الذي انفجر الآن

ضد عدد كبير من الأشخاص.

سنة أربع وستين ومائة وألف

وقيل رغب ملك انكلترا في انـزال عقوبـات قاسية على بعـض أعضاء رجـال الدين الـذين كانـوا مدانين بجـرائم، مقدراً أن تسلم مثل هـؤلاء الـرجال عقـوبات أدنى ممـا يستحقون يحط من النظـام ككل، ولهذا رسم بتحويل رجـال الدين اللذين عدّوا مجرمين بشكل واضح من قبل قضـاته، إلى أسقفهم، والـــذيـن يجدهم الأسقف مجرمين، عليـــه أن يجردهـم من سلطـاتهم بحضـور واحـد من قضاة الملـك، ويتوجب عليـه أيضـاً بعـد المحاكمة أن يسلمهم لتلقي العقوبة.

وإثر هـذا وضع رئيس أساقفة كـانتربري أمام المحاكمـة بسبب أعماله كمستشـار، وظهــر أمـام المحكمـة في ١٢ تشرين الأول في نـــورثأمبتـون، واجتمع هنـاك الأساقفـة والإيرلات والبـارونات من جميع المملكـة، وذلك بناء على الأمر المستعجل من الملك، وجرى استـدعاء روجر رئيس أساقفة يـورك، وظهر هنـاك، وكان قـد جرى بأمـر من مستشاريـة تومـاس تعيين مشرفين على ممتلكات الأسقفيـات، وبما أن توماس تجاوز كمستشـار حدود سلطاته في حاشية الملك (استحـوذ لسنوات كثيرة على قلعتي بيركهامستد وآي، وكان يفعل بهما مايشـاء) بدا ذلك لمعظم الناس متوائماً مـع القانون الـذي ينبغي اتخاذه لحسـاب مبلغ المرابـح، ومع هـذا كلـه، كـان قبل أن يـرسم رئيسـاً للأسـاقفـة قد نـال من هنـري ابن الملك وولي عهـده حق الحرية والاعفاء من الـواجبات القاضية بتقـديم حساب، وعلى كلّ حال، بما أنه كان من غير الممكن بالنسبة لتـوماس أن يوثق هذا الإعفاء ويبرهن أنه قد منح لـه، قام قادة الكنيسة بإصـدار حكم ضده، ولم يستطع هو لا

الاعتراف بـالتهمـة ولا بـالادانـة، بل ادعى ان ذلك كـان لصـالح رجـال الدين.

وعلى هـذا كان رئيس الأسـاقفة في وضع صعب، متهم بعـدد كبير من التهم، ومصـاب بكثير من الاهـانـات، ومحروم من تأييـد الأساقفـة، فقـام برفع الصليب الذي كـان يحمله، وغادر قاعة المحكمة، وفي الليلـة التالية ترك المدينة بشكل سري، وأخفى نفسه عن مشـاهدة الناس خلال النهار، وارتحل أثنـاء الليل، وبعـد سفـر عـدة أيـام وصل إلى مينـاء سنـدويش Sandwich ، ومن هنـاك عبر في قـارب صغير إلى فـلانـدرز، وأرسل الملك بعـد اختفاء رئيس الأسـاقفة رسـلاً إلى البابـا الاسكندر الثـالث في سنس Sens.

وكان بين التعليمات التي حملهـا الرسل من الملك عـرضاً إلى البـابا أن بإمكانه أن يبعث بقاضيين إلى انكلترا، يتـوليان بحضور من الملك ورئيس الأساقفـة حل الخلاف اللاديني بين الملك ورئيس الأساقفة، الـذي جرت مناقشتـه في نورثأمبتـون، وإيجاد حل لأي قضية يمكن أن تظهـر أثناء سير المناقشـات، وذلك بعد سحب الاستئنـاف، وعلى كلّ حال عنـدما وصل رسل الملك إلى قصر رئيـس أسـاقفـة سنـس، لم يكن رئيس الأسـاقفـة موجـوداً، لذلك لم يستطع بلاطـه اعطاء جواب حـاسم لمطالبهم، حيث أن ماطلب لايتماشى مع القانون ولا مع العقل.

سنة خمس وستين ومائة وألف

وولدت آديلا ملكة فرنسا ولداً أطلق عليه اسم فيليب، وولدت إليانور ملكة انكلترا ابنة سميت جوانا، وعاد البـابا الاسكندر إلى ايطاليا، ورحب به في روما.

وعنـدمـا كـان الملك مقيماً في وستمنستر[القصر الملكي قـرب لنـدن] جاء رينالـد رئيس أساقفة كولون إلى انكلترا ليتسلم مـاتيلدا، كبرى بنات الملك هنـري، لتكـون زوجـة لهنـري، دوق ساكسـوني(١٧)، وحـدث أنـه عنـدما جـاء نبلاء المملكـة في أبهة عظيمـة لإستقبالـه واللقاء بـه، رفض روبرت إيـرل أوف ليستر، ورئيس القضاء الملكي، أن يعانقـه، على أساس أنـه منشق عن الكنيسة، ثم قلبت جميـع المذابح التي أقام عليهـا المنشق قداساً.

هرب بكت إلى البـابا في سنس، وذهب من هناك إلى ديـر سسترشيان Cistercian في بونتغني Pontigny، وتبنى هناك طريقاً للحياة كرسه على العـزلة والدراسة، وزار في أحد الشعانين ١١٦٦، عنـدما كان حـاجاً، فيـزلي، حيث تـولى حرمـان عـدد من الأساقفـة الانكليـز كانـوا يساندون الملك.

سنة ست وستين ومائة وألف

[بعث رئيس الأساقفة من منفاه رسالة إلى الملك جاء فيها:]

«من توماس رئيس أساقفة كانتربري إلى ملك انكلترا:

إنني أرغب رغبـــة عظيمـــة في رؤيـة وجهك والحديـث معك، وذلك لصـالحي، ولكن أكثر لصـالحك، ذلك أنك بـرؤيتك لوجهي ستعيـد إلى ذاكـرتك الخدمات التي قـدمتها لـك، عندمـا كنت تحت طاعتك، لقـد خدمتك باخـلاص مرضياً ضميري، حتى —لعل الرب يسـاعدني في يوم الحساب— عندما يقف الجميع أمـام حكمه ليتسلموا الثواب أو العقاب تبعاً لما عملـوه عندمـا كانـوا أحياء، ولابـد أنك ستتحرك شفقـة عليّ، أنا

الـذي توجب عليّ أن أعيش بمثـابة متسـول بين الأجانب، حتى في هـذا الحال —شكراً للرب— لدينا كثيراً من الخيرات والنعم».

ووضعت الملكة إليانور ولداً ذكراً سمته جون(١٨).

ودعا الكاردينالان: وليم أوف بافيا، وجون أوف نابل —نائبا الملك— ملك انكلترا، ورئيس أساقفة كانتربري إلى الحضور معاً إلى مونت ميريل Montmirail، ومع أن رئيس الأسـاقفـة شعـر أنهما يميـلان أكثـر إلى جانب الملك، سمح بمعالجة القضية، وجلس الكـاردينالان جلسة علنية، وبذلك كـان من الممكن إعادة اعتبار كـاملة له شخصياً ولأتبـاعه وذلك وفقـاً للقانـون الـلاهوتي، لكن رئيس الأسـاقفـة المسلوب لم يـرغب في أن يتعرض للمحاكمة، ولم يكن من الممكن ارغامه بأي شكل من الأشكال، حيث أن النائبين اللذين لم يستطيعا ارغامه، ولم يرغبا بالقيام بذلك، عادا إلى البلاط البابوي مخفقين.

وجـاء الملك لـويس السـابع، ملك فرنسـا إلى بـونتغني، حيث أظهـر الرهبان كلّ لطف نحو رئيس الأسـاقفة توماس لمدة عامين، ومن أجل ألا تتعرض رهبـانية سسترشيان في انكلترا إلى أي أذى أخـذه معه إلى سنس، ودفع نفقاته لمدة أربع سنوات في دير القديس كولومب Colombe.

سنة سبع وستين ومائة وألف

تزوجت ماتيلدا ابنة الملك هنـري الثاني من هنري دوق ساكسوني، وقد رافقها إليه كلّ من إيرل آرندل وإيرل بمبروك وعدد كبير آخر.

وتخاصم ملكـا فرنسـا وانكلترا: وأحرق النورمـان كومـونت Chaumont قـرب غيسـور Gisors وأسروا عـدداً كبيراً من الفرسـان

والمدنيين، وانتقاماً لما حدث أحرق الملك الفرنسي أنـدل Andelys وهو بيت ريفي لرئيس أساقفة روان، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، بعدما خسر أكثر من ألف رجل أثناء السفر، ووقع بعد هذا عدد كبير من الفرسان الفرنسيين بأسر النورمان في بيرش Perche, ثم تصالح الملكان، وخطب رتشارد دوق أكوتين وابن الملك الانكليزي، إلى أليس الفرنسية، ابنة الملك.

سنة تسع وستين ومائة وألف

تزوجت إليانور ابنة ملك انكلترا من ألفونسو الثامن ملك كاستيل.

وعقد يوم ١٨ تشرين الثاني مؤتمر فيها بين الملك لويس السابع ملك فرنسا، والملك هنري الثاني ملك انكلترا، قرب باريس، حيث كان رئيس أساقفة كانتربري مقيماً، لكن توماس لم يقدم نفسه إلى ملك انكلترا، وكان هناك نقاش طويل حول إقامة سلام فيها بين الملك ورئيس الأساقفة، وبناء على نصيحة ملك فرنسا والأساقفة والنبلاء، زود ملك انكلترا بالتماس منه على شكل رسالة جاء فيها مايلي:

«نلتمس من مولانا الملك، بناء على نصيحة من البابا ورعاية، ومن أجل محبة الرب والبابا، وتشريفاً للكنيسة المقدسة، وفي سبيل نجاته ونجاة ولي عهده أن يتقبلنا ويشملنا برعايته وأن يعفو عنا وعن الذين معنا، والذين غادروا انكلترا من أجلنا، وأن يمنحنا سلامه مع الأمان الكامل منه ومن رجاله، بدون مشاعر رديئة، وأن يعيد كنيسة كانتربري إلينا حرة، وكاملة حسبما كانت بأيدينا بعدما صرت رئيساً للأساقفة، وأن يعيد جميع الممتلكات والمقتنيات التي كانت لنا، لنتملكها بشكل حر، ومجيد وسلام، وذلك مثلما كانت الكنيسة وكنا أنفسنا وامتلكنا عندما

رقينا إلى رئاسة الأسقفية، وكذلك الأمر نفسه بالنسبة لأتباعنا، وعليه أيضاً أن يأذن لنا في استحواذ الكنائس العائدة لرئاسة الأساقفة، والتي غدت شاغرة بعدما تركنا البلاد، وبذلك يمكننا أن نفعل بها مانرغب به ويرضينا».

ولم يعط ملك انكلترا موافقة كاملة لسببين: بما أنه لم يطرد رئيس الأساقفة، هو لم يكن ملزماً —تماشياً مع سمعة المملكة— بتغيير أي شيء باسم اعادة الاعتبار، كما أنه لم يكن ملزماً بأن يعلن إلغاء تمليك الممتلكات الشاغرة، التي جرى منحها لبعض الأشخاص، لكن حتى يعبّر عن نفسه بأنه حاكم ملتزم بالقانون، أعلن أمام ملك فرنسا، أنه جاهز لإرضاء رئيس الأساقفة من جميع الجوانب، أو أنه إذا ما قرر مناقشة القضية، وعرضها للمحاكمة في القصر في باريس، بوجود نبلاء فرنسا هناك، أو بوجود الكنيسة الفرنسية واستخدامها لنفوذها، أو بوجود علماء من مختلف المناطق، يتولون فحص الأعمال بشكل عادل.

وهكذا تمكن ملك انكلترا، الذي أثار من قبل كراهية عدد كبير من الناس ضده، بوساطة هذه الكلمات أن يكسب الكثيرين إلى جانبه، وبهذه الواسطة كان من الممكن لملك انكلترا ولرئيس الأساقفة الوصول إلى نوع من الاتفاق، وذلك إذا مارفض الملك رفضاً تاماً إعطاء رئيس الأساقفة قبلة السلام.

سنة سبعين ومائة وألف

عقد الملك يوم عيد الميلاد بلاطه في بلدة نينتس Nentes, بحضور الأساقفة والبارونات لجميع بلاد بريطانيا، وقد أقسم هؤلاء يمين الولاء له ولابنه غيوفري معاً، وعاد في أيام الصيام إلى انكلترا، وعندما

تعرض عدد كبير من حاشيته لمخاطر عاصفة بحرية هبت بشكل مفاجىء، نجا هو نفسه منها دون أن يصاب بأذى بفضل نعمة التقوى للرب.

وفي أثناء غياب بكت عن انكلترا، قرر هنري الثاني استخدام رئيس أساقفة يورك لتتويج ابنه الملك الشاب، وبهذا أعاد الخلاف الطويل بين رئيسي الأساقفة الانكليزيين حول الريادة.

وجرى في ١٤ حزيران رسم هنري، أول أولاد الملك هنري، ملك انكلترا، ولادة، ملكاً، وكان ذلك في وستمنستر، من قبل روجر رئيس أساقفة يورك.

وعبر الملك القناة، بعد تتويج ابنه، وعقد مؤتمراً في مونتميريل بينه وبين رئيس الأساقفة توماس، حيث كان ملك فرنسا حاضراً، لكن بعد جهود كبيرة، عندما جاءت ساعة العناق، ولأن رئيس الأساقفة قال: «إنني أقبلك تمجيداً للرب»، رفض الملك القبلة لأنها عرضت مشروطة، فلأن أجدادنا اعتادوا أن يولوا اهتماماً عظيماً للصيغ في القانون، هكذا اعتاد الملك على التمسك بنهايات بعض العبارات في كلمات رئيس الأساقفة، مع أنه تلفظها بضمير نقي، مثل أن تقول أحياناً: «حافظاً أمري» وأحياناً: «حافظاً مجد الرب» وأحياناً أخرى: «حافظاً إيمان الرب».

والتقى ملك فرنسا ووليم رئيس أساقفة سنس، وأسقف نافار Nevers ثانية في فرتفال Freteval، وعندها —على كلّ حال— تفارق ملك انكلترا ورئيس الأساقفة مرتين، وترجلا مرتين، ومرتين امتطيا فرسيهما، وأمسك الملك مرتين بالركاب لرئيس الأساقفة، ثم حدث لقاء آخر في أمبويز Amboise للوصول بسرعة لتفاهم أسهل، وهنا توصل الملك ورئيس الأساقفة إلى اتفاق، وتدبر هذه المرة السلام بينهما

روترو رئيس أساقفة روان [الذي كتب]:

«إلى هنري ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري ملك انكلترا، التحيات.

هل لك أن تعلم أن توماس، رئيس أساقفة كانتربري، قد أقام سلاماً معي، وفقاً لرغباتي، وبناء عليه إنني آمر أن يستطيع هو وأتباعه امتلاك سلام، وأن تنظر أنت إلى ذلك وترعاه، وفي أن يحصل هو وأتباعه الذين غادروا انكلترا من أجله، على مقتنياتهم بسلام وشرف، وأن يكون الحال مثلما كانوا عليه قبل ثلاثة أشهر من مغادرتهم انكلترا، واستدع إليك بعضاً من خيرة الفرسان ذوي الشرف في سولتوود Saltwood, وعليك —اعتماداً على أيمانهم— أن تقوم بالبحث بشأن تقرير اقطاع رئيس أساقفة كانتربري هناك، واعمل مايلزم لتتأكد من حصول رئيس الأساقفة على اعتراف به كجزء من اقطاعه.

الشهود: رئيس الأساقفة روترو أوف روان، في شينون».

وبناء على هذه الضمانة عاد رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ورسا في ميناء سندويش في الأول من كانون الأول .

وبعدما عاد توماس رئيس أساقفة كانتربري، وإثر دخوله إلى انكلترا، كتب رسالة إلى البابا، جاء في بعضها مايلي:

«....بعد وصولنا إلى كنيستنا، واستقبالنا بمحبة عظيمة من قبل رجال الدين والشعب، جاء إلينا عدد من الرسميين التابعين للملك وهم غاضبين، وقد طلبوا بناء على رغبة الملك ولصالحه أن نقوم بتحليل الأساقفة الذين كان قد جرى حرمانهم، أو جدوا، لأن ماصنع ضدهم تنامى ليصل إلى العدالة على أنه ضد الملك، وقد أزاح جانباً عادات المملكة وقلبها... وقد أجبناهم: إذا مارغب أسقفا لندن وسالسبري أن يقسما أمامنا أنهما سيطيعان أمرنا، إننا سنحللهما من أجل سلام الكنيسة وصدوراً عن احترام الملك، وعندما حملت هذه الاجابة إلى الأسقفين،

أجـابـا أن قسماً من هـذا النـوع لاينبغي تأديتـه إلا إذا تـوافق مع رغبـات الملك»!.

وبينما كان تـوماس، رئيس أساقفـة كانتربـري في طريقه لـزيارة الملك الشـاب هنـري، الـذي كـان في ذلك الـوقت مقيماً في وودستـوك، جـرى استقبالـه بحفاوة كبيرة مـن قبل سكان لنـدن، وفي يوم ١٨ كـانون الأول، عندمـا كان ضيفاً في سـاوثوورك Southwark, وصل رسل من عند الملك الشـاب إليه، محظـرين عليه، بنـاء على أوامر الملك، أن يـذهب إلى رؤيته، وبنـاء عليه، وعـوضاً عن الذهـاب، عاد إلى كنيستـه، وهكذا رجع إلى كانتربـري، وأعدّ العـدة للاحتفـال بعيد الميـلاد هناك، وذلك بـوجود عدد كبير من رجـال الدين جاءوا من مختلف المناطق، لـلاجتماع هناك في سبيل معالجة عدد من مختلف الأعمال.

وفي يوم الميلاد صعد توماس —رئيس أساقفة كانتربري المنبر— ليتولى أداء مـوعظة للشعب، وعنـدمـا انتهى، وقام بـالصلـوات المعتادة للـرب، وللبابا، وللملك، ولخلاص الشعب، وفيها الشمـوع مضاءة، قام بكل وقار بحرمان نيغل دي ساكفيل Nigel de Sackville, وهو ظالم عنيف لكنيسة هـاردرز Hardres وكـاهن الكنيسة نفسهـا، وحرم أيضـاً روبرت دي بـروك الذي شوه فـرساً من خيـول رئيس الأساقفة نفسـه كان يحمل طعاماً، وذلك بهدف الاهانة والحط من القدر.

وفي اليـوم الخامس من أيـام عيـد الميـلاد، عنـد حلـول الظـلام، وفيها رئيس الأسـاقفة مقيم في جنـاحـه، ومعه أعـوانـه، حمل الغضب الشديـد وليم دي تريسي Traci, ورينالـد فتزأورسن Fitzursen, وهيوج دي مورفيل Moreville, ورتشارد برتو Brito وكان هؤلاء فـرساناً أربعة جاءوا مـن نورماندي، حملهم الغضب على اقتحـام الجناح، وهددوا بـاسم الملك، الـذي كـان مقيماً في نورمـانـدي، وطـالبـوا بأن على رئيس الأسـاقفة أن يعيـد الأساقفـة الانكليز المجمـدين إلى مراكـزهم، وأن يحلل

المحرومين، فأجابهم: إنه ليس من صلاحية القاضي الأدنى إلغاء حكم الأعلى، ولايمكن لأي انسان أن يؤثر بما رسم به الكرسي المقدس، ومهما يكن الحال، إذا ماأقسم أسقفا لندن وسالسبري أنهما سوف يطيعان أوامره، سوف يحللهما من أجل سلام الكنيسة، ومن خلال الاحترام للملك، واستبد بهم الغضب الشديد، واربدت وجوههم، وبادروا نحو تنفيذ الجريمة النكراء التي دبروها،ومن أجل تنفيذها انسحبوا مسرعين.

ودخل رئيس الأساقفة إلى قلب الكنيسة، وذلك على الرغم من تحذير أعوانه،وكان الوقت قد قارب ساعة انشاد قداس العشاء، وهكذا تبع الرجال المتقدم ذكرهم، والعازمين على تنفيذ الجريمة خطوات رئيس الأساقفة، بعدما سلحوا أنفسهم، وعندما وصلوا إلى الكنيسة وجدوا أبوابها مفتوحة، تماشياً مع تعليمات رئيس الأساقفة التي قال فيها:

«نحن سوف لن نحوّل كنيسة الرب إلى قلعة، إنها ينبغي أن تبقى ملاذاً عالمياً في الأيام التي أطيح بها بالنظام فحلت الفوضى»، وفيما الحركة تغطي كلّ الجوانب، دخل الأربعة بوقاحة إلى الكنيسة، وبدأوا يصرخون: «أين الخائن للملك؟ أين رئيس الأساقفة»؟ وعندما سمع رئيس الأساقفة ذكر اسمه، نزل من الدرجة الثالثة أو الرابعة للمنصة لمقابلتهم، وكان لتوه قد بدأ يصعد إلى المنصة، وقال: «إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، إنني هنا»، ورد على أجوبتهم الخشنة: «أنا مستعد للموت، إنني أفضل تأكيد العدالة، وحرية الكنيسة، على حياتي، وأعلن أن أتباعي ليسوا مسؤولين ليكونوا عرضة للعقوبة، ذلك أنهم لم يكونوا المثيرين للحالة» وعندما اندفع منفذوا الجريمة نحوه بسيوف مشهرة، قال: «إنني أعهد بنفسي وبشؤون الكنيسة إلى مريم المباركة، حامية قديسي هذه الكنيسة، وإلى دايونيسيوس المبارك»(١٩).

وفي أيام حياة بكت قدم وليم فتزستيفن صورة رفيعة التلوين وصف بها مقتل رئيس الأساقفة من قبل الفرسان الأربعة.

وضربه أحد الفرسان بسطح سيفه بين كفيه، وهو يقول: «طر، إنك رجل ميت»، غير أن رئيس الأساقفة وقف دونما حراك وقدم رقبته [للقطع]، وأوقف نفسه وكرسها للرب، بينما كانت شفتاه ترددان أسماء رؤساء الأساقفة المقدسين الذين استشهدوا قبله، وصرخ واحد من الأعداء قائلاً: «أنت أسيرنا، تعال معنا» ووضعوا أيديهم عليه وأرادوا جره إلى خارج الكنيسة، ولكنهم كانوا يخشون أن الناس قد يتولون انقاذه من بين أيديهم، وأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «لن أتحرك من هاهنا، عليكم هنا اتمام عملكم وتنفيذ رغباتكم واطاعة أوامركم»، واصطرع معهم بقوة وارادة، وذلك بينما أمسك به الرهبان وردوه أيضاً إلى الخلف، وكان معهم أيضاً السيد ادوارد غرم Grim, وقد صب عليه سلاحه [ليصد الضربات]، ولقد تلقى أول ضربة بالسيف وجهها وليم دي تريسي نحو رأس رئيس الأساقفة، وجرح بهذه الضربة جراحة كبيرة رئيس الأساقفة في رأسه أثناء انحنائه نحو الأمام، وكذلك أصيب غرم اصابة بالغة.

ومسح رئيس الأساقفة بذراعه الدم الذي تدفق من رأسه، وقدم الشكر للرب قائلاً: «بين يديك، أضع أيها الرب روحي»، ولقد قال ذلك بعدما ركع، وكان يصفق بيديه، ويمدّهما نحو الرب، وتلقى ضربة ثانية على رأسه، سقط على إثرها منكباً على وجهه، إلى جانب المذبح الذي كان هناك، وكان مكرساً للقديس بندكت، ولقد اعتنى به ومنحه —على كلّ حال— النعمة في أن سقط بشكل مجيد، مغطى حتى عقبيه بردائه، وكأنه كان يصلي ويتعبد، ولقد سقط على الجانب الأيمن، وكأنه يتقدم نحو اليد اليمنى للرب، وفيما هو ممدد من اثر الضربة، ضربه رتشارد بريتو ضربة شديدة إلى حد أن السيف تحطم أمام الرأس وبلاط الكنيسة، وكان يردد حين ضربه: «خذ هذه الضربة من أجل حبي لمولاي وليم،

أخـو الملك» [الـذي حـرم تومـاس زواجـه من الكـونتسـة وورين Wa-renne] لقـد أصيب رئيس الأسـاقفـة المقـدس بأربع اصـابـات، تلقاهـا جميعاً على رأسه، وكانت كـلّ واحدة منها مميتة، فقـد فصل غطاء الرأس عن الجمجمة، ثم تمت مشاهدة كيف أن أطـرافه أطاعت حركات روحه، وظهر واضحـاً أنّ ماكان يدور في عقلـه، اختلج في جسده، وأنه في تصـديه للضربـات وفي محاولـة تجنبه لها لم يكـن يصارع ضـد الموت، بل تقبل الموت عن طـواعية، ولـرغبتـه في أن يكـون مع الرب، وليس نتيجـة ضربات قـاتلة مـن سيوف الفرسـان، ووضع واحـد اسمه هيـوج هورسي Horsea ولقبـه موكـلارك Mauclerk قدمـه على رقبة الشهيـــد الممـدد، وأخرج بـرأس سيفـه الدم والـدمـاغ من قحف الرأس المقطـوع، وكان هـذا مشهداً محزنـاً مرعبـاً، لم يسمع بمثله من حيث الـوحشية، من جـانب الذين يـدعون المسيحيين، وهبت عـاصفة مخيفـة تعلقت غيومهـا بقبة السماء، وهطل مطر سريع، وكانت هنـاك رعود تزمجر حول السموات، وتحول بعد هـذا لون السماء إلى أحمر قـانىء تجاوباً مع الـدم الذي سفك، وتعبيراً عن الرعب والغضب.

وتحدث ديسيتو عن الأحـداث التي تلت مقتل بكت، وهو وإن كتب بطريقة أقل إثـارة من طريقة فتزستيفن، كـان الغضب الشديد تجاه مقتل رئيس الأساقفة مايزال واضحاً.

ونهب روبـرت دي بـروك مـع أصحـابـه ممتلكـات رئيس الأســاقفـة، واستولوا على ثياب رجال الدين والخدم، لابل حتى استولوا على الأدوات من أيدي العمال، وهـربوا بسرعة كبيرة ومعهم جميع الخيول التي وجـدوها في الاسطبلات، وعدّوها بين الأسلاب.

وحمل جسد رئيس الأساقفـة الغارق في البلاط على الجانب الأيمن من مـذبح القديس بنـدكت، ووضع أمـام المذبح الـرئيسي، وكان ذلك عنـد الغسق، وهناك بـات ماكان معـروفاً فقط من قبل حاجبـه واضحاً لجميع

الحضور، ذلك أنه صحيح أن رئيس الأساقفة أخفى بهدوء ثوبه الرهباني، الذي ارتداه لـزمن طويل، بتغطيته بردائه الـرسمي، اهتم أيضاً في تطويع جسده بارتداء ثياب داخلية مصنوعة من الشعر، وكان اليوم التالي هو يوم الأربعاء، وراجت في الصباح الباكر لهذا اليـوم اشاعة شريرة، تأكدت فيما بعد، بأن المجـرمين الأشرار الذين نفـذوا جريمـة القتل قد تـآمروا على أن يجروا جسد رئيس الأساقفة ويخرجوه من المكـان المقدس، وأن يرموه خارج أسـوار المدينة ليمـزق من قبل الكـلاب، أو من قبل الطيـور، ولذلك قـرر راعي دير بـوكسلي ورئيس وأعضاء ديـر كنيسة كانتربـري قراراً حكيماً، في أن يقـوموا بـدفن الجثة وإن كـان الوقت متأخـراً، وبدا لهم أنـه لاتوجـد حاجة لغسلـه بالماء، خاصة وأنه كان نـال النقاء بسبب التقشف الطويل لرئيس الأساقفـة، لهذا مسح بقطعة من القماش الشعري، وقد تطهـر بدمه نفسه.

سنة إحدى وسبعين ومائة وألف

كان الملـك هنري ملك انكلترا في تلك الآونـة مقيماً في نورمـاندي، في أرغنتان Argentan, عندما حمل بعض الناس إلى مسامعه الاشاعات المؤسفة، انقلـب فوراً إثـر سماعه للقصة الشريـرة، إلى جميع أنـواع البكاء وضروب التعاسة، وبـدل ثيابه الملكية تبديـلاً كاملاً ولبس الأثمال ووضع على رأسه الـرماد، داعيـاً الرب القـدير ليكـون شاهـداً لصالـح نفسه، أن الفعلة الشريـرة لم تنفذ بـارادة منه، ولابعلـم منـه، كما أنها لم تكن واردة في مخططاتـه، مالم يكن قد أذنـب في اعطاء الشعور أنـه حمل قليلاً من الحب لـرئيس الأسـاقفة حتـى ذلك الوقـت، وعلى رأس هذا كلـه وضع نفسـه مباشرة أمام عـدالة الكنيسة، ووعد بكل تواضع في أن ينفـذ كلّ ما سوف

تقرره.

وأرسل الملك رسلاً إلى البابا للدفاع عنه، وليبرهنوا على براءته، ولم يرغب البابا في رؤيتهم، كما أنه لم يعانقهم، كما لم يسمح لهم بالركوع أمام قدميه، وحاول الرسل ثانية، فاستقبلهم بعض الكرادلة، لكن فقط للتحدث إليهم، ولهذا سقطوا في لجة من الفوضى لوقت طويل، وشعروا لذلك بالحزن وتدني المعنويات، لكنهم تابعوا تزويد الذين كانوا أكثر مواءمة بشكل مستمر، حتى يمكن بوساطة تدخلهم أن يقبل البابا بإعطاء بعضهم فرصة اللقاء به، غير أنهم لم يتقدموا في هذا المجال مطلقاً، واقترب حلول يوم الأربعاء المتقدم على عيد الفصح، الذي اعتاد فيه البابا، تبعاً لعادات الكنيسة الرومانية، إما أن يعلن عن حرمان عام أو تحليل من حرمان، ووصل إلى مسامعهم عن طريق بعض العاملين لدى البابا، أن البابا قرر بلا تراجع أن يفرض عقوبة الحرمان ضد ملك انكلترا بالاسم وضد جميع أراضيه على طرفي القتال.

وعندما حل ذلك اليوم حرم البابا بشكل عام القتلة الشريرين جداً الذين ذبحوا رئيس أساقفة كانتربري مع جميع الذين زودوهم بالمساعدة أو بالرضى، والذين يمكن أن يقدموا المساعدة لإيوائهم، ومع هذا بقي القتلة في نيرسبرا Knaresborough في مقاطعة نورثأمبريا North-umbria لمدة سنة.

وبدأ في حوالي عيد الفصح المولى يسوع المسيح، الموجود دوماً في قديسيه وفي كلّ مكان، يشع بشكل اعجازي على الحياة الجديدة بالمدح لشهيده الأعظم روعة، وأعني به توماس رئيس أساقفة كانتربري، ويشع أيضاً على ثباته الذي لانظير له في وجه الموت، وتجلى هذا بوساطة معجزات متوالية، وبذلك نجد أن الذي أوقف نفسه ونفوس أتباعه، وعاش مع الحرمان في سبيل حماية حرية الكنيسة المهددة، ينبغي أن يُعترف أنه قد حاز على نصر جدير بالتقدير.

وفي ٦آب وصل الملك الكبير إلى انكلترا، وكـان أثنـاء سفـره قـد زار هنري أوف بليـوس أسقف ونشستر، الـذي كان على فـراش الموت، ووجه هذا الأسقف النقـد واللوم إلى الملك بشأن وفـاة الشهيد الرائع، وتـوقع له أن يعاني كثيراً بسبب ذلك الموت، ومـات هذا الأسقف العجـوز، بعد أن اكتملت أيامه، في يوم ٨آب.

سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف

سمع في ليلـة عيـد الميـلاد رعد في ايـرلنـدا وانكلترا، وفي جميع أرجـاء فرنسا، وكان مفاجئاً وشديداً، منذراً بوقوع شيء جديد وغير اعتيادي.

ومنذ أن وصل الملك إلى ايـرلندا حيث نـزل إليها مع جيش في تشرين الثاني ١١٧١، ولمدة تقـارب العشرين أسبوعاً، لم يصل إليه ولا تقـرير من مملكته أو أي جزء من ممتلكـاته التي كانت واسعة جداً وعـريضة، والذي حال دون الوصول إليه وجود رياح مضادة مستمرة.

وبينما كـان الملك متأخـراً في ايـرلنـدا، بـدأ هيـوج أوف سينت مـور ورالف دي فيّ Fayes, وهـو عم الملكـة إليـانـور، في حـرف عقل الملك الشاب، وابعاده عـن أبيه، وقد قيل كان هذا بنـاء على نصيحة من الملكـة، وقـالا لـه: إنه لمن الـواضح أنـه من غير الـلائق أن تكـون ملكـاً ولا تمارس حكم المملكة.

وأصيب كثير من رجال جيش الملك هنـري الثاني في ايرلندا بـالاسهال في المعـدة، بسبب أكلهم لحماً جـديـداً وشربهم الماء، وهـو أمـر لم يعتـادوا عليه من قبل، ثم إنهم عانوا من نقص بالخبز.

وعنـدمـا فهم سكـان ايرلنـدا تمام الفهم كيف أن نـوايـا ملك انكلترا

تتعلق بـالكـامل في تأسيس السلم والحفـاظ عليـه، وأنـه لم يشجع على الجريمـة بـالتـورط بها، كما أنــه لم يسرع قط بإصـدار الحكـم على أحـد بالاعـدام، عند هذا وعنـدما جمعهم بمرسـوم صادر عنه التقـوا به للبحث حول السلم، لأنه لم يكن هناك مؤسسـات شعبية بينهم ولاسلطات قائمة يمكنها أن تمنحهم الأمـان، من خلال الخوف من العقـوبة، ولأنهم عـانوا مراراً من قتل آبائهم لبعضهم بعضاً في حـروب أهلية، فقاموا بنقل شؤون العـدالـة والسلطـة بينهم إليـه وفيـه، وهكـذا حصلـوا على السلم بسبب الملك.

ونظراً لأن العديـد من القضايا المختلفة استـدعت وجود الملك، ركب هنـري ظهر سفينـة عند حلـول الظلام، ووصل في اليـوم التالي إلى ويلـز، ورسا على مقربة من سينت ديفـد، وذهب من هناك مباشرة إلى بورتشستر دون أن يلتفت إلى اليمين أو إلى اليسـار، وكـأنـه بـريـد مستعجل، وهنـا صعـد إلى أحد المراكب، وقـال وداعـاً لانكلترا، وبعد عبـور لطيف وصل إلى نورماندي، وعنـدما وصلت أخبار قدومه إلى مسامع ملـك فرنسا، قال مندهشاً:

«في سـاعة ملـك انكلترا موجـود في ايـرلندا وفي سـاعـة ثـانية هـو في انكلترا، وفي ساعة تاليـة هو في نورماندي، لابد أنه طار ولم يسـافر بواسطة فرس أو سفينة».

وعنـدما وصل هنـري إلى نـورمانـدي بـادر على الفور إلى زيـارة ألبرت وثيـودين، وهما كاردينـالان وممثـلان للبابـا، وبعد منـاقشـات ومباحثـات طويلـة، أولاً في سيفني Savigny ثم في أفــرانشز Avranches, أقسم الملك بحضـور المنـدوبين أن مـوت الشهيد الـرائع تـومـاس لم يتم الإعداد لـه بالتـوافق مع رغباتـه، ولابمعرفتـه، ولم ينفذ بـوساطـة خططه، ولكن بما أن المجـرمين اغتنموا فرصـة قتل الرجل المقـدس بسبب كلمات تلفظها بـدون انتباه عنـدما كـان غاضبـاً بشدة، فإنه طلب بكـل تواضع

التحليل منهما، وقد منح مـاطلبه، وعلى هذا بـات هو في نظر الكنيسـة قد حظي بـالتحليل الكامل، ووعـد، بناء على رغبـات الكاردينـالين وأمرهما، أنـه سيـدفع ابتـداء من حلـول الصـوم وكلّ سنـة مبلغـاً من المال يكفي بتقدير فرسـان الداوية للدفع إلى مائتي فارس للـدفاع عن أراضي القدس لمدة سنة.

ووعـد أن دعـاوى الاستئنـافـات يمكـن القيـام بها بكل حـريـة، وأن الممارسات التي فـرضها حكمـه ضد حريـة الكنيسة سـوف تزال، وسيتم بـالكـامل رد جميع الممتلكـات العـائدة إلى كنيسـة كـانتربـري، تلك الممتلكـات التي نقلت بعـد مغادرة رئيس الأسـاقفـة صاحـب الذكـرى المقـدسة، كما سيسمح لـرجال الـدين وسـواهم من كلا الجنسين، الـذين غادروا المملكة تعاضداً مع تومـاس بالعودة بسلام من الملك وأن يستلموا جميع مقتنياتهم، ولوعوده هذه ولتنفيذه إيـاها، منح البابا الملك غفراناً من ذنوبه، وقـام الملك هنري الشاب ابن هنري الثاني بإقسـام اليمين والوعد مثلما فعل أبوه.

ووصل في آب التالي الملك الشاب وزوجته مـرغريت، ابنة لويس ملك فرنسـا، إلى انكلترا، وتوج رئيس الأساقفـة مرغـريت ملكة على انكلترا في ٢١آب، في ونشستر، ووضع التـاج الملكي على رأس الملك الشـاب مع أسقف افروكس Evreux وكـان يتلو معـه القداس وكـذلك فعل الأساقفة المساعدون العائدين لكنيسة كانتربري.

وبناء على طلب ملك فـرنسا ورغباته، جرى منع حضـور التتويج على رئيس أساقفة يورك، وأسقفي لندن وسـالسبري [لأنهم تولوا تتويج الملك الشاب أثنـاء غياب بكت عـام١١٧٠]، كما حظر عليهـم اعاقة التتـويج بأية طريقة من الطرق.

سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف

وخطب هنري الثاني، ملك انكلترا، لابنه جون المدعو Laukland [لأنه لم يعط شيئاً عندما وزع هنري الثاني ممتلكاته في ١١٦٩] الذي كان في السابعة من عمره، الابنة الكبرى لـ «همبرت Humbert» كونت مورين، التي ولدتها له أرملة الدوق هنري صاحب سكسوني، وبما أن هذا الكونت لم يكن لديه أمل بالحصول على ولد ذكر جرى وضع أربعة من قلاعه، المشهورة بأنها أفضل القلاع التي حصنها البشر أو الطبيعة تحت وصاية الملك، وذلك بناء على رغبته.

وبناء على نصائح شريرة قام الملك هنري ابن الملك، بالتخلي عن أبيه فغادر أرغنتان Argentan ليلاً، ولم يعلم عبيد والده الذين تولوا خدمته شيئاً حول ماحدث، وهكذا ذهب في ٢٣آذار عبر مورتان Mor-tagne —وهي قلعة عائدة إلى ثيوبولد كونت بورش— إلى ختنه الملك لويس ملك فرنسا، وكان والده في تلك الليلة نائماً في ألنكون Alencon وقد أوقظ وأخبر بفرار ابنه، فقام على الفور بامتطاء ظهر فرسه، وسار ومعه عدد قليل من أتباعه، على طول الحدود، حيث وضع قلاعه في حالة الدفاع، ومع تغييره لعدد من المطايا وصل عند الفجر إلى غيسور Gisors التي كان الملك لويس قد أعطاها إلى الملك الشاب بائنة [دوطة] عن ابنته مرغريت، واختار رتشارد دوق أكوتين وغيوفري دوق بريتاني، وهما الابنان الأصغر للملك، أن يلتحقا بأخيهما بدلاً من أبيهما، وقيل كان هذا لاتباعهما نصيحة أمهما إليانور، وبات هناك في كلّ مكان تآمر، ونهب، وحرق، وإذا ماأخذنا النذر من المواسم، نجد أن الابن حمل السلاح ضد أبيه في الوقت الذي كان فيه المسيحيون يلقون في كلّ مكان أسلحتهم، احتراماً لعيد الفصح، وشقاقاً من هذا النوع لايمكن أن ينتهي بسعادة(٢٠).

وجاء مـائة وأربعون فلمنكياً إلى قـرب باسي Passy وأغاروا على نورمانـدي باستخدامهم لأحد الجسور، وامتلأ المكـان على الفور بأصوات الأبـواق، وبصراخ النـاس، وبالـرجـال المسلحين يـركضون هنـا وهنـاك، وجعلت المقاومـة النورمانديـة الشجاعة الفلمنكيين يفكرون بـالانسحاب بأقصى سرعة ممكنـة، لكن الجسر الذي عبروا عليـه كان قد جـرى تدميره من قبل إحدى النسـاء الصغيرات، وكان الماء عميقاً في طـريق تراجعهم، وقد اندفعوا نحو الماء فغرقوا جميعاً، وعندما سمع ملك فرنسا بهذا قال:

«إن عناصر الطبيعة إلى جانـب النورمان، فعندما غزوت أنـا نورماندي آخر مـرة مات جـزء كبير من جيشي عطشاً، ويمكننـا اليوم أن نشكـو من كثرة الماء».

وأرسلت رسائل من الملك الكبير ومن الكـردناليين إلى انكلترا في ٦ تموز تحث على العمل من أجل كنيسـة كـانتربري، وعنـدمـا اجتمع الأساقفـة للتداول حـول هذا، قام أودو رئيس كـاتدرائية كـانتربري مع الجزء الأكبر من الديـر باصرار منـذ البدايـة في طرح رأي لم يسمع به مـن قبل، في أنه يتوجب اختيار رئيس الأسـاقفة من قبل جماعتهم، وأن يعلن اسمه بشكل عـام من قبلهم، وحيث أن هنري الثـاني كان آنـذاك مهتماً عظيم الاهتمام في أن يكون الانتخاب بدون اضطـراب، جرى اختيار اثنين من بين العدد الكبير للرهبـان وهما: أودو رئيس ديـر كانتربري ورتشـارد رئيس ديـر دوفر، وعندما قـدمهما الرهبان إلى الأساقفة، كانت كلّ رهبـانية تأمل في انتخاب رئيسهـا، وقام غلبرت أسقف لنـدن قبلهم جميعـاً وصب كثيراً من المديح على الرئيس أودو، ثم نـزل باتفـاق مع الأساقفـة ووقف في الجانب الآخر قائلاً: «لقـد انتخبنا الرئيس رتشارد»، وحـدث هذا كله في بيعة القـديسة كاترين بحضور قاضي الملك وبمـوافقة منه، وجرى بشكل علني في اليوم نفسه الذي انعقد فيه المجلس لانتخاب رئيـس أساقفة لكانتربري، تلاوة الرسالة التالية التي وصلت من البابا:

«من البابا الاسكندر، إلى اخوانه المحترمين رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وإلى أبنائه مطارنة الكنائس الأخرى، وإلى جميع رجال الدين مع شعب انكلترا، تحيات ومباركات رسولية.

نشرت انكلترا شذى ومحاسن المعجزات التي عملها الرب القدير خلال فضائل توماس المقدس والمبجل، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، ولقد أشعت حياته بمجد عظيم جداً، وقد ختمت أخيراً بالمعركة الرائعة للشهادة، ومامن واحد يسمع عن حياته التي هي موضع الاعجاب، ويقدر آلامه الرائعة، يمكنه أن يمتلك أدنى شك حول قداسته، ولإخبارنا بشكل مستمر من قبل جميع المؤمنين بأخبار المعجزات العظيمة التي لاتعد، والتي جرت من خلال فضائله، وتماشياً مع شهادات التقدير لكثيرين، نقرر هنا بكل إجلال، أمام المجمع الديني العظيم الذي ضم رجال الدين وغير الدين «تطويب» رئيس الأساقفة السالف الذكر، ورسمنا بادراج اسمه في جدول أسماء القديسين، وبناء عليه إننا ننصح، ونأمر من خلال سلطاتنا جميعكم أن تحتفلوا بوقار بعيد الشهيد الرائع السالف الذكر كلّ سنة في يوم آلامه.

صدر في سغني Segni, ١٣-آذار».

وما ان انتهت قراءة الرسالة حتى رفع الذين كانوا هناك أصواتهم بمديح الشهيد، والانتصار لصراعه الرائع، وأنشدوا: «الحمد للرب».

وبناء على تحريض من لويس ملك فرنسا ضم الملك الشاب إلى جانبه فيليب كونت فلاندرز وأخيه ماثيو كونت بولون، وقد كسبهما بوساطة وعود سخية، وحشدوا عدداً كبيراً من الرجال المسلحين فور الدعوة إلى ذلك وبأقصى سرعة ممكنة، وذلك للوقوف في وجه المقاومة الصادرة عن النبلاء الفلمنكيين، وهاجموا نورماندي في أبهة عظيمة، وجرى الاستيلاء على قلعة أوميل Aumale بسرعة كبيرة، وكان ذلك على حساب

سوء سمعة عدد من الناس، ثم شرعوا بحصار درنكورت Drincourt وهي قلعة جيدة التحصين، وكانت بأيدي نخبة من الفرسان، وجرى اقتحامها أيضاً، ثم وضعت تحت الحراسة، ثم تابعوا من هناك زحفهم نحو قلعة أركوي Arques وأصيب كونت بولون بجراحة قاتلة من قبل أحد المرتزقة، وحدث ذلك يوم عيد القديس جيمس ٢٥تموز، وكان الكونت فيليب راغباً بالعودة السريعة، ولقد كان بإمكانه وقتذاك العودة إلى بلده وهو فرح بالنصر، لولا أن ذلك العمل الخياني عتم على نجاحه، ولولا حدوث وفاة أخيه، التي وقعت بعد وقت قصير، مما أكد عدم تأكده من نتائج الحرب، ولهذا عاد من خلال منطقة ايو Eu التي كانت تحت الاشراف الكامل للملك الشاب.

وما أن سمع الملك هنري بأن فيليب كونت فلاندرز قد غادر نورماندي، حتى بادر على الفور إلى حشد جيش كبير قدر المستطاع، وقدّر انه إذا ماالتقى بملك فرنسا داخل حدود نورماندي يستطيع أن يشتبك معه في معركة.

ولدى سماع ملك فرنسا بهذا، ولمعرفته أن ملك انكلترا كان قوياً جداً، ويحمل مشاعر مريرة نحوه، مثله مثل دب سرقت جرائه، فأخذ يجول في الغابة وهو يزمجر غضباً، قرر أن أفضل طريق عملي ينتهجه من أجل رجاله ومن أجل نفسه، هو الفرار، وبناء عليه امتطى فرساً سريعاً، وتراجع منسحباً بالسرعة القصوى نحو فرنسا، وتركت الأثقال العائدة للفرنسيين لتنهب من قبل المحاصرين، والنورمان الآخرين الذين وصلوا إلى هناك، ونهبت في يوم ٩آب جميع المؤن والأطعمة التي جرى جلبها للجيش الفرنسي على ظهر الشاحنات والعربات وخيول التحميل من قبل المرتزقة البرابانكونيين Brabancon.

وطالب وليم ملك اسكوتلندا بأنه يتوجب على هنري الثاني أن يعيد إليه الممتلكات الموجودة في نورثأمبرلاند Northamberland التي

كـانت أعطية إلى جـده الملك داود، فهذامـؤكـد له بـوثيقة رسميـة، وهي الممتلكـات التي بالـواقع احتلها داود لعـدة سنوات، لكن مطلبـه رفض، ولـذلك جمع جيشـاً مـن الأعـداد الكبيرة للغـالـويين Galwegians وجعله تحت تصرفـه، وكان سـلاح هؤلاء خفيفـاً، وكانـوا رجالاً يتمتعـون بـالرشـاقة، يمكن تمييـزهم بسهـولة بـرؤوسهم الصلعاء، وكـانوا يحملـون سكـاكين على الجانب الأيسر،كـافية لإخـافـة أي جنـدي، كما أنهم كانـوا راغبين في رمي الرمـاح إلى مسافات طـويلة، واعتادوا على أن يـرفعوا رمحاً طـويلاً اشـارة على أنهم زاحفين نحو المعـركة، واستحـوذ الملك وليم على جواز آمن خلال ممتلكـات هيوج أسقف درم Durham وبدأ يعيث فساداً في انكلترا، ملقيـاً النار في المدن، ومستـولياً على كميـات هائلـة من الأسـلاب، وآخـذاً النســاء أسرى، وممـزقـاً الأطفـال نصـف أحيـاء بعـد اخراجهـم من بطون أمهـاتهم، وبغية ايقـاف هذه الفظـائع ومنعها، حمل النبـلاء الانكليـز السـلاح بـالسرعـة القصـوى، وأرغمـوا على الفـور ملك السكـوتلنديين على الفـرار، والانسحاب إلى اسكـوتلنـدا، وساروا في إثـره فدمروا بالنار جميع لوثيان Lothian وكل شيء وجد خارج أسوار المدينــة وقع في أيـــدي الانكليــز كأســلاب، وبنــاء على طلب ملك السكوتلنـديين جرى عقـد هدنة حتى ١٣كـانون الثـاني [١١٧٤]، وعاد النبلاء الانكليز منتصرين.

سنة أربع وسبعين ومائة وألف

قـام الملك الشـاب وبصحبته ثيوبولـد كـونت بيرشي Perche وكونـت ألنكون Alencon ومعهم حـوالي الخمسين فارسـاً، بمهاجمة مدينـة سيز Sees ولكن الـذي حدث أنـه مع أن سكان المدينـة لم يكن لديهم أمير أو قائد، قاوموا بشجاعة، وهكذا لم يتم تحصيل شيء.

وخشيـة من هنـري الثـاني من أن يقـوم الملك الشـاب، أو واحـد من الجيران على الحدود بمهـاجمة بـلاده والعيث فسـاداً في نورمـانـدي، عهـد بحمايـة نورمـانـدي إلى أقرب الأصـدقـاء إليه وإلى الـذين سلف لهم أن قدموا له تأييداً مخلصاً، وأخذ هو نفسه اثنين فقط من المرافقين هما:

أليـورد دي فافـاشي Alured de Vavaci وغيـوفري استـورمي Esturmi كإختبـار لإخلاصهما له، ودخـل في ٣٠نيسان إلى مين، فتـدفق السكـان عليـه من جميع الاتجاهـات ومنحـوه ولاءهم بكل شكل ممكن، سواء أكـان ذلك خشية من الحرب، أو خـوفاً من أي نـوع آخر من الأزمات، لابل حتى من مخاطرة بالحياة.

وهكذا ارتحل خـلال البلاد، وقـد أحاطت بـه أعداد كبيرة مـن الجند، فتـولى تمتين ثقـة النـاس بـه، وحث النبـلاء المحليين على الـدفـاع عن مناطقهـم وحمايتها، وعندمـا وصل إلى الحدود مع أنجو صرف كـلّ واحد كان معه باستثناء الرجلين اللـذين ذكرا أعلاه، ورحب الأنجيفيون بالملك بسرعة أكبر وبأعـداد أعظم من سكان مين، لأنهم خضعوا لرغبـاته بحب أكبر وباستعداد أعظم.

والآن وقد سار كلّ شيء طبقاً للخطـة، احتفل هنري بعيد الشعانين في بـواتيه، وعنـدمـا سمع أن جيش ابنـه رتشـارد كان يحتل مـدينـة سينتس Saintes أخذ سكان بواتيه معـه، وذهب مسرعاً ليفرج عن المدينة، ولم

يظهر جند رتشارد احتراماً للرب أو للكنيسة المقدسة، ودخلوا الكنيسة الكبرى وبأيديهم المشاعل ووسائل الإضاءة الأخرى، وحولوها على الفور إلى حصن، وملأوها بالسلاح وبمؤن الطعام، ووصل الملك إلى المدينة بسرعة أكبر مما توقع هؤلاء الجند، وأخبر أن المدينة مدافع عنها بوساطة ثلاثة حصون، وقد ركز أولاً القتال على المدينة، وتمكن في البداية من الاستيلاء على الحصن الذي بني منذ وقت بعيد عند مدخل المدينة، وتابع من هناك فهاجم القلعة بنجاح مماثل، وكانت قلعة أكبر من الحصن الأول، لكن أقدم بكثير منه، ووصل أخيراً إلى الكنيسة الكبيرة، التي اكتظت بجند مسلحين وامتلأت حتى حدود الانفجار بالرماة، وكانت مداسة من قبل حفظة بيوت الدعارة، ولاحظ وهو يقترب منها أنه إذا ماقترف شيء ضد الديانة المقدسة، سيعاني من ذلك كلّ انسان، ومع ذلك اقترب منها وهو لايريد أن يؤذي الكنيسة أو يقترف العنف ضدها أو الاستخفاف بها، بل أراد تنظيفها من الدنس، وسحب من الكنيسة الذين خرقوا حرمتها، لقد سحبهم جراً إلى خارجها، لأن كلّ من خرق حرمة القانون، عبثاً يثيره ضده، وألقى القبض على حوالي الستين من الفرسان مع نحو أربعمائة من الرماة من داخل هذا الحصن، وفي داخل الحصنين الآخرين.

ولمعرفة هنري ملك انكلترا بما كان يجري في فلاندرز قرر العودة، فأوكل أكوتين إلى ستة من النبلاء، وبنى على الحدود بين نانتس Nantes وأنغر Angers قلعة أنفق عليها كثيراً، وسميت أنسينس Ancenis ظهرت فيها جميع معارف وبراعة النجارين من أنجو ومين، وأوكل شؤون هذه القلعة بشكل خاص إلى موريس أوف كرون Craon وأسند إليه حمايتها، وأصدر عند وصوله إلى نورماندي مرسوماً في بونفيل سمى فيه جميع الذين عهد إليهم بأمور الحدود والذين جعلهم شحن لقلاعه.

وأقسم فيليب كونت أوف فلاندرز، أمام لويس ملك فرنسا ونبلاء المملكة، بوضع يده على بعض الآثار المقدسة، أنه سيقوم خلال خمسة عشر يوماً بعد مضي عيد القديس جون المقبل في ٢٤حزيران، بغزو انكلترا بقوة كبيرة، وأن يخضعها ويضعها تحت ولاية الملك الشاب، وتأثر الملك الشاب بهذا العرض للولاء، فذهب إلى وزانت Wissant يوم ١٤تموز ليرسل رالف أوف لى هي Haie إلى انكلترا مع جيش كبير، وبعث كونت فلاندرز بثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً أمامه من أجل العبور، والذين أرسلهم لم يكونوا ماحدث وتوفر من السكان المحليين، بل جنوداً ذوي خبرة اختير عدد كبير منهم من الفلمنكيين، وبعدما نزل هؤلاء في انكلترا في أورول Orwell يوم ١٥أيار، في وقت كان فيه حلفاؤهم في خطر، هاجموا من هناك نوروك Norwick يرافقهم إيرل هيوج، واستولوا عليها في ١٨حزيران، ونهبوها، وحملوا مبالغ ضخمة من المال، كما حملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى وأرغموهم على دفع فدية كبيرة.

وعندما رأى قضاة هنري الثاني سوء الأوضاع وترديها في انكلترا أرسلوا إليه عدداً كبيراً من الرسل عبر القنال، غير أنهم لم يتلقوا أية أجوبة مؤكدة بأن هنري قد خطط للعودة إلى انكلترا، وقاموا بمحاولة أخيرة بهذا الصدد فبعثوا رتشارد الأسقف المنتخب لونشستر ليتحدث إلى الملك، وكان رجلاً يعرفون بشكل مؤكد بأنه كان صديقاً حميماً للملك وقريباً منه أكثر من الآخرين، وكان بارعاً وعالي الحماسة، ويمكن الاعتماد عليه في أن يبين للملك جميع الخسائر، والمصاعب، والمخاطر التي تحملها شعبه، وأن يقدم له صورة صحيحة عن الصراعات التافهة للنبلاء، والحالة غير المستقرة في المدن، وتذمر الناس وضيقهم، الذي سيزداد سوءاً بحكم أنهم يتطلعون نحو التغيير، وقد يقومون بحركات سيكون من الصعب معالجتها.

وهكذا عبر الأسقف المنتخب القنال بسرعة، ووجد الملك في بونيفيل، عاقداً مؤتمراً عاماً مع النورمان في يوم ٢٤حزيران.

وعندما عرف النورمان أن الأسقف المنتخب لونشستر قد وصل، وعلموا سبب قدومه، قالوا: «بما أن الانكليز أرسلوا عدداً من الرسل، وأرسلوا الآن هذا الرجل، يبدو أن شيئاً ليس أقل من الهجوم على قلعة لندن قد استدعى الملك للعودة إلى انكلترا».

واستقبل الملك هذا الرسول الخاص بالحفاوة الجديرة به، وأظهرت الحوادث المدى الذي وثق به بكلماته، وناقش مع رفاقه في ذلك اليوم نفسه مسألة الدفاع عن حدود المنطقة وحماية القلاع، واستعد للعودة خلال أيام قليلة، ومعه جميع حاشيته وأهل بيته، ومصطحباً برفقته الملكة إليانور، والملكة مرغريت، وابنه جون وابنته جوانا وزوجات أولاده.

وأرسل أمامه إيرل تشستر، وكونتسة لستر مع عدد كبير آخر كان قد أخذهم أسرى إلى بارفلير Barfleur حيث توفر عدد كبير من السفن الراسية، وجمهور كبير ينتظر وصول الملك، وعبر جيش كبير من المرتزقة البرابانكونيين مع أسلحته وعتاده، القنال عند كوسترهام Quistreham وأسرع الملك إلى المرسى في ٨تموز، وتحركت السفن وأقلع في منتصف النهار، وما ان تحركوا داخل البحر، حتى أصبحت الأمواج تبدو قاسية، وهبت الرياح واستمرت كذلك، فجعلت البحارة مترددين بشأن العبور، وأظهروا أمام الملك مشاعر خوفهم، وعبرت وجوههم عن علامات الشك والدهشة.

وعندما علم الملك أن الرياح كانت تهب ضده مباشرة، وذلك عندما كانت السفن قد شرعت في أخذ طريقها المباشر إلى انكلترا، وأن عاصفة قوية تزداد سوءاً، عندها رفع عيناه نحو السماء وقال أمام كلّ واحد:

«إذا كان السلم بين رجال الدين والشعب هو غايتي، وإذا كان رب

السموات قد قضى باستعادة السلم عندما أصل، عندهايمكن برحمته أن يمنحني رسواً سالماً، لكن إذا كان معادياً، وإذا كان قد قرر زيارة المملكة بالعصا، ليكن حظي بعدم الوصول مطلقاً إلى سواحل بلادي».

ومن الممكن افتراض أن صلاته قد سمعت، ذلك أنه وصل في اليوم الذي أقلع فيه عند حلول الظلام إلى ساوثامبتون، مع كل شيء سليماً، وتناول هناك وجبة بسيطة من الخبز والماء، ووضع جانباً أعمال استرداد النظام، وتجنب مقابلة الشعب حتى يفي بوعوده التي قطعها على نفسه أثناء صلاته، بالقيام بالصلاة في مشهد الشهيد الرائع توماس.

وقام بعد برهة قصيرة برحلة سريعة عبر انكلترا، وعندما وصل إلى كانتربري قفز من على ظهر حصانه، وخلع ثيابه الملكية، وارتدى ثياب حاج تائب متضرع، وذهب في يوم الجمعة ٢٥تموز إلى الكاتدرائية، وهناك وسط الدموع المنهمرة والتنهدات والحزن الواضح شق طريقه إلى قبر الشهيد الرائع، وسجد أمامه ماداً ذراعيه نحو الأمام، وبقي هناك وقتاً طويلاً وهو يتضرع ويصلي، وخلال هذا الوقت، وأمام أسقف لندن الذي كان يعظ الناس، أعلن أمام الناس، وهو يدعو الرب ليكون شاهداً عليه، أنه لم يأمر، ولم يرغب، ولم يتآمر بشأن موت رئيس الأساقفة، ولكن بما أن القتلة قد أثيروا بكلماته التي لم يقدرها تمام التقدير عندما تلفظ بها، فقد سأل التحليل من الأساقفة الحضور، ووضع جسده للقصاص الصارم بالضرب بالعصا، وقد تلقى ثلاث، لابل حتى خمس ضربات من كل واحد من الرهبان بدوره، وكان قد اجتمع منهم عدد كبير.

ونهض من صلواته، ووضع عليه ثيابه التي خلعها من قبل، وقدم التمجيد للشهيد السامي القدر بهدايا ثمينة، وعين مبلغاً قدره أربعين جنيهاً ليكون ايجاراً سنوياً لتزويد وسائل الاضاءة بشكل دائم حول قبر الشهيد احتراماً له.

وأمضى بقية النهار ومجمل الليلة التالية في تأنيب النفس وندامتها، منصرفاً إلى الصلاة وعدم النوم، وتابع صومه لمدة ثلاثة أيام، وحيث أن ندامة الروح، والأسف العميق، وتواضع الروح هي التضحيات التي ترضي الرب أكثر من أي شيء، في كل وقت، وذلك تقليداً للملك داود، كان يدعو بشكل متواصل قائلاً: «لقد أذنبت ضد الرب، لقد أذنبت ضد الرب»، ولهذا استحق أن يسمع من النبي كلمات: «لقد غفر لك الرب أيضاً ذنوبك».

ولاشك أنه الآن قد أرضى الشهيد، ويمكننا القول بأمان بأن ذنبه قد غفر وأزيح عنه، ففي ذلك السبت بالذات، عندما صلى من أجل أن يظهر توماس الرحمة نحوه، ألقى الرب بين يديه وليم [الأسد] ملك السكوتلنديين، فقد استسلم إليه ليكون معتقلاً لديه في رتشموند، وبذلك تحققت نبوءة [ميرلين Mirlin] التي قال فيها: «سيعثر بين فكيه على قطعة لفقت في خليج أرموريكا Armorica» ولقد أراد بخليج أرموريكا قلعة رتشموند، لأنها كانت قد احتلت من قبل أمراء بريتانيين بوساطة قانون الوراثة الآن والذي كما هو منذ قديم الزمان.

ووصف جوردان فانتوسمي Fantosme قبل ١١٨٣ في تاريخه المنظوم ردة الفعل البهيجة لهنري الثاني لدى اعتقال وليم الأسد:

وهكذا رافقوا الملك حتى

وستمنستر

وأبدى اللندنيون سروراً عظيماً لدى وصول

مولاهم

وأعطوه الهدايا وقدموا له الاحترام العظيم

غير أنه كان حزيناً ومهموماً إلى حدما

بسبب ملك اسكوتلندا الذي تصرف
بشكل مجنون
وروجر دي ماوبري Mowbray وهو مقاتل نبيل
الذي كان يعاث فساداً في أرضه ليلاً ونهاراً
وقبل أن تحل ساعة ذهابه إلى الفراش
وصلته قطعة من الأخبار كسب منها
شرفاً عظيماً
دخل الملك إلى حجرته الخاصة
عندما جاء الرسول، عانى من
كثير من المتاعب
هو لم يشرب ولم يأكل لمدة ثلاثة أيام
من الأسبوع
ولم ينم ولو للحظة واحدة بسبب بعض الأخبار
بل أنهك نفسه في الليل والنهار
بالترحال.
لقد عمل بشكل حكيم جداً وسينال جائزة جيدة
كان الملك متكئاً على مرفقه وقد نام قليلاً
ووقف خادم عند قدميه وأخذ يمسحهما بلطف
لم يكن هناك صوت ولاصراخ، كما لم يكن من

بتكلم هناك

ولم يكن أيضا لاطبل ولامزمار ولاأي شيء يصدر عنه صوت

في تلك الساعة.

عندما وصل الرسول إلى الباب وبلطف

دعا

وقال الحاجب: من هناك؟

أنا رسول، صديقي، جئت الآن مسرعا عبر هذا الطريق

لورد رانولف غلانفيل بعث بي إلى هنا

حتى أتكلم مع الملك، لحاجة ماسة

تعنيني من أجلها

وقال الحاجب: دعْ العملَ الآن

حتى الصباح

وقال الرسول: بحق إيماني، أنا سوف

أتكلم إليه الآن مباشرة

في قلب مولاي حزن وأسى

لذلك دعني ادخل أيها الحاجب الجيد

فقال الحاجب: أنا لن أجرؤ

أن أفعل ذلك

الملك نائم، عليك الانسحاب

وفيما هما يتكلمان، أفاق الملك

وسمع صراخاً عند الباب: افتح.. افتح

وقال الملك: من هذا، هل يمكنك اخباري؟

وقال الحاجب: سيدي، ستعرف

مباشرة

إنه رسول من الشمال، حسناً

إنك تعرفه

رجل من عند غلانفيل، اسمه

هو برين Brien

وقال الملك: بإيماني، أنا الآن مرتبك جدا

إنه يحتاج للعون، دعه يأتي إلى هاهنا

ودخل الرسول الذي كان من أصل طيب

وحيا الملك قائلاً كما ستسمع بعد قليل:

سيدي الملك، علّ الرب الذي يسكن

في التثليث يحفظك

يحفظ شخصك أولا، ثم جميع

أصدقائك المقربين

وقال الملك: برين ماالذي تحمله من أخبار؟

هل دخل ملك اسكوتلندا إلى رنشموند؟

هل جرى الاستيلاء على نيوكاسل الواقعة على التاين، وكذلك

على الحصون؟

هل أودنيل أوف أمفـــرافيل Odinel of Umfravile أسر وحمل بعيداً

وجميع باروناتي طردوا من ممتلكاتهم؟

بإيمانك أيها الرسول، أخبرني الصدق

لقد خدموني بسوء، لذا يمكن أن

يعاقبوا بسببها.

ثم قال الرسول: سيدي، اسمعني قليلاً

باروناتك في الشمال أناس طيبون مستقيمون

باسم مولاي تلطف واصغ إليّ

لقد بعث لك بوساطتي تحية وصداقة

وبعثت بتحيات أكبر مولاتي التي تعرفها

أنت معرفة جيدة

لقد أرسل معي يقول لك: إنك سوف تقترف

خطأ في تعذيب نفسك

لقد جرى أسر ملك اسكوتلندا وجميع باروناته

فقال الملك هنري: هل تقول الصدق؟

نعم ياسيدي، الصدق، وفي الصباح سوف تعلم بذلك:

رئيس أساقفة يورك، رجل حكيم ومتعلم
سيبعث إليك باثنين من المبعوثين الخاصين
لكن أنا بدأت أولاً، وأنا الذي أعرف الصدق
لم أنم سوى قليلاً خلال الأيام الأربعة الأخيرة
كما أنني لم آكل ولم أشرب، لذلك أنا جائع جداً
لكن، من فضلك أعطني جائزة لإخباري إياك
ورد عليه الملك: ستكون مخطئاً إذاً
شككت بذلك
إذا كنت قد أخبرتني الحق، ستكون غنياً بما فيه الكفاية
هل جرى أسر ملك اسكوتلندا؟ أخبرني الحق
نعم ياسيدي، بإيماني، لأصلب
على الصليب
أو أشنق بحبل، أو أحرق على نار عظيمة
إذا غداً، قبل الظهر، لم يتأكد هذا كله
عندها قال الملك: الحمد للرب من أجل ذلك
وللقديس توماس الشهيد ولجميع
قديسي الرب
وبناء عليه ذهب الرسول إلى مضافته
وكان لديه الكثير الوفير ليأكل وليشرب

وكان الملك في تلك الليلة فرحا مسرورا إلى حد

أنه ذهب إلى الفرسان

وأيقظهم جميعا قائلا:

أيها البارونات، استيقظوا، إنها ليلة طيبة بالنسبة لكم

لقد سمعت شيئا سيجعلكم جميعا مسرورين

وقع ملك اسكوتلندا بالأسر، هكذا

صدقا أخبرت

الآن للتو وصلت الأخبار إلي، عندما نوجب

أن أكون في الفراش.

وقال الفرسان. الآن شكرا للمولى الرب

الآن انتهت الحرب، ومملكتك

في سلام

وبدت هذه الليلة جميلة جدا للملك هنري

وفي اليوم التالي، قبل الظهر، الأخبار نائمة

وصلت إليه

من رئيس أساقفة يورك، الذي

يدعونه روجر

الذي حبا مولاه واهتم بالاخلاص

عندما رأى الملك الرسل، لم يكن قط

أعظم سروراً

وخمن أنهم سيقولون الشيء نفسه، ولهذا

أجابهم:

سمعت الأخبار في الليلة الماضية عندما كنت

قلقاً جداً

للذي جلبها إليّ جائزة

سوف تعطى

وتناول عصاً صغيرة، وأعطاها لبرين

عشرة من أرضه سوف يعتقون للمتاعب

التي قاساها

ونعود الآن إلى رواية ديسيتو عن حملات هنري الثاني ضد أعدائه.

الآن وقد نفذ جميع الوعود التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، بكل تقوى، عاد الملك الكبير، ومكث قليلاً من الوقت في لندن، حيث اكتشف أن النبلاء الانكليز قد قدموا لمواجهته هناك، عندها انطلق على رأس قوة، ووصل إلى هنتنغدون Huntingdon فاستولى على القلعة التي كانت تحت الحصار منذ ٨أيار، وحدث ذلك في اليوم التالي لوصوله.

واستولى نبلاء نورثأمبرين Northumbrian ومعهم ابن الملك، والأسقف المنتخب للنكولن، الذي كان قائدهم، على كيركباي مالزيرد kirkby Malzeard وعلى قلعة روجر ماوبري Mowbray بالقوة، وعندما جمع الملك جيشاً كبيراً في بري سينت إدموند، مع حشد

من الجند كان يتدفق من جميع الاتجاهات، أمرهم، بناء على نصيحة عامة، القيام بحصار قلعتي هيوج بيغود Bigod إيرل نورفولك: فراملنغهام Framlingham وبنغي Bungay وكان لدى الإيرل خمسين فارساً، وجيشاً جيد الحجم، لكنه بالواقع أدنى كثيراً بالقوة، ويائساً من قدوم أي انسان لمساعدته، ولهذا أرغم بسبب الضرورات على أن يقدم رهائن وأن يدفع مائة قطعة ذهبية حتى يحصل على السلام من الملك، وفي يوم ٢٥ تموز قدم الولاء للملك، وأقسم على الاخلاص له، وجدد تابعيته له.

وكان ماحدث لجيش الفلمنكيين، الذي أعده الكونت فيليب ليرسله أمامه إلى انكلترا قبل قدومه إليها، وذلك بعدما كان قد أعطى وعداً مؤكداً للملك الفرنسي بوضع يديه على بعض الآثار المقدسة: فقد أقسم يميناً بعدم غزو انكلترا بقوة معادية، وعاد أفراده إلى بلادهم بناء على إذن من هنري، وغادر أيضاً جيش الملك الشاب الذي كان تحت قيادة رالف أوف لي هي، بدون اعاقة ومعه أسلحته وعتاده، وهكذا حدث في الساعة الحرجة، من خلال تدخل القديس توماس الشهيد، أن بات الملك الكبير مسيطراً على جميع انكلترا، والآن وقد حاز ذلك فقد أقلع يوم ٧آب من بورشستر Porchester ومعه ملك السكوتلنديين، ووصل في ١١آب، بعد رحلة موفقة إلى روان، التي وجدها تحت الحصار.

وكان لويس ملك فرنسا، والملك الشاب، وفيليب كونت فلاندرز قد جمعوا القوات من جميع المناطق، فتوفر لديهم جيشاً كبيراً، وهكذا خلفوا السين على يسارهم، وحاصروا روان في ٢٢تموز، آملين أنهم إذا استولوا على روان، يمكنهم إزالة ماتلطخوا به من عار سببه خرق اليمين أثناء الحصار الفرنسي لفيرنويل Verneuil والعمل الخياني الذي شغل الدور فيه وسببه الفلمنكيون أثناء حصار درنكورت Drincourt وقاوم النورمان الذين توفر منهم الآن قلة مقارنة بالحشد الكبير الذي

وصل، بشجـاعة، واعتمـدوا على دفاعـات الأسوار، واستخـدموا حجـارة مـربعـة، وقطع طـويلة مـن الخشب مـدببة، فأرغمـوا الأعـداء على فـرار طويل، وذلك بعـدما هاجم هـؤلاء الأعداء الأسوار الخارجيـة بتشكيلات قتاليـة واستخدمـوا آلات الحصار، ولم يعـرف الذيـن كانـوا تحت الحصار الاستراحة، واستطاعوا أن يضعـوا قوتهم تحت الاختبار بنشاط أكبر واصرار، وتبادل الفـرنسيون والفلمنكيـون حملات القتال، وعنـدما شرع الفـرنسيون يضعفون شجع الفلمنكيـون أنفسهم وانخرطوا بالعمل، واستخـدموا كلّ مـالديهم من قـوة للغم الأسـوار، وبقي النورمـان غير هيـابين لتهديـدات الأعـداء وهجماتهم، واثقين من تـوقعـات النصر، ونجـوا من الهجمات المتـواليـة والاشتباكـات الحادة بكل ثبـات، وكـان عـددهم يزداد يـومياً، وكـانت المؤن والأطعمـة لديهم وفيرة، وفي الجانب المقـابل أخـذ كثير من الناس بالفرار من الجيش كلّ يوم، لأنهم كانوا تحت خطر المجاعة.

واستمرت هـذه الحالة الحرجة لأيـام كثيرة، حتى تسلم الملك الفرنسي تقارير معتمدة أن ملك انكلترا قـد اقترب من روان في قوة معتبرة، وهكذا آل إلى حـالـة رعب وحيرة، ذلك أنه بـات خـائفـاً حسبما استخلص من الأقـاويل، أن الملك سـوف يهاجم فـرنسـا ويلقي الحصـار على بـاريس، وبحث مع مستشـاريه حـول أفضل طريقـة لايقاف الحصـار، بدون أذى لأنفسهم، وبعـد اتخاذ قـرار عـام، أقـدم الفـرنسيـون مع الفلمنكيين على احـــراق آلات حصـــارهم، وعلى تمزيـق خيمهم،، وعلى إلقـــاء النـــار في أكواخهم وفي أبنية الأسواق، وفي يوم ١٤آب تـراجعوا وانسحبوا من قرب المدينة، وذلك على الـرغم من موت الاشـاعات والأقـاويل، وبهذا أزاحوا جـانباً جميع تهديـداتهم، وتبجحاتهم، وقطعهم العهـود على أنفسهم بهدم روان، العهود التـي غالبـاً ماقطعوهـا بحماقة وعجلـة، وهاجم أنـاس من منطقـة الحدود الجزء الأقصى من التحصينات ونهبـوا بسرعة أعـداد كبيرة من السلاح وكذلك العتاد.

وكـان الفرنسيـون قلقين بشأن النفقات، كما كـان الفلمنكيون خـائفين على حياتهم، لذلك اجتمعـوا معاً للبحث حول الأضرار التي لحقت بهم، وبما أن الفـريقين رأيـا أنهما يبـددان جهـودهما قـررا ايقـاف الهجـوم على النـورمـــان والانسحــاب من الحدود، ونظــروا نحـــو سلمهم أنفسهم وهـدوتهم، لـذلك قـرروا بذل أقصى مـايستطيعـون لـردم الهوة بين ملك انكلترا وبين أولاده، ويمكنك القـول: إن الأولاد قـد أضروا قضيـة أبيهم، وجلبوا بغضـاء رجال الـدين ولعنة النـاس، ومع هذا ينبغي العفـو عنهم لأنهم كانوا شبابا.

وتوجه الـرئيس المنتخب لأساقفة كانتربـري إلى روما بغية تجنب كمائن الانشقاق. وكـان العالم بأسره مرعوبـاً في هذا الوقت من الاصابـة بعدوى صـادرة عن غيـوم الهواء الفاسـد، وكـانت تسبب سعـالاً عامـاً واسهـالاً بـالمعـدة، وكـان هذا خطـراً بـالنسبـة للجميع، وأدى إلى مـوت كثيرين، ووصل إلى رومـا، وبعـدما اجتـاز مـاوراء حـدودهـا، ذهب ليجد البـابـا الاسكنـدر —الذي كـان آنـذاك حياً— في أنـاغني Anagni ووجد هنـاك في البـــلاط نـوابـاً للملك الشـــاب مضـادين لـــه، ويفعلـون كل مـايستطيعون لتسـويد صـورة الأسقف المنتخب، وأخيراً طرحت مسألـة: مـوافقـة من على الانتخابـات والاجـراءات التي أعقبتهـا ستفضل؟ أهي مـوافقـة الملك الكبير أم الملك الشـاب؟ واستغـرق النقـاش حـولها وقتـاً وبحث فيها بـاستمرار، وبدا أنه تم التـوصل إلى حل عادل لها، ثم أثيرت شكـوك كبيرة حول ولادتـه، وهنـا أقسم عـدد كبير من الـرجال العقـلاء، الـذين توفـر عدد كبير منهم إلى جـانب رئيس الأسـاقفة، على الأنـاجيل، أنهم لم يسمعـوا لاقبل الانتخـاب ولاخـلالـه أكثـر من أنـه تم الحمل بـه وولادتـه على فـراش زواج شرعي، وبعـد هـذا جـرى في ٢ نيسـان تأكيـد الانتخاب.

وعاد رئيس الأساقفة إلى لندن، وجـرى استقباله بحفاوة من قبل حشد

من بـارونـات انكلترا، احتشـدوا هنـاك يـوم ٣أيلـول، لكن بسبب أن السعادة غالبـاً ما مزجت بالحزن، ما ان أكمل رحلتـه بسعادة حتى دمرت —يالأسف— كاتدرائية كانتربري بالنار يوم ٥أيلول.

وجرت دعـوة أعيان الكنائس الشاغـرة للاجتماع بغية انتخاب أسـاقفة لأنفسهم، وبما أن منـدوبي الملك الشـاب قـد أخبروا البابـا بأشيـاء كثيرة حـول الأسقف المنتخب لكنيسة إيـلاي Ely وخشية مـن الاساءة إلى سمعته وتشـويهها بين النـاس الطيبين، أقسم في احتفال مهيـب جرى في بيعة القـديسة كـاترين في وستمنستر أنه بـريء من موت رئيس الأسـاقفة تومـاس، وأنه لم يعرف شيئاً عن الموضوع ولم يشارك بـه لابقول أو عمل، وأنه لم ينم بعذ سيامته مع أية امرأة.

رفض هنـري الملك الكبير الطغيـان بقلبـه وروحه، وعـدّ من واجبـات الجلالـة الملكيـة ابعـاد رعـايـاه عن الجولان حـول البـلاد، لسلب الفقير، وايـذاء الأرامل واليتـامى، واغتصـاب العـذارى، واهتـم بشكل خـاص بمنعهم عن سفك الـدمـاء، فضـلاً عن هـذا لقد عـرف أن التـذلل غير الاعتيـادي الذي أبـداه الفـرنسيون والفلمنكيـون ورغبتهم في صنع سـلام بينـه شخصيـاً وبين أولاده صـادر عن عجـزهم عن مقـاومتـه، وكـان سيتجنب الفرنسيين حتى عنـدما يحملون الهدايا، مالم يكن قـد أغري بأي نـوع من الاذلال والتحالف مـع أعداء من هـذا النـوع، من خلال رؤيتـه المستقبلية بإمكانية استدعـاء أولاده —الذين كاد كلّ واحد منهم أن يظن أنهم ضلـوا بـالفعل— إلى ثمار حيـاة أفضل، أولاده الـذين أحبهم كثيراً، والـذين جعل منهـم سـادة لكثير من الأمم، والـذين لم يتـوقف قط عن محاولة رفعهم إلى أعلى مـراتب الشرف، حتى يكبحوا النـاس، ويحكموهم بحكمة، ولإرعاب الطغاة، ومحق أعدائه.

وبما أن أعـداءه كانـوا يتفوهـون كلام سـلام، وأرادوا التباحث معـه، ذهب لمقـابلتهم في ١١ تشرين أول، بين تـور وأمبـويـز ***Amboise***

والذي ظهر قد نشر في الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى جميع رعاياه المخلصين، التحيات:

اعلموا انني بنعمة من الرب قد أقمت سلاماً مع الملك الفرنسي، ومع أولادي ورجالي، في سبيل تمجيد الرب ومجدي، وتم الاتفاق بأن أعطي ابني الأكبر هنري خمسة عشر ألف قطعة ذهبية من الأموال الأنجيفية كلّ سنة مع قلعتين في نورماندي حسب رغبتي، ولسوف أعطي رتشارد نصف دخل بواتيه مع قلعتين لايستطيع منهما إلحاق الأذى بي، وإلى غيوفري نصف دخل بريتاني، ولقد عاد جميع رجالي الذين تركوني إلى طاعتي والولاء لي، وذلك بحضور أولادي وبأمر منهم، وقد أقسموا يمين التبعية لي ضد جميع الناس، وسيحتفظون بالأراضي التي كانت بأيديهم عندما تركوني، إن ملك اسكوتلندا مع ايرلي ليستر وتشستر مع آخرين عقدوا اتفاقات معي أو أعطوني رهائن قبل هذا السلام، هم تحت رحمتي، وخارج هذه الاتفاقية مع أولادي، أما الرجال الذين أسرتهم، والذين لم يقدموا رهائن ولم يعملوا اتفاقية، سوف يحررون، على أساس ضمانات أمنية جيدة وبناء على طلب أولادي، وعادت إليّ جميع القلاع التي كانت بيدي أو بأيدي رجالي في بلادي عند بداية الحرب، وجميع القلاع التي حصنت ضدي سوف تعود إلى ماكانت عليه عندما بدأت الحرب».

ووضع الرب في أيدي الملك الكبير لدى هزيمته لأعدائه تسعمائة وستة وتسعين فارساً، لم يرغمهم على دفع فدية أنفسهم بالمال، وفي الحقيقة فك أسار المهزومين من الأغلال إذا قدموا له رهائن، أو لمجرد اعطائهم كلمتهم، وكانت هناك قلة حفظت بالاعتقال الشديد، وهم الذين تدفع جرائمهم الهائلة وماسببوه من كراهية كبيرة، تدفع أكثر

الأمراء رحمة إلى الغضب والتفكير بالعقوبة.

ومن جانب آخر أطلق الملك سراح الذين أسرهم هو أو حلفاؤه، أو الذين اعترض سبيلهم بموجب قانون الحرب أو الوسائل الأخرى، وجاء اطلاقهم مقابل المال، وقد تجاوز عددهم المائة قليلاً.

ولوحظ يوم ٤ تشرين ثاني، في حوالي منتصف الليل، ولمدة ساعة وأكثر أن لون السماء الشمالية كان أحمر بلون الدم.

ووضع وليم ملك السكوتلنديين بالأغلال واعتقل في نورماندي، وقد سمح له أن يزار من قبل حشد كبير من رعاياه، وأقام الأساقفة ورعاة الديرة والإيرلات والبارونات العائدين لمملكته سلماً مع الملك الانكليزي في فالونز Valognes يوم ٨ كانون الأول.

وقدم ملك السكوتلنديون الولاء لهنري الثاني، وربط ورثته في أن يفعلوا الشيء نفسه، ووعد أن تكون الكنيسة السكوتلندية خاضعة للكنيسة الانكليزية، وأنها لن تؤوي لاجئين معادين لانكلترا، وكعلامة أخيرة على خضوعه سلم قلعتي روكسبرغ Roxburgh وبيروك Berwick إلى رجال هنري الثاني.

وكان لغيوفيري، أبو هنري الثاني، وكونت أنجو، ابنة تدعى إمّا Emma ولدت له بشكل غير شرعي تماماً من اتصاله بسيدة من لامانس، وعرف داود أمير شمالي ويلز بأمرها وأنها أخت هنري، فطلب منها أن تكون زوجته، وقد حصل عليها بعد إلحاح شديد، وقد استهدف من وراء ذلك اعطاء الفخار إلى أولاده بالانحدار من بيت ملكي إذا مارزق أولاداً، وأن يدخل الرعب إلى قلوب الويلزيين بسبب أقربائه الجدد.

سنة خمس وسبعين ومائة وألف

ترك وليم ملك اسكوتلندا رهائن في نورماندي، ورجع إلى انكلترا في ١١ كانون الأول [١١٧٤]، وقد بقي حراً دون سجن حتى يتم تسليم القلعتين اللتين ورد ذكرهما في الاتفاقية إلى حفظة تابعين لملك انكلترا حسبما تم الاتفاق.

وجرت إزالة جميع القلاع في انكلترا ونورماندي التي اعتقد الملك أنها ظلمت الفقراء خلال الصراع الطويل مع أبنائه.

وهكذا أمكن لأبناء ملك انكلترا، الذين أبعدتهم آراء الرجال الفاسدين عن أبيهم، أن يعودوا إلى الرعاية وإلى حياتهم القديمة والطبيعية، ولهذا قرروا ازالة جميع الشكوك بتقديم الولاء والطاعة لأبيهم، وقدم ذلك أولاً الولدان الأصغر: رتشارد وغيوفري في لاماناس، وبعد هذا فعل ذلك أيضاً الملك الشاب في بور Bur يوم ١ نيسان.

وجاء ملكا انكلترا معاً، وهما اللذان في السنة الحالية لم تكن المملكة كبيرة بما فيه الكفاية لاستيعابهما، وعبرا إلى انكلترا في مركب واحد يوم ٩ أيار، ولقد أكلا معاً في الأوقات المعتادة للطعام على المائدة نفسها، وأراحا أطرافهما في غرفة النوم نفسها، وأكرم الشهيد الكاشف توماس وفادتهما معاً بالتساوي أثناء حجهما إلى كانتربري، يوم ٢٨ أيار، ولقد اعتنى بهما بالطريقة نفسها، باستثناء أن الملك الكبير مكث طوال الليل مستيقظاً، وهو يصلي، وظل صائماً يعذب نفسه حتى اليوم الثالث.

وقيل بأن فيليب كونت فلاندرز أمسك وولتر أوف فونتين Fon-taines في حالة زنا مع زوجته الكونتسة ايزابل، فعرضه للضرب حتى الموت في ٢ آب، وبادر إلى تعليق جسده بشكل معكوس فوق مقعد مرحاض، رابطاً قدماه مع بعضهما، وحضر بسرعة مشنقة، وهكذا لم يفقد

شيئاً من الوحشية، واكتمل غضبه ضـد الرجل الميت، فأمر بعرضه بشكل عام لينظر الجميع إليه.

وكـان جون عميـد سـالسبري قد دعـي إلى تسلم الأسقفية في آينشـام Eynsham يـوم ٢٦تشرين الثـاني، فاستلم حكم كنيسـة شرق أنغليـا Anglia بموافقـة الشعب من نوروك Norwick وبرضا الملك، ومباركـة رئيس الأساقفـة، وبموجب سلطات الكـاردينال، وتمت سيـامته من قبل رئيس أساقفة كانتربري في لامبث Lambeth يوم ١٤كانون الأول.

وحـول الملك الكبير نظـراته نحـو حـاجيـات أولاده، ودفع عن الملك الصغير ديونـاً هائلـة، فقد تم الاعتراف بكل مـاأخذه وزراء الملك الكبير من أجل استخدامات الملك الصغير على الطعـام والشراب في نورماندي، ومين، وأنجو، وذلـك خلال السنوات الثـلاث التي مضت، وعندمـا دفع خازن الملك تماماً لكل شيء، جرى صرف الدائنين.

سنة ست وسبعين ومائة وألف

عين الملك، بنـاء على نصيحـة ابنـه، ومـوافقـة أسـاقفتـه، والإيـرلات والبارونـات، والفرسـان والرجال الآخـرين الذين كـانوا حضـوراً، قضاة، ثـلاثـة لكل واحدة من منـاطق المملكـة الستـة، وقد أقسمـوا على تـوفير العدل لكل انسان، وقد تم هذا يوم ٢٦كانون الثاني في نورثأمبتون.

وبناء على أوامـر صدرت عن الكاردينال هيـوج بيرليوني Pierleoni اجتمع رجـال الـدين لجميع انكلترا في لنـدن يـوم ١٤آذار، ووقف رئيس أساقفـة يورك ضد رئيس أسـاقفة كـانتربري، مدعيـاً أن البابا غـريغوري

الكبير قال: «ليكـن هناك تمييـزاً في المكانة بين أسقفـي لندن ويـورك تبعاً لـدرجـة قـدم السيامـة»، وطـالـب بتطبيق ذلك على كـانتربـري ويـورك، واستمر يقـول إنه بحكم سيـامته ينبغي أن يجلس على يمين الكـاردينال، ومن جانب آخر قـال رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيستـه امتلكت الرتبة والتقدم والـرفعة تماشياً مع أوضاع الآبـاء الكنسيين، ومع المراسم الملكية، والامتيـازات البـابــويـة، لـذلك ادعت دومـــاً بحق أنها الأولى بين جميع كنائس انكلترا.

ومع استمـرار الأسقفين في عملهما الغبي هـذا، جلس في يوم الثـلاثـاء التالي الكـاردينال في بيعـة القديسـة كاتـرين في وستمنستر، ووصل رئيس أساقفة كانتربـري، يساعده أسقف إيلاي Ely وماكاد يجلس على يمين الكاردينـال، حتى انفجر قتـال فيما حول المكـان، وازداد الاضطراب والشجـار سـوءاً، وارتفعت الأصـوات، وتعاظم التهـديـد، وجـرى ضرب بعض النـاس، فغـادر الكـاردينـال مسرعـاً جـداً، وجـرت مهـاجمة رئيس أساقفة يورك شخصياً، وقد قال بحضور الملك والكاردينال:

يقع اللومُ على تسبيب الجراحة له، وتمزيق ثيابه، على أسقف إيلاي.

ولهذا السبب كانت هنـاك اتهامات ودعاوى من كـلا الجانبين، وجرى اهمال المجلس والتخلي عن الاجتماع، وتكلم الكاردينـال إلى رجال الدين والشعب في الســاحـة الــداخليـة لـوستمنستر، وطــالب بـالسماح لـه بالانسحاب والمغـادرة، لكن جرت تهدئته بعد ذلك بـرجاوات من الملك، وقد قبل تماشياً مع رغبات الأساقفة [ثم صدر عن البابا المرسوم التالي]:

«البابا الاسكندر

رغبــة في حفـظ التمجيــد الكلي لكنيســة يــورك، وسيراً على خطى أسلافنـا، أصحاب الذكرى السعيـدة الأحبار: كاليكستوس، وأونـوريوس، وانوسنت ويوجينيـوس، وبموجب السلطات الرسـولية: نحظر على رئيس

أساقفة كانتربري انتزاع أي اختصاص من يورك، ونحظر أيضاً الشيء نفسه على رئيس أساقفة يورك، كما لايجوز أن تكون يورك خاضعة لكانتربري، وذلك توافقاً مع الحظر الصادر عن القديس غريغوري، بل عوضاً عن ذلك إن التمييز بالمكانة ينبغي أن يحفظ بينهما، على أساس ماشرعه ذلك الأب، أي إن الذي يحتل المكان هو الذي سيم أولاً».

وكانت مقاطعات الحدود العائدة لكل من آنجو ومين تعاني من نقص الخبز، وأمن هنري الثاني مايكفي لاطعام عشرة آلاف من الناس كلّ يوم اعتباراً من ١ نيسان حتى بات هناك مايكفي من القمح الجديد، وبناء على الأمر الملكي جرى توزيع كلّ ماكان محفوظاً لاستخدامات الملك سواء في الاهراءات أو أقبية الخمور أو المخازن، على زملائنا الأتقياء وعلى جميع الفقراء.

وجمع فولغرين Vulgrin كونت أنغوليم Angouleme عصابة من البرابانكونيين الأشرار، وتجرأ على الاغارة على بواتو، وحشد بالمقابل جون أسقف بواتو العساكر من جميع الجهات، كما وجمع كثيراً من المرتزقة الذين توحدوا مع ثيوبولد شابوت Chabot قائد فرسان رتشارد دوق أكوتين —الذين كان آنذاك في انكلترا مع أبيه الملك— لانقاذ الشعب الذين أوكل إليه أمر حمايته، من أيدي أعدائه، وانقسموا إلى ثلاث فرق، والتقوا بهؤلاء الأشرار، الذين خربوا القلاع، وأفرغوا الحقول من سكانها، وأحرقوا الكنائس، ومارسو الطغيان على الراهبات في دير باربزيوكس Barbezieux وقد جرى قتل العديد منهم في المعارك، وأعداد ليست قليلة أغلقت عليها القلاع وأحرقوا فيها، وقرر البقية منهم الفرار، فتخلوا عن معداتهم وتركوها غنيمة، وعلى هذا تمت حماية أهل بواتو لابفضل السيوف والخوذات بقدر ماكان ذلك بفضل العناية الربانية، حيث خرقوا فرق تشكيلات أعدائهم بدون أذى، والذين فقدوه كان أربعة من عددهم فقط، وهكذا جاءت السلامة على أيدي رجال

الدين الذين أظهروا أنهم لايفتقدون الروح، بل السلاح.

واستدعى الملك الملك الشاب الذي كان مشغولاً في الخارج، وجاء رجال الكنيسة وبارونات المملكة معاً إلى لندن، فقد جرى ارسال سفراء في قطار كبير من قبل وليم ملك صقلية ليطلبوا يد جوانا أصغر بنات الملك للزواج، وقد استجيب للطلب بعد مداولات، وكان ذلك يوم ٢٠أيار، وتحول طلب الزواج والوعد بالاجابة بالأيمان من جانب الملك، إلى خطبة وزواج مؤكد، وأرسل ملك انكلترا رسلاً إلى صقلية بهدف اقامة حلف مع ملك صقليــة فعال، وأن يزدادا تقارباً، وأن يوثقا التحالف، وبعدما اتفقوا على الهدايا التي ستمنح بسبب الزواج، عجلوا بالعودة، وتم هذا بحضور الكاردينال، وبموافقة رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجرى تمتينه برضا النبلاء.

وفي يوم ٢٧آب، أبحرت جوانا ابنة الملك الصغرى للزواج من ملك صقلية، وتولى أسقف ونشستر تأمين النفقات والمؤن المحتاجة للرحلة، مع عدد كبير من الخدم، وبناء على أوامر الملك جرى تعيين رجال شرفاء كمرافقة، وقد توجب على بعضهم الذهاب حتى سانت جايل، وعلى آخرين تسلق جبال صقلية والذهاب إلى قصر بلرم، ولم يتوجب عليهم العودة حتى يشهدوا حفل الزواج، ويروا ملك صقلية وجوانا تتوجا برباط الزواج.

وما ان عبر سفراء ملك صقلية البحر الهائج، حتى جرى تعيين ابنة ملك انكلترا زوجة للملك أمام مجموعة من النبلاء في كنيسة سانت جايل، في يوم ٩تشرين الثاني، وذلك على يد جون أسقف نوروك Nor-wick حسبما كان قد وعد في بلرم يوم ٩آب.

وكان جون أسقف نوروك قد أبحر نحو صقلية، بناء على أوامر الملك، وذلك في أحوال مناخية خطرة وقد تحمل العديد من المصاعب، وكان

من المتوجب عليه التوجه مباشرة إلى روما لـولا أن اللومبارد كانوا مايزالون متورطين بـالانشقاق، وكانت المنطقـة الجنوبيـة التي كان بإمكانـه العبور منها، متأثرة بشكـل حاد بالمجاعة، وكـان من الصعب جداً تأمين العلف للحيوانـات، وتألم الأسقف أثناء سفره خـلال أوفرن Auvergne من عـويل الناس الـذين كانـوا مـرميين في الشوارع، وقـد تورمـوا من الجوع، وكان مايزال بحـالة صحية جيدة عندما دخل إلى مـدينة فالانس Va-lence غير أنـه تسـاءل عن أمـانــة مضيفيـه، فلقـد امتـلأت الفـرش بـالحشرات، التي سببت عـدم نومـه لليـال، واجتاز الأسقف بـلاد امبرون Embrun وتجنب منطقة جبـل جنفري Genevre ووصـل إلى الحدود الايطالية، ثم أبحر فوق بحر تيرهنيان Tyrrhenian.

ومن هنـاك، وبسبـب وعـورة المنطقـة، اعتمـد على عــدد من السفن المتنـوعة، والخفيفـة والسريعة، وفضل مـراكب التجـديف واعتمد عليهـا أكثر من اعتماده على السفن الشراعية، وقـد عبر دوقية أبوليا، وإمـارة كابوا Capua ورؤوس كالبيريا Calabria بعد المضيق، وإنني لم أحذف ذكر المخـاطر المعروفـة أيضاً للناس الذين أبحـروا إلى ايطاليا بعـد سقوط طروادة، وتجنب الأسقف رأس بـالينوروس Palinurus وصخور سيلا Scylla ودوامـة تشـاريبـدز Charybdis مع شيء من الخوف، وكـانت لحظات رهيبـة لـدى التفكير أن أعماق البحار الهائجـة يمكن أن تبتلع الانسـان بلحظة، وهكـذا حكم على الرحلـة بقلة الـراحة، وبـدوام القلق، فلقد كان التهديد من امكـانية هجمات القراصنة يمكن أن يرعب أكثر البحارة ثباتاً، ونشأت الاصـابة بدوار البحر من الحالات الصعبة التي عاش فيهـا المجدفين، فقد تأثـرت أجهزتهم الحيويـة بالهواء غير الصحي، ويمكن للمرء أن يتخيل أنـواع المخاطـر التي يواجههـا الناس في الخارج [وذلك بين جميع مشـاكلهم الأخـرى] عنـدما كـانت أوراق الأشجـار في صقلية مع براعـم الكرمة والقصب في المستنقعات كانـت كلها قد ذبلت

بسبب الجفاف، فقد كان الوقت آنذاك هو منتصف آب، وعندما كانوا على وشك الإرساء، كان مركبهم صغيراً بالكاد يمكنه استيعاب ثمانية رجال، وقد غمرتهم مياه الأمواج، وكانوا يائسين وهم يحاولون استرداد قوتهم، ولقد ناموا مرغمين تحت السماء المكشوفة لعدة أسابيع، واضطروا أثناء الليل للتعامل مع الحجارة الصماء عوضاً عن الفراش الناعم الوثير، أو أن التيار منحهم استخدام الرمال، وعلمتهم الحياة أن يحشوا فرشهم بالحصباء.

وبعدما أمضى الأسقف عدداً كبيراً من الأيام في هذا النوع من الشقاء، دخل إلى بلرم، وهناك التقى بثلاثة من أصحابه الرسل، وتسلم في خلال أيام قليلة اجابة مرضية من الملك الصقلي، ولو أنه امتلك الوقت لسأل فيها إذا كانت صقلية قد دعيت بالمثلثة بسبب قمم جبالها الثلاثة أو بسبب شكلها المثلثي، لكنه كان يمضي خريفاً غير منتظم، وفقد اثنان من المرافقين الذين ورد ذكرهم أعلاه حياتهم في حادث من الحوادث، وأصيب الثالث بحمى شديدة ألزمته الفراش، وهكذا عاد الأسقف لوحده إلى انكلترا، بعد بعثة ناجحة، انتهت بزواج الأميرة من الملك الصقلي، ووجد الملك في نوتنغهام ليلة عيد الميلاد.

سنة سبع وسبعين ومائة وألف

وتألقت مدينة بلرم وقتذاك باحتفالات زواج ملك صقلية من ابنة ملك انكلترا، وتدفق رؤساء الأساقفة والأساقفة والكونتات والبارونات ورجال الدين والشعب في لحظة واحدة ليباركوا الزواج وليشهدوا تتويج الملكة الجديدة، وقام وولتر رئيس أساقفة بلرم بإتمام مراسم الزواج في ١٣ شباط.

وتوجه الملك هنري إلى فرنسا يوم ١٨آب، وذلك بعدما تولى تنظيم مملكته وفقاً لرغباته، [وهناك أبرم مع ملك فرنسا الاتفاق التالي]:

«أنا لويس ملك فرنسا، وأنا هنري ملك انكلترا، نرغب أن يعرف كلّ انسان أننا، وعدنا بكل وقار، بإلهام من الرب، أن نحمل الصليب ونذهب إلى القدس، ونرغب أيضاً أن يعرف كلّ انسان اننا منذ الآن ودوماً نريد أن نكون أصدقاء، وأن كلّ واحد منا على استعداد لحماية الحياة والأطراف والشرف الدنيوي للآخر ضد جميع الناس، وبقدر ما أوتي من قوة، وإذا ماحاول انسان أن يؤذي أي واحد منا، فإنني أنا هنري سوف أقسم على حماية مولاي لويس ملك فرنسا ضد جميع الناس بقدر ماأوتيت من قوة، وأقسم أنا لويس على حماية هنري ملك انكلترا ضد جميع الناس بقدر ماأوتيت من قوة، ذلك أنه تابعي وحليفي، وأن نحفظ العهود التي ندين بها لرجالنا ماداموا مخلصين لنا. وأبرم هذا في نونانكورت يوم ٢٥أيلول».

وأخضع صلاح الدين، وهو مُعذب بوحشية لاسم المسيحية، مصر وسورية، واستولى بالقوة على بابليون ودمشق، وعندما جمع كونت أوف فلاندرز ووليم إيرل دي ماندفيل قوة كبيرة من سكان القدس لمهاجمة حارم Agarenes على الحدود مع أنطاكية، حاصرا حماه Hareng يوم ٤تشرين الثاني، وكان يوم عيد، واعتقد صلاح الدين، الذي حقق المكانة السامية بقوة السلاح لابقوة الأصل والنبالة، أن مدينة القدس المقدسة كانت شاغرة من المحاربين، على هذا حشد جيشاً كبيراً، وغزا أراضي عسقلان بالقوة، وأقام معسكره في مكان اسمه الرملة، وقام ملك القدس والبطريرك وجيش صغير من فرسان الداوية والاسبتارية بقي معهما، مع عدد قليل من المقاتلين، بإعداد أنفسهم بسرعة للحرب، معتمدين لاعلى السيف والرمح، والقوس والنشاب بل على عون الدين فقط، ولقد سلحوا أنفسهم بشارة صليب الرب واستلهموها على الفور،

وساروا مسرعين خلال الليل لمقابلة المسلمين، متذكرين أن من السهل إلحاق الهزيمة بحشد كبير من قبل عدد صغير، وأنه لافرق في أعين الرب بين الربح بين كثير أو بين قليل، وعندما جاء الصباح انعكست أشعة الشمس على ترستهم المذهبة، وتسلق المسيحيون قمة جبل هناك، بينما اصطف المسلمون للقتال في سهل تحت الجبل، وبدا لمن يستطيع الرؤية بوضوح أن المسلمين تفوقوا بالعدد على المسيحيين بنسبة واحد لمائة، ولهذا تعلم المسيحيون من السيدة الحاجة ايجاد مخرج جديد، فحولوا صفوفهم الأربعة التي عبأوها للقتال إلى صف واحد على شكل إسفين، وبذلك تمكنوا بثبات من تلقي الهجمات القاسية التي شنها الناس المطوقين لهم من جميع الجهات، وبينما كان المسيحيون في هذا الوضع الخطر، وحينما باتت المسألة مسألة حياة أو موت، أخذ أودو مقدم فرسان الداوية —مثله مثل يهوذا المكابي— أربعة وثمانين من فرسانه معه، والتحم بطرفهم مع فرسانه، مدافعاً عن شارة الصليب، وشرع الفرسان رماحهم، وحملوا كأنهم رجل واحد، غير ملتفتين إلى يمين أو يسار، وبعدما تعرفوا إلى الصف الذي تحت إمرة صلاح الدين والذي يضم عساكر كثيرة، هاجموه بشجاعة، وخرقوه ومروا فيه بدون تردد، وتابعوا الضرب بدون توقف، فمزقوهم، وسحقوهم وفرشوهم فوق التراب، وتملكت الدهشة صلاح الدين تجاه هذا النجاح، وعندما رأى رجاله قد تفرقوا في جميع الاتجاهات، وأرغموا على الهزيمة، وصاروا طعمة للسيف، قرر هو نفسه اللجوء إلى الفرار، فألقى بسرعة أثقاله، وتسلق ظهر واحد من جمال السفر، ونجا بكل صعوبة من الموت مع عدد قليل من الرجال، ولم يعبأ بالعار الذي تركه لأحفاده، وصح عليه القول: «يطارد واحد ألفاً، ويهزم اثنان ألفين»، وهكذا ربح المسيحيون يوم ٢٥تشرين الثاني ونالوا النصر، وبفضل الأوامر الربانية تم تدمير قوة المسلمين وأشعلت النيران يوم ٢٩تشرين الثاني في جميع أنحاء المملكة.

وجاءت في يوم ١كانون أول ريح عالية من الشرق، فحطمت الأشجار، ودمرت الأبنية.

سنة ثمان وسبعين ومائة وألف

ثلج ثقيل.

وكان على الساحل أعمال ترابية كبيرة مشكلة من المروج، وقد جرى تدميرها بفيضان من البحر، لاسيما من الشمال، وفي ٨كانون الثاني جرفت الرياح العاتية من الشمال السكان، والمواشي، والقطعان في جميع الاتجاهات.

ومتن هنري ملك انكلترا سيطرته على جميع الدفاعات في المقاطعات الواقعة تحت سيطرته، والقائمة على مقربة من الحدود مع فرنسا والقتال الانكليزي، وبعدما رتب كلّ شيء حسبما رغب، عاد إلى انكلترا في يوم ١٥تموز، وإثر عودته زار قبر توماس الشهيد الرائع.

وذهب وليم رئيس أساقفة ريمز Reims إلى كانتربري يوم ٢٧تموز مع مرافقة كبيرة، وكان قصده الوفاء بالنذور التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، إلى توماس الشهيد الرائع، وجاء ملك انكلترا، مع عدد من الأساقفة والعديد من النبلاء لملاقاته، وتم استقباله بحفاوة عظيمة، وقد أمضى ثلاثة أيام في قصر الملك في لندن، على حساب المملكة، وعندما بعث الملك إليه هدايا ضيافة تألفت من عدد من آنية الزينة الثمينة، تمنع عن لمس أي منها، وذلك خلافاً لعادات الفرنسيين، وتقبل فقط بعض الأشياء التي لم تقدم على شكل هدية، بل كدليل محبة من الملك.

وأعطى الملك هنري ملك انكلترا ابنه غيوفري حزام الفروسية في وودستوك Woodstock يوم ٩آب.

وفي يوم ١٣ أيلول كان هناك كسوف للشمس.

سنة تسع وسبعين ومائة وألف

ترك الملك هنري الشاب ابن الملك، انكلترا، وأمضى ثلاث سنوات في المبارزات، وأنفق كثيراً من المال، وحينما كان مندفعاً يجول حول جميع أرجاء فرنسا، خلع الشارات الملكية، وحول نفسه من ملك إلى فارس، وقد حصل على النصر في كثير من المنازلات، وجعلته شعبيته مشهوراً، وكان الملك الكبير مسروراً تجاه ذلك وقد تولى تعداد انتصاراته وأعجب بها، ومع أن الملك الشاب كان مايزال دون السن القانونية، أعاد والده إليه جميع ممتلكاته التي سلف انتزاعها منه، وظل هكذا مشغولاً بأعمال الفروسية، حتى لم يعد ينقصه الفخار، عندها أبحر من وزانت Wiss-ant وقد استقبل بحفاوة لائقة به من قبل أبيه الملك، في يوم ٢٦شباط.

وسمعنا أنه في عيد الفصح، وفي احتفال عظيم، تزوجت أغنس ابنة لويس السابع من ألكسيوس بن مانويل، امبراطور القسطنطينية، وأراد الرب هذا الزواج أكثر حظاً من الزواج فيما بين ابنة شارلمان والامبراطور قسطنطين، الذي انسحب من زواج بلا أولاد، وكان قسطنطين قد طرد أمه إيرين من حكم الامبراطورية، لكن عندما عادت إيرين إلى السلطة سملت عيناه.

وقرر الدوق رتشارد صاحب أكوتين قهر غيوفري دي رانكون المتبجح، فجمع قوة وحاصر يوم ١أيار قلعة تيلبيرغ، وكانت هذه العملية مغامرة

مرعبة جداً، وكانت شيئاً لم يتجرأ أي من أجداده على محاولته، فقد كانت القلعة المذكورة في تلك الأيام محاطة بثلاثة خنادق مع ثلاثة أسوار لمقاومة العصيان، ومشحونة بشكل جيد بالأسلحة والحواجز والموانع، ومحلاة بالأبرجة المقامة على مسافات معينة، وكانت محصنة بشرافات حجرية، وفيها وفرة بالمؤن، ومليئة بآلاف الرجال المدربين على القتال، لهذا لم تخش من وصول الدوق، وأغار الدوق نفسه بعنف على المنطقة، وحصل على كثير من الأسلاب، وقطع كروم العنب وأحرق القرى، وأزال البقية وعاث فساداً فيه.

ووصل إلى القلعة، فنصب خيامه وآلات قتاله إلى جانب السور، وأرعب بذلك ساكني القلعة تماماً، لكن مع ذلك بدا لهم أنه من العار البقاء داخل أسوار القلعة دونما هجوم، فاتفقوا على الاندفاع نحو الخارج من خلال الأبواب، والانقضاض بشكل مفاجيء على جيش الدوق، وعندما لاحظ الدوق هذا، استنفر رجاله، وأرغم العدو على التراجع، وكان هناك قتال عنيف عند الباب، واستخدم وقتذاك كل شيء في القتال من : الخيول، والرماح، والسيوف، والخوذ، والأقواس، والقسي العقارة، والترسة، والدروع والهراوات أو الحراب، وفي الأخير كسبت الخبرة الجولة، ولم يعد بإمكان أصحاب القلعة الصمود أمام الحملة العنيفة للكتيبة القيادية التي وجهها الدوق من الخارج، وانسحبوا بسرعة إلى خلف الأسوار، ولم يتوقف الدوق فدخل البلدة، وكان هناك اندفاع إلى هنا وهناك في أرجاء المكان، ثم تلا ذلك حرق ونهب، وفي يوم ١٠ أيار استسلمت القلعة، وخلال أيام سويت الأسوار بالأرض، وخضعت بقية القلاع في المنطقة وهزمت خلال شهر واحد، والآن وقد تم وكمل كل شيء كما رغب به، عبر الدوق رتشارد إلى انكلترا، واستقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده هنري الثاني.

وتفوق الملك لويس السابع ملك فرنسا على أجداده في أبهته مع

كـرمـه، وكـان قـد فـرّج عن القـديس تـومـاس أثنـاء وجـوده في المنفى، والقـديس تـوماس هـو رئيس أسـاقفـة كـانتربـري السالف، وقـد عـاش لسنوات عـديدة في فـرنسا، وتلقى من الملك الفـرنسي كثيراً من الألطاف بما تـوافق مع أخلاقـه، وأمل في أن يظهـر طاعتـه للـرب بمعاملـة رئيس الأساقفـة بتقوى واحترام، ومع انتشار الحكـايات عن معجزاتـه في الطول والعرض، قرر لويس أنه يرغب في تقـديم تبجيله لجسده بكل تقوى، بغية أن تعبر صلواته واستغفاراته من المملكـة الفانية إلى المملكة السرمدية، ولم يتقـدم له أو لـواحـد من أجـداده، في أي وقت من الأوقـات سواء أكـان ذلك في السلم أو في الحرب، زيـارة انكلترا، واتخذ لـويس لنفسـه ثيـاب حاج واسمه، واصطحب معـه مجموعة متواضعة من النبلاء، وقـام بزيارته بكل تقوى واخلاص.

وما ان سمع هنـري الثاني ملك الانكليز وأبـوهم، بقرب وصـوله حتى بادر إلى التوجه لاستقباله، وسـار بسرعة مزدوجة والتقى بالملك الفرنسي في دوفر في ٢٢آب، وقدم إليه كلّ حفاوة ممكنـة التصور، وكانت هناك مسيرة وقورة في الكنيسة الكبيرة، حضرهـا رئيس الأساقفة، والأسـاقفة والإيرلات والبارونات، ورجال الـدين والشعب، وتمت يوم ٢٣آب، كما وكانت هناك تـراتيل وأناشيـد وسرور عظيم احتفـالا بوصـول شخص عظيم مثل هـذا الأمير، وأنا لاأعـرف كم من الفضة الفـرنسية والـذهب قد أعطى بمثـابة هبات، ومنح ملك فرنسا منحة سنوية هي مائة وحدة قياس باريسية من الخمـرة، لصـالحه ولصـالح ورثتـه، تقـدم بشكل دائم احترامـا للشهيـد، وكانت هـذه الخمرة مكـرسة لتستخـدم من قبل رهبان كـانتربري، ونحن نحيي ذكـراه، وخشيـة أن يظهـر الفرنسيـون أنهم يبتغـون أي شيء سـوى الشهيد، فقـد منعوا أيـديهم من الامتداد إلى خزانـة أموال الشهيـد، وهو شيء ربما كان في أذهانهم.

وهكذا أمضى ملك فـرنسا ثـلاثة أيام في كـانتربري في صيـام وصلاة،

وقيام، وتقبل من هنري بعض الهدايا الصغيرة، كعلامة على المحبة، وغادر لويس ثانية يوم ٢٦آب من دوفر.

ولندع الآن لبعض الوقت الحملات والسياسة، ونتوجه نحو كتاب آدم آينشام «حياة القديس هيوج أوف لنكولن»، وكانت شخصية محط اعجاب كبير ومحبة في دير لى غراند تشارتريوس **Grande Chartreuse** *قرب غرينوبل، وقد جرى اختيار هيوج من قبل هنري الثاني ليكون رئيساً لديره الجديد في ويتهام في سمرست، الذي تأسس عام١١٧٧ ، وكان مايزال يصارع من أجل وجوده منذ ثلاث سنوات عندما وصل هيوج إلى هناك.*

أسس هيوج أخوانيته في دوثان Dothan التي ترادف اسمها مع الفقر المدقع، فقد كانوا يعيشون في غابة قرب الفيلا الملكية في ويتهام، وهو اسم تنبؤي معناه باللاتينية بيت، أو منزل العقل، وهو ما أصبحه المكان بعدما جاء إليه فيلسوف المسيح الحقيقي، وأوجد هيوج الاخوانية ليعيش أفرادها في خلوات مصنوعة من أعواد الخشب، ومحاطة بخندق ضيق وحاجز، وإلى أن وصل، ومن ثم حتى تمكن من إعادة تنظيم الاخوانية، نقول باختصار:

إنهم افتقدوا كلّ شيء، لابل كلّ شيء ضروري حتى لأبسط متطلبات اخوانيتهم، ولم يكن قد تقرر بعد أين ستبنى الكنيسة مع الخلوات ودير الرهبان أو الدير الصغير، مع الساحات وبيوت الضيوف واستراحة الاخوان، وكان السكان القدماء مايزالون يعيشون هناك في مكان توجب تسليمه إلى الرهبان، كما لم يكن قد تم تجهيز أي شيء ليمكن هؤلاء من التخلي عن بيوت أجدادهم وتسليمها لهؤلاء الذين جاءوا ليخلفوهم، وما كان ذلك بالممكن دون أن يشعروا بالاهانة وبخسارة كبيرة لأنفسهم.

وبـادىء ذي بدء عقـد هيوج اجتماعـاً مع الـذين لديهم ممتلكـات أو أشيـاء أخـرى سـوف يتخلـون عنهـا لأن الأصـوات ومجيء الـزوار بشكل متـواصل سـوف يخرب، أو على الاقل ســوف يسبب الاضطـراب لخلـوة الرهبان ولصمتهم الدائم، وبتفـويض من الملك عرض عليهم واحداً من اختيـاريـن، إمـا: أن يعطـوا حقــولاً وأمـاكن للسكنى من النمـط نفسـه الموجـود في ويتهام أو أي عـزبة ملكيـة يختارونها، أو أن يتم تحريـرهم من التبعية الاقطاعية وأن يذهبوا ليعيشوا حيث شاءوا، وعندما اختار بعضهم الأرض واختار آخرون الحرية، كان هيوج مقرراً مـزج العدالة بالكرم، فقال هذا لهنري الثاني ملك انكلترا:

«والآن عليك يامـولاي أيضاً أن تنظر أنهم نالـوا تعويضات مـالية من أجل بيـوتهم، ومقـابل كلّ نــوع من أنـواع الأتعـاب التي أنفقـوهـا على ممتلكاتهم وأبنيتهم من كلّ نوع، وإلا فإنني لاأستطيع قبـول هذا المكان»، وهكــذا أرغـم الملك على أن يشتري بأثمان مــرتفعــة أشيــاء ظن أنها لاتساوي شيئاً تماماً، من مثل: أكواخ قديمـة، ودعامات ملتوية، وجدران نصف مهدمة،وبذلك أنفق مبالغ كبيرة مقابل منافع قليلة، وعندما جرى الـدفع للبـاعـة، كـانوا مسرورين تمامـاً تجاه هـذا الأسلـوب الجديـد من الشراء، الذي أغنـاهم بشكل معتبر، وباركوا الراعي الجديـد الذي جلب خبزه من مكان بعيد، وهو الخبز الذي منح القوة لكل انسان.

وعلى كلّ حـال لم يكن رجل الأعمال راضياً بـالصفقة، التي بـدت له عـادلة لكن غير كـريمة، ولهذا تكلم ثـانيـة إلى الملك وهو يبتسم: «انظـر يـامولاي الملك، كيـف تمكنت أنا الفقير الغـريب من اغنـائك في أرضك بكثير من البيوت»، وضحك الملك لـدى سماعه هذا وأجابـه قائلاً: «إنني لاأرغب بتسلم هـذا النوع مـن الغنى، الذي جعلني تقـريبـاً معدمـاً، كما انني لاأعـرف أي انســان يمكن أن تكـون هـذه الأشيـاء ذات نفع لـه»، فقـال لــه: «عظيم جـداً، أرى أنـك غير مهتم كثيراً بصفقتك، ويمكنك

العمل على الاحتفاظ بكرمك باعطائي هـذه الأبنية، فأنا ليس لدي مكان أريح فيه رأسي» ووجـد الملك نفسـه غير قـادر على الاجـابـة، وحـدق مندهشـاً بالسـائل، ثم قال مجيبـاً له: «إنك راعٍ غير اعتيـادي، هل تعتقد حقيقـة انني غير قادر على أن أبني لك أبنيـة جّديـدة؟ أخبرني على الأقل مـاأنت مقبل على عملـه بهؤلاء»؟ فأجـاب هيـوج قـائلاً: «إنـه غير لائق بكرمك الملكي أن تسأل عن مثل هذه التـوافه، إن هذا أول طلباتي منك، وبما أنها توافه لماذا لايجري منحها فوراً»؟.

وشعر الملك، الذي امتلـك حسّ الدعابة، بالسرور الكـامل تجاه سرعة بديهته، وعن عمد أطال المساجلة الكلامية قائلاً:

«هل يمكن أن يكون هناك انسـان على أرض غريبة بمثل هذه الجرأة؟ ماالـذي يمكن أن يحدث لو أنه استخدم قبضتـه، طالما لسانـه بمثل هذا العنف، ومن أجل ألا نعاني من الأسوأ، دعوه يأخـذ الذي أراده»، وعندها أعاد هيـوج الأبنية التي كان قـد تسلمها إلى أصحابها القـدماء، مع أنهم كـانوا قـد تسلمـوا أثمانها، وقـام الملاّك إما ببيعهـا مـرة ثـانية، أو بنقلهـا ليعيشوا فيهـا في مكان آخر، وهكذا تبين أنـه: موهوب بـالبصيرة والتقوى مثل نحميا، وبفضائل سليمان، وبغيرة داود، وبذلك أمكنه بناء قدس بلا دماء، وانطلق على الفور يعمل على انشاء المبنى الذي نراه اليوم.

وعندمـا اكتمل تشييد الأبنية التـي تطلبتها عادات الاخـوانية، وأصبح عدد الاخـوان تامـاً، ركز الراعي الجيـد جهوده على تـدريب النفوس التي أسنـد إليـه أمـر رعـايتهـا في مجال الاحتراف المقـدس، وصرف الكثير من الـوقت والجهـد في سبيل تصنيع وشراء، والحصـول على المخطـوطـات الدينيـة بكل وسيلة ممكنة، لأن هذه المخطـوطات كانت عونـاً كبيراً له في مهمته.

وفي إحـدى المرات كـان يتحـدث مع الملـك فـورد ذكـر قلـة الكتب،

وعنـدمـا وجهت إليـه النصيحـة في أن يبـذل جهـده في الحصـول على المطلـوب ونسخها بـوسـاطة نسـاخ مختصين، أجـاب أنه لايمتلك الـرق للكتابة، وهنا سأله الملك: «كم من المال تعتقد عليّ أن أدفعه لك لتدارك هـذا النقص؟» فأجابـه: «إن قطعـة نقديـة فضية واحـدة ستكـون كافيـة لوقت طـويل»، وعندها ابتسم الملـك وقال: «ماأثقل هـذه المطالب التي طلبتها منا»، ثم أمر على الفـور بإعطائه عشر قطع تسلم إلى الراهب الذي كان مرافقـاً له، ووعده كذلك بأن يرسل إليه نسخـة من الكتاب المقدس تحتوي على العهـدين، وعاد الراعي إلى بيتـه، غير أن الملك لم ينس وعده، وحـاول جاهـداً أن يجد نسخـة فخمة حقـا من الكتـاب المقدس، وبعـد جهود حثيثة وبحث نشيط ، بلغـه أن رهبان القديس سوزن Swithun [ونشستر] قـد صنعـوا حـديثـا نسخـة ممتـازة من التـوراة نسخت بشكل جميل، استخـدمت للقـراءة في غـرفـة طعـام الـديـر، وقـد سر كثيرا بهذا الاكتشاف، واستـدعى على الفور راعي الديـر، وسأله إعطـاءه الهدية التي صنعهـا وتسليمها لـه، واعـداً إيـاه بجائزة قيّمـة، واستجيب لطلبـه بكل سرعة، وعنـدما تسلم راعي ديـر ويتهام ورهبانـه نسخة الكتـاب المقدس وتفحصوهـا كانـوا مسرورين بها كثيرا، وأعجبهم صحة النص كثيرا، وزاد هذا حتى على جمال النسخ والروعة الكاملة للنسخة المخطوطة.

وعندما أخبر راهب من ونشستر زار ويتهام هيوج بأن هنري الثاني قد أخذ نسخة الكتـاب المقدس الجديدة والجميلة من ديـره، أعاد هيوج على الفور هذه النسخة الخطية الثمينة إلى ملاكها الأصليين، وذلك على الرغم من خوف رهبـان ونشستر من غضب الملك، وكان هيـوج على كلّ حال قـادراً على التعامل مع الغضب الأنجيفي لهنـري، وتظهر القصـة التاليـة كيف أثار أسقف لنكولن حنق الملك بحرمانه رئيس الأحراج الملكية.

وعندمـا بات تصرف الأسقف الجديد لديـر لنكولن معروفـاً في البلاط،

بـذل عدد من النـاس جهدهم لـزيـادة تأجيج غضب الملك ضد هيـوج بكلمات كلها سم مثل قولهم:

«إن النكران الأسـود للرجل لاحسانك غير العـادي نحوه واضح الآن تمامـاً، والجائزة التي تلقيتهـا مقابل مـابـذلـه من جهد في سبيـل تقدمـه ظاهرة تمام الظهور».

وتصرف الملك بصبر وأنـاة وذلك على الـرغم من غضبـه، وأرسل من استـدعى الأسقف، وعنـدمـا عـرف أنـه قـرب وصـولـه، ركب فـرسـه، وانسحب مع جميع نبلائه، الذين كانوا بعدد معتبر، إلى غابة مجاورة.

وجلس أرضـاً في بقعة جميلـة، وشكل الإيرلات والبـارونات حلقـة من حـوله، وأمر هؤلاء بعـدم الوقـوف أو تحيـة الأسقف عندمـا يصل، ولكي نجعل القصـة الطـويلـة قصيرة، جـاء الأسقف وقـدم التحيـة للملك وللجماعة، لكن ما من واحـد ردّ عليه تحيته، وعندمـا رآهم جالسين هناك صـامتين وغير عابئين، جـاء ووضع يـده بلطف على كتف أحد الإيـرلات الـذي كـان يجلس إلى جـانب الملك، وجعلـه يعطه مكـانـه إلى جـانب الملك، وتلا هذا صمت عميق، وانتظر كلّ واحد منهم وقتا طويلا.

وأخيراً رفع الملك رأسـه وأمر واحـدا من خدمـه بإعطائه إبـرة وخيطا، وبعدما تسلمهما بـدأ بنفسه يخيط رباطا وضعـه حول اصبع مجروح في يده اليسرى، وسـاد الصمت، في حين عمل هذا لبعض الـوقت لكي يتجنب الاحراج في صنع لاشيء، ولقـد اعتاد النـاس الغضابى على التصرف وفق هـذه الطـريقـة، لأن غضبهم ألـزمهم بـالصمت، ولايمكنهم أن يجدوا متنفساً له.

ونظر الأسقف إلى مايجري، ولاحظ أن مظـاهر عرض الغضب لصالحه، وتأمل هـذا الصراع للعـواطف الانسـانيـة وكأنـه واقف مـن أعلى بـرج للمـراقبـة وللتحليل العقلي، والتفت أخيراً نحـو الملك وقـال: «كم تشبـه

أبناء خـالكم في فالاسي Falaise » ، ونفذ هـــذا التعليق الذي قـالـه بلطف وصـوت منخفـض إلى أعماق الملك، فضغط على أصـابعـه وأخـذ يضحك دون أن يسيطـر على نفســه، واستلقى على الأرض لـوقت طـويل دون أن يتمكن من كبح سروره، وانـدهش النـاس الـذين فهمـوا العبـارة الـلاذعة تمام الانـدهـاش واحتـاروا كيف أمكن لـرجل في وضع هيوج أن يتجـرأ بالمزاح في حضرة ملك جبـار في مثل تلك اللحظة، وعلى كلّ حـال لم يستطيعوا منع أنفسهم من الابتسـام، وانتظروا بعض الـوقت ليسمعوا رد الملك، وكـان معظمهم غير فاهم لمعاني مـاقاله هيوج، وكـانوا في ضياع تجاه التبدل المفاجيء لميول الملك وتصرفاته.

وأخيراً بات الملك مدركاً لحالة إلتباسهم فقال مايلي:

«لايمكنكم فهم الطريقـة التي أهاننا بها هذا المتخلف، لـذلك سوف أشرح: كـان من المعـروف أن أم جدنـا العظيم وليم فـاتح هـذه الأرض، كـانت من أصل وضيع، وأنها جـاءت من فـالاسي وهي بلـدة نورمـانيـة هامة، مشهـورة بصناعة الجلديات، فلقـد رآني هذا المزوح أخيط أصابعي ولهذا أطراني لمشابهتي أخوالي في فالاسي» .

ثم قـال مخاطباً الأسقف : « والآن أخبرني أيها الصـديق الطيب ، لماذا رأيت من المنـاسب دون اخباري، القيـام بحرمان رئيس أحـراجي، ولماذا عـاملت طلبـاتي التـافهـة منك بمثل هـذا الاستخفـاف، حيث لم تقـدم شخصياً لتشرح لي لماذا رفضتها، كما أنك لم ترسل أي اعتذار مع رسلنا»؟ وعلى الفور أجاب الأسقف على هذه الاحتجاجات بهذه الكلمات:

«إنني أعلم أنك عملـت بجـد لتجعلني أسقفـاً، ولهذا إننـي مكـرس لانقاذ روحك من المخـاطر التي قد تلم بها، لولا أنني حـريص على تأدية واجبي الصريح نحـو الكنيســة التي عهـد بها إليّ، وإنــه لمن الضروري حرمان المعتـدي على كنيستي والظالم لها، وأكثر من هذا القيـام برفض كلّ

من يحاول أن يتملك بشكل غير شرعي شيئاً من أوقاف تلك الكنيسة، ولقد رأيت من غير الضروري الاتصال بسموك، لأنك عاقل تماماً وقادر على ملاحظة ماهو صحيح، ومن المؤكد أنك ترغب في اظهار موافقتك على ماتعرف أنه كذلك».

ولم يجد الملك أي اعتراض على هذا التوضيح، والآن وقد زالت آخر آثار غضبه المتسرع، عانق الأسقف بوجه مشرق، وعهد بنفسه لصلواته بشكل ملح، وترك له حرية القرار بشأن مسألة تحليل الرجل المحروم، الذي اعتذر وتذلل كثيراً، وأقسم يميناً حسب الصيغة التي وضعتها الكنيسة، وبعدما جلد مع شركائه، جرى تحليله، ومنحه الأسقف تبريكاته، وقد كرس حياته كلها له، وأصبح صديقه الخاص ومعاونه.

وقدم ديسيتو وصفاً لطريقة تفكير هنري الثاني الفجة العادلة في تغييراته القضائية في انكلترا(١١٧٩).

طلب الملك الكبير، هنري الثاني، ملك الانكليز في هذه الأيام صنع أشياء كثيرة كانت صعبة التحقيق، فقد وجد العمال لايرغبون في ممارسة الأعمال العامة، ولايهتمون بواجباتهم، ويصرفون اهتماماتهم نحو شؤونهم الذاتية، وبات قلقاً أكثر فأكثر تجاه الصالح العام، وهكذا عهد بشؤون القضاء في بعض الأماكن لرجال آخرين أمناء، وعلى هذا توجب على السلطات العامة في الأقاليم قمع المجرمين والذين يستولون على الأموال ويسيئون إلى الجلالة الملكية، فهؤلاء يستحقون الغضب الملكي، وستنزل العقوبات بالذين يسارعون لاصطياد الحيوانات المتوحشة بالتغريم وبالسجن الطويل، ويتوجب أن تقمع عقوبات المجرمين، وينبغي أن ينال الذين يلقى القبض عليهم عقوبات ثقيلة، ويجب معاقبة القاتل بشنقه، والخائن بإدانته ونفيه، أما الذين ألقي القبض عليهم لإقترافهم

جرائم أصغر، فتقطع أصابعهم، وعلى رجال العدالة منع أعمال العدوان والتعويض عن الأضرار.

ومرة أخرى بعد مضي بعض الوقت، اهتم الملك اهتماماً كبيراً باظهار العدالة لكل انسان، وأمر بتأمين المزيد من الحماية لرعيته، وأراد امتحان اخلاص عدد كبير من الناس، وبحث بعناية عن محبي العدل بين مختلف طبقات الناس، وشدد الحصول على الرجال الذين يمكن ايجادهم بين الآلاف، الرجال الذين لاتفسدهم الأموال، لأن عرضاً مالياً يمكن أن يغير عقل انسان ما، ومع الناس المتغبرين يمكن تبديل الأحكام التي لايجوز تبديلها، وقام رجال الدين بالتفريج عن شكاوى الفقراء، كما قاوم الفرسان المخولين بالسلطة الناس الذين كانوا أكثر قوة وأجبروهم على التعايش مع القانون العام، وهكذا باتت مآسي المظلومين واضحة، ذلك أنه عين رعاة ديرة جدد، وإيرلات جدد، وقادة جدد، بعضهم من أفراد بيته وبعضهم من أقرب الناس إليه وكلفهم بالاستماع لكل قضية واتخاذ القرار حولها.

وبعدما عين الملك عدداً كبيرا من رجاله المخلصين من جميع الطبقات ووجدهم يضرون بالرفاه العام، وبما أن أيا منهم لم يعد النظر في أي قرار، وعندما لم يجد أيه وسيله لمساعدة أفراد الشعب، قرر أنه يستطيع أن يفرز بعض الرجال عن المجموع العام، رجال مع أنهم كانوا يعيشون بين الناس، كانوا فوقهم، وكانوا ممن شعر وجرب أشياء أكثر من الناس، ولهذا حوّل كلّ شيء كان عرضة للتغيير ونقله إلى الكنيسة، وعيّن أساقفة: ونشستر، وإيلاي، ونوروك مشرفين رئيسيين على العدالة في المملكة، لكن لبعض المناطق فقط، معتقدا أن الذين سلف له تعيينهم منذ وقت طويل مضى كانوا أقل احتراما، فإن هؤلاء الأفراد من جهة أخرى كانوا أصلب عودا، ويخشون الرب عن إيمان، الرب ملك الملوك، وخالق الناس، وهم سوف يحكمون اعتمادا على ضمائرهم، فينتقمون للأفاعيل، ولايلتفتون

يمنـة ولايسرة، وهم لن يظلمـوا الفقير في محكمـة ليست فـاسـدة بقبـولها الـرشوة، ووقتهـا إذا مـاتـورط رجال الـدين في قضـايـا غير دينية مضـادة للقـانون، وبسبـب هذا استـدرجـوا للمساءلـة، يمكنهم الاحتجـاج أنهم قاموا بما قـاموا به بناء على طلب الملك، وأن مقاصد الملك كـانت تقوية، وأنـه رغب في إرضـاء الـرب عن أعمالـه، وأن ينـال ثنـاء النـاس، وتقـرر جلوس هؤلاء الأسـاقفة وأتباعهم من القضاة لسماع القضـايا، لكن جرى الاحتفـاظ ببعض القضـايا للملك، وقـد تقـرر عـرضها في وستمنستر يـوم ٢٧آب.

وكانت هـذه السنة سنـة جيدة: بعـد مرور شتـاء جاف، وبعـد هبوب رياح شمالية في الربيع وبعـدما عبرت بلطف وسط البلاد من الغرب إلى الشرق، سقت أمطـار خفيفـة الحقـول في ١٣حـزيـران، فأنعشت نفـوس الفلاحين الذين اعتقدوا أن بذورهم قـد ضاعت، وساعدت هذه الأمطار على نمو أشجار الفواكه وصغار الحيوانات التي كانت أشبه بالموتى، وكان المناخ لطيفاً نحو البذور، لامس فقط الجذور الصغيرة، وتتابع هطول المطر والـرزاز فأعـاد الخصب، وساعـدت الحرارة الصـادرة عن أشعـة الشمس على زيـادة خصـوبـة الفـواكـه، وبشكل غير متـوقع أعطت الأرض التي كانت من قبل جـافة، مواسم عظيمـة، وعلى هذا كان بإمكـانك أن ترى في بعض الأمـاكن سبع سنـابل على سـاق واحدة، وعليك أن تتـذكـر أن شيئـاً مـا أو شيئـاً آخـر يحدث فجأة، بـدون أمل، وبشكل غير اعتيـادي، وربما يحدث هذا لك في أيامك.

وثـانيـة أنـزلت السماء نعمهـا ورحمتها على رعـايـاهـا وكـذلك فعلت الطاقات والقـوى الأرضية، وهكذا نجد أن كلّ انسان كانت لـديه قضية في محكمة مدنيـة أو دينية بات لايشك أن المحصلة ستكـون خيرة بالعون الـرباني، لأن المراسيم صـدرت —كما قلنـا من قبل— بتعيين أساقفـة في المنـاطق بنـاء على أوامـر من الملك، وأن يجلس هـؤلاء لـلاستماع إلى

الخلافات ويبتون فيها، لكنهم كانوا لايملكون حق فرض عقوبة الاعدام، فإذا كنت أميناً يمكنك القدوم بسلام إلى المحكمـة المشكلة برئاسة رئيس أسـاقفـة كانتربـري، وأنت مطمئن تمامـاً في نفسك حـول المشكلـة التي ستعرض، ومن أجل عـدم انحراف مساعـديه الـذين يقدمون لـه المشورة وكـذلك الطـاقم الـذي يتـولى الأمـور الإجـرائيـة، وابتعـادهم عن جـادة الصـواب، ولكي لايتم افسادهم بـالمال لصالح الخصـوم، أقسموا يميناً على الكتـاب المقـدس وفقـاً للقـانـون المدني، وبما أن الجميع يتحملـون مسؤوليـة عامة فقـد أقسموا على الأناجيـل أنهم لن يلوثوا مطلقـاً أيديهم بـالمال، وأنه ليـس هناك استثنـاء لأحـد، ووعد رئيـس الأساقفـة بهذا في خطبته التي ألقاها في باغهام Pagham.

وغالباً مـاعبر كادوالون Cadwallon الذي امتلك إمارة في جنوبي ويلز، الحدود القديمـة بين الانكليز والبريطانيين، وكان يـدخل إلى التخوم فيقتل بعنف عدداً كبيراً من الناس، وقـد أمضى حياته بالقيـام بالغارات والهجمات السرية، وأخيراً جرّ إلى أمام الملك، بعـدما جرى اتهامه من قبل كثيرين، وعندمـا كان مع الملك كـان تحت حمايته، ولكن بسبب جـرائمه الوحشية كان دوماً خائفاً جداً.

وفي طريق عودته إلى بـلاده وقع في كمين وألقي القبض عليه وقتل يوم ٢٢أيلـول، وقد أضر هـذا السلطـات الملكيـة ضرراً كبيراً، وهتك القانـون العـام الـذي تـوجب أن تحفظ بـه المملكة سليمـة، لأن كـادوالـون، وإن استحق الشنق مرات كثيرة لجرائمـه، توجب حفظه احترامـاً للملك الذي كـان عائداً مـن بلاطـه، ولأنـه كان قـد حصل على أمـان لمدة محددة من الزمن.

ومع أنه مـامن أحد خـاف من هذه الحادثـة، ومامن شيء يشبههـا قد حـدث في أيـامنا، لم يـدعهـا الملك تـذهب بـدون عقـوبة، فقـد عـاقب المعتـدين بقسـوة، فإذا مـادعيت إلى البـلاط الملكي لاتحتـاج إلى الخوف،

وواسى الويلزيون بعضهم بعضاً، لأن مـوت واحد من رجالهم كان معناه جنـائز حزينـة وبغيضة لكثير من النـورمان والانكليـز من سكان التخـوم، فقد اعتقل الملك الذين عرف أنهم القتلـة مع الذين شكك فيهم، وبرهن على تجريمهم في محاكمـة علنيـة، وأصـدر أحكـامـاً قـاسيـة قضت بشنق بعضهم على المشنقـة، وبتدمير مقتنيـاتهم بعـد مصادرتها، وأرغم آخـرين على العيش حياة تعيسة بمثابة هائمين في الغابات.

وكان القدر لطيفاً تجاه لويس الســابع ملك فرنسا في أيامه الأخيرة، فيما يتعلق بزواجه الثالث، فلقد تزوج ثـلاث مرات بشكل قانوني، وفي الوقت الأعظم سعـادة —كما كتب في الحوليـات الفـرنسيـة— نتج عن زواجـه الثالث انجـاب ولي للعهد ذكر، وكان الملك قـد رزق من زواجيه الأولين بأربع بنات فقط، ورزق بعـد طول انتظار، إنما بسعادة بـولده فيليب، من زواجه الثالث، من أديـلا ابنة ثيوبولد العظيـم، كـونت بليوس، وقد أحب الشعب هـذا المولـود، وكـان رجال الـدين على استعـداد لتقبلـه، وذهب فيليب عنـدما كان في الـرابعة عشرة من عمـره إلى ريمس، وذلك بعـدما التقى برؤساء أساقفـة المملكة، وأساقفتها وبأمرائها، فقـد كان بحاجة إلى مـوافقـة هـؤلاء تماشيـاً مع عـادات المملكـة، ورسم في الأول من تشرين الثاني ملكـاً على فرنسا، وجـاء هذا بموجـب حق الوراثة، وبـرضى والده الـذي كان أبـاً وحـاكماً لجميع رعايـاه، وجـرى الرسم في ظل وقـار جميع القديسين حتى يتـولوا حمايته ضد أعـدائه، وكان الذي تولى رسـامته وليم رئيس أسـاقفة رايمس، وهـو خـال الملك، وفي أثنـاء هذا التتـويج كلف فيليب ملك فرنسا فيليب كونت فلانـدرز أن يكون تابعه الشخصي الذي يحمل سيفـه، ويعـدّ الاحتفالات الملكيـة، وامتلك كـونت فـلاندرز حقـاً مضاعفاً بهذا المنصب، وجاء ذلك من خلال والده ومن خلال زوجته.

وحضر الملك هنــري، ابن هنــري الثــاني، ملك انكلترا، وزوج أخت ملك فرنسـا، هذا التتـويج للروابط الـوشيجة التي تربطـه بالمتـوج، ولأنه

دعي لمشاهدة الاحتفال، ومع أن بريطانيا تستحق إلى أبعد الحدود أن ندعى عالما آخر، وغالبا مانسمع أن البريطانيين منفسمين بين أنفسهم، يبقى من الواضح أن مامن واحد من ملوك بريطانيا أو انكلترا اعترف بأن ملك فرنسا متفوق عليه، وهم بالحري اعتادوا أن يكونوا في الغالب أصدقاء، وقد قرروا في الرسائل المتبادلة فيها بينهم دعوة أحدهم الآخر بالأخ، وهذه عادة نجد حتى شارلمان قد راعاها بعدما جرى تتويجه امبراطورا للرومان، ولاحظ هنري الملك الشاب أنه حظي بتميز واهتمام أثناء الاحتفالات المهيبة، وقد مارس هذا الامتياز فتحدث مع جميع النبلاء أثناء وجوده، وهكذا تعلم من أفواه الشعب الفرنسي ماتعلق بالأحداث المستقبلية، واحتفظ الملك هنري الثاني بالتاج على رأس الملك الجديد، وذلك خشية من قول الذين قالوا إنه مازال شابا وأن التاج يجرحه، وأن هناك من هم أكثر لياقة بالقيام بهذا الواجب منه، فهو قد رفض دعوى هؤلاء، وكان من معاني هذا أن الفرنسيين إذا ما احتاجوا في أي وقت إلى مساعدة، يمكنهم بأمان طلبها من واحد ساعد أثناء تتويج ملكهم.

سنة ثمانين ومائة وألف

وكان الملك هنري يعلم أنه غالبا ماتسود آراء المستشارين الأشرار في ظل كلّ أمير جديد، لاسيما إذا ما كان ملكا شابا، لهذا اتخذ الملك هنري ملك انكلترا الاحتياطات خشية أن يتحول هذا لغير صالحه، لقد خشي من أن يقدم الذين يضمرون له السوء ويرغبون به إليه، فيقترحوا على ملك فرنسا بعض الخطط الضارة بالنسبة لأراضي نورماندي، لأن الذين عاشوا قرب حدودها خافوا من قوة النورمان ومما ينمتع به اسمهم من جبروت، فهذا كان معروفا في جميع أنحاء العالم، وجرى تكليف رتشارد

أسقف ونشستر من قبل الملك بـالعنـايـة بهذه المسألـة، فعبر القنـال يـوم ٦أيار،وأخـذ معه سفيراً تـابعاً وهو وولتر صـاحب كاونتننس، وهـو حافظ ختم الملك، وعنـدمـا وصـلا إلى بـاريس وجـدا الملك لـويـس طـريح الفراش، قد حنته طول أيام عمره مع المرض.

وانتخب رجـال الـديـن في ليمـوغـز Limoges سيبراند Se-brand عميد كنيسـة بواتـو أسقفاً لهم، وجـرى هذا دون الحصـول على موافقـة هنري الثاني ملـك انكلترا، أو رتشارد دوق أكوتين، وكعقـوبة لهذا السلـوك المهين، تمت مصـادرة ممتلكـاتهم، وهـدمـت بيـوتهم، واقتلعت كـرومهم، وعندمـا سمع البـابـا الاسكندر بهذا، أرسل تعليماتـه إلى وارين رئيس أسـاقفة بورغـز، ليتولى البحث في المسـألة، وليسعى لايجاد تسـوية، ومهما يكن الحال، عنـدمـا جـاء رجـال الـدين من ليمـوغـز إلى رئيس الأساقفـة، وجدوه ميتـاً، وهنا حتى لايبـدو أن جهودهم قـد ذهبت عبثاً، دس رئيس كهنة بـرايف Brive رسـائل البابـا، التي كـانت ماتـزال مختومـة في أيدي الرجل الميت قائلاً: «إن مـالم يمكنه انجازه أثناء حيـاته، دعوه ينجـزه في موتـه»، وقالوا: إنـه بهذه الوساطـة البارعـة توصل أسقف ليموغز إلى مصالحة مع الملك ومع الدوق.

وجـاء الملك هنري الشـاب، ابن الملك الكبير إلى انكلترا في الأول من نيسـان، وقـد استقبل بحفـاوة عظيمـة من قبل والـده، وأقسم في ردنغ بحضـور الآثار المقـدسة، أنـه سوف يتبع جميع تـوجيهات والـده في جميع المسـائل، لاسيما في توزيع البلـدات، والقـلاع والمنافع حسبما هـو وارد في مـرسـوم كـان مـوجـوداً هنـاك، وبعـد هـذا عبر الملك الكبير القنـال من بـورتماوس، وعبر الملك الشـاب من دوفـر، واحتفل الملك الكبير لـدى وصوله إلى فرنسا بعيـد الفصح في لامانس، وتزوج فيليب ملك فرنسا من مرغـريت ابنة بلـدوين كونت هينولت، التي كـانت أمها مـرغريت أخت كونـت فلاندرز، وجـرى العرس في لي تـرونشت Tronchet واحتفل

بالعرس في بابوم Bapaume وقد سمعنـــا الكثير عن روعة ذلك الزواج الذي لاينسى، وقد حدث في يوم ٢٩أيار، وهو يوم عيد القديس دينس، وكان غي رئيس أساقفة سنس هو الذي تولى سيامة مرغريت زوجة فيليب، ملكة لفرنسا.

وبعدما كان لويس السابع، قد تخلى عن صلاحياته وسلطانه للملك فيليب، سلمه خاتمه أيضاً، وهكذا بات من غير الممكن اتخاذ أي قرار يتعلق بالمملكة بدون معرفة ابنه، وثار نزاع بين الملك فيليب وأمه أديلا، فقد جرى الاستيلاء على عدد من القلاع مما تسلمته الملكة هدية زواج، وقام وزراء الملك فيليب فطردوا بعنف شحن هذه القلاع، وذلك بناء على تعليمات من الملك، وعلى كلّ حال تصالح الملك مع أمه عندما طالبا بتحكيم ملك انكلترا، وكان ذلك في مؤتمر الملكين الذي عقد في قصر غيسور Gisors يوم ٢٨حزيران، [وصدر عن هذا المؤتمر الاتفاق التالي نصه]:

«أنا فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، وأنا هنري ملك انكلترا بالنعمة نفسها، نرغب في أن نضع أمام انتباه جميع الناس، أننا الآن وفي المستقبل جددنا بإيمان وأيمان المعاهدة والصداقة التي عقدها سيدي الوالد ملك فرنسا، وهي المعاهدة التي أكدتها أنا هنري الثاني ملك انكلترا في آيفري بحضور الكاردينال بيتر، ورتشارد أسقف ونشستر، وقد أزيل كلّ سبب للخلاف بيننا، ويتعهد كلّ واحد منا أنه لن يطلب من الآخر أية أراض أو بلدان، أو أية أشياء أخرى يمتلكها، والاستثناءات لهذا سوف تكون أفرين Auvergne التي سببت الخلاف بيننا، واقطاع شاتـــرو Chateauroux والايجارات الصغيرة لأراضي بيري Berry وإذا مااحتل أي جزء منها، سواء ضدنا معاً، أو ضد واحد منا، أو على أي حال إذا لم نكن نحن قادرين على الوصول إلى اتفاق من خلال مناقشاتنا، فيما يتعلق بهذه المناطق التي استثنيناها من مواد الاتفاق العام،

فإنني أنا فيليب ملك فرنسا قد اخترت ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات، واخترت أنا هنري ملك انكلترا، ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات للبحث في هذه المسألة، وسنعترف بصدق بها سيوصون به مهما كان، ونعد بإيمان وأيمان أننا سنلتزم بجميع الشروط المتقدمة، وأبرمت هذه الاتفاقية يوم ٢٨حزيران فيها بين غيسور وتراي Trie».

واستلقى الآن لويس السابع مريضاً مرضاً شديداً في باريس، وقد أمر أن يجلب إلى أمامه جميع ذهبه، وكلّ فضته وجواهره وخواتمه، وثيابه الثمينة، وشارات زينته الملكية، ثم قام بناء على نصيحة أسقف باريس وراعي دير القديسة جينفف Genevieve بإصدار تعليماته بتوزيع ذلك كله بين الفقراء، وفي يوم ١٣أيلول توفي، ودفن في دير تابع لرهبنة سسترشيان Cistercian يدعى باربو Barbeaux الذي كان قد بناه على نفقته الخاصة.

وجاء فيليب أيمري، وهو رجل من مواليد تور، إلى انكلترا، بناء على دعوة الملك له، وتولى مهمة اصلاح النقود، وهكذا جرى في ذلك الشتاء، في يوم ١١تشرين الثاني سحب النقود القديمة، وحلّ محلها بالتداول في جميع أرجاء المملكة نقود جديدة شكلها دائري، وتقرر استخدامها في جميع مجالات الأعمال، وأسند إلى فيليب نفسه واجب مراقبة فوائد الخزينة، وهكذا بات عليه أن يكبح أساليب وخطط المزيفين، وعندما اكتشف أن الذين يتولون ضرب العملة يتلاعبون بالنقود، تعرض لنقد شديد، وعلى كلّ حال هو لم يتعرض لغضب الملك الذي حرره من خوف العقوبة، ومع هذا كله عزل من عمله وأعيد إلى فرنسا بدون وداع.

سنة إحدى وثمانين ومائة وألف

قيل اجتمع أربعة ملوك في معركة واحدة، وماهو أكثر إثارة وعجباً أن أربعة اجتمعوا بسلام في مؤتمر وغادروه متفقين وهؤلاء هم: فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وهنري ابن ملك انكلترا، ووليم ملك اسكوتلندا، لقد جاءوا واجتمعوا معاً، ثم افترقوا بسلام، وقرر فيليب ملك فرنسا، بناء على نصائح ملحة واقتراحات متتابعة أن يحذو حذو هنري ملك انكلترا، الذي تدبر ممارسة الحكم فوق مملكته الواسعة، مع أنها كانت مهددة بغارات السكوتلنديين والويلزيين المتوحشين، ومن أجل أن يتعلم بدقة أكثر مذاهب هذا الملك، قرر بناء على نصائح مستشاريه الداخليين، أن يخضع نفسه تماماً لتوجيه هنري وقيادته.

ووضع ملك انكلترا الكبير جميع نورماندي تحت اشراف ولده الملك الصغير، وأوعز إلى جميع وزراء تلك البلاد بطاعته، وتركه ليتولى المراقبة العامة مع الحماية لفيليب ملك فرنسا، إذا ما اقتضت الحاجة، والآن وجميع المقاطعات كانت تدار وفقاً لرغباته ولقوانينه السلمية، وكانت كلها تتمتع بفوائد السلم الذي جاء بوساطة حكمه، عاد إلى انكلترا يوم ٢٨ تموز، وقام بزيارة كانتربري وهناك صلى ووهب صلواته للقديس توماس.

وعندما سمع فيليب كونت فلاندرز كيف أن فيليب ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا متعايشان بشكل حميم، جند أكبر عدد تهيأ له من الفلمنكيين حتى يتمكن من القتال ضد مولاه الاقطاعي، وأعلن أن الأمور قد وصلت إلى نقطة بات عليهم فيها إما تدمير حصون أعدائهم، أو أسرهم ومن ثم إرغام الملك على التسليم والتفاوض، وحاول الآن أكثر من هذا فبعث برسل إلى فردريك امبراطور الألمان، ثم ذهب إليه

شخصياً لاقناعه بالوقوف ضد ملك فرنسا، ومدّ حدود مملكته إلى القنال الانكليزي، وهكذا لم يقم الكونت فيليب رعاية إلى العمر الغض لمولاه الملك، وتناسى تماماً العهود التي أكدها للملك لويس في أنه سيراقب الأمور وسيتولى حماية ابنه وتوجيهه إلى ماهو صحيح، وهنا هاجم نويون Noyon مع أكبر قوة استطاع حشدها وقد عاثوا فساداً في المنطقة الموجودة حول سنلس Senlis فهدموا البيوت واقتلعوا الكروم.

وكان هنري الملك الشاب ابن الملك الكبير، ورتشارد دوق أكوتين، وغيوفري دوق بريتاني —ثلاثة أولاد يحملون شهادة على انجاب أمهم— متشوقين إلى شغل الفراغ الناجم عن غياب أبيهم، بتقديم البرهان على شجاعتهم، وقد خططوا للتصدي بكل ماأوتوه من قوة لخطط هؤلاء الرجال الأشرار، الذين يرغبون بالتسلط على الملك البريء، ملك فرنسا الشاب، وحشدوا ثلاث قوى من جميع أرجاء البلاد، وجاءوا بمثابة قوة واحدة لمساعدته.

وقرروا أولاً أن يتخلصوا من كونت ستيفن، السيد الشرير لقلعة سانسير Sancerre وتمكنوا في أيام قليلة من نهب ممتلكاته وتدميرها، مع بلداته وقلاعه وأراضيه، وأعطوا بمثابة غنيمة نحو خمسة آلاف آلة فلاحة مع ثيرانها إلى شعب برابانت، وبما أن قوات الكونت كان مُتفوق عليها وكانت غير قادرة على المقاومة، فقد انكب الكونت على قدمي ابن أخته الملك فيليب وسأله العفو والمغفرة ونال ذلك منه تجاه أعماله العدوانية، وتحرك الملكان (فيليب وهنري الشاب) نحو الأمام ومعهما قواتهما، فألحقا خسائر فادحة بدوق بيرغندي، وبالكونتسة صاحبة شامبين التي كانت أختاً لكلا الملكين، وبأتباعهما، اللذين —ثانية— كانت قواتهما قد تم التفوق العددي عليها، ثم تحركا نحو الخلف شمالاً، فأرغما كونت فلاندرز على التراجع، وخشي الكونت من مواجهة الملك هنري ابن ملك انكلترا وجهاً لوجه، فأغلق على نفسه أبواب قلعة كريبي

Crepy واتخذ موقف الدفاع، وقد قيل لولا المشورة الخادعة التي تلقاها ملك انكلترا من مستشاريه لم تعق خططه، لجرى ارغام الكونت الذي اتخذ موقف الدفاع في قلعته، على الاستسلام، لأنه امتلك من الطعام مايكفي لعدة أيام فقط.

سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف

التقى فيليب ملك فرنسا مع ملكي انكلترا: الأب والابن، وفيليب كونت فلاندرز، والكونتات الذين جاءوا من جميع مناطق فرنسا، وكانوا بناء على نصائحه قد حنثوا بعهودهم تجاه مولاهم، التقوا في سنليس Senlis بعد عيد الفصح، وكان هناك هنري أسقف ألبانو وممثل البابا، ووليم رئيس أساقفة ريمس مع كثير من الأساقفة، ومن الممكن رؤية ماتفقوا عليه من الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى رتشارد أسقف ونشستر.. التحيات:

أعاد فيليب كونت فلاندرز بيرفورد Pierrefords إلى ملك فرنسا، وأعادها الملك إلى أسقف سواسون، وأعادها الأسقف إلى أغاثا أرملة هيوج أوف أوسي Oisi التي تملكتها بحق الوراثة، باقرار صحيح منه في بلاطه أو في بلاط الملك، وبقي كونت كليرمونت ورالف دي كوسي Chuci تماماً في أيدي ملك فرنسا، محررين من كونت فلاندرز، وحلل فيليب كونت فلاندرز ابني هنري من جميع الاتفاقات المعقودة بينهما، ووافق على وجوب قيام بارونات الفلمنكيين بالخدمة لدي مقابل أجر أعطيهم إياه، وسيفقدون ايجاراتهم بدون تعويض إذا لم يقوموا بخدمتي، واتفقنا زيادة على هذا أن لايفقد أحد من رجاله أراضيه في فلاندرز بسبب خدمتهم لي،

وذلك إذا مـاجـاءوا لخدمتي في أراضيّ، ومــادام قـد عـاد كلّ شيء إلى السلام، فـالذيـن تخلوا عن الـولاء والتبعية لملك فـرنسا، سـوف يعودون إلى الخضوع له، وذلك بناء على رأي وعمل ملك الانكليـز، وتمت تسوية مسألة الأضرار على كلا الطرفين بتعويضات متبادلة».

وبينما كـان روجر رئيس أسـاقفة يـورك حياً، طلب من البـابا الاسكنـدر الامتياز التالي:

إذا ماقـام واحد من رجـال الدين العاملين تحت ادارتـه بكتابـة وصية وهو على فراش الموت، لكنه لم يوزع ممتلكاتـه بيديه، لرئيس الأساقفة الحق في أن يضع يـديه على مقتنيـات الـرجل الميت، وبما أنه يتـوجب على كلّ من يصدر قـرارات قانـونية حـول انسان آخر، أن يتنبـه لنفسه،هكـذا نفذ حكم الله العـادل، فبعد وفـاة رئيس الأسـاقفـة جرت مصـادرة كلّ شيء وجد في خـزائنه، وبلغ هـذا أحد عشر جنيهاً من فضـة العملة القـديمة، وثلاثمائة قطعـة ذهبية، وطشت من الذهـب، وسبعة طشـوت من الفضة، وتسعة كـؤوس من الفضة، وثـلاثة طشـوت من خشب القيقب، وثـلاثة ممالـح من الفضة، وأربعين ملعقة من الفضـة، وثمانية صحون من الفضة، ووعاء كبير من الفضة وقواعد فضية.

وثار هنـري دوق السكسون، وزوج مـاتيلدا كبرى بنـات ملك انكلترا، ضد فيليب رئيـس أساقفة كـولون، وسبب لـه مضاراً كبيرة جـداً، وحشد رئيس الأساقفـة قوى من جميع المناطق من حولـه، وقاوم الدوق برجـولة، وتلقى العـون والعنايـة من الامبراطـور، وتطورت الأمـور بشكل وصل إلى حـد أنـه عندمـا أعلن قـرار جميع أمـراء الامبراطوريـة، أرغم الـدوق على الخضوع للنفي، فجـاء إلى ختنه في نـورمانـدي ومعه الدوقـة مع اثنين من أولاده: هنري وأوتو، وابنة كانت في سن الـزواج، أما الابن الثالث ويدعى لوثر فقد بقي في ألمانيا، وقـد استقبل هناك بحفاوة، ومكث هناك أكثر من ثلاث سنوات وهو يلقى الرعاية والعناية والكرم الملكي.

سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٤٣ توفي جون بورفيروجنتوس Porphyrogenitus امبراطور القسطنطينية، متسمماً في أنطاكية، مخلفاً وراءه ولدين، وقد اختفى الابن الأكبر مخلفاً ولداً اسمه أندرونيكوس، وجرى تعيين الابن الأصغر، أي مانويل، امبراطوراً، ذلك أنه كان أكثر شعبية لدى الاغريق.

وتوفي الآن في حوالي هذا الوقت مانويل في القسطنطينية، بعدما حكم لحوالي أربعين سنة، تاركاً وريثاً له ابنه الأصغر ألكسيوس، الذي كان قد رزق به من ابنة الأمير ريموند، أمير أنطاكية، الذي كان عم إليانور صاحبة أكوتين، وتظاهر أندرونيكوس بالسلام، فجاء إلى القسطنطينية وأقسم يمين التبعية لألكسيوس في كنيسة أياصوفيا، ووضع التاج الملكي على رأس ألكسيوس، وركب وسار خلال المدينة وألكسيوس على كتفيه.

لكن مالبث أندرونيكوس أن غير سياسته: فذبح بشكل وحشي البروتوفستياروس Protovestiarus [المسؤول عن القصر]، وقتل الامبراطورة، أم ألكسيوس، وكلّ واحد عرف أنه كان مخلصاً للامبراطور مانويل، واغتصب العرش لنفسه، وقد قيل إنه أغرق ألكسيوس ثم تزوج من أرملته، يعني أغنس ابنة الملك لويس السابع ملك فرنسا.

وفيما أجاب الموت البشري على كلّ إيماءة عملها الملك الكبير حول كلّ شيء تقريباً، كان هذا الملك حريصاً على ممارسة توقعاته من أجل ازدهاره، خشية أن يتبدد كلّ شيء مفيد للسلام، وكان قلقاً حول إقامة سلام أكثر ثباتاً بين أولاده، وذلك حتى يتجنب الخصام بين الأخوة الذي هو أمر طبيعي في كثير من الأجيال، وهكذا سأل الملك الشاب أن يتلقى الولاء والتبعية من أخيه غيوفري من أجل دوقية بريتاني، التي تملكها غيوفري بمثابة بائنة —دوطة— لزوجته كونستانس، وكانت الابنة

الوحيدة والوريثة لكونت كونان Conan وكان كونتــات بريتاني مرتبطين منـذ قديم الزمان بـرباط الخضوع هـذا لدوقات نورمـاندي، من خلال منحة من ملوك فرنسا.

وجرى تنفيذ ماطلبه الأب في أنغر Angers وحتى يعقد الأب الأمور أكثـر، طلب بعد ذلك من ابنـه هنري أن يتخلى لأخيـه رتشارد عن دوقية أكـوتين حتى يتملكها رتشارد وورثتـه بشكل دائم، ثم أعلن الملك الشاب أخيراً لوالـده أنه متحالف مع عدد كبير من بارونـات أكوتين ضد أخيه رتشـارد، وأنه التجأ إلى هـذا في الوقت الذي قـام فيه رتشـارد، ضد رغبـاتـه ومصـالحه، بتحصين قلعـة كليرفـو Clairvaux بشكل كبير، وهذه القلعة قد كانت من أقدم الأزمنة خاضعة لكونتات أنجو،

لكن حتى لايـزعج والده، أقسم بكل تـأكيد على كلّ مـاسأله والـده، وكـان ذلك في ميربـو Mirebeauواشترط أن يقـوم رتشارد بعـدمـــا يقدم له الولاء والتبعية أن يقسم أيضـاً على التبعية له على الآثار المقدسة، ولدى سماع هذا، انفجر رتشارد غاضبـاً، وقال كما يبدو: بما أنه انحدر من الأب نفسه ومن الأم نفسهـا مثله مثل أخيه، لايجوز بالنسبـة له الاعتراف بأخيه الأكبر منـه بالتفـوق عليه مع نـوع من الخضوع، لكن بحكم قـانون المنفعة لـلأخ الأكبر الحق بالأشياء العـائدة للأب، ثم ادعى حقاً مسـاوياً لأخيه في الأشياء العائدة للأم.

وعندمـا سمع الملك الأب هـذا انفجر غاضبـاً، وهدد بخلق المتـاعب لـرتشارد، وقـال بصيغة تـوبيخ بأن الملك الشـاب كان على وشك القيـام بتأديب رتشارد وإزالة غطرسته، وطلب من غيـوفري دوق بريتاني الوقوف بإخلاص إلى جانب أخيه بحكم أنـه مولاه الاقطاعي، وهكذا حمل الملك الشـاب السلاح ليس ضـد والده، كما فعل ذلك مـراراً، بل ليقدم العـون

إلى البوتيفيين Poitevins الـذين كـان رتشـارد يتـولى ظلمهم بعنف ويغير عليهم بشكل غير عادل، وهـؤلاء البوتيفيون كـانوا يقاتلون ليكـونوا خاضعين لـه بموجب القانون العـام، دون أن يكون أي واحد من أخـوته متسلطاً عليه.

ولقد تحدثـوا فيما بينهم، لكن عندمـا لم تظهر بـارقة أمل بـالسلام، جمع الملك الشـاب جيشـاً كبيراً، وتـرك والده الـذي يعـرف أن حكم أكـوتين عائد إليـه طوال حياتـه، وأمر جميع حلفائه حيثما كـانوا وأينما كانـوا وكان عددهم بالالتحاق به للقتال ضـد رتشارد، لكن حدث أن حياته قطعت وهي قصيرة، وكأنها قطعت بيد حـائك، وانقطعت معها آمـال عدد كبير كانوا يقاتلون من أجله ويأملون بالحكم معه بعد وفاة والده.

فالذي حـدث أنه في يوم ١١حزيران، في منطقـة تدعى تورين Tu-renne في غسكـوني، بين أناس متخلفين تماماً في قلعـة مارتل، تـوفي هنـري الملك الشـاب، بعـدمـا عـاش ثمان وعشرين سنـة، وأربعـة عشر أسبـوعاً وستـة أيام، تـاركـاً للرأي الحكيم الموافقـة على أن الأبناء الـذين يثورون ضد آبائهم، الذين يـدينون بكل شيء لهم: بوجودهم وبها يعيشون منه، وبمن من ثرواتهم يتـوقع أن يصبحوا أغنياء، جديـرون فقط بالحرمان من الميراث.

ودهن جسـد الملك الشاب بكل عنـاية، ولف بـالأردية الكتانيـة التي لبسهـا وقت تتـويجه، وحمل على أكتـاف رفـاقـه خـلال القـرى والقـلاع والبلـدات، والنـــاس يهرعـون من كلّ جـــانب للنظـر، حتـى وصلـوا إلى لامانس، حيث وضع في شرفـة جوقة المرتلين في كنيسة القديـس جوليان، وهرع أعيـان البلدة فجأة إلى الكنيسة، وبموافقـة شعبية عامـة جرى دفن جسد الملـك هناك بسرعـة، وذلك مثلما رقد جسـد جده لأبيـه في المكان نفسـه، لكن نقل فيما بعـد إلى روان بناء على طلب روبـرت عميـد روان، لأن الملك عندما كان حياً اختـار ذلك المكان ليكون موضع دفنه، وأدخل

بـالتـوقير الـلائق بأمير إلى كـاتـدرائيـة روان ووضع على الجانب الشمالي للمذبح المرتفع.

سنة أربع وثمانين ومائة وألف

وبعـدما رتب ملك الانكليـز جميع المقاطعـات التي تحت حكمه وفقـاً لـرغبـاتـه، وبـاتت جميع رعـايـاه تتمتع بمنح السـلام، عبر إلى انكلترا في ١١ حزيران، وعبر خـلال فلاندرز بأذن وترحـاب من الملك الفرنسي وقدم في هـذه الأونة دوق سكسـوني مع بيتـه وحـاشيتـه ومقتنياتـه إلى انكلترا، وبعد أيام قليلة ولدت الدوقة في ونشستر ولداً ذكراً أطلق عليه اسم وليم.

وجـاء فيليب رئيس أساقفـة كولـون بـرفقة فيليب كـونت فلانـدرز في رحلتـه إلى انكلترا ليقدم الصلـوات إلى القـديس تـومـاس في كانتربـري، وقدم الملك لاستقبال رئيس الأساقفـة والكونت، وطلب منهما السفر حتى لنـدن، وعندمـا وصلا استقبـلا استقبـالاً لانظير له، وكـانت المدينة مليئـة بـالـزينـة، وكـانت الشـوارع مكتظـة بحشـود مسرورة، وجـرى الترحيب بالـزائرين بحفاوة وسرور عظيمين، ورافق رئيس الأساقفـة موكب رسمي، وتم الترحيب به في كاتدرائيـة القديس بولص، كما واستقبل في وستمنستر أيضاً، في اليوم نفسه، وكان هنالك مـوكب رسمي آخر مع تزيينات ملكية رائعة، وكـان الانفاق كبيراً، وقـدمت في الموائد العظيمـة أطعمة أكثـر مما يستطيع الضيوف تناوله، ومكث رئيس الأساقفـة خمسة أيام بمثابة ضيف في القصر الملكي في وستمنستر، وعندما غادر أتحف بكثير من الهدايا.

واعترف البابا برهبانيـة سانتياغو Santiago العسكرية، وتميز هـؤلاء الجنـود عن الآخـريـن بـالسيـف الأحمر الـذي كـان شعـارهـم —رنكهم— وكانت قاعدتهم في اسبـانيا، وكان المطلوب منهم استخدام

طاقاتهم في الصراع ضد المسلمين.

ومات أرنولد مقدم فرسان الداوية في فيرونا Verona.

سنة خمس وثمانين ومائة وألف

قام هرقل بطريرك القدس مع روجر مقدم بيت الاسبتارية، برحلة إلى الغرب، وقد هتافرا خلال ايطاليا إلى فرنسا يطلبان العون، لكن ليس من المولى البابا، ولا من امبراطور الرومان ولامن ملك فرنسا، وعوضاً عن ذلك أبحرا إلى انكلترا، وقدما إلى الملك في ردنغ وقد شرحا الأسباب التي حدت بهما للقيام برحلتهما الكبيرة (فهي رحلة لم يكن لها نظير) ورويا بالتفصيل المضار العظيمة التي لحقت بالمدينة المقدسة، وقد حركا عواطف الجماعة كلها، ودفعا الملك وجميع الحضور إلى التنهد والدموع، ووضعا بين يدي الملك بعض الأشياء التذكارية المتعلقة بميلاد يسوع المسيح، وبآلامه ثم بقيامته، ذلك أنهم أعطوه قطعة من صليب الصلبوت، ومفاتيح برج داود، ومفاتيح كنيسة القيامة، وعرض الملك هذه الأشياء كلها بتبجيل عظيم.

وجرى تنصيب رتشارد، الرئيس الجديد لأساقفة كانتربري يوم ١٩أيار، وتم استقباله بموكب مهيب في دير القديس أوغستين، وأقام قداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦أيار.

وعندما كان هربرت، وهو رجل انكليزي من مدلسكس، مسافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف

١٩أيار، وتـم استقباله بموكـب مهيب في دير القديـس أوغستين، وأقام قداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦أيار.

وعندمـا كان هربـرت، وهو رجل انكليزي مـن مدلسكس، مسـافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثـم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف برئيـس الأساقفة، ورجـال كنيسته وأهل بيتـه وحاشيته وجـزء كبير من المدينـة، وجرى تهديـم عدد كبير مـن القلاع وتعـرض كثير من النـاس للقتل، واختفت مدينة وغرقت في البحر الأدرياتيكي بكاملها أثناء الليل عنـدما كـان جميع النـاس نيـام، وكان هنـاك زلزال في انكلترا أيضـاً، في الشمال، وتهدمت بعض الأبنية في بعض الأماكن.

وكان هناك خسوف للشمس في بعد ظهر يوم ١أيار.

وزار ملـك فـرنسـا ملـك انكلترا الـذي كان مـريضـاً في بيـوفـويـر Beauvoir يوم ٩تشرين الثاني ومكث لمدة ثلاثة أيام.

سنة ست وثمانين ومائة وألف

في ٢٧كـانون الثـاني تـوج رئيـس أساقفـة فينـا فـردريك امبراطـوراً للامبراطورية الـرومانية المقدسة، وكان ذلـك في ميلان، وفي اليوم نفسه توج بطريرك أكويلا aquileia هنري ملكاً للألمان، وقد دعي منذ ذلك اليوم بلقب قيصر، وتولى أسقف ألماني تتويج كونستانس عمة وليم صاحب صقلية، وجرى هذا في دير القديس أمبروغيو Ambrogio.

واجتمع الملكـان الفرنسي والانكليـزي، وكونت فـلاندرز، وكـونتسة

شامبين، ومرغـريت أرملة الملك هنري الشاب، في غيسـور يوم ١٠أيار، ونوقش الخلاف بين ملك انكلترا، ومرغريت حول بائنتها —دوطتها— وحول حصة الزواج، وجرى التوصل إلى تسوية مصالحة.

وكان هناك خسوف للقمر يوم ١٦نيسان بعد غياب الشمس مباشرة، وكسوف للشمس يوم ٢١نيسان، بعد الفجر مباشرة.

واستولى الملـك هنري على قلاع أكوتين التـي كانت على درجة عـالية من الحصـانة بفضـل الطبيعة وبراعـة الانسان، وأعطـاهم للشحـن التي أرادها، ومع أن رتشارد كـونت بواتو كان مغضباً جـداً لم يشتك لوالده، وهكذا مـع تمتع انجو، وتـورين، ومين، وبريتاني، ونـورماندي، بـالأمن والهدوء، عـاد الملـك إلى انكلترا، ونــزل سعيـداً في ثـاوثـأمبتـون يـوم ٢٧نيسان، وعبرت الملكة مع الملك على المركب نفسه.

وبعـد نــزول الملـك إلى اليـابسـة، زار أسقــف ونشستر في مـارول Marwell وأمضى الليـل في ونشستر، وكان رئيس أسـاقفة كـانتربري قادمـاً لرؤيـة الملك، وعندمـا سمع الملـك بذلك بـادر مسرعاً للقـاء به، وأظهر لـه كلّ احترام يستحقه، وفي هذا المقـام تجاوز تواضعه ومـااعتاد عليـه أجداده، وجـرى استقبال رئيـس الأسـاقفة في مـوكب مهيـب في ونشستر يوم ١أيار.

وتوفي غيوفري دوق بريتـاني، ابن ملك انكلترا يوم ١٨آب، وكان في الثامنـة والعشرين من عمـره، ودفن في شرفـة جوقة المرتلين في نـوتردام باريس، وخلف ابنتين من زوجته كونستانـس ابنة كونت كونان صاحب بريتاني.

وعادت مـرغريـت أخت الملك فيليـب، ملك فـرنسا وأرملـة هنري الملك الشـاب، إلى باريـس مع قطار كبير، وكـان ذلك يـوم ٢٤آب، ثم تزوجت بعد هذا من بيلا ملك هنغاريا، ودلماشيا، وكرواتيا، وراما.

وبنـاء على أوامر مـن الملك اجتمـع رتشـارد عميد لنكـولن ومعظـم رجـالـه في آينشـام يـوم ٢٤أيـار، وبعد اجتماع طـويـل حـول مشـاكـل كنيستهم، جـرى انتخاب هيوج —وهـو بيرغندي مـن غرونوبـل، كان رئيسـاً لرهبـانية كـارثوشيـان Carthusian في انكلترا— أسقفاً للنكولن، وكـان ذلك بحضور عدة أسـاقفة، وتم ارسال عـدة رسل إلى بيرغندي لإخبار رئيـس رهبانية دير لى غرانـد تشارترو Chartreus الذي أعطى موافقته، وهكذا رسم هيوج، الذي تمتع بشعبية واسعة، أسقفاً للنكولن يوم ٢١أيلول في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

بحـث آدم أوف آينشـام في مسألـة انتخـاب أسقـف لنكولـن، وتتبـع بوصف حي سيامته وتعميده.

كان هذا الكرسي المقدس شاغراً منذ قرابة الثمانية عشرة سنة، وأدرك الملك مـلامته تجاه أوضاعـه المهملة، وأن شعـوره المحزن يرجـع بشكل واضـح لعـدم اهتمامـه بـه، ولهذا قـرر بـذل مجهـوده لتـدارك واصـلاح الفـوضى التـي نجمـت عن طـول الاهمال، وذلك مـن خـلال العنايـة باختيار راع نشيط.

وبما أن رجال الدين كانوا منقسمين بشكل لا أمل بتداركه، فقد قيل:

إن كلّ واحد منهـم رغب بانتخابـه هو ولاأحد سواه، وحثهـم عدد كبير من الناس ونصحـوهم بمحاولة الحصول على هيـوج راعي وايتهام ليكون أسقفاً لهم، ذلـك أنه كان رجلاً متميزاً بمحاسنـه، وقد أثنى كثير من القوم على قـداسته وحكمته، ورفعوا جاذبيتـه وتقواه إلى السموات، واتفق الجميـع على أنه كان هو الشخـص الوحيد الذي حـوى الفضائل كلها مع أصالـة المولد، وكان هناك اتفاق عام أنـه لايمكن ايجاد أسقف مناسب أكثر منه.

أما وقـد وصف هذا مـن قبل جيرالـد رئيس شمامسة القـديس داود،

وذلك بين بعض الحوادث الأخرى الهامة المرتبطة بالقديس، يبدو من المفيد نقل كلماته واقتباسها، فهاكم روايته:

«وفي العودة إلى أسقف لنكولن، أعتقد أن عليّ عدم حذف حادثة لاشك أنه أريد بها أن تكون شارة وبشارة حول معاني قدومه، ففي اليوم —أو قريباً منه— الذي توج فيه هيوج أسقفاً للنكولن، كان هناك قرب عزبته على مقربة من ستو Stow التي تقع على مسافة تقارب الثمانية أميال من لنكولن، بقعة جميلة محاطة بالأشجار والبحيرات، وصلت إليها فجأة بجعة لم تر هناك من قبل، وقد تمكنت خلال أيام من قتال وقتل البجعات الأخريات هناك، وذلك بفضل وزنها وحجمها، واستبقت ذكراً واحداً،أبقته للصحبة وليس بقصد الانجاب ، وكانت هذه البجعة أكبر من بقية البجعات مثلما تكون البجعة عادة أكبر من البطة، ولكنها شابهت في كلّ شيء آخر في لونها وبياضها بجعة عادية، باستثناء أنها لم تمتلك العرف الأسود والمنتفخ، الذي يوجد عادة فوق المنقار، وبدلاً من ذلك كان ذلك الجزء من المنقار عريضاً وبراقاً، ولونه أصفر، وكذلك كان رأسها والجزء الأعلى من رقبتها.

وما ان وصل الأسقف إلى قصره للمرة الأولى، حتى تحول هذا الطائر الملكي في مظهره غير الاعتيادي وحجمه، بشكل مفاجيء إلى طائر مدجن تماماً، فقد ترك نفسه يُمسك بدون صعوبة، وقد حمل إلى الأسقف لينظر إليه، وقد سمح له على الفور باطعامه، وبقي معه بمثابة حيوان أليف، وبدا بعد وقت قصير أنه فقد توحشه، ولم ينأى عن ملاحظته، لابل بدا أنه لايعبأ بالأصوات الصادرة عن الحشود في كلّ مكان، ولايهتم بسواد المشاهدين الذين يأتون ويذهبون بشكل متواصل، واعتاد هذا الطائر عندما كان الأسقف يتولى اطعامه أن يدس رقبته

الطويلة في الفتحة الواسعة لكم قميصه، وهكذا ارتاح رأسه على الطيات الداخلية، وكان يمكث هكذا لبعض الوقت يتنفس بلطف، وكأنه يتكلم بغرام وسعادة مع صاحبه، ويطلب شيئاً ما منه.

وزيادة على هذا ذكر الموظفون ومساعدوهم الذين كانوا مسؤولين عن العزبة، أن الطائر كان يظهر نشاطاً عظيماً ليس معتاداً قبيل عودة الأسقف من سفر كان بالعادة يغيب فيه ثلاثة أيام أو أربعة، فكان يطير على وجه النهر، ويضرب الماء بجناحيه، ويصدر أثناء ذلك أصواتاً عالية، وكان يقوم من وقت إلى آخر بمغادرة الماء، ويسرع إلى الدخول إما إلى القاعة أو إلى البوابة، وكأنه ذاهب لمقابلة صاحبه لدى وصوله، ومن المتصور أنه كان مثله مثل طيور السماء حساس جداً بسبب طبائعهم الاحترازية، وكذلك هم يتوقعون وقوع تغييرات في عناصر الهواء أو حدوث حوادث قبل وقوعها، ويبدو ذلك من تصرفاتهم، ولعل هذا الطائر كان يعرف قرب وصول مولاه بالغريزة من استعدادات ونشاط خدمه، ومثير للانتباه، أنه كان على كلّ حال صديقاً وأليفاً مع واحد فقط هو الأسقف، وفي الحقيقة، أبقى كلّ انسان، كما رأيت بنفسي، بعيداً عن مولاه، عندما كان معه، بالتصويت عليهم، أو بتهديدهم بجناحيه ومنقاره، كما كان ينعق بصوت مرتفع كما كانت عادته مع البجعات، وبدا كلّ ذلك وكأنه قرر أن يوضح تماماً أنه يعود له فقط، وأنه كان رمزاً مكرساً فقط للقديس وحده.

وعندما زار الأسقف ذلك المكان في عيد الفصح الأخير الذي حل قبل رحيله من الأرض، لم يكتف الطائر بعدم القدوم لمقابلته كما هي العادة، بل إنه رفض أن يغادر البقعة التي كان يسبح فيها، حتى يجلب إليه، وكان مدهشاً لكل انسان، أنه مكث فوق الماء ينظر بحزن وكأنه مريض، وكانت حركاته واهنة، وأخيراً أمر الأسقف أن يجلب إليه، أرضي أم لم يرض، ولمدة ثلاثة أيام حاول عدد كبير من الناس بصعوبة

فعل ذلك، لكن جاءت جهودهــم بلاثمار، وأمسك في النهاية بين بعض النباتات النـامية الكثيفة في منطقة نـائية من البحيرة هناك حيـث كان قد التجـأ خوفـاً من الامسـاك به، وعنـدما أحضر إلى الأسقـف كان مـدلى الرأس، وتنبعـث منه رائحة التعـاسة، وصـورته صورة الحزن، وكـانت واقعة غريبة أدهشت كلّ من رآها.

وكانت زيارة الأسقف قصيرة جداً، وبعـد ستة أشهر سار على طريق جميع الأجساد، ولم يـر ثانية من قبـل صديقه الطائر، وعنـد ذلك لاحظ الذين تفكـروا حول المسألة أن الأجـواء الحزينة كان معناهـا أنه سيودع حزينـاً قريبـاً مولاه لآخـر مرة، ولقـد عاش بعـده، على كلّ حـال، لمدة طويلة».

وعلى الرغم من أن هدفي العظيم تجنيب قرائي التعب بالدوران معهم طويلاً، أعتقد أن عليّ أن أبين أنه كان أقـل اعتدالاً في قضية الطعام بعد وصـوله إلى مـركـز الأسقفية، مما اعتـاد عليه مـن قبـل، فهو لم يلمـس اللحـوم سواء في مـرض أو في صحة، لكـن كثيراً مـاأكل السمـك، ولم يتمنع عـن الخمرة كليـاً، بل شربها بـاعتدال لحاجـات الجسد الضعيـف وذلك حسبما نصح الرسول، وكذلك رغبة منه في أن يضرب مثلاً في أن كلّ شيء لكـل الناس، وابتغى أيضاً أدبـاً وتيسيراً أن يجعل الذين كـانوا يأكلـون معه مـرتاحين ولايشعرون بـالحرج، فقد كـان يجلس إلى المائدة مسروراً وفيه حيويـة، ولكن بالوقت نفسـه كان حزيناً متحـرزاً، متذكراً على الدوام، لابل ناقلاً للذين حثوه على أن يكون مسروراً، النص الذي جـاء في سفـر إستير وفيـه: «جعلنـا جمال القـديسيين مسروريـن»، وإذا ماحدث أحياناً في الحفلات الكبرى سـواء في بيته أو عندما يكون ضيفاً في مكان آخـر، وتكون هناك موسيقـى أو تمثيل، كان يُظهر أعظـم تمنع، فنادراً مارفع عينيه من على الأرض، وأظهـرت كلّ كلمة أو حركة بدت منه للذين كانوا حضوراً المدى الذي انسحب فيه وانعزل به نهائياً بشكل

كامل، وكأن مشاعره الخارجية هي فقط التي جذبت بهذه المتع الحلوة.

وبسبب براءته النقية، التي جعلته مخزناً عظيماً للاخلاص والبساطة، امتلك القديس عواطف غير عادية نحو الأطفال، بسبب سذاجتهم الكاملة، وبهذا شابه كاتب الكمال الذي قال لمريديه:

«دعوا الأطفال الصغار يأتون إليّ ولاتمنعونهم فبهم ومعهم مملكة السموات»، وكان حيثما وجدهم، لاطفهم بمحبة وبحنان ملائكي، لابل حتى عندما كانوا لايستطيعون الكلام، ويصدرون أصواتاً مؤثرة، واعتاد على أن يرسم علامة الصليب على جباههم وعلى أفواههم وعيونهم، ويباركهم مرات ومرات، ويصلي لسعادتهم وتقدمهم، وكانوا هم بدورهم يغدون أصدقاء له بسرعة مدهشة، حتى الذين بالعادة كانوا يخافون من كلّ انسان تقريباً، كانوا يقبلون عليه بجاهزية أكثر من إقبالهم على آبائهم.

ولقد رأيت طفلاً كان عمره حوالي الستة أشهر، عندما رسم على جبينه علامة الصليب بالزيت المقدس، عبرّ عن سرور عظيم بتحريك أطرافه، حيث ذكرنا هذا بسرور التعميد، والقفز داخل جرن المعمودية، واسترخى الفم الصغير والوجه في حالة ابتسامة مستمرة، وبدا أمراً لايكاد يصدق أنه في السن الذي عادة يصرخ فيه الأطفال ويبكون أمكن لهذا الطفل أن يضحك بهذه الطريقة، ثم انحنى ومدّ نحو الخارج ذراعيه الصغيريين وكأنه يحاول الطيران، وحرك رأسه إلى الأمام والخلف، وكأنه أراد أن يظهر أن سروره كان أعظم مما يستطيع تحمله، ثم أخذ يده بيديه الصغيرتين، وبذل جهد طاقته ليرفعها نحو وجهه، ثم تابع لعقها عوضاً عن تقبيلها، وقد فعل ذلك لوقت طويل، وكان الحضور مندهشين برؤية المنظر غير الاعتيادي للأسقف والرضيع وهما مسرورين برفقة بعضهما، وأعطى الأسقف الطفل تفاحة وعدة أشياء أخرى يحبها الأطفال بالعادة، لكنه رفض ابداء السرور بها، وبدا أنه

مستغرق ومنـدهش بالأسقـف، ودفع بشدة يدي الممـرضة التي كـانت تمسكه، وحـدق بشدة نحـو الأسقف وصفـق بيديـه وهو يبتسـم طوال الوقت.

وعندما أبعـد أخيراً، عبرت الجماعة عن دهشتها تجاه هـذا المشهد غير الاعتيادي، وأعلنت أنها لم تشهد قط مخلوقاً صغيراً بهذا الحجم يعبرّ عن مثل هذا السرور العظيم.

وعندما كان هيوج في دير فيكامب Fecamp . الواسع الشهرة حصـل بالعـض على قطعتين صغيرتين من عظـم ذراع مريـم المجدليـة، الأعظم قداسة بين محبي المسيح، ولم ير أحـد هذا العظم قط وهو معرى مما لفّ به، سواء في ذلك راعي الدير أو الرهبان الذين كانوا حضوراً في تلك المنـاسبة، لأنـه كان محاطاً بـإحكام بثلاث قطـع أقمشة، اثنتـان من الحرير وواحدة من الكتان العادي.

وهم لم يتجـرأوا حتى على الموافقـة على توسـلات الأسقف لـرؤيته، ومهما يكن الحال، أخـذ الأسقف سكيناً مـن واحد مـن الموثقين، وقطع بها بسرعة الخيط وكشـف اللفائف، وبعدما تفحص العظـم بكل تبجيل وقبله بكل تقديس حاول بلا نجـاح كسره بأصابعه، وعندها عضه أولاً بقواطعه وأخيراً بأضراسه، وبهذه الطـريقة اقتطع قطعتين صغيرتين منه، وناولهما على الفـور إلى الموثق قائلاً له: «اعتـن بهاتين القطعتين من أجلي عناية خاصة».

وعندما رأى راعـي الدير والرهبـان ماحدث، أصيبوا أولاً بـالرعب، ثم استبد بهم غضب شديد، وصرخوا قائلين:

«ماهـذا الاثم العظيم، لقـد اعتقدنـا أن الأسقف طلب أن يـرى هذا الأثر المقدس والمبجـل لأسباب تعبدية، فغـرس أسنانه به وقضمـه كأنه كلـب»! وسكّـن غضبهـم بكلمات ملطفـة، وجزء مـن كـلامـه جـديـر

بالتسجيل، من ذلك قوله:

«إذا كنت قمت منذ وقت وجيز مضى بحمل الجسد الأعظم قداسة، جسد مولى جميع القديسين، بأصابعي، وذلك على الرغم من عدم جدارتي، وعندما تركته لمسته بشفتاي وأسناني، فلماذا يتوجب عليّ ألا أغامر في أن أعامل بالطريقة نفسها عظام القديسين من أجل حمايتي، فبهذه الذكرى منهم تضاعف احترامي لهم وتبجيلي، وحصلت بدون تدنيس عليهم عندما توفرت الفرصة لي»؟.

سنة سبع وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٨٧، كما أوضح ديسيتو كان الملكان الانكليزي والفرنسي يستعدان مرة جديدة للحرب.

وفيما مملكته تتمتع بمنح السلام، عبر الملك هنري القنال من دوفر يوم ١٧ شباط، ومضى من خلال فلاندرز، ومكث في قلعة اسمها هيسدن Hesdin ودخل بعد ثلاثة أيام إلى نورماندي إلى درينكورت Drincourt.

وولدت كونستانس كونتسة بريتاني، التي كانت حاملاً وقت موت زوجها غيوفري ابن ملك انكلترا، ولداً ذكراً سماه البريتانيون آرثر.

وبينما كان ملكا فرنسا وانكلترا يحشدان الجيوش في بورغز Bourges ويعبثان قواتهما ويسلحانها من أجل الحرب، عقدا هدنة في تشاتورو Chateauroux يوم ٢٣حزيران لمدة سنتين، وقد دفع كلّ منهما إلى الآخر تعويضات عن الأضرار، وذلك بدلاً من اخضاع

المسائل لحكم رب الحرب المشكوك به.

وولدت مرغريت ملكة فرنسا للملك فيليب ولداً ذكراً؟ أطلقت عليه اسم لويس.

وكتب فرسان الداوية الرسالة التالية إلى المسيحيين:

«يالـلأسف، مـامن رسائل أو صـوت نائح يمكنـه أن يصف، أو أن يعدد المصـائب التي أنزلها علينـا غضب الرب، نتيجة لإثـارته بذنـوبنا، فلقـد حشد الأتـراك جيشاً كبيراً مـن شعبهم وغـزوا المملكة المسيحيـة، وحشدنـا نحن قواتنـا، وزحفنا في يومـي ٣و٤ تموز وقاتلناهـم، وتحركنا باتجاه طبريـة التي استـولوا عليها بـالقوة، وذلك بـاستثناء القلعـة فقط، ولقد ساقونا ناكثين نحو شعب جبلي مرعب جداً، وهزمنا هزيمة شنعاء حتى أن صليب الصلبـوت تـم الاستيلاء عليـه، وقتـل ملك القـدس، وكذلـك مقدمنا، ومعهما جميـع جيشنا تقريبـاً واخواننا، ونحـن على هذا نعتقد أن مائتين وثلاثين رجلاً قطعت رقابهم في ذلك اليوم، وذلك دون أن نذكر الستين الذيـن قتلوا في الأول من أيار، وكان كونـت طرابلس، واللورد أرناط صاحب صيدا، واللورد بالين (أوف ابلين) ونحن أنفسنا قد نجونـا من ذلك المعترك المأساوي، بكـل صعوبة، ووصلنا مـن هناك ونحن ممرغون بالدم المسيحي.

وقـد ذهبوا ومعهـم جيشهـم كله إلى عكـا، ثـم استـولوا على مجمـل المنطقة تقريباً، مبقين القدس وعسقلان وصـور في أيدينا، وقد قتل جميع سكان هذه الأمـاكن في المعركة، ومالم تصلنـا المساعدات الربـانية وعون الناس الشرفاء بكل سرعة، لن نكون قادرين على الصمود في وجوههم، وصور محاصرة حصاراً شديداً في هذه اللحظـة، وهم يقاتلونها باستمرار ليلاً ونهاراً، وهم في أعداد عظيمة إلى حـد أن جميع المنطقة من صور إلى القدس نزولاً إلى غزة، تبدو وكأنها عش نمل».

وحمل رتشارد كونت بواتو، وابـن هنري الثاني، والأول بين بارونات فرنسا، الصليب وتناوله من يد رئيس أساقفة تور، وذلك دون أن يسأل أباه، أو ينتظر حتى يسمع رغباته.

سنة ثمان وثمانين ومائة وألف

التقى في ٢٢كـانون الثاني ملكـا الفرنسيين والانكليز للتـداول، وبعد نقاش طويل، كان الملـك الانكليزي الأول في تناول الصليب من رئيسي أسـاقفة صـور وروان، وبعد ذلـك تنـاول الملك الفـرنسي الصليب مـن رئيسي أساقفة صـور ورايمس، ثم أخذه فيليب أوف فـلاندرز، والتحق به أيضاً عـدد كبير، واتفقوا فيما بينهم على أن يرتدي الفرنسيـون صلباناً حمراء، والانكليـز صلبانـاً بيضـاء، والـذين هـم مـن فـلاندرز صلبـانـاً خضراء، وبعدما حمل الملـك الانكليزي الصليب أرسل محاسـب بلاطه، ورتشـارد بـاري Barre رئيـس شمامسة ليـزو Lisieux إلى امبراطوري روما والقسطنطينية.

وفي هذه الآونة قتل غيوفري أوف لوزغنان Lusignan صديقاً لرتشارد كونت بواتو في كمين نصبـه له، وحمل الكونت رتشارد السلاح لانـزال العقوبـة بمقترفي هـذه الجريمة، وقـام وهو يتـذكـر أنه قـد حمل الصليـب، بالسماح لمن أراد مـن رجـال غيـوفري حمل الصليـب، بفعـل ذلك، وقتل عدداً كبيراً وجعلهم طعمـة للسيف، واستولى على عدد كبير مـن القـلاع، وثبـت غيوفـري لاعتماده على القـوة والمال، الـذي —كما قيل— جاءه من الملك الانكليزي، وقـاوم الكونت وتقدم بعض الشيء، ولهذا السبب ابتعد رتشارد كونت أوف بواتـو عن أبيه، ودخل الكونت رتشارد إلى بـلاد غسكوني، وهاجـم كونت طـولوز، وتمكن خـلال مدة

وجيزة من الاستيلاء على سبع عشرة قلعة في منطقة طولوز، لكن بعدما تلقى الدعم من البرابانكونيين، وغضب ملك فرنسا غضباً شديداً لإقدام رتشارد كونت بواتو على الهجوم على مملكته، وفاجأ قلعة تشاتورو Chateauroux في بيري يوم ١٦حزيران وأرغم سكانها على تقديم ولاء التبعية له، وبدا هذا كله غير لائق تماماً بالملك، لاسيما بعدما حمل الصليب، لذلك عبر ملك انكلترا إلى انكلترا، بعدما أودع جميع أراضيه في حفظ ملك فرنسا، الذي تلقى الوصاية بإيمان طيب.

ثم كسب ملك فرنسا إلى جانبه بالوعد والوعيد بعض حفظة القلاع الذين كانوا خاضعين للملك الانكليزي، وعندما سمع الملك هنري بهذا عبر إلى فرنسا في حوالي ٢٥تموز، وحشد جيشاً كبيراً من الانكليز، ومن التخوم، ومن الويلزيين والبريتانيين، غير أنه أبقاهم متوقفين لأيام كثيرة يعيشون في الخيام في نورماندي حتى أصبحوا متشوقين للهجوم على فرنسا.

والتقى أخيراً الملكان، وعقدا مؤتمراً في يوم ١٦آب بين غيسور وتراي، استمر ثلاثة أيام، وعندما انفصل الملكان من الجانبين من دون اتفاق، أمر ملك فرنسا بقطع شجرة قرب غيسور لكن جذرها كان داخل المملكة الفرنسية، وغادر الملك الانكليزي غيسور في اليوم التالي، وجاز خلال فيرنون Vernon وغزا فرنسا، وعاث بالبلاد فساداً حتى مانتي Mantes.

و في يوم ١٨تشرين الثاني عقد اجتماع فيها بين الملكين الانكليزي والفرنسي في بونزمولين Bonsmoulins كان رتشارد كونت بواتو قد أعده، وعندما وصلا إلى المؤتمر للتباحث اقترح الملك الفرنسي أن يرد إلى الملك الانكليزي كلّ شيء استحوذ عليه منذ حمله الصليب، وأن يبقى بعد هذا كلّ شيء على ماكان عليه قبل حمل الصليب، ورد عليه ملك الانكليز، بناء على نصيحة رجال الدين وكذلك البارونات أن من

الأفضل الدخول في سلام ثابت بدلاً من تطويل خصام الطلبات.

وعندما سمع رتشارد بن هنري وكونت بواتو، هذا، تكلم ضده،لأنه بدا لـه من غير المناسـب اعادة كـويرسي Quercy على أساس هذا الشرط، وأيضـاً اعادة جميـع المقـاطعـة وأشياء أخـرى كثيرة في مملكتـه، تساوي ألـف مارك أو أكثر كـلّ سنة، مـن أجل ايجار تشاتـورو، وقلعة ايسودون Issoudun وغراسي، وطلب كونت بـواتو شيئاً آخر، فقد سأل والده أن يعطيه أخت الملك الفـرنسي لتكون زوجة له، وطالب أن يقـوم الملك هنـري بتأكيـد تملكـه لأراضيه على أسـاس ولي عهد الملـك ووريثـه، وقد طـالب بهذا كلـه مـن خلال الملـك الفرنسي، ورد الملـك الانكليزي أنـه لن يفعل هذا، بسبـب أنه سيبدو مسلوب الحريـة مرغماً، وقام بعد هذا كونت بواتو، على مشهد من الجميع بتقديم الولاء للملك الفرنسي عن كـلّ مايمتلكه والده مما يعود إلى المملكة الفرنسيـة، وذلك باستثناء أراضي أبيـه مادام حياً، والاحتفاظ بـالاخلاص الذي يديـن به لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وجرى تمديد الهدنة حتى ١٣كانون الثاني.

سنة تسع وثمانين ومائة وألف

رسالة أخبار من الشرق:

«هُزم جيش صـلاح الدين عند أنطـاكية، وشرع أمير أنطاكية يـركب يوميـاً ويسير بعيداً حتـى حلب، واستـولى أدميرال مرغـريت على يـافا، وقتل جميـع الأتراك الـذين كـانوا هنـاك، وقتل خمسـة آلاف منهم وأسر ثمانية أمـراء، واستولى أيضاً على جبيـل وقتل كـلّ واحد هناك، وهـاجم صاحب مُلا Mulla وهو واحد مـن مقدمي صلاح الـدين، صلاح الديـن، وهذا مافعلـه أيضاً صاحـب ماردين، وقـاتل الخليفة، صـاحب

بغـداد، الـذي هـو رئيـس جميـع الأتراك، صـلاح الـديـن بقـدر مـاكـان باستطاعته، وإنكم لتعلموا أن سلطان قـونية قد زوج ابنته إلى ابن صلاح الدين، وزوج صلاح الدين ابنتـه إلى ابن السلطان، ومعروف بشكل واسع كيف أن قطـز(★) Kuteyez ابـن صلاح الـديـن قتـل زوجته، ابنــة السلطـان، ذلـك أنه مـن المؤكـد وبـلا أدنـى شك، كما يقـول الجميـع، تحققت نبوءة دانيال القسطنطيني التي قالت:

إنه مـع اقتراب حلول يـوم الفصح، سيسترد الفـرنسيون أرض الميعـاد، وسيربطون خيـولهم في حدائق نخيـل بغداد، وسينصبـون خيامهـم خلف الشجـرة الجافة، وسيفصلـون البيقيـة عن القمـح، وأنتـم تعلمون بشكـل مؤكد أنه قد توفر ممر في البوسفور.

وبات معـروفاً بشكل واسـع أن السلطان يكره امبراطـور القسطنطينية، لأنه لم يدفـع له الأربعمائة دينار ذهبي التـي توجب عليه دفعهـا كلّ سنة منـذ أن أصبح امبراطـوراً، كما أنه لم يـدفـع له الثـلاثمائة دينار الأخـرى، وانتبهوا أيها الأخوة لماقاله لنـا الامبراطور في إحدى المرات، حتى لاتنخدع العين، وفيما عـدا ذلـك، يمكنني أن أخبركـم أن كثيراً مـن الترك وقعـوا بالأسر عنـد صور، إلى حد أن اثنين مـن الترك يمكن بيعهما بقطعة نقـدية bezant واحـدة، ويقـال وضـع صـلاح الديـن في سجنـه رسـولاً مــن يـوستاس بـاتـريكوس وبـالين، الذي اتخذ لنفسـه زوجــة، زوجة ملـك

★ ـــكذا، ولم يكن بين أولاد صلاح الديـن من حمل هذا الاسم، ومن الممكن قراءة هذا الاسـم «قطب» وبالفعل كان لصلاح الـدين ولد اسمه موسـى، ولقبه قطب الـدين، ولـد بمصر سنة ٥٧٣، أي كان عمـره وقت هذه الحادثة حوالي اثنتي عشرة سنـة. شفاء القلوب للحنبلي ـــط. بغداد ١٩٧٨ص١٩٦.

القدس، عندما سلمه كونت طرابلس أرض الميعاد، وأنتم تعرفون أن الامبراطور قد أبدى احتراماً نحو رسل صلاح الدين في قصره أعظم مما أبداه نحو أي واحد آخر كان هناك من ذوي المناصب، وبعدما سلم صلاح الدين جميع كنائس الأرض المقدسة إلى رسل الامبراطور، وبناء عليه من الممكن أن تدار وفقاً لعادات الاغريق، وعليكم ألا تثقوا باغريقي حتى لو عاهدكم بيده، وإنكم لتعلمون أن صلاح الدين أرسل، بناء على موافقة الامبراطور وثنه [كذا] إلى القسطنطينية ليعبد بشكل علني هناك، لكن بنعمة من الرب تم الاستيلاء عليه في البحر من قبل الجنويين، وقد أخذ مع السفينة إلى صور، وهناك الآن أنباء أن جيش صلاح الدين قد توقف عند أنطاكية.

ولقد قيل بأن النبوءة التي أخبر بها اغريقي مسن من أسترالكس Astralix اللورد وولتر مقدم الداوية، والتي أغضبت الاغريق سوف تتحقق الآن، وفيها أن اللاتين سوف يحكمون مدينة القسطنطينية وسيكونون سادتها، لأنه قد كتب على البوابة الذهبية التي لم تفتح منذ مائتي سنة انقضت، إنه: «عندما يأتي الملك صاحب الشعر الأحمر من الغرب، أنا سوف أفتح من قبل ذاتي»، وجرى تسميم آسان Asan ذلك الرجل الطيب، في ثيابه الامبراطورية، ووعد الامبراطور صلاح الدين بتقديم مائة شيني، وأعطاه صلاح الدين وعداً بجميع أرض الميعاد، إذا ماتولى الامبراطور منع وصول الملك الفرنسي، وأخبركم بصدق أنه إذا مالمس أي انسان صليب القسطنطينية سوف يعتقل على الفور ويلقى به في السجن، وإليكم على كلّ حال نبوءة فلكي تركي قالت:

إنه في ثلاث سنوات، سوف يموت ثلث الأتراك بحد السيف، وسوف يفر الثلث الثاني إلى ماوراء الشجرة الجافة، أما الثلث المتبقي فسوف يعمد، ولهذا نحن نعرف أن صلاح الدين في الحقيقة لم يعد

بإمكانه ايجاد أي تركي يرغب في عمارة أرض الميعاد، أو يأخذوا أسرهم إلى هناك خوفاً مـن وصول الفرنسيين، وفي اليوم الذي غادر فيـه حامل هذه الرسالـة القسطنطينية، جاء بعض الرسل يقـولون إن جيش صلاح الدين قـد جرى تدميره عند أنطـاكية، وأن أخاه وابنه قـد وقعا بالأسر، وفي اليوم الـذي غادرت أنا فيه أمر الامبراطور بمحق جميـع اللاتين في امبراطوريته، وإنكم لتعلمـون أنه بنعمة من الرب يوجـد في مملكة قونية خمسـة آلاف من الأرمـن الجيـدين مـع خمسة وعشريـن أميراً جـاهزيـن للذهاب مع الفرنسيين للدفاع عـن المسيحية، ولتحرير الأرض التي ولد فيها مولانا يسوع المسيح، ومات».

وعقدت بعد عيـد الفصح المقبل مباحثات بين ملكـي فرنسا وانكلترا ورتشارد كونـت بواتو، مرتين في لى فيرت بـرنارد La Ferte Ber-nard لكن في النهـاية، انسحب الطـرفان بعد محادثـات مطولة بمثـابة أعداء.

تمّ وصـف الأيام المأساوية الأخيرة مـن حكـم هنري الثاني، ثـم موت الملك، بشكل جيد في كتاب «أعمال الملك هنري الثاني».

غـادر فيليب ملـك فـرنسا واستـولى على لى فيرت بـرنارد، وفي يـوم الاثنين التالي، عنـدما بدا أن ملك انكلترا ورجـاله قد غدوا على مسـافة آمنة مـن النقطة القصـوى لزحـف الملك الفـرنسي، أعد الملـك الفرنسي جيشه وعبأ صفـوفه للمعركة بهدف الهجـوم على مدينة لامانـس، وفعل هذا بعدما رأى مـافعله ستيفن صاحب تور والمشرف على أنجـو بإلقائه النار في الـربض، لكـن النار زاد التهابها وبـات حجمها هـائلاً، فقفزت عبر الأسوار وجعلـت المدينة نفسها طعمـة للهب، ووقع عـدد كبير من رجال جيش الملك الانكليزي بالأسر، أما البقية فقد عجزوا عن الحرب،

وكانوا يرغبون بالتراجع إلى المدينة، وتمكن الفرنسيون من شق طريق معهم، ولدى رؤية ملك انكلترا مايحدث خاف كثيراً على جماعته، فحنث بوعوده، وهرب من المدينة مع سبعين فارساً، ذلك أنه كان قد وعد سكان المدينة أنه لن يتخلى عنهم في وقت المحنة، ومرد هذا بالدرجة الأولى إلى أن والده مدفون هناك، وفي الدرجة الثانية إلى أنه هو نفسه قد ولد هناك، كما أنه أحب تلك المدينة أكثر من حبه لغيرها، وطارده الملك الفرنسي لمسافة ثلاثة أميال، ولولا أن نهر سارث Sarthe الذي توجب على الفرنسيين عبوره، لم يكن يجري بارتفاع عظيم، لتولوا مطاردة الفارين الآخرين بسرعة كانت ستمكنهم، كما تأكد بشكل عام، من أسرهم جميعاً.

وعلى كلّ حال جاء الملك الانكليزي ومعه حاشية صغيرة إلى شينون Chinon ثم انسحب إلى داخل القلعة التي كانت هناك، لكن بقية آل بيت الملك تراجعت إلى حصن قلعة لامانس، وعلى الفور حاصرها ملك فرنسا وهاجمها بآلات حربه ورماياته، وبعد حصار دام ثلاثة أيام استسلمت القلعة أخيراً مع ثلاثين فارساً وستين رجلاً مسلحاً.

وقدم في يوم الأحد التالي فيليب كونت فلاندرز، ووليم رئيس أساقفة ريمس وهيوج دوق بيرغندي إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في سامور Saumur لقد قدموا بمباردة شخصية منهم بدون رضا الملك، للسعي لإقامة تسوية بينهما، لكن ملك فرنسا كان قد أنذرهم قبل انطلاقهم في رحلتهم، أنه سيقوم رغماً عنه، بالإعداد لهجوم على المدينة من قلعة سان مارتن، التي كان قد عاد إليها عبر نهر اللوار.

وتمّ يوم الاثنين التالي في الثالث من تموز، وعلى حوالي الساعة الثالثة الاستيلاء عنوة على مدينة تور، وكان الهجوم عليها قد أقلع به من على ضفاف نهر اللوار، وذلك نتيجة لانخفاض مستوى مياه النهر، —انخفض حجم الماء إلى أدنى المستويات— فأسندت من هناك السلالم

على الأسوار، وكـان في داخل المدينـة ثمانين فارسـاً ومائة رجـل مسلح، فأخذوا جميعهم أسرى، وبات ملـك انكلترا الآن في وضع حرج، لذلك أقام سلاماً مع ملك فرنسا، وفق الصيغة التالية:

«يضع هنري ملك انكلترا نفسـه في جميع الأشياء والامور تحت رأي وارادة فيليب ملك فـرنسا، إلى حد أن كل مـاأعده ملك فرنسـا وأمر به سينفذه ملك انكلترا كلياً وبدون اعتراض.

أولاً: قدم ملك انكلترا مجدداً الولاء للملك فـرنسا، بسبب أنه، كما ذكر أعلاه، قد سلـم جميع ممالكه إلى ملك فـرنسا، الذي كافأه في بـداية هذه الهدنة.

ثانيـاً: قرر ملك فـرنسا أن أختـه أليس، التي يحتفـظ بها ملك انكلترا تحت وصايته ستسلم وتـوضع تحت وصاية واحد من خمسـة [بارونات] سوف يختارهم رتشارد صاحب بواتـو، زيادة على هذا تعهد ملك فرنسا أن تمنح أختـه الأمان بيمين رجـال هذه البلاد، لتكـون زوجة للكـونت رتشارد إثـر عودته مـن القدس، ولسـوف يحصل الكونـت رتشارد على تبعيـة رجال أراضي أبيـه في هـذا الجانب مـن القنـال، وفي الذي يليـه، وكذلك مـامن واحد من البـارونات أو الفرسان الـذي سحبوا ولاءهم من ملك انكلترا في الحرب الحاليـة، والتحقوا بجانب الكـونت رتشارد، سـوف يعود في المستقبـل إلى ملك انكلترا، فيما عـدا الشهر الأخير قبـل انطلاقه نحو القدس.

والوقت المحدد لهذه الرحلة سيكون منتصف الصوم، ولسوف يلتقي الملكان المذكوران مع رتشارد كونت بواتو في ذلك التاريخ في فيزلي.

وكـذلك سـوف يحلل جميـع سكـان الممتلكات الملكيـة العائدة لملـك انكلترا في جميـع أراضي الملـك الفـرنسي بمـوجب عـاداتهم القـانـونيـة ولسوف لن يقاضون في أية مسألة مالم تكن جناية اقترفوها.

وقد دفن في فـونتيفرولت Fontevrault في دير الراهبـــات اللائي يعبدن الرب هناك.

ومدد في اليوم الذي تلا وفاتـه، عندما حمل إلى الدفن، في وضع ارتدى فيه مـلابسه ببهاء ملكي، وقد وضـع التاج الذهبي على رأسه، وفي يـديه قفازين، وخاتم ذهبي على اصبعـه، ممسكاً الصولجان بيده، مرتـدياً حذاء مزركشـاً بالـذهب، وهناك مهمازين على قدميـه، متمنطقاً بسيفـه، ووجهه غير مغطى، وعندمـا روي هذا لابنه الكـونت رتشارد جـاء مهرولاً بأقصى سرعة ليستقبل الموكب، ولـدى وصولـه أخذ الدم يتـدفق من أنف الملك المتوفى، وكأن روحـه تحركت سخطاً، وتبع الكـونت المذكور مـوكب جسد والده وهو يبكي وينتحب، حتى وصل إلى فونتيفرولت، حيث دفن.

القسم الرابع

رتشارد الأول

١١٨٩-١١٩٩

شارك رتشارد قلب الأسد والده في بعض قدراته الادارية، لكن ماتميز به هو القتال، فلقد شن الحرب بشدة ووحشية وحماسة طوال معظم مدة حكمه، حيث حوّل ممالكه من خلال نشاطاته إلى حالة القرب من الافلاس، وحمله هوسه إلى الأراضي المقدسة في ١١٩١-١١٩٢، في حملة صليبية كانت من بعض الجوانب ناجحة، غير أنها انتهت بشكل مأساوي، ووقع بالأسر وهو في طريق عودته إلى انكلترا، وبقي معتقلاً ينتظر الفدية، في سجن ألماني في ١١٩٣-١١٩٤، وما أن عاد إلى موطنه، حتى رجع رتشارد إلى ساحة المعركة، وفي هذه المرة ضد زميله في الحملة الصليبية فيليب الثاني ملك فرنسا، وواجه رتشارد منيته المبكرة سنة ١١٩٩، أثناء مناوشة صغيرة مع حليف لفيليب كونت أكوتين.

ونبعت عداوة الملك الفرنسي نحو رتشارد من سبب رفض قلب الأسد الزواج من أخته أليس، وذلك على الرغم من خطبته لها منذ سن الطفولة، هذا من جانب، ومن جانب آخر لزواج رتشارد من بيرنغاريا النافارية، هذا ولم ينجب هذا الزواج لرتشارد ولياً للعهد، وأعطى هذا إلى أخيه جون مساحة واسعة لخطط تآمرية.

ونجد من جديد في الجزء الرابع أن كتاب «صورة التاريخ» لرالف

ديسيتو، هو المصـدر الرئيسي لهذه المرحلة التي وصـف بها حوادث حكم رتشارد.

بعدمـا رتب رتشـارد كونت بـواتو المسـائل على أحسن مـايرام لضمان السلام والهدوء في أكـوتين، وانجو، وتوريـن، ومين، وصل إلى نورمـاندي، وجاء وصوله بعـد ثلاثة أسابيع من وفـاة والده، في ٦ تموز ١١٨٩، والتقى بكـل مـن رئيسي أسـاقفة كـانتربـري وروان في سيـز Seez وسأل العفو، وتلقى الغفـران لاقترافه جريمة حمل السلاح ضد والـده، بعد حمله شارة الصليـب للقيام بحملـة صليبية، ومـن هناك ذهـب إلى روان حيث تسلم علم وسيف دوقية نورمانـدي من يدي رئيس أساقفة روان، وحدث ذلك أمام المذبح المرتفع في كنيسة العذراء المقدسة، وكان على مشهد من حشد من النبلاء.

ثـم ذهب إلى انكلترا، واستقبـل هنـاك استقبالاً عظيماً في ونشستر يـوم ١٥آب، وأسند إلى الملكة إليانور التي كـانت تحت حراسة مشددة، سلطة العمل كنائبة لابنها، وفي الحقيقـة أصدر التعليمات إلى أمراء المملكة، على شكـل مرسـوم عام، بـأن كلمـة الملكة ينبغـي أن تكـون قانـوناً في جميع المسائل.

وبما أن رتشارد كـان قد قـاوم والده، وبـذل كما يبدو الكثير مـن الجهد لإثارة القوى الفرنسية التي كانت معـادية للنورمان، لهذا كسب عدم رضا النـاس الطيبين والعاقلين، وقـد أراد الآن —على كـلّ حال— أن يغسـل جميع تجاوزاته الماضية، باظهار التشريف لأمـه، وكان يأمل أن طاعته لأمه سوف تسهم في تلطيف أعماله العدوانية ضد أبيه.

وأظهرت هـذه الحوادث صدق النبوءة التـي حيرت الجميع بغمـوضها حيث قالت: «سوف يفرح النسر صاحب الـرباط المقطوع بفرخه الثالث»،

فلقـد دعـوا الملكـة النسر، لأنها مدت جناحيهـا -كما حـدث- فـوق مملكتين هما: فـرنسـا وانكلترا، فقد انفصلـت عـن الـرباط الفـرنسي مـن خـلال الطـلاق، بينما فصلها الانكليـزي وأبعـدهـا عـن فراش الـزوجيـة بحبسها بـالسجن (لقـد سجنت سـت عشرة سنة تمامـاً)، وهكذا كـانت بالنسبة للبلدين «النسر صاحب الـرباط المقطوع»، ومن الممكن فهم الجزء الثاني مـن النبوءة قـولها: «سوف يفرح بفـرخه الثـالث» كما يلي: لقـد كان أول أولاد إليانـور هو ابنهـا وليم، الـذي توفي وهـو مايـزال طفلاً، وارتقـى ابنها الثاني إلى مرتبـة ملك، غير أنه حمل السلاح ضد والده، وسـدد ديونه إلى الطبيعة، وكان رتشارد هو ولدها الثـالث، وهو على هذا الفرخ الثالث، وهو أيضاً الذي سيتولى رفع اسم أمه إلى أعالي المجد.

وعندما علمت الملكـة إليانور أن خيول الملك هنري الثـاني محفوظة في اصطبـلات الـديـرة، وزعتهـم ومنحتهم على شكـل أعمال كـرم تقـويـة، واحتفظت بخـدمات الرجـال الذين عهد إليهـم بأمر العنـاية بالغـابات، وهددتهم بانزال عقوبات قاسية بهم.

وبناء على دعوة من رئيـس أساقفة كانتربري اجتمع الأسـاقفة الآخرون في لندن يـوم ٣-أيلول من أجـل تتويج الملـك الجديد، وجاء أيضـاً رعاة الـديـرة ورؤساؤهـا، وحضرت الملكـة إليـانـور بناء على طلـب الإيـرلات والبـارونات، وكبـار المسـؤولين، هذا ومـن غير الممكـن تعداد أسماء جميع الأساقفـة الذيـن حضروا، لكن رؤسـاء أساقفـة كانتربـري وتريـف ودبلن كانوا هناك.

قدم كتـاب «أعمال الملك رتشـارد» تفاصيـل حية ومشرقـة وصف بها تتويج رتشارد.

هنا بداية احتفال تتويج ملك انكلترا:

جاء أولاً الأساقفة ورعـاة الديرة وعدد كبير من رجال الـدين، كلهم قد

ارتدى ثيـاباً أرجوانيـة، تتقدمهم الصلبان، والشمـوع والمباخر حتـى باب القاعة الـداخلية، وهناك استقبلوا رتشـارد المتقدم الذكر، وهـو الذي كان سيتوج، وقادوه إلى داخل كنيسة وستمنستر على هـذه الصورة حتى المذبح في موكب وقور تتخلله التراتيل.

وسار في المقدمـة رجال الدين، في الملابس البيضـاء، وهم يحملون الماء المقـدس، والصليب والشمـوع والمبـاخر، ثـم تـلاهم رعـاة الـديرة، ومـن بعـدهم الأسـاقفـة، وسـار على أي حال وسـط هـؤلاء النـاس أربعة مـن البارونات يحملون الشمعدان بالشموع.

وجـاء بعدهـم جـون مارشـال وهو يحمـل في يـديه مهمازيـن واسعين وثقيلين أخرجـا من خزانـة الملك، ومضى بعـده غودفري دي لـوسي وهو يحمل الصدرية الملكية.

وجاء من بعدهم اثنان من الإيرلات هما: وليم مارشال، إيرل بامبروك، ووليـم إيرل سـالسبري، وكـان وليم مـارشـال يحمـل الصولجان الملكـي، الذي كـان على رأسه شكـل صليب ذهبـي، وكان وليـم إيرل سـالسبري يحمل العصا الملكية التي كان على رأسها حمامة.

وجاء من بعدهـم ثلاثة من الإيرلات هم: داود أخـو ملك اسكوتلندا، وإيرل هنتغدون، وروبـرت إيرل ليستر، وبينهما جون كونـت مورتين وإيرل غلوستر، وهـو أخو رتشارد، وكانـوا يحملون ثلاثـة سيوف مع أقربـة ذهبية رائعة أخرجت من خزانة الملك.

وجاء بعدهم ستة إيرلات وبارونـات يحملون لوحاً واحداً وضعت عليه الأردية الملكية والثياب. وقدم من بعدهم وليـم دي ماندفيل كونت أوميل وإيرل ايسكس، وهو يحمل تاجاً ذهبيـاً بين يديه، وجاء بعده رتشارد دوق نورمانـدي وكونت بواتو، وسـار عن يمينه هيوج أسقـف درم، وعن يساره رينالد أسقف باث Bath وحمل من فوقهم غطاء ذهبي، وسار إثرهم

.مهور الإيرلات والبارونات والفرسان مع الآخرين بأكملهم، من رجال .دين وغير رجال دين، وتابعوا سيرهم في داخل الكنيسة ومن خلالها وصولاً حتى المذبح.

وبعدما وصل الدوق رتشارد إلى المذبح أدى ثلاثة أيمان لمن تقدم ذكره من رؤساء الأساقفة والأساقفة، والإيرلات، والبارونات ورجال الدين وبسواهم من الشعب، لقد أقسم ووعد على الأناجيل الأعظم قداسة وعلى الآثار المقدسة لعدد كبير من القديسين أنه سيحمل في نفسه ·سلام، والتشريف والاحترام نحو الرب والكنيسة المقدسة ورجال الدين بها جميع أيام حياته، ثم أقسم بعد هذا أنه سيطبق العدالة الطيبة نحو 'شعب الموكل إليه حكمه، ثم أقسم أنه إذا كان في مملكته أية قوانين د.سدة أو عادات سوف يدمرها، ويعلي شأن ماهو جيد مكانها.

ثم نزعوا عنه ثيابه التي كان يرتديها باستثناء قميصه، وسراويله، ولم يكن قميصه مخاطاً عند كتفيه.

ثم ألبسوه نعلين حيكا من الذهب.

ثم وضع رئيس الأساقفة الصولجان في يده اليمنى والعصا الملكية في يده اليسرى.

ثم صب بلدوين رئيس أساقفة كانتربري الزيت المقدس فوقه على ثلاثة أجزاء من جسده، هي: على رأسه، وعلى كتفيه، وعلى ذراعه الأيمن، وذلك مع الصلاة المحددة لهذا العمل، وهكذا عمّده ملكاً.

ثم وضع على رأسه غطاء مقدساً من الكتان وقلنسوة فوقه، ثم ألبسوه الثياب الملكية، أولاً المئزر ثم القميص.

ثم أسند إليه رئيس الأساقفة السيف ليردع به الذين يقترفون إثماً ضد الكنيسة.

ثم ألبسه الإيرلان مهمازين ذهبيين من خزانة الملك.

ثم لبس الرداء، وبعدها اقتيد إلى المذبح، وهنا حذره رئيس الأساقفة ومنعه بوساطة سلطات الرب، أنه كرجل لايجوز له استخدام مكانته لنفسه، مالم يكن قد دار في خلده عدم الاحتفاظ بأيمانه ووعوده التي اتخذها قبل قليل، وقد أجاب أنه بعون الرب، سيراعي كلّ شيء قاله من قبل ويعلي شأنه باخلاص وإيمان.

ثم أخذ التاج من على المذبح، وأعطاه إلى رئيس الأساقفة، ووضعه رئيس الأساقفة على رأس الملك.

واقتيد إثر هذا الملك إلى عرشه، وعلى يمينه هيوج أسقف درم، وعلى يساره رينالد أسقف باث وهما يقودانه، وكانت الشموع والسيوف الثلاثة المذكورة من قبل تسير أمامه.

ثم بدأ القداس الرباني، وعندما وصل إلى التقدمة، قاده الأسقفان المتقدم ذكرهما نحو مذبح التقدمة ثم أعاداه إلى العرش.

وبعد انتهاء القداس، وبعدما جرى تنفيذ كلّ شيء طبقاً للطقوس، قاد الأسقفان المتقدم ذكرهما، الملك المتوج عائدين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وهو يحمل الصولجان في يده اليمنى والعصا الملكية في اليسرى، وساروا بشكل منتظم من الكنيسة إلى منزله في موكب، ثم عاد الموكب إلى جوقة المرتلين.

ثم وضع الملك جانباً تاجه، وثيابه الملكية، وارتدى تاجاً ألطف وثياباً أخف، وبهذه الصورة جاء الرجل المتوج إلى الوليمة، وجلس رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة وبقية رجال الدين معه إلى مائدته الخاصة، وجلس الإيرلات والبارونات والفرسان إلى موائد أخرى واحتفلوا بشكل رائع.

وبعد الفراغ من الـوليمة، وصل قادة اليهود، معانديـن لمرسوم كان قد صدر عـن الملك، ففي اليوم المتقـدم كان الملك قـد منع بوساطـة إعلان عـام قـدوم أي يهودي أو يهوديـة لحضـور تتـويجه، وألقـى رجـال البـلاط القبض على اليهود، ونزعـوا عنهم ملابسهم وتولوا ضربهم، وبعـدما أنزلوا أقسى الضربـات بهم رموهم خارج البـلاط الملكي، فقتل بعضهـم، وترك بعضهم الآخـر يذهبـون وهم نصف مـوتى، وكان أحـد هؤلاء اليهـود قد جرح جـراحة شـديدة مما تعرض لـه من ضرب وجلـد، وجعلته جـراحه يائساً مـن حياته، ولرعبه وخـوفه من الموت تقبل التعميـد على يدي وليم رئيس كنيسـة القديسـة ماري في يـورك، وأعطي اسماً مسيحيـاً هو وليـم، وبهذه الطريقة تجنب خطر الموت وأيدي معذبيه.

وعلى كلّ حال سمع شعـب مدينة لندن بأن رجال البـلاط قد تصرفوا بقسوة ضـد اليهود، فانعطفـوا بدورهم ضـد يهود المدينة فسلبوهـم وقتلوا كثيراً منهم مـن كلا الجنسين، وألقـوا النيران في بيوتهم وحـولوهـا إلى رماد وجمر يحترق، ومع هذا نجـا عدد قليل من اليهود من هـذه المذبحة، حيث اختبأوا خلف أسوار قلعة لندن، أو تخفوا في بيوت أصدقائهم.

وسمع الملك في اليوم التـالي بأخبار الحادثة، فأمر بـاعتقال بعض هؤلاء المجرمين، وأحضرهـم إلى أمامه، ثم صـدر بحقهم حكم المحكمـة، الذي قضى بشنق ثـلاثة منهم على المشنقة: واحد منهم لأنـه استولى على أشياء من واحـد من المسيحيين، والاثنين الآخرين بسبـب أنهما أشعلا النيران في المدينة، التي تسببت في إحراق عدد من بيوت المسيحيين، ثم بعث الملك وراء ذلك الـرجل الذي جرى تحويلـه من اليهودية إلى المسيحيـة، وجلب معه الـذين حضروا وشاهدوا تعميـده، وسأله الملك فيما إذا كـان الآن قد أصبح مسيحياً، وأجابه الرجل بـأنه لم يصبح مسيحياً، ولكن بما أنه رغب في تجنب الموت سمح للمسيحيين أن يفعلـوا به مارغبوه، ثـم سأل الملك رئيس أسـاقفـة كـانتربـري والعـدد الكبير الآخـر مـن رؤسـاء الأسـاقفـة

والأساقفـة الذين كـانوا حضوراً، ماالـذي سيفعل معه، ورد عليـه رئيس الأساقفـة بشكل غير واضح وأدنـى مما تـوجب عليه أن يظهـر قائلاً: «إذا كان هو نفسـه لايرغب أن يكون مـن رجال الرب، دعه فليكـن رجلاً من رجـال الشيطان»، وهكـذا عاد الـرجـل الذي جعـل مسيحياً إلى شريعـة اليهود(٢١).

وتلقى الملـك في اليوم التـالي ولاء تبعية رؤسـاء الأساقفـة، والأساقفـة، ورعاة الديرة والإيرلات والبارونات من جميع أرجاء بلاده.

وأوضح ديسيتو الترتيبات التي نفذها رتشارد في مملكته الانكليزية.

ورغب رتشارد ملك انكلترا في أن يبدأ حكمـه بتقديم منحة إلى الرب، تعطى إلى رهبـان السسترشيان كـلّ سنة، وقـدرها مـائة مارك تـؤخذ مـن مختلف ممتلكـاته وتوزع على دخـولهم، وكان أول عمـل قام به كملـك هو ارساله رسالة تحمل خاتمه لإيصال قراره هذا.

وبنـاء على تعليمات الملك ورئيـس الأسـاقفـة، جرى عقـد مجلـس في بايبـول Pipewell يـوم ١٥ أيلـول، للنظر في مسـألـة التعيينـــات للكـراسي المقدسـة الشـاغرة، وهكـذا جـرى تعيين رتشارد أسقـف أوف إيلاي Ely خازن الملـك، أسقفاً للنـدن، وصار وليـم لونـغ شامـب، مستشار الملك، أسقفاً لإيلاي.

وكان عميد وكهنة لندن قـد عبروا القنال، بناء على تعليمات من هنري الثـاني، وذلك بهدف مشـاركتهـم في انتخاب الأسـاقفـة، وتسلموا لـدى عودتهم إلى انكلترا أربعين ماركاً من الخزانة لتغطية نفقاتهم.

وكمحاولة يائسة أخيرة للصمود في وجه تـوغل جيش صلاح الدين، ألقى غي لـوزغنان، ملك القدس، الحصار على عكا، التـي استولى عليها

المسلمون وكانت بحوزتهم منذ ١١٨٧، ونقل ديسيتو رسالة الأخبار هذه التي أرسلت إلى البابا والتي أوضحت كيف نجحت أخيراً حركة الملك الجريئة هذه:

«شرع ملك القدس، وفرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، ورئيس أساقفة بيزا، وعدد كبير من رجال بيزا في حصار عكا في يوم ٢٨آب، وذلك على الرغم من عدم رضا كونراد مركيز مونتفرات ورئيس أساقفة رافينا وعدد كبير آخر من المسيحيين الذين عارضوا بآرائهم هذه الخطة، ولدى وصولهم إلى هناك حاصروا المدينة بقوة جبارة إلى حد أن أياً من المسلمين لم يعد بإمكانه الدخول إلى المدينة أو الخروج منها، وفي اليوم الثالث وصل صلاح الدين على رأس جيش عظيم، وهاجم غيوفري لوزغنان أخي الملك ومعه فرسان الاسبتارية، وأرغمهم على الانسحاب مع صفوف قتالهم، وهكذا فتح الطريق للذين رغبوا في دخول البلدة، أو مغادرتها، وأصيب المسيحيون منا برعب شديد، ولذلك تراجعوا نحو الخلف على الفور، وانسحبوا إلى إحدى الروابي المرتفعة التي وجدت هناك، غير أنهم لم يستطيعوا النجاة من صلاح الدين، الذي حاصرهم ومعه مائة ألف فارس، وعسكر قرب سفح ذلك الجبل، ولدى رؤية ملك القدس نفسه أنه بات محاصراً، بعث برسل إلى صور إلى المركيز ورئيس الأساقفة والفرسان الآخرين الذين كانوا مضادين لخطته، ورجاهم عدم توجيه اللوم إليه، لقلة خبرته، كما كان، بل طلب منهم القدوم لتقديم العون إليه في وضعه المحرج، وانزعج مركيز مونتفرات انزعاجاً كبيراً لرؤيته المسيحيين في مآزقهم الصعبة، فاجتاز بحراً من صور وقدم إلى مساعدتهم مع رئيس الأساقفة وألف من الفرسان وعشرين ألفاً من الجنود الرجالة، وفي يوم ٢٤أيلول، امتلأ صلاح الدين بالخوف أمام التطورات التي تلت وصولهم وتراجع قدر ميل واحد بصعوده الجبل.

وفي يوم ٤ تشرين أول اشتبكنا بمعركة مع المسلمين، فقد قاد الملك فرسان الاسبتارية مع الفرسان الفرنسيين في صف قتال واحد، وقاد المركيز الصف القتالي الثاني مع رئيس أساقفة روان، ونحن أيضاً كنا معهم، وقاد اللاندغريف Landgrave الصف الثالث مع البيزيين والألمان، وكان في الصف الرابع أخو الملك، ومكث جيمس أوف أفسن Avesnes في المعسكر، وكنا جميعاً أربعة آلاف فارس ومائة ألف من الجنود الرجالة، هذا وامتلك عدونا صلاح الدين مائة ألف فارس، ومع هذا لقد كنا مسلحين بشارة الصليب المقدس، وعندما اشتبكنا بالقتال في الساعة الثالثة من النهار، آثر الرب جانبنا، فهربوا أمام سيوفنا وطاردناهم نحن حتى خيمهم نفسها، وتعرض الصف السابع من صفوف المسلمين إلى خسائر كبيرة على أيدي مهاجمينا النشطاء، ولقد قتلنا بلدوين [كذا] ابن صلاح الدين مع أخيه[ابن] تقي الدين الذي أصيب بجراحة قاتلة ومن المؤكد موته الآن أيضاً، ولقد تدبرنا قتل خمسمائة من فرسان صلاح الدين، وكان هذا أكثر بكثير مما تأملناه، وفيما نحن مشتبكين مع صلاح الدين في القتال، غادر خمسة آلاف فارس المدينة وقاموا بهجوم مفاجيء علينا، وعندما رأى صلاح الدين أحلافه تقاتلنا، استخدم طاقاته وقواه ضدنا، ومع هذا ظللنا قادرين على الوقوف ضد صلاح الدين من أحد الجوانب وقاومناه مقاومة شجاعة من الجانب الآخر، وذلك قبل أن نتراجع إلى معسكرنا، ومهما كان الحال لقد قتل في ذلك اليوم مقدم فرسان الداوية مع عدد كبير جداً من رجالنا».

[وبعث ملك فرنسا إلى ملك انكلترا بالرسالة التالية]:

«من فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، تحيات وحب مخلص إلى أخيه الملك، والرجل المخلص، رتشارد ملك انكلترا.

ستعلم بسرور أن جهودنا في سبيل تقديم العون إلى مدينة القدس تتقدم تقدماً جيداً، ونطلب من الرب بصلوات متتابعة أن يظهر مثوبته

لأعمالنا الإيمانية في أرض القدس، ولقد فهمنا من كلماتك، ومن المعلومات التي جلبها للتو رسلك في أنك ترغب وتنوي السفر إلى القدس، وبعثنا إليكم بوساطة هؤلاء الرسل بموافقتنا على رغباتك وعلى خططك نحو هذه القضية، ولسوف نؤكد هذا من خلال رسائلنا بشكل رسمي واضح، ولسوف يهتم رسلنا بقضية سلامتك في هذه المسألة وسيسلمون إليك رسائل موافقتنا الرسمية.

وجرى تنفيذ هذه الأعمال في شهر تشرين الأول من سنة ألف ومائة وتسع وثمانين من سني ربنا»(٢٢).

وجاء جون أوف آناغني Anagni كاردينال القديس مرقص إلى انكلترا كنائب للكرسي المقدس، وقد رسا في دوفر في ٢٠ تشرين الثاني، وأصدرت الملكة إليانور في اليوم التالي تعليمات بوجوب عدم سفره أية مسافة أخرى بعد وصوله إلى انكلترا من دون معرفة الملك، وهكذا أمضى ثلاثة عشر يوماً مملة في دوفر على حساب رئيس الأساقفة.

وجاء الملك وليم ملك اسكوتلندا إلى كانتربري، يرافقه في رحلته رئيس أساقفة يورك وأسقف لنكولن، وقدم الولاء إلى الملك، ولاقى رعاية منه، ودفع له عشرة آلاف مارك لتحرير جميع ممتلكاته الاقطاعية، وثمن ولاء رجاله الذين ربطوا أنفسهم بملكنا وأعادوا هذا الولاء الآن إلى الملك وليم.

وقدم الكونت جون كونت مورتين وأخو الملك التماساً هاماً بحضور الملك، ونائب البابا والأساقفة، وتشكى أنه بعدما تقدم بطلب استئناف إلى البابا، قام الأسقف بوضع الحرمان على جميع أراضيه لأنه تزوج من ابنة وليم ايرل غلوستر، وعندما سمع النائب البابوي جون أوف آناغني هذا، استجاب للاستئناف وحرر أراضيه من الحرمان.

وكان رتشارد ملك انكلترا سيتفوق على جميع أسلافه بحكم امتلاكه

لثروة هـائلة، لـو أن المبالـغ الموعودةدفعـت خلال الأشهـر الأربعة الأولى للحكم الجديد، وتأكدت بضمانات مساوية لدخله حتى في السنة التالية.

وبعدما نـاقش عدداً من المسـائل المتعلقة بأوضاع المملكـة مع بعض المسـؤولين في دوفر(٢٣)، عبر القنـال في ١٤ كـانـون الأول، ونزل في اليـوم نفسه على مقربة من غريفلاينز Gravelines.

وفي هذه الآونة، تـوفي وليم ملك صقلية، وصهـر ملك انكلترا، دون أن يخلف وريثاً مباشراً، وخلفه تانكرد قريبه القريب.

عندما جرى الاقلاع بالحملـة الصليبية، جرى فرض ضريبة عشور على جميـع البضـائع المنقـولـة في أرجـاء انكلترا كلهـا، وذلـك بهدف ارسـال المسـاعدات إلى القـدس، وجـرى تحصيل الضريبـة بعنـف بلغ حـداً أن رجال الـدين والعلمانيين أصيبوا بـالرعـب أن المساعدة تستخـدم كمجرد حجاب للسلب.

[وصدر عن الملكين الإعلان التالي]:

«يبعث فيليب ملك فرنسا بنعمـة الرب، ورتشارد ملك انكلترا بالنعمة نفسها، ودوق نـورماندي وأكـوتين وكونت انجو، بتحيـاتهما الرقيقة بـاسم الرب إلى جميع من سيقرأ هذه الرسالة.

ليكن معلـوماً بينكم أننـا وضعنا بكل تأكيـد خطة، صغناهـا بناء على نصيحة رجال الكنيسة والنبلاء في بلادنـا، في أننا سوف نسافر إلى القدس معاً، متخـذين الـرب دليلاً لنا، وقـد وعد كـلّ واحد منـا أن يخدم الآخر باخـلاص جيد وحب، ولسـوف أنظر أنا فيليـب ملك فرنسـا إلى رتشارد ملك انكلترا على أنـه صديقـي ورجل مخلـص، وأنا رتشـارد ملك انكلترا سوف أنظر إلى فيليب ملـك فرنسا، على أنه صديقي ومـولاي، وبناء عليه قررنا أنه يجب على كـلّ الموجودين في بلادنا والذيـن حملوا شارة الصليب المقدس، إما ان يتقدموا بالسفر قبلنـا بأسبوع قبل حلول عيد الفصح، أو

أن يسيروا وسط جماعتنا، مالم يحصلوا على إذننا بالبقاء، وكلّ من أراد البقاء وراءنا من دون علمنا وإذننا، سوف نحرمه، وسوف يفرض رجال الدين لدينا الحرمان على أراضيه، إن خطتنا، ورغبتنا ومانوصي به، هو أن يقوم جميع النبلاء في بلادنا —إذا ماامتلكوا الوسائل— بدعم بعضهم بعضاً بثرواتهم، وعلى كلّ حال إن ممتلكات الذين سيرتحلون إلى القدس سواء معنا أو قبل اقلاعنا بحملتنا، سوف تبقى سليمة دونما أذى كما لو أنها ممتلكاتنا، وإذا ما آذى أحد من الناس منافع هؤلاء الأشخاص سوف يقوم قضاتنا مع مأموري التنفيذ باتخاذ مايلزم من إجراءات ضده، وذلك في حدود مايسمح به القانون، وتماشياً مع عادات بلادنا، وإذا ماحاول أي انسان إثارة حرب ضد بلادنا أو أي جزء منها أثناء غيابنا، وخرق العدالة، سينال الحرمان، وإذا لم يقم خلال أربعين يوماً بتدارك مااقترفه من أضرار، نعلن أنه وورثته سوف يحرمون من ميراثهم بشكل أبدي.

جرى إعداد هذه الترتيبات يوم ٣٠كانون الأول في نونانكورت».

وعلى كلّ حال لم يكن من الممكن تأكيد هذه المعاهدة بين الملكين على الفور، لهذا قالوا:

بما أن اليوم الذي كتبت فيه كان يوم سبت، لذلك أجلت حتى العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان، يوم الأحد ٢٤حزيران، عندما شرعا بالحملة الصليبية، وفي ذلك اليوم نفسه توفيت مرغريت ملكة فرنسا أثناء الولادة في باريس، ودفنت في كنيسة نوتردام العظيمة، وكانت أول ملكة من ملكات فرنسا تدفن هناك.

- ٦٠٠ -
سنة تسعين ومائة وألف

وقرر عدد كبير ممن كانوا يستعدون للالتحاق بالحملة الصليبية إلى القدس في جميع أرجاء انكلترا أن عليهم أولاً النهوض ضد اليهود قبل محاربة المسلمين، وهكذا حدث في نورورك يوم ٦ شباط قتل جميع اليهود الذين وجدوا في بيوتهم، وفي ٧ آذار قتل عدد كبير منهم في ستامفورد في أحد الأسواق، وقيل تمّ في يورك يوم ١٦ آذار قتل حوالي الخمسين، وتولى كثير منهم جراحة بعضهم بعضاً، ذلك أنهم فضلوا لقاء الموت على أيدي أناس من شعبهم على الموت على أيدي غير المختونين، وقيل في ١٨ نيسان، يوم أحد السعف، جرى قتل خمسين منهم في بري سانت إدموند، ولقد ذبح اليهود من قبل الصليبيين أينما وجدوا، مالم يتدبر انقاذهم بعض المواطنين —البرجاسية Burgesses — وعلى كل حال، ينبغي ألا يخامر الشك أو الاعتقاد أحد أن أي رجل عاقل قد فرح بالعمل الجريء والمخيف بقتل اليهود، لأنه كتب في مزامير داود ماسمعناه يردد أمامنا مراراً: «لاتقتلوهم».

وفي هذه الآونة، عندما حوصرت عكا للمرة الأولى، نذر رجل انكليزي اسمه وليم، وكان شماس رالف أوف ديسيتو عميد كنيسة القديس بولص، وهو ذاهب إلى القدس: أنه إذا ماوصل سالماً إلى ميناء عكا، سوف يتولى تأسيس بيعة هناك بقدر ماتسمح له موارده، وأن يكرسها على اسم الشهيد المقدس توماس بكت، ولسوف يتخذ هناك مقبرة تشريفاً له، وقد تحقق له ماأراد، وجاء عدد كبير من الناس من جميع الجهات إلى تلك البيعة، وجرى باتفاق عام تسمية وليم رئيساً لها، وبما أنه كان فارساً مكرساً للمسيح فقد اعتنى عناية خاصة بالفقراء، وعمل جاهداً جداً لدفن أجساد الموتى، من الذين قتلوا بالسيف أو الذين ماتوا على فراشهم، وكان هناك مقبرة أخرى دعيت باسم المشفى الألماني، وثالثة

أقدم مـن البقية حملت اسمهـا من القديـس نيكولاس، وفيها جـرى دفن مائة ألف وأربعة وثلاثين ألفاً من الرجال في سنة واحدة.

وفي رحلتهـا إلى روما، آثـرت الملكـة إليانـور، أم الملـك رتشارد، عـدم ركوب البحر، خشية من مخاطـرة، وسافرت عبر جبل جنيفر Genevre وسهول ايطاليا.

وكتب «البابا كليمنت إلى وليم أسقف إيلاي: تحيات.

طبقاً للرغبات المعلنـة والطلب المفيد لولدنا العـزيز في الرب، رتشارد، الملك الـلامع للانكليـز، نسند إليك، بموجـب السلطات الرسـولية، أيها الأخ، مـركز القـاصـد الرسـولي في انكلترا وويلز، وفي كـلّ مـن مقاطعتـي كانتربـري ويورك، وفي مناطـق ايرلندا، حيـث جون كونـت أوف مورتين، أخو الملك، يمارس حكمه وسلطانه.

صدر في اللاتيران في ٧تموز، في السنة الثالثة لحبريتنا».

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى جميع رجاله المخلصين. تحيات:

نحـن نقضي ونأمـر، إنـه بقـدر ماأنتـم مخلصـون لنـا وتحبون أنفسكـم وممتلكاتكم، عليكم إطاعة مستشارنا العزيز والمخلـص أسقف إيلاي في جميـع أعمالنا، وأن تعملـوا له مثلما تعملـون لنا أنفسنـا في جميع المسـائل الذي يصدر إليكـم تعلميات حولها. شهدت أنـا نفسي في بيوني Bay-onne ٦ حزيران».

واتفق ملكا انكلترا وفرنسا على الالتقـاء في فيزلي في حوالي ٢٤حزيران، ليذهبـا إلى القدس، وانطلق ملك فـرنسا نحو جنوى وملـك انكلترا نحو مرسيليا.

وأقلع الملك رتشـارد من مرسيليا يوم ٩آب ١١٩٠، وبعـد مرورهم بين أمـواج البحر المالـح وصلـوا إلى ميناء رومـا، وجـرى استقبـالهم من قبـل

أسقف أوستيا مع رسل كثيرين من عند البابا، ورفض الملك دعوة البابا لزيارته، وذهب إلى الجنوب عبر كابوا Capua.

ووصل رتشارد الأول وفيليب الثاني صاحب فرنسا إلى صقلية في أيلول ١١٩٠، وقررا إمضاء الشتاء هناك، وسمع رتشارد في أثناء إقامته شيئاً حول نبوءة ورؤيا جوشيم أوف فيور Joochim of Fiore وطلب أن يسمع النبوءة بنفسه، ويصف صاحب كتاب «أعمال الملك رتشارد» الذي قاله جوشيم للملك كما يلي:

كان في تلك الآونة راعي دير سسترشياني في كالبريا Calabria اسمه جوشيم راعي دير كورازو corazzo امتلأ بروح التنبؤ، وكان يعظ الناس حول المستقبل، وأصغى الملك الانكليزي بانشراح إلى هذه النبوءات، وإلى حكمته وعقيدته، وكان جوشيم واسع المعرفة بالكتب المقدسة، وتولى تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتي المبارك التي وردت في سفر الرؤيا، وكأنه كتب هذا السفر بيده، وكان الملك مسروراً ومعه كثير من الناس لدى سماعهم إياه وهو يفسر النص التالي:

«وظهرت آية عظيمة في السماء، امرأة متسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها، وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً. وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد. وظهرت آية أخرى في السماء، هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون، وعلى رؤوسه سبعة تيجان، وذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها إلى الأرض، والتنين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولدها متى ولدت. فولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد، واختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه. والمرأة هربت إلى البرية حيث لها موضع معدّ من الله لكي يعولوها هناك ألفاً ومئتين وستين يوماً» [الرؤيا: ١٢/ ١-٦].

وجرى تفسير الرؤيا من قبل جوشيم راعي دير كورازو حسب الطريقة التالية:

«المرأة المتسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها»: في هذا اشارة إلى الكنيسة المقدسة، وهي متسربلة بشمس العدالة، التي مولاها المسيح، وهي التي تحت رجليها العالم، وكلّ خرق ورغبات شهوانية، تقمع دوماً. «وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً»: رأس الكنيسة هو المسيح، والإكليل هم المخلصون للكنيسة. «وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد». في هذا اشارة إلى أن الكنيسة المقدسة دوماً مسرورة نحو ميلاد جديد، فمن خلال الصلب أنقذت النفوس بوساطة عمل الرب. «وظهرت آية أخرى في السماء، هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون»: في هذا اشارة إلى الشيطان، الذي يمكن أن يقال حقاً عنه أن لديه سبعة رؤوس، ورأس الشيطان كله إثم، ويعادل سبعة، وكأن نهاية محدودة يمكن وضعها على اللامحدود، لأن رأس الشيطان هو اللامحدود، ذلك أن المعادين للكنيسة والآثمين محدودين بالعدد.

وعدد جوشيم سبعة من الأعداء الرئيسيين للكنيسة، هم حسب عرضه: هيرود، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيموتوس، وصلاح الدين، والمسيح الدجال. وعن هؤلاء قال اللاهوتي المبارك في الأبوغرافيا: «إنهم سبعة ملوك، خمسة منهم ماتوا، وواحد مازال موجوداً، والآخر سيأتي»، وفسر جوشيم هذا وأوضح أن الملوك السبعة هم أصحاب الأسماء السبعة المسماة أعلاه، الذين خمسة منهم أموات وهم: هيرود، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيموتوس، والحي من السبعة هو صلاح الدين، الذي هو في هذه الآونة عدو كنيسة الرب، فهو الذي وضع مدينة القدس تحت نير العبودية، مع مكان دفن الرب، والأرض التي وقفت عليها قدما الرب، ولقد قال: إنه بالقريب العاجل سيفقد مملكة القدس، ولسوف يقتل،

وينمحق مـن خلال نزعاتـه الجشعة، وستكون هنـاك مذبحة هائلـة لم ير مثلهـا منذ بـداية الخليقـة، ولسـوف يتشتت السكـان المسلمون، وستفـرغ مـدنهم منهم، وسيعـود المسيحيون وقتهـا إلى رعايـة الرب وسيسكنـون في هذه المدن».

وتوجه الراعي نحو رتشارد فقال:

«لقد أباح الرب هـذا كله، ومن خلالك سيحدث أنـه سوف يمنحك النصر على أعدائك، وسيمجـد اسمك في الأبـدية، وأنـت سوف تمجـده، وفيـك سوف يمجـد إذا مـاحفظـت العمل الـذي بـدأ، وسيظهـر قريبـاً الواحـد الذي هو المسيـح الدجال»، وقال الـراعي: «إنه قـد اكتشف أن المسيـح الدجـال قد ولـد، وأن خمس عشرة سنة قـد مضت على ولادتـه، لكن لم يكتمل بلوغه وقوته بعد».

وبعـدما أبـدى عدد كبير دهشتهـم تجاه الأشيـاء التي سمعـوها، قـال الملـك للراعـي: «أيـن ولد المسيـح الـدجال، وأيـن سيحكـم؟» وأجابـه جوشيم أنه يعتقد «أن المسيح الدجال قد ولد في مدينة روما، وسيستحوذ على الكرسي الرسولي هناك».

وأجـابـه الملـك قـائلاً: «إذا كـان المسيح الـدجـال قـد ولـد في رومـا وسيستحوذ على الكـرسي الرسولي، أعتقد أنـه لابد وأن يكون هـو كلمنت الذي هـو الآن البابا»، وقـد قال هذا لأنـه كان يكـره البابا، وقـال الملك أكثر من هذا، لقد زاد قائلاً: «لقد اعتقدت أن المسيح الدجال كان سيلد في بابـل أو في أنطاكيـة من أصـول من دان، وأنـه سوف يحكـم في هيكل الرب». وعندمـا قدم راعي دير كورازو الشرح المتقدم بشـأن قدوم المسيح الدجـال، بذل عدد كبير مـن الناس، بما فيهم جميع رجـال الدين الـذين أجادوا معرفة الكتب المقدسة، غايةجهدهم للبرهنة على أنه كان مخطئاً.

سنة إحدى وتسعين ومائة وألف

وفي تلك الآونـة كان رتشارد وفيليـب يتشاجران فيما بينهما ويـورطان نفسيهما في السياسات المحلية.

في يـوم الجمعـة الأول مـن آذار سنـة ١١٩١ ذهـب رتشـارد، الملـك الانكليزي، إلى مدينة مسينا ليتحدث مع تـانكرد ملك صقلية، وكان هذا بناء على نصيحـة من فيليـب ملك فرنسـا، وفي اليوم الثـالث التـالي قدم الملك الانكليـزي إلى مدينة كاتـانيا Catania حيث الجسـد المقدس لأغاثا Agatha المقدسة، التي هي عذراء وقديسة.

وعنـدما سمـع تـانكـرد ملك صقليـة أنبـاء قـدوم رتشارد، خـرج إلى استقباله وسار نحواً من خمسة أميـال خارج المدينة لتلقيه، وعندما رآه عن بعد، وقبل أن يجتمعا بـالفعل، ترجلا وركض كلّ واحـد منهما نحو الآخر، وبادرا إلى التعانق بين بعضهما مع التحيات والقبلات، ثم امتطيا فرسيهما ودخلا إلى المدينـة، ورحب بهما رجال الديـن والشعب بالتراتيـل والأغاني التي أنشدت في مديـح الرب، وقد صليا أمام قبر أغاثا المبـاركة، ثم دخل الملـك رتشارد إلى قصر الملـك تانكـرد ومكث معـه ثلاثـة أيام في وضـع موائم.

وفي اليوم الرابع منح ملـك صقلية ملك انكلترا عدداً كبيراً من الأواني المصنوعة من الـذهب والفضة، وأهداه خيولاً وملابـس ثمينة، لكن ملك انكلترا لم يرغـب في قبول أي شيء، فيما عدا خـاتم صغير، اختـاره ليكون دليلاً على عواطفهما المتبادلة بود، وعلى كـلّ حال أعطى الملك الانكليزي تانكرد سيف آرثر المشهور، الـذي كان فيما تقدم ملك البريطانيين، والذي دعاه البريطانيون إكسكاليبور Excalibur وأعطاه تانكرد أيضاً أربع

سفن كبيرة وخمس عشرة شيني.

وعندما عاد رتشارد، شيعه تانكرد شخصياً لمسافة يومين خلال تورمينا Taormina ، ثم عندما كان مستعداً للمغادرة قال له الملك تانكرد: «أستطيع الآن أن أعتقد وأبرهن أن ما أخبرنيه الملك الفرنسي عنك في رسائله، صدر بالحري عن غيرة وليس عن حب لي، ذلك أنه أخبرني أنك لن تتعاون معي لابصدق ولابسلام، وأن الاتفاق الذي عقد فيما بيننا سيخرق، وأنك لن تقدم إلى هذه المملكة إلا مع العنف ضدي».

ورد ملك انكلترا على هذا بحزم، ولم يفصح في كلماته عما أضمره في قلبه قائلاً: «السوء لمقترفي الشرور، أنا لايمكنني أن أصدق أن هذا يصدر عنه، لأنه مولاي ورفيقي المربوط بالقسم خلال هذا الحج».

ورد الملك تانكرد على هذا قائلاً: «إنك لابد وستصدق أنني ماقلت إلا صدقاً، لأنني سأريك الرسائل التي بعثها الملك الفرنسي إليّ».

وعندما استلم الملك الانكليزي الرسائل من يد الملك تانكرد، جاء الملك الفرنسي إلى تورمينا ليتحدث مع الملك تانكرد.

هذا من جهة ومن جهة ثانية عاد الملك الانكليزي إلى مسينا، ومكث الملك الفرنسي ليلة واحدة في تورمينا، ثم عاد في اليوم التالي إلى مسينا، وغضب الملك الانكليزي غضباً عظيماً منه، وبات لايرغب في مصاهرته أو إقامة سلام معه، بل استهدف الحصول على فرصة ليبتعد من هناك مع رجاله، ثم بحث الملك الفرنسي عندها بحثاً حثيثاً ليعلم ماالقضية، وأخبر الملك الانكليزي الملك الفرنسي بالذي قاله له ملك صقلية، وجاء ذلك من خلال وساطة فيليب كونت فلاندرز وآخرين من أصدقائه ومعارفه، وأطلع الملك الفرنسي على الرسائل التي تسلمها من الملك تانكرد كبرهان، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا التزم الصمت، عارفاً نفسه أنه كان مجرماً، ولم يعرف كيف يجيب، لكن بعدما استرد وعيه

وثاب إلى رشده أعلن قائلاً:

«إن هذه الكلمات زائفة وقد اخترعت حديثاً، ذلك أنني أعتقد، وأنا متأكد من ذلك، أنه يبحث عن مسوغ يمكنه من اتهامي، فمن الممكن من خلال هذا الزيف أن يرفض الزواج من أختي، التي أقسم على الزواج منها».

وعلى هذا رد الملك الانكليزي قائلاً: «إنني لاأمقت أختك، لكنني لن أتخذها زوجة لي لأن أبي قد عرفها، وله ولد منها»، ووقف الملك رتشارد متصلباً ضد الملك الفرنسي، وبعد كثير من الأخذ والرد، حلل الملك الانكليزي من خطوبته لأخته أليس، وتسلم كجزء من الاتفاقية عشرة آلاف مارك من ملك انكلترا لصالحها، وعند عودة الملك الفرنسي إلى فرنسا ستعيد إليه أخته غيسور كلها، وجميع الأشياء الأخرى التي قررها لها كحصة زواج.

وعندها أعطى الملك الفرنسي إلى الملك الانكليزي براءة وترخيصاً في أن يتزوج من رغب بالزواج منها، وقدم تنازلاً آخر في أن يكون دوق بريتاني تابعاً مع وريثه لبريتاني، للملك الانكليزي بشكل أبدي، وهكذا ينبغي أن يغدو ملك انكلترا مع ورثائه المسؤولين عن هذه الاقطاعية أمام الملك الفرنسي وورثته.

وغدا في ذلك اليوم كلّ من ملك انكلترا وملك فرنسا أصدقاء، وأكدا بإخلاص وأيمان اتفاقيتهما، ولقد أكداها أيضاً كتابة تحت ختميهما.

أما وقد تحلل رتشارد من يمينه نحو أليس بات الآن حراً ليتزوج من بيرنغاريا النافارية، وروى لنا ديسيتو أن إليانور الأكوتانية قد جلبتها إلى صقلية.

بعدما أمضت الملكة إليانور مع ابنها أربعة أيام في مسينا، عادت إلى انكلترا، وخلفت وراءها بيرنغاريا ابنة ملك نافار، التي كان رتشارد.

سيتزوج منها (٢٤)، وفي يوم ١٠ نيسان أبحر الملك رتشارد مع جيشه على ظهر أسطول تألف من مائة وست وخمسين سفينة، وأربع وعشرين بارجة نقل، وتسع وثلاثين شيني، وأخذ معه أخته جوانا وكذلك بيرنغاريا، وأبحر ملك فرنسا من مسينا يوم ٢٩ آذار.

وبعد رحلة دامت حوالي العشرين يوماً وصل الملك رتشارد إلى جزيرة رودس، ومكث خمسة أيام في البلدة، ثم بعد رحلة خمسة أيام أخرى رسا في جزيرة قبرص في مكان يدعى ليماسول، وذهب كورساك [اسحق دوكاس كومينوس] سيد تلك البلاد، الذي دعا نفسه بـ«الامبراطور» على رأس قوة كبيرة ليحول بها دون نزول ملك انكلترا، وسبب الكثير من الأضرار إلى رجال الملك، فنهب الذين كانت سفنهم قد تحطمت، وألقى بهم في السجن ليموتوا من الجوع، وغضب الملك رتشارد وسخط لهذا، وبادر لينتقم لهذه الأضرار، وحارب الأعداء وربح منهم نصراً سريعاً، واستبقى الرجل المهزوم في الأغلال، وأسر ابنته الوحيدة، وأخضع جميع قبرص مع قلاعها كلها، وعقد كورساك صفقة مع الملك قضت ألا يبقيه الملك بالأصفاد الحديدية، وجرى تنفيذ ذلك، فاستبدل الأغلال الحديدية بأغلال من فضة ووضع في سجن في قلعة قرب طرابلس تدعى المرقب، وجرى الاحتفاظ بابنة كورساك في سجن لائق مع الملكتين في السرادق الملكي.

وكان في الوقت نفسه غي أوف لوزغنان ملك القدس وجيشه ينتظر خارج عكا وصول المساعدة، كما شرح لنا ديسيتو فيما يلي:

«إلى المولى المبجل والأب في المسيح رتشارد أسقف لندن، وإلى هيوبرت بالنعمة نفسها أسقف سالسبري، التحيات باستمرار والصداقة الخالصة.

يقاوم مدينة عكا بشدة هجماتنا، ولانستطيع الاستيلاء عليها لأنها

مزودة بشكل جيد بالرجال، ومدافع عنها بآلات الحرب، وصلاح الدين على الجانب الآخر منا قد طوقنا، ويأمل المسيحيون أن يكونوا قادرين على تحمل الأعباء والمصاعب والآلام الناتجة عن الحصار حتى وصول ملوكنا، أي أن يكونوا في حوالي عيد الفصح المقبل، لكن إذا تأخروا أكثر لن نكون قادرين على تحمل الاستمرار، ووقتها سوف يتلاشى أملنا في الدعم. هكذا تسير الأمور بالنسبة لحصار عكا».

ونزل الملك الفرنسي في عكا في عيد الفصح، يوم السبت ٢٠ نيسان ١١٩١، والذي حققه الجيش المسيحي وحصل عليه من الهجوم على المدينة لمدة سبعة أسابيع، هو ماسيتم عرضه الآن وهو ماعرفناه وتذكرناه.

أقلع الملك رتشارد من قبرص ومعه ثلاث عشرة سفينة كبيرة تدعى بوكاس buccas في كلّ واحدة منها ثلاثة أشرعة، ومائة سفينة نقل وخمسين شيني كلّ منها ذات ثلاثة صفوف من المجدفين، وفيما هو مبحر فوق البحر العميق الواسع لمح أشرعة سفينة كبيرة جهزها سيف الدين صاحب مصر وهو أخو صلاح الدين، وأنفق عليها كثيراً، فهي قد جاءت لمساعدة المسلمين المحاصرين في عكا، وكانت مشحونة بالأطعمة والأسلحة الصالحة لكل نوع من أنواع القتال، والنفوط (النار الإغريقية) وحاويات فيها مواد متفجرة، وقد قيل بلغ عدد البحارة في هذه السفينة ألفاً وخمسمائة.

وتمّ بسرعة تناول كلّ شيء كان ضرورياً لمعركة بحرية، وطوقت الشواني السفينة الكبيرة التي تضاءلت سرعتها، وبدأ هجوم حاد عليها، ثم قام واحد من المجدفين، مقلداً أحد الطيور الصغيرة الذي يسمى النشال (الغواص) وسبح تحت الأمواج حتى صار تحت السفينة، فخرقها بوساطة مثقب، ولعله في عمله هذا كان قد سمع كيف قام اليعازر في أيام المكابيين فزحف تحت الفيل الذي كانت تدور حوله أعمال القتال العنيفة، وقتله بطعنه في معدته، وقد سحق اليعازر وهو ينفذ عمليته في

سبيل اليهود، ولكن مجدفنا، والمسيح في قلبه، عاد سالماً إلى مركبه، وجلس مجدداً على مقعده، وبعد مضي وقت قصير، أخذت المياه المتسربة إلى السفينة ترتفع فوق ألواحها، وقطعت آمال النجاة بالنسبة للبحارة، الذين كانوا من قبل واثقين من دفاعاتهم، وأمر الملك رتشارد باغراق ألف وثلاثمائة منهم، واحتفظ بمائتين فقط من بينهم، وقد حدث هذا يوم ٦ تموز [اقرأ: حزيران].

وتابع الملك سيره، ومالبث أن وصل إلى الميناء الذي كان قاصداً له، وردد الشاطىء أصوات النفير ودعواته، وزعيق الأبواق، وأنين الشبور المرعب، وقد أثار هذا المسيحيين وحثهم على القتال، وصك بالرعب قلوب المسلمين المحاصرين، وأعلن عن وصول حاكم كبير، فقد دخل الملك رتشارد إلى ميناء عكا يوم ٨حزيران.

ونصب فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا آلات حصارهم حول عكا، وسددا رماياتها نحو الأسوار، وعندما بدأت الرمايات تضعف الدفاعات، بدأ المسلمون يشعرون بالخوف ويفقدون الأمل بالقدرة على الاستمرار بالصمود، وبعدما تشاوروا مع المسلمين الآخرين أخذوا يسعون في سبيل السلام، ووافقوا على أن يقوم صلاح الدين بإعادة صليب الصلبوت في يوم حدد ميعاده، وأن يطلق ألفاً وخمسمائة من المسيحيين الأسرى لديه، وبناء عليه استسلمت المدينة إلى الملكين يوم ١٢ تموز بكل ماكان فيها من سلاح، وعتاد ومؤن تعود إلى المسلمين، الذين استسلموا حفاظاً على حيواتهم فقط.

لكن عندما جاء اليوم الموعود، ولم يحافظ صلاح الدين على قسمه من الصفقة، فقد حوالي الألفين وستمائة من المسلمين رؤوسهم انتقاماً لهذا، واستثني من القتل عدد صغير من الأعيان، وضعوا تحت رحمة الملك، وأثقلوا بالأغلال.

وما ان استسلمت المدينة حتى اقترح الملك الفرنسي العودة إلى بلاده، وذلك لانتهاء كلّ شيء الآن، وعندما سمع الملك رتشارد بهذا، عرض على الملك الفرنسي، بحكم كونه مولاه، النصف من كلّ شيء قد جلبه، سواء من ذهب وفضة، ومؤن، وأسلحة، وخيول وسفن، ووعده بتسليم ذلك كله إليه مقابل أية ضمانة يريدها، إنما مقابل أن يبقى، لكن فيليب كان مصراً تمام الاصرار على المغادرة، وعلى الرغم من معارضة رجاله، ومن غضب جميع الجيش المسيحي، صعد ظهر سفينة مع عدد ضئيل من مرافقيه للابحار نحو الوطن.

وبعدما غادر جرى ترميم الثلم الموجودة في سور عكا، وتم تحصين المدينة بالخنادق، ومن أجل أن يعلي شأن القضية المسيحية، وفي سبيل الوفاء بنذره، انطلق الملك رتشارد نحو يافا، وكان معه دوق بيرغندي وبرفقته الفرنسيين الذين كانوا تحت امرته، وكذلك الكونت هنري ورجاله، وعدد كبير آخر من الكونتات والبارونات ومالايحصى عدده من الناس العاديين، وكانت المسافة طويلة من عكا إلى يافا، وبعد جهود كبيرة، وخسائر عظيمة وصل الملك حتى قيسارية غير هياب، وعانى أيضاً صلاح الدين من الخسائر على الطريق نفسه، وتوقف الجيش هناك بعض الوقت حتى يسترد أنفاسه، ثم استأنف بشجاعة زحفه نحو يافا.

وعندما وصلت المقدمة إلى أرسوف، قام صلاح الدين بهجوم مفاجيء على الساقة، لكن برحمة ربانية هزم بوساطة هجوم معاكس قامت به أربع فرق مسيحية، وانهزم هو نفسه لمسافة مرحلة وهو يطارد من قبل الصليبيين الذين أنزلوا بأعيان المسلمين في يوم واحد مذبحة لم يعان صلاح الدين من مثلها في أربعين يوماً.

وفيما يلي رواية شاهد عيان عن معركة أرسوف، كتبها رتشارد كاهن الثالوث المقدس في أولدغيت ***Aldgate*** *في لندن.*

عند بزوغ أول ضوء يوم ١٧ايلول سلح كلّ واحد نفسه بعناية بكامل سلاحه، وكأن الترك سيتم التصدي لهم الآن.

لقد كان بإمكانك أن ترى أكثر الرفاق قدرة، والأعلام من مختلف الأنواع، وكثيراً من الرنوك، وكذلك أكثر الناس قسوة، وهم متشوقين، مستنفرين ومستعدين تمام الاستعداد للحرب.

وكان الملك رتشارد ودوق بيرغندي، مع كوكبة مختارة من الفرسان، وهم يطوفون هنا وهناك، يراقبون كلّ شيء من اليمين إلى اليسار، ويلاحظون تعبئة الأتراك وأوضاعهم حتى يستطيعوا تغيير تعبئة جيشهم بما يجدونه مفيداً، ولاشك أن يقظتهم كانت ضرورية جداً.

والآن، في منتصف الصباح انقض علينا حشد هائل من الأتراك، يقارب العشرة آلاف، بشكل مفاجىء وهجوم مباغت، وأطلقوا نحونا النشاب ورمونا بالحراب، وكانوا يصرخون بأصوات عالية مرعبة قاسية، واندفع إثر هؤلاء نحو الأمام شعب متوحش، ألوانهم سوداء جداً، وقد حملوا اسمهم وأخذوه بشكل صحيح من اللون، وبما أنهم كانوا سوداً، فقد عرفوا باسم السودان، وجاء أيضاً المسلمون الذين يعيشون في الصحراء، ويعرفون بشكل عام باسم البداة، وكانوا مرعبين سوداً قاتمين مثل السخام، وكانوا رجالة لايمكن السيطرة عليهم، سرعتهم عظيمة وهم شعب سلاحهم خفيف يستخدمون النشاب مع الجعب والترسة، وكانوا رجالاً ذوي تصميم وشجاعة لايعرفون الانحراف ويخيفون جيشنا.

ومضى أمام الأمراء نحو الأمام رجال ينفخون بالأبواق والصور، وكان بعضهم يحملون النفر، وآخرون الزمور والطبول والدفوف والصنوج، وكان آخرون يحركون آلاتاً أخرى متنوعة، وكان كلّ واحد منصرف إلى عمله في اصدار جعجعة عالية مرعبة متنافرة النغمات، وكان صراخهم الحاد وزعقاتهم الشديدة قد بلغت حداً رددته الأرض حتى بات من غير

الممكـن تمييز صفقـات الرعـد عـن صوت البرق، وكـان الهدف من هـذه الأصـوات اثارة الحميـة والشجاعـة، وكـان كلما ارتفعت الأصـوات، كلما تصلبت الروح من أجل القتال.

وهاجـم الأتراك البغضاء جيشنا، وكـانت ساحة المعترك قـرابة الميلين، وكنت لاترى في إطـارها سوى الترك المعتديـن، ثم قام رجالنـا الشجعان ذوي الاقدام، الذيـن حرمت عليهم سمعتهـم الفرار، والذين استهـدفت أرواحهم الجريئـة أن تتوج [بـالشهادة]، بالصمـود أثناء القتـال، وواجهوا العدو وقاتلوه باصرار عظيم وثبات، وناضلوا بشجاعة لاتعرف التقهقر.

وعنـدما رأى الملـك رتشـارد الجيش قـد وقف هـذه الـوقفة واشتبـك بالعـدو، غمز حصانـه، وبسرعة طار الى هناك، ولم يتـوقف عن الـركض، ولم يشد عنـان فرسه حتـى التحق بصفوف الاسبتـارية المقاتلـة ليقدم لها العون ومعـه أتباعـه، واندفـع من اليمين حتـى واجه أكثر الفرق التركيـة ارعابـاً، وكانت عنـاصرها من الجنود الـرجالة، الـذين رغبوا بـالموت، وقد أدهشتهم حملته، فسقطوا على مقربـة منه من على اليمين والشمال، وهناك كان الملك رتشـارد وحده هائجاً منقضاً على الأتراك، يقـاتلهم ويصرعهم في كـلّ مكان، ولم يكـن هنـاك رجل واحـد كـان بإمكـانـه أن ينجو مـن ضربات سيفه، لأنه حيثما ذهب الملك عمل ممـراً طويلاً وعريضـاً، بفضل استخدامـه لسيفه، وتقـدم الملك بدون مقـاومة، وسيفه يشـق له الطـريق وسط الشعب الشريـر، وكأنه يزيـل الأعشاب بمنجله، وخشية أن يـلاقي الأحياء مـالاقته حشود الأمـوات، أفسحوا أمامـه المجال، ولمسافـة نصف ميل تمددت أجساد القتلى الأتراك على وجوهها فوق التراب.

بهذه الدرجة مـن القسوة كان الغضب الذي ثار ضـد الأتراك في ذلك اليوم، وازدادت الضربات المميتة وتضاعفت إلى حد أن الأعداء تخلوا عن مقاومتهم وصراعهم، وأخلـوا الطريق أمام جيشنا الزاحـف، وهكذا تمكن أخيراً جرحـانا من الالتفـاف حول العلم، وتجمعـوا ثانية وانتظمـوا داخل

صفوف القتال، وزحفوا بين الصفوف إلى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج البلدة.

وكان بإمكانك أن ترى في ذلك اليوم، تبعاً لتقارير الذين رأوا الأتراك الفارين، آثار فرارهم خلال الجبال بوساطة الأسلاب التي ألقوا بها، والجمال والخيول وهي ملقاة مبعثرة هناك وهي ميتة، ذلك أن آلافاً منها ومئات سقطت على طول الطريق، وهي محملة بالأثقال.

وعندما كان رتشارد في صقلية أرسل وولتر أوف كاوتنس **Cou-tances** *رئيس أساقفة روان عائداً إلى انكلترا ليراقب الأحداث هناك، ولإعطاء رسالة إلى المستشار لونغ شامب، ولقد تتبع ديسيتو العداء المتزايد بين جون كونت مورتين ووليم لونغ شامب.*

وعاد وولتر رئيس أساقفة روان من صقلية إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham يوم ٢٧حزيران، وهو يحمل الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك الانكليز إلى مستشاره وليم، وإلى غيوفري فتزبيتر، ووليم مارشال، وهيوج باردولف، ووليم برور، تحيات:

بحكم أننا نحمل حباً عظيماً إلى الأب المبجل وولتر رئيس أساقفة روان، ونثق به ثقة عظيمة، بعثنا به إليكم من أجل سلامة مملكتنا والدفاع عنها، وقد حررناه من حجه بموافقة البابا، لأننا نعرفه حكيماً، ومستقيماً وقادراً، ومخلصاً جداً لأنفسنا، وبناء عليه نأمركم، ونؤكد أمرنا لكم بأن تعملوا وفقاً لآرائه في جميع المسائل المتعلقة بنا، وأن تتبادلوا أنتم وهو الآراء حول جميع المسائل مادام موجوداً في انكلترا ونحن غياب في حجنا، ونأمركم أن تفعلوا مانخبره أن يخبركم إياه حول رئاسة أساقفة كانتربري. شهدت بنفسي. مسينا، ٢٣شباط١١٩١».

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى وليم مارشال، وغيوفري فتزبيتر، وهيوج باردولف ووليم برور:

إذا لم يعمل مستشارنا باخلاص وفقاً لآرائكم أنفسكم وآراء الآخرين الذين عهدنا إليهم بشؤون العناية بمملكتنا، نأمركم بتنفيذ كل مايرضيكم في جميع شؤون مملكتنا، وقلاعنا وممتلكاتنا، بدون نقاش».

وكتب «وليم لونغ شامب، أسقف إيلاي بنعمة الرب، إلى عمدة سسكس:

نأمركم إذا ماوصل أي رئيس أساقفة منتخب ليورك، أو وصل إلى أي ميناء من موانىء مقاطعتكم، أو وصل أي واحد من مبعوثيه، أن تحتفظوا به حتى تتسلموا أمراً منا، ومثل هذا نأمركم بالتحفظ على أي رسالة جاءت من البابا أو من أي شخص مهم».

وافق غيوفري، وهو ابن غير شرعي لهنري الثاني، ورئيس أساقفة يورك المنتخب، على البقاء خارج انكلترا لمدة ثلاث سنوات، أثناء غياب رتشارد الأول في حملته الصليبية، غير أنه خرق هذا الوعد.

بينما كان رئيس أساقفة يورك مسافراً إلى انكلترا، نزل في ميناء يحمل اسم دوفر، يوم ١٤ أيلول. وعند نزوله هناك، قامت أخت وليم لونغ شامب، أسقف إيلاي، التي كانت تحرس القلعة هناك، بناء على أمر أخيها —حسبما قيل واعتقد— بعمل شرير وهو حصار رئيس الأساقفة وكهنته بوساطة حشد من الرجال من المسلحين، لمدة ستة أيام في رئاسة دير القديس مارتين، وقد ضيقوا عليه إلى حد توجب عليه الاستجداء لإعطائه الطعام بينما كان هناك، وعندما تطورت المضايقة والخيانة نحو الأسوأ، جاء فارسان من فرسان أسقف إيلاي، وهما: أوبري أوف مارني Auberey of Marney والاسكندر بيونتل Puintel وهما مسلحان، واقتحما الكنيسة السالفة الذكر بسيوف مشهورة في أيديهما، واندفعا نحو رئيس الأساقفة، وأمراه بحزم أن يغادر المملكة دونما تأخير أو

تردد، وأن يـذهب إلى فلانـدرز مع رجالـه، وعندمـا رفض جروه بقـدميه، وبرجليه وبذراعيـه من المذبح على طول الطريق الطينيـة وخلال الأماكن القذرة، وهو لابس لقلنسـوته وحامل لصليبه، ولقد قـرع رأسه بعنف فوق الرصيـف، ومعه كهنته ورجـال دين تقاطروا وتجمعـوا لرؤيته، وجـاءوا من أجـزاء كثيرة، وفي يوم ١٨ايلـول اقتيـد إلى القلعـة، وألقي بـالسجـن لمدة ثمانية أيام.

وعندمـا سمع بهذا رتشـارد أسقف لنـدن، عمل وسيطـاً بين الفرقـاء، وبادر مسرعاً بقدر ما أوتي من قوة إلى المستشـار وليم لونغ شامب، وحصل منه بعد كثير من المنـاقشات على أمر باطلاق سراح رئيس الأسـاقفة فقط، والاحتفاظ بجميـع كهنته رهينـة، وغادر رئيـس أساقفـة يورك السجـن في ٢٦ايلول، فبادر مسرعـاً يسير عبر الطريق الطيني وخلال الأمـاكن القذرة، حيث كـان قد جـرّ، وهو لابـس لثيابـه الكهنوتيـه، وواضع قلنسـوته على رأسه وبيـده الصليب، حتى وصـل إلى دير القديـس مارتن، وهنـاك قدم الشكر للرب وإلى القـديس مارتن، وقـد استقبل بترحاب عظيم مـن قبل النـاس الذيـن تقـاطروا مـن جميـع الاتجاهات، وعنـدمـا وصل إلى لنـدن استقبل رئيس الأسـاقفة بموكب مهيب عنـد كاتدرائية القديـس بولص، وكـان ذلك يـوم ٢تشرين أول، وأظهـر رتشـارد أسقف لنـدن نحوه جميـع أنواع اللطف الذي كان بإمكانه أن يبديه مع الرعاية والانفاق عليه وعلى أتباعه.

هـزت معاملـة وليم لـونغ شـامـب لغيوفـري رئيس أسـاقفة يـورك، الكنيسة الانكليزية، وبهذا هيأت مسرحاً خصباً لتـآمر الكونت جون ضد المستشار، حيث كتب إليه يقول:

«من جون كونت مورتين إلى رتشارد أسقف لندن. تحيات.

بها أنـك تحب مجد الـرب ومجد الكنيسـة، ومجد الملـك ومجد المملكـة ومجدي، كـن موجـوداً على الجسر عبر لنـدن يـوم ٥ تشرين أول، بين ردنـغ ووندسـور، لأنني —بإرادة الـرب— سوف ألقـاك هناك، لنتباحـث حول بعض القضايا الهامة والجادة التي تتعلق بالملك وبالمملكة».

في الحقيقة أعطـى تحديد يوم الأحد مـوعداً للمناقشة إلى عـدد كبير من النـاس الشعـور أن شيئـاً تعيسـاً سيصدر عنـه، وذلـك لاعتقـاد كثير مـن الناس، أن اليمين الذي يؤدى يوم السبت نادراً مايكون فعالاً.

وهكذا أعطى المستشـار الذي كانت قلعة وندسـور تحت حكمه، عذراً بعدم القـدوم هو: أن كثافة الغـابة، وضيق الممرات، والأعـداد الكبيرة من الفرسان والرجالة والخيالة الـذين اجتمعوا للكونت جون —أخو الملك— من جميع المنـاطق، والذين هم جاهـزون للقتال، وكذلك الخطط التـآمرية لهنري دي فير Vere الذي أسهم هو نفسه بحرمـانه من ميراثه، وأيضاً المسافة المعتبرة التـي تفصل الجسر المذكور عن القلعة، ولهذا جـرى تأجيل الاجتماع حتى يوم الاثنين.

وفي منتصـف يوم الأحـد، صعد رئيسـا أساقفـة روان ويورك المنبر مـع عدد من الأساقفة كانوا قـد التقوا في ردنغ حتى يكونوا حضوراً في المؤتمر، وما ان أشعلت الشموع حتـى قاموا بتأثيم جميع الذيـن أشاروا بالرأي، أو سـاعدوا، أو أمـروا بـأن يجر رئيس أسـاقفة يـورك مـن الكنيسة ويتعـرض للاذلال ويلقـى به في السجن، وقـرروا حرمـانهم، وذكروا بالاسـم: أوبري أوف مارني والاسكندر بيونتل. وفي يـوم الاثنين، اقترح الكونت جون، بغية إزالة جميـع الشبهات الخيانيـة، أن يذهب إلى مكـان آمن قرب ونـدسور، وذلك استجـابة لما طلبـه المستشار، مقترحـاً بالمقـابل كـلّ نوع مـن أنواع الضمانات من خلال أسقف لندن، وفي اليوم نفسه، وبما أنه قرر البقاء في ستين Staines نهض رجال حـاشية جـون في الصباح، وانـــدفعوا يدورون حول المنطقة، متوقعين هجوماً في كلّ شيء وحركة.

وعندما سمع المستشار بهذا، فرّ من أمام وجه الكونت، الذي اعتقد أنه يتبع أثره بحنق عظيم، وتصرف تصرف انسان مرعوب، فابتعد بنفسه ونأى بها —ولاأريد أن أقول هرب— حتى وصل إلى قلعة لندن، ومعه سلاحه وأثقاله وحاشيته وأهل بيته، ووضع خيوله في الطابق الأرضي من القلعة، وفي قاعة الطعام القديمة، وأعدّ نفسه للحصار، الذي كان وشيكاً، حسبما اعتقد.

وبعدما سمع الكونت بالذي فعله المستشار، جاء أيضاً وأقام في لندن، ومعه رتشارد فتزرينر، وروجر دي بلين Planes رئيس هية قضاء جميع أراضي الكونت جون، وكان مصاباً بجراحة بالغة من قبل واحد اسمه رالف بوتشامب Beauchamp كان المستشار قد جعله فارساً، وقد توفي يوم ٧تشرين الأول، وفي اليوم التالي، وحتى يبدد العداوة بينه شخصياً وبين المستشار، اجتمع الكونت جون مع رؤساء الأساقفة، والأساقفة والإيرلات في دير القديس بولص في لندن، وقرعت النواقيس التي استخدمت بالعادة لجمع الناس معاً، وبعدما عقد الجميع نقاشاً طويلاً معاً، أقسم الكونت جون يمين الولاء للملك رتشارد.

وعقد يوم الخميس ١٠تشرين أول مؤتمر في الجزء الشرقي من قلعة لندن، وكان الحضور:

رتشارد كونت مورتين، والمستشار ورؤسار الأساقفة، والأساقفة والإيرلات والبارونات، وتقرر بالاجماع وجوب إعادة جميع القلاع التي منحها المستشار برغبة منه إلى أقربائه وأسند حكمها إليهم، وعلى الأخص قلعة لندن، ووعد المستشار بأيمان مقدسة أنه سيفعل ذلك، وستبقى القلاع الثلاثة التي تسلمها من يد الملك رتشارد، وهي: دوفر، وكمبردج، وهيرفورد في ويلز في يد المستشار وتحت حكمه، ما ان يتم تسليم الرهائن التي أعطاها الشحن، الذين عينهم المستشار هناك، ويتم تقديم هنري وأوسبرت أخوي المستشار وماثيو الحاجب كرهائن حتى يتم تسليم

القلاع، وكان المستشار أقسم أنه لن يغادر المملكة حتى تكون القلاع قد أعيدت، وفي يوم السبت ١٢ تشرين أول ذهب المستشار إلى دوفر، يقوده غلبرت أسقف روشستر، وهنري أوف كورنهل Cornhill عمدة كنت.

وفي يوم الخميس التالي وضع المستشار وليم لونغ شامب عليه ثياب امرأة، لكن بما أنه لم يكن قادراً على تغيير طريقة مشيه، أخفق في عدم اظهار ذاته أنه رجل وليس امرأة، ولهذا عرفه البحارة الذين تأملوا في وجهه، واعتقل وحمل بعيداً، وتخلص بصعوبة من وضعه كامرأة، وبقي في السجن، حتى جرى اتخاذ قرار عام من قبل هيئة قضاء المملكة المقيمة في لندن، وأعطي بموجب ذلك حريته بالذهاب إلى حيث أراد، وتلقى على كلّ حال انذاراً وأوامر بأن ينفذ ماكان أقسم أن يفعله في الاجتماع الذي عقد قرب قلعة لندن، وأقلع المستشار يوم ٢٩ تشرين أول نحو نورماندي، ونزل في ميناء لي تربورت Le Treport.

واعتاد طفل من أطفال حاشية أسقف لندن التمتع باللعب بالطيور، وكان يدرب صقره، لكنه وجد أن تدريب بطة صغيرة (حذف) أسهل، وكان عندما ينقر على آلة موسيقية يدعوها البازيارية باسم الدف، تندفع البطة نحوه وهي تصدر أصواتاً عالية بجناحيها، وما أن تعلّم صقره هذا وفهمه حتى طار وغطس وأمسك بواحدة من سمك الكراكي، كانت تسبح تحت سطح ماء النهر، وحملها حوالي الأربعين قدماً فوق الأرض الجافة، وأرسل الأسقف كلّ من سمكة الكراكي والصقر إلى الكونت جون في ٢٢ تشرين أول، كتذكار لواقعة غير اعتيادية.

وجرى في اليوم نفسه نقاش حول انتخاب رئيس أساقفة لكانتربري، حسبما أمر الملك رتشارد، ولكن القضية أجلت بعد نقاش طويل.

ورجع ملك فرنسا من القدس، واستقبل في باريس استقبالاً مهيباً يوم

٢٧كـانون الأول، ولكـن هل ستعـدّ بعثتـه بعثة مجيـدة، أو انتهت بسرعـة بسبب المرض، أو بعثة شائنـة مخزية بالنسبة للذين كـانوا في المعسكرات؟ الذين يعرفون هم الذين سيقولون.

سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف

اتخذ هنري كـونت شـامبين، ابن أخـت الملك رتشـارد زوجة لـه، ابنة الملك عمـوري ملك القدس [كـانت وريثـة الملك عموري]، وهـي التي كان المركيـز قد تزوجهـا بطريقة أو أخـرى، وهكذا كسب هنـري السيطرة على جميع البـلاد، مثله مثلما فعـل أي ملك من ملـوك القدس، وكـذلك بقدر ما سيسترد المسيحيون مما فقدوه.

وكانـت هناك قافلـة اسلامية قـادمة من القـاهرة إلى القدس، حـاملة جميـع أنـواع المؤن والعتـاد والســلاح، وقـد اعترض المسيحيـون سبيلهـا ونهبوهـا، وكان ماأخذه الفـرنسيون منها قـد احتفظوا به، أما الـذي أخذه الداويـة والاسبتاريـة مع الآخـرين فقد جـرى توزيعـه وفقاً لحكـم ملك انكلترا وقراره.

وفي ١٤أيار جاء ملك انكلترا إلى الداروم، التي كان الملك عموري قد حصنها لإيذاء المسلمين وإلحاق الضرر بهم، والتي كان صـلاح الدين قد استولى عليهـا مراراً، وحاصرها الملـك رتشارد، واستولى عليها بعـد أربعة أيام، وأخذ من الأسرى مايزيد على خمسة آلاف.

وفي ٣١تموز استولى المسلمون على يافا، وطـار في اليوم التالي رتشارد إلى حمل السلاح، ومضى إلى مسـاعدة المسيحيين، ومعه ثلاثـة مراكب وعشرة فرسان فقـط، ورسا أمام يافا، فهـزم المسلمين واستولى على البلدة، واسترد

العدو شجاعته عندما سمع أنه قدم مع عدد قليل من الرجال، وحمل عليه محاولاً أسره حياً، وقد قاوم برجولة وقتل عدداً كبيراً منهم.

وفي يوم ٩آب عقدت هدنة سمح بموجبها للمسيحيين بدخول القدس غير مسلحين، لكن رئيس أساقفة صور قرر حرمان كلّ واحد سيذهب إلى القدس للوفاء بنذر صليبيته بصلاة موجهة من قبل المسلمين، وتقرر أن تدوم المدنة اعتباراً من عيد الفصح المقبل: ثلاث سنوات، وثلاثة أشهر، وثلاثة أسابيع وثلاث ساعات، ومامن انسان شكك بالحكمة القائلة: «من الصعب قطع حبل جُدل ثلاث مرات»، ولكي لايدع المسلمون مجالاً للشك في عزمهم على الحفاظ على كلمتهم، بعثوا بسهم، ليكون شارة على السلام، أي لن يكون هناك خوف من تطاير النشاب أثناء النهار.

وفي يوم ٢٩أيلول صعدت الملكتان ظهر سفينة، وأعني هنا: بيرنغاريا ملكة انكلترا، وجوانا ملكة صقلية، وغادرتا من عكا، وفعل الملك رتشارد الشيء نفسه يوم ٩تشرين أول، ونزل في حوالي ١١تشرين ثاني في مكان اسمه كورفو، وهو واقع ضمن أراضي امبراطور القسطنطينية، ثم غادر السفينة الكبيرة التي كان يستقلها، ومضى ومعه شينيين، ونزل في سلافونيا، وبعدما مضى خلال البندقية، وأكويليا، دخل إلى بلاد دوق النمسا.

وقد ألقي القبض عليه في مدينة فينا يوم ٢٠كانون الأول، ومع أن الدوق لم يضع فعلاً قدمي الملك في الأغلال، غير أن خشونة معاملة حرسه له جعلت اقامته أسوأ مما لو كان في الأغلال، فرجال هذه البلاد موسومين بالهمجية والقسوة، مرعبين في حديثهم، قذرين في عاداتهم، تغطيهم الأوساخ، وعلى هذا كان هو بالحري مقيماً بين حيوانات وليس بين بشر.

- ٦٢٢ -

سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف

في يوم ٢٨شباط توفي صلاح الدين.

وفي يوم ٢٣آذار سلـم دوق النمسا ملك انكلترا إلى الامبراطـور [هنري السادس] (٢٥) وذلـك بعدمـا اتفقا على مبلـغ من المال، وبعـدما أرغـم الامبراطور الملك رتشارد على دفـع فدية عظيمة، باستخدامـه للتهديدات، سجنه في قلعـة اسمها تـريفل Trifels قائمـة على حدود ألمانيـــا واللوريـن، وهي قـائمة على قمة جبـل أعلى من الجبال التـي من حـوله، وبنيت لتكون سجنـاً فقط للأعداء المشهـورين بالخطورة وبسـوء السمعة بين أعداء الامبراطورية الرومانية.

ولم يحدث هذا بـالصدفـة، بل دبـرته الحكمـة الربـانية وقضـت به أن يكون انتقامـاً، حتى يعود رتشارد إلى جادة الصواب ويتـوب، ويقلع عن تجاوزاته التي اقترفهـا ضد أبيه الأرضي هنري الثاني ملـك انكلترا، عندما كان يحتضر في لامـانس، بحصاره لهذه البلدة بمسـاعدة من ملك فـرنسا، وصحيح أن رتشـارد لم يضرب والده نفسـه بالفعـل، إنه مـع هذا أرغمـه على التراجع بوساطة حملات متتالية ووحشية زائدة.

وعندما سمـع جون كونت مـورتين بأن أخاه كان في السجـن، تدغدغ بآمـال عظيمةفي أن يكون ملكـاً، فربح إلى جـانبة عدداً كبيراً مـن الناس من جميـع أرجاء المملكـة، وقدم وعوداً كثيرة، وبسرعـة متن قـلاعه، وعبر البحر، وعقـد اتفاقاً مـع ملك فرنسـا قضى بحـرمان ابن أخيـه آرثر دوق بريتاني وإبعاده عن الآمال التي يرعاها البريتانيون حوله.

وعنـدما كـان الملـك رتشارد في السجـن كـان قلقاً كثيراً ومهتماً بشـأن شغور كرسي كانتربري، فكتب الشروط التالية:

«من رتشارد، ملك الانكليز، بنعمة الرب إلى عزيزه المخلص رتشارد أسقف لندن، وإلى عميد كنيسة كانتربري وإلى جميع الأساقفة المساعدين، تحيات:

نريد أن نبحث معكم، بقدر مانستطيع، وحسب امكاناتنا، مسألة التعيين لكنيسة كانتربري التي هي الرأس والأم لكم جميعاً، تعيين رجل مناسب، ومقبول منا ومنكم ومن جميع المملكة، رجل سوف يسعى وراء سلام الكنيسة المقدسة وأمنها وسلام مملكتنا وأمنها».

وبعدما قرىء هذا الكتاب بشكل علني، اجتمع كثير من الأساقفة بناء على دعوة أسقف لندن، وعلل بعضهم غيابهم واعتذروا بوساطة رسالة أو من خلال الرسل، واستجاب للدعوة أيضاً عدد من رؤوس البيوتات الدينية، وجرى الانتخاب يوم ٢٩ حزيران.

وبذلت الملكة إليانور، أم الملك مع وولتر أوف كاوتانس، رئيس أساقفة روان، ورئيس هيئة العدالة في انكلترا وبارونات آخرين، غاية الجهد للحفاظ على سلام المملكة، وسعوا لجمع القلوب المتخاصمة فيما بينها بشكل دائم، وقرر رئيس هيئة العدالة، وجوب عودة غيوفري رئيس كانتربري والرهبان الذين جاءوا معه إلى لندن، حيث حصل توماس الشهيد الرائع على تاجه بدمه، لتمجيد اسمه خلال العالم أجمع، وفي يوم ٢٩ أيار، تقدم الرهبان على الأساقفة وانتخبوا هيوبرت وولتر [أسقف سالسبري] وقبل ذلك عميد يورك، ولقد أوحت إليهم روح ما وأوضحت أنه سوف ينتخب من قبل الأساقفة، وترأس الاجتماع رجال من ذوي المراتب المتوسطة وعملوا بمثابة هيئة قضائية في بيت الكهنة في كانتربري، وأعطوا موافقتهم على الانتخاب.

وحسبما كان مرتباً، جرى في يوم الأحد، الذي هو يوم مقدس، انتخاب هيوبرت أسقف سالسبري رئيساً لأساقفة كانتربري، وتم ذلك

الانتخاب من قبل الأساقفة، وأعلنت النتيجة إلى الناس، من قبل أسقف لندن، وجرى الإعلان في وستمنستر، وهو المقر الملكي المشهور، والمكان الممجد دوماً من أجل انتخاب رؤساء الأساقفة، وأعطى وولتر رئيس أساقفة روان ورئيس هيئة العدالة في انكلترا الموافقة الملكية والتأكيد.

وكان هناك لقاء عام لجميع أعيان ألمانيا عقد في وورمز، يوم ٥ تموز، حيث جرى البحث بشأن فدية ملك انكلترا، وكان هناك الثمن الذي دفعه الامبراطور هنري إلى ليوبولد دوق النمسا، فقد أعلن أنه دفع له خمسين ألف مارك فضي، ولكن الامبراطور الذي كان مرابياً عظيم الشهرة، استطاع أن يضاعف ماله في يوم واحد، فاستخلص مائة ألف مارك من الملك (٢٦١)، وبات المبلغ الحقيقي الذي سيدفع فدية للملك هو مائة ألف جنيه (باوند) من نقود كولون، وتقرر دفعه على أقساط في أوقات محددة، وتم تقديم خمسين رهينة مقابل الدفع.

أما بالنسبة لجمع المال، فسنعرض الآن ونوضح صورة الحب والاخلاص التي أظهرها رجال الملك المخلصين، بداية مع الكنيسة: جاءت الكنائس الكبرى مع خزائن مليئة منذ زمن بعيد، وقدمت الأبرشيات كؤوس قرابينها الفضية، وتقرر وجوب أن يدفع رؤساء الأساقفة والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الكنائس، والإيرلات والبارونات، ربع دخلهم السنوي، وأن يدفع الرهبان السسترشيان والبريمونستراتينشيان Premonstratensian جميع نتاجهم من الصوف

وأن يدفع رجال الدين الذين يعيشون على العشور، العشر من دخلهم.

ودهش الألمان لرؤيتهم تدفق الناس بشكل كبير ومستمر من الأساقفة، ورعاة الديرة، والإيرلات والبارونات والناس الأقل شأناً من مختلف المناطق وأبعدها، على طلب رؤية الملك، وكان كلّ واحد في بلاده

متشوقاً لعودته، وبما أن عدداً كبيراً من الناس أعادوا معهم أنواعاً من التعليمات [التي نسبت إلى الملك] كتب الملك الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك انكلترا إلى وولتر رئيس أساقفة روان:

مهما بلغ عدد المرات التي نرسل بها رسائل إليكم في انكلترا مع أوامر صادرة إليكم، عليك أن تعتمد فقط الرسائل التي تتعلق بسمعتنا وتقدمنا، أما الرسائل التي لاتتعلق بسمعتنا أو منفعتنا، فلا يجوز اعتمادها».

وجرى استدعاء هيوج أسقف تشستر —حسبما قال— من قبل الملك، وأعدّ نفسه إعداداً جيداً مع هدايا عظيمة، وقد تعرض لكمين حتى قبل أن يتعرض لمخاطر ألمانيا، فبينما كان يرتاح في إحدى الليالي قرب كانتربري، ألقي القبض عليه وسرق، وكان ماثيو دي كلير، شحنة قلعة دوفر، قد أعطى حمايته إلى اللصوص، ومع أنه حرم بالاسم من قبل رئيس الأساقفة والأساقفة تحت شموع مضاءة، من غير المعروف فيما إذا كان قدم ترضية صحيحة لما اقترفه.

وتزوج فيليب ملك فرنسا أخت ملك الدانمارك، غير أنهما تطلقا بشكل غير متوقع، وجرى الحديث عن هذا أكثر مما جرى حول ماحدث في العرس يوم ١٥آب في آمين Amiens وفضلت الملكة المطلقة أن تعيش في سواسون على العودة إلى بلادها الدانماركية.

وعاد الرسل الذين أرسلهم رئيس الأساقفة إلى البابا لإحضار الطيلسان البابوي، وعاد معهم واحد يدعى «الأسقفي» يحمل الطيلسان نفسه، وعقد اجتماع عام للأساقفة في كانتربري يوم ٥تشرين الثاني، حضره أيضاً بعض رعاة الديرة، وذلك من أجل استقبال رئيس الأساقفة وتتويجه.

وعندما بات كلّ شيء محتاج إليه لهذا الاستقبال جاهزاً، جرى تتويجه

بشكـل مهيب ومنـح قبلة السـلام، وقـد جلس على يمينـه أسقف لنـدن وعلى يساره أسقـف ونشستر، ثم ذهبـوا في موكـب لاستقبال «الأسقفـي» وهو يحمـل الطيلسان، وتوجـه رئيس الأسـاقفة إلى المذبح المرتفـع، وهناك قيد بقسم الثالـوث القديم، مع اضافة قليـل من الكلمات الجديدة، التي نعتقد أنه من غير الضروري ذكرها هنا.

ثـم وجه وولتر رئيـس أساقفـة روان شؤون المملكـة لمدة سنتين وثلاثـة أرباع السنـة، وذلك بمثـابة رئيـس لهيئة القضـاء في انكلترا، وهو لم يحاش جماعة النبلاء في تلك الأثنـاء، ونأى بيديه عن أخذ الأعطيـات، ناظراً إلى الفرقاء بعين واحدة ومعيـار واحد، وذهب هذا الرجل بنـاء على طلب من الملك رتشارد إلى ألمانيا، وسافرت معه إليـانور أم الملك، وقد احتفلا بعيد الغطاس على الطريق.

سنة أربع وتسعين ومائة وألف

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديسيتو عمدة لندن:

إنني أعلـم أننا منـذ أن أتينا إلى مـولانا العـزيز والمشهـور جداً، ملـك الانكليـز، لم نكتب إلى أحـد في انكلترا، حتـى الثالـث مـن شباط حيـث سمعنا بمسائل جديـرة بأن نخبركم عنها، ومتوجب علينـا أن نكتب لكم عنهـا، لأنه في ذلـك اليوم نظـر الرب الـرحيم إلى شعبـه في مينز، بتـدبيره اطلاق سراح المولى الملك، ففي ذلك اليوم نفسـه في الساعة التاسعة منه، كنا نحـن أنفسنا حـاضرين نيـابة عـن المولى الملك، وذهـب أسقفا مينـز وكـولـون بين السيـد الامبراطور والسيـد الملـك، ودوق النمسـا يلتمسـون اطـلاق سراح الملـك، وبعد بـذل جهـود كبيرة ومصـاعب مـع كثير مـن المتاعب، حصل الأسقفان على اطلاق سراحه.

واتصلت الملكة ونحن أنفسنا وأساقفة باث، وإيلاي، وسينت، وعدد كبير آخر من النبلاء بالملك شخصياً، وأخبرناه باختصار بالأخبار السعيدة، وهكذا أعلن السيد الامبراطور له، أنه صحيح قد أبقاه بالاعتقال لديه لمدة طويلة، سيطلق سراحه الآن ويمنحه الحرية، وبناء عليه يمكنه من الآن فصاعداً أن يستأنف سلطانه، فقد حصل على حريته، وحلت المسألة وفقاً لرغبته».

وتزوج في هذه الآونة هنري ابن أخت رتشارد ملك انكلترا، والابن الأول ولادة لهنري دوق سكسوني، الابنة الوحيدة والوريثة لكونراد كونت أوف بالاتنيت Palatinate.

وجرت نقاشات كثيرة بين الامبراطور والملك، ليس من أجل إعداد مال الفدية الذي سيدفع فقط، بل لتخفيض مرتبة الملك [بجعله تابعاً للامبراطور] وقد امتزج بهذه المفاوضات شيء كان إجرامياً تماماً، وكان بكل تأكيد عملاً مناقضاً للشرائع، وضد القوانين، وضد السوابق الحسنة، ومع ذلك صحيح أن الملك وأتباعه حلفوا الأيمان بأنهم سيرعون ذلك، وقدموا رسائل تأكيد واعتراف كانت معترف بها ومقبولة في كل مكان في العالم، لقد كان الفرقاء محللين من أيمانهم لأنها استخرجت منهم بشكل غير قانوني، وكذلك الرسائل ينبغي ألا تتملك أية سلطة في المستقبل، ولا أن تحصل على أية قوة في مجرى الأيام.

وجرى تقديم وولتر رئيس أساقفة روان، ووليم لونغ شامب، مستشار الملك، وعدد آخر من الأعيان، كرهائن، حتى يأتي وقت تحريرهم عندما يتم دفع عشرة آلاف مارك، وهو مبلغ طلب من الملك دفعه على الفور، وقد أقسموا على مراعاة هذه الأحكام، وألا يغادروا ألمانيا بدون معرفة الامبراطور.

وقدم الملك الانكليزي إلى كولون بناء على طلب ملح ومستعجل من

رئيس الأساقفة أدولف، وقد استقبل بحفاوة بالغة في قصره، حيث الأبهة عظيمة والاحتفالات رائعة، وقد بقي هناك لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث باشر رئيس الأساقفة الأمور بنفسه، ونشط من أجل حضور الملك قداساً يعقد في كنيسة القديس بطرس، وطرح رئيس الأساقفة جانباً ثيابه الفخمة، واحتل مكان قائد جوقة المرتلين، ووقف وسط الجوقة مع الآخرين من أفراد الجوقة، وبدأ القداس المقدس، وتلا: «أعرف الآن بصدق أن الرب بعث بملاكه وأنقذني من أيدي هيرود».

وسافر الملك رتشارد، وركب الطريق دونها توقف حتى نزل في انكلترا في سندويش يوم الأحد ٢٠آذار، وفي يوم ٢٣آذار جرى عقد اجتماع هائل لرجال الدين وللشعب، وجرى استقباله في موكب مرّ خلال المدينة المزينة حتى دخل إلى كنيسة القديس بولص، ومن هناك ركب الطريق إلى نوتنغهام، ووصل إليها بالحال، وبعد ثلاثة أيام تسلم استسلاماً جميع المدافعين عنها الذين طلبوا رحمته.

واحتفل الملك بعيد الفصح في نوتنغهام، وتسلم بعد ثمانية أيام تاج المملكة من هيوبرت وولتر، رئيس أساقفة كانتربري، وجرى ذلك في ونشستر، وكان بين الحضور أيضاً وليم ملك اسكوتلندا.

وفي يوم ١٢أيار ركب الملك رتشارد سفينة من بورتماوث، ووصل إلى نورماندي إلى بركس [الصحيح ليزكس] وقابل أخاه جون، الذي سجد على قدميه يطلب الرحمة منه، وقد حصل عليها، وزحف نحو فيرنويل Verneuil فسمع أن الملك الفرنسي كان يحاصر القلعة، وأنه لم يكن هناك توقف منذ ثمانية أيام سواء عن رمي النيران بوساطة المنجنيقات، أو بقذف الحجارة الكبيرة، أو باستخدام آلات الحصار، أو بحفر الأنفاق تحت المدافعين، أو بالحاق الجراحات بأجساد المدافعين، ثم حلّ موعد وصول ذلك اليوم العظيم في التقويم، اليوم الذي كرّس للجلالة العلوية، إنه اليوم الأعظم في جميع أنحاء العالم، ذلك هو يوم عيد

الشعانين، الذي يحتفل فيه المسيحيون في كلّ مكان من أمكنة الكرة الأرضية.

ثم سمع الفرنسيون كيف أن ملك الانكليز كان يحضر تحت جنح الظلام للقتال، وقد سمعوا أنه سيهاجم في اليوم التالي، فارتعبوا لدى سماع هذا التقرير، وآثر الرجال المرعوبين الفرار على القتال، وآثروا أيضاً العار الأبدي، على الخسارة، فتراجعوا وانسحبوا من أمام القلعة.

وعاد ولتر رئيس أساقفة روان من ألمانيا بعدما تم دفع العشرة آلاف مارك، واستقبل يوم ١٩ أيار في كنيسة القديس بولص في لندن، حيث تولى تقديم عظة وقداس للناس، وبعدما أكمل طقوس القداس جرى الاحتفاء به بعناية في بيت أسقف لندن، وتوجه في يوم ٣٠ أيار بحراً نحو نورماندي.

وكان الملك الفرنسي يتراجع مسرعاً من فيرنويل، ولكي لايظهر وكأنه لم يفعل شيئاً أقدم على حصار بلدة صغيرة قرب روان تدعى فونتين Fontaine بسبب كثرة الينابيع المتفجرة فيها، وكان في داخلها أربعة فرسان وعشرين رجلاً مسلحاً بمثابة حرس لها، ولقد عزم الملك الفرنسي على شيء ليس أقلّ من تحويل حاكم عظيم مع جيشه كلّه إلى مثل هذا المكان الصغير.

وبعدما وزع نوبات الهجمات الشديدة، هاجم الملك نفسه الباب في اليوم الرابع، فتغلب على الحامية الصغيرة، ودمر كلّ شيء، غير أنه احترم رجال روان نفسها، خشية أن تنبعث في نفوسهم الحمية كما فعل أهل فونتين، وهكذا رجع إلى أراضيه محرزاً على الأقل نصراً صغيراً.

وفي تلك الآونة كان الجيش الأنجيفي يحاصر قلعة وليم غووي Gouet التي بنيت على مقربة من لى فيرت برنارد التي تدعى أيضاً مونتميرال Montmirail وقد استولى هذا الجيش عليها وهدمها

بالكامل.

وبعدما تراجع الملك الفرنسي من فيرنويل، جاء الملك الانكليزي إلى تور، حيث دفن مارتن المقدس، واستلم ألفي مارك هدية طوعية من برجاسية المدينة الذين جمعوها بدون أي إكراه، ثم تقدم رتشارد إلى بيوليو Beaulieu التي قامت على حدود تورين، وحاصرها وتمكن خلال أيام من الاستيلاء على قلعة لوشي، وكان الملك الفرنسي قد تسلم لوشي من وكلاء ملك الانكليز، وجعلها تحت سلطانه، وكان وقتها الملك الانكليزي بالأغلال، وقد تسلمها بمثابة ضمانة حتى لايتم خرق الاتفاقية المعقودة بين الملكين، ووقتها شحنها الملك الفرنسي بخمسة عشر فارساً وثمانين رجلاً مسلحاً مع مايكفي من مؤن وعتاد للدفاع عن المكان.

وفي تلك الآونة جاء ابن ملك نافار بمثابة حليف لملك الانكليز، وكان قد حشد جيشاً كبيراً يضم فيما يضم مائة وخمسين من حملة القسي العقارة، وقد نهب بلاد غيوفري أوف رانكون Rancon لورد أوف تيليبورغ Taillebourg وبلاد كونت أنغوليم Angouleme.

وأغار الملك الفرنسي على حدود تورين، ونصب خيامه قرب فاندوم Vandome لكنه عندما شهد قدوم ملك الانكليز، أزال معسكره في الصباح الباكر، وعاد مسرعاً إلى فرتفال Freteval وتبعه رتشارد وسار خلفه واستولى على قطار أثقاله، والكونتات والبارونات والنبلاء والفرسان الذين كانوا يدافعون عنه ويقاتلون، واستولى على جميع معداتهم، وعلى الذهب والفضة المحفوظة في الصناديق وفي أماكن أخرى، وكذلك على الخيام، وعلى القسي العقارة، وعلى عدد لايحصى من الأشياء الأخرى، التي كانت أثمانها غير محددة، فلقد استولى رتشارد على هذا كله وحمله بعيداً دون المعاناة من أية جراحة لنفسه.

ومضى مـن عيد أحـد العنصرة، عندما طلـب ملك الفـرنسيين الفرار، حيث نجا مـن فيرنويل خلال الليل. سبعـة وثلاثون يومـاً إلى اليوم الذي كان مقيماً فيه قرب فـاندوم ، وقد فوجيء بالصبـاح ورعب من الجراحات القاسيـة التي لحقـت برجالـه، لذلك ألقـى بنفسه في شـاتودون Cha-teaudun واتخذ داخلها موقف الدفاع.

واستروح الملك الانكليـزي رائحة النصر، فعبر إلى بـواتو، واستـولى بعد عـدة أيام على تيلبـورغ Taillebourg وجميـع أراضي غيوفـــري أوف رانكون مـع جميع أراضي كـونت أوف أنغـوليم، وعلى هـذا لم يبق فيها بين مفـرق شارل [ممـر رونسيفـو في جبـال البرانس المفترض أنـه كـان مسرح معركة نشيد رولاند] وقلعة فيرنويل، ولا عاص متمرد ضده.

وكتب «البابا كليستين إلى أسقف فيرونا:

نحن نـرغب، وبموجـب الارادة الرسولية نـأمر، ونقضي بأن نتـولى أخذ يمين من دوق النمسـا، بالمواثيـق التي تـراها ضروريـة، في أن يطيع دونها خـداع أوامرنـا التـي أرسلت إليـه بـوسـاطتك نفسـك، أو بـالرسـائل أو بالـرسل، وبعـدما تتسلم هـذا اليمين، أصدر إليه أمـراً بموجـب فضائل أحكام اليمين في أن يطلـق سراح جميع رهـائن ملك الانكليـز، وأن يلغي جميع الشروط التـي استخرجهـا من الملك، وأن يعيـد إليه كـل شيء أخذ منه وكذلك ماأخذ من رجاله، ويتـوجب عليه إعادة ماأخذه خطأً بمثابة فدية للملك تماماً دون نقص، وعليه ألا يحاول من الآن فصاعداً مثل هذا العمل. وينبغي عليك ايجاد صيغة مناسبة للتعويض عن جميع الجراحات والأذى الذي اقترفه.

وبعدمـا يكون قد جرى إتمام هـذه الأشياء وتنفيذها، عليـك أن تمنحه التحليل، وأن تخفف الحرمان المفروض على أراضيه، وعليك أيضاً أن تأمر الـدوق المذكـور ورجـالـه، بعـدمـا تسلمـت أيمانهم ومنحتهـم التحليـل

والغفران، أن يقوموا في أقصر وقت يمكنهم، بـالذهاب إلى منطقة القدس والبقاء هنـاك في خدمة المسيـح قدر الوقت الـذي أمضاه الملك السـالف الذكر في الأسر، وإذا لم يلتزموا بهذه الأشياء ويأخذوا بها، أعد اصدار قرار الحرمان نفسه عليه وعلى رجاله، بدون حق الاستئناف.

صدر في روما، في كنيسة القديس بطرس؛ ٦ حزيران ١١٩٤».

وجمع ملك الانكليـز بموجـب أمر عـام جميع النبـلاء الخاضعين له، في لامانس، حيث أثنى بصوت مرتفع على اخلاص الانكليز له في محنته.

وعقـدت هدنـة بين ملكي فـرنسـا وإنكلترا، لكن مـرور التجار خـلال خطوط القتال منـع. وفرض ملك انكلترا في هذه الآونـة بعض الاجراءات لتحسين الأوضاع الماليـة الملكية، وأعلـن أنه يتوجـب على جميع الفـرسان مـن كـافـة أنحـاء انكلترا القـدوم والاجتماع معـاً بغيـة اختبـار قـوتهم في المبـارزات، معتقـداً أنـه ربما إذا مـا أعلـن الحرب على المسلمين أو على جيرانه، أو فرضاً حاول أحد الأجانب غزو المملكة، فوقتها سيجدهم أكثر نشاطاً، وأحسن تدريباً، وجاهزية للقتال.

وجرى أخيراً تحديـد يوم، وتعيين مكان، فـدعا إلى المبـارزات المكرسين على تماريـن الفـرسان وتـدريبـاتهم، وحضر رجـال من الانكليـز مـدربين بشكل جيـد على الحركات العسكـرية، وبـارعين بالسيـف وقادريـن على الضرب والطعـن، ولكن بما أنهم حملـوا رمـاحـاً خفيفة جعلهـم هـذا غير مستعدين لمعركـة حقيقة بقدر ماكان الأمر معركة افتراضيـة ونوع من أنواع الاحتفالات الكمالية، وظهروا بشكل أفضل بـامتلاكهم وحملهم للمشاعل، وكـان هناك شبـاب جدد على حـرفة الفـروسية، راغبين بـالمدح أكثر من الثروة، لهذا لم يضغطوا قط على الذين هـزموهم بقوة السلاح: بسجنهم أو بارغامهم على دفع فدية غير معقولة، بـوساطة أنواع خاصة من التعذيب، لكن وقد أسروهم بموجب حق الحرب، اكتفـوا منهم بوعد قائم على الثقة

الجيدة، وهكذا تركوا أسراهم يذهبون، ليعودوا عندما يطلبون.

ووصل أربعة رسل من عند الملك فيليب إلى رتشارد ملك الانكليز، يحملون كلمات سلام، ويطلبون البحث في شؤون المملكتين، وذلك خشية أن يقوم عدد كبير من رعاياهم بهجر كثير من أماكن سكناهم بسبب انهاكهم وافقارهم وحرمانهم من الذهب والفضة، هذا إذا لم يتم تدميرهم بالسيوف المحاربة وبسفك الدماء، وكرروا مراراً القول إن الخلاف بين المملكتين يمكن أن تحسم نتائجه وينال الاستقرار والحل بوساطة المبارزة بين خمسة رجال شجعان، وينبغي إعلان حكم المتبارين إلى الشعب في كلا المملكتين الذي يتوقع النتيجة وينتظر إعلان أي الملوك سيؤثر الملك السرمدي جانبه.

ولاقت الخطة والشروط على الفور رضا ملك الانكليز، واختار الملك الفرنسي خمسة من رجاله، واختار ملك الانكليز خمسة من رجاله أيضاً، وبعدما جرى إعدادهم بكل دقة وتسليحهم وإلباسهم السوابغ والدروع باتوا متساوين ومتقاربين للمباراة.

وحبست في هذه الأيام نفسها سمكة تدعى بشكل عام «سمكة سمينة» [أي حوت] على النيز Naze وكان ذلك بسبب هبوب الرياح وتيار البحر، والنيز مزرعة تابعة لكهنة القديس بولص في لندن، وعندما أثير خلاف حول هل السمكة ينبغي أن تؤول إلى الملك أو إلى الكهنة جرى فحص امتيازات كنيسة لندن من قبل رئيس هيئة قضاء المملكة، وجاء القرار يقضي بوجوب صيرورة السمكة ليس إلى الملك، بل إلى عميد مقر الكهنة.

وأعاد رتشارد ملك انكلترا إلى عميد وكهنة تور وإلى بقية رجال الدين من رهبان وآخرين جميع ممتلكاتهم التي استولى عليها، وكرماً أعطى هذه الأشياء إلى السيد نائب الحبر الأعظم، وأخذت هذه الأشياء واستردت في

ألنكون Alencon يوم ١١تشرين الثاني.

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديسيتو عميد لندن، تحيات:

حقق السيد نائب الحبر الأعظم ونحن أنفسنا استرداد جميع الممتلكات الدينية التي صادرها ملك الانكليز من أرض السيد ملك الفرنسيين، ونحن نعمل على الجانب الفرنسي ونسعى لدى ملك فرنسا أن نسترد لأنفسنا ولرجال الكنيسة الآخرين الأشياء التي أخذت من أرض الملك الانكليزي. صدر في سنس».

أخذ الامبراطور هنري الطريق إلى بلرم، وهناك استقبل بموكب مهيب في الكاتدرائية، وتوج ملكاً على صقلية في ٢٢تشرين الثاني.

وكان في ٢٦كانون الأول ليوبولد دوق النمسا في غراز Graz يستعرض قواه ومهارته بالفروسية مع جنده، وكان مسلحاً وفق عادات بلاده، وقد سقط من على حصانه واندقت قدمه، وأوصلته جراحه حتى الموت، واتخذت، بناء على نصيحة الأطباء، اجراءات مستعجلة، وجرى بتر قدمه، وهكذا حدث أن الرجل الذي ربط قدمي الملك رتشارد عندما كان على طريقه عائداً من القدس، يعاني من آلام حمل الصليب على جسده، وينوي العودة إلى الأراضي المقدسة، والذي حرمه من الإذن بالذهاب إلى حيث أراد، قد حرم من قدمه عقوبة على جريمته التي اقترفها، وكان ذلك مثل قرار حكم بطرس أوف رافينا، الذي قال بين أشياء وهو يكتب عن الولد المبذر: «من أجل الرفاه، والنهم والجشع، ليكن الجوع نصيبه، وبذلك ستضرب العقوبة المكان الذي اقترف فيه الذنب».

وكتب «هنري بنعمة الرب الامبراطور، والأغسطس الدائم، وملك صقلية إلى صديقه العزيز وولتر رئيس أساقفة روان، تحيات وحب.

نحن نعلـم أنك تطير فـرحاً بسعـادتنا ونجـاحنا، وبنـاء عليه تـدعك تعرف اننـا تملكنا بنعمـة الرب جميع مملكـة صقلية وأبـوليا بسـلام، وكان هناك بعض الأعيـان من المملكة معارضين لنـا كثيراً في البداية، ثم تـابوا إلى حظيرة نعمتنـا، غير أنهم مالبثـوا أن تآمـروا بعد ذلـك مؤامـرة خيانيـة رهيبة ضـد شخصنا، وبما أنـه مامـن شيء مغطى إلا وسيكشـف، فبنعمة الرب كشفـت المؤامرة وأخفقت وأحبطت وبنـاء عليه أمرنـا بهم جميعاً أن يؤخـذوا ويثقلوا بـالأغلال، وزادت النعمـة الربـانية والـرحمة من سرورنـا حيث ولدت رفيقتنا كونستانس، الامبراطـورة اللامعة للرومان والأوغسطا، يوم ٢٦ كـانون الأول، لنـا ولداً، شاركـونا في سرورنا، أعطـونا أخبـاراً عن أنفسكم وعن أحوال بلادكم. صدر في سان ماركو في ٢٠ كانون الثاني».

سنة خمس وتسعين ومائة وألف

بموافقـة من جميـع الكرادلـة، صار هيوبـرت رئيس أسـاقفة كـانتربري [ورئيس هيئـة العدالـة] النائب البـابوي، وقـد تمتع بسلطـات كاملـة، لم يسمع بنظير لها منذ قرون.

وكتب «وليم أسقف إيلاي إلى رالف عميد لندن:

نبعث إليكم رفقاً الـرسالة التي أرسلها شيخ الجبل إلى الـدوق ليوبولد صاحب النمسا، حول وفاة مركيز [مونتفرات] وقد حوت الكلمات التالية:

رسـالة قيـل إنها جـاءت من قـائد الطـائفة الاسـلاميـة التي لاتعـرف الرحمة، والتـي تدعـى الحشيشية، وفيهـا ادعاء أنهم هـم الذيـن يتحملون مسؤولية قتل كونراد أوف مـونتفرات وليس رتشارد الأول، وهدفها في تبرئة الملك الانكليزي من الحادث زيف واضح».

«إلى ليوبولد دوق النمسا، يبعث شيخ الجبل بتحياته.

بما أن عدداً كبيراً من الملوك والأمراء فيما وراء البحار يلومون السيد رتشارد، ملك انكلترا، من أجل وفاة المركيز، إنني أقسم بالله الذي يحكم إلى الأبد، وبالشريعة التي نؤمن بها، أنه لاذنب له في ذلك الموت، والسبب الذي أدى إلى موت المركيز هو هذا:

كان واحد من اخوتنا عائد إلى مناطقنا من ساتاليا Satalia (أضاليا)، لكن الريح دفعته إلى صور، حيث أمر المركيز بأخذه وقتله، وسلب منه كثيراً من المال، وبعثنا إلى المركيز برسلنا نخبره أن يعيد مال أخينا إلينا، وأن يتفق معنا حول التعويض عن موته، لكنه لم يرغب بشيء من هذا أبداً، زيادة على ذلك لقد أبدى ازدراءً نحو رسلنا، لابل حتى اتهمنا بوفاة اللورد رينالد (أرناط) صاحب صيدا، علماً بأننا نعرف من رفاق لنا أنه هو نفسه قتل رينالد وسلبه، ثم بعثنا إليه برسول آخر اسمه ادريس، وقد أراد اغراقه، لكن رفاقنا ساعدوا الرسول للنجاة من صور، وعندها بادر ادريس مسرعاً إلينا وأخبرنا بالذي حدث، وأردنا من تلك الساعة أن نقتل المركيز وبناء عليه بعثنا باثنين من اخواننا إلى صور، فقتلوه بشكل مكشوف، وأمام شعب المدينة كله تقريباً، لقد كان هذا السبب في قتل المركيز، ويمكننا أن نخبركم بصدق بأن رتشارد ملك انكلترا ليس مذنباً في موت المركيز، وأي انسان يحاول أن يؤذيه بسبب هذه القضية، يقترف بذلك عملاً ظالماً، وبدون مسوغ، واعلم بشكل مؤكد أننا لم نقتل أي انسان في هذا العالم مقابل أجر أو مال أو أي شيء، مالم يكن قد سبب لنا أولاً ضرراً. وكتبت هذه الرسالة في قلعتنا مصياف، في منتصف شهر أيلول أمام اخوتنا، وقد ختمت بختمنا في سنة ١٥٠٤ للاسكندر».

«لقد بعثنا بنسخة من هذه الرسالة إليك، أنت الذي ندرك تماماً مدى حبه، حتى يمكنك أن تثبتها في تاريخك».

سنة ست وتسعين ومائة وألف

حدث في هذه الآونة فيضان عظيم مفاجىء جرف كلّ شيء كان قائماً قرب السين سواء من الأخشاب أو الحجارة، وكان فيليب ملك فرنسا وموريس أسقف باريس مقيمان آنذاك في باريس، وكانا خائفين بشكل كبير.

ولعل فيليب تفكر ببيت [المزامير٦٩/ ١٦] قوله: «لايغمرني سيل المياه ولايبتلعني العمق ولا تطبق الهاوية عليّ فاها» فقرر الالتجاء إلى رابية، فغادر قصره، وأخذ ابنه لويس وجميع أسرته لإمضاء الليل في دير القديسة جينيف، وردد الأسقف قوله: «المياه قد دخلت إلى نفسي» [المزامير:٦٩/ ٢]، ومع ذلك أخذ نفسه وشعبه للإقامة في دير القديس فكتور.

وغالباً مارأيت في هذه الأيام الحد الذي بلغه انتشار الشرور والخلاف في مدينة لندن، حول توزيع حمل الأعطيات التي توجب تقديمها للخزانة، تبعاً لقدرة كلّ واحد على الدفع، الأمر الذي يمكن أن يقال حوله أنه نظم بشكل غير عادل، وكان قائد هذا الخلاف رجل يدعى وليم فتزأوسبرت Fitzosbert الذي غالباً مادعا إلى الاجتماعات، وجعل الناس يقسمون أيماناً مضادة لجلالة الملك ومكانته، فقد عذب أخاه مع اثنين كانت مواقفهما سليمة، بقسوة حتى الموت، وكان آخر أفاعيله الشريرة إثارة اضطراب في كنيسة القديس بولص، وعندما وجد أنه أثار السلطات إلى حدّ الغضب، اعتصم في برج إحدى الكنائس العائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري [سينت ماري لى بو Bow] وحوّل المكان المقدس إلى قلعة، ثم عندما رأى عدداً كبيراً من الرجال المسلحين قادمين، وفي سبيل النجاة من الاقتراب من الموت، ألقى النار

في الكنيسة، وبذلك أحرق قساً من معبد الرب.

وقد حُمل من الكنيسة إلى قلعة لندن ليقابل حتفه، ذلك أن عقوبة واحد يمكن أن تلقي الرعب في قلوب كثير من الناس، وقد حكم عليه من قبل النبلاء في أن يجرد من ثيابه، وأن تربط يداه خلف ظهره وكذلك تربط قدماه بحبل طويل، وأن يجرّ بوساطة حصان خلال وسط المدينة إلى المشنقة القائمة قرب تيبورن Tyburn وعلق هناك بسلسلة معدنية حتى لايموت سريعاً، وجرى تعليق تسعة من أصحابه في الجريمة معه، وذلك لكي ينال الذين تلوثوا بالجريمة نفسها عذاب العقوبة نفسها، ومن أجل ضمان سلام المملكة والحفاظ عليه صدر قرار عن رئيس الهيئة القضائية بوجوب إيداع أولاد أو أقرباء عدد كبير من ذوي المراتب الوسطى في مختلف السجون حول البلاد وذلك بعد أخذهم بمثابة رهائن، هذا وقدم الفقراء ترضية موائمة وفقاً لحكم جيرانهم.

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف عميد لندن:

أنت تعرف أية أنواع من المحن والمصاعب توجب على كنيسة روان أن تعاني منها منذ زمن طويل إلى الآن، ونأمل في أن نقنع الملك في أن يكون أكثر لطفاً نحونا ونحو كنيستنا، ذلك أنه آثر نصائح الآخرين السيئة، فاستولى على ميراث الكنيسة، وأعني بهذا لاس أندلاس Les Andelays وتجاهل حظرنا فبدأ ببناء قلعة، مسبباً أذى للرأس وضرراً يمكن مع الأيام أن ينقل الأضرار إلى الأطراف، وإنا نحن أنفسنا مع آخرين محقين في انذار الملك مرتين ثم ثلاث مرات ليقلع عما بدأ بفعله، وليقوم بترضية موائمة لنا، ويرضينا بالتعويض عن مختلف أنواع الأذى التي ألحقها هو ورجاله بنا، باحراقهم عزبنا وأشياء كثيرة هائلة، وأن يعيد إلينا بيعتنا في بليث Blyth مع دخلها الذي وضعه في يديه منذ سنة أو أكثر، ولقد قدم معاذير مختلفة، كلها لاقيمة لها وغير منطقية، واستمر فيما بدأ به ولم يصغ لتحذيراتنا، وإذا ماأراد أن تبقى لنا

حيواتنا، يمكنه أن يفعل، خشية أن تكون أندلاس هي المفرج الوحيد والمتنفس لأنفسنا ولحاجات الفقراء.

والذي يجعل هذه الأفاعيل غير مغفورة أو مسوغة أنه لم يحتفظ بجزيرتنا تحت احتلاله فحسب على الرغم من تحذيراتنا، بل أخذ في زيادة تحصين أراضينا بالخنادق والدفاعات، وعندما رأينا هذا الغزو يزداد بسرعة سوءاً، ذهبنا متذللين مرة ثانية إلى مولانا الملك، وخشية أن يظن أننا نعمل مخادعة أخذنا معنا بعضاً من أعيان كنيستنا ورجونا الملك وتوسلنا إليه لكي يظهر رحمة نحونا وأن يعيد جزيرتنا التي اغتصبها، وأن يعوض علينا الأضرار التي سببها لنا ولكنيستنا، وأضفنا انه إذا لم يرضنا خلال ثلاثة أيام لن نكون قادرين أكثر على اغماض أعيننا عن عناده، ولن نترك المسألة تمر دون عقاب، ثم لإضافة التعاسة فوق الشقاء، ولتعريض كنيستنا لمشاكل الحرب الأهلية، قام وليم أسقف ليزوكس مدفوعاً بالتكبر وبخبائث من الجحيم، فأثار اعتراضاً ضد أمه الكنيسة، ولهذا السبب استحق الحرمان، وكان ذلك بناء على نصيحة عدد من أتباعه الأساقفة، لتجاوزاته الكثيرة، ولطغيانه وعصيانه.

وبما أننا لم نعد قادرين بأي طريق، سواء بالرجاء أو بالانذار، أن نعيد الملك إلى عقله، فلقد انقضى الوقت المحدد دونما ظهور بوادر ترضية، نجد أنفسنا مدفوعين بالضرورة ألا ندع أعمال الأذى الكثيرة والكبيرة هذه تمر بدون عقوبة، مالم يسرع الملك إلى اصلاح خطاياه. ولسوف نذهب إلى روما يوم ٧تشرين الثاني، حيث نأمل بعون الرب ونعمته أن نجلل أسقف ليزوكس بالعار والفوضى أمام البابا، ذلك أن سلوكه الآثم لم يترك لنا خياراً سوى ايجاد عقوبة موائمة له، إننا نطلب منكم برحمة الرب رحمة أخوية نحونا، وأن تدعو الرب من أجلنا».

- ٦٤٠ -

سنة سبع وتسعين ومائة وألف

حُمل رئيس أساقفة كانتربري مريضاً جداً، ولم يكن قادراً على الاحتفال بقداس يوم عيد الميلاد، لكن لحسن الحظ تعافى وأمضى مدة الميلاد في كانتربري، ودخل دير الرهبان للتباحث مع الرئيس ومع الرهبان، وقد قيل بأنه ترك جميع حاشيته، حتى حامل صليبه بالخارج، ومشى أمامه واحد من الرهبان واسمه جون أوف دوفر، حاملاً صليبه، والذي حدث في الداخل خلال الأيام الثلاثة التالية غير معروف لكثير من الناس، والذي أفشي هو فقط مايلي:

دخل رئيس الأساقفة بسلام، وظهر رئيس هيئة عدالة الملك بسلام، ولم يعثر خلال الاجتماع على شيء يستحق الإدانة دينياً أو مدنياً.

وأحرق الملك رتشارد مع جيش كبير كان بصحبته قلعة القديس فاليري، ونهب المنطقة المحيطة بها، وجرى شنق قباطنة خمسة سفن كانوا يجلبون المؤن إلى الأعداء، والذي عثر عليه في السفن وزعه الملك على رجاله يوم ١٥ نيسان.

وهطل مطر غزير في انكلترا لمدة ثلاثة أيام، وقد أخاف ذلك عدداً كبيراً من الناس.

[وصدر الإعلان التالي]:

«دعْ كلّ من يقرأ هذه الرسالة يعرف، أن هذه هي اتفاقية ومعاهدة بين رتشارد ملك انكلترا، وبين بلدوين كونت أوف فلاندرز وهينو قريبه: لن يعقد ملك انكلترا هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة الكونت وموافقته، وكذلك لن يعقد الكونت هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة ملك انكلترا وموافقته، وإذا حدث وعقد كلّ من الملك والكونت

سلاماً مع ملك فرنسا، وشن بعد ذلك ملك فرنسا الحرب على واحد منهما، عندها سوف يكون ملك انكلترا والكونت مربوطين بتبادل العون والمساعدة، بقدر مايستطيعانه وكما كانا يفعلان وقت عقد هذه المعاهدة، ولايجري تطبيق هذه المعاهدة أوقات الحرب فقط لكن بشكل دائم بين الطرفين، وورثتهما الذين سوف يتملكون البلاد من بعدهم في السلم والحرب وإذا لم يحافظ ملك انكلترا على الاتفاقية، سوف يقدم الذين أقسموا —نيابة عنه ولصالحه أنه سوف يفعل— أنفسهم إلى الكونت المذكور، ويضعوها تحت تصرفه خلال شهر واحد من معرفتهم بالخرق، وذلك دون انتظار منهم لدعوة الكونت لهم، ومثل هذا، إذا ماخرق الكونت الاتفاقية، على الذين أقسموا نيابة عنه ولصالحه تسليم أنفسهم إلى ملك انكلترا خلال الشهر دون انتظار الدعوة. وأقسم عن الملك ولصالحه جون أوف مورتين أخو الملك، وأقسم كونت فلاندرز عن نفسه ولصالحها بحفظ المعاهدة. وكان هناك شهود كثر على كلا الجانبين، ستكون هناك حاجة لوقت طويل لتعدادهم. أبرمت في لاس أندلاس».

وأمر هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري من قبل الملك بعبور البحر، وقد غادر لامبث، ثم عاد إلى هناك في ٨تشرين الأول، أي بعد عشرين أسبوعاً وستة أيام.

وحينما كان في نورماندي أنجز عدداً كبيراً من الأعمال النافعة، فقد سمع بأن أسقف بوفياس Beauvias الذي شغل وظيفة مزدوجة، هي وظيفة الأسقف والكونت، قد وجد وهو يحمل سلاح فارس، تبعاً لما اعتاد أن يتفاخر به أجداده، وقد ألقي القبض عليه، وحفظ بالأغلال من قبل رتشارد الأول، وتمكن رئيس الأساقفة من اقناع الملك في ابقاء الأسقف في حجز أكثر سهولة، وصالح كنيسة روان، التي كانت الخدمات الدينية فيها معلقة، وأضاف بعض الفقرات إلى معاهدة السلام بين ملك انكلترا وبلدوين كونت فلاندرز وخلفائهما، وبذل جهوداً

كبيرة، ونجح في العمل على اعادة السلام بين رتشارد ورئيس أساقفة روان، بإيجاد بديل دائم، تعويضاً لكنيسة روان عن لاس أندلاس.

كانت ماتزال حاجة رتشارد للمال ملحة، لهذا دعا هيوبرت البارونات الانكليز إلى اجتماع ليطلب منهم المزيد من الاسهام المعتبر، وكان هيوج أسقف لنكولن بين الذين قاوموا الملك، وذلك حسبما يروي لنا صاحب سيرة حياته:

سنة ثمان وتسعين ومائة وألف

قبل قرابة سنة وأربعة أشهر من وفاته، أصبح رتشارد ملك انكلترا حنقاً عظيم الغضب من هيوج أسقف لنكولن، وكان الملك فيما وراء البحر، منشغلاً في صراع مرير مع فيليب ملك الفرنسيين، وتمت الدعوة إلى اجتماع عام لجميع بارونات انكلترا في اكسفورد، وذلك بناء على طلب من هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ومدح رئيس الأساقفة منافع الملك، وشرح أوضاعه الصعبة، وبين أنه اعتماداً على موارد قليلة وقوى صغيرة كان يصارع ضد ملك قوي(٢٧) جداً، ملك كان يثير كل جوارحه ليحرمه من ملكه وليدمره، وسألهم أخيراً أن يقرروا ككتلة واحدة الوسائل التي يمكنهم بها على أحسن وجه مساعدة مولاهم في وضعه الصعب جداً والحرج، وطرح وقتها اقتراح من قبل الذين هم مثله، ويعتقدون بوجوب اطاعة كل رغبة للملك بدون تردد، أنه يتوجب على بارونات انكلترا بما فيهم الأساقفة امداد الملك بثلاثمائة فارس حتى يقاتلوا معه طوال السنة فيما وراء البحر ضد أعدائه، وذلك على حسابهم.

وعندما طلب من أسقف لنكولن بشكل علني اعطاء الموافقة على هذا الاقتراح، بقي صامتاً يفكر حتى بادر أولاً رئيس أساقفة كانتربري ثم

رتشارد أسقف لندن، الذي شغل منصب العميد بين الأساقفة، فأعلنا عن استعدادهما لتكريس نفسيهما ورجالهما وممتلكاتهما لحاجة الملك، وهنا قدم اجابته حول السؤال الذي طرح عليه فقال:

«إنني أعرف تمام المعرفة أن كنيسة لنكولن مكرّسة لخدمة الملك في الحرب، لكن في هذه البلاد فقط، وإنها لحقيقة ملزمة أن مامن خدمة متوجبة وراء حدود انكلترا، ولهذا إنني أؤثر العودة إلى موطني الأصلي واستئناف طريقة حياتي العادية، على أن أبقى هنا أسقفاً، مسبباً إلقاء حمل على الكنيسة التي تحت سلطتي، بلاسابقة، ومن ثم التخلي عن حقوقها القديمة».

وتلقى رئيس الأساقفة هذه الاجابة بامتعاض، وسأل بشفتين ترتجفان من الغضب، وبصوت خافت، هربرت أسقف سالسبري عن رأيه حول تأمين العون إلى الملك، فرد على هذا السؤال باختصار وقال مايلي: «يبدو بالنسبة لي، أنه بدون الحاق ضرر عظيم بكنيستي، أنا لايمكنني أن أقول أو أفعل شيئاً آخر غير الذي اقترحه أسقف لنكولن الآن أن يفعل»، وفقد الآن رئيس الأساقفة السيطرة على نفسه تماماً، وانفجر في وجه أسقف لنكولن، ثم فض الاجتماع، وقام باخبار الملك بأن أسقف لنكولن هو المسؤول عن رفض اقتراحه، وعندما استقبل الملك اثنين أو ثلاثة رسل من عند رئيس الأساقفة، أمر وهو في حالة هياج من شدة الغضب بمصادرة جميع ممتلكات الأسقف، وأرسلت التعليمات نفسها إلى أسقف سالسبري الذي أيد أسقف لنكولن ثم ماالذي أعقب هذا؟ عانى أسقف سالسبري من المصادرة مباشرة، وتمكن من شراء رضى الملك واسترداد ممتلكاته بدفع مبلغ كبير من المال، وتحقق هذا من خلال ذهابه إلى الملك وتحمله لكثير من الاهانات، وللمزيد من الاساءات، وبدفع ثمن باهظ وبعد مصاعب جمة، ولم يتجرأ، على أية حال، أحد على الاستيلاء على أراضي وممتلكات أسقف لنكولن، خشية اثارة غضبه،

وخوفاً من حرمانه الـذي ساوى الحكم بالموت، ولهذا لم يتخذ اجراء ضده من عيـد القديس نيقـولا إلى بداية ايلـول، لأن عامل المصـادرة الملكي لم يتجرأ على مصادرة ممتلكـات الأسقف على الرغم من أوامر الملـك المتوالية والقاسية.

وأخيراً، وتحت إلحاح طلبات الموظفين الماليين، الـذين تعرضـوا لضغط شـديد مـن الأوامر الملكيـة القاضيـة بمصـادرة ممتلكاتـه، ذهب أسقـف لنكـولن عبر البحـر إلى الملـك، واتصل بـالملك نفسـه، بـدون الاستعانـة بخـدمــات أي وسيـط، ووجـده في البيعـة في قلعتـه الجديـدة في لاس أندلاس، يستمـع إلى قداس رفيـع بمناسبة عيـد الطبيب الكبير القـديس أوغسطين، يـوم ٢٨آب، وحياه مبـاشرة، وكان الملـك جـالساً على عـرش ملكي عند المدخـل، والأسقفان: فيليب أوف درم ويوستـاس أوف إيلاي يقفان عند قـدميه، وعندما حياه أسقـف لنكولن، لم يرد الملـك عليه، بل قطب في وجهه، وبعـد وقت قليل أشاح بـوجهه عنه، وقال الأسقـف له: «مـولاي الملك، قبلنـي»، لكـن رتشارد أدار رأسـه أكثـر ونظر نحـو الاتجاه الآخر، وهنـا أمسك الأسقف بشـدة بإزار الملـك الذي لفه حـول صدره، وهزه بعنـف قائلاً ثـانية: «أنت مـدان لي بقبلة، لأنني جئـت من مسـافة بعيدة لرؤيتك» فـأجابه الملك: «إنك لاتستحق ولاقبلـة مني» فهزه بعنف أكبر من قبـل، وهذه المرة بوساطـة ردائه الذي أمسكه بقوة، وقـال بجرأة: «إنني أمتلـك كلّ الحق بـواحدة» ثـم أضاف «قبلنـي»، واستسلم الآخـر أمام شجاعته واصراره، وبعد قليل قبله مع ابتسامة.

وتبـادل أسقف لنكـولـن مع الملـك عبـارات الاحتجاج بعـدة كلمات قاسية، لغضبه الأخير الذي هو غير مسـوغ، وقدم تعليلات كثيرة أظهر فيها أنه لم يخفـق قط في أداء واجبه نحوالملـك، ولم يستطع الملـك معارضتـه، ولهذا وضع جميع اللوم على رئيـس أساقفة كانتربري، الذي غـالباً ماأساء الشرح لـه في رسـائله، واستفـاد الأسقـف مـن هـذا التوضيـح واستغلـه

بسهولـة لإقناع الملـك أن كـلّ مـاقيـل غير صحيـح تماماً، وقـال: «إنـه باستثنـاء مجد الرب، ونجاة نفسي ونفسـك، لم أعارض قـط حتى الآن أي شيء هو لصالحك».

وهكـذا انطفـأ غضـب الملـك وسخطـه، وقـدم أعطيـات ملكيـة إلى الأسقف، وأرسله للاقامة بمثـابة ضيفه في شاتو— غيلارد Chateau-Gaillard التي بناهـا حديثاً على إحدى الجزر [لاس أنـدلاس] التي لم تكن بعيدة كثيراً، وطلب الملك من الأسقف أن يعود في اليوم التالي ليراه، حتـى يتمكن بعـد مقـابلـة أخرى مـن العـودة إلى وطنـه وهو واثـق مـن صداقته، وسمع هيوج أسقف لنكولن هـذا شاكراً، ووعد بالعودة في اليوم المقبل.

وشعر هيوج، وهـو الأب الروحي للملك، بمسؤوليته عـن سعادة نفس رتشـارد، وبناء عليـه، أخذ بيـده، وجعله يقـوم من على كـرسيه، وسحبـه جانباً إلى مكان قرب المذبح، وسأل هيوج رتشارد الجلوس، ثم جلس هو نفسه، وشرع بعـد ذلك يتكلم معـه على انفراد، وقـال له: «إنك فـرد من أبرشيتنـا يامولاي الملـك، وبسبب وضعنـا الكهنوتي سوف نجيـب في يوم الحساب الـرهيب، عن نفسك، التـي أنقذها رب العالمين بـدمه الخاص، ولهذا أسـألك أن تخبرني عـن أحوال ضميرك، فبـذلـك يمكنني أن أقـدم لك مساعدة فعّـالة ونصيحة حسبما ستوجهني روح القدس، فقـد مرّ مالا يقل عن سنة منذ أن تكلمت معك حول ذلك في مناسبة أخرى.

وفي الحقيقة، إنـه فيما يتعلق بـك، وهنا أتكلم بـأسف، هنـاك روايات أنك غير مخلـص لفراش الـزوجية، وأنـك لاتبقي امتيـازات الكنيسة دون انتهـاك، لاسيما فيما يتعلق بتعيين الأسـاقفة أو انتخـابهم، لابـل لقد قيـل إنـك اعتدت على رفـع أناس إلى حكـم النفـوس صدوراً عـن عواطـف الصداقـة، أو أنهم دفعوا لذلك، وهـذا ذنب شائن جداً، وإذا صح هذا فالرب لن يمنحك السلام».

وأصغى الملك باهتمام إلى عظته ونصيحته، وأنكر في بعض الحالات أنه كان مجرماً، وسأل مساعدته بصلواته في مسائل أخرى.

وبعدما تلقى الملك مباركته تركه يذهب، وانطلق هيوج شاكراً نحو مكان الاقامة الذي اختاره له الملك وأعده.

وتباحث الملك في الوقت نفسه مع أعوانه حول الأسقف، وعلق على قداسته بشيء كبير من الاعجاب وقال: «في الحقيقة، لو كان بقية الأساقفة مثله، مامن ملك أو حاكم سيتجرأ على رفع رأسه ضدهم».

ونتابع مع رواية ديسيتو عن حكم رتشارد في سنة ١١٩٨، التي شهدت حدثاً حاسماً في أهميته بالنسبة للسياسة الأوروبية، وتمثل ذلك بانتخاب البابا انوسنت الثالث.

وبعدما تخلص البابا كلستين من أعباء هذه الحياة، جرى انتخاب الكاردينال الشماس لوثاريو Lothario بابا يوم ٩كانون الثاني، وقد اتخذ لنفسه اسم انوسنت الثالث، وفي يوم ٢١شباط رسم أسقفاً وتوج على عرش القديس بطرس.

وهطل في يوم ٨أيار مطر دموي على الرجال الذين كانوا يتولون بناء قلعة في لاس أندلاس في منطقة روان.

واستسلمت آخن التي كان يحاصرها أوتو ابن أخت رتشارد ملك الانكليز إليه، وتزوج في اليوم التالي من الابنة الوحيدة والوريثة لدوق برابانت، وكان عمرها سبع سنوات، وفي ١٢تموز جرى تتويجه من قبل أدولف رئيس أساقفة كولون، واعتلى عرش القياصرة.

تجمعت على تخوم ويلز، قرب مايعرف باسم قلعة ماتيلدا، قوات الدفاع الرئيسية بنوايا عدوانية وكانت هذه القوات مسلحة من أجل القتال، وكانت المجموعة الأولى من الويلزيين مؤلفة من الجنود الرجالة،

والذين كانوا في المجموعة الثانية عبارة عن فرسان ورجالة، أما المجموعة الثالثة فتكونت من الفرسان فقط، أما جيش الملك فقد تألفت المجموعة الأولى فيه من الجنود الرجالة، ووقف الفرسان في المجموعة الثانية، بينما تجمعت قوة الجيش كله في المجموعة الثالثة، ومع أول اشتباك أدار الويلزيون ظهورهم، وأخذت الأسلاب منهم، ووقع عدد كبير منهم بالأسر، وقتل عدد أكبر، فقد وصل عدد المقتولين إلى ثلاثة آلاف مقاتل، وهكذا تحققت النبوءة القائلة: «سوف تسبب الجراء العاوية مذبحة عظيمة بين صفوف كلّ من يعترضها».

وفي يوم ١٠أيلول توفي رتشارد أسقف لندن صاحب الذكرى الحبيبة، وذلك بعدما شغل كرسيه لمدة ثماني سنوات، وثمانية أشهر، وعشرة أيام.

ووصل بلدوين كونت فلاندرز إلى أمام بلدة سينت أومر ومعه جيشه يوم ٦أيلول، وألقى عليها الحصار لمدة ثلاثة أسابيع.

وفيما الكونت ملقياً للحصار، وصل رسول من عند ملك فرنسا، يحمل رسالة تقول: إنه إذا ماتمكن شحنة البلدة ومعه سكانها من الصمود والدفاع عن بلدتهم ضد الكونت حتى ٣٠أيلول، إنه سوف يأتي إلى مساعدتهم مع جيش كبير في ذلك اليوم، وإذا لم يقدم، بإمكان الشحنة وأهل البلدة أن يفعلوا أحسن مايستطيعون، وبذلك استسلمت البلدة إلى الكونت.

ودخل رتشارد ملك الانكليز مناطق الملك الفرنسي مع جيش كبير يوم ٢٧أيلول، واستولى على قلاع: كورسل Courcelles وبوريز Bur-riz وسيرفونتين Sirefontaine وجاء في اليوم التالي ملك فرنسا من مانتس Mantes مع أربعمائة فارس وسيرجندية مع عتادهم ومؤنهم لمساعدة قلعة كورسل، التي لم يعتقد أنها سقطت، ولهذا ما ان رآه ملك الانكليز قادماً حتى أقنعه بادارة ظهره والفرار، وزجّه في أوضاع

محرجة عند بوابة غيسور، حيث تحطم الجسر تحته، مع غرق عشرين من الفرسان، وأسقط ملك انكلترا بالوقت نفسه برمحه ماثيو أوف مونتمورنسي Montmorency وألان أوف روشي Rusci وفولك غلرفيل Gi-lervalle وأخذهم أسرى مع مائة فارس وعدد كبير جداً من السيرجندية، وتم الاستيلاء على مائتي حصان حربي، بينهم مائة وأربعين كانوا مدرعين.

سنة تسع وتسعين ومائة وألف

عدّ البابا إنوسنت الثالث البابا الرابع والثمانين بعد المائة في ثبت البابوات شروعاً من بطرس الرسول، الذي قال له يسوع المسيح: «أنت بطرس —الصفا— وعلى هذه الصخرة سوف أبني كنيستي».

تسلم وليم المولود في نورماندي، والكاهن في كنيسة لندن، هبة السيامة في وستمنستر في بيعة القديسة كاترين، وجاء ذلك بناء على طلب من رالف ديسيتو عمدة لندن، وكان الذي قدم إليه الهبة هو هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، بحضور ثلاثة عشر أسقفاً، في يوم ٢٣أيار.

في ٢٦نيسان جرح ملك انكلترا بسهم أطلقه بيتر باسليوس Ba-sillius قرب قلعة شالو Chalus في الليموزين في دوقية أكوتين، وتوفي بعد ذلك في القلعة يوم الثلاثاء، وجاءت وفاته جديرة وموائمة لرجل أوقف نفسه على أعمال الحرب، وقد حكم تسع سنين وستة أشهر، وتسعة عشر يوماً.

وقد دفن في فونتفرولت Fontevraultعند قدمي أبيه، هنري

الثاني.

قدم آدم آينشام وصفاً دقيقاً لرحلة هيوج لنكولن السريعة والمرعبة لحضور جنازة رتشارد الأول في فونتفرولت.

جاءت راعية دير فونتفرولت المبجلة إلى أسقف لنكولن وأخبرته على انفراد بأن الملك قد أصيب بنشابة أطلقت عليه من قوس عقار، وأمضى عدة أيام في آلام مبرحة، وأن حالته خطيرة، ومن غير المعروف هل سيظل حياً أم سيموت، وبقدر ما أذكر، أصيب الملك بجرحه القاتل في اليوم نفسه الذي تعرض فيه الأسقف للمضايقات بوساطة الأذى الذي صدر عن مستشاريه الأشرار، ولدهشتنا أنه خلال الوقت الذي مضى فيما بين وصول الرسول وجراحة الملك مامن واحد تحادث معه حول كيفية معالجة هذه القضية، فقد جلس بهدوء ينتظر «الخلاص من الرب».

وفي الوقت نفسه سأل عميد أنغر مع الكهنة الأسقف أن يرأس القداس يوم أحد السعف، بسبب أن أسقفهم لم يعد من المجمع الكهنوتي في روما، حيث جرت سيامته حديثاً، وقد وافق، وعندما كان يوم السبت في طريقه إلى المدينة، رآه أحد الكهنة واسمه غلبرت دي لاسي Gilbert de Lacy وأخبره أن الملك قد مات ولاشك حول ذلك، وأخبره أنه سيدفن في اليوم التالي عند قدمي أبيه في فونتفرولت.

وعند سماع الأسقف هذه الأخبار تنهد وأجهش بالبكاء بصوت حزين مرتفع، وأخبر على الفور مرافقيه أنه سيذهب إلى المكان المتقدم الذكر لحضور الجنازة، وحاول الجميع أن يمنعوه من فعل ذلك، زد على هذا أنه عندما قدم إلى المدينة، سمعت اشاعات من جميع الجهات أن المسافرين قد هوجموا في كلّ مكان وسلبوا، وسمع أيضاً أن بعضاً من رجاله، الذين كانوا جالبين له مالاً من انكلترا قد وقعوا في أيدي قطاع الطريق، وأن

هؤلاء أخذوا منهم أربعين ماركاً فضياً.

وحثه رفاقه وخدمه ألا يعرض نفسه وصحبه إلى هذه المخاطر، وأن يبقى في المدينة حتى ينجح الخليفة الشرعي لرتشارد في اخماد عنف هؤلاء الرجال الأشرار، وأصرّ بعضهم على القول بأن شرورهم كانت كبيرة إلى حد أنه لم يبق لديهم احترام لأسقف أكثر من انسان عادي، وقالوا:

«ماالذي ستفعلونه، وإلى أي طريق ستتحولون، إذا —لاسمح الرب— كنتم في بقعة منعزلة وتعرضتم للسلب من خيولكم ومن ثيابكم»؟.

وكان وهو الرجل المستقيم، شجاعاً وثابتاً مثل الأسد، وأصبح الآن في الحقيقة أقل خوفاً في وجه الخطر، فرد على هذا كما يلي:

«من الواضح كثيراً أن هناك أشياء لاتحصى تخيف المسافر وتثير أعصابه في هذه الرحلة، وعلى كلّ حال إن الذي يبدو لي ماينبغي أن يخشى منه هو أن أقوم أنا بالتصرف كرجل جبان، فأتمنع عن شهود مولاي السالف وملكي في هذه المناسبة، وأن أخفق في تقديم الاحترام للميت مع الولاء، مثلما قدمتُ له دوماً وأنا حي، وافترض أنه آذاني، لأنه لم يكن متنبهاً تماماً ومتيقظاً لمستشاريه الأشرار، ولإطراءاتهم؟ ولكي نكون متأكدين، لقد فعل ذلك، لكن عندما كنت معه عاملني دوماً باحترام فائق، ولبى لي طلباتي كلما اتصلت به شخصياً حول أية مسألة تتعلق بي شخصياً، وإذا كان قد عاملني بشكل سيء بأية طريقة من الطرق عندما كنت غائباً، فهذا ينبغي عزوه إلى شرور خصومي وليس لنوايا شريرة صادرة عنه، ولهذا سأبذل جهد مستطاعي لأرد له أعماله الحسنة وفضائله نحوي، هذا ولن يكون الخطأ خطأي إذا لم أقدم خدماتي أثناء الجنازة، وإذا ماواجهت لصوصاً على طريقي، وإذا ماأخذوا خيولي وثيابي، ستوصلني قدماي إلى هناك بشكل أسرع، وذلك إذا ما تحررت

من أثقـال ثيـابي، وإذا مـاربطـوا قدمـاي، وسلبـوني من أيـة قـدرة على الحركـة، وقتها فقـط يكون غيـابي الجسـدي مسوغـاً، لأن مـرد ذلك لبس لخطأي بل للمعيقات التي فرضها عليّ أناس آخرون».

وبعدمـا قال هـذا ترك معظم رفاقـه، وجلّ أثقالـه في المدينة، وانطلق، آخذاً معـه واحداً من أقل كهنته أهميـة، وراهباً وعدداً ضئيلاً من خـدمه، ولقد سمع بأن الملكة بيرنغاريا كانت مقيمة في قلعة بوفورت Beau-fort وقد تخلى عن الطـريق العام وسـافر خلال منطقـة غابيـة كثيفة إلى تلك البلـدة، وذلك بهدف مـواسـاتها لموت زوجهـا، ونفـذت كلماتـه إلى نفس الأرملة الحزينـة، ذات القلب المحطم، وسكّن حزنها بطريقـة رائعة، وتحدث إليها بشكل جميل جـداً عن الحاجة إلى الجلد في مواجهـة النوازل وإلى الحكمـة في أوقات السعـادة، وبعـدما أقـام قـداساً، وأعطى الملكـة والذين معهـا تبريكاته المهيبـة بشكل عاطفي فيـه حب وولاء، غادر على الفور، ووصـل في ذلك اليوم إلى بلـدة تدعى سـومور Saumur حيث جاء سكـان البلدة بشكل انفعالي لمقـابلته، وتجاوب مع الـرجاءات الحارة التي قدمها له غلبرت دي لاسي الذي ذكرته من قبل، والذي كان يشرف على المدرسة هناك، وأقام معه، حيث عـومل بكرم فائض، ووصل في فجر اليوم التالي، الذي كان أحد السعف إلى ديـر فونتفرولت، والتقى عند باب الكنيسة مع حملة تابوت الملك، وبعدما دفن بشكل فخم جداً، مع الأبهة الملكيـة، ذهب الأسقف أخيراً إلى المقـر الذي عين لـه، ولمدة ثـلاثة أيـام كاملـة اعتاد أن يـذهب إلى الديـر، حيث كـان يردد القـداسات والمزامير ويصلي للعفـو عنـه، وللمبـاركـة بنـور سرمـدي يصـاحب نفسيّ الملكين اللذين دفنا هناك، ونفوس جميع المؤمنين الذين ماتوا في المسيح.

القسم الخامس

جون

١١٩٩-١٢١٦

شكل حكم الملك جون نقطة علامة، وحداً فاصلاً في التاريخ الانكليزي، فقد تمّ فقدان جميع الممتلكات البلانتغنتية الواسعة في فرنسا باستثناء غسكوني، لقد فقدوا لصالح فيليب الثاني ملك فرنسا، الذي قطع أواصر بيت أنجو مع موطنه الأصلي، يضاف إلى هذا نجم عن النفقات المدمرة والمتصاعدة للحرب الفرنسية، وسوء تصرف جون مراراً مع رعيته، تصاعداً في مقاومة البارونات، التي أرغمت جون في سنة ١٢١٥ على إعطاء تنازلات —مؤقتة— كثيرة صدرت في مرسوم أو ميثاق اصلاحات [ماغناكارتا]، وتوفي جون بشكل مفاجيء سنة ١٢١٦، تاركاً ولده الرضيع هنري الثالث وريثاً له. وبدأ رالف أوف ديسيتو حكاية حكم جون في كتابه «صورة التاريخ» الذي توقف مع أحداث سنة ١٢٠١، وتناول الرواية من بعده لمدة أربع سنوات رالف راعي دير كوغشال Coggeshall وهو كاتب رهباني مولع بالأحداث الاعجازية، وبعده تولى جيرفاس Gervase وهو راهب من كانتربري، وصف الأحداث من ١٢٠٥ إلى ١٢١٠ في كتابه «أعمال الملوك»، ولقد كان جيرفاس ولداً مخلصاً لدير كاتدرائيته، وتظهر كتابته فن التأريخ الديري في أحسن أحواله، وأخيراً هناك بالنسبة للسنوات

*الست المتبقية من حكم جون المؤرخ المجهـول من بارنول **Barnwell** الذي قـدم لنا رواية متوازنـة إلى حد ما ومصقولـة، ومع ذلك هي رواية حيّة حول هذه السنوات الحاسمة من تاريخ انكلترا.*

جرى تتويج جـون صاحب إيرلاندا، والـوريث الشرعي لأخيه رتشارد الأول، دوقاً لنـورماندي في روان، وتـولى التتويج وولتر رئيس أسـاقفة روان يوم ٢٥نيسان ١١٩٩، وعندمـا وصل إلى انكلترا عُمّد بشكل مهيب ملكاً في وستمنستر من قبل هيـوبـرت رئيس أسـاقفـة كانتربـري، في يـوم عيـد الصعود، ٢٧أيار.

وزار جون ملك انكلترا، بعـد تتويجه مبـاشرة، ضريح القديس تـوماس (في كانتربـري)، وزار بعد ذلك ضريح القديس ادمونـد في بري Berry وأمضى أحد الشعانين في نورثأمبتون، وقام بعد ذلك في ١٩حزيران بعبور القنال مع حشـد من الفرسان، والجنـود الرجالـة والسفن، وتم العبور من شورهام.

وجرى طـلاق الملك من ابنة إيرل غلـوستر في نورمانـدي، وتولى ذلك أساقفـة ليزوكس وبيـوكس Bayeux وأفرانش Avranches مع أسـاقفة آخـرين كـانوا حضـوراً، وكان الملك جـون قـد تزوج منهـا بإذن البـابـا، وتسلم مقـاطعـات غلـوستر، وسمـرست، وديفـون، وكـورنـول، وتشريفات ومنح أخرى في أرجاء انكلترا.

ومهما يكن الحال، لقد استولى عليه الأمل بزواج يرقى به أكثر، فأصغى إلى النصـائح السيئة ورفض زوجتـه، فكسب بـذلك الغضب العظيم للبابا، أعني بذلك البابـا انوسنت الثالث، وذلك مع غضب جميع أعضاء مجلس الكـرادلة في رومـا، فلقد غضبـوا لأنه تصرف بسرعـة ضد الشرائع والقوانين، وتحلل مما ربطوه به بوساطة سلطاتهم.

وقدم آرثـر ابن غيوفـري صاحب بـريتاني، وابن أخي الملـك جون، إلى عمه الملك، وأطاعه في جميع رغباتـه، ثم تركه جون يذهب دون اتخاذه أي إجـراء احتياطي، ولهذا ذهب آرثـر عندهـا إلى ملك فـرنسا، الـذي تطلع شرهاً إلى ثروته، فضمه إليه ليتربى مع ابنه في باريس.

كان جون وآرثر صاحب بريتاني في سنة ١١٩٩ متنافسين بشأن إدعاء ملكية أراضي أسرة بلانتغنـت، وامتلك آرثر مساندة قويـة في أنجو، لكن لـوردات بواتـو وقفـوا إلى جـانب إليانـور بقبـول جون، وبـذلك قلبـوا الموازين ضـد آرثر، وعنـدمـا حصل آرثـر على حماية فيليب الثـاني، ملك فرنسا، بقي هكذا ممثلاً لتهديد رئيسي لسيطرة جون على أراضيه.

سنة مائتين وألف

وحـدث خسوف للقمـر يـوم ٣كانـون الثـاني، في منتصف الليل، ودام ثلاث ساعات، وقد حول على الفور لون الدم، وقذف بأشعة تشبه النار.

وأبرم في هذه السنـة سلام بين فيليب الثاني، ملك فـرنسا، وبين جون، ملك انكلترا. وتزوج لـويس ابن ملك فرنسا من ابنة ملك اسبـانيا، التي هي ابنة أخت ملك انكلترا، وبسبب هذا الـزواج أعطاه جون كلّ أراضي بري Berry وأوفرين Auvergne وقلاعـاً وكثيراً من التشريفات في نورماندي وغسكوني وأماكن أخرى كثيرة.

انتهى الآن تـاريخ رالف ديسيتـو، ونكمل الـرواية بـالحكـايـة الملونـة لرالف راعي ديـر كوغشال Coggeshal ومثله مثل ديسيتـو حدثنا عن السـلام الذي عقـد فيها بين جون وبين فيليب الثـاني ملك فرنسـا في سنة ١٢٠٠، وقدم لنا المزيد من التفاصيل، فقد تنازل كما قال: جون عن

أراضي وقلاع، ومنح فيليب ثلاثين ألف مارك (٢٠,٠٠٠ جنيه) وقدم له أيضاً الولاء عن الأراضي الفرنسية، ومن أجل أن يجمع هذا المبلغ فرض ضرائب ثقيلة على انكلترا، بما يعادل ثلاثة شلنات على كلّ مساحة من الأرض يفلحها محراث واحد.(فدان) .

وقدم الملك جون إلى مقاطعة يورك، وطلب المال من بعض رعاة الديرة السسترشيين، الذين قابلهم هناك، ومن رعاة ديرة آخرين تابعين لرهبانيات أخرى، فقد استهدف إلحاق الظلم بهذه الرهبانيات بفرض الضرائب، لأن الديرة كانت حتى حينه معفية من ضرائب من هذا القبيل، ورد رعاة الديرة ببساطة بالرفض، وفعلوا ذلك قبل الاتصال بالديرة التابعة لهم وبرعاتها، ذلك أنهم كانوا يخشون أنهم إذا ماوافقوا على المكوس الملكية، قد يفرض بعد ذلك خدمات أخرى على التنظيم الرهباني، وتعللوا حين رفضوا بأنهم لم يدفعوا أي مبلغ من المال دون موافقة عامة من جميع الرهبان.

وانزعج الملك كثيراً من ردهم، وأمر وهو مغضب وحانق العمال (الموجودين منهم بكلمات الفم والغائبين بالرسائل) بوجوب إلحاق الأذى برجال هذه الرهبنة بأية وسيلة يستطيعون استخدامها، وأن عليهم تعذيبهم، وعدم اظهار العدالة نحوهم في المضار التي تلحقهم، وفي المحاكم، وعدم مساعدتهم في خلافاتهم، بل عليهم إحالة كلّ شيء إلى الملك.

وانزعج رجال الفضيلة هؤلاء تجاه هذا القرار القاسي انزعاجاً كبيراً وخافوا، ولذلك أحالوا قضية مافرضه الملك إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ورجوه أن يقابل الملك ويبحث معه قضية هذا الأمر العنيف، وليحاول التخفيف من عدوانيته بأية طريقة ممكنة سواء بالصلوات أو بالهدايا، وانتقد هيوبرت الملك بشكل علني بسبب عنفه الكبير، وأعلن أنه مضطهد للكنيسة المقدسة، لأنه عزم على فرض مثل هذه الظلامات

والمضار العظيمة على أبناء الكنيسة الذين هم أكثر الناس قدراً بين أبناء الكنيسة والذين تمتدحهم الكنيسة كلها وتحترمهم بسبب مسلكهم القويم في الحياة، ولمراعاتهم المخلصة والدقيقة للأمور الدينية.

فإلى تلك الساعة وضع الملوك والأمراء هؤلاء الناس دوماً في مكان محترم لائق، وأعطوهم أراضي مع كثير من المقتنيات، وحموهم جميعاً بدرع الوقاية والدفاع.

وأظهر الملك جون القبول بما طرحه رئيس الأساقفة، لكن لبعض الوقت فقط، ولزيادة الازعاج استدعى رعاة الديرة بوساطة رسائل جديدة، ولم يخلص عقله من العدوانية التي حملها نحوهم. وعندما كان الملك على وشك عبور البحر، وعده رئيس الأساقفة، حتى يرضيه، بمبلغ ألف مارك لصالح المنظمة الرهبانية، على شرط أن يؤكد الأعطيات والحريات التي منحت للرهبان من قبل الملك رتشارد، ورفض الملك هذا العرض رفضاً مطلقاً، لأنه كان صغيراً، ثم عبر البحر، وهو يتلفظ بالتهديدات وبالشتائم ضد تلاميذ المسيح، واشتكى إلى رعاة أديرة ماوراء البحر حول ردّ رعاة الأديرة الذين يعيشون في انكلترا.

ودفع الملك جون إلى ملك فرنسا الثلاثين ألف مارك كجزء من ثمن السلام معه، وبعدما هدأ جميع الأعداء وأخضعهم عاد إلى انكلترا في أيام عيد القديس مايكل في ٢٩أيلول، وقدم مع زوجته ايزابلا(٢٨) ابنة دوق أنغوليم، التي تزوجها عندما كان فيما وراء البحر بموافقة الملك فيليب، ووضع جانباً زوجته الأولى للسنوات الخالية، وتخلى عنها على أساس القرابة المحرمة للزواج، وفي اليوم التالي جرى تتويج جون في وستمنستر ومعه زوجته، التي كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها، ومع ذلك توجها ملكة.

وفي الصباح الباكر، وقبل الذهاب إلى الكنيسة، أمر الملك هيوج دي

نيفل، المسؤول الرئيسي عن الغابات، مع بقية رجال السلطة الأقوياء، أن يأخذوا بعين الاعتبار أمر الرهبان السسترشيانيين بوجوب نقل خيولهم، وخنازيرهم وقطعانهم من الغابات الملكية خلال أسبوع واحد، وبنهاية هذا الموعد كلّ مايوجد في داخل الغابات سوف يؤخذ ويباع لصالح الملك.

وبناء عليه، عندما أعلن أمر الملك القاسي إلى الرهبان في كلّ مكان، جهز كلّ دير أفضل مالديه لإيواء قطعانه، وتحمل الرهبان بصبر الأذى العظيم الذي لحق بهم من الملك، وصلّوا في ضيقهم إلى ربهم المدافع عنهم، ليغير روح الملك نحو اللطف بهم، وليحرر رعيته من محنهم وحزنهم، أما الذي سمعهم ولم يتخل عن الذين وضعوا أملهم به، فحررهم بسرعة من آلامهم، فلدى اكتشاف رئيس الأساقفة لأمر الملك، أمر بناء على تشاوره مع رعاة الديرة، بعقد اجتماع في لنكولن، استعداداً لوصول الملك في ١٩ تشرين الثاني، حتى يتمكن ذلك الجمع من اللقاء به، وبسهولة يستطيع تهدئة فورة غضب الملك، وتحويله نحو الرحمة والتصالح، ووافق رعاة الديرة عن طواعية على هذا المسعى، والتقوا في المكان المذكور في اليوم المحدد، واثقين أكثر بعون الرب، ومعتمدين عليه أكثر من اعتمادهم على قدراتهم، واجتمعوا في اليوم التالي، وهو يوم عيد القديس ادموند، واستقبلوا باحترام وتحيات رئيس الأساقفة عندما قدم إلى المدينة، فترجلوا وركعوا على ركبهم أمامه، وبتواضع التمسوا من رئيس الأساقفة أن يعالج بلطف وعاطفة نحوهم، مسألة هذا الخلاف، وأن يتدبر بعنايته تلطيف سخط الملك عليهم، وأثير رئيس الأساقفة —على كلّ حال— بتذلل مثل هذا العدد الكبير من الرجال المشهورين، وترجل من على حصانه، ومثلهم تذلل في نفسه، وبكى، ثم وعد في أن يكون عونهم وناصحهم في جميع القضايا، وبعدما أصغى إلى مطلبهم وعدهم بتحقيق السلام ومنفعة الرهبنة بقدر مايمكنه، وأن يحاول تهدئة

الملك بكافة السبل.

ثم غادر رعاة الديرة المدينة دون رؤية الملك، وبحثوا قضية الخلاف فيما بينهم، ورأى بعضهم أنه يتوجب عليهم أن يدفعوا له كامل ماطلبه، ورأى آخرون وجوب رفض مطلبه، وكان هذا الرأي هو الذي انتصر بالنهاية.

التقى الملك جون في يوم الأربعاء الأول الذي جاء بعد عيد القديس ادموند، بوليم ملك اسكوتلندا الذي جاء مع رولاند أمير غالووي Galloway وعدد آخر من اللوردات، فهو قد جاء إلى لنكولن لتقديم الولاء إلى الملك، الذي توقف عنه حتى الآن، ولهذا تأجلت مسألة رعاة الديرة، وفي اليوم التالي أراد رئيس الأساقفة أن يتدخل مع الملك ويبحث معه قضية رعاة الديرة، لكنه سمعه وهو يتحدث وكأن الغضب مسيطر عليه، ويتحرك بموجبه حيث قال مخاطباً رئيس الأساقفة: «أرجوك يارئيس الأساقفة لاتجعلني أغضب في هذا اليوم لأنني اقترحت أن أستدمي هذا اليوم»، ولهذا كان رئيس الأساقفة حريصاً على نصح رعاة الديرة أن يتجنبوا التحرك أمام ناظري الملك، وفي الأحد التالي انتهى الملك من سماع قداس مع رئيس الأساقفة، وعندما كان على وشك مغادرة الكنيسة، سأل رئيس الأساقفة الملك أن يتعامل برحمة مع مشكلة رعاة الديرة، الذين كانوا واقفين بحضرته.

وبعد قليل من التريث، مضى الملك نحوهم، وخاطبهم بصوت مرتفع قائلاً: «وأين مولانا وأبونا رئيس الأساقفة»؟ وبادر رئيس الأساقفة نحوه مسرعاً، وبدأ على الفور نقاش سري معه ومع الأساقفة، بينما ظل رعاة الديرة واقفين في القاعة، وبعد طول انتظار جرى استدعاء رعاة الديرة للمثول أمام الملك، الذي أمر رئيس الأساقفة باخبارهم بخطته

وبرغبتـه، وبدأ رئيس الأسـاقفة حديثـه على الوجـه التالي: «نخبركم أولاً، أيها الآبـاء، أن الملك قد أزال من ذهنـه جميع الحقد وكلّ الغضب الـذي بدا واضحاً نحـوكم»، ولدى سماع رعاة الديـرة هذه الكلمات سجدوا على الأرض، وقـدموا الشكـر للملك، ثم تـابع رئيس الأسـاقفة يقـول: «ومثل هذا يسألكم الملك بتـواضع أن تغفروا له كلّ أذى تحملتموه نتيجـة لعدم الاتفاق هذا».

ثم شرع رئيس الأساقفة يتحدث مجدداً قائلاً:

«يسأل الملك الرهبنـة السسترشيانيـة وأنتم أن تتدخلـوا لصالحه، حتى يتم قبوله في اخوانيتكم، وفي جماعة الرهبانية، وأن يصلي رهبان كلّ دير في تلاوتهم لصـالحه، زد على هذا قرر الملك، بناء على نصيحتكم بنـاء دير في انكلترا، حتى يُتـذكر بشكل خـاص مادام حيـاً، وليدفن فيـه ويشرف بعد موته، إذا وفقـه الـرب إلى ذلك، ويعـدّ من الآن فصـاعداً أن يكـون ولي رهبانيتكم والمدافع عنهـا، وأن يحمي كلّ مايلـوذ بكم من أشياء، وعنـدما سمع رعـاة الـديرة هـذه الكلمات امتـلأوا بسرور عظيم، وقـدموا الشكـر للـرب القادر الـذي حول هكـذا روح الملك لتكـون لطيفة مع الـرهبانيـة ومحترمة لها.

وعنـدما تم الاتفـاق على هـذه الأشيـاء بالطـريق المعتـاد، وأعطي كلّ واحد قبلة السلام من قبل الملك، اقترح رعـاة الديرة وجوب ارسال الملك رسائل إلى كلّ واحد من عماله، خشية أنهم بتنفيـذهم الأمر يوقعون المزيد من الضرر، ووافق الملك عـن طـواعيـة على هــذا الاقتراح، وكلف رئيس الأساقفـة بمهمة ارسال الـرسائل باسم الملك إلى العمال في كلّ مقـاطعة، وكانت نسخة الرسالة حسبما يلي:

«من جون ملك انكلترا بنعمـة الرب، ولورد ايـرلندا، ودوق نورمـاندي وأكوتين، وكونت أنجو إلى عاملي اسكس وهارتفورد، تحيات.

اعلموا اننا استقبلنا رعـاة ديرة رهبانية سسترشيان برعـاية كاملة وجميع مقتنياتهم وبضائعهم بأيدينا، محفوظـة ومحمية، وبناء عليه آمركما بكلّ دقة أن تتوليـا حماية هـؤلاء الرجـال والحفاظ عليهم والدفـاع عنهم وعن جميع مقتنياتهم، وكأنها تماماً مقتنياتنا الملكية الخاصة، وألا تسببا لهم أي أذى أو ضرر، وألا تسمحـا أبداً بمعـانـاتهم من أي أذى داخل منطقتي ادارتكما، وإذا حدث وكـان قد لحق أياً منهم أذى أو اقترف بحقه جـريمة من قبل أي انسـان بسبب أوامـرنـا التي قضت بـالتصرف بسـوء نحـوهم، عليكما التعـويض والاصـلاح بـدون تأخير. شهـدت بنفسي. لنكـولن ٢٦تشرين الثاني».

وقبل هـذا التـاريخ سمع في الأول من تشريـن الثـاني صـوت رعـد مـرعب، منـذراً بـوقـوع شيء عظيم، فقـد عـاد من رومـا هيـوج أسقف لنكولـن، الذي كان في يـوم الأيام رئيـس دير في وتهام Witham وهو دير رهبـانية كـارثوشيـان Carthusian في انكلترا، وبعد عـودته أصيب بمرض عضـال في لندن، ونتيجـة لهذا المرض، وبعدمـا شغل هذا المنصب لمدة خمس عشرة سنة وخمسـة عشريوماً، انتقل من هـذا النور، إلى —كما نعتقد— النور الذي لاينتهي، وكـان ذلك في الأول من شهر كانون الأول، ونقل جسـده الذي :. لا حياة من لنـدن إلى لنكولن، وكـان مصير منصبه آنـذاك بمشيئة الرب مـوضوع مشـاورات في لنكولن فيما بين ملك انكلترا، وبين وليم ملك اسكوتلنـدا، وكان قـد حضر معهما ثلاثـة رؤساء أساقفة وتقريباً كافة نبلاء المملكتين.

وعندمـا أعلن أن جسد الأسقـف بات على مقربـة من المدينة، انـدفع النـاس على شكل حشـود للمشاركـة في مـوكب جنـازة راعيهم الكنسي، وحضر الملكـان نفسيهما، ورؤساء الأسـاقفـة وجميع رجـال الدين والنبـلاء بكل تبجيل، وتخلى جـون عن الأبهة الملكيـة، وسـار مع رؤساء الأسـاقفـة برؤوس مطأطأة، وبتـواضع وضعوا التـابوت على أكتـافهم، وحملوا الحمل

المقدس لبعض الوقت متجاهلين الطين في الطرقات من أجل جنازة مثل هذا الرجل.

وأخيراً حمل جسد هيوج إلى كنيسته الأسقفية، من قبل رؤساء الأساقفة، والأساقفة ورجال الدين في البلدة، وهم ينشدون التراتيل والمزامير، وتليت فصول من الكتاب المقدس في القداس الليلي من قبل الأساقفة ورؤساء الأساقفة، واعتقد الذين أتيحت لهم الفرصة بلمس تابوته أو بتقبيل قدميه، أو بلمس بعض ثيابه، انهم محظوظين، وقدمت تقدمات كثيرة وأعطيات له، وهو مسجى لابساً شاراته وملابسه الكهنوتية، ووجهه غير مغطى، تبعاً للعادة، ورأسه مزين بقلنسوته الدينية.

وكان الأسقف هيوج قد شرع ببناء كنيسة جديدة في تلك البلدة تكرّس على اسم الرب الأب، وأراد أن تبنى هذه الكنيسة بمخطط رشيق، فتتفوق بجمال بنائها على جميع كنائس انكلترا الأخرى، وأمر بوجوب اكمال عمارتها سواء أكان حياً أم ميتاً، وفي الحقيقة كان قد أسس في أسقفيته نقابة دفعت ألف مارك كلّ سنة من أجل هذا العمل.

وانتشرت أقاويل أنه من خلال فضائل هيوج، وبنعمة من الرب، نال بعض المرضى من الناس الشفاء، ولاعجب أن يظهر الرب الكرامات للناس على الأرض ليمجد محبوبه هيوج، الذي آمن بقداسته عدد كبير من الناس، الذين عرفوا أنه مارس حياة كانت كلها فضائل وبلا خطيئة، ولكونه كان الأكثر شهرة وسمواً بين الأساقفة بالنسبة للقيام بواجباته الدينية، نال هيوج أعظم احترام بين رجال الدين، بسبب أنه حتى بعدما صار أسقفاً، حاول دوماً أن يعيش حياة متواضعة لابل حياة رهبانية، وذلك بقدر ماسمحت له وظيفته ومسؤولياتها، وقد كره وباء السيمونية كثيراً، إلى حد أنه لم يمنح قط منصباً لاهوتياً لأي انسان بسبب توصية من الملك أو من أي انسان صاحب سلطان، مالم تكن هناك براهين بأنه كان جديراً. وهناك أشياء كثيرة يمكن أن تكون نافعة

لتكتب عن طريقة حياته المحمودة، غير أننا ندع ذلك إلى الذين هم أكثر فصاحة منا، ويمتلكون المزيد من المعرفة عن أفعاله.

وانقطع كاتبنا هنا عن متابعة روايته ليقدم إلينا عدة حكايات عن الكرامات العجائبية جاء القصد منها التوجيه والتسلية للقارىء، وكانت هذه الوقائع قد حدثت قبل بعض السنين المتقدمة.

حدث في أيام هنري الثاني، عندما كان الفارس بارثلميو أوف غلانفيل Glanville يتولى حفظ القلعة في أكسفورد، أن بعض الصيادين كانوا يصطادون في البحر هناك، فأمسكوا بشباكهم مخلوقاً متوحشاً، وقد حمل إلى شحنة القلعة ليراه ويتفحصه، وكان عارياً تماماً، وشابهت جميع أطرافه أطراف الانسان، وكانت له لحية طويلة مدببة، وكان صدره مليئاً بالشعر وخشناً.

واحتفظ الفارس المذكور أعلاه بهذا المخلوق في السجن لمدة طويلة، ليلاً ونهاراً خشية أن يعود إلى البحر، ولقد أكل بشهية كلّ شيء جلب إليه، سواء السمك المطبوخ أو غير المطبوخ، لكنه كان يعصر بشدة السمك النيء حتى يطرد ماءه كلياً، وذلك قبل أكله، وهو لم يرغب بالكلام، أو بالحري لم يستطع، حتى عندما كان يعلق من قدميه ويعذب عذاباً شديداً، وعندما كان يؤخذ إلى الكنيسة، لم يظهر أي علامة على الاحترام أو الإيمان، لابركوعه ولابطأطأة رأسه، وقد شهد —على كلّ حال— القداس مراراً، وكان يسرع إلى فراشه عند غياب الشمس، ويبقى مستلقياً حتى شروق الشمس.

وحدث أيضاً أنهم أخذوا هذا الرجل إلى البحر، ووضعوه في البحر، بعدما جعلوا أمامه شباكاً قوية جداً مؤلفة من ثلاثة صفوف، وقصد هذا المخلوق أعماق البحر وعبر خلال هذه الشباك جميعها، وظهر مرة تلو أخرى ونظر مطولاً إلى الذين كانوا يراقبونه على الشاطىء، وغالباً

ماغطس ثم ظهر بعد وقت قصير، وكأنه يسخر من الذين كانوا يراقبونه ويخبرهم أنه تجنب شباكهم، وبعدما لعب هكذا لوقت طويل في البحر، وانفقد الأمل كلياً بعودته، سبح خلال أمواج البحر، وعاد ثانية إليهم عن طواعية وبإرادة منه ومكث معهم لمدة شهرين آخرين.

واحتفظ به بعد ذلك بإهمال وعومل بازدراء، لذلك هرب سراً إلى البحر، ولم يعثر عليه ثانية، وليس من السهل القول فيما إذا كان مخلوقاً بشرياً كتب عليه الفناء، أو نوعاً من أنواع الأسماك ظهر على شكل مخلوق بشري، أو نوع من أنواع الأرواح الشريرة مختبئة في جسد انسان غريق، وذلك حسبما قرأنا عن واحد من هذا القبيل في أيام القديس أون Ouen وليس بالممكن التأكيد أو النفي خاصة بسبب أننا سمعنا عن كثير من هذه الأشياء العجائبية، وعن وقوع حوادث مثل هذه.

ووقعت أعجوبة أخرى في سفولك Suffolk عند وولبت Wool-pit فقد عثر على طفل وأخته من قبل السكان قرب فم حفرة كانت هناك، وقد بديا في مظهرهما مثل بقية المخلوقات البشرية في شكل أطرافهما، لكن اختلفا عن البشر العاديين في لون شعرهما، لأن الطبقة الخارجية من شعرهما كانت ممزوجة بالأخضر.

ومامن أحد كان بإمكانه أن يفهم كلامهما، وعندما أخذا إلى بيت أحد الفرسان في وكس Wix واسمة السير رتشارد دي كلين Clane للنظر إليهما والتعجب، بكيا بدون توقف، ووضع أمامهما الخبز وأنواع أخرى من الطعام، لكنهما لم يرغبا بأكل شيء، وقدم لهما الطعام مع أنهما عذبا بالتجويع الكبير، لكنهما لم يأكلا شيئاً، وكان هذا بسبب اعتقادهما أن هذا النوع من الطعام لايؤكل، فهذا مااعترفت به الفتاة، عندما أحضر إليهما بعد وقت طويل، بعض السنابل الطازجة وهي على سوقها، وأدخلت عليهما في البيت، وقد أوميا برغبة شديدة أنه ينبغي اعطائهما هذه السنابل، وعندما وضعت الحبوب أمامهما، فتحا السوق وليس

سنابل القمح، ظانين أنـه يمكن لهما العثور على الحبوب في السـوق، وعندمـا لم يجدا الحبوب في السـوق، شرعا بالبكـاء ثانيـة، فأروهما الحبوب المقطوفة، فأكلاها بسعادة كبيرة، ولم يلمسا طعاماً آخر لوقت طويل.

وكـان الطفل دوماً حـزيناً وكأنـه يعـاني من وهن عظيم، وتوفي خـلال وقت قصير، لكن الفتـاة تمتعت تمامـاً بمـزيد من ازديـاد الصحـة، ونمت لتعتاد على أنـواع الطعام الأخـرى، وفقدت ذلك اللـون الأخضر، وكسبت ببطىء لون بشرة حمراء في جميع أنحـاء جسدها، فبعدمـا ولدت مجدداً من خـلال التعميد بقيت لسنـوات عديـدة في خـدمة ذلك الفـارس (حسبما اعتدنا أن نسمع منه ومن أهل بيته) وكانت حيوية ومفعمة بالنشاط.

وغالباً ماسئلت عن شعب بلادها، فكانت تؤكد أن جميع السكان لهم بشرة خضراء، وأنهم لم يروا الشمس قـط، بل تمتعوا بنوع مـن الضوء، مثل الضوء الـذي يبقى بعد غيـاب الشمس، وعندمـا سئلت كيف حدث أن وصلت إلى هـذه البـلاد مع أخيها، أجـابت أن ذلك كـان عنـدمـا كانـا يتبعان شاة، ففتشا داخل أحد الكهوف، وبعدما دخلا إلى الكهف سمعا الأصوات المبهجة للنواقيس، وسيطـر عليهما الصوت الجميل فمشيا وظلا يسيران بـلا هداية داخل الكهف لمدة طويلـة، حتى وصلا إلى المخـرج، وعندما خـرجا صعقا وصارا بلا عقل بسبب ضـوء الشمس والمناخ الذي كـانا غير معتـادين عليـه والهواء، وبقيـا مستلقيين لوقت طـويل عنـد فم الكهف، وخـافا من أسئلـة الذين وصلـوا ورغبا بـالفرار، غير أنهما لم يجدا المدخل إلى الممر، وألقي القبض عليهما.

وفي أيـام الملك رتشـارد، على شـاطىء اسكس، وفي قـريـة اسمهـا ايـدولف نس Edolfes Nesse عثـر على سنين يعـودان إلى مخلـوق عمـلاق، وكانـا من عظم الحجم بمكـان أن مـائتين من أسنان الانسـان يمكن أن تقطع منهما، ولقد رأينا هـذين السنين في كوغشال، واتفقنا أنهما فعـلاً من العجائب، ووجـد هناك أيضـاً ضلع مخلـوق عملاق، وعثـر في

مقاطعـة يورك على رأس مخلـوق عملاق، يمكن للجمجمـة أن تستوعب بوشل من القمح (٣٢,٥ليتر)، وأيضاً عثر عليه على شاطىء البحر.

وكـان في ويلـز رجـلاً هـائل الطـول، بلغ نحـواً من تسعين انشـاً في الطول، وكـانت أصابعه طـويلة جداً وغليظـة، غير أنه كان قـد حرم من القـوة بشكل مـابوسـاطـة المراهقـة، وظهـرت في السنـة نفسهـا في تلك المقاطعـة آثار أقـدام بطول غير اعتيادي، على السهـل المعشوشب، وحيثما كانت الآثار، ظهر العشب وكأنه أحرق بالنار.

استأنف كوغشال روايته التاريخية وأعادنا بشكل مفاجىء إلى حوادث سنة١٢٠١.

سنة إحدى ومائتين وألف

ثـار واحد من نبـلاء أكوتين اسمـه هيـوج، ويعرف بلقب البني، ضـد الملك جـون، وأراد أن يغزو أجـزاء كثيرة من المقاطعـة مع حلفائه، وكـان سبب هذا أن الملك قد تزوج من ابنة كونت أنغوليم، التي كانت مخطوبة له من قبل وفي حفظه، ولهذا السبب عبر الملك البحر، وأخضع الثوار.

وثارت في يـوم ميلاد القديس يـوحنا عاصفة قـاسية، فيها رعـد وبرق، وبرد ومطـر غزيـر وعنيف، وقد سببت دماراً كبيراً للـرجال، وللحيـوانات وللحقـول، وأحـرقت البيوت، واقتلعـت الأشجار في أمـاكن كثيرة، وبعـد مضي خمسة عشر يومـاً ثارت عاصفة أخرى، لكنهـا لم تشبه الأولى، لذلك لم يمكن تقطيع المروج، لأن مـاقطع حملته بعيـداً مياه الفيضـان المتدفقـة، ومـاتت حشود هـائلة من الأسماك، من تلـوث المياه التي سببهـا العشب المتعفن، وفي الحقيقة كان هنـاك فيضانات كثيرة وعارمـة، استمرت لعدة

أيام وغطت مناطق كثيرة، فدمرت الجسور وأتلفت المحاصيل، وغرق كلّ شيء، ولهذا خاف بعض الناس أن الرب نوى من وراء هذا الهطول فيضاناً آخر عظيماً.

وجاء راعي دير فلي Flay إلى انكلترا لينشر كلمة الرب في مناطق متعددة، وحث الناس على مراعاة يوم الأحد، والاحتفال بوقار بأعياد القديسين بين أشياء أخرى كثيرة، ومنعهم من الذهاب إلى أي سوق مهما كان نوعه في يوم الأحد، ولهذا حدث منذ ذلك الحين أن الناس في جميع مقاطعة كانتربري وأماكن أخرى عديدة في انكلترا لايذهبون إلى الأسواق في يوم الأحد، وذهبوا لحضور القداسات الدينية، وانتشرت الأحاديث عن عدد كبير من الكرامات العظيمة، وكانت هناك أقاويل في كثير من مناطق انكلترا عن عقوبات ربانية أنزلت على الذين رفضوا بعد التبشير، ترك أعمال خدماتهم في الأيام المقدسة والسبوت بعد نداء الساعة التاسعة بعد الشروق.

وحدث في أيام بطرس الراعي الرابع لدير كوغشال، أن الأخ روبرت وهو أخ علماني تابع لذلك الدير، وكان مسؤولاً عن حفظ بيت الضيافة، دخل في أحد الأيام إلى قاعة الضيافة قبل تقديم وجبة الغداء حسبما جرت عادته، فوجد بعض الأشخاص، يدل مظهرهم الخارجي ولباسهم على أنهم كانوا محترمين، وكانوا جالسين في القاعة، وقد ارتدوا أردية تشبه مايرتديه فرسان الداوية، ووضع كلّ واحد منهم قبعة على رأسه، وكان هناك منهم قرابة تسعة رجال، أو أكثر، لأن الأخ لم يدقق تماماً ليعرف تعداد من اجتمع هناك، ونظراً لأنه اعتقد أنهم من الداوية، حياهم بلطف، وقال له أحدهم وقد بدا أنه مسؤول عن الآخرين: «أين يمكننا تناول الطعام»؟ فأجابه: «سوف تأكلون بالحجرة مع راعي الدير» فأجابه هذا على الفور: «ليس من عادتنا الأكل في حجرة خاصة بل في القاعة مع الضيوف» وخرج بعد هذا الأخ إلى خارج القاعة، وذهب إلى راعي

الدير، وأعلمـه بوصول الضيوف، فأمـره الراعي بتحضير كلّ شيء ضروري وإعداد المائدة، ووعـد بأنه سيأكل معهم في الحجـرة، وبناء عليه عنـدما جاء الراعي إلى المائدة أمر الأخ بجلب الضيوف.

وذهب الأخ إلى القـاعة، لكن الضيـوف الـذين تركهم فيهـا قبل وقت قصير، لم يجدهم، فـذهب يفتش عنهـم في الغـرف الـداخليـة وفي مختلف الأماكن، فلم يعثـر على أحد منهم مطلقاً، وركض إلى هنا وهنـاك في فناء الديـر آملاً في لقاء الـرجال، وقال لـه رجل هناك بأنـه شاهدهم يـذهبون نحو الكنيسة ومقبرة الاخـوان، فبادر مسرعاً بارسـال رسول إلى هناك، لكن الرسول لم يعثر على أحد منهـم، وسئل حفظـة الأبواب عن الضيوف فقالوا إنهم لم يشاهدوا مثل هؤلاء الرجال يـدخلون من الأبواب أو يخرجون منها في ذلك اليوم، وفي الحقيقـة: من كان أولئك الرجـال، وكيف جاءوا، وإلى أين ذهبوا؟ يبقى هذا سراً غامضاً حتى اليوم.

ونحن لانشك في حكايـة الأخ الذي رآهم وتحدث معهم، لأننـا نعرف حيـاته وضميره، فلقـد أخبرنا مـراراً بهذه الحكـاية، حتى في أثنـاء مرضـه الكبير الـذي أخذه من هـذا النور، وقـد تحدث عنهم ببساطـة، لأنه كـان راوياً للحكـايات بسيطـاً، يستخدم كلمات قليلـة، ولايظهر أي تفـاخر في كلماته أو أفعاله.

سنة اثنتين ومائتين وألف

أبرم في سنـة اثنتين ومائتين وألف سـلام بين فيليب ملك فـرنسا وبين جـون ملك انكلترا، لكن الملك قـام على الفور بحملـة قتـالية حـادة على كـونت لى مارشي، الـذي اسمـه هيوج ويعـرف بلقب البني، وعلى أخيـه كـونت ايـو Eu اللـذان ثـارا ضـده، بسبب زواجـه من ايـزابــلا أوف

أنغوليم.

وأمر الملك فيليب جون مراراً أن يتمنع عن اثارة رجاله، وأن يقيم معهم تسويات سلمية، ولكن لعدم مراعاة جون لأوامر فيليب، ومطالبه، جرى استدعاء ملك انكلترا هذا من قبل نبلاء مملكة فرنسا بحكم كونه كونتاً لأكوتين وأنجو، وطلبوا منه الحضور إلى بلاط محكمة مولاه، ملك فرنسا، في باريس، وكان عليه الخضوع لحكمهم والاجابة على أخطائه، والاستجابة للتعامل مع القانون، حسبما يقرر رفاقه في المراتب الاقطاعية.

وعلى كلّ حال، رد ملك انكلترا أنه دوق نورماندي، وليس مرغماً بأي حال من الأحوال على الحضور إلى البلاط للمحاكمة في باريس، وهو يرغب فقط بالتشاور مع الملك حول موضوعات الحدود بين المملكة والدوقية، فهذا متفق عليه بين الدوق والملك منذ زمن قديم، ومؤكد بوثائق أصلية، وناقش الملك على كلّ حال هذا الموضوع وبين أنه ليس من العدل مطلقاً أنه بسبب أن الرجل هو كونت أكوتين ودوق نورماندي ينبغي ألا يفقد حقه في أكوتين.

واستمرت هذه المناقشة طويلاً، وظهرت مشاكل جديدة من يوم إلى آخر، ومع الأيام تراكمت المشاعر العدوانية على الطرفين، وأضيف إليها تهديدات عنيفة.

وبعد وقت طويل اجتمع البلاط وحكم بوجوب انتزاع جميع الأراضي التي تملكها ملك انكلترا مع أجداده من الملك الفرنسي، لأنهم لم يقدموا لها منذ زمن طويل أية خدمات تقريباً، ورفضوا اطاعة مولاهم، وبناء عليه قبل الملك فيليب مسروراً بالحكم الذي صدر عن بلاطه ووافق عليه، وجمع جيشاً وهاجم على الفور قلعة بوتفانت Boutavant التي بنيت من قبل الملك رتشارد في نورماندي واجتثها من على وجه الأرض، ثم استولى على جميع أراضي هيوج دي غورني Gournay وعلى جميع

القلاع المجاورة، ثم استولى على كونتيه وقلعة أوميل Aumale وكونتيه إيو Eu وجميع الأراضي حتى اركوي Arques ولم يواجه أية مقاومة.

وعندما بلغ آرثر، ابن أخي الملك جون، السادسة عشرة من عمره، رسم فارساً من قبل الملك فيليب وخطّبه ابنته الصغرى، وبناء على نصيحة مؤذية واقتراح من قبل بعضهم، أعلن العصيان على عمه، واتبع النصائح الشريرة المتعجلة، فانطلق مع هيوج البني وغيوفري أوف لوزغنان ومائتين وخمسين جندياً لحصار قلعة ميريو Mirebeau حيث كانت جدته، الملكة إليانور مقيمة مع رجالها، وخشية من الملكة أن تقع بالأسر، أمرت ابنها جون أن يجلب إليها العون بأقصى سرعة ممكنة.

وانطلق الملك على الفور إلى هناك مع جزء من جيشه، وكان الثوار قد دخلوا إلى البلدة وأغلقوا بالتراب جميع أبوابها باستثناء باب واحد، وانتظروا وصول الملك وهم قد أحكموا الدفاع عن أنفسهم، وكانوا أيضاً مطمئنين وواثقين بحشدهم من الفرسان المدربين والسيرجندية، وبعد قتال شديد دخل الملك إلى المدينة، واستطاع على الفور، بإرادة من الرب أن يأسر جميع أعدائه الذين تجمعوا هناك، فقد أسر ابن أخيه آرثر، والكونت هيوج وغيوفري أوف لوزغنان، ومائتين وخمسين من خيرة الفرسان، وبذلك حرر أمه ورجالها من المحاصرين.

وكان الملك فيليب يحاصر قلعة آركوي منذ زمن طويل، وعندما كان على وشك الاستيلاء على القلعة، وصلته أخبار أسر آرثر والآخرين، فأبعدته عن الحصار، وعاد إلى فرنسا، مغضباً كثيراً لسوء الحظ الذي حلّ برجاله.

واستولى بعد هذا الملك جون على بلدة تور بالقوة، وعلى قلعة فيليب

هنـاك عنوة، وألقى فيهـا النـار فأحرق كلّ تلك المدينـة الجميلـة تقريبـاً، وكسب بسبب عملـه هذا كـراهية سكان تـور ونبلاء تلك المنطقـة، ولكي يأسر خصومه أحرق أيضاً مدينة لامانس.

وسجن الـذين أسرهم في ميربـو، وبعث بهم إلى أماكـن مختلفة، وبعـد هزيمته فيما بعد، وبناء على طلبـات الرجاء من بعض النبلاء والتماساتهم، أطلق سراح الكونت هيـوج البني وغيوفري لوزغنـان مع آخرين أسرهم في ميربو، لكن ذلك كان بعدما سلموه قلاعهم ورهائن، وأقسموا اليمين ألا يثوروا ضـده، وعلى كلّ حال هم لم يحفظـوا يمينهم لوقت طـويل، وبدأوا يقـاتلـون الملك بحـدة أعظم من ذي قبل، والتحقت بهم جماعـات كثيرة من أعدائه.

وتقـدم وليم دي روشي، وكـان عضـواً قـويـاً بين مجمـوعـة النبـلاء الأنجيفيين، ومعه نبـلاء آخريـن من بريتـاني، تقدموا بـالرجـاء إلى الملك ليسلمهم آرثـر الـذي كـان محتفظـاً به بـالسجن تحت حـراسـة مشـددة، وعندما رفض جـون، تآمروا جميعاً، وأعلنوا معاً الثـورة ضده، وجمعوا جيشاً كبيراً من المنـاطق المفترض أنها تحت سلطـة الملك، وعـاثـوا فســاداً في البلاد، وسلبوا وأحرقوا، وهاجموا عدداً كبيراً من القلاع.

وعنـدما حـدث هـذا تخلى عن الملك عدد كبير من الـرجـال الأقويـاء والتحقوا بـرفاقهم النبـلاء، وكان من بينهـم: روبرت كونـت أوف ألنكون Alencon وفيزكونت أوف بيمـــونت، ووليم أوف فوجري Fougeres وبريتانيين آخرين، واستولوا على قلعة أنغر مع البلدة كلها، وبوقت قصير استولوا على عدد آخر كبير من الأماكن الحصينة.

ولاحظ المستشـارون لدى الملك أن البريتـانيين كانوا يسببـون كثيراً من التخـريب، ويثيرون الفتن في كلّ مكان لصـالح مـولاهم آرثر، ورأوا أنـه من غير الممكن تحقيق سلام ثابت مادام آرثـر حياً، فاقترحوا على الملك أن

يأمر بسمل آرثر وخصيه، وبذلك يتحول إلى عاجز عن الحكم، وبموجب ذلك سوف تتوقف المعارضة، وتقلع عن برنامجها بالتدمير وتخضع للملك.

وازداد غضب الملك جون نتيجة الهجمات غير المتوقفة لأعدائه، وشعر بالأذى من تهديداتهم وأفاعيلهم المضرة، وفيما كان في حالة من الغضب الشديد والحنق العظيم، أمر ثلاثة من خدمه أن يذهبوا إلى فالي، وينفذوا الفعل الكريه، ومقت اثنان من خدمه تنفيذ مثل هذا العمل الشرير ضد شاب نبيل مثل آرثر، فهربا، أما الثالث الذي لبس ثلاثة خواتم حول قدمه، فقد توجه إلى القلعة التي وضع فيها الشاب الملكي تحت حراسة شديدة تولاها الحاجب الملكي هيوبرت دي بيرغ، وعندما أعطى أمر الملك إلى هيوبرت ثار حزن عظيم وأسف كبير بين الذين كانوا يتولون حراسته، وانفعلوا بشدة ورحمة نحو الشاب النبيل.

ولاحظ آرثر الحكم الذي أصدره عمه ضده، وخشية منه على سلامته، انفجر باكياً، وشرع يتشكى ويندب نفسه بشكل محزن جداً، وظهر الرجل الذي أرسله الملك لتنفيذ هذا العمل وجعل نفسه معروفاً من قبل الشاب الذي كان يبكي نفسه ويندبها، وتوقف آرثر فجأة عن الأنين، ونهض ومدّ بعنف يديه وأمسك بها الرجل لينتقم منه، وشرع يدعو الفرسان الذين كانوا هناك بصوت منتحب وقال:

«أيها السادة الأعزاء، دعوني من أجل محبة الرب قليلاً لأنتقم من هذا الشرير، لأنه آخر من سأراه في هذا العالم».

وفي سبيل تهدئة هذه الضجة نهض الفرسان مسرعين وأمسكوا بيديه، وقاموا بناء على أمر من هيوبرت، بإخراج الشاب الذي جاء من الحجرة، وبهذا الطرد وبكلمات تهدئة قيلت لآرثر من الذين وقفوا من حوله، ارتاح آرثر قليلاً، لكن بقلب حزين.

ونظر هيوبرت حاجب الملك إلى أمانة الملك وسمعته، وكان يتوقع منه

العفـو، لـذلك احتفظ بـالفتى دونها أذى، واعتقـد أن الملك سينـدم على الفـور لإصداره هـذا الأمـر، وسيكره بعـد هـذا إلى الأبد كلّ من بـادر إلى اطاعة مثل هذا التصرف الشرير، فقد اعتقـد هيوبرت أن الأمر جاء نتيجة غضب مفاجيء ولم ينجم عن تقديرات هادئة.

ورغبة مـن هيوبرت في تسكين غضب الملـك جون، وفي الوقـت نفسه ايقـاف وحشية البريتـانيين أعلن في أرجـاء القلعـة وفي المنطقة كلهـا بأن الحكم قد نفـذ، وأن آرثر توفي لشدة حـزنه ومن الآلام الحادة التي نجمت عن جـراحـه، وانتشرت الأخبـار ودارت كلّ منـاطق المملكتين خـلال أسبـوعين، ثـم بـدأت النـواقيس تضرب، وكـان ذلك من أجـل روحـه، ووزعت ملابسـه على بيوت المجذومين، كما وأعلن أن جسد آرثـر قد حمل إلى الدير السسترشياني المسمى سينت أندري —ان— غـوفرن Andre -en- Gouffem في نورماندي، ودفن هناك.

ولدى سماع هـذه الأخبار لم يخضع البريتـانيون، بل ازدادوا غضبـاً أكثر فأكثـر، وكانوا أكثـر تدميراً من ذي قبل حيثما أمكنهم، وأقسمـوا أنهم من الآن فصـاعداً لن يتـوقفوا عن حـرب الملك الانكليزي الـذي اقترف مثل هذه الفعلـة الشنيعة بحق سيـدهم، الذي هـو بالـوقت نفسه ابـن أخيه، واستدعى هذا ضرورة الإعلان أن آرثر الـذي قيل في كلّ مكان أنه مات، هو مايزال حياً، وهكذا هدأ غضب البريتانيين قليلاً.

وعندمـا أُخبر جون بما حـدث، لم يغضب لبعض الوقـت، لأن أوامره لم تنفذ، حتى أن بعض الفـرسان قـالوا له بأنـه لن يكون بإمكـانه من الآن فصاعداً تأمين قوات تتـولى حراسة قلاعه، فيما لو أنـه نفذ حكمه في آرثر، لأنه إذا صـدف ووقع أي فارس في أيدي ملك فرنسـا، فإنه سيتلقى على الفور المعاملة نفسها بلا رحمة.

كان هنـاك في هذه السنة زلـزال كبير في منطقة القدس، لم يعـرف مثله

منذ آلام ربنا، وتعرضت مدينة صور الجميلة للهزات الأرضية، وقتل جلّ سكانها، وتهدمت هي كلها تقريباً، كما تهدم ثلث عكا مع قلاعها وأبراجها، ولحق الدمار بعدد من القلاع الأخرى لدى المسيحيين والمسلمين سواء، وأثرت الزلازل على عدد من الأماكن في انكلترا، وكانت هناك صواعق مرعبه، وبروق، وبرد متقطع ورياح قوية خلال شهر آب.

سنة ثلاث ومائتين وألف

كان في نيسان من سنة ثلاث ومائتين وألف فيضان غير متوقع سبب كثيراً من الأضرار في انكلترا كلها، وحدث هذا بشكل اعجازي، لأن ما تقدم على هذا الغمر هطول قليل من المطر.

وأخذ آرثر من فالي إلى روان، وسجن داخل القلعة، تحت حفظ روبرت دي فوكسبونت Vieuxpont وعلى الفور أمر فيليب ملك فرنسا مع البريتانيين الملك جون، ملك انكلترا، أن يطلق سراح آرثر ويسلمه إليهم، وأعدوا له عدداً كبيراً من الرهائن، وأضافوا تهديدات قاسية إلى هذه الأوامر.

وعندما رفض جون، هاجم فيليب مجدداً قلاع نورماندي، وبين أشياء كثيرة استولى على جزيرة لاس أندلاس مع قلعتها، وعلى فودريل Vaudreuil حيث كان قد تمركز عدد كبير من النبلاء لحفظها، أذكر منهم خاصة:

روبرت فتز وولتر مع فرسانه، وسير دي كونسي Saer de Quincy مع رجاله، واستولى أيضاً على كمية كبيرة من العتاد الحربي، ولم يقم

هـؤلاء الـرجـال أدنى اعتبـار إلى شجـاعتهم المعتـادة ولا إلى مسلكهم العسكـري، ولأنهم لم يتوقعـوا تلقي أية مسـاعـدة، لم يقومـوا بأية محاولـة للـدفـاع، وكأنهم بـلا قـوة، فقـامـوا بتسليم أنفسهم مع قلعتهم إلى ملك فـرنسا، وقـد جرى فـداؤهم مقابل مبلغ كبير مـن المال، هو خمسـة آلاف مـارك استرليني، ولقد تعـرضوا لسخـريـة ولإهانـة الشعب في المملكتين، بسبب هذا، ولطخوا بذلك شرفهم.

استولى بعـد هذا الملك فيليب على شاتـو غيلارد Chateau Gail-lard التي بدت لاترام، وكـانت قد بُنيت من قبل الملك رتشارد الأول، ملك انكلترا مقابل نفقات عـالية قرب لاس اندلاس على نهر السين، على الـرغم من معارضـة رئيس أساقفـة روان، لأن تلك الأرض كانت عـائدة لـه، وكان القـائد العسكري لتشستر في القلعـة مع عدد كبير من مشـاهير الفرسان والسيرجنـدية، وقد حافظ على القلعة بكل فاعليـة لوقت طويل، وصمد في وجه قـوة كلّ جيش الملك الفرنسي، لكن عندمـا باتت الحامية بحاجة ملحـة لمؤن الأطعمة لم يعد بإمكان عناصرها الاستمـرار في مقاومة الأعـداء، وفي الحقيقـة لم يكن الملك جـون راغبـاً في ارسـال قـوات إلى المحـاصرين لأنه كـان يخشى دوماً من خيـانة رجـاله، وعبر في الشتـاء في شهر كانون الأول إلى انكلترا حيث ترك النورمان في قلق عظيم وخوف.

ثم تـولى بالواقـع إيقاع الظلم والتشـديد على انكلترا، بمطـالبه الكثيرة للمال، حيث أمل في حشـد جيش كبير يتمكن بـواسطتـه من محق قـوات الملك فيليب.

سنة أربع ومائتين وألف

توفيت الملكة إليـانور في هذه السنة، وكان ابنة كونـت بواتو، وكان أول

أزواجها الملك لويس السابع ملك فرنسا، ثم تزوجت هنري الثاني ملك انكلترا.

أفقدَ موت إليانور جون مؤيداً صاحب نفوذ رهيب، وناصحاً كبيراً.

عقد الملك جون في منتصف الصيام مجلساً للتداول، وقرر أن يرسل سفراء إلى ملك فرنسا هم: رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف نورويك. وأسقف إيلاي، والإيرل وليم مارشال وإيرل لستر، وكان عليهم معرفة نوايا الملك الفرنسي، وليبحثوا معه في عقد معاهدة سلام معه، وأعلن الملك الفرنسي عن استعداده لعقد معاهدة سلام إذا توفر شرط واحد هو: إذا أطلق سراح آرثر وسلم إليه حياً. فقد أمل فيليب أنه إذا مااكتشف أن آرثر كان ميتاً، وقتها يمكنه أن يزوج أخته وبذلك يحصل على ممتلكاتها في القمارة، وعليه لم يكن الملك فيليب راغباً في اقامة السلام، لأنه كان واثقاً أنه سيتمكن حالاً من تملك جميع أراضي الملك الانكليزي.

وفي هذه المرحلة لم يكن لجون أولاد، وكان إذا ماتوفي فسوف ترث أخت آرثر أراضيه.

ولهذا اقترح الملك فيليب دوماً شيئاً محرجاً، أو غير ممكن، وكان هذا دأبه خلال المناقشات، فقد أراد إلحاق العار والذل بالملك جون، وأن يلغم عزته الملكية وينسفها، وأظهر دوماً غضبه بشأن وفاة آرثر، الذي سمع بأنه أغرق في نهر السين، ولهذا أقسم أنه لن يتوقف عن إثارة الحرب ضد جون حتى يحرمه من مملكته كلها.

وحشد فيليب في أيام عيد الفصح جيشاً، وحاصر قلعة فالي، التي مالبث أن استولى عليها بدون مقاومة، ثم وصل إلى كين Caen وبسلام تسلمها من قبل السكان هناك، واستولى بعد هذا على كامل

المنطقــة حتى بـارفلــور Barfleur وتشير بــــــورغ Cherbourg ودومفرونت Domfront واشترى سكان روان وفيرنــول Verneuil والذين يتـولون حراسة قلعـة آركوي Arquesمدنة أربعين يــــوماً من ملك فـرنسـا، حتى يكـون بـإمكـانهم ارسـال رسل إلى الملك الانكليـزي لمعرفة قراره، لأنه إذا كـان مولاهم غير قادر على مساعدتهم، أو غير راغب بـذلك، وقتهـا يمكنهم الاستسلام إلى سلطـان الملك فيليب بـدون صراع عنيف.

وبعثوا على الفـور برسلهم إلى انكلترا، ببعثة فيهـا مافيها من التعـاسة، وطلبوا من الـرسل أن يبينوا الحالة التعيسـة في نورماندي، وأن يطلبـوا منه القيـام بـانقاذهم، ومهما يكن الحال، لم يعطهـم الملك جون العـون لأنـه خـاف من خيـانـة بعض رجـالـه، وعـاد الـوفـد حـزينـاً وقلقـاً، وهكـذا استسلمت مدينة روان التي لم تقهر بعـد، واستسلم سكان فيرنول وآركوي معاً إلى الملك فيليب.

وهكـذا خضعت في وقت قصير لسلطـان الملـك فيليب: نـورمـانـدي العنيدة، وأنجو، وبريتاني، ومين، ومقاطعة تـور، وحدث هذا كله وفاقاً مع نبوءة ميرلين Merlin التي قالت في هذه السنة: «سوف يفترق السيف عن الصـولجان»، أي ستنفصل نورمانـدي عن مملكة انكلترا، فقـد مكث ملوك انكلترا دوقـات لنورمـاندي لمدة مـائة سنة وتسع وثـلاثين سنة، من أيام الـدوق وليم الذي استـولى على انكلترا، حتى الملك جون الـذي فقد هذه الدوقية مع الكثير من أراضي ماوراء البحار.

وكـان طوال هـذا الوقت هنـاك صراع عظيم فيما بين البواتـويين وبين الأكـوتينيين، فقـد كان الأول مخلصين للملـك جون تحت قيـادة روبـرت ثــورنهام Tjornhamفي حين كــان مع الآخــــرين وليم دي روشي والكـونت هيــوج الـذي غـزا أراضي الملك جـون، وكــان الملك فيليب بمساعـدتهم قادراً على الاستيـلاء على كلّ بواتـو تقريبـاً، باستثنـاء روشل

Rochelle التي صمدت بشجاعة ضد كلّ انسان لمدة سنة، ومثلها كانت قلعة شينون Chinon مع هيوبرت دي بيرغ فيها، فهي لم تستسلم إلى أعدائها طوال ذلك الوقت، وقاوم جيرارد دي آثي Ath-ee شحنة قلعة لوشي، بشجاعة ووقف ضد الثوار.

وساند الغسكونيون الملك الانكليزي، وأعطى الملك جون إلى موريف Moreve وكان واحداً من الغسكونيين، مبلغاً قدره تسعة وعشرين ألف مارك ليحشد جيشاً قوامه ثلاثين ألفاً، يتوجب قدومه لدى طلبه من قبل الملك جون، عندما سوف يعبر البحر، وكان رئيس أساقفة بوردو، وهو راهب موراڤي، موجوداً في انكلترا للبحث في هذا العمل، وليعمل بمثابة رهينة مقابل المال.

وبنى الملك جون ديراً في نيوفورست حمل اسم بيولو Beaulieu وجلب إليه ثلاثين راهباً من رهبانية سيتو Citeaux.

جرى خلع ألكسيوس الامبراطور الضعيف للقسطنطينية من قبل قريبه مرزوفلوس، الذي أعلن عن نفسه امبراطوراً، وقام بقتال الجيش الغربي في عدد من المناسبات، وفي ردة فعل ضده وانتقاماً منه نهب الصليبيون القسطنطينية.

قامت القسطنطينية على مثلث من الأرض، طول الضلع فيه ستة أميال، وقالوا بلغ محيط المدينة ثمانية عشر ميلاً، وهذا معناه أن المسافة من زاوية إلى زاوية كانت ستة أميال، وكان ارتفاع الأسوار خمسين قدماً، وكانت هناك أبراج على طول الأسوار بين البرج والبرج الآخر عشرين قدماً، وكان أشهر القصور الامبراطورية في المدينة اسمه بلاشرين، ثم قصر قسطنطين وقصر بوهيموند، واحتوت المدينة على كنيسة لانظير لها اسمها آيا صوفيا، بناها جستنيان، وقيل دوماً بأن معيار بنائها مع

تـزييناتها رائعة إلى درجـة لايمكن تصـديقهـا، ومنح الأباطـرة الكنيسـة إيرادات كثيرة، ووضعـوا فيها تسعمائة وخمسين كـاهناً، ومن المؤكـد القول على عهدة الذين عـرفوا المدينة، أنه كان فيها من السكـان أكثر مما عاش بين مدينة يورك ونهر التيمز.

وعندما تم الاستيـلاء على المدينة، وهرب الامبراطور مـرزوفلوس، جرى اتفاق عام على اختيـار بلدوين كونت فلاندرز امبراطـوراً، فقام على الفور بكرم منـه فوزع ثلث مـاكان من مال في الخزانـة الامبراطوريـة، الذي بلغ مليوناً وثمانمائة مـارك فضي، وزعه بين الأمراء اللاتين والجيـش، وبدا هذا المبلغ الضخم من المال مثلـه مثل أي شيء تعلق بثروات الاغـريق، ومثل أبنية المدينة وآيا صوفيا، أمـراً لايصدق، لأن الذين عادوا من تلك المدينة قالوا بأن الـدخل اليومي للامبراطور هـو ثلاثين ألف بيربري Perpres والبيربـري هـو بنس ذهبي يسـاوي ثـلاث شلنـات من الفضـة، كما منح أيضاً بكـرم الأمراء وآخرين كانـوا معه مناصب رفيعـة وتشريفات، وكثيراً من الأعطيات الثمينـة، وبعث إلى الملك فيليب الذي كـان من قبل مولاه قطعة مـن العقيق، وكانت من أثمن المجـوهرات، يمكنهـا اضاءة القصر كلـه بأشعـة براقـة حمراء، وثـوبين ملكيين نسجا بـالـذهب بشكل رائع، وأحجار كريمة.

هناك في القسطنطينيـة عمود، بني في العصـور القديمـة من قبل واحد من رجال الكنيسة، حيث استخدم فنوناً ميكانيكية، فقد قيل بأن قاعدته بحركـة دائمة، وفي أعـلاه تماثيل ثلاثة أبـاطرة، ينظـر أحدهم نحـو آسيا، وآخر نحـو أوروبا، وثـالث نحو أفـريقيا، وهنـاك اطار فـوق التماثيل كتب عليه بـالاغريقيـة بأنه بعـد أن يحكم ثلاثـة من الأباطـرة اسم كلّ منهم ألكسيـوس بـلاد الاغريق، ستصل مملكـة الاغـريق إلى نهايتهـا، وستنتقل الامبراطوريـة إلى أيدي شعب غريب، ووقف على رأس الاطـار تمثال رابع جـاء فوق الجميع، وهـو أكثر عظمـة، وأعظم سمواً من التماثيل الأخـرى،

وقد نظر نحو العالم الغربي ومدّ يديه نحو الغرب.

سنة خمس ومائتين وألف

كـان الشتاء في سنـة خمس ومائتين وألف شتـاء قاسيـاً، وتجمد النهـر، لذلك بات بإمكـانك عبور نهر التيمز على الأقدام، وكـانت الأرض قاسية لم يمكن فـلاحتها من عيـد الختان في الأول مـن كانـون الثاني حتى عيـد البشارة في ٢٥آذار، وفي الحقيقـة لحق التلف بالموسم الشتـوي كله تقـريباً بسبب شـدة البرد، وبـادر النـاس بسرعـة إلى اقتـلاع الخضـار النـامية، وحـدثت مجاعـة كبيرة في جميع أرجـاء انكلترا، ولهذا بلـغ ثمن بـوشل bushel القمح الواحـد [٨-غالون] ماركـاً واحداً، وهو مـاكان يكلف في أيـام الملك هنـري الثاني ١٢بنسـاً، وبـات ثمن المقياس الـواحـد من حبوب الفاصـولياء والبازلاء نصف مارك، وبلغت تكلفة البـوشل الواحد من الشـوفـان ٤٠بنساً، وهـو مـاكنـا اعتـدنا على شرائه بأربعـة بنسـات، وصارت النقود رديئـة إلى درجة كبيرة وفاسدة بسبـب قصقصتها وتقطيعها [إلى أنصاف وأرباع] حتى بات من الضروري تجديدها هذه السنة.

ووقع الآن بـالأسر روبـرت ثـورنهام الـذي صمـد بشـدة أمـام الثـوار البـواتويين، والـذي تولى أسره هـو جيش الملك الفرنسي، وحـدث الشيء نفسـه لجيرارد دي آثي، فقـد سقط مع قلعـة لـوشي التي دافع عنهـا بشجاعة كبيرة لمدة طويلة.

وقرر الملك جون، الذي كان قلقاً جـداً، مع أنه أخفى حزنه وأسفه، أن يعبر البحـر مع جيش كبير بغية استرداد الأراضي المفقـودة، وكان قـد ربح إلى جـانبـه نبـلاء بـواتـو وغسكـوني مـن خـلال وعـود سريـة، وتلقى التحـريضات بشكل مستمـر من بعض نبـلاء نورمـانـدي، الذي تشكـوا

بحرقة من طغيان الملك الفرنسي.

وبناء عليه عقد الملك جون بعد عيد الفصح مجلساً استشارياً في نورثأمبتون، ثم عبر البحر من بروشستر مع جيش كبير وجيد، والتحق به هناك حشد من السفن جاءت من عدد كبير من المراسي، وبعدما جرى توزيع السفن التي وصلت. على كلّ واحد من النبلاء، خصصت سفن للأطعمة، والعتاد، وحملت أخرى بمختلف أنواع الأسلحة، وعندما حلّ اليوم الذي باتت فيه السفن جاهزة للاقلاع، إذا برئيس أساقفة كانتربري والإيرل وليم مارشال قد عادا من بلاد ماوراء البحار، وذهبا إلى الملك لاقناعه بأي ثمن ممكن ليتخلى عن الحملة.

ووضعوا أمامه مخاطر كثيرة يمكن أن تنجم عن عبوره: سيكون من الخطر جداً انزال القوات بين الأعداء من دون تأمين قاعدة، وسيكون بإمكان الملك الفرنسي قيادة جيش أكبر ضده، وبذلك يمكنه غزو البلاد كلها، وسيكون من الخطر الاعتماد على البواتويين المرائين والمتقلبين، الذين اعتادوا دوماً على التخطيط لعمل تآمري ضد أمرائهم، وسيكون بإمكان كونت بولون Boulogne مع شركائه غزو انكلترا إذا ماسمع أنها فارغة من قادتها ومن جيشها الشهير، وسيكون هناك خوف عظيم من أنه سيخسر الذي بين يديه من الأراضي وهو يحاول استرداد مافقده، خاصة وأنه لم يترك خلفه وريث واضح للمملكة، يمكنه أن يتسلم حكومة المملكة إذا ماحدث شيء سيء له في بلاد ماوراء البحار. ومع أن الملك سمع هذه الحجج وغيرها لم يكن من الممكن اقناعه بالتخلي عن خططه بالذهاب إلى ماوراء البحار، وأمسكه رئيس الأساقفة والإيرل وليم من ركبتيه وتعلقا به خشية أن يتخلص منهما، وأصرا على أنه إذا لم يصغ لما طرحاه ويأخذ به سيمنعانه بالقوة، خشية أن تقع المملكة في لجّة من الفوضى بسبب مغادرته.

وجاءت الضغوط إلى الملك من جميع الجهات، فمن جانب كان هناك

العـار فيما لـو تخلى عن خطتـه، وكانت هنـاك من جـانب آخـر الطلبـات الملحة له بالبقاء، وسأل رئيس الأسـاقفة وهو يبكي وينوح عن رأي يكون عملياً أكثر لصـالح المملكة وللحفاظ على سمعته الملكيـة، وكيف يمكنه تأمين المسـاعـدة للـذين كـانوا ينتظـرونـه فيما وراء البحـار، وعقـد رئيس الأساقفـة مجلساً استشـارياً قرر وجـوب إرسال بعض النبـلاء الانكليز مع قوة معتبرة من الفرسان الأشداء، لتكون طليعة لقدوم الملك.

وبعدوقت طـويل اقتنع الملك مكرهـاً بالبقـاء وأخبر لورداتـه وفرسـانه بالعـودة إلى ديارهم، وطلب أن يحاسبوا على المبـالغ التي دفعت في سبيل العبور، وعـاد هؤلاء الرجـال، الذين تحملوا الكثير من المصاعب، وأنفقوا نفقات عـالية في هذه المناسبة، إلى ديارهم وهم سـاخطون كثيراً، ومعهم أحمال الأطعمـة التـي جمعـوهـا، ولعنـوا رئيس الأسـاقفـة والمستشـارين الآخـرين الذين أعطـوا الملك مثل هـذه النصيحـة السيئة، حسبما بـدت لكثيرين، وكان هـذا صحيحاً بشكل خاص بـالنسبة للبحـارة الذين قيل بلغ تعـدادهـم أربعـة عشر ألفـاً، فقـد جلبـوا سفنهم من أمـاكن نـائيـة، وانتظروا عبثـاً لبعض الوقت، مـع متاعب كبيرة، ونفقات عظيمـة، وذلك في سبيل العبـور، فلقد قيـل إنه لم يجتمع قط مثل هـذا العـدد الكبير من السفن للابحـار من ميناء انكليـزي للجواز، ولم يحشـد أبداً جيش أكبر في انكلترا فيه فرسـان أشداء متشوقين للجواز مع الملك، فقـد وصلت أخبار قـدومهم إلى بـلاد مـاوراء البحـار، فأوقعت الـرعب في قلـوب الفـرسـان الفـرنسيين في نـورمـانـدي، حتى أن بعضهم تخلى عن القـلاع والبلـدات القريبة من البحر، وطلبوا السلامة في الفرار.

وعلى كلّ حال تـوجه الملك من سـاحل البحر إلى وتكستر وهـو حزين جداً، فقد استولى عليه الأسى وشعر بثقـل في قلبه حمله في اليوم الذي تلا عودته من الشاطـىء، على الابحار إلى جزيرة وايت Wight وظلّ هائماً على وجـه البحر يمضي إلى هنـا وإلى هنـاك لمدة يومين، وفي تلك الأثنـاء

كان رفاقه يحاولون ثنيه عن عبور البحر من دون الجيش الذي فرقه.

أما الذين مكثوا على البر فقد اعتقدوا مرجحين بأن الملك قد عبر، وأن أخباره انتشرت في جميع أرجاء المملكة، وعبر وقتها إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، ومعه كثير من الفرسان، ووصل إلى روشيل Rochelle وكان قد عبر قبله بقليل غيوفري، الذي كان ابناً للملك جون من خلال خليلة، ووصل مع عدد كبير من الفرسان.

أما ماكان جرى جمعه من مبالغ مالية ضخمة، وحجم المؤن التي احتيج إليها في إعداد السفن، والأغذية التي جمعت والمخازن ليس من السهل تعداده.

وكان خلال ليلة عيد القديس يوحنا المعمدان في ٢٤حزيران، رعد مخيف وبرق قدم من السماء عبر انكلترا، وضرب مخلوق عملاق مرعب (تنين) بالبرق في كنت، قرب ميدستون Maidstone مع صوت تدمير كبير، وقد تبين أن له رأس أتان، وأمعاء انسان، أما أطرافه العملاقة الأخرى فلم تكن تشبه أطراف أي مخلوق آخر من أنواع الحيوانات، ونادراً ماتجرأ أحد على الاقتراب من جسده الأسود، الذي احترق بالبرق، وذلك بسبب الرائحة التي لاتحتمل التي صدرت عنه.

وفي ٢٩تموز كان هناك رعد وصواعق مرعبة مماثلة، وأصوات صدرت عن تلاقي البروق من خلال اصطدام الغيوم فوق جميع أرجاء انكلترا، وكانت مرعبة إلى حد أن كثيرين اعتقدوا أن يوم القيامة قد جاء، وغدا أناس كثر وحيوانات بلا عقل تقريباً بسبب الخوف، وملأ الرعب والنذر المملكة بأسرها، وهلك رجال ونساء في كثير من المناطق بسبب اصابتهم بالصواعق، وأصيبت حيوانات أيضاً، وضربت بيوت وأحرقت، وأتلفت محاصيل بالبرد النازل الذي كانت في بعض الأماكن حباته كبيرة بقدر بيض الأوز، واجتثت أشجار من جذورها وحملت بعيداً، وبرم بعضها

مثلما يبرم الحبل، وانشطر بعضها إلى قسمين.

وفي اليوم التالي شوهدت آثار أقدام عملاق مرعب في عدد من الأماكن، وكان من النوع الذي لم يـر من قبل أبداً، وقال الناس إنها آثار أقدام شياطين أرغمت على الفرار إلى هنا وهناك بقوة الصواعق الصادرة عن الملائكة الجيدين، كما قال أرميا في الوصايا، فقد صبّ الملائكة الطيبون غضبهم على القدماء بالشهب والقذائف، وبذلك حموا السماء بوساطة الصواعق والبرق المتصادم، وبرزاز من النشاب دمروا العدو، وأرغموه على الالتجاء إلى ظلمات باطن الأرض، لأن الملائكة امتلكوا قوى نارية على رؤوس أصابعهم، بإمكانهم بوساطتها احراق الحجر وتفتيته إلى قطع صغيرة، واقتلاع الأشجار وجرها، ومهما بلغت قوة تفجر غضب الانسان، إن آلافاً من الناس يمكن أن تموت بضربة واحدة من ملاك واحد، وهذا مايمكن للفلاسفة أن يناقشوا حوله أكثر من سواهم.

وغادر هيوبرت المبجل، رئيس أساقفة كانتربري، كانتربري مع جماعته، وقصد بوكسلي لإرساء السلام فيما بين رهبان روشستر وأسقفهم، وعانى أثناء سفره من مرض مزدوج تمثل بالحمى والقرحة، لذلك قصد عزبته في تاينهام، وهناك، بعد مضي أربعة أيام، أنهى حياته يوم ١٣تموز، فقد قصم المرض ظهره عند الفقرة الثالثة من عموده الفقري، وهو ماكان يخجل في أن يريه للذين كانوا معه في حجرته لأن أعضاءه الداخلية كانت ستظهر.

والدرس المستفاد من قرحته الخطيرة، والذي يمكن تعلمه هو أن المريض إذا ماشعر بآلام في الصدر أو بدأ بالتعرق، فهذا معناه أنه في خطر الموت، ومن الممكن معالجة هذا الداء بوساطة مزج قدر متساوي من صفار البيض والملح، ووضعه على موضع الداء، وتجديده باستمرار، وينبغي أن يأكل المريض الخبز والماء حتى يبرأ جسده، وانتبه عندما تخرج الدم، خشية أن ينتشر المرض بين العروق، ولو أن رئيس الأساقفة لاحظ

الداء مبكراً وبسرعة، لكان بإمكانـه استخدامه هذا العلاج، الذي لايخفق حسبما أخبرني الأطباء.

وصف كـوغشال بعـد هذا مـوت رئيس الأساقفـة بالتفـاصيل، لكن تاريخه انحـرف عندها ليروي سلسلـة من المواد الحولية، وتناول الـرواية جيرفاس، الذي كان راهباً في كانتربري، والذي حياته الـدرامية وروايته الحيوية مشوبة بتكريسه نفسه لكاتدرائيته الرهبانية.

في ١٢ تموز مات رئيس الأساقفـة هيوبرت، وبعد ثلاثـة أيام بادر الملك جـون مسرعـاً إلى كـانتربـري، وتحدث بلطف زائد مع الـرهبـان حـول استخلاف رئيسهم وأعطـاهم بعض الأمل، أن باستطاعتهم اختيـار واحد من كنيستهم، وعنـدما سمع أن رئيس الأسـاقفـة الشهير والنبيل قد تـرك لهم بيعـة محمولـة في وصيتـه تسـاوي ثلاثمائة مـارك [٢٠٠-جنيـه] سأل بهدوء رؤيتها، وعندما رآها حملها إلى ونشستر، وأعطى إلى أسقف ونشستر مـاكان أخـذه من كنيسة المسيح، وبعـد هـذا سأل رئيس رهبان ورهبـان كانتربـري ألا يقوموا بـالانتخاب قبل عيد القـديس أندرو، في ٣٠ تشرين الثاني، وقد وافقوا على طلبه.

ويعث الملك بالوقت نفسه سراً برسل إلى روما، وعندمـا سمع الرهبان بهذا بعثوا بعـدد من أفرادهم مع نائب راعيهم إلى روما أيضـاً، خشية أن يطلب الـرسل الملكيـون أي شيء يضر بمكانـة وحقـوق كانتربـري، وعلى الفـور كتب الرسل الملكيـون إلى الملك يقـولون بأن رهبـان كـانتربري قـد انتخبوا نـائب راعيهم وبعثوه إلى رومـا، وانزعـج الملك لدى سماعـه هذا وذهب إلى كـانتربـري بعد عيـد القـديس أندرو، وسـأل الرهبـان عما إذا كـانـوا قد انتخبـوا نـائب راعيهم أو أي واحـد آخـر، فأصروا على أنهم لم يقومـوا بأي انتخاب، وليبرهنوا عما قـالوه وفعلـوه، قاموا بنـاء على نصيحة

ومـوافقة جميع الكهنـة والرهبـان فانتخبـوا أسقف نوروك، ووسط الغنـاء، اقتادوه إلى داخل الكنيسـة، ووضعوه على كرسي رئيس الأساقفـة، وأخذوا قبلة السلام.

وبما أن الملك وافق على انتخـابهم، بعث الـرهبـان بـرسـل إلى رومـا للحصول على الطيلسـان، لكن الرهبـان الذين كانـوا قد ذهبـوا إلى روما، عـارضوا الانتخـاب، وذلك على الرغم من تحريم الـدير لهم الاقـدام على ذلك تحت طـائلـة عقـوبـة الحرمـان، ولقـد ادعـوا بأن أسقف نـوروك لم ينتخب من قبل الرهبـان، بل فرض من قبل الملك باستخـدام القوة، وأن الانتخاب بلا قيمة.

سنة ست ومائتين وألف

وبعـد وقت طـويل، قـام الـرهبـان الـذين نـالـوا التفـويض من ديـر كانتربري، بأن يقـوموا بانتخاب اعتماداً على السلطـة البابوية، قـاموا بعد تقـديـرات وافية، وبمـوافقـة من البـابـا، فانتخبـوا السيـد المبجل ستيفن لانغتون Langton كـاردينالاً، واحترامـاً من البـابا للملك بعث إليـه بـرسـائل طلب فيها مـوافقـة الملك، وكـان الذي فعلـه الملك، الاصغـاء لنصائح شريـرة، فرفض اعطاء الموافقة، وعلى كلّ حـال سأل فيما إذا كان جميع الـرهبـان قد وافقـوا على انتخـاب ستيفن لانغتـون، ورد الديـر أنهم سوف لن يتخلوا عنـه، وبناء عليه أقسم الملك الغاضـب أن مامن واحد منهم سوف يبقى في كنيسة كانتربري، ولاحتى في انكلترا.

- ٦٨٧ -

سنة سبع ومائتين وألف

[رسم ستيفن لانغتون رئيساً لأساقفة كانتربري في روما يوم ١٧- حزيران]، وبناء عليه تم طرد جميع الرهبان من كانتربري يوم ١٥ تموز، وجرى استقبالهم بتشريف في بلاد ماوراء البحار من قبل دير القديس بيرتن، وتباهى الملك بنصره الرائع، وعبثاً كتب رسائل إلى الراعي هناك أن يحاول طرد الرهبان.

ولد في هذه السنة هنري، أول مولود للملك جون من خلال الملكة ايزابيلا ابنة كونت أنغوليم، وكان هذا حدثاً حيوياً في أهميته، فالآن امتلك جون وريثاً ذكراً.

غادر انكلترا أسقف لندن، وأسقف إيلاي وأسقف هيرفورد، وأسقف تشستر ورئيس أساقفة يورك، الذي كان أخاً للملك، ومعهم عدد كبير آخر، وأغنياء وكذلك فقراء، لأنه لم يعد في مقدورهم تحمل طغيان الملك، ولم يبق ولا واحد في البلاد يستطيع أن يخالف ارادته، وكان أساقفة درم، ولنكولن وتشستر قد ماتوا، وفقط بقي أسقف ونكستر يتمتع بحظوة الملك، وكان أسقف نوروك في ايرلندا، وتحمل أسقفا روكستر وسالسبري كثيراً من الأذى، ثم غادرا إلى اسكوتلندا.

سنة ثمان ومائتين وألف

كان الملك نفسه هو السلطة الوحيدة في البلاد، وهو لم يخش لا الرب ولا الانسان، وكان البابا مزعوجاً نتيجة للمضايقات التي تعرضت لها

الكنيسة في كانتربري، وبعث برسائل أمر فيها الملك باستقبال رئيس أساقفة كنيسة كانتربري ورهبانها، وأن يعيد إليهم مقتنياتهم المصادرة، وراسل الملك روما، ووعدها بأنه سوف يقوم بالتعويض عن كلّ شيء، في سبيل الرب، والكنيسة المقدسة، والبابا، وعندما سمع البابا بأن الملك قد تاب فرح فرحاً عارماً، وبعث إليه برسائل غفران، وعندما عاد الرسل إلى انكلترا، بعث رئيس الأساقفة بأسقفين وراهبين، ليتسلموا مقتنيات كنيسة كانتربري، وعندما سمع الملك ماجلبه الرسل من روما، غضب كثيراً، وأقسم أنه لم يرسلهم لهذا الغرض، وجرى استدعاء المستشار الملكي الذي كتب الوعود الأصيلة وعليها خاتم الملك، ومع ذلك أنكر الملك أنه وافق عليها.

وبناء عليه انسحب الملك من المباحثات، وكذلك فعل الأساقفة وكلّ واحد آخر، وفي ٢٤آذار، جرى بناء على قرارات بابوية، تعليق الخدمات الدينية في جميع أنحاء انكلترا، وعمّ الأسف الكبير والقلق خلال البلاد، ولم يحتفل لابالجمعة الحزينة ولا بأحد الفصح، لكن عمّ صمت لم يسمع بمثله، فرض على جميع رجال الدين والرهبان من قبل رجل علماني، ولم يعد من الممكن دفن الموتى من العاديين أو من رجال الدين في المقابر المكرسة، بل فقط في الأماكن الدنسة والملوثة.

وأمر الملك أيضاً بطرد العدد القليل من الرهبان الذين بقوا في كانتربري، وكان هؤلاء من العميان والمعوقين، وأن يُعدّ الرهبان بمثابة أعداء عامين، وهرب بعضهم من انكلترا، وسجن بعضهم، وجرى الحفاظ على بعضهم بالمال، وعاني آخرون من مصاعب جمّة، فقد قطعت أشجارهم، وجرى تغريم رجالهم وفرضت عليهم ضرائب ثقيلة، وعانت انكلترا كلها من هذه الأثقال، وأرغم الشعب على أن يدفع أولاً ربع أمواله، ثم الثلث، وبعد ذلك النصف، حتى أجور الكرادلة وكلّ ماكان لهم في انكلترا قد انتزع، وانتزع بنس بطرس الذي كانت الكنيسة

الرومـانية تحصل عليه من أيـام كنوت Cnut فقد آل هذا كله إلى الملك، وفرض بشكل خـاص مكوس كبيرة في هذه المناسبة على الموانيء الخمسة التي كـانت تدافع عن السـواحل ضد الغزوات العـدوانية، ولهذا الغـرض شنق بعض سكـانها، وقتل بعضهم الآخـر صبراً، وسجن الكثير، وغلهم بـالحديد، وبعـد وقت طـويل أطلق سراحهم مقـابل عهد الـولاء والمال، ولهذا غادر الفقـراء والأغنياء انكلترا، وشكلـوا أعداداً لاتحصى من الرجـال والنساء، وكان سفـرهم حجاً غير مشكور لتجنب الهمجيـة الهائلة للملك وليس عمـلاً دينياً أو للتقـوى، وسجن جـون حتى زوجته الملكـة، ووضعها تحت الحراسة المشددة في قلعة كورف Corfe.

سنة تسع ومائتين وألف

لـدى سماع البابا بهذه النوازل ومـاشابهـا ومعه جماعـة آباء الكنيسـة الانكليـزيـة، بعث إلى ملك انكلترا بـرسـائل إعذار وانـذار، حـذره فيهـا بضرورة الابتعـاد عن أعمالـه الشريـرة والاقـلاع عنهـا، وأن يعيـد كنيسـة كـانتربـري إلى وضعهـا الأصيل، وإلا مـن المؤكـد أنـه سـوف يعـاني من الحرمـان الكنسي، الـذي سيتلفظ بـه البـابـا شخصيـاً بشكل علني، ولن يقتصر الحرمـان العلنـي للملك على انكلترا، ولكن سيشمل المنـاطق الأخرى أيضـاً، واهتم جون —على كلّ حـال— بالانـذار البابـوي قليلاً، وتجاهل التحذير.

وأرسل الملك رسـائل إلى الملك وليـم ملك اسكـوتلنـدا، وكـان رجـلاً متميـزاً بتقواه، وأمـره إما أن يسلـم إليه ثـلاث قلاع على الحدود، أو ابنـه بمثابـة رهينة، وعنـدما لم يرغب الملك السكـوتلندي في تلبيـة أوامره، أراد ملك انكلترا أن يستـولي بالقـوة العظيمة على مـالم يستطع الحصول عليـه

بالرجاء، وأن يعيد القلاع الثلاثة إلى مملكته.

وعندما أخذ ملك انكلترا الطريق نحو اسكوتلندا مع قوة كبيرة، بدأ جنده يتململون قائلين: «إلى أين نحن ذاهبون؟، ماذا نحن صانعون؟ إننا مثل الكفار، خوارج على شريعة الرب وعلى المسيحية، لماذا يتوجب علينا محاربة ملك اسكوتلندا المقدس؟ لأنه مؤكد أن الرب سوف يقاتل لصالحه وضدنا، وسيصنع المعجزات من أجله».

ولدى وصول هذا وغيره من حكايات جند الملك إليه، وخشية منه أن يحدث ويتخلى الجيش كله عنه ويتركه أثناء القتال لوحده، أمر غيوفري فتزبيتر، ورئيس الهيئة القضائية وإيرلات آخرين أن يبحثوا مسألة التصالح مع الكنيسة في كانتربري وفي انكلترا، وأن يستدعوا بسلام رئيس أساقفة كانتربري وأساقفة آخرين ورهبان إلى انكلترا، لأن البابا كان قد أمر هؤلاء الأساقفة بتلفظ قرار الحرمان على الملك.

وبناء عليه أرسل غيوفري فتزبيتر رسائل مستعجلة إلى أسقف لندن، وسأله القدوم مع أساقفته إلى انكلترا بالسرعة الممكنة، بقدر مايحب شرف الرب والكنيسة وسلام الملك والمملكة، لأن الملك قد أعطى السلطة الكاملة إلى الأساقفة لإقامة سلام مع كنيسة الرب.

وبينما كان الأساقفة يستعدون للعودة إلى انكلترا، والملك في طريقه إلى اسكوتلندا مع الجيش، أخذ ملك اسكوتلندا يشعر بالخشية على سلامة مملكته، وفضل كثيراً أن يمتلك السلام على اللجوء إلى السيف، وأن يزود شعبه بالحكمة بدلاً من الحديد، ولهذا بعث بابنتيه مع رسل أمناء إلى ملك انكلترا، وذلك من أجل أن تتزوج احداهن ابن الملك والأخرى واحداً من النبلاء الانكليز، كما أرسل ابنه، لكن ليس رهينة، بل ليقدم الولاء اللائق والتبعية إلى الملك بشأن القلاع المذكورة مع الأراضي التي بحوزته، وهكذا تم استرداد سلام مملكة اسكوتلندا، وعاد الجميع إلى

ديارهم.

ووصل الآن الأساقفة إلى دوفر يملكون كامل الصلاحية لإبرام سلام، ووافقوا بعد كثير من المباحثات على شكل من أشكال السلام الذي تمت كتابته والتوقيع عليه، وهكذا جرى تعليق قرار الحرمان المفروض على الملك وتأجيله لمدة خمسة أسابيع.

فاحتشد بناء على أمر من الملك جميع الرجال الأغنياء والفقراء والوسط في انكلترا ممن تجاوز سن الخامسة عشرة، احتشدوا في مالبرو، ليقسموا هناك يمين التبعية للملك ولابنه هنري البالغ من العمر ثلاث سنوات، على أنه وريثه. وعندما رأى الملك وسمع صيغة معاهدة السلام التي أبرمت بموافقة كثير من الناس، بعث برسل مع رسائل طالباً من رئيس أساقفة كانتربري الاجتماع به في دوفر للتباحث.

وبناء عليه، عبر رئيس الأساقفة البحر، وانتظر الملك حتى يصل إلى دوفر، وعندما سمع الملك بهذا جاء إلى قلعة تشلهام Chilham التي لم تكن بعيدة عن دوفر، وقد جاء مسرعاً جداً ومسلحاً تماماً.

وانتظر رئيس الأساقفة هناك، بينما انتظره رئيس الأساقفة في دوفر، وتأثر الملك ببعض الألسنة ذات التغرير الشريرة، فغير موقفه حول الاقتراح، وغادر فجأة، وقام رئيس الأساقفة بناء على نصيحة النبلاء، فعبر البحر، وعاد إلى فرنسا، وجرى حرمان ملك انكلترا من قبل عدد كبير من رجال الكنيسة، وذلك بناء على أوامر من البابا، وجرى حرمانه في فرنسا أيضاً.

وولد في هذه السنة رتشارد، وهو الابن الثاني للملك جون.

-٦٩٢-

سنة عشر ومائتين وألف

استخرج الملك في خطة جديدة، مبالغ لم يسمع بها، من اليهود الانكليز، ذلك أنه أمر بشنق بعضهم، وبسمل عيون بعضهم الآخر.

تمتع اليهود لوقت طويل بحماية ملكية صعبة مقابل جعل قسم من أرباحهم متوفراً لخزينة الدولة، ودفعت محاولات جون الهمجية لاستخراج مبالغ كبيرة منهم، إلى مغادرتهم انكلترا كلياً.

ولم يوفر جون رجال الدين في بحثه عن المال، وعندما اجتمع رعاة ديرة الرهبانية السسترشيانية مع بعضهم سألهم أن يساعدوه ليس بصلواتهم بل بأموالهم، وعندما رفض طلبه بتواضع كامل، غادر الاجتماع مغضباً، وقاد الجيش والأسطول اللذين اعتقد الناس أنه أعدهما للذهاب إلى بواتو، لقد قادهما إلى ايرلندا، وبسرعة أخضعها بالقوة والخديعة، ومع أن الكثيرين عارضوه، لم يكن بإمكانهم مقاومته، وفرض هناك القوانين الانكليزية والعادات، وأمرهم بمراعاتهم والأخذ بهم، ثم عاد إلى انكلترا.

وأمل كثيرون أنه بسبب هذا النصر، سيعمل الملك على تدارك أفعاله السيئة التي اقترفها بحق كنيسة الرب، وأنه سيحاول اصلاح أخطائه، لكن غضباً جديداً صدر عنه خاصة نحو السسترشيان، الذين لم يستطع أن يستخرج منهم أي مال لابالقوة ولابالرجاء، ولهذا شردهم بين مختلف كنائس انكلترا، وبذلك أرغموا على التسول من أجل الحصول على الطعام، ولم يسمح حتى لرعاتهم بعبور البحر للالتحاق بمجامعهم، ولم يعط الإذن بالعبور حتى إلى راعي دير بوليو Beaulieu الذي كان قد أعطاه موقعاً جميلاً في «النيوفورست» ليبني عليه ديراً.

وأرسل جون رسائل مع رسل إلى رئيس أساقفة كانتربري، طالباً منه القدوم إلى انكلترا، حتى يمكنهما التباحث معاً حول السلام في دوفر، وعندما بات كلّ شيء جاهزاً للعبور، تلقى رئيس الأساقفة رسائل من بعض النبلاء الانكليز الذين كانوا مخلصين له،أخبروه فيها بألا ينخدع في قدومه إلى انكلترا، وأن يتجنب كمائن أعدّت له، وهكذا عاد إلى فرنسا، ذلك أن ملك انكلترا كان مليئاً بالاجرام إلى حدّ أنه نادراً ماكان صادقاً أو وفياً مع أي شيء كتبه أو قاله، فهو لم يحفظ لاوعوده ولاعهوده.

أرسل الملك جيشاً كبيراً إلى ويلز تحت قيادة أخيه وليم وإيرل تشستر، وقد عاث الجيش فساداً في محيط تلك البلاد، وقتل عدداً كبيراً من مختلف الناس، وقال كثير بأن نبوءة ميرلين قد تحققت في قوله: «سوف يهدم السادس أسوار ايرلندا» و«سوف تخضع بدايته لطبيعته المتقلبة»، وكان الملوك هم: وليم الأول، ووليم الثاني، وهنري الأول، وهنري الثاني، وبعد ذلك رتشارد، وكان السادس هو جون الذي استولى على ايرلندا، لكن كلّ بقية الأشياء كانت عبثية وبلا منفعة.

انتهى تاريخ جيرفاس بحوادث سنة ١٢١٠، وهي السنة التي توفي فيها، ويزودنا المؤرخ الواسع المعرفة، لكن المجهول، والمعروف باسم صاحب حوليات بارنول Barnwell بروايات ثمينة حول السنين الدرامية الأخيرة لحكم جون.

سنة إحدى عشرة ومائتين وألف

قاد ملك انكلترا جيشاً إلى ويلز ضد انـ«ليويليين » Lewellyna لكنه عاد مسرعاً، لأنه الويلزيين، خافوا من زحفه، فانسحبوا مع أمتعتهم إلى الجبال، ولهذا عانى الجيش الانكليزي من المجاعة، لكنه

بعدما جمع كميات كبيرة من المؤن، كـان الملك على الفور قادراً على القيام بحملـة أخرى ضـد ويلز، وفي هـذه المرة مع قوة كبيرة، ووفـرة من المؤن، وبذلـك فرض على الـويلزيين تقديـم رهائن له، وبعـدما نجح في تدبير أموره كما رغب، عاد مكللاً بالمجد.

ولم يكن الآن ولا واحد في ايـرلندا واسكوتلندا،أو ويلـز إلا وانحنى أمام إشـارته ، وهي حـالة ــ كما هو معلـوم ــ ما من واحـد من أجداده قـد حققها ، وبدا الآن ناجحاً تمامـاً ، ويمتلك مستقبلاً واعداً جداً لخلفائه ، فيما عدا إنه أخفق بشكل مروع في أراضيه الأجنبية ، وكان خاضعاً لحكم الحرمان الكنسي .

وبعثت روما باثنين من الرسل البابـويين لمصالحة الكنيسة الانكليزية ، لكنهما غادرا قبل أن يحققا أي سلام ، ولم يجلبا أية منفعة إلى التعساء .

وحـدث أن عـدداً كبيراً من الغـزلان تجمعـت مع بعضهـا في الغـابـة الانكليـزيـة المعـروفـة بـاسم كـانـوك cannock ، وبعـد كثير من الاضطرابـات المعويـة المزعجة، وكثير من الأنين رمـوا بأنفسهم إلى البحر عند مصـب سيفرن severn ، ووجدوا بين الغـزلان خشفاً لـه رأسين وثمانية أقدام.

وكـان هنـاك خسـوف تـام للقمـر يـوم ١٨ ــ تشرين أول. وتـوفي سمسون أسقف بري سينت أدموند، وروجر شحنه تشستر.

سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف

انتهت قـوة المغـاربـة التي تنامت بقـوة وفخـار كبير في الأنـدلس، لأن جيشهم قد سحق على أيـدي الأمراء المسيحيين، بعدما تـراجع في فوضى

وخوف، وعدل عن حملته الجريئة.

اجتمع الأطفـال في جميع مـدن فـرنسا مع بعضهـم ، وكان هـذا أمـراً مدهشاً لكل من رآهم ، وكـانوا حيثما ذهبوا ، يجتمع الأطفال ، وكأنهم لا يستطيعون البقاء منفردين ، بل يتـوجب عليهم التجمع على شكل كتل، وصحيح أن واحداً منهم لوحظ أنه كان في الخامسة عشرة من عمره، وهو من أهل باريس، لم يكن سواه ممن احتشد قـد تجاوز الثانية عشرة، وعندما سئل الأطفـال عما هم عـازمـون على فعلـه، أجـابـوا أنهم ذاهبـون لحمل صليب المسيح.

انتهت حـركة الأطفـال الغريبـة والعفوية بشكل مأساوي، فقـد أسر الجيش من قبل تجار الرقيق وبيعوا إلى المصريين .

شوهد رزاز من الدم في كين caen في نورماندي يو م السبت ١٠ـ تموز، وشوهـد في اليوم نفسـه في فالي ثـلاثة صلبـان معاً في السماء وكأنهم يتبارزون.

وسمح في انكلترا كلهـا للمـؤمنين الـذيـن اقتربـوا من نهايتهم بتنـاول قـربان الموت المقـدس لجسد مـولانا، وكـان هذا قـد طولب بـه من قبل الكهنـة في الديـرة، الـذين سمح لهم بـالاحتفال بـالقـداس المقدس مـرة واحدة في الاسبوع.

ووقعت في مدينة لندن نار غير اعتيادية ومرعبة على الضفة اليمنى لنهر التيمز، قرب كنيسـة كهنة سيدتنا في سـاوثورك Southwark وعندما عبر حشد كبير النهر، إما لإطفاء النـار، أو للمشاهدة، فجأة وقعت النار في الجزء الشمالي، بسبب أن الـريح الجنـوبية كـانت هـابة، وهكـذا حـدثت الاعـاقة بـاللهب المتصاعـد للـذين كانـوا يعبرون الجسر عائدين، ثم إنـه عندمـا تأثر الطـرف الآخر من الجسر بـالنار، بـاتوا محجـوزين، وكأنهم بين

نارين، وتعرضـوا للضغط من كلّ طرف على حدة، حتى باتـوا لايتوقعون سوى الموت.

ثم جاءت بعض السفن إلى عـونهم، لكن أعداداً كبيرة انـدفعت إليها بحماقة مما سبب غرقها وهلاك كلّ انسان، وعدّ هذا فاجعة كبيرة من قبل الشعب، ولقـد قيل بأن ثـلاثـة آلاف قـد مـاتوا إمـا في النـار أو في غـرق السفن، ويـبدا أن سوء الحظ الـذي كـان من المتوقع نـزولـه بانكلترا، قـد جلب دماراً أعظم على العاصمة.

وفي الـوقت نفسه حـدث شيء آخر جعل النـاس العقلاء منـدهشين، ففجأة وبـدون سبب محدد، انطلق بعض النـاس وكأنهم هجروا عقـولهم، وجالـوا من بلدة إلى بلدة في جميـع أنحاء انكلترا، ينفخون بـالأبواق التي يدعـوها الانكليـز النفر Hue وعندمـــا قيل إن هذا يمكن فقط أن يحدث لدى اللحـاق بالمجـرمين، وبما أنهم كانـوا لايلحقون بـأي انسان، توقعوا أنه سيكون هناك اضطراب أعظم في المستقبل القريب.

وكـانت السماء في الخريف، حتى ٨أيلـول، يـوم عيـد ميلاد مـولاتنـا، صافيـة، والطقس مشرقاً، ثم حـدث فجأة هطول مطـر مفاجىء ومتـزايد بدون تـوقف، وقد أحدث أضراراً كبيرة لحقت بالانكليـز، لأن ريح الشتاء كانت قوية إلى درجة أن حجارة الأبراج سقطت إلى الأرض.

وعندما وصل وليم ملك الاسكوتلنـديين إلى سن لم يعد قادراً فيها على تهدئة الأجزاء النـائية من مملكتـه، التي اضطربـت بقلاقل وحـرب أهلية، هرب هـو والملكة وابنهما الوحيد إلى الملـك الانكليزي ليطلبوا مساعـدته، وقدم الولاء إلى جـون، الذي رسمه فارسـاً، ثم ذهـب مع جيش توغل إلى أقصى أطراف المملكة، وأسر كوثرد Cuthred الذي عرف باسم ماكوليم، وكـان قائد العصاة، وشنقه، وكان ماكـوليم من أفراد أسرة ملوك السكوتلنديين القدمـاء، وكان مثله مثل أباه الذي قاتل لأمـد طويل ضد

الملـوك الحاليين، أحيانـاً بشكل سري، وأحيـاناً بشكل علني، لكن دومـاً بشكل عدواني، بـالاعتماد على مساعدة السكوتلنـديين والايرلنديين، ولأن معظم الملـوك السكـوتلنديين الحاليين كـانـوا متأثريـن كثيراً بالفـرنسيين، وهكذا حـدث أن الفرنسيين فقط عوملـوا بصداقة واحترام، بعدمـا جرى اخضاع اللغة والثقافة السكوتلندية.

وتشجع الأمـراء الويلـزيين من قبل البـابا، الـذي حللهم من كلّ من الاتفاقية التي عقـدوها في السنة الفائتـة مع الملك الانكليزي، ومن الولاء والأيمان التي قطعـوهـا على أنفسهم، وشرعـوا يقاتلـون الملك الانكليـزي مقـابل التسـاهل في تطبيق الحرمـان الكنسي عليهم في بـلادهم كلهـا، وانفجر الملك جون بغضب عنيف، فشنق الرهـائن، وحشد جيشاً للزحف ضدهم من جميع أجـزاء المملكة، ثم إنه عنـدما حشد جيشـاً عظيماً لم ير مثله قط من قبل في أيامنا، قضى الرب بهزيمة قواته.

ثم اضطـرب قلب الملك جـون، لأنـه كما قيل بـات بلا سلطـة، فقـد سمعت أقاويل واشـاعات تفيد أن البارونـات الذين اجتمعوا معاً كـانوا يتآمرون ضده، وانتشرت في كثير من المنـاطق حكايات تحدثت عن رسائل حللت البارونات من طاعة جون والـولاء له، وقيل بوجوب انتخاب ملك آخـر بدلاً عنـه، وأن جـون ينبغي طرده مـن المملكة، وإذا مـاقبض الملك عليهم فلسوف يعانون من الموت أو من السجن مدى الحياة.

وبعـدمـا أعلن الملك عن عـودته، بـدأ يتصرف بشكل سيء، وكـان لايذهـب إلى مكان إلاّ وهو مسلـح أو وهو مرافـق بقوة كبيرة من الـرجال المسلحين، وإثـر إلقـائه القبض على بعض من بـدا أنه قـريب جـداً من الثوار، استـولى بسرعة على قـلاع الإيرلات والبارونـات، لذلك كـان هناك عدم استقرار لبعض الوقت.

ثم إن بعض نبـلاء البـلاد باتـوا يخشـون إمـا من غضب الملك أو من

وسواس الضمير، لـذلك غادروا انكلترا بشكل سري، فقد جرى استقبال يوستاس دي فسكي Vesci في اسكوتلندا، وذهـب روبرت فتز ولتر إلى فـرنسـا، وإثر ذلـك تمت مصادرة مقتنيـاتهم وأمـلاكهم، كما أن قلعـة روبـرت في لنـدن، المسماة قلعـة ريمـونـد أزيلت من الـوجـود مع قـلاع وحصـون أخرى، ثم بـدأ الملك يقيم تقديـراً أعظم لشعبه، وظلت البـلاد صامتة.

حتى في وسط الأجـواء العدوانيـة، حرك جـون عملاً عظيماً ولـه ذكرى طيبة، فعندمـا شرع المشرفون على الغابات في إيـذاء الناس في أجزاء كثيرة من انكلترا، بزيـادة الضرائب المفروضة، ورأى الملك التعـاسة التي لحقت بالناس، وبّخهم تماماً، وأرغم الموظفين المسـؤولين عن الغابات أن يقسموا أنهم لن يستخـرجـوا من الضرائب إلا المبالغ التـي اعتادوا على جمعهـا في أيام أبيه.

وكبح الذين فـرضوا ضرائب جـديدة، والذين ضـايقوا النـاس بفرض أتاوات جديدة بحجة حراسة الموانىء، وتعـرضوا للرحالة والتجار، وألغى الأتـاوات الجديـدة، حتى يقـال بأنـه رحيم ومهتم بـالحفـاظ على شروط السـلام، واستعداداً منـه لإقامـة سلام مـع البابـا، انتزع من جميع رجـال الكنيسة التأكيـد بكل ماأخذه منهم، في كل منـاسبة من المناسبـات، منذ بداية حكمه، فبهـذه الوسيلة كانوا سيلطفون مطـالبهم كثيراً بشأن ماأخذ منهم، ولقد أكدوا المنح التي أعطوه إياهـا بصكوك مختومة، ومن ثم جرى ارسال الرسل إلى الحبر الأعظم، بكل طريقة كان من الممكن اتباعها.

ولقـد روي من قبل بعض النـاس، أنـه رأى رؤيا، أنـذر فيهـا بضرورة اصـلاح مسالكـه، وإلا فإنه كملك سيشعـر بـالانتقام الـرباني قبل نهايـة السنة.

وكـان هنـاك رجل يـدعى بيتر أوف ووكفيلـد Wakefield بسيطاً

ومتقشفاً يعيش على الخبز والماء، وكان قد ادعى للناس أن بإمكانه الاخبار عن المستقبل، وقد بشر بأن حكم جون لن يستمر أبعد من عيد الصعود المقبل، لأنه كشف له بأن الملك جون سوف يحكم لمدة أربع عشرة سنة، وأن هذه الأشياء التي بدأت خلال تلك الأربع عشرة سنة ستصل إلى نهاية سعيدة، وعندما سئل بيتر فيما إذا كان الملك سيموت أم سيطرد أو سيتنازل عن العرش، قيل بأنه رد عليهم بأنه لايعرف، والذي يعرفه فقط هو شيء واحد، هو أنه لن يحكم أية مدة أطول، لاهو ولاأي انسان من أتباعه لصالحه، مالم يقضي الرب بذلك، وهو لم يخف هذا عن الملك.

ونظر إليه في البداية على أنه أحمق، وسخر منه سجانوه على أنه مجنون، لأنه عندما كان يتجول في الساحات ينشر أفكاره، ألقي القبض عليه من قبل مؤيدي الملك، واحتفظ به في الاعتقال، وبدا أنه واثق من نفسه ومقدرها تقديراً عالياً، وبات يعتقد أن اسمه، الذي كان حتى وقت قصير غير معروف ومزدرى، أصبح الآن مشهوراً بإلقاء القبض عليه، وتكلم عن كلّ شيء، وأضيف كلّ يوم كلمات مزيفة من الناس العاديين إلى نبوءاته المزيفة، وعزي إليه كلّ يوم أقوالاً جديدة وأكاذيب قيل بأن بيتر هذا قد قالها في قلبه.

وكان هناك خسوف للقمر يوم عيد القديس مارتن، في ١١ تشرين الثاني، أثناء الهزيع الأول من الليل، وتوفي جون كومن Cumin أول رئيس أساقفة لدبلن، ونتيجة لهذا أصبحت المدينة من ممتلكات المملكة الانكليزية، ومات أيضاً موغر Mauger أسقفووركستر، وغيوفري أخو الملك، الذي كان رئيس أساقفة يورك في المنفى.

سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف

اشتكى الأساقفة الانكليز الذين كانوا في المنفى في فرنسا، إلى البابا، باسم الكنيسة الانكليزية، وتجاوباً من البابا مع شكواهم قرر الموافقة على وضع حد للشرور، فكتب إلى فيليب ملك فرنسا، وإلى أمراء تلك المناطق، أنه مالم يستسلم ملك انكلترا، عليهم القيام بتحرير انكلترا من حكمه بوساطة جيش قوي، ولم يعد هناك أدنى حاجة لرجاءات مطولة وإعذار وانذار، لأن الملك فيليب والأمراء كانوا ميالين لهذا النهج من العمل منذ زمن طويل، وذلك بسبب كراهيتهم لجون، وبسبب حبهم للمال وللذهب، لأن المتداول وقتذاك هو أن البلاد تلك زاخرة بالثروات.

وشجعوا بعضهم بعضاً، وأعدوا أنفسهم بكل شيء ضروري، ببناء بعض السفن وجمع أخرى من الشواطىء التي من حولهم، وقرروا أن الأسطول ينبغي أن يقلع معاً من ميناء واحد، وانتظر الملك الفرنسي شخصياً تجمع السفن في مكان ليس بعيداً عن البحر، وعندما جرى تقدير لحجم جيشه تبين أنه ضمّ مالايقل عن خمسة عشر ألف رجل، وتواردت السفن كلّ يوم على الموانىء والفرسان على القلاع.

وسمع ملك انكلترا بهذا، فحشد أسطولاً كبيراً من جميع موانىء انكلترا، وعين لسفنه رجالاً أشداء بارعين باستخدام السلاح، يمكنهم مع قوة كبيرة مقاومة هجوم العدو،وبذل جهوداً كبيرة لمقاومته، وإلحاق الضرر به وتعطيل خططه، وأقدم حتى على عرض تحرير الأقنان من أجل أن يتولوا الدفاع عن المملكة وحماية شخص الملك، وقد جاءوا لهذه الغاية مسلحين، واجتمع هناك حشد لم ير مثله في أيامنا، وقد وزعهم بين الموانىء، حيث الخوف من المخاطر وحيث السفن، واحتفظ بالجيش كله معه قرب دوفر، أما بقية الأسطول فانتشر قرب الشاطىء ليس بعيداً،

وأعدت الشواني مثل ذلك للحرب.

لكن قلب الشعب كان متذبذباً من السهل تحويله إلى هذا الجانب ثم نحو ذلك الجانب، وفي الوقت نفسه تبخرت شجاعة الرجال وتلاشت من الخوف ومن توقع وصول الأعداء الذين اعتقدوا أنهم سيصلون مع تيار المدّ المقبل، وأرعبت كلمات بيتر الكثيرين، لكن في يوم عيد الصعود، الذي قال بأنه سيكون يوماً حاسماً بالنسبة للملك بدأ العديد يراودهم الشك.

وفيما هم هكذا معلقين بسبب التوقعات، فجأة وصل جماعة من رسل الملك كان قد أرسلهم إلى روما في سنة خلت، جاءوا إليه مسرعين كثيراً، وأعلنوا أن قاصداً رسولياً بابوياً قد بعث معهم، وكان اسمه باندولف Pandulph وقد تطوع شخصياً للقيام بتنفيذ الأشياء التي أمر بها، وعهد إليه بها.

وكان الجانب الأعظم أهمية في أوامره: ينبغي أن يقسم قبل ١-حزيران أربعة من أكثر الرجال أهمية في المملكة، لصالح الملك ونيابة عنه بحضوره وبأمره، أنه إذا مابعث البابا رسالة اتفاق موقعة إلى الملك، يعد الملك بالشيء نفسه في رسائله المعتمدة، ويختم الاتفاقية مع رئيس الأساقفة والأساقفة. وإلا فإن وقت أقصى العقوبات وأشدها لم يأت بعد.

ماالحاجة إلى كثير من الكلمات؟ لقد ألهم الملك من قبل الذي بيده قلوب الملوك، وسعى لكسب السلام والحصول عليه، وكان الذين أقسموا على الاتفاقية المشار إليها والمكتوبة من قبل البابا هم:

رينو كونت أوف بولون، ووليم إيرل وارن Warenne ووليم إيرل فيرير Ferrers ووليم إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، وعندما كمل هذا وعد الملك الشيء نفسه في رسائله وفقاً للشكل الذي أقسم عليه هؤلاء الأربعة لصالحه.

وبمبادرة من الملك أضاف مايلي: ينبغي خضوع مملكته كلها، أي انكلترا وايرلندا للرب، وللحواريين المقدسين بطرس وبولص، وبرغبة منه وعن طواعية ومن أجل أن يتمم الاتفاقية، يجب أن يدفع هو وورثته ألف مارك سنوياً إلى البابوات كرمز على خضوعهم، أي سبعمائة مارك عن انكلترا وثلاثمائة عن ايرلندا، وذلك دون أن يؤخذ بالحسبان دفع بنس بطرس، وأقسم بالوقت نفسه يمين ولاء وتبعية للبابا انوسنت الثالث ولخلفائه من بعده، وتم الإعلان عن هذا كله أمام الناس على شكل رسائل معتمدة، نشرت على صورة مواثيق.

ثم أكدت الحوليات أن خضوع جون للبابا كان خطوة حكيمة، فذلك جعل من الصعب محاربته خوفاً من ردات الفعل الانتقامية للبابا.

وأخذت الأمور تتحسن الآن بالنسبة لجون، فتحالف مع كونت فلاندرز ضد فيليب الثاني ملك فرنسا، وهزمت سفنه الأسطول الفرنسي في معركة بحرية، غير أنه بقي معوقاً في بولون خشية منه أن تصبح نبوءة ووكفيلد عن موته حقيقية.

ثم جاء يوم عيد الصعود، في ٢٣-أيار، الذي علقت عليه آمال كثيرة، وبأمر من الملك نصبت خيمته في المعسكر في بولون، وتركت مفتوحة تماماً، وجرى قداس عام لإمضاء نهار العيد على شكل وقور مع الملك، وكان نهاراً جميلاً، بالنسبة لبهجة الملك وسروره نفسه، مع الأساقفة والبارونات الذين اجتمعوا هناك، ومضى النهار بصحة تامة وسعادة، واعتقد الآن الذين وضعوا ثقتهم في بيتر أنه أحمق، وأنهم خدعوا بعقل ساذج، فقد توقع نهاية الملك يوم ٢٣-أيار، في حين أنه حسبما كشف له برؤياه، ينبغي أن تنتهي الأربع عشرة سنة لحكم الملك يوم ٢٧-أيار، وباتوا الآن أقل ميلاً لتصديقه.

وعندما حلّ يوم ٢٧-أيار، وهو اليوم الذي توج فيه الملك قبل أربع عشرة سنة، مرّ النهار بسلام، وبات الوقت متأخراً بالنسبة للذين صدقوا النبوءة حتى يتراجعوا عن اعتقادهم وتصديقهم الساذج، ولم يكن هؤلاء الناس من بين أوساط الناس العاديين، لكن كانوا من بين النبلاء وحكماء العالم وعقلائه.

واقترح على الملك في الوقت عينه، أن بيتر قد سبب انتشار الفوضى في البلاد، وعمم الرعب والقلق بين الناس، وأن هذا قد شجع أعداء الملك، لأن كلماته قد حملت إلى أقصى أجزاء فرنسا، وعدّت بمثابة تحريض على غزو انكلترا، وأغضب هذا كله الملك، لذلك أمر بوجوب شنق بيتر، وزاد على هذا بأن ابنه الذي كان مسجوناً معه ينبغي أيضاً أن يشنق، خشية إما انه كان شريكاً في نبوءات أبيه، أو انه هو الذي صنعها.

ثم عندما رأى الملك أن مملكته تعيش بسلام، وأن مامن شيء يخشى من جانب الفرنسيين، سعى إلى نقل كلّ تجهيزاته الحربية إلى بواتو، لكن كثيراً من النبلاء أصغوا بدون رغبة لاقتراحه، وكانوا غاضبين تجاه القيام بحملة طويلة الأمد، ليس من السهل عليهم تحملها لأن خزائن أموالهم كانت منهكة.

وهكذا أعيقت نوايا الملك، وبما أنه عدّ البارونات هم المحرضين على ذلك والمسببين، كان لابد وأن ينتقم فيما بعد، لولا أنه منع بتدخل الأساقفة ورئيس الأساقفة.

وعاد من القارة في شهر حزيران: ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة: وليم أوف لندن، ويوستاس أوف إيلاي، وجايل أوف هيرفورد، وجون أوف باث، وكانت عودتهم من منفاهم مع جميع رجال الدين والعلمانيين الذين كانوا بالمنفى معهم، وأعيدت جميع مقتنياتهم إلى كلّ واحد منهم كاملة، مع صداقة الملك، وبعد وقت قصير جرى تحليل

الملك من الحرمان بشكل علني وطقوسي مهيب من قبل رئيس أساقفة كانتربري تبعاً لعادات الكنيسة، وبعدما تلقى قبلة السلام من رئيس الأساقفة نفسه ومن بقية الأساقفة، اقتيد إلى داخل الكنيسة ليشارك بالقداس، ونفذ هذا وسط بهجة عظيمة من كلّ الناس.

وفي هذه الآونة ألهم الرب البابا انوسنت الثالث ليوجه حملة صليبية لمساعدة بلاد القدس ولتقدم الكنيسة الرومانية، ولأن بعضاً من متقدميه قدم في وقت مضى العون إلى الأراضي المقدسة، بدا غير لائق، أنه وهو الذي لم يكن أدنى قوة ولاحماساً في عمله، أن يظهر أقلّ فاعلية فيما تولاه، ولاحظ على كلّ حال أن الهرطقة في تلك الأيام كانت رافعة رأسها، وأن عدداً كبيراً من الأمراء كانوا محرومين كنسياً، وكثيراً من البلدان كانت أيضاً تحت عقوبة الحرمان الكنسي أيضاً، لذلك كان من الصعب عليه حشد حملة صليبية، وبما أن كثيراً من الأشياء الغريبة قد نمت في كرم الرب، توجب ضرورة بترها، لانقاذ الانجيل، ولهذا دعا البابا إلى مجمع عام ليتولى صياغة هذه المهمة، وبعث بكثير من الرجال ذوي الفعالية من عنده، ليبشروا بالكلمة المتعلقة بتحرير الأراضي المقدسة، وجميع أجزاء العالم الروماني، ولاكتشاف ماهي الأخطاء المتوجب تصحيحها.

*غدت فرقة كارثر **Carthar** الهرطقية قوية جداً في لانغدوك **Languedoc** ودعا البابا انوسنت الثالث لحملة صليبية، استهدف أن تتوجه بشكل خاص ضد ريموند كونت طولوز، الذي اعتقد أنه مؤيد للهرطقة، وكان أعظم الشخصيات مكانة في القوات الصليبية هما: كلّ من سيمون دي مونتفورت والأمير لويس، ابن فيليب الثاني ملك فرنسا، واستمر الصراع العنيف والهمجي بشكل متقطع حتى سنة ١٢٢٩، وسبب دماراً مريعاً في لانغدوك، وجعل المنطقة تحت اشراف التاج الفرنسي.*

ثم حدث أن جاء إلى انكلترا المبعوث البابوي نيكولاس أسقف توسكولوم Tusculum وكانت هناك عدة أسباب لبعثته هي: على الملك أن ينفذ بحضوره الوعد الذي قطعه للكنيسة الرومانية المقدسة، وتمّ تنفيذ ذلك. ثم في حوالي ٢٩-أيلول، أبرم الملك اتفاق تبعية مع نيكولاس بحكم كونه الممثل للبابا، وأعطاه أيضاً صكاً مختوماً بالذهب، وألف مارك، وهو المبلغ المقرر دفعه سنوياً، وجاء دفعه بمثابة دليل على طاعته، ثم استقبله الملك وأصغى إليه بشكل مفتوح.

وعندما صنع هذا كان جون قد بدأ بإزالة العادات الشريرة من مملكته، وذلك بناء على نصيحة من الأساقفة وتحريض، فقد منع تحصيل المال بالعنف، وألغى المكوس المؤذية التي فرضها عماله وموظفوه، وكان هذا بسبب أن العمال والموظفين الأدنى، كانوا عندما يجمعون الضريبة السنوية، التي يحق لهم وحدهم جمعها، كانوا يستخرجون المزيد من المال من فقراء المقاطعات، وقد عزل الذين مارسوا الشره، وعيّن آخرين، ممن كانوا على استعداد للأخذ بنصائح الرجال العقلاء، وممن كانوا سيعملون لصالح أبناء بلدهم من الريفيين بسلام وهدوء وليس بالغش بالمال، وزاد على هذا أنه أقام مساءلة دقيقة حول هذه المسألة، حتى يعرف كم من المال المستخرج من قبل وزرائه قد تسلمه هو بالفعل، لكن هذا لم يكمل قط لأن الرعب والاضطراب تدخلا، عندما جرى استدعاء جميع الرجال إلى حمل السلاح بسبب التعرض للغزو الفرنسي.

وخلع النائب البابوي راعي دير وستمنستر، وراعي دير ايفشام.

وكانت هناك اجتماعات متعددة بين الملك والأساقفة بشأن عقد مجمع للكنيسة، لكن عندما لم يكن هذا من الممكن عقده، استمر الحرمان إلى السنة التالية. وجرى استدعاء ملك أراغون من قبل بعض رجاله لتقديم العون لهم ضد سيمون دي مونتفورت، قاهر الهراطقة، فقد قتل بالمعركة من قبل الصليبيين مع كثير من رجاله، وعدد كبير من

الهراطقة غير المشهـورين. ومات غيـوفري فتـزبيتر، رئيس هيئة العـدالة في انكلترا.

سنة أربع عشرة ومائتين وألف

عبر ملك الانكليـز إلى بواتو مـع جيشه في بـداية شباط، ومكـث هناك حتى أيلـول، واسترد جـزءاً واسعـاً من الأراضي التي اغتصبهـا فيليب، ملك فـرنسا، في وقت مبكـر، وتصالح مع عـدد كبير من أعيان الـرجال، وقاد هؤلاء معه في الجيش.

وطلب فيراند، كونت فلاندرز، بعدما طُـرد من مقاطعته بوساطة الملك فيليب، ملك فرنسـا، العون من أوتو الـرابع، امبراطور الألمان، ومن الملك جون، وأبـرم معاهدة معهما، ونظـراً لوثوقه بعـونهما عاد إلى فلانـدرز، وهو ينوي استرداد كلّ شيء من أيـدي الملك الفرنسي، بـوساطة قـوات هذين الرجلين الـلامعين، وكذلك خاصـة مساعدة وليم، ايـرل أوف سالسبري، الذي هـو أخو الملك، ورينو كـونت بولون، فقد جـاء هذان الرجـلان معاً لمساعدة فيراند مع جيش كبير.

وعندما بعث الملك الفرنسي ابنه لـويس ضد فلاندرز، التي احتشدت فيهـا أعـداد كبيرة من البشر مع بعضهـا، ثم إنـه بعـدمـا طـوقت حـدود فـلانـدرز، ونظمت العسـاكـر وعبئت، وقعت المعـركـة عنـد جسر بـوفين Bouvines بين مـورتين وتورنـاي، يوم الأحـد في ٢٧-حـزيران، وبعـد مقتل أعـداد كبيرة في الصراع، أمسك الملك الفـرنسي برايـة النصر، ووقع بالأسر المحـاربين المتميزيـن التالين: بلـوتو Pluto وفيراند كـــونت فـلاندرز، ووليـم أوف سالسبري، ورينـو أوف بـولون، وكيـل أوتو، ومـائة وخمسين من الفرسان الآخرين ذوي المكانة الرفيعة.

وبعد هـذا حشد الملك فيليب جيشاً ضد ملك انكلترا، لكن بعـدما تدخل القـاصد الـرسولي، عقـدت هدنـة بينهما لمدة خمس سنوات، وذلك لصـالح الذين اقترحـوا القيام بـالرحلـة إلى القدس، وعنـدها عـاد الملك فيليب إلى فرنسا، ورجع الملك جون إلى انكلترا.

وعامل في الوقت نفسه أسقف توسكولوم Tusculum الذي عمل كقـاصد رسـولي بين الشعب الانكليـزي، الملك بمنتهى اللطف، وعـالج شـؤون الكنيسة بأخـلاق رضية، ومن أجل تأخير إقـامة سـلام بين الملك والأسـاقفـة، تـوصل إلى اتفـاقيـة مع وزراء الملك فيما يتعلق بـالكـراسي الكنسيـة الشاغـرة والديـرة، وتلقى سفراء البـابويـة الذين انتخبـوا لهذه الكراسي رسـائل تتعلق بالـدين المدان به الملك للكنـائس كتعويض على نفيهم، أي أن عليـه أن يدفع تعـويضات قليلـة كلّ وقت في أثناء السنـة المقبلة، وإذا ماتعهد الملك القيـام بهذا العمل، عندها ينبغي رفع الحرمان عن انكلترا، وكان هذا مـاجرى تنفيذه، ورفع الحرمان بوسـاطة مجمع عقد في لندن، وذلك بعدما قدم الملك تـرضيات حول هذه المسألة في ٢-تموز، وكان ذلك بعـد ست سنوات، وثـلاثة أشهر، وستـة عشر يومـاً من تاريخ فرض الحرمان.

وإثر عـودة الملك من بواتـو مباشرة، جـرى استدعـاء نيكولاس أسقف تـوسكولـوم من مهمتـه كقـاصد رسـولي، من قبل البـابـا، حيث قيل بأن المهمة ينبغي أن تطبـق في انكلترا بنشاط أقل، ثم عندمـا لاحظ الملك أن الذي اعتمد عليه قد سحب، لذلك كـان أكثر سلمية وتصالحاً في تعامله مع الأساقفة، وبعدمـا أرضاهم مباشرة فيما يتعلق بجميع الأذى والأضرار، أعطـاهم بمثابـة تعـويضـات كثيراً من التكريمات والتشريفـات والمزارع، وأزعن في هذه الآونة لتسليم أسقفية روكستر إلى رئيس أسـاقفة كانتربري، ورعويـة دير ثـورني إلى أسقف إيلاي، أي أن تقـول أرضهم، مادام الملك يملك الحق في فعل ذلك.

وأمسكت أسماك ذات مظهر غير طبيعي في انكلترا، وبدت وكأن على رؤوسها خوذ وتحمل ترسة، وبدت إلى حد بعيد وكأنها جيش من الفرسان، مع أنهم كانوا أكثر عدداً بكثير.

ومات غلبرت أسقف روكستر، وكذلك جون أسقف نوروك، وهو عائد من روما حيث كان يتباحث من أجل الملك، ومات أيضاً وليم ملك السكوتلنديين.

وفي حوالي ٨-أيلول، يوم عيد ميلاد العذراء مريم المباركة، ثار البحر وتدفقت مياهه بفيضان غزا الشاطىء وسبب كثيراً من الأضرار في انكلترا.

وقام نزاع بين الملك جون وبين بعض نبلائه فيما يتعلق بتعويض البدلية العسكرية التي طلبها منهم، والتي رفضوا دفعها، كما ورفضوا اتباعه إلى بواتو، ورفض بعض البارونات الشماليين —وهم النبلاء الذين أعاقوا في سنة منصرمة عبور الملك إلى بواتو— قائلين إنه لايتوجب عليهم اتباع الملك إلى خارج البلاد في مقابل الأراضي التي في حوزتهم منه في داخل انكلترا، كما لاينبغي عليهم مساعدته في البدلية العسكرية، ومن جانب آخر طلب الملك المساعدة التي أعطيت إلى التاج في أيام أبيه وأخيه، والتي كان من الممكن استمرار دفعها لولا تدخل القاصد الرسولي، وأحضر البارونات ميثاقاً بمنحهم بعض الحريات من قبل هنري الأول، وطالبوا بتأكيدها لهم من قبل الملك.

سنة خمس عشرة ومائتين وألف

اجتمع في لندن البارونات الذين طالبوا بميثاق الحريات مع شركائهم، وقيل كان من ضمنهم بعض الأساقفة، وقابلوا الملك.

وعنـدما طلـب الملك إزالة العـدوانيـة في النزاع الجديـد لم يصغ إليـه بأدب ولطف، لسبب بين أسبـاب أخـرى: مـرّ زمن طـويل حيث امتلك نوايـا مختلفة في قلبه، وبعـدما تدخـل بعض الأفراد، حدد مـوعد للملك ليعطي جواباً نهائيـاً، وكان ذلك ٢٦نيسان، وأكد الملك للنبلاء كتـابة انه إذا لم يعط جوابـه في ذلك اليوم، عنـدها يمكنهم مغـادرته واحـداً واحداً والعـودة إلى أراضيهم، وعنـدمـا نشر هـذا الميثـاق، وافق كلّ انسـان على مـاقترح فيـه، وكـان الجميع على قلب واحـد وإرادة واحـدة: أي أنهم مكرسون للدفاع عن بيت السيد، ويقفون مع حرية الكنيسة والمملكة.

وقـرر الملك من جـانبه، انـه طـالما هذا قـد صنع، على كلّ النـاس في انكلترا كلها أن يقسموا له انهم سيقفون معـه ضد جميع الناس وضد هذا الميثاق، وذلك بالاضافة لليمين المعتاد، وعنـدما لم يصغ إليه عن طواعية، وبدأت التعليـلات والاعتذارات تعمل، وتوقف عما بدأ بـه، ولكي لايدع وقتاً لتحريك ثـورة بين الشعب، أرسل حينها رسلاً إلى البابـا يشكون إليه أن الشعب استعد للقيام ضده، وذلك على الـرغم من أيمانهم بالتبعية له، وعرف من خلال بعض رفاق الرسل أن هـذا كان قد تقرر قبل أيام كثيرة، ومن جانبهم تشكى البارونات ضد مكوسه غير العادلة، وضد طغيانه.

ومات في تلـك الآونة يوستـاس أسقف إيـلاي، وكان رجلاً صـاحب سلطان عظيم، وعلى نصيحته اعتمد —كما قيـل— شطر أساسي من هذه المباحثات.

وحمل الملك الصليب في لنـــدن من وليم أسقف لنـــدن، ومع الملك وبعده فعل الشيء نفسه العديد من أتباعه، وبعضهم فعل ذلك بناء على تحريضه، ولقـد أعطاهـم صليباً أبيض، حسبما جـرت العادة في أيـام أبيه وأخيـه، لأن هناك عـادة قـديمـة بأن الانكليز كـانـوا يتميـزون بالصلبـان البيضـاء، وتميـز الفرنسيـون بالحمـراء، وفسر بعض البارونـات عمله بشكل مفاجيء، وقـالوا إنه لم يفعل هـذا بدافع التقـوى ولاالحبه للمسيح، ولكن

من أجل أن يحرمهم من اتخاذ قرار، وسمعوا بأنه استدعى أجانب لمساعدته، فاجتمعوا مع بعضهم ولم ينتظروا حتى يوم ٢٦ نيسان، الذي جرى تحديده.

وعندما ردّ الملك بقسوة على البارونات، بوساطة رسله، عزموا على عدم التعامل معه بالسبل السلمية مرة ثانية، وعاد كلّ منهم مسرعاً إلى أراضيه من أجل تحصين قلاعه ولطلب العون، وبدأوا يعدون الخيول والسلاح.

وبناء عليه اجتمعوا مع قوة عظيمة في أسبوع الفصح، وذلك توافقاً مع الاتفاقية التي عقدوها، وجاء معظمهم من المناطق الشمالية، ولهذا عرفوا باسم الشماليين، ثم زحفوا إلى نورثأمبتون، دون القيام بأي عمل عدواني، وذلك باستثناء الظهور بالاستعداد للحرب، وانضم إليهم هناك غايل Giles أسقف هيرفورد، وغيوفري دي ماندفيل، وروبرت فتز وولتر، مع آخرين كثر من الذين كان لديهم بشكل رئيسي شيء ماضد الملك.

وحاول بالوقت نفسه الملك أن يستردهم إلى صفه من خلال كثير من الرسل، وكان هناك نقاش كثير فيما بينهم، وشغل رئيس الأساقفة والأساقفة وبارونات آخرين دور الوساطة، وكان الملك نفسه مقيماً قرب اكسفورد.

وفي نهاية هذا المؤتمر، الذي انعقد ليس بعيداً عن بريكلي Brack-ley أرسل البارونات رسائل تحدي للملك، ثم غادروا ومعهم رجالهم عائدين إلى نورثأمبتون، وفيما أعلامهم ماضية أمامهم أعدوا أنفسهم للقتال، وبعدما أغلقوا الأبواب وركزوا الحراس عند الأسوار بدأوا بالهجوم على الحصن الذي كان في المدينة، لكنهم أعيقوا لأنه لم يكن لديهم آلات ومعدات حصار، ولهذا أرسلوا إلى مؤيديهم في كل من

القرب والبعد بوجوب حضورهم وجلب قواتهم معهم.

وجلبـوا إلى صفوفهم عـدداً كبيراً، خـاصة مـن الشباب، أي من أبنـاء وأحفـاد البارونـات الـذين رغبـوا في صنع اسم لهم في الحرب، وانقسمت البيـوتـات على بعضها عـدوانيـاً، فقـد وقف الآباء والشيـوخ إلى جـانب الملك، في حين وقف الأبناء والشبـان مع خصومـه، ونعرف حتى بعضهم ممن عبر إلى الجانب الآخر حباً لأبنائهـم، وكانت هنـاك الجماعـة التي لم تنضم إلى الثوار في البـداية، لكنهـا فعلت ذلك فيما بعد، إمـا لأنها كانت صديقـة للسعد، أو لأنها كانت ممن يحب الأشياء الجديـدة، ولقد قيل بأن كلّ من الاسكنـدر ملك الاسكـوتلنـديين وللـويلن Llewellyn أمير شمالي ويلز، كانا على عهد معهم.

ودعـا في هذه الأيـام رئيس أساقفـة كانتربـري إلى مجمع ديني اقليمي يعقد في اكسفورد، وبعدمـا وصل بعض الأساقفة تأثرت المداولات الجادة باضطرابات المملكة، لذلك غادروا.

وعندمـا اجتمع الذيـن تقاطروا في قـوة شديـدة، اتهموا الملك بـأشياء كثيرة، وبعدمـا اتهموه أدانوه، وقـالوا بأنهم لايجوز أن يبقـوه ملكاً، وجمعت أصواتهم قـوة، وقامـت مؤامرة قـوية ضـده، وجرى تعيين قـادة للجيش، أطلق عليهم اسم قـادة (مـارشـالات) جيش الـرب، وبعـد مضي وقت قصير زحف حـوالي الخمسمائة فـارس نحـو لنـدن، وكـان النهـار الأحـد، والنـاس في الكنـائس، وفي تلك الأثنـاء، تقـدم بعضهم أمـام البقيـة مع بعض الشركـاء من المدينة، وزحفـوا خلسـة نحو الأسـوار، وتسلقوهـا، ثم فتحوا الباب الأول فـالباب الثاني، وسمحوا لـرجالهم بالدخـول، وقد قيل بأن رجال الملك كانوا وقتـذاك مع الجزء الأكبر من سكان المدينة جاهلين بما كان يحدث.

وهل هناك المزيد لقوله؟

وأسروا الذين قاوموهم، وانضم إليهم البقية، فغدت المدينة في أيديهم، وأقاموا دوريات الحراسة فوق الأسوار.

واحتشد في هذا الوقت عدد من الناس، تقودهم الروح نفسها، واجتمعوا مع بعضهم في دوفن، وقاموا أولاً باحتلال المنطقة الخارجية للمدينة ثم اختبأوا إثر هذا في الغابة، لكن عندما علموا أن بعض الناس قد استولوا على عاصمة المملكة، خرجوا من الغابة واندفعوا بقوة لاتقاوم، فاستولوا على بيوت الملك، وبعدما نهبوها وأفسدوها مع حدائقه، انفرجت أسارير الكثير من القلوب، فقتلوا في كلّ مكان واقترفوا أعمال نهب وسلب، وانفجر الاضطراب في نورثأمبتون، وتم قتل عدد كبير من رجال الملك الذين كانوا متمركزين هناك على أيدي سكان البلدة، وبعد عدة أيام أكلت النيران الشطر الأكبر من البلدة.

ثم جمع الملك المساعدات حتى يكون قادراً على الحفاظ على ذاته بسلام، وحصن حصونه وقلاعه، وشحنها بالرجال والمؤن، ثم أرسل بعض الرسل سراً إلى الأجزاء الأجنبية لطلب العون من الأمم الأخرى، وأرسل رسلاً آخرين إلى البابا، يشكو بحرقة هؤلاء الذين قاتلوا ضده، ولم يثق البارونات برجال الملك الذين كانوا في لندن، والذين كانوا مايزالون يفكرون بالأمر، ولم يتخذوا قرارهم، لهذا بدأ البارونات بإنشاء آلات الحصار والشروع بحصار الحصن الذي يعرف بقلعة (برج) لندن، وسمع بهذا الذين كانوا مايزالون في الأجزاء الشمالية من البلاد، فشرعوا بالقوة والإطراء يعملون في سبيل الاستيلاء على المواقع هناك، وبعدما حشدوا جيشاً قوياً، احتلوا لنكولن في أسبوع أحد الشعانين، واستعدوا حتى لحصار القلعة، التي ظلت صامدة.

وبعدما رأى الملك أنهم قد حشدوا قواهم، بدأ من خلال بعض الناس، وخاصة من خلال رئيس الأساقفة، الذي احترمه كثيراً، يسألهم إقامة سلام، ووعدهم بصدق، أنه ليس هناك من شيء سوف لن يفعله

لصالحهم، مقابل الحصول على السلام، واتفقوا على مكان يمكن للفرقاء الاجتماع به بشكل موائم، وبعد كثير من المداولات اتفقوا على عقد سلام مع الملك، وقد أعطاهم كلّ ما أرادوه وأكد هذا في ميثاقه.

كان هذا ميثاق مرسوم اصلاحات، وقد قصد منه، على الرغم من الايماءات العابرة إلى الطبقات الدنيا، حماية البارونات ضد الطغيان الجشع للملك جون.

واستقبل الذين جاءوا هناك بقبلة سلام، وجددوا يمين التبعية، وأكلوا وشربوا معاً، وحُدد يوم لاتمام السلام، عندما يتوصلون نهائياً ويحققون ماعقدوا عزمهم عليه، وأعاد الملك بشكل مرضٍ العدل إلى كلّ مكان، ورفع الحصارات التي كان قد بدأها، وسلم وتخلى عن البيوت والقلاع التي استحوذ عليها بيديه، أو التي كان أخوه رتشارد قد أخذها وهي قلاع:

ماونتسورل Mountsorrel وروكنغهام Rockingham وكولشستر Colchester وعدد كبير آخر، وجرى على الفور الإعلان عن سلام عام، وتوقف الذين كانوا في لندن، والذين كانوا في لنكولن عن الأعمال العدوانية.

وسويت المسائل واستقرت الأمور، لكن ياللأسف انبعثت مشكلة جديدة أسوأ من الأولى، وسببها العدو الذي يكره السلام ويصنع الاضطرابات، ففي أثناء المحادثات ذهب بعض البارونات من وراء الهمبر Humber وتخلوا عن التسوية، وجددوا الأعمال العدوانية، بحجة أنهم لم يكونوا حضوراً، وخلقوا فوضى، وبدا أنهم يستهدفون الآن ايجاد الفرصة لإزالة الصداقة التي دشنت، لأن الملك نفسه لم يثق بهم وهم رفضوا الاقتراب منه .

وجرى استقبال بعض الثوار الآخرين من قبل اللندنيين، وبدأوا بترميم

الدفاعات الفئوية، وحصن آخرون القلاع التي كان الملك للتو قد تخلى عنها، أو التي كانت بحوزتهم وكأنها ملك وراثي لهم منذ زمن طويل، وكان هناك آخرون قاموا حتى ببناء حصون جديدة.

وجرى بالوقت نفسه تداول نسخ من الميثاق في البلدات والقرى، وكلّ من رآه وافق عليه، وكان الملك هو الذي أمر بذلك.

ثم أرسل الملك رسله إلى المقاطعات لينبه العمال بالعمل على حفظ السلام، لأن عملهم هو حفظ السلام في المقاطعات، ومراعاة الشؤون الملكية، لكن عندما وصل الرسل إلى الأجزاء التي كان فيها النبلاء المذكورين أقوياء، بعضهم ألقي القبض عليه، وطرد بعضهم الآخر من دون أذى.

وعندما سمع الملك بهذا توجس أن اليمين الذي توجبت مراعاته لها قصد به جانبه، لأن الميثاق قال ينبغي ارغام الملك على مراعاة شروطه، وبسرعة بعث برسل آخرين إلى البلدان الأجنبية، وأرسل مستشاره رتشارد مارش إلى البابا، الذي عقد اجتماعاً دائماً للكرادلة للعناية بمصالحه.

وعرض جون قضيته لأن مجمع اللاتيران كان وشيك الانعقاد، ولأنه عرف أن بعض النبلاء كانوا يتآمرون من أجل خلعه، وحاول بوعود كبيرة أن يربح إلى جانبه الملك الفرنسي، لكنه أحبط، لأن الآخرين الذين أعطاهم الملك الفرنسي وعوداً سرية ومساعدات كانوا قد سبقوه، ولأنه كانت هناك عداوة بينه وبين الملك الانكليزي منذ وقت طويل مضى، باستثناء الأوقات التي كانت تتمتع بالهدوء بسبب الهدن.

ومن جديد كان هناك الكثير من النهب وأعمال السلب، ومكث الملك في أماكن حصينة، بينما تجول البارونات بكل حرية ذهاباً وإياباً عبر المنطقة، لكن حتى الآن لم يقتربوا من الشعب، ولم يتعرضوا له لأنهم رأوا أن وقت الحصاد قد اقترب، وركزوا على نهب جميع المزارع الملكية

بقدر الإمكان، وكذلك البيوت التي كانت بالشمال، وأفرغوا الغابات ببيع الأحراش وقتل أعداد هائلة من الحيوانات البرية.

وعندما رأى رئيس الأساقفة وجميع الأساقفة أن البلاد آيلة للدمار، ذكّروا الآن الملك، وفي آن آخر البارونات ،لإقامة السلام، ولدى رؤيتهم أن كلّ من الثوار والملك قد أعدوا أنفسهم للسلام، وباتوا جاهزين لذلك، تقرر أن يجتمع الملك ومعه رجاله في اكسفورد، والبارونات ورجالهم في بريكلي، وتحدد موعد ذلك يوم ١٥-آب، وهو عيد رفع مريم العذراء المباركة إلى السماء، وهناك يسير الوسطاء فيما بينهم، وعندما يكملون عملهم سيكون بإمكانهم إماتة خلافاتهم، ودفن عداواتهم.

واجتمع في اليوم المحدد جميع الأساقفة والبارونات قرب اكسفورد، واصطفوا على شكل صفوف معركة، وأرسل الملك معاذير بوساطة رجاله قال فيها إنه عندما جاء إليهم، جاء لالرفض أي شيء، لكن بعد السلام الأول لحق به إيذاء عظيم، وأضرار بالغة، ينبغي تصحيحها، وهاهم جاءوا في هذا اليوم، عندما كان من المؤمل القدرة على بناء سلام، مسلحين، ومعهم حشد هائل، لذلك بات غير أمين أو ينصح بالسماح بالوصول إلى الملك.

ثم جرى إعلان قرار الوصاية البابوية، وقد أمرت رئيس الأساقفة وأساقفته أنه يتوجب عليهم حرمان المتمردين على ملك انكلترا وعلى أعدائه، وكذلك عليهم القدوم لحضور مجمع اللاتيران، تحت طائلة الحرمان المؤقت، وجرى تفويض أسقف ونشستر، وراعي دير ردنغ، وباندولف نائب رئيس الشمامسة في الكنيسة الرومانية، الذي كان صديق البابا، بتولي أمر تنفيذ قرار الوصاية هذا، وكان هذا هو راندولف نفسه، الذي تولى قبل عامين مصالحة الملك مع الكنيسة الرومانية، وكان أيضاً قد بذل جهوداً عظيمة على صعيد الجانبين حتى يجدد دفع بنس بطرس، ولكي يعيد الملك إلى الكنيسة الرومانية، وبهذا وجد مكاناً بين

الانكليز وجرى انتخابه أسقفاً لنوروك.

ونظراً لانتشار أقاويل بوجوب تخلي الملك عن المملكة، لأنه بدا أنه لاتتوفر ثقة بحكمه، فإن المناقشات بين الأساقفة والبارونات استمرت لمدة ثلاثة أيام، وذلك بهدف تعليق قرار الخلع على الأقل، وجاء الأساقفة بالوقت نفسه إلى الملك وطلبوا منه حضور مفاوضات استسلام في لندن أو في بلدة تدعى ستين Staines واتفقوا أنهم سوف يجتمعون هناك.

وعندها عاد البارونات إلى لندن حيث عاش بعض شركائهم، وعلى كلّ حال لحق الأساقفة بالملك بالسرعة القصوى إلى بورتماوث، وبصعوبة بالغة كانوا قادرين على ارجاعه من السفينة التي ركبها، ولم يتمكنوا من تحقيق أي شيء تجاوز أن عليه ارسال بعض رجاله لمرافقة الأساقفة، لأن الرجال احتجوا أثناء الاستماع لشهادات الأساقفة وأتباعهم، وقالوا إنهم لن يبقوا مع الملك حتى يجري إبرام اتفاق للسلام.

ولهذا اجتمع الأساقفة والبارونات معاً كأنهم رجل واحد في ستين، يوم ٢٨-آب، وبعد كثير من المداولات، وبما أن الخطر هدّد الأساقفة صدر قرار الحكم ضد مثيري القلاقل للملك وللمملكة، وذلك تماشياً مع قرار الوصاية البابوية، ومع ذلك قال كثيرون: كان من المتوجب اصدار قرار الحكم ضد الملك نفسه، لأنه هو الذي سبب القلاقل للمملكة، ولذلك ينبغي طرده.

ثم عاد البارونات إلى لندن، ليس بلا فخار، واقتسموا فيما بينهم أنفسهم ذلك الجزء من المملكة الذي بدا الآن أنه تحت سلطانهم، فقد أعطيت اسكس إلى غيوفري دي ماندفيل، ونورثامبتون إلى روبرت فتز وولتر، ونورفولك وسفولك إلى روجر دي كريسي Crescy وكونتيتي: كمبردج وهنتنغدون إلى ساهر Saher إيرل أوف وينشستر، وكونتية لنكولن إلى وليم دي ألبيني، وكونتيتي: يورك ونوتنغهام إلى جون مفوض

الجيش في تشستر، ونورثأمبرلانـد Northumberland إلى روبـــرت دي روس Ros وتـوجب أن يظهـر كلّ واحد منهم نفسـه قـــادراً على توفير العدل والسلام للمنطقة التي عهد بأمر العناية بها إليه.

وأعلن بعـد عدة أيـام بأن الملك مع الأجانب الكثيرين الـذين قدموا لمساعـدته، قد جمعوا جيشـاً قرب دوفر، حيث بدا لـه من الموائم أن ينتظر هناك الآخرين الذين أمل بقدومهم.

وبما أن البارونات خلعـوه ورفضوه، بدأوا الآن يبحثون مسـألة انتخاب ملك جديد، ولما كان الصحيح المتوجب إتمام هذا بموافقة المملكة كلها، دعوا إلى اجتماع حاسم، وادعوا وجـود خطر حقيقي، ورددوا تلاوة الأيمان التي أقسمت، ورسمـوا بـوجـوب اجتماع جميع النبـلاء في مـوعـد محدد ومكـان عيّن من قبل، وحـدث إثر هـذا، أن البـارونات الـذين لم يعطـوا موافقتهم عند البـداية، قاموا الآن بعد كثير من التأخير والمباحثـات، بالرد بأنهم لم يوافقوا على خلع الملك وطـرده، بل تعهدوا أنفسهم أنهم سـوف يكونـوا جاهزين لخدمتـه في السلم، ثم انقسم البارونـات إلى معسكرين، وتضاعفت الشرور في البلاد.

ومع أن الثـوار كـانـوا كثرة كثيرة، غير أنهم افتقـروا إلى الثقـة، ولـذلك التفتـوا نحو الملك فيليب ملك فـرنسا، وانتخبـوا أكبر أولاده لويس ملكـاً عليهم، ورجـوه القـدوم إلى انكلترا مع قـوة كبيرة، بغيـة تحريـرهم من يـد الطـاغية الـذي يتولى حكمهم الآن، وبعـدمـا أكملوا هـذه الاتفاقيـة من خلال وسطاء، ترددوا فيما بينهم، قاموا بحصـار قلعة نورثأمبتون بمساعدة ضبـاط فـرنسيين بـارعين في انشـاء آلات الحصـار، وعنـدمـا اكتمل هـذا العمل، حاصروا الحصن في اكسفورد.

ويدأ الملك جون، الـذي أقام قرب دوفر لبضعة أيـام، الآن برفع رأسه، وإلى هناك وصلت إليه جميع القوات القادرة التي كـان قد وعد بها عندما

طلب العون، فقد جاء إليه الناس بأعداد كبيرة من بواتو، وغسكوني، وبرابانكون وفلاندرز، مع أن عدداً كبيراً منهم عانى من ريح عاصفة أثناء العبور، وغرقت إحدى السفن التي كانت تحمل رسل الملك.

وعندما تضاعف تعداد قواته، بعث الملك ببعضها لتتولى رفع الحصار عن كلّ من اكسفورد ونورثأمبتون، بينما هو نفسه تولى احتلال مدينة روكستر، التي أثارها البارونات ضده، وشرع بحصار قلعتها، وكانت هذه قلعة رئيس الأساقفة وكان فيها عدد كبير من الرجال: أي خمسة وتسعين من خيرة الفرسان وأشدهم، ووعد آخرون الملك بتقديم عون سريع له إذا ماتولى حصارهم، ولم يتراجع الملك أو يتقاعس، بل قام بتدمير الجسور التي أمل الفرسان بالحصول على العون عبرها، وأنشأ آلات للحصار، ومن ثم بدأ يقاتل القلعة من جميع الجوانب، وسبب الرجال الشجعان والأشداء الذين كانوا يتولون المقاومة وقوع كثير من القتلى بين صفوف أعدائهم.

وبعدما استدعى البارونات جميع حلفائهم للاجتماع بهم، غادروا لندن يوم الاثنين ٢٦-تشرين الأول، مع سبعمائة فارس، ولكي يمدوا المحاصرين بالعون جاءوا إلى بلدة دارتفورد Dartford ومع ذلك عندما سمعوا بأن الملك عازم على مهاجمتهم، تراجعوا مسرعين إلى لندن، واتفقوا أنهم سيجتمعون في ٣٠-تشرين ثاني مع قوة أشد وأفضل، وكانوا يعتقدون أن المحاصرين سيكونون قادرين على المقاومة حتى ذلك الوقت.

ثم بعثوا ساهر، إيرل ونشستر مع عدد كبير آخر، بغية تعجيل وصول لويس، ولكي لايكون في نفسه أية شكوك أقسموا بشكل سري أيماناً أنهم لم يتملكوا أراضيهم من الملك جون بشكل سرمدي. وعاد عدد كبير منهم إلى أراضيهم، بينما مكث آخرون في لندن.

وعندما اشتد الضغط كثيراً على المحاصرين داخل روكستر، حثوا الملك على التفاوض معهم، لكنه رفض الاستجابة لهذا المطلب، وقذف بالحجارة ضدهم بدون توقف، في كلّ من الليل والنهار، وكانت الآلات التي تتولى القذف خمس آلات، وكان الآن قد جرى تدمير جميع الدفاعات، والذي بقي فقط هو القلة، لأنها كانت مبنية منذ زمن قديم، وبشكل متين محكم، ولهذا قاومت الهجمات، ثم جرى ارسال اللغامين، لكن عندما تهاوى نصف القلة، تابع المحاصرون الدفاع في النصف الآخر، وكانت عمارة قائمة على تقسيمها إلى شطرين يفصل بينهما سور حجري قوي، ولم يوجد في أيامنا حصار آخر استمر بالعزم نفسه، أو لاقى مقاومة فعالة مثيلة، ثم إنه بعد مضي أيام عديدة، لم يبق لهم سوى بعض الحجر الضيقة في القلة، بدأوا يعانون من المجاعة، ومن الافتقار لبقية الأشياء، فأكلوا لحوم الخيول وشربوا الماء، وكان هذا قاسياً جداً على الذين نشأوا نشأة ناعمة.

ثم كان أن حلّت النهاية، ففي البداية جرى اخراج الذين بدوا أقل قدرة على القتال من القلعة، فأمر الملك بقطع أيديهم وأرجلهم، ولم يمض وقت طويل حتى وقعوا جميعاً بالأسر، فألقوا في الأغلال، باستثناء الذين برهنوا على أنهم كانوا من رجال الدين، واحتفظ الملك بالفرسان والنبلاء لنفسه، وسلم الأسرى الأدنى مكانة ليحفظوا في أيدي الآخرين، وأمر بشنق واحد فقط، وكان رامياً قد تولى تربيته منذ الطفولة، مع أن الاعتقاد قد راج بأنهم جميعاً سوف يقتلون بسبب الغضب العظيم للملك وحنقه، ولدى سماع بقية البارونات بنتائج الحصار، أصابهم الرعب، ومع تصاعد خوفهم اجتمعوا في لندن أو مكثوا في البيوتات الدينية، وكان بينهم قلة فقط الذين شعروا فعلاً بالأمان خلف التحصينات.

وطلب بارونات انكلترا مشاركتهم في المجمع، وبعثوا ببعض من يتولى

عرض وجهات نظرهم، لكن بحكم أن هؤلاء كانوا موسومين بحكم الحرمان الكنسي، لم يسمح لهم بالحديث، ولم يكونوا وحدهم المحرومين بل أيضاً كلّ المعادين للملك مع مساعديهم ومؤيديهم، ولأن البابا كشف له بأن الملك الفرنسي وابنه قد أبرما معاهدة مع البارونات المتقدمي الذكر، بعث إليهما برسائل متوالية، يحذرهما فيها من الإقدام على أي عمل ضد قراره بالحرمان، لكن آماله خابت، إما بسبب بغضهما الشديد لجون، أو لأنهما كانا متعجرفين فلم يرضيا بالانسحاب، أو لأنهما تسلما رهائن من البارونات الانكليز، وهكذا بعث فيليب الثاني بمارشال فرنسا إلى لندن مع قوة قوية من الرجال المسلحين، الذين توجب عليهم الإعداد مع اللندنيين من أجل قدوم ابنه لويس، الذي ساد اعتقاد أنه سيصل في وقت قريب جداً.

واستولى الملك —كما قيل— على روكستر في بداية كانون الأول، ثم انصرف بوجهه نحو ونكستر، ثم ذهب من خلال وسط انكلترا إلى الشمال، ومتن وجوده قلوب الناس الذين كانوا مترددين، وأكّد موقف مؤيديه الذين مركزهم في القلاع وفي أماكن حصينة أخرى، ثم قصد نوتنغهام، وهناك احتفل بعيد الميلاد، وجميع القلاع التي كانت هناك إما لحقها الدمار أو سلمت إليه.

سنة ست عشرة ومائتين وألف

ثم تابع الملك جون ترحاله نحو أماكن أبعد، فوصل حتى قلعة بيروك Berwick وبعدما استولى على البلدة وأفرغ المنطقة المحيطة بها من السكان عاد إلى أراضيه، وقام في أثناء ذهابه ثم أثناء إيابه بالعيث فساداً في البلاد، واستولى على الأماكن الحصينة، ولم يوجد أحد تولى مقاومته،

لأن ملك اسكوتلنـدا الذي كان مايزال صغيراً، هـرب إلى أقصى المناطق مع جميع أتباعه.

وغـزيت في تلك الآونـة جـزيـرة إيـلاي من قبل بعض حلفـاء الملك تحت قيـادة إيرل سـالسبري، وتجمع هناك إمـا بسبب كـون الموقع مكانـاً دينياً، أو لأنه كان جيـد التحصين، عدد كبير من النساء والأطفال وبعض النبلاء، وقد أغلقـوا المداخل، واستعدوا للمقاومة بـوضع حرس في أماكن منـاسبـة، غير أن الإيـرل انتهـز الفـرصــة بحـدوث صقيع شـديـد، فعبر المستنقع، وبذلك أسروا بوساطة حشـد من القوات، ونجا بعض الفرسان عن طريق الفـرار فوق الجليد، وعدد كبير من النساء لنيلهـن حماية الإيرل، وعنـدما سمع بهذا الكثير ممن اتخذ مـلاذاً في الأماكن المقـدسة، ارتعبـوا، وهرب كلّ الذين استطاعوا إلى لندن.

ثم انطلق الملـك نحـو أسكس، لأنـــه قيل بأن كثيراً من الأمـــاكن الحصينة كـانت تستعد للـدفاع، ومع ذلك عنـدما وصل إلى هنـاك مامن أحد قاومه فيما عدا قلعة كولشستر Colchester وهذه حاصرها بقوة كبيرة، واستـولى عليهـا في الأسبـوع الأول مـن آذار، ولم يبق هنـاك سـوى لندن، حيث كان الفرنسيـون يحتشدون مع أعداء الملك، ومع أنه قيل بأن الملك وجه جيشه إلى هنـاك، ذهب عوضاً عن ذلك إلى دوفر، شـاعراً أنه بهذه الطريقة سيكـون قادراً على اعتراض سبيل حملة لويس، أمـا بالنسبة للبـابا، فلم يكتف بـارسال رسـائل متواليـة، لكنه بعث أيضـاً كاردينـالاً يدعى غـوالو Gualo الذي كان سيتـــولى شخصياً ادارة الأعمال، ويشغل منصب القاصـد الرسـولي في انكلترا، لكن لا استعدادات الملك، ولارسائل البابا، ولامحاولات الاقناع التي تولاهـا القاصد الرسولي، نجحت في ثني عزم لـويس، لابل حتى الريح التي كانت تهب منـذ وقت طويل ضده، لم توقفه.

وفي ١٤-أيار نزل لـويس ورجاله على جزيـرة ثانت Thanet وقد

رآهم الملك عندما وصلوا، وكان معه كثير من الأجانب والمرتزقة، الذين انضموا إلى جانب القائد الفرنسي، ولم يحاول هو حتى منع نزولهم، كما أنه لم يهاجمهم عندما استولوا على الشاطىء، وكان الآن مضطرباً في عقله بادية على وجهه آثار الحزن، لذلك تراجع إلى ونشستر برفقة القاصد الرسولي غوالو، الذي كان قد نزل في انكلترا.

وبعدما استولى لويس على الشاطىء، ذهب إلى كانتربري، وهناك انتظر رجاله الذين استدعاهم من لندن، حتى إذا جمع قواته هناك، يمكنه أن يتابع زحفه بضمان أكبر، واحتشد فرنسيون وانكليز لتأييده، وبعدما ذاع خبر وصوله، بدأوا في اثارة العاصمة، وخرج الذين انتظروا قدومه منذ وقت طويل من مخابئهم.

ثم بدأ يتخلى عن الملك ويهجره كثير من بين الانكليز الذين وقفوا إلى جانبه، وفي أثناء الزحف جرى الاستيلاء على عدد من القلاع، وقدم لويس إلى لندن يوم الخميس قبل عيد الشعانين، وقد استقبل بكل ابتهاج وسعادة، وقدموا له الولاء، وأقسموا يمين التبعية له هناك، وهكذا خيل إليهم أن جميع الجزيرة سيتم الاستيلاء عليها فوراً، وجرى الإعلان عن هذا في كلّ مكان، وبات من المعتقد أن الملك كان يائساً، لأنه أمر قبل وقت قصير بهدم عدد من القلاع في أرجاء انكلترا.

وجمع القاصد الرسولي إليه شخصياً الأساقفة وزعماء الكنيسة، ودعاهم إلى تقديم العون للملك وللمملكة، وبحضور من الملك أنزل القاصد الرسولي عقوبة الحرمان الكنسي بالأمير لويس الفرنسي اسمياً، وبضباطه ومؤيديه، وبناء عليه، وضعت أراضيهم تحت الحرمان في يوم أحد الشعانين في ٢٩-أيار، وشمل الحرمان مدينة لندن أيضاً.

ولم يثن هذا عزم لويس، فقام بمطاردة الملك، فاستولى على ونشستر وعلى الدفاعات المحيطة بها، وأعطى ذلك كله إلى كونت أوف نفر

Neversالـذي جاء معـه، ثم قام ومعـه عـدد كبير من الناس بحصـار قلعـة دوفر، التي تـولى الـدفاع عنهـا كلّ من الطبيعـة والـدفاعـات التي صنعهـا الانسان، وبعث ببعض البـارونات الانكليـز مع كونت أوف نفـر لحصار قلعة ونـدسور، وعلى كلّ حال كان البـارونات الشماليين قد لحقت بهم الهزيمـة في أثنـاء محاولاتهم الاستيـلاء على لنكـولن، وحـررت سيـدة اسمها نيكولا Nicola وكانت زوجـة شحنة القلعة، نفسهـا من هذا الحصـار بـوساطـة دفع المال، ثم ذهـب البـارونـات الشماليـون مع الملك الاسكوتلندي إلى لويس، وأعطوه الولاء وأدوا مراسم التبعية له.

وفي هذه الآونـة تخلى عن الملك العديـد من أصدقـائه المقربين، نـذكر منهم: إيرل أوف وارني Warenne وهـو من أقربـاء الملك، وإيـرل سـالسبري، وهو أخـو الملك، وإيرل أوف أرونـدل arundel والإيرل روبرت دي فير Vere وكـذلك عـدد كبيرآخر، ولقـد اتضح فيما بعـد أنهم وقفوا إلى جانب لويس بسبب الخوف وليس بسبب القناعة، وبعدما تفحص جون لـوقت طويل مـاصنعه لويس، بـات على قناعة أن تقـدمه الآن بات أقلّ من الأول، ذلك أنه تعطل لدى حصـار دوفر لوقت طويل، وبنـاء عليه نقل معسكـره إلى نورفـولك، واحتل المكـان الذي كـان ملك السكوتلنديين قد تركه.

ولدى سماع الـذين كانـوا معسكرين في ونـدسور بهذا، لاحقـوه، وبناء عليه رفـع الحصار عنها، ثـم ذهب جون إلى قلعـة أكسمولم Axholme وبعدما عاث فساداً بها بالنار والسيف حرك قواته خلال لندسي Lind-sey وعبر هولانـدا ووصل إلى لنكولن، حيث كان ملك اسكوتلنـدا قد عسكر قبل أيـام قليلة، واستولى خلال رحلاتـه على أراضي العدو، ونهبهم وأحرقهم، ولهذا لم يأت وقـت مثل هذا كانت البـلاد فيه مضرمـة بالنيران بمثل هذا القـدر، ثم عندما فر الـذين كانوا مجتمعين في لنكـولن من أمام وجهه، تراجع مسرعاً، وقد بات منهكاً من اصابته بمرض الزحار.

وفي أثناء هذه الرحلة حدث أن فقد جون قطار أثقاله في سباخ شاطىء البحر أثناء غمرها بتيار المدّ، وحدثنا رالف أوف كوغشال بأنه «فقد أثناء هذه الرحلات عند ولستريم Wellstream بيعته النقالة مع آثاره المقدسة، وبعضاً من دواب الحمولة لديه، والكثير من مؤن بيته وحاشيته، وعدد كبير من رجال حاشيته حيث غرقوا في مياه البحر، وتلاشوا وسط الرمال المتحركة، لأنهم انطلقوا بحماقة وأسرعوا قبل أن يتراجع تيار المدّ».

وعندما وصل جون إلى قلعة سليفورد، التي كان قد أخذها من أسقف لنكولن في أثناء الحرب، ازداد مرضه سوءاً، وحمل على نقالة إلى نيوآرك Newark وهي قلعة أخرى من قلاع أسقف لنكولن، كان الملك قد استولى عليها منذ زمن بعيد.

وتمدد هنا بسبب مرضه، وأنهى أيامه في ١٩-تشرين الأول، بعدما حكم لسبع عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام.

وكان جون في الحقيقة أميراً عظيماً، لكن نادراً ماكان سعيداً، وكان مثله مثل ماريوس Marius قد عانى من الصعود والهبوط مع الحظ، وكان لطيفاً وكريماً مع الغرباء، وسلاباً نهاباً لشعبه، يثق بالأجانب ويفضلهم على رعيته، ولهذا تخلى عنه بالنهاية رجاله وهجروه، وبقي القليل منهم من حوله، وبما أن جلّ قواته كانت إما مرتزقة مكتراه أو أجانب، فقد تجمعت بسرعة في ذلك المكان، وبدت وكأنها مسلحة استعداداً للحرب، وحملت هذه القوات جسده بعيداً حتى ووركستر Worcester وكان هذا لالأنه طلب أن يدفن هناك، لكن بسبب أن ذلك المكان بدا في ذلك الوقت مكاناً آمناً، حيث يمكن لمؤيديه أن يجتمعوا للتباحث حول ماينبغي القيام به بعد وفاته، وبما أنه كان أقرب إلى البدانة فقد دفنت أحشاءه في دير كروكستون Croxton.

خاتمة

وهكـذا مات الملـك جـون، وكان، حسبما كتـب متى الباريسي بعد خمسين سنة: «قـد تحرر من آلام التفكير، ومـن حياة كثيرة الاضطـرابات ومن الجهد الضائع»، ولاشـك لابل من شبه المؤكد أن موتـه غير المتوقع قـد أبقى انكلترا لأسرة بـلانتفنت، لأن وريثـه الصغير، هنـري الثالـث، الذي كان مجرد طفـل في التاسعة من عمره، لم يكـن له أعداء شخصيين، وبسرعة نـال الحماية والمساعـدة من قبل أكثر البـارونات فروسيـة، وكان البابـا انوسنـت الثالث وصيـاً يقظاً مرعبـاً، وعظيم الإصرار نحـو الملك الجديد، وبدأ التأييد للويس الفرنسي يتلاشى تدريجياً، لأن الثوار الانكليز توصلوا إلى قنـاعة أنه أنفع لهم أن يكون على العرش طفـل ضعيف بدلاً من الملك الفرنسي المنتظر، الذي كان قوياً ويتمتع بالكفاءة.

ونشـأ هنري الثـالـث الذي حكـم لمدة ست وخمسين سنة، في وسط ديني؛ فكان رجلاً لطيفاً، وحامياً للفنون الدينية، وذكياً لكن ليس بارعاً، عاش مع مسؤولية الاهتمام بالمظاهر الملكية، لكن حتى عندما كان راشداً بالغـاً، لم يستطع تـرجمة هذا الاهتمام إلى واقع مـؤثر في العمـل السياسي، الذي كـان ضرورياً للملكية النـاجحة في العصـور الوسطى، وكـان مثله مثل أبيـه قد وجد أنـه من الصعب كسب ثقـة باروناتـه والاحتفاظ بها، وكـذلك تـورط مثـل أبيـه في صراع حاد معهـم، وتعـاظمـت مشاكلـه بـالاخفاق الإنكليـزي في اعادة الاستيـلاء على الممتلكات البـلانتفنتونيـة المفقودة، وذلـك على الرغـم من الانفـاق المالي الهائل، واستمرت بعـض هـذه الحقائق، أو كلهـا: أي الضعـف الملكـي، وانعدام الثقـة بين التـاج والبـارونات، وتنـاقـص الواردات الحكـوميـة، والاخفاق في الحرب مع

فرنسا، وتكررت بالوقوع في القرون التالية من وقت إلى آخر، ولهذا إن الملوك الذين كانوا مثل هنري الثاني اداريين أكفاء، وقادة أشداء، وأمراء عسكريين فاعلين، قد عدّهم رعاياهم في غالب الأحيان نموذجيين، وقد كسبوا اعجاب الأجيال اللاحقة.

وجاء في تاريخ وليم المارشال [حوالي١٢٢٦] الذي كان الوصي والحامي للشاب هنري الثالث قوله شعراً:

بسيف الرب، إذا ماتخلى الجميع عن الملك،

هل تعلم ماالذي كنت أنا فاعله؟

كنت سأحمله على كتفي خطوة خطوة،

من جزيرة إلى جزيرة ومن منطقة إلى منطقة،

ولن أخذله حتى لو عنى ذلك التسول من أجل خبزي

ملوك انكلترا وفرنسا

نورمان
وليم = ماتيلدا
(استولى على انكلترا وملكها)
(١٠٦٦ــ١٠٨٧)

روبرت كورتهوس
وليم الثاني ملك انكلترا (١٠٨٧ــ١١٠٠)
هنري الأول ملك انكلترا (١١٠٠ــ١١٣٥)

وليم الاثلنج
(١) الامبراطور هنري الخامس = ماتيلدا = (٢) جيوفري صاحب أنجو الامبراطورة

كابيه
روبرت الثاني ملك فرنسا
(٩٩٦ــ١٠٣١)

روبرت دوق بورغندي
هنري الأول ملك فرنسا (١٠٣١ــ١٠٦٠)

فيليب الأول ملك فرنسا
(١٠٦٠ــ١١٠٨)

لويس السادس ملك فرنسا
(١١٠٨ــ١١٣٧)

روبرت كونت درو

الاكوتيني
وليم التاسع دوق أكويتين

وليم العاشر دوق أكويتين

الانجيفيون
فولك الخامس = ايرمنجارد
كونت أنجو ملك القدس
(١١٣١ــ١١٤٣)

ماتيلدا = وليم الاثلنج
تيري كونت فلاندرز = سيبيلا
فيليب كونت فلاندرز
ماري = ماتيو

بلوا
أديلا ابنة وليم الفاتح = ستيفن كونت

هنري أسقف ونشستر
تيوبولد الثاني كونت بلوا وشامبني
ماتيلدا أوف بولون = ستيفن ملك انكلترا (١١٣٥ــ١١٥٤)

يوستاس
تيوبولد الثالث كونت بلوا
هنري كونت شامبني = ماري ابنة لويس السابع واليانور الاكوتانية
اليس ابنة لويس السابع واليانور الاكوتانية =

بلانتاجنت
جيوفري
وليم

(١) لويس السابع = اليانور الاكوتانية = هنري الثاني
(٢) كونستانس القشتالية = لويس السابع

(٣) اديلا الشامبنية
ماري
اليس

(١) ايزابلا أوف هينولت = فيليب الثاني ملك فرنسا (١١٨٠ــ١٢٢٣) = (٢) انجبورج الدانماركية
(٣) اغنيس أوف ميران

بلانش القشتالية = لويس الثامن ملك فرنسا
(١٢٢٣ــ١٢٢٦)

لويس التاسع ملك فرنسا
(١٢٢٦ــ١٢٧٠)

اليس
(١) هنري الشاب = مرغريت = (٢) بيلا ملك هنغاريا
ماتيلدا = هنري دوق سكسوني
الامبراطور اوتو الرابع
برنغاريا = ريتشارد الأول ملك انكلترا (١١٨٩ــ١١٩٩)
جيوفري = (١) كونستانس البريطانية = (٢) جي أوف ثوارس
آرثر أمير بريتاني
اليانور
اليانور = الفونسو الثامن ملك قشتالة

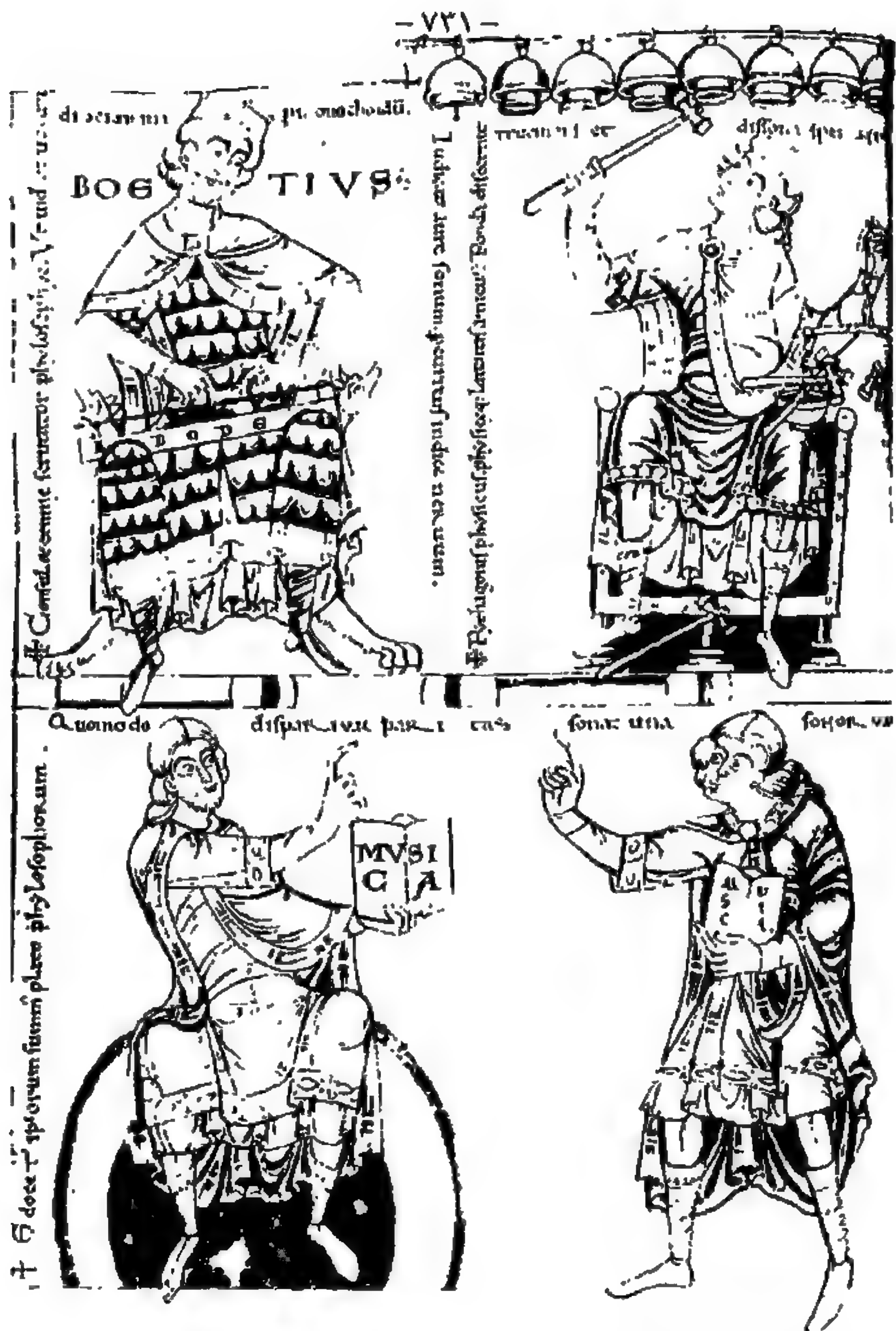
ريموند السابع كونت طولوز
وليم الثاني ملك صقلية = (١) جوانا = (٢) ريموند السادس كونت طولوز

جون ملك انكلترا (١١٩٩ــ١٢١٦) = (١) ايزابلا أوف غلوستر
(٢) ايزابلا أوف انجوليم

هنري الثالث ملك انكلترا (١٢١٦ــ١٢٧٢)
ادوارد الأول ملك انكلترا (١٢٧٢ــ١٣٠٧)
ريتشارد أوف كورنوول
(٢) هيوج أوف لوزينان




a xp̄o beatorum apl̄or choro. talem retributionē re
cipiunt p corruptibilibus.



السحسل الروماني بوئيوس الذي كتب بحثا عن الموسيقى نال الاعجاب الكبير من قبل مؤرخي العصور الوسطى

الحواشي والتعليقات

١— بيت الشيطان:

« من الشيطان جاءوا وإلى الشيطان سيعودون» هذا ما قيل عن كونتات أنجو ، ورواه جيرالد أوف ويلز ، في إشارة إلى اسطورة تحدثت عن أن كونتات أنجو وملوكها قد انحدروا من ابنة الشيطان ، وجاء في حكاية جيرالد أن واحداً من كونتات أنجو القدماء عاد من احدى رحلاته مع امرأة اسمها ميلوسين ، وكانت مشهورة لجمالها ، وقد تزوج منها ، وكان حولها كثيراً من الأمور الغريبة ، أعظمها إثارة كان غيابها الدائم عن حضور القداس لدى مباركة الحشود وتعميدها ، وكشفت حقيقة أمرها عندما أرغمها زوجها على البقاء ورؤية جسد المسيح ، وهو مشهد ما من شيطان يمكنه مواجهته ، وهربت ميلوسين من النافذة وهي تولول ، ولم تر ثانية ، وخلفت وراءها ولدين ، منهما انحدر كونتات أنجو .

وروج لهذا النوع من الحكايا ت مؤرخو الأسرة للدعاية ، ولمسايرة روح العصر ، ولتغطية الحقبة المبكرة المجهولة من تاريخ الأسرة ، وكان الناس في القرن الثاني عشر يستمتعون بهذه الحكايات ويصدقونهاحتى ليقال بأن رتشارد قلب الأسد عقب وهو يضحك لدى سماعه قصة أصل أسرته بقوله : « عجباً لو أننا فقدنا طبيعتنا البشرية ، فنحن جئنا من الشيطان ، ووقتها لابد من أن نعود الى الشيطان » .

٢ — الطاغية التقي :

كـان فـولـك نيرا وحشاً مـرعبـاً وحـاجـاً تقيـاً ، ولقد كـان مـن أكثـر الشخصيات إثارة في القرن الحادي عشر ، وكان النتـاج الأكثر تطرفاً لقرن سيطرت فيـه العواطـف والانفعالات على سلـوك الناس ، وكـان الديـن سلعة لتبـادل المنافـع مع الرب ، وهكـذا تماشى سلـوكه وعنفـه مع روح العصر .

ففي سنـة ٩٢٢ نال نصراً عظيماً ضد كـونت بـريتاني ، وتحقق لـه هذا عندمـا طار الجيش المتراجع فـأحدث دماراً هـائلاً بكل ما مر بـه ، فقتل وسلب ونهب وأحرق ، وإثـر هذا النصر الرهيب أحـرق زوجته الأولى حين وضعها على سفود وشواها لاتهامها بالكفر .

ومع هـذا كله قام فـولك بـالحج إلى القدس ثلاث مـرات ، وذلك في وقت تعذر فيه على كثيرين القيام بـرحلة واحدة ، كما أنه زار روما ، وبنى ديرين أحدهما قرب تور والثاني قرب أنغـر ، ومع تطرفه هذا كان بارعاً في السياسـة ، وفعالاً في حملاته العسكـرية واستراتيجيـاً ناجحاً في بنـاء القلاع ، ولا شك في أنه كان قائداً صاحب قدرات وحشية خارقة .

٣ـ الشرق ضد الغرب :

كـرست الكنيسـة في العصور الـوسطى جهـودها على تحقيـق الوحـدة المسيحية المنشودة ، لكنهـا لم تستطع قط الوصـول الى ذلك وتحقيقه ، ولم يظهر الاخفاق بشكل مؤسف في خلال العصـور الوسطى أكثر منه في سنة ١٠٥٤ ، عندما بعث البابا ليون التـاسع ببعثة دبلوماسية الى القسطنطينية لتتهم البطـركية هناك وتـوبخها على أنها «عاصية وفـاجرة وابنة فـاسدة ، تتمتع في دارها بالسلام والراحة والـرخاء وترفض الاسهام بدور في القتال المسيحي الـذي أثارته الكنيسة الأم المقـدسة في روما » ولم يكن مـدهشاً

أن « الابنة» تخلت عن اخلاصها وتبعيتها كلياً لروما، وعلى هذا كانت سنة ١٠٥٤ سنة الانفصال الدائم بين الكنيستين : اللاتينية الكاثوليكية في الغرب ، والاغريقية الأرثوذكسية في الشرق .

وكان الخلاف قائماً يعتمل بينهما منذ زمن قديم ، يرقى حتى إلى أيام الامبراطور المسيحي الأول ، قسطنطين الكبير ، وذلك عندما قرر هذا الامبراطور تدشين المدينة الاغريقية في بيزنطة ، لتكون القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ولتكون روما جديدة ، وصحيح أن روما والقسطنطينية كانتا سنة ٣٣٠ بالأصل متحالفتين ، لكن بابوية روما أخذت بالتدريج تبتعد وتتجه نحو الانفراد، فزادت من سماتها الغربية ومن انشغالاتها في الغرب، ولم يعد في روما بعد سنة ٧٥٢ ولا بابا اغريقيا، أو يتحدث الاغريقية، وفي تلك الأثناء، الذي كانت الامبراطورية البيزنطية ماتزال فيه قوية ومتقدمة، ربط البطاركة كنيستهم تماماً مع مصالحهم بأباطرتهم، ودعموهم بكل امكاناتهم وطاقاتهم، وكان من الممكن حتى في القرن الحادي عشر ايجاد حلول للخلافات العقائدية بين الكنيستين، وألحت البابوية الغربية على الانضباط والطاعة والنظام الحاد، ولم تسمح قط لايجاد بدائل دينية ألطف بناءً، وعليه بات حتمياً انفصال الغرب اللاتيني عن الشرق الاغريقي، وابتعادهما عن بعضهما.

وظلت القسطنطينية حتى سنة فتحها في ١٤٥٣ من قبل العثمانين مركزاً لكنيسة اغريقية عالية المعرفة والثقافة، وكان أعظم انجازات هذه الكنيسة تحويل الشعب الروسي إلى المسيحية الأرثوذكسية، وفي روما وضع البابوات أنفسهم على رأس حركة اصلاح الكنيسة الكبرى في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وشرعت في ظل غريغوري السابع (١٠٧٣—١٠٨٥) العدواني ومن بعده خلفائه على عرش البابوية في فرض إرادتها على جميع أرجاء المسيحية الغربية بشكل لم يكن له نظير من قبل.

وكان البابا بالنسبة لفولك نيرا المتوفي سنة ١٠٤٠، عندما عاد من زيارته الأخيرة للقدس مجرد شبح وشخصية لا أهمية لها، غير أنه بعد قرن عندما حكم حفيده فولك الخامس صاحب أنجو، المملكة اللاتينية في القدس، كان بابوات روما بلا منازع قادة المسيحية، والمسؤولين الروحيين، لا بل القادة الدينيين، للحركة الصليبية.

٤— قلاع أنجو:

مايزال من الممكن رؤية بعض قلاع أنجو، التي بنيت في أوائل القرن الحادي عشر، وهذه القلاع بين أقدم الحصون التي بنيت بالحجارة، وبقيت من العصور الوسطى، وهي تبدو قوية حتى اليوم، وتحكمت بعض القلاع بالمناطق التي أحاطت بها، أو بطرق المواصلات، أو كانت بمثابة نقاط دفاعية، أو مواقع استراتيجية للوصول إلى هدف مرسوم مثل القلاع التي بناها غيوفري مارتل حول تور للاستيلاء عليها، وكان ذلك في سنة ١٠٤٤، وعلى كل حال كان فولك نيرا من أكثر الكونتات بناء للقلاع، حتى يمكن القول إنه أول القادة الذين أدركوا قيمة موقع القلعة للأعمال الدفاعية وأيضاً لتكون قاعدة للأعمال الهجومية، مما أعطاه السمعة أنه كان استراتيجياً مبدعاً.

٥— أبيلارد وهليوس:

كان أبيلارد استاذاً مشهوراً في باريس، وفقيهاً وخطيباً أصيلاً، ووضعته قدراته في قلب الحياة الثقافية في غربي أوربا في القرن الثاني عشر.

وكان قد ولد في بريتاني في سنة ١٠٧٩، وعاش لسنوات باحثاً متجولاً، وذلك كنموذج لعصر لم تكن فيه بعد جامعات مؤسسة أو مراكز

علمية رئيسية فيها علماء متميزين يتبارون فيقدمون فرصاً أمام الطلبة الراغبين با لمعرفة.

وتظهر روايته عن حياته «تاريخ مصائبه» كيف دمر أفكار وسمعة عدد من أساتذته برعونة أكسبته العداوات، وعندما صار في الثلاثينات من عمره، كان المعلم في باريس، حيث جذبت عبقريته إليه حشداً من الطلبة ورسخت القاعدة لإقامة جامعة المدينة العظيمة.

وفي باريس، عندما كان في ذروة شهرته، قابل هليوس، ووقع بحبها، وكانت أصغر منه بنحو عشرين سنة، كما وكانت الحفيدة الجميلة والمتعلمة لفولبرت، كاهن كاتدرائية نوتردام، وكانت العزوبية متوقعة في الكنيسة وإن لم تكن مطلوبة بشكل حتمي، وكان التواصل مؤذياً جداً لحياته وعمله، لكن ليس مأساوياً، غير أن هليوس أنجبت ولداً، ومن ثم أقيم زواج سري لإطفاء غضب فولبرت، ومع ذلك تابع الكاهن معاملتها بسوء، ولهذا أخذها أبيلارد أخيراً إلى دير في أرغنتيل -AR GENTEUiIL، واعتقد فولبرت أن أبيلارد عازم على هجر حفيدته وإبقائها راهبة متبتلة الحياة،ولذلك خطط للقيام بانتقام رهيب ، فأرسل خدمه لاقتحام غرفة أبيلارد في الليل وخصيه ، وشعر أبيلارد اثر هذا بالرعب والإذلال الشديد فصار راهباً في الدير الملكي الكبير الحامل لاسم سينت دنس وبناء على تعليماته ، أدخلت هليوس ـ التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها ـ وهي في حالة قنوط ، الى الدير الذي أخذها أبيلارد إليه .

ورأى فيه معاصروه أنه صاحب تأثير خطر ، وقد غادر في ثلاثينات القرن الثاني عشر سينت دنس ، ليستأنف التدريس ، وجذب اليه المعارضة من المحافظين في الكنيسة الذين قادهم برنارد أوف كليرفو ، وهو راعي ديرسسترشياني مرعب ، وكانت غلطة أبيلارد أنه تفوه بشكل علني ومقنع أن العقيدة المسيحسة ينبغي إخضاعها للبحث العقلاني ،

وكان هـدفه كـرجل دين مـؤمن هو تعميـق الفهم ، وليـس لغم الايمان ، وتبنى أيضـاً موقفـاً متطرفـاً، حيث قـال النية هـي التي تقـرر فيها إذا كان العمل المقترف ذنباً ، وكـان هذا كثيراً جداً بالنسبـة للكنيسة المتجذرة ، وهكذا أدين بالهرطقة في سنة ١١٤٠، أي قبل عامين من وفاته .

ويتـذكر أبيـلارد هذه الأيـام على أنـه محب متفاني ويظهـر «التاريـخ » والرسائل التي تبـادلها مع هليوس ، عندما عاش كـلاهما داخل الدير ، أنـه امتلـك عاطفـة وحبـاً يـائسـاً لم يكـن لا هو ولا هـي قـادريـن على التخلص منه.

وانتشيـا بـالتـواصـل الـذي كـان فيها مضـى ، وتـألما بسبـب متعتهما الجنسية ، ولم يبـديا اهتماماً كبيراً نحـو ردات فعل المجتمـع تجاه علاقتهما أكثر من المقـارنة فيها بينهما وبين آدم وحواء ، والنتائج المدمـرة للعلاقات الآثمة ، وذلك حسب قدرة أبيلارد على تفسير الكتابات المقدسة .

وحاول أبيلارد أن يقـدم النصائح الروحية لهليـوس ، وأشار عليها أن تحول حبها الى حب للرب ، وأخـذت أخيراً بهذه النصيحة ، فغدت منذ ١١٢٩ رئيسـة لـراهبـات ديـر أرغنتيـل ، ثـم صـارت راعيـة ديـر بـاراكليـت paraclete وهـو دير سـاعـد أبيـلارد على إنشـائه ، وحققـت لها ثقـافتهـا وعـزة نفسهـا وآلامهـا وصبرهـا وقـدراتها الاداريـة الاعجـاب والاحترام ،وفي القـرن التـاسـع عشر نقـل قبر المحبين الى مقبرة بيري ـ لاشي Pere - L achaise في باريس حيث مـا تزال الورود توضع عليهما إحياء لذكراهما .

٦ـــ فولك الخامس ملك القدس:

جـاء في سنـة ١١٢٨ وفد أرسلـه بلـدويـن الثاني ملـك القـدس، إلى فـرنسا، لأنـه لم يمتلك ولـداً ذكراً يخلفـه في حماية الضريـح المقدس، بـل

أربع بنات فقط، وطلب الوفد من لويس السابع اختيار واحد من نبلاء فرنسا مناسب للزواج من ميليساند أسن بنات بلدوين، وليكون خليفة لبلدوين بعد وفاته، واختار الملك فولك كونت أنجو ومين، وتورين، وبناء عليه سافر إلى الشرق للزواج سنة ١١٢٩، وكان وقتها في الحادية والأربعين من عمره، وقد سلف له أن حج إلى القدس، وكان أرملاً يمتلك كل المؤهلات ليكون ملكاً للقدس، ثم إنه كان مطمئنا لممتلكاته في فرنسا حيث تركها في يدي ابنه الشاب، لكن المبشر بالكفاءة، أي غيوفري، الذي سيتزوج من ابنة هنري الأول ملك انكلترا، وبذلك مهد الطريق لتملك اسرة بلانتغنت لإنكلترا.

٧— غيوفري بلانتغنت:

تزوج في سنة ١١٢٨ غيوفري بلانتغنت ابن فولك ماتيلدا، الامبراطورة الأرملة، وابنة هنري الأول ملك انكلترا، وقد وعدها هنري الأول بخلافته في انكلترا ونورماندي، لكن عند وفاة هنري الأول سنة ١١٣٥، استولى ستيفن أوف بليوس، وهو ابن أخت لهنري وأثير لديه، على المملكة والدوقية.

وكان كونتات بليوس منذ زمن بعيد منافسين للأنجيفيين الذين كانت أراضيهم محاذية لممتلكاتهم، كما ان ممتلكاتهم كانت تقريباً مطوقة لممتلكات التاج الفرنسي، وتشكلت بليوس من شطرين هما بليوس وشامبين، وقدقسما مراراً بين الورثة، وعندما أصبح هيوج كونت شامبين عضواً في الداوية سنة ١١٢٥، آلت كونتيته إلى ابن أخيه ثيوبولد الثاني صاحب بليوس، وهو حفيد وليم الفاتح، ملك انكلترا ودوق نورماندي.

وكان أخوا ثيوبولد: ستيفن كونت أوف مورتين، وهنري أسقف أوف ونشستر قد كسباثقة خالهما هنري الأول ملك انكلترا وولايته لهما وحمايته،

وفي سنة ١١٣٥، أحكموا الأمور ودبروها بحيث يتولى ستيفن أراضي هنري وليس ثيوبولد.

وقاد في سنوات ١١٣٦ و ١١٣٧ و ١١٣٨ غيوفري وماتيلدا الحملات ضد نورماندي، وغزت ماتيلدا في سنة ١١٣٩، انكلترا بمساعدة روبرت ايرل غلوستر، وكان من أعيان النبلاء الأنغلو — نورمان، وتركت غيوفري ليتولى السيطرة على الدوقية، وخلال سنوات استطاع الاستيلاء عليها، وفي تلك الأثناء، ظهر ابنه هنري ممثلاً لأمه ماتيلدا، وأخيراً وريثاً لها.

وكانت دوقية أكوتين في القرن العاشر دوقية واسعة موزعة بين عدة كونتيات واقطاعيات أصغر، وكانت تمتد جنوباً حتى جبال البرانس، وكان الدوق وليم الكبير المتوفى سنة ١٠٣٠، قد مارس سلطانه في بواتو، وبيرغورد، ولي مارشي، ومناطق أخرى، وفي سنة ١٠٦٣، استولى وليم الثامن على غسكوني، وتزوج ابنه وليم التاسع (١٠٨٦— ١١٢٦) من فيليا أوف طولوز، وكان متميزا بكونه من التربادور وصاحب توجهات جنوبية كبيرة، وعلى هذا نشأت إليانور الأكوتونية ابنة وليم العاشر (١١٢٦— ١١٣٧) ووريثته في أجواء ثقافية عالية وطرائق مصقولة في لانغدوك.

٨— غيوفري وماتيلدا:

كان غيوفري الأشقر، كونت أنجو، الأول في سلالته الذي حمل لقب بلانتغنت، وهو لقب ناله لوضعه قشة مكنسة على قبعته، وقد صار كونتاً لأنجو في سنة ١١٢٩، بعد ذهاب أبيه فولك الخامس إلى القدس.

وكان غيوفري رجلاً بارعاً ، ووصف بالأناقة والجمال من قبل معاصريه ، فقد كان طويلاً ، بهي الطلعة وقوياً وبشعر أشقر أقرب الى الاحمرار ، وبعينين نافذتين ، كما كان عالي الثقافة ، يتفاخر بتذكر أفاعيل

أجداده ، وقد مثل الفروسية المثالية ، ومع ذلك كان هادئاً جداً وعنيفاً الى حد التوحش ، وتركزت جهود حياته على متابعة العمل في سبيل حصول زوجته على ميراثها في نورماندي وانكلترا ، واهتم بشكل رئيسي بالاستيلاء على نورماندي ، التي كانت العدو الرئيسي لأنجو ، ونجح في ذلك وعلى هذا كانت اسهاماته بالنسبة لانكلترا ضعيفة .

وتزوج غيوفري من ماتيلدا سنة١١٢٨ ، وكان هو وقتها في الخامسة عشرة من عمره في حين كانت هي في السادسة والعشرين ، وكان هذا الزواج مثله مثل كثير من زيجات العصر، صفقة معدة ، خطط لها هنري الأول والد ماتيلدا ، حتى يحول بين أنجو وبين التحالف مع الشماليين الفرنسيين المعادين له ، وليساعد ماتيلدا في خلافته في نورماندي وانكلترا .

وكانت قد تزوجت للمرة الأولى من هنري الخامس امبراطور ألمانيا ، الذي توفي سنة ١١٢٥ ، وأرسلت للمرة الأولى إلى ألمانيا عندما كان عمرها في الثانية عشرة ، وأعيدت إلى أبيها بعد اثنتي عشرة سنة ، أي سنة ١١٢٦ ، لتكون وريثته الشرعية الحية الوحيدة .

ومن البداية نظرت بإزدراء ، نحو زوجها الثاني الذي لم يبلغ سن الرجولة بعد والذي كان أدنى منها اجتماعياً، ويبدو أنها لم تشعر قط نحوه بدفء عاطفي .

ومثل هذا لم يحب غيوفري ماتيلدا ، ومع ذلك حافظاً على تعاونهما ، وعلى استغلال زواجهما المفتقر الى الحب ، من أجل مرابح سياسية مشتركة ، وأنجبا من الأولاد ما هو ضروري لاستمرار سلالتهما ، ثم ذهب كل منهما في طريقه ، إنما دون أن يفترقا أويتباعدا عن المطامح السياسية الشخصية .

وجلبت ماتيلدا لنفسها كراهية الذين توجب عليها جذبهم ، ففي

أيـام حكمهـا القصيرة لانكلترا ١١٤١ـ ١١٤٢ ، بعـد الانتصـار على ستيفن رفضت الوقوف لتحية اثنين مـن مؤيديها الرئيسيين ، وهما خالها ، الملك داود ملك اسكـوتلندا مع أخيها غير الشقيق ايرل روبـرت صاحب غلوستر، فـأغضبتهما بذلك غضباً عظيماً يضـاف الى هذا أنها أصرت على فرض ضرائب ثقيلـة على سكان لنـدن ، وبذلـك حولـت إخلاصهـم لها وتعاونهم معهـا الى كراهيـة ومقاومـة ، فأرغمـت على الفرار مـن المدينة ، وصحيـح أنها امتلكت إرادة حـديـدية لنيـل مـا عدتـه ميراثهـا ، كانـت شخصيتها العائق الرئيسي في وجه نجاح قضيتها .

فقـد كانـت متكبرة ، لا تعرف الليـونة وقـد انتقدهـا معاصروهـا كثيراً لافتقارهـا للسمات الانثويـة وكانـت صورتها المستمـرة صورة الابنـة التي كانت تقـاتل أبيها هنري الأول عندما مات وأنها لم تحاول التصالـح معه في ساعاته الأخيرة ، ومـع ذلك كانت بهية المنظر، شجاعـة ، وامرأة قوية في عصر تحكم بـه الرجال وكانـت تستطيع أن تنال اخلاص الآخـرين ، لكن ليس اخلاص زوجها .

٩ — الوزير غير الرسمي :

كان لقـرابة ربـع قرن الأب سـوكر المستشـار الرئيسي لكـل من لـويس السادس (١١٠٨ـ ١١٣٧) ولويـس السابـع (١١٣٧ـ ١١٨٠) ، أي من سنة ١١٢٧ حتى سنة وفاته في ١١٥١ .

وكان رجـلاً من أصل وضيع ، وقـد صعد في خدمة الكنيسـة والعرش بفضل قدراته الشخصية، وصحيح أن سوكـر لم يكن لديه منصب رسمي في الحكـومة الملكيـة ، لكـن النصـائح التي أسـداهـا لكـل من لـويـس السادس ولويـس السابع ازدادت قيمتها بإلحاحـه على الجانب المقدس والطقوسي للملكية ، فقد أعطى ذلك أهمية فاقت الحقيقة .

وقد أعاد بناء دير كنيسة القديس دنس ، وهو مكان دفن الملوك الأوائل ، وكان البناء وفق الطراز القوطي ، مزيناً بشكل كبير وجميلاً ، قصد منه أن يكون مكاناً مكرساً لعبادة الرب ، وفي الوقت نفسه لتمجيد الملوك الفرنسيين ، وشارك سوكر في الاحتفالات الملكية الرسمية التي أظهرت روابطهم بالماضي العظيم ،ففي سنة ١١٢٤ حمل لويس السادس ما يفترض أنه راية شارلمان ، وكانت موضوعة على مذبح كنيسة القديس دنس ، وخاطب الناس بشكل حماسي ملتهب وحشد جيشاً هائلاً ليحارب به ضد الامبراطور هنري الخامس .

وعلى الرغم من هذا المظهر كان الملكان ضعيفان اقترفا الكثير من الأخطاء ، ومع ذلك ساعد سوكر على تطوير شخصية ومكانة الملكية الفرنسية ، وتولى سوكر تعليم الملكين ، ووجهها عملياً وساعدهما على ادارة أراضيهما .

وكان لويس السادس ملكاً عسكرياً أخضع البارونات اللصوص الذين نهبوا وسلبوا الأراضي الملكية، ووصفه سوكر بأنه كان رجلاً كانت روحه كبيرة مثلما كان جسده هائلاً، فقد كان بديناً يحب الملاذ والطعام والبهجة ، حتى صار يعرف باسم الملك البدين وغدا في سنيه الأخيرة لا يستطيع امتطاء الخيول، ومثله برهن ابنه لويس السابع عن تدني الكفاءة والضعف الاداري ، وكان الزوج الأول لاليانور الأكوتانية ، وقد تصرف على طريقة الزهاد فكان ينام في الغابة بدون حراسه لوحده ، ولهذا أحبه شعبه ، ومع ذلك كان لويس السابع يصلح لأن يكون ملكاً في عصور مضت حيث يمكنه أن يخفي ضعفه وعجزه خلف واجهة من اللطف والحكمة .

١٠ — أول أعمال توسع أسرة بلانتغنت

اكتمل الاستيلاء على نورماندي من قبل غيوفري بلانتفنت،كونت أنجو،سنة ١١٤٤،واحتاج هذاالاستيلاء الى قرابة تسع سنوات من الصراع،استفاد خلالها هو وزوجته الامبراطورة ماتيلدا من ادعائها الحق بحكم انكلترا ونورماندي، وكان في سنة ١١٣٥،بعد وفاة هنري،استولى ستيفن كونت بليوس عليها معاً ،لكن الآن ضمن الأنجيفيون لأنفسهم قاعدة يستولون منها على انكلترا.

وارتبطت نورماندي بانكلترا لأن عدداً من النبلاء امتلكوا أراضي على جانبي القنال، وفي الحقيقة بذل ستيفن قليلاً من الجهد لكسب اخلاص النورمانديين،فقد زار الدوقية مرة واحدة، ومع ذلك كره النورمانديون جيرانهم الأنجيفيين وأعدائهم التقليديين، وقاوموا بعنف حملات غيوفري،لكن وقوع الملك ستيفن بأسرماتيلدا في عام ١١٤١كان له أثره البالغ على معنوياتهم،ففي تلك السنة استسلمت لغيوفري قلعة تلو الأخرى في نورماندي، ثم تابع نشاطه حتى عام ١١٤٤ حيث استولى على روان، ومن ثم نصب دوقاً على نورماندي، وفي عام ١١٤٥ سقطت آخر قلاع نورماندي إليه.

ونتيجة لهذا الاستيلاء، صار الأنجيفيون يحكمون نصف المملكة النورماندية— الانكليزية، يضاف إلى هذا بات من غيرالممكن اخراجهم من غربي انكلترا، وأصبحت قضيتهم أقوى وواعدة بالنسبة للمستقبل، فبعد سنة ١١٤٤، ما من واحد من كبار البارونات ذوي الأملاك الواسعة في نورماندي التحق بشكل دائم بستيفن ووقف إلى جانبه.

١١—مللك شجاع ومجنون :

كان الملك ستيفن (١٠٩٧؟ — ١١٥٤) الولد الثالث لستيفن كونت أوف بليوس وتشارترالذي كسب سوء سمعة انتشرت في أوروبا كلها،

لأنـه هرب مـن أنطاكيـة أثناء الحملـة الصليبية الأولى، وكـانت أم هـذا الملك آديلا ابنة وليـم الفاتح، وكانت ذات رأي متصلب، لـذلك أعادت زوجها إلى ما وراء البحار.

وأرسل ستيفـن الشاب إلى بـلاط خاله هنـري الأول، ولعل ذلـك كان سنـة ١١١٣، ومنح أراضي واسعة في كـل من نـورمـاندي وانكلترا، ممـا جعله واحداً من أغنى ملاك الأراضي الأنغلو— نورمان.

وفي سنـة ١١٢٦، أقسـم ستيفـن مـع عدد كبير آخـر، بقبـول خـلافـة ماتيلـدا ابنة هنري لأبيهـا، والذي حدث على كـل حال أنه لـدى سماعه بخبر وفـاة هنـري في ١— كـانون أول عـام ١١٣٥، تحرك كما يبـدو وفـق خطة كانت مـرسومة باحكام، وعبر إلى انكلترا، وتم قبـوله ملكاً في لندن، واستحوذ على خـزائن الأموال في ونشستر، وجرى تتويجه في ٢٢— كـانون أول، وتوجـه إثر هذا رسـول مسرع إلى نورمانـدي، وهناك قبله البـارونات النورمـان بعد تردد، دوقـاً لنورمانـدي، وبذلـك أعاد ستيفن إحيـاء مملكة هنــري الأول فيما وراء القنــال، وبـدا في أوائل سنــة ١١٣٦، وضعــه مضموناً، ولـدى عقده لبلاطه في عيد الفصح، حضره عـدد كبير من كبار ملاك الأراضي، بما فيهم أخـو ماتيلدا لأبيها، ايـرك روبرت أوف غلوستر، الذي قدم له الـولاء. وتمكنت ماتيلدا مع مؤيديها مـن احتلال أجزاء من جنوبي نـورمانـدي، وكانـت هناك أعمال عصيـان فردية ضد ستيفـن في غـربي انكلترا قادهـا بلدويـن أوف ردفير Radvers، وأخرى في الشمال قادها ملك الاسكوتلنديين.

وتبعـاً لمؤرخي أيـامـه، كان ستيفـن فارسـاً جيـداً، لكن في المجـالات الأخرى كان أحمقاً، اعتاد أن يصدر مـراسيم وأوامر كانت زائدة في قسوتها ووحشيتها، ومـا من أحد شـك بشجاعة ستيفـن الشخصية، ففي معـركة لنكولن في ٢— شباط سنة ١١٤١، صمد على قـدميه وقاتل لمدة طويلة، أولاً ببلطته قبل ان تنكسر ثم بسيفه قبل أن يقع بالأسر.

لقد كـان متقلبا، ساعـة كريما شجاعاً، وأخـرى خسيساً خائنـاً، ينهب رعايـاه، ويصدر أحكامـاً خاطئة، وهو لم يتمتـع قط بشخصية ومـؤهلات رجـل الدولـة، وهو مـا تطلبته الأوضـاع السياسيـة في القرن الثـاني عشر، لذلك أخفق.

١٢— الاسكوتلنديون المتوحشون:

حكـم داود الأول ملكـا لاسكـوتلنـدا مـن ١١٢٤ إلى ١١٥٣، وكـان بالوقت نفسه اداريـاً جندياً، وحامياً للكنيسة، ونهاباً قاطعـاً للطريق، وقد غزا في سنة ١١٣٨ المنطقـة الشمالية من انكلترا حتى يوسـع أملاك أسرته وليضـم المنطقة التـي قامـت فيها بين نهري التـاين وفـورث، ولم تكن قـد صارت انكليزية تماما ، بل كانت آنذاك انكليزية — اسكوتلندية.

وأثـار بأعمالـه القاسيـة مقـاومة شعبيـة لم تعـرفها المنطقـة منذ مـائتين وخمسين سنة مضـت، منذ أيام الفـايكنغ، وقد تحالـف النبلاء مع العـامة للتصدي له، وقـاتله الانكليز تحت رايات حماتهم من القـديسين، وكانت حـربهم ضد الاسكـوتلنـديين المتـوحشين حربـاً مقـدسـة، وكان بعـض الـرجال الاسكـوتلنـديين نصف العـراة مـازالـوا وثنيين، وحصل الملـك الاسكوتلندي على أسلاب كثيرة، ومد سلطانـه نحو الجنوب، لكن لبعض الوقت فقط.

١٣— الحملة الصليبية المأساوية:

استـولى زنكي سنـة ١١٤٤ على الـرهـا وأزال الحكم الصليبـي منهـا، وبذلـك أسقط أولى الـدويلات الصليبية تـأسيساً في المشرق، وكـان هذا من الأسباب الأسـاسية لقيام الحملة الصليبية الثـانية، التي قادهـا لويس

السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا، ووصلت جيوش الحملة إلى أنطاكية بعدما كادت أن تصبح أشلاء، وبعد الوصول إلى القدس تقرر مهاجمة دمشق، وفعلا حوصرت المدينة وأخفق الحصار.

وكان مع لويس السابع زوجته اليانور الأكوتونية، ولم يكن من السهل عليه قيادتها وضبطها، ففي أنطاكية حاولت مع عمها ريموند أمير أنطاكية أن تقنع لويس بالبقاء هناك للعمل ضد حلب، لكنه رفض لأنه أراد الوفاء بنذر الحج والوصول إلى القدس، وراجت في أنطاكية أخبار أن العلاقة فيما بين اليانور وعمها تجاوزت الأمر الطبيعي، وصدق لويس ما قيل، لذلك جر زوجته وأبعدها بالقوة، وأدى هذا فيما بعد إلى التخلي عنه سنة ١١٥١، ومن ثم الزواج بهنري الثاني، وبذلك خسر لويس السابع زوجته وخسر معها دوقية أكوتين.

١٤— بداية ونهاية:

لم يكن الزواج فيما بين اليانور الأكوتونية ولويس السابع ناجحاً لعدة أسباب، منها : كان الملك يرغب بالحصول على وريث ذكر، وهي قد أنجبت له ابنتين فقط، ولدت أولاهما سنة ١١٤٥ وثانيهما سنة ١١٤٩، كما وكانت الفوارق بينهما عظيمة جداً، فهي عندما تزوجت من لويس، شعرت وكأنها تزوجت من راهب وليس من ملك، وكان لويس من جانبه مسيطر عليه جنسيا من قبل زوجته، ونتيجة لهذا عد ناقص الرجولة في نظر معاصريه.

ونشب خلاف حاد بين الزوجين سنة ١١٤٩، أثناء الحملة الصليبية الثانية عندما اتهمت اليانور بعلاقة زنا مع عمها ريموند أمير أنطاكية، وبعد عودتها، حقق البابا مصالحة رائعة بينهما، ففي رحلة العودة فرش لهما البابا يوجين الثالث فراشاً أعده بنفسه وزينه بزينة ثمينة جداً، لكن

تبرهن أن هذا بلا محصلات طويلة الأمد.

وحصلت اليانور على الطلاق من لويس، وقرر في ٢١ — آذار سنة ١١٥٢ أربعة من رؤساء الأساقفة الفرنسيين فصلهما على أساس وجود قرابة قريبة بين جديهما تحرم الزواج بينهما حسب شريعة الكنيسة، وهي حجة كانت رائجة استخدمت دوماً في حالات الزواج المخفق للوصول إلى الطلاق، ومن المؤكد أن اليانور كانت تعرف ما تريده، فما أن حصلت على الطلاق حتى بعثت برسلها إلى هنري كونت أنجو، وقد تزوج منها في ١٨ — أيار ١١٥٢.

وكانت العلاقات نشأت بينهما في آب من السنة المنصرمة عندما تقابلا في باريس، وكان هنري مثله مثل أبيه غيوفري بلانتغنت، حيث أنه تزوج من امرأة أكبر منه بعدة سنوات، ومثله أيضاً حصل من هذا الزواج على دوقية أكوتين التي كانت ميراث اليانور، وكان هنري قد صار دوقا لنورماندي سنة ١١٥٠، ثم كونت أنجو بعد وفاة أبيه سنة ١١٥١، والآن بضربة واحدة غدا أعظم قوة من مولاه الاقطاعي، الملك لويس.

وأثارت أخبار الزواج لويس ودفعته لشن الحرب ضد هنري، وقد انضم إليه غيوفري الأخ الأصغر لهنري، الذي أدرك أن زواج هنري من إليانور كان من معانيه أن هنري لن يتخلى له عن أنجو، كما هو مفترض منه تنفيذاً لوصية أبيهما، وفي انكلترا انضم إلى لويس الملك ستيفن مع ابنه يوستاس.

ولكن هنري نجح بالحرب بسهولة، وباشر سلطانه بقوة على جميع أراضيه الفرنسية، فهو الآن بات يمتلك كتلة واسعة امتدت في الشمال من نورماندي ومرت خلال أنجو إلى أكوتين في الجنوب، وفي الحقيقة حقق الزواج من اليانور نقطة تحول تاريخية عظمى، فهنا بدأ تاريخ أسرة بلانتغنت.

١٥— الخليلة الملكية، مسألة اجتماعية منبوذة:

عندما كان هنري الثـاني في الأربعين من عمره اعترف للمرة الأولى بأن روزاموند Rosamund هي خليلته، وكـانت في الثلاثينات مـن عمرها، وهي ابنـة رجل نبيـل اسمه وولتر كلففـورد Clifford ولعلها كـانت المرأة الوحيدة التـي أحبها هنري في حياته، وقد عـاشت في القصر الملكي في وودستوك في أكسفـورد شاير، الذي أعـاد الملك تأسيسـه خصيصاً لها، وذلـك قبل وفـاتها في سنة ١١٧٦، بسنتين أو ثـلاثة، وقـد عد المؤرخـون وفاتها على أنه جزاء استحقته لاقترافها الزنا.

ودفنها الملك الحزيـن في قبر فخم جداً أقيم أمام المذبـح العالي في دير راهبات غودستو Godstow ، وقدم فيها بعد هو ووالـدها هبات كبيرة للديـر من أجـل ذكراها، لكـن في سنة ١١٩١، بعـد وفاة هنـري، ارتعب القديـس هيوج أسقف لنكولـن حين وجد قبراً زانية داخل الكنيسـة، وقد زيـن بشكل رائع جـداً، ولكي يضـع حداً لهذا الاثـم العظيـم أمر بازالـة المزار الذي حوى القبر، وبذلك باتت روزا موند خارج الكنيسة.

وبعد قـرن من وفاتها شرع المؤرخون يحيكـون بعض الحكايـات حولها، فهي قـد أخفيت في مخدع سري لايمكـن الوصـول إليه داخـل وودستوك لحمايتهـا من اليـانور صـاحبـة أكوتين ومـن غيرتها، غير أن الملكة عثـرت عليها وجعلتها تنزف داخـل حمام حامية حتى ماتت، وقيـل في قرون تالية بأن اليانور استخدمت سكيناً وكأسـاً مسموماً، وأنها عرفت طريقها ضمن المتاهة باستخدام خيط حريري حتى وصلت إلى مخدعها السري.

ولندع الحكايات الأسطـورية جانباً، تبين قصة روزامونـد وهنري الثاني بوضوح المصاعـب التي توجب على النساء مواجهتها عنـدما كن يضعن أنفسهن خارج المجتمـع، مجتمع كانت توجهـاته بيد الرجال فهـم الذين تحكموا به، ومع أن أبنـاء الزنا من الاسرة المالكة مثل غيـوفري بلانتغنت،

ووليم صـاحب السيف الطـويل، وهما مـن أولاد هنري الثاني مـن خلال اتصالات قـديمة، قـد نالـوا الاعتراف والتشريف، نظـر إلى أمهاتهم نظـرة سوء وعـوملن بـازدراء واستهجان لأنهن خـرقن شريعـة الكنيسة وقـوانين المجتمع، وأكثر من هذا نجـد حتى النسـاء المحظوظات وذوات المكـانة المحترمـة مثـل ميليسـانـد المقـدسيـة، والامبراطـورة مـاتيلـدا، واليـانـور الأكوتـانية، استخـدمن مـن قبل آبـائهن كـأدوات سياسيـة، وفقط ذوي العـزم الشـديد منهـن هـن الـلائي استطعن احـداث تـأثير شخصي على السياسات الرفيعة للقرن الثاني عشر.

١٦-رئيس أساقفة ضد ملك:

مع أن الكثير كتب حول رئيـس الأساقفة توماس بكت صـاحب كانتر بري، وتجاوز هذا ماكتب حول سـواه من شخصيات عصر أسرة بلانتغنت في انكلترا،مع هذا كلـه تبقى الخلافات حادة حول شخصيته،فقـد كانت كذلـك بين معاصريه، ومـاتزال على هذه الحالـة منذ ذلك الحين،فهـو قد ولد في لنـدن سنة ١١١٨مـن أسرة تجار نورمانـديين،وتعلم في ديـر ميرتون ثم التحـق بحاشية ثيوبـولدرئيـس أساقفـة كانتربـري،حيث هيـأت له مـواهبه الاداريـة السبيـل لترقيـات سريعة، وعين في سنـة ١١٥٤ رئيـس شمامسة في كانتربري، وفي أواخر تلك السنـة عينه هنري الثاني بناء على توصية رئيس الأساقفة ثيوبـولد مستشاراً له لجميع انكلترا،واستغرق بكت نفسه ووقتـه في السنوات الثمانيـة التاليـة كلية في مسـائل الدولـة،وحظي بثقة الملك الكاملـة، ولم يكن ذلك أبداً بسبب تأييـده لهنري في صراعاته مع الكنيسة،وإخلاص بكت هذاجعله المرشـح المثالي لهنري الثاني لرئاسة أساقفـة كانتربري بعـد وفاة ثيوبولـد في سنة ١١٦١،ولهذا فوجـىء الملك وغضـب، وعندمـا أقدم بكـت،وهو خـادمـه الموثوق،على الاستقـالة مـن المستشارية فور انتخابه لرئاسة الأساقفـة،ومن ثم غدا أكثر خصومه إرعاباً

وأفضل شرح للتغير الهائل الـذي ألم ببكت،ثـم للخلاف الـذي نشب إثـرذلك،هـو أن رئيـس الأساقفـة حول ولاءه مـن هنـري الثاني الى مـولى أعظم،هو الرب، فهـذا ماعبرعنه بكت في مناقشة حـامية جرت بينه وبين الملك في سنة ١١٦٣، حيـث قال له:«في يوم الحساب المخيـف سنحاكم معـاً كعبيد لـرب واحد ،وصحيـح أن المولى المؤقـت تنبغي طـاعته،لكـن ليس ضـد الرب» ، وكان الجواب الوحيـد الذي وجده هنري الثـاني أمام هذه المناقشة الحادة هو التهديد باستخـدام القوة الجسدية،وهو سلاح كان مـن غير المعقول استخـدامه ضـد أعظم الشخصيـات الدينيـة مكانـة في بلاده.

وتفجـر الصراع بين الملـك وبين رئيـس الأساقفـة،وكـان القتـال بينهما حول المسؤوليـة القضائية،لاسيما وأن هنري الثاني كان قـد عقد العزم على الحد من سلطة المحاكم الكنسية،فقد اعتقد أن نشاطات هذه المحاكم قد بـدأت تلغـم السلطـات القـانـونيـة التـي ورثهـا مـن الملـوك الانكليزالمتقدمين،ففي وستمنستر اقترح هنري الثاني في تشرين الأول لعام ١١٦٣ أن الكتاب (أي النـاس في الطـرق الكهنوتيـة،ولهذا هـم بطبيعـة الحال مرتبطين بـالكنيسة)إذا مـاوجدوا مجرمين في جـرائم عدوانيـة ينبغي تسليمهم الى السلطات المدنية لانزال العقـوبة بهم، وبعد ضغوط جاءت من الملـك، وبعد تبدلات عديـدة بالرأي،رفض بكـت أخيراً الموافقة على هذا الطلب،وعلى مطالب أخرى قـدمها هنري مكتوبة في اجتماع عقد في كلارندونClarendonفي كانون الثاني سنة١١٦٤.

وازداد منذالآن اهتمام الملـك بمسألـة خضوع رئيـس الأساقفـة، وبعد اجتماع آخر لمجلـس البارونات والأساقفـة عقد في نور ثأمبتـون في الخريف جرت خلاله مواجهات عاصفة نجـا بكت بنفسه الى فرنسا،حيث التمس حماية البابـا الاسكندر الثالث،الـذي كان هو نفسه يعيـش وقتها في المنفى في البلدة الكاتـدرائية لسنس، ومكث رئيـس الأساقفة السنوات التـالية

في الدير السسترشياني في بوتني،ومن هناك أثار حرب كلمات ضد ملكه وضد مستشاريه.وكان موقف غالبية المثقفين من رجال الكنيسة في أوربا الغربية أن بكت كان محقاً في صراعاته مع الملك ،وعلى كل حال كانت نشاطات الكنيسة والدولة من غير الممكن فصلهما لتداخلهما في ظل حكم أسرة بلانتغنت لانكلترا،وكان الأساقفة الانكليز مجموعة قوية،لكنهم دانو بتعيينهم للحظوة الملكية،وكانوا متورطين بشكل كبير في الأعمال الادارية والقضائية لصالح التاج، ولهذا كانت لهم مصالح كبيرة في الاحتفاظ كوسطاء رئيسيين فيما بين الكنيسة والملك،وكانوا مكرهين على رؤية المواقف العدوانية لبكت ضد الملك.

وعلى هذا توفر القليل من التعاطف نحو رئيس الأساقفة الذي أوصل معارضته للملك الى الحد الأقصى،وبالتدريج أرغم بكت على ادراك أن منفاه التطوعي كان له تأثير لايذكر على سير الأمور في انكلترا،وتبعاً لما قاله الأسقف غلبرت فوليوتFoliotأوف لندن،الذي عرف بكت بشكل جيد:«لقد كان دوماً أحمقاً ،وسيبقى أبداً كذلك»وهذا الحكم على رئيس الأساقفة المنفي لم يكن عادلاً أبداً، ومهما يكن الحال كان قوله ملاحظة صحيحة حول كيف عرض بكت بشجاعة مسألة الصراع بين القوتين الدينيةوالدنيوية،دون أن يستطيع ايجاد حل لذلك،إلاّبموته.

١٧-حلف ابنة:

بدأت المباحثات من أجل زواج ماتيلدا كبرى بنات هنري الثاني من هنري الأسد،دوق بافاريا‌وسكسوني، في سنة ١١٦٥،عندما قاد رينالد رئيس أساقفة كولون-الذي كان المستشار القريب للامبراطورفردريك بربروسا-بعثة جاءت الى هنري الثاني وهو في روان،وكان الاقتراح أن تتزوج واحدة من بنات الملك من الابن الأصغر لفردريك،بينما تتزوج ماتيلدا من الدوق،الذي كان أعظم رعايا الملك قوة في تلك المرحلة،وحليف قريب له،وكان فردريك الذي امتد سلطانه بشكل

نظري خلال ألمانيا وشمالي ايطاليا،بحاجة للتأييد في صراعاته مع البابوية،ومع المدن في شمالي ايطاليا،وكان للتو قد أقام بابا مضاد ومعاد للبابا الاسكندر الثالث،وكان هنري الثاني متضايقاً من خلافه مع توماس بكت،الذي ذهب الى المنفى في نهاية عام ١١٦٤،والتمس من البابا المساعدة، ولهذا رأى هنري بصداقته مع الامبراطورية وسيلة ضغط على البابا الاسكندر من أجل التأثير عليه ضد بكت.

لكن بما أن هنري الثاني كان قد أغضب بربروسا،عندما رفض أخيراً نقل ولائه الى البابا المضادفكتور الرابع،فالذي تم فقط هو الزواج فيما بين ماتيلدا والدوق هنري،وجرت الاحتفالات في شباط سنة ١١٦٨، في برونسوكBreenswick ،وكان هنري في الثلاثينات من عمره،وقد تزوج من قبل، ولم ينجب الزواج وريثاً ذكراً ،ومن ثم تم حله على أساس قاعدة القرابة المعروفة،وكانت ماتيلدا التي ولدت في سنة ١١٥٦،إما في الحادية عشرة من عمرها أو في الثانية عشرة،عندما تزوجت،وأنجبت لزوجها ولدين ذكرين،والى تاريخ وفاتها في سنة ١١٨٩،أدارت ممتلكات زوجها الواسعة أثناء غيابه في حجه الى الأراضي المقدسة في ١١٧٢-١١٧٣.

وكانت النتائج السياسية للزواج غير متوقعة كلياً،حيث ورطت هنري الثاني وأولاده بعمق في السياسات الألمانية،فقد تخاصم الدوق هنري مع الامبراطور فردريك في أواخر السبعينات من القرن الثاني عشر، وفي خريف سنة ١١٨٢ وصل هنري وأسرته الى بلاط هنري،منفيين،وحاول الملك الختن أن يضمن عودة صهره الى سكسوني من خلال الضغوط السياسية على فردريك،وأصبح الولدان،لاسيما أوتو وهو الثاني بينهما،تحت حماية أسرة بلانتغنت،وقد بقيا في بلاطها عندما عاد هنري وماتيلدا الى ألمانيا سنة ١١٨٥.

١٨-الملكة السجينة السياسية:

كـانت اليـانور في السنين الأولى مـن زواجهـا من هنـري الثاني نشطـة منشغلة في الحيـاة السياسية لممتلكاتها،وقـد سافرت كثيراً جداً ،ومـارست كثيراً المسؤوليات الادارية،وظلت حتى سنة ١١٦١ تقريباً النـائبة للملك في انكلترا أثنـاء غيـابـات هنـري، ويمكن القـول أنها منـذ هـذه الآونـة لتصاعد رفضهـا لهنري،ومع أن هنري أعطـاها حرية كـاملة للاشراف على دوقية أكـوتين ١١٦٨،لعله فعـل ذلك لتتركـه يتابـع مغامـراته السيـاسية الخاصة والنسائيـة بدون عوائق مع أمـور أخرى، ولم يتوقف نشـاط اليانور التآمـري ضده، وبعـد سنة عندمـا تمت تسمية رتشـارد ولياً لعهـدها على الدوقيـة ،غدا رتشارد رفيقهـا الدائم وتابعها في التـآمر ضد أبيـه، وأعطى تتويـج هنري الشاب ملكـاً لانكلترا في سنة ١١٧٠،اليانـور فرصة نـافعة لتحقيق خططها ضـد زوجها، ووصل عملها التـآمري في سنة ١١٧٣ الى درجة الإثمار،وذلك عنـدما ثار أولادها: الملك الشاب،ورتشـارد وغيوفري ضد أبيهـم وهربـوا الى عند لـويس السـابع، وألقـي القبض على اليـانور عندما حـاولت اللحاق بهم وهي متخفية على شكل رجـل، وقد سجنت من قبل زوجهـا الغاضب وعرف هنري أنه سيقترف خطيئـة سياسية كبيرة إذا ماطلق اليـانور،كما أنه لم يكن قادراً على إرغامهـا على أن تصبح راهبة في ديـر فـونتغـرولـت،وادراكـاً منـه لما مثلتـه مـن خطـر على الاستقـرار في بلاده،أبقـاها في سجن مضيـق عليها،وأوكل الاشراف على ذلـك السجن الى أكثر رجـاله ثقة،وقـد تحملت هذه المعـاملة بصبر وشجاعـة،وسمح لها مـع مستشاريها الـروحيين بالترحـال الى مسافـات قصيرة،فيما بين ونكستر وسالسبري ولدغـرشال Ludgershallومساكن ملكيـــة أخرى في جنوبي انكلترا.

وبعد وفـاة الملك الشاب في سنـة ١١٨٣،أطلق سراحها لـوقت قصير كي تـذهب الى أكوتين لتتصـدى لادعاء فـرنسي بالدوقيـة ،وسمح لها في السنة التالية بـالقدوم الى البلاط لرؤية ابنتها ماتيلـدا المنفية من سكسوني

مع زوجها هنري الأسد،ثم ذهبت سنة ١١٨٥ في ظل الحراسة الى نورماندي لتتسلم أكوتين من رتشارد،الذي اقتنع بالتخلي عن دوقيته المحبوبة،تحت تهديد والده أن اليانور سوف تعيث فساداً في المنطقة مع جيش بصحبتها .

ومن جديد بدأت اليانور في السنوات الثلاث الأخيرة من حياة هنري بالتآمر ضده،ومنحها موته في ١١٨٩ الحرية وسمح لها بممارسة السلطة بشكل أعظم مما تمتعت به من قبل.

١٩-قضية قتل:

كان الفصل النهائي في الصراع الذي استمر ست سنوات فيما بين هنري الثاني وتوماس بكت حاسماً لأن صراع الإرادة نفسه استمر طويلاً دون نتيجة،وأمكن في سنة ١١٧٠ الوصول الى تسوية بين الملك ورئيس الأساقفة،بموجبها بات بإمكان بكت العودة الى انكلترا،كما أن ممتلكات رئاسة الأسقفية المصادرة سوف تعاد،ولسوف يعيد بكت تتويج الملك الشاب، ومامن شيء قيل حول الاجتماع الذي جرى في كليروندون،وفي ١-كانون الأول سنة ١١٧٠،عاد بناء عليه رئيس الأساقفة الى انكلترا بعد سني نفيه،ثم مالبث أن قام بحركة عدوانية وغير تصالحية فحرم رئيس أساقفة يورك مع اثنين من الأساقفة كانا قد ساعداه لدى تتويجه للملك هنري،وعندما وصلت هذه الأخبار الى هنري في نورماندي اشتعل غضباً، فما كان من أربعة من فرسانه إلا أن سافروا الى كانتري بري ليتولوا تنفيذ انتقام رهيب من الصعب جداً أن نصدق أن الملك كان بلادور فيه.

وفي عشية ٢٩-كانون الأول كان رئيس الأساقفة قد اغتيل في كاتدرائيته،،وبذلك ثار السخط وعم جميع أرجاء أوروبا.

وبات بكت الميت أقوى بلا حدود من بكت الحي، وفي خلال عدة

أشهر تلت وفاته حكي عن عدة أعمال إعجازية حدثت عند ضريحه، وخلال أقل من ثلاث سنوات مضت على مقتله جرى تطويبه قديساً من قبل البابا الاسكندر الثالث،وكان ذلك في شباط سنة ١١٧٣.

وفي السنة التالية أعلن الملك أمام الناس عن توبته أمام مزار عدوه القديم،وغدا هذا المزار بسرعة ثم بقي واحداً من المزارات الرئيسية لمسيحية العصور الوسطى،ومقصداً للحجاج،ولم يكن توماس بكت بطبيعته قديساً،لكنه عدّ شهيداً،وعلى هذا الأساس أصبح أعظم الشهداء تأثيراً في تاريخ الكنيسة الانكليزية.

٢٠-فراخ النسر:

تبعاً لماروه جيرالدأوف ويلز،ترك هنري الثاني مساحة صورة بيضاء في مخدعه المصور بشكل رائع في قلعة ونكستر،وفي سنوات الملك الأخيرة جرى الرسم فوق المساحة وفق ماصممه الملك شخصياً،وحوت الصورة شكل نسر له أربعة فراخ،وكان هناك أنثى نسر واحدة جلست على ظهر النسر،وكان هناك نسرين على جناحيه يمزقان جسده،ووقف النسر الرابع فوق رأسه ينتظر ليقوم باقتلاع عينيه،وقال هنري إن الصورة مثلته مع أولاده الذين لم يتوقفوا عن تعذيبه حتى مات،وقال بأن الصغير بينهم ، وهو الأثير لديه سوف يؤذيه بوحشية أكثر من البقية.

ولد أكبر أولاد هنري من إليانور الذين عاشوا،سنة ١١٥٥،وهو هنري الملك الشاب،وكان الثاني هورتشارد،وقد ولد سنة ١١٥٧،أماالثالث فهو غيوفري وقد ولد سنة ١١٥٨،وكان الأخيرهو جون وقد ولد سنة ١١٦٧،وقد حذا هنري حذو سواه من أمراء فرنساالكبار،الذين غالباً ماقسموا أراضيهم بين أبنائهم وهكذا تسلم الولد الأكبر الممتلكات التي عادت الى الأب،وتسلم الأولادالأصغر بعض الممتلكات وبناء عليه توقع الأولاد الأربعة تسلم بعض الحصص من ممتلكات أبيهم الواسعة لكن غير المريحة، وفي سنة ١١٦٩ قام هنري ببعض الترتيبات في هذا المنحى

فنال الملك الشاب نورماندي وانكلترا وأنجو،وتقرر أن يأخذ رتشارد دوقية أكـوتين مع أراضي أمـه،وأن يأخـذ غيوفـري بـريتاني ،لكـن بمثابـة تابـع للملـك الشاب،الـذي توج ملكـاً لانكلترا سنة ١١٧٠،وحـرم جون مـن تملك أية أراض،ولهذا نال لقب «بلا أرض».

وكان هنري الملك الشاب عابثاً وكسـولاً ،وشاباً يحب الحرب،لذلك ثار ضـد أبيه لأنـه لم يسمـح له بممارسـة سلطانـه والتصرف بـأراضيه،وكـان ميراث جون أبعـد صلة وصل مع العـائلة فقد أراد هنري الثـاني أن ينال ابنـه الأصغر الحصـون الأنجيفية في شينـون ولاندون،وميريـو،لكن الملـك الشاب عارض هذه الخطة،وبمساعدة من اليـانور جرى تدبير مؤامرة ضد هنري الثـاني أسهم فيها لويـس السابع ملك فـرنسا الذي إليه فـرالأخوة الثـلاثـة الكبـار ،واستهلـك هنـري الثـاني جميـع بـراعـاتـه السيـاسيـة، والدبلـوماسية والعسكريـة حتى استطاع هـزيمة هذا التحالـف الخطر في سنة ١١٧٤.

٢١-مذبحة اليهود:

في السنوات التي أعقبـت استيلاء النورمان على انكلترا،شجـع الملوك الانكليز اليهـود على عبور القنـال من نـورمانـدي الى لندن،ومـع منتصف القرن الثاني عشر كان هناك مجموعات صغيرة انتشرت في مدن البلاد،عملت على اقـراض الأمـوال الى جيرانهم المسيحيين،وأثـارت اعـدادات رتشـارد للحملة الصليبيـة الثالثـة ضد المسلمين العـداوة الشعبية الـواسعة نحـو اليهود،الذيـن مثلوا أهم مجموعـة دينية وعرقية متميـزة كأقلية في انكلترا، وبدأت أعمال العنف والصخـب ضد اليهود مع أعمال تتـويج رتشارد في وستمنستريوم ٣-ايلول سنة ١١٨٩،وامتـدت أعمال العنف هذه الى جميع أرجاء البـلاد،وتجلت على شكـل هجمات،أو سلسلة حملات ضـد مناطـق اليهود في المناطـق الريفية ودامت خـلال الشتاء والربيع،ووصلـت الذروة في المذبحـة المشهـورة،وأعمال الانتحـار الجماعيـة لحوالي/ ١٥٠/ يهودي

داخل القلعة الملكية في يـورك يوم سبت الآغادولGODOL ليلة ١٦ آذار سنة ١١٩٠، واتخذ رتشارد نفسـه خطوات مباشرة لتجنب تكـرار مثل هذا الصخب وأعمال عنف الرعاع.

وفى العقد الأخير مـن القرن الثـاني تحول اليهود الانكليز الـذين كـانوا يقرصـون الأموال ويتمتعون بالحمايـة الملكية ،الى أقنان للخزينـة الملكية، وبذلـك انتظموا أكثر مـن ذي قبل،وجـاء هذ الإجراء لضمان خضـوعهم للضرائب الملكية الثقيلة،ويبـدو أن الملك جون كان يـزدريهم،لكنه أصر ،أنهم ماداموا مصدراً نافعاً للمال،ينبغـي حمايتهم، وقال:«إذا ما أعطيت السلم حتـى إلى كلـب ينبغي حمايـة هـذا السلـم وعـدم خـرقه»،وفـرض جـون عرامـات قاسيـة جداً على اليهـود،مماسبـب هرب كثير منهـم من انكلترا للنجاة مـن جشعه،وفي سنة ١٢٩١جـرى سحب الحماية الملكيـة المتقلبة بشكل كـامل مـن قبل ادواردالأول،وطرد اليهـود من انكلترا حيـث مكثوا خارجها طوال بقية العصور الوسطى،لابل أكثر من ذلك.

٢٢-فيليب أغسطس:

عندمـا التقى رتشارد وفيليـب الثاني ملك فـرنسا في فيزلي،كـان الملك الفرنسي الأدنـى كثيرا والأقل في اعطاء انطبـاع العظمة بين الـرجلين،فقد كـان قصيراً،وبدينـا،ونـادراً مـاكان بصحـة جيـدة،وقـد فقد شعـره أثنـاء الحملـة الصليبية الثـالثـة،زد على هذا كـان يميـل لأن يكـون مرائيـا،وفي القتال كان النظير الأسـوأ للملك الانكليزي،غالباً ماأرغـم على الفرار،وقد خسر آلات قذفـه في فيرنول، وقطـار عرباتـه في فرتفـال،وسقط في الماء في غيسـور،حتـى في نصره العظيـم ضـد جـون وحلفـائه في بـوفين سنـة ١٢١٤،كان قد جرد من حصانه.

ومـع هذا كلـه،لئن لم يكـن فيليب قـد بنـي ليكون بطـلاً محارباً،كـان حـاكماً قادراً،وعنـدما كـان شابـاً،وجـد يحلم تحت شجـرة ويتساءل هـل

سيكون عظيماً مثل شارلمان،ووصفه المؤرخ الفرنسي فوتيير:«إنه كان أعظم ملوك أسرة كابيه»وفي الوقت نفسه قال المؤرخون :«لقد وسع الى درجة كبيرة حقوق وسلطة مملكة فرنسا، وأغنى الخزانة الملكية»،فلقد ضاعف ممتلكات الملكية أربع مرات،وهزم أوتو الرابع امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة،الذي كان حليفاً لجون،في بوفين -Bou vines ،وسبب انهيار الدويلات البلانتغنتية في القارة،وحكمت فرنسا بشكل فعال من قبل موظفين محليين،وغدت باريس عاصمة عظيمة،

وكان فيليب قد تزوج ثلاث مرات، وقد وجد زوجته الثانية وهي دانماركية اسمها إينبورغIngeborg غير مرضية بعد ليلة واحدة من الزواج، وأدى انفصاله عنها ثم، ما أعقب ذلك من ارتباطه مع أغنس أوف ميران الى عداء كبير وخصام مع البابوية ثم الى حرمانه كنسيا، وفي سنة ١٢١٣ بعد ولادة حفيده،أعاد إينبورغ زوجة له للمرة الثانية.

٢٣-الذراع الطويلة للملكية:

كان نجاح الحملة الصليبية الثالثة من ١١٨٩ الى ١١٩٢ محدوداً،وتبرهن أنه من غير الممكن استردادالقدس،

لكن صلاح الدين أجبر على عدم التوسع،وتمكنت المملكة الصليبية التي بدت في عام ١١٨٧ على حافة الزوال،من اعادة التأسيس على الشريط الساحلي،وتمكنت من العيش بعد ذلك لقرن من الزمان،زد على هذا استولى رتشارد على جزيرة قبرص الاستراتيجية في سنة ١١٩١،أثناء قدومه الى الأراضي المقدسة،فصارت قاعدة ساحلية للامداد.

وعادت معظم نجاحات الحملة الى رتشارد،الذي كانت قد عادلت قدراته التنظيمية والسياسية براعاته العسكرية المعروفة، وكانت الترتيبات التي أعدها للحكم في الممتلكات البلانتغنتية أثناء غيابه عملية ناجعة ،وكانت رعيته معتادة على غياب الحكام،لأن والده هنري أمضى مدة وجيزة في

كل واحـدة من مقـاطعاتـه،وفي مناسبـة رتشارد يـرجح أن الصـلات بينه وبين موظفيه بقيـت عن طريق المراسـلات،ومع هذا كان بـامكان الملك التجاوب مع أي قضية أو حادثة بعد مالايقل عن شهرين على وقوعها.

وكان قـد عين في انكلترا، ونورمـاندي،وأنجو،ويـواتو،وغسكـوني رجالاً مخلصين لـه وأصحاب خبرة،وقـد مثلوه بشكـل جيد ،ومـن أجل حمايـة دوقية أكوتين المضطربـة تزوج من بيرنغاريا، وبذلك ضمـن مساندة أبيها سانشـو السادس صـاحب نافـار ليقف ضـد الكونت ريمـوند صـاحب طولوز،وكـانت اليانور مع المسـؤولين الآخرين متحفزيـن لحماية السلطات الملكية .

وكانـت الترتيبات التـي أعدهـا ناجحـة بشكل عـام ،على الرغـم من بعض المصـاعب التـي كان مـن غير الممكن تجنبهـا في عصر كان غيـاب الملـك أو مرضـه يمكن أن يفـرض مشاكـل حـادة جداً ،وجـاء التهديـد الأسـاسي من أعـداء رتشارد وهـم:فيليب الثـاني ملـك فرنسـا،وريمونـد صـاحب طـولوز،وطبعـاً مـن أخيه جـون أثنـاء السنة التي تقدمـت على عودتـه، ولو أنـه عاد الى انكلترا،عنـدما كـان متوقعـاً، ولم يمض سنـة في السجن الألماني،لتبرهـن أن ترتيبـاته لحكـم بلاده أثنـاء غيابـه مع الحملـة الصليبية،كانت ناجحة الى أبعد الحدود.

٢٤-الملكة البديلة:

في ١٢-أيار عـام ١١٩١ تزوج رتشـارد قلب الأسد مـن بيرنغاريـا ابنة سانشو السادس صاحب نافـار ،وقد جرى تتويجها ملكة على انكلترا ،والمعلومات المعروفة حـولها قليلة، لكن هناك اتفـاق على أنها كانت حكيمة أكثر من كونها جميلـة،وأن الزواج أعـدّ لأسباب سياسيـة،وكان لـدى رتشارد ثـلاثة دوافع لاختيـاره بيرنغاريا:لقد كـانت بديلـة لخطيبته أليس الفرنسيـة التي رفضها في سنـة ١١٩٠،وليتحالـف مع نافـار،وليحصل على ولـد ذكر، ولم

يفلح فقط في النقطة الأخيرة .

وحملت اليانور أم رتشارد بيرنغاريا اليه عندما كان في طريقه الى الأراضي المقدسة ،وتركتها معه في صقلية في شباط ١١٩١، وكان ذلك قبل أن يحلل فيليب الثاني رتشارد ويحرره من تعهده الذي كان عمره آنذاك عشرين سنة، بالزواج من أليس،وكان الموسم آنذاك هو أيام الصيام،حيث من غير الممكن تنفيذ الزواج، وقرر رتشارد الابحار نحو الأراضي المقدسة،لكن السفينة التي كانت تحمل بيرنغاريا انفصلت عن بقية سفن الاسطول أثناء عاصفة من العواصف، وقد تمكنت من اللجوءالى مكان قرب ليماسول في قبرص ودفعت المحنة التي تعرضت بيرنغاريا إليها لتعرضها لتهديد اسحق كومنوس،حاكم الجزيرة،رتشارد الى محاربة كومنوس واحتلال قبرص، وتم عرس رتشارد وبيرنغاريا في ليماسول.

. وكان الزواج نجاحاًسياسياً ،فقدساعد سانشوالجرىء، أخو بيرنغاريا في الدفاع عن أكوتين ضد الفرنسيين أثناء وجود رتشارد بالسجن، ومع ذلك لم يكن الزواج سعيداً،فقد أمضى رتشارد وقتاً قليلاً مع زوجته، ولم يرزقابالأولاد، ولم تسهم بيرنغاريا بدور سياسي كبير،وعاشت بعد وفاة رتشارد في لامانس حيث حظيت بالشهرة والاحترام لكرمها في تقديم المساعدات .

٢٥-متاهة السياسات الألمانية :

كان الامبراطور هنري السادس ،حاكم ألمانيا،عندما سجن رتشارد هناك ١١٩٣-١١٩٤،وكان فردريك بربروساً والد هنري، واحداً من أعظم أباطرة العصور الوسطى ، وقد مدّ اهتماماته الى ايطاليا،وزوج ابنه من كونستانس وريثة صقلية النورماندية،وكان هذا واحداً من أسباب الصراع فيما بين هنري السادس وبين رتشارد،فجوانا أخت رتشارد كانت

قد تزوجت من وليم الثاني، ملك صقلية، الذي توفي سنة ١١٨٩، ووقتها كان رتشارد في طريقه نحو الأراضي المقدسة،فساند تانكرد أوف ليسي Leccee على خلافة وليم ضد هنري السادس.

وتوفر سبب آخر للعداوة في ألمانيا، تمثل بزواج هنري الأسد،دوق سكسوني وبافاريا،الذي كان خصماً لأسرة هنري،من أخت أخرى لرتشارد،هي ماتيلدا،وتمكن بربروسا مع أمراء آخرين من هزيمة الدوق،،لكن وضع هنري السادس كان بعيداً عن الضمان والأمن ،ففي الشمال الشرقي كانت هناك أسرة الولفيين Welf القوية،وكانت معادية وعلى خلاف حول الرابطة الأسقفية،وقد دخلت في صراع مع الأمراء في الشمال الشرقي كذلك كان هنري السادس بحاجة ماسة الى الفرصة التي تهيأت له بأسر رتشارد قلب الأسد ،

ومع أنه لم يكن من السهل اختيار طريق العودة للوطن،يبدو أن قرار رتشارد النهائي بالعودة عبر النمسا،التي يحكمها ليوبولد،عدوه القديم أثناء الحملة الصليبية الثالثة، اتخذ بلامبالاة،ووقع رتشارد بالأسر سنة ١١٩٢، وهو متظاهر بأنه خادم مطبخ يتولى تحريك سفود في حانة خارج فينا، وقد سلمه ليوبولد الى هنري السادس ،حيث سجن في ألمانيا في دور نستين ثم نقل الى تريفل،وأطلق سراحه في ١١٩٤ عندما دفع فدية كبيرة قدرها مائة ألف مارك(مع خمسين ألف اخرى ستتبعها، إلاإذا أقنع هنري الأسد في إقامه سلام مع الامبراطور)،كما أنه وافق على الاعتراف بهنري السادس سيداً اقطاعياً على انكلترا.

وكان نصر هنري قصير العمر،ذلك أنه توفي بعد ثلاث سنوات في ١١٩٧،وانتقل حكم الامبراطورية الى حليف رتشارد:أوتو أوف برنسوك Brunswick،ابن هنري الأسد.

٢٦-فدية ملك:

أطلق سراح رتشارد من السجن الألماني مقابل فدية كبيرة جداً قدرها ٦٦,٠٠٠ جنيه جمعت من أراضيه،ويعود الفضل في هذا الى المستشار وليم لو نغشامب،والى أمه إليانور، والى النظام الذي طوره رتشارد وأسلافه،والذي كان من الممكن أن يكون فعالاً بما فيه الكفاية حتى أثناء غياب الملك.

وعندما ذهب رتشارد في الحملة الصليبية سنة ١١٩٠،كان ملكاً عظيماً وثرياً ،ومع أنه أمضى عدة أشهر فقط في انكلترا،لقد أحسن استخدامهم،فقد ذكر أحد المؤرخين المعاصرين له أنه«عرض كل شيء لديه للبيع:الوظائف،اللوردية،والايرليه،والعمالة والقلاع،والبلدات والأراضي،وكل ماتوفر»وصرح رتشارد نفسه قائلاً : «سوف أبيع لندن نفسها إذا وجدت مشتري»حتى لونغشامب توجب عليه دفع ٣,٠٠٠ جنيه مقابل وظيفة المستشار، ونتيجة لهذا تمكن رتشارد من الضغط أكثر على المسلمين مما استطاع فيليب أن يفعل ،فقد كان لديه سفناً أكثر،وأدوات حصار ،ورجال،وأعطى أعطيات أنمس.

وحكمت أراضيه أثناء غيابه بشكل جيد من قبل وزراء مخلصين،وذلك على الرغم من المتاعب التي آثارها أخوه الطموح جون،ففي انكلترا أثقل وليم لونغشامب«كاهل الشعب وظلمه باستخراج مكوس ثقيلة»ليمول حملات مولاه، وبذلك جعل نفسه لايتمتع بالشعبية،وحاول جون استغلال هذا

وعلى الرغم من دفع رتشارد للفدية،بدون مساعدة لونغشامب البارعة،تمكن من جمع مايكفي من مال بين ١١٩٤و١١٩٩ لاسترداد مااستولى عليه فيليب في نورماندي،ولبناء قلعة شاتو غيلاردالرائعة،وليحفظ ممالكه سليمة.

٢٧-حصاد أسرة بلانتغنت:

كان رتشارد بـرأي معاصريه أثرى وأقوى وأشجع مـن الملك الفرنسي، وصحيح أن الملـك الفرنسي كـان أعلى مرتبة مـن رتشارد،لكـن ممتلكات رتشارد كـانت أوسـع وأكثر خصباً،كـان فيها عـدد من البلـدات المزدهرة والمراكـز التجـارية النـاشطـة بحكـم وجـود بحر الشمال،والقنـال،وطـرق الأطلسي مع مجاري ثلاثة أنهار عظيمة هي:السين واللوار،وغارون.

وصحيـح أن مـوارد جـون كـانـت نظـريـاً أعظـم مـن مـوارد عـدوه الفرنسي،لكنه كـان أدنى كفاءة،فضلاً عن أنه ورث بـلاداً أفقرتها المكوس التـي فرضهـا رتشارد وحصلهـا وأنفقها ،ومـع الأيام صـار فيليب أعظـم ثروة،لكن جون عجـز عن الضغط على الفرنسيين وجعلهم ينفقون مـاتوفر لديهم مـن مال ،وهو قد طلـب دوما جمع المال ،لكنه لم ينفقه في مقـاصد نافعة كما فعل رتشارد.

٢٨-الزواج من ايزابيلا:

تـزوج جـون لمدة عشر سنــوات مـن ابنـة عمـه ايــزابيـلا أوف غلـو ستر،عنـدماً وصـل الى العرش في سنـة ١١٩٩،وكان مخطـوباً لها منـذ أن كـان في العاشرة، ولم ينجبـا أولاداً مـع أن جميع أولاد جـون مـن خليلاتـه ولـدوا أثناء زواجهما،ولم يتـوجها جـون ملكـة معه، ووافقـه وهو ملـك أن يكون حراً لعقـد زواج آخر لأسباب سياسيـة،وكان زواجه من ايـزابيلا قد واجه معـارضة كبيرة مـن الكنيسة بسبـب القرابـة بينهما ،لهذا لم يجد الآن صعوبة في الحصول على الطلاق منها.

وفي سنة ١٢٠٠،أثنـاء زيارة لـه لأكوتين،تزوج بشكـل غير متوقـع من روجـة جـديـدة ،اسمهاايـزابيـلا أيضـاً،وراجـت أقـاويل أنـه أسكـرهـا وضاجعهـا،ولاشك أن هـذا يوضح سبـب السرعة،وقـد كانـت في حوالي الثانيـة عشر من عمرهـا، وهي ابنـة أودمار Audemar، كونت أوف أنغوليـم، الذي كـان من أعلى نبـلاء الدوقية مكـانة، وكـان من قبـل قد

سبب بعض المشاكل بتقديمه الولاء لفيليب الثاني ملك فرنسا،كطريقة لتأكيد استقلاله عن الملك رتشارد، وقد قيل الكثير حول هذا الزواج،فهو قد ضمن ولاء الكونت مع المكانة الاستراتيجية لممتلكاته،وكانت ايزابيلا مخطوبة من قبل لهيوج البني صاحب لوزغنان المجاورة ،وكان صليبياًشجاعاً ،من أسرة متعبة وناجحة،وكان صديقاً لرتشارد، وعلى خلاف مع أبي ايزابيلا حول كونتيه لامارشي،ولم يكتف جون بأخذ خطيبة هيوج،بل اغتصب في سنة ١٢٠١ كونتيته وأعطاها الى أودمار ختنه الجديد،ولكي يزيد الأمور سوءاً استولى على الأراضي النورماندية التي كانت بحوذة الف أخي هيوج الأصغر.

والتمس الأخوان اللوزغنانيان المساعدة القضائية من فيليب الثاني ملك فرنسا واستدعى فيليب جون للحضور أمام محكمة البلاط الملكي الفرنسي، ولم يحضر جون، وكان هذا مسوغاً لأن يعلن فيليب عن مصادرة جميع اقطاعيات جون الفرنسية في نيسان سنة ١٢٠٢(تقبل فيليب فيما بعد ولاء وتبعية آرثر تجاه جميع هذه الاقطاعيات ،ورتب الأمور لكونت بريتاني الشاب ليتزوج من ابنته ماري) وأعطى هذا القرار القضائي الصبغة الشرعية لأعمال الاستيلاء التالية التي قام بها فيليب ،لقد حمل آرثر مع الآخرين من أسرة لوزغنان السلاح ضد جون و،في المتن المزيد من التفاصيل حول ماحدث .

جريدة المصادر والمراجع

Bibliography

This is not intended as a comprehensive bibliography of all relevant works, but is a selection of books relating to the topics discussed in the notes and the chronicles. Articles have not been included because they are more difficult for the general reader to obtain, most of the works cited here contain bibliographies which are a good starting point for more detailed reading on individual subjects

Politics, Law and Finance

Appleby, J. T., *England without Richard*, London, 1965

Appleby, J. T., *Henry II, the Vanquished King*, London, 1962

Baker, J. H., *An Introduction to English Legal History*, 2nd edn., London, 1979

Barber, R., *Henry Plantagenet, a Biography*, London, 1964

Barlow, F., *The Feudal Kingdom of England, 1042–1216*, 3rd edn., London, 1972

Barraclough, G., ed. and trans., *Medieval Germany, 911–1250*, 2 vols., Oxford, 1938

Barrow, G. W. S., *Feudal Britain: The Completion of the Medieval Kingdoms, 1066–1314*, London, 1956

Barrow, G. W. S., *The Kingdom of the Scots: government, church and society from the eleventh to the fourteenth century*, London, 1973

Barrow, G. W. S., *Kingship and Unity: Scotland 1000–1306*, London, 1981

Bates, D., *Normandy before 1066*, London, 1982

Bautier, R. H., ed., *La France de Philippe Auguste: le temps des mutations*, Paris, 1982

Brékilien, Y., *Histoire de la Bretagne*, Paris, 1979

Brooke, C. N. L., *Europe in the Central Middle Ages, 962–1154*, London, 1964

Brooke, C. N. L., *From Alfred to Henry III, 871–1272* London, 1961

Brooke, Z. N., *A History of Europe, 911–1198*, London, 1938

Brooks, F. W., *The English Naval Forces, 1199–1272*, London, 1933

Brown, R. A., *The Normans and the Norman Conquest*, London, 1969

Brundage, J., *Richard Lion Heart*, New York, 1973

Boussard, J., *Le gouvernement d'Henri II Plantagenêt*, Paris, 1956

Boussard, J., *Le comté d'Anjou sous Henri Plantagenêt et ses fils, 1151–1204*, Paris, 1938

Bur, M., *La formation du comté de Champagne, v 950–v 1150*, Nancy, 1977

Cartellieri, A., *Philipp August König von Frankreich*, 4 vols, Leipzig, 1899–1922

Chartrou, J., *L'Anjou de 1109 à 1151*, Paris, 1928

Chrimes, S. B., *An Introduction to the Administrative History of Medieval England*, 2nd edn., Oxford, 1959

Clanchy, M. T., *England and its Rulers, 1066–1272*, London, 1983

Clanchy, M. T., *From Memory to Written Record, England, 1066–1307*, London, 1979

Cox, J. C., *The Royal Forests of Medieval England*, London, 1905

Cronne, H. A., *The Reign of Stephen, Anarchy in England, 1135–54*, London, 1970

Davis, R. H. C., *A History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis*, London, 1957

Davis, R. H. C., *King Stephen*, London, 1977

Davis, R. H. C., *The Normans and their Myth*, London, 1976

Duby, G., *Le dimanche de Bouvines*, Paris, 1973

Duggan, A., *Devil's Brood. The Angevin Family*, London, 1957

Dunbabin, J., *France in the Making, 843–1100*, Oxford, 1985

Duncan, A. A. M., *Scotland. the Making of the Nation*, Edinburgh, 1975

Eyton, R. W., *The Court, Household and Itinerary of Henry II*, London, 1878

Fawtier, R., *The Capetian Kings of France, Monarchy and Nation, 987–1328*, trans. Butler, L., and Adam, R. J., London, 1966

Galbraith, V. H., *Studies in the Public Records*, London, 1948

Gillingham, J., *The Angevin Empire*, London, 1984

Gillingham, J., *Richard the Lionheart*, London, 1978

Gillingham, J., and Holt, J. C., eds., *War and Government in the Middle Ages*, Woodbridge, 1984.

Gonzalez, J., *El Reino de Castilla en la epoca de Alfonso VIII*, Madrid, 1960

Guillot, O., *Le comte d'Anjou et son entourage au XI^e siècle*, 2 vols, Paris, 1972

Hall, H., *Court Life under the Plantagenets*, London, 1890

Hallam, E. M., *Capetian France, 987–1328*, London, 1980

Hallam, E. M., *Domesday Book through Nine Centuries*, London, 1986

Halphen, L., *Le comté d'Anjou au XI^e siècle*, Paris, 1906

Harding, A., *The Law Courts of Medieval England*, London, 1973

Hardy, T. D., *The Itinerary of John, King of England*, London, 1829

Harvey, J. H., *The Plantagenets*, London, 1948

Haskins, C. H., *Norman Institutions*, Cambridge, Mass., 1918

Heer, F., *The Holy Roman Empire*, trans. Sondheimer, J., London, 1968

Hodgson, C. E., *Jung Heinrich, König von England, Sohn König Heinrichs II, 1155–83*, Jena, 1906

Holdsworth, W., *A History of English Law*, 7th edn., London, 1956

Holt, J. C., *King John*, London, 1963

Holt, J. C., *Magna Carta*, Cambridge, 1965

Holt, J. C., *The Northerners*, Oxford, 1961

Hoyt, R. S., *The Royal Demesne in English Constitutional History, 1066–1272*, New York, 1950

Jolliffe, J. E. A., *Angevin Kingship*, 2nd ed., London, 1963

Kibler, W. W., ed., *Eleanor of Aquitaine, Patron and Politician*, Austin, 1977

Knowles, M. D., *The Historian and Character and Other Essays*, Cambridge, 1963

Landon, L., *The Itinerary of Richard I*, Pipe Roll Society, 1935

Lemarignier, J. F., *La France médiévale, institutions et sociétés*, Paris, 1970

Lemarignier, J. F., *Le gouvernement royal aux premiers temps capétiens*, Paris, 1965

Lloyd, J. E., *A History of Wales, from the earliest times to the Edwardian Conquest*, 3rd edn., London, 1939

Luchaire, A., *Louis VI le Gros, annales de sa vie et de son règne, 1081–1137*, Paris, 1890

Madox, T., *The History and Antiquities of the Exchequer of England*, London, 1769

Malden, H. E., ed., *Magna Carta Commemoration Essays*, London, 1917

Marsh, F. B., *English Rule in Gascony, 1199–1259*, Ann Arbor, 1912

Mitchell, S. K., *Studies in Taxation under John and Henry III*, New Haven, 1914

Mitchell, S. K., *Taxation in Medieval England*, ed. Painter, S., New Haven, 1951

Moore, O. H., *The Young King Henry Plantagenet, 1155–83*, Columbus, Ohio, 1925

Morris, W A, *The Medieval English Sheriff to 1300*, Manchester, 1927

Munz, P, *Frederick Barbarossa*, London, 1969

McKitterick, R, *The Frankish Kingdoms under the Carolingians, 751–987*, London, 1983

Norgate, K, *England under the Angevin Kings*, 2 vols, London, 1887

Norgate, K, *John Lackland*, London, 1902

Norgate, K, *Richard the Lionheart*, London, 1924

Oman, C W C, *The Coinage of England*, Oxford, 1931

Otway-Ruthven, A J, *A History of Medieval Ireland*, 2nd edn, London, 1980

Pacaut, M, *Louis VII et son royaume*, Paris, 1967

Painter, S, *The Reign of King John*, Baltimore, 1949

Painter, S, *William Marshall*, Baltimore, 1933

Patourel, J le, *The Norman Empire*, Oxford, 1976

Pernoud, R, *Eleanor of Aquitaine*, London, 1967

Petit-Dutaillis, C, *Le déshéritement de Jean-sans-terre et le meurtre d'Arthur de Bretagne*, Paris, 1925

Petit-Dutaillis, C, *The Feudal Monarchy in France and England from the Tenth to the Thirteenth Century*, trans Hunt, E D, London, 1935

Pollock, F., and Maitland, F W, *The History of English Law before the Time of Edward I*, 2 vols, 2nd edn, Cambridge, 1898

Poole, A L, *From Domesday Book to Magna Carta*, 2nd edn, Oxford, 1955

Poole, R L, *The Exchequer in the Twelfth Century*, Oxford, 1912

Powicke, F M, *The Loss of Normandy*, 2nd edn, Manchester, 1961

Ramsay, J. H., *The Angevin Empire, 1154–1216*, London, 1903

Ramsay, J. H., *The Revenues of the Kings of England*, 2 vols, Oxford, 1925.

Richard, A., *Histoire des comtes de Poitou, 778–1204*, 2 vols, Paris, 1903

Richardson, H G, and Sayles, G. O, *The Governance of Medieval England from the Conquest to Magna Carta*, Edinburgh, 1963

Rössler, O., *Kaiserin Mathilde*, Berlin, 1897

Round, J H, *Geoffrey de Mandeville*, London, 1892

Sanders, I J, *English Baronies: A Study of their Origin and Descent, 1086–1327*, Oxford, 1960

Saul, N, *The Batsford Companion to Medieval England*, London, 1983

Sayles, G O, *The Governance of Medieval England*, Edinburgh, 1963

Schramm, P E, *A History of the English Coronation*, trans Wickham Legg, G, Oxford, 1937

Smith, L M, ed, *The Making of Britain, the Middle Ages*, London, 1985

Southern, R W, *The Making of the Middle Ages*, London, 1953

Stenton, D M, … *between the Norman Conquest and the* … London, 1965

Stenton, F M, *The First Century of English Feudalism*, 2nd edn, Oxford, 1961

Trautz, F, *Die Könige von England und das Reich*, Heidelberg, 1961

Ullmann, W, *Principles of Government and Politics in the Middle Ages*, London, 1961

Valin, R, *Le duc de Normandie et sa cour, 912–1204*, Paris, 1909

Waquet, H, *Histoire de Bretagne*, 3rd edn, Paris, 1958

Warren, W L, *Henry II*, London, 1973

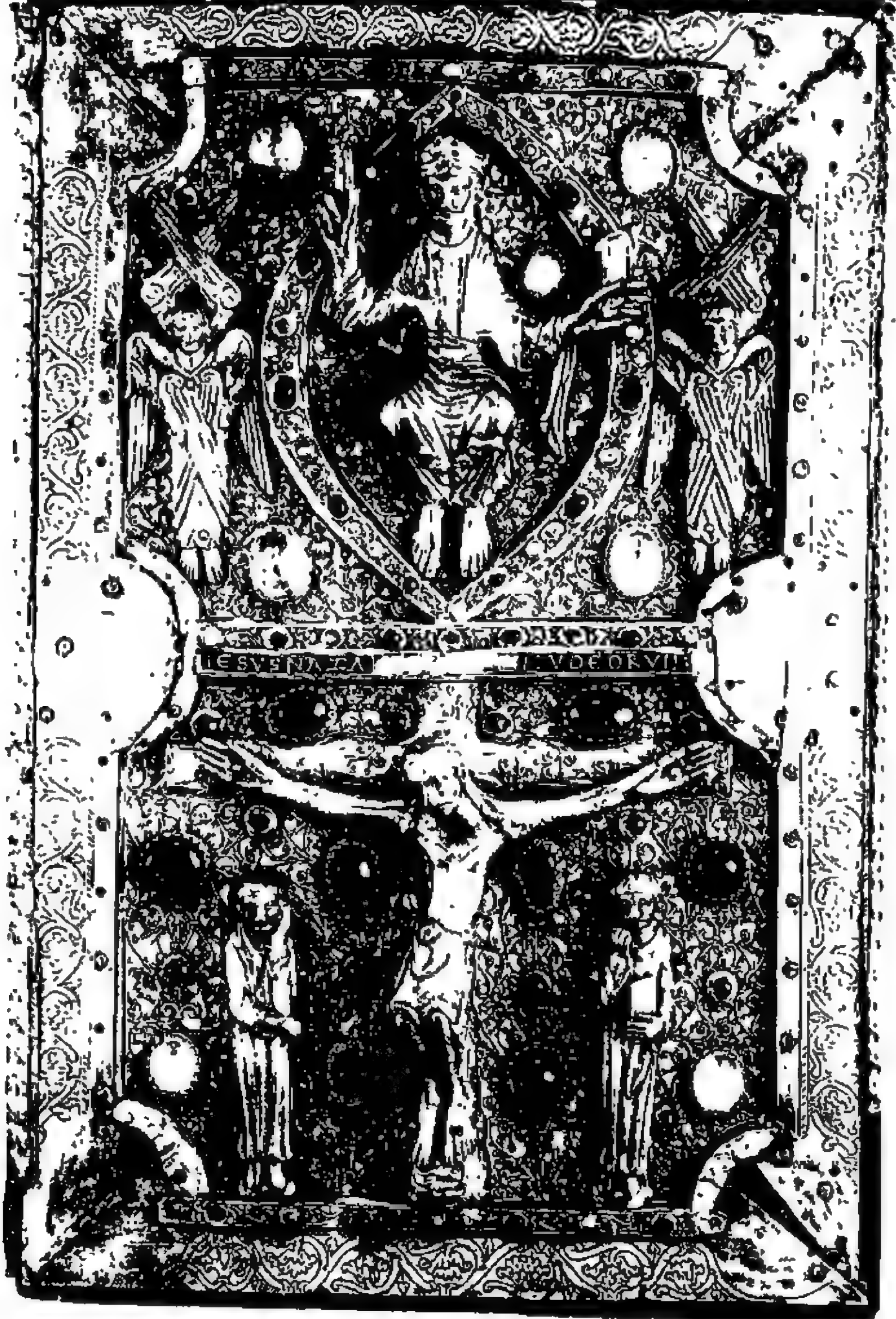
Warren, W L, *King John*, London, 1961

Warren Hollister, C, *The Military Organisation of Norman England*, Oxford, 1965

West, F J, *The Justiciarship in England, 1066–1232*, Cambridge, 1936

Wightman, W E, *The Lacy Family in England and Normandy, 1066–1194*, Oxford, 1966

Young, C. R, *The Royal Forests of Medieval England*,



عطاء كتاب دينى يعكس التقاليد المتطورة للعمل الجميل بالمعادن المرصعة بالجواهر

Ecclesiastical

Aubert, M., *Suger*, Saint Wandrille, 1950

Barlow, F., *The English Church, 1066–1154*, London, 1979

Blair, P. H., ed. and trans., *The Rule of St Benedict*, 5th edn., Fort Augustus, 1948

Bolton, B., *The Medieval Reformation*, London, 1983

Brooke, C. N. L., and Swaan, W., *The Monastic World, 1000–1300*, London, 1979

Brooke, Z. N., *The English Church and the Papacy from the Conquest to the Reign of John*, Cambridge, 1931

Cheney, C. R., *From Becket to Langton. English Church Government, 1170–1213*, Manchester, 1956

Cheney, C. R., *Hubert Walter*, London, 1967

Colvin, H. M., *The White Canons in England*, London, 1951

Cowdrey, H. E. J., *The Cluniacs and The Gregorian Reform*, Oxford, 1970

Dickinson, J. C., *The Origins of the Austin Canons and their introduction into England*, London, 1950

Douie, D. L., *Archbishop Geoffrey Plantagenet*, York, 1960

Finucane, R. C., *Miracles and Pilgrims: Popular Beliefs in Medieval England*, London, 1977

Foreville, R., *L'église et la royauté en Angleterre sous Henri II Plantagenêt*, Paris, 1943

Formigé, J., *L'Abbaye Royale de Saint-Denis*, Paris, 1960

Gibson, M., *Lanfranc of Bec*, Oxford, 1978

Graham, R., *St Gilbert of Sempringham and the Gilbertines*, London, 1901

Hell, V. and H., *The Road to Compostella*, London, 1966

Hill, B. D., *English Cistercian Monasteries and their Patrons in the Twelfth Century*, Chicago, 1968

Kemp, E. W., *Canonization and Authority in the Western Church*, Oxford, 1948

Knowles, M. D., *Christian Monasticism*, London, 1969

Knowles, M. D., *The Episcopal Colleagues of Archbishop Thomas Becket*, Cambridge, 1951

Knowles, M. D., *The Monastic Order in England, 940–1216*, 2nd edn., Cambridge, 1966

Knowles, D., *Thomas Becket*, London, 1970

Krehbiel, E. B., *The Interdict, its History and Operation*, Washington, 1909

Lambert, M., *Medieval Heresy*, London, 1977

Lawrence, C. H., *Medieval Monasticism*, London, 1984

Lekai, D. J., *Les Moines Blancs*, Paris, 1957

Moore, R. I., *The Origins of European Dissent*, London, 1977

Morey, A., and Brooke, C. N. L., *The Letters and Charters of Gilbert Foliot*, Cambridge, 1967

Power, E., *Medieval English Nunneries*, Cambridge, 1922

Robertson, J. C., *Becket, Archbishop of Canterbury. A Biography*, London, 1859

Saltman, A., *Theobald Archbishop of Canterbury*, London, 1956

Scott James, B., ed. and trans., *St Bernard of Clairvaux seen through his Selected Letters*, Chicago, 1953

Southern, R. W., *St Anselm and his Biographer*, Cambridge, 1963

Southern, R. W., *Western Society and the Church in the Middle Ages*, Harmondsworth, 1970

Tierney, B., *The Crisis of Church and State, 1050–1300*, New York, 1964

Vielliard, J., *Guide du pèlerin de Saint-Jacques-de-Compostelle*, c. 1163

Voss, L., *Heinrich von Blois, Bischof von Winchester*, Berlin, 1932

Webb, C. C. J., *John of Salisbury*, London, 1932

Williams, W., *St Bernard of Clairvaux*, Manchester, 1935

Zarnecki, G., *The Monastic Achievement*, London, 1972

Social and Economic

Baker, D., ed., *Medieval Women*, Oxford, 1978

Bautier, R. H., *The Economic Development of Medieval Europe*, London, 1971

Bennet, H. S., *Life on the English Manor*, 2nd edn., Cambridge, 1965

Beresford, M. W., and St Joseph, J. K. S., *Medieval England: an Aerial Survey*, Cambridge, 1958

Bloch, M., *Feudal Society*, trans. Manyon, L. A., 2nd edn., London, 1962

Boussard, J., *Nouvelle Histoire de Paris, I, Paris de la fin du siège de 885–886 à la mort de Philippe Auguste*, Paris, 1970

Brooke, C. N. L., and Keir, G., *London, 800–1216 the Shaping of a City*, London, 1975

Cazel, F. A., ed., *Feudalism and Liberty: the Articles and Addresses of Sydney Painter*, Baltimore, 1961

Chapin, E., *Les villes de foires de Champagne*, Geneva, 1937, reprinted, 1976

Dhondt, J., *Etudes sur la naissance des principautés territoriales en France, IXᵉ–Xᵉ siècle*, Bruges, 1948

Dion, R., *Histoire de la vigne et du vin en France des origines au XIXᵉ siècle*, Paris, 1959

Duby, G., *The Chivalrous Society*, ed. and trans. Postan, C., London 1977

Duby, G., *Medieval Marriage: two models from twelfth-century France*, trans. Forster, E., Baltimore, London, 1978

Duby, G., *Rural Economy and Country Life in the Medieval West*, trans. Postan, C., London, 1968

Evans, J., *Life in Medieval France*, London, 1957

Fourquin, G., *Lordship and Feudalism in the Middle Ages*, trans. Lytton-Sells, I. and A., London, 1976

Ganshof, F., *Feudalism*, trans. Grierson, P., 3rd edn., London, 1964

Hinde, T., ed., *The Domesday Book*, London and Markham, Ont., 1985

Lemarignier, J. F., *Recherches sur l'hommage en marche et les frontières féodales*, Lille, 1945

Lot, F., *Fidèles ou vassaux? Essai sur la nature juridique du lien qui unissait les grands vassaux à la royauté depuis le milieu du IXᵉ jusqu'à la fin du XIIᵉ siècle*, Paris, 1904

Mollat, M., *Histoire de l'Ile-de-France et de Paris*, Toulouse, 1971

Pirenne, H., *Les villes du moyen age*, Paris, 1971

Platt, C., *The English Medieval Town*, London, 1976

Poole, A. L., *The Obligations of Society in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, Oxford, 1946

Postan, M. M., *The Medieval Economy and Society*, London, 1972

Power, E., *Medieval Women*, Cambridge, 1975

Pullar, P., *Consuming Passions*, 2nd edn., London, 1972

Reuter, T., ed. and trans., *The Medieval Nobility*, Amsterdam, New York, London, 1979

Richardson, H. G., *The English Jewry under the Angevin Kings*, London, 1960

Stenton, D. M., *English Society in the Early Middle Ages*, London, 1951

Tait, J., *The Medieval English Borough*, Manchester, 1936

White, L. T., *Medieval Technology and Social Change*, Oxford, 1962

Wilson, A., *Food and Drink in Britain*, 3rd edn., London, 1984

Art, Music and Literature

Anderson, M. D., *The Medieval Carver*, Cambridge, 1935

Arts Council of Great Britain, *English Romanesque Art 1066–1200*, London, 1984

Barber, R. W., *The Knight and Chivalry*, London, 1970

Boase, T. S. R., *Death in the Middle Ages*, London, 1972

Boase, T. S. R., *English Art, 1100–1216*, Oxford, 1953

Bony, J., *French Gothic Architecture*, Berkeley, 1983

Borenius, T., *St Thomas of Canterbury in Art*, London, 1932

Bottineau, Y., *Les chemins de Saint-Jacques*, Paris, 1964

Bradford, C. A., *Heart Burials*, London, 1933

Brooke, C. N. L., *The Twelfth Century Renaissance*, London, 1969

Broughton, B. B., *The Legends of Richard I*, The Hague, 1966

Catto, J. I., ed., *The History of the University of Oxford, I, The Early Oxford Schools*, Oxford, 1984

Chailley, J., *Histoire musicale du Moyen Age*, Paris, 1969

Chaytor, H., *From Script to Print, an introduction to medieval literature*, London, 1966

Clapham, A. W., *English Romanesque Architecture after the Conquest*, Oxford, 1934

Crosland, J., *Medieval French Literature*, Oxford, 1956

Davis, R. H. C., and Wallace Hadrill, J. M., ed., *The Writing of History in the Middle Ages ... Essays to R. W. Southern*, Oxford, 1981

Delaborde, H. F., ed. and trans., *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton*, 2 vols, Paris, 1882–5

Dodwell, C. R., *Painting in Europe, 800–1200*, Harmondsworth, 1971

Erlande-Brandenburg, A., *Le roi est mort*, Geneva, 1975

Evans, G., *The Mind of St Bernard of Clairvaux*, Oxford, 1983

Evans, J., *Art in Medieval France*, Oxford, 1948

Evans, J., ed., *The Flowering of the Middle Ages*, London, 1966

Fino, F. F., *Fortresses de la France Médiévale*, Paris, 1967

Grabar, A., and Nordenfalk, C., *Romanesque Painting from the Eleventh to the Thirteenth Century*, Lausanne, 1958

Gransden, A., *Historical Writing in England c. 550 to c. 1307*, London, 1974

Harvey, J. H., *Cathedrals of England and Wales*, London, 1974

Harvey, J. H., *The Medieval Architect*, Gloucester, 1972

Haskins, C. H., *The Renaissance of the 12th Century*, New York, 1927

Heltzel, V. B., *Fair Rosamund: a Study of the Development of a Literary Theme*, Evanstown, 1947

Holt, J. C., *Robin Hood*, London, 1982

James, M. R., ed. and trans., *De Nugis Curialium by Walter Map*, Oxford, 1914

Kelly, A., *Eleanor of Aquitaine and her Courts of Love*, London, 1952

Kidson, P., Murray, P. and Honour, H., *A History of English Architecture*, London, 1962

Kidson, P., *The Medieval World*, London, 1967

Lasko, P., *Ars Sacra, 800–1200*, Harmondsworth, 1972

Leff, G., *Medieval Thought: St Augustine to Ockham*, Harmondsworth, 1958

Legge, M. D., *Anglo-Norman Literature and its Background*, Oxford, 1963

Mâle, E., *Religious Art in France: The Twelfth Century*, Princeton, 1978

Meras, *Abbayes et Pèlerinages de France*, Paris, 1964

Meyer, P., ed and trans, *Histoire de Guillaume le Maréchal*, 3 vols, Paris, 1891–1901

Morris, C., *The Discovery of the Individual, 1050–1200*, London, 1972

Musset, L., *Angleterre romane, I, le sud de l'Angleterre*, Paris, 1983

O'Meara, J. J. ed, *The History and Topography of Ireland by Gerald of Wales*, Harmondsworth, 1982

Panofsky, E., *Abbot Suger and the Abbey Church of Saint-Denis*, Princeton, 1946

Press, A. R., *An Anthology of Troubadour Lyric Poetry*, Edinburgh, 1971

Radice, B., ed., *The Letters of Abelard and Heloise*, Harmondsworth, 1974

Rashdall, H., *The Universities of Europe in the Middle Ages*, ed Powicke, F. M., and Emden, A. B., 3 vols, Oxford, 1936

Richter, M., *Giraldus Cambrensis*, Aberystwyth, 1972

Sauerlander, W., *Gothic Sculpture in France*, London, 1972

Savage, A., ed. and trans, *The Anglo-Saxon Chronicles*, London, 1983

Sayers, D. L., ed. and trans, *The Song of Roland*, Harmondsworth, 1957

Simpson, O. von, *The Gothic Cathedral*, London, 1956

Southern, R. W., *Medieval Humanism and Other Studies*, Oxford, 1970

Thorpe, L., ed., *The History of the Kings of Britain by Geoffrey of Monmouth*, Harmondsworth, 1966

Topsfield, L. T., *Troubadours and Love*, Cambridge, London, New York, 1975

Van der Werf, H., *The Chansons of the Troubadours and Trouvères: a study of their melodies and their relation to the poems*, Utrecht, 1972

Webb, G., *Architecture in England: the Middle Ages*, Harmondsworth, 1954

Whitelock, D. and others, eds, *The Anglo-Saxon Chron*, rev. edn, London, 1961

Zarnecki, G., *English Romanesque Sculpture, 1066–1140*, London, 1951

Zarnecki, G., *Later English Romanesque Sculpture, 1140–1210*, London, 1953

Zarnecki, G., *Romanesque Art*, London, 1971

Crusades and Warfare

Benevenisti, M., *The Crusaders in the Holy Land*, Jerusalem, 1970

Brown, R. A., *English Castles*, 4th edn, London, 1976

Ehrenkreutz, A. S., *Saladin*, New York, 1972

Godfrey, J., *1204: the Unholy Crusade*, London, 1980

Hill, G., *A History of Cyprus*, 2 vols, Cambridge, 1940

Koch, H. W., *Medieval Warfare*, London, 1978

Lewis, B., *The Assassins*, London, 1967

Mayer, H. E., *The Crusades*, trans. Gillingham, J., Oxford, 1972

Norwich, J. J., *The Kingdom in the Sun*, London, 1970

Oman, C., *A History of the Art of War in the Middle Ages, 378–1485*, 2 vols, 2nd edn, London, 1924

Prawer, J., *The Latin Kingdom of Jerusalem*, London, 1972

Riley-Smith, J., *The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus, c. 1050–1310*, London, 1967

Runciman, S., *A History of the Crusades*, 3 vols, Cambridge, 1951–4

Setton, K. M. and others, *A History of the Crusades*, vols I–II, Madison, 1962

Smail, R. C, *Crusading Warfare, 1097–1193*, Cambridge, 1956

Sumption, J., *The Albigensian Crusade*, London, 1978

Verbruggen, J. F., *The Art of Warfare in Western Europe during the Middle Ages*, Oxford, 1977

Bibliographies, Atlases and Reference Works

Centre National de la Recherche Scientifique, *Bibliographie Annuelle de l'histoire de France*, Paris, 1953–

Douglas, D. C, and Greenaway, G. W., eds., *English Historical Documents II, 1042–1189*, London, 1953

Falkus, M., and Gillingham, J., *Historical Atlas of Britain*, London, 1981

Gross, C., and Graves, E B., *A Bibliography of English History to 1485*, Oxford, 1975

Longnon, A., *Atlas Historique de la France*, 2 vols, Paris, 1885–9.

Rothwell, H., ed., *English Historical Documents III, 1189–1327*, London, 1965

Royal Historical Society, *Annual Bibliography of British and Irish History*, London, 1976–

Chronicles

Part I

John of Marmoutier, *The Chronicles of the counts of Anjou*, ed L Halphen & R Poupardin in *Chroniques des comtes d'Anjou et des seigneurs d'Amboise*, Collection des Textes, Paris 1913, pp 29–31, 37–44, 143–51, 161–2 Extracts

Part II

John of Marmoutier, *The History of Duke Geoffrey*, in *The Chronicles of the counts of Anjou*, ibid , pp 176–231 Extracts

Henry of Huntingdon, *The History of the English*, ed T Arnold in Rolls Series 1879, pp 259–92 Extracts

The Deeds of Stephen, (anon), trans and ed Thomas Forester in *Henry of Huntingdon*, Henry G Bohn, London 1853 Extracts

Part III

Ralph of Diceto, *Images of History*, ed W Stubbs in *The Historical Works of Master Ralph of Diceto*, Rolls Series 1876, I, 291–439, II, 3–66 Extracts

William of Newburgh *The History of English Affairs*, ed D C Douglas and G W Greenaway in *English Historical Documents 1042–1189*, London 1953; pp 322–3, 325, 329–30 Extracts

The Deeds of King Henry II, in *English Historical Documents*, op cit , pp 377–9 Extracts

William FitzStephen, *The Life of St Thomas Becket*, ed and trans G W Greenaway in *The life and Death of Thomas Becket, Chancellor of England and Archbishop of Canterbury*, The Folio Society, London 1961, pp 35–44, 55–8, 156–7. Extracts.

William FitzStephen, *Description of the city of London (1170–1183)*, given as a preamble to his *Life of St Thomas Becket*, ibid Extracts.

Adam of Eynsham, *The Life of St Hugh of Lincoln*, ed the late Decima L Douie & David Hugh Farmer in *Magna Vita Sancti Hugonis*, Oxford University Press, 2nd edn 1985, I, 60–3, 85–6, 115–9, II, 93–4, 104–9, 125–30, 169–70 Extracts

Jordan Fantosme, *Chronicle of the War between the English and the Scots*, in *English Historical Documents*, op cit

Part IV

Ralph of Diceto, op cit , II, 66–166 Extracts

Rigord, *The Deeds of Philip Augustus*, ed H -F Delaborde in *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton*, Société de l'Histoire de France 1882–5, pp 106–9 Extracts

Richard, canon of Holy Trinity, Aldgate, *The Itinerary of the Pilgrims*, ed W Stubbs in Rolls Series 1864, pp 259–78 Extracts Also *The Deeds of King Richard*, ed W Stubbs in Rolls Series 1867; II, 80–4, 151–5, 158–61. Extracts

Adam of Eynsham, *The Life of St Hugh of Lincoln*, op cit , II, 98–105, 134–7 Extracts

Gerald of Wales, *The Description of Wales*, trans Lewis Thorpe in *Journey through Wales/Description of Wales*, Penguin, London 1978 (copyright the Estate of Lewis Thorpe 1978) Extracts.

Part V

Ralph of Diceto, op cit , II, 166–75 Extracts

Ralph of Coggeshall, *The English Chronicle*, ed J Stevenson in *Chronicon Anglicanum*, Rolls Series 1875, pp 101–62 Extracts

The 'Barnwell' Annals (anon), ed W. Stubbs in *The Historical collections of Walter of Coventry*, Rolls Series 1873, II, 201–32 Extracts

Gervase of Canterbury, *The Deeds of Kings*, ed W Stubbs in *The Historical Works of Gervase of Canterbury*, Rolls Series 1880; II, 96–106. Extracts

رقم الصفحة	الموضوع
٤	توطئة
٧	مدخل
١٠	المؤرخون
١٥	القسم الأول ـ أصول الأسرة الأنجيفية
١٦	سنة ٩٦٠
١٨	سنة٩٨٧
٢٤	سنة١٠٤٠
٢٧	سنة١٠٤٢
٣٠	سنة١٠٦٠
٣١	سنة١٠٦٦
٣٤	سنة١١٠٧
٣٥	سنة١١٠٩
٣٧	سنة١١١٠
٣٧	سنة١١٢٨
٣٨	سنة١١٢٩
٣٨	سنة١١٣١
٤١	القسم الثاني ـ غيوفري بلانتغنت
٤٣	سنة١١٢٨
٦٠	سنة١١٣٢
٦٠	سنة١١٣٥
٦٥	سنة١١٣٦
٦٦	سنة١١٣٧

٦٧	سنة ١١٣٨
٧٢	سنة ١١٣٩
٧٤	سنة ١١٤٠
٧٥	سنة ١١٤١
٧٨	سنة ١١٤٢
٧٩	سنة ١١٤٣
٨٠	سنة ١١٤٤
٨١	سنة ١١٤٥
٨١	سنة ١١٤٦
٨٢	سنة ١١٤٧
٨٢	سنة ١١٤٨
٨٣	سنة ١١٤٩
٨٤	سنة ١١٥٠
٨٤	سنة ١١٥١
٨٦	سنة ١١٥٢
٨٧	سنة ١١٥٣
٩٢	سنة ١١٥٤
٩٥	القسم الثالث ـ هنري الثاني
٩٩	سنة ١١٥٥
١٠٩	سنة ١١٥٦
١١٠	سنة ١١٥٧
١١٠	سنة ١١٥٨
١١١	سنة ١١٥٩
١١١	سنة ١١٦٠
١١٣	سنة ١١٦١

١١٣	سنة ١١٦٢
١١٧	سنة ١١٦٣
١١٩	سنة ١١٦٤
١٢٠	سنة ١١٦٥
١٢١	سنة ١١٦٦
١٢٢	سنة ١١٦٧
١٢٣	سنة ١١٦٩
١٢٤	سنة ١١٧٠
١٣١	سنة ١١٧١
١٣٣	سنة ١١٧٢
١٣٦	سنة ١١٧٣
١٤١	سنة ١١٧٤
١٦٠	سنة ١١٧٥
١٦١	سنة ١١٧٦
١٦٦	سنة ١١٧٧
١٦٩	سنة ١١٧٨
١٧٠	سنة ١١٧٩
١٨٤	سنة ١١٨٠
١٨٧	سنة ١١٨١
١٩٠	سنة ١١٨٢
١٩١	سنة ١١٨٣
١٩٥	سنة ١١٨٤
١٩٦	سنة ١١٨٥
١٩٧	سنة ١١٨٦
٢٠٥	سنة ١١٨٧
٢٠٦	سنة ١١٨٨

٢٠٩ سنة ١١٨٩

٢١٧ القسم الرابع - رتشارد الأول
٢٣٠ سنة ١١٩٠
٢٣٥ سنة ١١٩١
٢٥٠ سنة ١١٩٢
٢٥٢ سنة ١١٩٣
٢٥٦ سنة ١١٩٤
٢٥٦ سنة ١١٩٥
٢٦٧ سنة ١١٩٦
٢٧٠ سنة ١١٩٧
٢٧٢ سنة ١١٩٨
٢٧٨ سنة ١١٩٩

٢٨٣ القسم الخامس - جون
٢٨٥ سنة ١٢٠٠
٢٩٦ سنة ١٢٠١
٢٩٨ سنة ١٢٠٢
٣٠٤ سنة ١٢٠٣
٣٠٥ سنة ١٢٠٤
٣١٠ سنة ١٢٠٥
٣١٦ سنة ١٢٠٦
٣١٧ سنة ١٢٠٧
٣١٧ سنة ١٢٠٨
٣١٩ سنة ١٢٠٩
٣٢٢ سنة ١٢١٠

٣٢٣	سنة ١٢١١
٣٢٤	سنة ١٢١٢
٣٣٠	سنة ١٢١٣
٣٣٦	سنة ١٢١٤
٣٣٨	سنة ١٢١٥
٣٥٠	سنة ١٢١٦
٣٥٥	خاتمة

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الثالثة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الحادي والثلاثون

دمشق ١٤١٨/ ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الثالثة

رواية شاهد عيان عن حروب رتشارد قلب الأسد

في

قبرص والأراضي المقدسة

مع رحلة حج

— سيولف الأنكلو سكسوني (١١٠٢)

— الراهب دانيال الروسي (١١٠٦)

— ورسالة فيتيلوس في وصف الأرض المقدسة (١١٣٠)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الحادي والثلاثون

دمشق ١٤١٨/١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يشعر كل باحث في تاريخ الحروب الصليبية بالأهمية القصوى لأحداث ما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة، ويعجب كيف انتهت انتصارات صلاح الدين المدوية في يوم حطين ثم تحرير القدس بفاجعة سقوط عكا وانتكاسة صلح الرملة، ويتساءل عن الأسباب: هل هي راسية في إقدام رتشارد قلب الأسد وتدفق النجدات من أوربا، أم كان هناك خلل عظيم في بناء دولة صلاح الدين العسكري والإداري؟ أم أن سبب الداء رسا في بناء أسرة صلاح الدين؟ فقد كان أبرز أفراد هذه الأسرة تقي الدين عمر من الجانب العسكري، والملك العادل من كافة الجوانب،فقد تخلى تقي الدين عمر عن صلاح الدين في ساعة الحرج، وذهب إلى الجزيرة يغامر في سبيل تأسيس ملك واسع له، وبذلك فقد صلاح الدين العبقرية العسكرية التي أسهمت بالدور الرئيسي في حطين وسواها، أما العادل فكان طالب ملك بأي ثمن، والملك كما هو معلوم عقوق وعقيم، أنشأ علاقة ممتازة مع رتشارد قلب الأسد، وأنقذه في النهاية بالتوصل — إن لم نقل بإملاء — شروط صلح الرملة.

هذا ولسلوك العادل وأفراد البيت الأيوبي وحواشيهم فقد صلاح الدين في أواخر أيامه السيطرة على قادة جنده وانتابه التعب العظيم، ويبدو أن المعلومات عن الأوضاع داخل المعسكر الفرنجي كانت تحجب عنه، علماً بأنه امتلك جواسيس كانوا يعرفون كل ما يجري داخل صفوف الأعداء.

لقد حقق رتشارد قلب الأسد بعض التفوق العسكري، ونجح سياساً إلى أبعد الحدود، فقد تخلص من غي ملك القدس أيام حطين، وأزاح كونراد صاحب صور من علي مسرح الأحداث بالتعاون مع الحشيشية، وفرض ابن أخته هنري ملكاً على مملكة القدس الثانية التي بعثها إلى الوجود، وهكذا أطال عمر الحروب الصليبية قرناً آخر، والقرن ليس بالزمن القصير.

ولما تقدم من أسباب وأسباب أخرى، اهتممت كثيراً بمصادر أخبار الحملة الثالثة لأن الحملات بعدها أمواج شاردة، ولأن مواد المصادر العربية لا تكفي، ولحسن الحظ تمكنت من تحصيل كتاب ذيل تاريخ وليم الصوري الذي كتبه واحد من الفرنجة البلديين، وهذا الذي أقدم له، وقد كتبه واحد من الفرنجة البحرية الوافدين بركاب رتشارد قلب الأسد، ونضيف إلى هذين المصدرين ما ورد في المجلد المتقدم وما سيرد في المجلد المقبل — إن شاء الله —، هذا ولن أتحدث عن مؤلف مصدرنا الحالي، فهذا قد ورد في مدخل الكتاب وسيرد المزيد حوله في المجلد المقبل.

وإتماماً للفائدة اخترت ثلاثة نصوص هامة جداً، كتبها بعض الحجاج الأوربيين الذين زاروا فلسطين فيما بين: ١١٠٢ و ١١٣٠م ، هذا ولدي المزيد من النصوص ستأخذ محلها في مجلدات مقبلة، والنصوص المقدمة اليوم هامة جداً، لأنه قبيل بداية الحروب الصليبية كانت هناك أوضاع خاصة في فلسطين وبالقدس بالذات نراها من خلال الجغرافيين العرب، وبعض الشيء من خلال رحلة أبي بكر بن العربي صاحب العواصم من القواصم، ثم جاء الاحتلال الصليبي وأحدث الفرنجة الكثير من التغييرات، وتلا هذا حطين وتحرير القدس وإقدام صلاح على إعادة النظر بأحوال المدينة المقدسة: في تطهير المسجد الأقصى وإقامة بيمارستان ومدرسة مع منشآت أخرى.

ومن هنا تنبع أهمية هذه النصوص، فضلاً عن أنها تومىء إلى ما أغفله المؤرخـون، حيـث واضـح مـن خـلالها أن شعـب فلسطين العـربي قـاوم الاحتلال الصليبي بشتى السبل، وأن هذه المقـاومة بلغت من الفعالية إلى درجات جعلـت الفرنجة لا يـرتحلون إلا على شكل جماعـات محروسة، ولا يتجرأ أحد منهـم على العيش، أو الظهور خارج أسوار القـدس وغيرها من المدن المحتلة.

ولا شك أن القـارىء الكريـم سيجد المزيـد من الفـوائد، والله تعـالى أسأل العـون والسـداد، وعليه جـل وعلا دوماً أتـوكل، والحمد لـك اللهم أولاً وآخراً، وصلى الله على النبـي المصطفى وعلى آله وصحبه ومـن تمسك بهداه إلى يوم الدين.

سهيل زكار

دمشق ٢/ ذي القعدة ١٤١٨هـ

٣٠/ آذار ١٩٩٨م

مدخل

توفي النبي محمد ﷺ في عام ٦٣٢م، وتمكن العرب خلال المتبقي من هذا القرن من فتح معظم العالم المعروف آنذاك، وحررت القدس في سنة ٦٣٧، وظلت العلاقات لقرابة أربعة قرون بين الحكام المسلمين والحجاج المسيحيين جيدة،حتى أن بعضهم يزعم ـ بدون توثيق ـ أن الخليفة هرون الرشيد ذهب إلى حد الاعتراف بملكية شارلمان لكنيسة القيامة، وبحمايته للمسيحيين في القدس، ولم يحدث تغيير في المعاملة حتى حلول سنة ١٠١٠، ففي تلك السنة أقدم الخليفة الحاكم بأمر الله، وكان شديد التعصب، ومتهماً بعقله، على إصدار أوامر قضت أن الحماية قد سقطت، وانتهت، وأمر بهدم كنيسة القيامة.

وفي القرن الحادي عشر، عبر الغُزّ إلى خراسان، وانتزعوها بزعامة السلاجقة من أيدي أبناء دينهم، أي من أيدي الغزنويين، واحتلوا العراق ثم اجتاحوا آسيا الصغرى وسورية بما فيها فلسطين، واستولوا على القدس في سنة ١٠٧١، ولئن كان هؤلاء همجاً وعلى درجة عالية من التوحش في معاملتهم لأبناء دينهم المسلمين، فقد كانوا أكثر همجية وأشد وحشية تجاه المسيحيين الذين وقعوا في أيديهم. ودعا في سنة ١٠٩٥م البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية الأولى وقال:«إذا أردتم إنقاذ أنفسكم قاتلوا في سبيل المسيح».

ولم يحمل أيا من الشخصيات الملكية «شارة الصليب» في تلك الآونة، وكان أعلى الناس رتبة ممن انضم إلى تلك الحملة هو غودفري دي بويلون. ومن بين جميع الوحدات التي زحفت في الحملة الأولى، وحدته فقط هي التي لم تعان من مأساة قبل الوصول إلى الأراضي المقدسة،

واستولى بلدوين أخو غودفري سنة ١٠٩٨م، على مدينة الرها، كما وتم الاستيلاء الصليبي على أنطاكية في السنة التالية،واقتحم الصليبيون القدس في سنة ١٠٩٩، وهكذا كانت هذه الحملة أنجح الحملات الصليبية جميعاً، ونجم عنها تأسيس المملكة اللاتينية في القدس، التي امتد سلطانها على الفرنجة حتى مدينة الرها، بما في ذلك إمارة أنطاكية مع كونتيتي طرابلس والرها.

وانتخب غودفري ملكاً، غير أنه رفض أن يلبس التاج الذهبي حيث لبس يسوع تاجاً من شوك، وآثر عدم استخدام أي لقب أعلى من لقب «كونت»، وجرى بناء القلاع لحماية المملكة، وشحنت هذه القلاع بجنود انتموا إلى الرهبانيات العسكرية،التي حصلت على العون من المقاتلين المؤقتين من بين الحجاج من أوربا، وتأثر الصليبيون الذين مكثوا بشكل دائم في المملكة بالسكان المحليين، وأصبحوا بسرعة الأشبه بأهل المشرق.

واستولى في سنة ١١٤٤م، زنكي أتابك الموصل، على الرها، مما دفع برنارد أوف كليرفو للتبشير بالحملة الصليبية الثانية، وتطوع كل من لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا لقيادتها، وكادا بعد كثير من المشاكل أن يستوليا على دمشق، غير أنهما أعيقا بعدد كبير من المعيقات ولقيا مقاومة فعالة، وفي سنة ١١٤٩، عاد الأحياء الذي بقوا من هذه الحملة إلى أوطانهم.

ويحكى أنه عندما هددت دمشق من قبل الصليبيين، عاش في تلك المدينة فتى كان في حوالي العاشرة من عمره، وكان ابناً لواحد من ضباط زنكي، الذي كان من أصل كردي، واسمه أيوب، وولد الفتى لدى توجه أسرته من العراق إلى الجزيرة، وكان ذلك سنة ١١٣٨، وكان اسمه يوسف غير أنه شهر أكثر بلقبه وهو «صلاح الدين» فهكذا عرفه الصليبيون، وقد نشأ هذا الفتى في سورية، وبات صاحب أشهر اسم في تاريخ الصليبيين كله.

واصطرعت القبائل التركية مع القبائل العربية التي قُهرت من قبلهم، بشكل متواصل، ويعو الفضل في استمرار المملكة اللاتينية حية في القدس لمدة طويلة معتبرة في وسط الجسم الإسلامي، بالدرجة الأولى إلى أنها كانت القوة الوحيدة الموحدة في المنطقة، وقد تحالفت من وقت إلى آخر مع الخلافة الفاطمية بالقاهرة ضد الأتراك، وبات واضحاً أكثر فأكثر عندما وصل صلاح الدين إلى سن الرجولة أن المشرق الإسلامي إذا لم يتحد سيزول من الوجود، وقرر صلاح الدين وجوب توحده، ولقد كان هو الرجل الأكثر موائمة للوصول إلى هذه الغاية وتحقيق الوحدة.

وكان حاكم بلاد الشام آنذاك هو نور الدين بن زنكي، وفي سنة ١١٦٤، بعث نور الدين بشيركوه عم صلاح الدين إلى مصر للاستيلاء عليها، وكان صلاح الدين وقتها في السادسة والعشرين من عمره، وقد ذهب برفقة عمه بمثابة مساعد له ونائب، وعندما توفي شيركوه خلفه صلاح الدين، وقد قبل نور الدين بحلوله محل عمه، وكانت النتائج مرضية جداً، فعندما كان الخليفة الفاطمي في سنة ١١٧١ يحتضر كان صلاح الدين هو وزير مصر وحاكمها، وكانت سورية ومصر موحدتان في دولة واحدة.

وإثر وفاة نور الدين في سنة ١١٧٤، اضطربت الأوضاع في سورية، واضطر الفتى الصالح اسماعيل وَريث نور الدين إلى مغادرة دمشق إلى حلب، فجاء صلاح الدين فضبط البلاد ووسع ممتلكاته حتى حلب، وتمكن في السنوات التالية من الاستيلاء على حلب نفسها، وهكذا بات سلطان مصر والشام، وفي العامين التاليين مدّ صلاح الدين سلطانه إلى ما بعد الفرات، ووحد المشرق الإسلامي تحت رايته. وأمضى الحقبة ما بين ١١٨٠ و١١٨٤ بالحرب ضد المملكة اللاتينية، ووقع في السنة الأخيرة معها هدنة مدتها أربع سنوات، وخرقت هذه الهدنة وتعطلت سنة ١١٨٦ من قبل أرناط (رينودي شاتيلون حاكم أنطاكية، ثم

صاحب الكرك)، وهكـذا امتلك صلاح الدين المسوغ لإعـلان الجهاد من أجل طرد الصليبيين من الأراضي المقدسة، ولـدمج ممتلكاتهم داخل دولته الكبرى؛ ومـع هذه النقطـة بدأ المؤرخ حـديثـه، أي مع الغـزوة الناجحـة لصلاح الـدين ضـد مملكة القدس، فهنـا تكمن بـداية الحملـة الصليبية الثالثة، وعندمـا انتهت هذه الحملة بهدنة ٢ـ أيلـول ١١٩٢، وعلى الرغم من جهود رتشارد الأول ملك انكلترا، كـان صلاح قد أزال مملكة القدس من الـوجود، ووحـد المشرق الإسلامـي، لكن نصره الشخصي عـاش لمدة وجيـزة لأنـه مـات في دمشـق في ٤ـــ آذار ١١٩٣، وهـو في الخامســة والخمسين من عمره.

وكان صلاح الديـن أنبل الحكام المسلمين وأقدر القادة الذيـن توجب على الصليبيين القتـال ضـدهم، وكـانـت إنسـانيتـه وفـروسيته مـدهشـة واستثنائيـة في عصر العنف الـذي عاشـه، ومثل دومـا بأخـلاقه وسلـوكه وتصرفاتـه أرقى النماذج المثـالية التي بشرت فيهـا الديـانة التـي آمن بها، ومع أنـه كان في بعض لحظات الضيـق من الصليبيين كان يقول: دعـونا نزيل الهواء الذي يتنفسونه، لقـد عامل أسراه من الصليبيين بشكل أفضل بكثير مما عامل به الصليبيـون أسراهم من المسلمين، ومجد المرأة واحترمها، وحمى الضعيف، وعبر عـن إعجابه بشجاعـة عدوه، ولقد نظر هـو والملك رتشارد إلى بعضهما نظرة عالية وقـدرا بعضهما بعضاً، وكان من الممكن في أوقات سعيدة أن يكونا صديقين متقاربين.

ويـرى بعضهم أن رتشـارد كـان جنديـاً متفـوقـاً على الجندي صـلاح الدين، لكن صلاح الدين كان قـائداً أعظم، اعتمد على ما بثته قيادته في نفوس رجالاته، وعلى مـا قام به من توحيد للمسلمين، ومـن ثم ايمانه أن هذا سيحقق النصر لعسـاكره في القتال، وهو لم يتعلم كيف ينظـم جيوشه بشكل صحيـح، وهكذا لم تكـن هذه الجيـوش قط أكثر من حشـود غير منظمة لكـن شجاعـة ومتحمسة، ونادراً مـا قاد هو قـواته شخصيـاً أثناء

القتـال، بمباشرة الحرب بنفسـه على رأس الصفــوف، وليـس مـرد هـذا لافتقاره إلى الشجـاعة، فقـد كان شجـاعاً، بـل لأنه رأى أنـه ليس مـن واجـب السلطـان مباشرة الحرب شخصياً، بـل إدارة المعـركـة والإشراف عليها، وكـان في الواقع، كما أشار مـؤرخنا، قد وجه النقـد إلى تهور رتشارد وإصراره على أن يكون الأول في سـاحة الـوغى،وصحيـح أنه تفـوق كثيراً على رتشارد كرجل دولة، لكنـه افتقر إلى الحزم، ولم يكن عبقرياً في الإدارة، ولذلك توزعت دولته الكبرى بين أقربائه ورجاله إثر موته.

وكان رتشارد أصغـر سناً من خصمه الكبير بتسع عشرة سنـة، ذلك أنه ولد سنـة ١١٥٧، لكل مـن هنري الثـاني واليانـور الأكوتـانية، وفي سنـة ١١٧٣ كـان رتشارد مـع اثنين مـن إخوانـه في حـرب ضـد أبيهم، لكـن الرجـل مالبث أن تصالـح مع والده سنـة١١٧٥، ثم رفض تقديـم الولاء إلى أخيه الأكبر هنـري، وأعقب هذا نشـوب حرب بين الأخويـن، انتهت بـوفـاة هنري في سنـة ١١٨٣، واقترح وقتهـا وجـوب تنازل رتشـارد عـن أكوتين لصـالح أخيه الأصغر جـون، وأدى هذا إلى نشوب حـرب أخرى، طلب خـلالها رتشارد العـون من فيليب ملـك فرنسا ضـد كل مـن أخيه وأبيه، وحدث في هـذه الآونة أن قدم رتشارد الولاء لفيليب عـن ممتلكاته في القارة الأوربيـة، وبعدها هـزم رتشارد والده، وأرغمـه على الاعتراف به ولياً لعهده وخليفة له.

وأدت وفاة هنري الثاني، واعتـلاء رتشارد العرش إلى الخلاف بين الملك الجديد لانكلترا وبين صديقه المتقدم فيليـب، وامتلك المؤرخ (الذي كان رتشارد بنظره دومـاً كاملاً ولايمكن أن يقترف الخطأ) كثيراً مـن التفاصيل ليرويها حول تطـور هذا الصراع، وعنـدما كـان رتشارد في حـوالي الرابعـة والثلاثين مـن عمره، قام بالمشـاركة بالحملـة الصليبية الثالثة، وتعـد هذه المشـاركة القسـم الوحيـد في تاريـخ حياتـه وأعماله الـذي أكسبه حسـن السمعة والمكانة.

ولم يسبق لرجـل انكليزي، أن عدّ مملكته مجرد مصـدر للمال لينفق على مطـامحه العظمـى، وكـان مـا سعى إليـه مـن استخـلاص القـدس مـن المسلمين،مع طـرائقه في استخـراج المال من رعايـاه، بلا رحمة قـد سبب كثيراً من المعـاناة والمصاعب، وعنـدما أثنى المؤرخ على كرم رتشـارد نحو ضيوفه، وإنفـاقه بسخاء على الحملة الصليبية، ينبغي ألا ينسينـا فعله هذا دافع الضرائب الذي استخرجت منه الأموال.

ورأت انكلترا خـلال السنوات العشرالتـي حكمها فيهـا رتشارد، هـذ الملـك لعدة أشهـر فقط، وفي الحقيقـة لقـد حكمت بشكـل أفضل أثنـاء غيابـه (فيما عدا الاضطرابات التـي سببها أخوه جـون، الملك المستقبلي) مما لـو كان حاضراً، لأن المستشـارين من الكنيسة والـدولة الذيـن رست السلطـة في أيديهم، بـذلوا أفضـل جهودهـم للحكم بشكـل جيد، تبعـاً لمعطيات أيامهم.

حتـى عندمـا عاد الملـك رتشارد مـن الحملة الصليبيـة، أمضى عـدة أسـابيـع قليلة في انكلترا، فقـد كـان اهتمامـه أعلى بممتلكاتـه في القـارة الأوربيـة، وبحـروبـه الصغيرة مع فيليـب وجيرانـه، وهنـاك لـدى المؤرخ إشارات كثيرة لاستخدام الـزنبورك، أو القوس العقار، الذي كـان للتو قد جـرى استخدامـه، ذلك أن القـوس الطويـل لم يكن قـد عرف بعـد بين الأسلحة الانكليزية، وكان رتشارد نفسه بـارعاً باستخدام الزنبورك، ولقد استخدم هـذا السلاح الجديـد بتأثير كبير وفعاليـة في معاركـه الفلسطينية، وحدث أنه مـن جراء إصابته برميـة من قوس عقار قد تـوفي لدى حصار كالو Chalus في نيسان عام ١١٩٩،وكان عمـره وقتها اثنتان وأربعين سنة.

وكـان رتشارد رجـل عصره، كـرس نفسه عـن إيمان لتحـريـر الأماكـن المقدسـة، ومع ذلك كـان خسيساً دنيئاً وبـلا قيم، عنـدما كان مثـل هذا السلوك يـوصله إلى غـاياتـه، وكان بخيلاً قـذراً وخائنـاً، أو نبيلاً فـارساً،

وتعلق ذلك كله بعواطفه وأحواله في ساعة من الساعات، وكانت ثقافته عالية جداً،ولكن شاردة متقلبة الأطوار مثل صاحبها، وكان من الممكن أن يجهش بالبكاء أثناء انفعاله لدى سماعه الموسيقى، التي أحبها وأغرم بها إلى أبعد الحدود، ومع ذلك امتلك عاطفة مماثلة وتعطشاً أعظم للقتل وللقتال، فهذا الرجل الذي يقال بأنه تولى ترقية ابن أخي صلاح الدين إلى مرتبة الفروسية بيده نفسه، أمر بتنفيذ مذبحة عكا، لا بل باشر قتل الأسرى بنفسه، ونادراً ما عاد من حملة ومعه أقل من عشرة رؤوس بشرية إلى اثني عشر رأساً قد علقها من أطراف سرج حصانه كبرهان على بسالته وقدراته الخارقة.

وجعلته رعونته وطباعه العنيفة حليفاً من الصعب جداً تحمله، لكن بلاريب كان أقدر جندي في أيامه، وكسبت تكتيكاته في الأراضي المقدسة إعجاب العدو والصديق، وكان على السواء معلماً سيداً في كل من حرب حصار المدن وفي معارك الالتحام، وكان شخصياً لا يعرف الخوف تماماً، وغالباً ما غامر بنفسه حيث خاف جنوده من اللحاق به، وجعلته قوته الجسدية وبراعته في استخدام جميع أنواع الأسلحة المقاتل الأكثر إرعاباً ممن وجد على كلا الطرفين، وشهر بتفوقه على جنوده أثناء الساعات الحرجة والعمل الصعب، بقدر ما تفوق بشهرته على القادة الآخرين في التكتيك. .

وكان في أثناء حياته، وبعد مماته بوقت البطل الأثير جداً لدى الشعراء المتجولين والرومانسيين، ذلك أنه لم يكتف بإيثارهم وحبهم كثيراً، بل إنه عدّ نفسه واحداً منهم، وكان يسر إذا نظر إليه على أنه واحداً منهم، وتمتع بدون سبب في إظهار غنائه وصوته الجميل على القيثارة من نظمه الخاص، وفي الحقيقة لقد بقي عبر القرون شخصية زير النساء وموضع الإعجاب، وهكذا استمر الحال حتى أن السير وولتر سكوت قدمه في سنة ١٨٢٥ بمثابة بطل رومانسي في «الطلسم»، وهي رواية قادت إلى إحياء

شعبيته في القرن التاسع عشر بين أوساط الشعراء والرومانسيين.

وكانت الحملة الصليبية الثالثة آخر محاولة قامت بها المسيحية الموحدة، ومع موت كل من بطلي المسيحية والإسلام، أخذت حرارة الروح الصليبية تغدو مع الأيام أكثر ضعفاً حتى جاء الوقت الذي انطفئت فيه تماماً.

وأرغم أباطرة بيزنطة على إقامة الصداقة مع جيرانهم الأتراك، وهكذا أصبحوا موضع شك لدى بني دينهم المسيحيين، ونجم عن ذلك تعمق الانشقاق، وعلى ذلك لم تكن الحملة الصليبية الرابعة لعام ١٢٠٣، صليبية على الإطلاق، بل كانت حملة ضد القسطنطينية عاصمة بيزنطة، وقادت إلى إقامة الامبراطورية اللاتينية التي عاشت خلال نصف القرن المقبل، وجرى أثناء الحملة الخامسة التي استمرت من ١٢١٨ إلى ١٢٢١، الاستيلاء على مدينة دمياط في مصر، لكنها أخفقت في تحقيق أي تقدم أكثر، وكان الصليبيون سعداء في الموافقة على عقد معاهدة سلام لمدة ثمانية أعوام؛ وتمكن فردريك الثاني الألماني في الحملة الصليبية السادسة من الحصول على القدس، بوساطة المباحثات، وتتوج ملكاً في سنة ١٢٢٩، لكي يتعرض لغضب البابا غريغوري التاسع لأنه توصل إلى التصالح مع المسلمين، وفي سنة ١٢٤٤ ساعد الغزاة الخوارزمية الذين اجتاحوا آسيا الصغرى وأعالي بلاد الشام، على استرداد القدس.

وقاد في سنة ١٢٤٩ لويس التاسع ـ القديس لويس ـ ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة ضد مصر، لتكون مقدمة لتحرير الأراضي المقدسة، لكنه هزم ووقع أسيراً في المنصورة مع الجزء الأكبر من جيشه، ولم يطلق سراحه إلا بعد ما دفع فدية كبيرة جداً، ثم أقلع في سنة ١٢٧٠ في الحملة الصليبية الثامنة، لكنه لم يتجاوز مدينة قرطاج (تونس) حيث توفي، وتولى إثر ذلك الأمير إدوارد الانكليزي القيادة، ووصل إلى فلسطين، واستولى على عكا، لكنه أدرك في سنة ١٢٧٢، أنه لا أمل من حملته، فعاد

إلى وطنه بعدما أعد اتفاقية هدنة لمدة عشر سنوات.

وثابر في السنوات العشرين التالية فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية على الاحتفاظ بعكا وصور وبعدد قليل من الحصون في فلسطين،لكن لم تُبذل أية محاولات جديدة جادة لاسترداد الأراضي المقدسة قبل سقوط عكا بأيدي المسلمين في سنة ١٢٩١، حيث تبعها بسرعة استسلام صور مع بقية الممتلكات الصليبية.

وأدت الحروب الصليبية إلى زيادة التجارة وتبادل المؤثرات بين الشرق والغرب، وكان تبادل الأفكار هاماً، لأن النظرة الضيقة لكلا الجانبين قد توسعت كثيراً، فالناس الذين عادوا من الحملات الصليبية جلبوا معهم إلى أوربا أنواعاً من الأطعمة والتوابل لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت في الغرب،وذلك بالإضافة إلى معدات مفيدة وآلات تراوحت فيها بين الطواحين الهوائية إلى السجاد، وظهر السجاد في أوربا في القرن الثاني عشر، واستخدم في البداية لتغطية المناضد والموائد، وذلك قبل أن يتحول الاستخدام إلى تغطية الأرض، وارتفع مستوى المعيشة في أوربا، وبالإضافة إلى ذلك توفر عطاء دائم لاحترام متبادل، لأن المسيحيين والمسلمين أظهروا أفقاً واسعاً واستمرارية وصبراً في الصراع المرير، وهي سمات قدرها المتصارعون على ساحات القتال تقديراً عالياً.

إن كاتب التاريخ رجل مجهول، وبناء على معطيات المخطوطة، ساد اعتقاد أنه كان غيوفري دي فنسوف Vinsauf، لكن اكتشف في ١٨٧٣ م.غاستون الباريسي أن النص موجود شعراً، وقد ترجم من النورماندية الفرنسية إلى اللاتينية الوسيطة في شعر ثماني المقاطع منسوب إلى أمبرويز Ambroise، وهو شاعر جوال نورماندي رافق الملك رتشارد وذهب معه إلى الحملة الثالثة، وعرف العمل الأصلي باسم Carmen Ambroisii، والترجمة الشعرية باسم «رحلة حج وأعمال الملك رتشارد»، وتعرف الآن باسم «صليبية رتشارد قلب الأسد».

وهذا التاريخ أفضل مصدر حول الحملة الصليبية الثالثة، علماً بأن كل أمة اشتركت في هذه الحملة توفر لديها مؤرخوها .

-وقال نيكولاس تريفي Nicolais Trivet وهو كاتب فرنسيسكاني كان في أوائل القرن الرابع عشر، بأن شماساً كان هنا اسمه رتشارد من الثالوث المقدس في لندن قد كتب «رحلة هذا الملك [رتشارد الأول] نثراً وشعراً»، ونقل نصوصاً من التاريخ الحالي، ومن المحتمل أن يكون رتشارد الثالوث المقدس هذا هو «رتشارد دي تمبلو»، الذي انتخب رئيساً للثالوث المقدس في سنة ١٢٢٢، والذي توفي في حوالي سنة ١٢٥٠، ولا يستبعد أن تكون «دي تمبلو» هي كنيته، وأن معناها هو أنه كان من الداوية Templar، ولعله كان شماساً في تلك المنظمة ولم يكن فارساً.

وهناك خلافان صغيران بين نصي الشعر والنثر، وقد يكونان مهمان، فلقد جرى في الشعر استخدام الشخص الأول مفرداً، واستخدم في النثر الشخص الأول جمعاً، وإذا صح أن دي تمبلو قد ترجم بالفعل الكتاب، لعله استخدم لغة الجمع ليضم نفسه، على أساس أنه هو نفسه خدم في الحملة الصليبية الثالثة، وتتضمن هذه الفرضية بحقيقة، أنه في الوقت الذي نجد فيه معظم الكتاب عبارة عن ترجمة قريبة جداً، نلاحظ وجود بعض الإضافات الصغيرة أضيفت إلى القسم الأول الذي عالج الأحداث في فلسطين قبل وصول رتشارد، وفي إحدى الفقرات يقول الكاتب: «الكم توقعنا وصول الملك وانتظرناه بقلق وشوق»، ويومىء هذا إلى أنه كان في عكا قبل وصول كل من فيليب ورتشارد، ومع هذا كتب ما أشار به إلى أنه كان في أسطول رتشارد أثناء الرحلة إلى عكا، ولعل المسألة مردها إلى تحريف صدر عن المترجم، أو إقحام جملة من قبله.

ولقد اعتقد بعضهم أن أمبرويز ربما، هو الذي كتب نصي الشعر والنثر، وأن نيكولاس تريفي أخطأ في عزو الكتاب إلى رتشارد، في حين أن الصحيح هو التأكيد أن الكاتب نفسه كان المسؤول عن النصين،

لكـن يبـدو أن هذا أقـل احتمالاً مـن القـول أنهما ترجما مـن قبـل مترجمين مختلفين، وعلى كل حـال من غير الممكـن تأكيد هـوية شخصيـة المؤلف، وستبقى المسألة موضع شك.

وفي ضـوء تكـريس المؤلـف نفسـه بشكـل مطلـق للملـك رتشـارد، وملاحظـاته حـول سلوك الايرل جـون، حينما كان في فلسطين، يبـدو من المشكوك فيـه أن يقدم على المغامـرة بالظهور في البـلاط عندما كـان جون ملكـاً، لهذا مـن المستبعد أن يكـون الكـاتـب الأصيـل للشعر هـو أيضـاً الكاتـب لدى الملك جون، والـذي حمل الاسم نفسه، وهو الـذي دفع في ٢ـ تشرين أول سنـة ١٢٠٠، شلنا واحـداً، من أجـل غناء تـرتيلة أثنـاء تتويج الملك جون.

وقد طبعت منتخبات من هذا التاريـخ في هانوفر سنة ١٦١١ من قبل جاكـو بونغـار Jacques Bongars في كتابـه «أعمال الفرنجـة»، ونشر للمرة الأولى كامـلاً في سنة ١٦٨٧ من قبل غيـل وفيل Gall+ Fell في «مجمـوعهما»، وأعيدت طبـاعة النـص الـلاتيني في سنـة ١٨٦٤ من قبـل و.ستب W.stubbs ، في الجزء الأول من كتـاب «تواريخ ومـذكرات حكم رتشارد الأول»، وتقدم على هذه الطبعة نشر ترجمة انكليزية لا نعرف صاحبها لصالح مكتبة بوهن أنتيكواريان Bohn Antiquarian وكانت قـد نشرت سنة ١٨٤٨، وجـرت الإفادة مـن هذه الترجمة كثيراً في عملنـا هذا.

كتاب
حملة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة

نحن الذين نعالج تاريخ القدس

جديرون بالتصديق حقا، لأننا أوردنا مارأيناه

ودوّنا بالقلم هذه الأعمال بينما ماتزال ذاكرتنا واعية لها. وإذا ما أراد قاريء متشدد اسلوباً

أكثر رشاقة، عليه أن يتذكر أننا كتبنا عندما كنا

بالمعسكر، ولم يسمح لنا ضجيج الحرب بالهدوء والتفكير العميق.

- ٨٠٦ -

كيف هاجم صلاح الدين فلسطين

في سنة ١١٨٧ لتجسيد كلمة ربنا، عندما كان أوربان الثالث يرأس حكومة الكرسي الرسولي، وفردريك الأول امبراطورا لألمانيا، واسحق الثاني يحكم في القسطنطينية، وفيليب الثاني في فرنسا، وهنري الثاني في انكلترا، ووليم الثاني في صقلية، وقعت يد الرب بثقل فوق شعبه، إذا صح أن ندعو هؤلاء «شعبه»، لأن دنس حياتهم، وعاداتهم، وبشاعة شرورهم، قد أبعدتهم عن إحسانه، لقد غدت آثامهم واضحة إلى حد أنهم جميعاً (رموا جانبا برقع الحياء) وانغمسوا كلياً، في وضح النهار في حمأة ذنوبهم.

وسيكون عملاً طويلاً، لايتوافق مع هدفنا الحالي، أن نكشف مشاهد الدم، والسرقة والزنا التي لطختهم (إن عملي الحالي تاريخ وليس رسالة في الأخلاق)، ولكن عندما نشر عدونا القديم قرباً وبعداً، روح الفساد، استولى أكثر بشكل خاص على أراضي سورية وفلسطين، وهكذا أخذت الأمم الأخرى الآن تنهل الدنس من المنهل نفسه الذي زودهم من قبل بعناصر الديانة، فهذا ما جعل الرب، وقد رأى أرض ميلاده، وشهد مكان آلامه، قد سقط في حمأة الموبقات عامل باهمال ورثته، وجعل من صلاح الدين عصا عذابه، وصب غضبه في سبيل تدمير ذلك الشعب العنيد، لأنه بالحري كان يؤثر بأن تصبح أرضه خاضعة لوقت قصير للطقوس الدنسة للكفار على أن تبقى في حوزة أناس ليس لديهم تقدير لما هو صحيح ولما يحول دون الأخذ بالأشياء غير الشرعية.

وبناء عليه قام صلاح الدين بعدما حشد وحدات مقاتليه، بالهجوم بكل عنف على فلسطين، وبعث أمامه أمير الرها مع سبعة آلاف من الترك للقيام بالعيث فساداً في الأرض المقدسة، وبعد ما زحف هذا

الـرجـل بعيـداً حتى الأمـاكـن مـن حـول طبريـة اصطـدم بجيرارد دي ردفـورت، مقدم الـداوية، وروجـردي مولين مقـدم الاسبتاريـة، وقد هـزم هزيمة ساحقة واحداً منهما، وقتل الثاني في هجوم مفاجىء.

وعُزل في هـذه المعركة (١ — أيار ١١٨٧) عـدد من جنودنـا وحوصروا من قبل حشـد كبير مما أدى إلى تحقق واقعة تستحق التدويـن: كان هناك فارسـاً من الداويـة، من أصل ألماني اسمـه جاكويـن دي ميللي، استطاع بشجاعتـه المفرطة أن يحول هجـوم الأعداء ضده، فقـد كان أصحابـه من الجنـود، وعددهـم نحـو خمسمائة، قد وقعـوا إمـا بـالأسر أو قتلوا، وصمـد وحده يتحمل ثقـل المعركة كلها، فلقـد كان بطلاً حقيقياً لشريعـة الرب، وأخيراً طوق تمامـاً من قبل عساكـر الأعداء، وافتقر إلى المساعـدة البشرية، وعندمـا رأى الآلاف المؤلفة تندفـع نحوه من كـل جانب، جمع شجـاعته كلها وواجه بـإقدام العدو وحده، وجـذبت شجاعته اعجـاب الأعداء، فامتلأوا بالعطف عليه، ودعـوه باخلاص إلى الاستسلام، غير أنه واجههم بأذن صماء ولم يستجب لما رغبوه به، ولم يكـن خائفاً مـن الموت في سبيل المسيـح (وبعد مـا أثقـل بحمـل النشاب، والحجـارة، والحراب، استمـر يقاوم ولم يسقـط) غير أنه وبعد مصاعـب جمة قتل، وتحول موته بـالحقيقة إلى مجد وفخـار، لأنه استطـاع بسيف واحـد أن يحيـط نفسه بـأكوام مـن القتلى.

وسرّ صلاح الـدين بهذا النصر سروراً عظيماً، وحوّل ذهنـه نحو أفـاعيل أعظـم، فبعدمـا استنهـض جميـع القوى في مملكتـه، هـاجـم بقوة وجـرأة أراضي القدس، وعلى مسـافة قصيرة من طبرية، وفي مكـان اسمه حطين، امتحن الرب شعبه بالسيف، وجـرح الكثيرين، وألقيت أعداد كبيرة جداً بالسجن، حتى أن تدمير شعبنا استدر عطف أعدائهم.

وتـمّ الاستيـلاء على صليـب الصلبـوت، الـذي صلـب عليـه ربنـا ومخلصنـا، ولـوث بـأيـدي غير المؤمنين، ولقد سقـط حـامـلاه معـه وهما:

أسقف عكا، وأسقف القديس جرجس (اللد) ، فقد قتل أحدهما وأخذ الآخر أسيراً.

لقد جرى أسر ملك القدس وصليب الصلبوت معا، وتم حفظ شطر من الأسرى دون أن يلحقهم أذى، ليوضعوا تحت تصرف المنتصر، ولاقى شطر مصيره بالسيف، وكان بين هؤلاء أرناط، أمير أنطاكية، وقد اقتيد أولاً إلى حضرة السلطان، وقام ذلك الطاغية فقطع رأس ذلك الشيخ بيده، وذلك بسبب شدة تعصبه أو حسداً منه وغيرة من هذا الرجل العظيم، وأمر أيضاً بإعدام جميع أسرى الداوية، ولم يوفر سوى مقدمهم، فقد امتلك رغبة في محق هؤلاء الذين تميزوا عن سواهم بالشجاعة اثناء القتال.

وعندما خمدت أصوات المعركة، رفع صلاح الدين عينيه نحو السماء، وقدم الشكر لله على النصر الذي ناله، ولقد قيل أنه قال: نحن لم ننتصر بقوتنا، لكن ذنوبهم أسلمتهم إلينا فانتصرنا، وهكذا تلاشى بلحظة واحدة مجد مملكة القدس كله، وزال عنها وخمد، ونال المصير نفسه حشد قوات المملكة كلها، فقد جمعها الملك تحت إمرته في سبيل المعركة الحاسمة، وبقي فقط يتولى حراسة المدن والقلاع، الضعفاء والنساء، والشيوخ، والذين كانوا غير قادرين على حمل السلاح.

وكان السلطان واثقاً أن قلاع المملكة ستسقط له بسهولة (بعد ما تم قتل المدافعين عنها)، ولهذا حمل معه الملك الأسير في موكب نصر، لعرضه أمام المدن التي رغب بالاستيلاء عليها، مستهدفاً بذلك ارغامها على الاستسلام، وقد زحف أولاً إلى عكا، واستولى عليها دونما جهد، وسمح لسكانها بالمغادرة، والسفر إلى حيث أرادوا ومعهم كل مقتنياتهم.

وحدث في الوقت نفسه أن البحارة منا، كانوا يتابعون رحلاتهم المعتادة نحو عكا، قادمين من البلدان المسيحية، وكان بعضهم محملاً

بالبضائع التجارية، وبعضهم الآخر بالحجاج، وباللأسف لم يكونوا قد سمعوا بما حدث، ولهذا دخلوا إلى الميناء المعادي ووقعوا أسرى.

وكان المركيز كونراد أوف مونت فرّات، بين آخرين، في طريقه من القسطنطينية، وقد رمى مراسيه خارج ميناء عكا، وكان الوقت يومها عند غروب الشمس، لذلك بقي حيث هو حتى الصباح، وقد أوجد الهدوء الذي لف المدينة في نفسه الريبة، حيث جرت العادة في غير ذلك من الأوقات بقيام صراخ عام وصيحات التهنئة بالقدوم، عندما يظهر أي مركب، كما أن رنوك وشعارات السلطان التي رؤيت في مختلف أجزاء المدينة قدمت السبب لمزيد من الخشية، وشوهد بالوقت نفسه قدوم عدد من المراكب الاسلامية واقترابها، وهذا ما أنذر الملاحين والبحارة، فأمرهم المركيز بلزوم الصمت وانتصب واقفاً وتقدم ليتحدث باسمهم، وعندما سأله المسلمون من هو ومن معه، أجابهم، أن سفينتهم تجارية، وهو مقدمها، وأنه قد سمع بما حدث، وبما أنه عبد مخلص للسلطان، سينتظر حتى انبلاج الفجر ثم يقوم بالنهار بعرض بضائعه.

وجاءت في تلك الليلة ريح طيبة مواتية، وأبحر إلى صور، وتولى هناك مهام الدفاع عنها.

وحدث بعد الاستيلاء على عكا أن استسلمت بيروت وصيدا، وتوقع السلطان أن يأخذ صور بالسهولة نفسها، لكنه رد عن أسوارها بشكل مهين، فقام برفع الحصار، وحمل معه ملك القدس وتوجه من هناك إلى عسقلان، ونصب مجانيقه وآلات حربه لرميها بالحجارة، ثم بدأ بالهجوم عليها.

وطبعاً كان من السهل الاستيلاء عليها نظراً لأن الحامية المدافعة عنها كانت ضعيفة، وذلك على الرغم من أن دفاعاتها قد أظهرتها قوية جداً لاترام، وأنها مشحونة بما يكفيها من جند، وكان المهاجم المتلهف،

متشوقاً للاستيلاء على هذه المدينة قبل كل شيء. ثم إنه لم يكن يثق تماماً بقدراته للاستيلاء عليها عنوة، لأنه لم يكن على بينة بأحوالها وراء الأسوار، ولا كيف أنها كانت تعاني من نقص بالسلاح، والرجال والطعام، ولذلك وافق على شروط استسلامها، التي قضت بأن يسمح لسكانها بالمغادرة بكل حرية وبحمل جميع ممتلكاتهم، وأن يجري اطلاق سراح ملك القدس مع خمسين آخرين من أعيان الأسرى، بأقصى سرعة ممكنة.

ولقد بات الآن أمر سقوط القدس محتوماً، وقام المنتصر بالزحف نحوها بسرعة عظمى لايوازيها سوى كراهيته، وباشر بحصار المدينة، وأنشأ آلات الحرب، ولوث الأماكن المقدسة بأعمال آثمة تدل على عدم الاحترام، وحاول سكان المدينة الدفاع عنها بقدر ما كانوا يستطيعون، غير أن جميع جهود رجالنا كانت بلا فعالية، فقد استخدموا النشاب والحراب والرماح وغير ذلك بدون فائدة، لأن الرب كان غاضباً، وسقوط المدينة أمراً تقرر.

وكانت أعداد كبيرة من الناس قد تدفقت معا على المدينة، واضعة ثقتها بقداسة المكان، أكثر منها بقوة دفاعاته، وكان من المستحيل أن يجد المرء في وسط هذه الحشود العظيمة أربعة عشر فارساً، وقام الكهنة ورجال الدين بتولي أعمال الجند (مع أن ذلك كان معاكساً لاختصاصهم)، وذلك بموجب حالة الطوارىء، وقاتلوا بشجاعة في سبيل بيت الرب، غير أن السكان، وكانوا جهلة ومرعوبين، فتجمهروا حول البطريرك والملكة، اللذان خلفا في موقع المسؤولية عن المدينة، واشتكوا بمرارة، وأعلنوا بصدق أنهم ربما سيطلبون من السلطان منحهم شروط استسلام.

وأخذت المدينة، وتجاوزت تكبيرات المسلمين قمة الصخرة المقدسة، ونشروا هناك شريعتهم الزائفة، لقد نشروها في المكان الذي ذاق فيه المسيح طعم الموت على الصليب، وقام الأعداء بعمل مغيظ آخر: فلقد

ربطوا حبالاً حول صليب، كان موضوعاً فوق قبة كنيسة الاسبتارية (المسجد الأقصى) وسحبوه إلى الأرض، حيث بصقوا عليه، ودحرجوه، وجروه — استهانة بعقيدتنا — وسط جميع قاذورات المدينة.

حصار عكا

أطلق سراح غي لوزغنـان، ملك القدس، من قبل صلاح الـدين، بعد ما أمضـى سنة بـالأسر، وذلك بعدمـا أعطى مواثيـق مشددة أنـه سيتولى التخلي عـن المملكـة، وسيغادر البـلاد نـافيـا نفسه إلى مـاوراء البحـار في القريـب العاجل، لكـن رجال الديـن حللوا المـلـك من مواثيقـه وأيمانه، لسببين : أن ما قـام به كان تحت الإكـراه ويستحق الشطـب، ولأن جموعاً من المؤمنين كـانت في طـريقها إلى الأرض المقـدسة، وكـانت ستجـد فيه الرأس والقائد.

وقام المـلـك بعد بـرهة قصيرة، بحشـد جيشه، وشرع في أواخـر آب، في يوم القـديس أوغسطين، أي بعد عامين مـن الاستيلاء على عكا مـن قبل الترك، هناك بأعمال ذلك الحصار الطويل والصعب، والذي استغرق أكثر من عامين، وذلك قبل استسلام المدينة.

ووصلت القـوات البيزيـة — التي اختارت السفـر بالبحـر لأنه أقصر وأسهل — بسفنهـا إلى مقربة عكـا، بانتظـام ، وبشجاعة استطـاعت أن تحتل السـاحل، وما أن أنجـز البيازنة تأمين قـاعدة، حتى شرعـوا بأعمال الحصار من جهة البحـر، بشجاعة وتصميم،ونصب الملك مـع بقية جيشه خيامهم على تلة مجاورة، تدعى عموماً جبل تورون Turon استطاع منه (نظراً لارتفـاعه عـن الأرض) أن يراقـب الطرق البريـة والبحريـة الموصلة إليها.

وفي اليوم الثالث الـذي تلا يوم الوصول، قام المسيحيـون بالهجوم على المدينة، وادراكـاً منهم أنـه كان من العبـث انتظار تـأثير أحجار المنـاجيق وبقية الآلات، اعتمدوا على دفـاعات ترستهم فقط، وحملـوا سلالم تسلق حتى يـركبون بها الأسوار، وكادوا في ذلـك اليوم أن يحصلوا نهايـة سعيدة،

لولا خداع العدو القديم، ووصول معلومات زائفة، أحبطت انتصارهم عندما كاد أن يكتمل، فقد روي أن صلاح الدين قد بات وصوله وشيكا، ولهذا رجع رجالنا إلى المعسكر مسرعين، لكن عندما أدركوا أن الذين وصلوا مجرد قوة صغيرة جاءت قبل سواها، عبروا عن غضبهم بدلاً عن أسفهم، لأن النصر اختطف منهم.

وكان السلطان في ذلك الوقت يحاصر قلعة الشقيف في الجليل، وعندما علم بما كان يحدث، زحف مسرعاً مع جيش كبير إلى عكا، وبما أن رجالنا كانوا غير قادرين على التصدي له ومنازلته، أبقوا أنفسهم داخل حدود المنطقة المتقدم وصفها، وهاجمهم الأتراك باستمرار، في الصباح وفي المساء، وجربوا كل وسيلة للتوغل حتى قمة الهضبة، وهكذا فإن أولئك الذين جاءوا لحصار آخرين، باتوا أنفسهم الآن محاصرين.

وبينما كان رجالنا، في هذا الوضع، شاهدوا اقتراب خمسين سفينة، تحمل نجدة قوامها اثني عشر ألفاً من الرجال، وأقام هؤلاء معسكرهم فيما بين المدينة وجبل تورون، ثم صرفوا قواهم العملاقة نحو تدمير الأعداء، وبعدما ازدادت أعداد المؤمنين على هذه الصورة، تقرر بالاجماع مهاجمة المعسكر المجاور لغير المؤمنين، وكان بينهما سهل واسع، قدم رقعة جيدة لاتخاذها ساحة للمعركة.

ووقف الترك بتصميم للدفاع عن معسكرهم، لكن عندما دنا رجالنا واقتربوا فتح الرجالة (الذين كانوا بالساقة) صفوفهم، وقامت قواتنا المحمولة بالانقضاض بكل شجاعة على الأعداء، ولحقت الهزيمة بغير المؤمنين، وتخلوا عن معسكرهم، ثم إن المسيحيين توقفوا عن أعمال المطاردة، رغبة منهم في الحصول على الغنائم، وتم الاستيلاء على خيمة السلطان نفسه، واندفع بالوقت نفسه حشد كبير من الأعداء من داخل المدينة، وزحفوا من المكان الذي لم يكن محاصراً، واستمروا في سيرهم نحو الجبل بوساطة ممر خلفي، بالحقيقة زحفوا عن عمد عبر ممر دائري،

بهدف أنه بينما يكون رجالنا في حيرة لايعرفون هل يقصدون مهاجمة المعسكر أم الجيش، ربما يكون بإمكانهم الانقضاض فجأة على الجيش من المؤخرة.

وكان الداوية، الذين لم يكونوا أدنى شهرة وإيماناً من أحد، قد تمكنوا في هذا الوقت من خرق صفوف الأعداء، ولو أن بقية الجيش تابعت خلفهم في أعمال المطاردة لنالوا في ذلك اليوم حظ الانتصار بالاستيلاء على المدينة وكذلك في المعركة، لكن عندما كان الداوية في جهدهم قد ابتعدوا كثيراً وتوغلوا طويلاً في متابعة حظهم، تعرضوا فجأة للهجوم وغلبوا، وذلك من قبل أهل المدينة، مع أن انتصار الأعداء لم يتم دون قتل عدد كبير من رجالهم.

وفي جزء آخر، بينما كان الألمان مشغولين جداً بأعمال النهب، عرض المخادع القديم أمام أبصارهم حصاناً فاراً، ورأوا جمعاً من الناس يطاردونه، فافترض البقية أنهم كانوا يفرون، وحدث بهذا الحدث التافه، لكن الحاسم، أن الخوف عم وسط الجيش كله، وتوجهوا جميعاً بعقولهم نحو الفرار.

ورأى قادتنا بعد هذا الحادث، أنه من الأفضل التمنع عن أعمال القتال في السهل، وشغلوا أنفسهم في تقوية المعسكر، وأقاموا حوله سوراً من الأتربة الممزوجة بالأعشاب والنباتات، مع خنادق عميقة من البحر إلى البحر، وبذلك أصبحت المدينة مغلقة من جهتي البر والبحر، وبينما كان رجالنا مشغولين في صنع الخنادق هاجمهم الترك بشكل متواصل، على شكل حملات قامت بها فرقة تلو أخرى من الصباح حتى الليل.

وعندما طوق رجالنا عكا من جميع الجهات، بدأ سكانها يعانون من مجاعة شديدة، ذلك أنهم كانوا قد استهلكوا جميع المؤن التي كانت لديهم، ولذلك عرضوا تسليم المدينة على شرط أن يسمح لهم بالمغادرة

مـع مقتنيـاتهم دون أن يلحقهـم الأذى، ولم تقنع هـذه الشروط مقـدمينـا الذين قـرروا إما إرغامهم بـوساطة التجويـع على الخضوع لإرادتهم، أو أن ينالـوا فخار اقتحام المدينة عنـوة، لكن عندما كـانوا يناقشون ببـطء أمور تسليـم المدينـة، قـام السلطـان بتحميل خمسين سفينـة بـالـرجـال والمؤن والسلاح مـن الاسكندريـة وأرسلهم لمسـاعدة عكـا، ووصل هـؤلاء مساء عيد جميع القديسين، وعنـدما رؤيت هذه السفن عن بعـد، قال بعضهم: إن العـدو بـات في متناول اليـد، وقـال آخـرون: إن نجدة جـاءت لعـون المسيحيين، وفيها هـم في حيرة غير متأكـديـن، دخـل الأعداء إلى المدينـة، وحملوا معهـم بالقوة إحـدى سفننا التي وجـدوها بـالميناء ، ولدى تقـوية المدافعين عن المدينة بالمؤن، قام هؤلاء بالضغط علينا بشجاعة أعظم.

واستمر بالوقـت نفسه الجيش التركي الذي كان مـوجوداً خارج المدينة بحمـلاته المتـواصلة على رجـالنـا الذيـن كـانوا خلـف الخنادق، وبـذل المسلمون جهودهم لطم الخنادق، وأكملـوا ردم بعضها برمي التراب فيها، غير أن المسيحيين وإن تعرضوا للضغـط الشديد من قبل أهـل المدينة من جـانب ومـن هجـوم الجيش مـن الجانـب الآخر حـافظـوا على مواقعهـم برجولة، وأقاموا الحراس على الخنـادق، وبذلك تمكنوا من رد الهجمات من كلا الجانبين.

واشتكى رجـال العامة الآن مـن عدم فعـالية المقدمين، ومـن استمرار الانغلاق بلا فـائدة، وضاقوا ذرعاً بـالحصار، ولدى قيام المقـدمين بتقدير الموقف، رأوا بعـد بعض الوقـت الذي أمضوه في معـرفة ما هـو الأفضل للقيام بـه، أنه ينبغـي مهاجمة العدو في الخارج والاشتبـاك معه في معـركة عـامة، لأنـه إذا ما أرغـم الجيـش المعادي على الانسحـاب، سيكون أمـر اقتحام المدينة أكثر سهولة.

وبنـاء عليه قـام قادتنـا في اليـوم التالي لعيـد القـديس مـارتن بقيـادة قواتهم، وقد تعبأوا وانتظموا للقتال، وعنـد غروب الشمس أكملوا زحفهم

ونصبوا خيمهـم، وهنا قدم سكان المدينـة، ودخلوا المنطقة التـي أخليت، وانقضوا على الأثقال لنهبهـا، لكن رجالنا استقبلـوهم برجولـة وأرغموهم على الفرار.

وفي تلـك الليلة أمـر السلطان بنقـل جميـع خيمه وأثقـاله إلى الجبـال، والذي لم يمكـن نقله آنئذ أحرق، وهـذا الذي حدث فيـه دليل على روح مهزومة وعلى تردد، لأنه رفض القتال في المنبسـط ودمر أثقاله، وتراجع إلى الجبل، وعندما عثـر على بقعة لم يكن من السهل الوصـول إليها، توقف ، وأرسل عـدداً كبيراً من الـرجالـة والنبالة لإيقـاف من فكـر بالملاحقـة من قوات العدو وصده، وبـذلك بات بإمكانه من علو إغضـاب هؤلاء الذين خاف من الاشتباك معهم عن قرب، وشعـر رجالنا بأنهم خدعوا وأنهم لن يتمكنـوا من الالتحـام في معـركة، وأنهم أيضـاً عـاجزيـن عـن ملاحقـة الأعـداء عبر الطريـق الصعب، لهذا حملـوا أنفسهم وعـادوا دون الإصابـة بأضرار، ودون الحصول على المجد.

وازدادت في الوقـت نفسه الحاجـة إلى المؤن في جيشنا يـوميا، وأضـاف المناخ الحار رعباً إلى رعبهم فيما يتعلق بالمجاعة القائمة.

خبر ملكي انكلترا وفرنسا

بينما كانت هذه الأمور تحدث في فلسطين، انتشرت أخبار في جميع أرجاء العالم بأن مدن الأراضي المقدسة باتت في أيدي الكفار، وأن الآثار المقدسة تعامل بإزدراء وتداس بالأقدام. وأن المسيحيين تعرضوا للنهب والإهانة.

وتحرك أباطرة أوروبا نتيجة لاثارتهم من قبل البابا غريغوري الثامن، وثار عدد كبير من مختلف الأمم، وحمل الفرنسيون والانكليز قبل سواهم عن إيمان علامة الصليب، واستعدوا بكل ما أوتوه من قوة للاسراع إلى عون الأراضي المقدسة، وكانت الحماسة للحج الجديد هائلة حيث لم يبت السؤال: من سيحمل الصليب، بل من لم يحمله بعد، وأرسل بعض الأشخاص إلى بعضهم هدايا تكونت من مغزل وصوف، وذلك في إشارة إلى أن كل من رفض المشاركة بالحملة سينظر إليه باستخفاف واحتقار، وكأنه انسان قادر على القيام بواجبات النساء فقط، وحثت الزوجات أزواجهن والأمهات أولادهن ليكرسوا نفوسهم لهذا الصراع النبيل، وأسفن أن ضعفهن لكونهن نساء قد منعهن من الذهاب أيضاً، وهاجر الكثيرون من بيوتهم إلى المعسكر، واستبدلوا معاطفهم بالسوابغ وتخلوا عن تعلم الآداب إلى دراسة العمل بالسلاح، وبشر رجال الكنيسة في كنائسهم، وبينوا محاسن التوقف عن شرب الخمرة، وحثوا جميع الناس وأمروهم بالتخلي عما اعتادوا عليه من أسباب الرفاهية، وتم الاتفاق أيضاً على ضمان الحجاج الذين كانوا فقراء.

ومع أن فردريك امبراطور الألمان كان آخر حاكم تعهد بحمل الصليب، كان أول من نفذ تعهده، ولكن عندما كان على حدود أرمينيا (كيليكيه)، وبينما خيول النقل والأثقال تقوم بجواز نهر غوكسو (السن)،

استعد للجواز من أقرب نقطة مـن النهر، حتى يحصل في الأمام، ويمتلك الحرية في متابعة سيره، ولكن المياه قهرته فغرق ومات.

ووصـل رجـال جيشه بعـد ضيـاع وتشرد طـويـل جداً إلى أنطـاكيـة، فأطلقوا لأنفسهم العنان في الأكل وإشباع الـرغبات، ونتيجة لذلك مات عدد كبيرمنهـم بسبب التخمـة المفاجئة، وهكـذا هلك العـدد الأكبر من هذا الجيش بهذه الطريقـة المعيبة، وعاد معظم الذين بقيـوا على قيد الحياة إلى بلدانهم.

وكـان رتشارد — الـذي كان وقتـذاك كـونت بـواتو — أول مـن حمل الصليب ومعه حشـد هائل من الناس، ولكنهم لم ينطلقـوا بسبب خلاف نشب فيما بين فيليـب ملك فـرنسا، وهنـري ملك انكلترا، والـد رتشارد، وكان رئيـس أساقفة صُور (الـذي حمل إلى العالم المسيحي أخبار الفـاجعة العظيمة) قـد بذل بـإخلاص جهده للمصـالحة بينهما وحدد اليـوم الذي سيلتقيان فيه لحمل الصليب.

وعزمـا في ذلك اليـوم أن يحمل كل واحـد منهما الصليب، ويغـادر من بلاده، وبـدا هذا اجـراءاً احتياطيـاً سلبياً حتى لايقـوم أي منهما بمهاجمة مملكـة الآخـر، ذلك أن أيـا منهما لـن يغـادر مـا لم يغـادر الآخر، ثـم قـام الملكـان بتبـادل قبـلات السلام وحملا الصلبـان (وتميـز كـل منهما بلـون صليبـه، فقد كـان لـون الصليـب الفرنسي الأبيـض، والانكليـزي الأحمر، والفلمنكي الأخضر)، غير أن الملك هنري مات يـوم عيد الرسولين بطرس وبولـص في سنة ١١٨٩، لتجسيـد ربنا، وفي السنـة نفسها، وبعـد موت أبيه، قام رتشـارد كونت بواتـو بعدما رتب شـؤونه في نورمانـدي، أي بعد حوالي الشهـرين من الـوفاة، بالعبـور إلى انكلترا، وكان ذلك في يـوم عيد القديس جايلز، وقد استقبل في وستمنستر بموكب تشريف احتفالي.

وبعد مضي ثلاثة أيـام، في الثالث من ايلول رسم ملكـاً وتوج من قبل

رئيس الأساقفة بلدوين، وكان أخوه جون حاضراً وقت التتويج وكذلك أمه إليانور مع عدد كبير من الكونتات والبارونات، وحشد كبير من الناس والجند، وهكذا أسندت المملكة وآلت إلى أيدي الملك رتشارد.

على هذه الصورة وفي سنة ١١٨٩، لتجسيد الرب جرى تتويج رتشارد ملكاً في يوم أحد، واحتفل بالمناسبة لمدة ثلاثة أيام، تم خلالها استقبال الضيوف في القصر الملكي في وستمنستر، وأكرم الجميع بتوزيع المال عليهم بدون عد وإحصاء، وأعطى الجميع تبعا لمراتبهم، وبذلك عبر عن كرمه وعظمته الكبيرة.

لقد امتلك شجاعة هكتور، وسموآخيل، وعادل الاسكندر (ولم يكن أقل من رولاند) في الشجاعة، وكان كرم تيتوس كرمه، و (كل شيء نادر وجد في جندي كان فيه)، وكان مفوها له فصاحة نستور وحكمة يوليسيس Ulisses وعبر عن نفسه وأظهر عظمتها في أثناء تنفيذ الأعمال، وجعله النجاح أكثر موائمة للعمل، لأن الزمان يرعى دوماً الجريء، ومع أنه كان يظهر سروره ممن يريد ويضفي بهجته على من يحب، لم يعان رتشارد قط من الهزيمة بالمتاعب والخصومات.

فلقد كان طويل القوام، جميل المحيا، بشعر ما بين الأحمر والخرنوبي،، وكانت أطرافه مستقيمة ومرنه، وامتلك ذراعين أقرب إلى الطول، لايمكن موازاتهما في العمل بالسيف أو الضرب به، وتناسب طول رجلاه مع باقي بنيته، وفي الوقت الذي كان مظهره أخاذا وفيه جلالة، وأخلاقه وعاداته مواءمة، كان ماناله من مكانة من نسبه الرفيع أدنى مما حمله من محاسن تزين بها، ولم يحتج إلى إطراء كبير، ذلك أن حاجته إلى المديح كانت قليلة، والمديح كان دوماً المرافق الأكيد لأعماله العظيمة.

كان متفوقاً كثيراً على الآخرين في كل من المزايا المعنوية والقوة، ومذكوراً من أجل قوته في القتال، حيث أن أفعاله الجبارة فاقت في

لمعانها جميع الأوصاف البراقة التي يمكن أن نضفيها عليها، وكان والحق يقال لانظير له في أعماله الرائعة، وكان السبب الوحيد لمعاداته هو روعته، وأنه الباحث عن الصفات الحميدة، ولم يكن عبداً للآثام والشرور.

وعندما انتهت إحتفالات التتويج، انتصب رتشارد في مكان أبيه، وتلقى يمين الولاء من النبلاء حسبما جرت العادة، ثم غادر لندن، وقام بجولة في مختلف المناطق، وبعد هذا قام بالحج إلى القديس ادموند الذي اقترب حلول موعد عيده، ووافق على تعيين عدد من الأساقفة في بعض الأسقفيات، وبعد ما أعد كل شيء من أجل الرحلة، ورتب شؤون مملكة انكلترا بقدر ما سمح له الوقت، عاد إلى نورماندي حيث احتفل بعيد ميلاد ربنا.

وجعلته نواياه بالشروع بالرحلة والوفاء بما تعهد به متلهفاً، ذلك أنه حكم أن التأخير خطير، ولذلك قام في سنة ١١٩٠، لتجسيد مولانا، بحث الملك فيليب صاحب فرنسا على أن يكون مستعداً أيضاً.

وكان الاسطول الملكي، قد وجهه الملك رتشارد وأمره بالارتحال إلى (صقلية) فوصل إلى هدفه وهو ميناء مسينا، وذلك بعد ما تخطى جميع مخاطر المحيط، وانتظر هناك وصول الملك، الذي كان يزحف براً مع جيشه.

وعندما غادر الملك تور مع قواته، من الذي كان بامكانه أن يذكر عدد القوات التي رافقته، وأنواع أسلحتهم، وقطار النبلاء، وفرق المنازلة المختارة؟ أو من كان يستطيع أن يصف قوات الرجالة وكتائب حملة المقاليع بينهم؟ وقام الذين رأوهم بالبكاء والتوجه أيضاً بالشكر للرب من صميم قلوبهم. من أجل الملك الجديد، والذي قام في بداية حكمه، ودون أن يذوق طعم الراحة، بالتخلي عن ايمان وبكل سرعة عن جميع المسرات، وتولى القيام بعمل عظيم ومفيد جداً، ومتعب وكذلك ضروري.

ياللتنهدات وبكاء الذين عانقوا بعضهم أثناء الفراق! ويا للأماني الطيبة للذين كانوا مسافرين، ويااللعيون المثقلة بالدموع، والحسرات التي قطعت كلمات المتكلمين وسط قبلات الذين كانوا عزيزين عليهم، ولقد حزنوا، وفقد بعض الذين كانوا منطلقين وعيهم من شدة الأسى، وذلك أثناء الفراق، وبعد ما تبادلوا تحيات الوداع وقفوا قليلاً أكثر ورددوا العبارات لكسب بعض التأخير، وأخيراً انتزعوا أنفسهم من وسط أصوات التحيات، وانطلقوا نحو الأمام حتى يخلصوا أنفسهم من بين أيدي الذين حبسوهم.

وعلى هذه الصورة، انطلق رتشارد، ملك انكلترا، في السنة الأولى لتتويجه من تور، وأخذ الطريق نحو فيزلي، حيث التقى الملكان ومعهما قواتهما، وبما أن كلا الأمتين كانتا أكبر من أن تحصيا عدداً، فقد انتشرت الخيام والسرادقات فغطت وجه الجبال طولاً وعرضاً، وكذلك سطح الأرض من حولها مع الحقول المزروعة، وأعطى ذلك الانطباع بشكل مدينة، وتمتن هذا الانطباع أكثر بتعدد أنواع السرادقات واختلاف ألوانها التي ميزت بعضها عن بعض.

وكان بإمكانك ان ترى الشباب العسكريين من أمم مختلفة شاكي السلاح، مستعدين للحرب، يبدون وكأنهم قادرين على اخضاع الأرض كلها بالطول والعرض، وأن يهزموا جميع أمم العالم، وأن يخرقوا صفوف مختلف القبائل، وان يحكموا أن ما من مكان شديد الصعوبة أو ما من عدو قوي جداً بحيث يستحيل قهره، ولقد بدوا وكأنه من المستحيل بالنسبة لهم أن ينصاعوا للخطأ ماداموا قادرين على عون بعضهم بعضاً، ومساعدة أحدهم للآخر بفضل شجاعتهم.

ومع هذا فإن ذلك الجيش، الفخور بأعداده الكبيرة، والمحمي بقوة أسلحته، كان مشحوناً بالمتاعب، ممزقاً بالخصومات والخلافات، مغلوباً على أمره بعدم الاتفاق، ولو أنه ظل موحداً بالنظام العسكري والإرادة

الطيبة، لبقـي غير قابـل للقهر بـالنسبة لأي سـواه، ولكنه بتمـزيق روابـط التبعية واجه سقـوطاً مريعاً، وتخلى عنـه الأصدقاء وابتعد عنهـم، ذلك أن البيت الممزق ضد بعضه يغدو خاوياً.

وانطلـق الملكان نحـو الأمام ومعهما رجـالهما، وأعـدا الخطط لـزحفهما، وعقـداً اجتماعـات دوريـة بـأبهة عظيمة، ولـدى مـرورهـم خـلال المدن والقرى بعتـاد عملاق هائل وبأسلحـة الصدام، كان السكـان يرددون في دهشتهم: أيتهـا السماء، ما هذا الحشـد الهائل من الـرجال وماذا يـريد؟! أيها الجند النبلاء في زهـرة شبابهم ما أروعكم! أيها الشبـاب السعداء كم هو جمالكم عظيم! أي أرض ولدت مثل هؤلاء الجنود الشبان الرائعين؟.

وهكذا تابع الجيش زحفه مبتهجـاً من فيزلي إلى ليون على الرون، ووقتها غادر ملـك فرنسا مـع جميع قواتـه واتجه إلى جنوى، وكان المتفـق عليه أن الذي يصل إلى مسينـا في صقلية أولاً يتوجب عليه أن ينتظـر وصول الآخر، وبعد مضي ثلاثة أيام غادر الملك رتشـارد إلى مرسيليا، حيث مكثنا هناك لمدة ثلاثة أسـابيع، ثم أقلعنا في اليـوم التالي ليوم رفع العـذراء المباركة إلى السماء، لنعبر البحر إلى مدينة مسينا.

ولدى انتشار خبر قـدوم ملك انكلترا النبيل بين سكان مسينـا، اندفعوا بحماس وتجمعوا لرؤيته، فلقد تجمهروا على طـول الشاطىء حتى يلمحوه، ولـدهشتهم رأوا البحـر عـن بعـد، مغطى بـالمراكـب، وكـانت أصـوات الأبـواق عاليـة وحادة، طـرقت فـوق أسماعهـم، وكانـت المراكب محملـة ومزينـة بالأسلحة مـن كل نوع، وكـانت أعـلامهم وراياتهم تخفـق بالهواء وهـي لاعدّ لها ولاحصر، وكـانـت مقدمـات المراكـب متميـز أحـدها عـن الآخر، بمختلـف ألوان الطـلاء، وكانت تـرستهم تلمـع بالشمـس، وكان بإمكانـك أن ترى البحر يفور تحت المجـاذيف، ثم يالـلأبهة، وقف الملك الرائع على مقـدمة مركب كـان أعلى من البقية وأكثـر زينة، وكان مرتـدياً ثيابـاً فاخرة، وانطلـق البحارة مـع بقية الحاشية أمـامه ليقومـوا باستقبـاله

بالتهـاني، ولكي يجلبـوا الخيول، التـي كان سيركبهـا مع أركـانه، وتجمهـر السكان المحليـون من حـوله وأحـاطوا بـه من جميـع الجهات، واختلطـوا برجاله ، ولحقوا به إلى نزل ضيافته.

وتحدث عامة النـاس بإعجاب عن مجده العظيم، واتفقـوا على أنه كان جديراً بحكم امبراطـورية، ويستحق أن يحكم أمماً وممالـك: « لأن شهرته التي سمعنـا عنها مـن قبل وضحـت أنها أدنى بكثير مـن الحقيقة عنـدما رأيناه».

كيف أمضت الجيوش الشتاء في صقلية

كان موسم الملاحة قد شارف على الانتهاء، لذلك تقرر أن على الانكليز والفرنسيين تمضيه الشتاء في صقلية، حول مدينة مسينا، المليئة بالأشياء الجيدة، مع أن سكانها هم أشرار، وعرق خبيث.

كان الملك تانكرد صاحب صقلية غني جداً، في كل نوع من أنواع الثروات، وكان قد خلف منذ أمد قصير الملك وليم الثاني على العرش، وفي هذه الآونة كانت أرملة الملك المتوفى تقيم في بلرم، وكانت أختاً للملك رتشارد، ملك انكلترا، الذي تبنى قضيتها، وأرغم الملك تانكرد على أن يعطيها ما يرضيها، وذلك فوق البائنة — الدوطة — التي تستحقها وزيادة عليها.

وبقي رجال الاسطول خارج المدينة حتى وصول الملك رتشارد، وذلك بسبب صفاقة أهلها التي لاتحتمل، لأن هذا الشعب الشرير (الذي يعرف بشكل عام باسم: غريفون) (أي اغريق حسب اصطلاح الصليبيين اللاتين) كانت أكثريته من أصل اسلامي، وهؤلاء كانوا معادين لأفراد شعبنا، وكانوا دوما يوجهون الإهانة إليهم بالاشارة بأصابعهم إلى أعينهم، وتسميتهم « كلاب قذرة»، والسخرية منهم بطرق أخرى كثيرة، وقد قتلوا بعضهم على انفراد، ورموا بآخرين في مجاري القاذورات، حيث اقترفت فيها بعد جرائم كثيرة، وهددوا بطرد رجالنا من مدينتهم، لأنهم كانوا غرباء غير معادلين لهم بالعدد.

والآن عندما رأى الغريفون، أن الملكين قد نزلا إلى اليابسة ومعهما قوة عملاقة، ضبطوا رعونتهم بعض الشيء، لأنهم أدركوا أنهم أدنى في الشجاعة والمظهر، لكن اللومبارد (الناطقين بالايطالية والمرابين) لم يتوقفوا عن أعمال الاهانة والتحدي لرجالنا، وإثارتهم بالشتائم والإيذاء،

وقد أثارتهم غيرتهم على زوجاتهم، اللائي كان رجالنا يتحدثون معهن، غالبا بقصد إغضاب الأزواج، وليس بنية اغوائهن، وبسبب الخصام هذا، ومن خلال الحسد، كان اللومبارد دوماً معادين لنا، يفعلون كل ما يستطيعونه لاغضابنا، وقاموا بالوقت نفسه باعلاء أسوار ودفاعات أبراجهم وبتعميق الخنادق المحيطة بهم.

وكان في أحد الأيام واحد من رجالنا يتساوم مع امرأة حول رغيف خبز جديد كانت عارضة إياه للبيع، وقد هددها بالقيام بوزن الرغيف، ولأن الرجل رفض أن يعطيها السعر الذي طلبته انفعلت المرأة، وأهانته بعبارات شريرة، وتجمع عدد كبير من أهل المدينة لدى سماعهم أصوات المرأة وصراخ شتائمها، فأمسكوا بالرجل وضربوه بلا رحمة، وبعدما نتفوا شعره، وجرحوه جراحات كثيرة، داسوا عليه بالأقدام، وتركوه ليموت.

وعندما رفعت شكوى، تقدم الملك رتشارد بالرجاء من أجل السلام والصداقة، وأكد أنه جاء بسلام ليقوم بأداء حجه، وانه لن يتوقف عن الصلاة حتى يعود كل فريق بهدوء إلى مقره.

لكن حدث في اليوم التالي أن تجدد الخلاف بين سكان المدينة والحجاج، وفيما الملكان كانا مجتمعان مع قضاة صقلية وأعيان أهل المدينة، من أجل معالجة قضايا السلام والأمن، سمع صراخ عظيم وأصوات تقول بأن سكان المدينة كانوا يقومون بذبح رجال ملك انكلترا، ولم يصغ الملك إلى هذا، لسبب أساسي هو أن اللومبارديين أكدوا له أن ما قيل ليس صحيحاً، ثم مالبث أن جاء رسول آخر، أعلن أن سكان المدينة كانوا يهاجمون الحجاج،وهنا بادر الملك وخرج مسرعاً من الاجتماع، وامتطى على ظهر حصان، وتقدم بنية ايقاف النزاع وإقامة سلام بين المتخاصمين.

وعندما وصل، كان الفريقان في حالة هياج شديد، لم يعودا يتصارعان

بـالكلمات بل بـالأيدي والهراوات، وبـدلاً من أن يستجيب اللومبـارد لجهود الملك بـالفصل بين المتنازعين هاجموه بالشتائم، وبعبـارات الاهانة، وقد انزعج من إهاناتهم له، فحمل سلاحه وبدأ بحصارهم في مدينتهم.

وكان الفرنسيـون في الوقت نفسه لايـدرون ما الذي سيفعله سيـدهم، لذلك أخـذوا يركضون بهذا الاتجاه وذاك بحثاً عنه، وعـم الهياج في أرجاء المدينـة، وحمل كـل انسـان مـا وصـل إلى يـديـه، وتحدثـوا بتبجـح أنهم سيدافعون عن أنفسهم حتى النهايـة، وذهب اللومبارد إلى الملك الفرنسي وطلبوا منـه العون والمساعدة، وعـرضوا عليه أن يضعوا أنفسهـم وأموالهم تحت تصرفـه ورهن اشـارته، فيما لـوقـام بالتفـريـج عن مـدينتهم، ومنـع الهجوم الـذي يتولاه ملك انكلترا، وأن يصبحوا مـن رعاياه مع مـدينتهم، وعلى الفور أجابهم ملك فرنسا بأنه يـؤثر تقديم المساعدة إلى اللومبارد على الوقوف إلى جانب رجال ملك انكلترا.

ولدى رؤيـة اللومبارد أن القتال بـات الآن جديا، وأنهم حـوصروا بكل عزيمة، قاوموا بكل ما أوتوا مـن قوة، ووقفوا في أعالي الأسوار، وقذفوا من هناك الحجـارة والنشاب مـن قسيهم، والحراب مثـل زخات المطـر، وبهذه الصـورة تمكنـوا في بدايـة دفـاعهـم الشـديـد من الحاق إصـابـات كثيرة بـرجالنـا، فبعضهـم قد قتـل، وبعضهـم أصيب بكـدمـات، ولقد جـرح بعضهم بعضهم الآخر، وقطعوا أطراف كثيرين.

وكـان الملك رتشـارد في اليـوم الثاني لـوصولـه قـد تجول حول أسـوار المدينة مـع اثنتي من مرافقيـه فلاحظ وجـود باب خلفي مهمل مـن قبل سكان المدينـة، ومن خلال هذا البـاب، توفر الآن مـدخل بوساطـة القوة والإقـدام الكبير والعنـف، وقـام الـذين دخلـوا بتـدمير البـاب، وبـذلـك سمحوا لبقية الجيـش بالدخول إلى المدينة، ثـم قاموا بذبـح وأسر كل من قابلوه من سكـان المدينة وقاومهم، ولقد سقط في هـذا الصراع عدد منهم ومن اللومبارد وكذلك من رجالنا.

وسار رجالنا الآن خلال المدينة المقهورة كمنتصرين، يتقدمهم الملك رتشارد، الذي كان دوما هو الأول في كل هجوم، وسار خلفه حوالي عشرة آلاف رجل، وقاموا بنهب المدينة كلها. وكان بإمكانك أن تسمع هناك أصواتاً مرعبة بلغات مختلفة ومتداخلة، فمن جانب كان رجالنا يحثون بعضهم بعضاً على المطاردة، وبالمقابل كنت ترى اللومبارد الفارين يصرخون برعب من رجالنا، لأن رجالنا ضاعفوا ضرباتهم لهم، فاندفعوا أمامهم مثل سنابل قمح قوم تصدوا بهم للسيوف، وعندما اقتحمت بيوت اللومبارد، رموا بأنفسهم من الأسطحة، مدركين أنهم ببخلهم وسوء معاملتهم للضيوف استحقوا فقدان كل حق بالرحمة.

وهكذا استولى الملك رتشارد على مسينا، بضربة واحدة، وبوقت أقصر مما احتاجه كاهن لترداد ترتيلة طقوسه. وكان من الممكن سقوط المزيد من سكان المدينة، لولا انه أمر بتوفير حياتهم، وكان هذا كرماً منه، لكن الذهب والفضة وكل شيء ثمين وجدوه بات ملكاً للمنتصرين، وأحرقوا سفن الأعداء، خشية أن يفروا ويستردوا قواهم للمقاومة، وقام المنتصرون أيضاً بأخذ أعلى نسائهم مكانة، وحملوهن معهم.

ثم إنه ياللعجب، حدث بعد هذا كله، أن رأى الفرنسيون أعلام الملك رتشارد تخفق فوق أسوار المدينة، فشعر ملك فرنسا بإهانة كبرى، وحمل في قلبه كراهية للملك رتشارد استمرت طيلة حياته، وقادته فيما بعد إلى غزو نورماندي.

وبعد الاستيلاء على المدينة، أرسل ملك فرنسا، بناء على مشورة ديوانه، أوامر إلى الملك رتشارد لينزل أعلامه، واستبدالها بأعلام فرنسية، وذلك اعترافاً منه بتفوقه وسيادته(*)، وغضب الملك رتشارد من هذا

*— كان من أسباب الخلاف بين الرجلين، أن ملك انكلترا بحكم أملاكه في فرنسا، عدّ واحداً من أتباع الملك الفرنسي، غير أن رتشارد عدّ نفسه مساوياً للملك الفرنسي، يضاف إلى هذا ما تقدمت روايته حول خرق رتشارد للاتفاق مع الملك الفرنسي بالزواج من أخته آليس، وزواجه بدلاً عنها من بيرنغاريا ابنة سانشو السادس ملك نافار، وتقدمت تفاصيل ذلك في المجلد المتقدم.

الطلب، ولم يبعث لـه بجواب، خشية أن يُرى أنـه يتخلى عن حقه، لكن تمّ مـن خلال جهود الـوسطاء اطفاء غضـب الملك رتشارد، ووضـع حد لهذا الخصـام، واستجاب لتهـدئة الأصـدقـاء له، واستجـاب إلى مطلـب ملـك فرنسـا في أن يتخلى عن حـراسـة الأبراج التـي استولى عليهـا، وأن يوضـع فيها حراس مـن كلتا الأمتين، وذلـك حتى يعلمان مشاعـر الملك تانكرد تجاه ما حصل، ولذلك تمّ رفع أعلامهما معا فوق أسوار مسينا.

وبعد اجتماع عام، تقرر وجوب ارسال رسـل من قبل الملك رتشارد إلى تانكـرد بغية طلـب تعويضـات عن الأضرار البـالغة التـي لحقت بشعبـه نتيجة الاضطرابـات، وأن يعطي الملكة الأرملة جـوانا «باتئة» تـرضيها مع حصتها من أموال الملك التي آلت إليها والتي هي حق لها.

وأثـار الملـك الفـرنسي في الـوقت نفسـه مشكلـة حـول نهب المدينـة، وطالـب بحصته، ولأن الملـك رتشارد رفـض بحنق طلبـه، لم يتوقـف عن إزعاجه وإثارتـه بمثيرات خبيثة ومنغصات مزعجة، وبناء عليـه قرر الملك رتشارد رفـض صداقته، وأمر سفنـه أن تكون مستعدة للمغادرة مـع جميع أثقالها، فهو قد آثر السير وحده مع رجاله فقط لانجاز حجة على أن تكون له أدنى معاملة مع رجل حسود، وعنـدما وصلت معلومات هذا الأمر إلى مسامع ملك فرنسـا، قبل بوساطة جهود الوسطاء بـاعادة تجديد الصداقة المقطوعـة، وأن يعود تعـايشهما كما كان مـن قبل، على شرط اقتسـام كل شيء بالتساوي سيتم الحصول عليه من الآن فصاعداً.

وبحث الـرسل الذيـن توجهوا إلى الملـك تانكـرد معه تقديـراته وآرائه بالقضايا المثارة معـه، فأجاب باجابات غامضة، وأكـد أنه سيتولى ارضاء الملكين وفقاً لمشورة نبـلاء البلاد، في الوقت المنـاسب، وفي المكان الموائم، وبالطريقة التي تخص الموضوعات بشكل محدد، وقيل بأن ملك فرنسا قد حث الملك تانكرد بوساطة رسالة بعثها إليه، على عدم الاستجابة لمطالب ملك انكلترا، بـل أن يظهر صلابة في الموقـف وفي الدفاع عن حقـوقه في

كل شيء، وأكد لـه أن ملك فرنسا سوف لن يشـارك الملك رتشارد في أي عمل يقوم به ضده، بل إنه سيكون مخلصاً وفياً لتانكرد.

وأعاد هذا الخصـام الشجاعة إلى السكان المحليين، فبعـد ما أثيروا من قبل ملـك فرنسـا، بذلـوا غايـة جهودهـم لإيذاء الملـك رتشارد ورجـاله بالقدر الممكن لهم: لقد منعوا تزويد المؤن لهذا الجيش الكبير، وأمروا بعدم عـرض أي شيء للبيـع، واستهـدفوا مـن وراء ذلـك إرغـام الانكليـز على إخضاع أنفسهم لسلطان السكان المحليين.

وبذل الملك رتشارد جهوداً كبيرة، ويقظة ونشاطاً في سبيل إنشاء قلعة أطلـق عليهـا اســم « ميتغـريفـون Maetgriffon: «*» ، وارتعـب الغريفـون كثيراً، لأنهم رأوا أنها صممت مـن أجل تـدميرهم، وقـد شيد البناء على رابية محاذية للمدينة، وكـان موائماً كثيراً للتقهقر والتراجع، وكان الجيش سيعاني كثيراً من نقص بالمؤن، لـولا أنه استخدم المؤن التي جلبها بالاسطول كاحتياطي ضد العوز المستقبلي.

وهكذا تأرجحت الأمـور، ثم إن الملك تانكرد اقتنع بـأن الملك رتشارد لـن يتوقـف حتى يحصـل على ما رغـب بـه، فأرسـل رسلاً عـرضوا عليـه السلام، وسـألوا باستعطـاف المصالحة، وتـم الاتفاق على شروط الصلح، وبـذلك ختمـت القضية، ثـم كـان أن صدرت فتـوى عن وولتر رئيـس أساقفة روان Rouen ، قضت أن كـل من لايعيد جميع مــا نهب من ذهب ومن الفضة سيكون خاضعاً للحرمان واللعنة.

---

* — معنى هذه « صد الغريفون»، وكانت هذه القلعـة مصنعة من ألواح من الخشب كانت جاهزة، تمّ تثبيتهـا داخل اطارات جاهزة بوسـاطة المسامير، ودعمت من الخلف بـدعائم، وعندما غادر رتشارد مسينا، فكها وأخذها معه حيث أقيمت حول عكا من الخارج.

وهكذا جرى استرداد كل شيء، وبذلك بدا ظاهرياً أن السلام قد توطد، وعبر سكان المدينة عن سرورهم لسلامتهم، والحجاج لحصولهم على الهدوء، وجددت الصداقة بين الملكين، لكن التنافس الذي كان قائما بينهما استمر.

واحتفل بعيد الميلاد بوقار خاص، لتوفر الحاجة أكثر من ذي قبل لانقاذ الجنس البشري، وقام الملك رتشارد، على شرف هذا العيد، بتوجيه الدعوة إلى ملك فرنسا لحضور مائدته، وتوجه بالدعوة بوساطة المنادي العام إلى كل ذي روح بأن يمضي العيد بفرح وسرور، واستجابة لهذه الدعوة اللطيفة جاء ملك فرنسا مع مجموعات كبيرة من النبلاء وحشد من الناس الآخرين.

وتمّ استقبالهم بترحاب كبير وتكريم في قلعة ميتغريفون، وجلس كل واحد هناك وفقاً لمرتبته : من كان بإمكانه إحصاء الصحون المختلفة، وأنواع الكؤوس، أو حشود الخدم أو الملابس والمظاهر الرائعة؟ وما من شيء كان هناك لم يكن ثميناً له قيمته وهو موائم، فلقد كانت الصحون على اختلاف أحجامها من الذهب أو من الفضة، وكانت الأوعية مصنوعة وعليها أشكال رجال أو حيوانات وضعت على الحواف أو الأطراف، ورصعت بأحجار كريمة، زد على هذا كانت هناك وسائل سارة ظهرت للجميع مما أضفى بهجة على العيد، وتمتع الضيوف برؤية عروض سارة وأعمال مبهجة، وذلك بالاضافة لأنواع اللحوم والأشربة وزيادة عليها.

ولدى انتهاء الاحتفال، وضع الملك رتشارد أمام ملك فرنسا أجمل الأقداح وأعطاه خيار الإنتقاء منها على شرف المناسبة، ثم قدم لكل واحد من النبلاء هدية تبعاً لمرتبته، لأنه مثله مثل تيتوس (الامبراطور الروماني ٧٩ — ٨١م) عدّ اليوم الذي حدث ولم يعط به شيئاً يوماً خاسراً.

- ٨٣١ -

كيف غادروا نحو الأراضي المقدسة

في السنة١١٩١ لتجسيد مولانا ، ولدى انتهاء أشهر الزوابع من فصل الشتاء الكسول ، وحلول الأيام المشرقة ، امتلأ الناس بهجة بعودة موسم الإبحار والملاحة ، لأن الملكان أقاما في مسينا من عيد القديس ميكائيل حتى أيام الصوم ، ثم عقدا اجتماعاً حول نقل رجالهما، وارتأيا عدم موائمة التأخر أكثر، بسبب توفر المناخ الجيد، وبسبب أن وسائلهما سوف تحبط وتتلاشى بلا فائدة في إضاعة الوقت بلا عمل، ولأن رفاقهم في عكا كانوا يعانون وفي أمس الحاجة إليهم.

وبينما كل واحد يعد العدة ليتابع رحلته، وصل رسل حملوا أخباراً إلى الملك رتشارد أن أمه اليانور تخف الخطى وهي مسرعة للحاق به، وحيث أنها كادت أن تنهي رحلتها، فقد بات وصولها وشيكاً، وكانت جالبة معها النبيلة بيرنغاريا، المعدّة لتكون زوجة له، وكان منذ وقت مضى، حينما كان كونتا لبواتو سحره حسنها وأبهتها ، وسمو مكانتها وأصالتها، وجاذبية أنوثتها، فشعر بعاطفة قوية نحوها، وبناء عليه، أودعها أبوها ملك نافار إلى أم رتشارد لتتولى العناية بها، ولتحملها إليه، بغية أن يتمكن من الزواج منها، قبل عبوره البحر، حسبما كان ناوياً، ولقد ابتهج الجميع بقدومها.

وكان في الوقت نفسه ، قد أكمل ملك فرنسا إعداد جميع تجهيزاته ، فاغتنم فرصة توفر الريح الطيبة ،فأقلع ومعه اسطوله في يوم السبت بعد يوم عيد بشارة مريم العذراء المباركة ، وقد شيعه الملك رتشارد وهو على ظهر مراكبه ومعه أعيان نبلائه لبعض الطريق ، ثم عاد لأنه لم يكن شخصياً قد تهيأ بعد لعبور البحر ، حيث لم يكمل جمع سفن شحنه ، ورأى أن هذه لم تتجهز بجميع المؤن المحتاجة ، زد على هذا كان قد

سمع بأن أمه قادمة ومعها بيرنغاريا الرائعة، ولهذا عندما ترك ملك فرنسا يمضي في طريق رحلته بسلام رجع بوساطة طريق الفاروس إلى ريغيو دي كالابيرا، حيث سمع بوجود أمه الملكة وبيرنغاريا فيها ، وبعدما تلقاهما على ظهر سفينته بسرور عظيم، عاد إلى مسينا، حيث بقي هناك لوقت قصير، أسند وقتها إلى أمه شؤون العناية بالمملكة ، وتركها تغادر برفقة وولتر، رئيس أساقفة روان، وكان شخصاً عظيم الفضائل.

وأبقى الملك رتشارد معه الفتاة التي كان سيتزوج منها ، وبعدما جهز نفسه بكل شيء كان ضرورياً للرحلة، استعد تبعاً للاتفاقات ، للحاق بملك فرنسا بقدر ماهو ممكن من السرعة، وقد عين روبرت دي تورنهام ليقود الأسطول وليتولى العناية به، وبعث بزوجته مع أخته الملكة الأرملة لصقلية، ليرحلا قبله عبر طريق مباشر نحو الشرق، وذلك على ظهر إحدى السفن التي تدعى عادة باسم «درمون» ، ووضع بالسفينة عدداً من الفرسان ، مع حشد كبير من خدم الحاشية، في سبيل تأمين راحتيهما وسلامتيهما.

وبقيت المراكب بلا حراك، حتى أقام الملك وليمة، احتفل بها بوداع السكان المحليين ، وبات الآن جاهزاً للانطلاق وإيكال نفسه للرياح الطيبة ولأمواج البحر، ثم أقلعت جميع السفن المحشودة، وصارت على وجه البحر، تدفعها أعداد هائلة من المجذفين ، ويحق لمدينة مسينا أن تفتخر بكل حق ، بأنه لم يحدث في القرون الماضية أن رأت تلك السواحل أسطولاً بهذه العظمة، ولن ترى مثيلاً له في العصور المقبلة.

وهكذا دخل الملك رتشارد مع سفنه الكثيرة عرض البحر، وكان بعضها يُوجه بالأشرعة ، وبعضها الآخر بالمجاذيف ، وبقيت السفن الحربية بالخلف ، فهذا ما خطط له الملك رتشارد ، وخطط أن تبقى السفن قريبة من بعضها بعضاً بقدر الإمكان ولا تفترق، وخففت الغلايين من سرعتها عن قصد ، ولازمت البقاء على مسافة من سفن

الحمولة بهدف حمايتها.

وتوقفت حركـة الريح، لهذا أرغم الأسطول على البقاء راسياً بلا حركة بين كالبيرا وجبل إتنا، غير أنه في اليوم التـالي (يوم عشاء الرب) قام الذي أوقف حـركة الرياح، بـإرسال الريـاح من خزائنـه، لقد بعث إلينا بـريح استمرت طوال اليوم، حيـث لم تكن قوية جداً، بل كافيـة لدفع الأسطول لأن يسير بسرعة لطيفة، لكن في الليلة التالية اختفت الرياح تماماً.

وفي يوم الجمعـة المقدسة سـاقت ريـاح معاكسة الأسطـول إلى الخلف وهـاج البحر (لأنـه أثير بـذلك كثيراً) وفـار مـن أعماقـه، وبينما تلاطمـت الأمواج ازدادت قـوة العاصفة ، وكانـت أصوات زئير الأمواج المتـلاطمة، وأنين السفن التي كانت تواجه الرياح العنيفة العاتية، قد أصابت الجميع برعـب عظيم، ولعتـو الرياح ، بـاتت إدارة السـفن وقيـادتها عاجـزة كلياً، لأنـه لم يعد بـإمكـان أي قبطان تحريـك سفينتـه، وحُـملت السفـن بهذا الاتجاه وذاك، ففقدت نظامها، وذهبت كل سفينة باتجاه مخالف.

ويئس البحارة مـن الحصول على عون أرضي، لذلك سلمـوا أمرهم إلى الرب، وقـرروا، بقدر ما سمح بـه الضعف الإنساني ، أن يتحملـوا الأمور بصبر، تحت نـاظري مخلصنـا، الـذي عانـى في ذلـك اليـوم من مـوت لا يستحقه، وذلك مـن أجل خلاصنا،وفيما السفن تتقاذفهـا الأمواج في هذا الاتجاه وفي ذاك، وتمضي بها باتجاهات مختلفـة، بدأت بطون الرجـال تشعر بآلام الغثيـان، وأصيبوا بـدوارات بحر عنيفـة، وجعلهم الشعـور بالغثيـان أشبه بـالمجانين تجاه المخاطر التـي أحاقت بهم، ولكن مـع اقتراب المساء غدت الأحوال هادئة إلى حـد بعيد، وتوقفت الرياح المجنـونة مع الأمواج الصاخبة.

وانتشرت الآن ريح طيبة توافق رغباتنا، واسترد البحارة قواهم وثقتهم، وبذلنا جهودنا للمحافظة على الطريق المباشر لرحلتنا.

وبقي الملك رتشارد هـادئاً، وسط هذه الحالة من الفوضـى، ولم يتوقف عـن تهدئة ومواسـاة الذيـن كانـوا يائسين، حـاثاً إيـاهم على التشجـع، والأمل بحظ أفضـل، وحسبما جرت العادة كان لديه ضـوء شمعي داخل مصباح، علقه عـالياً في سفينته ليعطي الضوء لبقية الأسطـول، وليوجههم على طريقهـم، وكان معـه على ظهر سفينته أكثـر البحارة خبرة، وقـد بذل هـؤلاء كل جهـد يستطيـع الإنسان أن يقـوم به، واستخـدمـوا كل حيلـة لمواجهة الـرياح الغـاضبة، وبقـي الملك واقفـاً لبعض الـوقت بهدف جمع الأسطول، الذي تقاطرت سفنه للتجمع حـول الضوء، وهذا شابه دجاجة تولت جمع صيصانها معاً.

وبدأنا بعد هـذا بريح طيبة، وأبحرنا باستمـرار دون أن نواجه عقبة أو نعاني مـن أذى، وذلك يوم سبت فصـح اليهود حتى يوم الأربعـاء التالي، واقتربنا في هـذا اليوم مـن كريـت حيث تـوقف الملـك للراحـة، وعندمـا اجتمعت السفن معاً، تبين فقدان خمس وعشريـن منها، الأمر الذي سبب حزناً كبيراً للملك.

وفي يوم الخميس عـاود الملك وجيشه كله الدخـول إلى سفنهم، حيث بدأت الـريح تصبح أشـد قوة، ومع أنها ظلـت موائمـة، كانت قـوية في دفعنا نحو الأمـام، لذلك تحركنا بسرعـة بوساطة أشرعـة منتفخة، وسواري منحنية بعـض الشيء، ليس بـدون شبه لطيـور طائرة، ولم تهدأ أبـداً طوال الليل، وساقت عند فجر النهار اسطـولنا بعنف نحو جزيرة رودس، حيث انتشرت الأمواج والزبـد على طول الشاطىء، وهكذا لم نكـن قادرين على الوصـول إلى الميناء، وعلى كل حال عنـدما تمكنا في يوم الاثنين التـالي من الرسو، تمتعنا براحتنا بشكل جيد لأننا كنا بحاجة إليها تماماً.

وكانت رودس في العصـور القديمة مدينة كبيرة ، لا تختلـف عن روما، وهناك بقايا الكثيرمـن البيوت، وأجزاء عديدة من الأبـراج ساقطة، لكن بقـايـاهـا ما تـزال قـائمـة، وآثـار رائعـة لأبنيـة وأسوار عمـرانها جـديـر

بالإعجاب، ومن الصعب تقدير امتدادها، كما ما يزال هناك أيضاً بقايا قلة من الأديرة الكثيرة، لأن معظم الأجزاء كانت مهجورة ، مع أنها كانت فيما مضى مسكونة بأعداد كبيرة من جماعات الرهبان، وقدم منظر مدينة عظيمة بهذا القدر (مع أنها الآن مبددة) شواهد وبراهين على وجود عدد كبير من السكان، لكن توفر الآن عدد قليل من السكان ممن كانوا بإمكانهم بيعنا الطعام، وبما أن الملك كان متعباً، فقد استراح هناك لبضعة أيام قليلة، انتظر خلالها وصول السفن التي أضلت سبيلها، وشردت عنا، وانتظر أيضاً وصول الغلايين التي سارت تابعة للأسطول، وقام أيضاً بالتقصي حول اسحق، الطاغية الوحشي، امبراطور قبرص، الذي اعتاد على حبس الحجاج الذين كانوا يرسون في مينائه.

وبعدما أمضينا عشرة أيام في رودس التي كانت جزيرة خصبة جداً، ومنتجة، صعدنا ثانية إلى ظهور سفننا، وتابعنا سفرنا، وكان ذلك في الأول من أيار، وحملتنا سفننا ونحن في طريقنا إلى أعظم الأماكن خطورة، الذي يعرف باسم خليج أضاليا، حيث تتصارع تيارات عنيفة جداً تشكل وصلة بين أربعة بحار، وتصطدم مع بعضها بعنف شديد، وكل منها يندفع ضد الآخر ويقاومه، وعندما كنا على حافة الدخول إليه، عندها يا للعجب، حملنا تيار عائدين إلى المكان الذي شرعنا منه، وكأنه أراد سلامتنا، لكن قامت الرياح، التي تهب دوماً في تلك الأجزاء وتتغير، بعد وقت قصير بدفعنا عائدين ثانية إلى الخليج، وصاحب ذلك خطر ازداد لازدياد عنف الرياح، وخشية منا من نتائج هياج الريح، فعلنا كل ما نستطيعه لحماية أنفسنا ضد مخاطر المكان، وعبرنا فوق الأمواج الهائجة التي كانت ترغو وتزبد من حولنا.

وكانت السفينة الملكية تسير دوماً بالأمام، وعندما رفع الملك ناظريه، رأى تحت السماء الهادئة سفينة كبيرة جداً من النوع الذي يعرف باسم

بصّ *Buss، وكانت متجهة نحونا، وعائدة من مملكة القدس، وبادر الملك مسرعاً فبعث ببعض الرجال ليحصلوا من الرجال الذين كانوا على ظهر السفينة على معلومات فيما يتعلق بحصار عكا، فأخبروه بأن ملك فرنسا وصل سالماً إلى عكا يوم السبت في أسبوع الفصح، وانشغل بنشاط في صنع آلات حربية، وذلك بانتظار وصول ملك انكلترا، وعندما سمع الملك رتشارد هذا، تابعت البصّ طريقها، وقام هو بصنع جميع الاستعدادات بروح معنوية عالية، ولم تكن الرياح طيبة، ولقد بذل غاية جهوده للسيطرة على تقلباتها، لكن الأسطول أرغم بهبات الريح المتضادة، والأمواج الصاعدة والهابطة، على العودة، وسيق إلى وسط عرض البحر.

وكان في الوقت نفسه قد وصل الغليون [الدرمون] الذي أبحر من ليون مع الملكتين إلى ميناء ليماسول، في جزيرة قبرص، لكن عوضاً عن النزول إلى البر، ألقى مراسيه على مسافة داخل البحر،واعتادت مملكة القدس أن تحصل من هذه الجزيرة سنوياً على مرابح كبيرة، لكن الآن بعد رفعها لنير الخضوع، تمنعت عن تقديم أي شيء، وذلك بتوجيه من طاغيتها اسحق، الذي اغتصب السلطة الامبراطورية، وكان من أكثر الناس سوءاً وشروراً، وقد تفوق على يهوذا بالخيانة، وعلى جدعون في التآمر، وقد أراد فقط تعذيب الذي اعتنقوا الديانة المسيحية، وقد قيل بأنه كان صديقاً لصلاح الدين، وقد حكي أنهما شربا دماء أحدهما الآخر كعلامة شاهدة على عهدهما المتبادل، فبمزج دمهما ظاهرياً قد يصبحان أقرباء حقيقة، وقد تأكد هذا فيما بعد ببعض البراهين، فبعدما اطمئن

* — bucca أو buzzos — وهي سفينة تجارية من سفن البنادقة، ذات تجويف كبير، وقدرة على التخزين، وقد استخدمت بمثابة سفن خزن وحمولة، وأطلق الصليبيون على مثل هذه أحياناً اسم «درمون» أو «بص» دونما تمييز، وكثيراً ما أرادوا بذلك السفن الكبيرة، مع أن هذا النوع كان متميزاً عن سواه.

هذا الطاغية بهذه الخطوة، وبعدما ألغى خضوعه المتوجب عليه، اغتصب السلطة وادعى زيفاً اسم الامبراطور، واعتاد على إلقاء القبض على كل واحد نزل إلى الجزيرة طوعاً، أو لأن الرياح قذفته بقوتها إليها، وكان يستخرج من الغني فدية، ويرغم الفقير على العبودية، وبناء عليه عندما سمع خبر وصول درمون غريب، قرر إلقاء القبض على جميع من كان على ظهر السفينة، وأن يقوم بسلبهم جميع أموالهم، والاحتفاظ بهم أسرى لديه.

حول الملك رتشارد في قبرص

في عشية اليوم السالف لعيد القديس مرقص الرسول، وقبل غياب الشمس بوقت قصير، غطت غمامة داكنة الأفق، وهبت عاصفة عاتية، وحرك عنف الريح المياه، وبينما كانت بعض سفننا التي بعثرتها الرياح تحاول الوصول إلى جزيرة قبرص قبل اشتداد العاصفة، دفعت بها الأمواج المضادة والريح إلى الصخور، ومع أن الملاحين بذلوا غاية جهودهم لمقاومة الريح التي هاجمتهم، فإن ثلاثة من سفن الملك امتلأت بالماء، وتحطمت إلى قطع، وغرق بعض الذين كانوا على ظهرها، وواتى الحظ بعضهم الآخر، حيث أمسك كل منهم بقطعة من حطام سفينة، واستطاعوا (لكن ليس بدون بذل جهود كبيرة وسط البحر الهائج) بهذه الوسيلة الوصول إلى الشاطىء، وقد وجدوا أنفسهم عراة مفلسين، وكان بين الذين غرقوا روجر الذي كنيته كاتولوس Catulus ، وكان يحمل خاتم الملك، وضاع الخاتم، لكن عندما قذف تيار البحر بالجسد إلى الشاطىء، وجد أحد الناس الخاتم معه، فجلبه إلى الجيش ليبيعه، وبذلك تمّ انقاذه.

ورحب سكان الجزيرة بسرور، تحت شعار غطاء السلام ،بالبحارة الذين وصلوا إلى الشاطىء، وتظاهروا أنهم يريدون تأمينهم فقادوهم إلى أحد الحصون بالجوار، وقام الغريفون بتجريد جميع الذين وصلوا إلى الشاطىء سالمين من أسلحتهم، وقادوهم إلى المكان نفسه، وكانوا يؤكدون لهم أنهم إذا دخلوا الحصن وهم يحملون أسلحتهم فسيبدون وكأنهم جواسيس، أولديهم نوايا عدوانية بمهاجمة الجزيرة، وأن عليهم الانتظار حتى يحصلوا على ثقة الملك وإرادته.

وكان النبلاء منا قلقين بشأن أحوال الرجال الذين وضعوا رهن

الاحتجاز، فبعثوا إليهم بالملابس وبالأشياء الأخرى الضرورية لهم، وبعث إليهم ستيفن دي تورنهام وكان حاجب الملك وخازنه، بكميات كبيرة من المؤن، التي (عندما جلبت إلى مدخل الحصن) نهبت من قبل الغريفون، وحراس المدينة، وعلى كل حال قاموا بتهدئة رجالنا ومواساتهم بكلمات ناعمة، ولم يظهروا بعد نحوهم عداوتهم بشكل مكشوف، غير أنهم رفضوا إطلاق سراحهم ومنحهم حرياتهم حتى يتم إخبار الامبراطور بما حدث، ووعدوا بالوقت نفسه بكلمات منمقة أن يزودوهم بكل شيء ضروري، ثم إنهم وجهوا الدعوة إلى نبلاء البلاد، وعقدوا مشاورات معهم في سبيل إلقاء القبض على أكبر عدد من الحجاج بمختلف الأساليب الخادعة، ومن ثم يتولون قتلهم.

وعندما بات هذا معروفاً لدى رجالنا، حشدوا أنفسهم وتجمعوا داخل الحصن وعزموا على الدفاع عن أنفسهم، غير أن بعضهم قتل من قبل السكان المحليين،وهكذا قدروا المخاطر حق قدرها، وأنهم فعلاً معرضون لها، ولذلك اختاروا مواجهة المخاطر في القتال على أن يموتوا جوعاً بعد وقوعهم في أيدي الكفار الذين يتولون تعذيب المسيحيين، وبناء عليه تقدموا من خارج الحصن حتى وصلوا إلى أحد السهول، وبدأ السكان المحليون بحصارهم وقتلهم، ومع أنهم كانوا غير مسلحين، ولا يحملون سوى ثلاثة أقواس كانوا قد أخفوها عن السكان المحليين، فقد قاوموا بقدر ما استطاعوا، وأوقعوا في صفوف أعدائهم عدداً من القتلى لم يكونوا أقل من العدد الذي فقدوه.

وكان بينهم روجر دي هاردكيرت Hardecurt وقد صدف أن وجد فرساً هناك فركبه وهاجم حشود الذين تصدوا له، وكان كذلك وليم دي بويس Bois(وهو نورماندي كان من أبرع الناس بالرمي) الذي تمكن أولاً من تفريق مجموعة ثم فرّق مجموعة أخرى، بوساطة رميهم بالنشاب والسهام نحوهم بدون توقف، ورآهم الجنود الذي كانوا ما يزالون على

ظهور السفن، فبادروا مسرعين لنجدتهم وتخليصهم بقوة السلاح، ومع أن الغريفون أعاقوهم بنشابهم وقسيهم بقدر ما استطاعوا، ومنعوهم من النزول إلى البر، لقد نجحوا أخيراً، تحت حماية الرب، بالنزول من سفنهم.

وبعدما تفرق الغريفون، ودفعوا نحو الخلف، شق الحجاج طريقهم إلى الميناء، حيث وجدوا هناك رجالنا الذين نزلوا من سفنهم يقاتلون بكل طاقتهم ضد الغريفون الذين واجهوهم، ولدى تمكن رجالنا من الاتصال ببعضهم فرقوا الغريفون، واستولوا على ميناء ليماسول، حيث وجدوا الملكتين، اللتان لجهلهما بأوضاع الجزيرة، وخشية منهما من وحشية الامبراطور وخيانته بقيتا بالسفينة ولم تنزلا إلى اليابسة، وقرابة مساء ذلك اليوم وصلت أخبار ما حدث إلى امبراطور قبرص، ولدى اطلاعه على أن الحجاج وصلوا ، جاء إلى المدينة، وعندما شكا إليه الحجاج ما لحقهم من أذى ومضار، وعدهم بكل ما يرضيهم، ووافق على أن يعيد إليهم الأموال التي أخذت من الرجال الذين تحطمت سفنهم، وحصلوا على حق الدخول إلى مدينة ليماسول والخروج منها، بشرط تبادل أربعة رجال بمثابة رهائن.

وفي الوقت نفسه، أعطى الامبراطور الأوامر بحشد جميع المقاتلين في امبراطوريته، وهكذا شكل جيشاً قوياً، وأرسل في اليوم الذي وصل فيه رسالة تغرير إلى الملكتين، يطلب منهما النزول إلى اليابسة لأنها أكثر أماناً، وأن تتجولا حسبما ترغبان دون خوف من أذى أو إساءة معاملة من قبل شعبه، ولدى رفضهما بعث إليهما في اليوم التالي، على سبيل التكريم بخبز، ولحم كبش، وخمرة، من عصير عنب قبرص، التي قال لا مثيل لها بمزاياها في جميع أنحاء العالم، وحاول في اليوم الثالث مرة ثانية أن يخدعهما، وأن يأسرهما زيفاً بكلمات لطيفة في رسالة منمقة، وضعتهما في حالة من الإرباك عظيمة، فإذا ما أصغيتا إليه ربما سيجعلهما أسيرتين لديه، وإذا ما رفضتا بعناد لا بد من أن يخشين من التعرض لبعض

العنف، وكـان الحال غير معروف بعد الـوقت المتـوقع فيه وصـول الملك، أوالحالـة الجيدة لأسطـولـه، ولقـد تركتـا الامبراطـور في وضـع غير مؤكـد بإجـابته إجابـة مبهمة، وقالتا إنهما في الغـد ستمثلان بحضرته وستكـونان تحت تصرفه، ولتوقع الامبراطور قيامهما بتنفيذ ما وعدتا به لازم الهدوء.

وحـدث فجـأة في اليـوم التـالي أنـه بينما كـانـت الملكتـان في وضـع مضطـرب كثيراً، وواقعتـان تحت تـأثير قلـق عظيـم، وكـانتـا تتنـاقشـان وتتحادثان وتقلبان أوجه الأمور،بينما هكـذا كان الحال ، فجأة ظهر بالأفق البعيد مركبان وكأنهما غرابان فوق ذرى الأمـواج المتحركة، وكانا يتحركان نحو الأمـام، ويسيران نحوهما بسرعة كبيرة ، وفيما الملكتـان ومن معهما في شك حول ما كانا، لمحت بعض المراكـب الأخرى قادمة من بعيد، وإثر هذا كان ممكنـاً رؤية بقية الأسطول، وكلـه قادم بسرعة يؤم المينـاء، ولدى معرفتهـا أنه كان أسطول الملـك، فرحتا فـرحاً عظيماً، وقدرتا أنـه جاء في الوقت المناسب لإنقاذهما من الوضع السيء والمحرج الذي عاشتا به.

ووصل الملك رتشـارد، بعد تجاوزه لعدد كبير من المخاطر، تقـوده عناية الرب وتوجهـه إلى ميناء قبرص، وفي يوم عيد القـديس جون أمام البـوابة اللاتينيـة (٦ـ أيار) ألقـى مراسيه في ميناء ليماسـول ومعه جميع أسطـوله، غير أنه لم ينزل إلى اليابسة.

وعندمـا علم الملك بـالمخاطر التـي أحاقـت برجال السفـن المحطمة، وكيـف أنهم سلبوا مـن مقتنيـاتهم، وذلك مـع جميـع مـا حدث في تلـك الآونة، غضب غضباً شديداً، وبعث في اليـوم التالي باثنين من فرسانه إلى الامبراطور يطلـب تعويضـه بما يرضيه بشكـل سلمي، وذلـك عن الأذى الذي لقيـه وعن المال الـذي قام بسلبـه [من رجـاله]، وكـان الامبراطور غاضباً غضباً شـديداً تجاه هذه المطالب، ورأى أنه هـو الذي لحقه الأذى وأنـه هو الإنسـان المصـاب، ولهذا انفجـر يتفوه ويقـذف بكلمات شتـائم وإساءة قـائلاً: «عاهـر، مأفـون»، وأعلن أنـه لا شأن لـه بالملـك، وتبجح

بحمله لقب امبراطور، وأنه يمتلك السلطات الامبراطورية، وأنه واثق من تأييد السماء له، وأنه عمل فقط بما يرضيه.

وعندما عاد الرسولان يحملان هذا الجواب، انزعج الملك بسبب رعونه الامبراطور، وبسبب جوابه المهين، وكان فقدانه لرجاله له تأثيره الكبير، ولهذا صرخ بصوت مرتفع:«إلى السلاح»، وهو أمر أطاعه رجاله على الفور، وبعدما سلح الملك نفسه تماماً، اعتلى ظهر مركب من النوع الذي يدعى «أفعى»، وكذلك فعل جنوده، وذلك في محاولة منه للاستيلاء على الميناء، وكان الامبراطور قد قام بإغلاق الميناء حتى يمنعه، فطوقه بجيش كبير، وأغلق المدخل بكل نوع توفر له من وسائل الحجز والإعاقة، حيث اقتلع الأبواب والنوافذ من البيوت،وجلب حطام الأشياء، وركام كل شيء وجده، والمقاعد والسلالم مع قطع طويلة من الخشب، جعلها على شكل عوارض مصلبة، وجاء كذلك بالدروع والترسة، وبالمراكب القديمة، والأوعية المهجورة والتي كانت قذرة لإهمالها ورميها جانباً، وجاء أيضاً بكل أداة مهما كانت، وبكلمة موجزة، قام الغريفون بهدف التصدي للهجوم على الميناء بوضع ركام كل شيء توفر لهم من خشب أو حجارة، وأمكن لهم العثور عليه في مدينة ليماسول، زد على هذا قام الامبراطور معه قواته بالزحف صعوداً ونزولاً على طول الشاطىء.

ولكم كان حشد الامبراطور مسلحاً بشكل رائع، فقد حملوا أسلحة غالية الثمن، لا بل ثمينة جداً، وارتدوا أردية ذات ألوان كثيرة، وركبوا خيول حرب تسابق الريح، وعلى بغال جميلة، وزحفوا إلى الأمام وإلى الخلف جاهزين للقتال، وكانت أعلامهم وراياتهم التي لا تعد ولا تحصى ترفرف بالهواء، وكان لديهم أيضاً بعض العرادات والقسي وخمسة مراكب جيدة التسليح وقفت مع الشاطىء، وكانت مملوءة بشباب بارعين في القتال البحري، ولدى محاولة رجالنا جاهدين الوصول إلى الشاطىء، حاول الغريفون قتالهم بصرخات مرعبة، وكانوا أشبه بكلاب

تنبح وتزمجر، وشتموهم وكأنهم ممن حلت عليهم اللعنة، وأخبروهم أنهم يسعون وراء ما هو محال انجازه.

وبدت عساكرنا وكأنها أدنى من الأعداء، لأنهم كانوا مكشوفين داخل مراكب صغيرة،كما وكانوا أيضاً منهكين نتيجة متاعب ركوب البحر لمدة طويلة، فضلاً عن هذا لقد كانوا رجّالة يحملون أسلحتهم الفردية فقط، وعلى عكسهم كان السكان المحليون، فقد كانوا في بلادهم، وبإمكانهم فعل كل شيء حسبما يرغبون، ولذلك عندما اقترب رجالنا في مراكبهم، قرروا الاقتراب بقدر الإمكان ليهزموا رماة العرادات والمقاليع والنشاب الموجودين داخل المراكب، وهكذا توجهت رمايات عراداتنا ونشابنا ضدهم، وبعدما فقد الغريفون كثيراً من رجالهم، تخلوا عن مواقفهم، لأنه لم يعد بإمكانهم تحمل ثقل المعركة.

فعندما تطايرت الرمايات بكثافة، قام في وقت واحد ثلاثة أو أربعة من الغريفون بالقفز من المراكب إلى البحر، وغطسوا تحت البحر، وهلكوا بسبب اصطدام أحدهم بالاخر لدى محاولتهم الحصول على منجاة " الآن الاستيلاء على المراكب، وباتت مراكبنا على الشاطىء، وتشجع رماتنا بسبب النجاح الذي تحقق، فأرسلوا بزخات من النشاب مثل الأمطار ضد الذين كانوا يحرسون مكان الرسو، ولم يستطع الغريفون مواجهة الحملة، فتراجعوا من الشاطىء إلى أرض أكثر ثباتاً، وفي أثناء ذلك تابع رماتنا ورماتهم قذف بعضهم بعضاً، وهكذا أظلم الجو من زخات النشاب، وبدا النهار وقد تحول إلى ظلام وليل، وفي هذا الوقت اكتظت المدينة بالعساكر، وامتلأت المناطق المجاورة بحشود من الناس يعدون آلاتهم الحربية ويستخدمونها.

ومضى وقت طويل والنصر معلق بين الطرفين، فالشك ظل قائماً حول أي الفريقين هو المنتصر، وأيهما كان المتفوق، ذلك أن قواتنا، مع أنها بذلت غاية جهدها وقاتلت بكل قواها،لم تحقق تقدماً يذكر، ولاحظ

الملك أن رجاله لم يكونوا يمتلكون ما يكفي من جرأة ليغادروا مراكبهم، وليسيروا نحو الساحل، ولهذا قفز أول الناس من مركبه إلى الماء وقاتل الغريفون بإقدام، ثم حذا جندنا حذوه، وكانوا متشوقين لإلحاق الهزيمة بالأعداء، فقاموا بالضغط على قوات العدو، وأرغموها على ترك مواقعها والتراجع.

ووقتها كان بإمكانك رؤية زخات من النشاب المتطاير، وصفوف الغريفون وقد تمزقت، وكان بقدرتك سماع دمدمة القراع والنزال، وأنين الذين كانوا يموتون، وعويل الذين كانوا يتراجعون، ثم تحرك رجالنا كتلة واحدة، فأرغموا الأعداءعلى الهزيمة والتخبط بالفوضى، وبعد هذا ساقوهم أولاً إلى داخل المدينة، ومن هناك إلى السهول الواقعة خارجها.

وضغط الملك بشدة في عملية مطاردة للامبراطور، فقد عثر على حصان عادي، فامتطاه بكل سرعة، واستعان برمح كان مركوزاً خلف السرج، وركب مسرعاً مستخدماً أربطة عوضاً عن الركائب، ولم يتوقف عن مطاردة الامبراطور، ونادى بأعلى صوته:«مولاي الامبراطور، أدعوك إلى المبارزة الشخصية»، لكن الامبراطور، كان أشبه بالأطرش، فقد تابع الهزيمة بكل سرعة أوتيها.

وبعدما استولى الملك على المدينة، جعل الملكتين تهبطان إلى اليابسة، وتغادران السفينة، ومن ثم تقيمان في ليماسول، فقد حصلتا بعد تعب الرحلة ورعبها على الأمن، وأمضى الملك الليلة نفسها في سرادقه، وأمر فأنزلت خيوله إلى اليابسة بوساطة عبارات خاصة، بينما تظاهر الامبراطور بعدم الخوف من أي شيء، لذا أمضى الليل في معسكر على مسافة مرحلتين.

كيف سلم الامبراطور قبرص

في اليوم التالي ، وفي حوالي الساعة الثانية ، ركب الملك حصانه واكتشف وجود بعض الاغريق واقفين ليس بعيداً ، في حقل زيتون ، ومعهم أعلامهم المرزولة ، ولدى مبادرتهم إلى الفرار ، تولى مطاردتهم ، لكن بما أن خيولنا قد عقرت بسبب حبسها قرب البحر لحوالي الشهر كاملاً ، فقد احتفظ رجالنا بهم ووفروهم ، وساروا بخطى وئيدة حتى رأوا جيش الامبراطور ، الذي أمضى الليل في واد هناك ، وهنا توقفوا عن أعمال المطاردة ،

وبدأ الاغريق الذين يصرخون ويولولون بشكل مرعب ، بتوجيه الاهانات لرجالنا ، وبسبب الصراخ أفاق الامبراطور من نومه ، وامتطى ظهر حصانه ، وزحف ببطىء مع رجاله نحو رجالنا حتى وصل إلى رابية قريبة ، حيث تمركز ليقوم بمراقبة الاشتباك .

واستخدم الاغريق قسيهم وحرابهم ، وصرخوا عاليا بأن رجالنا لا يمكن تحريكهم وزلزلتهم ،ثم تقدم الى الملك أحد الكتاب المسلحين ، واسمه هوغو دي مارا ، وقال مخاطباً إياه :« مولاي الملك ، يبدو من الحكمة تبني خطة تقضي بالتراجع لبعض الوقت أمام مثل هذا الحشد الكبير والقوي من الناس»، ورد عليه الملك قائلاً :«أيها السيد الكاتب ، دعنا وما نختص به ، والأحسن بالنسبة لك أن تشغل نفسك بالكتابه ، وتدع الحرب لنا ، وانتبه واحرص أن تبتعد عن الحشود ، وحاول آخرون مثل هذا أن يقنعوا الملك بالاقلاع عن القتال ضد حشد هائل مثل ذلك الحشد ، وفي الحقيقة لم يكن إلى جانبه في ذلك الوقت أكثر من خمسين رجلاً ، غير أن تشجع من هيجان الأعداء ، فوضع مهمازين لفرسه وانقض بشكل مفاجىء في هجوم ضد الأعداء ، واندفع خارقاً لصفوفهم ،

فمزقهم ، وأخذ يقاتل الأول فالذي يليه ، مشدداًضغطه بدون توقف ، وعندما أدرك جيشهم أن خصومه كانوا يتجمعون تلاشت شجاعة رجاله ، وشرعوا بالفرار ، ولقد نجا منهم الذين امتلكوا خيولاً سريعة وصبورة ، لكن الرجالة والناس العاديين ، الذين كانوا أقل قدرة على الفرار فقد تعرضوا للذبح في جميع الاتجاهات بدون تفريق ، ولم يعد بإمكانهم الفرار بسبب وصول الملك .

وبينما كان الامبراطور يشجع رجاله ويحثهم على القتال ، انقض عليه الملك بشكل مفاجيء وبكل سرعة ، ورماه أرضاً عن ظهر حصانه بضربة من رمحه ، غير أنه ما لبث أن حصل على حصان آخر بكل سرعة ونجا وسط الحشد ، علماً بأ ن بعض أتباعه لاقى حتفه .

آه ، كم من الخيول الأصيلة كان بإمكانك أن ترى قد ذبحت هناك ، وكم من السوابغ ، والبيض والسيوف والرماح والرايات قد سقطت أرضاً وكم من الأجساد الميتة المضرجة بالدماء كانت هناك ، وكم من الذين كانوا يلفظون أنفاسهم !

وعند ادراك الامبراطور لشجاعة رجالنا واقدامهم ، ولحال قتال رجاله ، هرب بأقصى سرعة أمكنته نحو الجبال ، ورمى الملك أرضاً حامل راية الامبراطور ، وأعطى الأوامر أن يحتفظ بالعلم الرائع والجميل له ، ثم طارد خيالتنا الفارين بقدر ما استطاعوا ، أي لحوالي الميلين ، وبعد هذا عادوا يسيرون بخطوات عادية ، ثم وصلوا بكل هدوء .

ثم التفت الناس نحو الغنائم ، فأخذوا كثيراً من الأسلاب من أسلحة وأثواب ثمينة مع خيمة الامبراطور ، التي عثر فيها على آنية مصنعة من الذهب والفضة فقط ، وكذلك مع جميع مفروشات الامبراطور وثيابه الرائعة ومحتويات البيت ، وذلك بالاضافة الى عدد من السوابغ والبيض ، والسيوف المختارة والخيول والبغال ، وكثيراً من الغنائم من أغنام وسائمة

وماعـز ، وخيول أصيلـة وبغال ، وبـط وأوز ودجاج ، كما وجـدوا أنواعـاً منتخبة مـن الخمر والمؤن من جميع الأنـواع ، كما وحملوا معهم حشـداً من الأسرى ، ولقـد كانـت الكميات هـائلـة الى حد أنهم شعـروا بالتخمـة ، وبكلمة موجـزة بات كل فكر مشغـولاً بالغنائم ، وكانـت متراكمة بشكل عظيم ، ولم يبد أحـد منهم اهتماماً بأي شيء ثمين ، حتى عندمـا قدمت هذه الأشياء إليهم .

وبعدمـا صنعت هذه الأشيـاء ، أعلن الملك مـرسومـاًبوساطـة صوت المنادي في أن بإمكان كل واحد من السكان قابل بالسلام ، أن يذهب ويعود حسبما يشاء دون أن يتعرض للأذى من قبـل رجاله ، بل أن يتمتع بحرية كاملة ، لكن كل من عدّ الملك بمثابة عدو له ، عليه الانتباه حتى لا يقـع بيديـه ، وينطبـق هذا على رجـالة الجيـش ، لأن مـن المؤكد أنـه سيعاملهم بمثابة أعداء ، وفقـد الامبراطور بهذه الوسائط عدداً كبيراً جداً من رجاله ، ذلك أنهم تخلوا عنه باستمرار ، وأخيراً عندما وجد الامبراطور نفسه في حالة مـن الفوضى والأسى لأنه أخفق في مقـاصده ، حمل نفسه والتجأ الى حصن قوي اسمه نيقوسيا .

وفي يوم السبت التـالي ظهر بالأفق ثلاث شواني وصعـد الملك ، الذي كان دومـاً متعجلا، إن لم نقل كان مغـامراً ، الى ظهر مركـب صغير، دفع بقوة المجاذيف ، وذهب لملاقاة هذه الشـواني ، ولمعرفة القادمين من هم ، ومن أين جـاءوا ، ولدى اجابتهم له ، قـالوا إن فيها غي لـوزغنان ، وعاد الملك مسرعاً وأمـر بإعداد عشاء فـوري للضيوف القادمين ، وعندمـا نزل الملك غـي إلى اليابسة ، استقبلـه بحفاوة عظيمـة جداً ، وعاملـه بلطف زائد.

وجاء الملك غي إلى عند الملك رتشـارد يسأل نصيحته ، ويطلب عونه ضد ملـك فرنسـا الذي خطـط لجعل مـركيز مـونتفرات ملكـاً للقدس ، وخلع غي ، ورحب الملك رتشارد به بلطـف ، وأكرمه بمنحه هداياه لأنه

كان فقيراً ومحروماً من الامكانيات ، وأعطاه ألفي مارك فضي وعشرين كأساً لها ثمنها ، الذي يعادل مائة وخمسة ماركات ، فقد كان كأسان منهن من الذهب الخالص .

وفي اليوم التالي ، وهو يوم الأحد ، الذي وافق عيد القديس بانكراس Pancras احتفل بشكل مهيب بزواج الملك رتشارد وبيرنغاريا النافارية في ليماسول ، وكانت سيدة على درجة عالية من الحكمة ، والأخلاق المصقولة ، ووقتها توجت ملكة ، وكان من بين الحضور وقت الاحتفال رئيس الأساقفة ، وأسقف أوف إفرو Evreux وأسقف بانيريا Baneria وعدد كبير آخر من الرؤساء والنبلاء الآخرين وكان الملك في أروع حالاته في هذه المناسبة السعيدة ، وأظهر نفسه مرحاً ، ودمثاً للغاية واحتفل بعد يوم واحد بالزفاف بشكل مهيب وبطرائق ملكية ، ووصلت الى قبرص جميع الشواني الملكية ، التي انتظروصولها بقلق وكانت مجهزة ومدافع عنها بسلاح رائع وما من واحد رأى سفناً أفضل أو أعظم سلامة ، وضم الملك إليهم الشواني الخمس اللائي أخذهن من الامبراطور وبهذه الصورة امتلك أربعين شينياً مسلحاً وستين سفينة من أنواع أخرى بحالة جيدة .

واقترح الملك أن يطارد مع جيشه الامبراطور حيثما كان ، وأن يأخذه بالقوة ويرغمه على الاستسلام ، لكن بناء على وساطة وطلب مخلص تقدم به مقدمو اسبتارية القدس تقرر وجوب عقد مؤتمر بين الملك والامبراطور ، وندب الامبراطور خسارة رجاله ، وأنه قد أرغم على الفرار مجللاً بالعار الى نيقوسيا ، من وجه الملك ، وخشي من المطاردة ، أكثر بسبب أن السكان المحليين هجروه ، ولم يعد بإمكانه الاعتماد على مساعدتهم .

وبعدما استدعى الملك إليه أكبر عدد ممكن من الناس امتطى فرساً اسبانياً ، عالي الظهر ، عظيم الحجم ، جميل الشكل ، وسار الى

سهل واسع جداً فيما بين البحر والطريق العام ، قرب مدينة ليماسول ، وكان سرج فرسه يتألق بالذهب ، ووشي ورصع بالأحمر ، وكان على الجزء الخلفي منه أسدين صغيرين من الذهب استدارا نحو بعضهما بأفواه مفتوحة ، وكان على الجزء الأمامي أيضاً اثنين يشيران نحو بعضهما ، وكأنهما أقعيا للالتهام ، وزينت قدما الملك بمهمازين ذهبيين ، وارتدى قميصاً لونه زهر ، طرز بصفوف من الأهلة الفضية المصاغة ، وكان يشع مثل أفلاك الشمس بأشعة سميكة ، وهكذا سار الملك المكسو هكذا نحو الأمام ، وكان متمنطقاً بسيف مجرب مقبضه من الذهب ، والنطاق منسوج بالذهب ، وكان فم الغمد مغلفاً بالفضة ، وارتدى على رأسه قبعة قرمزية ، مزينة بأشكال مختلف الطيور ، ومخيطة ومطرزة بالابرة ، وحمل عصا بيده ، وعبر مظهره العام وبرهن أنه كان عسكريا من الطراز الأمثل ، ومنح البهجة العظيمة لكل من رآه .

وبعد تقديم العديد من المقترحات على كلا الجانبين بين الملكيين ، عرض الامبراطور أخيراً أن يقسم للملك يمين التبعية في كل شيء ، وأن يرسل قوة مكونة من خمسمائة فارس إلى أرض القدس خدمة للرب ، ولتكون تحت تصرف الملك رتشارد وتطيع أوامره ، وعرض بالاضافة إلى جميع هذه الأشياء (حتى يرضي الملك تماماً ولا يترك في نفسه أدنى شك)أن يضع جميع قلاعه وحصونه في أيدي حراس الملك ، وقدم بالاضافة إلى ذلك ثلاثة آلاف وخمسمائة مارك بمثابة ترضية وتعويض للذين فقدوا أموالهم ، أو تعرضت للسلب ، وتبعاً للاتفاق بينهما ، إذا ما وجد الملك أنه ورجاله قد قاتلوا بإخلاص ، يتوجب وقتها أن يعيد اليه جميع قلاعه وحصونه ، وأن تبقى الصداقة بينهما نفسها إلى الأبد .

وعندما أحال الملك هذا العرض الى رفاقه للفحص ، أجابوا بأنه محترم جداً ، ويتماشى مع احترام الملك ومكانته ، وكانوا راضين تماما به ، وعلى الفور أقسم الامبراطور أن يحترم جميع الشروط المتقدم ذكرها بكل

اخلاص للملك ، وبعدما تبادلا قبلات السلام أقاما التحالف وفق السمات الموصوفة .

وقام الامبراطور في الليلة التالية ، بناء على مشورة فارس خائن ، بالفرار الى فيلا غوستا ،لأن الفارس أخبره أن الملك رتشارد عازم على إلقاء القبض عليه ورميه بالأغلال ، ولدى سماع الملك رتشارد بهذا انطلق يطارده ، متهماً إياه بالتدليس وحنث اليمين .

وعندما وصل الملك الى فيلا غوستا ، وجدها مهجورة ، لأن الامبراطور وجد أنه غير مضمون الأمان بالنسبة له أن يتخذ فيها موقف المدافع ، ولهذا أخفى نفسه داخل الأحراش ، حيث الوصول اليه كان صعباً ، وإذا ما غامر رجالنا بالمرور بها ، سيكون بإمكانه مهاجمتهم من خلال الكمائن ، وأعطى الملك الأوامر بوجوب حراسة الموانىء بدقة من قبل شوانيه ، بغية إلقاء القبض على الامبراطور إذا حاول الفرار .

وبعدما مكث هناك لمدة ثلاثة أيام جاء اليه أسقف بوفياس Bea-vais ودروغودي ميرل ، وهو نبيل واسع الشهرة ، جاءا اليه رسلاً لحثه على عبور البحر بدون تأخير ، وليؤكدا له أن ملك فرنسا لن يقوم بالهجوم على عكا قبل وصوله ، وأضافا الى ذلك كلمة نقد قائلين بأنه أهمل المسائل الضرورية ، وأنه أضاع جهوده في مهام عبثية ، وأنه يتولى بلا توقف تعذيب ومطاردة مسيحيين أبرياء ، في حين هناك آلاف من المسلمين يتوجب عليه حربهم في البلاد المجاورة .

ورد الملك على هذه الرسالة بطريقة غاضبة ، ليس من المناسب ادراجها هنا ، ذلك أنه بدا له من المفيد جداً بالمحصلات اخضاع مثل هذه الجزيرة الضرورية جداً والمفيدة لمملكة القدس ، ثم تحرك الجيش نحو نيقوسيا لانشاب القتال ، لأنهم علموا أن الامبراطور عازم على نصب كمين لهم ، وزحف الملك في الساقة ، للحماية ضد المهاجمين ،

عندما اندفع الامبراطور بشكل مفاجىء من مكان اختبائه وهاجمهم مع حوالي سبعمائة من الغريفون ، وبذل رماة أقواسهم العقارة والعرادات غاية جهدهم ضد طلائع قواتنا ، لكن قواتنا حافظت على التحامها وتماسكها في نظام جيد لذلك لم تعان من التمزق ، وآنذاك زحف الامبراطور على الجناح للاستطلاع ، وانصب بقضه وقضيضه إما بهدف تمزيق صفوفنا ، أو أن يقف على مكان الملك ورميه ، وعندما وجد أن الملك كان في الساقة سدد نحوه بسهمين مسمومين ، مما أشعل غضب الملك عليه ، فلبس مهازين ، وركب حصانه ، وانقض على الامبراطور بهدف طعنه برمحه ، لكن الامبراطور تجنبه وهرب بالسرعة التي أمكنته ، وهو حانق ومضطرب لأنه لم ينجح في تنفيذ رغباته ، ولم يطارده الملك بعيداً لأنه شك في قدرته على أسره لأنه كان ممتطياً لفرس كميت له سرعة وقدرة على الاستمرار ما من أحد رأى ما يماثلها أبداً .

ثم زحف الملك الى نيقوسيا مع جيشه ، وخرج سكان المدينة كتلة واحدة لتهنئته واستقبلوه ورحبوا به وكأنه سيدهم ، واستقبلهم الملك بسلام وفقط جعلهم يحلقون لحاهم ، وذلك علامة وبرهان على تغييرهم لسادتهم ، وكان الامبراطور عظيم الغضب لدى سماعه بهذا ، وطلب من رجاله إلقاء القبض على كل واحد من رجالنا يستطيعون ، ومن ثم قلع عينيه ،وقطع الأنوف ، وتشويه الأيدي أو الأرجل بغية ارضاء غضبه وانتقامه ، واطفاء حزنه .

وقسم الجيش الى ثلاثة أقسام ، قاد قسم منهاالملك غي لالقاء الحصار على ثلاثة حصون ، وتم الاستيلاء على الأول ، وعثر على ابنة الامبراطور وعلى أمواله ، وعندما سمع الامبراطور بهذه الخسارة استولى عليه اليأس ودفعه الى حد الجنون .

وزحف الملك غي الى حصار الحصن الثاني ، واستمر المحاصرون لأيام عدة يرمون على المهاجمين الحجارة والحراب والنشاب ، حتى تلقوا أمراً

من الامبراطور بـالاستسلام والتخلي عن الموقع ، وعندها وضـع الملك فيه ابنة الامبراطـور حتى يحول دون أسرها ثـانية ، ومـن هناك عاد الملـك غي الى نيقوسيـا ، حيث استلقى الملـك رتشارد مـريضاً ، وما أن عـوفي حتى هاجم الحصن الثالث واقتحمه ، وهو حصن عدّ حتى الآن لايرام .

وارتـأى الامبراطور بعـدما قـدر الموقف أن ابنتـه قد أسرت (ذلـك أن حياته تعلقت بها) وأنه ليس هناك من أمل ترك للمقاومة ، بعد هذا قرر التماس السـلام والـرحمة ، وبنـاء عليـه بعـث بـرسـل الى الملـك رتشـارد يلتمسون المسامحة ، وتبعهم في ثياب حزينة ، وفي حالة يائسة .

وعندما مثل في حضرة الملك رتشارد ، سقط على ركبتيه في حالة تذلل أمامـه ، قائلا إنه يضـع نفسه كلياً تحت رحمته ، ويـرجو ألا يلقيه بـالأغلال ، وتحرك الملك عطفـاً عليه وأنهضه وأجلسه الى جـانبه ، وأمر بإحضـار ابنته اليه ، وعندمـا رآها الامبراطور سرّ سروراً عظيماً ، وعانقها بشكـل عاطفي جداً ، وغمـرها بقبله ، بينما أخـذت الدموع تتسـاقط من عينيـه ، والقى الملك الامبراطور بالأغلال ، لكن ليس بأغلال حديدية بل أغلال فضية .

وهكـذا تملك الملـك قبرص في مدة خمسـة عشر يومـاً ، وأعطاهـا الى رجالـه لسكناها ، وعهـد بأمر الامبراطور وشـؤون اعتقاله الى الملـك غي ، وسلم ابنته الصغيرة الى ملكته للعناية بها وتربيتها وتثقيفها .*

ثم أعاد الملـك رتشارد جيشه وخدمه مع الأثقـال إلى ليماسول، حيث كـانت الملكتـان، وأعطـى الأوامر بـاعـداد الاسطـول لجواز مباشر للبحـر، وانتشرت في هذه الآونة تقـارير أفادت أن عكا باتت على حـافة السقوط، وعندمـا سمع الملك بهذا تنهـد بعمق وقال:«بعـد ماحوصرت عكـا هذه

* تبعاً لمصدر آخر ، رافقت رتشارد في عودتـه الى نورماندي ، وحـاولت بعد وفاتـه العودة الى قبرص ، غير أنها أوقفت في مرسيليا ، فـأرغمت على الزواج من ريموند صاحب طـولوز، ثم كان زوجها الثاني فارس فلمنكي ، حاول عبثاً الادعاء بأحقيته بعرش قبرص من خلالها ، ولكونه زوجها .

المدة الطويلة، علّ الرب يؤجل سقوطها حتى قدومي، فعندها سيكون النصر بعونه أكثر روعة».

وبعدما وضعوا الأثقال على ظهور السفن، أقلع الاسطول من الشاطىء بريح مواتية، والملكتان ذهبتا أيضاً برفقة الملك.

كيف تحاربوا مع سفينة اسلامية كبيرة ووصلوا أخيراً إلى عكا

ومن فيها غوستا أقلع الملك على واحدة من أكبر شوانيه وأسرعها، (وكما كانت عادته) تحرك نحو الأمام بالطليعة، وكان عديم الصبر تجاه التأخير، في حين سارت السفن الأخرى في أعقابه بأقصى ماأوتيت من سرعة، ولم يكن هناك من قوة، لم تكن لتخاف عن حق وترتعب من سرعتهن، وفي الوقت الذي خاضوا فيه غمرات البحر، أخذت ملامح الأرض المقدسة للقدس تظهر عن بعد أمامهم للمرة الأولى، وكان الحصن المسمى المرقب أول بقعة تأتي أمام أنظارهم.

وعندما كانوا على مقربة من بيروت، رأوا عن بعد مركباً مشحوناً بالمسلمين الذين جرى اختيارهم من الدولة الاسلامية، وكان المركب موجهاً من قبل صلاح الدين لنقل المعونات إلى المحاصرين في عكا، ولم يكن بمستطاع الذين على ظهر المركب تأمين مدخل سريع إلى ميناء عكا، خشية من المخاطر التي صدرت عن الجيش المسيحي، وكانوا ينتظرون لحظة مناسبة لدخول الميناء بشكل مفاجىء، وما أن رأى الملك السفينة حتى استدعى بيتردي بار Barres وكان قائداً لإحدى شوانيه، وأمره أن يجدف بسرعة ليعرف ويسأل من كان قائداً للمركب، وعندما أجابوه أنهم يعودون إلى ملك فرنسا، اقترب الملك بلهفة من المركب وبسرعة، لكنه لم يعثر على أية علامة أنه فرنسي، كما أنه لم يحمل أية شارة مسيحية أو راية، وعندما تفحصه الملك عن قرب، بدأت تعلوه الدهشة بسبب حجمه الهائل، وصناعته المحكمة، فقد كان على ظهره ثلاثة سواري(السفن الأوربية امتلكت حتى القرن الثالث عشر سارية واحدة)، وكانت أطرافه معلمة بشرائح حمراء وصفراء، وكان مفروشاً

بشكل جيد وفيه كل مايلزم من عتاد، إلى حد أن مامن سفينة كانت متفوقة عليه، كما كان مشحوناً بوفرة من الامدادات وبجميع أنواع المؤن.

وقال واحد ممن كان على ظهر سفينة الملك، أنه عندما كان في بيروت شاهد هذا المركب محملاً بمائة حمل جمل من السلاح، والرماح، والقسي، والحراب، والنشاب، وكان على ظهره سبعة أمراء وثمانين من نخبة الأتراك، وذلك إلى جانب كميات هائلة لاتدخل تحت الاحصاء من جميع أنواع المؤن، وكان معهم على ظهر المركب كمية كبيرة من النفوط (النار الاغريقية) في قوارير، ومائتين من الأفاعي القاتلة من أجل تدمير المسيحيين.

وجرى بناء عليه ارسال آخرين للحصول على معلومات مؤكدة أكثر، وعندما أعطوا بدلاً من الاجابة المتقدمة، اجابة جديدة، حيث قالوا إنهم جنويين وجهتهم إلى صور، بدأ رجالنا بسماع هذا الجواب المتغير يشكون بصدقهم، وأصر واحد من رجالنا الذين كانوا على ظهر السفينة أنهم كانوا مسلمين، ولدى سؤال الملك له قال:«إنني أسمح لك بقطع رأسي، أو شنقي على شجرة إن لم أبرهن بأن هؤلاء الرجال من المسلمين، دع الشيني يمضي مسرعاً خلفهم، لأنهم يحاولون الابتعاد، ولاتقدموا لهم أية نوع من أنواع التحيات، فبهذه الطريقة سنمتلك برهاناًمؤكداً عن ماهية مقاصدهم، وإلى أي مدى يمكن تصديقهم، ثم انطلق الشيني بناء على أوامر الملك خلفهم بسرعة كاملة، ولدى الاقتراب من مركبهم، والتجديف إلى جانبه بدون تقديم تحية صداقة لهم، بدأ البحارة يرمون الحراب والنشاب نحو رجالنا، وعندما رأى الملك هذا أمر بمهاجمة السفينة على الفور، وبعد تبادل الرشقات من السهام، انخفضت سرعتها، لأن الريح حملتها بسرعة منخفضة.

ومع أن رجال سفينتنا جدفوا مراراً حول السفينة، وتفحصوها بدقة، لم يجدوا نقطة موائمة لمهاجمتها، لأنها بدت صلبة ومحكمة إلى أبعد الحدود،

ومصنعة مـن مواد قـوية، زد على هـذا كانت محميـة بوسـاطة حـرس من المقاتلين، الـذين استمـروا في رمي النشـاب نحوهـم، ولم يستمتع رجـالنا أبداً بـرماية النشـاب، ولابالارتفاع العظيـم للسفينة، لأنه مـن الممكن أن تصطرع مـع عدو وتقـاتل ضـده على مستوى واحـد، لكن عنـدما تـرمى الرمايات من أعلى دوماً تؤذي الذيـن هم بالأسفل، لأن رؤوسها الحديدية تسقط نحـو الأسفل، وعنـدما بدأ جهـدهم يسترخـي، ازداد حماس الملك صعوداً، ورفـع صوته يقول متسـائلاً:«هل ستدعـون السفينة تمضي وتهرب دون أن تلمـس أو تصـاب بـالأذى؟ العار لكـم! هـل تحولتـم إلى جبنـاء نتيجـة تقاعسكـم، بعـد كثير من الانتصـارات؟ العـالم أجمع يعرف أنكـم مكرسـون لخدمة الصليب، ولسـوف تعانون من أشـد العقوبات وأقسـاها إذا ماسمحتـم للعدو بـالنجاة وهـو على قيد الحيـاة، وذلك بعـدما ألقـي أمامكم على طريقكم».

وبنـاء عليه أرغمـت الحاجـة رجالنـا، فقفـزوا بنشاط نحـو الماء، تحت طـرف السفينـة، وربطوا دفـة القيـادة ومجدافهـا بالحبـال، لحرف السفينـة وإعاقة تقدمها، وأمسك بعضهم بـالحبال، فقفزوا على ظهرها، واستقبلهم الأتراك برجولة، ومزقوهم إلى أشـلاء عندما وصلوا إلى ظهر السفينة، ورموا برأس هـذا، وبذراع ذاك، وبـأيدي آخر، وقـذفوا بـأجسادهـم إلى البحر، ولدى رؤيـة رجالنا هذا التهبـوا غضباً، وتجددت شجاعتهم مـن العطش لـلانتقام، وعبروا فـوق معظم السفينـة وقـاتلوا الأتـراك على شكل كتلـة واحدة، وبحـدة عظيمة، ومع أن الأتراك تـراجعوا قليلاً، غير أنهم قـدموا مقاومة عنيدة.

واستمرت المعركة إلى وقت طـويل، وسقط عدد كبير من على الجانبين، لكن في النهاية، ضغط الأتراك بشجـاعة على رجالنا، وردوهم إلى الخلف (مع أنهم قاومـوا بكل طاقاتهم) وأخـرجوهم من السفينـة، وبناء على هذا تراجع رجالنـا إلى شوانيهم، وحاصروا المركب من جميـع الجهات، وحاولوا

ايجاد وسيلة أسهل لحربه.

ولاحظ الملك الوضع الخطر الذي كان فيه رجاله، وإذا لم تتعرض السفينة للأذى لن يكون من السهل أخذ الترك مع السلاح والمؤن التي فيها، فأمر كل شيني من شوانيه بوجوب مهاجمة السفينة بوساطة رؤوسها المعدنية التي في مقدمتها، وهكذا أخذت الشواني تتراجع إلى الخلف، ثم تهاجم بسرعة كبيرة بوساطة التجديف أطراف السفينة لخرقها، وبهذه الطريقة تحطمت السفينة بسرعة، وأصبحت مفتوحة أمام الأمواج ومن ثم أخذت تغرق، وعندما رأى الأتراك هذا قفزوا إلى الماء ليموتوا، وقتل بعضهم من قبل رجالنا، وغرق الآخرون، واحتفظ الملك بخمسة وثلاثين منهم أحياء، وهم الأمراء والرجال الذين كانوا بارعين في صنع الآلات، لكن البقية لاقوا حتفهم، وتمّ التخلي عن الأسلحة، وغرقت الأفاعي، وتوزعت بين أمواج البحر.

ولو أن هذه السفينة وصلت سالمة أثناء حصار عكا، لما تمكن المسيحيون مطلقاً من الاستيلاء على المدينة، لكن بوساطة الملك وبعون الرب تحولت إلى دمار الكفار، ولعون المسيحيين، وشهد المسلمون عن بعد ، ومن فوق أماكن شاهقة ما كان يحدث ، وبحزن وأسف حملوا الأخبار الى صلاح الدين ، الذي عندما سمعها أمسك بلحيته وأخذ ينتفها بغضب وحنق ، وانفجر يتمتم بهذه الكلمات : « يا الهي ، هل فقدت عكا ، وخسرت نخبة جندي ، الذين أثق بهم ثقة كبيرة ؟ إنني مقهور ومتألم غاية الألم لهذه الخسارة ».

وعندما حمل الذين شهدوا الواقعة الأخبار الى جيش المسلمين ، علت بين صفوفهم ضجة عظيمة من البكاء والنواح والندب المؤلم لحظهم السيء ، وقطعوا ضفائر شعرهم ، وتخلوا عن ملابسهم ، ولعنوا الساعة التي جاءوا فيها الى سورية ، وشتموا ما قدرته النجوم عليهم ، لأنهم خسروا بخسارة السفينة المذكورة أعلاه جميع نخبة شبابهم ، الذين وثقوا

بهم وعليهم اعتمدوا .

وبعد هـذا النجاح أسرع الملك رتشـارد مسروراً ومبتهجاً ، ومعـه جميع أركانه ، نحو عكا ، الى حيث رغبـاته الجامحة حملته ، وفي الليلة ، وبفضل ريح منـاسب ، رسـا الاسطول قـرب صور ، ورفـع الأسطول في الصبـاح المراسي ، ونشر الأشرعة ، وبعد وقت قصير بات البرج المرتفـع لعكا مرئيا، ثم قليلاً فقليلاً ظهرت بقية دفاعات المدينة .

وأحاط بالمدافعين المحاصرين حشـود لا تعد ولا تحصى ، منتخبة من كل أمة مـن أمم العالم المسيحي تحت قبة السماء ، وكانـوا جميعاً مؤهلين للعمل والتعـب في سبيل الرب ، لأنـه كان قـد مضى وقت طـويل على حصـار المدينـة ، وقد تـأثـرت كثيراًبـالجهـد المتواصـل ، والانهاك بسبـب ضغط الجوع ، وكـل نوع مـن أنواع العدوان ، وكـان من الممكـن أن يرى خلف المحاصريـن ، الجيش التركي وقد غطى الجبال والـوديان ، والتلال والسهـول ، بخيـام عكسـت ألوانها أشعـة الشمـس، ورأوا أيضـاًسرادق صلاح الديـن ، وخيمة أخيه سيف الديـن ، وخيمة تقي الديـن ، الرجل الرئيسي للمسلمين ، فهـو الذي تـولى حراسـة أجزاء البحـر وكان يخطـط للحملات الفعالة والمستمرة على المسيحيين .

وتفحص الملك رتشـارد وقدّر حجم جميع جيشهم ، وعنـدما وصل الى المرسى ، جاء لاستقبـالـه ملك فـرنسا ، وجيـش كـامل مـن المحليين ، والأمـراء والمقـدمين ، والنبـلاء ، وقـد رحبـوا بـه بسرور وانشراح ، لأنهم كانوا منتظرين ومتشوقين لوصوله .

وفي يـوم السبت ، قبـل عيد الـرسول المبـارك بـرنابـا ، في اسبوع عيـد العنصرة ، نزل الملـك رتشارد الى اليابسـة قرب عكـا مع حاشيتـه كلها ، واهتـزت الأرض مـن صراخ المسيحيين المسروريـن ، وعبر النـاس عـن بهجتهـم بصرخـات الترحيب وبـالنفـخ بـالأبـواق، وأمضوا النهـار كلـه

بالاحتفـال ، وسيطر على الجميع سرور عام . وبـالمقابل ارتعـب الأتراك ، وانكسرت نفـوسهم بقـدومه ، لأنهم أدركـوا أن جميـع حركـات الذهـاب والاياب هي محصلة قدوم حشود الملك ونزولها من السفن .

وسار الملكـان مع بعضهما من المرسى ، وقـدم كل منهما للآخر العنـاية الفائقة ، ثـم ذهب الملك رتشارد إلى خيمته التـي كانت معدة لـه من قبل ، وشرع مبـاشرة في الاستعدادات للحصـار ذلك أن اهتمامـه تـركز بشكـل رئيسي على ايجاد الوسائل والأدوات والآلات ، التي تمكنهـم من الاستيلاء على عكا ، دون خسارة للوقت .

وما مـن قلم قـادر على وصف البهجـة بين النـاس تلـك الليلة ، ليلـة وصول الملك ، ومـا من لسان قادر على وصف ذلك ، فقـد نظر الى هدوء الليـل على أنـه ابتسامـة ألقيـت عليهـم مـع هـواء عذب ، وصـدحـت الأبـواق، وصوتـت الصور ، مـع نعيـق النفر ، وسمعـت الأنغام العميقـة للطنبور والمزمار ، وشنفـت الآذان ، وسمعت السمفونيات المهـدئة وكأنها أصوات عدة مـزجت بصوت واحد ، ولم يكن هنـاك إنسان لم يشارك في البهجة والحمد والشكر ، إما بغناء أغـان شعبية للتعبير عن مشاعر السرور في قلبـه ، أو ردد أعمال القـدمـاء محركـاً بها ضربـوه مـن أمثـالـة أرواح المعاصريـن ، وشرب بعضهم الخمـرة بكؤوس ثمينـة بصحة المغنيين ، في حين قام آخرون بمزج ذوي المراتب العليا والمراتـب الدنيا مع بعضهم ، وأمضـوا الليل في رقـص متـواصل ، وإزدادت بهجتهـم بـإخضاع الملـك رتشارد لجزيرة قبرص، وهـو مكان نافع وضروري لهم ، وسيـؤدي خدمات جليلة لجيشهـم ، وكدليـل آخر على بهجـة قلوبهم ولاضـاءة ظلام الليـل أشعلت الشمـوع والمشاعل فبثـت الشعاع حتى بـدا الظلام وكأنـه أزيل بضياء النهار ، وخيـل للترك أن الوادي كله كان يشتعـل ، ثم إن البيزيين وقد نـال اعجابهم مجد وأبهة الملك رتشارد ، أقبلـوا عليه ووقفوا أمـامه ، وقـدمـوا لـه الخضـوع ، وحلفوا لـه يمين الـولاء ، وأخضعـوا متطـوعين

أنفسهم لسلطانه ولخدمته .

وفي اليوم التالي وهو أحد العنصرة ، سمع الملك رتشارد وعرف أن ملك فرنسا ربح إرادة وإيثار الجميع بإعطائه إلى كل جندي ثلاث قطع ذهبية (أوريAaurei) كل شهر ، عندها أعلن الملك رتشارد ، الذي لم يتفوق عليه أحد أو ساواه بالكرم بوساطة المنادي ، أن كل من أراد أن يدخل في خدمته ، بصرف النظر عن الأمة التي ينتمي إليها ، سوف يتلقى أربع قطع ذهبية بالشهر أعطية له ، وبهذه الطريقة تفوق بكرمه على الجميع ، لأنه فاق كل إنسان آخر بمحاسنه وبجوده ، مثلما بزّ الجميع بعطاياه وأبهته ، ولقد كان الناس يتساءلون :« عندما يقع أول قتال ، من الرجل الذي توقعناه طويلاً وانتظرناه بقلق وشوق ليباشر ذلك ؟ ، ومن الرجل الأول تفوقا بين الملوك والأعظم براعة في العالم المسيحي بأسره ؟ . لندع الآن إرادة الرب تقرر ذلك ،إن آمال الجميع ألقيت على الملك رتشارد ». لكن بعد مضي عدة أيام أصيب الملك بمرض حاد يدعى أرنولديا Arnoldia ، فهذا ما يطلقه عليه عامة الناس، وهو محصلة تغيير المناخ وآثاره على الجسم (حيث ينجم عنه فقدان أظافر اليدين والقدمين وسقوط الشعر وبعض الآثار على الجسد أيضاً)، وعلى الرغم من هذا أمر بإعداد العرادات والمجانيق ، وببناء الأبراج والقلاع (ميتغريفون) أمام أبواب المدينة ولم يوفر جهداً في تفعيل بناء آلات الحرب والاسراع بها .

- ٨٦١ -

كيف هاجم الفرنسيون عكا حينما كان الملك رتشارد مريضاً

ولم يـرتح ملـك فرنسـا للتـأخير في الشروع بالقتـال ، فبعث كلمـة الى الملك رتشارد قـال فيها توفرت الآن فـرصة مناسبة ، وطلـب من الجيش أن يأخذ أهبته للقيام بهجوم ، لكن الملـك رتشارد أوضح عدم قدرته على القيام بواجبه ، بسبـب عدم قدرته الصحية ، وبسبب أن رجـاله لم يصلوا بعـد ، وأمل بـوصولهم بسفـن الأسطول المقبـل ، وأنهم سيجلبون معهـم مـواداً مـن أجل إنشـاء الآت ، ورأى ملـك فـرنسـا أنه مـن غير الـلائق الاقلاع عـن خططه وغاياتـه ، وأمر بالاعلان عـن هجوم بوساطـة صوت المنادي في أوساط الجيش .

وبناء عليه ، في يـوم الاثنين بعد عيد ميلاد القديس يـوحنا المعمدان ، عندمـا أكمل ملـك فرنسا إنشـاء آلاته ، أصدر أوامـره الى رجالـه بحمل السلاح ، وكـان بإمكـانك وقتهـا أن ترى حشـوداً لا تعد ولا تحصـى من الرجـال المسلحين ، المجهزيـن بشكل جيـد ، وعدداً كبيراً مـن السوابـغ والدروع ، والخوذ اللامعة ، والخيـول الأصيلة ، والكثير الكثير من الأعلام والـرايـات المتعددة الأشكـال والصنعـة ، وعسـاكـر ذوي جرأة معـروفـة وشجاعة ، كـأنهم لم يروا من قبل ، ومـركزوا رجالاً للدفـاع عن الخنادق ، ضد هجـوم متوقـع خطره مـن قبل صـلاح الديـن من الخلـف ، واقترب الجيش مـن أسوار المدينـة بحملة نشطـة جداً بقـذف الحراب ، والنشاب والحجارة من العرادات والمجانيق بدون توقف .

وعندما رأى الترك المحصـورين داخل المدينة هذا ، أثاروا ضجـة هائلة ، وارتفعـت أصـواتهم الى السماء ، حتـى أنها شـابهت الصـدام في الهواء الناجـم عن لقاء الرعـد بالبرق ، وكانـت مهام بعضهـم فقط قـرع الطبول والصنوج والكوسات ، وجميع الوسـائل الأخرى التي ترسل الشارات إلى

صلاح الدين والجيش في الخارج ، وذلك مـن أجل أن يقدموا لمساعدتهم والتفريج عنهـم حسبما كانوا متفقين ، ولدى سماع الترك هـذا ورؤيتهم له تجمعوا في جسـد واحد ، وجاءوا بكل مادة توفرت لهم لطم الخندق ، واستهدفوا مـن وراء ذلك الجواز ، والهجوم على رجالنـا ، غير أنهم أخفقوا في أهدافهم .

فقد تمكن غودفري دي لوزغنـان ، وكان محارباً مجرب الشجاعة جداً ، من التصدي لهم ، وطـردهم من المواقع الـدفاعية التي استـولوا عليها ، وقد قتل عشرة منهم ببلطة حملها بيده ، وذلـك بطريقة رائعة جداً ، وما من واحد ضربه نجا من الموت ، وفضـلاً عن هذا أخذ بعضهم أسرى ، ووصلت شجـاعته وفعاليتـه الى حد ، أن ما مـن واحد من الجنـد يمكنه الادعاء بـالتمييز مثله ، منـذ أيام الجند المشهـورين مثل رولانـد وأولفر ، واسترد رجالنـا الدفاعـات لكن بوساطـة جهد كبير وبعد مصـاعب جمة ، لأن الترك تابعـوا تدفقهم ، وجعلوا بمقـاومتهم العنيدة وبـإصرارهم على القتال ، النتيجة مشكـوك فيها لوقت طويل ، ولقـد كان الصراع عنيدا ولا نظير له ، وكـانت الجلبة التي تصـاعدت من الصراع مرعبـة جداً ، الى حد أن الـرجال الذين كـانوا يتولـون الهجوم على المدينة ، وكانـوا عازمين على طم خنـادقها ، أرغموا على التراجـع والتخلي عن المحـاولة ، لأنهم كانوا غير قادرين في الوقت نفسه على الدفاع عن معسكرهم ضد الأتراك دون فقدان الكثيريـن من الفرنسيين بمقتلهـم بالـرمايات التـي صدرت عن الزنبورك والقسي العقارة ومن الحجـارة المقذوفة ، والنفوط المصبوبة عليهم ، وكان هناك الكثير من النواح والندب بين الناس .

كم انتظـرنا بتحـرق وبشوق وصـول الملوك ، وكيـف سقطت آمـالنا ! فلقد جـاءوا وربحنا لا شيء لا بـل عانينـا من خسـائر أكثر مـن المعتاد ، والذين توقعناهم قدموا إلى لا غاية!

ووضع رجـالنا مـن الفرنسيين أسلحتهم جـانباً ، وبـدأ الترك يسخرون

منهم ويعيرونهم ، وقد انتقدوهم في أنهم كانوا غير قادرين على انجاز ما بدأ وا به ، زيادة على هذا عندما ألقوا النفوط على الآلات وعلى بقية الأدوات والوسائل الحربية العائدة لملك فرنسا (التي صنعت بعناية فائقة)دمروها ، وكانت نتائج ذلك استبداد الغضب والحنق بملك فرنسا ، وغرق في حالة من مرض الوهن والأسى ، والاضطراب ، والرعب حتى أنه لم يعد يجرؤ على امتطاء ظهر حصانه.

وانتحب الجيش ، وأصيب بالاحباط نتيجة لمرض الملكين بالتخاذل، لأنه لم يعد لديه مقدم أو قائد يقاتل تحت رايته معارك الرب ، ولكي يضاف الأسى العام مات كونت فلاندرز قبل وقته ، وفقط قدوم رجال رتشارد ، بعد رحلة هادئة ثبتهم الى بعض الحدود .

وتعافى ملك فرنسا أولاً من مرضه ، وركز اهتمامه على بناء الآلات والأبراج ، وعزم على الانصراف الى هذا العمل ليل نهار ، ولقد امتلك آلة متفوقة السمات ، أطلقوا عليها اسم « جار السوء» وامتلك الترك أيضاً آلة مثلها أطلقوا عليها اسم «قريب السوء» وقد استطاعت مراراً بوساطة قذائفها تدمير «جار السوء » الى قطع ، لكن ملك فرنسا أعاد بناءها ، حتى تمكنت برماياتها المتواصلة من تدمير جزء من السور الرئيسي للمدينة ، وضعضعة البرج الملعون ، ومن جانب آخر ، هوت آلة دوق بيرغندي، وبالمقابل حققت آلة الداوية انجازاً مدمراً ، وفي الوقت نفسه استمرت آلة الاسبتارية في زرع الرعب بين صفوف الترك ، يضاف الى هذا كله كانت هناك آلة أخرى بنيت على حساب الجميع ، واعتادوا على دعوتها باسم « منجنيق الرب»وقد وقف إلى جانبه باستمرار كاهن يتولى الوعظ والتبشير ، وكان رجلاً صاحب أمانة عظيمة ، وكان يجمع الأموال لإعادة ترميمه على الحساب العام ، ولإكتراء رجال لجلب الحجارة من أجل الرمي ، وأمكن بوساطة هذا المنجنيق ضعضعة جزء من السور ومن البرج الملعون بما يقارب العمودين منه .

وكان لدى كـونت فلاندرز منجنيق منتخب ومـن أكبرها حجماً ، وقد أضـافه الملـك رتشارد بعـد مـوته الى واحـد مـن المجانيـق الأصغر التـي امتلكهـا الآن ، وكـان هـذا مساويـاً للكبير بـالجودة ، وقـد شرع هـذان المنجنيقان بالـرمي بشكل متواصل على مقـربة من الباب الذي غـالباً ما استخـدمـه الترك ، حتـى أمكـن القـاء جـزءمـن البرج الى الأرض ، وبالإضافـة الى هذين المنجنيقين أنشأ الملك رتشارد اثنين آخـرين بصنعة متميزة وبمـواد منتقاة ، ، وكـان بإمكـانها ضرب أماكـن على مسافـات واسعـة جداً ، كما أنـه أنشـأ آلة قـوية جـداً لها سـلالم للصعود إليهـا ، كـانت تعـرف عادة بـاسم «البرج » وقـد غطاهـا بالجلـود غير المدبوغـة والحبال ، وصنعهـا من شرائح من الخشـب الأكثر قوة ، الـذي لا يمكن تدميره بأية نوع من القذائف ، أو يتأذى بـالنفوط أو بأية مادة محرقة أخرى تصـب عليـه ، وأعـد أيضاً منجنيقين ، كـان أحـدهما يمكـن أن يطلـق قـذائف شـديـدة جـداً ، وسريعـة ، وبعيـدة الى حـد أنها وصلـت الى الصفوف الداخلية من المدينة أي الى الأسواق .

وكانت هـذه الآلات تتولى القذف ليل نهار ، وبات معـروفاً أن احدى الحجارة التـي رمتها قتلت اثنـي عشر رجلاً بـرمية واحدة ، وحملـت هذه الحجرة فيها بعد الى صلاح الدين لتفحصهـا ، وكانت من الحجارة التي جلبها الملـك رتشارد معـه من مسينا ، وكـانت هـذه الصخور الصـوانية والحجارة الناعمة لا يمكن لشيء أن يصمد أمـامها ، حيث كانت إما أن تفتت الى قطع الهدف الذي تصيبه أو تسحقه فتحوله الى طحين .

- ٨٦٥ -

كيف صدّ الأتراك بفعالية رجال الملك وتشارد

ونظراً لموقع عكا الحصين ، ولأنه كان مدافع عنها بقوات تركية منتقاة، فقد بدت صعبة جداً حتى يتم الاستيلاء عليها عنوة ، وعلى هذا بدد الفرنسيون حتى الساعة جهودهم بلا فائدة ، في بنائهم بكل عناية آلات ومعدات لتدمير الأسوار ، فكل ما أقاموه وشيدوه بنفقات عالية جداً ، دمره الترك بالنفوط ، أو بوسيلة محرقة أخرى التهمتها التهاماً ، وكان بين الآلات والمعدات الأخرى آلة بناها ملك فرنسا بعد تعب كبير ، وأعدها لتسلق الأسوار والصعودعليها ، وقد دعوها باسم «السنور» لأنها كانت مثل السنور تزحف وتلتصق بالسور ، وأعد آلة أخرى صنعها من أغصان الأسيجة القوية ، ووضع بشكل محكم تحت غطاء من الجلود ما كانوا يسمونه الحلقات الدائرية ، ولقد اعتاد ملك فرنسا على الجلوس تحتها وشغل نفسه بقذف الرمايات من آلة قاذفة ، فقد كان يترقب ظهور الترك فوق الأسوار الى جانب الشرافات فيرميهم وهم غير منتبهين .

ونشط الفرنسيون في أحد الأيام ، وسعوا وهم يزحفون بإصرار الى الأمام الى وضع سنور على الأسوار ، وعندما لاحظه الترك ألقوا فوقه كومة من الخشب الجاف جداً، وبعدما رموها فوقه وفوق «آلة السياج » التي بناها الفرنسيون بعد تعب كبير جداً ، صبوا عليهما كمية من النفوط وعندما التهبا بالنيران وجها منجنيقاً نحوهما فدمراهما إلى قطع.

ونتيجة لهذا غضب ملك فرنسا بلا حدود ، وبدأ يلعن الذين كانوا تحت إمرته ، وعيرهم لأنهم لم ينتقموا بشكل موائم من المسلمين الذين ألحقوا بهم مثل هذا الأذى ، وأصدر وهو في أعلى حالات انفعاله مرسوماً عند اقتراب الصباح ، جرى تعميمه بوساطة صوت المنادي ، قضى أن سيكون هناك هجوم ينبغي القيام به ضد المدينة في اليوم التالي .

وفي الصباح تسلح الجميع ، وجرى اختيار أشجع العساكر من بين الجيشين جميعا، وجرت مركزتهم عند الخنادق ، نحو الخارج ، للتصدي للهجمات المتكررة والمزعجة والمفاجئة للمسلمين ، لأن صلاح الدين تبجح أنه سيعبر في ذلك اليوم الخنادق عنوة فيبرهن عن شجاعته بإذلال الجيش المسيحي والحط من شأنه وإنزاله حتى الرغام ، لكنه لم يحافظ على كلمته مع أن جيشه ، جاء تحت امرة تقي الدين ، كتلة واحدة واقترب من الخنادق وحاول أن يجوزهم ، لكن الفرنسيين لم يكونوا بطيئين بالمقاومة ، وحاولوا قدر طاقتهمم ردهم .

وكانت المقتلة على كلا الجانبين عظيمة ، وترجل الترك ، وزحفوا على أقدامهم بانسياب عظيم ، وبعد الالتحام بالمعركة قاتلوا بشجاعة واصرار يداً بيد بالسيوف ، وبلطات حادة ذوات طرفين ، وقاتل بعضهم بهراوات لها أسنان حادة ، وضغط الترك نحو الأمام ، وردهم المسيحيون ولقد كان المسلمون من أعظم الناس اصراراً وصموداً ، وبالمقابل كان المسيحيون من أكثر الناس شجاعة ، وتمكن المسيحيون بعد كثير من المشاق والصعوبات من تحقيق رد الترك ، لأن هؤلاء كانوا أكثر منهم عدداًبشكل واضح جداً.

وحاول الذين وجهوا هجومهم ضد المدينة بكل وسيلة توفرت لهم ، وبذلوا جهد طاقتهم لخرق الأسوار أو لغمها وانزالها ، أو تسلقها بوساطة سلالم التسلق ، وخشي الترك الذين كانوا داخل المدينة من حماسة رجالنا ، لذلك حركوا شارة الى ترك جيش صلاح الدين في الخارج ، ودعوهم إما الى الهجوم بقصد إزاحة الفرنسيين عن الأسوار ، أو تقديم عون مباشر اليهم .

وعندما عرف تقي الدين بهذا ، حملَ الأتراك من الخارج ثانية ، وضغطوا علينا ضغطاً شديداً ، وقد دفعوا برجالنا الى الخلف بعدما بذلوا غاية طاقاتهم ، وتمكنوا بعنف من طم الخندق ، غير أن المسيحيين ، لم يقبلوا بهذا ، وقاوموا حملاتهم وتصدوا لها ، وأمكن بالتالي ردّ العدو .

وفي الوقت نفسه حقق الرجال الذين استخدمهم ملك فرنسا للغم السور ، تقدما ووصلوا حتى اقتلاع أحجار الأساسات ، وملأوا الثغرة المحدثة نتيجة الحفر ، بقطع الأخشاب ، ثم أضرموا فيها النيران ، وتهاوت الأخشاب المعلقة تحت الأساسات تدريجياً ، ومالت بعض الميل ، لكنها لم تسقط كلها كتلة واحدة ، وبادرت كتلة من المسيحيين مسرعة الى هناك للدخول من الثلمة وسوق الجيش التركي إلى الخلف .

ووضع الفرنسيون من الخارج السلالم على السور الذي انهدم جزئياً ، وحاولوا الجواز الى المدينة ، وبالمقابل تسلق الترك أيضاً السلالم للدفاع عن الثلمة التي أحدثت .

ثم وقعت واقعة رائعة ، لا يمكن السكوت عن ذكرها ، فقد رأى رجل واسع الشهرة ، ومجرب الشجاعة ورائعها اسمه ألبيرك كليمنتسAlberic clements ، الفرنسيين يبددون جهودهم مقابل قليل من النتائج ، واستجمع ساعة تعبه الشديد كل قوته وقال :« سأموت هذا اليوم ، أو إنشاء الرب ، سأدخل مدينة عكا»، وبإكماله لهذه الكلمات تسلق بجرأة السلم ، وما أن وصل الى أعلى السور حتى تساقط عليه الترك من جميع الجهات .

ولحق به الفرنسيون ، لكن السلم تحطم تحت ضغط عددهم ، وأصيب بعضهم اصابات أوصلتهم الى الموت ، وتم سحب آخرين لحقت بهم جراحات بالغة ، وصاح الأتراك لشدة بهجتهم ، وأعلنوا عن سرورهم عندما رأوا الحادث ، لأنه كان حادثاً مريعاً ومصيبة عظيمة .

ثم طوقوا ألبير كليمنتس ، وقهروه ، ذلك أنه ترك وحيداً على رأس السور ، وطعنوه طعنات لا تعد ولا تحصى ، وهكذا تحقق له ما قاله في أن يموت شهيداً إن لم يستطع تقديم العون الى رفاقه بدخول عكا .

وارتعب الفرنسيون كثيراً بسبب خسارته ، وتوقفوا عن التسلق ،

وسلموا أنفسهم للبكاء والنحيب لوفاته ، لأنه كان رجلاً صاحب مرتبة ونفوذ.

وبعد مضي وقت قصير تمكن اللغامون الفرنسيون إثر مثابرتهم في عملهم ، من لغم البرج الملعون ، وعلقوه بجذوع الأشجار من الأسفل ، وكان الترك يحفرون بالاتجاه نفسه ، وقد وصلوا الى الجزء نفسه من الأساسات ، وهنا دخل اللغامون من الجهتين بإتفاق سلام متبادل ، توجب بمقتضاه أن يغادر الترك دون التعرض للأذى ، وتوجب أيضاً اطلاق سراح بعض المسيحيين الذين أسروهم ، ولدى اكتشاف مقدمي الترك هذا كانوا كانوا مغمومين جداً وأغلقوا الممرات التي كانت تفضي الى الخارج .

ولم يكن الملك رتشارد قد تعافى بعد من مرضه، ومع ذلك كان متشوقاً للعمل ، وعاقداً العزم على الاستيلاء على المدينة ، لذلك قام باستعدادته لأن يتولى رجاله مهاجمتها ، على أمل أنه ، بعون الحكمة الربانية ، سوف ينجح ، ولهذه الغاية أمر بصنع آلة السياج النقالة التي كانت تعرف باسم سيركليا Circlia وأن توضع مع نسيج متداخل ، صنع بمهارة عالية وطريقة ذكية جداً، وقصد الملك من هذة الآلة لاستخدامها للعبور فوق الخندق خارج المدينة ، ووضعها تحتها أعظم رجاله مهارة وخبرة باستخدام الزنبورك والجروخ والعرادت ، وحمل هو نفسه الى هناك فوق فراش حريري ، ليعلم المسلمين بوجوده ، وليضع العزيمة في قلوب رجاله ، وقد تمكن من داخلها باستخدامه لقوسه العقار الذي كان ماهراً باستعماله من قتل العديد .

وتمكن لغاموه أيضاً من حفر نفق تحت البرج ، وعلقوه بالأخشاب ، وأضرموا النيران فيها ولدى اضافة عدة قذائف من المنجنيق سقط البرج الى الأرض بشكل مفاجيء وأحدث صوتاً عالياً.

وبعدما تـأمل الملك كم كـان تحقيق هذا النجاح صعبـاً، وأدرك أن عليه أن يصطـرع مـع أكثـر الأعـداء شجـاعـة وتصميماً، وأن هنـاك حـاجـة لـلاستعانـة بكـل قواه في القتـال ، أمام هـذا رأى أن خير طـريقة لإثـارة عقـول جنوده الشبـاب بالـوعد بـالجوائز ، وليس بـالتهديـد والتحريـض بالأوامر الشديـدة فمن هو المعصوم من حب المربـح ؟ ولهذا أمر المنادي أن يعلن عـن جائزة قدرها قطعتين ذهبيتين ثـم ثلاث ثم أربع لكـل من يوقـع منجنيقاً مـن على الأسوار ، ووعـد بدفع مكـافأة قـدرها أربـع قطع ذهبية لكل من ينتـزع حجرة من السور ، ثم زحف الشبـاب نحو الأمام ، ونـافسهم الجنـود الشجعان ، وضغطـوا مـن أجل سحـب الحجارة مـن السور وكـانوا متشوقين لنيـل المجد والربـح ولهذا ثابروا في عملهـم وسط نشاب ورمايات العدو .

وأخفـق كثير منهم في القيـام بمهـامهـم ، في حين تم رد الآخـريـن ، فتراجعوا خوفـاً من الموت ، لأن الترك صدوهم بنشاط مـن فوق ولم يكن بمقدرة الترسـة ولا السوابـغ والدروع حمايتهـم ،وكان ارتفـاع الأسوار عظيماً ، وكذلك كـانت سماكتها ، ومع ذلـك استطاع الرجال الشجعـان بعد تغلبهم على جميـع المصاعـب انتزاع عـدد كبير مـن الحجارة وسحبهـا ، وعندمـا انقـض الترك عليهم كتلـة واحدة ، نـاضلوا مـن أجل صـدهم ، ولكـن لأنهم كانوا قد خلفوا أسلحتهم وراءهم ، فقـد تعرضوا وهم أشبه بالعزل لنشاب العدو .

وتفـاخـر واحد مـن الترك فـوق الأسـوار ، وهـو لابس لسـابغـة ودروع وسلاح ألبيرك كليمنتس المتقدم الذكر وكان هـدفه اغضـاب رجالنا ، لكن الملك رتشـارد استطاع أن يصيبه اصابـة قاتلة ، خـرقت قلبه بنشابـة من قوسه العقار .

وحـزن الترك لسقوطـه ، وركضـوا جميعاً محتشـديـن لـلانتقام لمقتلـه ، وعرضوا أنفسهـم بدون خوف وبجرأة عظيمـة للنشاب وللحراب ، ووردوا

رجالنا وضغطوا عليهم مثل المجـانين ، ذلك أنه لم يكن هناك مقاتلين أشجع منهم بين أي جنس على الأرض ، وتثير ذكريات أعمالهم على الفور في نفوسنـا الاحترام والاعجاب ، وفي أثناء القتال الحامـي ، لا شيء يمكنه أن يقف في وجه رمايات القوس العقارة أو مقـاومتها سواء أكانت سوابغ مزدوجة ، أم دروع قوية ومحكمة الصنعة ، وعلى الـرغم من كل شيء تابع الترك حفر نفق مـن الداخل ، وبذلـك أرغم رجالنا على التراجـع ، ورفع العدو أصواته عالية وكأنه حقق غايته .

وتهاوى البرج أخيراً بفعـل رمـايـات منجنيقنـــا المتـواصلـة ، ونتيجـة لسحب الأحجار منه بعـدنزعها ، وعندما توقف رجـال الملك رتشارد عن اللغم ، وتم الاقلاع عن الحملات ، هنا قـام المرشحون منا لمرتبة الفروسية (المتشوقين دوماً للاطراء والنصر) بتسليح أنفسهـم ، وكان بينهم حاشية ايرل أوف ليستر ، ورجال أندرودي كاين Cayegin وهو غوبرن ، وكان هناك أيضاًرجال أسقف سـالسبري وقد انتظموا بشكل رائع ، وعدد كبير آخر ، وكـان الوقـت حوالي وقـت المغيب ، في سـاعة العشـاء ، عندمـا استعد هـؤلاء الشجعان مع المرشحين الأعظم روعـة للهجوم على البرج ، وتقدموا حتى استطاعوا بكل جرأة صعوده .

وعندما رآهم الخفـراء من الترك صرخوا بصوت مرتفع فـأيقظوا المدينة كلها ، وحمل الرجال السلاح بكل سرعـة ، وبادروا يركضون بأعداد كبيرة ليتولوا الضغط على المهاجمين الذين كانوا يشقون طريقهم برشاقة .

وبينما رجالنـا يحاولون دخـول المدينة سعـى الترك الى ردهم الى الخلـف ، وقد اصطـدموا مـع بعضهم بعضاً وتقـاتلوا يداً بيـد، وواجهت يـداً يمنى ، وقارع سيف سيفـاً آخر ، وأمسك بعضهم ببعضهـم الآخر ، وضرب بعضهم بعضهم الآخر ، وتم رد بعضهم وقتل بعضهـم الآخر ، وكان تعداد رجالنا قليلاً ، غير أن أعـداد الترك كانـت بإزديـاد مستمر ، وبـرميهم للنفـوط ، أرغموا رجالنـا الذين لم يستطيعوا الصمود أمامهـا ، على التقهقر والنزول

من البرج ، وذلك بعدما قتل بعضهم على أيدي الأعداء ، ثم أحرقوا وتحولوا الى رماد بخلطات موادهم المدمرة، ثم تسلق البيازنة البرج بكل قوة ، وكانوا إما ظامئين للثناء أو متعطشين للانتقام ، ومن جديد قاتلهم الترك وكأنهم مجانين ، وصحيح أن البيزيين قاوموا بجرأة ، فقد أرغموا على التقهقر والتخلي عن البرج ، ولم ير قط ما يشبه الأتراك بالكفاءة والمقدرة بالحرب .

ولقد كان من الممكن الاستيلاء على المدينة في ذلك اليوم لو أن المعركة حوربت وفق خطة حكيمة بوساطة الجيش كله موحداً ، ولكن بما أن الجزء الأعظم كان وقتها يتناول العشاء ، كانت المحاولة محاولة احتمالية ولذلك لم تنجح .

كيف أبرم المحاصرون معاهدة مع المسيحيين وكيف تمت استعادة عكا

ماالذي يمكننا قوله حول هذا الجنس من غير المؤمنين الذين دافعوا على هذه الشاكلة عن مدينتهم ؟ إنهم ممن ينبغي الاعجاب بهم ، لشجاعتهم في الحرب ، ولقد مثلوا شرف أمتهم جمعاء ، ولو أنهم اتبعوا الايمان الصحيح ، لما وجدوا من يتفوق عليهم بين رجال العالم أجمع ، ومع ذلك ليس من دون سبب خافوا من رجالنا ، ذلك أنهم رأوا النخبة بين الجنود من بين جميع صفوف المسيحيين جاءوا لتدميرهم ، وأن جزءاً من أسوارهم قد سقط ، وجزءاً قد انشطر ، والجزء الأكبر من جيشهم قد تشوه بفعل الحرب ، وبعضهم قتل ، وآخرون قد أضعفتهم جراحهم .

وكان ما يزال في المدينة ستة آلاف من الترك مع المشطوب وقراقوش المقدمين عليهم ،وكانوا قد يئسوا من النجاح واعتقدوا بأن الجيش المسيحي كان قد وهنت عزيمته كثيراً لمقتل ألبيرك كليمنتس ولمصرع أبناء رجاله وأقربائهم ، الذين سقطوا في المعركة ، ورأوهم أيضاً أنهم كانوا مصرين إما على الموت بشجاعة أو تحقيق الفوز ولهذا فكروا بسلوك طريق شبه مذل ، وفي ظل الظروف ، التمس المحاصرون ، بعد اجتماع عام ، وموافقة جماعية ، الحصول على هدنة بغية إخبار صلاح الدين حول أحوالهم ، وللتأكد إلى أي مدى سوف يمنحهم الأمن ، وفقاً لطبائع الشعوب الهمجية ، إما بأن يرسل اليهم مساعدة عاجلة ، أو أن يسمح لهم بمغادرة المدينة والخروج منها بشرف .

وبغية الحصول على هذا الهدف ، جاء إثنان من أعلى المسلمين والكفار مرتبة وهما : المشطوب وقراقوش ، إلى ملوكنا مع وعد بأنه إذا لم يبعث صلاح الدين لهم بمساعدة عاجلة ، سيتخلون عن المدينة على شرط أن يسمح لجميع الأتراك المحاصرين بالمغادرة أحراراً ، وأعطى

ملك فرنسا وتقريباً جميع الحضور من الفرنسيين في المؤتمر ، موافقتهم ، لكن الملك رتشارد رفض بإصرار هذا ، وبعدما بات معلوماً ما يرضيه ، عاد قراقوش والمشطوب الى المدينة دون الوصول الى ما استهدفاه .

وعندما علم صلاح الدين بأن رسلاًقد بعثوا من قبل المحاصرين ، أمرهم بالحفاظ عن المدينة والدفاع عنها بالقدر نفسه من الشجاعة التي أبدوها حتى الآن ، ووعدهم بوفرة كبيرة من المساعدات ستأتي حالاً إليهم ، ذلك أنه أعلن للرسل الذين جاءوا من عندهم اليه ، أنه بلا شك سوف يتابع الصمود ، وأنه كان يتوقع وصول كتلة كبيرة من الجند من مصر ، سوف يصلون بسفن وشواني ، وأصدر أوامره الى قائده المشطوب أن يبقى على اتصال به بدون انقطاع لمدة ثمانية أيام ، فإذا لم تصل المساعدات حسب اتفاقهم فقد وعد ووثق وعده باليمين ، أنه سيحصل للمحاصرين داخل عكا على سلام مشرف ، بقدر ما يستطيع ، من المسيحيين ، وأن يضمن حريتهم بالخروج ،وعندما سمع الرسل هذه الأشياء ، عادوا إلى عكا ، وكرروا وعود صلاح الدين ، وأقنعوا رجال البلدة بالمقاومة ، وذلك في الوقت الذي كانوا ينتظرون فيه بقلق وصول المساعدات الموعودة .

وفي الوقت نفسه لم يتوقف منجنيق المسيحيين لا بالليل ولا بالنهار ، لضعضعة الأسوار ، وعندما رأى الترك هذا ، أصيبوا بالحيرة والدهشة ، والرعب والاضطراب ، وألقى كثير منهم لشدة رعبهم أنفسهم من فوق الأسوار خلال الليل ، ولم ينتظروا وصول المساعدات الموعودة ، والتمسوا بتضرع تعميدهم وعدهم مسيحيين .

وأدرك صلاح الدين مخاطر التأخير ، ولهذا قرر بعد طول تفكر أن يقبل بمطالب المحاصرين ويسلم بقرارهم ، وقد اقتنع بأن يفعل ذلك بضغط من أمرائه وقادته ، وذوي النفوذ من رجال ادارته .

وبعدما جلب الرسل قرار صلاح الدين الى المحاصرين ، امتلاوا بسرور عظيم ، وتوجه على الفور أعيان المدينة الى الملكين ، وعرضوا من خلال المترجمين تسليم مدينة عكا بدون شروط مع صليب الصلبوت ومائتين وخمسين من أعيان أسرى المسيحيين ، وعندما أدركوا أن هذا العرض لم يرضهما عرضوا تسليم ألفين من نبلاء أسرى المسيحيين ، وخمسمائة من ذوي المراتب الأدنى ، وهؤلاء سوف يتولى صلاح الدين جمعهم من كل أجزاء مملكته ، وذلك إذا ما تركا الترك يغادرون مدينتهم ، بثيابهم التي عليهم فقط ، تاركين وراءهم أسلحتهم وممتلكاتهم ، ولسوف يدفعون فدية عن أنفسهم مائتي ألف دينار إسلامي ، وكضمانة لتنفيذ هذه الشروط عرضوا وضع جميع الأعيان وذوي المراتب الرفيعة من أهل المدينة بمثابة رهائن في أيديهم .

وبعدما تولى الملكان مع أكثر المقدمين حكمة تفحص المسألة ، كان القرار الصادر عن الجميع هو قبول العرض والموافقة على الشروط ، مقابل تأدية الأيمان ، وكتابة شروط السلام ، وإذا ما سلم المحاصرون الرهائن أولاً يمكنهم التخلي عن المدينة ومغادرتها دون أن يحملوا أي شيء معهم .

وبناء عليه ، جرى يوم الجمعة ، بعد انتقال القديس بندكت ، تسليم الأعيان الرئيسيين والأمراء ، وأخذوا بمثابة رهائن ، وحدد موعد شهر واحد من أجل تسليم الصليب وجمع الأسرى ، وعندما أشيع في الخارج أن المدينة قد تم التخلي عنها ، اشتعل العامة - بحماقتهم - غضباً ، لكن الجزء الأكثر حكمة ابتهجوا ، تجاه هذه الصفقة الرابحة ، بدون مخاطر ، فهذا ما عجزوا عن تحقيقه منذ وقت طويل .وأعلن وقتها بصوت المنادي وجوب ألا يتعرض أي انسان بالإهانة للترك بالقول أو بالعمل ، وألا يثيروهم بالشتائم ، وأن يجري التوقف عن ارسال الرمايات من أجل تدمير الأسوار ، أو نحو الأتراك الذين يمكن رؤيتهم وراء الشرافات

، وعندما جاء اليوم الموعود ، ووقف الأتراك وظهروا فوق الأسوار جاهزين لمغادرة المدينة ، توجه المسيحيون نحو الأمام لينظروا اليهم ، واستبد بهم العجب عندما تذكروا الأفاعيل التي قاموا بها ، ودهشوا أيضاً لرؤية مظاهر البشر على وجوه هؤلاء الذين أخرجوا من مدينتهم وهم أقرب الى الإفلاس المالي ، ولم يتغير سلوكهم بسبب المحنة ، أما أولئك الذين أرغمتهم الضرورات القصوى على عدّ أنفسهم مهزومين ، وأن يلجأوا بأنفسهم الى التضرع لطلب العون ، فلم يحملوا أية علامات على الاهتمام والقلق مطلقاً ، وهم يتقدمون نحو الأمام ، ولم تظهر عليهم أدنى اشارات على الأسى لفقدانهم كل ما ملكوه ، وهكذا بدوا بتماسكهم وجلدهم الذي ظهر في محياهم ، أنهم هم المنتصرون ، وذلك لولا كفرهم وذنوبهم التعيسة التي اقترفوها ، فلطخت أمجادهم العسكرية .

وأخيراً بعد ما غادر جميع الترك ، دخل المسيحيون وعلى رأسهم ملكيهم الى المدينة من خلال الأبواب المفتوحة ، دخلوها وهم يرقصون ويبتهجون ، ويغنون بأصوات عالية تسابيح للرب، مع تقديم الشكر له والحمد ، لأنه أنزل رحمته عليهم ، وزارهم، وخلص شعبه .

ثم رفعت الرايات ومختلف الأعلام العائدة للملكين فوق الأسوار والأبراج ، وقسمت المدينة بالتساوي بينهما ، كما وزعا بينهما بشكل عادل الأسلحة والمؤن التي وجداها ، وجرى احصاء أعداد الأسرى ،ثم وزعوا بالتساوي ، ونال الملك الفرنسي في حصته قراقوش مع عدد كبير آخر ، وكان المشطوب والبقية حصة الملك رتشارد، زد على هذا أخذ ملك فرنسا ضمن حصته قصر الداوية مع كل امتيازاته وجميع ملحقاته ، وأخذ الملك رتشارد القصر الملكي ، واليه أرسل الملكتين مع وصيفاتهن وخدمهن ، وهكذا تملك كل واحد منهما حصته بسلام ، وجرى توزيع الجيش في أرجاء المدينة ، وأعطى أفراده لأنفسهم بعد صراع مرير لحصار طويل الغفران، وجددوا نشاطهم بالراحة التي كانوا بحاجة اليها .

وكانـت المدة التي انقضت فيها بين يـوم استيلاء المسلمين على مـدينة عكا، واليوم الذي أعقب عيد القديس بندكت، الذي فيه استردت، أربع سنـوات، وكان مـن غير الممكن تفحـص أوضاع الكنـائس دون الاصابـة بالـرعب، ولم نتمكـن من دون الشعور بـالألم حكايـة الأشياء غير الـلائقة التي اقترفـت فيهن، لأنـه من الذي يمكنـه أن يقف بـدون دموع عنـدما ينظر إلى مظهـر التماثيل المقدسـة لصلب ابـن الرب، وصور عـدد كبير من القديسين وقد لطخـت أو شوهت بوسيلـة أو أخرى؟ ومن هو الـذي كان لـن سيرتجف رعباً أمـام المنظـر المخيف للمـذابـح وقـد قلبت، وأشكـال الصلبـان وقد ألقيـت على الأرض وديست احتقـاراً من قبـل تلك الأمـة المهينة وغير التقيـة، أي أمة الترك، وطمسـت جميع آثـار خلاص الانسـان والمتعلقة بالديـانة المسيحية، وجرى عرض ماتعلق بـالشعائر الاسلامية في الأماكن المقدسة.

وتراجـع صلاح الديـن في الليلة التي أعقبت دخـولنا، لخوفه منـا، من مكانه الذي كان متمركزاً فيه إلى واحد من أبعد الجبال.

- ٨٧٧ -

حول الخصام بين الملكين

ونشب الآن خصام شديد بين الملكين حول مركيز مونتفرات، الذي آثره ملك فرنسا، والذي إليه قرر أن يمنح الحصة التي وقعت إليه الآن أو في المستقبل، في الأراضي المقدسة، لكن الملك رتشارد الذي شعر بالعطف نحو تعاسة الملك غي، لم يكن ليوافق على هذا العطاء، لأنه رأى أن كل شيء هو عائد إلى الملك غي وملك له.

وعاش الملكان في فراق حول هذه المسألة لبعض الوقت، حتى تصالحا بناء على وساطة المقدمين وقادة الناس، وقضى الصلح أن يعدّ المركيز هو الوريث عن طريق الزواج للعرش، وينبغي أن يعطى حكم صور (أي: صور، وصيدا، وبيروت) مع لقب كونت، وذلك كتعويض له عن المساعدة التي قدمها أثناء الحصار، وتوجب أيضاً أن يكون غودفري دي لوزغنان، لكونه أخي الملك غي، كونت يافا (أي: يافا وعسقلان) وذلك كتعويض على خدماته، وإذا مامات غي قبل المركيز، ينبغي أن يؤول التاج إلى المركيز، مع أنه تزوج من وريثة العرش بشكل غير شرعي، لكن إذا ماحدث وتوفي المركيز وزوجته، أثناء إقامة الملك رتشارد في هذه المناطق، فوقتها يترك إليه التصرف بمنح المملكة حسبما يشاء؛ وعلى أساس هذه الشروط انتهى الخلاف بينهما إلى الأبد.

لقد كانت هكذا الأوضاع عند نهاية شهر تموز، وهو الشهر الذي وعد الترك أنهم سيعيدون خلاله صليب الصلبوت، وبالمقابل يستعيدون الرهائن، وشاعت أخبار بين عناصر الجيش أن ملك فرنسا (الذي رست عليه آمال الناس) عازم على العودة إلى وطنه، وكان يعد اعداداً حثيثاً لرحلته، ولكم كان سيئاً ومهيناً القيام بمثل هذا العمل، وأن تتوفر الرغبة فيه، في حين مازال هناك الكثير من العمل للقيام به، وأن يذهب في حين

أن واجبه كان يقضي عليه أن يتولى حكم هذا الحشد الهائل من الناس، وعندما كان وجوده ضرورياً جداً لتشجيع المسيحيين على متابعة مثل هذا العمل الديني المقدس، وأن يسهم في تقدم مثل هذا الواجب الثقيل، فلماذا جاء عبر هذا الطريق الطويل، وتحمل هذه المشاق، إذا كان قد عزم على العودة مباشرة تقريباً! وهل هو انجاز رائع وتنفيذ لتعهده، بمجرد الدخول إلى الأراضي المقدسة، والنضال ضد الترك، ومن ثم الحصول على مثل هذا النصر الصغير!

وادعى الملك الفرنسي أن سبب عودته هو المرض*، وقال بأن وفى بنذره بقدر ما استطاع، وفي الحقيقة لايجوز أن ننكر أنه بذل كثيراً من الجهد والمال في الأراضي المقدسة، وفي الهجوم على المدينة، وأنه أمن المساعدة لعدد كبير من الناس، وأنه بفضل نفوذه ووجوده تحقق بشكل أسرع تنفيذ الاستيلاء على عكا.

لكن عندما بات قراره الثابت بالعودة معروفاً لدى الجميع، وعندما رفض التراجع أمام عدد كبير من رجاله، ولم يستجب لالتماساتهم بالبقاء، كان الفرنسيون، لو استطاعوا، على استعداد للتخلي عن طاعتهم له، ولاشمأزوا من حكمه، وحدث أن أنزلوا عليه كل أنواع اللعنات، وأماني السوء، والحظ العاثر، وغير ذلك مما يمكن أن ينزل بانسان خلال حياته، ومع ذلك كله، أسرع ملك فرنسا في رحلته، وبالمغادرة كيفما استطاع، وترك عوضاً عنه دوق بيرغندي مع عدد كبير من رجاله، زد على هذا التمس من الملك رتشارد أن يزوده باثنتين من شوانيه، وأعطاه الملك اثنتين من أحسن ماكان لديه، ولكم كان غير وفي وناكر لخدماته هذه، هذا ماسوف يرى فيما بعد.

*— بالاضافة إلى مرضه، شك الملك الفرنسي بالاتصالات التي جرت بين رتشارد وصلاح الدين، كما أنه كان يرغب بالعودة ليستولي على فلاندرز التي توفي كونتها أثناء حصار عكا.

ورأى الملك رتشارد وجوب دخول ملك فرنسا في ميثاق معه من أجل الحفاظ على أمنهما المتبادل، لأنهما مثل آبائهما نظرا إلى بعضهما بعدم ثقة تحت غطاء الصداقة، ولهذا طلب الملك رتشارد من ملك فرنسا أداء يمين له أنه سيبقى وفياً له، ولن يؤذي رجاله أو بلاده عن معرفة أوبقصد، مادام الملك رتشارد باقياً في الأراضي الأجنبية، وأدى له ملك فرنسا اليمين وأعطاه دوق بيرغندي والكونت هنري بمثابة رهينتين وذلك مع خمسة آخرين أو ستة، فقدت أسماؤهم، ومعروف للدنيا كلها كيف حافظ على ميثاقه ويمينه، ذلك أنه ماأن وصل إلى بلاده حتى أهاجها، وسبب الاضطراب لنورماندي.

وودع ملك فرنسا جيشه وتركه في عكا، وتلقى عوضاً عن التبريكات، الأماني بسوء المنقلب واللعنات من الجميع، وبناء عليه صعد ظهر السفينة في يوم عيد القديس بطرس، وأبحر نحو صور، ولكنه ترك الشطر الأعظم من جيشه مع الملك رتشارد، وأخذ معه المركيزات غير المشهورين وقراقوش والرهائن الآخرين الذين كانوا ضمن حصته، وقدر أنه سوف يتسلم مقابل فديتهم مائة ألف قطعة ذهبية أو أكثر، مما سيكفي جيشه والانفاق عليه حتى الفصح.

لكن لدى إيماءته إلى الترك حول التباحث بشأن الفدية، لم يلتفتوا إليه، وكان واضحاً أنهم لم يكونوا على استعداد لدفع بيضة أو ريشة مقابل اطلاق سراحهم، ولهذا مات أكثر الرهائن على هذه الصورة ولم يدفع شيء، ومامن أحد ربح شيء مطلقاً، ولاحتي أية حصة من المؤن التي وجدت في المدينة، واعتاد الفرنسيون دوماً أن يتذكروا أنهم لم يتسلموا من ملك فرنسا زيادة على هذه المكافأة، ولهذا السبب غالباً ماقامت المشاحنات والخصومات فيما بينهم حتى قام الملك رتشارد — بناء على طلب من دوق بيرغندي — فأدانه، زيادة على مالديه من رهائن خمسة آلاف مارك فضي للانفاق على رجاله.

وعندما أدرك الملك رتشارد أن إكمال الأعمال، وتقدم الشؤون، مع الجهد والانفاق بات واقعاً عليه بشكل رئيسي، قدم هبات كثيرة من الذهب والفضة إلى الفرنسيين وإلى الآخرين من كل أمة من الأمم، حتى يجندوا أنفسهم له عن رغبة، ولينقذوا ماتعهدوا القيام بانقاذه.

وإثر عودة ملك فرنسا مسرعاً إلى بلاده، حول الملك رتشارد جميع اهتمامه نحو ترميم الأسوار، ورفعها إلى علو كبير، وجعلها أكثر كمالاً مما كانت عليه من قبل أن يطاح بها،ومشى هو نفسه حول الأسوار، وحث العمال والحجارين، وكأن اهتمامه كله هو النضال من أجل استرداد ميراث الرب.

وبناء عليه انتظر الموعد الذي تم الاتفاق عليه بين الترك وبينه شخصياً، وصرف انتباهه نحو اعداد الآلات والمجانيق لشحنها، وعندما مضى الوقت الذي حدده الترك من أجل رد الصليب وفدية الرهائن، انتظر لمدة ثلاثة أسابيع مراعاة للاتفاق، ليرى فيها إذا كان صلاح الدين سيحفظ كلمته وميثاقه، ثم إنه لما ظهر أن صلاح الدين لم يكن مبالياً بالموضوع، عدّه الملك ورآه بمثابة منتهك لمواعيده، ولعل هذا كان تدبيراً ربانياً، حتى يمكن تحصيل شيء أعظم فائدة، غير أن المسلمين طلبوا منحهم وقتاً أطول للوفاء بوعودهم، وليبحثوا عن الصليب.

ثم كان عليك أن تستمع إلى المسيحيين وهم يسألون عن الأخبار، ومتى سيأتي الصليب، وكان أحدهم يقول متسائلاً:«الصليب قادم»! ويقول آخر بأنه رأى الصليب في الجيش الاسلامي، لكن كل متحدث كان مخدوعاً، لأن صلاح الدين لم يتخذ أي اجراء لاسترداد الصليب، لابل أهمل الرهائن الذين كانوا محتفظ بهم من أجله، ذلك أنه أمل أن يحصل بوساطته على المزيد من المنافع والشروط المفيدة، وأرسل بالوقت نفسه هدايا ورسائل متواصلة إلى الملك رتشارد حتى يربح التأخير بكلمات مزخرفة ومخادعة.

وأرسلت بالوقت نفسه رسائل إلى صور، لأمر المركيز أن يعود إلى الجيش، وليجلب معه الرهائن التي عهد بها إليه، وذلك من أجل الحصول على فديتهم، ورد المركيز على هذه الرسائل بشكل ساخط، في أنه لايتجرأ على المغامرة ليمثل بحضرة الملك رتشارد، وزيادة على هذا تبجح قائلاً أنه إذا ماجرى استرداد الصليب، يتوجب أن يسلم إليه النصف وهو حصة ملك فرنسا، وأنه مالم يتحقق هذا، هو لن يتخلى عن الرهائن، وسعى الرسل إلى اقناعه بوساطة الوعظ اللطيف، وعرضوا عليه أن يتركوا واحداً منهم بمثابة رهينة، وذلك كضمانة على أمانه أثناء الرحلة، وأن ذلك من قبل الملك رتشارد، لكنهم لم يفلحوا في اقناعه، لابل أكثر من هذا لقد أشفع رده بعدم العودة بيمين، ولهذا عادوا مخفقين، وفارغي الوفاض، وزادوا من تأجيج غضب الملك باخباره بالقصة كلها.

وجرى ارسال دوق بيرغندي، ودروغو دي أمين Amiensوروبرت دي كو نسي Quincey بسفارة ثانية إلى المركيز المذكور، ليأتي معهم إلى الجيش، غير أنه رد عليهم بعجرفة واحتجاج أنه لن يذهب، وسيحافظ على حكمه لمدينته، وعندما ردوا على تأكيداته بحجج مناقضة، أمكن الوصول بالمسألة بعد صعوبات إلى النقطة التالية: يتوجب على الرسل أن يأخذوا معهم الرهائن المسلمين إلى الملك رتشارد، لكنهم لم يستطيعوا بكل وسائل الاقناع التغلب على المركيز حتى يتحول عن نواياه العنيدة.

وعندما بات واضحاً للملك رتشارد، أن مدة أطول مما هو مقرر قد مرت، وأن صلاح الدين ماضي في عناده، ولن يعبأ بفداء الرهائن، عندها دعا إلى اجتماع لأعيان الناس، حيث تقرر بالاجماع وجوب شنق جميع الرهائن باستثناء عدد قليل من النبلاء وأصحاب المراتب العالية، الذين يمكنهم فداء أنفسهم، أو مبادلتهم ببعض الأسرى المسيحيين.

وفي يوم الجمعة بعد عيد صعود مريم العذراء المباركة (١٥ آب)، ألهم

الملك رتشارد بوجوب تدميرأصول وفروع الترك، وإنزال العقاب برعونتهم الداعرة، وكذلك ازالة الشريعة الاسلامية، ونشر الديانة المسيحية، وبناء عليه أمر بسوق ألفين وسبعمائة من الرهائن الأتراك إلى خارج المدينة، وشنقهم، وتقدم جنده بسرور عظيم لتنفيذ أوامره وللانتقام، بموافقة النعمة الربانية، من هؤلاء الذين قتلوا كثيراً جداً من المسيحيين.

وعند حلول المساء تم الاعلان بصوت المنادي بوجوب زحف الجيش في الغد، وعبور نهر عكا باسم الرب، موزع الأشياء الجيدة، وذلك بغية الزحف نحو عسقلان، والاستيلاء على تلك المناطق البحرية، وصدرت الأوامر أيضاً أنه ينبغي على السفن أن تحمل على ظهرها مؤونة عشرة أيام للجيش، من البقسماط ، والوجبات واللحوم، والخمرة، وكل مايرى ضرورياً أيضاً، وقضت الأوامر على بحارة سفن الشحن والنقل التي حملت الميرة وكذلك رجالاً مسلحين، الالتزام بدقة الابحار على محاذاة الشاطىء، وهكذا تقدمت القوات على محورين، واحد في البحر وآخر في البر، لأنه كان من غير الممكن الاحتفاظ بالمنطقة وهي مشغولة تماماً من قبل الترك.

كيف نصب الملك رتشارد خيامه خارج عكا

في خلال الشتائين والصيف الواحد وإلى وسط الخريف عندما جرى شنق الأتراك (لأنهم استحقوا ذلك أمام الرب والبشر، مقابل تدميرهم لكنائسنا وقتلهم لرجالنا) مات كثير من المسيحيين الذين اشتركوا في حصار عكا وضحوا تضحيات عظيمة، وكان الحشد الذي مات من هذا الجيش العملاق أكبر من أن يحصى، ولقد فقدنا في الجيش ستة رؤساء أساقفة وبطارقة، واثني عشر أسقفاً، وأربعين كونتاً، وخمسمائة رجل من طبقة النبلاء، وكذلك عدداً كبيراً جداً من الكهنة ورجال الدين، مع آخرين من غير الممكن تعدادهم بشكل صحيح.

وعوفي الملك رتشارد إثر شنق الأتراك مباشرة، وبناء عليه خرج من المدينة مع حاشيته كلها، وأمر بنصب خيامه في السهل خارج المدينة، وبذلك اتخذ الجيش محلاته فوق السهل، ليكون جاهزاً للزحف، وجرى جذب بعض الفرنسيين بالكلمات الناعمة، وآخرين بالتوسل والرجاء، وكثير منهم بالمال، وذلك لمغادرة أماكنهم، وأرغم الملك بعضهم على الخروج بالقوة.

ولكن وضح أنهم خرجوا متثاقلين ومتذمرين، ولم يزدد تعداد الجيش، بينما كانت المدينة تعج بحشد هائل، وبلغ تعداد الجيش، بما فيهم الذين كانوا بالمدينة، ثلاثمائة ألف رجل.

واعتاد الناس على التراخي والرفاهية، لأن المدينة كانت مليئة بالمسرات حيث توفرت أفضل أنواع الخمور وأجمل الفتيات، وانغمس الناس بمفاسدهم، وهكذا تدنست المدينة بموبقات أبناء الخطيئة، وبينهم سكانها الذين جعلوا وجوه العقلاء تحمّر خجلاً من انعدام حيائهم، ومن أجل التخلص من هذه الموبقات صدرت الأوامر عن

اجتماع المجلس بمنع أي امرأة بالخروج من المدينة أو الذهاب مع الجيش، فيما عدا الغسالات اللائي لن يكن حملاً على أفراد الجيش، ولن يهيئن الفرصة للذنوب.

ثم عين الملك رتشارد عدداً كبيراً من الحرس للإقامة حول سرادقه من أجل حمايته، لأن الترك كانوا يقومون بغارات مستمرة، وقد اعتادوا طوال النهار القدوم والانقضاض عليهم وهم غير متنبهين، وكانت عادة الملك أن يكون الأول في الخروج إلى قتالهم وانزال العقوبة بهم، بقدر ماكانت العناية السماوية تسمح له.

وحدث في أحد الأيام أن وضع معسكرنا في حالة هياج بوساطة الترك، الذين هاجمونا وأحدثوا اضطراباً كبيراً، وهب رجالنا على الفور لحمل السلاح، واندفع الملك وفرسانه نحو الأمام، وكذلك كونت هنغاريا وكثير جداً من الهنغاريين معه، وقد أرغموا الترك على الفرار، وطاردوهم أبعد مما كان ينبغي أن يفعلوا، وأخذ بعض رجالنا أسرى في تلك البقعة وعوملوا معاملة مشينة مع أنهم تصرفوا تصرفات نبيلة جداً.

وأخذ كونت هنغاريا نفسه أسيراً من قبل الترك مع أنه كان رجلاً مجرب الشجاعة وشهيراً، وحمل بعيداً وكذلك رجلاً من بواتو اسمه هيوج، وكان مارشال الملك رتشارد، وقاتل الملك بلا وعي، ودون أن يعبأ بسلامة شخصه، وناضل بكل ماأوتيه من قوة لانقاذ مارشال هيوج، لكنه أسر بسرعة كبيرة جداً وحمل بعيداً، فلكم هو مصير الحرب غير مؤكد، فهؤلاء الذين حتى الآن منتصرين غالباً ماانهزموا ، وترى غداً الذين انهزموا فجأة منتصرين، ولقد كان مقدراً على الذين هزموا العدو أن يسقطوا هم أنفسهم ويموتوا، لأن المطارَدين الآن أصبحوا أسرى المطارِدين، والذي كان مدوناً لهم مجداً تبرهن الآن أنه حماقتهم، وغدت أفاعيل الشجاعة السبب للمخاطر.

ولم يكن الترك مثقلين بـالسوابـغ والدروع مثـل رجالنـا، وآذونا بمـرونة حركتهم وسهولتهـا بشدة أكثر مما كان متوقعاً، وكان سـلاحهم في الغالب سلاحاً خفيفاً، يحملون فقط قوساً أو دبوساً مسلح رأسه بأسنان حادة، أو بسيف أو برمـح خفيف سنانه من حـديد، ومدية معلقـة بشكل خفيف، وعندمـا يهزمون من قبل قـوة أعظم من قواهـم، كانوا ينهزمـون ويبتعدون على ظهـور خيولهم بـأقصـى سرعة ممكنـة، وليـس هنـاك من يـوازيهم في رشـاقتهم في جميـع أنحاء العـالم، ومن عـادتهم أنهم إذا مارأوا مطـارديهم توقفوا عن المطاردة، الانعطاف والعودة، ومثلهـم في ذلك مثل الذبابة، إذا ماطـردتها تذهب، لكـن عندما تتـوقف سوف تعـود، ومادمت تطـاردها، تـراها تطير، لكنهـا تعاود الظهـور في اللحظة التـي تتوقـف فيها، وهكـذا الأتـراك عندمـا تتوقـف عـن مطاردتهم يطـاردوك، وإذا قاتلتهـم يطيرون بعيداً، وبناء عليه عندما جعلهم الملك يفـرون، هربوا بدون توقف، ولكن عنـدما تـوقف ليعـود، هددوه مـن الخلف، وأحيـاناً ليـس بدون عقـاب، وأحياناً ليس بدون الحاق الأذى برجالنا.

وفي صباح اليـوم الذي كنا سنـزحف فيـه نحو عسقلان، سلـح الجنود أنفسهم، وأصبحوا مستعدين في تعبئة كاملـة، وبقي الملك نفسه في ساقة الجيش لصد الترك الذين هددوا باثارة المتاعب، ومن اللحظة التي شاهد فيها هذا الجنس البعيد عن التقوى، جيشنـا يتحرك، تدفقوا من الجبال في مجموعـات متفرقة، مثـل المياه المندفعـة، ووزعوا أنفسهم في مجمـوعات في كل منها مابين العشرين إلى الثلاثين، بحثـاً عن أفضل الفرص لمضايقتنا، ذلك أنهم كانوا مزعوجين جداً لموت آبائهم وأقربائهم، الذين رأوا جثثهم المقتـولـة مـوزعـة في المنطقـة هنـاك، ولهذا ضغطـوا بشـدة على جيشنـا بـاستمرار، لكـن بفضل العنـاية الـربانيـة لم ينجحوا بقـدر مارغبـوا، لأن جيشنا عبر فوق نهر عكا دونما أذى، ومن جديـد نصب خيامه على الطرف الآخر من النهر حتى يوم الجمعة، (وهو عشيـة يوم عيد القديس بارثلميو)

ففي ذلك اليوم احتشدوا مع بعضهم، ومع يوم الاثنين التالي كان قد مضى عامان منذ أن بدأ المسيحيون بإلقاء الحصار على عكا.

وفي صباح اليوم الذي أعقب عيد القديس بارثلميو، اصطف الجيش ليزحف على طول شاطئ البحر باسم الرب، ولكم كان جيشاً رائعاً بجند ممتازين، فقد كان بإمكانك أن ترى هناك جماعة من نخبة الشباب ذوي الفضائل والشجاعة، كان من الصعب أن تقابل من يوازيهم،أسلحة براقة، وأعلام ذات زخارف مشعة، ورايات ذات أشكال متنوعة، ورماح ذات أسنة لامعة، وخوذ مشرقة، وكذلك الدروع والسوابغ، فلقد كان جيشاً تمت تعبئته بشكل جيد في المعسكر، وكان جيشاً مرعباً للعدو.

- ٨٨٧ -

كيف زحف الجيش نحو عسقلان

وقاد الملك رتشارد الطليعة، واحتفظ بخيرة الحراس وأعلاهم كفاءة وكانوا من النورمان للدفاع عن الراية، ونحن لانرى هنا خروجاً عن الموضوع الاقدام على وصفها، فقد كانت مكونة من جزع شجرة طويل مثل صاري السفينة، منتخب من أصلب أنواع الخشب، ووضع فوق أربعة دواليب (عجل)، وجرى ربط الجميع بأربطة حديدية، وبذلك بدت أنه لاسيف أو بلطة يمكن أن تقطعها، كما لايمكن للنار أن تؤذيها، وجرت العادة باختيار كوكبة من الجنود وتعيينها لحراستها، خاصة أثناء المعارك في السهول، وذلك خشية أنها إذا ماتعرضت لهجوم معادي أن تحطم أو تلقى أرضاً، لأنه إذا حدث وسقطت لسبب ما، فالجيش كله سيتمزق وتضطرب أحواله، وإذا لم تظهر، يشعرون بالرعب، ويعتقدون أن قائدهم لابد وقد أصيب إصابة أفقدته وعيه، ومامن شعب يمتلك القدرة على مقاومة عدوه إذا كان مقدمه في وضع خطر منذ زمن سقوط الراية، لكن إذا بقيت مرفوعة، لديهم وقتها ملاذ يعودون إليه، فبجانبها يقوى الضعفاء والجنود الجرحى (حتى من أصحاب المراتب والشهرة)، وكذلك الذين يسقطون في المعركة يحملون إلى قربها، وتدعى الراية العظمى، لأنها أعظم شعار وشارة للجيش في أثناء القتال، وموائم كثيراً جرها فوق العجلات، لأنه عندما يتراجع العدو تتقدم، وإذا ماحدث العكس يجري جرها إلى الخلف وفقاً لأوضاع المعركة.

وجاء دوق بيرغندي مع الفرنسيين في الساقة، وسببت حركتهم البطيئة وتأخرهم الطويل، وقوع خسائر كبيرة، وزحف الجيش على محاذاة شاطىء البحر، الذي وقع على يمينه، وراقب الترك تحركاته من أماكن مرتفعة على اليسار، وفجأة أصبحت الغيوم داكنة، واضطربت السماء، وعندما وصل الجيش إلى واحد من الطرق الضيقة، الذي لايمكن عبوره بسبب عربات

المؤن، هنا تخلى الجيش عن نظام تعبئته، بسبب ضيق الطريق، واضطربت أحواله، وبات الزحف في خط طويل، بدون نظام.

وما أن رأى المسلمون هذا، حتى تدفقوا فجأة على دواب الحمولة، وعلى عربات الأثقال، وفي لحظة قتلوا الخيول والرجال، وسلبوا كثيراً من الأثقال، وهاجموا بجرأة الذين تصدوا لهم وشتتوهم بعيداً حتى شاطىء البحر، ثم أعقب هذا نشوب صدام عنيف، قاتل فيه كل انسان في سبيل حياته، ووقتها قطع الترك اليد اليمنى لإفرارد الذي كان من رجال أسقف سالسبري، قطعوها وهو ممسك لسيفه بها، ودون أن يبدل الرجل من تماسكه العام ومظهره شيئاً تناول السيف بشجاعة بيده اليسرى، والتحم بالترك الذين كانوا يضغطون عليه، ودافع عن نفسه بشجاعة ضدهم، وفي هذه الساعة اضطربت الساقة وتشوشت كثيراً، وخشي جون فتزر لوك من تردي الأوضاع، فغمز بمهازيه حصانه ومضى إلى الملك رتشارد الذي كان جاهلاً بما كان يحدث.

ولدى سماعه بهذا، بادر مسرعاً تمام السرعة، لمساعدتهم، ومزق الترك من على اليمين واليسار، بسيفه مثل البرق، وبسرعة انهزم الترك الآن، مثلما هرب الفلسطينيون في الأيام الخوالي من المكابيين، على هذه الشاكلة فروا من أمام الملك رتشارد، واتجهوا نحو الجبال، لكن بعضهم بقي بيننا بسبب فقدانهم لرؤوسهم.

وحدث في أثناء هذا القتال أن أحد الفرنسيين، واسمه وليم دي بارتي Bartis ، وكان على خلاف مع الملك رتشارد بسبب حسد قديم، قد تصالح معه، ورده الملك إلى حظيرته بفضل حسن تصرفه غير الاعتيادي.

ولم يكن السلطان بعيداً ومعه كل القوة الرئيسية لجيشه، لكن الترك يئسوا من النجاح بسبب هذه الحملة الموفقة، لذلك تمنعوا عن المزيد من قتال رجالنا، مرة ثانية، لكن تابعوا مراقبتهم من المرتفعات، وعندما

انتظم رجالنا مرة ثانية، تابعوا زحفهم حتى النهر الذي التقوا به صدفة، ولوجود صهاريج مياه جيدة استفادوا منها، نصبوا خيامهم هناك وارتاحوا ليستفيدوا من السهل الخصب، ووجدوا أن صلاح الدين تقدم له أن نصب معسكره هناك، وحكموا من خلال الأرض المداسة أنه امتلك جيشاً كبيراً جداً.

وكان صلاح الدين وأتراكه مستنفرين دوماً مستعدين لإلحاق الأذى بنا، وقد استولوا على بعض الممرات بين الجبال الوعرة، وتوجب على جيشنا أن يتابع زحفه عبرها، وعزموا على قتلنا أو أسرنا أو تشتيتنا عندما سنتقدم في صف طويل، لكن عندما زحف جيشنا من النهر بحذر وعلى مهل حتى حيفا، تمكنا من نصب خيمنا هناك، وانتظرنا كتلة الجيش الكبرى التي كانت تتبعنا.

وتمركزنا فيما بين حيفا والبحر، ومكثنا هناك لمدة يومين، نعد أنفسنا ونتفحص الأمور، ونستعرض أثقالنا، حيث رمينا ماعتقدنا أننا نستطيع أن نتخلى عنه، واحتفظنا فقط بماكان ضرورياً تماماً، لأن الجنود الرجالة زحفوا على أقدامهم، في حين عانينا نحن من ثقل الأحمال والميرة، ولهذا عانوا في أثناء القتال من كثير من الإنهاك والعطش.

وفي يوم الأربعاء، الذي وافق اليوم الثالث الذي تلا وقوفنا عند حيفا، تحرك الجيش نحو الأمام، وقام الداوية في المقدمة، وتمركز الاسبتارية في الساقة، وبرهن فرسان الفئتان على قدرتها العظيمة على التحمل وبالتالي على الشجاعة العظيمة.

وزحف الجيش في ذلك اليوم بحذر أكثر من المعتاد، وتوقف بعد مسيرة طويلة، فقد أغراه مارآه من كثافة الأعشاب وطولها، التي ضربت وجوه أفراده، خاصة وجوه الرجالة، وكان في هذه المناطق الساحلية أعداد كبيرة من الحيوانات البرية (اليرابيع) التي قفزت فيما بين أقدامهم

من بين الأعشاب الطويلة والكثيفة، وتم امساك كثير منها، ليس عن عمد، بل لأنها جاءت في طريقهم بالصدفة.

وبعدما سار الملك حتى تلحوم (التي هدمها المسلمون تماماً) ترجل وتناول بعض الطعام والجيش واقف ينتظر، ومن أراد منه تناول طعامه، وفور الفراغ تابعوا زحفهم حتى بيت عرف باسم «بيت الطرق الضيقة»، لأن الطريق هنا بات ضيقاً، وقد توقفوا هناك ونصبوا خيامهم.

وكان من عادةالجيش كل ليلة قبل الجلوس للراحة ندب واحد من الناس ليقف في وسط المعسكر وليصرخ بصوت مرتفع «العون، العون، من أجل الضريح المقدس»، وعندما كان بقية الجيش يسمعونه يرددون هذه الكلمات، ويرفعون أيديهم نحو السماء، وسط دموع منهمرة، وكانوا يصلون ويدعون طلباً للرحمة ولعون الرب في هذا المقصد، ثم كان المنادي نفسه يردد الكلمات بصوت مرتفع، ثم يرددها كل انسان وراءه للمرة الثانية، وبعد ذلك كان هذا يتكرر للمرة الثالثة بقلوب نادمة مع كثير من البكاء، فمن الذي كان بإمكانه التمنع عن البكاء في مثل هذه اللحظة؟ وبدا الجيش بعد الصراخ وفق هذه الطريقة وقد استرد نشاطه وارتفعت معنوياته.

وهاجمنا كل ليلة نوع من أنواع الزواحف، تدعى الثعابين، التي كانت تزحف على الأرض، وتلدغ لدغة سامة جداً، وكانت في النهار غير مؤذية، لكن مع حلول الليل، اعتادت أن تلدغ بشكل متواصل، وكان الذين يلدغون يتورمون على الفور بالسم، ويعانون من آلام حادة، واستخدم الذين تعرضوا للدغ من النبلاء والأغنياء نوعاً من مراهم الترياق بوضعه فوق مكان اللدغ، وبرهن الترياق أنه فعال في إزالة الألم، وأدرك أخيراً الأكثر فهماً وملاحظة بيننا أن الثعابين كانت تخاف وتهرب من الأصوات المرتفعة، لذلك أخذوا يصدرون أصواتاً عالية لدى اقترابها منهم، بوساطة الضرب على مقاعدهم، أو أعمدتهم أو الصناديق الخشبية أو

الأباريق، أو الطسوت، أو الصحون، أو المراجل، أو أية أداة من أدوات المنزل كانت تصل إلى أيديهم لإحداث صوت كاف بها، وطردوا بوساطة هذه الأصوات الثعابين.

وبقي الجيش لمدة يومين في ذلك المنزل المتقدم الذكر، حيث توفرت ساحة كبيرة للعسكرة، وانتظروا هناك حتى وصول السفن التي كانوا يتوقعونها، وأعني بهذا البوارج والشواني المشحونة بالميرة التي كانوا بحاجة إليها.

ثم تحرك الجيش، مستخدماً جميع الاحتياطات ضد الترك الذين بقوا على جناحهم حتى بلدة تدعى الملاحة، حيث كان الملك قد أمضى إحدى الليالي الماضية، وقرر هنا أن يتولى بنفسه قيادة المقدمة في اليوم المقبل، بسبب العوائق على الطريق، ولأن الداوية مكثوا في حراسة الساقة.

ولبس الملك في ذلك اليوم مهمازيه، وانقض على الترك وهو حانق جداً، وكان على وشك قطف ثمار مجد عظيم لولا أن أعاقه بعضهم وأخروه، مما عرقل نجاحه، لأنه بعدما طارد الملك رتشارد الأتراك إلى مسافة، توقف بعض رجاله فجأة، الأمر الذي عرضهم للوم في المساء، ولو أن أصحاب الملك تبعوه في المطاردة وتابعوا الجري وراء الترك، لنالوا نصراً مبيناً، لأن الملك دفع الجميع أمامه.

وواجه الملك مصاعب جمة لدى زحفه على طرف البحر بسبب الحرارة العالية، لأن الوقت كان ضيقاً، وهم قد ساروا رحلة يوم طويل، وأنهك المسير عدداً كبيراً منهم، فسقطوا موتى، ودفنوا حيث ماتوا، وعطفاً من الملك ورحمة أمر بعدد كبير ممن أنهكهم التعب من المسير أو المرض، أو أي سبب آخر، أن ينقلوا بوساطة الشواني والسفن إلى غايتهم، ووصل الجيش إلى قيسارية.

وكان الترك قبلهم هناك، وكانوا قد دمروا قسماً من الأبراج والأسوار، ودمروا المدينة بالقدر المستطاع، لكن عند وصول جيشنا هربوا، ونصب الجيش هناك خيامه وأمضى الليل على طرف نهر قرب المدينة، كان يعرف باسم نهر التماسيح (نهر الزرقا) لأن التماسيح افترست في احدى المرات اثنين من العساكر وهم يسبحون فيه.

وكان محيط مدينة قيسارية واسع جداً، والأبنية رائعة فخمة وبهية، وغالباً مازارها مخلصنا ومعه حوارييه، وصنع معجزات فيها، إنه هنا كان الملك قد أمر سفنه بمقابلة الجيش، وأمر الملك بالوقت نفسه بالاعلان في مدينة عكا بوساطة صوت المنادي، أن على الذين تخلفوا في المدينة لكسلهم الصعود إلى ظهور السفن التي أرسلت والقدوم إلى الجيش حباً للرب، للمساعدة على انجاح هدف المسيحيين، ولينفذوا عهد حجهم بكمال أعظم، وأطاع العديد منهم أوامره وقدموا إلى قيسارية مع الأسطول، الذي كان مشحوناً بوفرة من الميرة، وهيأ أن تتقدم السفن من ذلك المكان لتبقى على اتصال بالجيش ولتقدم له الخدمات.

وتجمع عدد كبير من السفن معاً، وعندما قسم الملك جيشه إلى فرق، انطلقوا في أحد الأيام في حوالي الساعة التاسعة، بخطوات بطيئة، بسبب أن الترك ضايقوهم عندما غادروا مراكزهم، ثم اقتربوا منهم كثيراً بقدر ماتجرأوا، وأنزلوا بهم ماستطاعوا الأذى والمضايقة.

وقد أزعجونا في هذا اليوم أكثر من المعتاد، لكن بعون الرب نجونا دونما أذى، لأننا تمكنا من قطع رأس واحد من أمرائهم، وكان رجلاً عظيم الشجاعة، ومشهوراً لاقدامه، وكان قوياً جداً إلى حد أن مامن أحد — كما قيل — كان يستطيع أن يرميه من على ظهر حصانه، أو يتجرأ حتى على قتاله، وقد حمل رمحاً كان أثقل بمرتين من رماحنا أطلق عليه اسم «رمح ايازا»، وحزن الترك حزناً شديداً لمقتله واستولى عليهم الأسى، إلى حد أنهم قطعوا ذيول خيولهم، ولو سمح لهم لحملوا جثمان

مقدمهم.

ووصل الجيش بعد هذا إلى نهر كان يـدعى النهر الميـت (نهر المفجر؟) وكـان المسلمون قـد غطوه مـن قبل، حتـى لايرى، ولكـي تتعرض حيـاة رجالنـا إلى الخطر بالسقـوط به، لكن بفضـل حكمة الرب ونعمتـه حفظنا من المخاطـر، وبعد ماجرى كشـف النهر شرب رجالنا منـه وأمضوا الليلة هناك.

كيف تحارب الجيشان عند أرسوف

تقدم الجيش في اليوم الثالث ببطىء من النهر الميت، ولأن رجالنا كانوا غير قادرين على المسير على طرف البحر، الذي كان مغلقاً بشعراء كثيفة، فقد أرغموا على الزحف خلال منطقة جبلية وعرة جداً، وجرداء تماماً من كل شيء، وحفظ الجيش نفسه أثناء الزحف في مجموعات متراصة أكثر من المعتاد، وتولى الداوية في ذلك اليوم الساقة، وهكذا خسروا عدداً كبيراً من الخيول من حملات الأتراك، حتى أنهم غدوا في حالة يائسة تقريباً، وفقد كونت سينت بول أيضاً كثيراً من الخيول، لأنه تصدى بنفسه للترك بشجاعة عظيمة عندما هاجمونا وحققوا خرقاً بيننا، وبفضل جهوده تمكن الباقون من الجواز بسلام والابتعاد سالمين، وهكذا استحق الشكر والثناء من الجيش كله.

وفي ذلك اليوم جرح الملك في طرفه بنشابة أثناء طرده للترك، وأثاره هذا الجرح الخفيف وحمسه لمقاتلتهم بشجاعة أعظم، ذلك أن ضربة الجرح جعلته متشوقاً إلى الانتقام أكثر، وقاتل خلال النهار كله ضدهم وردهم إلى الخلف.

ومن جانب آخر ثابر الترك على إغاظة رجالنا وارهاقهم، وحافظوا على السير على طرف جيشنا، وألحقوا برجالنا من الجراحات بقدر ما استطاعوا برميهم السهام والنشاب، التي تطايرت مثل زخات المطر، وإنه لمحزن لو علمت كم عدد الخيول التي سقطت نتيجة طعنها وإصابتها بالجروح! وكم عدد التي ماتت فيما بعد، اثر عقرها والجراحة التي نالتها ! فلقد كان هناك سيلاً من النشاب والجروح إلى حد أنه كان يتعذر عليك أن تجد موضعاً لقدمك على الأرض حيث توجب على الجيش المرور دون الاصابة بها، واستمرت هذه الحالة المحتدمة والمرعبة طوال النهار، حتى

حلول الظلام، فوقتها عاد الترك إلى خيمهم ومساكنهم، ووقف شعبنا عند مايعرف عادة باسم نهر المالح (نهر اسكندرون)، وأمضوا الليل هناك، ووصلوا يوم الثلاثاء بعد عيد القديس جايل، ومكثوا لمدة يومين.

واجتمع هنا حشد كبير بسبب الخيول التي ماتت إثر جراحتها، ذلك أن الناس كانوا راغبين بشراء لحوم الخيول، حتى أنهم لجأوا إلى نفخها، وعندما سمع الملك بهذا، أعلن بوساطة المنادي أنه سوف يعطي حصاناً حياً لكل من سوف يوزع حصانه الميت على أحسن الرجال في خدمته، ممن هم بحاجة إليه، وهكذا أكلوا لحوم الخيول وكأنها لحوم الطرائد والغزلان، وعدّوها لذيذة جداً، لأن الجوع حل الآن محل التوابل.

وفي اليوم الثالث زحف جيشنا في حوالي الساعة التاسعة في تعبئة قتالية، وانطلق من نهر المالح، لأنه كانت هناك اشاعات تحدثت عن أن الترك كانوا قد أعدوا كميناً في شعراء أرسوف وبساتينها، وأنهم كانوا عازمين على اضرام النيران هناك لمنع قواتنا من عبورها، غير أن رجالنا عبروا بنظام، فاجتازوا دون التعرض للأذى في المكان الذي قيل بأن الكمين قد نصب به، وبعدما خرجوا من الشعراء، وجدوا أنفسهم في سهل واسع يحاذيها، وهناك نصبوا قرب نهر يدعى بشكل عام روشتيل Rochetailie (نهر الفالق)، وأرسلوا من هنا جواسيس للاستطلاع، وقد جلبوا معهم أخباراً بأن الترك ينتظرون وصولهم في أعداد لاتحصى، لأن حشودهم غطت وجه الأرض هناك، وقدّر تعدادهم بثلاثمائة ألف رجل، بينما كان المسيحيون مائة ألف رجل فقط من الأشداء، ووصل الجيش المسيحي إلى نهر روشتيل يوم الخميس قبل عيد ميلاد مريم العذراء المباركة، واستراح هناك حتى اليوم التالي.

وفي الفجر الباكر من يوم السبت صب رجالنا أسلحتهم عليهم بعناية كبيرة لتلقي الترك الذين لايمكن لشيء أن يوقف عجرفتهم سوى القتال، وعبأ العدو نفسه بانتظام، واقترب منا أكثر فأكثر، وكذلك اتخذ

رجالنا غاية الحذر لوضع أنفسهم في نظام جيد بقدر الامكان.

وعبأ الملك رتشارد، الذي كان أكثر الناس خبرة بالشؤون العسكرية، الجيش على شكل كتائب، وأصدر توجيهاته للذين توجب عليهم الزحف في الأمام والذين كانوا في الساقة، وقسم الجيش إلى اثني عشر فوجاً، ثم قسم هؤلاء إلى خمس فرق، تسلسلت قياداتها حسب رتب الرجال تماشياً مع النظام العسكري، وكان من غير الممكن ايجاد جيش أحسن تنظيماً من الناحية العسكرية ولاأكثر قوة لو أن رجاله وضعوا ثقتهم في الرب الذي هو مانح الأشياء الطيبة، وشكل الداوية في ذلك اليوم الصف الأول، وجاء من بعدهم بنظام تام البريتانيون ورجال أنجو، ثم تلاهم الملك غي مع رجال بواتو، وكان في الصف الرابع النورمان والانكليز، الذي عهد اليهم بأمر العناية بالراية الملكية، وزحف بعدهم في الصف الأخير الاسبتارية، وكان صفهم مؤلفاً من نخبة من المحاربين موزعين على شكل مجموعات، وساروا متراصين إلى حد لو أن تفاحة ألقيت عليهم كان من غير الممكن أن تصل إلى الأرض دون أن تلمس رجلاً أو فرساً، وامتد الجيش من حد الجيش الاسلامي إلى طرف البحر.

وكان بإمكانك أن ترى هناك أفضل أشكال التمييز وأنسبها: أعلام وشارات من مختلف النماذج، وجنود أشداء، نشطاء ممتلئين حيوية، ومناسبين تماماً للحرب، وكان هناك ايرل أوف ليستر، وهيوج دي غيرني Gurnay، ووليم دي بورز Borriz وولكن دي فيرار Walkin De Ferrars، وروجر دي تسوني، وجيمس دي أفنس، وروبرت كونت أوف درول Druell، وأسقف بوفاي Beauvais، وأخوه وليم دي بار Barres، ووليم دي غارلاند Garlande، ودروغو دي ميرل Drogo De Mirle، مع كثير من أقربائه، وهنري كونت شامبين، وهو الذي تولى الحراسة على الجانب الأقرب إلى الجبل، مثابراً على النظر على الجناح ومراقباً له، وكان الجنود الرجالة والرماة ورماة الزنبورك والجروخ في

الخارج، وكانت ساقة الجيش ملاصقة لدواب الحمولة والعربات التي حملت الميرة، والأشياء الأخرى، وسارت فيما بين الجيش والبحر لتتجنب الهجوم من العدو.

هكذا كانت تعبئة الجيش ونظامه عندما تقدم بشكل تدريجي لمنع الانقسام (وعزل الأسلحة عن بعضها) ذلك أن فقدان الترابط بين صفوف القتال، يؤثر عليها ويجعلها أضعف في المقاومة، وسار الملك رتشارد ودوق بيرغندي، مع حاشية منتقاة من المقاتلين صعوداً ونزولاً، ليراقبا عن قرب أوضاع وسلوك الترك وسماتهم، ولاصلاح أي شيء في قواتهما إذا رأيا الفرصة المناسبة، لأنهما احتاجا في تلك اللحظة إلى فائق الحذر.

وكان في حوالي الساعة التاسعة عندما ظهرت فرقة كبيرة من الترك فيها عشرة آلاف من الجنود الأشداء، وكان هؤلاء الجنود سائقين نحونا للانقضاض علينا بأقصى سرعة ممكنة، ويرمون نحونا بالجروخ والنشاب بقدر ما استطاعوا من سرعة، وبالوقت نفسه مزجوا أصواتهم بصرخات مرعبة، وأعقب هؤلاء جنس شيطاني جهنمي من البشر، لونهم أسود، ويحملون مظهراً خارجياً مناسباً يعبر عن سوادهم، وكان معهم المسلمون الذين يعيشون في الصحراء، ويعرفون باسم البدو، وهم عرق متوحش من الرجال أشد سواداً من السخام، وهم ممن يقاتل راجلاً، ويحمل كل منهم قوساً وكنانة ودرقة مستديرة، وهم عرق خفيف وفعال، وقاتل هؤلاء الرجال جيشنا ببسالة وارهاب، وكان من الممكن أن يرى من بعدهم الكتائب الحسنة التنظيم للاتراك، بشارات مثبتة على رماحهم، وأعلامهم وراياتهم لها علامات متميزة وكان جيشهم مقسماً إلى فئات، والفئات إلى جماعات، ويبدو أن تعدادهم جاوز العشرين ألفاً.

وقاتلوا رجالنا بانقضاض لايمكن مقاومته، وكانوا أسرع من النسور، وحين حملوا علينا منقضين كانوا أمضى من البرق، وأثاروا أثناء تقدمهم

سحابة من الغبار، حتى أن السماء أظلمت، وتقدم أمامهم بعض الأمراء، حسب مقتضيات الـواجب، مع بعض الأبواق والنفر، وكـان مع بعضهم شبـور، ومـع آخريـن مـزامير، ودفـوف، وكؤوس، وصنـوج وآلات أخـرى، كـانت تنتـج ضجيجاً مـرعبـاً، وصخباً، إلى حـد أن الأرض ارتجفت مـن الأصوات العـالية والمتداخلـة، حتى أن أصـوات الرعد لايمكـن سماعها وسـط صخـب هـذه الأصــوات، وقـد فعلــوا هـذا لإثــارة أرواحهـم ولتشجيعهـم، فمع ازديـاد العنـف، تكون الأصـوات قـد ارتفعت، وهـم يغدون أكثر جرأة في الانقضاض.

وهكذا هـددنا الترك غير الأتقيـاء من على الجانبين: مـن جهة البحـر، ومـن جهة البر، ولم يكـن مـن الممكن خـلال مساحـة قـدرها ميلين مـن الأرض الاستيـلاء على شبر منها أو رؤيتـه، بسبب المهـاجمين الترك الذيـن غطـوها كلهـا، ولكم ضغطـوا علينا بعنـاد، واستمروا في حملاتهم الجريئـة والعنيدة، ولهذا عـانى رجـالنا مـن خسائر كبيرة وقـاسية في الخيـول، التي قتلت بجروخهم ونشابهم!

ولكم كان مفيداً لنـا في ذلك رماة الزنبورك منا وكذلك النبـالة، الذين وقفوا إلى جانب صفـوفنا المعرضة للفناء، وبذلوا غايـة جهدهم لرد الترك الأشداء، واندفع العدو منقضاً علينا مثل السيل الجارف، مستهدفاً قتالنا، وهنا لم يستطـع غالبية رمـاة الزنبورك الصمـود أمام ثقل الهجـوم المرعب، وحملتهـم المخيفة، فـرمـوا جـانباً أسلحتهـم، وخشيـة منهـم أن يتعرضـوا للمـوت بالاصـابة بـالـرمايـات، هـربوا والتجـأوا بجمعهم الكبير خلـف الصفوف الكثيفـة للجيش، وفعلوا ذلـك وهـم يولـولون خوفـاً من الموت، وهو أمـر لم يكونوا قـادرين على مواجهتـه، أما المتبقـي من رماة الـزنبورك الـذين منعهـم خوفهـم مـن العار، مـن الهزيمـة، أو لأنهم كانـوا يأملـون بالحصول على تاج الأبدية، لذلـك صمدوا، وتحلوا بشجاعة عظيمة وجرأة فوقفوا ولم يتـزحزحوا وقت الصراع، وقـاتلوا بدون كلل أو ملـل وبشجاعة

وجهاً لوجه أمام الترك، وفقط تراجعوا خطوة خطوة، وبذلك ضمنوا تقهقر رفاقهم.

ولكم كان المأزق ضيقاً الذي كنا فيه ذلك اليوم! ولكم كان هائلاً اضطرابنا، عندما تأثر بعضنا بالخوف، ومامن واحد منا كان لديه الثقة أو الشجاعة، ولم يرغب في تلك الساعة في أنه أنهى حجه وعاد إلى وطنه، عوضاً عن الوقوف بقلب خافق مضطرب في معركة غير معروف مصيرها، وصدقاً أقول إن شعبنا الذي كان تعداد رجاله صغيراً، قد طوق من قبل حشود من المسلمين، ولذلك لم يمتلك رجاله الوسائل للنجاة، كما أنهم بدوا وهم لايمتلكون مايكفي من الشجاعة للصمود أمام عدو كبير كهذا، لابل الأمر كان أشد من هذا، لقد كانوا أشبه بقطيع شياه وقع كل واحد منهم بين فكي ذئب من الذئاب، وليس هناك سوى السماء من فوقهم، والعدو جميعه من حولهم.

أي جيش في الوجود تعرض قط لهجوم مثل هذه القوات الهائلة؟ لقد كان بامكانك أن ترى عساكرنا وقد فقدوا مطاياهم، وهم بالتالي يزحفون على أقدامهم مثلهم في ذلك مثل الجنود الرجالة، أو يرمون بالجروخ ويستخدمون الزنبورك، أو السهام من القسي، ضد العدو، أو يصدون حملاته بخير وسيلة وبقدر مااستطاعوا، وضغط الترك الذين كانوا بارعين بالرماية باستمرار عليهم، وصبت قسيهم زخات من النبال، وامتلأ الجو برشقات النشاب، وحجب ضوء الشمس بوساطة الكميات الهائلة للنشاب، مثلما تظلم في الشتاء بسقوط البرد والثلج.

وضغط الترك بجرأة هائلة كادت أن تؤدي إلى سحق الاسبتارية، مما دفعهم إلى إرسال رسالة إلى الملك رتشارد بأنهم غير قادرين على الصمود أمام حملة العدو الشديدة، مالم يسمح لفرسانهم بالتجمع والاقلاع بحملة تامة ضده، ومنعهم الملك من ذلك، ونصحهم بالبقاء على شكل كتلة متماسكة، وبناء عليه حافظوا على نظامهم وبقيوا إلى جانب بعضهم

بعضاً، علماً بأنهم كانوا قادرين بكـل صعوبة على التنفس بسبب الضغط الشـديد، وتمكنـوا بهذه الوسيلـة من المحـافظـة على متابعـة الزحـف على طريقهم، مع أن الحرارة حـدث أن كانت عالية جداً في ذلـك اليوم، وقد تصبب المسيحيون عـرقاً في تلك المحنة، والذي أمكنه أن يـراهم في ذلك الممر الضيـق والمساحة المغلقـة صابريـن وهـم يعـانون من حـرارة ومشقة ذلـك اليـوم مـع حملات العـدو(الذي شجـع بعضـه بعضـاً على تـدمير المسيحيين) لايمكـن أن يسـاوره الشك في نفسـه، أن محنتهـم ووضعهـم الحرج جداً، الـذي ازداد سوءاً بحكم كونهم حشـداً كبيراً، يومىء بـالسوء لنجاحنا.

وقرع العـدو على ظهورهم وأرعد وأبـرق بمثل المطارق، لـذلك لم يجدوا مجالاً لاستخدام قسيهـم، فقاتلوا يـداً بيد بـالسيوف، والحراب، والهراوات، وترددت أصداء ضربـات الترك ورماياتهم على الدروع والسوابـغ المعدنية، وأعادت الأصوات وكأنها قرعت على سندان.

وكان القتـال ثقيلاً جـداً وشديـداً، على الصف الأقصـى من صفـوف الاسبتـاريـة، وازداد الوضـع سـوءاً وشـدة، مـع ازدياد عـدم قـدرتهم على المقـاومـة، ومع ذلـك تحركـوا نحـو الأمام بصبر تحت آلام جـروحهـم، ولم يصدر عنهـم ولاصوت تجاه الضربات التـي سقطت عليهم، ثـم ضغطوا نحـو قلـب الجيـش الـذي كـان أمـامهـم، وذلـك بقصـد الحصـول على السلامة، ولتجنب قسوة العدو الذي ضايقهم من الخلف.

وكانت قوات جميع المسلمين قد احتشدت مع بعضها من دمشق ومن فـارس، ومـن البحـر المتـوسـط إلى الشرق، ولم يترك السلطـان بين جميـع الأجناس على الأرض، ولاواحد من الرجـال المشهورين أو الأشداء، ولاأمة اتسمت بالشجـاعة، ولاواحد من الجنود البواسـل، أبداً، لم يترك السلطان أحداً من هؤلاء إلا واستدعاه لعونه، إمـا بالتوسل، أو بالمال، أو بالسلطة، وذلك بهدف سحق الجنس المسيحي، ذلك أنه كان يأمل أنه سيتمكن أن

- ٩٠١ -

يزيل الصليبيين مـن على وجه الأرض، لكن آماله تبـددت، لأن أعدادهم كانت كافيـة، بعون الرب، لتحقيق غايتهم، فلقد اجتمعـت بالفعل زهرة نخبة شباب وجند المسيحية، واحتشدت ومن ثم توحدت في كتلة واحدة مثل سنابل قمـح على سوقها، وجاءوا من مختلف مناطـق الدنيا، ولو أنهم سحقوا تماماً ودمروا، ليس هناك من شـك أنه لـن يبقى هنـاك ولاواحد يتولى المقاومة.

- ٩٠٢ -

النصر الرائع للمسيحيين

غطت الهواء سحابة من الغبار أثناء متابعة رجالنا لزحفهم، وعانوا من ضغط من الخلف وذلك بالإضافة إلى الحر الشديد، وكان العدو شرساً، وأنزل بنا ضربات موجعة شيطانية، ومع ذلك ثابر المسيحيون على البرهنة أنهم رجال صالحون، وحافظوا بروحهم التي لاتقهر وضمنوا استمرار التقدم، في حين استمر الترك في تهديدهم بدون توقف من الخلف، غير أن ضرباتهم وقعت عليهم بدون أذى بسبب حمايتهم بوساطة السوابغ والدروع المعدنية، وأدى هذا إلى تراخي الترك في اندفاعهم وحماسهم تجاه اخفاق محاولاتهم، وبدأوا يتذمرون همساً معبرين عن خيبة الأمل، وأخذوا يصرخون بغضب شديد بأن رجال شعبنا كانوا من حديد، وأنهم لن يتخاذلوا أو يتراجعوا أمام أية ضربة.

ثم إن عشرين ألفاً من الترك الأشداء انقضوا مندفعين مجدداً ضد رجالنا، محدثين الفوضى بين صفوفهم حيث اختلط الحابل بالنابل، وأرهقوهم بكل وسيلة ممكنة، وعندما باتوا على حافة الانهيار أمام ضرباتهم العنيفة، صاح الأخ غارنيير دي نيب Napes ، وكان من أفراد الاسبتارية، بصوت مرتفع: « أيها القديس جورج الرائع، إلى متى ستتركنا هكذا في وضعنا المضطرب؟ والمسيحية كلها الآن على حافة الدمار، لأنها تخشى الرد بضربة ضد هذا العرق الفاجر».

وعند هذا ذهب مقدم الاسبتارية إلى الملك وقال له:« مولاي الملك، لقد ضغط العدو علينا ضغطاً شديداً وبعنف، ونحن في وضع نخشى فيه من العار السرمدي، طالما نحن غير متجرأين على رد ضرباته، ها نحن الآن يفقد كل واحد منا حصانه تلو الآخر، فكيف لنا أن نتحمل منهم الأكثر؟ ورد الملك عليه قائلاً: «أيها المقدم الجيد، إنه أنت الذي

ينبغي أن يصمد أمام هجماتهم: ما من واحد يمكنه أن يكون في لحظة واحدة في كل مكان».

وعند عودة المقدم، قام الترك مجدداً بحملة عنيفة عليهم من الخلف، ولم يكن بينهم أمير أو كونت إلا وتلطخ بالعار، وقال كل واحد للآخر: « لماذا لانحمل عليهم بأشد ما نستطيع وبأسرعه؟ ياللأسف، وياللأسف، سوف نستحق بشكل أبدي أن ندعى جبناء، وهو أمر لم يحدث لنا من قبل، لأنه لم يسبق لمثل هذا العيب والعار أن نزل بجيش عظيم مثل هذا الجيش، حتى من قبل غير المؤمنين، وما لم ندافع عن أنفسنا في أن نحمل بالحال وبدون تأخير على العدو، فسوف نجني خزيا وفضيحة أبدية، وسيزداد هذا ويتعاظم كلما تأخرنا في القتال.

وفيما هم يعالجون هذه المسألة، ولدى توصلهم إلى القرار نفسه بشأن القيام بحملة ضد العدو، قام فارسان، لم يعودا يمتلكان الصبر والتأخير، بوضع كل شيء في فوضى واضطراب، وعلى كل حال تقرر باتفاق الجميع أن تقوم ستة أبواق بالصدح بأصواتها في ثلاثة أجزاء مختلفة من الجيش، ويكون ذلك بمثابة شارة للاقلاع بالهجوم، وتفصيل ذلك: بوقان في المقدمة، واثنان في الساقة، واثنان في القلب، وذلك بهدف تمييز أصواتها عن أصوات أبواق المسلمين، ولتحديد المسافة لكل منها، ولو حدث ونقلت هذه الأوامر إلى الترك لأخفقت تماماً، ولقاد تسرع الفارسين المتقدم ذكرهما إلى إحباط نجاح الأمور.

فلقد انطلقا بسرعة تامة وانقضا على الترك، وتمكن كل واحد منهما من القاء خصمه الذي واجهه بطعنة برمحه، وكان أحدهما مارشال الاسبتارية، وكان الآخر بلدوين دي كاريو Carreo ، الذي كان رجلاً جيداً وشجاعاً، ومرافقاً للملك رتشارد، الذي جلبه معه في حاشيته.

وعندما لاحظ المسيحيون الآخرون هذين الفارسين وهما يندفعان نحو

الأمام، وسمعاهما يدعوان بصوت واضح القديس جورج ليقدم لهما العون، هاجموا الترك وحملوا عليهم حملة رجل واحد، بكل ما ملكوه من قوة، ثم جاء دور الاسبتارية، الذين عانوا طوال النهار من الضغط داخل صفوفهم ومن شدة الازدحام فيها، فقاموا باللحاق بهذين الجنديين وحملوا على العدو في صفوف متلاحقة، وبذلك غدت مقدمة الجيش ساقته، وأصبح الاسبتارية الذين كانوا في الصفوف الأخيرة، أول من تولى الحملة، واندفع كونت شامبين أيضاً نحو الأمام مع جماعته المختارة، وجيمس دي أفنس مع أقربائه، وكذلك روبرت كونت درو Dreux ، وأسقف بوفياس Beauvais، مع أخيه، وكذلك ايرل ليستر، الذي قام بحملة حادة من اليسار نحو البحر.

وتكتل الذين كانوا في الصف الأول من الساقة، وقاموا بحملة موحدة شديدة جداً، وجاء بعدهم رجال بواتو، ورجال أنجو، ورجال بريتاني، فقد أقلع هؤلاء باندفاع سريع نحو الأمام، ثم أعقبتهم بقية قطع الجيش: وأظهرت كل فرقة شجاعتها واقدامها بالإلتحام مع الترك، فأطاحوا بهم حين طعنوهم برماحهم، ورموهم أرضاً، وغدت السماء داكنة بسبب الغبار الذي تصاعد في مواجهات ذلك المعترك، وكان الترك قد ترجلوا من على ظهور خيولهم، حتى يتمكنوا من التسديد بشكل أفضل نحو رجالنا بنشابهم وجروخهم، غير أنهم قتلوا على جميع الجوانب أثناء تلك الحملة، فقد بطحهم الفرسان وجاء بعدهم الجنود الرجالة فأجهزوا عليهم وقطعوا رؤوسهم.

ورأى الملك رتشارد، جيشه وهو يتحرك، وقد شرع بالعراك مع الأتراك، ولهذا طار مسرعاً على ظهر حصانه، بأقصى سرعة ممكنة إلى وسط الاسبتارية الذين تولوا الحملة، وإليهم جلب المساعدة مع حاشيته، وخرق صفوف الرجالة الأتراك، الذين تملكتهم الدهشة تجاه ضرباته وضربات رجاله، فأفسحوا له الطريق من على اليمين ومن على

الشمال، وكان بإمكانك أن ترى وقتها أعداد كبيرة من الرجال وقد تمددوا على الأرض، وكذلك خيولاً كثيرة جداً بدون ركابها، وأيضاً الجرحى وهم ينتحبون ويندبون منيتهم القاسية، وكان هناك بعضهم وهو يلفظ آخر أنفاسه أثناء التمرغ بدمائهم المتخثرة، وكان هناك عدد كبير من الرجال بلا رؤوس، في الوقت الذي ديست فيه أجسادهم التي كانت بلا حياة من قبل أصدقائهم وأعدائهم.

ولكم اختلفت توقعات الذين تأملوا وسط الأرتال شكل مباشرة الحرب الرهيب عن قرب! هناك كان الملك— الملك الحاد، والملك غير الاعتيادي— وقد فلق أجساد الأتراك في كل اتجاه، ولم يكن هناك من يستطيع النجاة من قوة ذراعه، فحيثما التفت، شاهراً سيفه، شق لنفسه ممراً واسعاً، وهو يتقدم نحو الأمام، وكان لايتوقف عن الضرب والطعن بسيفه (لذلك قطعهم مثل حصاد يقطع الزرع بمنجله)، وخاف البقية من مشهد الذين كانوا يموتون وارتعبوا، ولذلك أعطوه المزيد من المساحة، وتراجعوا من أمامه، ذلك أن أجساد القتلى من الترك التي تمددت على وجه الأرض غطت أكثر من نصف ميل.

وتبرهن أن الغبار الذي تصاعد من القتال كان ضاراً جداً بالنسبة لرجالنا، لأنه عندما أصبح رجالنا يشعرون بالتعب من جراء قتلهم لأعداد كبيرة، ولدى تراجعهم لتنفس بعض الهواء النقي، لم يكن وقتها بامكانهم تمييز بعضهم بعضاً، وسددوا ضرباتهم بدون تمييز إلى اليمين وإلى الشمال، غير قادرين على التفريق ما بين العدو والصديق، فقدروا أن بعض رجالهم من رجال العدو، فقتلوهم بلا رحمة.

وهكذا ضغط المسيحيون بكل شدة على الأتراك، ولم يتقهقر هؤلاء أمامهم، وعلى ذلك ظلت نتيجة المعركة لوقت طويل متأرجحة غير محسومة ومشكوك فيها، وتابع الفريقان تبادل الضربات، فكل فريق منهما جاهد في سبيل نيل النصر، وفي تلك الأثناء تراجع بعضهم من على

الجانبين وقد غطتهم الجراح، في حين سقط آخرون على الأرض قتلى.

ولكم كان كثيراً ما يمكن رؤيته من الرايات والأعلام والعذبات، والرنوك الملونة التي كانت ممزقة وملقاة على الأرض، وسيوف الفولاذ المجرب، ورماح الخيزران ذوات الأسنة الفولاذية، والقسي التركية والحراب ذوات الأسنة الحادة، والنشاب والنبال، التي غطت الأرض، كما كان هناك من الجروح ما يكفي لأن يكون حمولة عشرين عربة أو أكثر، وكانت هناك أجساد الأتراك الذين قتلوا ملقاة ومبعثرة بلا رؤوس، في حين حفظ آخرون شجاعتهم لبعض الوقت حتى ازداد رجالنا بقوتهم، وهنا تخفى بعضهم وأخفوا أنفسهم بين جثث القتلى، بينما تسلق بعضهم الآخر بعض الأشجار، فكشفوا، فكان أن رميوا فسقطوا أرضاً وهم يئنون ألماً ورعباً، وتخلى بعضهم أيضاً عن خيولهم، وسلكوا بعض الممرات المنحدرة والفردية نحو شاطىء البحر، ثم ألقوا بأنفسهم نحو أمواج البحر، من فوق الشعاب العالية، التي بلغ ارتفاع بعضها خمسة أعمدة.

وتم صد بقية الأعداء بطريقة مدهشة حتى بات من غير الممكن رؤية أحد خلال مساحة ميلين غير الفارين، مع أنهم كانوا من قبل من الجرأة والصمود بمكان، وقد امتلأوا بالعزة والفخر، لكن بنعمة الرب وفضله تحول فخرهم إلى ذل، وتابعوا الفرار دون توقف، ذلك أنه عندما توقف رجالنا عن المطاردة، أضاف الخوف وحده أجنحة إلى أقدامهم.

وكان جيشنا حين هاجم الأتراك مؤلفاً من أقسام، كما أن النورمان والانكليز الذين كان معهوداً إليهم أمر العناية بالراية، قدموا ببطىء وساروا نحو القوات التي كانت مشتبكة مع الأتراك، ولأنه كان من الصعب جداً تفريق صفوف الأعداء وتمزيق قواه، فقد وقفوا على مسافة قصيرة بعيدة هناك، لتكون نقطة تجمع للقوات.

ولدى انتهاء المذبحة، توقف رجالنا، وعندما رأى الفارون هذا، وكانوا

نحواً من عشرين ألفاً، استردوا شجاعتهم على الفور، وتسلحوا برماحهم وحرابهم، وحملوا على الفور على الكتلة العظمى للذين كانوا يتراجعون، واستنقذوا من أيدي رجالنا بعض الذين أسروهم آخراً.

ومن غير الممكن وصف الحملة التي تعرض لها رجالنا آنئذ، لقد كانت حقاً مرعبة، لأن النشاب والجروخ التي تساقطت عليهم وهم يتراجعون، حطمت رؤوس دروعهم وخرقت بقية أطراف فرساننا، ولذلك انحنوا، والتصقوا بقرابيس سروج خيولهم، غير أنهم مالبثوا أن استردوا شجاعتهم، واستأنفوا القتال، وكانوا عطاشى للانتقام (مثلهم مثل اللبوة عندما يخطف أشبالها)، وحملوا على الأعداء، وخرقوا صفوفهم وشتتوها.

ثم كان بامكانك رؤية الخيول وقد زالت سروجها عن أماكنها، والأتراك الذين كانوا قد فروا للتو، وعادوا وحملوا على شعبنا بشدة متناهية وبغضب هائل ، ولولا أن رجالنا حافظوا على التقدم ولم يتوقفوا أثناء الالتحام، بل بقيوا كتلة متحركة، لخبرت عنهم كل دفعة من الرمايات التي تلقوها.

وكان قائد الترك أميراً حمل اسم تقي الدين، وكان من أقرباء السلطان، وقد حمل راية ذات شكل مدهش ونموذج فريد: فقد حيك عليها صورة زوج من السراويل القصيرة، وهو رمز كان معروفاً بشكل ممتاز بالنسبة لرجاله، ولقد كان أقسى رجال أعدائنا وأشدهم عنفا والعدو الأعظم تصمياً للصليبيين، وكان تحت امرته سبعمائة من نخبة الأتراك، ومن أعظمهم شجاعة من عساكر بيت صلاح الدين، وقد حمل أتباع كل واحد منهم علماً أصفر، مع عذبات ذوات ألوان مختلفة.

وحمل هؤلاء على رجالنا بسرعة قصوى، محدثين ضجة عظيمة، وكان مظهرهم مظهرا مخيفاً، وقد انقضوا على رجالنا الذين كانوا على نية الانعطاف والعودة نحو الراية العظمى، وشرعوا في تمزيقهم وطعنهم

بشدة متناهية، حتى أن أكثر الناس ثباتا بين مقدمينا تقلقلوا تحت ثقل ضرباتهم وضغطهم، ومع هذا ثابر رجالنا وتابعوا الاشتباك بهم، وكانوا مرغمين على صد القوة بالقوة، وتعاظم الالتحام وازداد كثافة، وتضاعفت الضربات، وغدت المعركة أكثر حدة، وكانت الجهة المهاجمة تسعى لسحق أعدائها، في حين سعى الآخرون — أي الفرنجة — لصد المهاجمين وردهم.

وبذل كلا الطرفان غاية جهودهما، ومع أن رجالنا كانوا أدنى عدداً من أعدائهم، لقد تمكنوا من احداث فوضى عظيمة وسط الأعداء وأعطوا الانطباع أنهم حشد عظيم، لكنهم باتوا في مأزق شديد، وكانوا غير قادرين على العودة نحو الراية العظمى بسهولة، وبدأوا يتخاذلون، وشجاعتهم تتطاير، وقلة منهم تجرأت على تجديد الحملة على الأعداء، وصدقاً أقول: كان الترك أشداء جداً في حملتهم، وأرعبوا رجالنا إلى درجة عالية، رجالنا الذين أخذت دماؤهم تتدفق أمامهم وتسيل مثل جدول صغير، وذلك نتيجة لما تلقوه من ضربات.

وعندما رآهم وليم دي باري— وكان فارساً واسع الشهرة — ناكصين على أعقابهم، خرق صفوفهم، ومن هناك حمل على الأتراك بصحبة رجاله، وكانت حملته شديدة إلى حد أن بعضهم سقط بحد السيف، في حين أنقذ الآخرون أنفسهم بوساطة الفرار السريع.

ثم انعطف الملك باتجاه الجبال، وكان على ظهر كميت قبرصي لا نظير له، وشتت الذين واجههم من على جميع الجوانب، لأن العدو هرب من سيفه، وأفسح أمامه المجال، وذلك في وقت تدحرجت فيه الخوذ على الأرض أمامه وتصاعد منها الشرر من الضربات، ولقد كانت حملته عنيفة جداً، وكانت ضرباته كثيرة ومميته في ذلك اليوم أثناء التحامه مع الترك وصراعه ضدهم، حتى أن العدو تشتت في وقت قصير، وذهب في جميع الاتجاهات، ومن ثم تسنى لجيشنا متابعة سيره وسمح له بذلك، وهكذا

بعد ما عانى رجالنا ماعانوه، عادوا أخيراً إلى الراية العظمى، وتابعوا زحفهم حتى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج الأسوار.

وفيما كانوا منشغلين بنصب الخيام، حملت كتلة كبيرة من الأتراك على أقصى صفوف ساقة جيشنا، وما أن سمع الملك رتشارد أصوات المهاجمين حتى تولى تشجيع رجاله وحثهم على القتال، وقام على الفور بالاندفاع بأقصى سرعة نحو الساقة ومعه فقط خمسة عشر واحداً من أتباعه، وانقض على الترك وهو يصرخ بصوت مرتفع وينادي: «أعنا أيها الرب، عونك أيها الضريح المقدس»!، وكرر هذا النداء ثانية، ثم أعاده مرة ثالثة، وعندما سمع رجالنا أصواته، بادروا مسرعين للحاق به، وقاتلوا الترك، وهزموهم، وأجبروهم على الفرار، وطاردوهم حتى أرسوف (التي قدموا بالبداية منها) ومزقوهم وأخضعوهم.

ثم عاد الملك من مطاردة الفارين وقتلهم، إلى معسكره، وفي تلك الليلة نام رجالنا بهدوء بعدما أنهكهم عناء ذلك اليوم.

وعاد كل من كان جشعاً لنيل الربح، ورغب في جمع الأسلاب إلى أرض المعركة، وحمّل نفسه بها أشبع رغبات قلبه، وذكر الذين عادوا من هناك بأنهم أحصوا وجود اثنين وثلاثين مقدماً تركيا قد قتلوا في ذلك اليوم، وقدروا ذلك من خلال سلاحهم الرائع ومظهر ملابسهم الثمينة، وبناء عليه افترضوا أنهم كانوا من ذوي الأهمية الكبيرة والنفوذ العظيم والسلطة، وبحث الترك أيضا عنهم وحملوهم معهم، وكأنهم من أعظم الناس مكانة، وحمل الترك مع هؤلاء جثث سبعة آلاف اختلطوا فيما بينهم، وكان أصحابها من ذوي المراتب التالية، وذلك بالاضافة إلى الجرحى الذين ساروا في مجموعات بطيئة خلف القوات، وعندما فقدوا قواهم سقطوا في أرجاء أرض المعركة وماتوا، وبفضل من الرب لم نفقد العشر من قواتنا، وأقل من واحد على مائة مما فقده الجيش التركي.

ولقد بكينا كثيرا وندبنا خسارة جيمس دي أفنس، الـذي قهره الأتراك بفضل تفوقهم العـددي، وقد رمي من على ظهر حصانـه بشكل مأساوي وهو يقـاتل بشجاعة، وتجمـع الترك من حـوله، وقتلـوه بعد بـذلهم لجهد عظيم، لكنه قتل قبـل موته خمسة عشر رجلاً من الترك، وذلـك تبعاً لرواية الذين أرسلوا لجلب جثته إلى المعسكـر، فقد وجدوا هذا العدد الكبير من الترك وقد ألقوا مـن حوله، ووجدوا هنـاك بين الموتى إلى جانبه ثـلاثة من أقربائه، ممن لم يقدم لهم بعض رجالنا المسـاعدة التي توجبت عليهم، بل (من المعيـب القول): تخلـوا عنهم وهجـروهم أثنـاء صراعهم ضـد حملة الأتراك، ولهذا السبب استحق كونت أوف درو Dreux مع آخرين كانوا حاضرين، العار والازدراء.

وامتلأ السلطان غضباً عندما سمع أن قـواته المنتقاة، التي وثق بها ثقة كبيرة وعليهـا اعتمد، قـد هزمـت على هذه الصـورة من قبـل الصليبيين، وانفعل انفعالاً كبيراً، واستـدعى إليه أمراءه وخـاطبهم بقوله: « هـل هذه هي أفـاعيل عسـاكري الشجعان، الـذين كـانوا يومـا من الأيـام عظيمي الفخار، والـذين أثقلتهم بـالعطايا والهبات؟ ألا ترون أن الفرنجـة يعيثون فسـاداً بـالديـار حسبما يـرغبون، لأنـه ليـس هناك مـن يتصـدى لهم»!، وخفض الأمـراء رؤوسهم وطـأطأوهـا نحو الأرض لـدى سماعهم كلماتـه هذه، غير أن واحداً منهـم رد عليه قائلاً:« مولاي السلطـان المبجل، عفواً منك ومعذرة إن هذه التهمة غير عادلة، لأننا قاتلناهم بكل قوانا، وبذلنا غاية جهدنا لتدميرهم، غير أنهم قد ارتـدوا دروعاً وسوابغ لايمكن خرقها بأي سلاح، ولهذا أخفقت جميع ضربـاتنا، لأنها كأنما سقطت على صخرة من صوان، زد على هـذا بين صفوفهم رجل تفوق على كـل رجل رأيناه في حياتنا، وهم يدعـونه الملك رتشارد (رك Ric)، فهذا الملك كما يبدو قد ولد ليتـأمر على جميع الأرض، فما الـذي كان يمكننـا فعله ضد مثـل هذا العدو المرعب»؟

واستدعى صلاح الدين وهو في حالة غضب قصوى وانزعاج، إليه أخاه سيف الدين، وخاطبه قائلاً: « إن رغبتي هي أن تحاول معرفة المدى الذي يمكننا الاعتماد به على رجالنا في هذه الضائقة، وكم من الثقة يمكن أن نضعها فيهم: امض بدون تأخير ودمر أسوار عسقلان وغزة، لكن أبق دير البلح في عهدة رجالنا لضمان سلامة الذين يعبرون ذلك الطريق، ودمر أيضاً: النطرون وتل الصافية، ويافا، والجيب الفوقاني، والجيب التحتاني، واللد، والرملة، وكوكب، والشوبك، وقاقون، وقلنوسة، والقيمون، وجميع الحصون الجبلية، ولاتبق مدينة ولا قلعة ولاحصنا، باستثناء القدس، والكرك» .

وأطاع سيف الدين هذه الأوامر، وخرب جميع هذه القلاع والحصون بدون تأخير.

- ٩١٢ -

كيف كاد الملك رتشارد أن يقع أسيراً بيد الترك

وفي يوم الاثنين، وهو اليوم التالي لعيد ميلاد العذراء المباركة، واليوم الثالث الذي جاء بعد المعركة، زحف الملك رتشارد مع جيشه إلى أرسوف، ووصل إلى النهر دونها معارضة، وعندما وصل الصليبيون، كان الترك واقفين في كمين قريب، لذلك رموا معظمهم بالحراب والجروخ والنشاب، غير أنهم أخفقوا في تحقيق النجاح، ولهذا تراجعوا، وعسكر رجالنا تلك الليلة عند أرسوف.

وفي الصباح، لم يكن من السهل على قواتنا المحافظة على تعبئتها، ومع ذلك زحفت مع ضباط رسميين إلى يافا، التي وجدوها بحالة دمار، لهذا تعذر على الجيش أن يجد مكان إقامة فيها، ولهذا عسكر رجال الجيش في بستان للزيتون على الجانب اليساري من البلدة، وكان ذلك بعد مضي ثلاثة أسابيع على مغادرة عكا.

ومكث الجيش خارج أسوار يافا، وجدد نشاطه وتمتع بوفرة الفواكه هناك من تين، وعنب، ورمان، وحمضيات، وهو ما كانت المنطقة هناك تنتجه، وسافرت سفن الاسطول العائد للملك رتشارد مع مراكب أخرى كانت قد رافقت الجيش، فيما بين يافا وعكا. وجلبت لنا ما كنا نحتاجه، مما أغضب الترك كثيراً، ذلك أنهم لم يتمكنوا من منعها.

وكان صلاح الدين قد دمر بالوقت نفسه أسوار عسقلان، وجلب هذه المعلومات واحد من الجنود العاديين، الذي نجا أثناء تنفيذ العمل، لكن صعب على شعبنا أن يصدق أن هذا كله قد صنعه صلاح الدين وهو في حالة يأس، وبغية التأكد من حقيقة الأمر، بعث الملك رتشارد، بناء على نصيحة نبلائه، غيوفري دي لوزغنان، ووليم دي ستاغنو مع آخرين في سفينة حربية قوية، للإبحار إلى عسقلان، ومن ثم العودة جالبين معهم

بيانا عـن الأوضاع وعن مجريات الأمـور، ونفذوا المهمة بإخـلاص، وذكروا أن ما سمعوه كان صحيحاً.

وبنـاء عليه تنـاقش الملـك رتشارد مـع نبـلائه وتباحـث حول الـذي عليهم القيـام به: هـل يزحفون الى عسقـلان لإنقاذهـا، أم يزحفـون نحو القـدس، وعرضـت آراء كثيرة ومـواقـف عديـدة، وعـرض الملـك موقفـه بحضور دوق بيرغنـدي وآخرين بهذه الكلمات حيـث قال:« يبدو بـالنسبة لي أن خـلافاتنـا بالـرأي، لايمكن أن تكـون بلا فـائدة فقط، بـل خطيرة بالنسبـة للجيش، فالترك الذيـن يتولون تخريب عسقـلان، لايتجرأون على مقابلتنا على ساحة المعركة، وأعتقـد أن علينا بذل الجهد لانقاذ عسقلان، في سبيل حماية الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق».

وعارض الفرنسيـون بعنف هذا الموقف، وأوصوا بوجـوب استرداد يافا، لأنها تؤمـن طريقاً أقصر بالنسبـة للحجاج وأسهل للذهـاب إلى القدس، وهللت الحشود وأيـدت الموقف الفرنسي، وهو رأي أحمق، صـدر عن عناد قاتل لهؤلاء الناس الكسالى، الذين آثـروا الراحة المباشرة والعمل الأسهل، وتجنبوا الجهـد والانفاق، وهـذا ما سـوف يندمـون عليه، لأنهم لـو أنقذوا عسقلان آنـذاك من الترك، لكـان من الممكـن سريعا تنقيـة الأرض كلها منهم، لكـن صراخ الناس هـو الذي سيطر، وجـرى حشد بعـض الناس، حيث شرعوا على الفور في إعادة بناء أبراج يافا، وتعزيل الخندق.

وبقي الجيش هناك مدة طويلة يتمتع بالراحة والرفاه، وازدادات ذنوب رجاله وتراكمت عليهم يومياً، فقـد جاءت النساء من عكا إليهم، لإثارة غرائزهم، ولمضاعفة آثامهم، وفسـد الناس جميعاً، وانطفأت حرارة الحماسة نحو الحج، وأهملت جميع أعمال العبادة والتقوى.

ومع نهاية ايلول، عنـدما اكتمل جزء من إعادة بنـاء يافا، تحرك الجيش من ضواحيهـا وعسكر أمام حصن حبقوق، وكـان جيشاً صغيراً جداً، لأن

من المؤسف أن عـدداً كبيراً منه قد غادروا وعادوا إلى عكـا، حيث أمضوا أوقاتهم في الحانات، وعندما شاهد الملك رتشارد تقاعسهم وانغماسهم في الآثام، أرسل الملـك غي لإعادتهم إلى الجيش في يافـا، غير أن عدداً قليلاً جداً منهم عاد، مما أرغم الملـك رتشارد نفسه على الإبحار إلى عكا، حيث حثهم على تذكر واجباتهم كحجاج، وأقنـع بهذه الوسيلة عدداً كبيراً منهم على العودة إلى يافا، كما أنه اصطحب معه الملكتين، ونسائهما.

ومكثـوا الآن مدة سبعـة أسـابيع في يـافا لـلاحتشـاد، ولتجهيز جيـش وإعداده، وهكذا عندمـا التأم جمعهم شكلوا كتلة أكبر عدداً وأكثـر كفاية من ذي قبل.

وخرج الملك رتشارد في هذه الآونة للصيد، ومعه مرافقة صغيرة، وكان عازمـاً أنه إذا ما رأى مجموعـة صغيرة من الترك أن ينقض عليهـا، ولدى شعوره بـالتعب الشـديد مـن الركـوب ترجـل ونام، وهنـا انقضت عليـه مجموعـة من الترك بشكل مفـاجىء بغيـة أسره، وأفاق الملك لـدى سماعه الأصوات، وما كـاد يمتطي صهوة مهره الكميت القبرصي، ويركـب رفاقه مطـايـاهـم، حتـى وصل الترك، غير أن الملـك امتشـق سيفـه، وانـدفـع نحوهـم، فتظاهروا بـالفرار، وجعلوه يسعـى خلفهم إلى مكان كمنـت فيه مجمـوعـة أخرى مـن الترك، وخـرج هـؤلاء مسرعين من الكمين وطـوقـوا الملك لأخذه أسيراً.

ودافع الملـك عن نفسه بشجـاعة، وتراجـع الأعداء، علما أنه كـان من الممكن وقـوعه بـالأسر لو أن الترك عرفـوا من كان هـو، ففي أثنـاء العراك صرخ واحـد من رفـاق الملك واسمـه وليـم دي بريتـلPratelles بلغة المسلمين، يعرفهـم أنه هو «الملك»، وصـدق الترك ما قاله، فسـاقوه أسيراً إلى جيشهم.

وقتل في هـذه المناوشة رنير دي مـاروم، وكان فـارساً شجاعـاً، غير أنه

كان تقريباً أعزل من السلاح، وكذلك ابن أخيه وولتر مع ألان، ولوقا دي ستيبل، ولدى وصول أخبار هذه الواقعة إلى جيشنا استنفر، وحمل السلاح، وجاء مسرعاً جداً ليجد الملك، وعندما رأته عناصر الجيش عائداً، والتقى بهم، قاموا معاً بمطاردة الترك، غير أنهم لم يستطيعوا اللحاق بالفارين، وتم حفظ الملك رتشارد بيد الرب لأشياء أعظم، وقد عاد إلى المعسكر وسط بهجة عامة من قبل عساكره، الذين حمدوا الرب وشكروه على حفظه له، لكنهم حزنوا من أجل وليم دي بريتل، الذي أنقذ باخلاص الملك مقابل حريته الشخصية.

ووجه بعض رفاق الملك النقد الآن إليه، وحذروه من التجول خارج المعسكر لوحده، ومن تعريض نفسه للأسر بوساطة كمائن الترك، الذين كانوا متشوقين لأسره، وأن عليه أن يصطحب معه في جميع المناسبات بعض الجنود الشجعان، وألا يعتمد فقط على قوته للتصدي لمثل هذه الأعداد، لكن الملك لم يأخذ بنصائح أحسن رفاقه ولم يتمسك بها، فقد كانت طبيعة تدفعه للتحرر، وعدم التقيد، فهو قد كان في جميع الحملات الأول حملة والأخير تراجعاً،ولم يخذل قط سواء من قبل شجاعته، أو من العون الرباني، في العودة ومعه عدد من الأسرى، أو إذا قاوموا، جعلهم طعماً لسيفه.

ووضح أن العساكر قد ارتاحت الآن، واستردت شجاعتها، فصدرت الأوامر الملكية إليها لإعادة بناء قلعة الجيب الفوقاني، التي كانت ضرورية لسلامة الحجاج الذين يعبرون ذلك الطريق، وبناء عليه ترك الملك حامية في يافا، مع أوامر في أن لايغادر أحد منهم المدينة وذلك باستثناء التجار الذين يتولون جلب الميرة، وعهد بأمر المدينة إلى أسقف افرو Evreux، مع كونت أوف شالون Chalons ، وهيوج ريبول Ri-boleوآخرين .

وكان اليوم التالي هو ليلة عيد جميع القديسين، وبعد ما زحف الملك

لمسافة قصيرة عسكر فيها بين الجيب الفوقاني والجيب التحتاني، وكان الجيش التركي آنذاك في الرملة التي اعتاد أن يقلع منها بحملات ضدنا.

وفي يوم الأربعاء، وهو يوم عيد جميع القديسين، كان الملك رتشارد راكباً في سهول الرملة، ورأى صدفة بعض الكشافة الترك، فهاجمهم بشجاعة، وألحق بهم الهزيمة، وذلك بعد ما قتل بعضهم، وقطع رأس واحداً من أعيان أمراء الترك، وانهزم الباقون.

ومكث الجيش خمسة عشر يوماً حيث كان، وأعاد الداوية بناء حصن الجيب الفوقاني، غير أنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه حملات الأتراك، الذين حملوا عليهم في أحد الأيام بحشد كبير من الرجالة وألف من الخيالة، لكن الملك امتطى حصانه بسرعة، ونهض الجيش كله، وهرب الترك بعدما فقدوا عشرين رجلاً قتلوا، وستة عشر أسروا، وباءت بالاخفاق إثر هذا جميع محاولات الملك لأسر البقية وقتلهم، وتابع مطاردته حتى بات على مرأى من الرملة، ثم قاد قواته عائداً إلى المعسكر.

وفي اليوم السادس بعد عيد جميع القديسين خرج جميع السادة ورجال السلاح للبحث عن الطعام والأعلاف لخيولهم ولحيوانات التحميل، وتولى الداوية حراسة السادة حينما تفرقوا بحثا عن أعشاب غضة، وهو واجب كلفهم أحياناً غالياً إذا ما تصرفوا بدون حذر شديد، وفيما الداوية منشغلون بهذا الواجب، اندفع نحوهم حوالي الأربعة آلاف من الترك في أربع مجموعات، وبدون تأخير كان الداوية مطوقين من قبل حشود متزايدة من الترك.

وترجل الداوية وسند أحدهم ظهره إلى الآخر، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وفي لحظة واحدة قتل ثلاثة منهم، وأعقب ذلك صراع حاد، لأن الترك حملوا عليهم بشدة متناهية وبحدة وحاولوا أخذهم أسرى، وعندما حملت أخبار ما يحدث إلى المعسكر، بادر أندرو دي شافني -Cha

vigny مسرعاً نحوهم لانقاذهم ومعه خمسة عشر فارساً، وتمكن من انقاذ الداوية من وضعهم الخطر، غير أن الترك كانوا يتسلمون النجدات باستمرار، وقاموا أحياناً بالهجوم وأحياناً بالتراجع، واستمرت المعركة مستعرة حتى سمع الملك رتشارد— الذي كان مشغولاً في اعادة بناء الجيب التحتاني — بالصخب، فبعث بكونت دي سينت بول وبايرل ليستر لمساعدة الداوية، وذهب معهم وليم دي كين Cagen، وأوثو دي برانسنغ Pransinges ،وسمعت الجماعة بالحال صرخات الرجال المسلحين للنجدة، ثم حث الملك الكونتين ليتجهزا، وليحملا أسلحتهما وليلحقا بهم بأقصى سرعة ممكنة.

وبينما كان الكونتان مسرعان نحو الأمام ظهر أمامهما أربعة آلاف من الترك بشكل مفاجيء، وكانوا في أربع مجموعات، وجاء ظهورهم من واحد من الأنهار المجاورة، وهاجم نصفهم الداوية في حين حمل البقية على الكونتين، وهنا قدم كونت سينت بول اقتراحاً لم يكن مجدياً، إلى ايرل ليستر، وكان اقتراحه أن يتولى واحد منهم الاشتباك مع العدو، في حين يقف الآخر ليقدم العون عندما يتضح أن ذلك بات ضرورياً، واختار ايرل ليستر أن يتولى قتال العدو، ولم يرغب بالوقوف دون أن يعمل شيئاً، وهجم على الفور على الأعداء واستنقذ من أيديهم اثنين من رجالنا كانوا قد أسروهم، وأضاف بهذا الانجاز الذي حققه في ذلك اليوم كثيراً إلى سمعته العالية من قبل.

وكان الاشتباك يدور بشكل عنيف جداً، وذلك عندما وصل الملك، وكانت حاشيته صغيرة جداً، فقال له بعض رجاله:« لانرى يامولانا من الحكمة أو من الممكن، بعددنا الصغير، أن نقاوم هذا الحشد الهائل، كما أننا لن نستطيع انقاذ رجالنا الذين يقاتلون الأتراك، ومن الأفضل أن ندعهم يموتون على أن نعرض شخصك وجميع المسيحيين لخطر مؤكد وذلك في الوقت الذي نمتلك فيه القدرة على النجاة».

وتغير لون الملك لسخطه تجاه سماع هـذه الكلمات وقال:« ماذا، إذا ما أهملت أنـا تقديم العـون للرجال الـذين أنا بعثـت بهم أمامي، مـع وعد باللحاق بهم، إنني لن أستحق ثانيـة أن أدعى ملكاً، ولم يزد على هذا بل غمز حصانه، وانـدفع نحو وسط الأتراك، فقهرهم مـن على جانبيه، وكان شاهراً سيفه يضرب بـه حيث شق طريقه نحو الأمـام ونحو الخلف وسط الصفـوف الكثيفة، فقتـل وأصاب بشكـل قـاتل كـل واحد اقترب منـه، وكـان فيمن قتلهـم، واحداً مـن الأمـراء الأتراك، رمـاه حظه وقـدره على طريقه.

وصار العـدو إما طعمة للسيـف، أو منشغلاً بالفـرار، وعاد رجالنـا مع عدد من الأسرى إلى المعسكـر، وتم الحصول على هذا النصر دون نيـل أية مساعـدة من الفرنسيين، وتخلى في ذلك اليـوم نفسه ثلاثة مـن الأتراك— ربما لخوفهم مـن الموت — عن أوهـامهم، واعتنقـوا المسيحية، وخضعـوا للملك رتشارد.

وكان الآن قـد تمت اعادة بنـاء جزء مـن القلعتين، وإدراكاً مـن الملك رتشارد أن قواتـه لاتكره الأتراك فقط، بـل إنها لم تعد تخشاهم كما كـانت مـن قبـل، ذلك أن هـذه القـوات تمكنـت دومـاً — بعون الـرب— مـن هزيمتهـم، ولهذا قام الآن بـارسال سفارة متميـزة إلى صلاح الـدين وإلى أخيه سيـف الدين، يطلب استسـلام مملكة سوريـة، مع كل ما هـو عائد إليها، حسبما كانت أيـام الملك المجذوم، وطالب أيضاً بتسلـم الجزية من مصر، مثلما كان الملـوك — من أسـلافه — يفعلـون مع جميـع الامتيازات والحقوق التي توفرت في يوم من الأيام وعادت إلى مملكة القدس.

وكشـف السفراء عـن محتوى رسـالتهم أمـام صلاح الـدين، الـذي لم يستجب أبـداً للمطالب، ورد عليهم قـائلاً:« ادعى ملككم مطـالب غير معقـولة، ونحـن لانستطيع، رعـاية لايماننـا واسـلامنا أن نـوافق عليهـا، لكنني سـوف أمنح ملككـم من خـلال أخي سيـف الديـن جميع أراضي

القدس من الأردن إلى البحر، بدون جزية أو معيق، على شرط أن لا يعاد بناء مدينة عسقلان لا من قبل المسيحيين ولا المسلمين».

وعندما جاء سيف الدين حاملاً هذه الرسالة إلى الملك، كان الملك رتشارد قد فرغ لتوه من الفصد، لذلك لم يكن قادراً على التباحث معه في ذلك اليوم، لكن ستيفن دي تورنهام، أكرمه — بناء على أمر الملك — بكل أنواع الطيبات حيث وضعها أمامه على المائدة، واستضافه ولاطفه في الوادي فيما بين قلعتي الداوية ويهوشفاط، وبعث سيف الدين في اليوم التالي بهدية مكونة من سبعة جمال، وخيمة ثمينة، وجاء للمثول بحضرة الملك، حيث قدم رسالة صلاح الدين، ورأى رتشارد أن الفوضى وعدم معرفة نتائج الحرب والتأكد منها، تحتاج إلى الصبر والانتظار الطويل، ولذلك الأفضل الاتفاق حول المستقبل، لكن، من المؤسف أظهر قليلاً جداً من الحكمة والإدراك، ولم يكتشف الخداع الذي تعرض له حتى يمر الوقت فتكون المدن والقلاع والحصون في تلك المنطقة قد دمرت كلها.

وكان سيف الدين قد خدع ببراعة الملك الساذج جداً، إلى حد تكوين انطباع أن اتفاقاً قد عقد بتبادل المصالح الأسرية والتفاهم المشترك، ذلك أن الملك تسلم يومياً هدايا سيف الدين، وكانت الرسائل تمر يومياً مع الهدايا للملك، الأمر الذي أزعج أصدقاءه وأغضبهم لإقامته عقداً للصداقة مع المسلمين، لكن سيف الدين أصر أن ما يريده هو إقامة سلام بين الملك وبين صلاح الدين، واعتقد الملك أنه كان متبنياً سياسة حكيمة، يمكن بوساطتها توسيع حدود الصليبيين، ومن ثم ابرام سلام معتمد وموثق، وخاصة أنه منذ أن غادر الملك الفرنسي، بات يخشى من عمل خياني من قبله لأنه وجد أن صداقته دائماً جوفاء ومخادعة، وعلى كل حال عندما اكتشف الملك أن وعود سيف الدين كانت مجرد كلمات، ولايمكن منها الوصول إلى أية محصلة، لاسيما فيما

يتعلق بحصن الشوبك ، أوقف على الفور المناقشات، والذي فهم من الشروط أن الملك طالب بهدم هذا الحصن، لكن الترك رفضوا الاستجابة لهذا المطلب.

وعندما بات خبر اخفاق المعاهدة معروفاً، ظهر العدو من جديد، وبات يرى على أجنحة قواتنا، ونزل الملك رتشارد من جديد إلى ساحة المعترك للتصدي له، وأزاح بهذه الوسيلة التهم المتقدمة التي وجهت إليه وأثيرت ضده، وجلب معه في كل يوم عدداً من رؤوس الأتراك، ليبرهن أن غيرته لم تخف ولم تضعف تجاه القضية الصليبية.

- ٩٢١ -

حول المعاناة المزعجة من الأمطار ومن الأعداء

عندما اكتمل ترميم الحصنين وشحنا بـالجند، حرك رتشارد جيشه نحو الرملة، الأمر الذي جعـل صلاح الدين يأمر بإزالة أسـوارها، لأنه لم يتجرأ على اللقاء مـع الملك في ساحـة القتال، ثم انسحب مـع قواته نحـو دير البلح، لأنه وثق وثوقاً عظيماً بالمناطق الجبلية.

وعندها عسكـرت قواتنا فيما بين اللد والرملـة، وهناك مكثنا لمدة اثنين وعشريـن يـوما ننتظـر النجـدات والمؤن، ومـالبثت الهجمات العنيفـة مـن العدو، والأمطـار الغزيـرة أن أرغمت ملـك القدس وشعبنـا على الانتقال إلى هـذه الأمـاكن، بينما ذهـب كـونـت أوف سينـت بول إلى قلعـة بيـت (نوبة)، وتوقفنا بالرملـة لمدة سبعة أسابيع، لكن في وضع صعب، ،غير أن البدايـة الصعبة تحسنت فيما بعـد وتغيرت الأوضاع نحو الأفضـل لبعض الوقت فقـط، لأن الترك ماكانوا ليسمحـوا لنا ولابقليل من الاستقـرار، بل هاجمونا باستمرار بجروخهم ونشابهم.

وفي أمسية عيد القديس توما، زحـف الملك رتشارد مع حاشية صغيرة نحو قلعة تدعى تل الصافية، للقيـام بمغامرة ما ضد الترك، غير أنه شعر بوجـود غلط ما (بإلهام كما يعتقـد من السماء) فعاد إلى المعسكر، وتنـامى إليه في السـاعة نفسها أن صلاح الـدين بعث قبـل قليل قوة مكونـة من ثلاثمائة من نخبـة قـواتـه إلى تل الصـافيـة، أي إلى حيـث كان رتشـارد متوجهـاً، وفي اليوم نفسـه ذهب الملـك غي إلى عكـا، إلى حيث تبعـه في اليوم التالي ستيفن دي تورنهام.

وفي منتصف ليلة عيد الأبريـاء المقدسين (٢٨ — كانون الأول) غادر الداوية والاسبتـارية المعسكر، وعادوا في الصباح مـع مائتي ثور، سـاقوها من المنطقة الجبلية قرب القدس.

وفي الـوقت نفسـه بات معـروفـاً إلى صلاح الـديـن أن رجالنـا كانـوا يستعدون لمهاجمة القدس، وأنهم باتوا على مسافة ميلين منه، ولم ير صلاح الدين مأمونا أن يتحارب مع الصليبين، لـذلك أصدر أوامره بتخريب دير البلح، خـاصة أسوارهـا وأبراجها، وتراجـع هو نفسه إلى القـدس، وغادر الترك السهول وانسحبوا نحو الجبال.

ونتيجة لهذا صدر الأمر إلى رجالنا بصوت المنادي بالتحرك نحو سفوح الجبال، وعنـدما اكتملـت جميع الاستعـدادات، زحفوا نحـو قلعة اسمهـا بيت نـوبة، ثـم بدأت الأمطـار وكذلـك البَرَد يتساقطـون عليهم، فقتلـت كثيراً من حيـوانات التحميـل، وكانت العـاصفة شـديدة وعنيفـة إلى حد أنها دمرت أوتاد الخيم، وأغرقـت الخيول، وأتلفت البقسماط ولحم الخنزير، وصـدأت الدروع والسـوابـغ إلى حد كبير حتـى أنها احتـاجت إلى عمـل عظيم لإعادتها إلى لمعـانها السالف، وتلفت مـلابسهم من البلل، وعـانى الرجال أنفسهم من شدة البرد والمناخ القاسي الذي لم يعتادوا عليه.

وفي ظـل هذه المعـاناة، وجـدوا أن مخرجهـم الوحيـد كامـن في غيرتهم وحماسهم لخدمة الـرب، ولهذا رغبوا في انهاء حجهم، ففي ذلـك راحتهم، ولتحقيق هذا الهدف والوصول إلى هذه الغايـة، قدم كل واحد حصته من المؤن من أجل الحصـار، واجتمعوا جميعاً مسرورين واستعـدوا لكل شيء، حتى الذين كانوا مرضى في الفراش في يافا تم حملهم على المحفات، فقد كانـت رغبتهم عـارمة جـداً لرؤيـة القدس، وتـأثر عـدد كبير جداً منهـم بـالرغبـة لرؤيـة ضريح ربنـا، وكان هـذا أملهم الـوحيد في ظـل المعانـاة الهائلة،لكن الترك لم يقيمـوا وزناً أو تقديراً للـذين كانوا يـرافقون المرضى، ووقفـوا في مكامنهـم ينتظـرونهم وقتلوهـم معـا: الحامل والمحمول، فقـد عدّوهم كلهم ونظروا إليهم على أنهم أعـداء، ومن المؤكد أن هؤلاء سوف يعـدّون شهداء، وهنـا تتوفـر الراحـة والمواساة بـالنسبة لهم، وصحيـح أن الترك قتلوهـم بنوايـا شريرة، ومع ذلـك لقد عانـوا فقط للحظـة واحدة،

ونالوا جزاء عبادة مديدة وخدمة طويلة.

وسر الجيش الآن سروراً عظيماً، اعتقاداً منه أنه سوف يلقي بالحال نظرة على ضريح مولانا، وبدأ الجميع يعملون على تلميع دروعهم وخوذهم وسيوفهم، حتى لاتبقى ولانقطة تفسد لمعانها، وباختصار كان الجميع متشوقاً لخوض غمار هذه المغامرة، وتبجحوا أن جميع قوى الاسلام أو الحملات المعادية للمسلمين لن تمنعهم من تنفيذ تعهدهم الصعب.

غير أن العقلاء بينهم لم يوافقوا على هذه الآراء ولم يرتضوها، وأقنع الداوية والاسبتارية والبلديون (البوليانز) الملك رتشارد بالاقلاع عن الزحف حاليا نحو القدس، ذلك أنهم امتلكوا بصيرة أمضى حول أوضاع البلاد ومستقبلها، وكانوا يخشون أن يتعرضوا وهم يحاصرون صلاح الدين لهجوم الجيش التركي الذي كان بين الجبال، فهذا الجيش قد يفاجىء رجالنا، وبذلك يصبحون بين قوتين: تقاتلهم شحنة القدس من الداخل والجيش التركي من الخارج، لابل أكثر من هذا حتى وإن استولوا على القدس، سيكون من الضروري شحنها بقوة من أشجع العساكر، وهذا سيكون من الصعب جداً تحقيقه، لأن الناس أصابهم الانهاك، وكانوا يعانون من قلة الميرة والعتاد، وكلهم متشوق لاكمال حجه والعودة إلى وطنه،ولهذه الاسباب نصحوا بتأجيل الحصار إلى وقت آخر، وإبقاء الجيش مجتمعاً، فهذا يتحقق طالما أن نذر عناصره لم يتم الوفاء بها، لأنه ما أن يقوموا بالوفاء بتعهداتهم حتى ينفرط عقد الجيش، لكن نصيحة الداوية لم يصغ إليها أيضاً.

وكانت الآن بداية السنة (سنة ١١٩٢) وكانت سنة كبيسة، وفي اليوم الثالث التي جاء بعد ختان ربنا، كان الجيش على نية التحرك، فهاجمه حشد من الترك كانوا قد أقاموا كمائن في الليلة السالفة قرب قلعة الجيب التحتاني، أقاموها بين الأحراش التي حاذت ذلك الطريق، وعلى الفور تمت إبادة مجموعتين من رجالنا كانتا في الطليعة، واطلع

الملك رتشارد على خبر الكمين، فزحف بكل سرعة في الصباح، آملاً أنه سيتمكن من انقاذ قوات المقدمة، لكن الترك، وكان عددهم حوالي المائة، وهم الذين شكلوا الطليعة (اليزك) لاحظوا راية الملك، فهربوا، وأصيب سبعة منهم: بعضهم قتل، وبعضهم الآخر وقع بأسر الملك وهو يقوم با لمطاردة.

وبعد عدة أيام من عيد الغطاس، اجتمع رجال المجلس الاستشاري للجيش ثانية، ومعهم بعضاً من أكثر البلديين حكمة، للبحث في مسألة الزحف إلى القدس، ومن جديد ألح الاسبتارية والداوية مع البلديين (البوليانز) كما فعلوا من قبل على وجوب إعادة بناء مدينة عسقلان، لقطع المواصلات والمراسلات بين القاهرة والقدس.

وعلى هذا وافقت أكثرية المجلس، وعندما غدا هذا معروفاً، كان الجيش منزعجاً جداً، حيث تصور أن آماله في رؤية ضريح الرب ستعاق كلية، واختفت الحماسة السالفة لعناصره، وخلفها اليأس وحل محلها، في حين صبوا لعناتهم على أصحاب هذا القرار على أساس أنهم دمروا أثمن أمانيهم وأغلاها.

ولو أنهم عرفوا ما كان يعاني منه الذين سكنوا القدس من مصاعب ومشاق لحصلوا على بعض السلوان والمواساة من اضطرابات العدو وآلامه، ذلك أن الترك في القدس كانوا يعانون كثيراً، ويواجهون أثقل المشاق من البَرَد والثلج، الذي كان يذوب في الجبال، مسبباً فيضانات من المياه كانت تنحدر نحو المدينة وتتدفق عليها، مسببة إما اغراق مواشيهم، أو قاتلة إياهم أنفسهم فيها بعد نتيجة للبرد، فلقد كان عناءهم من حالة المناخ قد بلغ حداً عظيماً، إلى حد لو أن الصليبيين عرفوا بذلك لكان من المؤكد تمكنهم من الاستيلاء على المدينة، مع انه كان مقدراً عدم استطاعتهم الاحتفاظ بها لوقت طويل، لأن الناس كانوا بعد وفائهم بنذرهم المتعلقة بالحج سيعودون إلى أوطانهم، وكانوا

لن يجدوا ما يكفي من القوات لشحنها بها والدفاع عنها.

واقترب موعد حلول عيد القديس هيلاري، وكان الأسف والانزعاج في الجيش كبيراً، دفع الكثيرين إلى التخلي عن حجهم، ولعنهم اليوم الذي ولدوا فيه حتى يعانوا من مثل هذا الاحباط، وكان بعضهم قد وصل حالة حد الإعياء بسبب الارهاق والانهاك والفقر، حتى أنهم كانوا بصعوبة بالغة يمكنهم التحمل والمقاومة، وتأثرت خيولهم وحيوانات الحمولة لديهم بالبرد والمطر،وباتت لاتستطيع المتابعة خلال الطين والأوحال، بل سقطت ونفقت جوعاً، ووقعت تحت أثقال حمولتها، وفي حرقة وآلام في النفس رفع سواقها أيديهم نحو السماء وتفوهوا بكلمات مقذعة وصلت حتى حد الكفر.

ومن غير الممكن تصور حالة العذاب والشقاء، حتى أسوأ الجرائم وأقساها، كانت أدنى مما عاناه رجالنا الآن، فلقد اختفت الآن شجاعتهم وأفاعيلهم الجريئة وبسالتهم في الحرب، وحل محلها الحزن واليأس والقنوط في الروح، وذلك بالإضافة إلى المعاناة الجسدية، وبينما كان الجميع في هذه الحالة، كان من الممكن أن يتعرض المرضى والضعفاء لخطر الهلاك لولا عناية الملك رتشارد بهم ورعايته لهم، فقد بعث بالرسل إلى جميع الجهات ليجمعهم مع بعضهم ولجلبهم إلى الرملة، حيث عاود الجيش اجتماعه هناك بكل سرعة، وحصل هذا بعد وقت قصير من مغادرتهم لها.

وحينما كان جيشنا باقيا في الرملة تخلى عدد كبير من أفراده عنه وهجروه، إما حتى يتجنبوا آلام الزحف، أو سخطاً منهم وعناداً، وهكذا نقص تعداده نقصاً هائلاً، وغادر جلّ الفرنسيون لشعورهم بالسخط، وذهب بعضهم للتمتع بالراحة في يافا، وتراجع بعضهم الآخر إلى عكا، حيث توفرت كميات كبيرة من المؤن، والتحق بعضهم بالمركيز في صور، حيث غالباً ما حثهم على فعل ذلك، وتحول آخرون مع دوق بيرغندي إلى

حصن الجيب التحتاني واعتزلوا هناك، ومكثوا لمدة ثمانية أيام، وكان الملك رتشارد غاضباً من هذه الحالة التي تجددت، فذهب مع ابن أخته هنري كونت أوف شامبين، والجيش الذي نقص تعداده كثيراً، إلى يبنى، ووجدوا هناك من الضروري التوقف، حتى ينال الجيش قسطاً من الراحة، لأن الطريق كان موحلاً، وكانت تعاسة عناصره العقلية والجسمية هائلة إلى حد أن ما من قلم يستطيع أن يكتب عنها ،وما من لسان يمكنه أن يعبر عنها.

وجرى في فجر النهار إرسال رجال مع خيم للتقدم نحو الأمام، وتبعتهم بقية الجيش، وكان عذاب اليوم السالف وآلامه لاشيء بالمقارنة مع العذاب والألم الذي تحملوه الآن من الانهاك، والبَرَد والأمطار والفيضان، وبدا وكأن السموات كلها قد تآمرت على تدميرنا، وغدت الأرض موحلة جداً، وناعمة تحت أقدام العساكر، إلى حد أن كل من الرجال والخيول وجدوا صعوبة عظيمة في تثبيت أقدامهم ومنعها من الانزلاق، وغرق بعضهم في الأوحال ولم يقم مرة ثانية.

من الذي يمكنه الحديث عن مصائب ذلك اليوم؟ وكانت آلامهم عظيمة إلى حد، وقاسية إلى درجة أن أشجع الجند سكبوا دموعهم مثل المطر وكانوا قلقين على وجودهم الذاتي، وعندما سقطت دواب التحميل، تلفت المؤن التي كانت تحملها بالأوحال، أو ذابت وتبعثرت في المياه، إنه في ظل هذه الأحوال من التعاسة، لعنوا اليوم الذي ولدوا فيه، وتابعوا ضرب صدورهم بأيديهم حتى وصلوا إلى عسقلان، فوجدوها مدمرة من قبل المسلمين إلى درجة وجدوا فيها من الصعب جداً المرور من خلال الأبواب بسبب أكوام الحجارة.

وكان ذلك اليوم هو العشرين من كانون الثاني، وعسكر كل انسان تلك الليلة وأمضاها حسبما استطاع وتدبر الأمر.

- ٩٢٧ -

كيف أعادوا بناء عسقلان

عسقلان قائمة على الساحل ، ولو أنها امتلكت مرسى جيداً ،لكان من الصعب أن يكون لها نظير،لموقعهاولخصب المناطق المجاورة لها،وفي الحقيقة امتلكت ميناء، لكنه من الصعب الوصول إليه كثيراً ،حتى أنه بسبب الطقس العاصف الذي استمر لمدة ثمانية أيام،بعد وصول الجيش،لم تستطع سفينة الدخول إليه،ونتيجة لهذا ،كانت عساكرنا مع خيولها بحاجة ماسة للمؤن،لكنها لم تستطع الحصول على شيء لمدة ثمانية أيام،وذلك باستثناء ما جلبوه معهم، ولم يكن من الممكن البحث عن الأعلاف في المناطق المجاورة،بسبب وجود الأتراك.

وعندما تحسن الطقس أخيراً ،دخلت بعض السفن الى الميناء ،لكن العواصف جاءت ثانية، ومن جديد بدأ الجيش يعاني من الحاجة، وتم فقدان بعض البوارج والشواني المحملة بالميرة، وكان بعضها قد فقد مع ملاحيه كلهم أثناء الرحلة،وتعرضت عدة سفن للغرق،وكان بعضها من سفن الملك،ذلك أنها تحطمت بالعاصفة .

وعندما سمع صلاح الدين أن عساكرنا قد توزعت على الساحل، وبعضها قد تمزق وتعطل، أعطى دستوراً لعساكره بالعودة إلى مواطنها، وبذلك كان من الممكن لها الاشراف على أمورها الداخلية ومعالجتها، وأصدر أوامر لجنده بالتجمع ثانية في شهر أيار، وعاد الترك، الذين مضى على وجودهم يعملون بمشقة داخل جيش السلطان منذ أربع سنوات، مسرورين إلى زوجاتهم وأسرهم، وحكى مقدموهم وأمراؤهم من ذوي الشهرة باختصار أخبار مغامراتهم والحملات المأساوية التي رأوها، فلقد كانوا في الحروب المتقدمة هم المنتصرين، وحصلوا على وفرة من الأسلاب، لكنهم عانوا الآن من فقدان الممتلكات والمقتنيات، ومن

موت أقربائهم ومقتلهم في المعارك، وتأسوا بشكل خاص وحزنوا لموت الأمراء والمقدمين والآخرين الذين قتلهم الملك رتشارد قرب عكا، عندما أخفق صلاح الدين في تحقيق وعوده بانقاذهم، ولهذا السبب تملكوا مشاعر غضب عارمة ضد صلاح الدين.

وانتهى الآن شهر كانون الثاني، وباتت السماء مشرقة أكثر من ذي قبل، وغضب الملك لانتشار الجيش وتوزعه، فبعث برسائل لإقناع الفرنسيين بالعودة ومن ثم تقوية الجيش، وبذلك يكونوا في وضع أفضل للقيام بالمزيد من الأعمال المقررة، وقال:«من المرغوب فيه أن يكون الجيش مع بعضه مجتمعاً أثناء العمل، لأن التمزق سوف يضعفنا ويعرضنا لحملات أعدائنا» وبناء على هذه الحجج استدرج الفرنسيين للوعد أنهم سيلتحقون بالجيش حتى الفصح، على شرط، أنهم إذا مارغبوا وقتها بالمغادرة يمكنهم ذلك بكل أمان، وشعوراً من الملك بضرورة تحمل ذلك، وافق على هذه الشروط، وبذلك عاود الجيش لحمة اتحاده ثانية.

وكان هناك الآن اتفاق عام على اعادة بناء عسقلان، لكن الأمراء والنبلاء كانوا في حالة إعياء، ولذلك وجدوا أن امكاناتهم وماتوفر لهم لايكفي لذلك الغرض، ومع ذلك شرعوا بالعمل بقدر مااستطاعوا، ووزعوه فيما بينهم، وأخذوا يحفرون الأساسات لواحد من الأبواب الرئيسية حتى وصلوا إلى الصخر الأصم، وأزالوا جميع الردم والفضلات الموجودة في الأعلى، وتولى كل واحد تنفيذ حصته من العمل، وكان من الممكن رؤية الأمراء والنبلاء والفرسان والسادة، ورجال الحاشية، كل منهم ينقل حجرة من يد إلى يد، ولم يكن هناك من تمييز بين رجل دين وعلماني، ونبيل وانسان عادي، وأمراء وحواشيهم وخدمهم، فالكل عملوا مثل بعضهم، ودهشوا هم أنفسهم لنتيجة التقدم الذي حققوه، وعندما تم جلب الحجارة والبنائين، تقدم العمل بنشاط مزدوج، وارتفعت

الأسوار بسرعة.

وكان الملك، مثلما هـو في بقية المسائل، قد ضرب المثـل الأعلى في دفع العمل نحو الأمام، وذلـك عن طريق المشاركة بيديـه، وبتشجيع الرجال، وبتـوزيـع الحصص والـواجبـات على كل واحـد منهـم، وبـذلـك قـدم خـدمات عظيمـة، وبناء على حثه وتشجيعه تولى كـل واحد العمـل في سبيل إكمال حصتـه المحددة له بـوسائطه الخاصـة، وإذا ماتمنع أحـدهم بسبب الحاجة إلى المال، تـولى الملك اعطاءه من جيبـه الخاص، ذلك أنه كـان أكبر قلبـاً ممـا أبـداه مـن تكبر، وهكـذا جـاءت بـراهين التشجيـع، وبراهين اليقظـة، والانفاق، ولـذلك قيل اكتمـل اعادة بنـاء ثلاثـة أرباع المدينة بهذه الوسائل.

وبالوقـت نفسه رتب صلاح الـدين لارسال اثني عشر ألفـاً من أسرى المسيحيين الفرنسيين والبلديين مـن سكان الأراضي المقدسة إلى القـاهرة، وجلبهم خدمه حتى دير البلح، وعندمـا كانوا يمضون الليل هناك مع نية الانطلاق في رحلتهم في اليوم التالي، حدث بقدر من السماء أن قام الملك رتشارد بانقاذهم.

فقـد حدث في أحـد الأيـام أن كان الملـك يقوم مـع كتلـة من نخبـة عسـاكره بـأعمال استطـلاع لحصن ديـر البلـح، ليـدرس كيف يمكنـه أن يستولي عليـه، لأنه كـان يسهل كثيراً مرور الأتـراك وهـم يجلبـون المؤن من القـاهرة إلى القـدس، ولاحظ الترك الـذيـن وصلوا إلى هنـاك قبل غيـاب الشمس قدوم الملـك من رايته، فخافوا على حياتهم، واهتمـوا بسلامتهم، فاعتصموا بسرعـة في برج الحصن وتركـوا الأسرى في الخارج، وعندما رأى هؤلاء ذلـك، التجأوا مسرعين جداً إلى احـدى الكنائس المجـاورة، ولدى وصول الملك، تـولى اطلاق سراحهم دون أن يفقد دقيقة واحـدة، وتركهم يذهبون دون أن يصابـوا بأذى، وفي الوقت نفسه تولى مع رجـاله قتل عدد مـن الترك صدفـوهـم على الطريـق، واستـولى الملـك أيضاً على كثير مـن

الخيول الثمينة، وأسر عشرين من زعماء الأتراك وهم أحياء. من الذي يشكك أن قدوم الملك، الذي كان مفيداً جداً لهؤلاء الأسرى، لم يكن مقدراً من الرب؟ فلو أنه لم يقدم لانقاذهم لاشك أنهم كانوا عرضة لأن يحكم عليهم بالعبودية الدائمة.

وبعدما أنجز الملك هذه الأعمال الناجحة، بعث برسل إلى مركيز مونتفرات، وذلك مثلما فعل كثيراً من قبل، طالباً منه القدوم إلى عسقلان، والالتحاق بالحملة لصالح المملكة التي تشوق لقيامها، وطلب منه القيام بذلك بموجب اليمين الذي أقسمه لملك فرنسا، الذي هو تعهد بالتبعية الاقطاعية له، لكن المركيز المنحط أجاب بتحفظ دنيء، وقال إنه لن يتحرك مالم يجتمع أولاً بالملك رتشارد، ثم بعد ذلك يجري عقد مؤتمر في مكان محدد هو حصن يحمور (قرب عكا) Ymbric.

وفيما الملك وجيشه منشغلين تماماً في أعمال اعادة بناء أسوار عسقلان، نشب خلاف بين الملك رتشارد، ودوق بيرغندي، فقد كانت المؤن قد نفدت واستهلكت، وبات كل انسان لايمتلك شيئاً تقريباً، وبدأ الفرنسيون يلحون على دوق بيرغندي من أجل الدفع، أي أن يدفع لهم ماهو مدان به، وذكروا أنهم إذا لم يدفع لهم، لايمكنهم متابعة الخدمة في المعسكر، ووجد الدوق نفسه غير قادر على تلبية طلباتهم الملحة، لذلك رأى أن من الأفضل أن يسأل الملك رتشارد تزويده بمبلغ كبير من المال، وفي مناسبة ماضية كان الملك قد أقرض الفرنسيين، بناء على طلب من الدوق، مبلغاً كبيراً من المال، كان من المفترض تسديده من مال فدية الأسرى، وبما أن الأسرى لم يدفعوا فدية سوى رؤوسهم، لذلك ذهبت الوعود سدى، ولذلك رفض الملك في هذه المناسبة الاستجابة لطلبه، ولهذا السبب ولأسباب أخرى من عدم الاتفاق، غادر الدوق عسقلان، مع بعض الفرنسيين، الذين لم يستطع أن يدفع لهم، لهذا بادروا مسرعين بالعودة معه إلى عكا.

ولدى وصولهم إلى هناك وجدوا نشوب صراع مرير بين البيازنة والجنويين، لأن البيازنة كانوا محظيين من قبل الملك غي، في حين وقف الجنويون إلى جانب المركيز، والسبب الرئيسي لذلك هو أنه كان مربوطاً بيمين ولاء لملك فرنسا، وتصاعد الخلاف وانتهى بسفك الدماء وقتال متبادل، وباتت المدينة كلها في حالة فوضى.

ومع اقتراب الفرنسيين من المدينة سمعوا أصوات صخب شديدة، وصراخ الناس يحثون بعضهم بعضاً على القتال، ونتيجة لهذا، أسرع دوق بيرغندي الذي كان مسلحاً تماماً، ليقدم مع رجاله الضمان للجنويين، وكانوا في وضع محرج تماماً عند وصولهم، ولهذا انزعج البيزيون عندما رأوهم قادمين، وخرجوا بجرأة للتصدي لهم، وانقضوا على دوق بيرغندي، الذي بدا أنه قائدهم، وطوقوه وعندما طعنوا فرسه بحربة، ألقوه أرضاً، ثم تراجعوا إلى المدينة، وأغلقوا الأبواب، وأقفلوها، كاحتراز احتياطي ضد أي حادث غير مرئي قد يقع، لأنهم سمعوا بأن الجنويين بعثوا إلى المركيز يطلبون منه القدوم بأقصى سرعة ممكنة حتى يستولي على عكا، وقد وعدوه بتسليمه إياها، ولهذا اتخذ البيزيزن كل الاحتياطات ضد هذا العمل، ولضمان سلامتهم وسلامة المدينة.

ولم يضع المركيز ولادقيقة واحدة، بل جاء مسرعاً إلى عكا في شوانيه مع عدد كبير من الرجال المسلحين، آملاً بالاستيلاء على المدينة على حين غفلة، ولدى وصولهم قاتلهم البيزيون برجولة بالعرادات والمجانيق، وبما أنهم كانوا واثقين من عدالة قضيتهم فقد قاتلوا بشجاعة، وقاوموا خصومهم لمدة ثلاثة أيام، وبعثوا برسالة إلى الملك رتشارد الذي كان آنذاك في قيسارية في طريقه لحضور المؤتمر، وأخبروه بصورة الأوضاع، وطلبوا منه القدوم بكل سرعة ممكنة.

وعندما سمع المركيز بأن الملك رتشارد بات قريباً منه، عاد مسرعاً إلى صور، وكأنه كان يشعر بقرارة نفسه أن قدوم الملك نذير سوء بالنسبة له،

لكن على الرغم مما بذله من سرعة وصل دوق بيرغندي مع الفرنسيين أولاً إلى صور، وعندما وصل الملك رتشارد إلى عكا، أخذ على عاتقه ترتيب كل شيء، فصالح البيزيين مع الجنويين، وجعلهم يتوحدون في وئام ووفاق، وأعاد إقامة تفاهمهم الجيد المسبق.

وبعدما أكمل الملك رتشارد تهدئة الأوضاع والناس وفق هذه الطريقة، أرسل رسولاً إلى المركيز يخبره في أن يعود إلى يحمور، ليرى إذا كان من الممكن التوصل إلى تفاهم تصالح وصداقة، وبناء عليه إلتقيا، وعقدا مؤتمراً طويلاً، لكن بلا محصلة، وتصوروا الآن أن دوق بيرغندي، والمركيز وكذلك الفرنسيين اختاروا التغيب عن الجيش، وأسف الملك رتشارد بقرارة نفسه أسفاً كبيراً على شروط السلام التي تم الاتفاق عليها، وتردد لوقت طويل حول ماهو الأفضل للقيام به، وتشاور مع القادة وأكثر الرجال حكمة وتجربة في الجيش، وقرروا أن المركيز قد خسر دعواه للملكية التي كان قد وعد بها، ونتيجة لسلوكه المريب، ينبغي حرمانه من جميع موارده، ونتيجة لهذا نشب خلاف كبير بين النبلاء الفرنسيين وبين الملك رتشارد، وبشكل خاص بينه وبين المركيز.

وفي يوم أحد السعف، قلد الملك رتشارد، وسط مظاهر أبهة عظيمة، حزام الفروسية إلى ابن سيف الدين الذي بعث إليه لهذا الغرض.

كيف تراجع الفرنسيون إلى عكا وكيف جرى اغتيال مركيز مونتفرات

في يوم الثلاثاء المتقدم وعلى عيد الفصح، عاد الملك رتشارد إلى الجيش في عسقلان، وكان حزيناً جداً، على درجة كبيرة من الانزعاج، وفي اليوم التالي طلب المتبقي من الفرنسيين من الملك أن يزودهم بحراسة وبجواز أمان، ووافق الملك، وعين لهم الداوية ليتولوا مرافقتهم في رحلتهم، وعين كذلك معهم الاسبتارية، كما ورافقهم الكونت هنري أوف شامبين ومعه عدد كبير آخر، ورافقهم وهو على طريقهم شخصياً (لحرصه على أن لايدع نقطة موائمة للعناية)، وفعل ذلك وهو يحاول أن يبقيهم مدة أطول، غير أنهم رفضوا رفضاً قاطعاً، لذلك تركهم يذهبون وعاد إلى عسقلان، ومن هناك بعث برسل مسرعين جداً إلى عكا، لتوجيه الأمر إلى الحامية هناك بعدم السماح للفرنسيين بدخول المدينة، وألا يتعرضوا لهم بأية اهانة أو ازعاج، يمكن أن يتخذ حجة عدوانية ويؤدي إلى الخلاف، وبناء عليه عندما وصل الفرنسيون مركزوا أنفسهم خارج المدينة.

وانخفضت معنويات الجيش كثيراً في يوم عشاء ربنا، بسبب مغادرة الفرنسيين، لأنه خسر بذلك جزءاً كبيراً من قوته، لقد فقد سبعمائة فارس (من الرجال المجربي الشجاعة وذوي الفعالية الكبيرة)، فلقد غادر هؤلاء، ونتيجة لهذا اضطرب الناس وانزعجوا كثيراً.

وسر الترك سروراً عظيماً لدى سماعهم بما حدث، وعندما أخبر صلاح الدين بذلك، بعث بالرسل إلى جميع الأمراء والناس في ممالكه يأمرهم بمرسوم صادر عنه أن يدعوا جانباً مشاغلهم وأن يقدموا إلى أراضي القدس بكل سرعة ممكنة، وقال لهم:«إن الفرنسيين، لسوء معاملتهم، غادروا، وتركوا البلاد تقريباً بلا مدافعين عنها، وتدنت كثيراً طاقة الحرب

لدى جيش الفرنجة وتداعت قدرته، ولهذا نأمل بكل ثقة أن نتمكن في وقت قصير من الاستيلاء على عكا وصور اللتان هما المدينتان الرئيسيتان في هذه البلاد»، وعاد الترك وانضموا تحت لواء السلطان، لكن باستعداد أقل، وبأعداد أدنى من قبل، لأنهم لم ينسوا الماضي، وبالمقارنة مع عددنا المتدني، لقد تفوقوا علينا كثيراً في قوتهم.

واحتفل الملك رتشارد في عسقلان بعيد الفصح، الذي جاء في الخامس من نيسان، بأبهة عظيمة، وزود الناس بكل ما احتاجوه مع كميات وافرة من اللحم والشراب، وأمر بنصب سرادقه على المروج خارج المدينة، وقدم إلى شعبه كثيراً من الضروريات التي احتاجوها للاحتفال بهذه المناسبة بأبهة وروعة.

وعاد يوم اثنين الفصح متيقظاً نشطاً لمتابعة العمل الذي كان قد بدأه وتابع بكل غيرة وحماسة إعادة بناء أسوار المدينة، وكما هي عادته حث الناس وحرضهم على إكمال ما تبقى، ونتيجة لحرصه وعنايته وتعاونه اكتمل كل شيء على حسابه الخاص وبدون مساهمة الفرنسيين وذهب الملك مع عدد قليل من أتباعه، يوم ثلاثاء الفصح، في عملية استكشافية نحو غزة، وانطلق في يوم الأربعاء ليقوم بتفحص قريب لدير البلح (الداروم)، محاولاً التأكد من النقطة الموائمة للهجوم عليها، لكن الترك اتخذوا موقف الدفاع في البلدة، ورموا بكثير من النشاب من القسي وأيضاً بجروح كثيرة، مع شتائم وإهانات للملك ولرجاله، وكأن المكان لايرام، وعندما استكمل الملك تفحصه لها، عاد إلى عسقلان.

وبعدما غادر الفرنسيون، عاد الذين عهد إليهم من قبل الملك بمرافقتهم تأمين وصولهم حتى عكا، عادوا إلى المعسكر في عسقلان، وما أن وصل الفرنسيون إلى صور حتى أطلقوا لأنفسهم العنان للانغماس بكافة المسرات، الأمر الذي نرى من المفيد التوقف قليلاً لذكره.

لقد غـادر الآن المعسكر، الـرجال أنفسهـم الذيـن يفترض أنهم جاءوا بـوجههـم تـدينهـم وغيرتهم لانقاذ الأرض المقـدسـة، وتخلـوا عـن هـذا، وسلمـوا أنفسهـم للغانيـات ولـلأغـاني المبهجة وللتمتع الجنسيـة، لأنهم ابتهجوا (حسبما جاء على لسـان الذين رأوهم) بالرقـص مع النساء، وعبر مظهـرهم الخارجـي عـن خلاعتهـم وتبـذلهم، فقـد ربطت أكمام أثـوابهم بسلاسـل ذهبية، وأظهروا عن عمـد أوساطهم، وحزمـوها بأحزمـة مطرزة، وبقيت أرديتهم مكشـوفة مع أذرعتهم وكانـت مربوطة لتمنـع رؤية طرف من أثوابهم، والذي افترض لتغطية ظهورهـم، أرغم الآن على خدمة أجزاء أخـرى من الجسـد، لأن بطونهم، وليس ظهورهـم غطيت بهم، ووضعـوا حـول أعنـاقهم أطـواق كـانـت تشـع بـالجواهر، وعلى رؤوسهـم قبعـات نسجـت بكـل شكـل مـن أشكال الـورود، وحملـوا في أيـديهم الكـؤوس والدنـان وليس السيـوف، وكانـوا بعد أن يمضـوا الليالي كلهـا في الشرب والعربـدة، يذهبـون إلى بيوت العـاهرات، وإذا صـدف وكن مشغـولات، والأبواب مغلقـة في وجوههم، كانـوا يخلعونها، وهم يتلفظـون بلغة وأيمان ترعب الذين يسمعونهم.

وبكلمة واحدة بـرهنت أحوالهم الخارجية على تردي أخـلاقهم، والعار للفرنسيين لانغماسهم في مثـل هذه التجاوزات، ولايمكننا أن نـؤكد أنهم جميعـاً كانـوا مجرمين بهذا أو حمقـى، لأنه كـان هنـاك عـدد كبير ممن كـان مزعوجاً جداً تجاه هذا المسلك المتحلـل، وآسفين لعدم توافقهم مع الملك رتشارد.

وبعد انقضـاء عيد الفصح بعـدما بـات موسم الجواز البحـري ممكناً، وصل رئيس رهبان دير هيرفورد Hereford ، وهو دير انكليزي، حاملاً رسالة إلى الملك رتشارد، جعلت الجيـش كله يضطرب، لقد جلب رئيس رهبان الدير رسـائل من وليم، أسقف ايلاي، الذي كـان مستشار الملك، يخبره أنه والذيـن أنابهم الملك ليتولوا حكـم البلاد أثناء غيابـه، قد طردوا

بصفاقة وعـدوانية من حصون المملكة، وقتل بعـض رجالاتهم أثناء أعمال الصخب، وبوساطة نيـابة أخيه للملك، أعنـي الايرل جون، جـرى طرد المستشار مـن انكلترا، ولم يعد هنـاك المزيد مـن المال في الخزانة أو في أي مكان آخر، ماعدا القليل الذي أخفي بكل صعوبة في الكنائس.

وبالاضافة إلى هذا، قال رئيس رهبـان الدير: «لقد طرد المستشار نفسه، والكاهـن والأسقف مرغمين إلى نـورمانـدي، وذلك بعد ازعـاجات كثيرة وسوء معاملة، وأن الايرل جون استخـرج بالعنف من الايرلات والنبلاء في البلاد يمين الـولاء والطاعة، والتبعية مـن حفظة القلاع وشحنهـا، كما أنه صادر بـدون حق الـدخل السنوي للملـك واستولى عليـه، والمقصود بهذا الخزينة الملكيـة، وأضاف رئيـس الديـر يَقول: إذا لم تتخـذ جلالتـك قراراً سريعاً حول هـذه المسائل، وتعود إلى الوطن بكل سرعـة ممكنة، وتنتقم لما لحقنا مـن اعتداءات العصاة، ستـزداد الأمور سوءاً، ولـن تستطيع استرداد مملكتك بدون التعرض لمخاطر الحرب».

واستولـت الدهشـة تماماً على الملك لـدى سماعه مـانقل إليـه، وقلب الأمور في ذهنـه طويـلاً ولم يقل إلا قليلاً، لأنـه اعتقد أن الأمـر لايصدق، وأن المسألة قطعة من الشرور تتجاوز المعقول.

ذلك أن الخلاف بين الأمـراء نادراً مايمكـن تجنبه واضعافـه، لكن إذا مـا أرغم الملـك رتشارد على العـودة إلى الوطـن، ربما مامـن انسان سـوف يبقـى في الأرض المقدسـة، لأن هناك نـزاعاً وصراعـاً بين الناس في صـور وبين شعـب عسقلان، ومما لاشك فيـه سـوف يستولي الترك على البـلاد كلها بشكل أبدي.

ودعا الملـك في اليوم التـالي إلى الاجتماع قادة الجيـش، ووضع أمـامهم كل مـاسمعه، وشرح شرحاً وافيـاً كلمات رئيس الرهبـان، وأعلن بالـوقت نفسه أنـه لابد بحكم الضرورة مـن عودته إلى الـوطن مباشرة، لكـن وعد

بتزويد الحملة في الأراضي المقدسة بثلاثمائة فارس وألفين من عساكر الرجالة المنتخبين، على حسابه، ثم سأل بعد هذا: من الذي سيعود معه، ومن الذي سيبقى بعده وأعلن أنه لن يجبر أحداً على هذا أو ذاك، بل ترك الخيار المطلق لكل واحد حسبما يريد.

وبعدما عرض هذه النقطة، أجابوه كما يلي: بما أن البلاد تعاني من التمزق وصراع بعض الفئات، ومادامت نتائج الأمور غير واضحة — لاسيما وأن الملك غي لم يصل إلى مبتغاه في استرداد المملكة — رأوا من الضروري جداً تعيين ملك جديد، يقدمون له جميعاً الولاء، وبحفظه يمكن أن تترك البلاد وبعنايته، ويمكن أن يقاتل معركة الشعب، وينبغي أن يكون رفيعاً، يتبعه الجيش ويطيعه، وإذا لم يقرر هذا بحل مناسب قبل مغادرة الملك، فإنهم جميعاً، فرادى وجماعات سوف يغادرون البلاد، لأنه لن يكون بإمكانهم القيام بحراستها ضد الأعداء.

وعندما سألهم الملك السؤال التالي: أي واحد من الاثنين تفضلون أن يكون الملك: الملك غي أو المركيز؟ جثا الجيش كله من صغير وكبير على الركب، والتمسوا وجوب ترقية المركيز إلى الملكية، لأنه أفضل قدرة بكثير في الدفاع عن البلاد من الآخر إذاما وقع الاختيار عليه، وأصغى الملك إلى التماسهم، وأنبهم بكلمات لطيفة على سذاجتهم وانخداعهم، لأنهم كما حدث في الغالب من قبل انحرفوا عن الأخلاق الحميدة والسمات الحسنة للمركيز.

وباعطاء الملك موافقته، صدر قرار بالاجماع يتعلق بانتخاب المركيز، وجرى ارسال بعض الرجال من ذوي المناصب العالية بالبحر ومعهم حاشية لنقل الأخبار الطيبة إلى المركيز في صور، وشرح له السفراء كيف أنه انتخب ملكاً بالاجماع من قبل الجيش كله، مع موافقة الملك رتشارد، وأن تاج المملكة قد منح له، إذا ما رغب بالقدوم مع الجيش، وممارسة واجباته هناك بنشاط وشجاعة ضد الترك، ومباشرة حكم مملكة القدس

بنفسه في جميع المسائل، كما لو أنها تخصه، ولقد قيل عندما سمع المركيز هذا الكلام، بسط ذراعيه، وهو في غاية السرور في قلبه، ومدهما نحو السماء، وشرع يدعو كما يلي: «مولاي الرب، يامن خلقتني، ووضعت الروح في جسدي، يامن أنت ملك عادل ورحيم، أدعوك يامولاي إذا كنت تراني أستحق حكم مملكتك، أعطني الفرصة لأرى نفسي متوجاً، لكن إذا حكمت بعكس ذلك، لاتوافق على ترقيتي».

وعندما بات معروفاً في أرجاء مدينة صور بأن المركيز سوف يتوج ملكاً، كان السرور عارماً بين الناس، وأخذوا يعدون كل ما توجب، واستخدموا كل طاقاتهم للإعداد من أجل الاحتفال بتتويجه، فاقترضوا المال لشراء الملابس والدروع، لأنهم رغبوا في ابداء أروع المظاهر الممكنة في خدمة مثل هذا الانسان الرائع، الذي رقيّ إلى أعلى مراتب المجد، وبات بالامكان رؤية الناس الآن وقد انشغلوا في تنظيف دروعهم وسوابغهم، وتلميع أسلحتهم، وشحذ سيوفهم، ومسح رماحهم، واشترك الجنود والأطفال في معارك صورية، وحافظوا تماما على مظهر صراع حقيقي ومبارزات جدية، ولقد تبجحوا في الوقت نفسه بأنهم في المستقبل سوف يدمرون الترك.

وفي أحد الأيام كان المركيز عائداً من استقبال أقامه له أسقف بوفياس Beauvais وكان به هو الضيف، وكان مسروراً جداً، ونفسه مشرقة مبتهجة، وعند وصوله إلى بيت التعشير، قفز عليه فجأة شابان بلا أردية — من الحشيشية — واندفعا نحوه، وبأيديهما خناجر كانت مخفية، وطعنوه حتى قلبه، ثم انعطفا هاربين بسرعة قصوى.

وسقط المركيز على الفور من على ظهر حصانه، وتقلب على الأرض وهو يموت، وتم على الفور قتل أحد القاتلين، لكن الآخر اختبأ في الكنيسة، وعلى الرغم من حرمة المكان، فقد ألقي القبض عليه، وحكم عليه بالسحل في أرجاء المدينة حتى يموت، وقبل تنفيذ العقوبة به، استجوب

بدقة لمعرفة الذي حرضه ولاكتشـاف الأسباب الدافعة لذلك، ولماذا اقترفا هذه الفعلـة، وقد اعترف بأنهما أرسـلا منذ زمـن طويل مضـى، وأن ذلك كان بأمر رئيسهم، الذي توجبت طاعته.

وقد تبين أن هـذا كان صحيحاً، لأن هذيـن الشابين كانا منـذ أمد في خدمة المركيـز، ينتظران الفرصة المناسبة لتنفيذ فعلتهما، فقد تقـدم لشيخ الجبـل، صاحـب مصيـاف ارسـالهما لاغتيال المركيـز في مـدة مـن الزمـن محددة، هذا وكل واحـد قضى شيخ الجبل أنـه يستحق الموت، عمل على اغتياله بالطريقة نفسها.

وجلب شيـخ الجبل صاحب مصيـاف، تبعاً لعادة متوارثـة عدداً كبيراً مـن الأطفـال النبـلاء إلى قصره، وجعلهـم يتعلمون كـل نـوع مـن أنـواع المعرفة والتـدريبات، ووجههم لتعلم كـل نوع من أنواع اللغـات إلى حد تمكنهم من الحديث بها بدون مساعـدة مترجم في أي بلد من بلدان العالم المعروف، وتضمن ذلـك أيضاً وحشية وقسوة إلى أعظم الـدرجات وسرية عميقة جداً، وجرى تدريب الطلاب وتعـويدهم على المتابعـة والتمسك بذلك برغبة وعنـاية كبيرة، وكانوا عندما يصلون إلى سن البلـوغ، يدعوهم الشيخ إليـه، ويؤكـد لهم براءتهم مـن كل ذنـب في قتلهم لبعـض أعيان الناس، الذين يـذكرهم بالاسم، ولهذه الغاية كان يعطـي كل واحد منهم خنجراً بطول مرعب وحاد جداً، وانطلاقـا من طاعتهم الإيمانية، لم يعرفوا التردد قط في الانطلاق وتنفيـذ ما أمروا به، ومـا كانوا يقفون حتـى يصلوا الأمير أو الطاغيـة الذي عين لهم، ويبقون في خـدمته حتى يجدوا الفـرصة المناسبـة لتنفيذ أغـراضهم، معتقـدين أنهم بفعلهـم ذلك يحصلـون على الدخول في الجنة.

والآن فيما المركيز كان يتنفس أنفاسه الأخيرة، حمله مـرافقوه الذين كانوا مـن حولـه على أذرعتهم إلى القصر وهـم يندبـونه ويبكـون عليه بتفجـع، لاسيما لأن سرورهم قبـل قليل كان عظيماً جـداً، وأوصى زوجتـه بالاهتمام

بكـل عنايـة بـالحفـاظ على مدينـة صـور، وألا تسلمهـا لأحد غير الملـك رتشارد، أو إلى الشخص الـذي تؤول إليه المملكة بحق الوراثـة، وما لبث أن مات ودفن في مقر الاسبتارية وسط حزن عظيم وأسى كبير.

وفي وسـط الفـوضـى التـي سـادت بين النـاس، تهامـس بعـض مـن الفرنسيين (الذين ابتغوا تغطية شرورهـم بنوع من الأكاذيب، وأدخلوا في عقول الناس جميعاً) بـأن الملك سبب بشكل شرير مقتل المركيـز، وأنه هو الذي استـأجر هؤلاء الرجـال من الحشيشية لهذا الغـرض، ولم يقنعوا بهذه التهـم التـي ألصقوهـا بـالملـك رتشـارد وأساءوا بها إلى سمعتـه في هـذه المناطـق، بل أرسلـوا تحذيرات إلى ملك فـرنسا حتـى يحترز ضد مبعـوثي شيخ الجبـل صاحـب مصياف، وقدمـوا له تفاصيـل كيفية مـوت المركيز، وذكروا أن الملك رتشارد قـد وجه أربعة من هؤلاء الرجـال للقيام باغتيال الملك فيليب.

- ٩٤١ -

كيف جرى اختيار الكونت هنري ليكون ملكاً لصور

بعد دفن المركيز اجتمع الفرنسيون، الذي بلغ تعدادهم حوالي العشرة آلاف، وكانوا يعيشون في خيم خارج المدينة، والتقوا للتداول فيما بينهم، وبعد نقاش طويل بعثوا بأوامر إلى زوجة المركيز (*) يأمرونها أن تضع المدينة في عهدتهم بدون تأخير أو معارضة، من أجل خدمة ملك فرنسا، لكن الملكة أجابتهم: عندما يأتي الملك رتشارد ليراها سوف تعطيه المدينة، ولن تعطيها لأحد سواه، لأن هذه كانت أوامر المركيز المتوفى، ذلك أنه لايوجد أحد عمل مثله كثيراً لإنقاذ الأراضي المقدسة من الترك، وإعادتها إلى حريتها المتقدمة، وبناء عليه ينبغي اعطاء المملكة إلى أشجع الرجال، ليرتب أمورها كما يراه مناسباً.

وغضب الفرنسيون وسخطوا سخطاً عظيماً تجاه هذا الجواب، وفيما هم يبذلون الجهد لامتلاك المدينة، جاء الكونت هنري بشكل غير متوقع إلى المدينة، وذلك بعد ما اندهش لدى سماعه بما حدث. وعندما رآه الناس قائماً بينهم اختاروه على الفور أميراً لهم، وكأنه أرسل من قبل الرب، وبدأوا بمحاولة إقناعه ليتقبل تاج المملكة، بدون اعتذار أو

*— من المفيد مراجعة ما ورد في المجلد السالف مع ما جاء لدى صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري (الجزء الثامن). والملكة هنا هي ايزابيلا أخت سيبيلا (التي توفيت في سنة ١١٩٠، وبذلك غدت ايزابيلا وريثتها)، وعندما توفيت أختها الكبرى كانت ايزابيلا متزوجة من هنفري الرابع صاحب تيرون، الذي كان مكروهاً من قبل النبلاء، ولهذا أقنعوها لتتطلق منه، على أساس أنها خطبت إليه بدون موافقتها، ثم زوجوها المركيز كونراد أوف مونتفرات الذي كان أثيراً لديهم، وبذلك أعطوه حق المطالبة بعرش المملكة ضد غي أرمل سيبيلا، وتزوجت ايزابيلا مرتين أخرتين بعد مقتل المركيز، أولاهما من هنري أوف شامبين، ثم بعد موته من عموري الثاني صاحب قبرص.

تـردد، وأن يتزوج أرملـة المركيز، لأن المملكـة مملكتها بحـق الوراثـة، ورد على هذا كلـه أنه سوف يتصرف وفقاً لنصيحة خاله الملك رتشارد، محترما الحل الـذي يقرره الـرب لكل المسـائل ويـدعوه إليـه، وعلى الفور جـرى ارسال مبعوثين إلى الملـك رتشارد ليعلنوا له الانتخاب الذي جـرى باقرار الناس في تمليك الكونت هنري وليحدثوه عن الاغتيال الرهيب للمركيز.

وفي الوقت نفسه، قبل أن يصـل الرسل المرسلين إلى الملك رتشارد إلى غايتهـم، بدأ الفصل الدافىء بعـد أشهر برد الشتاء، وشرع الملـك رتشارد في مهاجمة الترك بهمـة لاتعرف التعب، مثلما كـان يفعل من قبـل، لأنه لم يكن هنـاك انسان مثلـه، ولا من خـافه الترك مثلما خـافوه، فما مـن واحد آذاهم من قبل مثلما فعـل، فقد كان ينقض، وهو فارغ اليديـن تقريباً، ثم يعود جالباً معـه رؤوس الأعداء، أحيانا عشرة في يوم واحد، وأحيـانا اثني عشر، أو عشرين أو ثلاثين، حسبما يحدث ويصدفهم في طريقه.

وبالإضـافة إلى هـذا كله كـان يجلب معـه إلى المعسكر كـل يوم عـدداً كبيراً من الأسرى، والحق يقال لم يوجد في عصور المسيحية رجلاً مثله دمر أعداداً كبيرة من المسلمين بيديه وحده.

وفي يوم الأربعاء الذي تقدم على عيد القديـس مرقص الرسول، انطلق الملك وجيشه نحو الجديدة لحمايـة المدينة، غير أنه لم يجد أحداً هناك، وفي طريـق العودة قاتـل الملك خنـزيراً بريـا متوحشاً، كـان قد سمـع صوت العساكر وهـم يمرون، فخرج ليقف على الطريـق، وتصاعد الزبـد من فم الحيوان الشريـر، لشدة غضبـه، ووقف شعـر جسده وكـذلك أذنـاه، وبدا وكأنه يستجمـع كل قواه وحنقه إمـا ليتلقى هجوما أو ليقـوم بالهجوم، ولم يتحرك من مكانـه عندما صرخ الملك، وعندما دار الملك حـوله، لدهشته استدار هو حول نفسه، وظل واقفاً في المكان نفسه.

واستخـدم الملـك الآن رمحه بمثابـة رمـح صيـد، وحـركه ليطعنـه بـه،

وانحـرف الخنزيـر قليلاً إلى أحـد الجوانـب واستعد للقـائه، وكان حجـم الحيوان حجماً هـائلاً، ومنظره مرعباً، وانقصـف الرمح الذي خـرق صدره العريـض بكل جرأة إلى قسمين، وسبب انكسـاره أنه لم يكن قويـاً بما فيه الكفاية ليتحمل ضغطهما وهما يقتربان من بعضهما، وصـار الخنزير غاضباً الآن كثيراً بسبب جرحه، فـاندفع بكل ما أوتيه من قـوة نحو الملك، الذي لم يمتلك أيـة مسافـة، أو وقتا للانعطـاف أو الابتعاد، لذلـك غمز فـرسه وشدد عليـه، فتمكن من القفـز فوق الحيـوان دون الاصابة بجـراحه، علما بأن الخنـزير قـد مزق تجافيـف حصانـه، غير أن فعاليـة الحصان ونشـاطه أعاقت الضربة، وحالت قطعة الـرمح المغروسة في صدر الحيوان بينه وبين الاقتراب، ثم قـام الخنزيـر سريعاً وكأنـه يريـد الاقتراب من الملـك، لكن الملك كـان قد استـل سيفه، فطعنـه به وهو عـابر، وصعقـه بالضربـة، ثم استدار حول حصانه، وقطع عروق الخنزير، ثم عهد به إلى رجال صيده.

وبينما كان الملـك يمضي الليلة التـي حلت بعـد يوم الـرسول المبـارك القديس فيليب والقديس جيمـس، ومعه عدد قليل من الأتباع، في مجدل يابا Furbia، انقض الترك عليهم في الصبـاح الباكر، بشكل مفـاجىء، وفي نيتهـم إما أسرهـم أو تدميرهـم، غير أن الملـك كان أول مـن قفز مـن فراشـه، وأمسك فقط بترسـه وسيفه، فـأسر سبعة من الترك، وقتـل أربعة، وهـرب البقية مـن أمامـه، ثـم بعث إثـر ذلـك الداويـة والتوركبلي حتـى حصن دير البلـح (الداروم) لاستكشاف المنطقة، فصـدفوا عشرين مسلما كانـوا قد خرجـوا من الحصـن، يحصدون شعيراً، وأسروا هؤلاء وأرسلـوهم إلى عسقلان.

وفي هذه الأيـام، عندمـا كان الملـك رتشارد مشغـولاً في سهول الـرملة بأعمال مطـاردة الترك، وصل الرسـل الذين بعثوا مـن صور، ومثلوا أمـامه وأخبروه بصـورة أحوال الأوضـاع هناك، وأن الكـونـت هنري لـن يغامـر بقبـول المملكة إلا بمـوافقـة الملك ونصيحتـه، ولـدى سماع الملـك بوفـاة

-٩٤٤-

المركيز، مكث وقتاً طويلاً صامتاً وقد اعترته الدهشة تجاه هذه النهاية العنيفة التي جاءت بغير وقتها، لكن لمعرفته أن شعبه خاصة رغب بذلك رغبة كبيرة، سرّ سروراً عظيماً وابتهج لانتخاب ابن أخته، ولذلك أضفيت عليه بوقار علامات التشريف الملكية.

كيف جرى اختيار هنري ملكاً لصور

وقال الملك: « وبناء عليه بما أن المركيز، توقف بحكم قرار موت الذي لايرد، عن الوجود، ليس من المفيد أن ننغمس بالأسى، فالبكاء لن يفيد شيئاً بالنسبة لروح الفقيد، إنني اقدم التهنئة إليكم لانتخابكم الكونت هنري، وإنني راغب تمام الرغبة— إذا شاء الرب — في أن يضفى عليه جميع أمور حكم المملكة في اللحظة التي يجري فيها امتلاك جميع الأراضي المقدسة، وفيما يتعلق بزواجه من أرملة المركيز، ليس لدي من رأي أقدمه، لأن المركيز استحوذ عليها بشكل غير قانوني، بينما كان زوجها مايزال حياً، واقترف الزنا بمضاجعته لها، دعوا الكونت هنري يستحوذ على مملكة مدينة عكا وكل متعلقاتها، وأعني بذلك صور ويافا، وجميع الأرض — إذا رغب الرب — بشكل أبدي، وأخبروه باسمي أيضاً أن يقلع بحملته بأقصى سرعة ممكنة، وأن يجلب الفرنسيين معه، لأنني أنوي الاستيلاء على دير البلح (الداروم) على الرغم من معارضة الترك».

وبعدما تلقى الرسل تعليمات الملك رتشارد عادوا إلى صور، إلى الكونت ، ملكهم المستقبلي، ونقلوا إليه الرسالة التي عهد بها إليهم، ثم عم السرور والفرح بين الجميع وانتعشوا مجدداً، وأقنع أعيان الرجال الكونت حتى يتزوج أرملة المركيز ووريثة المملكة، لكنه رفض خشية اغضاب الملك رتشارد، وبناء عليه، حثه الفرنسيون ونبلاء المملكة على القيام بذلك، لأن الولاء له مع مركزه سوف يقوى بهذا الاجراء، وبوساطة نفوذهم جاءت السيدة عن طواعية وقدمت له مفاتيح المدينة.

ولم يكن من المفترض أن يواجه الذين أقنعوا الكونت لاتخاذ هذه الخطوة كثيرا من المصاعب، لأنه كان من السهل اقناع رجل راغب، واحتفل بالكنيسة بالزواج بشكل مهيب وذلك بحضور رجال الدين

والعلمانيين، وسط أبهة ملكية، وابتهج الجميع لدى انجاز العمل، وكان الفرنسيون والنورمان بالقدر نفسه مسرورين، لأن الكونت كان بالوقت نفسه ابن أخت كل من ملكي فرنسا وانكلترا، وبهذا الاتحاد بات الأمل بأوقات سعيدة ستأتي، وأن يعود أولئك الذين اختلفوا إلى السلام والوئام.

ولدى اكمال الكونت الاحتفال بزواجه أرسل على الفور أشخاصاً ليباشروا الحكم في عكا باسمه، وكذلك في يافا والمدن الأخرى والحصون، وليستحوذوا على جميع الممتلكات التي توجب استملاكها في ظل سيادته وباسمه كمولى لهم، ثم أصدر مرسوماً، دعا فيه الجميع ليكونوا جاهزين للحملة ضد دير البلح.

وبعد ما ترك الكونت هنري أشخاصاً مناسبين لحماية مدينة صور وبقية البلاد، قام وبصحبته دوق بيرغندي بتحريك جيشه نحو عكا حتى يسرّع الحملة، وجلب أيضاً معه زوجته، لأنه كان لايصبر على البقاء بدونها.

وعندما عرف شعب عكا أنباء قدوم الكونت، خرجوا وهم يرقصون لاستقباله، وهتفوا بحياة السيد الجديد، واحتشدوا من حوله، ورافقوه في دخوله إلى المدينة، التي كانت مزينة من كل جانب مثل معبد من المعابد، فلقد زينت بالستائر والأقمشة الحريرية ، وملأت روائح البخور المحترق كل مكان، وانتقل شذى الروائح الطيبة من طريق إلى طريق، ومن شارع إلى آخر، وقامت النسوة بالرقص ببهجة ونشوة، وتقدم حشد هائل من الناس، بلغ تعداده ستين ألفاً، بكامل السلاح، نحو الأمام لاستقبال الكونت ، وللتعبير عن سرورهم وتقديرهم له. وقاده رجال الدين بيده إلى داخل الكنيسة، إلى أمام المذبح، ومنحوه الصليب المقدس، وآثاراً مقدسة أخرى، ليقبلها، وقدم الكونت نفسه، ومعه عدد كبير من الآخرين، هبات ثمينة هناك، واقتيد بعد هذا إلى القصر الملكي، حيث أمر باعداد وليمة، وبذل كل واحد — حسب رتبته وقدراته—

جهده لتقديم التشريفات للسيد الجديد.

وبما أن صعود رجل جديد كان معناه دوما سقوط آخر، وعليه إن خسارة واحد هي لصالح ومنفعة آخر، فالآن حرم الملك غي من المملكة التي قاتل في سبيلها عدداً كبيراً من المعارك، وأقام الآن هناك مثله مثل انسان عادي، ليس لأنه غير جدير (لأنه لم يكن هناك ملك آخر مثله بالعادات الملكية والطباع ولا أحسن منه)، بل لسبب واحد، هو أنه كان ساذجاً، ولايعرف حرفة التآمر السياسي، وعوضاً عن أن يقدر كثيراً لامتلاكه هذه الصفات — فهذا هو المتوجب — عد ضعيفاً لاتجوز طاعته.

ولقد كان عسكريا صاحب شجاعة كبيرة، وتولى ادارة حصار عكا، عندما كانت محتلة من قبل الترك، بنشاط عظيم وبتصميم ومثابرة، لكن نظراً لازدياد أعداد الأعداء على الجانب المصاقب للبحر، لم يستطع اقتحام المدينة، الأمر الذي سعى من أجله بعده ملكان وقد لاقيا صعوبات جمة حتى استوليا عليها، فهل يصح بعد هذا أن تؤذيه بساطة أخلاقه، وتحرمه من الحصول على حقوقه؟ هكذا هي متناقضات العصر، فالذي عرف بأنه أبعد الناس عن الانسانية في أخلاقه وأعماله عدّ أهلاً لعظيم الشرف والمجد، وهكذا بما أن المهارة هي الفضيلة المتحكمة في العصر الحالي، حصل الدهاء على الاحترام، في حين غرقت التقوى في عدم الاحترام.

وهكذا بات، آنئذ غي ملكاً بدون مملكة، حتى أشفق الملك رتشارد عليه، وهو المعروف بعطفه وشفقته، فأعطاه بدون شروط ملكية جزيرة قبرص، ومع أن الداوية كانوا قد اشتروا الجزيرة منه من قبل، وضعت شروط الشراء جانبا، وصار غي امبراطوراً لقبرص.

وفي الوقت الذي اغتيل فيه المركيز في صور، وصل عدد كبير من

الرسـل من انكلترا يحثـون الملك على العـودة، وقال بعضهـم إن كل شيء سليم، وقال آخـرون إن انكلترا على وشك أن تؤخذ منه، وتـرجاه بعضهم للعـودة إلى الوطـن في حين بذل آخـرون كـل جهودهـم لاقناعـه لاكمال حجه، وهكذا شـوشت تأكيداتهم المتباينة فكـره، وجعلته لايهتدي إلى أي جانب سـوف يميل، لكنه قدر نفسيـة الملك الفرنسي انطلاقـاً من تجربته الماضية، لأنه كما يقول المثل :« الذي لديه جار سوء لاشك أنه سيجد في الصباح شيئاً ما سيئاً».

- ٩٤٩ -

كيف استولى الملك رتشارد على حصن دير البلح عنوة

في الوقت الذي كان فيه الكونت هنري مع الفرنسيين في عكا يسيرون نحو حصار حصن دير البلح، شرع الملك رتشارد الذي كان يكره التأخير مع رجاله بالانطلاق من عسقلان، وأرسل بوساطة البحر مجانيقه، التي وضعت قطعة قطعة على ظهر السفن، وخلّف رجالاً لحراسة المدينة، كما إكترى آخرين بأجور مغرية ليتولوا بالنهار مراقبة الحصون العدوة المجاورة، وليقيموا حراسة ليلية دقيقة ليمنعوا الأتراك من حمل الميرة— كما كانوا يفعلون من قبل— إلى دير البلح، حيث خططوا مراراً وتكراراً لإقامة كمائن ضد رجالنا، ثم انطلق الملك مع عساكره خاصة نحو حصن دير البلح، ووصل إلى هناك يوم الأحد، ونصب خيمته وخيام أتباعه على مسافة قصيرة منها.

وبالنظر لقلة عدد رجالنا كان هناك شكوك حول أي أجزاء الحصن ينبغي مهاجمته، بحكم أنهم كانوا غير قادرين على الاحاطة به بشكل كامل، فإذا ما جرى تفريق أعدادنا الصغيرة لن يكون بالامكان اقتحام البرج، أو الصمود في وجه حملة الأتراك، ولهذا تراجعوا كتلة واحدة نحو قرية كانت قائمة في السهل، وهناك شكلوا أنفسهم وعبأوا قواهم، ولدى رؤية الترك هذا الجيش الصغير خرجوا من الحصن وتقدموا نحو الأمام، وكأنهم يريدون اثارته وتحديه للدخول في معركة، ثم تراجعوا ثانية وأغلقوا الأبواب بإحكام وقوة، واستعدوا للدفاع عن أنفسهم.

وإثر هذا مباشرة وصلت مجانيق الملك في سفنه، وكانت هذه المجانيق مفككة إلى قطع متعددة، وحمل الملك مع أمرائه ونبلائه قطع المجانيق على أكتافهم من الشاطىء (ليس بدون تصبيبهم بالعرق) إلى مسافة تقارب الميل، وأخيراً عندما جرى تركيب الآلات وتجميعها، واستعد

الرجال للعمل بها، تعهد الملك بنفسه القيام بتشغيل واحدة منهن، واستهدف أن يهاجم بها البرج الرئيسي في الحصن، وتولى النورمانديون تشغيل الآلة الثانية، ورجال بواتو الآلة الثالثة، ووضعت كل آلة وجهزت لتقوم بأعمال التدمير، وجعل الملك رتشارد آلاته تعمل ليل نهار، ولهذا السبب جهدوا في سبيل حماية أنفسهم برجولة، وهنا رأى الترك أن الدمار الكامل بات وشيكاً.

وامتلك حصن دير البلح سبعة عشر برجاً قوياً ومتيناً، وكان أحدها أعلى من البقية وأقوى، وكانت الأبراج مع الأسوار محاطة بخندق عميق مغطى من أحد الجوانب بصفائح من الحجارة، بينما كان الجانب الثاني بطبيعته من الصخور، واستولى الآن الرعب المخيف على المسلمين، خشية أن لايتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بشكل فعال، أو حتى النجاة بأرواحهم، وأمر الملك النقابون في اليوم التالي بالشروع في حفر أنفاق بكل عناية تحت الأرض، من أجل اقتلاع الأحجار وفتح ثلمة في السور، وتمكنت آلات الرمي بوساطة العمل الجماعي والرمي المتواصل من تدمير واحد من مجانيق العدو، الذي أقيم على البرج الرئيسي، وأدخل تحطيمه إلى قطع الرعب كثيراً إلى قلوب العدو.

وفي البداية رد الترك رجالنا إلى الخلف بالحجارة والنشاب الذي تساقط بكثافة مثل زخات المطر، من عراداتهم وأقواسهم، ووجه العاملون في عراداتنا رماياتهم نحو أي انسان شاهدوه فوق الشرافات، وهكذا قتلوا وجرحوا عدداً كبيراً منهم، لذلك نادراً ما تجرأ العدو على التحرك،وباتت أحوالهم الآن بعيدة عن أن يحسدوا عليها، عندما انهار واحد من أبواب الحصن، بسبب النيران، ثم دمّر تدميراً كاملاً بوساطة رمايات آلات الملك، وارتعب الترك كثيراً نتيجة لما حدث، وللرمايات المتواصلة والحملات المستمرة، وباتوا غير قادرين على الاستمرار بالدفاع، لأن عدداً كبيراً منهم قد قتل، وتمدد الآخرون جرحى على الأرض.

وبات الآن واضحاً أن الملك رتشارد كان دوماً من المتعذر قهره في كل عملية شرع بها، وأنه بات واثقاً من النجاح بفعل لغمه للأبراج واستمرار آلات رميه بالقذف، وبناء عليه خرج ثلاثة من المسلمين من الحصن وتقدموا نحو الملك رتشارد والتمسوا السلام، وعرضوا عليه تسليم الحصن وكل شيء عائد إليه شرط أن يسمح لهم بالمغادرة آمنين على حياتهم، لكن الملك رفض وأخبرهم أن يدافعوا عن أنفسهم بقدر ما يستطيعون.

ولهذا عادوا إلى الحصن، واستمرت آلات الملك تعمل بلا توقف، وبعد هذا مباشرة تهاوى أحد الأبراج بعدما أُلحق به الضعف نتيجة حفر نفق تحته من قبل النقابين التابعين للملك، وجاء انهياره إثر تلقيه رمايات متواصلة، وعندما انهار أحدث دوياً هائلاً، واختلط الترك أثناء محاولتهم النجاة من وسط الخرائب برجالنا، الذين لاحقوهم وهم يقتلونهم حتى قاموا بعقر خيولهم، وهو عمل مرعب فعلوه ليحولوا دون وقوعها بيد الفرنجة ومن ثم استخدامها، وإثر هذا التجأوا إلى البرج الرئيسي.

وهرب الترك الآن، واقترب رجالنا بجرأة من الحصن، وكان أول الداخلين إليه هو سيغوين بورت Seguin Borret ، ومعه حامل دروعه واسمه أوسبيارد Ospiard وكان الثالث بيتر أوف غسكوني، وتلاهم عدد كبير آخر، نُسيت أسماؤهم، وكانت راية ستيفن دي لونغشامب الأولى التي رفعت فوق الأسوار، وكانت الثانية راية ايرل أوف ليستر، وكانت الثالثة راية أندرودي كافني Chavigny ، وكانت الرابعة راية (بوهيموند الثالث) ابن الأمير ريموند (صاحب أنطاكية)، ثم رفع الجنويون والبيازنة أعلامهم على الأسوار، وكانت ذات أشكال متنوعة، وفي الوقت نفسه رميت أرضاً رايات الترك.

وكان من الممكن الآن رؤية الترك وهم يفرون نحو البرج أو يسقطون أرضاً بعد اصابتهم بضربات السيوف، أو ارتموا بلا حراك إثر اصابتهم

بالنشاب، وذلك قبل أن يتمكنوا من الوصول إليه، وكل من وجده رجالنا ما يزال صامداً في مكانه فوق الشرافات، رموه إلى الأرض دونهم، ولقد تم قتل ستين من الترك في مختلف أجزاء الحصن.

وعندما رأى الذين التجأوا إلى البرج مقتل عساكرهم، وأن المكان الذي اعتصموا فيه سوف يجري تدميره (لأن رجال الملك كانوا على الفور بناء على توجيه الملك قد شرعوا بالعمل لتدميره) أدركوا أنهم لن يستطيعوا التمتع بالأمان طويلاً في التصدي للملك، لذلك استسلموا يوم الجمعة قبل عيد الحصاد، ووضعوا أنفسهم تحت الرحمة الملكية ليكونوا عبيداً دوماً إلى الأبد، وتمتن هذا القرار أكثر بوساطة حقيقة أن أميرهم القوي جداً، واسمه قيصر Caisac ، الذي كان معهوداً إليه أمر قيادتهم وحمايتهم، قد أخفق بوعوده في تأمين الأمان لهم، وبعد الاستيلاء على حصن دير البلح، وجدوا فيه نحواً من أربعين أسيراً فرنجياً، كانوا في الأغلال، وباتوا الآن يعيشون أحراراً.

وجعل الملك رتشارد رجاله ليلة الجمعة التالية يقومون بحراسة الترك الذين ظلوا على قيد الحياة، حتى الصباح، ومع أوائل الفجر طلب منهم النزول، وقد ربطت أيديهم خلف ظهورهم بحبال، ولذلك غدت أطرافهم متيبسة، وكان تعدادهم قد وصل إلى ثلاثمائة بالإضافة إلى الأطفال والنساء.

وهكذا تملك الملك رتشارد حصن دير البلح، بفخر كبير، وذلك بعد أربعة أيام من هجومه عليه وكان رجالنا راغبين تماماً في انجاز هذا العمل بدون الفرنسيين، حتى ينالوا مجداً أعظم.

وهكذا جرى الاستيلاء على دير البلح، وفي الوقت نفسه كان الكونت هنري مع الفرنسيين ودوق بيرغندي، قادمين بسرعة كبيرة، حتى يكونوا حضوراً أثناء الاستيلاء على الحصن، لكنهم وصلوا متأخرين كثيراً،

واستقبل الملك الكونت لدى وصوله بحفاوة خاصة وبسرور عارم، وأخذه معه إلى الحصن وأعطاه إياه بحضور الجميع، وذلك بمثابة القطاف الأول لملكيته، ولمملكته التي سيستحوذ عليها، وبقي الجميع في حصن دير البلح حيث أمضوا يوم عيد الحصاد العظيم، وفي يوم الاثنين التالي، وضعوا بعض رجال الكونت بمثابة حرس في الحصن، وانطلقوا نحو عسقلان، ومروا في وسط غزة حتى وصلوا إلى مجدل يابا، فهناك بقي الملك لمدة ثلاثة أيام، لكن البقية ذهبوا إلى عسقلان، حيث احتفل الفرنسيون بوقار بعيد الحصاد.

وعندما كان رتشارد في ذلك الموضع هناك وصل رسول من انكلترا، وكان رجل دين اسمه جون دي ألنكون Alencon ، ليخبر الملك عن الأوضاع المضطربة في انكلترا، ومرد ذلك إلى تصرفات أخيه الإيرل جون، الذي كان يرفض الاصغاء إلى حجج أمه الملكة، أو إلى أي شخص آخر، بل اتبع هواه والدسائس المتوالية لملك فرنسا، وأكد جون دي ألنكون للملك أنه ما لم يوضع حد للخيانة غير المشهورة، وتوقف بوسيلة أو أخرى، انكلترا واقعة في خطر حرمان الملك رتشارد من ملكيتها.

وانزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار، وفكر مليا حول أي السبل عليه أن يتبع، واعترف أخيراً أن عليه العودة إلى الوطن، إذ لم يرغب في أن تنتزع منه بلاده ومملكة آبائه، وفي الوقت الذي لم يكن قد أعلن فيه عن نوايا الملك ومقاصده، قال بعض الناس إنه ذاهب، وقال بعضهم الآخر: إنه لن يدع تقارير غير مؤكدة تبعده عن إتمام واجبه الديني، فمثل هذا العمل لن يساعد على استرداد الأرض المقدسة، ولن يضاعف أمجاده.

وفيما الناس على خلاف بالرأي حول مغادرة الملك رتشارد، اجتمع معا جميع قادة الجيش وضباطه من: فرنسيين وانكليز، ونورماندين، ورجال بواتو، ومين وأنجو، واتفقوا أنه سواء أعاد الملك رتشارد أم لم

يعد، سوف يـزحفون لحصار القدس، وما من شيء ينبغـي أن يمنعهم من القيام بذلـك، وعندما بات هـذا معروفاً بين صفوف الجيـش امتلأ الناس بسرور عـارم، وابتهج الجميـع مع بعضهـم بشكل علنـي من غنـي وفقير، وعالي ومنخفض، ولم يكـن هناك رجلاً واحداً في الجيـش إلا وشعر بالشيء نفسه، وبناء عليه أقاموا إضاءة هائلة، ورقصوا وغنوا طوال الليل تقريباً.

وكان الملـك وحده الذي اضطرب لـدى سماعه بذلك، وجلـس يفكر واستغرق بـالتفكير حتى قهره ثقـل ذلك، فألقى بنفسـه فوق فراشـه، وهو غاضب جداً.

وكان الـوقت الآن بداية حـزيران، وانتعش النـاس بالرغبة بـالانطلاق نحو القدس، وانطلق الملـك مع الجيش من تل الصافيـة، وتابعوا زحفهم خلال السهول إلى يبنى العائدة للاسبتاريـة، ثم إلى بيت جبرين فالخليل، قرب الوادي الذي قيـل بأن حنة أم مريم العذارء قد ولـدت فيه، وتوقفوا هناك حيـث هاجمتهـم حشود مـن الحشرات الصغيرة، التي طـارت هناك مثل شرر النار، وأطلق عليها اسم « بعوض Cinceneiles » ، وامتلأت المنطقـة كلها مـن حولهم بهذه الحشرات، وقـد أزعجـت الحجاج بشكـل مرعب بلسعـاتها الحادة في الأيدي والرقبة، والعنق، والجبهـة، والوجه، وفي كل مكـان صدف وكـان مجرداً، وكان يتبـع اللسعات حـرقة وتـورم، وبدا الذين تعـرضوا للسع مثل المصـابين بالجذام، وبصعوبة استطـاعوا تجنب الهجمات المزعجة بوساطـة أغطية ألقيت فوق الوجه والرقبـة، لكنهم كانوا جميعـاً في معنويـات عاليـة، واعتقـدوا أن عليهم تحمـل هذه المنغصـات بصبر، لأنهم جميعاً أقسموا على الزحف من أجل حصار القدس.

ورأى في أحـد الأيـام شماس مـن بـواتو، اسمـه وليـم، الملـك، وهـو جالس لوحده في الخيمة، وعيناه مثبتتـان نحو الأرض، وهو في حالة تأمل، فشعر بالانزعـاج من أجله، لأنه عرف أنه كان منزعجـاً جداً وقلقاً بسبب الأخبار الـواصلة من انكلترا، غير أنه لم يتجـرأ على المغامرة على الـدخول

على الملك ليخفف عنه وليلطف من ضيقه الذي أثقل كاهله، ونظر إليه نظرة احترام وانهمرت الدموع من عينيه، دون التفوه بكلمة واحدة.

وعندما رآه الملك أنه راغب في مخاطبته استدعاه وأدناه منه وقال له ما يلي: « أيها السيد الشماس، أرجوك أن تخبرني، بحق الولاء الذي تدين به إليّ، ما هو السبب الذي جعلك تبكي، وهل لمناسبة انزعاجك وأساك أية علاقة بي؟».

ورد عليه الشماس بصوت متواضع قائلاً: « إنني لن أتكلم قبل أن أعلم أن معاليك لن تغضب من الذي سوف أقوله» : وأقسم له الملك أنه سيعطيه الحرية في أن يقول ما يشاء، وبناء عليه بدأ الشماس يقول:

« مولاي الملك، إنني أبكي بسبب الوضع الحرج الذي أراك فيه قائماً مع الجيش، ذلك أنك تنوي العودة إلى الوطن، لعل الرب يمنعك عن الابتعاد عن استرداد هذه الأرض المسكينة بسبب أخبار مشكوك فيها، أو غير مؤكدة، لأننا نعتقد أن تخليك سيسبب عاراً أبدياً لك، فالجميع هنا على اتفاق أنك الأب، والبطل، والمدافع عن المسيحية، وإذا ما هجرتهم كأني بك وقد ألقيت بهم للدمار بوساطة العدو».

وأصغى الملك إلى كلمات الشماس، وتفكر بها في قرارة نفسه بصمت لبعض الوقت، وتبدل موقفه وتغيرت نواياه بهذا الخطاب، وتأكدت عزيمته حول السبيل الذي سوف يتبعه، ولهذا رجع مع جيشه في اليوم التالي إلى عسقلان، وتوقف في البساتين الموجودة خارج المدينة، وافترض كل واحد أنه بات على نية العودة إلى الوطن، وأنه يسرّع عودته، لكن بما ألهمه الرب إياه من خلال الشماس، أخذ الملك يغير نيته، وأخبر الكونت هنري ودوق بيرغندي وبقية النبلاءأنه لن يترك الأراضي المقدسة قبل الفصح، بسبب تلقية أية رسالة أو أي تقرير أو شكاية مهما كان نوعها.

وبناء عليه، استدعى في الرابع من حزيران، في اسبوع الثالوث

المقدس، فيليب، منـاديه وأمره أن يعلن في جميـع صفوف الجيش إن على الجميـع إعداد أنفسهـم وفقاً لامكـانياتهم، والاستعـداد لحصار القـدس، وعندمـا سمع الجيش كلمات المنادي ابتهـج مثل طير عند حلـول الفجر، وعلى الفور أعد الجميع أنفسهم وقالـوا: « أيها الرب، إننا نعبدك ونشكرك لأنك سـوف تجعلنا عما قريب نـرى مدينة القدس، التـي استقر بها الترك مدة طـويلة وأكثـر مما ينبغي، أيها الـرب بارك تـوقعاتنا بعـد هذا التـأخر الطويـل، فلم عـانينا وتعـذبنا وتـألم كل منـا، إن شوقنـا الطويـل لرؤيـة مدينتـك سوف يعـوضنا عـن كل شيء»، وهذا الـدعاء ومثلـه قدمـه كل واحـد، وبـات همهـم الـوحيد وشغلهـم الشـاغـل الآن هـو الشروع بهذا الزحـف، زد على هذا كـانت حشود النـاس من الطبقات الـدنيا متشـوقة جداً للزحف نحـو القدس، وباتوا نشيطين جداً بأملهـم، حتى أنهم حملوا حقـائب المؤن على أكتافهـم، وأكـدوا أنهم قـادرون تماماً، أن يحملـوا ميرة شهر، فلا شيء لايمكـن التغلب عليه في ذهن انسـان ملك الإرادة، فقط إذا امتلك الـرغبة والحماسة في خـدمة الرب، فهـذا يخفف من شقـاء تعبه ويلطفه.

وفيما كل واحد كـان مشغولاً بالاستعداد للحملة، بـدا أن كل شيء قد حدث متوائم مع نواياهم، وبعـد ما استعد الملك والجيش تمام الاستعداد من أجـل الزحف، انطلقـوا من عسقلان في فجـر يوم الأحد، الـذي وافق اليوم الشامن بعد عيـد الثالوث المقدس، وسـاروا يريدون القـدس، وكان الذيـن تقدموا في الأمام نخبـة النـاس، وقد اصطفوا بشكـل رائع، وزحفوا ببطـيء بسبـب الحرارة، وزود الذيـن انتمـوا إلى الطبقـات العليا الـذيـن انتمـوا إلى الطبقات الـدنيـا بما أرادوه بكرم، وكـان هـؤلاء فقراء الحجـاج الـذيـن سـاروا على أقـدامهـم، ولقـد زودهـم الأغنيـاء بجميـع وسـائل التسهيلات من خيـول وكل نوع من دواب الحمولة لحملهـم، وفي الوقت نفسـه سـار في الخلـف الـذين حملـوا أسلحـة خفيفـة، والجنـود الشبـاب

الأقوياء.

وكان بإمكانك وقتها أن ترى عدداً من الأعلام والعذبات من مختلف الأشكال وهي تخفق في الهواء، وكذلك أناساً من مختلف الأمم، وأسلحة متنوعة الأوصاف، وخوذاً لها أعراف وكانت تلمع بالجواهر ، ودروع مشرقة ، وترسة مزينة بصور أسود أو تنينات طائرة وكلها من الذهب، وبغال وخيول متشوقة للتحرك بسرعة كاملة ، ويتحرقون سخطاً لأنهم أعيقوا ببعض المعيقات ، وكانت هناك رماح كثيرة بأسنة حادة ذات لمعان ، وكان الجو مليئاً بأشعة السيوف المتلألئة ، كما وكان هناك عدد كبير من الجنود ، من خيرة الرجال ، رجال صدق وجودة .

وتقدموا مسرعين وبنجاح ، وبعد عبورهم لنهر عذب الماء وصلوا الى تل الصافية ، ونصبوا خيامهم بالسهل بالخارج ، وأمضوا الليل هناك ، وفي أثناء الليل مات عسكري مع حامل سلاحه لأنهما لدغا من ثعبانين في منطقة صغيرة هناك ، أرجو أن يمنحهما الرب الذي كانا يعملان في خدمته الغفران لروحهما ، ومكث الجيش في ذلك المكان لمدة يومين .

ووصل الجيش في اليوم الثالث ، وهو التاسع من حزيران ، الى النطرون ، وذلك بدون عوائق أو منغصات ، وأسر رجالنا الليلة أربعة عشر بدوياً هبطوا من الجبال للنهب ، وفي اليوم التالي تحرك الجيش بعد الغداء نحو الأمام ، وسار الملك في الطليعة ومعه خاصة جنده حتى قلعة قلونية ، حيث أمر بنصب خيمته على الجانب الأيمن ، والأعلى من القلعة ، ووصل الفرنسيون في اليوم التالي ، وانطلق الجيش كله الى بيت نوبة حيث مكث بعض الوقت يتوقع وصول الكونت هنري ، الذي بعثه الملك رتشارد الى عكا لجلب بعض الناس الذين كانوا يعيشون هناك باسترخاء وكسل ، ولذلك كان من الضروري بالنسبة للجيش أن يبقى هناك الشهر كله أو أكثر ، وأن يقيم عند سفح الجبل الذي توجب على الحجاج عبوره لدى ذهابهم الى المدينة المقدسة والعودة عنها .

لماذا لم يزحفوا الى القدس

وفيما نحن في الوادي ، رأينا أشياء كثيرة تحدث ، الأمر الذي نعتقد أننا لا يجوز أن نمرّ به صامتين ، ففي اليوم الذي أعقب عيد القديس برنابا ، وكان يوم جمعة ، أخبر جاسوس الملك أن الترك موجودين فوق الجبل ، في كمين للذين توجب عليهم الجواز ، ولهذا انطلق في الصباح الباكر عند الفجر للبحث عنهم ، وفاجأهم على حين غرة عند نبع عمواس ، فقتل عشرين منهم ، وجعل البقية يفرون ، وأسر منادي صلاح الدين ، الذي اعتاد أن يعلن مراسيمه ، وكان هذا الرجل هو الرجل الوحيد الذي أبقاه الملك رتشارد حياً ، واستولى أيضا على ثلاثة جمال ، وخيول وبغال ، وثلاثة أكاديش وبغلين محملين بأغطية حريرية ثمينة وأنواع مختلفة من توابل الصبر ، وأشياء أخرى ، وطارد بقية المسلمين عبر الجبال ، ملحقاً بهم الهزيمة ومقتلاً لهم ، حتى وصل الى وادي ، فهناك بعدما طعن واحداً من الأعداء ورماه أرضاً يموت ، نظر نحو الأعلى فرأى عن بعد مدينة القدس .

وعندما وصلت أخبار اقتراب الملك رتشارد الى الترك الذين يسكنون في القدس ، بوساطة الفارين ، أصيب هؤلاء بالهلع ، وليس هناك من شك لو أن الملك ورجال جيشه تقدموا نحو الأمام في تلك اللحظة من رعبهم ، لتخلي الترك عن القدس ، ولتركوا الفرنجة يستولون عليها بدون منازع ، فقد هرب المسلمون منها أفراداً و جماعات ، ولم يغامر أحد على البقاء بالمدينة ، وما من أحد ارتدع بتهديدات السلطان ، أو انجذب بأمل الحصول على جائزة ، ولهذا كان كل ما طلبه السلطان نفسه هو تزويده بأسرع فرس لديه حتى يمكنه الفرار من وجه الملك رتشارد الذي لم يتجرأ على الانتظار حتى وصوله .

وفي اليوم السابع عشر من حزيران ، وهو يوم عيد القديس بوتولف Boitolph كانت قافلتنا في طريقها من يافا إلى الجيش مع الميرة وبقية الأشياء الضرورية ، وسارت غالبية طلائع رجالنا بسرعة نحو الأمام ، لكن الذين كانوا في الساقة تبعوهم ببطء وبخطا متثاقلة، وعندما كانوا غير بعيدين عن الرملة، انبعث خيالة ترك من كمين، واندفعوا نحو الذين في الساقة، وحاولوا أن يغدوا أمامهم، حيث مروا مباشرة من خلال ساقة القافلة، وأسقط هناك بلدوين دي كارون Carron من على ظهر فرسه، غير أنه امتشق حسامه وأخذ يضرب به في جميع الاتجاهات، فبرهن أن متمنع على العدو، ويتعذر عليهم الوصول إليه.

وألقي أثناء ذلك القتال برتشارد توركي Torquesوثيودورك من على ظهري فرسيهما ، لكن بلدوين قاتل حتى جلب له رجاله فرساً آخر ، وساعدوه على امتطائه ، وكان هناك صراع حاد ومشرف لكلا الجانبين ، وكانت السيوف تسطع ، وجانب يهاجم والآخرون يدافعون عن نفوسهم بشجاعة قصوى ، وكانت هناك خيول تجول تائهة بدون ركاب ، وكان الترك يحملون ورجالنا يقاتلون بثبات.

وكان ما أن يوقع الترك بعض رجالنا الى الأرض ، كما حدث مراراً ، كان رجالنا يصطفون من حوله بإحكام ، ويقيمونه ، ويساعدونه على امتطاء فرسه ، فقد كان كل واحد يساعد الآخر ، لكن رجالنا قاتلوا في وضع محرج جداً ، فقد كانوا قلة قليلة ، فقد كان كل واحد يصارع عدوه وهو مغطى - كما حدث فعلاً - بحشد من أعدائه عندما كان أي واحد من رجالنا يحرم من حصانه ، كان مصيره الغلبة من قبل الأعداء ، وقد عقرت الخيول ، وأضعفت كثيراً بزخات النشاب التي رميت عليها .

وألقي بلدوين أرضاً للمرة الثانية وما أن رمي من على ظهر حصانه حتى بادر على الفور فأمر واحداً من رجاله المسلحين بأن يترجل ، وركب

هو عوضاً عنه ، وبعد قليل قطع رأس هذا الرجل الذي تصرف ببسالة .

واتخذ رجالنا الآن موقف الدفاع ، وجرى أسر فيليب رفيق بلدوين ، ومعه أسر الترك رجلاً آخر من الأتباع المسلحين ، وكان شجاعاً جداً ، كما قتل آخر رتشارد توركوي ، وللمرة الثالثة حرم بلدوين من حصانه ، وضرب بالهراوات حتى أصبح بلا حراك وكاد أن يموت ، وتدفق الدم مثل النهر من أنفه ومن أذنيه ، بينما انثلم سيفه من كثرة الاستعمال وانكسر رأسه ، وبات غير صالح للاستعمال ، ثم جرى تطويق بلدوين بمجموعة كثيفة من الترك ، وهنا صرخ لـ « مانسييردي ليسلي » nan-nassier de lisle ، وكان فارساً عظيم القوة ، سحق كل من واجهه ، وقال : « مانسيير هل تخليت إذن عني » ؟

وبناء عليه امتطى مانسيير فرسه وبادر بكل سرعة لانقاذه ، لكن العدو كان كثيراً جداً ، وشجاعاً ويقاتل بعزيمة وثبات ، لهذا لم يستطع هذان الرجلان فعل شيء ضد رجال العدو ، فقد حرم مانسيير من فرسه ، وعندما بات على الأرض ضربوه بوحشية بأعمدة حديدية ، ذوات رؤوس خشنة ولها أسنان ، وكان واقفاً على الأرض ، فأنهكوه حتى سقط لما به وكسروا ساقيه وعظامه ، وكل ما في جسده هتكوه ، وهكذا تم تدمير كل من بلدوين ومانسيير من قبل العدو ، بينما لم يعلم رجالهما شيئاً عن مصيرهما .

وأرسل الرب في هذه اللحظة ايرل سالسبري الشجاع لانقاذهما وحمايتهما ، واندفع الايرل نحو العدو وألقى بأول رجل اصطدم به من على ظهر حصانه ، فعجل بناء عليه أو سكون Auscun ، وكان رفيقاً لستيفن دي لونغشامب ، فقطع رأسه ، ورماه إلى مسافة بعيدة ، وتصرف ستيفن أيضاً برجولة ، وازداد رجالنا بالعدد ، وانزلت الهزيمة بالعدو ، وهرب بسرعة الى الجبال ، اللهم باستثناء الذين ألقى رجالنا القبض عليهم ، أما الذين جرحوا من رجالنا فوضعوا بعناية على

ظهور الخيول وحملوا الى الجيش .

وجلب رجل سرياني ، هو أسقف القديس جورج (اللد) قطعة من صليب الصلبوت الى الملك هنري ، وكان هذا الأسقف شخصياً مع رعيته ممن يدفع الجزية لصلاح الدين ، منذ أن دخل المسلمون القدس للمرة الأولى ، وكان عندما جاء ، جاء مصحوباً بعدد كبير من الرجال والنساء ممن ينتمون الى شعبه ، وأعطى الملك قطعة الصليب .

وحدث أيضاً ، في اليوم الثالث ، قبل عيد القديس يوحنا المعمدان ، بينما كان الجيش في بيت نوبة ، أنه قلق كثيراً تجاه أخبار جلبت الى الملك ، جلبها رجل تقي هو راعي دير القديس إيليا ، الذي عبر مظهره الخارجي ، ولحيته الطويلة ، والرأس الأبيض ، عن القداسة ، وأخبر الملك أنه منذ زمن بعيد مضى خبأ قطعة من صليب الصلبوت ، احتفظ بها لتبقى حتى يتم انقاذ الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، وما أن سمع الملك بهذا حتى بعث على الفور مع الراعي عدداً كبيراً من الناس الى المكان الذي تحدث عنه الراعي ، وبعدما حملوا قطعة صليب الصلبوت بتذلل وتبجيل ، عادوا معاً الى الجيش ، وقبلوا مع الناس قطعة الصليب بكثير من التقوى والاستغفار .

وبعدما تعبد الجيش الصليب لوقت طويل بسرور عظيم زائد ، تشكى الناس من الطبقة الأدنى ومن العامة وقالوا : « أيها الرب ، ماالذي سنفعله ؟ هل سنتابع الزحف الى القدس ؟ ثم بماذا سنقوم أيضاً ؟ هل سنستطيع الصبر حتى ننجز حجنا » ؟ هكذا تعالت التمتمات والشكاوى بين الناس .

وبناء عليه اجتمع الملك مع قادة الجيش للبحث هل من المفيد المتابعة حتى حصار القدس أم لا ، ووافق الفرنسيون على الزحف بحرارة ، لا بل حثوا الملك على متابعة الزحف والحصار ، وقد رد عليهم

بأن هذا لا يمكن القيام به ، وقال الملك :« إنكم لن تروني أعمل بمثابة دليل وقائد للناس في هذه المسألة ، لأن من الممكن أن نكسب بذلك العار ، لأنه من غير المعقول كثيراً أن نمضي في هذه المغامرة ، وإذا كان يرضيكم متابعة الزحف الى القدس ، لن أتخلى عنكم ، غير أنني سأكون رفيقكم ولن أكون قائدكم ، وإنني سأتبعكم ، لكن لن أقودكم .»

«ألا يعلم صلاح الدين كل ما يجري في معسكرنا ، وهل تظنون أن أوضاعنا الضعيفة غابت عن ملاحظته؟.

إنه يعرف تماماً كم هي قوانا،وأننا بعيدين عن شاطىء البحر، وعندها سينحدر العدو بقواته من الجبال الى سهول الرملة ليراقب الطرقات،وليقطع الممرات على الذين يجلبون لنا المؤن، وهنا ستكون المحصلة مأساوية جداً بالنسبة للمُحاصِرين،وعندها سنندم ولات حين مندم،وسندفع عقوبة مغامرتنا الحمقاء ،وثمن عنادنا» .

«زد على هذا إن أسوار القدس التي نقترح حصارها،هي كما سمعنا-عظيمة جداً باستدارتها،وأن نقوم بمضايقتها بقواتنا-التي هي قليلة كما ترون الآن-إن عددها لن يكون كافياً لمتابعة الحصار ،أو القيام به، أو حماية الذين يجلبون الميرة،من الحملات التي سيشنها الترك،ومن المؤكد أنهم سوف يتعرضون للدمار أفراداً أو جماعات،إذا لم يكن هناك من يتولى انقاذهم».

«وإذا ماقمت بهذه المغامرة الخطيرة ،ونزلت نازلة سوء وأنا المتولي للقيادة (لاسمح الرب) إنني وحدي الذي ينبغي أن يلام لعدم تبصري ،وسأكون وحدي المسؤول عن المخاطر،وليس هناك من شك ،وأنا على يقين من ذلك،أن هناك أشخاص هنا في الوقت الحاضر،كما هناك أشخاص في فرنسا،قد رغبوا منذ وقت طويل، ويتمنون كثيراً أن أبذل غاية جهدي في هذا الصدد،من دون اتخاذ احتياط موائم،وتيقظ مناسب،وأن علي انجاز أعمال

جريئة ،ستكون بحق موضع تساؤل وستجلب العار لاسمي النقي حتى الآن من أية شائبة، وبناء عليه إنها عملية خطيرة جداً ،ولها نتائج مشكوك بها وغير محققة على الاطلاق، وأرى إنه خطأ أن نبادرفنندفع نحو الأمام بدون احتياطات عظيمة»

«زيادة على ماتقدم،نحن ،وشعبنا نجهل طبيعة هذه المنطقة،ولانعرف الطرقات ولاالتشعبات والعقبات،ولو أننا كنا أفضل معرفة بهم،لأمكننا الزحف بسلامة أكبر،ومع هذا أرى إن أفضل سبيل نتبعه هو أن نسأل السكان المحليين من أبناء الأرض،ونطلب نصيحتهم،وهم مشتاقون الى استعادة أراضيهم والعودة الى أوضاعهم الماضية، وينبغي أن نجهد لنتأكد منهم ماالذي يرونه الأفضل للقيام به، وأرى أيضا إنه ينبغي علينا استشارة الداوية والاسبتارية، ونقف على حكمهم وموقفهم حول :هل علينا الزحف أولاً لحصار القاهرة،أو لحصار بيروت،أو لحصار دمشق،وبهذه الصورة لن يستطيع جيشنا الاستمرار،كما هو الآن، في أن يتوزع الى فئات بسبب الآراء المتباينة».

وبناء عليه،تم الاتفاق ،استناداً لتوصية الجميع وموافقتهم،وجوب اختيار عشرين رجلاً موثوقاً بهم،وأن يقسم هؤلاء على اتخاذ قرار حول ماهم بصدده، وأن على الجميع الأخذ بقرارهم دون مزيد من المعارضة،وبالفعل جرى اختيار خمسة من الداوية،وخمسة من النبلاءالفرنسيين، وخمسة من الاسبتارية، وخمسة من البلديين السوريين، واجتمع هؤلاء العشرين مع بعضهم،وبعد التداول لبعض الوقت،حول المسألةالمطروحة من قبل،عرضوا موقفهم المقرر وهو إن أفضل خطة على الاطلاق هي الزحف مباشرة لحصار القاهرة،ولدى سماع هذا عارضه الفرنسيون بكل شدة، واحتجوا وقالوا إنهم سوف لن يزحفوا الى أي مكان إلا الى حصار القدس.وعندما سمع الملك بعناد الفرنسيين وتخليهم عن موافقاتهم بالالتزام،اضطرب وانزعج وعلق قائلاً :«إذا كان

الفرنسيون ليسوا على استعداد للالتزام بخطتنا، ولن يوافقوا على الزحف لحصار القاهرة، تماشياً مع ما أقسموا على طاعته،إنني سوف أعطيهم اسطولي الراسي في عكا،وهو مجهز تماماً ،وذلك لكي يحمل مؤنهم وما يحتاجون إليه،ووقتها يمكن للجيش أن يزحف على طول الساحل وهومطمئن،كما أنني سأبعث الى هناك معهم،على حسابي الخاص، سبعمائة فارس، وألفين من أتباعهم، وذلك باسم الرب، وإذا كان أي واحد يحتاج الى المساعدة من مالي أومما هو متوفر لدي،ليكن متأكدا أنه سوف يزود بكل مايطلبه، وإذا كان أي واحد يشك في أنني سأفعل ذلك،فأنا سوف أزحف مع جنودي فقط، وبدون عون الآخرين».

ثم أمر بالتقصي والبحث في داخل خيم الاسبتارية التي كانت مجاورة لخيامه، ومعرفة ماالذي يمكن تزويدهم به من أجل القيام بالحصار ،وكم عدد الرجال الذين يمكنهم تقديمهم وتسليحهم ،وجاء المقدمون أيضاً الى هناك،ووافقوا على تقديم وفرة من الاسهامات فيما يتعلق بنفقات الحصار،مع أنهم كانوا يمتلكون القليل جداً في جيوبهم،لكن في تلك اللحظة الحرجة والحاسمة ظهروا وهم متشوقين جداً للقيام بتلك المخاطرة المريبة النتائج كثيرا ،حتى باحتياطات أقل مما تصوروها لدى الشروع بالتفكير بحصار القدس، التي حللتهم الأيمان من القيام به.

الاستيلاء على القافلة الكبيرة

وبناء عليه،بينما كان الاسبتارية يبحثون بقلق ماالذي ينبغي أن يقدمه واحد تجاه نفقات الحصار،وصل برنارد،وهو جاسوس للملك رتشارد،ومعه اثنين آخرين جاء كل واحد منهما من جوار تخوم مصر،وكانا من السكان المحليين للمنطقة،وقد لبسا ملابس تركية ولم يختلفا في شيء عن المسلمين، وكانت وظيفتهما أن يرويا للملك رتشارد تقارير عن أوضاع العدو ومامن أحد تكلم اللغة التركية بيسر أكثر منهما،وأعطى الملك رتشارد لكل واحد منهما ثلاثمائةمارك فضي مقابل خدماته.

وبينا للملك أن عليه أن يستعد مع رجاله بكل سرعة ممكنة، لاعتراض طريق قافلة كانت قادمة من مصر،ووعداه أن يقوداه نحوها،وابتهج الملك لدى سماعه ماحكياه وطلب من دوق بيرغندي أن ينضم اليه على الفورللقيام بهذه المغامرة،وليجلب الفرنسيين للمساعدة،ووافق الفرنسيون على القيام بهذا شرط أن يتسلموا ثلث الغنائم،ووافق الملك على هذا المطلب،وهكذا حضر من الفرنسيين على الفور خمسمائة جندي مسلحين بشكل جيد جاهزين للانطلاق ،وأخذ الملك معه ألف رجل ممن كان يخدمه بالأجرة.

وشرعوا بالزحف عند المساء،وتقدم الملك أمامهم،وساروا طوال الليل في ظل ضوء القمر الرائع،ووصلوا الى تل الصافية،واستراحوا هناك قليلاً، وبعثوا الى عسقلان من يجلب اليهم المؤن، وأعدوا بالوقت نفسه بكل عناية أسلحتهم حتى وصول الخدم الذين أرسلوهم لجلب المؤن.

لكن ماأن زحفت قواتنا للهجوم على القافلة حتى أخبر جاسوس صلاح الدين في القدس بأنه رأى الملك رتشارد ينطلق مع حشد كبير من شعبه لاعتراض القوافل،وبذلك انكشف سر حملتنا،فأرسل صلاح

الذين مسرعاً خمسمائة من خيرة الترك،الذين شكلوا عندما التحقوا بالذين كـان موكـلاً إليهم حـراسـة القوافـل، قوة مكـونـة من ألفـي فارس ،وذلـك بالاضافة الى جماعة كبيرةمن الرجالة.

وعنـدما كـان الملك رتشـارد وأتباعـه يرتـاحون في تـل الصافيـة،أخبر جاسوس الملـك بأن واحد ة من القوافـل المتقدمة الذكرتعبر بـالقرب من صهـريـج مستديـر(الخويلفـة)، وأشـار عليـه بالمضي مبـاشرة والاستيـلاء عليهـا،وأوصـاه بإبقـاء قـواتـه في الخلـف،وقال:«لأن مـن سيستـولي على القافلـة، سوف يحصل على غنـائم هائلة»لكن بما أن الجاسوس كـان من أبناء المنطقة ،لم يـر الملك وجوب الوثـوق به تماماً،والاعتماد على تأكيـداته لوحده، ولهذا بادر الملك الى ارسال بـدوي مع اثنين من الخدم التيركوبلية اليقظين،للتأكـد من صحة المسألـة،بعد البحث والتقصي حـولها،وجعلهم يلبسون لباس البدو،حتى يظهروا مثلهم مثل المسلمين.

وانطلق الـرجال الثلاثـة ليلاً عبر الهضاب ،التي كـانت مغطاة بـأبراج مـراقبة، وانعطفـوا نازلين الى الـوادي، وسـاروا حتى رأوا بعـض المسلمين فوق بقعة مرتفعة،وكان هؤلاء أنفسهـم جالسين ينتظرون الذين يمكن أن يعبروا الجبال،وعنـدما اقترب بـدوينا منهم لاكتشـافهم بخطـوات خفية، سـألهم المسلمون مـن هم، ومـن أيـن جاءوا،والى أيـن وجهتهم ،وطلـب البدوي مـن الآخرين التزام الصمـت،خشية أن يكتشفهم المسلمـون من كلامهـم،وأجابهم بـأنهم كانوا عائدين من المنطقـة المجاورة لعسقلان،الى حيـث ذهبوا للنهـب،لكـن واحـداً من المسلمين قـال لـه:«لقـد قدمـت للبحث عنا،وأنت من أتباع ملك انكلترا»وأجابه البدوي بأنه يكذب ،ثم تجاوزه وتقـدم مسرعاً بـاتجاه القافلـة ، ولحق بـه بعض المسلمين لبعـض الـوقت ، وهـم يحملون قسيهـم ورماحهـم ، وظلوا يفعلـون ذلك حتـى توقفوا عن المطاردة بسبب تعبهم » .

والآن وقد تأكد جـواسيسنا من حقيقة القافلة ، عـادوا بأقصى سرعة

الى الملك وأخبروه أن بإمكانه الاستيلاء بسهولة على القافلة إذا ما بادر مسرعاً ، وعندما سمع الملك بهذا ، وبعدما كان قد أراح خيوله وعلف عليها ، انطلق مع رجاله ، وساروا طوال الليلة التالية حتى وصلوا الى المكان حيث كانت القافلة ، فأعدوا أسلحتهم ، وعبأوا أنفسهم ، وسار الملك في الصف الأول ، ومشى الفرنسيون في الساقة ، وحظر الملك بصوت المنادي على أي واحد الالتفات نحو النهب ، وأمرهم أن يبذلوا ما في وسعهم لخرق الصفوف التركية وتدميرها .

ومع اقتراب الصباح ، وعندما كانوا مشغولين في تنظيم صفوفهم ، وصل جاسوس آخر مسرع جداً ، وأخبر الملك بأن القافلة كانت تستعد مسرعة للتحرك منذ الفجر لأن نية الملك بمهاجمتها باتت معروفة من قبل حراسها ، ولدى سماع الملك بذلك ، تقدم نحو الأمام مع نبالته ورماة الزنبورك ، ، ليعطل القافلة وحراسها ، ولإثارة الحراس للدخول في معركة أبقاهم تحت رقابته حتى يتمكن هو وعساكره من الانقضاض عليهم ، وبهذه الطريقة شعر الترك بالخطر وتأخروا ، في حين اقترب منهم جنودنا مصطفين في أرتال قتالية جاهزة لانشاب المعركة .

وما أن رآهم الترك حتى شرعوا على الفور بالصعود الى أحد الجبال ، من أجل أن المنطقة المرتفعة يمكن أن تمنحهم وضعاً أثبت ، ودلل مظهرهم العام على أنهم أقل ثقة بأنفسهم من المعتاد ، ثم أقلع الترك بحملة حادة ، وأرسلوا بجروخهم ونشابهم مثل زخات البرد على صفوفنا ، في حين بقيت القافلة واقفة دونها حراك .

وكان الملك رتشارد قد قسم جيشه الى قسمين ، وبناء عليه هاجم الترك بشكل مفاجيء وتمكن مع أتباعه من خرق صفوفهم الأولى وهزموها ، وكانت حملته من الشدة بمكان جعلتهم يسقطون الى الأرض من دون ضربة تقريباً ، وضغط هو بحدة وشدة على المنهزمين ، إلى حد أنه لم يبق هناك من لديه مقاومة ، باستثناء عدد من الذين

فروا ، وكـانوا يلتفتون نحـو الخلف ، ويرمـون بالنشاب خلفهـم ، وهكذا هرب الجميع ، مثـل الأرانب البرية أمام كلاب الصيـد ، وطوردوا في كل اتجاه ،في حين وقفت القـافلة تحت رحمة المطُارِدين الـذين قتلوا كـل من اصطدمـوا به ، وهكذا تكـومت جثث قتلى العـدو فوق الـرمل ، فالـذين حرمـوا من خيولهم بوسـاطة فرساننـا ، أجهز عليهم سيرجنديتنـا ، وكان من الممكن أن تشاهـد هناك خيول وقد انقلبت سرجها ، فالـذين هزموا تـمّ تـدميرهـم بشكل تعيـس ، وقـاتـل رجـال الملـك ببسالـة ، وقـاتـل الفرنسيون أيضاً بمعنويات عالية ، مثلهم مثل رجال اعتادوا على القتال.

وكـان الملك متفـوقـاً على البقيـة بتفوقـه الملكـي عليهـم جميعاً ، فقـد أمتطـى فرسـاً طـويلاً ، وانقـض على العـدو بمفـرده ، وفي أثناء القتـال انقصفـت قناة رمحه ، بسبـب الطعن بـه مراراً ، وبـاتـت قطعـاً متناثـرة ، فامتشـق سيفه على الفور ، وأخذ يضرب بـه ، فضغط بشدة على الفـارين وكـومهـم على الأرض ، وأزال الذيـن كـانـوا بـالخلـف من الـوجـود ، وأخضع الذين كانوا أمام الجميع ، ولقـد كان مثل الصاعقة ، قطع ومزق كل مـن صدفه ، فما مـن درع كان يمكنه الصمـود أمام ضرباتـه، فبحد سيفه قطع الرؤوس من الأعلى حتـى الأسنان ، وبضربه بسيفه يمنه ويسرة أرعب الترك وجعلهم يفرون مثل الشياه لدى مطاردتها من قبل الذئب .

وفيما الملك يتولى على هذه الصورة الفاريـن ، قام بعض هؤلاء وهم في حالـة يأس ، فتخلوا عـن طريقهم ، وعادوا نحـو مخيمنا الذي كـان شبه مهجور، آملين بعمل شيء ما ضد الحرس في أثناء غياب الملك ، فعندما كانـوا أمامـه تخلت شجـاعتهم عنهـم ولم يكن هـذا بلا سبـب لأن حياة الأعداء أو موتهم كانت دوماً بين يديه .

وبنـاء عليـه جاء حـوالي الثـلاثين مـن الفـارين عبر طـريـق دائري ، وانقضوا على رجالنـا ، وقاموا بحملة عنيفـة على روجردي توني Toony، الذي قتلـوا حصانـه من تحته ، وكـاد أن يقع في أسرهـم عندمـا جرى

انقاذه من بين أيديهم بوساطة واحد من رفاقه .

وجاء في الوقت نفسه رجالنا المسلحين مع ايرل ليستر، وهاجموهم من على اليمين واليسار، ثم تجددت المذبحة ، ولمعت السيوف بالهواء ، وتغطت الأرض بالدماء ، وتلاقت الأذرعة واصطدمت مع بعضها ، ومزقت الأجساد ، وقطعت الأطراف ، والرؤوس والأذرعة والأقدام ، والأيدي ، والأطراف الأخرى كانت موزعة هنا وهناك ، واعترض طريق رجالنا أثناء سيرهم أجساد الأعداء التي كانت ملقاة على أرض المعركة بأعداد كبيرة ، وجعلتهم يتعثرون في كل خطوة ، وكانت مقتلة الترك أعظم مما رآه أجدادنا قط ، وكان اضطرابهم وهلعهم أثناء القتال قد بلغ حدا ، أن طفلاً واحداً كان بإمكانه أن يقتل عشرة منهم أو بالحقيقة ، أكبر عدد منهم بقدر من كان يصطدم بهم .

وبهذه الهزيمة ألقي بكبرياء الترك الى الرغام تماماً ، ومحقت شجاعتهم بالفعل كلية ، في حين غدت القافلة ، بكل ما فيها من ثروات غنيمة للمنتصر، فقد سلم حراسها بأنفسهم الى رجالنا الأثقال ، وخيول النقل ، ومدوا أيديهم نحو الأمام استسلاماً ، والتمسوا الرحمة ، على شرط واحد هو أن تصان حياتهم .

وقادوا حيوانات الجر والجمال ، بشكالها ، وسلموها الى رجالنا ، وجلبوا البغال وهي محملة بالتوابل من مختلف الأنواع ، والأثمان العالية ، مع الذهب والفضة ، وأردية الحرير الأرجوانية، والثياب الحمراء ، والملابس المطرزة بأشكال متنوعة ، بالاضافة الى الدروع والأسلحة من جميع الأشكال ، والسوابغ ، والأرائك الثمينة ، والسرادقات والخيم ، والبقسماط، والخبز ، والشعير والقمح ،والأطعمة وكميات هائلة من الأطعمة المحفوظة والأدوية ، والطشوت والقرب والصناديق ، والصحون الفضية ، وحوامل الشموع ، والفلفل والقرفة ، والسكر ، والشمع ، وأشياء أخرى ثمينة مختارة من مختلف الأنواع ، وكمية هائلة

من المال ، وكميات لا يمكن عدها من البضائع ، لم يؤخذ مثلها من قبل في وقت واحد في أي مما تقدم من معارك .

وبعدما توقفت مقتلة المسلمين ، وتمّ الاستيلاء على القافلة ، تعرض جيشنا الى أمر مزعج ومتعب تمثل في جمع الجمال والنوق ، التي كانت تسبب الفوضى والاضطراب للجيش كله ، لأنهم تجنبوا مطاردتهم من قبل خيولنا بقدرة عظيمة بحيث أنه ليس هناك نوع آخر من الحيوانات يمكن أن تكون مثلهم بالفعالية والسرعة الطبيعية ، فكانوا يبدون متباهلين وبطيئين حتى يغدوا المطارد على مسافة ضئيلة منهم ، وعندها يتحركون بسرعة كاملة .

وتم أخيراً بوسيلة أو أخرى جمع أربعة آلاف وسبعمائة جمل وناقة مع بعضها بعضًا، علماً بأن هذا الرقم ليس مؤكداً ، وأخذوا كثيراً من البغال من الجنسين ، وحمير تحميل من غير الممكن عدها لكثرتها ، لأنها بدت أكثر عدداً مما كان من الممكن أن يتطلبه تعداد الرجال ، فضلاً عن هذا كله تجاوز عدد الفرسان الأتراك الذين قتلوا في ذلك اليوم الألف وسبعمائة، الى جانب عدد كبير من الجنود الرجالة الذين ديسوا أثناء المعمعة حتى الموت .

- ٩٧١ -

كيف عاد الجيش الى عكا

وعندما أكمل الملك جميع هذه الأشياء ، وأعدّ أثقاله للعودة ، انطلق عائداً مع جيشه مثقلاً بالأسلاب ، وسار الجميع بخطا وئيدة ، حتى وصلوا الى بيت عفة التي ابتعدت مسافة أربعة أميال عن يافا، فهناك توزعوا الغنائم فيما بينهم ، ثم تابعوا سيرهم في اليوم التالي الى الرملة .

والى هناك جاء الكونت هنري مع العساكر والناس الذين جلبهم معه من عكا ، ومن هناك توجهوا جميعاً إلى بيت نوبة ، وهو المكان الذي كانوا انطلقوا منه ، وتجددت هنا الأفراح العامة، وتقاطر الجميع واجتمعوا مندهشين تجاه عدد حيوانات التحميل التي سيرافقها الجيش .

ولدى الوصول ، وزع الملك النبيل الجمال ،التي كانت أكبر حجماً من أي نوع رؤي هناك من قبل ، وأعطاها إلى الجنود الذين مكثوا لحماية المعسكر ، والى الذين انضموا الى الحملة على شكل حصص متساوية، وحذا في هذا المقام حذو ذلك المحارب الشهير ، وأعني به الملك داود الذي أعطى حصصاً متساوية من الأسلاب الى الجنود الذين ذهبوا الى المعركة والى الذين مكثوا في المعسكر، ووزع أيضاً الحمير بين الرجال الذين يخدمونه ، وزود الجيش بهذه الوسيلة بعدد كبير جداً من الجمال وحيوانات الحمولة الأخرى ، ولقد كان من الصعب جداً حفظها مع بعضها ، وحشوا لحوم الجمال الشابة بشحوم الخنازير وشووها للأكل ، فوجدوها بيضاء كثيراً ، وسائغة طيبة المذاق.

وبعد وقت قصير من توزيع الأسلاب ، شرع الناس يتشكون من أن حيوانات التحميل قد أكلت كثيراً من الشعير والأعلاف ، ولهذا ارتفعت أسعار الحبوب كثيراً ، وبالاضافة الى هذا توفر المزيد من الشكوى

والأسف بين الناس،لأنه ارتؤي أنه من غير المناسب الزحف نحو حصار القدس، حسبما رغبوا، وذلك بسبب معارضة العشرين مستشاراً.

فلقد رأوا أنها مغامرة صعبة ،لابل مستحيلة،بسبب الحاجة الى الماء، الذي لن يستطيع الناس والمواشي العيش من دونه،لاسيما وأن عيد القديس يوحنا بات على الأبواب ،وهو زمان تزداد به حرارة الصيف،وبسببها يغدو كل شيء جافا بشكل طبيعي،خاصة حول القدس، القائمة في الجبال،زد على هذا أغلق الترك جميع صهاريج الماء،لذلك بات من غير الممكن ايجاد نقطة من الماء الصالح للشرب على طول مسافة ميلين من المدينة، ومن غير المأمون الذهاب للبحث عن الماءالى مسافات بعيدة ،عندما يكون الحصار قد بدأ، ولن يكون نبع سلوان الصغير الذي يجري عند سفح جبل الزيتون كافياً للجيش.

ولقد كانت هذه هي الأسباب التي جعلت المستشارين يقنعون الملك رتشارد بالاقلاع عن حصار القدس في ذلك الوقت،وعندما بات معروفاً في أوساط الجيش أنهم لن يذهبوا الى هناك،بل كانوا على وشك الابتعاد عن تلك المدينة،لعنوا ذلك التأخير وأكدوا أنهم يرغبون فقط بالبقاء أحياء حتى تغدوالقدس والأراضي المقدسة والصليب مرة أخرى في حوذة المسيحيين وحدهم.

وعلينا أن لا نعجب أن الحجاج الذين تعذبوا هكذا بدون الوصول الى نتيجة طيبة، أسفوا وحزنوا لاخفاق رغباتهم،في حين تطور الخلاف فيما بينهم الى انشقاق،ولما ظهرت هنا سمات التردد لدى الفرنسيين،التي ميزتهم عن بقية الشعوب،حدث في إحدى الأمسيات عندما كان الجيش يتقدم في زحفه، قام الفرنسيون بعزل أنفسهم عن البقية واتخذوا موقفاً متميزاً،وكأنهم يزدرون الجماعة،ولم يكتفوا بالرضا بالانفصال فقط بل انخرطوا بالشجار فيما بينهم أنفسهم،وتلفظوا بألفاظ قاسية بشعة،ولغة قبيحة، وتبجح كل منهم ببسالته،وبعدم الاكتراث أو التقدير

للآخرين،وفوق الجميع نظم هنري دوق بيرغندي أغنية ،نشرها بين الناس، وهي أغنية (لو امتلك أدنى إحساس بالخجل)لما سمح بنشرها، ولم يغنها الرجال فقط بل النساء غير الوضيعات أيضاً ،مظهرين أخلاق هؤلاء الذين تورطوا في مثل هذه الحماقة القذرة.

وعندما انتشرت الأغنية بين الجنود وتداولها الناس،غضب رتشارد غضباً عظيماً ،وارتأى أن القيام بعمل مماثل سيكون وسيلة للانتقام لنفسه من الناظم، وكانت هنالك وفرة بالمادة،ولذلك لم يجد صعوبة في نظم أغنية معاكسة،وهاجمه منافسه، الذي لم يكن موازياً له، بشتائم قاسية وقبيحة بلا مسوغ.

وبقي الجيش على هذه الشاكلة لعدة أيام بعد الاستيلاء على القافلة،وكان أفراده حزينين جداً ويائسين نتيجة الحظر الذي وضع على متابعة الجيش زحفه حتى يزور الضريح المقدس في القدس ،الذي كانوا على مسافة أربعة أميال منه،ولم يكن الشعور بالاحباط الذي سببته عودتهم له مايوازيه مطلقاً لدى أناس شجعان مثلهم.

وعندما تحرك رجالنا تعرضوا للهجوم من قبل الترك من الجبال،وصدهم فرساننا الأقوياء ولكن بعض أتباع معسكرنا قتلوا لأنهم لم يمتلكوا خيولاً جيدة،ووصل الجيش بعد هذا الى مكان قام فيما بين القديس جرجس والرملة،وهناك أمضى الليلة،وقد عسكر الفرنسيون على الجهة اليسرى،وعسكر الملك ورجاله على الجهة اليمنى.

وساروا في اليوم التالي وتابعوا زحفهم في أقسام منفصلة،ووصلوا الى قلعة قامت في منتصف الطريق،وكان هذا في اليوم السادس من تموز، وتخلى هنا بعضهم عن الجيش وهجروه وهم في حالة اشمئزاز،بسبب حالة الانهاك والإرهاق التي تعرضوا لها أثناء الحملة،وذهبوا الى يافا.

وعندما علم صلاح الدين بحالة الصليبيين ونواياهم،انتعشت

آمـاله،وكـان سروره بـلا حدود،وبعـث على الفور بـرسـل يحملون رسـائل مختومة بخاتمه الى الأمراء والمقدمين،والقـادة والحكام في ممالكه يخبرهم فيها بـالتمـزق الـداخلي الـذي تفجـر داخـــل جيـش الفـرنجـة،وأرغمـه على التراجع،وأن كـل من يريـد أن يدخل في خدمتـه مأجور عليـه القدوم الى القـدس ،وكان الحشـد الذي تـدفق الى هنـاك عظيماً ، ونتيجة لهذا بـات عـدد الخيالـة يقـدر بعشريـن ألفاً مـن الأشـداء،الى جـانب جموع لاتعـد ولاتحصى من الجنود الـرجالة .وأدرك بالوقت نفسه الملـك عجزه عن منع الناس، وإيقـافهم عن التخلي عـن الجيش ، بسبـب تباين المواقـف التي سادت ،فرأى أن خير خط سياسي يمكنه اتخاذه هـو مراسلة صلاح الدين في هـذه الساعـة،والموافقة على الهدنـة(التي عـرضت مـن قبل في سهـول الرملة)لمدة محدودة،مـن أجل أن يمتلك الوقت حتى يستطيع العودة من بلاده،غير أن صلاح الـدين الذي عرف تمام المعرفة أوضـاع جيشنا، وأنه كان يـزداد ضعفاً كل يـوم،رفض رفضاً قاطعـاً، ما لم يتم تـدمير عسقلان وإنزالها إلى الأرض واجتثاثهـا، وما أن علم الملك بجواب صـلاح الدين، لم يظهر أبداً الانـزعاج،بل أمر على الفور الـداوية والاسبتارية مـع آخرين، وصل عـددهم الى الثلاثمائة، أن يمتطـوا خيولهم، ويسيروا لتـدمير حصن دير البلح وبعث برجال لحراسة ومراقبة حصن عسقلان بالشدة الممكنة.

وبادر هؤلاء لتنفيذ أوامـر الملك، فدمروا دير البلح وسـووها بالأرض،ثم عاد الجيـش في حالة اشمئزاز وقنـوط حتى يافـا،حيث بقي هناك العـديد بسبب سـوء الصحة والضعف، وفي الوقـت نفسه سار الملك مسرعـاً كلياً الى عكا.

كيف هاجم صلاح الدين يافا

وعندما سمع صلاح الدين أن رجال يافا كانوا محرومين من وجود رتشارد لحمايتهم، أمر جيشه بالزحف الى هناك، وهو يأمل بالاستيلاء على المدينة بسهولة خلال غياب الملك ، وأخذ معه عشرين ألف فارس، وأمير البيرة(؟)Bulaالقوي، وابن(مقدم)الحشيشية،مع مائة وستة أمراء،وحشد هائل من الرجالة من الجبال،الذين غطوا وجه الأرض مثل الجراد،وغادر الجيش القدس،ونزل الى سهول الرملة،واندفع الجند على شكل أرتال وفرق،كلهم كان متحمساً ومتشوقاً لتدمير الفرنجة تدميراً كاملاً.

وكان يوم الأحد الذي أعقب أحد الزحف هو عيد القديس بطرس في الأغلال [٢٦-تموز](وهو الموافق لليوم الذي جاء فيه الملك رتشارد مع جيشه الى عكا) ففي هذا اليوم زحف صلاح الدين مع عساكره للهجوم على يافا، وشرعوا في يوم الاثنين التالي بمهاجمة القلعة،لكن سكان المدينة خرجوا الى الأرباض، وقاوموهم طوال النهار،ومنعوهم من الاقتراب من المدينة، ومر يوما الثلاثاء والاربعاء على الشاكلة نفسها،ولم يكن حتى يوم الخميس حين شعر الترك بالخجل بأنهم صدوا من قبل عدد بهذه الضآلة،فقاموا بجهد عظيم وطوقوا المدينة على الفور،وبأمر من صلاح الدين أقيم أربعة منجنيقات قوية مع منجنيقين بكفاءة عظيمة في رمي المقذوفات.

وكان عدد المحاصرين داخل يافا حوالي خمسة آلاف، وبدأواالآن يتأثرون بسوء أحوالهم،ولذلك شرعوا يدعون للرب لانقاذهم، وحولوا أنظارهم نحو ملك انكلترا، وتمنوا لو أنه لم يذهب الى عكا،تاركاً إياهم هناك عرضة للدمار،وشدد الترك في الوقت نفسه الحصار، وكان الوضع

المتردي لسكان المدينة يبكي أي انسان يرى ذلك،ومع ذلك قاوموا بشجاعة كبيرة،علماً بأنهم أنهكوا بوضع ألف رجل على الفور للدفاع عن مدينتهم،في حين لم تتوقف العرادات والمجانيق عن القذف.

وتم أخيراً بفضل حملات الترك وضغطهم تدمير البوابة التي تقود إلى القدس، وفتحت يوم الجمعة نتيجة الضربات المتوالية للمنجنيق،كما أن السور القائم على جهة اليمين انشطر بمقدارعمودين بالعرض،وكان الالتحام وقتها حاداً جداً ،وبينما قاوم المحاصرون دخول الترك،تلقى هؤلاء نجدات، لذلك دفعوا بأعدادهم الفرنجة الى الخلف حتى أوصلوهم الى قلعة المدينة ، ولكم كانت المذبحة التي وقعت مرعبة، وبطش الترك بأعدائهم وقتلوهم بدون رحمة، وفتكوا بكل من وجدوهم في البيوت مرضى ومستلقين بفرشهم، وهرب بعض رجالنا ونزلوا نحو شاطىء البحر ونجوا،في حين انشغل العدو في نهب كل شيء، وكسروا رؤوس جميع دنان الخمرة التي وجدوها في البيوت، وجعلوا الخمور تجري في الشوارع ، وهاجم بعضهم البرج الرئيسي في القلعة،وطارد آخرون الذين انحدروا فارين نحو شاطىء البحر ،وتم تمزيق عدد من المتخلفين، وهرب ألبيرك Alberic أوف رايمز ،وكانت وظيفته حماية البلدة،لقد نجا على ظهر سفينة خشية أن يتعرض للقتل،لكن أتباعه ورفاقه انتقدوه لجبنه، ودعوه لأن يشعر بواجبه وأرغموه بالقوة على الدخول إلى أحد الأبراج، وحين لم ير هناك سوى المخاطر التي تحيط به من كل جانب،تمتم قائلاً:«هنا سوف نكرس حياتنا لخدمة الرب»لأن ذلك الشيء الوحيد الذي بقي له ليصنعه .

وهاجم الترك الآن البرج ، وحجبت زخات نشابهم نور الشمس ، ولم يعرف المحاصرون أي جانب عليهم الدفاع عنه أولاً ، واستمر القتال طوال النهار ، وكان من المؤكد أن يلجأ الفرنجة أخيراً إلى الاستسلام أمام عنف القتال ، لولا بفضل الرب كان البطريرك المنتخب حديثاً موجوداً،

فقد برهن في تلك الساعة أنه كان رجلاً لا يخاف الموت ، وما من شيء كان يرعبه.

واضطر هذا الرجل بحكم الضرورات أن يقترح على صلاح الدين وأخيه منحهم برهة من الوقت يتوقف خلالها القتال حتى اليوم التالي ، بشرط إذا لم يتسلموا مساعدة حتى ماقبل الساعة الثالثة، على كل رجل داخل القلعة أن يدفع إلى صلاح الدين عشر قطع ذهبية، وعن كل امرأة خمس قطع ،وعن الطفل ثلاث قطع مقابل الهدنة التي منحهم إياها،وأن البطريرك مع النبلاء الآخرين سوف يسلمون أنفسهم رهائن الى صلاح الدين، وأن يبقوا في الأغلال حتى حلول الساعة المتفق عليها.

ووافق صلاح الدين، وعندما اكتملت الضمانات من أجل مراعاة شروط الهدنة،جرى تقديم الرهائن التالية الى صلاح الدين:البطريرك،أليبرك أوف رايمز، وثيوبولد أوف تريف، وأوغسطين أوف لندن، وأوسبيرت والدنosbertwaldin ،وهنري دي سينت جون،الى جانب آخرين،لانتذكر أسماءهم،فهم جميعاً حملوا أسرى الى دمشق.

وفي الوقت نفسه كان الملك رتشارد مشغولاً جداً في الاستعداد لمغادرة عكا عائداً الى بلاده،وكانت سفنه كلها جاهزة تماماً،وكان قد حصل أيضاً على موافقة من الداوية والاسبتارية ومباركة، وبعث أمامه بسبع من شوانيه مشحونة بالقوات لاخراج العدو من بيروت ،التي سيمر بها،ونجحت هذه الحملة ،وفر العدو مرعوباً.

وكان الملك في خيمته يتحدث مع ضباطه حول اقلاعهم في الغد نحو أوطانهم،عندما وصل رسل من يافا،ودخلوا ممزقة ثيابهم ، فأخبروا الملك كيف أن العدو استولى على يافا كلها، باستثناء القلعة التي مكث فيها البقية تحت الحصار ،ومالم يقدم لهم المساعدة بكل سرعة سيواجه الجميع

مصيراً واحـداً ،واستمع الملك لأخبـار المخاطر التـي كان المحاصرون يتعرضـون لها، فأثار وضعهم عـاطفته،فقـاطع الرسل قائلاً:«مـادام الرب حياً،سأكون معهم،وسأقدم لهم المساعدة بقدر ما أملك من قوة» .

وما أن أكمـل تلفظ كلماتـه حتى كانت الأوامـر قد أعلنت بـوجوب استعـداد الجيش ،غير أن الفـرنسيين ماكـانـوا ليوافقـوا على الاستجابـة حتى اكرامـاً للملك، وتبجحوا معلنين أنهم لن يزحفـوا مطلقاً مرة ثـانية تحت لوائه، وبـالفعل هم في هذا المجال لم يخفقـوا،لأنهم هلكوا في مدة وجيزة بشكل تعيس،ولم يزحفوا ثانية تحت لواء أي انسان.

وفي الـوقت نفسـه تهيأ لـلانطـلاق مع الملك، الجنـود من مختلف الأمم،الذين لامـس الرب شغاف قلـوبهم،والذين أثـارتهم معانـاة أ بناء جلدتهم،واستدرت عواطفهم، وأعني بهـؤلاء: الداويةوالاسبتارية ،وفرسان شجعان آخرين ،زحفوا جميعاً بـراً الى قيسارية،لكن الملك النبيل الذي عهـد بسلامتـه إلى شجاعتـه،ركب ظهر احـدى شواني اسطـوله الـذي اصطحبه معه،وكانت شوانيه مجهزة بكل شيء يمكن أن يكون ضرورياً ، وكـان معه ايـرل أوف ليستـر، وأندرودي شـافني chavigny ،وروجردي سيثيـا Satheya، وجـوردان دي هــومــزHumez ، ورالف دي موليونMauleon ،وآخوس دي في Achus de Fay ،وفرسـان بريتل Pratells،ومــرافقي الملك مـع آخــرين كثــر من ذوي الأسمــاء اللامعة،الى جانب الجنويين والبيازنة.

وتوقف الـذين ذهبوا الى قيسـارية هناك لبعض الـوقت خشية الـوقوع في كمين ،حيث سمعوا أن صـلاح الدين قد نصب واحـداً ضد كل من يحاول المـرور في هذا الطريق ،ولم يكن هناك طـريقاً أفضـل ، لأن ابن مقدم الحشيشية تولى حـراسة المنطقة السـاحلية القائمـة مابين قيسارية وأرسوف.

يضاف الى هـذا ،ثارت ريح مضادة،حجـزت شواني الملك لمدة ثـلاثة أيام في حيفا ،حيث توجب عليهم التسليـم بذلك ،واشتعل الملك غضباً تجاه هذا التـأخير، فرفع صوتـه بالشكاية عـالياً وهو يقول:«مـولاي،يارب لماذا حبستنا هنا؟ أرجـوك، المسألة مستعجلة جداً ،والتقـوى هي رغبتنا». ومالأن أكمـل دعاءه هذا ،حتـى سبب الرب هبـوب ريح مواتيـه ،نقلت هذا الاسطـول ووضعته داخـل ميناء يـافا في منتصـف ليلة الجمعـة التي تقدمـت مباشرة على يوم السبت الـذي اتفقوا على الاستسلام فيه،عنـدما كانوا جميعا على وشك الحمل نحو التدمير.

أسفي من كفـر ذلك العرق الشرير ،ففـي الصباح الباكر لـذلك النهار (يوم القديس بطرس في الأغلال) تعجـل الترك فطالبوا المحاصرين بتنفيذ شروط الهدنة، وبناء عليه بـدأوا في الساعة التاسعة بدفـع جزء من القطع الـذهبية التـي وعـدوا بها،ووقتهـا تصرف الترك الأشرار بوحشيـة أكبر مـن الحيوانـات، ولم تتوفر نحـوهم أدنى مشاعـر انسانية ،حيـث قطعوا رؤوس الذين دفعوا المال،وهكذا هلك سبعة منهم، ورموا برؤوسهم الى الخندق.

ولدى اكتشـاف الذيـن كانـوا على قيد الحيـاة في البلدة لهذه الخيـانة ، أصيبوا بالـرعب، وبدأوا يرسلون صرخات النـدب والأسى،فقد رأوا الموت واقفاً أمـامهم،لهذا ركـع كل واحـد منهم أمـام الآخر،واعترف كـل منهم بذنـوبه لـلآخر،وماعـادوا يفكرون بحيـاتهم،بل بأرواحهـم،ولكي يـؤجلوا مـوتهم لبعـض اللحظات — ذلـك مـن هـو الذي كـان هنـاك ولم يخش الموت؟— هربوا صعوداً نحوالقلعة،بقدر مـا استطاعوا من سرعة ،وانتظروا هناك ضربة الشهـادة،وكانوا يريقـون الدموع،ويستمدون الـرحمة من المولى القــديـر،الــذي رضي أخيراً،وقـرر الاصغـــاء لالتماســاتهم،فقـد وصــل منقذهم،وكـان اسطوله يسير في المرفأ،وجنوده متشوقين للنـزول الى اليابسة لانقاذهم.

واكتشـف الترك وصول اسطـول الملك،فانحدروا مسرعين نحـو شاطىء

البحر يحملون سيوفهم وترستهم،وأرسلوا أمامهم زخات من النشاب،وكان الشاطىء قد امتلا بشكل كثيف بحشودهم حتى بات من الصعب إيجاد موطىء قدم على الأرض،ولم يقتصر عملهم على الدفاع،بل همز فرسانهم خيولهم لخوض البحر ولمنع رجال الملك من النزول الى اليابسة،وعندما كان الملك يجمع سفن اسطوله مع بعضها ،تشاور مع ضباطه حول أفضل خطوة يمكن اتخاذها.

وقال:«هل سنندفع ضد حشود الرعاع هذه التي احتلت الشاطىء،أو هل سنقدر قيمة حياتنا أكثر من حياةأولئك المساكين المعرضين للدمار والمحتاجين لمساعدتنا»؟

وأجابه بعضهم بأن محاولات أخرى سوف تكون عقيمة، لأنه ليس هناك مايؤكد أن أيامنهم حياً لانقاذهم،ثم كيف يمكنهم النزول الى اليابسة في وجه مثل هذا الحشد الهائل؟.

ونظر الملك من حوله مدققاً، ورأى في تلك اللحظة كاهنا يغطس في الماء ويسبح نحو الشيني الملكي، وعندما استقبله على ظهر السفينة خاطب الملك بقلب متلهف وبروح كادت تتلاشى منه وقال: « أيها الملك الأعظم نبلاً، المتبقي من شعبنا ينتظرون وصولك، وهم معرضون للذبح مثل الشياه، ما لم تجلبك النعمة الإلهية لانقاذهم».

وسأله الملك قائلاً: « إذاً، هل ما يزال أحد منهم حياً، وإذا كذلك، أين هم؟» وقال الراهب:« مازال هناك بعضهم حياً في الطرف الأقصى لهذا البرج المقابل»، ورد عليه الملك قائلاً:« من فضلك يارب، يامن جئنا بتوجيهه وقيادته، سوف نموت مع أخوتنا الشجعان بالسلاح، ولتنصب اللعنة على الذي يتردد».

ولم يكد يفرغ من كلامه، حتى كانت الشواني قد دفعت نحو طرف اليابسه، واندفع الملك نحو الأمام وسط الأمواج، وأطرافه غير مغطاة

بسابغته، وخاض بالماء حتى وسطه، وبسرعة حصل على موطىء قدم ثابت فوق الشريط الجاف، وجاء خلفه يتبعه غيوفري دي بويز Bois ، وبيتر دي بريتل Pratelles وجاء في المؤخرة جميع الآخرين مندفعين وسط الأمواج.

ووقف الترك للدفاع عن الشاطىء، الذي غطته أعداد هائلة من العساكر، واستطاع الملك بوساطة القوس العقار الذي حمله أن يردهم إلى الخلف يمنة ويسرة، وضغط رفاقه على العدو المتراجع، الذي تلاشت شجاعته عندما رأى أفراده أن الذي يهاجمهم هو الملك، ولم يعودوا يتجرأون على مقابلته، وامتشق الملك سيفه الحاد، الذي لم يعطهم فرصة للمقاومة، فتقهقروا أمام الضربات المميتة الصادرة عنه، وانزاحوا بشكل فوضوي بوساطة رجال الملك حتى بات الشاطىء نظيفاً منهم.

ثم جلب الفرنجة بعض جذوع الأشجار والأعمدة وقطع الخشب من سفن قديمة وشواني، لإقامة حاجز، ومركز هناك بعض الفرسان والخدم والعرادات للحراسة ولطرد الترك واقتلاعهم، وعندما رأى هؤلاء أنهم لن يستطيعوا متابعة التصدي لعساكرنا، فرقوا أنفسهم على الشاطىء بوساطة الصراخ، والعويل، وهم منهزمون جميعاً، ثم انعطف الملك وسار بشكل مستقيم، ولاحظ أن بيت الداوية هو المدخل إلى البلدة، حيث وجد ما يزيد على ثلاثة آلاف من الترك ينهبون كل شيء وجدوه في البيوت، ويحملونه معهم بمثابة أسلاب.

وما لبث الملك الشجاع أن دخل البلدة، وما أن فعل ذلك حتى أمر بهز رايته من فوق مكان مرتفع حتى يمكن رؤيتها من قبل المسيحيين الذين كانوا في القلعة، وقد تشجع هؤلاء لدى رؤيتهم لها، واندفعوا وهم يحملون أسلحتهم من داخل القلعة لمقابلة الملك، ولدى انتشار خبر ذلك اضطرب وضع الترك في البلدة، ودبت الفوضى بين صفوفهم،

وفي الوقت نفسه طارد الملك أفراد العدو، وقتل الذين انحصروا فيما بين الكتلتين المسيحيتين وملأ الطرقات بجثث قتلاهم، فهل أحتاج إلى قول المزيد؟ لقد قتلوا جميعا، باستثناء الذين امتلكوا الفرصة ففروا بالوقت المناسب، وهكذا حدث أن الذين كانوا منتصرين من قبل، باتوا الآن منهزمين وتلقوا عقوبة استحقوها، لأن الملك لم يظهر أدنى رحمة نحو أعداء صليب المسيح، الذين وضعهم الرب بين يديه، لأنه لايوجد على وجه الأرض انسان مثله مقت الجبن.

وإذا ما تفحصنا أعمال القدماء، وجميع المدونات التي تركها لنا المؤرخون المتقدمون، سنجد أنه لم يكن هناك مطلقاً رجلاً ميز نفسه في المعركة مثلما فعل الملك رتشارد هذا اليوم، وعندما كان الترك يغادرون البلدة رأوا أعلامه تخفق في الهواء، وارتفعت صرخة عالية من على اليمين واليسار عندما انقض عليهم، ولم تكن عاصفة من البرد أو المطر الشديد بالكثافة تساوي النشاب الذي تطاير من الترك فغطى وجه السماء وحجب ضوء الشمس.

وأحدث الترك الذين فوجئوا بيافا مذبحة هائلة بين الذين كانوا ضعفاء جداً وغير قادرين على المقاومة، وقتلوا عدداً كبيراً من الخنازير، وفي الحقيقة لقد قتلوا كل ما وجدوه منها، لأنهم عدّوها نجسه، وكان محرم أكلها في شريعة المسلمين، ولإزعاج الفرنجة جمعوا في كتلة واحدة أجساد الخنازير مع أجساد الفرنجة الذين قتلوهم، وجرى الآن دفن أجساد الفرنجة بسلام، في حين ألقيت أجساد الترك لتتعفن مع أجساد تلك الخنازير.

وسمع صلاح الدين بوصول الملك وبحربه الرائعة مع الترك، فاستولى عليه لهذا خوف مفاجيء، وكان مثله مثل الأرنب، الحيوان الجبان، غمز حصانه وفرّ من أمام وجهه، وتابع الملك مع رجاله أعمال المطاردة: يقتلون ويحطمون، بينما أحدث قوسه العقار فوضى عظيمة بين الخيول،

حتى أن آثار فرارهم كان يمكـن رؤيتها لمسافة ميلين، ونصب الآن خيمته في المكان نفسه الذي كانت فيه خيم صـلاح الدين منصوبة، وهكذا كان بفضـل الـرب استطـاعـت فئة صغيرة مـن الـرجـال الحاق الهزيمـة بهذا الجيش التركي العظيم.

واستـدعى صـلاح الديـن أمـراءه إليه وخـاطبهـم قائلاً:« هـل هزمنـا جميعـا؟ هل عـاد جيـش الفـرنجة مـن عكـا ليقتلنـا وليهزمنـا على هـذه الصورة؟ بـأي وسيلة متفوقـة أمكنهم انجـاز هذا؟ فمن المقـرر أن جيشنا كان متفوقاً برجالته وكذلك بفرسانه»!.

ورد على هذه الكلمات واحد من المُوَبخين، كان مـوجوداً، وكان مدركاً لأوضاع جيشنـا قائلاً:« مولاي ليـس الأمر كما تظـن، ليس لدى الفـرنجة خيول ولاحيـوانات تحميل مـن أي نوع، باستثناء ثـلاثة خيول فقـط، كان ملكهم الرائع قد وجـدهم في يافا، وعلى كل حال أعتقـد أن الملك نفسه يمكن مفـاجأتـه بسهولـة، لأنه مستلـق لوحـده في خيمته، ومنهـك تماماً بسبب تعبه، ومن يلقي القبض عليه سـوف يضع على الفور حداً لمتاعبنا، وللحملة كلها».

ثم راج بعد هذا في أوساط الترك ما وجـه إليهم من لوم، وتوبيخ دائم وعـار مستمـر، حيث أن جيشـاً بمثـل هـذا الحجم، ومثـل هـذه الآلاف المؤلفة مـن الترك، يُهزم من قبل جيـش صغير جداً، وأن يافـا قد استردت منهـم بقـوة السلاح، وبهذه الطـريقـة تمتـم كـل واحد منهـم إلى الآخـر ، فاضطربوا اضطراباً عظيماً.

كيف حاول الغلمان والأكراد مفاجأة الملك رتشارد في خيمته

وكان اليوم التالي هو يوم أحد، انطلق فيه الملك بنشاط في العمل على ترميم أسوار يافا، وتابع جهوده في يومي الاثنين والثلاثاء، حتى يمكن تأمين بعض الوقاية لهم، ولهذا تمت أعمال الترميم بدون استخدام للكلس أو الملاط، وكانت هناك مجموعة فاسدة من الرجال بين المسلمين اسمها غلمان Menelones حلب، وأكراد Cordivi ، وهم عرق فعال، وقد التقى هؤلاء مع بعضهم للتشاور حول ما ينبغي عمله في حالة الأوضاع القائمة، وتحدثوا عن العار الذي لحقهم حيث تمكن جيش صغير جداً من طردهم من يافا، ولاموا أنفسهم بتهمة الجبن، وبالتقاعس المخجل، وتبجحوا في اقامة حلف فيما بينهم، من أنهم سوف يلقون القبض على الملك رتشارد وهو في خيمته، ويجلبونه إلى أمام صلاح الدين، حيث سيتسلمون منه جائزة فخمة جداً.

ووصل في الوقت نفسه الكونت هنري مع أتباعه من قيسارية على ظهر شيني، فهناك كان المتبقي من جيشنا معوقاً بسبب كمائن الترك على جميع الطرق،والجسور، والآبار، وبناء عليه لم يكن بإمكان الملك في هذا الوضع الاضطراري حشد أكثر من خمسة وخمسين فارساً من جيشه كله، وكتلة قوية من الرجّالة، ورماة الزنبورك، والحاشية مع ألفين من الجنويين والبيازنة وسواهم، ولم يكن لديه من الخيول أكثر من خمسة عشر رأساً، سواء من النوع الجيد أو الرديء.

وعندما أعدّ الغلمان والأكراد أنفسهم في منتصف الليل لمفاجأة الملك، تقدموا نحو الأمام بوساطة ضوء القمر، يتحدث أحدهم مع الآخر حول الهدف الذين هم بصدد الوصول إليه، لقد عزم هؤلاء الجنس المكروه من غير المؤمنين، وكانوا متشوقين لأسر جندي المسيح المقدام، فيما

هو نائم بدون سلاح ولايشعر بوجود أي خطر.

وعندما باتوا غير بعيدين عن خيمته، وأخذوا يستعدون لإلقاء القبض عليه، عندها تدخلت رحمة الرب، فأرسلت روح الخلاف إلى صفوفهم، حيث قال الأكراد:« عليكم المضي على أقدامكم لأسر الملك وأتباعه، في حين سوف نبقى نحن على ظهور خيولنا لنحول دون نجاتهم إلى القلعة»، لكن الغلمان ردوا عليهم قائلين:« لا، إن واجبكم يقضي عليكم المضي على الأقدام، لأن مرتبتنا أعلى من مرتبتكم، ونحن نرتضي فقط بالقيام بالخدمات التي هي وظيفتنا، وإن وظيفة الخدمة على الأقدام هي وظيفتكم وليست وظيفتنا».

وفيما هذين الفريقين يتجادلان حول من منهما الأعلى والأعظم، سبب خلافهما كثيراً من التأخير، وعندما توصلا أخيراً حول كيف يمكن تنفيذ المحاولة الشريرة وتحقيق الغاية منها، كان الفجر قد اقترب، ففي تلك اللحظة دفعت ارادة سماوية واحداً من الجنويين للخروج مبكراً نحو الحقول، حيث ارتعب لسماعه أصوات الرجال والخيول المتقدمة، فعاد مسرعاً نحو المعسكر، ورأى في الوقت المناسب الخوذ وهي تعكس الضوء الذي نزل عليها، ودخل مندفعاً إلى المعسكر، وهو يصرخ « إلى السلاح، إلى السلاح».

واستيقظ الملك بفعل الصوت والضجة، وقفز مندهشاً من فراشه، فلبس لأمته، واستدعى رجاله للانقاذ.

بحق فضائل الرب كلها، هل هناك انسان حي ما كان ليرتجف بمثل هذا الانذار المفاجىء؟ واندفع العدو بدون مبالاة، فرجال مسلحون انقضوا على غير مسلحين، وأكثرية أخذت تقاتل أقلية، لأن رجالنا لم يكن لديهم الوقت الكافي للتسلح، أو حتى لارتداء الملابس،وبناء عليه تقدم الملك مع كثيرين آخرين — بحكم طوارىء تلك اللحظة —

بدون دروعهم وواقيات أطرافهم، تقدموا للقتال، وكان بعضهم حتى بدون كزاغنداتهم.

وبينما تمكن رجالنا من تسليح أنفسهم مسرعين، وبأفضل ما استطاعوه وقتها، ازداد اقتراب الترك، وكان الملك قد امتطى فرسه، مع عشرة فرسان آخرين فقط هم: الكونت هنري ايرل أوف ليستر، وبار ثلميو دي مورتمير، ورالف دي موليون، وأندرو دي ثشافين، وجيرالد دي فينفال، وروجر دي ساسي، ووليم دي لى ايتانغ de L' ETang ، وهيوج دي فيلينوف Villeneuve وكانوا مرافقين شجعان، ومعهم هنري لى تايوس Tyois ، حامل راية الملك، فهؤلاء وحدهم الذين كان لديهم خيول، وكان حتى بعض هؤلاء منحطين وضعفاء، وغير معتادين على استخدام السلاح.

وببراعة اصطف الناس العاديون في صفوف وأرتال كل منهم مع قائد يقودهم، وتمركز الفرسان على مقربة من البحر، وكانت كنيسة القديس نيقولا على يسارهم، لأن الترك وجهوا حملتهم الرئيسية في هذا الاتجاه، ووقف الجنويون والبيازنة خلف حدائق الربض، وقد اختلطت بعض العساكر بهم.

من الذي يمكنه أن يصف حملات الكفار المخيفة؟ فقد انقض الترك أولاً وهم يزعقون زعقات مرعبة، ويرمون بحرابهم، ويطلقون سهامهم، وأعدّ رجالنا أنفسهم بأفضل ما استطاعوا لتلقي حملتهم الشديدة، فقد كان كل واحد منهم قد ثبت ركبته اليمنى على الأرض، فبذلك كان يمكنهم التماسك والصمود معا بشكل أفضل، والحفاظ على أوضاعهم، وحنوا أرجلهم اليسرى، وحملت أيديهم اليسرى ترستهم أودرقهم، ومدوها أمامهم، وأمسكوا بأيديهم اليمنى رماحهم حيث ثبتوا أزجتها في الأرض، وسلطوا أسنتها الحديدية نحو العدو، مهددة له، ووضع الملك الخبير بشؤون الحرب، بين كل رجلين، كانا مغطيين بترسيهما، رامي زنبورك،

وخلفه واحد آخر ليشد الزنبورك بـأقصى سرعة ممكنة، فما أن يطلق الرجل الواقـف في الأمام رميته حتـى يكون الآخـر قد هيأ رميـة أخرى، وتبين أن هذا فيه فائدة عظمى لرجالنا، وسبب ضرراً بالغاً للأعداء.

وهكـذا جرى إعـداد كل شيء بشكـل جيد وبقـدر ما سمـح الوقـت الضيـق بـه، واصطـف جيشنـا الصغير بصـورة نظـاميـة، وسـار الملـك واستعرض جميع الصفوف، وحث كل رجـل ليكون صامداً، وأن لايتزلزل، وقال: « الشجـاعة، يارجـالي البواسل، ولاتتركـوا حملة الأعداء تـزعجكم، تحملوا تقلبـات الحظ، ولسوف تنتصرون عليهم، كـل شيء يمكن للـرجل الشجـاع تحمله، المصـاعب تلقـي الضوء على فضـائل بني البشر، ومثـل ذلك مـن المؤكد أن اليسر يلقي الظلال عليهـا، ليس هناك مكـان للفرار إليه، لأن العـدو محيط بنـا، وفي كل محاولـة للفرار استـدعاء لموت مـؤكد، وبناء عليه كونوا شجعاناً، ودعوا حـالة الطوراىء هذه تشحذ شجاعتكم وتشد من عزيمتكم، أيها الرجـال الشجعان عليكم إما الانتصار بنبل، أو الموت بمجد، الشهادة منحة علينا استقبالها طائعين راغبين، لكن قبل أن نموت، دعونا مادمنا على قيد الحيـاة، أن نفعل ما يمكن أن يكون انتقاماً لموتنـا، وأن نقدم الشكـر للرب في أن كـان نصيبنـا الموت شهداء، هكـذا ستكون خاتمة تعبنا ونهاية حياتنا، وآخر معاركنا».

ومـا كـاد يكمـل التفوه بهذه الكلمات حتـى انقـض الجيـش المعـادي عليهم بحدة وشدة، وكان مقسماً إلى سبعة أفـواج في كل منها حوالي ألف فـارس، واستقبل رجـالنـا حملتهم وأقـدامهم اليمنـى مغـروسة بثبـات في الرمل، وظلوا لايمكن زلزلتهم، وشكلـت رماحهم سوراً ضد العدو، وكان مـن المؤكد أنـه سيخرق الصفـوف ويمر بين رجـالنا، لـو أنهم تخلوا عـن مواقفهم درجة واحدة.

وأدرك رجال الصف الأول مـن الترك، وهم يتقدمون، أن رجـالنا وقفوا صامـدين، لذلـك تراجعوا قليلاً، ذلـك أن رماتنا أمطـروهم بزخـات من

النشاب، قتلت عدداً كبيراً من الناس، وعقرت خيولاً كثيرة، وتقدم على الفور صف آخر من الترك، وفق الطريقة نفسها، ومرة جديدة جرى صده، ورده إلى الخلف، وجاء الترك على هذه الشاكلة يشبهون الصاعقة، مرة تلو أخرى، متظاهرين بالحملة حتى يضغطوا على رجالنا للتزحزح والتراجع، لكن عندما باتوا على مقربة منهم، وعلى وشك الالتحام بهم، عطفوا أعنة خيولهم وابتعدوا في اتجاه آخر.

ولدى ادراك الملك وفرسانه الذين معه لهذا الحال، غمزوا خيولهم وحملوا على وسط الأعداء، وفرقوهم يمنة ويسرة، وطعنوا برماحهم أجساد عدد كبير منهم، ثم أخيراً شدوا خيولهم وأوقفوها لأنهم وجدوا أنفسهم توغلوا كثيراً خلال صفوف الترك، والتفت الملك من حوله، فرأى ايرل ليستر النبيل قد سقط من على ظهر حصانه، وهو يقاتل بشجاعة على قدميه، وما أن رأى هذا حتى اندفع لانقاذه، وانتزعه من أيدي الأعداء، ووضعه مكانه على حصانه.

ونشبت إثر هذا معركة مخيفة، وزحفت حشود الترك، واستخدمت كل جهد لتدمير جيشنا الصغير، وأثار نجاحنا حفيظتهم، فاندفعوا نحو الراية الملكية الحاملة لصورة الأسد، ذلك أنهم كانوا يؤثرون قتل الملك على قتل ألف رجل آخر، وفي وسط المعمعة رأى الملك رالف دي موليون، وقد أمسكه الترك وجروه أسيراً، فغمز حصانه نحوهم وخلصه من بين أيديهم في لحظة واحدة، وأعاده إلى الجيش، وكان الملك عملاقاً كبيراً أثناء القتال، وكان موجوداً في كل مكان على أرض المعركة، الآن هنا، والآن هناك، حيثما احتدم القتال مع الترك أكثر، ولقد قاتل بشجاعة بلغت حداً، أن ما من انسان مهما كان شجاعاً، إلا كان سيرضخ له عن جدارة، ويعترف بتقدمه وتفوقه.

فقد قام في ذلك اليوم بأعظم الأفاعيل الشجاعة، ضد جيش الترك المخيف، وقتل بسيفه عدداً منهم، وكان سيفه يلمع مثل البرق، فقد فلق

بعضهـم إلى قسمين من خـوذهم إلى أسنـانهم، بينما فقـد بعضهم الآخـر رؤوسهم، وأذرعتهم، وأطرافهم، التي بترت بضربة واحدة.

وفيما الملـك يعمل هكـذا بنشـاط لايصدق في القتـال، زحـف تركـي نحوه، وكان يمتطي مهراً كميتاً، وقد بعثه سيف الدين صاحب « الكرك Archadia » ، وكـان رجلاً واسـع الكـرم، لـولا أنه رفـض تبنـي الايمان المسيحي، وبعث هذا الرجل الآن إلى الملك، هـدية منه تشريفاً له، عبارة عن فـرسين أصيلين، ورجاه بحرارة قبـولهما وأن يستخدمهما، وإذا مـا عاد سالماً ومعـافى من تلك المعركـة يتذكر الهديـة ويعوض عنها وفق الطـريقة التي يراها، وتسلـم الملك الهدية، وبعد ذلك عوض بنبـل المهدي، فهكذا هي الشجاعة يصدر تقديرها حتى عن عدو، حيث جاء هذا الاكرام من تـركي هـو أشد أعـدائنـا، اعترافا منـه بشجاعـة الملـك وتقديـراً لبسالتـه المتميزة، وكـان الملك في تلـك اللحظة بحـاجة مـاسة لهذه الهديـة ، ومع ذلـك اعتذر عـن قبولها وقـال إنه لـن يأخـذ أي عدد مـن الخيول مثلهـا بـالجودة من أي انسـان، فكيف مـن عدو مثـل سيـف الديـن، مع أنـه بحاجة ماسة إليها في تلك اللحظة.

واستعر القتال الآن واحتدم، لأن عدداً كبيراً هـاجم عدداً صغيراً جداً، وغطت وجـه الأرض كميات هـائلة مـن الحراب والنشاب التـي أطلقها المسلمون، فقد رموا كمية متنوعة في وقت واحـد ضد رجالنا، الذين جرح كثير منهم، وبذلـك ازداد ثقل القتال أكثر من ذي قبـل، وانسحب رجال الشـواني في الشـواني التـي جلبتهـم، وهكـذا في قلقهـم على سـلامتهـم ضحوا بسمات شجاعتهـم، وتعالى بالوقـت نفسه الصراخ بين الترك، وهم يناضلون في سبيـل من سيحتل البلدة أولاً، آملين بقتل الـذين سيجدونهم من رجالنا في داخلها.

وسمع الملك الصراخ، فـاصطحب معه فارسين فقـط، واثنين من حملة الأقواس العقارة، وتصدى هناك للترك، وتمركـز بنبل في واحد من الشوارع

الرئيسية، وانقض بشجاعة عليهم، فقتل الخيالة وفق طريقته الملكية، وغنم فرسين، وأرغم بقية الترك الذين وجدوا في البلدة على الفرار على الرغم من مقاومتهم، وتفرقوا في اتجاهات مختلفة، واستهدفوا أن تكون نجاتهم عبر طرق فرعية وليس عبر الطرق العادية، وأمر الملك أيضاً باصلاح الجزء الذي تهدم من الأسوار وإحسان الإفادة منه، ووضع خفراء للمراقبة والحراسة خشية أن تتعرض البلدة مرة ثانية للهجوم.

وما أن انتهت هذه الأمور بالحل المناسب حتى نزل الملك باتجاه الشاطيء، حيث التجأ عدد كبير من رجالنا إلى ظهور السفن، وحث الملك هؤلاء بأدلة مقنعة على العودة إلى القتال والمشاركة مع البقية في كل ما قد ينزل عليهم، وترك خمسة رجال على ظهر كل شيني للحراسة، وقاد البقية لمساعدة جيشه المضغوط عليه بشدة، وما أن وصل حتى انقض بكل عنف على أكثف صفوف العدو، ورد الأعداء إلى الخلف وهزمهم، حتى الذين كانوا بعيدين ولم يلمسهم غلبتهم حشود الجنود وهم يتراجعون.

ولم تكن هناك حملة قط مثل هذه الحملة قام بها فرد لوحده، حيث خرق صفوف العدو وتوغل إلى وسط الجيش المعادي، وقام بأعمال مقاتل شجاع ومتميز، وطوقه الترك على الفور وحاولوا التغلب عليه،وكان في الوقت نفسه أن فقد رجالنا الملك ولم يعودوا يروه، وخافوا أن يكون قد قتل، وعندما اقترح واحد منهم وجوب التقدم نحو الأمام للعثور عليه، بات من الصعب ضبط صفوفنا والحفاظ عليها، ولوحدث واختل نظام عساكرنا، لتعرضوا بدون شك إلى الدمار.

غير أن الملك رتشارد الذي اعتاد على القتال منذ نعومة أظفاره، والذي لايمكن عدّ رولاند الشهير مساوياً له، بقي غير مرئي حتى في وسط الأعداء، وكان جسده، كأنه صنع من نحاس أصفر، لايمكن التأثير عليه بأي نوع من أنواع السلاح، وكان حاملاً بيده اليمنى سيفه

يقارع به، فقـد حمل حملة سريعة حطم بها الصفـوف على الجانبين، فهكذا كانت أفاعيلـه وسط حشد الترك، لم يكن يخشى شيئاً، بل دمـر كل الذين كانوا من حـوله، يجرف الرجال أمامه بسيفه، وكأنـه حصّاد يحصد القمح بمنجله.

من الـذي يستطيع أن يصـف هذه الأفـاعيل؟ فكـل من تلقـى ضربة واحدة منـه لم يحتج إلى ضربة ثانيـة، وهكذا كانـت فعالية شجاعتـه التي لاشـك أنها ابتهجـت لأنها وجـدت فـرصـة للتعبير عـن نفسهـا، وقطـع السيـف الذي ضرب بـه الرجـال والخيول سـواء، وفلقهم إلى منتصفهـم، وكان كلما وجـد نفسه قد ابتعـد أكثر عـن رجاله، كلما استهـدف الأعداء التغلب عليه، وهناك كانت شجاعته تزداد اشراقاً ووضوحاً.

فبين الأعمال الشجاعة التـي قام بها في تلك المناسبة، أنـه قتل بضربة واحدة رائعة واحداً من أشهر أمراء الأعداء وأعـلاهم مكانة وأكثرهم ثراء، وبدا هذا الـرجل من خلال حركاتـه وكأنه يقول: إنه ذاهـب ليفعل شيئاً رائعاً، وبينما كـان يوبـخ البقية لجبنهـم، غمز حصـانه، وحمل حملـة عنيفة على الملك، الـذي لوح بسيفه عندمـا رآه قادماً، وبضربة واحـدة لم يقطع رأسه فقـط بل كتفـه وذراعه الأيمن، واصطـك الترك بالـرعب أمام هذا المشهد وأفسحوا الطـريق على جميع الجوانب، ولم يتجرأوا برميـه بسهامهم حتى من مسافة بعيدة، وعاد الملك الآن سالما دون أن يصاب بأذى، عاد إلى رفاقه وشجعهم أكثر من ذي قبل وأعطاهم الأمل بالنصر.

وكان شخص الملك مغـروساً كله بالنشاب، مثل غـزال طعن من قبل الصيـادين، وكـانت تجافيـف فرسـه مغطـاة بالسهـام بكثافـة، وعاد مـن الصراع كرجل شجـاع، وكان صراعاً مريـراً، لأنه امتد من الصبـاح حتى غياب الشمس.

وبفضل الرب نجا رجـالنا من الدمار، وعاد الجيـش التركي إلى صلاح

الدين الـذي هزأ برجالـه سائلاً باستخفاف: «أيـن الملك رتشاردRic »؟ ذلك أنهم وعدوه بحملـه إليه أسيراً، وتابع يقول: « مـن منكم الذي أسره أولاً، وأيـن هـو، لماذا لم تجلبـوه وتحضروه أمـامـي»؟ ورد عليـه واحـد مـن الأتراك الذي جـاء من أقصى بقاع الأرض بقوله: « في الحقيقـة يامولاي، إن الملك رتشارد الذي تسـأل عنه ليس موجوداً هنا، فنحـن لم نسمع قط منـذ بدايـة الخلـق أنـه وجد فـارس قـط مثلـه، في شجاعتـه وخبرتـه في السلاح، فهو المتفـوق بأفاعيله، وهو لانظير لـه، فهو الأول زحفاً، والأخير تراجعاً، لقد بـذلنا غاية جهودنا لأسره، لكن عبثاً كـان، لأن ما من واحد يمكنه أن ينجـو من سيفـه، فقتاله مميـت، وأن تشتبك معـه معناه الموت، فأفاعيله فوق طبيعة البشر».

كيف أقام الملك رتشارد هدنة مع صلاح الدين

ومن جراء التعب والجهد الكبير الذي بذل في المعركة، سقط الملك رتشارد مريضاً ومثله سقط عدد آخر ممن أنهكوا أنفسهم في القتال، ولم يكن هذا بسبب القتال فقط، لكن من الروائح التي انبعثت من أجساد الموتى التي تفسخت، فأفسدت المناطق المجاورة، وكادت أن تسبب الموت للأحياء.

وبعد تقليب طويل للأمور، وكان وقتها الملك قلقاً حول صحته، بعث إلى قريبه الكونت هنري مع الداوية والاسبتارية، وإلى هؤلاء وصف حالة الضعف التي حلت بجسده، واشتكى أنه في ظل الأجواء الفاسدة، والوضع السيء للدفاعات، لابدله من مغادرة المكان بالحال ودونما تأخير، ثم عين بعضهم للذهاب ولتسلم المسؤولية عن عسقلان، في حين يبقى بعضهم لحراسة يافا، لأنه هو نفسه سوف يذهب إلى عكا ليشفى، فهذا ضروري جد الآن، واعترض الجميع على هذه الشكوى بقلب واحد وصوت واحد، قائلين إنهم لن يستطيعوا حماية يافا أو أي حصن آخر بعدما يذهب، ولدى اصراراه على الرفض، اعتزلوه ولم يعودوا يعملون بالتوافق مع الملك.

وغضب الملك رتشارد وتضايق من هذا المسلك، وتألم بحرقة أن ما من واحد تعاطف مع نواياه أو رغباته، وعندها بدأ يبحث عما ينبغي أن يفعله، غير أنه وصل من خلال مناقشاته كلها إلى المحصلة نفسها، وهي أنه ليس هناك واحداً بينهم متعاطف مع سوء حظه، وعندما رأى أن الجميع تخلى عنه، وأن ما من واحد بات يهتم أدنى اهتمام بالقضية العامة، أمر أن يعلن أن على الذين يودون تسلم العطاء من الملك القدوم إليه، جميعا لتقديم عونهم له، وجاء على الفور ألفين من الرجالة، وخمسين

من الفرسان، لكن صحة الملك بدأت تزداد سوءاً حتى أنه قنط من التعافي، وبناء عليه، وهو قلق على كل من الآخرين وعلى نفسه، رأى أن أفضل (الخطط التي اقترحت عليه) هي أن يطلب عقد هدنة، ولا أن يترك البلاد فريسة للفوضى المدمرة، مثلما فعل آخرون كثر بالابحار عائدين إلى بلادهم.

واحتار الملك، وتردد حول أفضل ما يمكنه القيام به، فطلب سيف الدين، أخي صلاح الدين ليتوسط بينهما للحصول على أحسن شروط هدنة في إمكانه الحصول عليها، وكان سيف الدين رجلاً كريماً جداً، قدم في كثير من المناسبات احتراما كبيرا وتشريفاً للملك لما تمتع به من فضائل شخصية، وقام الآن بحماس عظيم بالعمل للحصول على أفضل هدنة للملك رتشارد، وفق الشروط التالية: بالنسبة لعسقلان، التي كانت دوماً سبباً لازعاج حكومة صلاح الدين، ينبغي هدمها، وأن لاتعاد عمارتها خلال ثلاث سنوات، تبدأ من عيد الفصح المقبل، لكن عند انتهاء هذه المدة، يمكن لمن يستحوذ عليها أن يعيد تحصينها، وأن يسمح للفرنجة بسكنى يافا بدون مقابل أو ازعاج مع جميع المنطقة الملاصقة لها على شاطىء البحر وفي الجبال، وينبغي مراعاة السلام بدقة بين الفرنجة والمسلمين، وكل واحد من الفريقين يمتلك الحرية في الذهاب والمجيء إلى حيث يريد؛ وأن ينال الحجاج حرية الوصول إلى الضريح المقدس بدون أي دفع أو تحصيل أي مال منهم مهما كان نوعه؛ وأن يسمح بحمل التجارات للبيع في جميع أنحاء البلاد، وبممارسة التجارة ومتابعتها بدون اعتراض.

وعرضت هذه المعاهدة وهي مكتوبة على الملك رتشارد، الذي أعطى موافقته عليها، ذلك أنه رأى أنه في وضعه الضعيف، مع القليل من العساكر من حوله(وأيضاً على بعد ميلين عن العدو) ليس في قدرته تأمين شروط مواتمة أفضل.

وعندما أقر الملك الأمور وفق ما وصفت، بعث برسل إلى صلاح الدين، ليعلموه بحضور عدد كبير من المقدمين لديه، أنه طلب الهدنة لمدة ثلاث سنوات، بقصد العودة لزيارة بلاده وجمع المزيد من الرجال والمال، ليعود بعد ذلك لانقاذ جميع أراضي القدس وانتزاعها من دولته، إذا امتلك وقتها صلاح الدين الشجاعة لمواجهته على أرض المعركة، وعلى هذا رد صلاح الدين قائلاً لتشهد عليّ شريعتي المقدسة، والله القادر، أنه يكبر هذا الموقف العظيم من الملك رتشارد، وأنه يقدّر نبله، وجودته بشكل عام، حتى أنه افترض دوما لو أنه أرغم على فقدان ممالكه كلها، لآثر أن يفقدها لصالحه وليس لصالح أي ملك آخر رآه قط.

وبعدما كتبت شروط الهدنة وتأكدت بالأيمان من على الجانبين،ذهب الملك إلى حيفا، وهو في أحسن حال حيث كان يمكنه تناول الدواء حتى يبرأ.

وفي الوقت نفسه، شرع الفرنسيون الذين كانوا يتمتعون بالراحة منذ زمن طويل في عكا، بالاستعداد للعودة إلى وطنهم، لكن مع أنهم عارضوا الهدنة بمرارة، رغبوا الآن قبل مغادرة البلاد إكمال حجهم بزيارة ضريح ربنا.

وتذكر الملك تقاعسهم عن تقديم المساعدة له في يافا، وفي مناسبات كثيرة أخرى، فبعث برسل يطلبون أن لايسمح صلاح الدين أو سيف الدين لأي واحد بزيارة الضريح المقدس إذا لم يجلب جواز سفر منه شخصياً أو من الكونت هنري، وغضب الفرنسيون لهذا غضباً عظيماً، وأخفقوا في تحقيق هدفهم، ومالبثوا أن عادوا إثر هذا إلى بلادهم، لايحملون شيئاً معهم غير الملامة والعار.

وعندما رأى الملك أن الشطر الأعظم من الفرنسيين، الذين بذلوا غاية جهدهم للتشهير به، قد عادوا إلى وطنهم، وأن أفواه شتائمه ونقده قد

أغلقت، أمر أن يعلن أن كل من يرغب يمكنه زيارة ضريح ربنا، وأن يجلب تقدماته للمساعدة على ترميم أسوار يافا.

وانتظم الناس الآن في ثلاث مجموعات لزيارة القدس، ووضعت كل مجموعة تحت قيادة قائد منفصل، وقاد المجموعة الأولى أندرو دي كافني، وقاد الثانية رالف تيسن Teissun وقاد هيوبرت أسقف سالسبري المجموعة الثالثة، وتقدمت المجموعة الأولى نحو القدس تحمل رسائل من الملك، لكن نظراً لذنوبهم، لقد وقعوا في مكيدة وهم في طريقهم، لأنهم عندما وصلوا إلى سهل الرملة، بعثوا برسل ليخبروا صلاح الدين حتى يعطيهم الأمان في ذهابهم وإيابهم، وأنهم يحملون رسائل من الملك رتشارد، وكان الرسل رجالاً نبلاء، ويتسمون بالنشاط، لكن في هذه المناسبة، كانوا متقاعسين، وأهملوا القيام بواجبهم، وكانت أسماء هؤلاء: وليم دي روك Roches ، وجيرارد دي تورنفال Tour-neval ، وبيتر دي براتل Pratelles .

وعندما وصلوا إلى «برج الجنود»، توقفوا هناك للحصول على التصريح من سيف الدين من أجل متابعة سيرهم والتقدم نحو الأمام، غير أنهم ناموا، وظلوا نائمين حتى غياب الشمس، ووجدوا عندما أفاقوا أن جميع الحجاج، الذين جاءوا لصالحهم، قد مروا، وجازوا أمامهم.

وعندما اجتاز أفراد الجمع كله السهول وكانوا يقتربون من الهضاب، نظر أندرو دي كافني والبقية إلى الخلف، فرأوا رسلهم قادمين بعدهم بأقصى سرعة ممكنة لهم، وعندما رأوا هذا توقفوا وهم مضطربين، مقدرين أنهم كانوا في خطر عظيم، وأنهم عرضة للقتل، لأن جيش الترك لم يكن قد غادر بعد، ورسلهم الذين توجب عليهم جلب الأمان لهم من عند المسلمين كانوا الآن خلفهم، ولهذا عندما وصل هؤلاء، لامهم الآخرون لإهمالهم، وطلبوا منهم الاسراع بالسير أمامهم، وقد فعلوا حسبما أمروا.

وذهب الرسل بسرعة كبيرة نحو القدس، ووجدوا حوالي الألفين من الترك معسكرين خارج المدينة، وسألوا عن سيف الدين وبحثوا عنه، وعندما وجدوه شرحوا له ما حدث، وقد وبخهم بلطف، وقال لهم: من الواضح أنهم لم يقدروا قيمة حياتهم حماقة منهم، لأنهم جاءوا إلى وسط جيش معادي بدون جواز سفر أو أمان من أي نوع.

وكان الوقت وقت مغيب الشمس، ووصل بقية الحجاج، دون أن يعرفوا ما ينبغي فعله، ولم يكن لديهم سلاح لحماية أنفسهم، وكشر الترك وقطبوا نحوهم وهم يمرون، وكان واضحاً من نظراتهم كمية الحقد المخزنة في قلوبهم نحوهم، لأن الوجه يعكس دوماً ما في العقل، وشعر رجالنا في تلك اللحظة بالقلق والاضطراب، وودوا أنفسهم لو عادوا ثانية إلى صور أو حتى إلى عكا، التي تركوها للتو، وهكذا أمضوا الليل قرب أحد الجبال في حالة رعب عظيم.

ومثل في اليوم التالي بعض الترك أمام صلاح الدين، وسألوه بالحاح أن يسمح لهم بالانتقام من الفرنجة (لمقتل رفاقهم، وآبائهم، واخوانهم، وأولادهم، وأقربائهم الذين قتلوا قرب عكا وفي أماكن أخرى) الذين هم الآن في متناول أيديهم، وقالوا إنهم لن يجدوا مرة أخرى فرصة أحسن من هذه.

وبعث صلاح الدين وراء مقدمي الترك للتشاور معهم حول هذا الطلب، وعلى الفور كان المشطوب وسيف الدين وبدرالدين دلدرم في حضرته، وعندما عرض الموضوع عليهم، كان رأيهم بالإجماع وجوب ترك الفرنجة يأتون ويذهبون من دون أذى أو اعاقة ، وقالوا لصلاح الدين : « ستكون وصمة عار كبيرة لسمعتنا، إذا ما تدخلنا في المعاهدة التي أبرمت فيما بينك وبين ملك انكلترا، أو خرقناها، فوقتها ستظل مصداقية المسلمين محط شك وتساؤل» .

ونتيجة لسماع هـذه الآراء والملاحظات، أعطـى صلاح الـدين الأوامـر على الفورّ بـوجوب العنـاية بـالفرنجـة ومرافقتهـم في الذهـاب إلى المدينة ولـدى عـودتهم دونما ازعـاج أو مضـايقة، وبنـاء على طلـب مـن سيـف الدين، أوكـل إليه القيام بهذه المهمة، وامتلك الحجاج تحت حمايتـه حرية الـوصول إلى الضريـح المقـدس، وعوملـوا بكـرم زائد، وعـادوا بعد هـذا مبتهجين إلى عكا.

كيف رأى الحجاج القدس وكيف عاد الملك رتشارد إلى وطنه

ولدى عـودتهم كانت المجمـوعة الثانيـة متوقفة فيها بين قلعـة النطرون والرملـة، فانطلقـت يقودها رالـف تيسون، وكـان الآن صلاح الـدين كما ذكرنا من قبل ، قد مركز رجالـه ليحرسوا الطرقات بيقظة، وللانتباه إلى أن الحجاج هم في طريقهم إلى القـدس ، ونتيجة لهذه التدبيرات ارتحلنا بكل حرية ودون التعـرض للمضايقة، وعبرنا المناطق الهضبيـة ووصلنا إلى جبل صموئيـل، فمن هنـاك رأينا مـدينة القـدس عن بعـد، فجثينا على ركبنـا وقـدمنا الشكـر للرب، كما هـي عادة الحجـاج، ورأينا مـن البقعة نفسهـا جبل الزيتون.

وتقدمنا بعد هذا ونحن مبتهجين، والذيـن امتلكوا خيولاً تقدموا أمامنا مسرعين حتى يمكنهـم تحقيق رغبتهـم بالتسليـم على الضريح المقـدس، زيادة على هـذا، أخبرنا هؤلاء الخيـالة الذيـن تقدمـوا أمامنا، بـأن صلاح الديـن سمح لهم برؤيـة صليب الصلبـوت الحقيقي وبتقبيله، وهـو الذي كان قد حمل من قبل إلى المعركة.

لكن نحـن الذين كنا على الأقـدام، ووصلنا بالأخير، رأينا مـا استطعنا رؤيته، وكـان أول ما رأيناه مكـان قيامة ربنـا، حيث تقدم منـح الغفران، لكن بما أن المسلمين كـانوا يأخذون هـذه التقدمات، لم نقـدم إلاّ القليل، وأعطينا شطراً إلى الأرقاء الفـرنجة والسريان، الذين رأيناهـم في عبوديتهم يقومون بتنفيذ الواجبات المعينة لهم، وتابعنا من هناك إلى جبل أكرا Cal-vary (الجمجمة) حيـث صلب ربنا ، وحيث يـوجد هناك حجـرة أثبت بوساطتها ربنا في الجلجلة.

وبعدما قبلنا هذا بتبجيل، تابعنا نحو الكنيسة المبنية على جبل صهيون، فعلى الجانب الأيسر كان المكان الذي انتقلت فيه مريم، الأم المقدسة للرب، من هذا العالم إلى الرب، وحيينا هذا المكان بدموع منهمرة على خدودنا، ثم سارعنا لنرى المائدة المقدسة التي تنازل المسيح فوقف ليأكل خبزاً، وقبلنا هذه أيضاً بحرقة، ثم غادرنا معا مستعجلين، لأنه لم يكن آمنا بالنسبة لنا الذهاب إلى أي مكان، فيما عدا على شكل كتلة واحدة، خشية من غدر غير المؤمنين لأن الترك خنقوا بشكل سري ثلاثة رجال أو أربعة في الممرات الملتوية.

وبادرنا من هناك مسرعين إلى ضريح مريم المباركة — أم الرب— في وسط وادي يهو شافاط، قرب سلوان، وقبلناه بتعبد، وقلب خافق، ودخلنا بعد هذا، بفكر ليس متحرراً من الاضطراب، إلى غرفة القبو التي سجن فيها ربنا ومخلصنا في الليلة التي كان سيصلب في صباحها، وحيينا هذه الغرفة بتضرع، بينما انهمرت دموعنا على خدودنا، ثم غادرنا مسرعين، في الوقت الذي لم يبتعد فيه الترك ولو قليلاً، وحزنا للقذارة التي تلوثت بها الأماكن المقدسة بوساطة خيول غير المؤمنين الذين استخدموا هذه الأماكن كاصطبلات، وودعنا القدس الآن، وعدنا إلى عكا.

ولم تكن المجموعة الثالثة التي قادها أسقف سالسبري، بعيدة الآن عن القدس، وأرسل صلاح الدين شعبه لاستقبال الأسقف بحفاوة، وأخذه إلى حيثما شاء وإلى أي مكان أراد أن يزوره من الأماكن المقدسة، زد على هذا، تقديرا منه لحكمته، ولأخلاقه الحميدة، ولفضائله الأخرى (التي كانت معروفة منذ زمن طويل من قبل صلاح الدين) طُلب منه الإقامة في قصر السلطان، واستضيف وأنفق عليه من قبله، ورفض الأسقف أن يقول:« بدون أي كلفة، لأننا فقط حجاج»، ووجه صلاح الدين خدامه نحو اظهار كل عناية بالأسقف وبرجاله، وأرسل إليه بهدايا

كثيرة، وسمح له بعد هذا برؤية صليب الصلبوت، ودعاه إلى لقاء معه، حتى يمكنه أن يعبرعن نفسه قبل المغادرة، وقد جلسا وتحادثا معا لوقت طويل.

وسأله صلاح الدين عن ملك انكلترا، وعن الذي يقوله الفرنجة عن مسلميه، وأجابه الأسقف: « صدقاً، فيما يتعلق بمولاي الملك سأقول ما تتطلبه العدالة: إنه لانظير له بين جميع فرسان العالم سواء بالنسبة للشجاعة أو كرم الاعطاء،ذلك أنه متميز في كل شيء فيما يتعلق بكل صفة رفيعة، وبإيجاز، إن مولاي، برأيي المتواضع، لو أراد أي إنسان — وأنا لا أرى لديك ذنوب — أن يقرن ما بين سجاياك وسجايا الملك رتشارد، ويمزج فيما بينهما، لن يجد رجلين آخرين في العالم يمكن مقارنتهما بكما».

وأصغى صلاح الدين بأناة إلى الأسقف ورد عليه بقوله:« إنني أعرف منذ زمن طويل أن ملككم رجل له مكانة عالية، وشجاع، لكنه غير حكيم، إن لم نقل أحمق، في رميه نفسه مراراً في المخاطر، وإظهاره عدم اهتمام كبير بحياته، وبالنسبة لي ، مهما كانت ممتلكاتي واسعة، أوثر أن يكون لدي ثروات واسعة، وحكمة، ومرونة، بدلاً من أن أظهر شجاعة متطرفة، وتهوراً».

ثم تحول الحديث نحو أمور عادية بينهما، وأخبر صلاح الدين الأسقف أن بامكانه أن يطلب أي شيء يوده، فذلك سيعطى له، ورد عليه الأسقف بأن سأله إذا كان بإمكانه الحصول على مهلة حتى اليوم التالي لكي يرى ما ينبغي أن يسأله، وأجيب إلى طلبه هذا، ثم سأل إذا كان من الممكن استبدال الطريقة البدائية للقداسات التي يقدمها السريان، وهي لاتعدو أنصاف قداسات تنفذ أمام ضريح ربنا، وذلك في أن يتم وضع اثنين من الكهنة اللاتين مع شماسين أيضاً لاتين (يعيشون من تقدمات المؤمنين) وأن يسمح لهؤلاء بتقديم القداسات بالتعاون

المتساوي مع السريان، وطلب أيضاً أن يكون هناك عدداً متساوياً في بيت لحم وفي الناصرة، وكان هذا الالتماس عظيم الأهمية، ومرضياً للرب كما نعتقد، ووافق السلطان على الطلب، وعين الأسقف اثنين من الكهنة في الأماكن السالفة الذكر مع اثنين من الشمامسة، يقدمون القداسات للرب، حيث لم يكن هناك من أحد قبلهم، وإثر هذا حصل الحجاج على إذن المغادرة من السلطان، وعادوا من القدس إلى عكا.

أما وقد أكمل الناس الآن حجهم الذي نذروا أنفسهم له، وقد أكملوا اعداد اسطولهم للعودة إلى الوطن، نشروا أشرعتهم للريح، وعهدوا بأنفسهم إلى سفنهم، وأقلعت السفن مسرعة، وتفرقت السفن باتجاهات مختلفة وفقاً لتنوع الرياح.

وتقاذفتهم الأمواج لوقت طويل، ووصل بعضهم إلى موانىء مختلفة سالمين، وساقت بعضهم إلى المخاطر فتحطمت سفنهم، ومرة ثانية مات آخرون أثناء سفرهم، ووجدوا قبورهم في أعماق المحيط، وأصيب بعضهم الآخر بأمراض غير قابلة للشفاء ولم يبرأوا ولم يعودوا إلى أوطانهم، زد على هذا ، تحمل آخرون بسلام حتى النهاية، وعانوا من خلال فقدان آبائهم، وأخوانهم وأقربائهم، وأصدقائهم، الذين هلكوا من المرض أو من السيف، وذاقوا نكهة الشهادة، وخرقت آلام متنوعة صدورهم كما لو أن ذلك جاء بفعل السيف.

لقد عانى كل واحد بطريقته الخاصة من نوع من أنواع الشهادة، وباختصار عرض كل واحد حمل قلباً ساذجاً ونفسا مؤمنة نفسه لهذا الحج الطويل حباً بالرب، واعتاد بعضهم ممن يحبون الهذر وكثرة الكلام على الشكوى أن الحجاج قدموا قليلاً من المنفعة لأراضي القدس، لأنهم لم يحرروا المدينة لكنهم لم يكونوا يعرفون مايقولون، لأنهم كانوا يبحثون في أشياء ليس لديهم معرفة شخصية بها ولاخبرة، وعلى كل حال، نحن الذين عرفنا كل شيء ورأيناه بأم أعيننا، ينبغي أن نمنح الثقة والتصديق

لرواياتنا حول المتاعب والشقاء الذي تحمله هؤلاء الرجال.

ونصرح بثقة، على مسمع من الذين كانوا أيضاً حضوراً، أن مائة ألف من الفرنجة قد هلكوا في ذلك الحج، وذلك لسبب واحد ومقصد هو الأمل بالحصول على الثواب الرباني، فلهذا السبب فصلوا أنفسهم عن النساء، ورأوا أن من الشرور التضحية بطهارتهم للحصول على الصحة البدنية، ونعلم بشكل أكيد أنه نتيجة لاجتماع الأمراض والمجاعة مات أكثر من ثلاثمائة ألف اثناء حصار عكا وبعد ذلك، ومن ذا الذي يشك — على كل حال — في خلاص أرواح مثل هؤلاء الرجال النبلاء والرائعين، الذين سمعوا يوميا القداسات من شفاه قساوستهم، ومن المؤكد أن نفترض أن هؤلاء قد ذهبوا إلى الجنة.

وغدت سفينة الملك رتشارد جاهزة، وقد زودت بكل الضروريات من سلاح ومؤن، وأعدّ ذلك من أجل الرحلة، ثم قام الملك بدافع من كرمه الخالص،وبرأي من عقله النبيل لوحده، أقدم على تخليص وليم دي بريتل (الذي عرض نفسه للأسر حتى ينقذ الملك) بمبادلته بأكثر من عشرة من النبلاء الترك، مع أن هؤلاء كانوا على استعداد لأن يدفعوا وهم مسرورين مبلغاً كبيراً من المال لفداء أنفسهم، لكن كرم الملك ما كان ليتوقف بأي حال أمام أي معيق.

وبات الآن كل شيء جاهزاً، والملك على وشك الاقلاع، هنا (قرر قبل أن يذهب أن لا يترك أي شيء خلفه يمكن أن يؤثر على سمعته) أمر بأن يعلن للجميع أن كل من له ادعاء نحوه ينبغي أن يتقدم به، وأن جميع ديونه سوف تدفع بالكامل، لابل أكثر من الكامل، لتجنب أي معيق أو شكوى فيما بعد.

ولكم كانت التنهدات والدموع كثيرة هناك عندما رفع الاسطول الملكي مراسيه، ودعي للملك بكثيرمن التبريكات لأعماله المثيرة النافعة،

ولفضائله الظاهرة، ولكرمه الكبير، وللمحاسن الكثيرة التي اجتمعت في شخص واحد، وارتفعت أصوات العويل، وردد الجميع وهم يبكون:« ياقدس، حرمت الآن من كل أمان، كيف فقدت المحامي عنك، من الذي سوف يحميك لو أن الهدنة خرقت، طالما أن الملك رتشارد قد غادر»؟ هذه كانت كلمات كل واحد، عندما صعد الملك ظهر السفينة وأقلع، ذلك أن صحته لم تكن عادت كما ينبغي، لذلك كان موضوع قلقهم جميعاً.

وسارت السفينة طوال الليل مهتدية بنور النجوم، وعندما جاء فجر النهار، نظر الملك نحو الخلف، بأعين نحو البلاد التي غادرها، وبعد تأمل طويل وتفكير عميق، رفع صوته بالدعاء وسمعه عدد من الناس يقول:« أدعك أيتها الأرض المقدسة للرب، وإذا ما منحتني العناية السماوية الحياة، لعلي أتمكن برضا الرب أن أقدم لك العون، وأن أكون في أحد الأيام ، كما أنوي، المدافع عنك والمحامي».

وبمثل هذه الكلمات حث الملاحين على نشر أشرعتهم للريح، جاهلاً لما هو بانتظاره من مشاق وأحزان، وغير عارف بالمآسي التي سيعاني منها بسبب الخيانة، التي حيكت لإلقائه بالسجن من قبل ليوبولد صاحب النمسا(*)، فقد استولى أخوه الايرل جون على ميراثه، وجرى بظلم اغتصاب قلاعه في نورماندي، واعتدى خصومه بوحشية على حقوقه، ولم ينج من أسره إلا بدفع فدية.

(*) — بالاضافة إلى ما تقدمت روايته عن أسباب اعتقال ليوبولد صاحب النمسا لرتشارد، في المجلد المتقدم، وكذلك في المجلد الثامن الحاوي لذيل تاريخ وليم الصوري، يقال إن قرابة قامت ما بين اسحق صاحب قبرص وزوجته من جهة وليوبولد من جهة أخرى، وذلك بالاضافة الى مشكلة اغتيال كونرادمركيز صور، وكانت سفينة رتشارد قد أعاقتها العواصف، لذلك حاول إكمال سفره متخفيا براً، لكنه كشف وألقي القبض عليه في فينا، حسبما تقدم بالتفصيل.

- ١٠٠٥ -

واسترد أخيراً أراضيه ومملكة آبائه، وأعادها إلى الهدوء والاستقرار، ثم عبر إلى نورماندي لينتقم لنفسه من اعتداءات ملك فرنسا، الذي كان خصمه، وبعد ما هزمه مراراً، استرد بالقوة والسيف والرمح حقوقه المسلوبة، لابل زادها.

انتهى هنا كتاب حملة الملك رتشارد إلى الأراضي المقدسة التابعة للقدس.

رحلة حج سيولف الى القدس
(١١٠٢-١١٠٣م)

مدخل

المخطوطة الوحيدة المعروفة من رحلة حج سيولف Saewulf هي التي أنقذها ماثيوباركر رئيس أساقفة كانتربري ،من التهديم العام لمكتبات الديرة خلال حكم هنري الثالث ،وأدوارد الخامس،ومنحها الى مكتبه كلية المسيح في كمبردج،حيث حملت الرقم ١١١،وقد قام السيد.ت.رايت بنسخ نسخة عنها،وترجمها،وترجمته لها موجودة في مكتبه بوهن،ونشرت للمرة الأولى من قبل م.دي أفيزاك في «مجموع الرحلات والمذكرات للجمعية الجغرافية»الجزء الرابع،باريس ١٨٣٩،وبها أن هذه الطبعة غير متوفرة ،تطلبت الحاجة اعادة نشر الأصل بعناية اعتماداً على مخطوطة كمبرج، وتولى هذا العمل السيدأ.روجر،وتحتوي المخطوطة نفسها على سبع قطع من مخطوطات قديمة ،وفي الحقيقة رواية سيولف نفسها قطعة،فقدت شطراً كبيراً من مطلعها، وخاتمتها أيضاً مفقودة. وكاتبهاسيولف غير معروف تاريخياً ،لكن م.دي أفيزاك قد استخرج عدداً من الأدلة،أمكن بوساطتها تحديد تاريخ الحج بشكل مؤكد، فإيتانها على ذكر كل من الملك بلدوين، وريموند صاحب طولوز على أنهما كانا معاً في الأرض المقدسة،يعيد تاريخها الى السنوات الأولى من القرن الثاني عشر،لأن بلدوين جرى تتويجه في ٢٥-كانون الأول سنة ١١٠٠،وتوفي ريموند في ٢٨ شباط سنة ١١٠٥.

وذكر سيولف أماكن على الساحل كانت ماتزال في أيدي المسلمين،وبين ما كان بأيدي الفرنجة مدينة طرطوس التي استولى عليها ريموند، وكانت عكا التي سماها عكرون-ماتزال بأيدي المسلمين، ومعروف أن ريموند قد استولى على طرطوس في آذار سنة ١١٠٢ ،في حين لم يتم الاستيلاء

على عكـا حتى ١٥-أيـار ١١٠٤ ،ومـرة أخرى لقـد بـدأ سيـولف رحلـة عودتـه في يوم عيـد الحصاد، وجاء عيـد الحصادلعـام ١١٠٤ في الخامس مـن حـزيـران،أي بعـد الاستيـلاء على عكـا، وحـل عيـد الحصـادلعـام ١١٠٢يـوم ٢٦-أيـار،بعـد أكثـر مـن شهـريـن مـن الاستيـلاء على طـرطوس،ولابـد على هـذا أن تاريـخ عـودتـه قد وقـع فيها بين ١١٠٢أو ١١٠٣،وكان قـد بدأ من ايطـاليا في يوم أحد ،الـذي كان عيد القـديسة ميلدرد mildred في ١٣ تموز،وحـل ١٣ تموز يوم أحـد في سنـة ١١٠٢، وعيـد الحصادالتـالي في سنة ١١٠٣ حـل في ١٧ -أيار،ووصـل م.دي أفيـزاك الى هذه المحصلـة دون تحديد التـاريخ تمامـاً ،الأمر الـذي يعطينا إيـاه الذي استنسـخ نسخة عن المخطـوطة،فقـد قرأ السيـد رايت عبارة Tertio idus jutكما يلي Tertio uero milliarii،وكان لحسن الحظ بـالنسبة له أن البولانـدستBollandists قد وضعوا عيد القـديسة ميلـدرد يوم ١٣-تموز، حسبما هـو ظاهـر على تقويـم وستمنستر ميسال Missal ،فهـذا مااستخـرجته منـذ زمن وجيز« جمعية هنـري بـرادشو»وليـس يوم ١٤ مـن الشهر نفسـه حسبما أعطاه تقـويم انكليـزي قـديم نشر مـن قبـل السيـد ماسكـل « Monumenta rituolia » ج٣ص ٢٠١، أو في عشريـن شباط، وهـو التـاريـخ الذي أعطـاه ألبـان بتلر،فهذا التـاريخ الأخير هو يوم تسلـم آثارها في بلجيكا،لأنها كـانت قد حملت بعيداً من ديـرها في ثانت ThaneT التي نهبها الدانيون، وبتبني تاريخ ١٣-تموز،نكون قد حددنا تاريخ سيولف بدون أي شك.

وذهب م.دي أفيـزاك الى الاعتقاد أن سيولف هـو فقط«a nom de guerre»وأنـه نـالـه بسبـب سفراتـه المتواليـه مثـل«كلب البحر »الدينا، لكـــن«ولف»وجد بالأسماءالانكليزية كثيراً ،مما يجعل هذا الافتراض غير صحيح.

واستخدم سيـولف اصطـلاحات مثـل:«dies egyptiacaو hora

egyptiaca»،ونعلم من دو كانج أن هذه الأيام والساعات قد وضعت في بعض التقاويم القديمة للاشارة الى انهم تواريخ نحس ،وأطلق عليهم«مصريات»لأنهم نقلوا من كتاب فلك مصري ،وقد قال المصريون إن الحظ سيكون حظاً عاثراً إذا ما فصد الانسان أو تولى القيام بأي عمل هام في هذه الأيام،وأدان القانون الكنسي الأخذ بمراعاة الأوهام بقوله:«ينبغي عليك عدم مراعاة الأيام التي تدعى الأيام المصرية»الخ(Decret 26.Q.caus.7.c.16)،وبناء عليه قال وليم أوف نيوبرا:«رسم رتشارد الأول في لندن من قبل بلدوين رئيس أساقفة كانتربري ،في الثالث من أيلول ،الذي هو قد عرف من المعتقدات القديمة الكافرة بأنه يوم نحس-Malus vel aegptiacus »الخ، ووردت الإشارة الى هذه«الأيام المصرية »في التقاويم المسيحية القديمة المعروفة بـ Almonac،أي التقاويم التي نشرت في حوالي سنة ٣٣٦م ثم أعيد نشرها في سنة٣٥٤م من قبل فوريوس دايونيسيوس فيلوكالوس Furius Dionysius Filocalus،واستخرج م.دي أفيزاك من واحد من هذه التقاويم أن ١٣ و٢٢ تموز كانا من أيام النحس هذه وهذين كانا اليومين اللذين أقلع فيهما سيولف من مونوبولي ثم أقلع ثانية في البحر من برنديزي.

وفيما يلي التواريخ التي ورد ذكرها في رحلة حجنا:

١١٠٢ ,١٣-تموز،أقلع من مونوبولي قرب باري.

١١٠٢ ,٢٢-تموز،بدأ ثانيه من برنديزي.

١١٠٢ ,١-آب ،وصل الى جزيرة سيفالونياcephalonia.

١١٠٢ ,٩-آب ،وصل الى كورنيثا.

١١٠٢ ,٢٣آب وصل الى نيغروبونتNegropont

-١٠١١-

١١٠٢, ١٢-تشرين أول،نزل في يافا

١١٠٣, ١٧ -أيار،عاود الاقلاع من يافا

١١٠٣, ٢٣-حزيران،وصل الى رودس

١١٠٣, ٣٠-حزيران،وصل الى رودستو في الطريق الى القسطنطينية.

وليس من المؤكد فيما إذا كان سيولف رجل دين أوعلماني،ومن الواضح أنه كان رجلاً تقياً جداً،ومشتاقاً لرؤية الأماكن التي سمع عنها وقرأ حولها في الأناجيل،ولم يخطر على باله مناقشة الأشياء التي أخبره بها المسيحيين السوريين أو الشك بها،لكنه قدم رواية صحيحة بقدر امكانه حول الأماكن والأشياء التي رآها.

رواية عن

حج سيولف الى القدس والى الأرض المقدسة

في سنتي ١١٠٢و١١٠٣ لتجسيد ربنا

هنا بداية الرواية المؤكدة عن وضع القدس

كنت أنا سيولف المذنب الحقير فعلا، على طريقي الى القدس من أجل الصلاة عند ضريح ربنا،ومع أنني ذهبت على الطريق المباشر مع آخرين كانوا ذاهبين الى هناك،لم أستطع عبور البحر المفتوح وذلك إما بسبب أنني كنت مثقلاً بذنوبي، أو لأن السفينة كانت بدائية ،ولهذا قررت أن أدون فقط أسماء الجزر التي مررت بها.

وقد نزل بعضهم في فاروم(١) Varum ،وبعضهم الآخر في بارلوم Barlum(٢)،وبعضهم في سيبونتوم(٣)Sipontum ،أوفي ترانوم(٤)Tranoom،ونزل بعضهم حتى في أوترنت(٥)otrente،وفي ميناء أبوليا الجنوبي الأقصى،ولقد صعدنا الى ظهر السفينة في مونوبولي،التي هي على مسافة يوم من باروم(٦) Barum ،يوم الأحد١٣-تموز، وهو يوم عيد القديسة ميلرد العذراء(٧)،ولم يكن وقتاً سعيداً،حسبما تبرهن فيها بعد لنا،ولولا أن رحمة الرب لم تحمنا،لكنا غرقنا،ففي اليوم نفسه، عندما كنّا على وجه البحر،بعيداً عن الميناء،عانينا من تحطم السفينة بسبب عنف الأمواج،لكن بفضل عناية الرب عدنا سالمين الى الشاطىء.

وعندها ذهبنا الى براندك(٨) Brandic ،ومجددا صعدنا في يوم بؤس ظهر السفينة نفسها،لكن أمكن ترميم بعضها ،ونزلنا على جزيرة إغريقية،حملت المدينة فيها مع الجزيرة نفسها اسم كورفي(٩)curphi،ليلةماقبل عيد القديس جيمس الرسول(١٠)،ووصلنا من هناك الى الجزيرة التي تدعى كافالانيا(١١)caphalania،حيث

جـرفتنا عـاصفـة كبيرة،يوم الأول مـن آب،فهنـاك مـات روبـرت غـويسكـارد(١٢)،ومـات هنـاك أيضاً مـرافقـونـا،مما سبب لنـا حـزناكبيرا،وأقلعنا بعـد ذلك مـن هنـاك،وأبحرنـا حتـى وصلنا الى بـولي بـولـس(١٣) Polipolisثـم وصلنـا الى جـزيـرة بتراس(١٤)patrasالجميلة،ودخلنا الى مـدينتها من أجل الـدعاء لأندرو الـرسـول المبـارك الـذي عـاني هنـاك ودفـن،لكـن نقـل بعـد ذلـك الى القسطنطينية ،ووصلنـا من بتراس عشية عيـد القديس لـورانس (١٥)الى كورنثيـا،فهناك كان الـرسول بولص المبـارك قد بشر بكلمة الـرب ،وكتب رسالة الى بعض (المؤمنين بـه)، وعانينا هناك من متاعب عـديدة،وجزنا مـن هنـاك الى مرسـى هـوستـا(١٦) Hosta ،وذهبنا إثر ذلك، بعضنا على قدميه وبعضنا الآخر على ظهـور الحمير في رحلة يومين الى طيبة ،التي هـي مدينـة تدعـى بشكل عـام ستين stinae ،ووصلنا في اليوم التالي الى نغروبـونت عشيـة عيد القـديس بـارثلميو الـرسول،واستـأجرنـا هناك سفينة أخرى ،وتبعد أثينـا ،التي بشربها بولص الرسول،مسـافة يومين عن أحواز كـورنيثيا،فهنـاك ولد ديـونيسوس Dionysius وتعلم،وآمن بعد ذلـك بالـرب بوسـاطـة بولـص المبـارك(١٧)،ويوجـد هناك في كنيسـة العـذراء مريم المباركة،زيت في مصباح يشتعل بشكل دائم،دون أن ينقص مطلقاً .

ووصلنا بعـد ذلك الى جـزيرة تـدعى بيتـاليون (١٨)petalion،ومن هنـاك الى أنـدريـا(١٩)Andria حيث يصنعون ذهبا ثمينا وفضة منظومـة في خيط أو أشكال مغلفـة،وملابس مطرزة بـالحرير،وقدمنـا من هنـاك الى تينـسـوس tinos ،ثـم الى سيراSyraوبعـدهـا الى ميكونيام Miconyam،ومن هناك الى نكسيا naxia ،التي الى جانبها جزيرة كريت صاحبة الذكـرى والشهرة ،وجزنا من هناك الى كاريا -car eaوأومرغـونomargon،وسامـوس،وسكيو scyo وميتيلينا -met

elina،ووصلنا بعد هذا الى باتموس patmos،التي نفي إليها يوحنا الرسول الانجيلي من قبل دومشيان Domition ،وحيث كتب سفر الرؤيا،وإفسوس واقعة على أحد الجوانب قرب سميرنا، التي هي على مسافة يوم واحد ، والتي إليها ذهب الانجيلي نفسه،ودخل حياً الى ضريحه،وكتب الرسول بولص أيضاًرسالة الى أهالي إفسوس ،ثم وصلنا الى جزيرتي ليروس Leros،وكاليمنو Calimno ، ثم الى آخوس ،حيث ولد جالينوس أعظم الأطباء مكانة بين الاغريق،وعبرنا من هناك بوساطة ميناء مدينة ليدو lydo المهدمة،حيث بشر تيتوس تلميذ القديس بولص الرسول،وقدمنا من هذه الى أسيوم Asum التي تدعى أرجنتيا(٢٠)Argentea.

ثم وصلنا بعد هذا الى رودس،التي قيل عنها بأنها إحدى عجائب الدنيا السبعة وهي:الكولوسوس Colossus ،وهوصنم ارتفاعه مائة وخمسة وعشرين قدماً ، هدمه الفرس مع جميع المقاطعة الرومانية تقريباً ،عندما كانوا في طريقهم الى إسبانيا،والى الكولوسيين كتب الرسول بولص المبارك رسالة (٢١)،وأوصلنا من هناك سفر يوم الى باتارا Pa-tara ،وهي مدينة ولد فيها المبارك رئيس الأساقفة نيقولا، ومن هناك ساقتنا في المساء المتأخر عاصفة قوية، وأطلقنا الأشرعة في الصباح التالي ،ووصلنا الى مدينة كلها خرائب تدعى سينت ماري موغرونيسي،Mogronissi ،ومعنى هذا:الجزيرة الطويلة(٢٢)،واعتاد هنا أن يعيش النصارى الذين أخرجهم الترك من الاسكندرية(٢٣)،وهذا ظاهر من الكنائس والأبنية الأخرى،وقدمنا من هناك الى مدينة مايرا Myra ،حيث حكم القديس نيقولا بمثابة رئيس للأساقفة(٢٤)، وما يرا هي ميناء البحر الأدرياتيكي(المتوسط)مثلما القسطنطينية هي ميناء البحر الايجي،وبعدما تعبدنا عند مقام الضريح المقدس للقديس المذكور،وصلنا بريح طيبة الى

الجزيـرة التـي اسمها اكسنـداكـوبـوXindacopo التـي معناهـــــــا باللاتينية «الأشرعـة الستة»بسبب قوة البحر(٢٥)،وعلى مقربـة منها الميناء الذي يدعـى مع المنطقة المحيطة به بـاسم فينيكا Finica ،وبعد ثلاثة أيام من السفر عبر الجزء الأعرض من البحـر الأدرياتيكي،وصلنا من ذلك المكان الى مدينـة بافوس Paphos ،وهي جزء من جـــزيرة قبرص،فهنا اجتمع الـرسل بعـد صعود ربنـا،وعقدوا مـؤتمراً حول الأشيـاء المتوجـب اقرارها،،والى هاهنا أرسلوا القديس برنـابا الرسول للتبشير،وبعد وفاته جاء الى هاهنا القديس بطرس من يافا،وهناك تفرقت بذور كلمة الرب،قبل أن يعتلي الكرسي الرسولي في انطاكية.(٢٦)

ومن جـزيرة قبرص،رفعنا مـراسينا،وظلت عاصفـة بحرية تتقـاذفنا لمدة سبعـة أيام ،قبـل أن نتمكن مـن الوصـول الى مرسـى،وفي إحدى الليـالي كانــت الرياح عنيفة جـداً، الى درجة أنها أعادتنا الى قبرص ،لكـن بفضل من رحمة الرب-التـي هي قريبة جداً مـن كل من يدعوه بصـدق- جدفنا بدون كثير من المصاعب،وعدنا ثانيـة الى مسارنا المرغوب،ثم استبدت بنا عـاصفـة هـائلة لمدة سبع ليـالي ،ولشـدة خـوفنـا كدنـا جميعـاً أن نفقـد الأمـل،ومهما يكن الحال،عنـدما أشرقـت الشمس في الصبـاح ظهر أمـام أعيننا شاطىء مينـاء يافا،وكما ألقت بنا متاعبنـا الكبيرة ومخاطرنا في وضع بائس كذلك فعل الأمر غير متوقـع وغير المؤمل،فكان أن ضاعفت بهجتنا سرورنا مائة ضعـف، وبناء عليه بعد مـرور ثلاثة عشر اسبوعـاً،كما كنا قد أقلعنا يوم أحدمـن مونوبولي،وكنا دوماًإمـا فوق أمواج البحر أو على الجزر في الأكواخ،وفي الزرائب الشـاغرة،لأن الاغريق ليسوامضيافين،هكـذا نزلنا في يوم أحد وسط سرور عظيم وحمد وشكر الى ميناء يافا.

أسألكم الآن وأرجـوكم جميعاً ،أيها الأصدقاء الأحبـاء،أن تمدوا أيديكم وترفعـوهم عـالياً ،وتصفقوا بهم،وتغنـوا ببهجة تامـة للرب بصـوت واحد معي،وارفعـوا أصواتكم معي في شكـره،لأنه وهو القادر بسـط رحمته عليّ

خلال الرحلة كلها،تبارك اسمه من الآن فصاعداً ،ودائماً أبداً،أعيروني آذانكم أيها الأصدقاء الأعزاء ،واستمعوا الى خبر الرحمة التي أظهرتها العناية الربانية نحوي ولي،ومع أنني أقل عبيده شأناً ،ففي اليوم نفسه الذي رسونا فيه قال لي أحد الناس،بدافع رباني كما أعتقد:«ياسيد،انزل الى الشاطىء هذا اليوم،خشية ربما ستأتي عاصفة هذه الليلة أو في الصباح الباكر،ووقتها لن يكون باستطاعتك النزول الى اليابسة»،وما أن سمعت هذا حتى تملكتني على الفور رغبة بالنزول الى الشاطىء،فاستأجرت قارباً ،ونزلت الى اليابسة مع كل أغراضي ،وعندما بدأت بالنزول الى اليابسة بدأ البحر يضطرب ،وازداد الهيجان،وثارت عاصفة عنيفة، لكن بفضل عناية الرب وصلت دونما أذى،ثم ماالذي حدث بعد؟ ذهبنا الى داخل المدينة نطلب مكاناً للإقامة،وكنا متعبين قد أنهكتنا المشاق الكثيرة،وتناولنا بعض المنشطات وارتحنا،وحدث على كل حال في الصباح الباكر ،أننا عندما كنا خارجين من الكنيسة سمعنا ضجيج البحر وأصواته، وصراخ الناس ،وكان الجميع يركضون،وهم مندهشين تجاه أشياء لم يسمعوها من قبل، وركضنا وكلنا خوف، مع الآخرين،ووصلنا الى الشاطىء،وعندما وصلنا الى هناك ،رأينا العاصفة تسوق أمواجاً عالية مثل الجبال،وقد غمرت أجساد رجال ونساء فاقت التعداد،وقد غرقوا وألقي بهم بشكل تعيس على الشاطىء،ورأينا أيضاً سفناً وقد تصادمت مع بعضها وتحطمت الى قطع صغيرة، من الذي كان بإمكانه الإصغاء الى شيء سوى زئير البحر ،مع تصادم السفن وتحطمها ؟ وكانت الأصوات أعلى من صراخ الناس ،ومن صرخات جميع الملاحين،وبما أن سفينتنا كانت كبيرة جداً ،وبنيت بشكل متين،فقد حافظت حتى الآن على توازنها وذلك مع عدد آخر من السفن كانت محملة بالحبوب وبأنواع البضائع التجارية والحجاج القادمين أو العائدين،وحافظت حتى الآن على توازنها وسط البحر الهائج بفضل مراسيها ولكونها ربطت بالحبال،وياهول الرعب الشرير الذي

واجهوه،وكيف ألقي ببضائعهم وقذفت بعيداً ،ولاشك أن العيون التي رأت ذلك كله قدت من صخر ،إذا كانت تمنعت عن البكاء ،ولم يكن قد مضى وقت طويل ونحن نحدق بالذي أمامنا،عندما اقتلعت الأمواج العاتية والتيار الرهيب المراسي، وقطعت الحبال ،وصارت السفن فريسة بأيدي الأمواج الهائلة، فتبددت جميع الآمال بالنجاة، تراهم الآن قد رفعوا عالياً،ثم مالبثوا أن نزلوا نحو الأعماق ،وبسرعة جرى لفظهم خارج الأعماق ورميهم فوق الرمال أو فوق الصخور، وتبعثروا بشكل بائس من جانب الى جانب، وبالتدريج تحطموا الى قطع بقوة التيار ، ولم تسمح لهم قوة العاصفة بالعودة سالمين الى البحر،ولم يسمح لهم انحدار الشاطىء بالوصول الى البر بسلام،وكيف يتسنى لنا الحديث عن أسى الملاحين والحجاج عندما تبددت جميع آمالهم،فقد ظل بعضهم محصوراً بالسفن،وتعلق بعضهم بالسواري،وبعضهم أمسك بشيء من البقايا،أو تعلق بقطع من الخشب،وماذا يمكنني أن أقول أكثر؟ وغرق بعضهم من الذين استبد بهم الرعب،وحدث لبعض الذين كانوا متعلقين أن قطعت رؤوسهم بوساطة أخشاب سفنهم،وقد يبدو هذا أمراً لايصدق لكثير من الناس ،ومع ذلك أنا رأيت ماحدث،وجرف بعضهم من على ظهر سفنهم،فحملوا مجدداً الى الأعماق،وألقى بعض الذين يحسنون السباحة أنفسهم عن طواعية بين الأمواج،وبهذا غرق كثير منهم،وقليل جداً ،ممن كان واثقاً بقوته،وصلوا سالمين الى الشاطىء،وهكذا من بين ثلاثين سفينة كبيرة،ممن كان بعضه يعرف باسم دور منديDormundi أو غولافري Gulafri،أو كاتي(٢٧)Catti،وجميعها كانت محملة بالحجاج أو بالبضائع التجارية ،بالكاد بقي سبع سفن لم تغرق عندما غادرت الشاطىء ،وهلك في ذلك اليوم أكثر من ألف انسان من كلا الجنسين،وهي أعظم كارثة أمكن لعين انسان ان تراها في يوم واحد،ومن جميع هذه المخاطر أنقذني الرب بفضله،له الشرف والمجد ،وعالم بلا نهاية .آمين.

ومضينـا من يـافـا الى مدينـة القـدس ،وهي رحلـة يـومين،عبر طريـق جبلي،وصخـري،وخطر جـداً ،لأن المسلمين كـانـوا يقيمون الكمائن دومـاً لاصطياد الفـرنجة،فقد كـانوا يختبئون في الأمـاكن المجوفـة في الجبال،وفي الكهـوف الصخريـة،يـراقبون الأوضـاع ليل نهار،وينتظـرون دومـاً الذيـن يمكنهـم مهاجمتهم بحكم صغر تعداد المجمـوعة المسافرة أو مهاجمة الذين تخلفوا وراء مجموعتهم بسبب الارهاق ،ففـي لحظة واحدة يمكن أن تراهم حـولك في مكـان ما،ثـم مايلبثـون أن يختفوا كليـاً، (٢٨) ويمكن لكـل واحد يقـوم بهذه الرحلة أن يرى هـذا ،آه،كم كان عدد الأجسـاد البشرية الملقـاة على الطـريـق أو على أطـرافـه،وقد مـزقـت مـن قبـل الحيـوانـات الضـارية،وربما يتسـاءل بعضهم لماذا تـوجـب أن تبقى أجسـاد الفرنجـة هكـذا دونما دفـن،لكن هـذا لايجوز أن يكـون مـوضع تسـاؤل،لأن هنـاك مساحة صغيرة من الأرض،وليس من السهـل الحفر بالصخور،ويضاف الى هـذا،لـو افترضنـا وجـود أرض،من هـوالأحمق الـذي يقـوم بـالتخلي عـن جماعتـه،وينشغل لـوحده في حفـر قبر لمرافقه؟إنـه إذا مافعـل ذلك يكـون بالـواقع قد تـولى حفر قبر لنفسه وليس لمرافقـه،وعلى ذلك الطريـق ،ليس الفقير والضعيف من كان عرضة للخطر،بـل حتى الغني والقوي تعرضوا للمخاطر،وقتل المسلمون أعـداداً كبيرة لكن الحرّ والعطش قتل أكثر،فكثير هلكوا لقلة الماء ،وهلك الأكثر لأنهم شربـوا كثيراً ،وعلى كل حال وصلنا نحن مع جماعتنا كلها دونما أذى،الى هدفنا المنتظـر منذ وقت طويل،الحمد للرب،لأنه لم يهمل صلواتي،ولم ينأى برحمته عني.آمين.

وقام مدخل مدينة القـدس في الجهة الغربية،تحت برج الملك داود،عبر البـاب الـذي يعـرف بباب داود(٢٩)،وكنيسـة الضريـح المقـدس التـي تدعـى«كنيسة الشهادة»هـي أول بقعة توجبـت زيارتهاوليس هـذا بسبب اتجاه الشوارع،بل لأنها كانت أعظم شهـرة من بقية الكنائس،وهي والحق يقال جديـرة بكل ماقيل عنهـا من قبل الأنبياء المقـدسين،في جميع أنحاء

العالم،لأن كل ما تعلق بمخلصنا يسوع المسيح أنجز هناك بالفعل،وبنيت الكنيسة نفسها،عندما عثر على صليب ربنا،من قبل رئيس الأساقفة مكسيموس،بمساعدة الامبراطور قسطنطين وأمه هيلانه(حنة)،وجاء البناء ملكياً رائعاً،وفي وسط هذه الكنيسة ضريح ربنا(٣٠)،محاط بسور قوي ، ومغطى جميعه،خشية الدمار،وتتساقط الأمطار فوق الضريح المقدس،لأن الكنيسة فوقه بدون سقف،وهذه الكنيسة قائمة على سفوح جبل صهيون ،مثلها بذلك مثل المدينة نفسها،وبعد هذا قام الامبراطوران الرومانيان تيتوس وفسبسيان بتدميرها انتقاماً من الرب ولكي تتحقق النبوءة الالهية،آنذاك اقترب الرب من اورشليم وحين رأى المدينة بكى عليها وقال:

«لأنه لو عرفت أنت: إن الأيام ستأتي عليك وسيحيط الأعداء بك وبأسوارك ويتزاحموا عليك من كل مكان وسيرمون بك الى الأرض وبأبنائك الذين يعيشون فيك، ولن يتركوا فيك حجراً على حجر»الخ

ونحن نعرف أن خارج الباب خطوة يكون الرب.

ولكن الامبراطور هادريان أعاد بناء مدينة اورشليم،التي دعيت هلياس (إيليا)،وكذلك هيكل الرب ووسع المدينة حتى برج داود، الذي كان قبل ذلك قد بعد كثيراً عن المدينة،وكل من يريد يستطيع أن يراه من جبل الزيتون،حيث كانت تقوم الأسوار الغربية النهائية للمدينة قبل ذلك،والى أي حد توسعت بعدها، وأعاد الامبراطور تسمية المدينة باسمه:«إيليا»والذي فُسِّر على أنه بيت الاله.ولكن بعضهم يقول إن المدينة قد أعيد بناؤها من قبل الامبراطور جستنيان وكذلك هيكل الرب بصورة مشابهة مثل ماهو عليه اليوم،ولكن يقولون إن ذاك رواية أخرى،وليس حقيقة أخرى،لأن السريان،الذين كان آباؤهم يقطنون في تلك البلاد منذ الاضطهاد الأول،يقولون إن المدينة كانت للمرة السابعة قد احتلت ودمرت بعد آلام الرب،وصعوده الى السماء ولكنها لم تندثر

بصورة كاملـة.وفي باحة كنيسة الرب يمكـن رؤية أماكن القبـور المقدسة، مثلما أيضـاً السجـن،حيـث كـان سجـن ربنـا يســوع المسيـح بعـد تسليمه،وذلك حسب الروايات السريانية،وبعدها بقليل الى الأعلى يظهر المكان الذي وجـد فيه الصليب المقدس مع الصلبان الأخـرى حيث بني بعـد ذلك تكـريماً من الملكـة هيلانـه كنيسـة عظيمة، ولكنهـا بعد ذلـك دمـرت تدميراً كـامـلاً على أيـدي الكفار،والى الـداخـل ليـس بعيداً عـن السجن يمكن رؤية الأعمـدة المرمرية التي كان قد ربـط اليها ربنا يسوع المسيح في قصر الحاكم،وعذب بأقسى أنواع السيـاط،وبالقرب منها يوجد المكان حيـث جرد ربنا من ثيابه من قبـل الجنود ،ثم يأتي المكـان حيث ألبسـه الجند رداء أرجـوانيـا،وتوجـوه بتـاج من شـوك،واقتسمـوا ملابسـه حسـب القرعـة ،وبعد ذلـك إقتيد الى جبـل الجمجمة حيـث أراد الأب الأكبر إبراهيم قبلها أن يضحـي بابنه على مذبح صنعه بنـاء على أمر الله. وفي المكان ذاتـه تم بعـد ذلك تقـديم ابـن الاله، الـذي جسده بنفسـه، ضحية لـلاله الأب مـن أجل افتداء العـالم،لكن صخـرة الجبل ذاتـه هي شـاهـد الآلام الـربـانيـة. والى جانـب الحفـرة التـي ثبـت فيهـا صليـب الرب،كثيراً من الشظايـا، لأنه بدون شظايا لايمكن تحمـل موت الخالق، مثلما نقرأ في سيرة الآلام:«كذلك الصخور تفتتت»

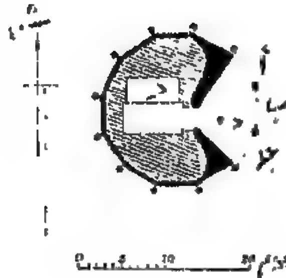
وفي الأسفـل يوجـد المكـان المدعو الجلجلـة حيـث يقال إن آدم، مـن جريـان الدم الالهي المتساقط عليـه،قد نهض من بين الموتـى مثلما نقرأ في سيرة الآلام:«وكـذلـك ستبعـث كثيراً مـن أجســاد القـديسين الــذيـن يرقدون»،هذا ونقرأ في روايات القديس أوغسطين أن قبره في الخليل حيث يـوجد إثـر ذلـك أيضاً ثـلاثةدفنـوا مـع زوجاتهم : ابـراهيـم مع سـارة ، واسحق مـع رفقه ، ويعقوب مـع ليا ، وعظام يـوسف مع أبنـاء اسرائيل جلبـت معهـم من مصر. وإلى جـانـب مكـان الصلـب كنيسة مـريـم المقدسة ، في المكان الذي أخذ فيه جسد ربنا من الصليب ، فدهن قبل

دفنه بالـدهون ذوات الروائح الطيبة ، ولف بقطـع من قماش الكتان ، أو برباطات طويلة .

وعند رأس كنيسـة الضريح المقـدس بقعة تدعـى «البوصلـة» ، فهي قد عينها ربنا يسوع المسيح نفسـه بيده على أنها وسط العالم (٣١) ، وهذا ما أكـدته المزامير بقـوله : « والله ملكي منـذ القدم فـاعل الخلاص في وسط الأرض » ويقـول بعضهم إنه في هذا المكـان حسبما قالوا ظهـر ربنا يسوع المسيـح للمرة الأولى لمريـم المجدلية ، عنـدما كـانت تبحـث عنه وهي باكية ، واعتقد أنه البستان حسبما روى أصحاب الأناجيل (٣٢) .

بيعة الضريح المقدس حسبما رؤيت من قبل سيولف ودانيال

الرسم التوضيحي رقم ١



١-أ.ب.جـ:الأبواب الثلاثة

-د:الحجر الذي جلس عليه الملاك.

-هـ:المقعد الذي مدد عليه جسد المسيح.

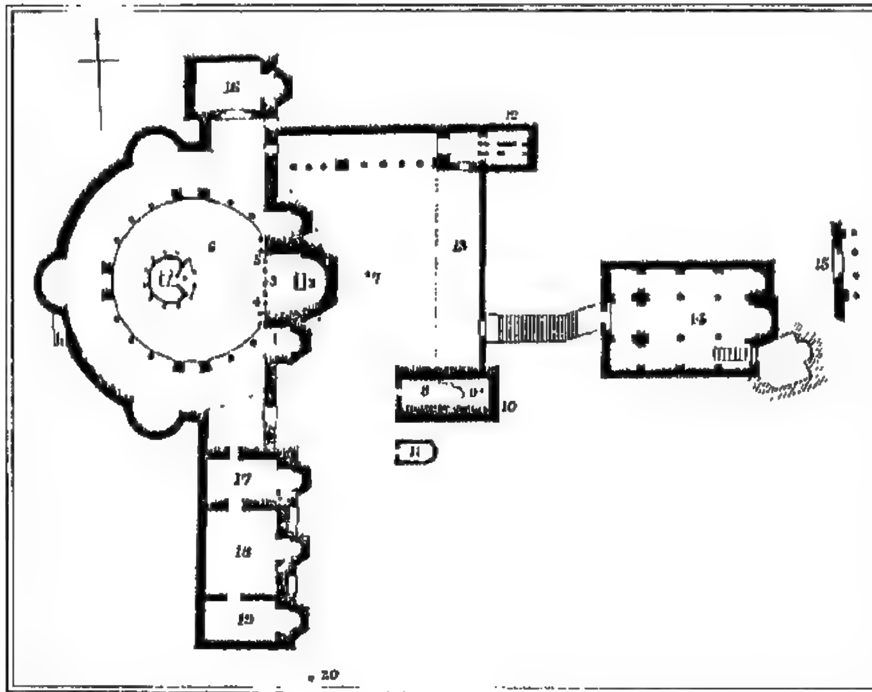
وأعظم هـذه البيع قـداسة مـوجودة في ردهـة ضريح ربنـا في الجانب الشرقـي ، وعلى جـانبـي الكنيسـة نفسهـا هنـاك البيعتـان المشهـورتـان المغلقتـان ، كـل واحـدة على جـانــب أي المقـامتـان على شرف مـريـم المقدسـة، والقديـس يوحنـا لأنهما نفسيهما شاركـا في الآم ربنا، ووقفـا الى جانبـه ، أحدهما على يمينـه والآخر على يسـاره ، ومن الممكـن أن نرى على جدار البيعة نفسهـا المكرسة لمريم المقدسة صـورة لأم الرب نفسها ،

رسمت على الجانب الخارجي ، مع مواساة رائعة لمريم المصرية ، منذ زمن طويل ،وقد امتلأ قلبها بالندامة ، وهي ترجو بإخلاص مساعدة أم الرب ، وهي تتحدث إليها في الصورة المرسومة بوساطة روح القدس ، حسبما نقرأ في سيرة حياتها (٣٣) ، وعلى الجانب الآخرمن بيعة القديس يوحنا ، يقوم الدير الجميل جداً المعروف باسم دير الثالوث المقدس ، حيث يوجد مكان للتعميد ، ارتبطت به بيعة القديس جيمس الرسول ، الذي نال أول كرسي أسقفي في القدس ، وجميع هذه الأماكن منظمة ومرتبة بشكل يمكن به لأي إنسان يقف في نهاية الكنيسة أن يرى بوضوح الكنائس الخمسة من باب الى باب (٣٤).

وفي خارج باب كنيسة الضريح المقدس ، نحو الجنوب ، تقوم كنيسة مريم المقدسة ، التي تدعى باسم الكنيسة اللاتينية ، لأن القداسات يتم تقديمها للرب فيها باللاتينية ، ويقول السريان إن أم الرب المقدسة نفسها،وقفت وقت صلب ابنها،على البقعة نفسها حيث يقوم مذبح الكنيسة،ومرتبط بهذه الكنيسة كنيسة أخرى مكرسة لمريم المقدسة،وهي تدعى بارفاParva ،وعليها يتردد بعض الراهبات حيث يتولين خدمتها وخدمة ابنها بتقوى عظيمة،وبقربها المشفى حيث الدير المشهور المقام على شرف القديس يوحنا المعمدان.(٣٥)

وتنزل في (الشارع)من ضريح ربنا، بقدر رميتى سهم، الى هيكل الرب،الواقع على الجانب الشرقي من الضريح المقدس ،وصحنه طويل جداً وعريض،وله أبواب كثيرة،لكن الباب الرئيسي الذي يواجه الهيكل،ويدعى الباب الجميل بسبب سمات العمل الحرفي فيه ولتعدده بالألوان،فهناك أبرأ بطرس المقعد،عندما ذهب ويوحنا الى الهيكل في الساعة التاسعة،وهي ساعة الصلاة حسبما نقرأ في أعمال الرسل(٣٦)،ويدعى المكان الذي بنى فيه سليمان قديما هيكل الرب بيت إيلBethelوالى هناك ذهب يعقوب في رحلته -ربما بناء على أوامر

الـرب ـ واستراح هنـاك ، ورأى في المكان نفســه السلم الـذي يلامـس رأسه السمـوات ، ورأى الملائكة ينـزلون عليـه ويصعدون ، وقـال كما نقرأ في سفر التكوين : « حقاً إن الـرب في هذا المكان وأنا لم أعلم » ، وهناك أقام الحجـر دليلاً ، وبنى مذبحاً ، وصب الـزيت عليه (٣٧) ، وفي هـذا المكـان نفسـه ، بنـي فيها بعدسليهان بـوحـي ربـاني الهيكـل ، وكرسه للرب ، وكـان بناءً رائعاً ولا يوجد مثيل لـه ، وقد زينه بشكل بهي بجميع أنواع التزيينات وذلك حسبما نقرأ في سفـر الملوك ، وبدا بإرتفاعه وهو يساوي جميـع التلال من حوله ، وتفـوق على جميع الجدران أو الأبنية في لمعانه وعظمتـه ، ويرى في وسط ذلك الهيكل صخرة عـالية وواسعة ، ومجوفة مـن أسفلها ، وعليها كـان قدس الأقداس ، وهنـاك وضع سليهان تـابوت العهـد الـذي كـان فيه المن وعصـا هـارون التـي زرعت هنـاك وأخضرت وأزهرت وأعطت بعض اللوز.



الرسم التوضيحي رقم ٢

كنيسة القيامة

١-القبر

٢-المذبح العالي في الجهة الشرقية

٣-مكان وقوف الكهنة اللاتين
أثناء نزول النور المقدس

٤-موقع الملك بلدوين

٥-مكان رحالتنا

٦-مكان الكهنة الأرثوذكس

٧-وسط الأرض

٨-مزار أكرا (الجمجمة)

٩-الجلجلة-مكان الصلب

١٠-مذبح ابراهيم

١١-مكان النزول

١٢-سجن المسيح

١٣-المكان الذي وضعت فيه الملابس،
وأدوات السخرية،والطعن،والتاج،الخ

١٤-كنيسة صغيرة تتعلق باكتشاف الصليب

١٥-الباب الذي دخلت منه مريم المصرية

١٦-مزار القديسة مريم

١٧-مزار القديس يوحنا

١٨-مزار الثالوث المقدس

١٩-مزار القديس جيمس

٢٠-المكان الذي وقفت عليه العذراء أثناء الصلب.

وأيضاً لوحي الوصايا ، وهنا اعتاد مولانا يسوع المسيح ، أن يستريح بعدما يكون قد أنهكه النقاش مع اليهود ، وهنا مكان الاعتراف ، حيث اعترف حواريوه به (أنه المسيح) (٣٩) وهنا ظهر الملاك جبريل للكاهن زكريا قائلاً له : « سيلد لك ولد في عمرك المتقدم» (٤٠)، وابن زكريا بن براخيا هذا نفسه قد ذبح فيما بين الهيكل والمذبح ، وهناك ختن الطفل يسوع في يومه الثامن ، وسمي يسوع الذي معناه المخلص ، وهنا جرى تكريس الرب يسوع من قبل والديه مع العذراء مريم ، أمه ، في يوم الطهارة ، ووضعه بين ذراعيه الرجل الشيخ سمعان (٤١) ، وهناك أيضاً، وجد يسوع عندما كان في الثانية عشرة من عمره جالساً وسط المعلمين يسمع منهم ويسألهم أسئلة ، وذلك حسبما نقرأ في الإنجيل (٤٢) ، ومن هناك رمى فيما بعد ، وأخرج من الهيكل الثيران والأغنام والحمام قائلاً : « مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى» (٤٣) وقال هناك لليهود : « انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه»(٤٤) ، وما يزال مرئياً في الصخرة آثار قدم ربنا ، عندما أخفى نفسه ، ومضى إلى خارج الهيكل ، حسبما نقرأ في الانجيل ، حتى لا يرمي اليهود الحجارة نحوه ، الحجارة التي حملوها (ليرموه بها) (٤٥) ، وهناك أحضرت المرأة ، التي أمسكها اليهود وهي تزني ، الى أمام يسوع ، حتى يجدوا شيئاً يحتجون به ليتهموه ويشتكون عليه (٤٦) ، وهناك باب المدينة في الجهة الشرقية من الهيكل الذي يدعى الباب الذهبي ، ففي هذا المكان التقى يواكيم ، والد مريم المقدسة ، بأمر من الملاك ، بزوجته حنة، (٤٧)ومن خلال الباب نفسه ، دخل الرب يسوع الى المدينة ، أثناء قدومه من بيت عنيا يوم أحد سعف النخيل ، وحين دخل كان راكباً ظهر أتان ، والأطفال يغنون «أوصنا لابن داود»(٤٨) ومن خلال الباب نفسه عاد الامبراطور هرقل منتصراً من بلاد فارس ومعه صليب الرب، لكن في البداية تساقطت الأحجار ضد بعضها وأغلقت الباب ، وصار الباب منطقة لتجمع أكوام من الفضلات ، حتى

تواضع الامبراطور نفسه ، بعد ما تلقى لوماً من الملاك، وترجل من على ظهر حصانه ،ونظف المدخل لأجله ، وفي صحن هيكل الرب ، في الجنوب ، هناك هيكل سليمان ، بحجم رائع وفي جهته الشرقية هناك مكان مهبط الوحي ، ويحتوي على غرفة ليسوع المسيح وحمامه ، وفراش أمه المباركة ، وذلك حسب روايات السريان .

وتذهب من هيكل الرب نحو الشمال، إلى كنيسة القديسة حنة، أم مريم المباركة، فهناك عاشت مع زوجها، وهناك ولدت ابنتها مريم التي هي أم أعظم الناس محبة، مخلص جميع المؤمنين، وعلى مقربة من هناك بركة الإبراء، التي اسمها بالعبرانية بيت حسدا، وكان لها خمسة أروقة، فعنها نقرأ في الإنجيل، فأعلى منها بقليل كان المكان الذي شفيت فيه المرأة من قبل مولانا بلمسها طرف ثوبه، عندما كان مطوقاً بحشد كبير من الناس، وكانت المرأة تعاني من صدور الدم منها منذ اثنتي عشرة سنة، ولم تحصل على الشفاء بوساطة الأطباء(٤٩).

وتذهب من كنيسة القديسة حنة خلال الباب الذي يؤدي إلى وادي يهوشافاط (جهنم) فإلى كنيسة مريم المباركة في الوادي نفسه، إلى حيث حملت بعد موتها بتشريف عظيم من قبل الرسل حتى تدفن، وضريحها والحق يقال جدير بالتبجيل والتشريف العظيم من قبل المؤمنين.

ويتولى الرهبان هناك خدمة مولانا يسوع المسيح وأمه ليلاً ونهاراً، وهناك بركة قدرون، وكان أيضاً جيسماني، إلى حيث ذهب مولانا مع حوارييه قبل الساعة التي تعرض فيها للخيانة، ذهب من جبل صهيون عبر بركة قدرون، وهناك موقع نوع من أنواع الوحي في البقعة التي ترك فيها بطرس وجيمس ويوحنا حيث قال: « امكثوا ها هنا واسهروا معي»، وتابع تقدمه نحو الأمام، وسجد وصلى، وجاء إلى حوارييه فوجدهم نائمين(٥٠)، وهناك مايزال من الممكن رؤية الأماكن التي نام فيها الحواريون، وكل مكان منفرد بنفسه، فجيسماني عند سفح جبل الزيتون ،

وبركـة قدرون دونها بين جبل صهيـون وجبل الـزيتون ، وكأنـه يفرق بين الجبلين، لكن البقعـة المستوية بين الجبلين تـدعى وادي يهوشـافاط، وإلى الأعلى قليلاً فوق جبل الزيتون هناك مكـان وحي، في موقع صلى فيه ربنا، وذلك حسبما نقرأ في الآلام : « وانفصـل عنهم نحو رمية حجـر. وإذ كان في جهـاد كان يصلي بـأشد لجاجـة، وصار عـرقه كقطـرات دم نازلـة على الأرض»(٥١) ثم يمكنـك أن (ترى) أكلدامـاك، وهو الحقـل الذي شري بثمن الرب، وهـو أيضاً قائم عند سفـح جبل الزيتون، مـلاصق للوادي، على بعد ثلاث أو أربـع رميات قوس من جيسماني بـاتجاه الجنوب، وهناك عدد لايحصى من الأوابد الجديرة بالزيارة.

وهـذا الحقـل قـائم على مقربـة مـن قبري الأبين المقـدسين: سمعـان العدل، ويوسف جدّ ربنا، وجرى بناء هـذين القبرين منذ زمن قديم على شكل بـرجين منقورين بـالصخر من جـذر الجبل نفسه، وتمضي بعـد هذا مروراً بـأكلدامـاك إلى النبع الـذي يعرف باسـم بركـة سلوان، حيـث قام رجل أعمى بناء على أمر من ربنا، فغسـل عينيه، وكان ربنا قد صنع طينا بوساطة بصاقه ثم دهن له عينيه(٥٢).

وتـذهب مـن كنيسة مـريم المقـدسة المذكـورة أعلاه بـوساطـة طريـق منحدر إلى أعلى نقطـة تقريبـاً من جبل الـزيتون، نحـو الشرق، إلى المكان الذي صعد فيه ربنا إلى السماء على مشهد من حوارييه.

والبقعـة محاطـة ببرج صغير، وبعنايـة كبيرة مقـام هنـاك مذبـح فـوق البقعـة، وهي أيضـاً محاطة بسـور من جميـع الجوانب، ويـوجد في المكـان الذي وقـف فيه الـرسل مـع مريم المبـاركة— أمـه— وهـم يعجبـون من عروجه، مـذبح كنيسة القديسة مـريم، ووقف إلى جانبهـم رجلان بلباس أبيض فقالا:« أيها الـرجال الجليليون ما بـالكم واقفين تنظرون إلى السماء» (٥٣) الخ، وقرب ذلك على رميـة حجر كتب ربنا الدعاء الـرباني باصبعه شخصياً على الرخـام بالعبرية، فهذا مـاذكره السريان، وبني هنـاك كنيسة

جميلة جـداً، غير أنها دمرت فيها بعـد كلياً مـن قبـل الكفـار، لأن جميع الكنائس كانت خارج الأسوار.

وكنيسـة روح القـدس موجودة على جبـل صهيـون خـارج السـور إلى الجنوب بقدر رميـة سهم، فهناك تلقى الرسـل وعد الأب، أي روح قدس الفـارقليـط، في يـوم عيـد الحصـاد، وهنـاك صنفـوا الشريعـة، وفي تلـك الكنيسة مقـام فيه توفت مريم المباركـة، وفي الجانب الآخر مـن الكنيسة هنـاك مشهد قـائم على البقعة التـي ظهر فيهـا ربنا يسـوع المسيح، بعـد قيامته، إلى الرسل، وتدعى الجليلية، وقـال هو نفسه للرسل:« بعد أن أقوم ثـانية، سأذهـب قبلكـم إلى الجليليـة»، وحمل هذا المكـان اسـم الجليلي، بسبـب أن الرسـل الـذيـن عرفـوا بـاسم الجليليين، غـالبـاً مـا ارتاحـوا هناك(٥٤).

والجليــل مدينـة كبيرة قـرب جبل الطـور، على مسيرة ثـلاثـة أيام مـن القدس، ويقـوم على الجانب الآخـر من جبـل الطور المدينـة التي تـدعى طبرية، وتـأتي بعد هذا إلى كفـر ناحوم والنـاصرة قرب بحر الجليـل وبحر طبريـة، إلى حيث عـاد بطـرس والـرسل الآخـرون، بعـد قيـامة ربنـا، إلى صيدهم، وحيـث أظهر ربنا نفسه لهم على بحر طبريـة(٥٥)، وإلى جانب مـدينة طبريـة السهـل الذي بـارك فيـه الرب يسـوع الخمسـة أرغفة مـع السمكتين، وأطعم بهم بعد ذلك أربعـة آلاف رجل، وذلك حسبما نقرأ في الانجيل(٥٦)، لكن دعوني أعود إلى مابدأت به.

وفي جليليـة جبل صهيـون حيـث اختبأ الـرسل واجتمعـوا خـوفاً مـن اليهود، وكـانت الأبواب مغلقة، وقـف يسوع بينهم في وسطهـم وقال: « سلام لكـم» .(٥٧) وأظهر لهم نفسـه مرة ثانيـة هناك عندمـا وضع تـوما اصبعه في جنبه وفي مكـان المسامير(٥٨)، وهناك تعشى مع حـوارييه قبل آلامه، وغسـل أقدامهم، ومـاتزال هنـاك المائدة التي أكل عليهـا العشاء، وهناك أيضاً آثـار القديس ستيفن، ونيكوديميوس، وجماليـل، وعبيدو، وقد

وضعوا هناك بتشريف من قبل البطريرك القـديس يوحنا بعدما تم العثور عليهم (٥٩)، وأحجـار القديـس ستيفن موجـودة خارج السـور على بعد رميتـي سهـم أو ثـلاث رميـات، وهناك كنيسـة جميلـة بنيت على الجانـب الشمالي، وقد هدمت هذه الكنيسة تمامـاً من قبل الكفار(٦٠)، ومثل هذا كنيسة الصليب المقدس، التي تبعد حـوالي الميل من القدس على الجانب الغربي، في مكـان قطع منه الصليب المقـدس، وهي مبجلة جـداً، وجميلة جداً، لكنهـا تعرضـت للافسـاد من قبـل الكفار، علما أنـه لم يهدم سوى القليل منهـا، باستثناء الأبنية والخلـوات من حولها، وتحت سـور المدينة في الخارج، على منحدرات جبل صهيون، توجد كنيسـة القديس بطرس التي تدعى جاليكانتوس Gallicantus (أو عرف الديك)، حيث أخفى نفسه في كهـف عميق جـداً، مايـزال من الممكـن رؤيته، وذلـك بعد مـا أنكر ربنا، وبكى هناك لما اقترفه من جريمة بكاءً مريراً جداً.

وعلى الجانب الغربي لكنيسة الصليب المقـدس، وعلى مسافة ما يقارب الثـلاثـة أميـال، هنـاك دير جميـل جـداً وواسـع كثيراً مكـرس على شرف القـديـس سـابـا، الذي كـان واحـداً مـن الاثنين وسبعين حـواريـا، أي حواريـي ربنا يسوع المسيح، ويعيـش الآن هناك أكثر من ثـلاثمائة راهب ارثـوذكسي على شكـل جماعة، ويعبـدون ربنـا والقـديس، وجـرى تمزيـق القسم الأعظم من الرهبان مـن قبل المسلمين، لكن بعضهم مازال يعيش داخـل أسـوار المدينـة، قـرب بـرج داود في ديـر آخـر مكـرس للقـديـس نفسه(٦١)، وتعرض الدير الآخر للهدم كلياً.

وتبعد مدينة بيت لحم، في اليهودية، مسافة ستة أميال عن القدس، في الجهة الجنوبيـة، ولم يبق هناك شيئاً قـابلاً للسكنى بوسـاطة المسلمين، بل كـل شيء قد عيـث به، مثلما حـدث للأمـاكـن المقدسـة الأخرى خـارج أسوار مدينة القـدس، باستثناء دير العذراء مريم المقـدسة، أم الرب، وهو ديـر عظيم ومشهـور، وفي تلك الكنيسـة نفسها هنـاك مغارة تحت مكـان

جوقة المرتلين، وفي وسطه يمكن أن ترى البقعة التي ولد فيها ربنا، وهي قائمة بعض الشيء إلى اليسار، وأسفل قليلاً هناك على اليمين، قرب مكان ولادة ربنا المعلف الذي وقف أمامه الثور والأتان، وذلك عندما وضع ربنا الرضيع أمامهما في المزود، والحجرة التي استراح عليها رأس مخلصنا في الضريح جلبت إلى هنا من القدس من قبل القديس الراهب جيرومي، وغالباً ما يمكن رؤيتها في المزود، والقديس جيرومي نفسه مدفون تحت المذبح في الشمال من الكنيسة نفسها، والأبرياء الذين قتلهم هيرود وهم رضع عوضاً عن المسيح الرضيع، مدفنهم في الجانب الجنوبي من الكنيسة تحت مذبح، ومدفون أيضاً هناك سيدتان مقدستان جداً هما: باولا وابنتها العذراء يوستوخيوم Eustochiom ، وهناك مائدة رخامية أكلت عليها العذراء مريم المباركة مع الحكماء (المجوس) الثلاثة عندما قدموا لها هداياهم، وهناك بئر في الكنيسة، ملاصق إلى مغارة ولادة ربنا، وقد قيل سقطَ فيه نجم(٦٢)، وقيل أيضاً هناك حمّام العذراء مريم المباركة.

وبيت عنيا هو المكان الذي أقيم فيه لازاروس من قبل ربنا بعدما كان ميتاً، وهذا المكان واقع على مسافة تقارب الميلين من المدينة نحو الشرق، على الجانب الآخر من جبل الزيتون، وهناك تقوم كنيسة القديس لازاروس، التي من الممكن أن نرى فيها ضريح عدد كبير من أساقفة القدس، وتحت المذبح المكان الذي غسلت فيه مريم المجدليه قدمي ربنا يسوع بدموعها، ومسحتهما بشعرها، وقبلت قدميه، ودهنتهما بالدهون.

وبيت فاجي هو المكان الذي أرسل منه ربنا حوارييه أمامه إلى المدينة، وهو قائم على جبل الزيتون، لكن نادرا ما يمكن رؤيته بشكل مطلق.

وأريحا هي المكان الذي خرج منه إبراهيم(٦٣)، وهي على مسافة حوالي العشرة مراحل من القدس، والمنطقة خصبة جداً بالأشجار،

وبجميع أنواع النخيل وكل أنواع الفواكه، وهناك بئر النبي الياس He-lisseus الـذي كان مـالـح الماء كثيراً، ولذلـك كـان غير قابـل للشرب، والمنطقة حولـه جرداء وبلا مزروعـات، لكنه تحول إلى الحلاوة (٦٤)، بعد ما باركه ووضع ملحاً فيه.

وتمضي من هناك صعوداً إلى جبل مرتفع حيث صام ربنا لمدة أربعين يوماً، وهناك على بعد ثلاثة أميال حيث حاول الشيطان فيها بعد إغواءه.

ويقع نهر الأردن على مسافة تقارب الأربع مراحل إلى الشرق من أريحا، ومن ذلك الجزء من الأردن وصولاً حتى البحر الأدرياتيكي (المتوسط)، أيْ إلى الميناء الذي يدعى يافا، تقع المنطقة التي تدعى يهودا، ويقوم على الجانب الآخر من الأردن العربية Arabia ، وهي منطقة معادية جداً للمسيحيين (الفرنجة)، وليست صديقة لكل من يعبد الرب، ويقع هناك الجبل الذي ذهب منه إيليا Helias إلى السماء في عربة من نار. ومن الأردن مسيرة ثمانية عشر يوماً إلى جبل سيناء، حيث تجلى الرب لموسى في نار العليقة المشتعلة، ثم صعده بعد ذلك، بناء على أوامر الرب، وصام أربعين يوماً والعدد نفسه من الليالي، وتسلم من الرب اللوحين من الحجارة، وقد كتبا باصبع الرب ليعلم بني ا سرائيل الشريعة والوصايا الموجودة في هذين اللوحين.

والخليل هي المدينة التي دفن فيها البطارقة المقدسين: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، وكل واحد منهم معه زوجته، وآدم الانسان المخلوق الأول، دفن هناك، وقبره قائم على مسافة أربع مراحل من بيت لحم نحو الجنوب، وهناك حكم الملك داود لمدة سبع سنوات قبل أن يستحوذ على مدينة القدس من أسرة الملك شاؤول، وكانت مدينة الخليل عظيمة جداً وجميلة للغاية، لكنها الآن مهدمة بوساطة المسلمين، وفي الجزء الشرقي منها آبدة البطارقة المقدسين، أقيمت في العصور القديمة ومحاطة بحاجز قوي، وكل واحد من القبور واسع بقدر كنيسة كبيرة، وفي داخله ناوسين،

واحد للـرجل والآخر لـزوجته، وهـم ممـددون بشكل مجيد وبـوضع مشرف، وإلى الـوقت الحاضر تملأ روائح البلسـم والعطور الثمينـة التي دهنـت بها الأجساد المقدسـة، خياشيم الذيـن يذهبون إلى هناك بشكـل طيب جداً، ودفنت عظام يـوسف — التي حملها بنـو اسرائيل، تنفيذا لما أوصاهـم به، فجلبـوهـا معهـم مـن مصر — بالأسفـل أدنـى مـن البقيـة في الطـر ف الأقصى من القلعة، ومـاتزال البلوطات اللواتي وقف إبـراهيم في ظلهن، ورأى الشباب الثـلاثة قادمين عبر الطريـق، حية، ويحملن أوراقـاً، وذلك اعتماداً على مـاقـاله السكـان المحليين، وذلـك ليـس بعيداً عـن القلعـة المذكورة أعلاه (٦٥).

والناصرة هـي مدينـة الجليل، وفيها تلقـت العذراء مريـم المباركـة من الملاك تحيات ميـلاد ربنا، وهي على مسافـة حوالي الأربعة أيام سفـراً من القدس، ويمـر الطريق إليهـا خلال شكيم، مدينـة السامرة، التـي تعرف الآن باسم نابلس، وفيها تسلم القـديس يوحنا المعمدان من هيرود الحكم بقطع رأسه، وهناك أيضـاً بئر يعقوب، الذي وصل إليه يسـوع وهو متعب من رحلتـه، فجلس إلى جانـب البئر المذكور، وطلـب إعطائه الماء ليشرب من امرأة سـامرية جاءت إلى هناك لنضح الماء، فلـم تعطه حسبما نقرأ في الإنجيـل(٦٦)، ومـن شكيـم يمكـن للانسـان أن يسـافـر إلى قيسـاريـة فلسطين، ومن قيسارية إلى حيفا Cayphas ومن حيفا إلى عكارون، وتقـع النـاصرة على بعـد حوالي الثمانيـة أميـال إلى الشرق مـن عكـارون (٦٧)، وكانـت مدينـة الناصرة شبـه مدمـرة وقد أصبـح عاليهـا سافلهـا بوساطة المسلمين، ومع ذلك فإن الـدير المشهور فيها يشير إلى مكان بشارة ربنا، ومايزال النبـع القائم قرب المدينة تتفجر منه الميـاه نقية، ومابرح — كما كان من قبل — محاطاً بأعمدة رخـامية وببلاط، ومن هذا النبع نضح الطفل يسوع مع أطفال آخرين الماء مراراً لاستخدام أمه.

وجبل الطور، هو الجبل الذي صعـده ربنا، وتجلى أمام بطرس، ويوحنا،

وجيمس، وهو واقع على مسافة تقارب الأربعة أميال من الناصرة باتجاه الشرق، وهو جبل كثير الأعشاب والأشجار، وهو قائم منتصب في وسط سهل الجليل الأخضر والعظيم الاستواء، وهو أعلى من جميع الجبال من حوله لمسافة بعيدة، وماتزال الديرة الثلاثة التي بنيت قديما على قمته قائمة، وأحد هذه الديرة مكرس على شرف ربنا يسوع المسيح، والثاني على شرف موسى، والثالث، وهو أبعد قليلاً، على شرف إيليا، ووفقاً لما قاله بطرس: « يارب جيد أن نكون هنا، فإن شئت نصنع هنا ثلاث مظال: لك واحدة، ولموسى واحدة، ولإيليا واحدة »(٦٨).

ويقع بحر الجليل أو بحر طبرية على مسافة تقارب الستة أميال إلى الشمال الشرقي، ومساحة هذا البحر عشرة أميال طولاً، وخمسة أميال بالعرض، ومدينة طبرية قائمة على الشاطيء في أحد الأطراف، وهناك في الطرف الآخر جرزيم وبيت صيدا، وهي مدينة أندرو وبطرس، ويمتد من طبرية سهل جنسار حوالي الأربعة أميال نحو الشمال، وهناك أظهر ربنا نفسه إلى حوارييه، عندما كانوا يصطادون، وذلك حسبما جاء في الانجيل (٦٩)، ومن جنسار وعلى مسافة تقارب الميلين إلى الشرق يقوم الجبل الذي أطعم عليه الرب خمسة آلاف رجل من خمسة أرغفة وسمكتين، ويدعى ذلك الجبل من قبل السكان المحليين باسم مائدة الرب، وعند سفح هذا الجبل كنيسة القديس بطرس، وهي كنيسة جميلة جداً، مع أنها مهجورة، ومن الناصرة إلى قانا الجليل (كفر كنّا) — حيث حول ربنا الماء إلى خمرة أثناء حفل زواج — مسافة تقارب الستة أميال إلى الشمال، وهي قائمة على رابية، ولم يبق هناك شيئاً فيما عدا الدير الذي يدعى أرشيتركليني(٧١) Architriclini.

وفيما بين الناصرة وقانا الجليل، في منتصف الطريق قريه تدعى رومة، حيث يجري الترحيب بجميع الحجاج القادمين من عكا إلى طبرية، وتكون الناصرة على اليمين وطبرية على اليسار،ومن طبرية سفر يوم نحو

الشمال حيث جبل لبنان(٧٢)، فمن سفوحه تنبع مياه نهر الأردن من نبعين يدعى أحدهما « أر» والثاني «دن» وتلتقي مياه هذين النبعين، فتكونان نهراً سريع الجريان اسمه « الأردن»، وهذا الجبل قائم بجوار قيصريه مدينة فيليب (بانياس) التيرا آرخ Tetrareh (حاكم ولاية صغيرة)، وإلى أحوازها جاء يسوع وسأل حوارييه قائلاً: «من يقول الناس إني أنا ابن الانسان»؟(٧٣). وذلك حسب رواية الإنجيل، وجريان نهر الأردن من منبعه سريع جداً، ويصب في بحر الجليل في إحدى النهايات، ويفتح بقوة اندفاعه لنفسه ممرا عند النهاية الأخرى، ويستمر بالجريان مسافة ثمانية أيام ثم يصب في البحر الميت، ومياه الأردن بيضاء، وتشبه الحليب أكثر من شبهها جميع أنواع المياه، ومن الممكن رؤية ذلك وتتبعه طوال الطريق حتى البحر الميت.

وبعدما دخلنا إلى كل واحد من الأماكن المقدسة في مدينة القدس وأحوازها بقدر ما كان بوسعنا وقدمنا تعبدنا وتبجيلنا، صعدنا ظهر سفينة في يافا، في يوم عيد الحصاد، من أجل العودة إلى الوطن، لكن لخوفنا من المسلمين، لم نتجرأ على الابحار داخل عرض البحر الأدرياتيكي (المتوسط) كما فعلنا عندما قدمنا، ذلك أننا كنا خائفين من اسطولهم، ولذلك مررنا عبر مدن الساحل التي احتل الفرنجة بعضها، وأسماء هذه المدن هي: أقربها إلى يافا أتسوف Atsuph أو أزتوس Azotus في اللاتينية (٧٤)، ثم قدمنا إلى قيسارية فلسطين، وبعدها إلى مدينة كيفاس (٧٥)، ويمتلك هاتين المدينتين بلدوين الذي هو زهرة الملك، ويلي هاتين المدينتين مدينة أكراس، وهي مدينة حصينة جدا، واسمها أيضاً أكارون (٧٦)، ويأتي بعد هذا صور وسيغيت وهما صور وصيدون(٧٧)، وعقب هذا مدينة جيوبلت (٧٨)، ثم بيروت (٧٩)، وكذلك طرطوسا (٨٠)، التي يمتلكها الدوق ريموند، وبعد ذلك جبيل(٨١)، ثم طرابلس وبعدها ليك (٨٢)، وقد مررنا بهذه المدن وجزناها (٨٣).

وفي يوم الأربعاء التـالي لعيد الحصاد عندما كنا مبحـرين فيما بين حيفا وعكا فوجئنا بظهور ست وعشرين سفينة مسلمـة أمام نظرنا، وكانت هذه السفن تابعة لأمير مـدينتي صور وصيدا، وهي متوجهـة نحو مصر، وتحمل جيشاً لمساعدة الفاطميين Chaldeans في حربهم ضد ملك القدس (٨٤).، وتخلى عنـا اثنتان مـن السفن التـي جـاءت معنا مـن يافـا، وهما محملتان بالحجاج وتركتا سفينتنا لوحـدها، لأنهما كانتا أخف من سفينتنا، وبوساطة جهود المجدفين وصلتا إلى قيسـارية، وأبحرت السفن الاسلامية نحونا وطـوقت سفينتنا، وتوقفت على بعـد رمية سهم منا، وفرحـوا بوقوع مثل هـذه الغنيمة في أيـديهم، وعلى كل حـال كان رجـالنا على استعـداد للموت في سبيـل المسيح، وحملـوا أسلحتهم، وحصنـوا سفينتهم بقـدر ما سمح لهم الوقت، وأوقفوا الرجـال المسلحين للدفاع عنها، فقد كان تحت إمرة قيادتنا حـوالي المائتين من الرجال القادرين على الـدفاع عنها، وبعد انتظار حوالي الساعة، وبعدما عقد مُقدّم الأعداء مجلساً حربياً، أمر واحداً من ملاحيه أن يصعـد إلى أعلى صواري السفينة، فمن هناك كان بـإمكانه التأكد مما كان يجري في سفينتنا، وما الذي كنـا نقوم به، وعندما تفهم من الملاح قـوة دفاعـاتنا، حـرك أشرعته وانطلـق نحو البحـر المفتوح، وهكـذا انقذنا الـرب، بفضل نعمته في ذلك اليـوم من أعدائنا، وتمكـن شعبنا من أهـل يافـا مـن الاستيلاء فيما بعـد على ثلاث مـن هـذه السفن نفسهـا، وأغنوا أنفسهم بأسلابها.

وأبحرنـا على مقربـة من ساحـل سوريـة وفلسطين بقدر مـا استطعنا، ووصلنا بعـد ثمانية أيـام إلى ميناء القـديس أنـدريا Andrea في جزيرة قبرص، وأبحرنـا من هنـاك في اليوم التالي نحـو رومانيا (بيـزنطة)، ومـررنا بميناء القديس سمعـان ثم بميناء القديسة مريم، ووصلنـا بعد عدة أيام إلى ميناء أنطـاكية الصغرى (٨٥)، وغـالبا ما تعرضنـا أثناء تلك الـرحلة لهجمات القرصـان، لكن بفضـل الحماية الربـانية لم نفقـد شيئاً سـواء من

جراء هجمات الأعداء أو من تقلب أحوال المناخ، ثم وجهنا مسارنا على طول خط ساحل رومانيا، ومررنا بمدينتي: ستاميرا (٨٦) Stamirra ، وباتراس Patras (أوبترا، وهي مدينة) القديس نيقولا، ووصلنا إلى جزيرة رودس قبل عشية عيد القديس يوحنا المعمدان (٨٧)، مع شيء من المصاعب، لأن خليج مدينة ساتالوس (٨٨) Satalus كاد أن يبتلعنا، لولا أن رحمة الرب قامت بالدفاع عنا، واستأجرنا في رودس سفينة أصغر حتى نتمكن من السفر بسرعة أكبر، وعدنا ثانية إلى رومانيا، ثم وصلنا إلى مدينة ستروملو (٨٩) Stromlo وهي مدينة جميلة جداً، وكانت مدمرة كليا من قبل الترك، وجرت اعاقتنا هناك لأيام كثيرة بوساطة رياح معاكسة قوية.

ثم وصلنا إلى جزيرة ساموس، واشترينا من هناك ما احتجنا إليه من المؤن الضرورية، وهذا ما كنا قد فعلناه في جميع الجزر، ثم لامسنا جزيرة سكيو Scio، وتركنا هناك سفينتنا وكذلك رفاقنا، وبدأنا رحلتنا إلى القسطنطينية، من أجل أن نصلي هناك، وعبرنا في اليوم التالي مدينة سميرنا العظيمة، ووصلنا إلى جزيرة ميتيلينا Metelina ، ثم إلى تنيت (٩٠) Tenit، وكان هناك في منطقة رومانيا فيما مضى مدينة طروادة القديمة جداً، وكانت خرائبها ماتزال تشاهد — حسب روايات الاغريق — مغطية مساحة أميال كثيرة.

ثم حولنا مسارنا، فقدمنا إلى جزيرة البحر الذي يدعى ذراع القديس جورج (٩١)، الذي يفصل فيما بين بلاد رومانيا وبلاد مقدونيا، وأبحرنا في هذا البحر فوصلنا إلى سينت فيموس Phemus ، وهنا صارت بلاد الاغريق على يميننا ومقدونيا على يسارنا، وتقوم مدينة الأسقف القديس فيموس على أحد جانبي الذراع في مقدونيا، بينما تقوم مدينة أخرى تدعى سامثي (٩٢) Samthae على الطرف الآخر في بلاد الاغريق، وعلى هذا فإن ثلاث رميات قوس عقار بإمكانها أن تحمل الرمية من

المدينـة الأولى إلى المدينـة الثـانيـة، ويطلـق على هـاتين المدينتين اسـم مفتاحي القسطنطينية، ثم أبحرنا إلى مدينة كاليبولي(٩٣)، وبعدها اجتزنا القديس جـورج وبانيادوس (٩٤) Paniados ، فسهل مقدونيا الشهير، ووصلنا إلى مدينة روثوستوك (٩٥) Rothosto ، وكان ذلك بعد عيد القديس ميكـائيل، ثم تحركنا من هناك فيما بعـد ووصلنا إلى راكليا (٩٦) Raclea ، وهـي مدينـة جميلة، ويـذكـر الاغريـق أن هيلين خطفت مـن هناك من قبل باريس الاسكندر.

حواشي رحلة حج سيولف

١— باري.

٢— بارليتا.

٣— سيبونتوم ممثلة الآن بـ «مانفردونيا» التي على مقربة منها قرية اسمها زابونتا.

٤— تراني.

٥— أوترانتو.

٦— تقع مونوبولي على بعد حوالي العشرين ميلاً من باري، ولقد جرى تقدير رحلة اليوم الواحد بعشرين ميلا.

٧— انظر المدخل.

٨— برنديزي.

٩— كورفو.

١٠— ٢٤ تموز.

١١— سيفالونيا.

١٢— مات روبرت غويسكارد في جزيرة سيفالونيا سنة ١٠٨٥، وكان وقتها يعد العدة للهجوم على القسطنطينية.

١٣ — من المعتقد أن هذا الاسم تصحيف باليوبولس Palaeoplis ، أو هو اسم لمدينة قديمة ،وتقع خرائب اليس على بعد خمسة أميال داخل البر، وهناك على كل حال مكان يدعى باليو آخيا، في خليج بتراس، من الممكن أنه كان على الطريق المباشر.

١٤— غالبا ما دعيت الأماكن التي كان الوصول إليها يتم بحراً

باسم «جزر» من قبل بقية رحالة العصور الوسطى.

١٥— ٩— آب.

١٦— ليفادي أوستا تصحف إلى ليفادوسترو.

١٧— أعمال الرسل: ١٧/ ٣٤.

١٨— جزر بيتالي ليست بعيدة عن ماراثون.

١٩— قامت أندروس وتينوس، وسيرا وميكونوس وناكسوس كلها على الطريق إلى كريت.

٢٠— يبدو أنه أبحر على محاذاة جزر: أمورغو، وساموس، وسيكو، وميتايلين وهكذا إلى سميرنا، ثم رجع إلى باتموس وليرو، وكالمنو وكوس، (أوستانشيو) وليدو (التي لابد أنها غندوس قرب رأس كريو) وآسوم (لعلها جزيرة سيمي) وهكذا إلى رودس.

٢١— غلطة وقع فيها أكثر الناس معرفة.

١٢٢ ربما ماكرونيسوس أريد بها جزيرة كاكافا.

٢٣— المقصود هنا اسكندرونة السورية.

٢٤— كان القديس نيقولا من أبناء باتارا، وتسلم أسقفيه ميرا، وهناك توفي سنة ٣٤٢، وتم نقل رفاته إلى باري سنة ١٠٨٧، من قبل أحد التجار، الأمر الذي أحدث اثارة عظيمة في ايطاليا كلها، وكان قبره فارغاً عندما زاره سيولف.

٢٥— لعل جزيرة خيلدونيا هي نتوء بحري يحمل الاسم نفسه عند نهاية خليج فينيكا، وربما هي تسمية خطأ لـ «اكسندا كوبو».

٢٦— هناك مزج بين العملين: ١٣/ ٢— ٤ و١٥/ ٢٢، وعمرّ

القديس برنابا بشكل عام طويلاً، وإذا كان القديس بطرس قد جلس على كرسي أنطاكية لمدة سبع سنوات، تبعا للقديس غريغوري الكبير، وخمس وعشرين سنة في روما، لابد أنه مضى إلى أنطاكية خلال سنوات ثلاث من صعوده.

٢٧— من شبه المؤكد أن دورمندي هي دورمونس، التي ذكر جيبون أن الامبراطور الكسيوس كومينوس امتلك فيها اسطولا جيداً، وقال: « كانت هذه الشواني الخفيفة العائدة للامبراطورية البيزنطية تمتلك صفين من المجاذيف، وفي كل صف خمسة وعشرين مقعداً، ووضع لكل مقعد مجذافين وصفت المجاذيف على جانبي السفينة ». (تدهور وسقوط — الفصل ٥٣).

وربما كانت الكاتي شبيهة بسفن النقل النروجية التي كان لكل منها مؤخرة ضيقة، ووسط عميق وهي ما تزال تعرف باسم كات.

ولعل الغولافري نوع من أنواع الشواني، لكن ليس من الهين شرح الاسم.

٢٨— ينبغي أن نتذكر أن بلدوين لم يكن ملكاً للقدس أكثر من عامين، وأن عكا وعسقلان كانتا ما تزالان بأيدي المسلمين، وتراجع رواية الراهب دانيال المقبلة فهو قدم رواية مماثلة بعد أربع سنوات.

٢٩— اسمها الآن باب يافا.

٣٠— انظر الرسمين التوضيحيين رقم /١/ ورقم /٢/.

٣١— المزامير: ٧٤/ ١٢. انظر الرسم التوضيحي ٢/ ٧.

٣٢— يوحنا: ٢٠/ ١٥.

٣٣— حكت القديسة مريم المصرية بنفسها ماحدث فقالت: « تابعت المضي في طريقي الشرير حتى بلغت التاسعة والعشرين من

العمر، وشاهدت عدداً من الأشخاص متوجهين نحو البحر، فسألت إلى أين هم ذاهبون، وأخبرت أنهم كانوا على نية الاقلاع للسفر إلى الأرض المقدسة، للاحتفال بالقدس بعيد تمجيد الصليب الرائع، أي صليب مخلصنا (تأسس سنة ٣٢٥م).

فأقلعت معهم، متطلعة نحو فرصة جديدة للاستمرار في إغوائي، وكان الجميع في يوم العيد ذاهبين إلى الكنيسة، فاختلطت بالحشد لأذهب إلى الكنيسة، حيث عرض الصليب المقدس أمام المؤمنين لمشاهدته وتبجيله، لكن وجدت نفسي غير قادرة على دخول المكان ومعاقة من قبل قوة غير مرئية، وحدث هذا لي ثلاث مرات أو أربع، وتراجعت نحو زاوية الساحة وبدأت أقدر بنفسي ما سبب هذا وما هو مصدره، وقدرت عن جدّ أن حياتي الآثمة لابد أنها السبب، وانهمرت دموعي وشرعت أضرب صدري الآثم وأبكي وأنوح، وشاهدت هنا فوقي صورة لأم الرب، فثبت ناظري عليها، وخاطبت بنفسي العذراء المقدسة، ورجوتها الحصول على طهارة كاملة لضمان نفسي الآثمة والمحملة بثقل من الموبقات، والتمست منها التمكن من الدخول الى الكنيسة من أبوابها حتى أشاهد الصليب المقدس لمخلصي، واعدة من تلك اللحظة أن أكرس نفسي للرب في الحياة الحاضرة، آخذه إياها كفيلاً لي في هذا التغيير لحياتي، وبعد هذه الصلاة الصعبة شعرت بروحي بانفراج سري وزوال لحزني، وحاولت مجدداً الدخول الى الكنيسة، فدخلت إليها بكل سهولة وصرت في وسطها، وتمتعت وابتهجت بتعبدي للخشبة الثمينة للصليب الرائع الذي يجلب الحياة للانسان، وتقديراً مني — بناء عليه — لرحمة الرب التي لاتقدر، واستعداده لتقبل المذنبين حتى يتوبوا ، ألقيت بنفسي على الأرض، وبعدما قبلت البلاط بدموع نهضت ومضيت نحو صورة أم الرب، وجثوت هناك على ركبتي، ورجوت وساطتها وأن تكون دليلي، وبعدما أنهيت صلاتي، خيل إليّ

سماع صوت يقول: (إذا ما ذهبت إلى ماوراء نهر الأردن سوف تجدين هناك الراحة والمواساة)» وقد أمضت هناك سبعاً وأربعين سنة في أعمال التوبة والاستغفار، وتلقت القداس الأخير من القديس زوسيموس Zo-simos قبل أن تتوفى في سنة ٤٣١. (انظر Actass, Bolland, IN2 (April

٣٤— انظر الرسم التوضيحي رقم ٢.

٣٥— تأسست رهبانية الاسبتارية في سنة ١٠٩٩، بعد انتخاب غود فري دي بوليون. وكان جيرارد، كونت دي أفنسس أول مقدم أعظم لهذه الرهبانية، وغدت رهبانية عسكرية في سنة ١١١٨، وكان مقرها قريباً من الضريح المقدس. (كنيسة القيامة).

٣٦— أعمال الرسل: ٣/ ١—٨.

٣٧— التكوين: ٢٨/ ١٧—١٨.

٣٨— يبدو أن سيولف لم يكن على دراية بالعهد القديم بقدر ما كان متعمقاً بالعهد الجديد، فقد قال قبل قليل إن معنى ايليا «بيت الرب»، ولعله مزج هذا مع «بيت ايل» التي معناها «بيت الرب». وسنرى حول هذا المزج في المستقبل روايات جون أوف وورزبيرغ وثيودورك، وفوكاس.

٣٩ —أعمال الرسل: ٣/ ١١؛ ٥/ ٢١.

٤٠— لوقا: ١/ ١٣.

٤١— لوقا: ٢/ ٢٨.

٤٢— لوقا: ٢/ ٤٦.

٤٣— متى: ٢١/ ١٣.

٤٤— يوحنا: ٢/ ١٩.

٤٥— يوحنا: ٨/ ٥٩.

٤٦— يوحنا: ٨/ ٣.

٤٧— انظر انجيل جيمس الأبوغرفاوي — الاصحاح: ٤.

٤٨— متى: ٢١/ ١٥.

٤٩— يوحنا: ٥/ ٢، الخ.

٥٠— متى: ٢٦/ ٣٦،الخ.

٥١— لوقا: ٢٢/ ٤١— ٤٤.

٥٢— يوحنا: ٩/ ١٧.

٥٣— أعمال الرسل: ١/ ١١.

٥٤— يبدو أن سيولف كان دليله في البداية سريانيا، غير أنه عندما تعرف على الجليل الصحيح أضاف هذا الايضاح وبين أن قانا هي في الجليل.

٥٥— يوحنا: ٢١/ ٣—٤.

٥٦— متى: ١٥/ ٣٢— ٣٨. «سبعة أرغفة وقليلاً من السمك».

٥٧— يوحنا: ٢٠/ ١٩.

٥٨— يوحنا: ٢٠/ ٢٧.

٥٩— في سنة ٤١٥، من قبل الكاهن لوسيان في كافا جمالا على نحو عشرين ميلاً من القدس (انظر: تلمونت Tillemont. ج٢ ص ٥، الخ). وكرس تاريخ الثالث من آب تخليداً لهذه الحادثة، وكان أبيباس

ابن جماليل.

٦٠— اكتشفت هذه الخرائب مع بلاط فسيفسائي جميل لهذه الكنيسة أو لواحدة مجاورة لها في سنة ١٨٨١، من قبل الميجر كوندر.

٦١— في الدير الأخير أمام الراهب دانيال ووجد راهبا كان دليلاً أفضل من السرياني الذي رافق سيولف، وتبعاً للراهب دانيال لقد كان دير القديس يوثيموس هو الذي تخرب. توفي القديس سابا في ٥— كانون أول سنة ٥٣٢ عن عمر ٩٤ سنة.

٦٢— لابد أن السريان بذلوا جهداً كبيراً لاقناع سيولف بهذه الحكايات، ومع هذا روى الحكاية نفسها جون ماندفيل في سنة ١٣٢٢.

٦٣— انظر التكوين: ١٣/ ٣. وفي ١٣/ ١٠ مقارنة هذا السهل مع الفردوس.

٦٤— الملوك: ٢/ ٢/ ٢١— ٢٢.

٦٥— التكوين: ١٨/ ٤.

٦٦— يوحنا: ٤/ ٦—٧.

٦٧— عكا.

٦٨— متى: ١٧/ ٤.

٦٩— يوحنا: ٢١/ ٤.

٧٠— هناك حجرة تدعى «حجرة المسيح» موجودة على قرني حطين.

٧١— أرشيتركليني تعني «بيت حاكم العيد».

٧٢— جبل الشيخ (حرمون).

٧٣— متى: ١٦/ ٣—.

٧٤— أرسوف.

٧٥— حيفا.

٧٦— عكا.

٧٧— صور وصيدا.

٧٨— جبيل.

٧٩— بيروت.

٨٠— طرطوس. وقد استولى عليها ريموند كونت طولوز في ١٢ — آذار سنة ١١٠٢، وقد توفي أثناء حصار طرابلس في حوالي سنة ١١٠٨.

٨١— جبلة.

٨٢— اللاذقية.

٨٣— الترتيب ينبغي أن يكون: يافا. أرسوف. قيسارية. حيفا. عكا. صور. صيدا. بيروت. جبيل. طرابلس. طرطوس. جبلة . اللاذقية.

٨٤— كانت الخلافة الفاطمية قد أرسلت حملة في هذه الأونة للتفريج عن عسقلان التي كان الملك بلدوين يحاصرها، وكان العرب في هذه الأونة يقاتلون في الجزيرة مدينة الرها، وكانوا قد هزموا تانكرد مع الصليبيين عند حران، وأسروا كل من جوسلين وبلدوين دي بورغ، وكان الأمير بوهيموند بن روبرت غويسكارد محصوراً في أنطاكية، وقد نجا منها بتظاهره بالموت.

٨٥— كانت هناك بلدة على الساحل قرب جبل كراغوس، تدعى أنطاكية الصغرى.

٨٦— مايرا MYRA .

٨٧— ٢٣ — حزيران.

٨٨— هي أضاليا الحالية، انظر أعمال الرسل: ١٤/ ٢٤.

٨٩— هي الآن سترانبالي Stranpali.

٩٠— تينيدوس Tenedos.

٩١— مضيق الدردنيل، وقد دعا آسيا الصغرى باسم بلاد الاغريق ورومانيا ، وفي هذا اشارة فقط إلى الأماكن التي كانت ماتزال تحت حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية.

٩٢— كان هناك عذراء قديسة اسمها يوفيميا هلكت في خلقيدون بأعمال تعذيب ديوكلشيان وفي كنيستها الكبرى (بازيكليا) عقد مجمع خلقيدون المسكوني، وعلى اسمها كرست عدة كنائس في القسطنطينية ، ومن الممكن أن مدينة كرست على اسمها حيث تقوم الآن قلعة أوروبا، في حين إن سامثي (ربما المقصود هو ايناني أو ايناثي) تقوم الآن حيث قلعة آسيا على الطرف الآخر من مدخل الدردنيل.

٩٣— غاليبولي.

٩٤— بانادوس.

٩٥— رودوستو.

٩٦— اراكيا، من قبل هرقليا .

رحلة حج الراهب الروسي دانيال
(١١٠٦ — ١١٠٧)

مدخل

يعود تاريخ رحلات حج الروس إلى الأرض المقدسة إلى أواخر القرن العاشر، عندما تحول الروس إلى المسيحية، وهناك ايماءة مبكرة، يعود تاريخها إلى ١٠٢٢، وردت في ترجمة القديس ثيودوسيوس من كييف، إلى وجود حجاج روس في فلسطين، لكن أول المعروفين من هؤلاء هو القديس فارلام Varlaam الذي كان راعياً للدير في كييف، وأنه زار القدس سنة ١٠٦٢م، وأقدم رواية حج روسية إلى الأرض المقدسة وصلتنا هي رواية حج دانيال الذي كان راعي دير روسي، وهو لانعرف شيئاً مؤكداً حوله، ويمكن أن نستخلص من اشارته الى نهر سنوف Snov ،على أنه نهر يمتلك كثيراً من سمات نهر الأردن،على أنه جاء من منطقة تشيرنغوف Tchernigov، في روسيا الصغرى ، التي يجري فيها نهر سنوف، ومن المفترض أنه كان دانيال نفسه الذي كان أسقف سورييف Suriev في١١١٥، والذي توفي في ٩- ايلول ١١٢٢م.

وكان دانيال معاصراً لنصطور،الذي هو أقدم صاحب حوليات روسية،وروايته هي واحدة من أعظم الوثائق الروسية أهمية مما يعود الى بداية القرن الثاني عشر،ويبدو أن سماتها الأصلية أكسبتها شعبية واسعة جداً ،حيث هناك مايزيد على خمس وسبعين مخطوطة منها ،أقدمها تاريخه ١٤٧٥. ومن الممكن تحديد تاريخ الحج بشيء كبير من اليقين، باستخراجه من مواد دانيال نفسه، فهو قد أتى على ذكر الدوق الروسي الأعظم ميخائيل سيفا توبولك اشعياسلافووتشMichel Sviatopolk Isiaslavowitsch (١٠٩٣ — ١١١٥)، وبلدوين ملك القدس (١١٠٠ — ١١١٨)، وذكر أيضاً أن عكا كانت بحوزة الفرنجة، وبما أنه

تـم الاستيلاء على هـذه المدينة في ٢٦ — أيـار ١١٠٤، لابـد أن تاريـخ الرحلـة كان فيها بين ١١٠٤ و ١١١٣. ومـن الممكن اجـراء تدقيـق أكثر، فقد حدثنا دانيال أنه رافق بلدوين في حملته ضد دمشق، ويعتقد أن هذه الحملة وقعـت فيها بين ١١٠٦ و١١٠٨، ومرة أخـرى تحدث عن الهجمات التي تعـرض لها الحجاج من قبل مسلمـي عسقلان، وأتى وليـم الصوري على ذكـر إحـدى هذه الهجمات على فـرنجـة كـانـوا يعبرون من يـافـا إلى القـدس سنـة ١١٠٧ (تـاريـــخ أعمال أنجـزت فيها وراء البحـار — ط. باريس ١٨٧٩ ج١ ص ٣٨٤)، وينبغي أن نلاحظ أخيراً، أنه في اللحظة التـي يصف فيهـا دانيال احتفـال النـور المقدس، ليـس هناك اشـارة إلى بطريرك لاتيني، وأن واحداً من الأسـاقفة احتل هذا الموقع، أي أن فولتشر أوف تشارتـرز جرى تعيينـه لمنصب البطركيـة، ومامن أحـد يعرف بـوجود بطـريرك لاتينـي بالقـدس أثناء فصـح سنة ١١٠٧، لأن دوغـوبرت تـرك المدينة في سنة ١١٠٣، وأن ايبريمار Ebremar ، الذي كـان وكيله أو بديلـه أخذ الطريق إلى رومـا في نهاية سنة ١١٠٦، وعلى هذا كـان اسبوع الفصح الذي أمضاه دانيال في القدس، لابد أنه كان اسبوع عام ١١٠٧، وأن حجه ربما كان فيها بين سنتي ١١٠٦ و ١١٠٧م.

والميدان الـواسع الذي تغطيـه رواية دانيـال، أوسع من الميـدان الذي غطته رحلـة الحج المتقدمة، فضلاً عـن هذا تلقي التفاصيـل الكثيرة التي تقدمها، الضـوء على أوضاع البلاد بعيد عدة سنوات مـن الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين، ثم إن المصداقية التي كتبت فيها تعطيها قيمة أكبر، لم تكن مـلاحظة من قبـل، وسافـر دانيال بشكل مكثـف في فلسطين غربي الأردن، وزار معظم الأماكن المقدسة والمعـابد والأديرة، ولأنه زود نفسه في كل مكان بـأفضل الأدلة، لقد كتـب وصفاً دقيقاً لكل مـارآه، وذكر هو في رحلته أنـه لم يصف شيئاً لم يره بعينيه، وهـذا مؤيد مـن خلال الشـواهد الداخليـة في روايته، لأنه عنـدما لم يستطع زيـارة مكان ما، ذكـر بصراحة

أنه اعتمد على الآخرين بالنسبة لمعلوماته، وبالمناسبة ألقى الراهب الروسي بعض الأضواء الغريبة على الأوضاع غير المستقرة للبلاد، والمخاطر التي كان المسافرين يتعرضون لها على الطرقات خلال السنوات الأولى من تاريخ المملكة اللاتينية، ففي اللد على الطريق الرئيسي من يافا إلى القدس، اعتاد الحجاج على امضاء الليل في خوف عظيم من امكانية تعرضهم لغارات المسلمين من عسقلان، وغالباً مانشط قطاع الطرق على الطريق من القدس إلى أريحا، وكمنت جماعات مسلمة من عسقلان فوق التلال المكسوة بالغابات قرب بركة سليمان، بانتظار الذين كانوا يسافرون من بيت لحم إلى القدس، وكانت الجبال الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم مليئة بقطاع الطرق إلى حد أن دانيال ورفاقه توجب عليهم السفر تحت حماية واحد من المقدمين المسلمين، فما من أحد كان بإمكانه السفر من القدس إلى بحيرة طبرية بدون حراسة مسلمة، وهاجم المسلمون من بيسان الرحالة عندما كانوا يقطعون مخاضات الأنهار، وقتل المسلمون الفرنجة الذين كانوا يسافرون من جبل الطور إلى الناصرة، ولم يكن بالإمكان زيارة لبنان بسبب نشاط المسلمين، ونعلم من الرحلة أيضاً أن النمور وحمر الوحوش كانت ماتزال تعيش في براري يهودا، وأن الأسود بأعداد كبيرة كانت موجودة في أحراش وادي الأردن، وفي الوقت نفسه ازدهرت زراعة النخيل —التي اختفت— في مناخ أريحا وبيسان شبه الاستوائي.

وتنبع أهمية رواية دانيال أيضاً من كون أن كاتبها لم يكن فقط عضواً في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، بل راعياً لواحد من الأديرة، ولأنه كان كما هو مفترض رجلاً مثقفاً وفهيماً، وقد كتبت بروح تقية مؤمنة، كما هو متوقع من رجل هو رجل دين ارثوذكسي، وليس فيها أدنى أثر لروح عدوانية تجاه الديانة اللاتينية، ورافق دانيال أثناء حجه راهب من دير القديس سابا الأرثوذكسي «وكان رجلاً تقياً ومتقدماً بالسن، ومتمكناً من

معرفة الكتابات المقدسة»، وكان دانيال ضيفاً مرحباً به في عدد كبير من الأديرة الأرثوذكسية في أرجاء البلاد، وكانت تقاليد هذه الأديرة هي تقاليد الكنيسة الشرقية المحلية، التي أشار إليها سيولف، مع التقاليد السريانية الأخرى، ومن المؤكد أنه كان يعرف الأناجيل الأبوغرفاوية بأشكالها الاغريقية، ونقل من الانجيل الأبوغرفاوي المعزو إلى جيمس، الذي صدرت عنه كثير من التقاليد، وكانت العلاقة فيما بين الكنيستين اللاتينية والأرثوذكسية في هذه الآونة علاقة صداقة حميمة، ورفع ملك القدس الخلافات إلى رجال الدين الأرثوذكس وإلى رهبان القديس سابا ضمن ملاحظات هامة خاصة، وكان رجال الدين الأرثوذكس مسؤولين عن كنيسة القيامة، واحتفظوا بمفاتيح أبواب الضريح، وفي أثناء احتفالات الفصح وضعت المصابيح الأرثوذكسية على الضريح نفسه، في حين علقت المصابيح التي عادت إلى اللاتين فوقه، وهناك توافق بين وصف دانيال ووصف فولتشر أوف تشارترز (١١٠١م) لنزول الضوء ،أو النار المقدسة، فقد كان فولتشر حاضراً مناسبة الذكرى هذه، عندما لم تشعل النار المقدسة المصابيح حتى أحد الفصح، وكلاهما وصف اللهب بأنه كان وردي اللون، وذكر أن جميع الموجودين شاركوا الأرثوذكس بصراخهم «Kyrie Eleison»، وذكر دانيال أن الأرثوذكس واللاتين قرأوا قداس سبت الفصح مع بعضهم، وقال فولتشر بأن الفرنجة قرأوا كل مقطع باللاتينية أولاً، ثم قرأ الأرثوذكس المقاطع نفسها بالاغريقية، وجاء في الرواية الفرنجية عن الاحتفال بأن البطريرك هو الذي فتح باب الضريح، في حين جاء بالرواية الروسية أن الذي تولى ذلك واحد من الأساقفة اللاتين، ويتضح هذا الاختلاف بغياب البطريرك اللاتيني أثناء زيارة دانيال.

ومادة دانيال على العموم صحيحة، لكنه اقترف بعض الأخطاء أحياناً، وتظهر بعض أخطائه جهلاً بالكتابات المقدسة التي لم تكن

معتمدة لـديه أو لـدى دليله، الـراهب المثقـف من ديـر القديـس سابـا، ويمكن أن نعزو الأخطاء الجغرافية إلى جهـل عام بتلك الحقبة، ومن هذه الأخطاء جعله كفر ناحوم على شاطـىء البحر قرب الكرمل، وأن اللد هي الرملة وأن قيصريـة فيليب (بانياس) هي قيساريـة فلسطين، وأن السامرة هي نـابلس، وأن بـاشان هـي بيسان، وأن الأسقفيـات العشر ديكابـولس Decapolis كانت بلـدة، وهناك أوهام أخرى، مـن الصعب أن نجد لها تسويغـاً، من ذلك على سبيـل المثال: الروايـة الطريفـة عن معركـة قرب أريحا، توقفت خـلالها الشمس عندما كـان يوشع يتغلب على عـوج ملك باشان، وقـد قال بأن المعركـة قد وقعت في بيسان، وكـذلك مزج فيما بين مـرقـص: ١/ ١٦ — ١٨ مع ١/ ١٩ — ٢٠. هـذا وقليـل مـن الاعتماد يمكن أن يكون على المسافات والمساحـات التي وردت في النص، وكانت نصوص الرحلات الـرومانيـة قد أهمل استخـدامها، والمسـافات في هـذه الـرحلات هـي تقـديريـة، بينما هـي في رحلة راهبنـا في غـالب الأحيـان مغلوطة بسبـب تصحيفات لحقت بالنص أو أن النـص كتب على سرعة، ومعلـوماتـه غير كاملـة، المهـم أن الأخطاء كثيرة، وبـالنسبة لإعطـاء اتجاه الأماكـن، اعتاد دانيـال على اعتماد وضع الشمـس في الانقلابين الشتـوي والصيفي، وكـان هذا الاستخدام مـن بقايا الأيـام الخوالي، عندما كـانت تقـام حجـرة اشـارة لتسجيـل أقصـى انحـراف للشمـس نحـو الشمال والجنـوب، وكـانـت البهجـة تعم عنـدمـا يتـم الاعـلان أن نقطـة شروق الشمس بدأت تعود نحو الشمال.

وبدأ دانيـال رحلته من القسطنطينية، فمنهـا ذهب بحراً إلى يافـا، وقد زار على الطريق عدة أماكن مثـل إفسوس وقبرص، ويبدو أن رحلته كانت بـلا حوادث، واعتنـى بشكـل خـاص بالمواقـع التـي دفـن فيها مختلـف القـديسين والـرجال المقـدسين، وأتـى على ذكـر «الغبار المقـدس» الـذي ينبعث كـل سنة مـن قبر القديـس يوحنـا، والصليب المعلـق وسط الهواء

فوق جبل ترودوس في قبرص، ووصف الطريقة التي جمع بها صمغ الميعة في جبال ليكيا Lycia وسافر من يافا عبر اللد التي وجدها مهجورة، ثم مرّ بالنبي صموئيل، وقال هي أرماثم Armathem (راماثيم زوفيم Ramathaim Zopnim) ثم وصل القدس، ووقف في أعلى جبل سكوبوس، حيث شاهد المدينة المقدسة كاملة، فترجل من أجل الصلاة، ثم وقد امتلأ بغبطة عظيمة، تابع سيراً على الأقدام، فجاز بكنيسة وضريح القديس ستيفن، إلى باب يافا الحالي، حيث اعتاد جميع الرحالة على دخول القدس، في ظل القلعة، أيام حكم الفرنجة.

واتخذ الراهب مقراً له في الميتوشيا Metochia، أو «بيت الحجاج» في دير القديس سابا، قرب برج داود، وكان هذا الدير مشغولاً الآن من قبل الرهبان الأرثوذكس (الاغريق) الذين نجوا لتوهم من مقتلة عند دير القديس سابا — الآن مارسابا — الأكثر شهرة، والواقع خارج الأسوار، وزار بمساعدة دليل كان من رهبان الدير، الأماكن المقدسة، ووصفه لهذه الأماكن، قبل أن يقوم الفرنج بأية أعمال بناء ضخمة، مفيد جداً، وروايته أغنى من رواية سيولف الذي زار القدس قبله بأربع سنوات أو خمس، وذكر عدداً من الأماكن المقدسة الأقل شأناً مثل «مدفن ارميا» و«بيت أوريا» و«منازل يودس وبولص»، التي لم يرد ذكرها لدى الحاج الأنكلو ــ سكسوني، ووصفه لكنيسة القيامة والضريح المقدس ومجموعة الأماكن المقدسة حول القيامة جدير بالعناية، وكذلك وصفه لقدس الأقداس «قبة الصخرة»، ولقد ذكر بأن البناء تولاه واحد من قادة المسلمين اسمه آمور Amor وهو تصحيف واضح لاسم الخليفة عمر فاتح القدس، وتقدم الحكايات الطويلة التي جمعت حول قبر العذراء في وادي قدرون، وحول الكنيسة فوق جبل صهيون، التي من المفترض أنها كانت بيت القديس يوحنا الانجيلي شرحاً موضحاً لنوعية المعلومات التي قدمها الأدلاء المقدسيون في أوائل القرن الثاني عشر لحاج من حجاج

الكنيسة الشرقية.

وقام دانيال من القدس برحلتين: الأولى إلى الأردن، وبراري اليهودية، وكانت الرحلة الثانية إلى بيت لحم والخليل، حيث لم يكن الصليبيون قد بنوا بعد كنيستهم مع دير القديس شارتون Chariton، وبعدما عاد من الخليل إلى القدس حصل على أذن من الملك بلدوين سمح له بموجبه بمرافقة القوات التي كانت على وشك الانطلاق للهجوم على دمشق، بقيادة الملك نفسه، ويبدو أن الطريق الذي سارت عليه العساكر هو عبر: البيره، لُبَّن، نابلس، التياسير ثم بيسان، حيث كانت قد وقعت هناك بعض الأحداث المتعلقة بحياة ربنا، من ذلك شفاء الأعميين من أهالي بيسان، وزحف الجيش إلى جسرين كانا قريبين من ينابيع الأردن، وشكلت هذه الينابيع بالنسبة لدانيال نهرين هما «أر» و«دن» اللذان يصدران عن بحيرة طبريا، ويبدو أن الجسرين كانا على مقربة من النقطة التي يغادر فيها الأردن الآن البحيرة، حيث مازال بالإمكان رؤية آثارهما، ويعرفان باسمي: جسر السيد، وهو مخرب الآن، وقائم تحت نقطة لقاء النهرين: «أر» و«دن»، ثم يخرجان من البحيرة ويشكلان جزيرة اسمها «الكرك»، والموقع الوحيد المعروف لجسر آخر هو موقع «جسر المجامع»،لكن في هذه الحالة علينا أن نفترض أن النهرين اللذين التقيا هما الأردن واليرموك، وهما المعنيان بالذكر، وعندما عبر بلدوين الأردن، ذهب دانيال إلى طبرية، وأمضى هناك عشرة أيام في زيارة الأماكن المقدسة على حدود بحيرة طبرية، ويبدو أنه لم يستطع مغادرة أحواز البحيرة، وكان فقط قادراً على رؤية أطراف بحيرة الحولة، التي دعاها باسم بحيرة جنسارث Gennesareth ، ورأى الراهب الروسي بأن الأردن أول مخرجه من بحيرة طبريا، وقد لاحظ وجود جزء منه فوق البحيرة، وهو عريض عرضه عرض نهر، ويتدفق من بحيرة جنسارث، وذهب دانيال من طبرية إلى جبل الطور حيث سمع حكايات غريبة

حول كهف «ملكي — صادق»، وكانت الناصرة آنذاك بيد اللاتين، وكذلك قانا الجليل وعكا، وبعد ما ارتاح لمدة أربعة أيام في عكا، سافر جنوباً عبر حيفا وقيسارية ونابلس فبيت ايل إلى القدس.

وبعدما شاهد احتفال نزول «النور المقدس» في كنيسة القيامة، يوم سبت عيد الفصح لسنة ١١٠٧، بدأ الحاج الروسي رحلة العودة نحو وطنه، وبعدما سافر عبر دير الصليب، فعين كارم، بلد زكريا ومكان ميلاد يوحنا المعمدان، مر بعمواس التي كانت مهدمة من قبل المسلمين، ووصل إلى يافا، ومنها توجه إلى أرسوف، فقيسارية فحيفا، ومن ثم إلى صور، فصيدا، فبيروت، ولاندري إن كان نزل إلى بيروت أو إلى السويدية ميناء مدينة أنطاكية، وفي جميع الأحوال ساير الساحل عن قرب، وبعدما سلبه القراصنة أمام ساحل ليكيا قرب باتارا Patara ، وصل أخيراً سالما إلى القسطنطينية.

رحلة حج راعي الدير الروسي دانيال في الأرض المقدسة

(حوالي : ١١٠٦ — ١١٠٧)

أنا دانيال، راعي الدير الروسي، والعبد غير الجدير، والأقل بين الرهبان، شعرت بالضيق بسبب ذنوبي الكثيرة، وأعمالي الصالحة غير الكافية، فاستولت علي — أولا — فكرة رؤية مدينة القدس المقدسة مع أرض الميعاد، ثم استبدت بي الفكرة، وبت عديم الصبر مشتاقاً لرؤية الأماكن المقدسة: ولقد زرت الجليل كله، وجميع الأماكن المقدسة حول مدينة القدس المقدسة، التي مشى عليها المسيح ربنا بقدميه، وحيث أظهر نفسه بوساطة معجزات رائعة.

ولقد رأيت جميع هذه الأماكن بعيني الخاطئتين، وتفضل الرب برحمته بتمكيني من رؤية ما تطلعت بشوق منذ سنين طوال إلى رؤيته؛ اغفروا لي ياأخواني، ويا آبائي وياسادتي، أخطائي، وتجاوزوا عن جهلي وسذاجتي في الوصف (الذي أنا مقبل على القيام به) الذي سأقوم به لمدينة القدس المقدسة، في الأرض المباركة، والطريق الذي يقود إلى الأماكن المقدسة. وكل من قام بهذه الرحلة بتواضع وبخوف من الرب، لن يذنب بحق الرحمة الربانية، فلقد سرت على هذا الطريق المقدس، مع أنني لا أستحق ذلك، سرت بضعفي كله وبكسلي، بدون عائق، وسلمت نفسي لكل شر من الشرور؛ لكن أملي برحمة الرب وبدعواتكم لصالحي، أن سأنال عفو ربنا يسوع المسيح عن ذنوبي التي لاتعد ولاتحصى، ولقد وصفت الأماكن المقدسة بدون تفاخر بأي شيء جدير بالثواب، وهذا التفكير بالحقيقة بعيد عني، لأنني لم أفعل شيئاً جيداً خلال رحلتي، وفقط صدوراً عن حبي لهذه الأماكن المقدسة توليت كتابة ما رأيته بعيناي،وذلك حتى أتذكر كل ما سمح لي الرب برؤياه، دونما اعتبار لعدم

جدارتي، وخشية من مثل ذلك الخادم الكسول الذي دفن مهارات سيده دون ترجمتها إلى شيء نافع، قمت بكتابة هذه الرحلة للمؤمنين، من أجل أنهم لدى سماعهم لوصف الأماكن المقدسة، يمكنهم تصورهم في أذهانهم، ومن داخل أرواحهم، وبذلك يحصلون من الرب على الثواب نفسه مثل الذين زاروهم.

فلقد وصل كثير من الناس الأفاضل إلى الأماكن المقدسة، من خلال قيامهم بأعمال جيدة، والاحسان إلى الفقراء، وصلوها دون أن يغادروا أوطانهم، وبذلك جعلوا أنفسهم أهلاً لثواب أعظم من ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، وهناك بعض الناس الذين أنا مقدمهم، قد زاروا مدينة القدس المقدسة والأماكن المقدسة، فتفاخروا بأنفسهم وكأنهم قد فعلوا شيئاً جديراً بالثناء، وبذلك خسروا ثمار تعبهم، ومرة ثانية هناك آخرون قاموا بالحج، وعادوا دون رؤية كثير من الأشياء الثمينة، لتشوقهم بالاسراع بالعودة إلى وطنهم، لأن هذه الرحلة لايمكن القيام بها بسرعة، كما أنه من غير الممكن الاسراع بالمرور بجميع الأماكن المقدسة في القدس والمواقع الأخرى.

١ — *القدس ودير القديس سابا*

ثم وصلت أنا الراهب دانيال غير الجدير إلى القدس، ومكثت هناك ستة عشر شهراً في بيت حجاج دير القديس سابا، وبذلك كنت قادراً على زيارة وتفحص جميع الأماكن المقدسة، وليس من الممكن زيارة جميع الأماكن المقدسة وتفحصها من دون دليل جيد وترجمان، وبناء عليه دفعت كل ما كان بإمكاني دفعه من وسائلي المتاحة جائزة للذين كانوا على دراية كاملة بالأماكن المقدسة وقادرين على اطلاعي عليها، مع المواقع الأخرى، حتى أتمكن من رؤية كل تفصيل، وفي هذا المقام، وتبعاً له، كنت ناجحاً.

وبنعمة من الرب، وجدت في دير القديس سابا، رجلاً تقياً جداً، ومتقدما بالعمر، كان واسع المعرفة بالكتابات المقدسة، فقد حنن الرب قلب هذا الرجل المقدس ليحبني أنا غير الجدير، ولقد كان هو الذي أراني بعناية كبيرة جميع الأماكن المقدسة، في كل من القدس وجميع أرجاء البلاد، وأخذني إلى بحيرة طبرية، وإلى الطور، والناصرة، والخليل، والأردن، وعطفا منه علي، قادني— مع أنه عانى من تعب عظيم — إلى عدد كبير من الأماكن المقدسة، التي سأتحدث عنها فيما بعد.

٢ — *الطريق إلى القدس*

هذا هو الطريق الذي يقود (من القسطنطينية) إلى القدس، هناك ثلاثمائة فرسخ (روسي) من القسطنطينية إلى البحر الكبير، وساير نا الشاطىء المتعرج، وقطعنا مائة فرسخ (كل فرسخ = ٥٠٠ر٣قدم) إلى جزيرة بيتالا Petala (مرمرة)، وهي أول جزيرة في البحر الضيق (بحر مرمرة)، ويقوم على هذا الطريق بلدة واسعة هي هرقلية (إيريغلي)، حيث يوجد ميناء واسع، وهناك مقابل هذه البلدة، زيت مقدس (اسفلت) ينبع من أعماق البحر، لأنه في هذه البقعة جرى اغراق كثير من الشهداء المقدسين من قبل معذبيهم.

ويقولون هناك مائة فرسخ من بيتالا إلى غاليبولي، وثمانين (الصحيح ثلاثين) من غاليبولي إلى بلدة أبيدوس، التي يقابلها مدينة دفن فيها القديس يوثيموس الأصغر.

ومن هناك إلى كرايت Criteمسافة عشرين فرسخاً، وبعدها يدخل الانسان إلى البحر الكبير، فينعطف نحو اليسار ليؤم القدس، ونحو اليمين إلى جبل (أثوس) المقدس، وسالونيك وروما.

وهناك ثلاثين فرسخاً من كرايت إلى جزيرة تندوس Tenedos، التي هي أول جزيرة يصلها الانسان في البحر الكبير، وهنا يرقد الشهيد

المقدس أفنوديموس Avnudimos.

وكان على الشاطىءالمقابل لهذه الجزيرة في الماضي بلدة كبيرة اسمها تراوس Troas (اسكي ستامبول)، وإليها قدم الرسول بولص للتبشير، وقد عمّد جميع المنطقة.

ويوجد مائة فرسخ فيما بين تندوس، وجزيرة ميتيلين Mitylene ، وهناك دفن مطران ميتيلين المقدس (القديس جورج ٨١٦م)، ومن هناك إلى جزيرة كيوس مائة فرسخ، وفي هذا المكان يرقد القديس ايزودور الشهيد، وتنتج هذه الجزيرة، اللبان، والخمور الجيدة، ومختلف أنواع الخضروات.

٣ـــ مدينة إفسوس (عرب سوس)

يوجد ستين فرسخا من جزيرة كيوس إلى إفسوس، ويشاهد في إفسوس قبر القديس يوحنا الانجيلي، ويثور في يوم ذكرى موته غبار مقدس من قبره، حيث يجمعه المؤمنون ليكون شفاء من كل داء، وعلى مقربة منه هناك الكهف الذي ترقد فيه أجساد السبعة النائمين، الذين ناموا لمدة ثلاثمائة وستين سنة، فقد سقطوا نائمين أيام حكم الامبراطور ديكيوس Decius وأفاقوا في أيام الامبراطور ثيوديوس، ويوجد في الكهف نفسه (آثار) ثلاثمائة من الآباء المقدسين مع القديس الاسكندر، وضريح مريم المجدلية هو هنا أيضاً وكذلك رأسها، ويرقد هنا أيضاً الرسول تيموثي Timothy المقدس، الذي كان حواريا للقديس بطرس، داخل تابوت قديم، ومحفوظ في الكنيسة القديمة صورة العذراء المقدسة، ورفضت هذه الكنيسة مع أولئك (الآباء) المقدسين بدعة نسطور.

ويمكن للمرء أن يشاهد هنا أيضاً حمام ديوسكوريدس Dio-scorides حيث عمل القديس يوحنا الانجيلي مع بروكورس Proch-orus في بيت رومانا Romana ، ورأينا أيضاً الميناء الذي اسمه «الميناء

الرخـامي»، حيـث لفظ البحر القـديس يوحنـا الانجيلي، وقد بقينـا هناك لمدة ثلاثة أيام.

وتقوم بلدة إفسوس بين الجبال، وتبعد عـن البحر مقدار أربعة فراسخ، وفيها وفرة من كل شيء، وتعبدنا هناك القبر المقدس، ثم ارتحلنا من هناك مسرورين في ظل حماية نعمة الرب وصلوات يوحنا الانجيلي.

وهنـاك أربعين فرسخاً من إفسـوس إلى سامـوس، والبحر هنـاك مليء بالأسماك، والجزيرة خصبة جداً.

٤— جزيرة باتموس

لقد قدروا وجود عشرين فرسخاً من ساموس إلى جزيرة ايكاريا Icar-ia (نيكـاريا الآن) ، ومـن هنـاك إلى جـزيرة بـاتموس Patmos ستين فرسخاً، وتقع هذه الجزيرة في طرف البحـر، وهي الجزيرة التي كتب فوقها القديس يوحنـا الانجيلي انجيله عندما نفي مع بروكـورس؛ ثم جاءت جزر : ليروس Leros (ليرو) وكالمينموس Calimnos (كالمنو) ونيسرا Nicera (نيسرو) وجزيـرة كوس Cos (كوس KQs) ، التي هي واسعـة جداً ومكتظـة بالسكـان، وغنيـة بـالقطعان، وجئنـا أخيراً إلى تيلـــوس Telos المشهورة بـالنسبة لتعـذيب هيرود، وتحتـوي على كبريت يحترق، وهـو يباع بعـد تنقيته، ويستخـدم لاشعال النـار*، وبعيـداً على مسافـة من هنـاك جزيـرة خرقيـه (خلقي)، وجميع هـذه الجزر مسكونة بـالناس، وهـي غنية بقطعـان المواشي، وتبعـد الواحـدة عـن الأخـرى عشرة فراسـخ أو أكثـر، وجـــــزيــــــرة رودس أيضـــــاً جــــــزيـــــــرة كبيرة جـــــداً، وخصبـــــة جـــداً، وهنـــا أمضـــى الأميرالـــروسي أولـــغ، Oleg

*— الصحيح أن الينابيع الكبريتية في نيسيرو، وأخطأ الراهب حين ذكرهم في تيلوس.

شتائين وصيفين (١٠٧٩)، وهناك مائتي فرسخ من ساموس إلى جزيرة رودس، وستين فرسخاً من رودس إلى مكري Makri (تلمسوس Tel-messus القديمة على الساحل الجنوبي لـ «ليكيا»).

وتنتج بلدة مكري هذه والمنطقة المحيطة بها امتداداً حتى مايرا اللبان الأسود والميعة، وهي تخرج من الشجرة بأشكال مختلفة، وتجمع بوساطة آلة معدنية حادة، وتدعى الشجرة باسم «زغيا Zygia » وهي تشبه شجرة الألدر Alder ، وهناك نوع آخر من الشجر يشبه الحور الرجراج، يدعى «راكا Raka » ، وهناك حشرة كبيرة، من أكبر أنواع اليُسروع، تعيش في أسفل الشجرة تحت الجذع، ويسقط الغبار الناجم عن عمل الحشرة مثل الدقيق على الأرض، مشكلاً صمغاً مثل صمغ شجرة الكرز، ويجمع هذا الصمغ ويمزج مع ما تنتجه الشجرة المتقدمة، ثم يتم غلي الجميع داخل وعاء نحاسي، وبهذه الطريقة يحضرون لبان الميعة، ويباع إلى التجار داخل أوعية جلدية.

وقدروا وجود أربعين فرسخاً فيما بين مكري وبلدة باتارا، التي ولد فيها القديس نيقولا، فهي موطنه وبلده، ومنها إلى مايرا أربعين فرسخاً، ويحتوي هذا المكان الأخير قبر القديس نيقولا، وهناك ثلاثين فرسخاً من بلدة مايرا إلى خلدونيا Chelidonia (شيلدان بورون في أقصى خليج أضاليا) ومائتي فرسخ من هذا المكان إلى جزيرة قبرص الواسعة.

٥— جزيرة قبرص

هذه الجزيرة واسعة جداً، ومكتظة بالسكان، وفيها جميع أنواع المنتجات، وفيها عشرين أسقفاً، ومطران واحد، ومالايمكن عدّه من الآثار، فهنا يرقد القديس ايبيفانوس Epiphanius (٣٨٢م)، والرسول برنابا، والقديس زينو، والقديس فيلا غريوس Philagrius وهو الأسقف الذي عمده بولص الرسول.

٦— الجبل الذي أقامت عليه القديسة هيلانة صليباً

يوجد هنا جبل عظيم الارتفاع (اسمه جبل ترودوس Troodos) أقيم على قمته صليب من الخشب القبرصي من قبل الامبراطورة القديسة هيلانة (حنة) لطرد الأرواح الشريرة ولشفاء جميع أنواع الأمراض، ووضعت في الصليب واحداً من الأظافر المقدسة للمسيح، وظهر في هذه البقعة العديد من المعجزات وعملت هناك وعلى مقربة من الصليب، ومازال هذا يحدث حتى اليوم الحالي، وهذا الصليب معلق بالهواء دون أن يستند على أي شيء في الأرض، فهو مربوط من قبل روح القدس ومدعوم منها، وعبدت أنا الذي لا أستحق هذا الشيء المقدس والعجيب، ورأيت بعيني الخاطئتان النعمة الربانية الملقاة على هذا المكان، واكتشفت هذه الجزيرة بشكل دقيق وتعرفت إليها.

٧— البلسم

ويخور البلسم موجود هناك، وهو ينزل من السماء ، وهم يجمعونه من الأشجار. وينمو كثير من هذه الأشجار فوق الجبال، وهي ليست أعلى من نباتات الأعشاب الطبية، فعلى هذه يسقط البلسم الجيد، ويكون هذا خلال شهري تموز وآب.

ويسافر الانسان بوساطة البحر مسافة أربعمائة فرسخ من قبرص إلى بلدة يافا، والمسافة من القسطنطينية إلى جزيرة رودس ثمانمائة فرسخ، ومن جزيرة رودس إلى يافا ثمانمائة فرسخ أيضاً، وبذلك تكون المسافة التي يتوجب على المرء عبورها بحراً إلى يافا ألفا وستمائة فرسخ.

ويافا ليست بعيدة عن القدس، وهي قائمة على شاطيء البحر، والرحلة منها إلى القدس تكون براً، والمسافة بينهما هي ثلاثين فرسخا، وهناك عشرة فراسخ فوق أرض منبسطة إلى القديس جرجس (اللد)، فقد بنيت هناك كنيسة كبيرة كرست على اسم القديس جرجس، وهي

تحتوي في داخلها على مذبح وضريح القديس الذي استشهد هناك، وهناك عدد كبير من الينابيع في هذا المكان، وعلى مقربة منها يأتي الحجاج للراحة ولإمضاء الليل في خوف عظيم، لأن المكان مهجور وليس بعيداً عن بلدة عسقلان، التي يخرج المسلمون منها فيقتلون الحجاج على طريقهم، وهناك خوف عظيم جداً من هذا المكان يدفع المرء إلى حد اللجوء إلى الجبال.

ويقدرون وجود عشرين فرسخاً من القديس جرجس إلى القدس، والطريق هو في منطقة جبلية وعرة، وهو طريق مخيف ومقلق جداً.

٨— *جبل النبي صموئيل*

هناك على مقربة من القدس، وعلى يمين الطريق من يافا، جبل مرتفع يحمل اسم أرما ثم Armathem (النبي صموئيل)، ويوجد على هذا الجبل قبر النبي صموئيل، وقد عثر عليه هناك، وكذلك قبر والده إلقانه Elkanah ، وقبر مريم المصرية، وكان المكان والقرية موطن هؤلاء الأشخاص المقدسين، والبلدة محاطة بسور، ولهذا دعيت باسم أرماثم.

٩— *القدس*

تقوم مدينة القدس المقدسة في واد وعر، وفي وسط جبال صخرية عالية، وأول شيء يراه الانسان عندما يقدم إلى المدينة هو برج داود (قرب باب يافا)، ثم إلى الأمام قليلاً جبل الزيتون، فقدس الأقداس (الصخرة)، فكنيسة القيامة التي فيها الضريح المقدس، وأخيراً المدينة بأكملها، وعلى بعد حوالي الفرسخ أمام القدس هناك جبل منبسط بعض الشيء، وهو الذي عندما يتم الوصول إليه يترجل كل مسافر، فيرسم علامة الصليب، ويتعبد القيامة المقدسة على مرأى من المدينة.

ويمتلىء كل مسيحي ببهجة عارمة لدى مشاهدته لمدينة القدس المقدسة، وتنهمر الدموع من عينيه بإيمان، وما من أحد يمكنه أن يختار

سوى البكاء عندما يرى هذه الأماكن التي طالما اشتاق إليها، حيث تحمل ربنا المسيح الآلام في سبيل محو ذنوبنا، وهكذا بعد الشعور بهذه البهجة تتم متابعة الرحلة إلى القدس على الأقدام.

وإلى اليسار، على مقربة من الطريق، تقوم كنيسة الشهيد الأول، القديس اسطفان، ففي هذا المكان رماه اليهود بالحجارة، وقبره مرئي هناك، وهناك أيضاً جبل صخري وعر انشطر وقت صلب المسيح ويدعى المكان جيهنا Gehenna (الجلجلة)، وهو على رمية حجر من سور المدينة.

ويدخل الحجاج بعد هذا مدينة القدس المقدسة، وهم ممتلئين بهجة من الباب القائم قرب بيت داود، ويتجه هذا الباب نحو بيت لحم، ويدعى باب بنيامين، ولدى دخول المدينة هناك طريق عابر لها، ويقود نحو اليمين إلى قدس الأقداس (قبة الصخرة)، وإلى اليسار نحو كنيسة القيامة الحاوية للضريح المقدس.

١٠ — كنيسة قيامة الرب

كنيسة القيامة ذات شكل دائري، وفيها اثني عشر عموداً من الحجارة الضخمة، وست سواري، ومبلطة بألواح رخامية جميلة جداً، ولها ستة مداخل، وشرفات مع ستة عشر عموداً، وتحت السقف، فوق الشرفات، جرى تمثيل الأنبياء بالفسيفساء كما لو أنهم أحياء، ومطوق أعلى المذبح بصورة المسيح بالفسيفساء، وهناك عند المذبح العالي تمثيل لآدم بالفسيفساء، ويمثل الفسيفساء فوق القوس صعود ربنا، وهناك «بشارة» بالفسيفساء على الأعمدة على جانبي المذبح، وقبة الكنيسة ليست مغلقة بأقبية حجرية، بل مشكلة من إطار مصنوع من العوارض الخشبية، وهكذا فإن الكنيسة مفتوحة بالأعلى، والضريح المقدس موجود تحت القبة المفتوحة.

وهاكم وصف الضريح المقدس: هو عبارة عن مغارة صغيرة منحوتة بالصخر، ولها مدخل منخفض إلى درجة أنه من الصعب بالنسبة للانسان أن يمر من خلاله، وهو راكع على ركبتيه، وارتفاعه ليس كبيراً، وبالنسبة لمساحته فالطول يساوي العرض، وهو ليس أكثر من أربعة أذرعة، وعندما يدخل الانسان إلى المغارة بوساطة الممر الصغير، يمكن للانسان أن يرى على الجانب الأيمن نوعاً من أنواع المقاعد (نضد)، قدّ من صخرة الضريح، فعلى هذا النضد مدد جسد ربنا يسوع المسيح، وهو مغطى بالألواح الرخامية، ومن الممكن رؤية هذه الصخرة المقدسة التي يقبلها جميع النصارى، من خلال ثلاث فتحات صغيرة مستديرة، قائمة على أحد الجوانب،وهناك خمسة مصابيح زيتيه تحترق ليل نهار، وهي معلقة في ضريح ربنا، والنضد الذي رقد عليه جسد المسيح هو أربعة أذرعة بالطول وذراعين بالعرض، وذراع ونصف الذراع بالارتفاع، وعلى ثلاثة أقدام أمام مدخل المغارة هناك الحجرة التي جلس عليها الملاك الذي ظهر للنساء وأعلن لهن قيامة المسيح، والمغارة المقدسة مغطاة من الخارج برخام جميل، وهي قائمة مثل منصة، ومحاطة بإثني عشر عموداً من الرخام نفسه، ويعلوها برج جميل يقوم فوق الأعمدة، وينتهي بقبة مغطاة بألواح فضية مذهبة، تحمل في أعلاها تمثالاً فضياً للمسيح، على ارتفاع عادي، وقد وضع الفرنجة هذا التمثال ، وهذا البرج قائم تماماً تحت القبة المفتوحة، وله ثلاثة أبواب منفذة بصورة بارعة على شكل شعرية، وبوساطة هذه الأبواب يدخل الانسان إلى الضريح المقدس، وعلى هذا إن هذه المغارة ، هي التي تمثل ضريح الرب، وقد وصفتها تبعاً لشهادة السكان القدماء، الذين يعرفون الأماكن المقدسة بشكل دقيق.

وشكل كنيسة القيامة دائري، ومقاسها ثلاثين سغنس Sagenes (يساوي كل سغنس سبعة أقدام انكليزية) في كل اتجاه، وفيها حجر واسعة في الجزء العلوي يعيش فيها البطريرك، ووجدوا أن المسافة فيما بين

مدخل الضريح وجدار المذبح العالي تساوي اثنـي عشر سغنس، وخلف المذبح فيما وراء الجدار هنـاك «صرة الأرض»، وهـي مغطـاة ببنـاء على (قبته) تمثيـل للمسيح بـالفسيفساء مع هـذا النص «يتخـذ قدمـي وحده مقياساً للأرض وللسماء».

١١ — مكان مركز الأرض الذي صلب فيه المسيح

هناك اثني عشر سغنس «من صرة الأرض» إلى المكـان الذي صلب فيه ربنا، وإلى النهـاية، ومكـان الصلب نحـو الشرق، فوق صخـرة مستديـرة مثـل رابية صغيرة، أعلى مـن ارتفاع رمـح، ويوجـد في ذروتها، في الوسـط فتحه محفـورة عمقها ذراع واحد، ومحيطهـا أقل مـن قدم، فها هنـا نصب صليب ربنا.

وترقد تحت هذه الصخرة جمجمة آدم الانسان الأول، وفي الوقت الذي صلـب فيه ربنـا، وعنـدمـا أسلم الـروح فـوق الصليـب تصدع حجـاب الهيكـل، وتفتت الصخرة وتبعثرت، وانفتحـت الصخـرة القائمـة فـوق جمجمـة آدم، وجرى الماء والـدم اللـذان صدرا عـن جنـب المسيح نحـو الأسفل من خلال الصدع فوق الجمجمـة وبذلك تمت إزالة ذنوب البشر وغسلها، ومازال هذا الصدع موجوداً حتـى هذا اليوم، ومن الممكن رؤية هذه الهبة المقدسة على يمين مكان الصلب.

١٢ — الجمجمة

ويحيط بهذه الصخـرة المقدسة مـع بقعة الصلب جـدار، وهما مغطيتان ببنـاء مـزين بفسيفسـاء رائعـة، ويـوجـد على الجدار الشرقي تمثيـل أشبـه بـالحياة لعمليـة صلـب المسيح، لكـن أعلى مـن الحجم الطبيعـي، وعلى الجانب الجنوبي تمثيل رائع مماثل للنزول من الصليب، وهناك أيضاً بابين، ويصعد الانسـان سبع خطـوات إلى البابين، وخطـوات كثيرة بعد ذلـك، والأرض مبلطـة برخـام رائع، ويوجـد دون مكـان الصلب، حيـث ترقـد

الجمجمة بيعة صغيرة، مزينة بالفسيفساء بشكل جميل، وتعرف باسم الجمجمة، وفي هذا اشارة إلى مكان الجمجمة، والمسافة فيها بين بقعة الصلب ومكان النزول من الصليب خمسة سغنس، وفي جوار مكان الصلب، على الجانب الشمالي المكان الذي انتزع فيه رداء ربنا، وملاصق له البقعة التي وضعوا فيها على رأسه تاج الشوك، واستهزاءاً أو سخرية منه ألبسوه رداء ارجوانيا.

١٣— مذبح ابراهيم

وملاصق لهذا المكان مذبح إبراهيم، الذي قدم عليه ذبيحة للرب، وذبح كبشاً عوضاً عن اسحق، وإلى هذا المكان نفسه الذي اقتيد إليه اسحق، تمّ حمل المسيح بمثابة أضحية، وصلب من أجل خلاص المذنبين، والمكان الذي ضرب فيه المسيح ربنا على الوجه يبعد سغنسان عن هذه البقعة، وثلاثة سغنس من هناك موقع السجن الذي دخله المسيح، وبقي فيه لبعض الوقت حتى حضّر اليهود الصليب ونصبوه، وهو الصليب الذي صلب عليه، وجميع هذه الأماكن موجودة تحت السقف نفسه، وإلى جانب بعضها، على الطرف الشمالي.

ويوجد خمسة وعشرين سنغس من سجن المسيح إلى المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليب، والحربة، والاسفنجة، والقصبة، والمسامير، وتاج الشوك، ويقوم الضريح المقدس، ومكان الصلب، وجميع الأماكن المقدسة في منطقة مجوفة من الأرض، حيث ترتفع على الجانب الغربي أعلى الضريح المقدس ومن مكان الصلب، وليس بعيداً من هناك، فوق مرتفع هناك البقعة التي وصلت إليها العذراء المقدسة مسرعة وهي تتبع المسيح باكية، وخاطبته بالكلمات التالية وهي حزينة جداً في قلبها: « إلى أين أنت ذاهب يابني؟ لماذا أسرعت بخطاك؟ هل أنت مضغوط عليك لتصل إلى عرس آخر مثل ذاك العرس في قانا الجليل، يابني ويالهي؟ لاتذهب صامتا هكذا عني، عني أنا التي

ولدتك، قل كلمة لعبدتك».

وعلى كل حال عندما وصلت الأم المقدسة إلى ذلك المكان، ورأت من فوق أن ابنها قد تعرض للصلب، استولى عليها رعب شديد، وسقطت على الأرض، وغلبها حزنها وأساها، وبذلك تحققت نبوءة سمعان، فقد تقدم له أن قال متنبئاً للعذراء المقدسة: «هذا الطفل معين لسقوط ثم لرفع كثيرين في اسرائيل، ولسوف يخرق سيف روحك عندما ترين ابنك وهو يصلب» (لوقا:)/ ٣٤— ٣٥).

ووقف عدد كبير من أصدقاء يسوع ومعارفه في هذا المكان، ينظرون من بعيد، وكان بينهم مريم المجدلية، ومريم أم جيمس، وسالومي، وكذلك الذين قدموا من الجليل مع يوحنا وأم يسوع، وهكذا وقف جميع أصدقاء يسوع وأقربائه ينظرون من بعيد حسبما قال النبي متنبئاً: «وقف أصدقائي وأقربائي بعيداً عني».

وتقع هذه البقعة على بعد مائة وخمسين سغنس إلى الغرب من مكان الصلب، وتدعى «سبودي» Spudi التي ترجمتها «وجد العذراء المقدسة». وهناك الآن دير مكرس للعذراء المقدسة، ولكنيسته سقف من خشب.

١٤ — برج داود

وهناك مائتي فاثوم Fathoms (قامة) من هناك إلى برج داود وبيته، والبرج قائم حيث كان بيته، وهو المكان الذي نظم فيه النبي وكتب مزاميره، وقد بني بشكل غريب بأحجار ضخمة، وهو مرتفع كثيراً، وشكله رباعي، وهو متين شكله لايرام، وكأنه حجر واحد من أسفله إلى أعلاه.

ويحتوي على وفرة من الماء، وخمسة أبواب حديدية، وتقود مائتا درجة إلى قمته ويجري تخزين كميات هائلة من القمح في هذا البرج، ومن

الصعب جداً الاستيلاء عليه، ويشكل الدفاع الأساسي للمدينة، وهو محروس بعناية كبيرة، ولايسمح لانسان بدخوله إلاّتحت الاشراف، وبنعمة من الرب، سمح لي أنا غير الجدير كليا، بالدخول إلى هذا البرج المقدس مع اسد سلاف، فهو كان الوحيد الذي سمح له بالدخول معي.

١٥ — *بيت أوريا:*

وكان على مقربة من هذا البرج بيت أوريا، الذي سبب داود قتله حتى يستحوذ على زوجته، التي راها وهي تستحم، وعلى رمية حجر من هذا البرج يوجد الآن« بيت حجاج» القديس سابا، وموضع الحمام من الممكن رؤيته حتى اليوم الحاضر.

ويبعد المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليب المقدس عشرين سغنس إلى الشرق، وذلك على مقربة من مكان الصلب، وقد بني فوق الموقع كنيسة واسعة جداً، ولها سقف خشبي، وعلى كل حال لايوجد الآن شيء سوى كنيسة صغيرة، ويوجد باتجاه الشرق باب كبير، وهو الباب الذي أتت إليه مريم المصرية راغبة بالدخول إلى الكنيسة وتقبيل (الصليب)، لكنها منعت من الدخول بوساطة روح القدس، وبعدما استغاثت بالعذراء المقدسة، التي كانت صورتها في الرواق قرب الباب، كانت قادرة على دخول الكنيسة، وتقبيل الصليب المقدس، وخرجت من هذا الباب في طريقها إلى صحراء الأردن، وعلى مقربة من هذا الباب يمكن رؤية المكان الذي تعرفت فيه القديسة هيلانة إلى الصليب الحقيقي الذي رد إلى الحياة العذراء الميتة، وعلى مسافة قصيرة من هناك، بإتجاه الشرق، يوجد البراتوريوم Praetorium (عند النهاية الشمالية للحرم الشريف حيث كانت ثكنة عثمانية) إلى حيث جلب الجنود يسوع إلى بيلاطيس، فقام بيلاطيس هذا وغسل يديه وقال: « إني بريء من دم هذا البار». (متى: ٢٧/ ٢٤)، وجعل يسوع يتعرض للجلد ثم سلمه إلى اليهود، وهناك أيضاً السجن اليهودي، الذي أطلق

منه الملاك سراح بطرس الرسول المقدس في الليل، وكان حوش يهوذا الذي خان يسوع في هذه البقعة، وهي الآن مشعثة وملعونة، حيث ما من انسان يجرؤ على سكناها خوفاً من اللعنة، وعلى مسافة قريبة نحو الشرق نأتي إلى البقعة التي شفى فيها يسوع المرأة التي كانت تنزف دماً، وملاصق لهذا المكان الحفرة التي ألقى فيها النبي إرميا، وكان بيته هناك، وكذلك حوش الرسول بولص حينما كان يهودياً.

وعلى مسافةقصيرة من هناك باتجاه الشرق، وبعيداً بعض الشيء عن الطريق بيت يوشيم Joachim وحنة، وهناك تحت المذبح مغارة صغيرة منحوتة بالصخر، فهناك ولدت العذراء المقدسة، وهناك أيضاً القبرين ليوشيم المقدس وحنة.

١٦ — *بركة الغنم*

ليس بعيداً عن رواق سليمان، توجد بركة الغنم، فهناك شفى المسيح المقعد، ويقوم هذا المكان إلى الغرب من بيت القديس يوشيم وحنة، وهو على رمية حجر منه، وملاصق له، باتجاه الشرق يقوم باب المدينة الذي يقود إلى جيسماني. (هو الآن باب ستي مريم).

١٧ — *كنيسة قدس الأقداس*

تقع كنيسة قدس الأقداس (قبة الصخرة) على بعد رميتي سهم من كنيسة قيامة المسيح، وداخل قدس الأقداس رائع ومزين بشكل فني بالفسيفساء، وفي الحقيقة جمالها لايمكن وصفه، وشكلها دائري، وخارجها مغطى بألوان جميلة جداً، ولروعتها لايمكن للمرء أن يوفيها حقها بالوصف، والجدران وكذلك الأرض مغطاة بألواح من الرخام الثمين، ويوجد تحت الإطار الدائري اثني عشر عمود حجري ضخم، وثمانية أعمدة أصغر، وهناك أربعة أبواب مغطاة بألواح من النحاس المذهب، وداخل القبة مزين بأشكال جميلة ورائعة من الفسيفساء، وفي

الخارج مغطاة بنحاس مذهب، ويوجد تحت هذه القبة نفسها مغارة قدت من الصخر، فهناك قتل النبي زكريا، وكان من قبل يمكن رؤية قبره وعلامات الدم، لكن ليس الآن، ومايزال هناك تحت القبة صخرة خارج المغارة، وعلى هذه الصخرة رأى يعقوب في منامه سلماً يصل إلى السماء، وملائكة الرب يصعدون عليه وينزلون، وعندما أفاق يعقوب اصطرع مع الملاك وقال: « ما هذا المكان إلا بيت الله وهذا باب السماء» (التكوين: ٢٨/ ١٠— ٢٢)، وعلى هذه الصخرة نفسها رأى النبي داود ملاكاً واقفاً وبيده سيف مشهر يضرب به شعب اسرائيل، ودخل إلى المغارة وبكى وخاطب الرب بدعائه قائلاً: «يارب أنا الذي أخطأت.... وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟» (صموئيل : ٢/ ٢٤/ ١٧)، ومقياس الكنيسة ثلاثين سغنس بكل طريق، ولها أربع مداخل، ولقد جرى تدمير كنيسة قدس الأقداس، ولم يبق شيء من البناء القديم العائد لسليمان ما عدا الأساسات الأصيلة العائدة للهيكل التي بدأ داود بإرسائها، والمغارة مع الصخرة القائمة تحت القبة هما الأثران الوحيدان الباقيان من البناء القديم، لأن الكنيسة الحالية بنيت من قبل رئيس المسلمين الذي اسمه عمر.

١٨— *بيت سليمان*

وكان هناك أيضاً بيت سليمان، وكانت له واجهة كبيرة ذات جمال مدهش وعظمة، مغطاة بألواح رخامية، وهو قائم على أقواس، وكان مزوداً بصهاريج واسعة، وكانت المخادع مزينة بشكل فني بوساطة الفسيفساء، وبصفوف رائعة الجمال من الأعمدة الرخامية، وقامت القاعات فوق هذه الأعمدة بشكل بارع وأصيل، والبيت كله مغطى بالرصاص.

وباب هذا القصر مغطى بشكل جميل وفني بالرصاص، ومزين بالفسيفساء والنحاس المذهب، ويدعى «الباب الجميل»، وهنا شفى

بطرس ويوحنا المعاق، ومايزال هذا المكان قائماً حتى الآن قرب الباب، وهناك ثلاثة أبواب أخرى، ويدعى الباب الخامس باسم باب الحواريين (الباب الذهبي)، وقد بني بقوة وببراعة من قبل النبي داود وهو مغطى بألواح نحاسية مذهبة، ومن الخارج مغطى بشكل متين بوساطة ألواح من الحديد، وهناك أربعة مداخل لهذا الباب، وهي مع برج داود وحدها المتبقية من البلدة القديمة، والباقي هو جديد، ذلك أن مدينة القدس القديمة قد هدمت أكثر من مرة.

ومن هذا الباب دخل المسيح إلى القدس عندما جاء من بيت حنينا مع لازاروس الذي أقامه من الموت، ويقوم بيت حنينا في الشرق، مقابل جبل الزيتون، ومن هذا الباب إلى كنيسة قدس الأقداس هناك مائة وثمانية سغنس.

١٩ — قرية بيت حنينا

بيت حنينا بلدة ذات منطقة صغيرة قائمة في وادي خلف الجبل، وتبعد فرسخين عن القدس إلى الجنوب، ولدى دخول الانسان من باب البلدة يرى على اليمين مغارة، فيها قبر القديس لازاروس، وهناك أيضاً زنزانة وقع فيها مريضاً ومات، وهناك أيضاً كنيسة كبيرة عالية في وسط البلدة كانت مزينة بالطلاء بشكل بهي، وقالوا إنها تبعد اثني عشر سنغس عن كنيسة قيامة لازاروس، القائمة إلى الغرب من الكنيسة، بينما الكنيسة نفسها متجهة نحوالشرق، وخارج البلدة، باتجاه الغرب، هناك نبع ماء لطيف، ينبع من مكان عميق تحت الأرض، ينزل إليه بدرجات، وعلى مسافة فرسخ من بيت حنينا، على جانب القدس، هناك برج، أقيم على البقعة التي التقى فيها مرثى بيسوع، وفي هذا المكان أيضاً ركب يسوع ظهر أتان بعدما أقام لازاروس.

٢٠— *قرية جيسماني*

جيسماني قرية ملاصقة للقدس، وهي تحتوي على ضريح العذراء المقدسة، وهي قائمة فوق جدول قدرون في «وادي الدموع»، فبين نقطتي الصيف والشتاء تشرق الشمس في القدس.

٢١— *أبواب المدينة*

على بعد ثمانية سنغس من أبواب المدينة المكان الذي حاول فيه اليهودي أوخونياس Okhonias أن يلقي أرضا من على النعش جسم العذراء المقدس الذي كان محمولاً من قبل الحواريين ليدفن في جيسماني، لكن الملاك قطع يديه بسيفه، ووضعهما على النعش، وكان هناك ديراً في هذا المكان فيما مضى،لكن جرى تدميره من قبل الكفار.

٢٢ـ *مكان ضريح العذراء المقدسة*

وقدروا وجود مائة سنغس بين هذا المكان وبين ضريح العذراء المقدسة، وهذا الضريح قائم في واد، داخل مغارة صغيرة قدّت من الصخر، مع مدخل منخفض إلى حد يصعب فيه على انسان واقف المرور فيه، وفي نهاية المغارة، أمام المدخل، يمكن للانسان أن يرى نضد صغير قدّ من الصخر، ففوق هذا النضد وضع الجسد المقدس لسيدتنا المقدسة جداً التي هي أم الرب، وقد قامت وانتقلت من هناك دون أن يلحقها فساد إلى الفردوس، وارتفاع هذه المغارة بقدر قامة رجل، وهي بعرض أربعة أذرع وبالطول نفسه، ويحمل واقع المغارة من الداخل منظر بيعة صغيرة، لها واجهة مغطاة بألواح رخامية جميلة، وكان مبني من قبل هناك كنيسة كبيرة بمناسبة صعود العذراء المقدسة بعد ما قامت فوق قبرها، والمكان في الوقت الحالي مشعث مخرب من قبل الكفار.

٢٣— *الكهف الذي جرت خيانة المسيح فيه*

يبعد الكهف الذي سلم فيه المسيح إلى اليهود من قبل يهوذا مقابل ثلاثين قطعة من الفضة عشرة سغنس عن ضريح العذراء المقدسة،وهو قائم على الجانب الآخر من جدول قدرون، عند سفح جبل الزيتون، وليس بعيداً عن هذه البقعة، باتجاه الجنوب،، وعلى رمية حجر،يقوم المكان الذي أمضى فيه المسيح الليلة التي سلم بها لليهود ليصلب، وهناك صلى لأبيه وقال:« ياأبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس» (متى: ٢٦/ ٣٩)، ويقوم الآن في هذا المكان كنيسة صغيرة. وعلى بعد مقدار رمية سهم يوجد قبر يهوشافاط، وكان ملكاً لليهود، ولهذا السبب يُدعى هذا الوادي باسم وادي يهوشافاط.

وفي الوادي نفسه أيضاً ضريح القديس جيمس أخو الرب.

ويقع جبل الزيتون إلى الشمال الشرقي من القدس، وهو جبل مرتفع جداً، عندما يتسلقه الانسان من جهة جيسماني، والمسافة أكثر من ثلاث رميات سهم، لكن من جيسماني إلى الأب نسطور رمية سهم واحد.

٢٤— *المكان الذي بدأ فيه المسيح بتعليم حوارييه*

جرى بناء كنيسة كبيرة في هذا المكان، ويوجد تحت المذبح كهف علم فيه المسيح حوارييه الصلاة للرب، ومن هنا إلى قمة جبل الزيتون، حيث حدث صعود الرب، مسافة تسعين سغنس.

٢٥— *جبل الزيتون*

المكان الذي حدث فيه صعود ربنا قائم فوق قمة جبل الزيتون، ويوجد على الجانب الشرقي رابية صخرية صغيرة، كان فوقها صخرة مستديرة، ارتفاعها أعلى قليلاً من ركبة الانسان، ومن فوق هذه الصخرة صعد ربنا المسيح إلى السموات، وهذا المكان المقدس مغلق بشكل

دائري، ومبلط بـألواح رخـامية، ومحاط بغـرف على شكل أقبيـة، وبني في وسـط داخل الفنـاء بيعـة دائرية صغيرة، وهـي مكشـوفة للسماء وبـدون بلاط، وتحت هـذه القبة المفتوحـة تقوم الصخرة التـي وقفت عليها قـدما ربنا ومعلمنا، وقد بنـي فوق هذه الصخرة مذبح من ألـواح الرخام، وإنه هنـا في هذا المكـان يترأسون الآن القـداسات، وتقـع هذه الصخـرة تحت المذبح المقـدس، وهي مغلفه بـالرخام، وبذلـك يمكن للانســان أن يرى الجزء العلـوي منهـا وهـو الذي يقبلـه المسيحيـون، وللبيعـة بـابين، وعلى الانســان أن يصعد اثنتين وعشريـن درجة حتـى يصـل إلى مكان صعـود الرب.

ويشرف جبل الزيتون على القدس، ومـن على ذروته يمكن للانسان أن يرى كـل شيء في المدينة: قـدس الأقداس، وجميـع المنطقة امتـداداً حتى بحر سـدوم، والأردن، لابل حتـى إلى ما وراء النهر، وذلـك بقدر مـا جبل الزيتون هو أعلى الجبال قرب القدس.

٢٦— *مدينة القدس*

القدس مدينة كبيرة، ومحاطة بأسوار متينـة، وقد بنيت على شكل مربع، أطرافـه الأربعة متساويـة الطول، وهي محاطـة بعدد مـن الوديان الـوعرة، والجبـال الصخـرية، وهـي مكـان بـلا مـاء تماماً، ولايجد الانسـان قـرب القدس، لانهر، ولا آبار، ولاينابيع، اللهـم باستثنـاء بركة سلوان، وبناء عليه لايتملك سكـان البلدة مـع قطعانهم سوى مـاء المطر لـلاستخدام، وعلى الرغـم من ذلـك ينمو القمـح بخصب في تلـك المنطقة الصخـرية التـي تفتقر إلى المطـر، لكن بفضـل رضا الـرب ورحمته مـواسم القمـح والشعير ممتازة، ففـي بزر مكيـال واحد يحصـد الانسان تسعين ضعفـاً أو مائة. أو ليست مباركـة الرب ملقاة فوق هذه الأرض المقدسـة؟ وفي أحواز القدس هنـاك وفرة مـن الكروم، وأشجـار الفـاكهة، وشجـر التين، وشجر الجميـز، وشجر الزيتون، وشجر الخروب، وما لايحصى عدّه من الأشجار الأخرى.

ويوجد فوق جبل الزيتون، في الجانب الجنوبي، قرب مكان الصعود، كهف عميق يحتوي على قبر القديسة فيلاجيا Pelagia المحظية، وعاش هناك رجل عمودي ومستقيم جداً.

٢٧— *الطريق الذي يقود إلى الأردن*

يمر الطريق إلى الأردن فوق الجانب الشمالي الشرقي من جبل الزيتون، وهذا الطريق متعب جداً وخطير، ومعدوم الماء، وغالبا ما يطرأ قطاع الطرق على هذه الجبال الصخرية المرتفعة والشعاب المخيفة.

وقالوا هناك ستة وعشرين فرسخاً من القدس إلى الأردن، بما في ذلك خمسة عشر إلى كوزيبيا (دير القلط)، حيث صام القديس يوشيم بسبب عقمه، وهذا المكان هو إلى جانب مجرى مسيل قرب الطريق وعلى اليسار.

ومن كوزيبيا إلى أريحا خمسة فراسخ، ومن أريحا إلى الأردن ستة فراسخ كبيرة، وذلك عبر سهل رملي صعب، هلك عليه كثير من الحجاج بسبب الحرّ والعطش، وليس بعيداً عن هناك بحر سدوم الذي يصدر أبخرة محرقة ويحيط به جو منتن، مما يسبب دماراً لجميع المناطق المجاورة، وقبل الوصول إلى الأردن تأتي إلى دير القديس يوحنا المُبَشِّر، وهو قرب الطريق، وقائم فوق جبل.

٢٨— *جبل حرمون*

يقع جبل حرمون على مسافة تقارب العشرين سغنس من الدير، وهو على يسار الطريق، وهو هضبة رملية، صغيرة وليست كبيرة، والمسافة من حرمون إلى دير القديس يوحنا القديم هي رميتي سهم واسعتين، وكان هناك أربع كنائس واسعة مكرسة للقديس يوحنا المبشر.

٢٩— *المكان الذي رآه فيه البحر وهرب وحيث ينعطف الأردن عائداً*

هناك ليس بعيداً عن هذه الكنيسة، وفوق مرتفع على الجهة الشرقية،

بيعة صغيرة فيها مـذبح، ويبين هذا المكان الـذي تولى فيه يوحنـا المُبَشِّـر تعميـد ربنا يسـوع المسيح، ويصـل الأردن إلى هذه البقعـة، وعندمـا رأى خـالقه مقترب للتعميـد، ترك مجراه، واستـدار مرعـوبا عـائداً ،وكان بحـر سـدوم فيما مضـى يصـل حتـى مكان التعميـد، لكنـه الآن على مسـافـة تقارب الأربعـة فراسخ، وعلى هـذا رأى البحر الـرب عارياً في وسـط مياه الأردن، فهرب مرعوباً ، واستـدار نهر الأردن عائداً حسبما قال النبي: «لماذا هـربـت أيها البحـر؟ وأنـت أيها الأردن لماذا استـدرت عـائداً»؟ (المزامير: ٦٤/ ٥).

٣٠— *المكان الذي عُمد فيه المسيح*

يبعد المكـان الذي تعمد فيه المسيـح عن نهرالأردن مسافة رميـة حجر صغير من قبل الانسان.

٣١— *مكان الاستحمام*

هنا « مكـان الاستحمام» في نهر الاردن، وهنا يستحـم جميع المسيحيـون الذيـن يزورون البقعة، والمخـاضة التي تقـود إلى العربيـة قائمة هنـا فوق الأردن، ففـي هذا المكـان نفسه تقـدم لميـاه الأردن أن التفت عـائدة، فيما مضى مـن الزمن أمام الاسرائيليين، ويمـر جميع الناس فوق أرض جـافة، وهنـا أيضاً ضرب اليسـايـوس Elisaeus الماء بعباءة اليـــــاس، وعبر الأردن على أرض جـافـة، وهنـا أخيراً عبرت مريـم المصريـه الماء لتتسلـم القربان المقدس من الأب زوسيموس Zosimus، وبعدما تسلمت جسد المسيح عادت عبر الطريق نفسه إلى الصحراء.

٣٢— *الأردن*

نهر الأردن نهر سريـع: الضفـة على الطـرف الأقصـى المقـابـل جـرفيـة منحدرة جداً، وعلى هذه الجهة منبسطـة، والماء متوحل كثيراً، لكنه مقبول الطعم، ولايستطيع الانسان أن يشرب كثيراً مـن هذا الماء المقـدس، لأنه

لايضر، ولايعكر المعدة.

ويشبه نهر الأردن في كل مجال نهر سنوف، فله العرض نفسه والعمق،وله التعرجات نفسها والمجرى السريع، وعمقه أربعة سغنس في مكان الاستحمام فأنا جربت ذلك وقسته بنفسي، وعبرت إلى الضفة الأخرى من نهر الأردن وتجولت طويلاً هناك، وعرض نهر الأردن، هو عرض نهر سنوف نفسه عند مصبه، وعلى هذا الطرف من الأردن، قرب مكان الاستحمام هناك نوعاً من أنواع الغابة ذات الأشجار الصغيرة، مثل الصفصاف، وبعيداً على محاذاة الشاطيء هناك نوعاً من أنواع الشجيرات ليست مثل الموجود لدينا، لكن أكثر شبها بصفصاف الصحراء، وهناك أيضاً الكثير من القصب، والخلجان الصغيرة الكثيرة، كما الحال في نهر سنوف، والحيوانات البرية كثيرة، والخنازير الوحشية كثيرة جداً، وهناك كثير من النمور والأسود، وعلى الطرف الآخر من الأردن، بعيداً عن الشاطيء، هناك جبال وعرة، وعند سفوح الجبال هناك جبال أخرى لونها شديد البياض، وتمتد هذه نزولاً حتى الأردن، وتدعى المنطقة الواقعة على الطرف الآخر من الأردن باسم زبلون ونفتالي.

٣٣— *كهف القديس يوحنا المعمدان*

ليس بعيداً عن النهر، وعلى رميتي سهم نحو الشرق، يوجد المكان الذي حمل منه النبي الياس إلى السماء في عربة من نار، وهنا أيضاً كهف القديس يوحنا المعمدان، ويجري هنا جدول جميل فوق حصاة ويصب بالأردن، والماء حلو جداً، وبارد كثيراً، وقد شرب منه يوحنا المُبَشِّر بالمسيح، عندما سكن في هذا الكهف المقدس.

٣٤— *كهف النبي الياس*

ويوجد هنا كهف رائع آخر، ومن الممكن رؤيته، وهو الكهف الذي سكنه النبي الياس مع حوارييه اليسايوس (إليجا)، ولقد رأيت — برحمة

من الـرب— هذه الأماكن كلهـا بعيني الخاطئين، وسمح لي الرب بـزيارة الأردن المقدس ثـلاث مرات، وكنـا هناك أيضاً يـوم عيد الغطـاس، ولقد رأينا تبريكـات الرب تنـزل على مياه الأردن، وكـان على طرف النهـر عدد لايحصى من النـاس، وغنوا بشكل جميل جداً جميعاً أثنـاء الليل، وأشعلت نماذج كثيرة من المشاعل، وتمت تبريكات الماء في منتصـف الليل، ونزلت آنذاك روح القـدس فوق ميـاه الأردن، وكان هـذا يمكن رؤيتـه من قبـل النخبة فقـط، ولم ترحشود الناس شيئـاً، مع أن كل مسيحي شعـر ببهجة عارمة وبـاشراق في قلبه، وعندما صرخوا: « تقبل الـرب التعميد بالأردن» قفز جميـع الناس إلى الماء، وتعمـدوا بماء الأردن في وسط الليـل، مثلهم في ذلك مثل المسيح.

وعلى الطرف الأقصـى من النهر هناك جبـل مرتفع كثيراً يمكـن رؤيته من مسافة من على كل جانـب، فعلى هذا الجبل مات موسى، على مشهد من أرض المعياد.

والمسافـة هي فـرسخ واحد مـن دير القـديس يوحنـا إلى دير القـديس جيراسيموس، والمسـافة نفسها من هـذا الدير الأخير إلى قلمونيـة، أي دير العذراء المقدسة، فهنـا أمضت العذراء المقدسة الليل مـع يسوع المسيح، ويـوسـف، وجيمس أيـام فـرارهـم إلى مصر، وآنـذاك لقبت هـذا المكـان بقلمونيـة، الذي يعني «المسكن الجيـد»، ومازال روح القدس ينـزل هناك حتى اليـوم الحالي على صورة للعـذراء المقدسة، وهـذا الديـر الصغير قائم عند مصـب نهر الأردن، حيث يصـب في بحر سـدوم، وهو محاط بـأسوار، ويسكنه عشرون راهبـاً، وعلى بعد فـرسخين من هناك يقـوم دير القـديس يوحنا خـريسوستوم Chysostom (عند قصر حجلة ، أوتـل الكرسي)، وهو محاط بسور ومشهور بغناه.

٣٥ - بلدة أريحا

والمسافة من هناك إلى أريحا هي فرسخ واحد فقط ، وكانت هذه فيما مضى مدينة واسعة وقوية جداً، استولى عليها يوشع بن نون وهدمها بشكل كامل ، وهي في الوقت الحالي مجرد قرية مسلمة ، وفيها بيت زكريا ، وجزع شجرة تسلق عليها ليرى فيها إذا كان المسيح ما يزال موجوداً ، وهناك أيضاً مسكن شونامايت SHunamite الذي أعيد ابنه الى الحياة من قبل اليسايوس ، والأرض حول أريحا خصبة جداً ومنتجة ، وسطح الأرض مستو وجميل ، وفي تلك الأحواز كميات من أشجار النخيل العالية وجميع أنواع أشجار الفواكه ، وتنتشر عدة ينابيع فوق المنطقة وهناك الكثير من الأقنية ، وهي مياه (عين السلطان) اليسايوس ، التي جعلها النبي عذبة المذاق .

وعلى مسافة فرسخ من أريحا بإتجاه الشمال الشرقي ، المكان الذي ظهر فيه ميكائيل رئيس الملاكة الى يوشع بن نون ، بحضور جيش بني اسرائيل ، فعندما رفع يوشع رأسه رأى أمامه رجلاً مسلحاً مرعباًفقال له :« هل لنا أنت أو لأعدائنا » ؟ فأجابه رئيس الملائكة قائلاً: « أنا ميكائيل ، قائد جيوش الرب ، وقد أرسلني الرب لعونك ، كن جريئاً، وأنت سوف تسحق أعدائك وزيادة على هذا قال له : « اخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت واقف عليه هو مقدس (يشوع : ٥/ ١٣ــ ١٦) ثم سقط يشوع على وجهه فوق الأرض ، وتعبد الرب .

وقد أقيم فوق هذا المكان دير وكنيسة ، وقد كرسا على اسم القديس ميكائيل ، وفي هذه الكنيسة اثنتي عشرة صخرة نقلت من مجرى نهر الأردن ، عندما تراجعت مياه النهر أمام بني اسرائيل ، لتكون ذكرى لذراريهم ، وكان الكهنة الذين حملوا تابوت عهد الرب ، قد جمعوا من الصخور ما يساوي عدد أسباط بني اسرائيل ، ويعرف هذا المكان باسم

جلجال، وهنا عسكر الاسرائيليون بعد عبورهم للأردن .

٣٦ - *جبل جبعون*

إلى الغرب من هـذا المكان يوجد جبـل يدعى جعبون (جبـع) (جبل قرنطـل) الذي هو جبل مـرتفع وواسع جـداً ، ففوق هذا الجبل تـوقفت الشمس عـن الحركة لمدة نصـف يوم ، حتى يتمكـن يوشـع بن نـون من الانتصار على أعـدائه عندما قـاتل ضد عـوج ملك بـاشان وجميع ممـالك كنعان ، وعندما سحقهم يوشع تماماً غابت الشمس .

٣٧ - *الكهف الذي صام فيه المسيح أربعين يوماً*

وعلى جبل جبعون هـذا نفسه هناك كهف مرتفع كثيراً ، فيـه صام ربنا المسيـح لمدة أربعين يـوماً وعنـدمـا كـان جـائعاً فيها بعـد ، اقترب منـه الشيطان ، ورغب في أن يغـريه وقال له :« إذا كنت أنت ابـن الرب فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً » (متى : ٤/ ٣).

وعلى مسـافة قـريبة ، أي على نصـف فرسـخ من جبعـون هناك بيت النبي الياس ، وكذلك كهفه وبئره .

ويقع دير القديس ثيوديوس (ديـر دوسي أو العبيدية أي خربة دير ابن عبيد) على بعـد ستة فراسـخ من القـدس ، وهو قائم على جبـل ، وكان محاطاً بسور ، ومـن الممكن رؤيته من القـدس ، ويوجد في داخل الـدير كهف واسع، أمضى فيه الحكماء المجوس الليـل عندما هربوا من هيرود ، وترقـد الآن فيه هناك بقـايا القديس ثيـوديوس مع بقـايا عدد مـن الآباء المقدسين وذلـك بالاضافقة الى بقـايا أم القديس سـابا وكذلك بقـايا أم القديس ثيوديوس .

٣٨- *دير القديس سابا*

ويقـولون هنـاك ستة فـراسـخ من هـذا الديـر الى ديـر القديـس سابـا

ويـواجـه كلا الـديـريـن الجنوب ، ويقـوم ديـر القـديس سـابـا في وادي يهوشـافـاط أو «وادي الـدمـوع» ، الذي يبـدأ مـن عنـد القـدس، ويعبر جيسماني ، ويدخل في الـدير ، وينتهي في بحر سدوم ، وبنعمـة من الرب وضـع دير القـديـس سابـا رائع يعجز المرء عـن وصفـه ، وقعر الـوادي صخري جاف ، يرعب الناظر اليـه وهو عميق جداً ، وهو مغلق بجدران عالية من الصخور ، عليها تم اثبـات حجر الخلوات وحفظت بيد الرب بشكل مـدهش ومرعـب، وهذه الخلوات مربـوطة بالجروف التـي تحلق فوق قعـره الصخري المرعب ، وهـي مثبتة على الصخور مثـل النجوم في قبة السماء .

وهناك ثلاث كنائس وسط الخلـوات ، وهناك في الجانب الغربي تحت صخـرة مغارة مـدهشة تحتـوي على كنيسة مكـرسة للعـذراء المقدسـة ، وكشفت هذه المغارة الى القـديس سابا بوساطة عمود مـن نار ، فقد كان آنذاك يسكـن وحيداً منقطعـاً في قعر الوادي ، وتبعـد الخلوة التـي سكن القديـس بها بالأصـل نصف فـرسخ عـن الديـر الحالي ، ومن هنـاك أراه الرب بوسـاطة عمود من نـار ، المكان المقدس ، الذي يقـوم فيه الآن دير القديس سابا ، ويقع قبر القديس سابا بين الكنائس الثلاث ، على بعد أربعة سغنس مـن الكنيسة الرئيسة ، وهو مغطى الآن بمـزار جيد البناء ، وتـرقد هنـاك بقايـا عدد كبير آخـر مـن الآباء المقـدسين منهم :الأسقـف القـديس يـوحنـا الصامـت ، والقديـس يـوحنا الـدمشقـي ، والقديـس ثيودروس الـرهاوي ، وحفيده ميخائيـل ،والقديس أفروديـوس،وعدد كبير آخر من القديسين،وبقاياهم محفـوظة بشكل تام،ويصدر عنها روائح طيبة بلا حدود ، ورأيت أيضـاً بئر القديس سابا ، الـذي دلته عليه أتان حمار الـوحش في إحـدى الليالي ، في قعـر ذلك الـوادي ، أمام خلـوته ، ولقـد شربت من ماء هـذا البئر الذي هو بارد جداً ومقبـول ، ولا يوجد في تلك الأطراف لا نهر ولا مجرى مـاء ولا بئر غير بئر القديـس سابا ، ويقـع المكان

في وسط جبال صخرية وعرة وجرداء ، والمنطقة من حوله كلها جافة بسبب الحاجة الى الماء ، ولا يمتلك النساك الذين يعيشون هناك سوى مياه الأمطار.

وعلى مسافة قصيرة من الدير وباتجاه الجنوب ، هناك مكان يدعى روبا RUVA،وذلك ليس بعيداً عن بحر سدوم،وهو مغلق بوساطة جبال عالية،تحتوي على الكثير من الكهوف،رقد فيها بعدما سكن عدد من الآباء المقدسين،في هذه الصحراء المرعبة،ويعيش هناك أيضاً الكثير من النمور وحمار الوحش. وبحر سدوم بحر ميت،لايحتوي على أي كائن حي سواء من الأسماك أو القواقع أو الأسماك الصدفية،وإذا ماحمل المجرى السريع للأردن أية أسماك إليه،لايمكنها العيش هناك ولو لساعة واحدة،بل تهلك على الفور، وينبع اسفلت أحمر اللون من قعر البحر، ويتجمع على شكل كتل كبيرة على الشاطىء، وهذا البحر يصدر روائح كريهة مثل الذي يصدر عن الكبريت المحترق، فجهنم الحمراء تقع تحت هذا البحر.

٣٩-*دير القديس يوثيموس*

ويقف على بعد ثلاثة فراسخ الى الشرق من دير القديس سابا،وخلف الجبل،دير القديس يوثيموس Euthymius (خربة مـــردو أو خان السحل، أو خان أخضر) ومـاتزال آثاره ترقد هناك مع آثار عدد كبير من الآباء المقدسين الآخرين،وهذا الدير قائم في وادي،ومحاط على مسافة منه بجبال صخرية وعرة،وكان بالعادة محاطاً بسور،ويمتلك كنيسة جميلة وعالية،وكان دير القديس ثيوكتستوس theoctistus (خربة الزرنق) ملاصق له تماماً،عند سفح الجبل ،الى الجنوب،من دير يوثيموس، وهذه الأماكن كلها مخربة بوساطة الكفار.

٤٠-جبل صهيون

صهيون جبل واسع ومرتفع،وهو يواجه الجنوب، ومنحدرراته من جانب القدس لطيفة جداً،وعليها بني قديماً مدينة القدس القديمة،التي دمرت من قبل نبو خذ نصر،ملك بابل،في أيام النبي إرميا،وجبل صهيون في هذه الأيام قائم خارج أسوار المدينة، الى الجنوب من القدس،وكان على جبل صهيون هذابيت القديس يوحنا الانجيلي،وقد بني هناك كنيسة كبيرة ذات سقف خشبي، والمسافة بين سور المدينة،والكنيسة المقدسة لجبل صهيون تقارب رمية حجر لطيفة،وخلف مذبح هذه الكنيسة توجد الحجرة التي غسل فيها المسيح أقدام حوارييه.

٤١-بيت يوحنا الانجيلي الذي جرى فيه تناول العشاء المقدس

ونمشي من هذه الغرفة باتجاه الجنوب،ونصعد الى حجرة أخرى بوساطة درج،سقفها مدعوم بوساطة أعمدة، وهي مزينة بالفسيفساء،كما أن هذه الحجرة مبلطة،ومثلها مثل كنيسة فيها مذبح قائم في النهاية الشرقية ،ولقد حدث في بيت يوحنا الانجيلي أنه تمّ العشاء المقدس للمسيح مع حوارييه،وهنا كان أن قال يوحنا وهو متكيء على صدر المسيح:«مولاي،من هو الذي سوف يخونك»؟(يوحنا:١٣/ ٢٥)،وفي هذا المكان نفسه نزلت الروح القدس على الحواريين يوم عيد الحصاد،ويوجد في هذه الكنيسة نفسها،في الطابق الأرضي،حجرة منخفضة أخرى،ظهر فيها المسيح في وسط حوارييه،مع أن الباب كان مغلقاً ،وقال:«سلام لكم»(يوحنا :٢٠/ ١٩)،وهنا أيضاً ارتبك توما في اليوم الثامن،وأرونا هناك صخرة مقدسة جلبوها من جبل سيناء بوساطةملاك،وعلى الجانب الآخر من الكنيسة،نحو الغرب،هناك حجرة أخرى أيضاً موجودة في الطابق الأرضي،فيها أسلمت العذراء المقدسة الروح،ووقعت هذه الحوادث كلها في بيت القديس يوحنا الانجيلي.

وكان هناك بيت كيفاس،حيث أنكر بطرس المسيح ثلاث مرات،قبل أن يصيح الديك، ويقوم هذا المكان الى الشرق من صهيون.

٤٢-المكان الذي أنكر فيه بطرس المسيح ثلاث مرات،فبكى بحرقة

وليس بعيداً من هناك،على السفوح الشرقية للجبل،هناك مغارة عميقة ينزل إليها الانسان باثنتين وثلاثين درجة،فهناك بكى بطرس بحرقة(بعد) انكاره،وبنيت كنيسة فوق هذه المغارة وأطلق عليها اسم الرسول بطرس المقدس.

٤٣-بركة سلوان

وأبعد قليلاً الى الجنوب ،عند سفح الجبل،توجد بركة سلوان،حيث رد المسيح البصر الى رجل أعمى.

٤٤-حقل الفاخوري

عند سفح جبل صهيون نفسه هناك حقل الفاخوري،(الخزاف)الذي اشتروه، والمسيح ثمنه،ليكون مدفناً للغرباء،وهو في الجانب الآخر من الوادي ،أسفل جبل صهيون،والى الجنوب من ذلك الجبل، وهناك كثير من الكهوف محفورة على جوانبه،وفي هذه الكهوف قبور جاهزة تماماً،وهي منحوتة بشكل جميل في الصخور.

وهم يدفنون هناك الرحالة الغرباء بلا مقابل،ولا يسمحون بأخذ أي شيء من هذا المكان المقدس،لأنه شري بدم المسيح

٤٥-بيت لحم

تقع مدينة بيت لحم المقدسة على بعد ستة فراسخ الى الجنوب من القدس المقدسة، وهي على بعد فرسخين عبر السهل الى المكان الذي ترجل فيه ابراهيم من على ظهر مطيته،وترك هناك خدمه الصغار مع الأتان،وأخذ ابراهيم ابنه ليضحي به،وطلب منه أن يحمل معه الخشب

والنـار،ثـم قـال لـه اسحـق:«هـو ذا النـار والحطـب ولكـن أيـن الخروف للمحرقة»؟وأجابه ابراهيم:«اللـه يرى له الخروف للمحرقة».(التكوين:٢٢ / ٧-٨)،وسار اسحـق وهو مبتهج على الطريـق المؤدي الى القدس،وحمل الى المكـان نفسه الـذي صلب فيـه المسيـح فيما بعد ، وعلى بعـد فرسـخ واحد فقـط من هنـاك توجـد البقعة التـي رأت فيها العـذراء المقدسـة رجلين ، بكى أحدهما والآخـر ضحك ، وبني فوق المكـان كنيسة ودير ، وكرسـا للعذراء المقدسـة ، لكنهما الآن مهدمـان من قبل الكفـار ، ومن هناك الى ضريح راحيل أم يوسف مسافة فرسخين .

٤٦ ـ الكهف الذي ولدت فيه العذراء المقدسة المسيح

وعلى بعد فـرسخين من هناك يوجـد المكان الذي شعرت فيـه العذراء مريـم بآلام المخاض ، فترجلت مـن على ظهر أتانها ، وهنـاك صخرة كبيرة ، استراحت عليهـا بعدمـا ترجلـت ، ثم تـابعت رحلتهـا سيراً على الأقدام حتـى الكهف المقـدس ، وفي ذلك الكهـف ولدت المسيـح ، والمسافـة من تلك الصخرة الى مكان ميلاد المسيح ، تساوي رمية سهم جيدة .

٤٧ ـ كنيسة ميلاد المسيح

هـي كنيسـة كبيرة على شكل صليـب لها سقـف خشبـي قائمـة فـوق مغارة المهد ، والسقف مغطى تماماً بالـرصاص ، وداخله مزين بصور من الفسيفسـاء ، وفيها خمسـون عموداً رخـامياً ضخماً ، ومبلطة بـألواح مـن الرخـام الأبيض ، ولها ثـلاثة أبـواب ، وطولها حتـى المذبح الكبير خمسين سغنس وعـرضها عشرين سغنـس ، وتحت المذبح الكبير هنـاك المغارة والمزود حيث حدثـت ولادة المسيح ، وهذه المغارة عبارة عـن كهف جميل وواسع ، وتنزل درجـاً بسبع درجات حيث باب المغارة المقـدسة ، الذي لـه مدخلين ، وتهبـط من كـل مـدخل سبـع درجات ، وإذا دخلـت الى المغارة المقدسـة بوساطة البـاب الشرقي ، يمكنـك أن ترى على الطرف

الأيسر، فوق الأرض ، المكان الـذي ولد عليه ربنا المسيح ، ويوجـد فوقه مذبح يقيمون من عليه القداس .

٤٨ ـ مزود المسيح

يقوم مكان الميـلاد على الجانب الأيسر، ومقابل ذلـك الى اليمين قليلاً مهـد المسيح تحت صخـرة قائمـة على الجانـب الغربي ، ففـي هذا المهـد المقدس وضـع ربنا المسيـح ، ولف بأقمشـة رخيصة بـالية ، وهـو الذي عانـى لخلاصنا ، وهذين المكـانين ـ مكان الولادة والمهـد متلاصقين إلى جانـب بعضهما بعضاً، ويفصل بينهما ثـلاث سغنس ، وهما مـوجودان في المغارة نفسها المغطـاة بالفسيفساء والمبلطة بشكـل جيد ، وتحت الكنيسة عدد من الكهوف يـرقد فيها بقايا الكثير من القـديسين ، وعند مخرجك من الكنيسـة ، هناك على اليمين كهف عميـق قائم تحت الكنيسـة ، فيه دفنـت بقـايـا الأبـريـاء المقدسين ومـن هنـاك نقلـت هـذه البقـايـا إلى القسطنطينية ، ويحيـط بالكنيسـة سور مـرتفع ، وقـام مكان الميـلاد فوق جبـل غير مسكون ومهجـور، وهو الآن محاط بـالأسوار، ويشير إلى مكـان ميلاد المسيـح ، الذي يـدعونه بيـت لحم ، وكانـت بيت لحم القـديمة مكانـاً صغيراً أمام المكـان الفعلي لميلاد المسيح ، وهنـاك في أيامنـا عمود صومعـة والصخرة التـي ارتاحـت عليها العـذراء المقدسـة ، فهنا كـانت بيت لحم القديمة .

وتدعـى المنطقة المحيطـة باسـم أفرانـه وأرض يهودا ، التي قـال عنها النبـي :« أما أنـت يـا بيـت لحم ، أرض يهودا ، لست الأدنـى بين المدن الرئيسية ليهـودا ، لأنه منك سوف يخرج القائد الذي يقـود شعبي شعب اسرائيل » (ميخـا : ٥/ ٢) ، وأحواز بيت لحم هـي جبال وهي جميلـة جداً ، فالسفوح المنخفضـة للجبال مغطاة بأشجار الفواكـه ، والزيتون والتين ، وأشجـار خروب تفـوق الحصر، والكـروم كثيرة قـرب بيت لحم ، وهنـاك العديد من الحقول الخصبة في الوادي .

وليس بعيـدا عن كنيسـة المهد ، وخارج الأسـوار ، وعلى مسافـة رمية سهم نحـو الجنوب هناك مغـارة كبيرة ، محفورة في الجبل ، وفيهـا سكنت العذراء المقدسة مع المسيح ويوسف .

٤٩ - بيت يسي والد داود

وعلى رمية سهم الى الشرق من بيت لحم هنـاك مكان اسمه بيت إيل ، وهو بيـت يسي والد داود ، فهنـاك كان ، وحـدث في هذا البيـت أن قام النبي صموئيل بمسح داود ملكاً لبني اسرائيل ، مكان شاؤول .

٥٠ - بئر داود

وهناك أيضاً بئـر داود الذي رغب مرة في الشرب من مـائة ، وهو قرب المكان الـذي أعلن فيه الملائكـة للرعـاة عن ميلاد المسيـح ، فعلى بعد فرسخ الى الشرق مـن مكان الميلاد هناك في السهل البقعة القـائمة عند سفح الجبل ، ففيها أعلن الملائكة المقـدسين عن ميلاد المسيح للرعاة ، وكـان يوجـد هناك كهـف بني عليـه وأحيط بكنيسـة جميلة ، أطلـق عليها اسم القديس يوسف ، وكان إلى جانبها دير جميل ، وجرى تدمير هذه الأماكن من قبل الكفار ، ويقـوم هذا المكان وسط سهل جميل حيث الحقول خصبـة جداً ، وحيث الزيتـون كثير جداً ، ويدعون هـذا السهل باسـم أغيا بيمينا (حقل الـرعاة) أي « المرعى المقدس» ويمتلـك دير القديس سابا أرضاً هناك ، قائمة على سفح الجبل الى جانب بيت لحم .

٥١ - الكهف وبلوطات ممرا

وتقوم الخليل ، والكهـف المزدوج وبلوطات ممرا الى الجنـوب من بيت لحم ، والمسافـة من القـدس الى الخليل هي ثمانيـة وعشرين فـرسخاً ، ويمر الطـريق ببيـت لحم الذي يقولـون إن المسافة إليهـا ستة فـراسخ ، وهنـاك ثلاثـة فـراسخ مـن هـذه المدينة الى نهر إيشام Etham(وادي أرطاس) ففي هذا النهر قـال النبي داود في المزمور :« أنت جففت أنهار

ايثام : لك النهار، والليل لك أيضاً » (المزامير: ٧٤/ ١٥ ـ ١٦) .

وبجرى هذا النهر جاف جداً هذه الأيام ، لكنه يجري تحت الأرض ويعاود الظهور قرب بحر سدوم ، الذي يصب فيه ، وهناك على الطرف الآخر من النهر جبل وعر مرتفع ، وهو مغطى بغابة واسعة وكثيفة ، والطريق عبر هذا الجبل الموحش خطرة ، وينقض المسلمون ، مستفيدين من هذا الممر، على الذين يغامرون في مواجهة المخاطر بأعداد صغيرة ، وبالنسبة لي هيأ الرب لي جماعة كبيرة وجيدة ، وبذلك كنت قادراً على عبور هذا المكان المخيف بدون معيقات ، وليس بعيداً عن ها هنا بلدة عسقلان ، التي يقدم منها المسلمون بأعداد كبيرة ، ويهاجمون المسافرين في هذا الممر وعلى هذا الجبل ، وفي هذه الغابة الكثيفة قتل أبسلوم بن داود ، فقد كان هارباً من وجه جيوش أبيه ، وحمله بغله الى أكثف مكان في الغابة ، وأمسكه أحد الأغصان من شعره فبقي معلقاً الى الشجرة ، وتلقى ثلاث رميات في قلبه ، وعلى هذه الصورة مات على الشجرة وقالوا بوجود عشرة فراسخ من هناك الى بئر حلفاء ابراهيم وستة فراسخ من هذا البئر الى بلوطات ممرا .

٥٢ ـ *الموضوع نفسه*

وتقوم هذه البلوطات على جبل مرتفع الى جانب الطريق ، على الجهة اليمنى ، ومنظرهن منظر رائع ، وبلط الرب حول جذورهن الأرض برخام أبيض مثل أرضية كنيسة ، وإنه لأمر رائع أن ترى هذه البلوطات المقدسات منتصبات قائمات من وسط هذه الصخور، وقمة الجبل هذا حول الشجرات عبارة عن أرض مفتوحة بدون صخور، والى جانب هذه البلوطات ، باتجاه الشرق ، نصبت خيمة ابراهيم ، والبلوطات ليست عالية جداً لكن كثيرات العقد ولهن أغصان كثيرة محملة بالثمار، والأغصان ليست عالية الى حد أن الانسان الواقف على الأرض يستطيع أن يلامسهن، ومحيطهن حسبما قسته بنفسي هو

سنغنسان ، وارتفاع الجزع حتى الغصن الأول سغنس ، ولا يستطيع الانسان إلا أن يعجب نحو هذه الأشجار الرائعة التي توجت هذا الجبل المرتفع لمثل هذا العدد الكبير من القرون ، وهي لم تقع ولم تهترىء ، بل ما تزال صامدة محفوظة من قبل الرب ، وكأنهن قد زرعن الآن ، وهناك بارك الثالوث المقدس ابراهيم وزوجته ساره ، عندما كانا متقدمين بالسن ، ورزقهما بولدهما اسحق ، وأرى الثالوث المقدس أيضاً ابراهيم النبع الذي يشكل في هذه الأيام بئراً عند سفح الجبل ملاصقاً للطريق، وتدعى جميع المنطقة المحيطة بالبلوطات باسم ممرا ، ويقولون هناك فرسخان من هناك الى الخليل .

٥٣ - *جبل الخليل*

الخليل هي جبل مرتفع ، يوجد عليه بلدة واسعة جداً ، وأبنيتها قديمة جداً ، وسكن الجبل فيها مضى أعداد كبيرة من السكان ، لكنه الآن مشعث ، وكان أول من سكن جبل الخليل هو كنعان بن حام حفيد نوح الذي جاء بعد الطوفان وبناء برج بابل ، واستوطن جميع المنطقة من حول الخليل، ولهذا السبب دعيت أرض كنعان ، وهذه هي الأرض التي وعد الرب بها ابراهيم عندما كان في بلاد الرافدين في حران حيث كان بيت أبيه . وقال الرب لابراهيم :« اذهب من بلادك وبيت أبيك ، واسكن في أرض كنعان ، وأنا سوف أعطي تلك الأرض إليك وأجعلك مخصباً دوماً وسأكون معك»(التكوين: ١٢/ ١) ، وفي الوقت الحالي هذه الأرض والحق يقال هي أرض ميعاد الرب والعطاء له مع جميع الأشياء الجيدة : فالقمح ، والكروم ، والزيتون وجميع أنواع الخضروات تنمو فيها بوفرة ، والقطعان كثيرة ، فالأغنام وبقية الحيوانات تلد مرتين في السنة ، وهناك أعداد واسعة من الغزلان تعيش بين صخور هذه الجبال الجميلة ، وسفوح هذه الجبال مغطاة بالكروم وبأعداد لا تحصى من أشجار الفواكه من زيتون ، وتين وخروب ، وتفاح وتوت

وأشجار أخرى ، وجيع أنواع الخضار ، التي هي هنا من أفضل وأكبر مما هو موجود في بقية الأرض ، فما من مكان تحت السماء يعادلها ، والماء في هذه البلاد رائع ويتوافق مع مذاق كل انسان ، وجميع المناطق المحيطة بالخليل متميزة بجمالها وبخصبها الذي لا يمكن وصفه ، وعلى جبل الخليل كان هناك أيضاً بيت داود ، الذي عاش فيه ثمانية أعوام ، وعندما طرد من قبل ابنه ابسلوم ، ويقع كهف الخليل المزودج على نصف فرسخ فقط من الخليل ، وهومحفور بالصخر ويحتوي على قبور : ابراهيم واسحق ويعقوب ، واشترى ابراهيم هذا الكهف المزدوج من عفرون الحثي ، ليكون مدفناً لجميع أولاده وكان ذلك عندما جاء من بلاد الرافدين الى أرض كنعان ، وكان هذا الكهف المزدوج ، الذي اشتراه ليكون مدفناً له ولأسرته أول شيء استحوذ عليه ، ويحيط بالكهف حصن قوي وصغير ، وقد بني بشكل رائع من حجارة منحوتة شكلت أسواراً عالية ، والكهف هو داخل الحصن ، وجميع الاطار المحيط به مبلط بألواح رخامية بيضاء ، وتحت هذا البلاط يوجد الكهف المنحوت حيث يرقد : ابراهيم واسحق ويعقوب ، وأولاده ، وزوجاتهم : سارة وربيكا (رفقة) ، وليس راحيل ، لأنها دفنت الى جانب طريق بيت لحم ، وهذه الأضرحة مفصولة عن بعضها بعضاً داخل الكهف ، وكل واحد منها محاط ببيعة مستديرة صغيرة وضريح ابراهيم وكذلك ضريح زوجته سارة الى جانبي بعضهما ، وكذلك الحال بالنسبة لقبري اسحق وزوجته ربيكا ، ويعقوب وزوجته ليا .

٥٤ - قبر يوسف

قبر يوسف « الأثير» موجود خارج المبنى ، وهو على رمية حجر من الكهف المزدوج ، ويحمل هذا المكان في هذه الأيام اسم « القديس ابراهيم » وعلى مقربة من هذه البقعة ، وعلى بعد فرسخ من الكهف المزدوج باتجاه الشرق ، هناك جبل مرتفع صعده الثالوث المقدس مع

ابراهيم الذي رافقهم من بلوطات ممرا ، وعلى قمة هذا الجبل هناك مكان جميل سجد فيه ابراهيم الى الأرض ، وتعبد الثالوث المقدس ، وقدم إليهم الدعاء التالي :

٥٥ - دعاء ابراهيم

« فتقدم ابراهيم وقال : : أفتهلك البار مع الأثيم . عسى أن يكون خمسين باراً في المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشى لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشى لك أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً. فقال الرب : إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم ، فأجاب ابراهيم وقال : إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة . فقال لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين . فعاد يكلمه أيضاً وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون . فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم . عسى أن يوجد هناك ثلاثون . فقال : لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين . فقال : إني شرعت أكلم المولى . عسى أن يوجد هناك عشرون . فقال : لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط ، عسى أن يوجد هناك عشرة . فقال : لا أهلك من أجل العشرة » (بالأصل : خمسة).

وصمت إبراهيم ولم يتجرأ أن يجيب، وأرسل الثالوث المقدس من هذا الجبل اثنين من الملائكة إلى سدوم لتمكين لوط ابن أخي إبراهيم من الفرار من المدينة، وهناك قدم إبراهيم أضحية إلى الرب، ورمى قمحاً في النار، وبناء عليه يدعى هذا المكان «أضحية إبراهيم»، وهو قائم على ارتفاع معتبر، ومنه يمكن رؤية جميع بلاد كنعان.

والمسافة من «أضحية إبراهيم» إلى وادي «جرزنووا» Greznowa فرسخ واحد، وكذلك من وادي جرزنووا إلى عتبات الأناضول. (أندرو؟)

٥٦- *ضريح لوط في سيجور*

ومن هناك إلى سيجور فرسخين، وهناك يمكن رؤية ضريح ابنتيه، وهما مدفونتان في ضريحين منفردين، ويوجد في هذا الجبل كهف واسع اتخذه لوط مع ابنتيه ملجئاً، وهناك أيضاً بقايا مدينة تعود إلى السكان الأول لهذه البلاد، وهي قائمة على أعالي هذا الجبل، ويدعى المكان سيجور، وعلى فرسخ من سيجور، باتجاه الجنوب، هناك عمود حجري، هو زوجة لوط، وهناك مسافة فرسخين من هناك إلى سدوم، ولقد رأيت هذا كله بعيني، لكن لم يكن بإمكاني الذهاب إلى مكان سدوم خوفاً من الكفار، ومنعني المؤمنون من الذهاب إلى هناك قائلين: «ليس هناك شيئاً مفيداً لتراه هناك، وستنال فقط الازعاج والتعب، لأن روائح النتن منتشرة هناك وسوف تجعلك مريضاً، ونتيجة لذلك عدنا إلى «القديس إبراهيم» وبحماية الرب ورحمته وصلنا إلى مزار الكهف المزدوج بصحة جيدة، وبجلنا هذه الأماكن المقدسة واسترحنا هناك لمدة يومين، وحمداً للرب وجدنا جماعة كبيرة متوجهة إلى القدس، فالتحقنا بها، وقمنا بالرحلة معاً مسرورين وبدون خوف، وهكذا وصلنا سالمين إلى مدينة القدس المقدسة. وحمدنا الرب الذي سمح لنا نحن الذين لانستحق بزيارة هذه الأماكن، التي من غير الممكن وصف قداستها بأية طريقة من الطرق لا بالكلام ولا بالكتابة.

وإلى الجنوب من بيت لحم، يقوم دير القديس شارتون (خربة الخرتون) على نهر ايسام المتقدم ذكره، وهو ليس ببعيد من بحيرة سدوم، في وسط جبال وعرة، وفي مكان مهجور، وهذا المكان مخيف، وأجرد، وهو محروم من الماء تماماً، يقوم أمامه جرف صخري وعر، وكان الدير محاط بالأسوار، وفي داخل المزار هناك كنيستين، تحتوي الكبيرة منهن قبر

القديس شيراتون، ويوجد خارج الأسوار كهف مقبرة واسع يحتوي على بقايا آباء مقدسين، رقدوا هناك، وقد يصل عددهم إلى أكثر من سبعمائة، وبين بقايا عدد كبير هناك بقايا القديس سرياقوس المعترف، الذي مايزال جسده محفوظ بحالة سليمة مع قبري يوحنا وأركاديوس ابني اكزنفون، وعنهما تصدر روائح طيبة، وقدمنا احترامنا إلى هذا المكان المقدس وتسلقنا الجبل فرسخاً إلى الجنوب من الدير.

وهناك مكان ناعم في الحقل، حمل منه الملاك النبي حبقوق المقدس، عندما كان يحمل طعاماً وشراباً إلى الحواصيد، وجلبه إلى بابل، إلى عرين (الأسد) العائد للنبي دانيال، وبعدما أشبع دانيال وأزال جوعه وأطفأ عطشه، حمله عائداً في اليوم نفسه والساعة نفسها إلى الحواصيد حيث أعطاهم غداءهم، وبني على البقعة نوع من أنواع المزارات إحياء لذكرى هذه المعجزة، ذلك أن بابل تبعد عنها مسافة أربعين يوماً، وهناك أيضاً قرب هذا المكان كنيسة كبيرة لها سقف خشبي، مكرسة للأنبياء المقدسين، ويوجد تحت الكنيسة كهف كبير، يرقد فيه في ثلاثة صناديق بقايا اثني عشر نبيا هم: حبقوق، ناحوم، ميخا، حزقيا، عوبيدا، زكريا، حزقيال، اسماعيل، ساول، باروخ، عاموس، وهوشع، وعلى الجبل المجاور هناك قرية كبيرة جداً، مسكونة من قبل عدد كبير من المسلمين والمسيحيين، وهي القرية التي ولد فيها الأنبياء المقدسون، وحيث بيوتهم أيضاً، وأمضينا ليلة هناك بحماية نعمة الرب، واستقبلنا استقبالاً جيداً من قبل المسيحيين الساكنين هناك، وبعدما استرحنا ليلة جيدة هناك استيقظنا باكراً، حتى نمضي إلى بيت لحم، وحمل مقدم المسلمين سلاحه ورافقنا وحرسنا حتى وصلنا إلى بيت لحم، وصاحبنا إلى كل مكان، ولولاه لما كان بإمكاننا السفر في هذه الأماكن بسبب وجود أعداد كبيرة من المسلمين يقطعون الطريق في الجبال، وهكذا وصلنا بسعادة إلى بلدة بيت لحم المقدسة، وبعدما عبدنا مكان ميلاد المسيح، أمضينا الليلة

هناك وعدنا مسرورين إلى مدينة القدس المقدسة.

٥٧— *المكان الذي قتل فيه داود جالوت*

وإلى جوار القدس، وعلى رمية سهم إلى الشرق من برج داود يوجد المكان الذي قتل فيه داود جالوت، وهو في سهل قرب صهريج ماء (قلعة جالوت)، ومن الممكن أن يرى الآن هناك حقل قمح جميل.

وعلى رمية سهم من هناك الكهف الذي ترقد فيه بقايا عدد كبير من الشهداء الذين قتلوا في القدس أيام حكم هرقل، ويدعى هذا المكان باسم حاجيا ماملا.

٥٨— *المكان الذي نمت فيه شجرة الصليب المقدس*

المسافة من هذا المكان إلى مكان الصليب المقدس هي فرسخ واحد، والمكان هذا قائم إلى الغرب من القدس، خلف جبل، فمن هناك قطعوا أعواد الصليب، الذي سمرت إليه القدمين المقدسين لربنا يسوع المسيح، ومحاط هذا المكان بأسوار، يقوم في وسطها كنيسة كبيرة، مكرسة للصليب المقدس، وهي مزينة بالرسومات بشكل ثري، وعند المذبح العالي، ودونه، يوجد جذع الشجرة المقدسة مغطى بألواح رخامية بيضاء، ومتروك هناك فتحات صغيرة مستديرة، يمكن من خلالها رؤيته، وهناك يقوم الدير الاسباني.

٥٩— *بيت زكريا*

هناك أربعة فراسخ من هذا الدير إلى بيت زكريا، القائم عند سفح جبل غربي القدس، وإلى بيت زكريا هذا جاءت العذراء المقدسة لتحيي اليزابث، وماأن سمعت اليزابث صوت مريم حتى قفز طفلها في داخلها لسروره وصاحت بصوت مرتفع:«مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة

بطنك. فمن أين لي هـذا أن تأتي أم ربي إليّ». (لـوقا: ١/ ٤٢). وولـد في هذا البيت نفسه يـوحنا المبشر، وتشغـل هذا المكـان الآن كنيسة، ولـدى دخولـك إلى هناك، بـاتجاه اليسار، تحت المذبـح المنخفض، هنـاك كهف صغير، فيه ولد يوحنا المبشر، والمكان كله محاط بحصن حجري.

٦٠— الجبل الذي التجأت إليه اليزابث مع المبشر

على نصـف فرسـخ من هنـاك، وعلى الطرف الآخـر من الـوادي المليء بالأشجار، يقوم الجبل الذي هربت إليـه اليزابث مع ابنها وقالت: «تسلم أيها الجبل الأم والطفـل»، وانفتح الجبـل، ومنحهما مأوى، وعنـدما وصـل جنـد هيرود الـذيـن كـانوا يطـاردونهما إلى هـذا المكـان، لم يبصروا أحـداً، وعادوا خائبين، ومكان هذا الحادث يمكـن أن يرى في الصخرة حتى هذا اليوم، وتقوم فـوقه كنيسة صغيرة، يوجد تحتها مغـارة صغيرة، عند المدخل إليها هنـاك كنيسة أخـرى صغيرة، وينبع من هـذه المغارة نبـع ماء (عين ستـي مريـم عنـد عين كارم) شربـت مـن مـائه اليزابـث ويـوحنا أثنـاء اختفائهما في الجبـل، حيث بقيا، برعـاية أحد الملائكة، حتـى وفاة هيرود، وهـذا الجبل، القائم إلى الغرب من القدس، مـرتفع جداً، ومغطى بغابات كبيرة، ومحاط بعدد كبير مـن الوديـان، وتدعـى أورويني (لـوقا: ١/ ٣٩)، وفي هذا الجبـل أيضاً اتخذ داود ملجئاً، عندمـا عذبه الملك شـاؤل وهرب من القدس.

٦١— رامة

تقوم رامة على فرسخين إلى الغرب من هـذا الجبل، وعن رامة هذه قال النبـي إرميا: « صـوت سمع في الـرامة نـوح بكاء مـر. راحيل تبكـي على أولادها، وتـأبى أن تتعـزى على أولادها لأنهم ليسوا بمـوجوديـن» (ارميا: ٣١/ ١٥).

ورامة وادي واسع توزعت فيه قرى كثيرة، وتحمل جميع الأحواز هناك اسم رامة، وهي تشمل أراضي بيت لحم، وإلى رامة كان الملك هيرود قد بعث الجنود لقتل الأبرياء المقدسين.

٦٢— عمواس

عندما يوجه الانسان خطواته باتجاه الغرب، يصل بعد أربعة فراسخ إلى عمواس، حيث ظهر المسيح إلى لوقا وكليوباس في اليوم الثالث بعد القيامة، وكانا ذاهبين من القدس إلى البلدة، ولاحظاه عندما قطع خبزة، وكانت بلدة واسعة، وقد بنيت هناك كنيسة، وقد هدمت الآن من قبل الكفار، وبلدة عمواس بلدة مهجورة، وهي قائمة خلف جبل إلى اليمين، ليس بعيداً عن الطريق الذي يقود من القدس إلى يافا.

٦٣— اللد

من عمواس إلى اللد أربعة فراسخ عبر السهل، وكانت فيما مضى بلدة كبيرة اسمها اللد، لكن اسمها الآن هو الرملة، وهنا حدث أن شفى بطرس إنياس Eneas الذي كان ممدداً لمرضه على فراشه.

٦٤— يافا

من اللد إلى يافا عشرة فراسخ مستمرة عبر السهل، وفي هذه المدينة أقام الرسول بطرس طابيثا Tabitha من الموت، وهنا صام بطرس أيضاً، وعندما صعد إلى أعلى البيت في حوالي الساعة التاسعة رأى ملاءة مربوطة من الزوايا الأربعة نزلت من السماء، وعندما وصلت إليه رأى أنها مليئة بوحوش الأرض وبجميع أشكال الأشياء الزاحفة، وخاطبه صوت من السماء قائلاً: «قم يابطرس اذبح وكل. فقال بطرس: كلا يارب لأني لم آكل قط شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه أيضاً صوت ثانية: ماطهره الرب لاتدنسه أنت» (أعمال الرسل: ١٠/ ١٣ — ١٥)، وهناك الآن كنيسة عند هذه البقعة تدعى كنيسة القديس بطرس، وبلدة يوبا

قائمة على شاطىء البحر، وتصل الأمـواج إلى أسوارها، وتعرف الآن باسم يافا بلغة الفرنجة، ومن يافا إلى أرسوف ستة فراسخ.

٦٥— *قيسارية فيليب*

مـن أرسـوف إلى قيسـاريـة فيليـب (اقـرأ: قيسـاريـة فلسطين) أربعـة وعشرين فرسخـاً عبر طريق يجري على طول شاطىء البحـر، وفي قيسارية هذه عمّد الـرسول بطرس المقدس كـورنليوس Cornelius، وليس بعيداً عن هذه المدينة، على مسافة فرسخين إلى الجنوب، هناك جبل عاش عليه الأب مارتنيان Martinian، وإليه جاءت المحظية لأغوائه.

٦٦— *كفر ناحوم*

تبعد قيسارية فيليب ثمانية فراسخ عن كفـر ناحوم، وكانت كفر ناحوم (عثليت) فيما مضـى هامـة جداً، وبلدة مكتظـة السكان، لكنهـا في هذه الآونة مهجـورة، وقائمـة ليس بعيداً عـن البحر الكبير، وعـن كفر نـاحوم هذه قـال النبي: «الـويل لك يـا كفر نـاحوم، سـوف ترتفعين إلى السماء، ولسـوف تنحدريـن إلى أعماق الجحيـم»، وفي هـذه المدينة سـوف يظهـر المسيح الدجال، ولهذا السبب هجرها الفرنجة.

٦٧— *جبل الكرمل*

المسافة من كفـر ناحوم إلى جبل الكرم تقارب ستـة فراسخ، وعلى هذا الجبل عـاش النبي اليـاس المقدس، وغـذي من قبـل غراب أسـود، وهنا أيضاً ذبـح كاهـن بعل قـائلاً: «إنني أحـرق برائحـة طيبة لمولاي الـرب»، وهذا الجبـل مرتفع جداً، وعلى حـوالي الفرسخ عن البحـر الكبير، وتقارب المسافة من جبل الكرمل إلى حيفا فرسخاً واحداً.

٦٨— *بلدة عكا*

المسافة فيما بين حيفا وعكا هي خمسـة عشر فرسخاً، وعكا بلدة واسعة،

متينة البناء وتمتلك ميناء جيداً، وكانت بيد المسلمين، وهي الآن محتلة من قبل الفرنجة، وهناك من عكا إلى بلدة صور عشرة فراسخ، والمسافة نفسها من صور إلى صيدا، وقرية الصرفند ليست بعيدة عن صيدا، ففي الصرفند أعاد النبي ابن الأرملة إلى الحياة.

٦٩— *بلدة بيروت*

المسافة بين صيدا وبيروت هي خمسة عشر فرسخاً، وفي هذه البلدة خرق اليهود صورة المسيح بحربة فاندفع منها الدم والماء، ووقتها تحول عدد كبير من الناس وتعمدوا باسم الآب والابن وروح القدس، وإلى بلدة بيروت هذه نفسها جاء يوحنا وأركاديوس ولدي اكزنفون ليدرسا الفلسفة، ومن بيروت إلى جبيل عشرين فرسخاً، ومن جبيل إلى طرابلس أربعين فرسخاً، ومن طرابلس إلى نهر السويدية ستين فرسخاً.

٧٠— *أنطاكية الكبرى*

تقوم أنطاكية الكبرى على النهر المذكور أخيراً، وهي على ثمانية فراسخ عن البحر، وعلى بعد مائة فرسخ منها لوديكيا Laodicea ، ثم تأتي أنطاكية الصغرى، وكانينورس Kaninoros ، ومافرونوروس Mav-ronoros، وبلدة ساتاليا (أضاليا) الصغيرة، وجزيرة خيلدونيا الصغيرة، وجميع هذه البلدات قائمة على شاطىء البحر، ولهذا لم نلق المراسي حتى خيلدونيا، وتابعنا سيرنا من هناك إلى بلدة مايرا، وقرب هذه البلدة واجهنا أربعة غلايين، تحمل قراصنة، هاجمونا وسلبونا، ومن هناك وجهنا طريقنا نحو القسطنطينية، التي وصلناها بصحة جيدة.

٧١— *الجليل وبحر طبرية*

الطريق يقود هنا من القدس إلى الجليل باتجاه بحر طبرية، وجبل الطور والناصرة، وجميع المنطقة محدودة من قبل بحرطبرية الذي يدعى بحر الجليل، وهو قائم باتجاه الشمال الشرقي من القدس، وتبعد بلدة

طبرية مسيرة أربعة أيام عن القدس للانسان المسافر على قدميه، والطريق خطر جداً ومرهق، فالانسان يسير لمدة ثلاثة أيام عبر طرق جبلية، وفي الأمام يتبع المسافر وادي الأردن، ويتجه دوماً باتجاه الشرق حتى ينابيع الأردن في مكان يصدر فيه هذا النهر عن البحر.

ولقد كان هذا الطريق الذي عبرته بعون الرب أثناء رحلتي، وكان بلدوين أمير القدس وقتها متوجهاً للحرب ضد دمشق، والسير عبر الطريق إلى بحر طبرية، لأنه الطريق الذي يؤدي إلى دمشق، وعندما علمت بأن الأمير سوف يأخذ هذا الطريق، ذهبت إليه، وحييته وقلت له: «أرغب رغبة عظيمة في أن أذهب معكم حتى بحر طبرية لكي أزور الأماكن المقدسة هناك»، وسمح لي الأمير بكل سرور بالذهاب معه وأمرني أن أنضم إلى حاشيته، وسررت شخصياً سروراً عارماً بهذا الأذن، واشتريت حيوانات للركوب، وهكذا اجتزنا بدون خوف أو رعب هذه الأماكن الخطرة بصحبة عساكر الأمير، لأنه بدون مرافقة لايستطيع المرء عبورهم،والقديسة هيلانة وحدها التي استطاعت أن تنجز ذلك.

وبناء عليه إليكم وصف طريق طبرية: المسافة من القدس إلى «بئر العذراء المقدسة» هي عشرة فراسخ، ومن هذا البئر إلى جبال جلبوع (لبّن) مسافة أربعة فراسخ، وعلى هذه الجبال كان مقتل الملك شاؤول وابنه يوناثان، وهي جبال مرتفعة، صخرية، جرداء وعرة وبلاماء، حتى الندى لاينزل عليها، ومن هذه الجبال إلى «بئر داود» مسافة فرسخين، ومن البئر إلى «كهف داود» أربعة فراسخ، ففي هذا الكهف وضع الرب الملك شاؤول في يدي داود، الذي لم يقتله بل قطع أطراف ردائه، وانتزع منه سيفه وأحزمته.

والمسافة من هناك إلى جبال شكيم أربعة فراسخ وكذلك إلى «جب يوسف» (عورتا)، ورعى على هذه الجبال أبناء يعقوب قطعان أبيهم، وإلى هناك جاء يوسف «صاحب الحظوة» ليحمل إلى أخوته تحيات أبيهم

يعقوب ووده وتبريكاتـه، لكنهم ما أن رأوه حتى انقضـوا عليه، وأمسكوه وألقـوه في الجب، الذي مـازال موجـوداً حتى الآن، وهـو يشكل صهـريجاً عميقاً، مبنـي بشدة بـوساطـة حجارة كبيرة، وحـدث أن أمضيا الليـل في هذا المكـان، الذي هو ليس ببعيـد عن الطريق الـرئيسي وقائم إلى اليمين منه.

٧٢— وقـالوا: هنـاك عشرة فـراسخ مـن هنا إلى قـريـة يعقوب التـي تدعـى سكر، Sichar (العسكر)، وبئـر يعقوب موجـود هناك، وهـو بئر واسع وعميق، وماؤه بارد وطيب المذاق، وتكلـم عند هذا البئر المسيح مع امرأة سامرية، وهناك أمضينا الليلة.

٧٣— السامرة

قرب هـذا المكان، وعلى بعـد نصف فـرسخ منـه تقوم مـدينة السـامرة (شكيـم أي نـابلس)، وهـي واسعـة جـداً، وفيهـا وفرة بحميـع الأشيـاء الجيدة، وهـي قائمـة فيها بين جبلين عاليين جـداً، ويجري في البلدة عـدد من الينابيـع الجيدة ذات الماء البارد، والبلاد خصبة بجميـع أنواع أشجار الفواكه مثل: التين، واللـوز والخروب، والزيتون، وهي تحيط بالسـامرة مثل غابة كثيفـة، والحقول المجاورة غنية بجميع أنواع الحبـوب، والمنطقة كلها جميلة بشكـل مدهـش، وانتاجهـا من الـزيتون كبير، وكـذلك مـن النبيذ، والقمـح والفواكـه، وبكلمـة موجـزة تجلـب مدينـة القـدس جميع مـؤنها وأطعمتها مـن هذا المكـان، وتدعـى بلدة السـامرة في هـذه الأيام بـاسم نابلس.

وعلى بعـد فرسخين مـن هذه البلـدة، وباتجاه الغـرب تقوم سبسطيـة، وهناك مكـان مغلق صغير يحتـوي على سجن القديـس يوحنـا المعمدان، وفيه جـرى قطع رأس هذا المبشر بالمسيح بناء على أمر مـن الملك هيرود، ومـن الممكـن رؤية قبره هنـاك، وأقيـم هنـاك كنيسة حملـت اسم المبشر،

وكذلك دير فرنجي غني جداً.

٧٤— بلدة أرماثيا

تقع بلدة أرماثيا Arimathea (رامة) التي تضم قبري القديس يوسف، والقديس مالإيل على بعد أربعة فراسخ، وهي قائمة بين الجبال إلى الغرب من السامرة، وقد بني هناك بناء صغير مغلق، ويوجد فوق قبر يوسف هناك كنيسة ذات سقف خشبي، وهم يدعون هذا المكان باسم أرماثيا، واتجاه الطريق من السامرة إلى بحر طبرية هو نحو الشمال الشرقي.

٧٥— بلدة بيسان

ومن السامرة إلى بلدة بيسان هناك ثلاثين فرسخاً، وهناك عاش عوج ملك بيسان الذي قتل من قبل يوشع بن نون، قرب أريحا، وهذا مكان مرعب جداً وخطير، وينبع من البلدة سبعة أنهر، وعلى أطرافهم شعراء كثيفة، وهناك في هذه البلدة حدائق عظيمة من شجر النخيل، وهذا المكان والحق يقال مرعب، ومن الخطورة بمكان المرور به، فهناك يعيش مسلمون أشداء وقساة بأعداد كبيرة، ويستغلون مخاضات الأنهار لمهاجمة المسافرين، ويوجد في هذه الأجزاء الكثير من الأسود، وبيسان ليست بعيدة عن الأردن، ويفصل هذه البلدة عن الأردن عدد كبير من المستنقعات ذات الماء الآسن، وتصب هذه الأنهار في الأردن، وهناك تكثر الأسود، وعلى مقربة من البلدة هناك على الجانب الشرقي كهف عجيب طبيعي له شكل صليب، ومنه ينبع نبع يجري في داخل خزان عجائبي، لم تصنعه الأيدي، بل خلقه الرب، واستحم في هذا الخزان المسيح نفسه مع حوارييه، ومن الممكن رؤية الحجر الذي جلس عليه حتى اليوم، واستحممنا نحن المذنبين الذين لانستحق هناك، وإلى بلدة بيسان هذه نفسها جاء اليهود إلى المسيح، جالبين فلساً وسألوه: «هل هو شرعي أن ندفع الجزية أم لا»؟ غير أنه سألهم: «رسم من هذا؟ .... أعط لقيصر

الأشياء التي لقيصر، وإلى الرب الأشياء التي للرب» ثم توجه بالخطاب إلى بطرس، وقال المسيح له: «امض وألق بخيطك بالبحر، وافتح أول سمكة تسحبها من الماء، فستجد هناك قطعة نقد ذات أربعة دراهم، فادفعها لهم عني وعنك»، وشفى المسيح قرب بيسان الرجل الأعمى الذي تبعه وسأله أن يشفيه.

٧٦— نهر الأردن

ومن بيسان إلى منابع الأردن وبيت تعشير متى هناك عشرين فرسخاً، وتتجه دوماً نحو الشرق، ويعبر الطريق سهولاً على طرف الأردن، الذي ماؤه حلو المذاق ونقي حتى منابعه، وينبع الأردن من بحر طبرية على شكل نهرين، يتدفقان بشكل رائع، ويدعى أحد هذين النهرين «أر» والآخر «دن» وهكذا يصدر الأردن عن بحر طبرية على شكل نهرين، يبتعد أحدهما عن الآخر ثلاث رميات سهم، وبعد مسيرهما منفصلين لحوالي النصف فرسخ، يعاودان الاتحاد بمثابة نهر واحد، يدعى نهر الأردن، وذلك من اسمي الفرعين، وجريان نهر الأردن سريع جداً وقوي، والماء نقي جداً، وهو يشبه كثيراً نهر سنوف في عرضه وعمقه ومستنقعات مائه الآسن، والأسماك عند نبعه كثيرة، وهناك جسرين من الحجارة بنيا بشكل شديد فوق قناطر، يمر من خلالها الماء ويتدفق، ويمتدان فوق الفرعين.

٧٧— بيت تعشير متى

وكان بيت تعشير متى حواري المسيح قريب من هذين الجسرين، لأن جميع الطرق التي تتجه إلى دمشق وبلاد الرافدين تلتقي هناك، وتغدى الأمير بلدوين مع عساكره قرب هذين الجسرين، وعسكرنا أيضاً معه قرب منابع الأردن واستحممنا في بحر طبرية، ثم ارتحلنا بعد ذلك وسرنا على طول شواطىء ذلك البحر دونما خوف من أي خطر، وزرنا جميع

الأماكـن المقدسة التـي داسها المسيح ربنا بقـدميه، وواحد مـذنب مثلي، سمح لـه الرب بالمرور خلال جميـع بلاد الجليل ورؤيتها، وهـو أمر لم أتجرأ أن آمل بـه، وتجولت قدمـاي المذنبتان فـوق جميع الأراضي المقدسـة التي تشوقـت كثيراً لرؤيتها، ووصفـت هذه الأماكـن المقدسـة بأمانـة وصدق، وبـدون كـذب، فقـط كما رأيتهم. ولم يستطـع عـدد كبير ممـن زاروا هـذه الأماكـن تفحصهم والتعرف إليهـم بشكل دقيق، وروى آخـرون لم يصلوا إلى هذه الأمـاكن المقدسـة، أكاذيب وحكايـات مخترعة، وبالنسبـة لي أنا المذنـب، منحني الـرب التعـرف إلى رجل تقـي متقـدم بـالسن، وواسـع المعرفة كثيراً، وتقي، وأمضى ثلاثين سنـة في الجليل، وعشرين سنة في دير القديـس سابـا، وقدم هذا الـرجل جميـع الأوصاف الموجـودة في الضريح المقدس، فكيـف لي، أنا المذنب، أن أقدم الشكـر بما فيه الكفايـة للنعمة التي أبديت نحوي.

وبقينا طيلـة ذلك اليـوم قرب الجسر، وعنـد المساء، عبر الأمير بلـدوين مـع عسـاكره الأردن وزحـف نحـودمشـق، في حين ذهبنا نحـن إلى بلـدة طبرية، حيث مكثنا لمدة عشرة أيام حتـى عاد الأمير من حملته إلى دمشق، وزرنا خلال هـذه المدة جميع الأماكن المقـدسة القائمة على شـاطىء بحر طبرية.

٧٨— بحر طبرية

يمكـن للانسـان أن يجوز حـول بحر طبريـة وكـأنه بحيرة، والماء حلـو المذاق كثيراً، ولايمكـن للانسـان مطلقاً أن يشرب كثيراً منـه، وطول هـذا البحـر خمسين فرسخـاً، وعـرضه عشريـن، وهـو مليء بالأسماك، ويحتـوي بشكل خـاص على سمك مثـل الشبوط، مما كـان المسيح مغـرم به كثيراً، والذي هـو متفوق على جميع أنـواع الأسماك بطعمه، وقد أكلـت أنا نفسي منه مـراراً خلال اقـامتي في البلـدة، وهو نـوع السمك نفسـه الذي أكـل المسيح منه بعد قيـامته، عندما جاء إلى حوارييـه وهم يصطادون السمك

وقال لهم: «أيها الأولاد أليس لديكم مانأكله»؟ وأجابوه «كلا»، فقال لهم: «أرموا الشباك على الجانب الأيمن»، (يوحنا: ٢١/ ٥ — ٦).

٧٩— منابع الأردن

يوجد من منابع الأردن والجسرين إلى المكان الذي استحم فيه المسيح، والذي استحمت فيه العذراء المقدسة، والذي استحم فيه الحواريون، ستة فراسخ، ومن أماكن الاستحمام المقدسة هذه إلى بلدة طبرية فرسخ واحد، وبلدة طبرية واسعة جداً، طولها فرسخان وعرضها فرسخ واحد، وقائمة على شاطىء البحر، وصنع ربنا المسيح هناك عدداً من المعجزات، ويرون في وسط البلدةالمكان الذي شفى فيه المجذوم، وهناك أيضاً كان بيت حماة بطرس، وقد دخله يسوع وشفاها من الحمى المستمرة، وقد بنوا هناك كنيسة مستديرة كرسوها للرسول بطرس، وهناك أيضاً بيت سمعان المجذوم، والمكان الذي غسلت فيه المحظية قدمي ربنا يسوع المسيح الطاهرتين بدموعها، وجففتهما بشعرها، وبذلك تلقت الغفران لذنوبها الكثيرة، وفي هذه البلدة بالذات شفى المرأة المقعدة، وهناك حدثت معجزة قائد المائة، وهنا أيضاً أنزلوا الرجل المريض من خلال السقف المحطم، وهنا كان محسناً إلى المرأة الكنعانية، وينبع نبع بارد جداً، ماؤه نقي، ويخرج من كهف تراجع إليه المسيح عندما رغبوا في جعله ملكاً للجليل، وقام بمعجزات أخرى كثيرة في هذه البلدة، وفي هذه البلدة نفسها ضريح النبي إلياس بن يهوشافاط، ويوجد أيضاً قرب الطريق ضريح يوشع بن نون، وهناك على مقربة من البحر، باتجاه الشرق، وعلى رميه سهم من البلدة، صخرة كبيرة وقف عليها المسيح، عندما علّم الناس، عندما بادروا إليه مسرعين من شواطىء صور وصيدا، ومن المدن العشرة، ومن الجليل، وأرسل من هناك الناس إلى حوارييه الذين عبروا في قارب إلى الجانب المقابل، بينما بقي يسوع، ومشى بعد ذلك على وجه الماء وكأنه يسيرعلى الأرض، ووصل إلى الناس على

الشاطيء المقابل قبلهم، وعندما وصل هؤلاء ووجدوا يسوع هناك قالوا له: «أيها المعلم متى وصلت»؟، فأجابهم: «هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع»، (متى: ١٩/ ٢٦)، ويوجد عشرة فراسخ عبر البحر من هذا المكان إلى طبرية، فهناك بقعة من الأرض مرتفعة تبعد فرسخاً عن البحر.

٨٠— *المكان الذي أشبع المسيح فيه خمسة آلاف رجل*

وهذا المكان قائم في سهل مغطى بالعشب: هناك أشبع المسيح خمسة آلاف رجل، دون عدّ النساء والأطفال ، أشبعهم بخمسة أرغفة، وعبوة اثنتي عشرة سلة من الكسر.

٨١— *المكان الذي ظهر المسيح فيه لحوارييه للمرة الثالثة بعد قيامته*

ليس بعيداً عن شاطيء بحر طبرية، عند سفح جبل، يقع المكان الذي ظهر فيه المسيح لحوارييه للمرة الثالثة بعد قيامته، ووقف إلى جانب البحر، وقال لهم: «أيها الأولاد هل لديكم مانأكله» وأجابوه: «لا» فقال لهم: «ارموا الشبكة على الجانب الأيمن كما أخبركم، ولسوف تجدون»، (يوحنا: ٢١/ ٥ — ٦).

ورموا وكانوا الآن غير قادرين على سحبها لما فيها من أعداد هائلة من الأسماك، وعندما جلبوها إلى اليابسة وجدوا مائة وثلاث وخمسين سمكة، ورأوا قرب الشبكة خبزاً وناراً وسمكاً مشوياً، وأكل المسيح الوجبة، وأعطاهم ماتبقى، ويوجد هناك كنيسة مكرسة في هذا المكان على اسم الرسل المقدسين، وعلى مقربة من هناك بيت مريم المجدلية المقدسة، التي استخرج منها يسوع سبعة شياطين، ويدعى هذا المكان المجدل.

٨٢— *بلدة بيت صيدا*

ويوجد في الجبال على بعد قليل، مدينة بيت صيدا، وهي مدينة أندرو

وبطرس، وهي أيضاً المكان الذي جلب فيه ناثان ايل إلى بطرس وأندرو.

٨٣— المكان الذي جاء إليه المسيح متجهاً نحو حوارييه الذين كانوا يصطادون السمك

ويوجد على شاطىء البحر مكان اتجه منه المسيح نحو أندرو وبطرس ولدي زبداي، اللذان سحبا شبكتيهما وجمعاها، وهناك لاحظا يسوع فتركا قاربهما وشبكتيهما وتبعاه، وكانت قرية زبداي، والد يوحنا ملاصقة للبحر، وكذلك بيت القديس يوحنا الانجيلي، وهناك طرد المسيح فرقة من الشياطين من انسان، وأمرهم أن يدخلوا داخل قطيع من الأوز أغرقوا أنفسهم في البحر.

وتقوم قرية كفرناحوم على مسافة قصيرة من هناك، ويجري على مقربة نهر كبير يصدر من بحيرة جنسار (الحولة)، ويصب في بحر طبرية، وبحيرة الحولة واسعة جداً هي أربعين فرسخاً في الطول والعرض، وعلى مقربة من هذه البحيرة بلدة اسمها الحولة، وهي السبب في أن البحيرة تدعى الحولة.

٨٤— بلدة ديكابولس

وهناك بلدة أخرى هناك، تحمل اسم ديكابولس (الأسقفيات العشر)، وعلى مقربة من البحيرة مكان وعظ فيه يسوع الناس الذين جاءوا إليه من الأسقفيات العشر، ومن شاطىء صور وصيدا، وأتى الانجيل على ذكر هذه البقعة، وصنع يسوع قرب البحيرة عدداً كبيراً من المعجزات الأخرى.

٨٥— جبل لبنان

وعلى الطرف الآخر من البحيرة، باتجاه الشمال الشرقي، هناك جبل واسع ومرتفع قمته مغطاة بالثلج حتى أثناء الصيف: إنه يدعى لبنان.

وهو ينتج بخور لبنان والراتنج الأبيض، وينبع من هذا الجبل، جبل لبنان اثني عشر نهراً واسعاً، يسير ستة منها باتجاه الشرق وستة باتجاه الجنوب، وتصب الستة الأخيرة في بحيرة الحولة، وتتجه الستة الأخيرة باتجاه انطاكيا الكبرى، وتدعى هذه البلاد بلاد الرافدين، أي البلاد القائمة بين النهرين، وحران التي خرج منها إبراهيم، واقعة فيها بين هذين النهرين، وتغذي هذه الأنهار بحيرة طبرية بشكل واسع، فمنها يصدر ذلك النهر الواسع الذي يصب في بحر طبرية، ويزيد من حجم ماء البحيرة التي — كما قلت أعلاه — يصدر منها نهر الأردن.

ولم أستطع الوصول إلى جبل لبنان خوفاً من الكفار، لكنني كونت فكرة جيدة عنه من خلال أدلائي المسيحيين الذين عاشوا هناك، ولم يسمحوا لي بالذهاب إلى هناك، لأن عدداً كبيراً من الكفار يسكنون في ذلك الجبل، ورأيناه فقط، ورأينا أحواز بحيرة الحولة عن بعد، ويوجد بين بحر طبرية وبحيرة الحولة، فرسخان، وتقع الحولة إلى الشمال الشرقي من بلدة طبرية.

٨٦— *جبل الطور*

يقع جبل الطور والناصرة إلى الغرب من بحر طبرية، وهناك ثمانية فراسخ واسعة إلى جبل الطور، وما على الانسان سوى أن يعلو ظهر أحد الجبال ويتسلق آخر ارتفاعه خفيف، ويعبر بقية الطريق السهل وصولاً حتى الطور، وجبل الطور عمل رائع من أعمال الله، لايستطيع الانسان أن يصفه فهو جميل جداً، ومرتفع كثيراً، وعظيم للغاية، وله شكل كومة قش، ويرتفع بشكل جليل في وسط سهل رائع، وهو منفصل عن بقية الجبال الأخرى، ويجري نهر في السهل عند سفحه، وتنمو على سفوحه جميع أنواع الأشجار: زيتون، وتين، وأشجار الخروب بأعداد كبيرة، وهو أعلى من جميع الجبال الأخرى من حوله، وهو منفصل تماماً عنها، ومساحته معتبرة، وهو يقف بشكل جليل في وسط سهل مسكون،

ومستدير بعناية مثل كومة قش، ويساوي ارتفاعه من القمة إلى الأسفل أربع رميات سهم، وأكثر من ثمان رميات من القاعدة حتى القمة، وهووعر وهذا يجعل تسلقه منهك وصعب، وينبغي تسلقه بشكل حلزوني على طريق وعر جداً، فقد بدأنا بتسلقه في الساعة الثالثة من النهار، وتسلقنا بكل نشاط، وبصعوبة وصلنا إلى قمة هذا الجبل المقدس في الساعة التاسعة، وفي أعلى نقطة منه، نحو الجنوب الشرقي، هناك بقعة مرتفعة مثل رابية صخرية، أخذت شكل قمة مخروطية، وهذا هو مكان تغيير هيئة المسيح، ربنا، وتجليه على الجبل، ويوجد هناك في الوقت الحالي كنيسة جميلة مكرسة للتجلي، وكنيسة أخرى إلى جانبها باتجاه الشمال، وهي مكرسة للنبيين المقدسين: موسى وإلياس.

٨٧— *المكان الذي تغيرت فيه هيئة المسيح*

يحيط بمكان تجلي المسيح وتغيير هيئته أسوار حجرية متينة مع بوابات معدنية، وكانت المنطقة من قبل مقر أسقفية، وهي الآن مقر دير لاتيني، ووفرت ذروة الجبل مكاناً منبسطاً جيداً، لكنه صغير قائم أمام هذا الموقع المغلق، وإنه والحق يقال لنعمة عظيمة من الرب أن وفرة من الماء يمكن وجودها على هذا الارتفاع، كما أن الجبل كله مغطى بحقول جميلة مع أعداد كبيرة جداً من أشجار الفواكه، والمنظر من القمة واسع جداً وفسيح.

٨٨— *كهف ملكيصادق*

ويجعلونك ترى على جبل الطور موضع منبسط، عنده كهف غيراعتيادي قدّ في الصخر،مثل قبو له نافذة صغيرة في سقفه، وفي قعر الكهف وباتجاه الشرق هناك مذبح، وباب الكهف صغير جداً، وتنزل إليه بوساطة درجات من الجهة الغربية، وتنبت أمام المدخل شجرات تين صغيرة، وهناك من حولهن أنواع أخرى من الأشجار، وكان هنا فيما

مضـى غابـة واسعة، لكـن الموجـود الآن شجيرات صغيرة فقط، وسكـن ملكيصادق المقـدس في هذا الكهف الصغير، وهنـاك زاره ابراهيـم ودعاه ثلاث مرات قـائلاً: «رجل الرب» فخرج ملكيصادق حامـلاً خبزاً ونبيذاً، وبنى مـذبحاً في الكهـف، وقدم قربـاناً من الخبـز والنبيذ حملـه الرب إلى السمـوات، وهناك بـارك ملكيصادق إبـراهيم، الـذي تولى قطـع أظافـره وقص شعـره، لأن ملكيصادق كان كثيف الشعـر، ومن هنا جاءت بـداية القـداس مع الخبـز والنبيـذ عوضـاً عـن الخبـز الفطير، حسبما قال النبـي: «أنت كاهن دوماً بناء على أمر ملكيصادق» (المزمور: ١٠٩/ ٤).

ويقع هـذا الكهف على رمية سهم جيـدة إلى الغرب من المكـان الذي تغيرت فيه هيئـة المسيح، وأبـدوا نحونـا في دير التجلي المقـدس كثيراً من الاحترام، وبعـدما استرحنـا هنـاك وتغدينـا زرنـا كنيسة التجلي المقـدس، وتعبدنـا المكان المقدس حيـث تغيرت هيئة ربنـا المسيح، وبعد مـاقبلناه بحب وسرور كبير، وبعـدما تلقينا التبريكـات من راعـي الدير ومـن جميع الرهبـان، غادرنـا الديـر المقدس، وقمنـا برحلـة زرنا فيهـا جميع الأمـاكن المقـدسـة في ذلـك الجبـل المقدس، ويمـر الطـريـق المؤدي إلى النـاصرة، والقائم إلى الغـرب من جبل الطور، مـن أمام كهف ملكيصـادق، وللمرة الثانية زرنا تائبين الكهف المقدس، وانحنينـا بأنفسنا أمام المذبح المقدس الذي شيـد من قبل ملكيصـادق وإبراهيم، وهـذا المذبح موجـود في هذا الكهـف حتى هـذا اليوم، وغـالباً مـاجاء ملكيصـادق المقدس إلى هنـاك للقيام بالقـداس، وأكد هذه الحقيقة لي جميع المؤمنين الذيـن يعيشون فوق هذا الجبل والذيـن يعبدون (المغارة)، ووقتها حمدنا الرب الـذي سمح لنا نحـن المذنبين والذيـن لانستحـق، بـرؤية هـذه الأمـاكـن المقدسـة، وأن نقبلهم بشفـاهنا المذنبـة، ونزلنـا بعد ذلـك من جبـل الطور إلى السهـل، وارتحلنا لمسافة فرسخين نحو الغرب باتجاه الناصرة.

ومن جبل الطـور إلى الناصرة هناك خمسة فراسخ، فـرسخان عبر السهل

وثلاثـة عبر الجبل، حيـث الطريق منهـك، فهو ضيـق ووعر جـداً، واعتاد المسلمون غير الأتقيـاء، الذين تـوزعت قـراهم فوق الجبـال والسهل، على الخروج من مـواطنهم وقتـل الرحالـة فوق هـذه المرتفعات الصعبـة، ومن الخطر الجواز من هناك مـن دون مرافقة جيدة، الأمر الذي لم يتـوفر لنا هذه المرة، لأننـا كنا ثمانيـة أفـراد فقط بـدون سلاح، لكـن وقـد وضعنا ثقتنـا بالـرب، فقد حمانـا برحمتـه، وأعاننـا بصلوات سيـدتنا العـذراء المقدسـة، فوصلنـا سالمين معافيين إلى مـدينة الناصرة المقـدسة، حيـث تمّ بوسـاطة تدخـل الملاك جبرائيل الإعلان لسيـدتنا العذراء المقـدسة، وحيث تـربى يسوع ونشأ.

٨٩— بلدة الناصرة

الناصرة بلدة صغيرة قـائمة في واد في قلـب الجبـال، ويمكن رؤيتهـا فقط عندمـا يصبح الانسان فوقهـا، وترتفع في وسط البلـدة كنيسة واسعة وعاليـة، فيها ثـلاثة مـذابح، ولـدى دخولـك لها تجد على الجانب الأيسر، أمام مـذبح صغير كهف صغير لكن عميـق وله بابين صغيريـن، واحد في الشرق والآخـر في الغـرب، ومــن خـلالها يمكـن الـدخـول إلى المغـارة والـوصـول إليهـا، وإذا مـادخـل الانسـان مـن البـاب الغـربي، يجد على الجانب الأيمـن حجيرة، لها مدخل ضيق، فيهـا عاشت العذراء المقـدسة مع المسيح، ولقد نشـأ وتربى في هذه الحجيرة المقدسة، التـي تحتوي أيضاً على الفـراش الذي تمدد عليـه يسوع، وهـو منخفـض كثيراً إلى درجة بـدا فيها وكأنه على سوية الأرض.

٩٠— ضريح يوسف خطيب العذراء

لدى الدخـول إلى الكهف نفسه بوساطـة الباب الغربي، يجد المرء على يسـاره ضريح يـوسـف قـرين مـريـم، الذي أدخـل إلى هنـاك بـاليديـن المقدستين للمسيح، وتتساقط نقاط مـن الماء الأبيض، مثل زيت مقدس،

من الجدار، قرب هذا الضريح، ويجمعها الناس من أجل معالجة المرضى.

٩١-الكهف حيث جلست العذراء المقدسة

في الكهف نفسه،قرب الباب الغربي،يوجد المكان الذي جلست عليه مريم العذراء المقدسة تغزل لونا أرجوانيا،أي تصنع خيطاً أرجوانيا، وعندها مثل أمامها رئيس الملائكة جبرائيل مرسلاً من قبل الرب.

٩٢-المكان الذي أعلن فيه رئيس الملائكة الأخبار الطيبة الى العذراء المقدسة

لقد ظهر أمام ناظريها بعيداً قليلاً عن المكان الذي كانت العذراء المقدسة جالسة عليه،وهناك من الباب الى المكان الذي وقف عليه جبرائيل ثلاثة سغنس،وأقيم فوق هذا المكان مذبح صغير مستدير على عمود،وتقام هنا القداسات.

٩٣-بيت يوسف خطيب العذراء

كان المكان الذي يحتله الكهف المقدس،بيت يوسف،وكل شيء حدث في ذلك البيت،ففوق الكهف هناك كنيسة مكرسة للاعلان،وكان هذا المكان قد هدم من قبل،وتولى الفرنجة اعادة البناء بعناية فائقة، ويعيش هنا أسقف لاتيني غني جداً،والمكان المقدس تحت اشرافه وحكمه،وقد استقبلنا بحفاوة،وقدم لنا لحماً وشراباً وأمضينا الليل في هذه البلدة،ونمنا جيداً،ونهضنا في الصباح التالي،فذهبنا الى الكنيسة لتقديم الاحترام للمعبد،ودخلنا الى الكهف وتعبدنا الأماكن المقدسة فيه،ثم غادرنا بعد ذلك البلدة،وتوجهنا باتجاه الشمال الشرقي فوصلنا الى بئر عميق جداً،فيه ماء كثير البرودة،وينزل الانسان اليه بوساطة عدة درجات،وهذا البئر مغطى بكنيسة مستديرةمكرسة لرئيس الملائكة جبرائيل.

٩٤-بئر الإعلان الأول

هناك رمية سهم جيدة من بلدة الناصرة الى هذا البئر المقدس فقرب هذا البئر تلقت العذراء المقدسة الاعلان الأول من رئيس الملائكة،وكانت قد جاءت لتنضح الماء،وعندما ملأت ابريقها،سمع صوت الملاك غير المرئي قائلاً: «أحييك،أيتها المليئة بالنعمة،الرب معك»، ونظرت مريم من حولها، ولم ترأحداً،لكنها سمعت الصوت فقط،فتناولت الإبريق وعادت مندهشة قائلة لنفسها:«مامعنى هذا الصوت الذي سمعته دون أن أرى أحدا»؟ ، وبعد عودتها الى بيتها في الناصرة جلست على البقعة المتقدم ذكرها،وأخذت تغزل خيوط الأرجوان،ووقتها ظهر رئيس الملائة جبرائيل إليها،ووقف على المكان المذكور أعلاه،وأعلن لها عن ميلاد المسيح،وقالوا هناك خمسة فراسخ من الناصرة الى قرية ايساوEsau (مشهد مابين الناصرة وكفر كنا)

٩٥-قانا الجليل

والمسافة من هذه القرية الى قانا في الجليل هي فرسخ واحد ونصف الفرسخ،وقانا في الجليل قائمة على الطريق الرئيسي،فهناك غيّر المسيح الماء الى نبيذ،وواجهنا هناك قافلة كبيرة كانت ذاهبة الى عكا، وبسرور التحقنا بها،وتوجهنا الى عكا،التي كانت بالعادة بلدة إسلامية،لكنها الآن في حوذة الفرنجة،وهي مدينة محصنة على شاطىء«البحر الكبير»،ولها ميناء جيد:والبلدة مزودة بشكل جيد بكل شيء،وتقع عكا الى الجنوب من الناصرة،والمسافة منها إليها ثمانية وعشرين فرسخاً واسعاً.

وبقينا أربعة أيام في عكا،وبعدما استرحنا بشكل جيد،وجدنا قافلة كبيرة متوجهة الى مدينة القدس المقدسة،فانضممنا إليها بأنفسنا،وسافرنا معاً بكثير من السرور،ووصلنا الى حيفا،ومن هناك زرنا جبل الكرمل،وعلى ذلك الجبل كهف القديس إلياس،النبي المقدس،وتعبدنا فيه،ثم سافرنا الى كفرناحوم،وذهبنا من بلدة كفرناحوم الى قيسارية فيليب(اقرأ:فلسطين)،وساير الطريق شاطىء البحر العظيم،أحياناً فوق

السهل،وأحياناً فوق الرمال وصولاً حتى قيسارية،وأمضينا ثلاثة أيام في تلك البلدة التي عمّد فيها بطرس الرسول كورنيليوسCorelius الذي عاش فيها.

وتوجهنا من قيسارية باتجاه اليسار لنزور السامرة،والمسافة فيها بين البلدتين هي عشرين فرسخاً،ووصلنا في اليوم التالي،في حوالي منتصف النهار الى السامرة،وذلك أننا سرنا ببطيء بسبب الحر الذي أزعج كثيراً المسافرين على أقدامهم أثناء سيرهم،وأمضينا الليل أمام بلدة السامرة قرب بئر يعقوب،حيث تحدث المسيح مع امرأة سامرية.

٩٦-*القدس*

وعندما استيقظنا التحقنا مجدداً بالطريق الذي جئنا عليه من القدس،ووصلنا أخيراً الى المدينة المقدسة سعداء،وفي سرور عارم،وسمح لنا الرب بالقيام بهذه الرحلة دونها أي ضرر،ومنحنا بالوقت نفسه فضل أن نرى بأعيننا جميع الأماكن المقدسة التي زارها المسيح ربنا من أجل خلاصنا،وسمح لنا نحن المذنبين أن نلقي نظرة على هذه الأماكن المقدسة ،والترحال على أرض الجليل الرائعة وفي جميع فلسطين،ورحلنا في جميع أرجاء فلسطين بحماية من الفضل الرباني وحراسةمن صلوات العذراء المقدسة دون أن يلحقنا أذى،واسم فلسطين تعرف به جميع المنطقة الواقعة حول القدس،وبتأييد من عون الرب زرنا جميع هذه الأماكن دون أن نواجه الكفار أو الحيوانات الضارية، ولم يلحق بنا أي شر،ولم أعان من أي مرض البته، بل كنت مثل نسر يحلق عالياً،وشعرت بنفسي أنني مؤيد من قبل النعمة الربانية،ومدعوم بقوة الأعظم علواً،وإذاكنت سأتفاخر بأي شيء فبعون المسيح،وبضعفي كما يقول الرسول:«صارت قوتي كاملةبضعفي»(أخبار الأيام الثاني:١٢/ ٩)،كيف لي أن أنوه يامولاي بما فعلته لأجلي أنا المذنب البائس،بالسماح لي بزيارة هذه الأماكن المقدسة ورؤيتها،وهكذا تمكنت بعون الرب من تنفيذ كل

مارغبته بقلبي،وبتفحص جميع الأماكن الذي سمح لي برؤيتها،أنا عبده المسكين الذي لاأستحق.

سامحوني يا أخواني،ويا آبائي ويا سادي،ولا تزدروا الجهل الذي قادني الى وصف الأماكن المقدسة في القدس وفي أرض الميعاد بكلمات بسيطة ، وبدون براعة أدبية ، وإذا لم أكن قد كتبت وفق طرائق العلماء، على الأقل ليس هناك كذب ، وأنا لم أصف شيئاً لم أره بعيني نفسي .

٩٧ـ النور المقدس وكيفية نزوله على الضريح المقدس

فيما يلي وصف للنور المقدس الذي ينزل على الضريح المقدس ،

حيث تلطف الرب فأراه لي أنا عبده السيء والذي لا يستحق، لأنني رأيت بكل صدق بعيني المذنبتين كيفية نزول النور المقدس على الضريح المخلص لربنا يسوع المسيح ، وخطأ وصف العديد من الحجاج تفاصيل نزول ذلك النور المقدس ، فبعضهم قال بأن روح القدس ينزل على الضريح المقدس على شكل حمامة ، وقال آخرون بأن البرق من السماء هو الذي يشعل المصابيح فوق ضريح الرب ، وهذا غير صحيح لأنه لا يرى في تلك اللحظة لا حمامة ولا برق ، بل تهبط النعمة الربانية غيرمرئية من السماء وتضيء مصابيح ضريح ربنا وأنا سوف أصف فقط بشكل كامل من الصدق ما رأيته ، ففي يوم الجمعة ، بعد العشاء ، نظفوا الضريح المقدس ، وغسلوا جميع المصابيح الموجودة هناك ، وملأوا المصابيح بزيت صاف بدون ماء ، وبعدما وضعوا الفتائل، تركوا المصابيح بدون إشعال ، وثبتوا الأختام إلى الضريح في الساعة الثانية من الليل، وأطفأوا بالوقت نفسه جميع المصابيح وحوامل الشموع في كل كنيسة من كنائس القدس وفي يوم الجمعة نفسه ، دخلت أنا الذي لا أستحق في الساعة الأولى من النهار

إلى حضرة الأمير بلدوين ، وانحنيت أمامه حتى الأرض ، ولدى رؤيته لي وقد انحنيت، أمرني بطريقة صديقة بالاقتراب منه وقال : « ما الذي تريده أيها الراهب الروسي» ؟ ذلك أنه عرفني وأعجب بي ، لأنه كان رجلاً لطيفاً جداً ، ومتواضعاً ، وليس متكبراً ، وقلت له : « يا أميري ويا مولاي ، اسمح لي من أجل محبة الرب ،وتقديراً لأمراء روسيا، في أن أضع مصباحي على الضريح المقدس باسم جميع بلاد روسيا ، » ثم إنه بلطف خاص ورعاية أعطاني الأذن في أضع مصباحي على ضريح الرب ، وبعث بواحد من أعيان حاشيته معي الى المسؤول عن حفظ القيامة ، والى حافظ مفاتيح الضريح المقدس .

وطلب مني المسؤول عن القيامة مع حافظ المفاتيح أن أجلب مصباحي مليئاً بالزيت ، وشكرتها وبادرت مسرعاً ببهجة عارمة فاشتريت مصباحاً كبيراً جداً من الزجاج ، وبعدما ملأته بالزيت الصافي ، حملته قبيل المساء الى الضريح المقدس ، وقد وجهت الى حافظ المفاتيح المتقدم الذكر ، الذي كان لوحده في مزار الضريح ، وبعدما فتح لي الباب المقدس ، أمرني بخلع حذائي ثم سمح لي بالدخول الى الضريح المقدس وأنا حافي القدمين ومعي المصباح الذي حملته ، ووجهني لوضعه فوق ضريح الرب ، وقد وضعته بيدي الخاطئتين على البقعة التي تشغلها القدمان المقدسان لربنا يسوع المسيح ، وكانت المصابيح الاغريقية موضوعة حيث رقد الرأس ، ووضعت المصابيح العائدة لدير القديس سابا ولجميع الديرة ، فوق مكان الصدر لأن العادة جرت أن يضع الاغريق وكذلك دير القديس سابا مصابيحهم هناك كل عام، وبفضل من الرب اشتعلت هذه المصابيح الثلاثة في تلك المناسبة، لكن المصابيح العائدة للفرنجة، والمعلقة فوق الضريح لم تتلق النور، وكنت بعدما وضعت مصباحي فوق الضريح المقدس وبعدما تعبدت وقبلت بدموع التوبة والتقوى المكان المقدس الذي تمدد عليه

جسد ربنا يسوع المسيح، بعد هذا كله تركت الضريح المقدس مليئا بالبهجة، وعدت الى حجرة خلوتي.

واحتشد الجميع في اليوم التالي، وهو يوم السبت المقدس، في الساعةالسادسة من النهار، أمام كنيسة القيامة المقدسة، وتجمهر الأجانب والمحليون من جميع البلدان: من القاهرة ومن انطاكية، ومن كل جزء من أجزاء العالم، واجتمعوا في ذلك اليوم في أعداد لاتحصى، وملأت الحشود المكان المفتوح حول الكنيسة وحول مكان الصلب، وكان الضغط مرعبا، والجيشان عظيما الى درجة ان عددا كبيرا من الاشخاص اختنقوا في وسط ازدحام الناس الذين وقفوا وبأيديهم مشاعل غير مشتعلة، ينتظرون فتح أبواب الكنيسة، وكان الكهنة لوحدهم في داخل الكنيسة، وانتظر الكهنة وكذلك الحشود، وصول الأمير مع حاشيته، وما أن فتحت الابواب حتى اندفع الناس يدفعون بعضهم بعضا ويصطدمون بالمناكب، وملأوا الكنيسة والشرفات، ذلك ان الكنيسة لم يكن بامكانها استيعاب مثل هذه الحشود، واضطر جزء كبير من الناس الى البقاء في الخارج حول الجلجلة ومكان الجمجمة، وامتدادا حتى البقعة التي اقيمت فوقها الصلبان، وامتلأ كل مكان بحشد لايعد ولايحصى ، وصرخ الناس في داخل الكنيسة وفي خارجها بدون توقف مرددين <<Kyrie eleison>> «ارحمنا يارب»، وكان الصراخ عاليا الى درجة ان المبنى كله ردد الاصوات وتنفس بها، وبكى المؤمنون وسكبوا دموعا كثيرة، حتى الذي امتلك قلبا من حجر ماكان بامكانه التمنع عن البكاء، وكان كل واحد يبحث في اعماق نفسه، ويفكر بذنوبه ويقول بشكل سري في قرارة نفسه: « هل ستمنع ذنوبي نزول النور المقدس»؟ وبقي المؤمنون هكذا ينوحون بقلوب مثقلة، وبدا الأمير بلدوين نفسه نادما ومتواضعا جدا، يذرف سيلا من الدموع من عينيه، ووقفت حاشيته من حوله واجمة قرب المذبح العالي، مقابل الضريح.

ففي حوالي الساعة السابعة من يوم السبت غادر الامير بلدوين بيته، وسار على قدميه نحو ضريح ربنا، وبعث الى نزل القديس سابا من اجل راعي دير القديس سابا ورهبانه، وبناء عليه انطلق راعي الدير يتبعه الرهبان وسار نحو الضريح المقدس، وذهبت انا غير الجدير معهم، وعندما وصلنا الى الامير حييناه جميعا، ورد علينا التحية ووجه راعي الدير وانا العبد الحقير، لنمشي الى جانبه، في حين مضى رعاة الديرة الآخرون والرهبان أمامه، وسارت الحاشية من ورائه، وهكذا وصلنا الى الباب الغربي لكنيسة القيامة، لكن الازدحام الشديد أعاقنا ولم نستطع الدخول، وبناء عليه أمر الأمير بلدوين عساكره بتفريق الحشود وفتح طريق لنا، ونفذوا هذا وفتحوا الزقاق الى الضريح، وبهذه الوسيلة تمكنا من الجواز من خلال الحشد، ووصلنا الى الباب الشرقي للضريح المقدس العائد لربنا، واتخذ الأمير مكانا له الى اليمين قرب درابزون المذبح العالي، أمام الباب الشرقي للمذبح، ففي هذه البقعة هناك مكان مرتفع مخصص للأمير، وأمر الأمير راعي دير القديس سابا أن يتخذ موقعا له خلف الضريح ومعه رهبانه والكهنة الأرثوذكس، أما بالنسبة لي، انا الانسان الوحيد، فقد وجهني لأجلس نفسي أبعد قليلا، فيما وراء أبواب الضريح المقدس، أمام المذبح العالي، حتى استطيع أن أرى من خلال الأبواب الضريح، وكانت هذه الأبواب التي عددها ثلاثة، مغلقة ومختومة بالخاتم الملكي، ووقف الكهنة اللاتين الى جانب المذبح العالي.

وفي الساعة الثامنة بدأ الكهنة الأرثوذكس، الذين كانوا وراء الضريح المقدس بإنشاد تراتيل قداس العشاء، ومعهم رجال الدين، والرهبان، والنساك، وشرع اللاتين الواقفين إلى جانب المذبح العالي يتمتمون مثلهم ويرددون بعدهم، وبينما كان الجميع يغنون على هذه الصورة بقيت في مكاني صارفا انتباهي نحو مراقبة أبواب الضريح، وعندما بدأوا يقرأون الـ <<paroemia>> (نص مقدس خاص بالأرثوذكس يقرأ

عـادة عشيـة الفصح) لأجـل السبـت المقـدس، وفي أثناء قـراءة المقطـع الأول، تـرك الأسقف يتبعـه الشماس المذبـح العـالي، وذهبا نحـو أبـواب الضريح، ونظـرا من خلال الكـوة، وعندما لم يريـا الضوء عادا، وعنـدما شرعـوا بقـراءة المقطع السـادس مـن الــ <<paroemia>> ، عاد الأسقف نفسـه الى باب الضريح المقـدس، لكنه لم ير تغييرا، وبـدأ الناس جميعا يبكون ويصرخون <<Kyrie eleison>> ، التي معناهـا «ارحمنا يارب» وفي نهاية السـاعةالتاسعة، عنـدما بدأوا يترنمون بقطعـة من أغنية الخروج، جـاءت سحـابـة صغيرة فجأة مـن الشرق، ووقفـت فـوق القبـة المفتوحة للكنيسة، وتسـاقط مطر لطيف فوق الضريح المقـدس وبللنا مع الـذيـن وقفـوا وراء الضريـح، وفي هــذه اللحظـة أضـاء النـور المقـدس الضريـح المقدس، الـذي أشـع بنـور باهـر، وضيـاء رائع، وعنـدها فتـح الأسقـف الـذي تبعـه أربعـة شمامسـه أبـواب الضريـح، ودخلـه ومعـه شمعدان الأمير بلدويـن ليشعله أولا من قبل النور المقدس، ثـم عاد بعد ذلك الى الأمير الـذي غير مكانـه، وأمسك الشمعـدان بيديـه وهو مسرور غاية السرور، وأشعلنا شمعداناتنـا من شمعدان الأمير، وأمررنا الشعلة الى كل انسان في الكنيسة.

ولايشبه هذا النـور المقدس اللهب العادي، لأنه يحترق بطـريقة عجيبة رائعـة، ويعطي ضيـاء لايمكن وصفـه، ولونـا أحمر يشبه لـون الزنجفـر «كبريتيد الـزئبق»، ومكـث الناس جميعا واقفين، وبـأيديهم الشمعـدانات المشتعلة، وهـم يرددون بصـوت مرتفع وبسرور عـارم: « لقد رحمنـا الرب» ولايمكـن لانسان أن يشعـر بسرور يضـاهي السرور الـذي يشعـر به كـل مسيحي في اللحظة التـي يرى فيها نور الرب المقـدس، والانسان الذي لم يشـارك في روعة ذلـك اليوم لن يصدق الـرواية التي دونتها والحاويـةلكل ما شاهـدته، وفقط الرجال العقـلاء والمؤمنين هـم الذين سيضعـون كامل الثقة في تصديق هذه الرواية، وهـم الذين سوف يستمعون بسرور إلى جميع

التفاصيل المتعلقة بالأماكن المقدسة، والصادق بالقليل سوف يكون صادقاً بالكثير، لكن بالنسبة للشرير وعديم الثقة يبدو الصدق دوماً بالنسبة له كذب، ويشهد الرب والضريح المقدس لربنا على رواياتي وعلى شخصي المتواضع، وكذلك يفعل رفاقي من روسيا، ومن نوفغورد، وكييف وهم: ايزياسلاف، وايفانوفتش، وغوروديسلاف، وميخائيلوفتش والاثنين كاشكتش، وعدد كبير آخر ممن كان هناك في اليوم نفسه.

وأعود إلى روايتي: وما أن أشع النور في الضريح المقدس حتى توقف الغناء، وصرخ الجميع: "Kyrie Eleison"، وتحركوا جميعاً نحو الكنيسة بسرور عارم، يحملون الشمعدانات المشتعلة في أيديهم، ويتولون حمايتهم من الريح، ووقتها ذهب كل إنسان إلى بيته، وبعدما أشعل الناس مصابيح الكنائس بوساطة شمعداناتهم، بقيوا هناك لإكمال قداس العشاء، في حين بقي الكهنة لوحدهم وبدون مساعدة أكملوا قداس العشاء في داخل كنيسة الضريح المقدس الكبيرة، وعدنا ونحن نحمل الشمعدانات المشتعلة إلى ديرنا مع راعي الدير والرهبان، وأكملنا قداس العشاء هناك، ثم توجهنا نحو خلواتنا، ونحن نحمد الرب لأنه تنازل فأرانا نحن الذين لا نستحق نعمه الربانية، وتلقينا التحليل، وإثر ذلك انطلقنا في حوالي الساعة الأولى من النهار في التوجه نحو الضريح المقدس، وقد حمل الراعي بيده الصليب والرهبان ينشدون ترتيلة: «رفضت أيها الواحد الخالد الذهاب إلى القبر»، وبعدما دخلنا إلى الضريح المقدس غطينا ضريح الرب المانح للحياة بالقبلات والدموع المنهمرة، وشممنا بوجد ونشوة العطر الذي خلفه حضور روح القدس وحدقنا بإعجاب بالمصابيح التي كانت ما تزال مشتعلة بعظمة رائعة وضياء عظيم، وأخبرنا الحافظ للضريح المقدس وحامل المفاتيح وراعي الدير بأن المصابيح الثلاثة التي وضعت في الأسفل على الضريح المقدس قد اشتعلت، وكانت الخمسة مصابيح الأخرى المعلقة فوق الضريح

مشتعلة، لكـن نورهـم اختلـف عن نـور الثلاثة الأولى، ولم يتملكـوا ذلك الإشعاع الرائع، ثم غـادرنا فيها بعد الضريح بوساطـة الباب الغربي، وكنا عنـدما سرنـا نحـو المذبح العـالي قـد قبلنا الكهنـة الأرثـوذكس، وتلقينـا التحليـل، وإثر هـذا غـادرنا هيكـل القيامـة المقـدسة مـع راعـي الديـر والرهبان، وعدنا إى ديرنا للاستراحة حتى وقت القداس.

وفي اليـوم الثالـث بعد قيـامة ربنـا، ذهبـت بعد القـداس إلى حافـظ مفاتيح الضريح المقدس وقلت: « بـودي أخذ مصباحي»، وقد استقبلني بلطف، وجعلني أدخل إلى الضريح لوحـدي تماماً، ورأيت مصباحي على الضريح المقـدس ما زال مشتعلاً بلهـب الضوء المقدس، وسجـدت أمام المكان المقـدس، وباستغفـار غطيت المكـان المقدس، حيـث تمدد الجسد النقي لـربنا يسـوع ، بالقبـل والدمـوع، ثم قمـت بعد هـذا بقياس طـول الضريح وعرضـه وارتفاعه حسبما هو الآن، وهـو أمر لم يكن بإمكـان أحد القيـام به مـن قبل، وأعطيـت «حـافظ مفـاتيـح» ضريح الـرب بقدر مـا استطعت، وقدمـت له بقدر ما توفـر لي من إمكانيات، وذلـك مجرد هدايا صغيرة وبسيطـة، ولـدى رؤيـة حـافظ المفـاتيـح مقـدار حبـي للضريـح المقدس، أزاح الألـواح التي تغطـي بعضاً مـن الضريح المقـدس، حيث تمدد رأس المسيح، وقطع كسرة من الصخرة المقدسـة، وأعطاها إليّ بمثابة تذكـار مباركـة، ورجاني بـالوقـت نفسه ألا أقـول شيئاً حـولها في القدس، وبعدما قبلـت ضريح الرب ثانيـة، سلمت على حافظ المفـاتيح، وحملت مصباحـي وهو مليء بالـزيت المقـدس، وغادرت الضريح المقـدس مليئاً بالغبطة، وغنياً بالنعمـة الربانية، وحاملاً بيدي هديـة من المكان المقدس، وذكرى مـن الضريح المقـدس لربنـا، ومضيت في طـريقي مسروراً وكـأني الحامل لثروة واسعة، وعدت إلى خلوتي مليئاً بالغبطة.

والرب يشهد والضريح المقدس أنني لم أنـس في هذه الأماكن المقدسة أسماء الأمراء الـروس والأميرات مع أولادهـم، وكذلـك لم أنس الأسـاقفة

ورعاة الديرة والنبلاء، أو أبنائي الروحيين وجميع المسيحيين، فقد تذكرت كل واحد، وصليت أولاً من أجل جميع الأمراء، ثم من أجل ذنوبي، والشكر لفضل الرب، الذي سمح لي، أنا الشخص غير الجدير لأن أكتب أسماء الأمراء الروس في دير القديس سابا، حيث يصلون الآن من أجلهم في أثناء القداسات، ومن أجل زوجاتهم وأولادهم، وها كم هي أسماؤهم: ميخائيل سفياتوبولك Sviatopolk [دوق كييف الأعظم: ١٠٩٣ — ١١١٣]، وفاسيلي فلادمير، وداود سفياتوسلافتش Sviatoslavitsch، وميخائيل أولغ بانكراسي Pancrace وسفياتوسلافتش Sviatoslavitsch، وغلب Gleb أوف منسك، واحتفظت فقط بهذه الأسماء التي كتبتها في الضريح المقدس، وفي جميع الأماكن المقدسة، وذلك دون تعداد بقية الأمراء الروس الآخرين والنبلاء، وأقمت خمسين قداساً من أجل الأمراء الروس وجميع المسيحيين، وأربعين قداساً من أجل الموتى.

علّ تبريكات الرب، والضريح المقدس وجميع الأماكن المقدسة تكون مع الذين يقرأون هذه الرواية بإيمان وحب، وعلهم يتلقون من الرب الجوائز نفسها مثل الذين قاموا بالحج إلى هذه الأماكن المقدسة، وسعداء هم الذين شاهدوا وآمنوا، وسعداء ثلاثة أضعاف الذين لم يروا ومع ذلك آمنوا، فبالإيمان حصل إبراهيم على أرض الميعاد، لأنه والحق يقال يعدل الإيمان الأعمال الصالحة، وباسم الرب لا تلوموا أخواني وسادتي جهلي وسذاجتي، ومن أجل خاطر الضريح المقدس لربنا لا تفسدوا هذه الرواية، فلعل الذي يقرأ بحب يتلقى الجزاء من ربنا ومنقذنا يسوع المسيح، وليكن سلام الرب معكم جميعاً حتى نهاية الدنيا. آمين

فيتيلوس

مدخل

قسم الكونت دي فوغ Vogue (في ملحق لعمله العظيم "كنائس الأرض المقدسة") أوصاف الأماكن المقدسة التي كتبت خلال العصور الوسطى إلى فئتين: الفئة الأولى وهي التي تضم ما يمكن أن يعد انطباعات شخصية، وهو ما يمكن أن ندرجه الآن تحت عنوان رحلات،وتضم الفئة الثانية مؤلفات مختصرة لمؤلفين مجهولين، يمكن أن ندرجها الآن تحت عنوان أدلة (ج. دليل)، وهي قد صممت لتزود الحجاج بالمعلومات التي يتطلبونها، أو لتساعد الذين لا يمكنهم الذهاب للحج، لتكون لديهم بعض الأفكار عن مشاهد الأرض المقدسة، وأشهر كتب الفئة الأولى كتاب أركولف Arcolfus ، الذي عدّ كتاباً معتمداً في بابه من الأيام التي كتب فيها (حوالي سنة ٦٧٠م) حتى حل محله كتب أخرى كتبت بأعداد كبيرة في أيام الحروب الصليبية، مثل كتب: سيولف Saewulf، وجون أوف وورزبيرغ Wurzburg ، وجون فوكاس، وولبراند فون أولدنبيرغ Wilbrand Vonoldenburg ، وتواريخ الأخبار العسكرية مثل كتب ألبرت دي أكس، وغيسوبرت دي نوغت، ووليم الصوري، وفولتشر دي تشارترز، وجاك دي فيتري، الخ. وبالنسبة للفئة الثانية لدينا كثيراً مما يمثلها، وعندما تعقد مقارنة فيما بين الكتابات التي كتبت أيام الحروب الصليبية، أو بعدها، يتضح على الفور أنها جميعاً استقت إلى أبعد الحدود من مصدر عام، فقد جرى نقل وتكرار بعض النصوص كاملة من قبل واحد ثم آخر، فآخر، وتبين للكونت دي فوغ أثناء أبحاثه وجود نماذج عدة من هذه الأدلة، عدلت أو غيرت من قبل كتاب خاصين لتوائم العصر، مع أوضاع الكتاب نفسه، ولاثنين من هذه الفئة أهمية خاصة، وأول نموذج منها ممثل في الكتاب الذي هو قيد الترجمة، ويعود بتاريخه إلى بداية القرن الثاني عشر، وهو يظهر أوضاع

البلاد عند بداية الحروب الصليبية، وصنف الآخر في حوالي سنة١١٨٧، وهو يشير إلى التغييرات التي أحدثها الاحتلال اللاتيني لمدينة القدس المقدسة (سوف تتم إن شاء الله ترجمة كل النماذج المتوفرة)، وصنف النموذج الأول باللاتينية، والنموذج الثاني هو نموذج نورماندي — فرنسي.

وأقدم نسخة لدليل من الفئة الأولى، مما أمكن للكونت دي فوغ أن يحصل عليه، قد كتب فيها بين سنوات ١١٥١ و١١٥٧، وهو موجود في مخطوطة من مخطوطات المكتبة الوطنية في باريس (المكتبة الامبراطورية — المخطوطات اللاتينية رقم ٥,١٢٩)، وذلك في نهاية تاريخ الراهب روبرت، ويبدو أن هذا المجلد قد كتب فيها بين السنوات المتقدمة أعلاه، ذلك أن قائمة الأمراء التي فيه تتوقف عند البطريرك فولتشر(١١٤٦ — ١١٥٧م)، والملك بلدوين الثالث (١١٤٤ — ١١٦٢)، وكونت ريموند الثاني صاحب طرابلس (١١٥١ — ١١٨٧م)، ويبدو أن الرسالة ترقى إلى تاريخ أبكر من هذا، فهي متقدمة على بناء جوقة المرتلين في الضريح المقدس (القيامة)، وجاءت بعد وقت قصير من تأسيس أخوانية رهبان الداوية، والتاريخ الذي اختتمت به كما يبدو أصلاً وتوقفت عنده هو من عهد بلدوين الثاني (ربما سنة ١١٣١)، وأضيفت الإشارات إلى الملك فولك والملك بلدوين الثالث من قبل كاتب متأخر، وعلى هذا يمكن أن نفترض أن تاريخها هو حوالي سنة ١١٣٠، ومصنفها غير معروف كلياً، ومع أنها معروفة تحت اسم فيتيلوس، من المؤكد تماماً أنه لم يكن كاتبها، وارتبط اسم الرسالة باسمه فقط بسبب أنه تولى إخراج نسخة تولى هو تحريرها، والرسالة الأصل كانت معروفة قبله، وهذا يمكن استنتاجه من نصها، وفيتيلوس نفسه نعرف القليل عنه، ويكتب اسمه أحياناً "فريتيلوس Fretellus والشيء الوحيد المؤكد حوله أنه كان رئيس شمامسة في أنطاكية في حوالي سنة ١٢٠٠م، ولقد اختصر النص الأصيل

اختصاراً كبيراً في النسخة التي حررها، خاصة في وصف صحراء التيه، والأساطير، والتاريخ الطبيعي، وغير الأجزاء الواضح أنها ترقى إلى تاريخ أبكر، مثل ذكر بناء كنيسة في صور فهو قد أحل كلمة أسست محل كلمة تبنى، وأضاف بعض الخصوصيات الأخرى، ووصلتنا نسخ أخرى من الرسالة، فقد نشر ليون ألاتيوس Leon Allatius في سنة ١٦٥٣ كتاباً تحت اسم Eugesippus وهو وصف للأماكن المقدسة، وهو على الرغم من عدد من التصحيفات نص فيتيلوس نفسه، وهي حقيقة ذكرها م.دي فوغ، ليظهر السهولة الكبيرة التي نسبت بها هذه الرسالة إلى مؤلفين آخرين.

وفي التفاتة نحو الرسالة نفسها، نجد من الصعب قول كثير من الثناء على ترتيب موادها، وفي هذا المجال لا يختلف كاتبنا الذي لا نعرفه عن كثير من كتاب الحجاج، ويبدأ وصفه برواية عن مدينة القدس مع أماكنها المقدسة، والمواقع المقدسة في أحوازها، وأشار إلى مختلف البقاع في المدينة المقدسة، التي يتعامل معها غالبية الحجاج، ثم يأخذنا إلى بيت لحم استطراداً بشكل غريب وهو ما يزال يتحدث عن القدس وعن وادي يهو شافاط، وجبل الزيتون، ثم مرّ بشكل سريع إلى الأردن قرب أريحا، والبحر الميت، والخليل وأحوازها، ثم عاد إلى البحر الميت، ويأتي هنا على حديث طويل حول طريق الخروج، وفي أثنائه ذكر بعض الأساطير العجيبة، وقدم تفاسير غريبة حول أسماء المحطات في صحراء التيه، وجرى تبني هذه الشروح آنذاك للإثارة، وظلت هكذا حتى أوقات قريبة نسبياً، وبعد إكماله لهذه القائمة، والاشارة إلى بعض الأماكن التي كانت هامة في الأيام الأولى لاحتلال أرض الميعاد، نقلنا إلى دمشق، عاصمة سورية، ثم تابع نحو ينابيع الأردن، وأحوازها حتى بحيرة طبرية، والناصرة، وجبل الطور، والسامرة، وشكيم، والقدس، وجاءت إشارته هنا إلى المدينة المقدسة عابرة، حيث جاز من هذه المحطة إلى بيت لحم

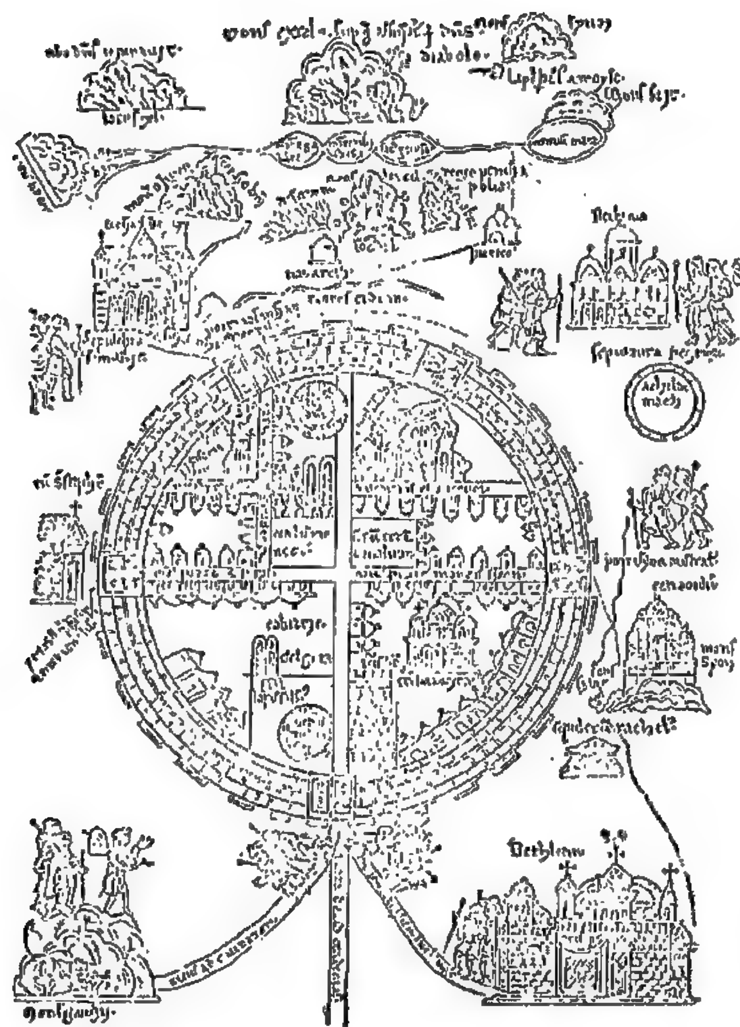
والمناطق المجاورة لها، وعاد من الجنوب إلى القدس، وقدم رواية متخلفة نوعاً ما حول تاريخها، ووضعها الطبوغرافي، ووصف إلى بعض الحدود مواقعها المقدسة، وعبر من القدس نحو الشمال، غير أنه عاد ثانية إلى بعض المواقع الجنوبية حول الخليل، ثم أخذنا من هناك إلى أريحا، وذلك قبل أن يتابع سيره عبر اللد إلى الشاطىء، فسايره إلى قيسارية، وعكا، وصور، وصيدا، وبيروت، وبعيداً حتى طرابلس، وختم رسالته بتجديد الإشارة إلى القدس، وأولى ذكر برج داود اهتمامه بربطه باسم غود فري دي بويلون، وأقحم هنا الأسطر التي كتبت على قبره في كنيسة القيامة، وهذه هي الإشارة الوحيدة حول هذا النقش معروفة بالنسبة إلينا، وأتى على ذكر خلفاء غود فري في فقرة ختامية ذكر فيها رواية عن الملك بلدوين الأول، وقد حذفناها مجاراة لما قام به م. دي فوغ.

وتنبع الأهمية الرئيسية لهذه الرسالة المجهولة المؤلف — كما أشرنا من قبل — من أنها تقدم لنا وصفاً لأوضاع الأماكن المقدسة أيام بداية الحروب الصليبية، ففي الحديث عن كنيسة القيامة — على سبيل المثال — ذكر المؤلف أن مقر جوقة المرتلين كان قيد البناء، وكان الدخول إلى البناء المستدير ما يزال ممكناً عبر أربعة أبواب في الجهة الشرقية، وتبنى الرواة الذين جاءوا من بعده أوصافه ونقلوها خطوة خطوة، وهذا من الممكن رؤيته بمقارنة بعض الفقرات المتعلقة بوصف شمال فلسطين لدى ما جاء عند جون أوف وورزبيرغ (الذي ستأتي ترجمة نصه فيما بعد إن شاء الله)، والتشابه بين النصين كثيراً وقريباً، وليس من المفيد الإشارة إليه بالتفاصيل هنا في الحواشي.

واعتمدت الترجمة على النص الذي ألحقه م. دي فوغ بكتابه، الذي تقدمت الإشارة إليه، (كنائس الأرض المقدسة، تأليف الكونت مليكيور دي فوغ، باريس ١٨٦٠، ص ٤١٢ ـ ٤٣٣)، واعتمد في إخراجه لهذا النص على مخطوطتين من رسالة فيتيلوس، ترقيان إلى القرن الثالث عشر،

وذلـك مع المخطـوطة الأقـدم التي تقـدم ذكرهـا، وإحدى المخطـوطتين مـوجــودة في المكتبـة الـوطنيـة (الامبراطـوريـة) في بــاريــس، (F.de 574,Fo,172 s.victor,no)، والأخــرى مــوجــودة في المكتبــة الامبراطوريـة في فينا (مخطوط — مجمـوع رقم ٦٠٩)، وجرى في حـالة أو حـالتين إكمال وصف القـدس مـن قبل الكـونـت دي فـوغ، والاستعانـة بكتاب غريب، وجـده في المكتبة الوطنية (الامبراطورية) حـوى رواية عن الحملة الصليبية الأولى، ووضع هـذه الإضافات في الحواشي، وعلى العموم تمت تـرجمة حواشي م. دي فـوغ، وجرت الإفـادة من نصوص الرحـلات التي ستترجم، ومن كتاب لي سترانج «فلسطين في ظل الحكم الإسلامي».

هذا وجـرى تزويـد هذه الرسـالة بمصور للقـدس خلال القـرن الثاني عشر، أيام جـون وورزبيرغ وثيوديـرك، أي بعد ثـلاثين أو أربعين سنة مـن تاريخ تحرير رسالتنا الحالية.



القدس (مخطط القرن الثاني عشر)

JERUSALEM (PLAN OF THE TWELFTH CENTURY).

- ١١٣٠ -

وضع مدينة القدس والأماكن المقدسة في داخل المدينة نفسها أو في أحوازها

مدينة القـدس قائمة في المنطقة الهضبيـة ليهوذا، في بلاد فلسطين، ولها أربعة مداخل:في الشرق وفي الغرب، وفي الجنوب وفي الشمال.

ويقع في الشرق الباب الـذي ينحدر الإنسان منه إلى وادي يهوشـافاط، ويذهب الإنســان عبره إلى جبل الزيتون،وإلى نهر الأردن، ويقـع في الغرب بـاب داود، الـذي تواجـه إطـلالتـه البحـر، ومن ثـم عبر عسقـلان، وفي الجنـوب يقع البـاب الذي يـدعـى باب صهيـون، فعبره يخرج إلى مقربـة القديسة مـريم فوق جبل صهيـون،وفي الشمال هنالك الباب الذي يـدعى باب القـديس اسطفـان، لأنه هناك رمـي بالحجـارة خارج المدينـة، وهذا الباب نادراً مـا يفتح، ذلك أننا دخلنا إلى المدينة المقـدسة عبر باب داود، الموجود على يمين الـداخل منه بـرج داود، وهو لم يكـن بعيداً عنا عنـدما دخلنا، ويقـع برج داود على الجانب الغربي، ويعلـو بارتفاعه فـوق المدينة كلها.

يقوم هيكل الـرب على مسافة قريبة، ويـواجه اتجاه شروق الشمس، في الجزء الأكثر انخفاضاً من المدينة فـوق وادي يهوشافاط، وله أربعة أبواب: بـاب مـن الشرق، وباب مـن الغـرب، وبـاب مـن الجنوب، وبـاب مـن الشمال، وأعلى نقطة فيـه هي في صخرته في الـوسط، حيث هناك مـذبح، وهناك جرى تقديم الرب من قبـل والديه وتسلمه القديس سمعان، وإلى هنا اعتاد أن يصعد عندما كان يتولى وعظ الناس.

ويقع ضريح الـرب في أسفل المدينة، على يسارنا قليـلاً ونحن ذاهبون إلى الهيكل، وكنيسة الضريح المقدس (القيامـة) مستديرة الشكل، وبناؤها جميل، ولها أربعة أبواب، فتحتها مـواجهة لاتجاه إشراق الشمس، وضريح

الرب قائم في وسطها، وهو محمي بما فيه الكفاية، ومزين بشكل معقول، وفي خارجها، في الجهة الشرقية هناك موقع الجمجمة، وهو المكان الذي صلب فيه الرب، ويصعد الإنسان هناك ست عشرة درجة حيث يجد صخرة عظيمة، فهناك أقيم صليب المسيح، وفي الأسفل الجلجلة، حيث انساب دم المسيح إلى الأسفل من خلال وسط الصخرة، ومقام هناك مذبح مكرس على اسم القديسة أم الرب، وخارج هذا، وعبره في مواجهة لإتجاه مشرق الشمس، يقوم المكان الذي وجدت فيه هيلانة المباركة الصليب المقدس، وهناك مبنى كنيسة واسعة، [يومىء هنا إلى شرفة جوقة المرتلين في القيامة التي كانت يومها قيد الإنشاء] وفي الجانب الآخر وعبره في مواجهة الساعة السادسة (أي الجنوب) هناك مشفى للفقراء والمعاقين، وكذلك كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وبجوارها كنيسة القديسة مريم اللاتينية، ويوجد في الكنيسة المشار إليها أعلاه، أعني كنيسة المبارك يوحنا إبريق من الحجر حول فيه الرب الماء إلى نبيذ.

وكما سلف بنا القول يتفوق هيكل الرب بجماله على جميع الكنائس، وهناك فيه أيضاً إبريق ماء مصنوع من الرخام، فيه حول أيضاً الماء إلى النبيذ في قانا الجليل، وأسفل الصخرة القائمة في وسط الهيكل، البقعة التي كان فيها مرة قدس الأقداس، وإليها ينزل الإنسان ببضع درجات، وهناك كان زكريا يصلي عندما أعلن له الملاك جبرائيل عن ولادة المبارك يوحنا المعمدان، وهناك أيضاً المكان الذي كان الرب جالساً فيه عندما جلب إليه الفريسيون المرأة التي أُمسكت وهي تزني، وعلى الجانب الأيمن أيضاً قصر سليمان [المسجد الأقصى]، وهناك مقابل اتجاه إشراق الشمس، إلى جانب القصر المذكور أعلاه، كنيسة القديسة مريم، حيث ينزل إليها الإنسان درجات كثيرة، فهناك مهد المخلص، وحمامه وفراش أمه، وعلى الطرف الأيسر (أي الشمال) للهيكل، فيما وراء الأسوار كنيسة القديسة حنة، أم أم المسيح، وفي الخارج قيل هناك بركة الغنم.

وليس بعيداً، خلف أسوار المدينة، إلى الجنوب هناك الكنيسة التي تدعى كنيسة مريم جبل صهيون (جامع النبي داود)، حيث غادرت المباركة جداً الجسد، وفيها مكان يدعى الجليلية، حيث ظهر المسيح بعد القيامة إلى حوارييه، ووقتها لم يكن توما موجوداً هناك، وفي الكنيسة المتقدم ذكرها، في الشرق، يوجد المكان الذي ظهر فيه ثانية بعد ثمانية أيام، وكانت الأبواب مغلقة، ولقد ظهر لحوارييه، ووقتها كان توما حاضراً وقال: «سلام لكم»، وأراهم يديه، وجنبه، ومنحهم أن يلمسوه، حسبما روى الانجيلي، وإلى الأعلى يصعد الإنسان بدرج إلى المكان الذي تعشى فيه مع حوارييه، وفيه المائدة نفسها التي تعشى عليها، وهناك أعطاهم جسده ودمه للأكل في سبيل التحلل من الذنوب، وهناك أنارت روح القدس الحواريين في يوم عيد الحصاد، وعلى الطرف الأيسر هناك كنيسة القديس ستيفن، حيث دفن من قبل البطريرك يوحنا، بعدما جلب من كفر جمالا (بيت الجمال)، وأسفل قليلاً هناك جبل أكلداماك، أي حقل الدم، فهناك يدفن الغرباء، وعلى الطرف الآخر من الجبل، على منحدراته تقوم كنيسة القديس بطرس، حيث عندما صاح الديك بكى بحرقة لذنبه بالإنكار، وفي الأسفل أيضاً هناك نبع، يدعى بركة سباحة سلوان، حيث بناء على أمر من الرب، استرد الرجل الذي ولد أعمى بصره، ولا تمتلك مدينة القدس ماء للحياة غير هذا الماء.

وبيت لحم هي مدينة داود، وهي على بعد مرحلتين كبيرتين من القدس، في مقابل الساعة التاسعة (أي الجنوب الغربي)، وفيها كنيسة القديسة مريم، وهي مبنية بجمال معتبر، وفيها السرداب الذي حملت فيه العذراء مريم المباركة جداً بمخلص العالم، وفيه المزود الذي وضع فيه المسيح، وأمام السرداب مائدة رخامية أكلت عليها العذراء مع الملوك الثلاثة، وما يزال أمام ذلك السرداب البئر الذي فيه ماء بارد وحلو المذاق، وقد قيل فيه سقط النجم الذي قاد الحكماء الثلاثة إلى مدخل

ذلك السرداب، زد على هذا إن الذين يخرجون من الكنيسة يجدون قرب الباب سردابين آخرين، أحدهما أعلى من الآخر، ويرقد في السرداب العالي باولا المقدسة جداً، ويرقد عند قدميها ابنتها، أقصد العذراء المقدسة جداً،يوستوخيوم Eustochium ،وينزل الانسان الى السرداب المنخفض بوساطة كثير من الدرجات، وهناك الضريح الذي يرقد فيه الجسد المقدس لأرميا المبارك كثيراً،والطبيب المشهور،وهذه هي بيت لحم التي أيضاً أمر فيها هيرود بذبح الرضع بشكل وحشي.

وتقع الكنيسة التي تعرف باسم كنيسة القديسة مريم في وادي يهو شافاط،وتقوم في وسط الوادي بين القدس وجبل الزيتون،حيث يوجدضريح القديسة مريم أم الرب،فهناك قبر جسدها المقدس جداً،الرسول يوحنا المبارك،ويوجد خارج الكنيسة المكان المسمى جيسماني،حيث السرداب الذي خان فيه يهوذا الرب الى اليهود،وعلى بعد حوالي رمية حجر باتجاه اليمين مكان وحي حيث صلى لأبيه في ساعه آلامه، وصار عرقه مثل نقاط من الدم تتساقط نحو الأرض،وظهر له ملاك لطمأنته ومواساته،وعلى قمة ذلك الجبل مكان وحي، ومن هناك صعد الرب الى السماء،وبالجوار هناك كنيسة أخرى حيث عمل الرب الصلاة(الرقية)الربانية،والى جانبها بيت فاج،الذي كان فيما مضى قريه للكهنه،وعلى بعد ميل واحد في مواجهة الساعة الثالثة تقوم قرية بيت حنينا،حيث أقام المخلص لازاروس الميت،وهنا ضريحه وهنا أيضاً كنيسة مريم المجدلية،التي كانت فيما مضى بيت شمعون المجذوم،حيث أعفاها الرب من ذنوبها.

ونهر الأردن بعيد بعض الشيء عن القدس، وعلى حوالي العشرين ميلاً، والرحلة اليه متعبة بهافيه الكفاية،زد على هذا،تبعد مدينة أريحا مرحلتين عن الأردن،ويأتي الأردن الآن من الشمال،ويجري نحو الجنوب،والى جانب الأردن تقوم كنيسة القديس يوحنا المعمدان،حيث

يوجد فيهـا نحو عشرين راهباً أرثـوذكسيا يعبدون الرب،وتقـع العربية فيما وراء الأردن.

وليس بعيداً عـن المكـان الـذي جرى تعميـد الـرب فيـه يقع البحـر الميـت،حيـث يصـب نهر الأردن،وكـان يـوجـد هنـا أربعـة مـدن هـي: سدوم،وعاموره،ودومـه،وساعور،التي أهلكت بعدالـة حكم الرب،ويعرف البحـر الميـت بهذا الاسم لأن مـامـن شيء يمكنـه العيش فيـه،ولايمكـن لـلأسماك أن تسبح فيـه أو تعيـش،كمالايمكـن لأي مخلوق الشرب منـه، وإذا ماطـار أي طائر فوق هذا البحـر،ووقع فيه فـإنه يموت،ويدعـى هذا البحر أيضاً باسم نهر الشيطان، ويقـع الجبل الذي صام فيه الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة على مسافة ثلاثة أميال من أريحا.

وصف الأماكن القائمة حول القدس

كانت حبرون من قبل حاضرة فلسطين منذ مابعد الفيضان حتى وصول بني اسرائيل،وكانت مكان سكنى العمالقة،ومدينة كهنوتية،ومدينة مأوى لسبط يهوذا، وهي واقعة على بعد ستة أميال عن القدس باتجاه الجنوب،على تخوم صحراء اليهودية،وحدث في هذه المنطقة أن خلق الله القادر أبانا آدم،والمكان محفوظ تحت آبدة بعضها اصطناعي وبعضها طبيعي،وتأسست حبرون من قبل من قبل العمالقة قبل سبع سنوات من تأسيسهم لمدينة تنيس في مصر،ودعيت حبرون بهذا الاسم من خلال ممرا Mambre صديق ابراهيم،وهناك جبل مشرف على المدينة يحمل الاسم نفسه،وعند سفحه عاش ابراهيم لمدة طويلة، ومايزال موجوداً هناك البلوطات التي ظهر له عندها الملائكة الثلاثة،وقد تعبد واحداً منهم،حيث أخبرنا أن الثالوث المتحد، يتوجب إجلاله،وعندما اقتربوا إما بفضل الضيافة أو بفضل الحب،ليأخذوا أماكنهم الى مائدته،وضع هو أمامهم عجلاً من قطيعه مع حليب وزبدة، ومدفوع بهذه الرؤيا،بنى أول مذبح للرب،وعليه ضحى له بمحبة،ويحتفل سنوياً الى جانب البلوطات المتقدمات الذكر،احتفالاً عظيماً باسم الثالوث المقدس،وتبعاً لما ذكره إرميا انتشرت البلوطات منذ ذلك الوقت نزولاً الى أيام الامبراطور ثيودوسيوس،ومن الجذوع الحالية،تنمو كما يقال على جذورها،ومهما كانت جافة تبرهن أنها ماتزال تحتفظ بخواصها الدوائية،الى حد لو أن راكباً حمل معه قطعة منها فإن حصانه لن يخذله،وتدعى حبرون Arba ومعنى هذا بلغة المسلمين أربعة، وإليها يضاف كلمة «قرية » التي معناها باللغة نفسها «مدينة»،وهكذا صار اسم المدينة«قرية الأربعة»وأول هؤلاء الأربعة آدم المخلوق الأول،ثم يليه الآباء الرئيسيين:ابراهيم،واسحق ويعقوب،فهؤلاء يرقدون مدفونين في كهف مزدوج في حقل

عفرون،ومعهم زوجاتهم الأربع:حواء ،وسارة،ورفقه،وليا، وحبرون واقعة قرب وادي الدموع،وحمل وادي الدموع هذا الاسم،لأن آدم ناح على ابنه هابيل لمدة مائة سنة،وولد له في حبرون شيث،الذي سيلد منه المسيح،وكذلك أبناء وبنات.

ويرى في حبرون الحقل الذي قيل من ترابه صيغ آدم،ومن هناك نقل من قبل الرب الى الجنوب ليتملك في جنات عدن،التي معناها بالاغريقية والعبرية«نبع البهجة»،ونرى في التواريخ القديمة أنه بعد سقوطه،ساقه الرب من هناك الى حبرون،بدون فخر،بل على شكل نفي،فعاد ليعمل بجد في تربته المحلية،وللتعاسة والعمل بالفلاحة.

ويحفر الذين يقطنون قرب تلك المنطقة في الحقل المذكور أعلاه،ويأخذون ترابه للبيع في بعض أجزاء مصر وشبه جزيرة العرب،حيث هناك حاجة اليه،لأنه يستخدم في أماكن كثيرة بمثابة دواء وتوابل،ومهما حُفر هذا الحقل المذكور،ومهما بلغ عمق ذلك وعرضه،نجد أنه مع نهاية السنة،قد تجدد بشكل كامل، وذلك بفضل الرحمة الربانية، ولون تربة هذا الحقل حمراء،ومن هنا ذكرت التقاليد العبرية أن آدم كان أحمر اللون،وفي حبرون كان الجدان كالب ويوشع أول من لامس أرض الميعادالمقدسة، وبعدما انتخب داود ملكاً من قبل الرب وعمّد من قبل صموئيل حكم في حبرون لمدة سبع سنوات،وعنه قال الرب:« وجدت داود رجلاً حسب قلبي»(أعمال الرسل:١٣/ ٢٢)،وولد في حبرون سته أولاد لداود هم: عمون صاحب أخنوآم،وسيلآن صاحب أبيغل،وأبسالوم صاحب ماآخا،وأدونياس صاحب أغيس،وسافتياس صاحب أبيثال،وجتران صاحب أغلال،وكانت حبرون ملكا لكالب بن يفنه الذي طرد من هناك أبناء عناق الثلاثة: شيشاي،وأخيمان، وتلماي، وفي المنطقة المرتفعة من حبرون في مقابل بلاد الفلسطينيين بلدة دبير،التي كانت تحمل من قبل اسم سفر،أي مدينة الكتابه،التي استولى عليها

عنشيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال من حبرون، باتجاه الجنوب،هناك مكان قبر لوط،ابن أخي ابراهيم.

وعلى عشرة أميال من حبرون.باتجاه بلاد الفلسطينين،توجد بير السبع،وهي مدينة جميلة وذات قدر في اسرائيل وقبل ذلك بكثير،وهي تدلل على «بئر الميثاق»،فهناك أقام ابراهيم واسحق ميثاقاً مع أبيالك،وزرع ابراهيم في بير السبع حديقة حيث كان يدعو اسم الرب السرمدي،لأنه أقام هناك لوقت طويل،ومن بعده أقام أيضاً اسحق، الذي ظهر له الرب هناك وباركه وبارك ذريته.

وعلى بعد ستة أميال،باتجاه الجنوب،يوجد بيت فاروايل Bethef-aroel فيا بين حدود يهوذا ومصر،وهي بلاد الفلسطينيين والعربية، وقد كانت فيها مضى مدينة غنية ومليئة بالسكان،وهنا سكنت أولاً أم المخلص،عندما هربت من يهوذا الى مصر مع ابنها يسوع، وذلك أخذاً بتحذيرات الملاك،وبقيادة، خطيبها يوسف.

وعلى بعد عشرة أميال من حبرون،وباتجاه الشرق،تقوم بحيرة اسفلت،وتدعى هذه البحيرة باسم البحر الميت،وأيضاً باسم بحر الشيطان،لأنه بإغوائه وإثارته جرى تدمير المدن الأربعة الأكثر تعاسة وهي:سدوم،وعموره، ودومه،وساعور،بنار الكبريت،ولإسرافهن في أحوال الترف والغواية، ولاصرارهن على انحطاطهن أغرقن في تلك البحيرة، ومعنى كلمة سدوم:الجمهور الصامت أو العميان،وعموره: خوف الناس أو اللواطة،وساعور:البحر،أومحطة البحر،ودومه:الشهوة،وبعيد البحيرة على مسافة ميل منها،وفي إطار يهوذا تقع سيجور،ومعنى سيجور:صغير أو قليل، وتعني سيجور أيضاً بلع التي معناها امتص،وكذلك زرع، وهو اسم سرياني، وبتوحيد هذين الاسمين ودمجهما معا يصبح

الاسم «بلعزرع»، وسيجور هذه هي التي فرَّ إليها لوط من سدوم، تحت قيادة الملائكة، وقد حفظت من التعرض للنار وقلب عاليها سافلها استجابة لصلواته، وفي المخرج من سيجور، تحولت زوجة لوط الى تمثال من ملح، ولهذا مابرحت تترك أثرها هناك، وحدث على بعد من سيجور في جبل مقابل يهوذا، أن لوطاً كان قد شرب كثيراً، فتمدد مع ابنتيه، فأولدهما مآب وعمون، وتدعى سيجور أيضاً باسم «قلعة النخيل» ، وتدعى منطقة هذه المدن الخمسة باسم «بنتابولس» Pentapolis وذلك بسبب وجود هذه المدن الخمسة، وكانت البنتابولس، قبل أن يقلب عالي المدن سافلها مع المنطقة، وادياً مليئاً بالاشجار، ويحتوى على المدن نفسها، التي شن منها خدر لامور chodor laomor أو خدر لغومير chodolagomer ملك العيلاميين وعمرافيل Amrapfhel ملك شنعار Sennaar ، وعروج Ariog ملك بنطش Pontus، وثدس THADES ملك الأمم، الحرب على بسا Basa ملك سدوم، وبرسا Barsa ملك عمورة، وسنعاب Sennaab ملك دومه، وسمبر Semeber ملك ساعور، وملك بلع، وقد هُزم هؤلاء الملوك، وسلب المنتصرون وحملوا معهم أسلاب شعب سدوم وعمورا، وكذلك أخذوا أطعمتهم، وحملوا معهم لوط ابن أخي ابراهيم أسيراً.

وبين سيجور وأريحا تقوم المنطقة التي تعرف باسم نجدي Engadi، وهناك أيضاً كروم نجدي، حيث ينمو البلسم بشكل رائع بوفرته وخصبه، ويوجد فوق بحيرة الاسفلت الكثير من الشب وأيضاً الكثير من القطران، والشب هو ماء ملح الأرض، ويتكون في الشتاء من تمازج الفطر الغروي والماء، وينضج بوساطة شمس الصيف، .... والقطران نوع من أنواع السوائل، له رائحة قوية، وهو ضروري لدهن الجمال لإزالة الجرب، ولطلاء الكروم لطرد الحشرات التي تأكلهم، وقرب بحيرة اسفلت هناك جبل يبدو كله وكأنه من الملح، ويستخرج من البحيرة أحجار

الطـواحين،وهي الآن ضروريـة في تلك المنـاطـق،ويستخرج مـن البحيرة الحمر (القـار)الذي يستخدمه الأطبـاء،والبحيرة نقية الى درجة يمكـن من خلالها رؤيـة الأبنية والخرائب بشكـل واضح،لكـن ملوحتهـا شديـدة الى درجـة أنه لايمكـن لأي مخلوق تحملهـا، كما لايمكن لأي طـائر أن يطير عبرها،ويوجد في البحيرة جزيرة تنتج تفـاحات خضر فاقع لونها،يبدون من شكلهن أنهن شهيات جداً ، لكن ما أن يمسكهن الانسان حتى يتفتتن ويتحولن الى رمـاد، ويخرج منهن دخان كما لو أنهن مازلن يحترقـن، وغالباً ماظهـرت أخشاب الجزر مبعثرة مثل الرمـاد والجمرات،وكـأنها تمثل المدن المحترقة،وتجلب الأخشاب من الجزر بوسـاطة السفن لتستخدم بالأغراض والحاجـات المحلية،وإذا حـدث وأمضى أحـد النـاس ليلة فـوق البحيرة وترك زجاجـة مملوءة بالنبيذ أو الماء على الأرض،يجدها في اليـوم التالي وقد تحولـت مـن الحلاوة الى المرارة وغـدت غير سـائغــة للشراب،وهنـاك في البحيرة الجزيرة المواجهـة لزدرم،التـي زارها سابـا،وأمضى فيهـا الصيام في خلوة،وهنـاك كاد أن يحترق تمامـاً بسبب إغـواء الشيطان،وذلـك بوسـاطة صاعقة ناريـة مفاجئة،وبقي بلا حياة لمدة سبعة أيـام غير أنه حفظ برحمة الرب،واسترد قـوته،ومـع ذلك بقـي فيها بعد بـدون لحية،وعنـدما عـاد الى بلده نادراً ماعرفه أخوانه أنه سابا.

ويلي مناطـق اسفلت نـزولاً نحو المنطقـة العربيـة مدينــة الصفا Sava القديمة التي هدمها خدر لغومير chdorlogomer،والبنتابولس المتقدمة قائمة على التخوم بين يهوذا والعربية.

وكانـت العربيـة في أيام خـروج بني اسرائيـل من مصر أرضـاً معزولـة وواسعة،وكـانت مـرعبة ولايمكـن المرور بها،ولاماء فيهـا،لكن تحت قيـادة مـوسـى،وبـرحمة مـن الـرب امتـلأت بـالينـابيـع،وتحولـت الى أرض خصبـةجـداً،وأبقى الـرب بنـي اسرائيـل في العربيـة لمدة أربعين سنـة،في اثنتين وأربعين محطـة،ولم تهترىء مـلابسهـم خـلال هـذه المدة كلهـا،

وأشبعهم الـرب من طـل السماء ومن المن،وكـان كل واحـد منهم يجمـع لأسرتـه وآل بيته جميع الطيبـات المتنوعـة واليـابسة،وتـوليـت تبيان هـذه المحطات الهامـة وأحصيتهن ورتبتهـن حتى أدونهن في رسـالتي:ولابـد أن العبرانيين الحقيقيين قد أسرعـوا لدى اجتيازهـم أثناء عبورهـم من الأرض الى السماء،ولدى تسـابقهم في سبيـل ذلك،ولابد أنهم عنـدما تركوا مصر الدنيا قد دخلوا الى أرض المعياد،أي الى أرض الأب السماوية.

وكانـت أول محطة هي رعمسيس،وهـي مدينة داخـل تخوم مصر،حيث منهـا دخـل حشـد بنـي اسرائيـل الصحـراء،في اليـوم التـالي لعيـد الفصح،وذلـك على مرأى مـن المصريين،الذيـن حرمـوا الى حد كبير مـن آنيتهـم الفضيـة والـذهبية،وتفسر كلمـة رعمسيـس أنها تعنـي: هيـاج أو عاصفة.

وكـانت المحطـة الثانيـة هي سكـوت،حيث خبـزوا للمرة الأولى خبـز فطير،ولأول مرة نصبوا خيماً،ومعنى كلمة سكوت خيام العهد،أو خيام.

وكانـت إيثام هـي المحطة الثالثـة،حيث مضـى الرب أمـامهم،ورأى شعبه في الليـل عموداً مـن نار،وظللتهـم الغمامة في النهـار،ومعنى كلمـة إيثام البهاءأو الكمال.

وكانت المحطة الـرابعة هي الحيروث Fyairoth التي قبالة بعل صفون،وتعنـي كلمة حيروث«فم النبلاء»،وكلمـة بعل صفون«رب الـريح الشمالية».

وكـانـت المحطة الخامسـة هـي مـارة،وعبروا البحـر الأحمر بعد ثـلاثـة أيام،ومعنى كلمة مارا«مرارة».

وكـانت إيليـم هي المحطـة السـادسة،حيـث وجدوا اثنتـي عشر عين وسبعين نخلة.

وكانـت المحطة السابعـة ثانية بعـد بعض التجوال حـول البحر الأحمر والتيه هناك.

وكانت المحطة الثـامنة في برية سين،التي تمتد حتـى جبل سينا،ومعنى كلمة سين عليق أو كراهية.

وكانت المحطة التاسعة هي دفقة التي معناها:نبضة.

وكانـت المحطة العـاشرة هي ألـوش،التي معنـاها عـدم الرضـا،وتبرم الاسرائيليـون في البرية وتضـايقـوا من الجوع،وكـانـوا يتلقون السلـوى في المساء والمن في الصباح التالي.

وكانت المحطة الحادية عشرة هي رفديـم التي معناها عزل الشجاع أو اعـادة القوة، وهنـا عنـدمـا عطش النـاس نبـع الماء مـن صخرة حـورب Oreb،وهنـا حارب يـوشـع أمالـخ Amalech ،والى هـاهنا جـــاء جـرتــو الى مـوســى،وهنـا تمتـم النـاس ضـد الـرب في أثنـاء غيـاب موسى،وصنعوا عجلاً من ذهب،وعبدوه.

وكـانت بـرية سينـاء هي المحطـة الثـانية عشرة، ومعنـى كلمة سينـاء العليق،وجبل سيناء في العـربية مرتفع كثيراً، ومن الصعب الـوصول اليه، ويساوي طـريق الصعـود اليه ثلاثـة الاف وخمسمائة درجة،وقـال النساك المقدســون جداً والـرهبان عـن سيناء ،الـذين سكنـوا هناك إنـه لم ينقطع ترداد الملائكة عليها وسيرهم عليها منذ أيـام موسى،ويخرج الدخان دوماً مـن جبل سينـاء مع لمعـان أضـواء ناريـة،وقالـوا عـن سيناء،ومـاقالـوه حقيقي،بـأن هناك نـاراً سماوية تطير حـول سيناء كـل يوم سبت غير أنها لاتحرق،،وبعـض الناس لمسهـا لكنها لم تـؤذهم، وفي الغـالب تظهـر على شكل غيمات بيضـاء،وتتحرك بشكل لطيف وتطـوق الجبل،وتهبط أحيـاناً بصوت مـزعج ومخيـف،ووقتها يفـر المقدسـون الذيـن يسكنون هنـاك من خلال السراديـب والخلوات الرهبانيـة،وهناك على قمة جبل سينـاء كنيسة

مبجلـة وجميلة،وهـي قائمـة على البقعة التـي أعطـى فيها الـرب موسـى الشريعة مكتوبة باصبعه على ألواح مـن الحجارة، وللكنيسة المتقدم ذكرها مكانـة عاليـة وتبجيلاً عظيماً الى درجة أن مـامن أحـد يجرؤعلى دخولها،أو حتـى على صعـود الجبـل،مـالم يقـم بـاجـراءات القبـول بـالاعتراف ثـم بمجاهـدة النفس بالصـوم والصلوات، والرهبـان والنساك هناك متـدينون الى درجة عـالية حتـى أنهم يعبدون الـرب بإرادتهم لـوحدهـم وبدون أي ضغط جسـدي أو عقلي،وسمعتهم رفيعـة جداً،فهـم موضـع الاحترام من تخوم أثيـوبيـا الى حـدود بـلاد الفـرس،ويطـرى عليهـم بكـل لسـان شرقـي،ويتصرفون بممتلكـاتهم بحـريـة وبهدوء فيما بينهم أنفسهـم،ولهم خلواتهم في أرجـاء مصر وفي فارس وحـول البحر الأحمر،وفي العـربية التـي تأتي منهـا كل طلباتهم ملباة بكـرم زائد،وهم مبجلون جـداً الى درجة أن مامن أحـد يتجرأ على التفكير بايذائهم بأي شيء، وإذا مـاحدث وحاول أحد لمسهم بـأي سبيل،فانه يلقـى الانتقام ثقيلاً من الـرب،وهم يسكنون حول الجبل،كل واحـد في خلوته،ولايعيشون بشكل جماعي بـل يتشاركون بالممتلكـات والمقتنيات، وفي سينـاء العليقة التي ظهـر فيها الـرب لموسى داخل لهب نار ماتزال آثارها قائمة.

وكان اسم المحطـة الثالثة عشرة هو قبروت هَتَأْوَة(قبـور الشهوة)،فهناك اشتهى أبناء اسرائيل اللحم كثيراً، ولهذا السبـب أثاروا غضب الرب،فنال الناس ذلك،وهلك بذلك عدد كبير، ومن هنا نال ذلك المكان اسمه.

وكـانـت حضيروت هي المحطـة الـرابعـة عشرة،حيث انتقـص هـرون ومـريـم مـن قدرموسـى لأنـه تـزوج مـن امـرأة أجنبية،هـي ابنـة ملـك أثيوبيا،فضر بامن قبل الرب،فهنـا تزوج في وقت نصره العسكري في مدينة سبا Sabaالتي اسمها الآن مارو Maro،وذلك على مسافة من النيل فيما بين أستابوس Astabusوأستابورا Astabura ،وهي مدينة تنتج كثيراً من الثروات بفعل تعاون الحرفة والطبيعة،ومعنى كلمة حضيروت إهانة أو

عدوان.

وكانت رثمة هي المحطة الخامسة عشرة، ومعني هذا الاسم:صوت أو باقلاء،ومن هنا جرى ارسال الاثني عشر جاسوساً الى أرض الميعاد التي جلبوا منها عناقيد من العنب.

وكانت المحطة السادسة عشرة هي كاموس Camoth التي معناها : توزيع الرمان(رمون فارص).

والمحطة السابعة عشرة هي لبنة، والتي معناها باللاتينية:في الجانب

والمحطة الثامنة عشرة هي رتسه التي معناها:الجام.(في سفر العدد:٣٣/ ٢١-رسه ومعناها ندى).

والمحطة التاسعة عشرة هي قهيلاته التي معناها:كنيسة .

والمحطة العشرون هي جبل شافر(جبل الجهال)التي معناها:خيانه،أي خيانة المسيح.

والمحطة الحادية والعشرون هي عربة التي معناها: معجزة(في سفر العدد:٣٣/ ٢٤-حرارة ومعناها مكان الرعب).

والمحطةالثانية والعشرون هي مقهيلوت،التي معناها: في الاجتماع أي في الكنيسة.

والمحطة الثالثة والعشرون هي تاحت التي معناها:خوف.

والمحطة الرابعة والعشرون هي قارح التي معناها:للخدمة أو للمرعى.

والمحطة الخامسة والعشرون هي مثقة التي معناها:بهجة.

والمحطة السادسة والعشرون هي حشمونة،التي معناها:سرعة.

والمحطة السابعة والعشرون هي أفيروث(مسيروت)التي معناها:روابط

أو نظام.

والمحطة الثامنة والعشرون هي بني يعقان التي معناها :أبناء الضرورة أو السحق.

والمحطة التاسعة والعشرون هي جدجاد التي معناها:رسول،أو حاد،أو ختان.

والمحطة الثلاثون هي يطبات التي معناها: طيبات أي المسيح.

والمحطة الحادية والثلاثون هي عبرونة،التي معناها:العبور.

والمحطة الثانية والثلاثون هي عصيون جابر،التي معناها:عظام الرجل .

والمحطة الثالثة والثلاثون هي برية صين،وهي قادس أو قادس بارن،ومعنى صين:مقدس.وهناك توفيت مريم أخت موسى وهرون ودفنت،وهناك ضرب موسى الصخرة بالعصا مرتين،وجرى هناك جدولين لسقاية تلك الأجزاء من العربية.

والمحطة الرابعة والثلاثون هي جبل أور في تخوم أرض أدوم،وهناك توفي هرون في مكان اسمه هورث.

وفي منطقة أور هناك جبل اسمه جبل عدن،الذي يعرف أيضاً باسم«جبل الرمل»،لأنه قائم في منطقة رملية،وهو جبل يصعب الوصول اليه،وله ارتفاع رائع،مشيد بشكل طبيعي وكأنه برج،قد فصل بشكل اصطناعي،ومحيطه أكثر من مسيرة يوم،ونادراً ما يمكن رؤية أشجار على طرفي الجبل،وتطير أنواع مختلفة وكثيرة من الطيور حول الجبل على شكل أسراب،مع أن الجبل يبدو أنه بدون خضار أو ماء، وبعيد تماماً عن الخصب،لأنه قائم في صحراء ،وبالنسبة لهذا الجبل أكد الذين يعيشون على مقربة منه بشكل يقيني، أنه في إحدى المرات كان صعود الجبل مفتوحاً لاثنين من الرجال وذلك بإرادة من الرب، وتمكن الأول بينهما

بخطـوات سريعة وبحـرية مـن اجتياز حـدود الجبل، في حين لم يستطع الآخر بصعوبة الـوصول إلى وسطه، فتعب وانقطع نفسه فجلـس ولم يتابع تسلقه، في حين عبر الآخر الأجـزاء العالية، وهو يتعجـب من جمال الجبل، ومن الهدوء والسكـون في البقعة، ومن نقاء الهواء، وجمال وروعـة الورود،، ومـن روائح الأعشـاب الجميلـة، ومن أنـواع الأحجـار الثمينـة في مجاري الجداول الصادرة عـن الينابيـع، ومن صفاء الينـابيع، ومـن وفرة الفـواكه التي تحملها الأشجار، ومن جمال تلك الفواكـه، ومن تغريد وغناء الطيور، ومـن المواقع الظليلـة وخضارهـا، ورغـب وهو مبتهـج، وتعهد أن يعيـش هناك وأن يمـوت أيضاً إذا ماسمح لـه الرب، ونظر مـن حوله فانـدهش لغيـاب رفيقه، وبسرور عـارم وبهجه، قـام وهو يضحـك في نفسه وصفـق بيديـه، فسارع نحـو قمة الجبـل، فدعـا رفيقه، واستـدعى صـديقه الـذي رغـب تماماً في أن يسكـن معه فـوق ذلك الجبـل، حيث — كما قـال — هناك نبع دائم، ووعده أن مـايدعوه إليه هو جنة ثانيـة، وصحيح أنه ألح كثيراً على رفيقه للالتحـاق به، نحن لانعرف، هل أدهشت هـذا الصديق مصاعب الجبل أو أنه دفع عائداً بمـوجب منع رباني، فتخلى عن الصعود والدخول وبقـي حيث هو، وبعدمـا لاحظ وأدرك ماسمعه ومـارآه، طلب الوداع من رفيقـه، ونزل بعد صعوبات جمة، وعاد إلى حيـث أتى، وحكى كل مارآه وماسمعـه،وهناك حول جبل عدن جبال أخـرى، وعدد كبير من التلال، والصخـور والأكوام الحجريـة، المنفصلة عن القمـة نزولاً بوسـاطة أقواس، وكهوف وسراديب، ومغائر متنوعة قـابلة للسكن، حيث قالوا بأن نساكاً أتقياء ورهباناً عاشوا فيها في الأزمان القديمة.

وينبع عند سفح جبل عدن نبـع قصير وبلا جدول، وأنت إذاما رأيت هذا النبـع تظن أنـه لايكفي بكل صعـوبة لإرواء فـرسين أو ثلاثـة، ومع ذلك إنه يكفي عدة رؤوس حيث تبرهن أن ماءه لايزداد ولاينضب.

والمحطة الخامسة والثلاثون هي صلمونة.

والمحطة السادسة والثلاثون هي فونون، وهاتان المحطتان لاوجود لهما في السياق التاريخي.

والمحطة السابعة والثلاثون هي عيبار على تخوم مآب، ومعناها: أكوام من العابرين.

والمحطة التاسعة والثلاثون هي أوبوت التي تغيرت فصار اسمها ماجي Magi أو فيتونس Phitons.

والمحطة التاسعة والثلاثون هي ديبون جاد، التي قاتل فيها اسرائيل ضد سيمون ملك الآموريين وعوج ملك باشان، ومعنى كلمة سيمون: إغواء العين، وعوج: خاتمة، وباشان: فوضى.

(الصحيح: سيمون: يجرف كل ماأمامه، عوج: الرقبة الطويلة: الناعم أو التربة الرملية)

والمحطة الأربعون هي علمون دبلاتايم، وهنا في مواجهة أريحا موقع حشبون حيث كتب موسى سفر التثنية.

والمحطة الحادية والأربعون هي جبل عباريم في مواجهة نبوب، وفي عباريم مات موسى، وفيها دفن، غير أن معالم قبره غير ظاهرة في أي مكان، ويقول العبرانيون إن إرميا وقد أعطي رؤيا سقوط القدس، فخبأ في كهف تحت جبل عباريم تابوت العهد مع محتوياته.

والمحطة الثانية والأربعون هي سهل مآب عبر الأردن غير بعيد عن أريحا، لكن الأردن بينهما، وهناك نصبوا خيامهم التي امتدت من موطن البرية حتى بسّاخاتياس Bessachatais في سهل مآب حيث عسكرت اسرائيل عندما تمت مباركتها من قبل بلعام فوق جبل كرنيم (كرك؟) في جبل مآب، وترجمة هذه الكلمة: «جبل انفصل بسبب تمزق عنيف»، وأقام في المكان نفسه في السهل الآنف الذكر بالق — بناء على

نصيحة بلعام — امرأة للاكتراء حتى ينخدع بها اسرائيل. وهناك طعن فنحاص زمري والعاهرة برمح، وهناك جرى احصاء بني اسرائيل ودخلوا في معركة ضد المدينيين، وهناك عبروا الأردن، وبعد عبور الأردن كان أبناء رأوبين وأبناء جاد، ونصف سبط منسي أول من تسلم ملكاً في أرض الميعاد عبر الأردن، لكن يوشع نصب خيمته في الجلجال حيث وضع هناك تابوت عهد الرب، وتدلل كلمة جلجال على لف أو وحي، وهنا جرى تحذير بني اسرائيل ومنعهم من جلب الأصنام إلى الأرض المقدسة: ومن هناك قدموا إلى أريحا وحاصروها، ودمروها تدميراً كاملاً ، ومعنى كلمة أريحا: قمر أو انقضى.

وبين الأردن وأريحا يقوم بيت أجلا Bethagla ومعنى هذه التسمية بيت الدائرة، لأن هناك التف أولاد يعقوب حول جنازة أبيهم وهم ينوحون وذلك عندما جلبوه من مصر إلى حبرون.

وبين أريحا والجلجال أم كنخور Emecanchor التي معناها: وادي عخور، أي جيشان الناس أو الحشود، فهناك رجم عخان حتى الموت لأنه أخذ أشياء ملعونة، وفي الجلجال ختن يوشع الناس مرة ثانية، وهم أقاموا الحجارة التي جلبوها من الأردن، لأن تابوت العهد ثبت هناك لمدة طويلة.

وتتصل العربية بأدوم في تخوم بوصترون Bostron التي هي بصرة التي كان منها برخثيل البوزي، لكن هناك بصرة أخرى في جبال أدوم، التي ذكرها إشعيا بقوله: «من ذا الآتي من أدوم بثياب حمر من بصرة؟» (إشعيا: ٦٣/ ١)، وأجزاء من أدوم هي طرخونة وعيطورة التي تطل على دمشق، ومن هاتين اتخذ فيليب — تبعاً للوقا الانجيلي — دويلة، وكان الذي أسس طرخونة هو عوص، الابن الأول لآرام، وحفيد سام، ولهذا السبب عرفت باسم بلاد عوص، ومنها جاء يعقوب البصروي المبارك، الذي كان من قبل مطران أدوم، وأدوم هي جزء من سورية، وفي سورية

تقوم دمشق.

وكان أليعازر ابن وكيل ابراهيم قد أوجد دمشق في ذلك الحقل الذي قتل فيه قائن أخاه، ولهذا السبب تعرف دمشق باسم ابنة الدم أو قبلة الدم، وكانت دمشق من قبل عاصمة سورية، لكن تلك المكانة نقلت من قبل أنطوخيوس إلى أنطاكية، وحملت سورية اسمها من سوري حفيد ابراهيم، وهو ابن قطوره Ceturah ، وتعرف دمشق أيضاً باسمها الثاني وهو أرام، وباسم ثالث هو أرفات Arfath ، ولدمشق مكانة عالية في سورية، لأنها كانت مطرانية من قبل، وتبعاً لزكريا عرفت دمشق باسم حدراخ، وسكن عيسو أجزاء منها، وامتلك أيضاً سعير وأدوم، ونسبة لأدوم يعرف جزء من سورية باسم أدمة، وفي سعير تقوم مدينة أدمة، وفي أدمة، ليس بعيداً عن دمشق، يقع جبل سعير، وسكن في سعير الحوريون الذين قتلهم خدر لغومر.

وفي أحواز أدمة، وعلى بعد ثلاثة أميال من الأردن يقع نهر يعقوب، وعرف بهذا الاسم بعدما عبره يعقوب عندما عاد من بلاد الرافدين، وإثر ذلك تصارع مع الملاك.

وعلى بعد أربعة أميال من دمشق يقوم المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول وخاطبه قائلاً: «شاول، شاول، لماذا أنت تعذبني»؟، ولذلك هناك أيضاً في دمشق كنيسة محترمة مكرسة على شرفه وهي تحت ادارة رئيس أساقفة أرثوذكسي.

وعلى مسافة أربعة وعشرين ميلاً من دمشق تقوم بانياس، وذلك عند سفوح لبنان باتجاه الجنوب، وهي مدينة عظيمة تدعى أيضاً باسم بلنياس، وهذا الاسم مشتق من كلمة بيلينا Bilina بسبب جمال الموقع، وتعرف أيضاً باسم قيصرية فيليب، حيث تلقت من قيصر اسمه.

وعلى بعد (خمسة وعشرين) ميلاً من دمشق، وذلك باتجاه الشرق يقوم

مدخـل وادي البقاع، وهناك تقـوم بعلبك، وهي مدينـة قائمة على مـوقع جميل جداً، وقد جرى تأسيسها من قبل سليمان، وبسبب خصـب غابتها بمختلف الأشيـاء الجيدة وشهرتها، دعـاها باسم «غـابة لبنان»، فقـد بنى فيها بيتاً من عاج، ومن هنا تعرف أيضاً باسم غابة لبنان.

وينبع عند سفح جبل لبنان فرفروأبـانا،نهرا دمشق،ويفصل أبانا جبال لبنان ويتدفق عبر سهل عرقة،وفي تلـك المنطقة يتصل بالبحر العظيم،والى هـذه المنطقة انسحـب يـوستاخيـوس Eustachius المبارك،لـــــدى اعتزاله بعدما حرم من الزوجة والأولاد.

وعـرقة مـدينـة لاتـرام تقريبـاً ،وقـد أقـامها عـرقيـوس الابـن السابـع لكنعـان،عنـد سفـح جبـل لبنـان،على بعـد ثمانيـة أميـال مـــن مـدينـة طرابلـس،وذلك بـاتجاه الشرق، وتشكل عرقـة بداية فينيقيـة،التي حـدها جبل الكرمـل،وهناك تبدأ فلسطين، ويشطر لبنان سـورية وفينيقية،ويجري فرفر خلال سـورية الى ربلاتا (ربلة) أي أنطاكية،ويتدفـق قرب أسوارها ليدع نفسـه فيصب في البحـر المتوسـط في ميناء سلـوقية (السـويديـة)أي القـديس سمعـان،وذلـك بعـد عشرة أميـال مـن المدينـة.وعنـد سفـح لبنـان،وليـس بعيداً عـن بـانيـاس هنـاك«أر»و«دن» فمن هـذيـن النبعين يتشكل نهر الأردن تحت جبل جلبوع،حيث جـرى تعميد المسيح من قبل يـوحنا،ويمتـد مـن جبال جلبـوع الى بحيرة الـوادي الذي يجري فيـه نهر الأردن، ويعرف باسم الغور.

ويطلق بـالعبرية(الصحيـح بالاغـريقية)اسـم ألون على ذلـك الوادي الواسـع والمستوى الذي يحده من الطـرفين استمرار امتدادات جبـل لبنان الى صحراء فـاران،ودون ألون هناك وادي بيسـان،أي الوادي الـذي يمتد من بيسان الى الأردن.

وفي الشمال ،فـوق الأردن،هنـاك بعـل،وبعل معـون،وهما مـدينتـان لهما

شهرة واسعة،بنيتا من قبل رأوبين،ويوجد في الشمال بيت رام الذي بناه سبط جاد.وفي ألون،عبر الأردن،هناك عمون أي بيت حنينا الذي تعمد فيه يوحنا، وفي زاوية بيت حنينا هذه هناك:قرنايم وعشتاروث، فهناك-حسبما قالوا-سكن يعقوب،ويفصل الأردن فيما بين الجليل ومنطقة البترون،ومعنى كلمة الأردن:الانحدار،لأنه ينحدر دوماً عبر مجراه،ويرسل«دن» ماءه تحت أرض غالبية المنطقة من منبعه الى ميدان ليس بعيداً عن ثمان themanالتي هي مطرانية سوته(الحولة)،وميدان سهل جميل وخصب،فيه تظهر قناة«دن»بوضوح فوق الأرض،ولهذا السبب عرف باسم ميدان، لأن«دن»ينبعث ثانية في منتصفه.

وعند المسلمين تطلق كلمة ميدان على الطريق الواسع،ويقابلها باللاتينية فوريومForum،وللسبب التالي أطلق عليه اسم ميدان،ذلك أنه في كل صيف يحتشد عدد هائل من الناس هناك،ويقيمون في ذلك السهل،وهم يحملون أو يجلبون معهم كل شيء قابل للبيع والشراء،ويكون معهم قوة كبيرة من الفرس والعرب لحمايتهم، ولإطعام قطعانهم في هذه المراعي الخصبة جداً،وتتألف كلمة ميدان من كلمتي «مي»و«دان»،فكلمة «مي» معناها عند المسلمين الماء(في اللاتينية أكوا Agua)،ومعنى كلمة «»دان»نهر ،ويجري نهر «دن»من سهل دان الآنف الذكر الى الحولة.

والحولة الآن جزء من أرض الحصن(جمالا Gamala)،ومايزال يرى في الحولة آبدة يعقوب،وهي مسرح عيد سنوي يرعاه ويشارك فيه الأرثوذكس والسريان والمسلمون.

وبعد الحولة نعمان التي جاء منها سوفر Sophar النعماني، وينحرف«دن» المواجه لطبرية جانباً تحت مدينة جدر (أم قيس)،ويعبر السهول قرب الحمامات الطبية لسباينتومSpinetum(الحمة)ويتحد مع

«أر»تحت جلبوع.

وفي سبايتتوم انهزم جرفاس أوف باسيل،وهو الأمير الثالث لطبرية بعد تانكرد، وهوأيضاً انحدر من بيت فرنجي نبيل،انهزم أمام طغتكين ملك سورية وقد أخذه أسيراً وحمله الى دمشق،وهناك أسكر طغتكين نفسه الى أبعد الحدود،وفي هذه الحالة أمر بقطع رأسه، وبذلك حوله الى شهيد مشهور للرب،وعندما عاد الى نفسه في اليوم التالي شعر بالخجل وغضب لأنه أهلك مثل الرجل الجيد،فأمر بدفنه بدون رأسه،وأمر بقحفه فزينه بشكل جميل بالذهب وبالجواهر الثمينة واحتفظ به كتذكار عزيز عليه،ويشرب منه.

ويصبح «أر»على مقربة من بانياس بحيرة(الحولة)،ثم بعد ذلك يصير بحر الجليل الذي يبدأ بين كفر ناحوم وبيت صيدا،وجاء من بيت صيدا كل من بطرس وأندرو،ويوحنا ،وجيمس،وجيمس هو ابن ألفيوس وتقع على أربعة أميال من بيت صيدا كوروزينCorozainالتي سوف ينتعش فيها المسيح الدجال.

وتقع جدر على بعد أربعة أميال من هاهنا،وهي مدينة رائعة ،عنها قيل:«هو سكن مع سكان جدر»،ومعنى كلمة جدر: الظلام.

وتقع كفرناحوم على النهاية العليا من البحر،وعن وفائها تحدث المسيح،وعلى بعد ميلين من كفرناحوم يقع مهبط الجبل،الذي أقام فيه قداس وعظ للحشود،وهناك أيضاً أبرأ المجذوم.

وعلى مسافة ميل من ذلك المهبط المكان الذي أطعم فيه الرب خمسة آلاف رجل،ولهذا السبب يعرف المكان باسم«المائدة»،ومصاقب له المكان الذي أكل فيه المسيح معهم بعد قيامته.

ويقوم عبر شاطىء بحر الجليل جرجوسيا،وهو المكان الذي شفى فيه الذين تلبسهم الشياطين.وعلى يسار رأس البحر،في جوف الجبل تقوم

جنسار،ويحتوي المكان على ذهب،ومنه ينشأ مستنقع جنسار.

وعلى مسافة ميلين من جنسار يقع المجدل،الذي جاءت منه مريم المجدلية،وهنا زيادة على هذا يوجد كل من زبلون Zabulon ونفطليم Nephtalim التي جاء منها طوبياس، وكان في الأجزاء العليا من الجليل هذه عشرين مدينة أعطاها الملك سليمان بمثابة هدية إلى حيرام ملك صور.

وعلى بعد ميلين من المجدل تقع مدينة سينيرث cynereth التي هي طبرية، وكان هيرود الأصغر قد أسس طبرية تشريفاً للقيصر طايبروس، وأطلق عليها اسمه، ونسبة إلى مدينة طبرية حملت البحيرة اسمها وباتت تعرف باسم بحيرة طبرية، ومحيطها يقارب رحلة يوم واحد، زد على هذا إن من سماتها نفسها أنها إذا لم تتلق قاذورات المدينة والقلاع المجاورة يصبح ماؤها غير قابل للشرب وله رائحة.

وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقوم مدينة بيت أوليا (خطأ — الإشارة هنا إلى صفد ولعل بيت أوليا الآن: مثليا) التي جاء منها يودث الذي قتل أولوفرنس Olofernes.

وعلى بعد أربعة أميال من طبرية باتجاه الشمال تقع دوثيم (لعل المراد هنا خان يوسف وتقع دوثان قرب طولكرم) حيث وجد يوسف أخوته، وحيث هناك باعوه.

وتقع مدينة الناصرة على بعد اثني عشر ميلاً من طبرية، وهي حاضرة الجليل، وفيها نشأ يسوع وترعرع، ومعنى كلمة ناصرة هو: وردة، وفتح يسوع في الناصرة سفر يسياس Ysaias وشرح بعضاً منه لليهود، وعند أعلى نقطة من الناصرة، تجاه الشرق، ينبع نبع رائع اعتاد يسوع في طفولته أن ينضح منه الماء لحاجيات أمه ولحاجياته.

وعلى بعد ميلين من الناصرة تقع مدينة الصفورية، وذلك على الطريق

التي تقود إلى عكا، وقد نالت اسمهـا من صفت الذي أسسها، وكان من الصفورية حنة المباركة أم أم المسيح.

وعلى بعد خمسـة أميال من النـاصرة تقوم قانـا الجليل (كفركنـا)، وهي مدينة قديمـة سكنها سبط أشير، وفيها حول يسوع عنـدما كان صبياً الماء إلى نبيذ، ومن قانا جاء شمعون الكنعاني وفيليب وناثانئيل.

وعلى بعد ميـل واحد من النـاصرة باتجاه الجنـوب، هناك مكان يـدعى Precipice (جبل قفـزة)، وهو حـافة جبل، رغـب منها والـدا يسوع أن يرمياه عندما اختفى عنهما.

وعلى أربعـة أميـال من النـاصرة، بـاتجاه الجنـوب، يقوم جبـل الطـور، وذلك في وسـط الجليل، وهو جبـل مرتفـع له استدارة رائعـة: وعليه تغير شكل يسوع وأظهـر اشعاعه للذين كـانوا معه، وعند منحـدر جبل الطور التقـى ملكيصادق بـابراهيـم وهو عـائد مـن قتل أمـالخ وقـدم له خبـزاً ونبيذاً، وعلى بعد ميلين من الطور، باتجاه الشرق يقوم جبل حرمون آخر في أدوم على مقـربـة من سلسـة لبنـان الشرقيـة، وتحت جبـل الطور تعـاهـد ابراهيم وملكيصادق حول دفع العشور.

وتقع مدينة نين على بعد ميلين من الطـور، وكانت فيما مضى من مدن بني اسرائيـل، وعند بـابها ردّ يسوع ابـن الأرملة إلى الحيـاة، وعبر نين يقع جبـل إنـــدور (عين دور)، وفيها بين إنـدور والطـور، في سهـــل نين تقـوم كدوميـم Kadumim ، أي مسيل قيسسون (نهر المقطع)، ودون ضفتـــه هزم باراخ الأدوميين، وذلك بناء على تحريض دبورة، لأن سيسرا Sysara كان قد قتل من قبل يئيل.

وعلى بعد ثلاثـة أميال من الطور، بـــاتجاه الشرق، تقوم شارون Saron (تل صارم، أو سهل ابن عامر).

وعلى بعد خمسة أميال من الطور تقـوم جرزيل، أي زرعين، وهي مدينة

قديمة، وفي جرزيل حكم أهاب وجيزبل، وكان من جرزيل نبوت الذي قتل من قبل المتآمرين التابعين لجيزبل، وحدث فيما بعد أن جرزيل، قصفت من قبل يهوه وقتل سكانها، وماتزال بقاياها قائمة هناك، وعلى مقربة جرزبل يقوم سهل مجيدو، فهناك هزم يوشع وقتل من قبل ملك السامرة، وحمل جسده إلى صهيون ودفن هناك.

وعلى بعد ميل من جرزيل يقوم جبل جلبوع (فقوعة)، حيث سقط ومات كل من شاول ويوناثان، وفي جبل جلبوع هناك قرية اسمها جلبوع (جلبون).

وعلى بعد ميلين من جلبوع تقوم بيسان التي هي مطرانية الجليل، وعلى أسوار بيسان جرى تعليق رأس شاؤول، وفي الجليل قرية هلكيسي Helchisi التي جاء منها النبي ناحوم.

وعلى بعد خمسة أميال من جرزيل تقوم بلدة جنين التي تبدأ منها السامرة ويقع بين جنين ومجدو (لجون) غير (غور)، وهو المكان الذي قتل فيه ياهو ملك اسرائيل أخزيا ملك يهودا (الملوك الثاني: ٩/ ٢٧).

وعلى بعد عشرة أميال من جنين تقع السامرة، التي منها نالت المنطقة التي من حولها اسمها، وهي قد أسسها سنحريب، ومن السامرة جاء السامريون، وكان أنطوخيوس قد هدمها تماماً ثم أعاد بناءها هيرود بن أنتباتر تشريفاً للقيصر أغسطس، وأطلق عليها اسم أوغسطة التي هي بالاغريقية سبسطية، وقد قيل بأن يوحنا المعمدان قد دفن هنا فيما بين إليجا وعوبيدا، وكان قد قتل من قبل هيرود عبر الأردن في قلعة مكرونتا Macheronta، ويحكى بأن جسده قد أحرق من قبل الحواري يوليان، وذر رماده في الهواء، وكان رأسه قد حمل منذ القدم إلى الاسكندرية والذي حمله هو مارسيلوس الكاهن، ثم حمل فيما بعد إلى أكوتين، وذلك مع ثلاثة من الأبرياء، والذي حمله هو فلسيوس Felicius، وهو راهب

كان في أيـام ببن، وكـان ببن عـائداً آنذاك مـن مقتلة أوقعهـا بالـوندال، وبفضل فضائل يوحنـا المبارك عاد إلى الحياة عشرون من رجالـه كانوا قد سقطوا وقت القتـال، أما اصبعه التي أشار بها ليسوع ليـأتي للتعميد، فقد حملتها معها العذراء تغريس Tygris المباركة خلال جبال الألب، واحتفظ بها هنـاك وسط تبجيل عظيـم في كنيسة مـورين Maurienne، ومن سبسطيـة كانـت الأم التي أكلـت أولادها تحت ضغـط الجوع، ومثل هـذا حدث لمريـم في القـدس، وفي سبسطيـة تنبأ إليسيـوس Eliseus ، وأطعم مـائة نبي في كهوف، وفي السامـرة مدينة سـونا Suna (سنور بين جنين وسبسطية) التـي جاءت منهـا المرأة السامـرية، ومـن السامـرة كان شمعون مجوس.

وعلى بعد أربعة أميال مـن سبسطية تقع مدينة شكيم (نـابلس) التي بناها عمور Emor مع أولاده، وأطلق عليها اسـم شكيم، ودعيت فيها بعد بـاسم نيابـولس، أي المدينـة الجديدة، وهناك هـدم أولاد يعقوب شكيم، وقتلـوا عمور لغضبهم من مضـاجعته لأختهم، وفي شكيـم دفنت عظام يوسف التـي جلبت من مصر، وفي شكيم عند سفح جـرزيم، قرب نبع، صنع يربعام العجلين الـذهبيين، وقد وضع أحدهما في (دان) والثاني في بيت إيـل، ويحكي السامـرة والسوريـون أن أربعة جبال تظلـل شكيم هـي: جبـآل، ودان في الشرق، وبيـت إيل وجـرزيـم في الجنـوب، وهـذا ماكرره جيروم بالنسبة لـلاثنين، قائلاً إنهما في أرض الميعاد عبر أريحا، يعني جبآل، حيث قام يوشع بناء على أوامر مـوسى ببناء مذبح من حجارة غير منحوتـة، وإلى جانبـه جرزيم، ومـن هذين يمكـن سماع أصوات الـذين يتبادلون تبريكات ولعنات بعضهم بعضاً.

وعبر شكيم تقـع لوزان (خـربة لـوزة) وذلك على بعـد ميل منـه، وقد أسست مـن قبل يبوس، وهي تعـرف بالعبرية بـاسم ألموس ulamaus، وهنا أراد إبـراهيم بنـاء على أمر مـن الملاك، أن يذبـح ابنه اسحـاق، وفي

حين انتظره ابنه الشاب مع الأتان عند سفح الجبل، تمت التضحية بكبش عوضاً عنه، وتقليداً لإبراهيم يقوم المسلمون بالتضحية هذه كل عام، ويضحي سلطان الفرس وهو أعظم رجل بينهم وكذلك أمير ممفيس (القاهرة) بأيديهما بجمال، وبعدما نام يعقوب في ذلك المكان، والرؤيا التي رأى فيها السلم، صار يطلق على المكان اسم «بيت إيل»، أي بيت الرب، لكن بعدما وضع يربعام العجل الذهبي هناك صارت تعرف باسم «بيت أول» أي بيت الصنم، كما أنها دعيت من قبل إبراهيم باسم «الرب يرى» وشيد يعقوب حجراً لتكون آبدة ذكرى.

وعلى بعد ميل من بيسان تقوم بلدة عسكر، وذلك على مقربة من الملكية التي أعطاها يعقوب لولده يوسف، وفيها يقوم نبع يعقوب، الذي هو بئر، وقال الانجيلي بأنه عبره تكلم يسوع مع المرأة السامرية.

وقد بنيت هناك كنيسة، وليس بعيداً عن بيسان مكان البطمة التي أخفى يعقوب تحتها الأصنام.

وعلى بعد ستة أميال من بيسان ثانزري Thanazare (تمنة) وذلك باتجاه الجنوب، وهي مدينة يوشع، حيث عاش ومات، وضريحه مايزال في هذا المكان.

وعلى بعد عشرة أميال من بيسان تقوم قلعة صنجيل (Egidius) التي نالت اسمها من الكونت صنجيل (الكونت ريموند الرابع، كونت طولوز، كان أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى) الذي عسكر هناك مع جيش الفرنجة في اليوم الذي تقدم على رؤيتهم القدس.

وعلى بعد أربعة عشر ميلاً من القلعة المذكورة أعلاه تقع القدس، التي هي أهم حاضرة مقدسة في يهودا.

وعلى مسافة أربعة أميال من القدس تقع إفراته التي بنيت من قبل اليبوسيين، وقد سماها يعقوب فيما بعد بيت ليم (لحم)، أي بيت الخبز،

حيث هناك فيها ولد المسيح، وكان من بيت ليم (لحم): بوعز وعوفيد والد إيشا (يسي) والد الملك داود، الذي من ذريته انحدر المسيح، وفي بيت لحم، إلى جانب المهد هناك المزود الذي استلقى فيه الرضيع يسوع، وقد حمل إلى روما من قبل الملكة هيلانة، وبتشريف وضع في بازيليكا القديسة مريم الكبيرة.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، وباتجاه الجنوب أشع النجم على الرعاة عندما ولد الرب، حيث أنشد الملائكة «المجد في الأعالي»، وإلى بيت لحم جاء الحكماء (المجوس) لعبادة الرب، وهناك أيضاً جرى ذبح الرضع من قبل هيرود.

ويرقد الجزء الأكبر من الأبرياء مدفونين على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من بيت لحم.

وعلى بعد ميلين من بيت لحم وباتجاه الغرب تقوم راما (بيت جالا) التي قيل عنها: «صوت سمع في راما». وفي بيت لحم يرقد جسد جيرومي المبارك مع جسدي باولا ويوستوخيوم Eustochium.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم تقوم تقوع التي جاء منها النبي عاموس الذي يرقد جسده هناك في ضريح، ومن أحوازها حمل النبي حبقوق بوساطة الملاك إلى بابل، وفي تقوع اعتاد كثير من الأنبياء على الالتقاء للبحث في أشياء لاهوتية.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم، باتجاه حبرون تقوم كنيسة القديس كريتوث Karitoth (في خريطون قرب تقوع)، حيث عندما كان نفسه ينتقل من هذا العالم إنتقل جميع أصحابه تماماً معه، وحمل كريتوث المبارك فيما بعد إلى القدس حيث مايزال يرى في جسده.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، وعلى الطريق المؤدي إلى القدس هناك قبراتا (قبة راحيل أو قبر راحيل)، وهو المكان الذي ماتت فيه راحيل

بعدما ولـدت بنيامين، وكان موتها بـألام المخاض، فهناك دفنت مـن قبل يعقوب، وقد وضـع يعقوب فوق قبرها اثنـي عشر مصباحاً، وهي مـا تزال موجودة حتى الآن.

وعلى مسافـة ميل مـن قبراتا، بين بيـت لحم والقدس، وبـاتجاه اليمين هناك بيـت عرقة، وهـو المكان الذي قتـل فيه الملاك في ليلة واحـدة مائة وخمسة وثمانين ألفـاً من جيش سنحريـب، وقد هرب سنحريـب وعاد إلى نينوى وقتل من قبل ولديه.

وتبعاً للتقاليد العبريـة، قيل بأن أول من ولد لنوح هـو ابنه سام، الذي تدعـوه هذه التقاليـد باسم ملكيصادق، وهـو أول من أسس «سـالم» بعد الطوفـان حيث حكـم بمثابة ملـك وكاهن، واستـولى اليبوسيـون فيها بعد عليهـا وسموهـا «يبـوس» صدوراً عـن اسـم جدهـم يبـوس، وهو الابـن الثالـث لكنعان، ثم جرى دمج كلمتي «يبوس» و«سـالم» فباتت تـدعى من قبل سليمان «يورو سلـوما» وكأنها «يبوس سلمونيا»، ودعيـت من قبل الشعراء «سـوليما» وباسـم «إيليا» مـن قبل «اليـوس هدريـان» لأنه هـو الـذي استردها، وهـي صهيـون التي معنـاهـا بالعبريـة «تـراقب» (يقـال معناها القمة أو المكان المشمس)، ومعنى كلمة أورشليم «رؤيا السلام».

والقدس هي حاضرة اليهوديـة، مثلما هي صرة الأرض، قائمة في وسط العالم، وبنـاء عليه قـال داود: «والله ملكي منـذ القدم فـاعل الخلاص في وسط الأرض» (المزمـور: ٧٤/ ١٢)، وتتفوق القدس على جميع مـدن العالم في الصلاة والإحسان، وحكم داود في القدس ثلاثـاً وثلاثين سنة بعد طرد شاؤول، ومن القـدس النبي يسياس Ysaias (زكريا) الـــذي نشر مع الشجرة، وكان نشره من قبـل الملك منشا Manasseh ، وفي القدس جبل مـوريا، أي أرض بيدر خـرنام اليبوسي، التـي رأى داود عليها الملاك الضارب، والتي بني عليها فيما بعد الهيكل من قبل سليمان.

وبعد مرور ثـلاثة آلاف ومائة وسنتين من آدم وألـف وأربعمائة سنة من الطوفان وألف ومـائتي سنة من مغادرة ابراهيم لبـلاد الرافدين، وخمسمائة سنة وسنتين من خـروج بني اسرائيل من مصر، ومـائتين وأربعين سنة من تأسيس صور، بدأت أعمال البناء في هيكـل الرب، وقد بنى الملك سليمان الهيكل أي بيت إيل والمذبح الذي كـرس بتقوى واخلاص وانفاق لامثيل له، وهـذا الذي دنسه نبوخـذ نصر أيام الملك صـدقيا، ونهبه نهباً كـاملاً، وجعل عالي المدينـة سافلها، وأمر بصـدقيا وأولاده بأن يقادوا أسرى أمـامه إلى ربلة يعنـي أنطاكية، وهـي أيضاً قد عـرفت باسمين آخـرين هما حماة وأفـاميـا (تقـع ربلـة على الطرف الشرقـي مـن العـاصي على بعـد خمسـة وثلاثين ميلاً إلى الشمال الشرقي من بعلبك)، وهنـا قتل أبناء صدقيا وهو حـاضر، ثم حـرمه مـن عينيه، ودمـر بعـد هذا نبـوزردم صهيون والهيكـل تـدميراً كامـلاً، غير أنه أعيـدت عمارته فيها بعـد مـن قبل عـزرا الكاتـب ونحميا في ظل حكم قـورش ملك الفرس، وجرى تدمير الهيكل ثـانية من قبل أنطيوخس، وأعيـدت عمارته من قبل المكابيين، وتم تـدنيسه من قبل بومبـي، الذي مكـث فيه عنـدما هـرب من وجـه يوليـوس قيصر، وأخيراً جـرى تدمير الهيكـل الثـالـث من قبـل تيتـوس وفسبسيـان، وبشأن هـذا الموضوع يقولون: أعيدت عمارته من قبـل هيلانة في ظل حكم الامبراطور قسطنطين، وقـال آخرون: لابـل الذي أعـاد البنـاء هو الامبراطـور هرقـل، لابـل قيل مـن قبل بعضهـم إن الـذي تولى ذلـك الامبراطور جستنيـان، وهناك مـن يقول: إن الـذي فعل ذلك واحـد من أمـراء ممفيس في مصر، وأوقفـه على اسـم «الكبير» أي «الله العظيم»، فهـذا مـاتـذكره الكتـابـات الاسلاميـة بشكل واضـح تماماً، لأنـه عندمـا وصل الفـرنجة لاشيء مـن الشريعة أو الاغـريقية وجـد مكتوبـاً عليه، ويـدعى الهيكـل الحالي باسـم الهيكل الرابع، وأمام الهيكل الذي وجد قبله، جرى ختـان الطفل يسوع، وقد عرض أحد الملائكـة غرلته على شارلمان وجعله يشاهـدها في الهيكل، وهو الـذي جلبها إلى اكس لاشبيل (آخـن)، ثم جرى نقلها فيما بعـد من

قبل شـارل الجريء إلى أكوتين في مقـاطعة بواتـو قرب كـاروكس Char-roux وجرى تقديـم يسوع وعرضه في الهيكـل من قبل أمه، وقـد تسلمه سمعان،وطرد يسوع من الهيكل الذين كانوا يبيعون ويشترون، وهناك حرر الزانية من أيدي الذين اتهموهـا، ومن الهيكل جرى رمي المبارك جيمس، وفي الهيكـل أعلـن الملاك وكـذلـك أعلم زكـريـا بميـلاد ابنـه، وفيما بين الهيكل والمذبـح سقط زكـريا بن بـراخيا، وحـول المسلمون فيها بعـد هذا المذبـح إلى مزولـة، ومـن الممكن رؤيتـه حتـى الآن في القـاعة، ويقـع في القدس إلى جـانب القديسـة حنة، وليس بعيداً عن البـاب الذي يمضي الانسـان منه إلى يهوشـافاط، بـركة الغنـم، وأقام يسـوع في وسط القـدس الفتاة من الموت، وفي القـدس جرى اعدام جيمس الثـاني من قبل هيرود بوساطـة السيف، ومن هناك حمل إلى يـافا، ومن ثم فيها بعـد إلى اسبانيا، ودون مـوقـع الهيكـل يقـوم الآن مكـان إقـامـة الجنود الـذيـن يحرسـون القدس*.

وفي القـدس Xenodochiumأو Muscomion، وال Xeno-dochium بـالاغـريقيـة بيـت استقبال للغـربـاء والفقـراء، أمـا Mus-comion أي المشفـى، فهـو المكـان الذي يجمـع المرضـى مـن الشـوارع والقرى ويعتنى به بهم، ويوجد خـارج أسوار القدس، فيما بين برج تانكرد وباب القديس ستيفن محطة لإيواء المجذومين، ويقال بأن هركانوس أمير اليهود أول من أسس مشفـى بوساطة أموال استخرجهـا من ضريح داود، وفي ضواحي القدس، في وادي أبناء عنون باتجاه الجنوب، هناك مكان

* بعد استيـلاء الفرنجة على القدس عام ١٠٩٩، أعطيـت منطقة الحرم إلى فـرسان الـداوية الذين تـأسس نظامهم حديثاً، وقـد ترك هؤلاء قبة الصخرة بـدون تغيير، غير أنهم أحدثوا تغييرات هامة في المسجد الأقصى، حيث بنوا مستـودع أسلحتهم في جانبه الغربي على طول الجدار الجنوبي للمنطقة، وجعلوا اسطبلاً لخيـولهم في بناء منخفض ألحق بالزاوية الجنوبيـة الشرقية إلى الغرب من مهد يسوع.

توفث Thopheth وهو المكان الذي كان بنـو إسرائيل لايخجلون به من عبادة أصنـام الكفار، ومعنـى وادي عنون هـو وادي جنون، لأن العبرانيين ضحوا هناك بأولادهـم للشياطين، ويدعى هذا الوادي أيضـاً باسم وادي الأوثـان، لأنهم عبدوا فيـه الأوثان، ووادي جيسماني هـو وادي يهوشافاط، ويتصـل وادي عنـون بـوادي جيسماني، ودون قصر سليمان (المسجـد الأقصى) عند منعطـف صهيون، وإلى حد كبير في وادي يهوشافـاط، تقع بركـة سباحـة سلوان، التـي تنبع، حسبما جـاء في التقاليـد العبرانية، من سيلو Sylo ويجري جدول سيلو بصمت، لأن جـريانه هو تحت الأرض، وتحت سلوان هنـاك نبع روجـل (عين أم الدرج)، وإلى جـانبها دفـن كما قيـل بسياس، ومـلاصـق لعين روجل « الـزاحفـة » وهـي الحجر التـي ضحـى عليها أدونيـا بـأضاحـي (انظـر الملوك: ١/ ١/ ٩)، وعبر سلـوان، باتجاه الجنوب بركة سمك فولر Fuller، وحقل ملاصق لحقل الفاخوري وفيه أكلـداماك، حيث يجري دفـن الغرباء، وعبر أكلـداماك يوجـد مكان جيحون حيث مسح صادوق الكاهـن سليمان ملكاً، وقد قيل بأن جيمس المبـارك قد دفـن في وادي يهوشافـاط، ومن هنـاك نقل إلى القسطنطينيـة، وفي وادي يهوشافاط وتحت آبدة معلمة جرى دفن الملك يهوشافاط.

وعلى بعد ميل من القدس هناك بـاتجاه البحر الميت بيت حنينا، فهناك استقبل شمعـون يسوعـاً ضيفاً له، وهنـاك أيضاً استحقـت مريـم غفران الـذنوب، وحيـث أقام يسـوع أيضـاً لازاروس من الموت، وفيما بين بيـت حنينا وجبل الزيتون يوجد بيت فاجي.

وغسل في صهيـون يسوع أقـدام حوارييـه وتعشى معهـم، وفي القدس بـاع يهوذا يسوع إلى اليهـود، وعند منعطـف جبـل الزيتـون المكان الـذي صلى فيه يسـوع لأبيه، وذلـك عندما قـال لبطرس: «ألا تستطيـع أنت أن تصبر معي سـاعة واحدة»؟، ولدى عـودته من هنـاك إلى جيسماني، جرت خيانتـه من قبل يهوذا لصالـح اليهود، وقدم هناك مغلـولاً إلى أناس -An

nas وكيفـاس في رواق سليمان، وأخذ مـن هنـاك إلى صهيون إلى المكـان الـذي يدعـى الـ «Litostrotosâ» الـذي مايـزال يـرى أمام بـــاب كنيسـة، وأخـذ بعـد هـذا إلى أكرا، وبعـد إهـانـان كبيرة صلـب فيها بين اللصوص، وفي ميدان التجار هناك كنيسـة تسمى «اللاتينية»، لأن اللاتين تملكوا هـذا المكان منذ أيـام الرسل، وهنـاك المكان الذي بكـت فيه الأم أولاً بعد الآلام مـن أجل ابنهـا، وكذلك فعـل الحواري من أجـل معلمه، ودون موقع أكرا (الجمجمة)، وباتجاه الجنـوب، في مدخل الكنيسة، هناك مكان وحـي، على مكان قيـل بأن ثـلاثة حملـن اسم مـريم قـد بكين من أجله، بينما هـو يعاني على الصليب، وليس بعيـداً من هناك المكـان الذي دفن فيه يوسـف يسوع، وتنزل هناك في ليلة عيد الصعـود على مشهد من عـدد كبير من النـاس، كـل سنة النـار المقـدسـة، ويجري تبجيل ضريـح الرب، وفي المكان الواقع في الـوسط فيما بين الضريح ومكان الآلام، ظهر يسوع لمريم المجدلية، وفي مكان يدعى السجن Carcer حبس يسوع بينما جرى اعداد الصليب له.

وعلى بعد تسعة أميال من القدس تقع يثروبولس Eutheropolis أي عمواس (خطـأ والصحيح بيت جبرين)، فعلى الطـريق هناك ظهـر الرب إلى اثنين من حوارييه عندما كـانا يسيران، وظهر في جبل صهيون لحوارييه أثناء غيـاب تومـا، وبعد ذلك ظهـر ثانيـة عندما كـان تومـا حاضراً، وفي جبل الـزيتون صعد إلى الأب، وهناك يـرقد أيضاً جسـد بلجيا Pelagia المبـاركـة، وقـد أخـذت إلى يهوشـافـاط مـن قبـل الحواريين، ويحكـى أن الملكين داود وسليمان مـع ملـوك القـدس الآخـريـن قـد دفنـوا في جبـل صهيـون، وأمام بـاب القدس المتجـه نحـو الغرب قـذف المبارك ستيفـن بـالحجـارة، وحمل مـن هنـاك إلى صهيـون ودفـن مـع نيقـوديمـوس -Ni codemus.

وفيما بين القدس ويهوشـافاط كنيسة، يقولـون جلس فيها شـاول وقت

تعرض ستيفن للقذف، وليس بعيداً عن القدس هناك كهف حمل منه أسد في ليلة واحدة — بارادة الرب — اثني عشر ألفاً من الشهداء الذين قتلوا من قبل خسرو Chosroes.

وعلى مسافة ميلين من هناك المكان الذي نمت فيه شجرة صلب الرب، وليس بعيداً عن موقع الجمجمة المكان الذي عثر فيه على الصليب المقدس، وعندما جرى البحث والتقصي عن مكان الجمجمة بكل يقظة، أمرت هيلانة بتنظيف الموقع، وقد جرى تدمير تمثال فينوس إلى قطع، وهو التمثال الذي وضعه هادريان هناك لإهانة المسيحيين.

وعلى محاذاة جبل الزيتون جبل العدوان حيث أغوي الملك سليمان من قبل زوجاته فبنى هيكلاً لكموش ولمولك.

وعلى بعد ثلاثة أميال من القدس تقع عناتا، التي جاء منها أرميا العناتي.

وعلى بعد ميل من القدس، وباتجاه جاجاس Gagas، يقع المكان الذي يدعى سكوبس، الذي خرج إليه سبط لاوي لمواجهة الاسكندر.

وعلى مسافة خمسة أميال من القدس، وباتجاه الجنوب، تقوم البلدة التي قدمت إليها مريم للسلام على اليزابث، وحيث يحكى بأن يوحنا قد ولد.

وعلى ميلين من القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى نابلس يقع جبل جبعة، ومدينة فنحاص، حيث يقال هناك دفن (المتداول هو أن القبر في عورتا جنوبي نابلس، وجبعة هي تل عاصور).

وعلى بعد ميل من عمواس، وباتجاه الجنوب تقع جبعة، حيث يرقد حبقوق، ومن جبعون كان شاؤول قد انتخب في الجلجال، وفي جبعون فسدت زوجة لاوي.

وبين القـدس وعسقلان، ومـلاصـق لبيت حنينـا يقـوم مـوقع «أبـوزر Abuezer ، وهو المكـان الذي أخـذ فيه الفلسطينيـون تابـوت الرب. (لعل الموقع هو دير أبان إلى الشرق من عين شمس).

وموقع بيـت عور موجود في أرض أبناء يـوسف التي إليها طـارد يوشع الملـوك، وهناك بيتـان تحت اسم عـور وهما: بيت عـور الفوقـا وبيت عـور التحتـا، وبنى سليمان الفـوقا والتحتـا، وملكهما إلى اللاويين، وفي منطقـة بيت عور ولد النبي يوئيل وكذلك دفن.

وعلى بعد سبعـة أميال مـن القدس، وعلى الطـريق المؤدي إلى نـابلس تقع جبعـون التي جـاء منها الجبعونيـون، وهناك جبعـون أخرى مـلاصقة لراما ورامون، وهناك استحق سليمان الـوحي الرباني، ويحكى أن الشمس توقفت هناك عندما كان يوشع (بن) نون يقاتل.

وفي جبال حبرون موقع زيـف (تل زيف) الـذي يدعـى أيضاً كـرمل (الكرمل مـوقع منفصل قريب من تـل زيف)، وهنا كانت قريـة الكرمل التي جاء منهـا نابال، وفي الكرمل طلـب داود أرغفة لرجالـه الشباب من نابـال، وذلك أثنـاء فراره مـن وجه شـاؤول، وقابلتـه «أبيجايـل» في أثناء الهبوط من الكرمل، وهدأته وأرضته بهدايـا كبيرة، وبعد وفاة نابال تزوجها داود، وهناك زيـف أخرى منها جاء الـزيفيون: وزار يوناثـان في الصحراء داود، وذلك عندما كان متخفياً مـن وجه شاؤول، وهناك استولى داود على ترس شـاؤول (في صموئيـل: ١/ ٢٦/ ١٢: أخذ داود الـرمح وكـوز الماء) ورمحه.

وعلى بعد ثمانيـة أميال مـن عمواس ، وعلى الطـريق الـذي يؤدي الى حبرون تقـع مدينـة كيلا (خـربـة كيلا) ، فهنـاك سكن داود في إحـدى المرات .

وعلى مسافـة تسعة أميال من القـدس ، وعلى الطريق الـذي يؤدي الى

الرملة يقوم جبل مودين (المدينة ميغوموديعيم) ، ومنه جاء متاثياس mattathias أبو المكابيين ، وكانت مودين في يوم من الأيام مدينة لا ترام ، ومنها كان يمكن للانسان أن يرى كل من البحرين : البحر الكبير والبحر الميت ، ويرقد في مودين متاثياس وأربعة من أولاده مع اثنين من أحفاده ، تحت آبده ما تزال قائمة هناك .

وعلى الطريق النازل من القدس الى أريحا تقوم أدونيم التي تدعى الآن باسم الصهريج الأحمر (الخان الأحمر) ، وقد ورد، ذكرها لدى ربنا أثناء حديثه عن الرجل الذي سقط بين اللصوص .

وتقع أريحا على بعد ثلاثة عشر ميلاً من القدس ، وعبر أريحا وفي مواجهتها حدث لدى وصول الياس واليسع أن انقسم الأردن ، ولأنه ارتعب ترك اليسع رداءه ، الذي هو محفوظ في القسطنطينية ضد المرض العظيم ،وعندما كان يسوع يمشي في أريحا تسلق زكريا شجرة جميز موجودة فيها ، وكان في أريحا في أيام المبارك سابا بيتاً للضيافة ، له احسان عظيم ، وقد ترأسه ، وقد حدث فيه أنه كان يتولى رعاية صديق له من مأدبا ، وهي مدينة في العربية وكان اسمه توما ، وبينما كانا يأكلان ومعهما بولص وثيودور وهما أكثر الناس قداسة تم اعلام المبارك سابا ، أنه لا يوجد هناك نبيذ ، ولا أي شراب بالفعل سوى القليل من مرق الحنظل لطبخ الخضار من أجل الإفطار ، وجلب ذلك الى أمام المبارك سابا ، وقد قام بتصفية ذلك الموجود ، وعندها تحول الى وفرة كبيرة من النبيذ كانت كافية لجميع الذين كانوا موجودين في دار الضيافة لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، وأعطى بعضاً منه لتوما ولرفاقه لدى عودتهم الى موطنهم ، وجرى الاحتفاظ بكمية قليلة منه ، وقد أعادت هذه الكمية الى الصحة أشخاصاً مرضى عندما دهنوا بها ، وكان الرجل الأعمى الذي رد له الرب البصر في أريحا يجلس على جانب الطريق .

وعلى رميتي حجر من أريحا يوجد المكان الذي صام فيه يسوع لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وهو يدعى الآن باسم « الأربعين» (خلف عين السلطان) ،، وهناك أيضاً حاول الشيطان اغواءه بقوله له :« إذا كنت ابن الرب فقل تصير هذه الحجارة خبزاً » .

وعلى بعد ميلين من الأربعين » وباتجاه طبرية هناك جبل مرتفع (قرن صرطبه) منه مكن الشيطان يسوعاً من رؤية جميع ممالك العالم ، وتحت الأربعين هناك مغارة فيها ذلك النبع الذي حول اليشع ماءه الى ماء يشرب بعدما كان مراً ، وذلك برش بعض الملح فوقه .

وعلى عشرين ميلاً من القدس تقوم اللد ، التي هي ديوبولس ، ومعنى هذا : مدينة مزدوجة (الصحيح : مدينة جوبتير) ، وفيها تمنه التي كانت فيها مضى بلدة كبيرة ، وهنا جز يهوذا غنمة عندما اضطجع مع ثامار في مكان يلتقي فيه طريقان ، وذلك على بعد ميل من تمنه ، وقد أولدها فارص ورازح .

وعلى بعد أربعة أميال من اللد تقع أرماثياArimathia أي رمثا زو فيم Ramatha Sophim وهي مدينة القانه وصموئيل ، ومنها حسبها قال الانجيلي ، كان يوسف ، وهناك دفن ، وقد حمل جسده فيها بعد الى بيت لحم من قبل أحد البيتلحميين ، هو الآن أسقف ، ووجد معه الأربطة التي أنزل بها يوسف يسوع من على الصليب ، وأحد المسامير العائدة للرب ، والأربطة والمسمار معروضان في بيعة الملك في القدس .

وعلى بعد ميلين من اللد، وباتجاه البحر، تقوم قلعة بلنيا Balnea حيث نحت نيكوديموس من الخشب ما يشبه شكل المخلص، وهذا الشكل يبجل الآن في لوكا Lucca في ايطاليا .

وعلى بعد ميلين من اللد، وعلى شاطىء البحر تقع يافا التي أقام فيها بطرس طابيتا ، وحيث ظهرت «الملاءة» لبطرس (أعمال الرسل : ١٠ /

١١)، ويرى الانسـان هناك صخرة تـرى عليها آثـار سلاسل أنــدروميدا Andromeda .

وعلى بعد ستة أميال من يافا تقع أرسوف، التي بناها سليمان .

وعلى بعد عشريـن ميلاً مـن أرسوف، وبـاتجاه الشرق، تقع دور (خطـأ دور هي الطنطورة قرب حيفا)، وهي التي سماها هيرود قيسارية، تشريفاً لأغسطس قيصر، وهنـاك بنى أيضـاً ميناء لها من الـرخام الأبيـض، وفيها عمّد بطـرس كورنيلـوس، بعد ما حّـول بيته إلى كنيسـة، وقد عينـه أسقفاً وهناك يرقد أربـع نبيات عذراوات، ويقال بأن يوسيبيـوس الطيب كان في قيسارية هـذه أسقفاً، وكان في قيساريـة برج ستراتو Strato ، وفيه كان هيرود جالساًبثـوبه الأرجواني عندمـا ضرب بقوة انتقامية ربـانية ومات ، وازدهرت قيساريـة كثيراًفي أيام المسلمين بدورها فيما بين بابليـون وبابل ، أي فيما بين بغـداد في فارس وممفيـس في مصر (بغداد والقـاهرة) ،ونمـت حتى أصبحـت مثل جنة للمسلمين ، وفيهـا دفن النبلاء ورجـال السلطان ، ويوجد في محيـط المدينة ، وسط الحدائق عدد كبير مـن الكهوف الصغيرة ، مبنيـة من حجـارة منحوتـة فيها كـان يتـم مزج أنـواع البخور والطيـب حيث كان هـذا المزيج يحرق بالنار ، وبـذلك كانت المدينـة كلها تمتلىء بعبق الـروائح الطيبة ، وبهذا كان يجري حجـب الروائح السيئـة وتبتهج الأعداد العظيمة من السكان ،لكن زال هذا كله الآن وبات معدوماً.

ويعيـش في أنهار قيسـاريـة التماسيـح وهـي ثعـابين مـرعبـة ، وفـم التمساح متميز عن جميع الأفواه في أن الفك العلـوي لديه قابل للحركة ، في حين أن الفك السفلي ثـابت ، وليس للتمساح مخرج سفلي ، وبعـدما يأكـل التمساح طعامـه ، يتوجه نحـو مكان استحمامه المعتـاد على طرف النهر ، ويقـف على ذراعيه ، وتمتـد رقبته وفمـه مفتوح ، وكـأنه يسـاعد نفسه على التنفـس ، ثم يقـع نائماً ، وعنـدما يغـرق في نومـه تأتي بعـض الديدان إليـه ، وتأكل من طعـام التمساح ، وتدخل الى أمعـائه ، وتعمل

احداهن بمشابة بواب تراقب البقية ، خشية أن يفيق التمساح ويحبس الديدان في داخله ، وهكذا يجري خداع التمساح من قبل ذاته ، ويكره التمساح الانسان أكثر من كراهته لأي مخلوق آخر.

وهناك ثعبان آخر يدعى يدروسYdrus (ابن عرس) يحب الانسان أكثر من حبه لجميع المخلوقات ، وهو يكره التمساح كثيراً ، ولهذا يبحث كل واحد منهما عن الآخر ويطلبه ، ويستطيع ، اليدروس تمويه نفسه واخفائها بالوحل ، وبذلك لا يستطيع عدوه ملاحظته ، ويعرض نفسه على التمساح الذي يدور حوله مرتين أو ثلاث مرات ، ويقوم بجهل منه بابتلاعه ، ويقوم اليدروس في سجنه الذي أغلق عليه بأكل ما في داخل التمساح ، ويحرك الأمعاء بشدة ، ويقطع الكبد ، ويمزق القلب الى قطع ، ويحدث فتحات في جوانبه ، ومن ثم يخرج بعد قتله لعدوه ، لكن كيف حصل وجاء التمساح الى قيسارية ، هذا ما سوف أحكيه باختصار : حكم فيما مضى من الأيام أخوان اثنان معاً في قيسارية بسلطات متساوية ، وتآمر الكبير بينهما ضد أخيه لأنه لم يكن يحكم وحيداً و أراد أن يميته ، وكان معروفاً عن أخيه أنه مصاب بالجذام ، ولقد ظن في نفسه أنه إذا استطاع جلب زوجين من التماسيح من النيل ووضعهما في الأنهار المتقدم ذكرها ينال غرضه فقد كان أخوه قد اعتاد على السباحة فيها في الصيف ، وبهذه الواسطة أمل أن يُقتل ومن ثم يحصل على المملكة منفرداً ، وهذا قد حدث بالفعل ، وحكم الأكبر المملكة لوحده .

وعلى بعد عشرة أميال من قيسارية وباتجاه الشرق تقع أسخريط التي جاء منها الخائن يهودا الأسخريطي .

وعلى مسافة ستة أميال من أسخريط بورفيريوم Porfirium ، عند سفح الكرمل ، على شاطىء البحر الميت، وكانت فيما مضى مدينة جيدة (أراد هنا حيفا التي حلت محل سيكامنيوم Sycaminum

ووقعت بورفيريوم على بعد ثمانية أميال الى الشمال من صيدا)

والكرمل هو جبل ، تحادث فيه لبعض الوقت الياس مع اليسع ، وضحى هناك للرب أمام أربعمائة وأربعين كاهناً لبعل ، واستحق النار السماوية ، وأمسك هناك الكهنة ، وذبحهم بالسيف فوق مسيل سيحون ،وهرب من بعد هذا من جزبل Jezebel وجاء الى حورب ، وتقع حورب، الآن على طرف سيناء .

وعلى بعد ثلاثة أميال من الكرمل يقع جبل قاين (تل قيمون) الذي عند سفحه هناك عين بقربها قتل لامخ أباه قاين بوساطة سهم ، وقتل بقوسه قائده .

وعلى بعد عشرة أميال من قاين تقع عكا (عكون) التي سماها بطليموس ملك مصر ثولومياس tholomaic ذلك أنه هو الذي أسسها ، والى هناك يصل أكبر عدد من السفن (مما يأتي الى أي ميناء) يقع على ساحل البحر العائد للفرنجة والممتد من عسقلان الى جبال طوروس ، وإليها تتدفق بضائع وحاجيات آسيا وأوربا وافريقيا ، وحدث في احدى السنوات ، في شهر آب على شاطىء البحر وليس بعيداً عن الأسوار ، باتجاه الشرق ، أن تفجرت ينابيع ، فحولت الجداول العائدة لهم الى البحر ، الذي عمل بمثابة حل للذين كانوا يشربون منهم حسب هواهم ، ولهذا السبب يتردد عليهم الذين يسكنون فيما بين الفرات والنيل .

وعلى بعد ستة عشر ميلاً من عكا تقع مدينة صور، التي كانت تدعى في العصور القديمة باسم سّرا Sara ، صدوراً عن اسم سمك كثيراً هناك ، وهو الذي يدعوه السوريون بلغتهم باسم سرSar، ومنه جاء اسم سمك صغير يدعى نوعه باسم سريا Saraeأو سردين (معنى صور : صخرة) ويسمي العبرانيون تاير Tyre باسم سور ، أو

بالـدارجة باسم صـور ، وجاء الفينيقيون الـذين أسسوا صور مـن البحر الأحمر .

وتقع صيدا على مسافة أربعة عشر ميلا من صور .

وأسست صيدا مـن قبل صيدون ، الذي كان الابـن الأول لكنعان بن حام ، ومنه انحدر الصيداوييون وحكم في صور وصيدا فينكسFenix الذي كـان أخاً لكثمـوس (قدموس) الطيبـي في مصر ، والذي جـاء من سورية ، ومن اسمـه صار هؤلاء الناس يدعون بـالفينيقيين واسم المنطقة كلها فينيقيـا ، التي احتلـت فيها صـور المرتبة الأولى ، وحكـم في صور حيرام عندمـا حكم سليمان في القدس و أبـولونيـوس عندما حكـم حكم انطوخيـوس في أنطاكية ، ويـؤكد السـوريون أن صور رفضـت استقبال يسوع عنـدما سار على طول ذلـك الساحل ، لكـن عندما قام يسـوع من الموت ، استقبلت باسمه بولص الـذي بشر فيها بالشريعة والانجيل ، ثم إنه جثـا فيها بعد على ركبتيه ، وصلى على ذلـك الرمل ودعـا أن تمتن رحمة المسيح صور وتدعمها في الإيمان ، ويوجـد أمام صور الصخرة التي قيل بأن يسوع قد جلس عليها ، وهي قد بقيت كما هي دونها أذى من أيامه حتى وقت طـرد المسلمين من المدينة ،وقد حطمت فيها بعـد وقطعت من قبل الفرنجة وكـذلك من قبل البنادقة ، وقيد البناء الآن فـوق بقاياها وحـول موقعهـا كنيسـة مكرسـة للمخلـص ، وتبعا لبيـدBede المبجل قدمت صور عدداً كبيراً من الشهـداء للرب ، وأعداد الذين ينتمون لها نفسها العلم وحده قادر على تعدادهم .

وصور هي مكان دفن أورجين Origen، وقد استولى الاسكندر الكبير على صـور الذي وسـع أراضيهـا بـوساطـة سـور ، لأنها كـانت وقتـذاك مطوقـة بالبحر أيضـاً، وحوصرت في أيامنا صـور بفعالية مـن البر والبحر ، وتم الاستيلاء عليها من قبـل البطريرك وورموندWarmund صاحب الذكـرى الطيبة ، وذلـك بمساعدة البنـادقة ، وبـإذن من نعمـة الرب ،

وجاءت مـن أحواز صيدا وصور المرأة الكنعـانية التي قالـت ليسوع : « ارحمني يا بن داود » وعنـدما غادر يسوع هذه المناطـق عاد إلى الجليل من خلال المدن العشرة » ، وأعاد السمع إلى الأصم والكلام إلى الأخرس

وعلى بعد ستـة أميال مـنْ صيدا تقـوم الصرفند على شـاطىء البحـر باتجاه صور ، وهي صرفند الصيـداويين ، وإليها بعث الرب إلياس الى أرملة صرفنـدية، حتى تـزوده بالطعـام ، وحينها مكثا معاً كـان قليل من الزيـت في الابريق وبقايا الطعـام كافية للوجبة ، وهنـا أقام الياس ابن الأرملة ، أي يونه Jonahابن أماثوسAmathus وجمعت امرأة في الصرفنـد حزمتين ، ويقـوم في جبـال صيدا والصرفنـد جـت حافـر (المشهـد على ثلاثـة أميال مـن الشمال الشرقي للنـاصرة) ، وهي البلـدة التي جاء منهـا يونه المذكور أعلاه ، وكان مـن صيدا ديدو Dido الذي بنى قرطـاج في افريقيا ، وشهرت صيدا بـوساطة الفينيقيين الذيـن تملكوها ، وقد ثبتـوا اسمهاصيـدا بسبب وفرة الأسماك ، لأنـه معنى كلمـة صيدا في لغتهم : سمك.

وعلى مسافةثمانية عشر ميـلاً من صيدا تقع مدينة بيروت،وهـي مدينة غنيـة جـداً، ويـوجـد في بيروت تمثال لمخلصنـا صنعــه نيكـوديمـوس بيديه،وحدث بعد أمد وجيز مـن آلام المسيح أن تم صلب هذا التمثال بشكل شائن مـن قبل بعض اليهود وذلـك بشكل ساخر ،فصـدر عنه دم وماء،ونتيجـة لهذا الحادث آمن عـدد كبير بالمسيح،وعـاد كل واحـد مسح بنقطة من التمثال الى الصحة.

وعلى بعد عشريـن ميلاً من بيروت،وبـاتجاه الشرق،تقوم بيبلـوس التي هي جبيـل أو باللسان العبري جوبـل،وجلب الى مرساهـا في أيام سليمان الخشب مـن جبل لبنان مـن أجل بناء بيـت الرب في القدس، وقـد نقل منها الى يافا.

وعلى بعد عشرين ميلاً من جبيل،وباتجاه الشرق،تقوم طرابلس،وهي حاضرة المنطقة،وهي مدينة محصنة بشكل رائع بالأسوار والبحر.

وعلى بعد اثني عشر ميلاً من طرابلس،وباتجاه الشرق،يوجد ألباناAlbana [أبانا] ،وهو نهر عرقة،فمن هناك تبدأ مملكة القدس.

ويعود أصل الصلاة العامة على الميت والمنفعة العامة الى يهوذا المكابي،والى هركانوس يعود تأسيس المشفى العام،وتم بناء البرج الذي يدعى الآن باسم برج داود من قبل هيرود،وعندماهدم تيتوس وفسبسيان المدينة تركاه قائماً ليكون علامة على نصرهما،والقلعة التي بناها داودلنفسه،حيث أملى المزامير،قد احتل مكانها الكنيسة التي تحصن صهيون وتجمله،وذلك باتجاه بيت لحم على رابية مرتفعة جداً، وظلت القلعة قائمة حتى أيام الابن الأصغر لتاثياس الذي هدم كل من القلعة والرابية،وعندما هدم تيتوس وفسبسيان المدينة، لم يأخذا منها سكانها فقط، بل أخذا أيضاً تابوت العهد وماكان فيه،وحملوا الجميع الى روما معهما، وذلك كماهو منقوش على أقواس النصر القائمة فيها بين البلاديوم Palladium وتل البلاتاين Palatineالى جوار كنيسة القديسة مريم الجديدة(في روما حيث مازال قوس تيتوس).

وأخذ الدوق غودفري مفاتيح البرج المذكور أعلاه من يد البطريرك داغوبيرت،وهيأ كل مايمكنه من إحسان وألطاف للبطريرك ولمكانة الكنائس،ولقد استحق عن جدارة أن ينال أعلى المراتب وأعظم الألقاب،غيرأنه لم يؤثر مكانة وألقاب الذين حكموا بل لقب عبد الرب، ونذر إذا ما أعطاه الرب عسقلان،وسلمها ليديه، سوف يعطي القدس كلها للذين يخدمون الرب في كنيسة الضريح المقدس،ولسوف يزيد من أملاك البطريرك،لكن عندما حلت السنة التالية،لم يستطع إكمالها،ووصل الى النهاية التي لايمكن الفرار منها،وقد دفن بحزن ونواح لانظير له أمام الجلجلة،حيث جرى صلب ربنا،وقد كتبت هذه الأبيات على قبره:

النجم الرائع.هنا يرقد الدوق غودفري.

مرعب مصر، هازم العرب،ممزق صفوف الفرس.

ومع أنه انتخب ملكاً،رفض أن يلقب بملك.

وأن يتوج، وظل«عبد المسيح»فقط.

وكان همه أن يعيد الى صهيون حقوقها.

وككاثوليكي أن يتبع العقائد المقدسة للحق والمساواة.

وأن يزيل جميع الهرطقات من حوله وأن يرعى الحق.

وبذلك يمكنه أن ينال مع القديسين تاجاً.

وأن يكون مرآة الجيش،وقوة الشعب،وكهف الكهنوت.

وقد خلفه أخوه بلدوين،الذي كان أول قنصل للرها،والذي اختير من قبل جميع رجال الكهنوت والناس،وعندما ماكان في الحكم جلس الأدوميون والعمالقة صامتين،وارتعب العرب والفلسطينيون، ودفعت دمشق، وصور وعسقلان الجزية.... وخلفه في صهيون الذي خلفه في الرها، وأعني به بلدوين دي بورغ، الذي كان رجلاً حكيماً، وعظيم الشجاعة، وجاء من بعده المبجل فولك الثالث كونت أنجو ومين.

المحتوى

رقم الصفحة	الموضوع
٤	توطئة
٧	مدخل
١٩	**كتاب حملة رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة**
٢٠	كيف هاجم صلاح الدين فلسطين
٢٦	حصار عكا
٣١	خبر ملكي انكلترا وفرنسا
٣٨	كيف أمضت الجيوش الشتاء في صقلية
٤٥	كيف غادروا نحو الأراضي المقدسة
٥٢	الملك رتشارد في قبرص
٥٩	كيف سلم الامبراطور قبرص
٦٨	كيف تحاربوا مع سفينة اسلامية ووصلوا أخيراً إلى عكا
٧٥	كيف هاجم الفرنسيون عكا حينما كان الملك رتشارد مريضاً
٧٩	كيف صد الأتراك بفعالية رجال الملك رتشارد
٨٦	تسليم عكا
٩١	حول الخصام بين الملكين
٩٧	كيف نصب الملك رتشارد خيامه خارج عكا

١٠١	كيف زحف الجيش نحو عسقلان
١٠٨	كيف تحارب الجيشان عند أرسوف
١١٦	النصر الرائع للمسيحيين
١٢٦	كيف كاد الملك رتشارد أن يقع أسيراً
١٣٥	حول المعاناة المزعجة من الأمطار ومن الأعداء
١٤١	كيف أعادوا بناء عسقلان
١٤٧	كيف تراجع الفرنسيون إلى عكا وكيف جرى اغتيال مركيز مونتفرات
١٥٥	كيف جرى اختيار الكونت هنري ليكون ملكاً لصور
١٥٩	كيف جرى اختيار هنري ملكاً لصور
١٦٣	كيف استولى الملك رتشارد على دير البلح عنوة
١٧٢	لماذا لم يزحفوا إلى القدس
١٧٩	الاستيلاء على القافلة الكبيرة
١٨٥	كيف عاد الجيش إلى عكا
١٨٩	كيف هاجم صلاح الدين يافا
١٩٨	كيف حاول الغلمان والأكراد مفاجأة الملك رتشارد في خيمته
٢٠٧	كيف أقام الملك رتشارد هدنة مع صلاح الدين
٢١٣	كيف رأى الحجاج القدس وكيف عاد الملك

	رتشارد إلى وطنه
٢٢١	**رحلة حج سيولف الى القدس**
٢٢٢	مدخل
٢٢٦	رواية عن حج سيولف الى القدس والى الأراضي المقدسة
٢٢٩	الوصول الى قبرص ثم الى يافا
٢٣٢	الوصول الى القدس ووصف لمشاهدها
٢٣٥	الرسم التوضيحي رقم ١
٢٤٢	الجليل وطبرية
٢٤٣	دير القديس سابا
٢٤٤	أريحا
٢٤٥	الخليل
٢٤٦	الناصرة ونابلس وجبل الطور
٢٤٨	الأردن ومنابعه
٢٤٨	العودة عبر يافا
٢٥٢	حواشي رحلة حج سيولف
٢٦١	**رحلة حج الراهب الروسي دانيال**
٢٦٢	مدخل
٢٧٠	رحلة راعي الدير الروسي دانيال

٢٧١	القدس وديرالقديس سابا
٢٧٢	الطريق الى القدس
٢٧٣	مدينة أفسوس
٢٧٤	جزيرة باتموس
٢٧٥	جزيرة قبرص
٢٧٦	الجبل الذي أقامت عليه القديسة هيلانة صليباً
٢٧٦	البلسم
٢٧٧	القدس
٢٧٨	كنيسة القيامة
٢٨٠	مكان مركز الأرض
٢٨٠	الجمجمة
٢٨١	مذبح ابراهيم
٢٨٢	برج داود
٢٨٣	بيت أوريا
٢٨٤	بركة الغنم
٢٨٤	كنيسة قدس الأقداس
٢٨٥	بيت سليمان
٢٨٦	قرية بيت حنينا
٢٨٧	قرية جيسماني

٢٨٧	أبواب المدينة
٢٨٧	مكان ضريح العذراء
٢٨٨	الكهف الذي جرت خيانة المسيح فيه
٢٨٨	المكان الذي بدأ فيه المسيح بتعليم حواريه
٢٨٨	جبل الزيتون
٢٨٩	مدينة القدس
٢٩٠	الطريق الذي يقود الى الأردن
٢٩٠	جبل حرمون
٢٩٠	مكان انعطاف الأردن
٢٩١	مكان تعميد المسيح
٢٩١	مكان الاستحمام
٢٩١	الأردن
٢٩٢	كهف القديس يوحنا المعمدان
٢٩٢	كهف النبي الياس
٢٩٤	بلدة أريحا
٢٩٥	جبل جبعون
٢٩٥	الكهف الذي صام فيه المسيح أربعين يوماً
٢٩٥	دير القديس سابا
٢٩٧	دير القديس يوثيموس

جبل صهيون	٢٩٨
بيت العشاء المقدس	٢٩٨
مكان انكار بطرس المسيح	٢٩٩
بركة سلوان	٢٩٩
حقل الفاخوري	٢٩٩
بيت لحم	٢٩٩
كهف ولادة المسيح	٣٠٠
كنيسة ميلاد المسيح	٣٠٠
مزود المسيح	٣٠١
بيت يسي	٣٠٢
بئر داود	٣٠٢
الكهف وبلوطات ممرا	٣٠٢
جبل الخليل	٣٠٤
قبر يوسف	٣٠٥
دعاء ابراهيم	٣٠٦
ضريح لوط	٣٠٧
المكان الذي قتل فيه داود جالوت	٣٠٩
مكان شجرة الصليب	٣٠٩
الجبل الذي التجأت إليه اليزابث مع المبشر	٣١٠

٣١٠	رامه
٣١١	عمواس
٣١١	اللد
٣١١	يافا
٣١٢	قيسارية فيليب
٣١٢	كفر ناحوم
٣١٢	جبل الكرمل
٣١٢	بلدة عكا
٣١٣	بيروت
٣١٣	أنطاكية
٣١٣	الجليل وبحيرة طبرية
٣١٥	السامرة
٣١٦	بلدة أرماثيا
٣١٦	بلدة بيسان
٣١٧	نهر الأردن
٣١٧	بيت تعشير متى
٣١٨	بحر طبرية
٣١٩	منابع الأردن
٣٢٠	المكان الذي أشبع فيه المسيح خمسة آلاف رجل

٣٢١	المكان الذي ظهر المسيح فيه لحوارييه للمرة الثالثة
٣٢١	بلدة بيت صيدا
٣٢١	المكان الذي جاء إليه المسيح متجهاً نحو حوارييه
٣٢١	بلدة ديكابولس
٣٢١	جبل لبنان
٣٢٢	جبل الطور
٣٢٣	المكان الذي تغيرت فيه هيئة المسيح
٣٢٣	كهف ملكيصادق
٣٢٥	بلدة الناصرة
٣٢٥	ضريح يوسف خطيب العذراء
٣٢٦	كهف البشارة
٣٢٧	بئر الاعلان الأول
٣٢٧	قانا الجليل
٣٢٨	القدس
٣٢٩	النور المقدس
٣٣٧	فيتيلوس
٣٣٨	مدخل
٣٤٤	وضع مدينة القدس

بيت لحم	٣٤٦
نهر الأردن	٣٤٧
وصف الأماكن القائمة حول القدس	٣٤٩
بير السبع	٣٥١
بحيرة اسفلت	٣٥١
صحراء التيه	٣٥٣
دمشق	٣٦٢
بانياس	٣٦٢
وادي البقاع وبعلبك	٣٦٢
عرقة	٣٦٣
كفر ناحوم	٣٦٥
المجدل	٣٦٦
طبرية	٣٦٦
جبل الطور	٣٦٧
بيسان	٣٦٨
السامرة	٣٦٨
نابلس	٣٦٩
بيت لحم	٣٧٠
القدس	٣٧٢

أريحا	٣٧٩
اللد	٣٨٠
يافا	٣٨٠
أرسوف وقيسارية	٣٨١
عكا وصور	٣٨٣
صيدا	٣٨٤
الصرفند وبيروت	٣٨٥
طرابلس وعرقة	٣٨٦
قبرغودفري وما كتب عليه	٣٨٧

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

صيلبية رتشارد قلب الاسد
نظمها بالفرنسية القديمة
أمبرويز

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثاني والثلاثون (أ)

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

صيلبية رتشارد قلب الاسد
نظمها بالفرنسية القديمة
أمبرويز

تأليف وتحقيق وترجمة
الاستاذ الدكتور سهيل زكار

المجلد الثاني والثلاثون   دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

أعود الآن مجدداً الى مايدعى بالحملة الصليبية الثالثة لأقدم آخر النصوص الهامة حولها،وبهذا النص أختتم المجلدات الأربعة التي استدركتها على الحلقة الأولى من موسوعتنا،وسأنتقل بعونه تعالى نحو الحملة الخامسة وماتلاها،وذلك مع نصوص الرّحلات ونصين آخرين هامين جداً.

وسلفت الاشارة الى أهمية الحملة الثالثة،ومن هنا تأتي أهمية مصادر أخبارها، ومصدرنا اليوم وثائقي عاصر الحملة،أو نهل عمن عاصرها،وساق أخبارها شعراً،حوى صوراً رائعة،فللشعر دوما أداؤه المتميز.

وفي مدخل هذا المجلد دراسة مركزة حول هذا الشعر ومصادره وأهميته ومقارنته بمواد المجلد المتقدم،وأضفت مواد هذا الشعر،مثل مواد المجلد المتقدم القداسة على أعمال رتشارد الثاني ملك انكلترا،لكن على الرغم من كل ذلك،لقد كان هذا الملك طائشاً دموياً متهوراً،حمل عقلية القرصان،ونفسية متعطشة للثروة والذهب بأي ثمن كان،فهو قد باع كل شيء في مملكته،ولو وجد من يشتري لندن منه لباعه إياها،وعندما حط رحاله في صقلية نهب أهلها،وابتز ملكها، ثم قصد قبرص فاجتاحها وسلبها واستولى عليها،ولم يغير سلوكه هذا في فلسطين فهو على هذا لم يقد حملة مقدسة،بل خاض حرباً استعمارية بشعة،وبذلك خط الطريق للحملة الرابعة التي اجتاحت القسطنطينية وأراضي الامبراطورية البيزنطية.

وأعود لأذكر بالدروس التاريخية المستفادة من هذه الحملة، وعلى رأسها أنه بفضل الوحدة فيما بين مصر الشام استطاع صلاح الدين الصمود،واحباط أهداف الحملة،فمن ذلك الحين شكلت دولة الشام ومصر المكافىء للغرب الصليبي،والمسؤول عن الثقافة العربية والحضارة الاسلامية حتى تاريخ استيلاء العثمانيين على هذه البلاد،ولذلك على العرب في الشام ومصر التوحد مجدداً حتى تجتمع الأمة من جديد،ولكي تجري أعمال استئناف تحرير فلسطين،كل فلسطين.

ومن الدروس التاريخية لهذه الحملة ماتعلق بدور الامبراطورية البيزنطية،فقبلها قدمت بيزنطة التسهيلات الكبيرة للفرنجة الزاحفين براً،وتدخلت مراراً لحماية دويلات الفرنجة في الشام،لكن نجاح نقل القوات الانكليزية والفرنسية بحراً آذن بالاستغناء عن الأراضي البيزنطية،وبالتالي عن الدور البيزنطي كله، ونظراً لشهرة بيزنطة بالثراء،ولتعطش ملوك الفرنجة للذهب والثروة،كانت القسطنطينية أول ضحاياهم،وبذلك عجلوا في دمار الامبراطورية وسيرها نحو الزوال من الوجود.

وهذه الدروس مفيدة جداً في أيامنا هذه،فبالوحدة يمكن للعرب السير نحو العتق من الصلف والرعونة الأمريكية-الصهيونية،ولعل بين قادة تركيا من يتعظ بدروس التاريخ فيدرك مآل التعاون مع الصهيونية.

هذا وليس من السهل نقل الشعر التأريخي الملحمي الى العربية،فهو حتماً سيتحول الى نثر وإن تمت المحافظة على تقسيمات أبياته،ولقد بذلت غاية الجهد في سبيل الحفاظ على شيء من الروح الشاعرية لكن ليس على حساب الأمانة بالترجمة ودون أدنى تصرف بالمعاني والمادة الإخبارية،ولقد كان بودي الجمع في هذا المجلد بين الفائدة الأدبية الشعرية والفائدة التاريخية،وهذا ماتعذر علي،ولقد آثرت الهدف التأريخي على سواه،فموسوعتي تأريخية بالدرجة الأولى.

لاشك أن القارىء العربي والباحث بات الآن يمتلك مادة شاملة حول أحداث الحملة الثالثة،التي كانت الفيصل بين جميع الحملات،والله الموفق والمستعان وله دوماً الحمد والشكر،ومنه جل وعلا أستمد العون لاكمال هذا المشروع الذي سيصل الى ستين مجلده.

والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٢٦ محرم ١٤١٩هـ

٢٢ أيار١٩٩٨م

مدخل

للشعر المقدم هنا قيمة استثنائية لكل من المؤرخ وتلميذ الأدب الوسيط ، فبين جميع الروايات التي تحدثت عن صليبية رتشارد وكتبت من قبل الذين عاشوها يقدم كتاب أمبرويز الحامل لعنوان « تاريخ الحملة المقدسة » وكتاب « رحلة الملك رتشارد» أكمل روايات فيها إحاطة بما حدث ، نمتلكها حتى الآن ، فهذان الكتابان يغطيان بالفعل الجزء الأعظم من معلوماتنا الواقعية حول هذه الحملة التي كتب لها الاحباط ، ومرويات شهود العيان دوماً ثمينة ، وقيمتها مضاعفة بالنسبة لأحداث العصور الوسطى ، لأن الذي بقي لنا ووصل إلينا لا يتعدى القليل من المدونات ، وبالنسبة لكتاب « تاريخ الحملة المقدسة » هو كتاب شاهد عيان ، وهو كتاب بالنسبة لعدد كبير من العلماء المختصين مقبول كما هو ، ومثمن ومصدق ، وكما سنذكر في المستقبل في هذا المدخل ، يعد النص الذي نقدمه الآن نسخة طبق الأصل عن الرواية المباشرة لواحد كان قد رأى الأحداث التي تولى وصفها ، ولدينا من الأسباب ما يدعونا الى الاعتقاد أن النص الحالي قلّد النص الأصلي ونسخه بشكل صحيح ودقيق الى أبعد الحدود ، وأنه قد كتب بعد أمد وجيز من انتهاء الحملة الصليبية ، وعلى هذا يمتلك قيمة وثائقية ويساوي الى أبعد الحدود الرواية الأولى المباشرة.

أهمية الشعر

يحتل هـذا الشعر كقطعـة أدبية وفنية مكـانة فـريدة ، ويمثـل حال الانتقـال فيما بين وضع الحكـايات البطـولية لأناشيـد الأعمال وبين الرؤايات المصنفة نثراً من قبل كتاب مثل فلهارديـن وجوانفيل ، ومهما كـان موقفنـا تجاه النظـريات المتعلقـة بـأصل الملحمـة التـي قدمهـا جوزف بيـدير والذين اتبعـوا خطاه، يمكننا بثقـة أن نفترض أن انسان العصور الوسطى تقبـل بمثابة حقائق ما جاء في حكـايات شارلمان ، ووليـم أوف أورانج ، ودون أوف مينيـس mayence وهي الحكايات التي زودت أناشيد الأعمال بمادتها ، وبـذل الشعراء جهوداً كبيرة في سبيل تأكيد مصـداقية حكاياتهم ، وطوقوا هذه الحكايـات وأحاطوها بشيء يشبه الأجـواء البطولية المثيرة ، مـع أنهم يروون حكايـات حوادث يفترض أنها وقعـت قبـل ثـلاثمائة سنـة أو أربعمائة قبـل ولادتهم ، وصلب هذه الحكايات بالنسبة لهم تاريخ قديم .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر لدينا في التاريخ الذي بين أيدينا كاتب يتولى حكايـة وقائع حديثة كانت ما تزال قـائمة بذاكرة أناس سمعوا كلماته أو قرأوها ، ولقد تولى سرد روايـاته بشعرمنظوم وكان هذا بـالنسبة للـذين كـانوا لا يعـرفـون اللاتينيـة فصلاً عظيماً مـن التاريـخ المعاصر، ولدينا هنـا مراسل تولى بالدارجة روايـة أخبار آخر الأحداث في الصراع في سبيل خنق الاسلام وإبقـاء الغرب الأوروبي للمسيحية ، وقد كتب نظماً لأنـه كان شاعـراً جوالاً ومغنياً ، تـدرب على فن الكتابـة وكان الشعر المنظوم هو الوسيلة الطبيعية والمتـوارثة في رواياته حكاية تطلب الحال قـراءتها بصوت مـرتفع مسمـوع ، ولقد روى وقـائع وحكايـات تناولت أكثر من مسائل زحـف الجيوش ومجيء الحكام خلف بعضهم بعضـاً، والخلافـات بين الأسر الحاكمـة ، لقـد حكـى لنـا كيـف عـاش

الانسـان العادي وشعـر ، وشرب ونام ، وجـاء من بعـده فيلها رديـن وجوانفيل ، وكانـا ممن انتمى الى الارستقراطية كما كانـا من العسكريين ، وقد قـدما روايـاتيهما نثراً لأنهما كانـا رجلا أفـاعيل لا يمتلكـان البراعة على نظم الشعر ومعهما جاءت كتـابة التاريخ بالدارجـة الى الوجود ، والذي كان موجوداً قبلهما أولاً الكتابات بـاللاتينية التي قدم أصحابها الأخبار السياسية والعسكرية الجافة ، وكـان في الجهة المقابلة «أناشيد الأعمال » الحاوية لكميات هـائلة من التقاليد ، والأساطير ، والـدعاية والخيال ، وأمـا الآن فقد بتنا نمتلـك بدايات الكتـابات التاريخيـة ، وفق معاني هذا الاصطلاح المعاصر .

مصادر الشعر وعلاقته بكتاب
رحلة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة

جاء كتـاب « تاريخ الحملـة المقدسـة »الى النور للمرة الأولى عنـدما نشر غـاستون البـاريسي طبعتـه المحققـة من النـص مـع مـواد نقديـة محكمة الصنعة ، وكـان ذلك سنة ١٨٩٧، وكانت مخطوطـة هذا الكتاب مودعة على رفـوف مكتبة الفاتيكان منذ قـرون دون أن تثير انتباه أحد ، وذلك في وقـت تقبل فيـه مؤرخو الحروب الصليبيـة النص النثري من التاريـخ واعتمدوه ، وأعني بـذلك « حملـة الملك رتشارد » التـي أعطتنا روايـة نظيرة ،لكن تختلـف بعـض الشيء في تفـاصيل الحوادث المرويـة مـن قبلهما ، وبعدمـا درس غـاستـون الباريسي العملين معـاً، قـدم في مدخله الدراسي بعـض المحصلات التي توصل اليها فيما يتعلـق بناظم الشعر وأصـالة عملـه ، وجرى فيما بعـد تأكيـد بعض هـذه المحصلات ورفض بعضهما الآخر من قبل الأبحاث التي جاءت من بعده .

وأطلق ناظم الشعر على نفسه اسم أمبرويز في كثير من الأماكن في شعره ، واستخلص غاستون من هذا أن أمبرويز هذا كان حاضراً شخصياً وشاهداً لمعظم أحداث الحملة الصليبية الثالثة التي تولى حكايتها، وعلى هذا من المتوجب تقبل روايته على أنها رواية شاهد عيان ، باستثناء جزء الرواية الذي يعالج حصار عكا قبل وصول رتشارد ملك انكلترا ، وفيليب ملك فرنسا ، وظهورهما على مسرح الأحداث ، وأوضح الشاعر بشكل محدد عدم امتلاكه لأية معلومات شخصية حول مجريات هذه الأحداث ، التي مع هذا احتلت شطراً كبيراً من شعره (الأبيات ٢٣٨٧ ـ ٤٥٦٨) ، لكنه رواها اعتماداً على واحد سواه ، ولقد شغلت هذه الرواية مواد الفصل الأول من كتاب الحملة وتوصل العالم الفرنسي الكبير، إثر تأسيسه مناقشاته على مجموعة من أجزاء البينات الداخلية للنص الى مجموعة من الحقائق ، التي أيدتها الأبحاث المستفيضة وصححتها بالتفاصيل ، لكن ليس بشكل أساسي، وكان ما توصل اليه هو : لم يكن أمبرويز لا فارساً من الفرسان ولا رجلاً حمل السلاح ، كما أنه لم يكن كاهناً ، بل كان قارئاً جيداً للشعر الفرنسي في أيامه ، الأمر الذي أشار اليه في عدد كبير من النقاط ، وقد عرف قليلاً أو لا شيء من الأدب اللاتيني ، وكان وفق جميع الاحتمالات مغنياً جوالاً أو شاعراً محترفاً ، وكان من أصل نورماندي ، ثم إن إشاراته المتوالية لشخصيات غير معروفة من أحواز منطقة افرو Evreux تسوغ افتراض أنه كان شخصياً من أبناء تلك المنطقة ، ومخطوطة الفاتيكان هي النسخة الوحيدة المعروفة أنها بقيت من نسخ الكتاب ، ويبدو أنها كتبت في انكلترا في حوالي نهاية القرن الثالث عشر، وعلى الرغم من حقيقة سماتها الأنكلو ـ نورمانديه ، إن البينات المتوفرة لا تبرهن أن الأصل تمّ نظمه بذلك اللسان ، كما أننا لا نمتلك ما يبرهن على العكس .

وفي الوقت الذي يمكن فيه قبول تعليلات غاستون الباريسي والوثوق بها ، يبدو أن محصلاته فيما يتعلق بأصل الشعر وعلاقته «برحلة رتشاد» اعتمدت على افتراض ما هو موائم أكثر مما هو مقنع ، وباختصار أمامنا في واقع الحال نصين : واحد هو تاريخ كتب نثراً باللاتينية ، والثاني رواية شعرية كتبت بالفرنسية القديمة ، ويقدم هذان النصان ـ مع استثناء واحد ـ روايتين عن الحملة الصليبية الثالثة متشابهتين بالكلمة والمقطع مما يُظهر بداهة وجود علاقة بينهما لايمكن الجدال حولها ، والاستثناء هو ما تقدمت الاشارة إليه من أن الشعر يحتوي على إضافة هي رواية عن حصار عكا قبل وصول ملكي انكلترا وفرنسا ، وبالنسبة لهذه الإضافة نلاحظ هنا أن التماثل بين العملين أقل أهمية مما هو في أي مكان آخر ، حيث التناظر واضح بشكل كامل .

وقبل اكتشاف « تاريخ الحملة المقدسة » كان مقبولاً بشكل عام أن كتاب « رحلة رتشارد» هو عمل أصيل من انتاج رجل دين اسمه رتشارد ، أسهم شخصياً في الحملة الصليبية وكتب إما بناء على طلب من أو تحت اشراف وتوجيه راعي دير الثالوث المقدس في لندن ، وجاء هذا على الرغم من حقيقة أن كتاب De expugnatoin Terrae sanctae persaladium Libelleec وهو واحد من بين الشواهد القليلة المتبقية ، ذكر بكل بوضوح ودون وجود أدنى إمكانية لسوء الفهم بأن كتاب الحملة قد ترجم من الفرنسية ، غير أن ستب STUBBS الذي تولى إخراج الطبعة الأساسية من كتاب الرحلة أكد بدون تردد : « أنه من المحال أن يكون الكتاب كتاباً مترجماً » وكان قد كتب هذا عام ١٨٦٤ عندما نشر مجموعة من المصادر الأساسية عن حكم رتشارد ، وقد ساق عدداً من البراهين ليوضح أن مؤلف الـ Li-bellus لابد أنه كان مخطئاً أو مضللاً ، وقبل بالقول أنه إذا وجد أي

نوع من الترجمة لا يعدو وضع بعض الملاحظات التي وردت ودونت باللغة الدارجة الجافة عما حدث أثناء الرحلة ووضعها باللاتينية الرسمية، توصل غاستون الباريسي الذي أنقذ من الاهمال شعر أمبرويز الذي طال دفنه ، الى أن هنا المصدر الذي ترجم عنه الكاهن الانكليزي كتاب « الرحلة » وبذلك أهمل أو رفض بالتفصيل حجج ستب ، التي كانت طبيعتها غير ايجابية تماماً ،وأكد أن متابعة النقاش حولها عملاً ليس مجدياً بعدما اكتشفنا الأصل الفرنسي من الكتاب ، الذي تولى رتشارد التابع لدير الثالوث المقدس وضعه باللاتينية ، وصرح بوضوح أن رتشارد قام عن عمد بانتحال الكتاب وأراد أن يضلل الناس ويجعلهم يعتقدون أنه شارك في متاعب ومفاخر الحملة الصليبية وكان شاهد عيان للاحداث التي تولى رواية أخبارها .

وناقش المسائل وجاءت مناقشاته بشكل أساسي حسبما يلي : أولاًيحتوي النص اللاتيني على عدد كبير من آثار كلمات شعرية منظومة التي يوجد بعضها في عدد كبير من أبيات شعر أمبرويز يضاف الى هذا هناك بعض الأسماء المزدوجة التي لا بد أنها وجدت في بعض أجزاء الشعر وقد فقدت من خلال اهمال النساخ ، وثانياً يوجد في نص الكاهن رتشارد اللاتيني بعض الأخطاء ، أو التناقضات ، الأمر الذي يمكن شرحه فقط على أساس الافتراض أن رتشارد لم يفهم النص الفرنسي الذي اعتمد عليه ، وفي احدى الحالات لم يكن معتاداً على أدب الملاحم الفرنسية القديمة ، مما قاده إلى اقتراف بعض الأخطاء المضحكة ، مثل الذي تعلق بأنغولاندAngoland الذي كان واحداً من الشخصيات المعروفة في ذلك الأدب ، ولعل الأهم من هذا كله حسب تأكيدات غاستون الباريسي أن الكلمات والمقاطع التي وردت في نص رتشارد والتي ليس هناك ما يوازيها في الشعر الفرنسي تظهر من خلال الفحص أنها كانت كلمات للزينة أو مجرد ألفاظ

بلاغية ، وهـي على هذا لا تضيف شيئاً لحقائق الروايـة ، لأنها بالأساس نوع مـن أنواع العروض التي هـدفت الى إظهار البراعة الأدبيـة وسعة المعرفـة ، التي غالبا مـا استهدف رجال الـدين للعصور الوسطـى من ورائها بهر عيون قرائه ، وأكد ناقدنـا أنه من غير المتصور أن يقدم شاعر على تـرجمة هـذا النـوع مـن العمل التـزييني الى لغـة سهلـة وروايـة شعرية مباشرة هي التي نجدها في التاريخ ، هذا من جهة ومن جهة أخـرى ، كثيراً ما حـدث أن قـام المتعلمون الـلاتين بتـزيين الكتابـات السهلة التـي دونت باللغـة الدارجة بمثـل هذه الورود الأدبيـة التي رأوا أنها ضرورية للرفع من شأنها .

وبالتخلي هكـذا جملة واحدة عـن الأجزاء الموجودة في نـص رتشارد التي لا نظير لها في « التاريخ» أهمل غاستون الباريسي ، أو شرح بطريقة غير مـرضية مجمـوعـة متنوعـة من البينـات لـدى قيامـه بـالمقارنـة بين الكتابين ، وعـرض ذلك أمام عين القارىء ، فقـد قام رتشارد بـالحقيقة بتقديم قطـع عديدة من المعلومات ، لا يحتـاج المرء الى خيال خصب ليقـول إنها تـزيين بـلاغـي ، ومن ذلـك بين كثير : الـوصـف المفصـل لرحلـة رتشارد من تـور الى فيزلي ، ومن فيـزلي الى ليون ، والاجتماع فيما بين الملك رتشارد وتـانكرد في صقلية ، والخصام بين البيـازنة والجنويين ، والتفاصيـل المتعلقة بوصـف جغرافية كريـت ، وأسماء الأساقفة الـثلاثة الذيـن كانوا حضـوراً أثناء زواج الملك ، وروايـة الرحلة التـي قام بها الملك لتفحـص غزة والـداروم ، وعدد كبير من التـواريخ المحـددة ،وهذه لائحة من الممكن اطالتها كثيراً.

وعلـل غاستـون الباريسي وجـود هذه المواد الاضـافية في « الحملـة» بواحد من الاحتمالات التالية : فـذلك كان إما بسبب (١)أن هذه المواد استقيت مـن كتاب رحلـة رسمي عـن حملة الملـك رتشارد ، أو (٢) أنها أضيفـت من قبـل مصنـف الكتاب الـلاتيني من خـلال معلـوماتـه

الشخصيـة أو مـن خلال مصدر غير محدد ،أو (٣) أنها وجـدت أصـــلاً بالأصـل الفرنسي الشعـري ، لكنها حـذفت أو فقـدت من قبـل النساخ الذين قـاموا بتحويل النص ونسخـه ليستخدم من قبل الأجيـال القادمة ، وفي الوقت الذي هو صحيح أن هـذه الشروح بالنسبة لبعض القضايا قـائمة في نطـاق مملكة الاحتمالات ، صحيـح أيضـاً وبشكل مسـاوٍ أنها تستند على الحدس وليس على البرهان .

ومن المتـوجب أن نشير الى حقيقة أن أمبروز لـديه بعـض المواد التي لا يوجد ما يعادلها في «الرحلة» مـن ذلك يمكن أن نذكر على سبيل المثال التفاصيـل المتعلقة بـالرسـائل التى أرسلهـا الملك تـانكرد الى الملـك رتشـارد ، وأسماء رجال الكنيسـة الـذيـن أعدوا شروط السـلام فيما بين الحاكمين ، (البيت ١٠٠٧ ومـا يليه) وكذلـك الاتيان على ذكـر النسب الرفيـع لغي دي لوزغنـان (البيت١٧٢٢ ومـا يليه) والدعـوة المستعجلة من الملك فيليـب الى الملك رتشارد (أبيات ١٨٧٩ ــ ١٩٠٦) وأشياء أخرى كثيرة .

وقامت كيـت نورغيت التي كتبت في سنة ١٩١٠ بـإخضاع القضية الى مزيد من التحليل ، ففي الوقـت الذي أعطى فيه غاستون الباريسي سنة ١١٩٦ بمثـابة التاريـخ المحتمل لنظـم الشعر الفرنسي ، قـدمت الآنسة نـورغيت دليلاً على أن التـاريخ ينبغي أن يكـون فيما بين أيلول ١٢٠٣ وتشرين الثـاني ١٢٠٧ ، ورسا برهانها على أن اشـارات أمبرويز بصيغـة الفعـل الحاضر وبصيغـة الفعـل الماضي الى مختلـف شخصيـات الحملة الصليبيـة ، قد لا تحمـل ما يقنع الى الـذين اعتـادوا على تسيب استخدام صيـغ الأفعال في الفرنسيـة القديمة ، ومـع هذا قدمـت قضية مقنعـة ، فبعد مـا درست « الـرحلة » بطـريقـة مماثلـة هذه الـرحلة التـي وصلتنا من خلال ثلاث مخطوطات توصلت الى المحصلات التالية :

فمن خـلال النسخة الأقـدم للرحلـة ـ ممـا هو متـوفر لنـا الآن ـ لم

تكتمل هـذه النسخة حتى مـا بعد ٦ ـــ نيسان ١١٩٩ ، وأن الخاتمة في مخطوطـة (جـ) مـن المحتمل أنها أضيفـت ليس قبـل ١٢٠٢ ، وأن فقرة واحدة في (lib,i) قد كتبت قبل أيلول ١١٩٢ ، وأنه من الناحيـة التأريخية يحتمل أن الكتاب كلـه ـ باستثناء خـاتمة مخطوطة (جـ) حسبما هي الآن ـ قد كتب قبل هذا التاريخ .

ولاحظت أن هناك بعـض الفقرات التي تتعارض مـع هذه المحصلة ، فعللت ذلك وردته الى احتمال أنه أقحم بـالنص فيما بعد ، وبالفعل لا نمتلك سببـاً لرفـض قولها بـأن :« التاريـخ والرحلـة قد صنفـا في زمن متقارب من بعضهما بعضاً » ، لكن البينات التـأريخية « غيركافية لتقرير أي واحـد من الكتـابين بشكلـه الأصيل هـو الأقـدم »وبعـدما رفضـت الآنســة مورغيـت إلغاء غـاستـون الباريسي وحـذفـه لرتشـارد الثالـوث المقدس ووصفت اسقـاطه له على أنه عمل مشين ، مضت نحـو حياكة ـ لكن بالنسبـة لتفكيرنا ليس نحو البرهنـة ـ فرضية ، شـارك ـ وفقاً لها — كل مـن رتشارد وأمبرويـز في الحملة الصليبيـة ، وكانـا في الحقيقة صديقين وأبنـاء لمهنة الكتابـة ، وفي الوقـت الذي أسهمت فيـه الآنسة نـورغيت اسهـاماً عظيماً في حـل هـذه المسألـة ، إن كتلة البراهين التـي جمعتهـا كما يبدو غيركـافية لتسـويـغ استنتاج ، لعـل الأفضل أن نقـوم بعرضه بكلماتها:

«ذهب شـاعر نورمانـدي اسمه أمبرويز ، ورجل ديـن انكليزي يفترض أنه كان ريتشارد «الداوي » الذي كـان شماساً في دير الثالوث المقدس في لندن ، مع بعضهما في الحملة الصليبية بمثـابة رفيقين وصديقين، وفي أثناء الحملة دوّن رتشارد بعض الملاحظـات إما بالفرنسيه أو بالـلاتينية ، حول ما عاناه احـدهما أو كلاهما معاً بشكل خاص والحشد كلـه بشكل عام ، كما دوّن أيضـاً ما تـوفـر له مـن معلـومات ومـا استطـاع أن يجمعه حـول حصار عكا ، من البداية حتى وصـولهما الى هناك وقد تولى وضع جزء من

هذه الملاحظات على شكل عمل أدبي كامل الى حد ما ، وفعل ذلك قبل نهاية الحملة الصليبية ، ثم قام بعد سنوات بتصنيف الجميع واخراجهم على شكل كتاب ، هو كتابه الذي وصل إلينا، لكن في الوقت نفسه ، وقبل أن يقوم بهذا العمل، ربما كان قد أعار مسودته الاولى لصديقه النورماندي ، وأن ذلك كان وهما ما يزالان في الأرض المقدسة ، وسبب الاعارة لتتخذ قاعدة لمدونة أخرى حول الحملة الصليبية نفسها، التي عزم الكاتب الأخير على تصنيفها على شكل أناشيد الأعمال التاريخية ، وبالنسبة لما يتعلق بصلب الرواية التاريخية ، كان الذي فعله أمبرويز هو ترجمة ملاحظات رفيقه ، ولعل ذلك كان من اللاتينية الى الفرنسية ، أو ربما فقط نقل من النثر الى الشعر ، وتولى الحاق اضافات وحذف وغير حسبما اقترحت عليه أحكامه الخاصة ، وحسبما زودته به ذاكرته حول ما وقع ، وبالنسبة لمدخل التاريخ أردع أيضاً ما التقطه من الذين كانوا موجودين على مشهد الأحداث قبله ، ومن جانب آخر لا بد أن كتاب ريتشارد تلقى أيضا اضافات وتعديلات من مصنفه عندما شرع في اعادة النظر به من أجل نشره ، لكن من الواضح أنه لم يراجع مراجعة نهائية من قبله ، وهكذا ظل يحتوي على بعض النواقص والاضطرابات ، مثل الضياع بشأن أنغولاند ، والاضطراب بشأن غارنيير اوف نابلوس ، وحول فدية وليم دي برو، وهي أمور لابد أنها كانت موجودة في ملاحظاته الأساسية ، لكنها نسيت في المعسكر وسط ضجيج الحرب ، الذي لم يترك له فرصة ليفكر بها بشكل هادىء ، ولهذا بقيت دونما تصحيح وكررت من قبل ناسخ أول فناسخ آخر ، ومن نسخة أولى الى نسخة أخرى» .

وكلما تعمق الانسان في فحص هذين الكتابين ودقق في ذلك ، كلما اتضح له وتصور شيئين : أولهما إن شعر أمبرويز لا يمكن أن يكون ترجمة من «الرحلة » وثانيهما إن « الرحلة» لا يمكن أن تكون ترجمة عن أمبرويز ،

ومع هـذا من الواضـح والبديهي إن الكتـابين بلا شك ولا نكـران قريبين مـن بعضهما مـن بعـض الجوانـب ، وتـوصـل المحققـون لهذه الطبعـةالى محصلة تفيد بأن الكتابين صدرا عن مصـدر واحد هو الآن مفقود ، وكانوا مسرورين كثيراً عندمـا وجدوا أن السيد ج . غ . أ دواردز قد تـوصل من خلال دراسـة نافذة ومعمقة الى النظـرية نفسها ، وعرض كميـة كبيرة من البراهين تؤيـد ما ذهب إليـه أن المؤلف غير المعـروف للأصل المفقـود قد كتـب بالفـرنسيـة،وربما كتـب نثراً،ونحـن نعتقـد أن الافتراض الأول بين هذيـن الافتراضين معقول،لكن الثـاني قائم على بينـة حدسية. وبـالنسبة لموقـف السيـد ادواردز الكامـل نشير هنـا الى بحثـه الـذي سوف نغـامـر فنضمـن هنا فقـط ملخصـاً لبعض الأجـزاء الهامة منـه،فـإحدى النقـاط الهامة-على سبيل المثـال-تحتوي على اشارتين الى أنغولانـد،الملك المسلم الـذي ظهـر في نشيـد أعمال كتـب بـالفـرنسيـة القـديمـة تحت اسم أسبريمونتAspremont،وأشار«التاريخ»الى مدينة مسينا كما يلي:

إنها بلدة جيدة وذات موقع جميل

في صقلية،وتطل على

بيت النور(الفاروس)الذي منه يرى الانسان

ريغيو التي استولى عليها أنغولاند

وهنا اشارة الى معلـومات صحيحة حول محتـوى الأسبريمونت،أي أن أنغـولاند قـد استولى على ريغيـو بالقـوة،وتتحدث الفقـرة النظيرة لهذه في الرحلة عـن مسينا كما يلي:« Situ Amoena et plurimum commodo in confinio siciliae et Risae quae illi famoso Agolando dicitur olim fuisse 1ro servitio suo collata»

ويمكن أن يعنـي هذا فقـط أن الكاتب عـدّ روغيو أنها قـد منحت لأنغولاند بمثابـة اقطاع مقابل خدمات جرى تقديمهـا،وبناء عليه اعتقد

أن أنغولانـد كان بـاروناً مسيحيـاً،ووفقاً لما قـاله غـاستون البـاريسي هذا يعني أن مؤلف«الـرحلة» قد أساء فهم«تاريخ الحملـة المقدسة»وأخطأ في تـرجمتـه،وتبعـاً لما ذهبـت اليـه الآنسـة نـورغيـت كـان الكـاهـن الـذي كتب«الرحلة»غير متمكن من فهـم الأدب اللاديني،فسقط في تلك البقعة وأساء فهم بعـض قطع أسطورة وضعت أمـامه بوساطـة كلمات الفم،وقد شـاهد أمبرويـز الغلطة في مـلاحظـات صديقـه فتولى تصحيحهـا بهدوء وسرية داخل نصه.

وتظهر مصاعب هـذين الشرحين عندما يدرسا في ضـوء الاشارة الثانية الى أنغـولاند،فقـد كتب رتشـارد الثـالوث المقـدسْ في الكتاب الخامـس الفصـل(٢١)مايلي:«وصـل أنغولانـد الذي كـان الأعظم قـوة،مع قـوات اسـلاميـة لايمكن عـدّهـا بـالنسبـة لأي انسـان،وبدون عـون الـرب،الى ريغيو،وهي مدينة في كالبيرا».

ومن الـواضح تماماً،ومـن البديهي أيضـاً أن كاتب هـذه الكلمات قدم بشكل صحيـح أنغولانـد نفسه الـذي أشار اليـه من قبـل بطرائق قـابله للانطباق فقـط على مسيحي،غير أنه لم يحصل على المعلومةمـن «التاريخ» الـذي لاتحتـوي فقـرتـه على أدنـى ايماءه مهما كـان نـوعهـا الى الأصـل الاسلامي لأنغـولاند،وذلك على الرغم مـن الوصف الذي قدمـه غاستون الباريسي لهذه الفقرة من أنها أكثـر دقة من الفقرة التي تقدمتهـا،فقد جاء نص هذه الفقرة كمايلي:

وعندما قاد حشوده الى روما

عندما،أنغولاند،مع قوة كبيرة

جاء من البحر الى البر في ريغيو

في كالبيرا،تلك المملكة الغنية

وبكلمات أخرى يمكن القول إن الكاهن الذي أخطأ في الفقرة الأولى في ذكره لإحدى الحقائق قد تولى فيما بعد تصحيحيها حسبما ذكرها في الفقرة الثانية،وهو لم يحصل على تلك الحقيقة من أمبرويز،وقد ناقش هذا السيد ادواردز بقوة،ولكن محصلاته من الصعب البرهنة عليها،ولنستمع اليه وهو يقول:"ويلحق ذلك محصلة أخرى،فإذا أخذنا هاتين الفقرتين حول أنغولاند معا،لانبرهن على أكثر من السلبية،وبالنسبة لكاتب الرحلة هولم يلاحظ في المقام الأول أن أنغولاند كان مسلماً،ومع ذلك وصفه في فقرة تالية بشكل صحيح على أنه كان مسلماً،ويعلل هذا بأنه قد تنبه بفعل ما في الفقرة الثانية هذه،لكن لايمكن أن نقول أن وسيلة التنبيه كانت«التاريخ»وبالنتيجة لابد أن التنبيه كان بوساطة شيء آخر،وعلى هذا لابد أن غاستون الباريسي قد تبع مشاعر صحيحة عندما علق على وجود«تناقض»قائم فيمابين هاتين الفقرتين،لكن كيف يمكن شرح هذا التناقض؟ وكيف يمكن لكاتب أن يعلم في آن واحد وأن لايعلم الحقيقة نفسها؟والشرح الطبيعي الأفضل لهذه القضية هو المتوفرعادة بالنسبة لمثل هذه الظاهرة لدى الكتّاب الآخرين،ويساق الانسان على هذا الى محصلة أن مصنف«الرحلة»لم يكن المؤلف الأصيل،لكنه كان يعيد انتاج عمل كاتب أصيل،لئن كانت-كما حدث-ايماءاته غير واضحة في ذاتها،هو لم يفهمها دوما،ومن المفترض أنه بوساطة هذا الكاتب الأصيل تنبه صاحب«الرحلة»عندما وصف بشكل صحيح في الاشارة الثانية لأغولاند،على أنه كان قائداً مسلماً.

ويظهر اضطراب آخر وتشوش من قبل كاتب الرحلة في الإشارتين الى غارنيير دي نابولس،ففي إحدى النقاط عدّ بشكل واضح أن غارنيير دي نابولس ومقدم الاستبارية شخصين متميزين عن بعضهما تماماً،ثم مالبث بعد قليل أن أشار الى غارنيير دي نابولس على أنه مقدم الاسبتارية،وهكذا-كما لاحظ السيد ادواردز- بدا وهو يعرف ولايعرف

بالوقت نفسه الحقيقة نفسها،ومن البداهة بمكان أيضاً،كما أشار السيد ادواردز،أن مثل هذه التناقضات مع أمور أخرى،من الصعب أن تتواءم مع فرضية أن رتشارد من الثالوث المقدس،قام بكتابة كتابه على أساس الملاحظات الأولى التي صنعت أثناء مجريات الحملة.

وهناك مسألة أخرى أولتها الآنسة نورغيت كثيراً من العناية،لكن السيد ادواردز لامسها بشكل لطيف،ومرّ بها مرور الكرام،وهي وجود عددكبير من الفقرات في «تاريخ الحملة المقدسة»أشار فيها الشاعر الى مصادر مكتوبة إنما غير محدودة، استقى منها مواده،واستخدم عبارات مثل:«هكذا جاء في التاريخ»و«وهكذا ذكر في الكتب»و«وهذا ماأكدته الكتابات»ومايشبه هذا،وعدت الآنسة نورغيت تكرار هذه العبارات بمثابة دليل داعم لنظريتها القائلة بأن أمبرويز كان يترجم عن «الرحلة»وبشأن هذه النقطة ينبغي صنع ثلاث ملاحظات:الأولى ،حسبما لاحظت هي نفسها-إن مثل هذه الصيغة سلعة استخدمت دوماً في تجارة شعراء الغناء في العصور الوسطى ،الذين حاولوا تقديم نوع من أنواع التوثيق لحكاياتهم الخيالية والمثيرةجداً،مثل القول:«أنا رأيت هذا مكتوباً،ولابد أنه كان صحيحاً»،ثم إن تكرار هذه العبارات ليس عظيماً بشكل لافت للانتباه في شعر تجاوز الاثني عشر ألف بيت،وهو لايمكن أن يبرهن على أن أمبرويز كان يترجم من اللاتينية،والثانية:من الواضح أن «التاريخ»قدكتب من أجل الالقاء بصوت مرتفع،وليس من أجل القراءة،ولقد خاطب الشاعر بنفسه في بعض الأحيان مستمعيه ولم يخاطب قراءه،واعتاد المغنون في العصور الوسطى بشكل عام على تلاوة مصادر مكتوبة،وجدير بالملاحظة أن رتشارد الثالوث المقدس قد أشار مرتين في التوطئة«للرحلة»ليس الى قراءة بل الى مستمعين،وهذه حقيقة،يمكن لتخمينات السيد ادواردز أن تشرحها بوساطة نظرية أن الكلمات موضوع السؤال تمثل صدى لشيءظهر في توطئة الأصل الفرنسي

للكتاب الـذي كان رتشـارد يتولى تـرجمته. والملاحظـة الثالثـة، وربما الأكثر أهمية، هي وجـود عبارات «هكذا ذكر في الكتاب» وهـذا متوائم تمام المواءمة مع الفرضية التـي نعتقد أنها فرضية صحيحة، وهي: إن الكتـابين قد صدرا عن أصل عام.

وبـرأي المترجمين الحاليين هنـاك حقـائق أخرى تقـدم امكـانـات لهذه الفـرضيـــة، أولاً: في الـوقـــت الـذي يسير فيــه المجـرى العـــام للـروايــة بتناظر، وبطـريقة متطابقة في الكتـابين، تولى أحد الكاتبين حـذف عدد من الحقـائق المحـدودة تـولى الآخـر تضمينهـا، وقد قمنـا بـذكـر بعـض هـذه الحقائق، ويبدو أنـه من غير المرغوب به إثقـال هذا المدخل بقائمـة كاملة بهذه الحقائق، «والرحلة» غنية في اعطاء تـواريخ محدودة، أخفق «التاريخ» في ذكـرها، ولاشـك أن الشـاعر قـد وجـد - كما وجـد المترجم الحالي - أن ذكـر التـواريخ مـربك في الشعـر. وفي جميع الأحـوال، نقترح أن كل كـاتب قـد حـذف تفاصيـل وجدت في الأصـل العـام، قد رآهـا غير ضرورية، ثـم إن ناظـم «التاريخ» بشكـل خاص قد تولى حـذف حقائق كان مـن الصعب عرضها شعرياً.

وفي المقـــام الثـــاني، بصرف النظـــر عـــن الأبيـــات الاضـــافيـــة ٢٣٨٧-٤٥٦٨، هناك نقـاط كثيرة جداً فيها اختلـف الكاتبـان في ذكرهما للحقائق، وبصرف النظـر عن الحقـائق غير المهمة أو مـن السهل تعليلهـا بسبـب وجـود انهيـار جسر الـرون عنـد ليـون عبر الجيـش بقـوارب صغيرة (bargetes) في حين أوضح كتـاب «الرحلـة» أنه جـرى بناء جسر من القوارب، ولدى عـرض شروط المعاهدة التي أبرمت مـع الملك تانكرد صاحب صقلية، قدم كل كاتـب بعض شروط التعاهد التي تجاوزها الآخر صامتاً، وتنطبق صحة الملاحظة نفسهـا على الاتفاقية التي عقدت فيما بين غـي دي لوزغنـان، وكونـراد دي مونتفـرات، وليس بعيـداً عن الصحـة أن نستنتج أنه في هـاتين المسألتين اختار كل كاتب شروط السـلام التي ظن

أنها هي الأكثر أهمية،كما أن الحذف قد وقع لأسباب بديهية أخرى،ففي التاريخ نجد اسم غلبرت تيلبوز،وكان فارساً جاء اسمه باللاتينية جيراردوس ونرى أن الخلاف قد نشأ عن الخلاف في تفسير المختصرات في النص الأصيل،والسبب نفسه هو ربما ضلل الكاتبين في المسألة التي تعلقت بالاسم الشخصي لدوق بيرغندي الذي أورداه على شكل هنريكوس وهنري،في حين كان اسمه بالواقع هيوج،ومن الواضح أن مؤلف«الرحلة»قد صحف قراءة ملاحظة أو كلمة وردت بالفرنسية هي التي أعطت«وسط الخريف»لتاريخ ذكره«التاريخ»بشكل صحيح على أنه كان «وسط-آب»(Miaust) وعلق السيد أدواردز بما فيه الكفاية على هذه الفقرة الأخيرة،وعلى بيت شعر غريب،قال فيه الكاتب اللاتيني بأن الحجاج استراحوا لدى زيارتهم القدس الى «جانب جبل»في حين جاء بالنص الفرنسي«جانب جدار»،ولدى النظرة الأولى قد تكون هذه المسائل غير هامة،لكن السيد ادواردز بين أن عدم أهميتهم يعطيهم أهمية،فبعيد عن التصور الاعتقاد أنهم يمثلون تصحيحات من كاتب لآخر،بل يمكن بسهولة أن يتصورهم ممثلين لتفسير مختلف لنص أساسي محدد،ولفتت الآنسة دور وثي بوفي الانتباه الى خلاف نصي آخر يمضي بالاتجاه نفسه،مع أنها لم تستنتج منه مايبدو لنا استنتاجاً بديهياً،فقد وصفت«الرحلة»رمح واحد من الأمراء المسلمين الأقوياء على أنه:«أثقل من اثنين من رماحنا»،في حين جاء في نص«التاريخ»:«لايمكن أن يعثر في كل فرنسا على رمحين أثقل منه»،ومن الممكن أن نلاحظ في هاتين الفقرتين أنه واضح تمام الوضوح في الفرنسية واللاتينية،أنه من غير الممكن تصور سوء تفسيرهما من قبل أي إنسان كان يعرف مافيه الكفاية ليترجم أياً من الفقرتين،لكن إذا كان كل واحد منهما قد اعتمد على أصل كان أقل وضوحاً،فان الخلاف يبدو على الفور مفهوماً.

وأوضحنا لدى بحثنا للاشارات الى أنغولاند وغارنيير دي نابولس أن

كاتب «الرحلة»اقتيد نحو الخطأ في ذكر الحقيقة،وهناك أخطاء أخرى مماثلة ظاهرة في روايته،فقد ذكر على سبيل المثال خبر مقابلة جرت فيما بين الملك رتشارد وتانكرد،عقدت في كاتانيا،التي قال عنها بأنها قامت في منتصف الطريق فيمابين مسينا وبلرم،ومامن واحد يعرف جغرافية صقلية يمكن أن يقع في مثل هذا الوهم،ذلك أن المدن الثلاثة قائمة على الساحل،وكاتانيا الى حد كبير واقعة الى الجنوب من مسينا،بينما تقع بلرم الى حد ما الى الغرب من مسينا،هذا ولم يذكر«التاريخ»مثل هذا الاجتماع.

ولعله أكثر إثارة الفقرات التي ذكر فيها رتشارد الثالوث المقدس،وأشار في ثلاث نقاط منفصلة عن بعضها بعضاً الى تراجع صلاح الدين الى الداروم،التي حدد موقعها في الجبال،كماوأشار الى نشاطه هناك،وفي إلقاء نظرة عابرة على أي خريطة يتبين أن الداروم ليست قائمة في منطقة هضبية بل موجودة على ساحل البحر،على بعد أميال كثيرة عن مسرح الأعمال المشار اليه في كل مكان من النص،وحدد أمبرويز بشكل صحيح وقائع كل واحدة من هذه الأحوال في النطرون،وكتب المحقق العالم«للرحلة»،طبعاً قبل اكتشاف التاريخ ماعبر فيه عن عدم رضاه عما جاء في النص.

وبالنسبة لما تبقى من خلافات فيما بين الروايتين نضيف هنا ثلاث نقاط يبدو أنهن لم يجذبن انتباه السيد ادواردز:فقد شارك ايرل أوف ليستر في أحد الاشتباكات حيث تعرض للضغط الشديد من قبل المسلمين الذين أحاطوا به من كل جانب،ولدى ذكر ذلك استخدم أمبرويز العبارة التالية: «Quil'avoiient entr'els noie»لتي بات فيها المعنى المجازي للفعل« noyer بديهياً بمرافقة entr'el »،ويبدو أن الكاتب اللاتيني أخذ الرسم الكتابي على أنه حرفي مع أن المتصارعين كانوا قد اجتازوا الجدول الوحيد الذي جرى ذكره في السياق،لأنه نقل الفكرة بكلمات لاتقبل تفسيراً آخر،بقوله:

« In Ipso Flamin Profemodum sub mergerent»
وبعد وقت قصير انقضى إثر الحادث الذي تقدم ذكره تناقش قادة الفرنجة حول حكمة مهاجمة القدس،ونصح الداوية والاسبتارية والبوليان(البلديون)،الذين امتلكوا معلومات صحيحة حول الأوضاع المحلية، ضد مثل هذا الهجوم ،لأسباب عرضها كلا الكاتبان في بعض التفصيل،وفي نهاية المناقشة قدم النص اللاتيني تأكيداً مدهشاً بأن مؤتمرهم وماتوصلوا إليه لم يصغ إليه بقوله:

sed adhuc consilium eorum non om nino eau-«
ditura»مع أن كل شيء في بقية روايته يظهر بوضوح أن نصيحة المؤتمرين لم يصغ إليها فقط بل أخذ بها واتبعت أيضاً،ولايحتوي التاريخ على مثل هذا الذكر،الذي نعتقد أنه تأسس-مثل أمور أخرى-على سوء تفسير للنص الأصلي.

وفيما يتعلق بالروايات التي أتت على ذكر مرض الملك رتشارد التي قدمها الكاتبان نلاحظ بشكل غريب الحقيقة التالية،وهي أنه في حين حاول شماس الثالوث المقدس تشخيص سبب المرض،بشكل عرضي أدنى مما يقدم للمريض،اكتفى المغني الفرنسي وأقنع نفسه بذكر الأعراض،التي لم يشر إليها الكتاب اللاتيني لامن قريب ولامن بعيد،ونقرأ ماورد في الكتابين كما يلي:

« Graviss imam Incunit aegritadinem,quae vuae vuigo Arnoidia voalur, exignotae regionis con stit-utione, cum eius naturali complex ione minus « òconcor dante

mais le reis Richar Ziert malades
Eaveit boche e levres Fades

D'une emferte que deu maudie

Qu'en apele leonardie

ويبدو من المعقول بالنسبة لنا أن الرواية الأصلية أتت على ذكر كل من الأعراض والأسباب المفترضة للمرض،في حين دون كاتبانا في نصينا المتبقيان لنا ماعتقده كل واحد منهما هو الأكثر صلة بالموضوع.

ولايمكننا ختم هذه الدراسة من دون دعوة انتباه القارىء للقضايا الكثيرة التكرار المتعلقة بالأعداد،فهناك حوالي عشرين حالة من هذا القبيل،أعطى الكتابان في إحدى عشرة منها أعداداً مختلفة،وفيها تبقى أعطى أحد النصوص عدداً في حين لم يعط الآخر شيئاً،أو اعطى أحياناً عدداً أكبر،ثم حدث أن انعكس الحال فأعطى الآخر رقماً أعلى،وفي بعض الأحيان كانت الفوارق ضئيلة،مثل في مسألة اسطول الملك رتشارد،حيث ذكر أمبرويز أن تعداده كان مائة وسبع سفن،في حين قال النص اللاتيني:مائة وثمان سفن،وجاءت الفوارق في بعض الحالات الاخرى هائلة،ففي الوقت الذي أكد فيه أمبرويز أن ثلاثة آلاف صليبي ماتوا من المرض ومن الجوع أثناء حصار عكا وبعد ذلك،جاء الرقم عند رتشارد الثالوث المقدس ثلاثمائة ألف،ومن الممكن تعليل بعض الخلافات على أساس أن الكاتبين،أو واحد منهما أخطأ في قراءة،أو لم يصب في تفسير،الأرقام الرومانية الموجودة في الأصل المفترض ،وفي حالات أخرى من الصعب رؤية كيف يمكن لهذا أن يحدث أو أن يكون ممكنا،ووجد المترجمون الحاليون أنفسهم مرغمين على الاعتماد على تعليل أن أحد الكاتبين-أو هما معا-لجأ الى المبالغة أو الاختصار والتقليل في الأعداد في مختلف النقاط لأسباب تعلقت به شخصياً.

وتؤيد البينة التي استخرجها السيد ادواردز ونحن أنفسنا أن الكتابين موضوع البحث صدرا عن صيغة عامة اتخذت أساساً،ونعتقد أننا على

الرغم من أن دليلاً واحداً من المواد لايكفي بنفسه لتأكيد هذه الفرضية،إن العدد الكبير من المعطيات تشير بالاتجاه نفسه وتشجع على اتخاذ فرضية قوية،ولنعرض القضية من وجهة نظر أخرى تختلف بعض الشيء:نحن رأينا من المتعذر الدفاع عن نظرية أن«تاريخ الحملة المقدسة»كان مصدر«الرحلة»-كما اعتقد غاستون الباريسي-أو أنه صدر عن«الرحلة» حسبما اعتقدت الآنسة نورغيت،ومامن واحد يمكنه القول ولو للحظة واحدة إن الكتابين مستقلين عن بعضهما،وحتى نحسم الأمور نصل الى محصلة تفيد أن نظريتنا تقدم الشرح الوحيد الممكن للحقائق.

ولابد أن تبقى طبيعة الاصل المفقود مسألة خاضعة للنقاش،وعند السيد ادواردز سببه للاعتقاد أنه قد كتب بالفرنسية،وربما نثراً،وأسبابه التي اعتمدها جيدة بما فيه الكفاية لاقتراح مثل هذه الفرضية،لكنها غير كافية لبرهنتها،ونحن على العموم نميل للاتفاق معه،ونود أن نضيف لما قاله حقيقة مفيدة وموحية في أن عدداً كبيراًمن أسماء الاعلام التي ظهرت في النص اللاتيني«للرحلة»وشطراً كبيراً منها كتب بالصيغة الفرنسيةوليس بالصيغة اللاتينية،وهي الصيغة المفترض ظهورهم فيها لو أن الأصل بذلك اللسان،واذا صح بالفعل وكان النص نصاً فرنسياً قديماً تاريخياً،فهو يشكل نقطة علامة في الأدب،على أساس أنه أول قطعة كتابية نثرية كتبت باللغة الفرنسية،تقدمت بتاريخها بعض الشيء على رواية ذيل تاريخ وليم الصوري وبزمن معتبر على رواية فيلهاردين التاريخية.

السمات الأدبية للشعر

إذا كنا محقين في اعتقادنا بوجود أصل مفقود، كتب — كما هو محتمل

— بالفرنسية، وعنه صدر نص الشعر الحالي، لابد من الوصول إلى محصلة واحدة: لقد سار مؤلف «تاريخ الحملة المقدسة» على خطاه عن قرب وقلد نمطه، ولايسمح التشابه القريب بين «التاريخ» و«الرحلة» باستنتاج آخر، وهكذا إن أي تقدير للمحاسن الأدبية للشاعر الذي نمتلك بالفعل كتابه لابد من إعطائها إلى أبعد الحدود إلى الرجل الذي استقى منه مواده، وبما أننا غير قادرين على تثمين الكتاب الذي لانمتلكه الآن، علينا أن نرضي أنفسنا بتقدير الشعر الذي وصل إلينا، وليس بمقدورنا أن نقرر فيما إذا كان كاتب المخطوطة الموجودة في الفاتيكان هو أو سلفه الذي حمل اسم أمبرويز، لكن من أجل تسهيل العمل استخدمنا ذلك الاسم في تعليقاتنا بمثابة إشارة إلى الرجل الذي كتب الحكاية أولاً، وفي الوقت الذي نؤسس فيه ملاحظاتنا على اسلوب ومحتوى النص الحالي، نحتفظ بالقول إن هذه الملاحظات قد تكون أكثر صحة في وصفها للشخص القائم في الظل الذي زود جهده النص بمادته وقضيته.

وعرض غاستون الباريسي مجموعة من الأسباب الرائعة للاعتقاد أن الشاعر لم يكن نبيلاً ولاكاهناً أو عسكريا، لكنه كان مع جميع الاحتمالات شاعراً محترفاً أو مغنياً جوالاً التحق بجيش الملك رتشارد، وأكدت الأبحاث المستفيضة الفرضية القائلة بأنه جاء من إفرو، وهي مقاطعة في نورماندي، التي أضفى على فرسانها ورجالها المسلحين مدحاً خاصاً لشجاعتهم وثباتهم، ولأن أمبرويز كان واحداً من «الرعايا الأدنى مكانة» بين ذلك الحشد، استطاع أن يعطينا رواية بمثل هذه القيمة، احتوت ليس فقط على ذكر ما حدث، بل على الخلفية العقلية والروحية للأحداث، فقد صور نفسية الصليبي مع جميع أمراضها الغريبة في الفوضى والتسيب، ونادراً ماوصل إلى بلاغة أعلى مما فعله لدى وصفه لسرور الحشود لدى ربحها لمعركة ما، أو لدى تقدمها نحو القدس

واقترابها منها، أو من تصويره لحالة اليأس التي ألمت بالحجاج عندما وجدوا أنفسهم مرغمين على الانعطاف عائدين من المدينة المقدسة، ولقد تقبل الأسباب التي أعطاها رتشارد لرفضه الزحف على القدس وانتقد الذين تعارض موقفهم مع موقف سيده، ومع هذا بكى من أجل القرار الذي أغلق الطريق على الحجاج للوصول إلى الضريح المقدس.

وهو لم يكن عضواً في مجالس اجتماعات قادة الصليبيين، مع أنه روى في بعض الأحيان تفاصيل مناقشاتهم بتأكيد وثقة الذي كان مشاركاً بهم، وهذا ليس بذي أثر عظيم على أي واحد يعرف كيف تأخذ الاشاعات المزيفة والأقاويل المبهمة مكان التوثيق في أي جيش، وكيف تنتشر بين صفوفه عاليها ودانيها، ولاشك أن تحريض الكاهن للملك رتشارد وحثه على أن يتذكر ماضيه الشهير وأمجاده قد نشأت وراجت من خلال حكايات تداولها الناس في المعسكر حول تهور انسان تجرأ على هذه الصورة على مخاطبة قلب الأسد، فضلاً عن هذا يحدثنا أمبرويز عما جرى داخل اطار مجالس صلاح الدين الحربية بالتأكيد نفسه والثقة ذاتها التي ميزت أوصافه لما قاله قادة الفرنجة وفكروا به، ومما لاشك فيه أن الخطابات المعزوة إلى أمراء المسلمين لاتعدو مجرد ماتخيله الفرنجة ورغب فيه تفكيرهم، فصوروا أمراء المسلمين وهم يقولون الأشياء التي —برأي الجيش الصليبي— توجب عليهم التفكير بها وقولها.

ولم يشر أمبرويز إلى نفسه قط وهو يشارك في القتال، وأكد مع هذا أنه زحف مع فوج الحجاج الثاني الذي زار الأماكن المقدسة بعد ابرام الهدنة مع صلاح الدين، وحدثنا عن انفعالاته وهو يسير شخصياً على الطرقات التي سار عليها المخلص، وفي لحظات ذروة الانفعال هذه أو انعدام الانفعال في حياة الصليبيين تحدث بإخلاص واستقامة الانسان الذي شهد الحدث، ثم إن هذا الاخلاص نفسه، وكذلك لهجة شاهد العيان، نراها منتشرة وظاهرة في معظم أجزاء الكتاب، وهي تعطي القارىء قناعة

قوية أنه يصغي إلى إنسان يعرف مايتحدث حوله.

وفيما يتعلق بلهجة الاخلاص، نجد أن عمل الشاعر — مع هذا — ليس دوماً متساوياً بسماته، فلصفحات طوال نراه مع كثير من الهدوء، يسير بخطى وئيدة، ويعرض صف حقائقه بمشابة مسألة حقيقية، بدون أي حماس، أو انفعال أو حرارة شاعرية، بل يتكلم ببساطة وبشكل مباشر، وبثقة، لكن بدون التصلب الملكي الذي جعل من نشيد رولاند شيئاً رائعاً جداً، ويعطينا بنظم مزدوج (دوبيت)رواية مباشرة للأحداث، بلا زيادة أو نقصان، وتدفقه الخيالي خفيف، ونادراً ماتجاوز اطار شعراء التروفير Trouvereللعصور الوسطى، ولقد ردد العبارات المعتادة مثل القول: غطت الأسهم والرماح أثناء القتال الجو وملأت الهواء مثل ثلج ثقيل متساقط في الشتاء، وطارد المنتصرون المهزومين مثلما يطارد الذئب قطيعاً من الغنم لاحول له ولاطول، ولم يتجاوز شاعرنا حدود هذه الجمل وطرائق التعبير.

وتبدو أوصافه لمشاهد القتال محملة بعض الشيء بالنسبة للقارىء المعاصر، مع أن الشاعر بث من خلالهم وباح، كما هو واضح، بشيء من المتعة السادية، التي كان الكاتب في العصور الوسطى يستقيها من تحرك صور أحداث الفيضان وأرض المعركة، وعلى المرء أن يلاحظ بكل بساطة أنه لدى قتال انسان لآخر على أرض المعركة يتشابهان، وتكون هناك الأعلام التي تخفق في الهواء، والسلاح المشرق، وغيوم من النبال والنشاب، وحملات بلا توقف وضربات قوية وشديدة، وأكوام جثث القتلى، ومع جميع هذه الأمور استطاع الشاعر أن يعطي صورة شفافة ويفترض أنها صحيحة حول التكتيكات وتعبئة القوات وتقلبات تيارات القتال وحظوظ النجاح، ولاتخلو هذه الصفحات من الحيوية، ثم إنها ليست بدون قيمة بالنسبة للمؤرخ العسكري الذي يمكنه أن يقرر الحقائق بقليل من الجهد، والذي افتقد إليه هو شعور التصور الصحيح،

فعلى سبيل المثال أخذ وقوع اشتباك صغير شارك به من على الطرفين عدة عشرات من الرجال فقط عند أمبرويز في روايته كل العظمة والتفخيم التي أخذتها معركة أرسوف وإعادة الاستيلاء على يافا، وسلبت أعمال التكرار التي ظهرت في الرواية هذه المناوشات من أهم سماتها المثيرة.

ولم يكن أمبرويز رحالة صاحب ملاحظات خاصة، وأوصافه لطبوغرافية ومناخ وعمران البلاد التي يفترض أنها كانت جديدة وغريبة بالنسبة له، أوصاف ضئيلة نسبياً، وقد أتى على ذكر بعض الأماكن التي زارها في القدس، وروى لنا بعض الحكايات الأسطورية حول أسوار وأبراج عسقلان، وقدم هنا وهناك بعض التفاصيل العرضية التي استقاها من الأساطير الشعبية أو من أناشيد الأعمال، لكن في هذا المجال لايمكن مقارنته مع روبرت دي كلاري الذي جمع معلومات ثرية حول الأشياء الرائعة التي رآها في القسطنطينية، وصحيح أنه ذكر حر الصيف والغبار والحشرات السامة والأمطار الغزيرة، لكن أمبرويز أتى على ذكر هذا كله عرضياً فقط، ومجرد خلفية كافحت ضدها الدراما الشخصية للصليبيين، ويشعر الانسان أن هذه الأمور شغلت في ذاتها قليلاً من اهتمام المؤرخ، على أساس أنها كانت قزمة أمام ما عنته العظمة الروحية للمغامرة.

وعلى كل حال كان بإمكان الشاعر أن يكون دراماتيكياً وحيوياً، وأن يحيك ذلك في حكايته في أبيات سريعة وبارعة، ويحيطها بحزم أرجوانية ملطخة بنار الايمان والسخط، فهكذا كانت على سبيل المثال روايته عن سقوط جسر الرون، وعن الاستسلام المذل لاسحق صاحب قبرص، وبطولة جاك دي أفنس، واغتيال كونراد أوف مونتفرات، وأبيات الهجاء التي قذف بها نحو كونراد لترفعه وابتعاده عما اعتقده أمبرويز أنه طريق الصواب، وفي وصفه لزحف الحجاج خلال فرنسا وهم على طريقهم نحو ساحل البحر واستقبالهم من قبل الشعب حيوية مدهشة وعواطف

شجية.

ومع أنه لم يكن رجل دين، قلة من رجال الدين تفوقوا عليه في صدق تكريس نفسه للقضية الصليبية، وهو تكريس فيه كل الأحكام المسبقة لروح تقية ساذجة، ولقد شارك بشكل طبيعي بما فيه الكفاية بما راج في الأوساط العامة في العصور الوسطى من أن الكافر يعاني أساساً من خطيئة وشرور عدم التعميد، وهذه فكرة رددها نشيد رولاند على شكل صيغة مقررة بأن «المسيحية هي الصواب والكفر هو الخطأ»، وبناء عليه كل مافعله المسلمون هو شر، باستثناء ماحدث في بعض الظروف ـ وهي لسوء الحظ كثيرة ـ التي اختارهم الله فيها ليكونوا أداة عقاب للمسيحيين الفاسدين الذين ضلوا وابتعدوا عن سبل الصواب، لكن على الرغم من هذا كله لم يستطع الشاعر أن يقمع اعجابه ـ رغماً عنه ـ ببراعتهم في الحرب وشجاعتهم، وبفروسية صلاح الدين وأخلاقه، ولقد أسف لكون هذا الرجل لم يكن مسيحياً، «فلو أنه لم يعبد أرباباً مزيفين (كذا) لكان انساناً لامثيل له».

القيمة التاريخية لأمبرويز

أما وقد قدمنا أسبابنا للحكم بأن «الرحلة» و« التاريخ » قد قاما على أصل عام مفقود، سنأخذ حريتنا في هذا المقام لاعتبار الكتابين بمثابة كتاب واحد، ولأن نحاول تقدير القيمة التاريخية للأصل،الذي دعوناه اعتبارياً ومن أجل تسهيل العمل «أمبرويز»، وأظهرنا من خلال ملاحظاتنا التنوع والخلافات بين «التاريخ» و«الرحلة»، ومن الممكن تلخيص ذلك بالقول إنه في حين أن «الرحلة» بشكل عام أكثر دقة بالنسبة للعرض التاريخي، وأعظم صحة بالنسبة لأسماء الأعلام، هناك

عدة حوادث أعطيت بتفاصيل أفضل في «التاريخ»، إنما كوثيقتين تاريخيتين لهما المكانة نفسها، وسنحاول هنا البحث في قيمة روايتيهما مقارنة بمصادر أخرى مستقلة.

وكما بينا من قبل، لايمكن عد أمبرويز أفضل مصدر منفرد حول جميع أحداث الحملة الصليبية الثالثة، لكنه بدون شك ومؤكد أنه أفضل مصدر لصليبية رتشارد، وقد جرت معالجة الأحداث التي جرت في سورية وقادت إلى الحملة الصليبية،بشكل واسع - لكن ليس بدقة وصحة كاملة - من قبل التاريخ، في حين نجد «الرحلة» التي اعتمدت على «كتاب ذيل تاريخ وليم الصوري»، أكثر تفصيلاً، لكن ليس أكثر موثوقية، ولعل أفضل رواية كاملة حول الحملة الصليبية الثالثة وردت في مصدر واحد هي الرواية التي نشرت قديماً تحت عنوان «تاريخ هرقل» ثم أعيد نشرها فيما بعد باسم «ذيل تاريخ وليم الصوري»، وتقدم لنا معرفة أن هذا الذيل قد كتب بالفرنسية القديمة، وكان أمبرويز قد حذف كلياً أخبار حملة فردريك بربروسا، وقد أوليت هذه الحملة بعض العناية الأكبر من قبل الرحلة، حيث جرى استمداد عدة فصول من كتاب ذيل تاريخ وليم الصوري، وكان هذا أكثر مما تلقاه «التاريخ»، ومع ذلك «التاريخ والرحلة» معاً مختصرين تماماً، فضلاً عن هذا جاءت رواية أمبرويز عن فيليب أغسطس عرضية ومتعلقة بصليبية رتشارد قلب الأسد، وواضح أن معلوماته عن قبرص - بصرف النظر عن تفاصيل الاستيلاء عليها - خفيفة جداً، ومع هذا لم يقدم أمبرويز أفضل رواية عن الحملات في فلسطين، ولاعن القتال في مسينا ولافي قبرص، وكذلك الأحداث التي وقعت في المعسكر أمام عكا.

ليس في نيتنا هنا القيام بتحليل تاريخ أمبرويز بالتفصيل، لكن مقارنة مختصرة جداً لهذا الكتاب مع مصادر رئيسية أخرى عن الحملة الصليبية الثالثة تضيف إلى تقديرنا للأهمية التاريخية لمؤرخنا، وعلى رأس الروايات

الغربية ماجرى تدوينـه في كتاب «هرقل» وفي «جستاـهوفدن» (الذي هو بـالفعل نفسـه) ولدى ديسيتو، وديفايـز Devizes، وريغورد Rigord ، وفيها يتعلـق بما جرى أثنـاء حصار عكـا مـع الأحداث التـي وقعت قبـل وصـول رتشـارد، مـن الممكـن أن نجد معلـومـات اضـافيـة في روايـات هيماروس Haymarus، ولبللوس Libellus أما فيما يختـص بالمصـــادر المشرقية: يتصدرهـا بالأهمية (العماد الأصفهاني) وبهاء الديـن،وهناك أيضاً المواد الإضافيـة لدى ابن الأثير وأبـو شامة. وابـن خلكان وأبو الفـرج ابن العبري، وأمـا بشأن الخلفيـة التاريخيـة السوريـة فلبللوس وهـرقل لـديهما المعلومات الأكثر أهمية، ويظهر أمبرويز في أسوأ أحواله في هذا المقام، غير أن أمبرويز هـذا أقر صراحـة أن ماأخبرنـا به عـن هذه الأحـداث، تعرف عليه من كتابات الآخرين، وهـو لايمتلك معلومات شخصية حول ذلك، أما تلوينه لروايته بأحكامـة الشخصية المسبقة، فأمر سوف يجري بحثه فيما يلي، لكن لابـد من الاعلان هنـا أن أمبرويز ليـس المصدر الذي يتـوجب على المرء الالتفات إليه للحصول على المعلومات حول التـاريخ الداخلي لمملكة القدس.

كما أن أمبرويز ليس الأفضـل للاعتماد عليه من أجل التأريـخ لرتشارد في فرنسـا وانكلترا قبل الحملة الصليبية، ذلـك أن مواد ديسيتو، وذيفـايز، وجستـاـهوفدن فيها الكثير من المزيد من التفاصيل عما حدث في الغرب، وهي مصـادر أفضل حـول كل من الاستعـدادات للحملة الصليبيـة ومن أجل الحوادث التي وقعت في فرنسـا وانكلترا في أثناء غياب رتشارد، لكن بالنسبـة لزحف الصليبيين والحرب في صقلية يحتل أمبرويـز المقام الأول في الأهمية، فهـو هنا قـد كتب حول مـارآه شخصياً، ومـامن مصـدر آخر روايته مثل روايته مشرقة وفيها حيوية، وروايـة هوفدن مليئة أكثر وفيها دقة أعظم بالنسبة للتـأريخ، لكن هذه الرواية تفتقر إلى نقـاوة أمبرويز وحيوته، وكتب هـوفدن اعتماداً على مصـادر مكنته من نقـل نصوص المعـاهدات،

والأوامر، والقرارات التي اتخذت في المؤتمرات، وهذه معلومات افتقر إليها أمبرويز، وصحيح أن هوفدن أكثر دقة، لكن أمبرويز أكثر حيوية بشوط واسع، فالغابة قد لاتشاهد بوضوح تام، لكن الأشجار أعظم تميزاً، وأوراقها أعظم اخضراراً.

ويقدم لنا أمبرويز الرواية الأفضل تفصيلاً فيما يتعلق باحتلال قبرص، وهنا تحتوي الرواية المدونة على صورة أعمال يحتمل أن أمبرويز قد شارك فيها شخصياً، أو على الأقل رآها تحدث من حوله، وهو صحيح لم يعرف التنظيمات التي وضعها رتشارد من أجل ادارة الجزيرة، الأمر الذي زودنا به هوفدن، لكنه قدم لنا رواية أكثر إثارة حول القتال وحول أسر إسحق.

ومجدداً اعتمد أمبرويز فيما يتعلق بأحداث حصار عكا، على معلومات الآخرين، ولدينا هنا بوضوح حكايات حوادث تناقلها الناس من خيمة إلى خيمة، والترتيب التاريخي في هذا الجزء لدى أمبرويز مضطرب كثيراً، وهناك ترتيب ضئيل لتسلسل المعارك، لكن آفاق الأفراد، ومعاناة الحشد، وأفراحه، وترح الحجاج ويأسهم، رويت بحيوية ودرامية، وتحسن السرد التاريخي لديه بعد وصول رتشارد، وتعادل رواية أمبرويز حول نهاية الحصار الروايات الأخرى.

وصحيح أنه حذف كل المناقشات الهامة ذات التفاصيل الكثيرة، التي نتعرف إليها من المصادر الأخرى، ولعله فعل ذلك لأنه اهتم فقط بتلاوة أعمال رتشارد والأحداث غير المرتبطة بهذه الأعمال، والتي تبعده عن هذه الغاية المفردة هي حتى أقل وروداً في «التاريخ» منها في «الرحلة»، أما رحلة فيليب لدى عودته إلى الوطن فقد تلقت كثيراً من العناية من قبل هوفدن في حين أنها حذفت كلياً من قبل أمبرويز، ذلك أنه اهتم برواية أخبار أفاعيل رتشارد قلب الأسد، ولم يهتم بالأفاعيل الأدنى للأناس الذين رآهم أقل مرتبة، وقدم كل من هرقل وليبيللوس وهيماروس روايات أكثر صلة بالحصار بشكل عام، لكن أمبرويز تفوق عليهم بما تعلق

بالشأن الشخصي الخاص.

وأمبرويـز في قصته عـن حملة رتشـارد في فلسطين فـريد ورائع، وفقـط شابهه بهاء الـدين في ايقـافه نفسـه على أعمال بطله فقـط، ولديـه يمكن للمرء أن يجد روايـات جيدة عن معـارك الحملة الثـالثة، وجرى مـن قبل أمبرويز تـدوين تفـاصيل الزحـوف والمعارك، والصراعـات البطوليـة ومتع وآلام الحجاج عنـدما ابتسـم لهم الحظ أو قطب، بشكـل متدفـق وحيوي ومتعاطف، ولم تكن المبـاحثات من أجل الهدن معلومة لـديه وبقي جلها غير مذكـور عنده مـالم تكن المعلومـات قد أصبحت معـروفة ومتـداولة في أرجـاء المعسكر، فلقـد كـان أمبرويز مجرد واحـد مـن بين حشد الحجـاج الـذي سار إلى حيـث قاده أميره، دون أن يعـرف لماذا، وفقط كـان يتوقـع شيئاً مـا حول الـدوافع التي دفعـت نحو القـرار المتخذ، ولقـد شرح مثل هذه القـرارات ببساطة وسذاجـة، وكانت الخيـانة، وسوء الثقة، والأنـانية تلقى لديـه قبولاً أعظم من الأسباب المعطاة حـول الأحوال والاستراتيجية التي حركت القادة.

ولاحظنـا أن أمبرويز قـد لون روايتـه كلها بتحـاملة الشخصي القـوي، فلقد كتب بمثابة واحد كرس نفسـه في سبيل الولاء لرتشارد ولجميع رفاق رتشارد وحاشيتـه، وملاحظ هذا بشكـل خاص في معالجته لما تعلـق بغي لوزغنان وكونـراد أوف مونتفرات، وهناك اتجاه قوي جداً للقـول بأن جميع رواياته عـن تاريخ القدس قبـل بداية حصار عكـا هي شبه مزيفـة، فقد حصـل أمبرويز على معلـومـاته كلهـا حول تلـك الأحـداث من مصـادر ثـانويـة، وكليـاً كما يبـدو من الموالين لغـي، وهـو لم يفهـم قط نفسيـة أو مشاكـل الفرنجـة السوريين، ولقد عبر أمبرويـز تماماً عـن ميول الصليبيين الغربيين في معاكسـة وتضاد لميول الفرنجـة المستعمرين في سوريـة، وكان المسلمون بالنسبة لهم جميعاً «قطيعاً مـن الكفار»، وعبر عن متعة سادية في وصف قتلهم وسوء حظهـم، ومع هذا كله أتى على ذكر بعـض :قائع كرم

صلاح الدين وأخلاقه الرفيعة، وكذلك سيف الدين، ولم يتحدث عنهما بانشراح وإطراء، وبعاطفة ومشاعر تقوى استنزل لعنات الرب ضد جميع المسلمين، هذا ولم يأت على ذكر حوادث إعجازية، كما أنه لم يدون حكايات تعلقت بتدخلات للقديسين لصالح جيش الفرنجة كما فعل بعض مؤرخي الحملة الصليبية الأولى، ولقد رأى في معاناة الفرنجة أدلة على غضب الرب تجاه الأعمال الفاسدة للناس، وكانت محن القدس بالنسبة له نتيجة مباشرة لعدم تقوى سكانها.

وبالمقارنة مع أمبرويز علينا أن نتفحص مواد ذيل تاريخ وليم الصوري، التي كانت تنسب من قبل لأرنول وهرقل، فقد كتب الذيل من قبل فرنجي بلدي من فرنجة سورية، وقد مثل الفرنجة «المستعمرين» في تميزهم عن «الصليبيين البحريين الوافدين»، فهؤلاء لم يوافقوا أمبرويز على وجهة نظره، وخالفوه في تفسيرهم الإجمالي للحوادث التي أدت إلى قيام الحملة الثالثة، ففي الوقت الذي كان المسلمون فيه الأعداء بالنسبة لهم، لم يوجد بينهم مطلقاً نوع الكراهية العنصرية التي توفرت في مشاعر الكتاب الغربيين وظهرت في كتاباتهم، فقد كتبوا عن المسلمين مثل انكليزي كتب في تلك الأثناء عن الفرنسيين، أو مثل كاتب انكليزي كتب في العصر الحديث عن الايطاليين في بداية الحرب الكونية الثانية، وقال عنهم: «جيران معادون فيهم مافيه الكفاية من الشرور، لكن لديهم بعض الفضائل»، ولم يراقب الفرنجة الشرقيون تقلبات حظوظ الحرب بالحرارة نفسها التي شعر بها الفرنجة الوافدون، ولم يشمتوا تجاه محن المسلمين الذين قتلوا في المعارك مثلما فعل أمبرويز.

وعرف هؤلاء الفرنجة البلديون شخصياً الوضع في الشرق، وحكموا على الأحداث من وجهة النظر السياسية، وآثروا في قراراتهم مصالح مملكتهم وفضلوها على التعصب للصليب، فهؤلاء الرجال كانوا يدركون نتائج الأحداث والتوريطات، ولذلك كان كل من ريموند صاحب

طرابلس وكونراد دي مونتفرات بطليها في رواية الأحداث، وليسا نذلين، لكنهما ظهرا لدى أمبرويز خائنين منحطين ومتآمرين شريرين بسبب أحكامه المسبقة ومعلوماته السقيمة، وعندما يدرس المرء الاجماع الذي أبداه بارونات الفرنجة البلديين —الذين امتلكوا الجزء الأعظم من الأرض— في تأييدهم لريموند وكونراد، ثم عندما يتفحص بدقة أخبار حزب البلاط في ظل غي وأرناط، وينسى الأحكام الدينية والمواقف المسبقة، ويقدر المتطلبات السياسية فقط، لايمكنه إلا وأن يدرك أن ريموند وكونراد قد مثلا الحزب الذي ضم أفضل العناصر التي وجدت في مملكة القدس وقاداه، في القدرة وصواب الرأي والبصيرة، ولعن أمبرويز كونراد لتحويله المؤن من المعسكر أمام عكا إلى مدينة صور التي كانت تحت حكمه، وهنا هو لم يقدر مطلقاً حقيقة أن الدفاع عن صور كان ينبغي أن يحتل المقام الأول في اهتمامات الفرنجة البلديين، الذين كان برأيهم حصار عكا مغامرة لديهم أمل قليل بنجاحها، في حين كان الحفاظ على صور يشكل الركن الأساسي في الدفاع عن المملكة، ونسي أمبرويز، أو أنه لم يعرف أن اللاجئين من جميع المدن التي استولى عليها صلاح الدين كانوا في صور، ولقد تجاهل حقيقة أنه على صخرة مقاومة كونراد في صور تحطمت موجة الفتح الاسلامي، وقد أدان بمثابة خيانة المباحثات مع صلاح الدين من أجل الحفاظ على جزء من المملكة بمثابة دولة تابعة، لكن ليس لديه أي نقد لرتشارد عندما عرض هذا الملك فيما بعد الشروط نفسها تقريباً على السلطان، عندما أدرك استحالة اعادة الاستيلاء بشكل كامل، وكثيراً ماعبر غي دي لوزغنان عن عدم كفاءة سياسة وعجز عسكري، ولم يثق به لوردات سورية ورفضوا القبول بقيادته، وهم بالحري وثقوا بكونراد الذي برهن على بسالته في صور، لكن لم يخطر ببال أمبرويز قط أن لوردات الفرنجة السوريين كانوا سوى خونة وزائفين عندما أيدوا الحزب المعادي لرتشارد، كما أنه لم يدرك أن فيليب اغسطس قد أظهر فطنة سياسية كبيرة عندما أيد المركيز أكثر من رتشارد

عنـدما سـاعد غـي، وإذا مـااتخذنا بينـات معـاملة رتشـارد لأخيه جـون ولبعض الذين أنابهم عنه، في سبيل الحكم على تاريخ حكمه، نجد عجز الملك في الحكـم على السمات أو على الكفاءة، ولم يمتلك أمبرويز شكـوكاً مـن هـذا النـوع، أو أنـه كما يبدو لم يشعـر بـأي تنـاقـض لافي أرائه ولافي سياسـة بطله عنـدما قبـل مؤخـراً بكونـراد ملكاً على القـدس، فقد تحول الشرير فجأة إلى حليـف البطل وتم الاعتراف به من قبـل الجميع على أنه أحسن رجل للمنصـب الذي رشح إليه، وبين ليلة وضحاهـا غدا المركيز الـزائف المرشح المفضـل للعرش، ودوّن أمبرويـز هـذا التبديـل با لمواقـف الذي قبله رتشارد بعدما تطورليعـرف حاجات البلاد،واستحالة الاستمرار في تقديـم التأييد للـوزغنان المنعدم الكفـاءة والذي كان بـلا شعبية، دوّن ذلك كله دون تقديم كلمة واحدة للشرح والتفسير.

وينبغي أن نتـذكر أنـه خلال تـاريخ الـدول الصليبية،كـانت هنـالك حوادث كثيرة كـان فيها الفرنجـة البلديين أفضـل قدرة في معالجتهـا مع جيرانهم المسلمين،أكثـر ممـاكـانـوا مـع حلفـائهـم المسيحيين مـن الغرب،فعندما عرض كونراد التبعيـة على صلاح الدين،كان يفكر في انهاء الحرب التي كانـت مستعرة في البلاد من دون أدنـى فرصة بالنجـاح،ولقد أدرك أن تبعيـة مشرفـة مفضلة على مملكـة مـدمـرة شعثتها سنـوات مـن الحرب الممحلـة،وفي النهـاية تقبـل رتشـارد هـذا الرأي،ومـن المؤكـد أن عروض كونراد لم تكـن خيانية أكثر من اقتراحات رتشـارد في أن يعاد بناء مملكـة القـدس بمثـابـة مملكـة تـابعـة،يقـدم ملـوكهـا الـولاء لصـلاح الـدين،ويـزودوا جيشه بـالعساكـر وقت الحاجـة وحسب الطلـب،ولاسيما عندما نتذكـر أن اقتراحات رتشارد قد تضمنت أن تتزوج أختـه من سيف الديـن،وأن تمنح المملكة لهماشراكـة معاً.ولم يكـن رتشارد أحمقاً،ولقـدتعلم أثنـاء الحملة في فلسطين الكثير،فلقـد اكتشف استحـالـة اعادة استيـلاء كاملة للمملكة،وتوصل الى ان يدرك ان حـزب البارونات كان يعرف ماذا

يجري وماذا يريد غندما فضل كونراد،وتطور ليقدم إمكانية الوصول الى اتفاقات مشرفة بين رجال انتموا الى عقائد مختلفة،وطور رتشارد الميول الاستعمارية،فقد كان هو نفسه فارساً،ومعلماً في فن الحرب،كما أنه كان قادراً على إدراك هذه السمات لدى خصمه العظيم،ولم يكن أمبرويز قادراً قط على تعلم هذه الأشياء فهو قد تقبل قرارات ملكه بالتسليم الأعمى وبدون سؤال.

وعلى الرغم من أحكام أمبرويز المسبقة،وانحيازه الكامل،وكل تقواه وتعطشه للدماء،وكذلك على الرغم من التكرار الملحمي في رواياته والمبالغات،سيبقى مع هذا كتاب أمبرويز الحاوي للرواية الأفضل من سواها حول صليبية رتشارد،وأهم وثيقة موجودة تكشف عقلية الصليبين وتعبر عن نفوس هؤلاء الرجال الذين رموا بأنفسهم قلباً وروحاً في حرب مأساوية مخفقة،وتحملوا المشاق والاحباطات من أجل هدف ديني ومعنوي،و«التاريخ»أكثر من هذا كله،إنه الملحمة والنشيد،وكتاب أعمال واحد من أعظم الشخصيات المسيحية رومانسية وتدفقاً بالحياة.

- ١٢٢٧ -

صليبية
رتشارد قلب الأسد

الفصل الأول

التبشير بالحملة الصليبية الثالثة

الذي لديه حكاية طويلة ليحكيها
لابد أن يحتاج الى العناية الفائقة والجيدة
خشية أن يبدأ فيأخذ على عاتقه
مهمة لا يمكنه القيام بها بشكل جيد
لذا عليه أن ينصرف جيدا نحو مهمته
حتى يصل بها إلى نهاية جيدة
ولهذا ولكي لا يكون حملي جداً
ثقيل ، سأبدأ بدون ضجيج
عملي وسأوقفه بسرور
على قضية جديرة بالرواية
رواية أخبار الاضطرابات المحزنة
التي أثرت بنا بشكل مباشر
في سورية في السنة الماضية
حيث كلفتنا حماقة قادتنا غالياً جداً الأمر الذي لا يستطيع الرب أن يفعل أكثر

من أن يجعلنا ندرك بحرقة :
في فرنسا ، وكذلك في نورماندي
وأيضاً الأمر نفسه في خلال ديار المسيحية كلها .
حيث المحصلات كانت كثيرة أو لا شيء
جُعلنا في وقت قصير نشعر
أن الصليب الذي له جميعاً نركع
والذي صار آنذاك في يد كافرة
انتقل الى يد أخرى
غير التي اعتاد أن يكون في حفظها
حيث الرب أنكر أن يولد وأن يموت ....
وعن الهيكل المقدس والمشفى
حيث سقط كثيرون بأسى وأسف
والضريح حيث وضع الرب
وحيث عنده غفرت الذنوب
وإلينا لم يعد يقال ذاك ذنب
غير أن الرب الذي رغب مجدداً في ربح
شعبه الذي من أجله باع دمه
لكن الذي في الخدمة لم يقترف شيئاً تعرض
لمأساة ذات وزن مرعب

- ١٢٣٠ -

وحلّ الويل بالناس صغيراً وكبيراً
في خلال العالم أجمع والأمير والفقير
نادراً ما عرفا أين يمكن أن توجد الراحة
ولم يعد هناك سرور بالكلمة أو باللسان
ولم يعد الرقص ، يسكت الأغنية
ويسكت السرور ، ويسكت المرح
مرح الشعب المسيحي في الأرض كلها
حتى بابا روما ، الذي من خلاله
أنقذ الرب كثيراً من الناس من الهلاك
(كان الثامن من الذي دعي غريغوري
هكذا روي في التاريخ) (غريغوري الثامن من تشرين أول — تشرين ثاني ١١٨٧)
أعلن نعمة من الحاكم القدير
في سبيل الرب ورغماً عن الشيطان
أنه سيتولى غفران جميع الذنوب
للذين سوف يتولون قتال أعداء السماء
للذين ضلوا عن الحقيقة نفسها
للكبير، وإلى ملك الصدق النبيل
ولهذا ، ولعدد كبير من الكونتات والملوك
ولرجال آخرين تجاوزوا العدّ والاحصاء

أخذوا ، حتى تتبعوا أوامر الرب
الصليب ، وطلبوا الأرض المقدسة .
لأخذ الصليب لم يكن هناك نقص
من رجال من المراتب النبيلة والأصالة .

رتشارد يأخذ الصليب

كونت بواتو الشجاع
رتشارد ، لم يتأخر مطلقاً
عند سماعه حاجة الرب ، وخسارة الرب
وحباً بالرب أخذ الصليب
وكان هو الأول بين نبلاء الناس
من أراضينا على هذا الجانب من البحر .
ثم في خدمة الرب اتخذ الملك
موقعه ، وبذل جهداً كبيراً ، ونفقه عظيمة .
وما من أحد ليشتري ميراثه
ولكي لا يتأخر الحج المقدس
كل انسان ، الشيخ والشاب سواء
اعتاد أن يبدي صدق أسارير قلبه
كما واعتاد على أن يظهر أسفه ويعلنه
وأن ينتقم من أجل العار

- ١٢٣٢ -

الذي أنزل بحق المولى الرب
وعلى الرب الذي لم يقترف خطئاً
لأن أرضه قد شعثت
وأصاب شعبه الذهول بسرعة
لأنه تاه وأرشد بشكل سيء
وعليه ينبغي ألا يندهش أي إنسان
إذا كان قد عانى من الهزيمة .
ومع أنهم كانوا رجالاً شجعانا ومن النخبة
لقد قضى الرب بوجوب موتهم
وأن ينال آخرون نصره .
وهكذا ، في حين مات هؤلاء بالجسد
يعيشون الآن مجدداً في الفردوس
وبذلك عاش كل الذين واجهوا نهايتهم
وفيها وراء البحار ، سيتولى المولى الرب حمايتهم .

العداء بين هنري الثاني وفيليب

بين فرنسا ونورماندي
كانت هناك حرب موروثة
همجية ، ومرعبة وشديدة
ومليئة بالشرور والخطيئة .

وكان فيليب هو الذي أثار هذه الحرب
وهنري كان ملك انكلترا وكان من أصل رفيع
حكيم ، وجدير ، وعاقل ، ولطيف
وأب جيد لذلك الملك الشاب
الذي قام بمبارزات عظيمة
ووالد رتشارد ، البارع كثيراً
والمليء بالحكمة وبجودة القرار
ووالد غيوفري صاحب بريتاني
شاب جدير بالمكانة والفخار
ووالد جون ، الذي يعرف باسم بلا أرض
الذي جاءت منه حرب عظيمة ومشاكل .
والملك الذي امتلك مثل هذه الأسرة
ويعرف نفسه أنه كان غنياً جداً
يمكنه أن يصمد بالحرب بشكل جيد جداً
إذا ما أحد مضى بسرور ضده الى الحرب
لفعل مثلما فعلوا وبذلوا
لأناس من هذا النوع ....
ووقع الملكان آنذاك في خلاف
وما من أحد استطاع أن يصلح بينهما

حتى وجهها الرب نحو التها دن
وكانت هدنة جديرة بالاستعمال .

المؤتمر في غيسور

فيما بين غيسور وتراي
في مرج جميل ، وعريض وشاسع
هناك جرى التفوه بكلمات كثيرة
وسمع ما كان حكيماً منها وما كان حمقاً
وتشوق بعضهم الى السلام كثيراً
وآخرون لم يكن لديهم اهتمام بالسلام
وكان هناك رجال من أنواع كثيرة
ممن ابتغى السلم ، لكن لم يمكن ايجاد سلام
ما عدا إذا شاء الرب ذلك
ثم ارتدى جميعهم شارة الصليب
وفي تلك المفاوضات جرى الحديث
عن كثير من الخلافات حديثة وقديمة :
وكثير من التكبر والتبجح
وكثير من المآسي احتاجت الى علاج
لقد طلبوا كثيراً وقليلاً وجدوا .
وأشرقت الشمس في الوقت نفسه مستديرة مضيئة

والى هناك جاء رئيس أساقفة من صور *
مشهوراً كان بعقله وحكمته
بعث من قبل السوريين ، الذين عرفوا
صواب أحكامه وصدقها .
رأيناه يحاول بشجاعة
قيادة هذين الملكين الى الطريق القويم
الرب ناضل ليبدد خلافاتهما
وكذلك فعل الرجال الحكماء وأهل العلم
وهكذا أوقف الملكان صراعهما
وحملا الصليب وتبادلا قبلة السلام .
لقد قبلا بعضهما بدموع ثم نهضا
وقدمت أصواتهما الحمد للرب
لأنهما شعرا بفرح عظيم
وكانا على ادراك لبأس
الرب وكم هو محتاج للعون .
ثم كنت ترى الفرسان يطيعون
النداء ويأخذون الصليب بسرعة

* جوششيوس Josius رئيس أساقفة صور (١١٨٦ — ١٢٠٠) وهو الذي خلف وليم المؤرخ المشهور

- ١٢٣٦ -

وبدوا أنهم لا يعرفون مذاق الخوف .
وهكذا اصطف حول رئيس الأساقفة
وحول رعاة الديرة والأساقفة أيضاً
حشد عزموا على القيام بالمخاطرة
(ثم أعانني الرب ، وبأم عيني رأيت)
وسط حر شديد جداً
(أعظم منه لم يعرف قط ولم يرسل)
حتى انقطعت أنفاس كثير من الناس
واقتربوا من الاختناق والموت .

وفاة هنري دون أن يفي بنذره

من أجل السرور بالاتفاقية التي عملت
ومن أجل السلام والحروب الصليبية
مضى الجميع وحملوا الصليب
لأنه ما من واحد يمكنه التخلي عن هذا الهدف
أو يزدري التحليل العظيم
من الذنب . واللوم ينبغي أن يلقي
على الكسل الذي أدى بهم الى تأخير
المغادرة . ووجد الشيطان سبيلا
أن يعيد الى الملكيين صراعاً عنيفاً

لا يمكن فضه ما دامت هناك حياة
باقية لواحد . لكن بقي
حتى انقض الموت عليه ، ومات
إنه كان هنري ، ملك انكلترا المسن
الذي وضع الخطط لزيارة
القبر المقدس بناء على أمر الرب
لكنه منع بيد الموت .
أمبرويز الذي كتب هذا الكتاب شعراً يقول :
كان ذلك الرجل حكيماً ولم يخطىء
وحافظ على عهده وعلى كلمات تعهده
التي أقسم بها للرب ، مولاه .
والآن ومولاهم الملك قد مات
خلف وراءه ولدين أخوين فقط
وكان اسم الأكبر بينهما رتشارد
كونت بواتو ، عظيم في شهرته .
والأصغر هو جون وكان صدقاً بلا أرض
هكذا عرف وقد كان فتى بلا تجربة .

تتويج رتشارد

ثم الى رتشارد أعطي

- ١٢٣٨ -

التاج ، بحكم ما قضى به العقل
وأيضاً أعطي الثروة والخزينة
والأراضي وأيمان التبعية والولاء.
ثم أخذ الصليب أولا، بدون تقاعس
وكما أخبرتكم في روايتنا
الى الرب أعطى أعماله ومجهوده
وشرع هكذا للاستعداد للسفر
وأبحر عابراً الى الشواطىء الانكليزية
وقبل مضي أيام كثيرة
تلقى التاج في لندن .
ورأيت هدايا أعطيت في تلك البلدة
هدايا عظيمة ، وقدم الطعام بقدر
هائل حتى ما من انسان يدري كم هو .
ولم أر في حياتي ولم أشهد
بلاطاً خدم بأبهة أعظم
رأيت أوعية فخمة وصحونا غنية
تقدم في قاعة الدولة العظمى
وموائد مليئة بشكل ممتاز
أكثر مما يستطيع انسان أن يخبر.

لكن لماذا أحكي عن ذلك بتوسع عظيم
أنتم جميعاً تعرفون جيداً هذه الأبهة والقوة
والبلاط العظيم الذي يمكن أن يمتلكه
الذي يحكم مملكة انكلترا .
لقد كان الحفل عظيماً وثرياً ورائعاً
واستمر ثلاثة أيام كاملة على الأقل
ومنح الملك كثيراً من الجوائز الثمينة
ورد الى باروناته
الاقطاعات التي استحقوها لنسبهم
وزاد هو نفسه من ميراثهم .

استعدادات رتشارد للحملة الصليبية

وعندما انتهى اجتماع البلاط
عاد كل واحد الى اقطاعيته
وكل واحد، الى ممتلكاته الخاصة
لكن ليس ليمكث هناك طويلاً لأن الملك قال الكلمة
وأمره كل انسان سمعه
بأن يستعدوا للقيام بمخاطرتهم
بالاستعارة أو بأي سبيل آخر
لأنه رغب أن يشرع اسطوله

وأن يجري تأمين كل شيء كما ينبغي وحسب الحاجة
حتى في صباح أحد الأيام
يمكن لحجه أن يأخذ طريقه .
لأن قلبه تطلع شوقاً ليلاً ونهاراً
نحو الذين انتظروا عودته
في نورماندي وفي أنجو
وفي غسكوني وفي بواتو
وفي باري وفي بيرغندي
من حيث التحق العديد بالجماعة .
وفي كل كنائس انكلترا ، وفي
جميع الكنائس الأخرى في أراضيه
عين ، حيث لم يكن هناك أحداً معيناً
لقد رسم أساقفة ورؤساء أساقفة
ولم ينتظر حتى تساقط ثلج الشتاء
بل أمر باعداد سفنه للذهاب
ووضع فيها خزينة ثرية
ذلك أنه عرف كيف يستخدمها بشكل صحيح .
وعلى شاطىء البحر، بقعة صغيرة
هناك سكن، قبل أن يرسل الرب رحمته

بريح طيبة، تحمله مباشرة
وتنقله إلى شاطىء نورماندي.
والتالي يمكن حقاً تصديقه
لقد استقبل بسرور عارم
منذ اللحظة التي كان فيها مرئيا.
وبسرعة جعل جميع الأشياء صحيحة
للزحف، وإلى ليون بعث
للاعداد لحفل، ومرح
٢٥— كانون أول ١١٨٩ ليوم الميلاد
وأقام الملك احتفاله في ليون
لكن غناء أناشيد الأعمال فجأة توقف.
وأمر على الفور بكتابة رسالة
واختار رسولاً مضموناً، وسريعاً، وموائماً
وأعطى هذا الرسول أوامر
بأن يضع الرسالة في يد ملك فرنسا
وأن يؤكد للملك تمام التأكيد
أن كل شيء أعد للترحال.
وهكذا جرى ترتيب الأمور بينهما
في أن يلتقيا، إذا لم يحدث خطأ معيق.

وهكذا اجتمعا أمام درو
على مسافة سبع مراحل من ايفرو.
وفيها الملكان يتفاوضان ويتداولان
ويتحدثان عن الرحلة وعن الطرق والسبل
فجأة، إلى ملك فرنسا
جاء رسول، أخبره
بأخبار سيئة، جاء ورأسه مطأطأ
١٥ – أيار ١١٩٠ وأخبره أن الملكة قد توفيت.
ولسماع هذه الكلمة المحزنة المبكية
وحكاية خبر محزن آخر سمع
عن وفاة ملك أبوليا (وليم الثاني ملك صقلية، وزوج جوانا أخت رتشارد، توفي في ١٦ أو ١٨ تشرين ثاني في ١١٨٩)
(الخبر الذي أحزننا ومازال يؤسفنا)
وشعر الحشد بانزعاج عظيم
إلى حد أن غالبيتهم تخلى
عن الطريق الذي ركبه الناس نحو سورية.
لكن هذا لم يكن هكذا، بنعمة الرب
فقط تأجل إلى موعد آخر
٢٤ حزيران ١١٩٠ هو يوم القديس يوحنا، الذي يحتفل الجميع به.

-١٢٤٣-

إعداد رتشارد وفيليب للقاء في فيزلي

عندما امتلأت الورود بالشذى
صار الوقت جاهزاً عندما يشاء الرب
لايقاظ شجاعة الحجاج
حتى يلتحق بهم بقية الناس
ولكي يستعد كل واحد منهم
لحمل ماأراده الرب تحميلهم اياه
وأن يكونوا على استعداد لمعاناة الآلام والجوع
وأن ينطلقوا نحو الأمام في يوم عيد القديس يوحنا.
٢— تموز ١١٩٠ وبعد ثمانية أيام، وبدون تأخير
التقى الحشد في فيزلي
ووقتها غادر الملك باريس
وودع كنيسة القديس دنس
وكثير من نخبة الفرسان واللوردات
لم يكونوا قد تمنطقوا بسيوفهم بعد
في حين كان جزء كبير من الصفوف الفرنسية
قد أخذ الطريق ومضى في زحفه.
ووقتها قام دوق بيرغندي
بالانطلاق للالتحاق بالجماعة.

ولم يتقاعس كونت فلاندرز
بل احتشدت كتائبه بسرعة ونشاط
ومع ذلك كان مايزال يرى مجموعات
من الرجال تصل من كل اتجاه.
وتولى بعض الناس في حزن تشييعهم
وبكوا عليهم على طريق أحزانهم
ومن أجلهم حزنوا حزناً عظيماً حتى
كادت قلوبهم أن تتفطر أسفاً

ارسال رتشارد لاسطوله أمامه

وكان الملك رتشارد آنذاك في تور
مع معدات الخيول، والسلاح، وأدوات الزينة.
وحشد عظيم من الرجال داخل الأسوار
كان هناك، حتى بات من الصعب استيعابهم جميعاً.
وأرسل أوامره إلى البحر
لجمع اسطوله بكل سرعة
وأمر اسطوله بالإقلاع مبحراً
والارتحال بدون تقاعس أو تأخير.
وكان عدد سفنه مائة وسبع سفن
وعندما أقلعت جميعاً وركبت (ظهر الأمواج)

-١٢٤٥-

من دون السفن التي كانت ستأتي فيها بعد
(وكان الطريق الذي اتبعوه هو نفسه).
ماء ومخاطر ورعب
ومضائق، وجاوزوا ذلك كله بدون أذى
ومروا بمضائق أفريقيا المميتة
حيث البحر دوماً يضرب ويسلب
مامن واحد واجه أسى أبداً
ولم يكن هناك غرق أو تحطم لشراع.
لقد أبحروا بفضل نعمة الرب في السماء
حتى وصلوا إلى ميناء مسينا
وبدأ الملك رتشارد ولورداته
وغادروا تور بقلب منشرح
ثم جاء متقدماً كثير من الفرسان الجيدين
ورماة قسي عقارة مدربين على القتال.
آه، هل رأيت الحشد يزحف نحو الأمام
لقد جعل الأرض كلها تهتز.
وكان الناس جميعاً كئيبين
من أجل لورداتهم الشجعان والبواسل
وهناك كانت آنسات وسيدات ينتحبن

مسنات وشابات، قبيحات وجميلات
اقتربت قلوبهن من أن تتفطر حزناً
على الأقرباء والأحباء الذين توجب ذهابهم.
وتشييع لم يكن قط أكثر إيلاماً
ولارجال لدى عودتهم أكثر امتلاء
بالحزن، وكثير من الدموع ذرفت
وكثير من العهود التقية قيلت.
وأخيراً عاد المشيعون
وزاد الحجاج على طريقهم من سرعتهم.
وهكذا وفقاً للتاريخ الذي حدده الملك
لاأبكر كثيراً ولاأبعد كثيراً
الحشد الذي استولى الرب عليه وأبعده
عن الشيطان، التقى في فيزلي.
استولى؟ لا، لقد أخذه نقياً تقياً
فمن أجله وفي سبيله احتشد هناك.

اللقاء في فيزلي

في فيزلي، وسط جبال عالية
ستر الرب غطى جماعته
وفي الوديان كان هناك العديد من الذين

من أجله حملهم طريقهم إلى هناك
وفي الكروم وعلى سفوح التلال
نام أبناء الأمهات والأمل
وكان النهار دافئاً، والليل لطيفاً
فهاهنا اجتمع في المحنة
مع الرب جماعات كثيرة من أصل نبيل
بشكل لم ير نظير له على الأرض.
وهؤلاء الذين اجتمعوا هنا فعلوا ذلك في سبيله
وهجروا أراضيهم وأسرهم
وأقسموا تدليساً بشكل دائم، أوبمثابة تحد
أقسموا وكرسوا ميراثهم العظيم
وحرموا أنفسهم من الأرض ومن مسقط الرأس
حتى يمكنهم شراء محبة الرب.
فما من صفقة يمكن أن تكون أفضل
من التي في سبيل ملك السموات.

رتشارد وفيليب يتفقان على اقتسام ماسيستوليان عليه

في فيزلي كلا الملكان
أقسما كل واحد للآخر قسماً مؤكداً
أنه مهما قدر القدر لهما وجلب

كل ملك سوف يثق بالملك الآخر
ومهما كانا سيربحان
سيقتسمانه قسمة عادلة
وأقسما قسماً مؤكداً آخر:
على الآخر، إذا كتب القدر له النصيب
انتظار الملك الآخر
وهكذا وقد ارتبطا بأيمان موثقة
أقلعا من فيزلي وتقدما مبحرين.
وسافر الملكان وتقدما نحو الأمام
وعن رحيلهما يمكن قول الكثير
وقدما لبعضهما التشريف والحمد
وفعلا ذلك نحو بعضهما بعضاً حيثما ذهبا.
وتحرك الحشد وفقاً لهذا الوفاق
ولم تكن هناك شحناء لابالشارات ولابالكلام
وكان كل واحد لطيفاً نحو الآخر وأديباً
ولم يسجل حادث يذكر.

زحف الحجاج

وهم سائرون على طريقهم بشجاعة
كان بإمكانك أن ترى، عونك يارب

شباب وشابات وزوجات وأتباع
يجلبون أباريقاً، وكؤوساً وأوعية
وطسوتاً ممتلئة حتى الحواف
بالماء لسقي الحجاج العطاشى
وهم ممسكون بالطسوت في أيديهم
اقتربوا من الجماعات الزاحفة
وقالوا: «آه يارب ياذا الجلالة
من أين جاء هذا الحشد؟ وماذا يمكن أن يكون هذا؟
وهؤلاء الشباب، أين ولدوا وإلى أين ذاهبون؟
حدق بوجوههم المتوردة والدافئة!
فكر بحزن أمهاتهم
وآبائهم وأبنائهم وأخواتهم
وأصدقائهم وكل من يمت إليهم بصلة
وبهؤلاء الذين شكلوا هذا الحشد القدير!»
إلى الرب أوصوا بالحشد وأودعوا
وبكوا عندما رأوه يمضي في سبيله نحو الأمام
على طريقه، وصلوا بخشوع
للرب، وسألوه بتقوى
في خدمته أن يقود الحشد

وأن يعيده إلى وطنه بعدما تلبى حاجته
وأصبحوا واثقين بنعمة الرب، وحقاً
كثيراً فعل، وكثيراً يمكن أن يفعل
وبسرور عظيم وفرح
وبدون غضب أو انزعاج
أو استهزاء أو غيبة، أوصراع أو نحيب
وصلوا مباشرة إلى ليون على الرون.

الوصول إلى ليون

ثم توقف الجيش في ليون
حيث ازدادت مياه الرون واندفعت
وهناك توقف الملكان بانتظار
الذين كانوا مايزالون على طريقهم.
ولم يشاهد من قبل مثل هذه الروعة
ولم يرقط مثل هؤلاء الرجال الناذرين أنفسهم:
كانوا مائة ألف، هذا ماهو معروف
نام معظمهم داخل البلدة
واتخذ الملكان محلتين لهما في بقعة
لم تكن في البلدة ولافي إحدى الحدائق:
لقد تمركزا خلف أمواج الرون ونصبا

خيمهما لانتظار بقية الحشد
وكان ضرورياً أن يبقيا
لأن كثيرين كانوا مايزالون ماضين على
طريقهم، وقد انتظرا هناك حتى
وصل الحشد واجتمعت عناصره واصطفت
وبعدما انتظرا طويلاً وبعدما
باتا متأكدين أن جميع الحشد
قد اجتمع في المكان المحدد
امتلأت قلوبهما بالفرح مجدداً.
وعلى بقعة جديدة نصبا خيامهما
جميلة جداً، وغنية في زينتها
ومن حولهما الحشد، فوق الرمال
نصب خيامه، كلها على طول الشاطىء.

الافتراق إلى جماعات

إلى الأمام تقدم الملكان معاً
مادامت سبلهما هي نفسها
ثم انطلق كل منهما نحو مرساه
بفرح عظيم وبمرح كبير.
وكان فيليب ملك فرنسا قد أعد

من قبل الترتيبات لنيل العون
من الجنويين في الابحار
وكانوا الأكثر براعة بمثل هذه المسائل
بينها رتشارد، الذي قاد حشد انكلترا
طاف حول البحر، على طول الساحل
ووصل إلى مرسيليا، متبعاً
إرادة الرب، الذي يقود كل شيء صحيح.

عبور الرون

عندما علم الحشد أن الملكين قد مضيا
نحو الأمام، نهض بعضه قبل الفجر
وآخرون عندما أضاء نور الصباح
الطريق، لأنه توجب عليهم جواز الرون.
والذين استيقظوا قبل انبلاج النهار
لم يعانوا من أي نوع من الاضطراب:
وعبروا الجسر، بحظ سعيد
بدون أذى أو إعاقة
لكن الذين بعد انقضاء الصباح
تجمعوا على الجسر بشكل كثيف جداً وسريع
لحقهم سوء الطالع وبددهم

لأن إحدى قناطر الجسر تحطمت
بسبب أن المياه الخائنة
ازدادت بشكل هائل وخطير
ولأن وزن الناس فاق على المائة
وحمّلوا القنطرة الصنوبرية فوق طاقتها حتى انهارت
وسقطت القنطرة ، وسقطوا هم في الماء
وكان هناك صراخ، وأنين، وعويل.
فكل واحد، أذهله السقوط الكبير
ظن أنه فقد جميع ذويه
من أخوان، وأبناء، وأقرباء، وأصدقاء.
لكن الرب، قدم الآن عونه
وصحيح أن كثيرين سقطوا، لكن من بين هؤلاء جميعاً
كان هناك اثنان فقط، فقدا حياتهما
أعني أن اثنين فقط اكتشفا
ولكي نجزم ونؤكد العدد مامن أحد يجرؤ
فالماء كان هناك حاداً جارفاً
فقليل مما سقط قد ظهر
وإذا كان هؤلاء ماتوا أمام الرب أنقياء يشعون:
فعلى طريقه ساروا وبأقدامهم خطوا

وعندما يلقوه، سينالون الرحمة.
وانهارت قنطرة الجسر وتحطمت
وأصيب الحجاج جميعاً بالذهول وتفرقوا
دون أن يعرفوا إلى أين عليهم أن يتوجهوا
صعوداً ضد مجرى الماء أم هبوطاً.
ولم يجدوا حرفياً ليصلح
الجسر، ولم يكن هناك مجاز
وفوق الرون لم يكن هناك أية سفينة
ولامركب ولابارجة أعظيمة كانت أم صغيرة.
لذلك لم يكن بإمكانهم اللحاق، ولا
الاتصال بالذين عبرو النهر من قبل.
ولأنهم لم يجدوا خطة أخرى
فتشوا عن خير مخرج توفر لهم:
ففي قوارب صغيرة هشة وخفيفة
حيث انضغط الناس بشدة معاً
عبروا، وهم في رعب على حياتهم
فهكذا ينبغي أن يفعل الذي في سبيل الرب يناضل.
وأبحروا نحو مسينا
ودامت أعمال الجواز ثلاثة أيام

وكانت هناك فوضى عظيمة.
ثم مضى العقلاء والحمقى مسرعين
يبحثون عن مكان لرسوهم
وإلى مرسيليا، أقرب ميناء منهم
ذهبت جماعات كبيرة رائعة
وكثير من الشجعان المسيحيين، من النوع نفسه
ارتحلوا إلى ميناء البنادقة.
وكذلك طلب كثيرون ميناء الجنوية
ولايمكن للمرء أن يعد أويحصي هؤلاء
وإلى برليتي Barlette وإلى برنديزي
استلهم كثيرون التاريخ
وإلى مسينا ذهبت جماعة
لتنتظر حتى رسو الملكين ونزولهما إلى اليابسة.
المكان الذي سوف يلتقون فيه بالملك وبالناس
مسينا هي قلعة
غالباً ماكتب عنها وبشكل جيد
إنها بلدة جيدة وذات موقع جميل
في صقلية، وتطل على
بيت النور(الفاروس) الذي منه يرى الانسان

-١٢٥٦-

ريغيو،التي استولى عليها أنغولاند.
وفي البلدة أشياء طيبة لاتعد ولاتحصى
ووجدنا أهلها أشراراً.
وأخبرنا أن ملكها يدعى تانكرد
وأن لديه مخزناً عظيماً من الذهب الخالص
الذي وفره أجدادنا وربحوه
منذ أيام حكم روبرت غويسكارد
وعاش في بلرم آنذاك سيدة
سكنت هناك منذ زمن طويل وبصيت حسن
وكانت أرملة الملك وليم المتوفى
ملكة المملكة أثناء حياته.
وكان شجاعاً ولطيفاً
وتوفي ، ويالللأسف، بدون وريث
وكانت الملكة أختاً لملك
انكلترا،الذي اتخذ الوسائل،لاستعادة
حقوقها في البائنة—الدوطة—وردها إليها
ولم يتجرأ تانكرد على الاعتراض
مع أنه استولى ووضع تحت سلطانه
كل من شخص الملكة وبائنتها

يامن لديهم العقل والذاكرة
ويامن سمعتم التاريخ بشكل جيد
يحكي كيف أبحرت سفننا في طريقها
وسارت على طول سواحل اسبانيا.
والى مسينا وصل الاسطول
على مثله روعة لم تلق عيناي التحية
وتوجب عليه الانتظار هناك أوامر
رتشارد،الذي كان ملك انكلترا
وتميز هناك حشد متنوع
بأعلام،وعذبات،ورايات،وخيم
وعسكروا جميعاً على طول الشاطىء
لأن الدخول الى المدينة كان ممنوعاً
وعلى مقربة من السفن خططوا
للبقاء حتى وصول الملك
لأن أهل المدينة كانوا غوغاء،وحثالة
المدينة كان بعضهم هجناء اغريق
وبعضهم من أصل اسلامي
وقد غمروا حجاجنا بالشتائم
ومدوا أصابعهم الى أعيننا وسخروا منا

ودعونا بالكلاب النتنه.
وأساءوا إلينا وآذونا كل يوم
وأحياناً قتلوا حجاجنا
ورموا جثثهم في أماكن سرية
وقد تبرهن أن هذا كان صحيحاً.

وصول ملك فرنسا غير اللائق

سادتي،من المعتاد والمعتمد
أنه عند وصول أمير صاحب تاج رفيع
مثل ملك فرنسا،الذي يستحق
أن يتحدث الناس عنه في أرجاء الأرض
أو مثل ملك انكلترا،الذي هو
مبجل في أنحاء العالم كله،
ودخوله الى بلد،مهما كان نوعه
أو الى بلاد مثل صقلية
يتوجب عليه القدوم بمثابة سيد عظيم
ليحصل على كلمات الثناء من جميع الناس
لأنه صحيح القول،كما أقدر:
«حسبها أراك،أنت تستحق كما أرى»،
ولهذا،أقول:عندما جاء كل ملك

كان هناك جمع هائل من الناس
والى مسينا جاء أولاً
ملك فرنسا،الذي رحب به
من قبل كثيرين،دنوا من مكان
رسوه،لكنهم لم يروا وجهه
لأنه كان لديه سفينة واحدة،ليس أكثر.
ورأى حشداً هائلاً من الناس على الشاطىء
ولكي يتجنب الاحراج من
الحشد،الى القصر مضى مباشرة.

أبهة وصول ملك انكلترا

٢٣—تشرين ثاني ١٩٩٠ لكن عندما وصل الملك رتشارد
كان هناك حشداً هائلاً يتدافع ويتصارع
ليروه وهويرسو،شيباً وشباباً
وكان بين الحشد رجال عقلاء وخلعاء
وذلك قبل أن يظهر الملك ويشاهد
وليراه،كان الحشد كله
متشوقاً،الى شجاعته.
ووصل بأبهة وروعة
حتى أن البحر كله من حوله امتلأ

- ١٢٦٠ -

بالمراكب،التي كان عليها رجال بحر بارعين
ورجال مسلحين، وشجعان،ومندفعين ومشرقين
يحملون العذبات والأعلام الثمينة الخفاقة.
وعندما اقتربت سفن الملك من الرصيف
باروناته وفرسانه ذوي المراتب
التقوا،وقادوا خيوله المعدة للحرب
التي جلبتها من قبل سفن نقل.
وامتطى حصانه، مع حاشيته
والذين رأوه قالوا هذا حقاً
ملكاً قديراً،وواحداً فريدا
جديراً أن يكون ملكاً مالكاً
لكن الإغريق واللومبارد تذمروا
لأن سيداً غريباً
دخل الى مدينتهم
بأبهة عظيمة واحتفال كبير.

اللومبارد الأشرار

عندما جاء الملك،القوم من اليونان
لم يفعلواشيئاً لخلق الاضطراب
وأثار اللومبارد اضطراباً كبيراً

وأساءوا الى حجاجنا وآذوهم
وهددوا بتدمير، أو بالاستيلاء
على خيمهم وعلى ممتلكاتهم الأخرى.
وكانوا قلقين من أجل نسائهم
اللائي تحدث رجال الحجاج معهن
وفعلوا هذا لازعاجهم وايلامهم
ولم تكن لديهم نوايا بأن يزيدوا على ذلك.
اللومبارد والسكان
ازدروا دوماً وكرهوا شعبنا
لأنه روي عن آبائهم وقيل
بأن أجدادنا قد سحقوا
أجدادهم.وكانت كراهيتهم هائلة
وهكذا رغبوا في تجويعنا.......
ولكي لانكسب هناك شيئاً
رفعوا أبراجهم وزادوها علواً
وحفروا خنادقهم وعمقوها
وفعلوا هذا كله،وضاعفوا البغضاء
بالتهديدات والتحديات
وانبعث الشر من كل جانب

- ١٢٦٢ -

اثارة الشقاق

في أحد الأيام،الى وسط الحشد جاءت
امرأة—كان اسمها امّا Emma
وكان معها خبز للبيع،هكذا قيل
ولدى رؤية الخبز الطازج والساخن
من قبل أحد الحجاج، استفسر عن الثمن ليشتري
ورفضت بانزعاج وازدراء
السعر الذي عرضه،وكان مثله مثل
المرأة في غضبه الذي وصل الى حد الضرب
وكانت غاضبة،ومضطربة.
وأفلت زمام الأمور الآن وقام صخب عظيم
وكان أهل المدينة غاضبين الى أبعد الحدود
فأمسكوا الحاج بمقابضهم
ونتفوا شعره،وبطحوه،وضربوه
وآلموه كثيراً،وأساءوا معاملته
وسمع الملك رتشارد الصراخ فقال:سلاماً
هكذا أمر،وأن يتوقف الصراع تماماً
وأطفأالنائرة
وأجبر رجاله على البقاء بعيداً

لكن الشيطان،الذي بطبعه
يكره السلام أكثر مما يفعل بقية المخلوقات
أشعل الصراع في صباح اليوم التالي
وبالخلاف كل شيء تمزق.

تفجر الاضطرابات مجدداً

ثم ذهب الملكان معاً
الى مابدا لي، اجتماع عام ضم
أعيان صقلية،والسادة
والنبلاء،والقضاة،ورجال العدل
جميعاً تكلموا عن السبل التي يمكن بها صنع السلام
وفيما هم يتحدثون هكذا،على مهلهم
وفي الوقت الذي قال فيه الملكان كلمات جميلة
حول كيفية إنهاء هذه الخلافات المؤلمة
جاءت أخبار ومعلومات أن رجالنا تعرضوا للهجوم عليهم.
وجلبت الأخبار المحزنة مرتين
بأن كثيراً من الأضرار قد أنزلت
والرسول الثالث الذي جاء
قال للملك:«مثل هذا السلم عار
لأن شعب هذه البلاد يمكن

أن يقتلوا شعب ملك انكلترا
في داخل المدينة وفي خارجها».
وكان صحيحاً بدون أي شك
أن اللومبارد تركوا الاجتماع
بعدما أخبروا كل ملك زيفاً وكذباً
أنهم قصدوا التهدئة وإنهاء
الصراع. لقد ذهبوا لجعل الأمور أسوأ
جورديان دمر بن Jourdian du pin ومرغريت(*) Margarit
(ضربهما جميع الشياطين،فذلك لهما مناسب)
فهذان فجرا الشجار
وكانا نبعه وأصله
وهناك وقف ملك انكلترا
وتبعه على الفور ملك فرنسا وكان على مقربة منه
وحكى الذي روى الأخبار:
بأن ملك انكلترا وقتها امتطى
فرسه،وتوجه لإنهاء الشجار
لكنه ماأن سار وابتعد
حتى تفوه أهل المدينة ووجهوا الشتائم

* ـــ كان جورديان قائد مسينا تحت إمرة تانكرد،ومرغريت هو لقب أطلق على أمير الماء في صقلية.

إليه، وشعر بالاهانة،والافتراء عليه
وأخذ سلاحه،ووجه الملك الأمر
بوجوب الهجوم عليهم من البحر
ومن البر ففي العالم أجمع
لم يكن هناك محارب منه أقدر.

الأمر الذي لم يشارك فيه الفرنسيون

وكان الجيشان عظيما والاضطراب هائلاً ،وع—ظيماً
كان الصراع ، وعاشت البلدة في حالة رعب .
وبحث الفرنيسون عن ملكهم بقلق
في رحاب ملك انكلترا وضيافته
لأن البلدة كانت في حال من الاضطراب عظيم
ولم يخيل اليهم أنهم سيعثرون عليه أبداً.
ووقتها كان قد ، عاد الى القصر
حيث سكن من وأقام
ثم بادر اللومبارد مسرعين نحوه
وامسكوا به بوساطة ركابه الايسر
وأعطوه هدايا ، ووعدوه بالدفع
ومنحوه شرف النهار
وسألوا راجين حمايته وعونه

داخل البلدة ، وعن طواعية جعلوا
أنفسهم رعايا لحكمه وملكه.
وهكذا بجهد، وثمن ، وألم
أقنعوه لحمل سلاحه ،
وأكد واحد جدير بالتصديق
أنه أعطى الصقليين المزيد
من العون أكثر مما يمكن للانكليز تحمله .
وهكذا أطلق مجدداً الاغراء
وازداد الاضطراب داخل الحشد.
وكان الفرنسيون في داخل المدينة
وادعين ومتحررين من القلق والاهتمام.
ووثق اللومبارد بهم حقيقة
ومع أن الحشد أعطى قليلاً من الاهتمام .
أغلقت الأبواب الآن وسدت
وسكان البلدة ، تسلحوا وما لوا نحو القتال
وصعدوا فوق الأسوار ، للدفاع
عنهم ، ولكن قضت الحاجة بنزولهم فوراً
والذين قاموا بالحملة من المدينة
وحملوا حملة مميتة الى

حيث مولاي هيوج دي برن عمل بشكل طيب .
وكانوا يقاتلون يداً بيد ، واختلط الحابل بالنابل
وعندما وصل ملك انكلترا ، عشرون
من الرجال كانوا معه ، ليس أكثر ،
كما أظن ، عندما التحق بالصفوف المتحاربة .
وما أن رآه اللومبارد ، حتى مباشرة
تخلوا عن تهديداتهم
واستداروا على أعقابهم وهربوا.
ولحق بهم الملك الجريء عن قرب وضغط
عليهم ، ويؤكد امبرويز
أنهم عندما رأوه يقدم ، يمكنك
أن تعتقد أنهم شياه هاربة
عندما شعرت بالرعب من الالتهام من قبل ذئب شرير .
أو مثل ثيران هاربة من النير
وركض هؤلاء الرجال نحو الباب الخلفي
المتجه باتجاه بلرم
وهناك هاجمهم ، ولست أعرف
كم عدد الذين ألقاه منهم أرضاً
ونهض الحشد كله ، وامتطى كل واحد منه حصاناً

لأنهم هوجموا بشدة وبقوة
من اللومبارد الذين كانوا غاضبين أشد الغضب
ومن الاغريق الغضابى والغدارين.

الانكليز يحملون بعنف من جهة البر

لكن اصحابنا كانوا رجالاً ذوي خبرة وشهرة
ومن الذين حاصروا مدنا كثيرة :
وكانوا نورماندين وبواتفيين
وغسكون ومن مانيسو وآنجو
وعندما جاء الذين هم من انكلترا
كانوا أكثر من أن يستطيع الانسان عدهم أو تسميتهم
وهكذا هاجموهم، شجعانا بواسل
عندما دفعوهم عن الأسوار وأبعدوهم
وكلهم ركبوا وحول المدينة وطافوا
حتى شقوا طريقهم الى داخلها
وأطلق سكان المدينة النشاب،ورموا بالحراب
وسببوا ضرراً كبيراً للذين رموهم
بالجروخ من القسي،وبرمايات القسي العقارة
وبكل ماتوفر لديهم،قاتلوا بحدة وشدة
فرموا بالحجارة والصخور من أعلى الأسوار

وآذوا رجالنا بهذا كله أذى عظيما
وتطايرت الأسهم والرمايات مثل المطر المنهمر بغزارة
وتسبب ذلك لحجاجنا بالأذى والألم
وتلقى ثلاثة من فرساننا ضربات قاتلة
وأصيبوا بجراحات بليغة لدى دخولهم بوابة.
وكان بيترتايربرويي Tireproieواحداً ممن
جسده ألقوه ميتاً على
الطريق،وأيضاً ماهيو دي سوكوي Maheu de saucoi
الذي على البقعة نفسها ألقوا بجسده
وجثة رالف دي روفري Rovroiوجدوها
هناك على الأرض(فهذا ماتبرهن صدقه).
ولأجلهم كان هناك حزن وقداس لراحة أنفسهم؛
يارب امنحهم الخلاص وأنزله عليهم
ولو أن اللومبارد كانوا شجعاناً ومخلصين
لردوا الجنود الملكيين وهزموهم
لكن صفوفهم العليا تصرفت بحماقة جعلتنا
متشوقين ومتسرعين للانتقام
وكان الذين تولوا الدفاع عن المدينة آنذاك
أكثر من خمسين ألفاً من الرجال

- ١٢٧٠ -

على الأسوار وفي الأبراج متخفين
محميين بالدرابيء والترسة.
وكان يمكنك أن ترى هناك حرباً شديدة قد نشبت
من قبل عدد كبير من الرجال الأشداء الغضابى.

محاولة الاستيلاء على المدينة بحراً

واقتربت الغلايين من القصر
عازمة على تجديد الحملة.
لكن على الساحل،حيث خططوا
للهجوم،تمركز ملك فرنسا،
ولم يكن ليسمح للغلايين بالدخول
الى الميناء،الذي لم يستطيعوا لهذا السبب نيله.
ومن الشاطىء رموا،وقتلوا
اثنين من البحارة—وكان عملاً قذرا فعلوه.
أما من جانب البر فإن هجوم ملك
انكلترا الحاد أنزل ضربة حادة باللومبارد،بهجوم
مميت قاتل ردهم به الى الوراء.
أما رجاله—وكان مشهداً جميلاً أن تراه—
فقد تجاوزوا كل العقبات
وشطروا أقفال الباب الى شطرين.

وعدداً كبيراً أسروا،والعديد قتلوا،
ومضى بعضهم مباشرة يشقون طريقهم خلال الشوارع
وهم الذين انزاحوا من أمام اندفاعهم؛
ولأنهم من أعالي أسقف البيوت
رموا مثل زخات المطر بالنشاب على المقاتلين.
مع هذا،وعلى الرغم من كل مابذلوه ومن قتالهم
لم يكن بامكانهم الصمود أمام هذا الهجوم.
وكل من جلب الساقة بعد ذلك
كان الملك الأول جرأة بينهم
لشق طريقه الى البلدة،ومن ثم
لحق به هناك عشرة آلاف رجل
ووقتها هل سمعت أصوات رجالنا وصراخهم
....
وباقتحام وضرب مع صراخ مشوب بالخوف
وبجرح وطعن ورمي هنا وهناك
بسرعة استولوا على مسينا حتى كثيراً قبل
أن يتلو كاهن قداسه الليلي وينهيه
وكثير هلك في المدينة
لولا أن الملك تلطف وأشفق.

- ١٢٧٢ -

ولك أن تعرف بشكل مؤكد
أن كثيراً من الممتلكات قد فقدت
عندما بنجاح قاتلوا
المدينة.وبسرعة سلبت ونهبت
ودمرت سفنهم وأحرقت
التي لم تكن فقيرة أو تستحق الاهمال.
وكان هناك نساء أسرن ،جميلات
ورائعات ولطيفات.
وأنا لم أستطع معرفة الحقيقة كاملة
لكن سواء أكان ذلك معقولاً أم حماقة
قبل أن يكون حشدنا مدركاً
رأى الفرنسيون معلقاً بالهواء
فوق أعالي الأسوار راياتنا وأعلامنا
في كثير من الأماكن وبأشكال متنوعة
الأمر الذي ولّد لدى الملك الفرنسي حسداً لن يستطيع الزمان إزالته
وتولد من ذلك أموراً مقلقة مرعبة
عنها نجم تمزيق نورماندي المؤلم وسلخها.

فيليب يأبى القبول بنصر رتشارد

عندما استولى الملك على البلدة

وأعلامه فوق أسوارها خفقت تلقى رسالة من ملك فرنسا
فيها كلمات حسد ورعونة
أنه وأتباعه حزنوا واندهشوا
لأن الأعلام قد رفعت
ووجه وقال:لتنزل الأعلام
وعلى أسوار المدينة لتنصب
الأعلام الفرنسية ولتحل محلها.
وفي الحقيقة،زاد على هذا وبعث يقول
أن رتشارد بما قام به،بشكل صريح
خرق تبعيته له وعنها تخلى
ولهذا هومضطر لاتخاذ اجراء مؤلم ضده.
مولاي،حكمك الآن أنا أطلب:
من الذي له الحق أكثر في نشر أعلامه
الذي وقف جانباً وتقاعس
ولم يرغب في القتال أن يشارك
أو الذي شارك وتجرأ؟
وسمع الملك رتشارد الرسالة،وأرسلها،
ولم يتلطف في مناقشاته المطولة
التي أقامها مع فيليب،الذي بهذا

أثير وغضب غضباً شديداً.
ومع هذا قال وسمع
كثيراً من الكلمات الجارحة المقذعة.
لكن ليس لائقاً بالكتاب
وجوب كتابة كل حماقة

ارسال رتشارد سفراء الى تانكرد

وتوسل عندئذ رجال كبار وعظماء من رجال الدين
وتباحثوا،حتى توافقوا
على سلام،تبعاً لشروطه ومواصفاته
يمكن لكل ملك أن يرفع أعلامه
على برج وعلى شرافة من شرافات السور
ورتبوا أن ترسل رسالة
مباشرة الى ملك صقلية
حول الاعتداءات والاهانات
التي وجهت إليهم والتي رأوها هناك
من قبل السكان والبلدة.
وتوجب على سفراء الملك رتشارد أن يبينو
باسمه،وأن يوضحوا اتمام الايضاح
أنه بحق قوة القانون

يطلب منه بائنة أخته
وحصتها في الثروة العظيمة
حسبما يمكن أن تدعي وفق المعايير القانونية،
ووفق مايمكن للشريعة والعدالة أن
تمنحه للسيدة بمثابة حقها الشرعي.
وبكل سرعة وأبهة جرت تسمية السفراء:
رجال نبلاء حقاً معروفين،وواسعي الشهرة
منحدرين من آباء ذوي مكانة عالية جداً
لوردات،ومن أصل رفيع
ذوي كفاءات وقدرات عظيمة
وغادروا للقيام بهذه السفارة.
وكان بين هؤلاء السفراء
دوق بيرغندي،كان الأول
ومثله روبرت دي سابلSable
وكان شجاعاً،ونبيلاً،وبارعاً في السياسة؛
ولربما ذهب معهما واحدآخر
أنا لاأعرف من هو ولااسمه.
ثم امتطى هذان النبيلان فرسين
وعلى الطريق سارامسرعين

نحو بلرم،حتى يقدما

٨٩٠— ويخبرا بالرسالة التي يحملانها الملك.

الذي ردّ بكلمات لطيفة

الملك تانكرد الذي كان حكيماً جداً

أعد مجلساً لسماع السفراء

وبكثير من المغامرات قد ملأ

حياته،وكان مدبراً جيداً،وبارعاً

بالكتابة.وكان يعرف ماالذي حدث.

وبدون طويل نقاش

قام به، ولم يتردد أو يتوقف

بل عمل رداً بدون تأخير

الى ملك رجال انكلترا

٩٠٠— إنه وفقاً للنظام السائد في بلاده

ولعادات الملك وليم،مع

لوردات وبارونات بلاده

سوف ينهي الآن هذا الخصام

ويفعل مايبدو للجميع أنه الأكثر لياقة.

وإذا ماتولى برجاسية مسينا

القيام بعنف غير لائق

لإيذاء الملك ولازعاجه
يتوجب عليهم القيام بالترضيه.
وعندما الرسل الذين أرسلوا
من قبل الملك رتشارد سمعوا هذا الجواب
البعض بينهم أعلن، بالحقيقة،
وكثيراً تكلموا،باحتجاج واعتراض
لكن بالنسبة لرسل فرنسا
فقد منحوا الكثير من الكؤوس الجيدة.
ووقتها فقد الآخرون صبرهم وتخلوا عنه.

خيانة فيليب

سوف تسمعون الآن عن خلاف عظيم
دوننا أخباره آنذاك وفيها بعد
وهوالذي عمله ملك فرنسا
لأنه—كما يبدو—أرسل رسالة الى
الملك تانكرد سرية جداً
(ولست أدري مالذي تأمله منها)
ليفعل كل مايبدو جيداً بنظره
وأنه هو سيدافع عن حقه
وأنه و هو ملك فرنسا،سوف لن يعلن

الحرب عليه من أجل انكلترا
وأنه أقسم على تقديم العون لتانكرد
وإذا صح هذا،لاقى أجره شراً.
والتاريخ لايضمن ولايؤكد
أنه أبدع مثل هذه الشرور
لكن أصحيح هذا أم غير صحيح،الناس لايجزمون
أنه صدقا قد أرسل رسالة من هذا النوع.
ونكص الذين لم يحصلوا على كؤوس
على أعقابهم وعادوا مسرعين بأقصى سرعة ممكنة
وكانت رسالتهم عالقة في أذهانهم وقد حفظوها
والى مسينا انقلبوا راجعين.

ميتغريفون كان جواب رتشارد

وكان الملك رتشارد آنذاك مشغولاً
ببناء،مع سرور كبير،وفخار
ميتغريفون قوية في شاتو
ملأت الاغريق برعب وحسد عظيم.
وإليه وقتئذ جلب الرسل
تقريراً حول الذي طلبوه
من تانكرد،والذي أعطاهم إياه

جوابا على الطلبات التي طلبوها وأنه
ببراعة قال: القانون سيكون دليله
وهو مع الذي سوف يقرره باروناته
وعلى هذا رد الملك رتشارد.
ولم يتأخر في إعطاء جوابه:
بأنه لن يرفع قضيته لمثل هذا البلاط
بل سيلجأ الى وسائله الذاتيه.
وعندما أعلنت الأخبار وسمعت في الخارج
أنه لن يكون هناك لاسلام ولا هدنة
الخوف من الحرب بات مرعباً جداً
لأن التأييد الذي قدمه ملك فرنسا
لللومبارد،الذين كانوا أذكياء وبارعين،
قد جعل هذا الملك حليفهم.
وبناء عليه عرض تانكرد تنازلات
ولم يأت الآن الى الحشد شيئاً كثيراً أو قليلاً
من أي نوع من الأطعمة أو الأغذية.
ولولا أن السفن والرب كان هناك
لما كان لديهم سوى القليل ليتبلغوا به
لكن في سفن الشحن في الاسطول

كان هناك مخزناً للخمر والقمح واللحم.
وكانت البلدة محروسة بالليل بشكل جيد
وحشد من الخفراء قد تمركز
وحراس.وافترق الملكان واختلفا
بسبب الحسد،الذي جعل الناس يفترقون
ولم يكن ذلك عدلاً أو شيئاً له قيمته.
وسعى الناس ذوي المراتب جاهدين لإقامة
سلم بينهما،ولانهاء الصراع وازالته
ولهذا كانوا الى القصر يركبون
ثم الى ميتغريفون يرجعون
أدراجهم على الطريق نفسه ويعاودون.
ولأنهم جميعاً حاولوا،ومجدداً حاولوا
كانت جميع جهودهم بلا جدوى
حسبما ذكر الكتاب بوضوح وبيان
. . . .
أمام ملك صقلية
الذي عرف أخطاء البلدة تماماً
أخذ فارسين—أحدهما كان ابن
مستشاره،وكان الآخر

ميسيمتMeseemeth صاحب شرطه
وكان رجلاً شجاعاً وأهلاً للإعتماد عليه— والى ملك انكلترا بعث
بهما،يحملان رسالة تقول بأن نيته
لم تكن نحو الحرب متجهة بأي سبيل من السبل
لكن إذا كان الملك رتشارد يقبل بالدفع
من أجل ايقاف جميع مطالبه وأحزانه
فهو على استعداد وراغب في اقامة السلام
وأن يدفع من خزانته عشرين
ألف وزنة من الذهب الخالص
وإذا كان بالزواج يرغب،وحوله يريد
أن يتحدث، وإذا ماوافق اللوردات
في أن تكون ابنته،وهي أميرة
غير مخطوبة،وجديرة،وجميلة،
انه على استعداد لتزويجها من آرثر كونت بريتاني
وإذا كان موافقاً على تحقيق هذا
فإنه سيقسم يميناً مؤكداً أنه سيدفع عشرين
ألف وزنة ذهبية اضافية
غير أنه قال:يجب ردّهذا المبلغ إذا لم يتزوج آرثر من الفتاة
ومثل هذا بالنسبة لأخت الملك،هو

سوف يرسلها إليه مجهزة تماماً وراضية.

الأمر الذي قبله رتشارد

وما أن سمع الملك رتشارد هذا ،لم
يضع وقته بالتشاور،أو بالتفكير الطويل
بل على الفور بعث بأساقفة آخرين
لإقامة سلام صحيح ودائم.
الى رئيس أساقفة مونريال
ورئيس أساقفة ريغيو،وكان حليفاً مخلصاً،
وأسقف إفرو،جون عالي الشأن
الذي بحقه اقترف خطأ وألحق به ضرر
فهؤلاء تباحثوا مع رسل الملك
ولقد عرفوا القضية موضع الخلاف
ومضى مع هؤلاء آخرون من ذوي المكانة.
وكان ما نشده هو السلام،وقد عادوا معهم السلام
وجلبوا معهم الذهب
وثروة،أنا الآن سأتحدث عنها.
وعندما عادوا من مهمتهم
ملأ السلام كل انسان بالبهجة
وبناء عليه قرأت الآن مواثيق العهود وتفحصت

وفصلت وتنوعت ونسخت

وهكذا حصلوا على السلام الذي طلبوه وأقسموا

وجرى ضبط الناس والتأكد من ذلك مرة ثانية

وتمّ وزن الذهب وتبرهن أنه صحيح

وأعطى هذا الملك كثيراً جداً من السرور

فقد رغب بهذا المال كثيرا وقصد

أن يصرف في سبيل خدمة الرب .

وجلبت أخته عائدة اليه

وشري ارسالها بثمن مرتفع جداً .

وقد رغب الملك بتحريرها وبعثها بدون تأخير

١٠٣٠ — وكل ما سلبه رجاله وأخذوه

من البرجاسية أو من القلعة

توجبت اعادته . ووافقه تماماً

أن يعترف كل واحد لكاهنه

(وإلا سوف يحرم)

كيف أنه أعاد كل شيء . فهذه كانت نصيحة

رئيس أساقفة روان الحكيم .

- ١٢٨٤ -

واستعيد السلام

كانت البلدة الآن في نظام حسن
بلا خصام أو صخب
وكل من خاطر لإحداث
صراع ، شنقوه على الفور ، أو أعدموه .
وتمتع الحشد بعدل حقيقي وهدوء
بارك الرب بروحه ، الذي أقام ذلك هناك
وسافر الناس على الطرق وارتحلوا كما من قبل
ومرة أخرى توفر طعام جيد كثير
طعام للبشر وعلف للبهائم
وهكذا توقفت الاضطرابات
وسكان المدينة الهادئين ، بسرور
أعطوا الحجاج الضيافات .
وتخلى الملكان عن الخصام . مع أنه بالحقيقة
ما لبث بعد ذلك أن تفجر مجدداً
وبعد أمد ، الذهب بعناية
اقتسماه ، وكل أخذ حصته

كرم رتشارد

الفرسان الذين طوال الصيف كله

كانوا هناك ، قالوا : من الخطأ
الاطالة والتأخير ، ورفعوا أصواتهم بالشكوى
لأن الاقامة كلفتهم كثيراً من النفقات .
وذهبت الشكاوي الى هنا والى هناك
حتى وصلت الى مسامع رتشارد الذي وعد بكثير من التجهيزات
لكل واحد حتى يرضى .
ورتشارد ، الذي لم يعرف البخل
ثم أعطاهم عطايا ذوات أثمان عالية
طسوت صنعت من الفضة وكؤوس من ذهب حملوها
في حجورهم ، وكل أخذ بقدر ما يستطيع
وذلك وفقاً لتفاوت مراتبهم
ذلك أن توسعته أكسبته المدح والشكر
من العظيم ، ومن الوسط ، ومن الصغير
وكانت عطايا ه عظيمة جداً
الى حد ، أن كل حاج ، مع أنهم لم يكونوا من الخيالة ،
تسلم مائة قطعة نقدية منه
وأعطى أعطيات ثمينة جداً
للسيدات ، والنساء ، اللائي فقدن
أراضيهن السورية ، وأكثر من هذا

ألقي بهن وطردن من الساحل السوري
وبمثل هذه العطايا المبهجة ، الملك
الفرنسي ، أرضى أتباعه وأفرحهم .
وبات الآن الحشد كله مسروراً
للتشريف العظيم والهبات السخية
ولأعمال القتال التي توقفت
١٠٨٠ — وأقيم الآن هناك احتفال عظيم جداً
٢٥ كانون الثاني ١١٩٠ ففي يوم الميلاد
الملك رتشارد ، صاحب الصدق
عمم النداء ، إن على الجميع أفراد وجماعات
وجوب الاحتفال معه
وجلب ، بالجهد ، وبالكلام
ملك فرنسا ليشارك في مائدته

احتفالات عيد الميلاد

وأقاموا هذا الاحتفال المهيب
في ميتغريغون ، في القاعة
التي بناها ملك انكلترا بقدرة
١٠٩٠ — على الرغم من ارادة جميع سكان المدينة
أنا رأيت الاحتفال والطعام

ولم أشهد هناك منديلاً متسخاً
ولا وعاء ولا طستاً من خشب .
بل رأيت آنية ثمينة وجيدة
محفورة منحوتة بشكل جيد ومرصعة بشكل جميل
وجرى عرض تماثيل غضارية
محلاة بالجواهر الثمينة والمشعة
مما أعطى البهجة وسرور المشهد .
ولقد رأيت خدمات قدمت
بشكل جيد ، فأرضت الجميع وسرتهم .
ولقد كان مهرجاناً جميلاً وبهياً
كما هو لائق ومناسب
وأنا لم أرقط هدايا جمعت بين الثراء
والروعة مثل تلك الهدايا التي
رأيت ، وأعطاها الملك رتشارد
وبكرم منحها الى
الملك الفرنسي والى حاشيته
في صحون من الذهب ومن الفضة أيضاً.

إبحار فيليب نحو عكا

وحان الآن الوقت لجواز البحر

واستعد الآن الرجال الشجعان بحكمة وتدبير

١٨ايلول ١١٩٠ شروعاً من عيد سيدتنا في ايلول

آذار—١١٩١ حتى نهاية الصوم ، حسبما أذكر

كانت الاقامة المؤقتة في مسينا صعبة

الحشد ، الذي تشوق كثيراً جداً

لأن يكون في عكا ، ليشارك في المهام

مع الذين تجرأوا على القاء الحصار

حيث كان هناك كثيراً من الأسى والحزن

أكثر مما زودنا به من أخبار وعرفناه

وشقاء وعذاب بالغ القسوة

١١٢٠— وآلام تحملوها في نصف السنة تلك

والآن عندما باتوا جميعاًمستعدين بشكل جيد

ومن أجل رحلتهم الرب هيأ

كل شيء احتاجوه حقاً

وملك فرنسا الذي نحو البحر اتجه

مع رجاله ، قبل قليل

٧نيسان ١١٩١ من حلول أحد السعف فارق الشاطىء

قدوم بيرنغاريا

ولم يكن ممكناً للملك رتشارد التحرك من هناك

لأن تجهيزاته لم تكن قد اكتملت
السفن والغلايين التي احتاجها
لنقل خيوله المعدة للقتال
وأسلحته وعتاده أيضاً
التي بها سوف يقاتل الكفار .
إحتاج تجهيزها الى وقت طويل جداً
مع القيام باستعدادات أفضل
ورافق الملك الفرنسي
ثم أبحرت على طول جانب بيكون
غلاينيه ، والى ريغيو ذهب
حيث تسلم رسالة أرسلت
تقول إن أمه الى هناك جاءت
وبرفقتها عروسه ، حسناء
وآنسة جديرة ، وصادقة ، وجيدة
ولطيفة جداً في مظهرها النسائي
ومؤمنة ، ونقية من الخطأ أو العار
وبيرنغاريا كان اسمها
وأبوها هو الحاكم في نافار
قد عهد بها الى عناية

أم رتشارد التي جلبتها
سليمة الى جانب الملك رتشارد
ودعيت فيها بعد باسم الملكة ، وقد أحبها
الملك كثيراً،و احترمها
منذ أن كان كونت بواتو
ورغباته كانت دائماً راغبة بها
وقد جعل أمه تأخذها
الى مسينا مع حاشيتها
من الوصيفات ، وكل واحد أخبر الآخر
عن سروره وأنه لم يستطع الصبر
عن الاحتفاظ معه بالفتاة التي
أحبها ، وبعث بأمه الى الوطن
لتتولى حكم بلاده في مكانه
فهي لن تسيء اليه أو تلطخ سمعته
وولتر ، رئيس أساقفة روان
وكان رجلاً حكيماً ، عليه اعتمد
معها ليتولى الوصاية على انكلترا
حيث قاتل كثيراًوعمل بمشقة
ومعها ، وبرفقتها

مضى غلبرت أوف فاسكويل Vascueil وكان هو
الذي ترك غيسور تؤخذ
منا . ولم يؤخر الملك
بعد هذا إعداد غلايينه
لتحمل ، وجهز سفنه بعناية
وجهز كل شيء للشروع
ولعدم التأخر أكثر للانطلاق
والى البحر بعث باروناته أمامه
ومثلهم بعث بخطيبته ، الجديرة بالخير
ومضى عدد كبير من الفرسان النبلاء
إلى جانب أخته وخطيبته
في سفينة كبيرة واحدة ، حتى يمكنهم
مواساة بعضهم بعضاً على الطريق

مغادرة رتشارد لمسينا

وأولاً بعث بهم قبل كل شيء
للابحار نحو مشرق الشمس
المراكب من النوع السريع جدا
لم تبق وقتاً أطول في الميناء
وانتظرت الملك حتى يتناول طعامه

- ١٢٩٢ -

ثم أقلع الاسطول وانطلق في صفوف
من السفن والمراكب الرائعة .
وحدث في اسبوع الآلام العظيمة
أن غادر الاسطول ميناء مسينا
لاحضار مجد الرب والتأييد .
١٠ نيسان ١١٩١ وكان اليوم يوم الأربعاء من الأسبوع المقدس
١١٩٠ — عندما عرف الرب الألم وتعذب مجرداً
ونحن بدورنا ، عانينا من جانبنا
من السهر ، ومن الخوف ، ومن الرعب
ومسينا حيث على طرف ساحلها
عدداً كبيراً جداً من السفن يمكنها التفاخر والإدعاء
أنه لم يتقدم في يوم من الأيام
أن أقلع من هناك وسافر اسطول بمثل هذا الثراء

– ١٢٩٣ –

الفصل الثاني

عاصفة في البحر

تابع الأسطول ابحاره متقدماً بانتظام
نحو الأرض المقدسة المصابة بالويلات
وبسرعة جاز بيكون وبثبات
نحو عكا في داخل البحر المفتوح
للالتحاق بسفن النقل التي أبحرت
لكن رأينا وقتها توقف الرياح الطيبة
لذلك كان على الملك مسروراً الانعطاف عائداً
وتوجب عليه تلك الليلة التوقف ، لانعدام
الريح ، مهما وقع من أمر وحدث فيما بين كالبير ومونتغبل Montgibel
١١ نيسان ١١٩١ ثم في يوم عيد خميس العهد (الغسل)
والذي أخذ الرياح وأخفاها
إنه هو الذي يمكنه أن يعطي وكذلك أن يأخذ
قام عن طواعية بإعادة الرياح
وأعارنا إياها طوال النهار كله

لكنها كانت ضعيفة ، ولهذا فإن السفينة
القوية والغنية توجب توقفها
١٢ نيسان وفي يوم عبادة الصليب
ضربتنا رياح معاكسة هناك
من اليسار ، وكانت شديد عند فياري Viaires (رأس سبارتفنتو)
وجاش البحر من الأعماق واضطرب
وتضاعفت الهبات الشديدة في قوتها
وانحنت الأمواج تحت قوتها
ولهذا لم نفعل شيئاً سوى أننا فقدنا مسارنا
وتملكنا الخوف وأصبنا بالغثيان
وضربتنا الآلام في الفم والقلب والرأس
وصحيح أننا عانينا من شدائد كثيرة
لقد عانينا منها عن طواعية
وصمدنا وصمودنا كان مسوغاً
وكان ذلك من أجله هو الذي تفضل
فتحمل في هذا اليوم الآلام
في سبيل أن يضمن خلاصنا
وكانت العاصفة قوية حتى دفعتنابعيداً
حتى حلول المساء

ووقتها لقينا ريحاً طيبة
مواتية جداً ، وجميلة ، ولطيفة

الابحار الى رودس

فعل الملك رتشارد أفاعيل جيدة
وكان نحو الخير سريعاً ومتدفقاً
وكان من عادته كل ليلة
أن يضع على سفينته اضاءه
مصباح مشتعل يرى
بوضوح كبير وبشعاع لامع
ويظل مشتعلاً طوال الليل حتى طلوع النهار
ويري السفن الأخرى طريقها .
وكان معه بحارة جيدين
عناصر صامدة ، وبارعة في حرفتها
واتجه الجميع نحو مصباح الملك المضيء
ونادراً ما رفعوا أنظارهم عنه
واذا صدف وضلت سفينة وتاهت
بكرم أوقف الملك سفينته
وهذا الاسطول العظيم بسفنه ورجاله
قاده ، مثلما الدجاجة الأم

تقود صيصانها نحو الطعام .
هكذا كانت فروسيته الأهلية
وطوال تلك الليلة أبحرنا ، متحررين
من سوء الطالع ، ومن الأذى
١٣نيسان وعشية عيد الفصح ، الذي سيكون غداً
الرب قادنا من دون حزن أو أسى
وتلك الليلة أيضاً ، وبدون تأخير
١٤نيسان وكذلك طوال يوم عيد الفصح
ولمدة أيام ثلاثة كاملة تقدم الاسطول مسرعاً
ولم يتباطىء الابحار أو تنخفض السرعة مطلقاً
الملك نفسه تولى قيادة الاسطول
١٧— نيسان ويوم الأربعاء غدونا على مرأى من كريت
وتوجه ملك انكلترا نحو اليابسة
ليطوق الجزيرة، وليكون على مقربة من الشاطىء.
هناك ومعه اسطوله أقام
لكن خمساً وعشرين مركباً ضاع
تلك الليلة، وجرفوا بعيداً عنا
مما أزعج الملك وأغضبه
وبالأسى وبالحزن تمزق

وتحركت الأشرعة في الصباح
١٨– نيسان و أبحرنا نحو رودس — وكان ذلك يوم الخميس —
وهي جزيرة أخرى لم تكن بعيدة.
وكانت الرياح قوية، والأمواج عالية
وكانت سريعة وبقدر ماتعاظم حجمها طارت
وهكذا سارت السفن مسرعة وبصوار فيها انحناء
والرب قادنا مسرعين بشكل رائع
وعلى طول ساحل رودس أبحرنا
مع رجل بحار لم يخفق قط
علامته أنه بسرور نظر
إلى الطريق الذي أخذه شعبه.
وهكذا مضينا — والحقيقة هي ما أرويه —
مسرعين حتى حل ظلام الليل.
ووصلنا في صباح الغد إلى
مضيق، دخلناه وسرنا به نزولاً
وتملكت أشرعتنا راحة من الرعب
٢١– نيسان وبقينا هناك حتى مضى يوم الأحد
وإلى رودس وصلنا عند الصباح
وهي المدينة التي فيها ولد هيرود

– ١٢٩٨ –

هم توقفوا في رودس ثم تابعوا نحو أضاليا

كانت رودس بلدة هائلة جداً
وقديمة، وآثارها مشهورة
وكادت أن تكون نظيرة لروما، مع أنه
من الصعب معرفة الحقيقة كاملة.
فكثير جداً من سكانها اندثروا
وخرائب، وأسوار، وأبراج كانت مشعثة
وعدد كبير من الكنائس قد بقي
وكثير جداً من الناس سكنوا هنا وعاشوا
سنيناً كثيرة، وكذلك أجيالاً عديدة
وفي وسط مثل هذه المقاطعة الموزعة
لا يمكن لانسان أن يحصي ويدون
من دون انزعاج كبير جداً.
فأوجه أصالتها وعظمتها
تداعت ولفها الاهمال
ومع هذا ما يزال يعيش هناك
أناس باعونا طعاما وأعلافاً
وبما أنه صدف أن كان الملك
مريضاً ويعاني بعض الشيء

وافقت حاجاته التوقف في رودس
وجهد في البحث وليعرف
فيما إذا كانت سفنه الضائعة قد ذهبت.
وغلايينه التي أشرف عليها
تبعته وسارت على مقربة منه إلى اليابسة
وسأل هنا، وتقصى الأخبار
حول الملك الطاغية الذي حكم
جزيرة قبرص، والذي احتجز
الحجاج هناك، وعشرة أيام أمضينا
في رودس، ثم، عندما مضينا نحو الأيام
١ أيار ١١٩١ كان ذلك في اليوم الأول من أيار
فيومها أقلع الاسطول وسار على طريقه
من رودس، بأشرعة منشورة للهواء
مباشرة نحو خليج أضاليا
حيث الممر مخيف مرعب
ولا يوجد أسوأ منه في أي مكان
فهناك أربعة بحار تتحارب بشكل دائم
وكل واحد منها ينازل الآخر
وما أن أعددنا أنفسنا لدخول

الخليج، حتى هبت ريح عنيفة جدا
وساقتنا إلى الخلف، وإلى حلول المساء
كنا ما نزال عند نقطة دخولنا
ثم غيرت الريح اتجاهها، ومثل هذا التغيير غالبا ما يحدث
وبلطف سبلها لانت
ثم من الخلف بشدة وجهت ضربة
نحونا جعلتنا نمتلىء بالرعب
لأن الخليج الذي كنا فيه
أعطانا من الرعب الشيء الكثير

سفينة تحمل أخباراً من سورية

وتولت سفينة الملك قيادة الطريق
حسبما كانت العادة كل يوم
وتطلع الملك نحو البحر الهائل واستطلع
فراى بارجة تقترب من حيث كان
وكانت عائدة من سورية
وبما أنه اشتاق كثيرا نحو سماع الأخبار
اقترب منها ليطلب
الأخبار عن الأرض المقدسة ومنها .
وقد أخبروه بأن ملك فرنسا

قد رسا ونزل اليابسة بدون أذى
وهو عند عكا ينتظره هناك
وفي كل يوم يعمل لاعداد
آلات حرب ليأخذ بها المدينة
وفكر الملك رتشارد وخطط لإعداد
خطة مختلفة ورسمها في ذهنه.
أما الآن والبارجة تركت وعنه كثيراً ابتعدت
واصطرع الملك الآن مع الرياح
حتى أذن الرب له بالوصول
إلى أمام قبرص، واقترب من اليابسة،
فالرب قد ألقاها بين يديه.
ووجد أخته وعروسه
كانتا هناك، وكذلك جميع رجالها.

طاغية قبرص الغدار

أصغوا إلي، يا سادتي، واسمعوا كم من المعاناة
وكم من الاحباطات الهائلة
وكم من الاضطرابات، والعواصف، وغرق السفن
وكم من النكسات والحملات
وكم كانت الرغبات عظيمة، والمآ سي هائلة

وكم من الفواجع والنوازل الكبيرة
تحملته أرض سورية هذه
قبل ضمان انقاذها
وكان الألم بلا حدود من أجل
خسارة الامبراطور الألماني
الذي إلى هناك توجه بأبهة كبيرة
فقط ليموت هكذا بشكل مفاجيء
وامتحنت الأرض المقدسة بشكل مؤلم
عندما هنري، ملك انكلترا، مات
هنري الجيد، الذي كان حكيماً جداً
وامتلك ثروات وامكانات كبيرة
كافية لتمكينه من الاستيلاء على جميع
البلاد، وانقاذ بلدة صور.
وقد كان مصدراً لمزيد من المتاعب
عندما مات وليم، الملك الجيد
الذي في غالب الأوقات جلب إليها العون
وعندما توفي، قام حزن عظيم ومناحة عليه.
وألم بالمملكة سوء حظ عظيم وكوارث
من مآسي مثل هذه وحظوظ عاثرة

لكن ما من أحد سبب لها من الأحزان العظيمة
والعذاب والتعاسة والشقاء
مثلما جاءها مرسلاً من قبرص
وهي جزيرة غنية قريبة من ساحل سورية
للمملكة بعثت بكثير من العون فيما مضى
لكن الآن لم يعد يأتي شيئاً من تلك الجزيرة
لأن طاغية الآن سكن فيها
مع كل الشرور والمساوىء وتعامل
بالغدر والفساد والخيانة وكان
أسوأ من يهوذا أو جنلون
وعن جميع المسيحيين تخلى ولهم هجر
ولصلاح الدين اتخذ لنفسه صديقاً.
وعنهما قيل وبمثابة حقيقة روي
أنهما وقّعا فيما بينهما ميثاق صداقة.
بشرب كل واحد منهما لدم الآخر
وقد تبرهن أن هذا ليس زيفاً ولااختراع
وسواء أكانت دولته امبراطورية أو ملكية
من المتوجب حقاً تحويلها إلى دمار
وهو نفسه أن يدمر ويحطم

فهو إن لم يوقف، بدون ضبط أو ربط
لقوى الشر سوف يثير
وسيصيب بالطاعون الرعايا المسيحيين الطيبين عند الرب

محاولات لأسر الملكتين

من مراكب رتشارد التي تفرقت
ثلاثة ألقيت هنا على الساحل وانشطرت.
الذين نجو من غرق السفن و
وسط المخاطر شقوا طريقهم نحو اليابسة
أمر بانتزاع أسلحتهم منهم ثم جعل
منهم أسرى لديه ومغدور بهم
لأنه من خلالهم ضمن لنفسه
السلامة، لكن لمدة وجيزة من الزمن
لأنه هنا الذي افتقر إلى الصدق وإلى الشرف
عرضهم مباشرة للهجوم والحملة عليهم.
غير أنهم دافعوا عن أنفسهم بثبات وبشجاعة
وباعوا بالحقيقة غضبهم بثمن مرتفع جداً
فكل واحد من ثلاثة منهم كان لديه قوس واحد
لم يعلم به الاغريق السفهاء.
وكان هناك رودن دي هيردكورت Herdecourt

رجل الملك، وواحد من أعضاء بلاطه.
الذي على ظهر مهر منهك امتطى
وبسرعة قطّعهم وأنقص تعدادهم
ووليم دي بوي Bois وهو نورماندي كذلك
وكان رامياً ماهراً، رمى بنشابه بشكل جيد
فطعنهم وأصابهم بالوجه وبالظهر
ما من آلة، كان يمكنها احداث خوف أعظم.
وهكذا، شقوا بشكل علني طريقهم
إلى حيث السفن كانت راسية بالميناء
فإلى هناك كانت الملكة قد جلبت
وهناك كانت معركة هائلة قوتلت.
وقاتل الأسرى ببسالة.

وصول رتشارد لمقاومته

وعندما علم الملك بهذه الخيانة
أمر بالتوقف في الميناء، وعندما عرف
بالأذى الذي لحق برجاله
ورأى مركب أخته، حيث
انتظرت وصوله في خوف عظيم
ورأى الرصيف كله قد غطي من

قبل هؤلاء الاغريق الحقراء والجبناء
وهم يريدون اقتراف المزيد من الكفر، فمنعهم
وعلى الفور نزل إلى الشاطىء
الذي فكر الطاغية بالدفاع عنه
لكنه لم يتجرأ على مواجهة الملك الأبي
٦– أيار ١١٩١ صباح يوم اثنين كان هو التاريخ
الذي تفضل الرب بتعيينه
للملك ليقوم بتنفيذ هذه الأفاعيل
لينقذ السفن الجانحة في وقت حاجتها
وليحفظ أخته من المساوىء
وليتولى تحرير عروسه.
وكان مكروهاً لكل واحدة من السيدتين
اليوم الذي وصلتا فيه إلى هذا الميناء
لأنه كان مؤكداً أن الامبراطور سوف
يعتقلهما معاً لو أنه فقط استطاع.
وخطط الملك لمهاجمة الميناء
وبيسر كان سيستولي عليه لولا أنه لم يخل
من مدافعين، لأن الامبراطور
نفسه جاء إلى الساحل نازلاً

مع جميع أعوانه وكل
من استطاع أن يستأجره أو يأمره.

وأهين من قبل الامبراطور

واختار الملك رسولاً
وجعله يجذف باتجاه الشاطىء مباشرة
وإلى الامبراطور توجه، ومنه
طلب بكل لطف وأدب
أن يعيد كل ما هو عائد
إلى الأسرى وأن يعوض عن الأضرار
التي ألحقها بالحجاج
والتي جلبت الدموع لكثير من اليتامى.
ورد الامبراطور بازدراء واستخفاف
كان عظيماً إلى حد أنه فاق كل التحمل
وأجاب الرسول
بغضب غير ملجوم قائلاً: «Tproupt sir »
ولم يكن يرغب في أن يعطي جواباً ألطف
بل غضب وسخر واستهزأ
وعندها على الفور عاد الرسول مسرعاً
إلى الملك وأخبره بما قيل.

وسمع الملك الكلمات القبيحة، ثم التفت
نحو رجاله وقال: «سلحوا أنفسكم»
الأمر الذي نفذوه جميعاً على الفور
دونما توقف أو تأخير طويل.
وتوجب الآن في القوارب الصغيرة لسفنهم
ايداع أنفسهم، وهم شاكي السلاح
وملئت القوارب بفرسان جيدين
وبرماة الجروخ البواسل والبارعين
ومثل هذا حمل رجال عدونا قسياً عقارة
١٤٨٠ — واصطف رجاله واتخذوا مواقعهم على الساحل
وكان لديهم خمسة غلايين، أيضاً، وكانوا
مسلحين وجاهزين للقتال.
لكن لدى رؤيتهم لسلاحنا، غير مأمونين
شعروا، وخافوا من سوء المنقلب.

تحقيق الانكليز لإنزال بالقوة

في ليماسول، بلدة قائمة هناك
تأصل القتال وهناك اندلع
ولم تكن نافذة أو بوابة هناك تركت
أو سلاح مناسب للمتطوعة

أو برميل أو وعاء أو ترس أو دريئة
أو غليون قديم، أو بارجة عتيقة
أو لوح أو عارضة خشبية أوسلم أو قطع من أي نوع
كان بإمكانهم ايجادها متوفرة للنقل
إلا وجلبوها إلى الساحل
بقصد ايذاء الحجاج بالقدر الممكن
واصطفوا مسلحين على الرصيف، وشعروا بفخار تجاوز
شعور أي انسان يعيش في الكون
وكان معهم أعلام خفاقة وصفوف
من المعدات الثمينة والأشياء الزاهية
وامتطوا خيولاً قوية وسريعة
أو على بغال جميلة أو مهرة
ومثل الكلاب نحونا نبحوا ومنا سخروا
لكن فخارهم بسرعة اختفى
ومن البداية كنا نحن معاقين
لأننا من البحر جئنا مباشرة سائقين
وأرسلنا بقوارب صغيرة جداً ، لابل صغيرة الى أبعد الحدود
وبجيشان البحر مزقنا
وقذفنا وتأرجحنا الى هنا وهناك وأنهكنا .

وكل واحد منا على قدميه ، انحنى
بثقل سلاحه ومعداته
وكانوا هم في بلادهم
لكن بالحرب كنا نعرف أكثر منهم كثيراً
وأقواسنا العقارة أصابت مقاتليهم
وكثير منهم لم ينج منها ، أنا عرفت .
وعلى الغليون رجال ، غير مدربين
على الحرب ، في البداية أمطروهم بنشابهم
وجرحوهم وآلموهم كثيراً وطعنوهم
حتى أن كثيرين قفزوا من قواربهم
الى الماء ، أربعة فأربعة
وكل واحد منهم تعثر بالذي قبله
ثم قلبت غلايينهم
واستولي عليها وشغلها رجالنا
ورماتنا ومثلهم رماة الجروخ
أرسلوا سحائب من النشاب على أعدائهم
ونكص الاغريق على أعقابهم أمام الرمايات
ووقتها كان عليك أن تسمع جندنا وهم يسخرون
منهم ، مثلما سخروا منا قبل وقت قصير مضى

قبل أن نبدأ هجومنا
وعلى كلا الجانبين رمى الجند وقذفوا
نشابهم فيما تابع مجذفونا الاندفاع
بثبات ، بينما سحابة كثيفة وسريعة
من النشاب والجروخ نحوهم رميت
وكل الشاطىء على طول الرصيف
امتلأ بأناس متوحشين وهمج
وأعمال جريئة كان بإمكانك
أن تراها ، وأن ترى مقاتلين بارعين في القتال
وعندما رأى الملك كم من الأذى لحق
بجماعته ، كان على وشك أن يضع قدميه
على اليابسة ، ومن قاربه قفز
الى البحر ، وبقوة طعن
الأغريق ، وسار البقية بعده
وتبعوه . وقام الاغريق بالدفاع
وانصب رجالنا وعلى طول الشاطىء انتشروا
يضربون الاغريق ويلحقون بهم الهزيمة .

تمزق الاغريق

ثم هل رأيت انهار النشاب

والاغريق وقد تمزقوا وقتلوا
وبشدة شديدة صدموا وبقسوة ضربوا
والى داخل البلدة سيقوا وأبعدوا
وعساكرنا مثل الأسود بسرعة طاردوهم
وللرجال وللخيول قطعوا وبتروا .
وأمام شعب اللاتين الشجعان
الاغريق والأرمن هربوا وانسحقوا
حتى الى الحقول انهزموا فارين
وطاردهم رجالنا عن قرب وساقوهم
والامبراطور نفسه ، الذي انهزم
تبعه الملك مباشرة ولاحقه
حتى ، توقف في طريقه وهو يطارده
فقد جاء على ظهر فرس أو حصان
على ظهره بدلاً من السرج حقيبة
وركابات من الخيش امتلك الفرس العجوز .
وبقفزة ، تجاوز السرج وتخطاه
والى الامبراطور المزيف صرخ وقال :
« تعال أيها الامبراطور ، وقارع ، تعال مسرعا»
لكنه للقراع لم يكن لديه مزاج

وطاردهم في التلال

وأعطى الملك الأمر بالترجل من على
ظهور جميع الخيول ، بعد حلول الظلام
وأمر بجلب جميع غلايينه
وعن الامبراطور كان لا يعلم شيئاً
ولم يدر لأي طريق سلك
ثم تركت الخيول للرعي والاستراحة
لأنها كانت كلها منهكة ومعقورة
ومتيبسة بسبب الشهر المتقدم كله
الذي أمضوه فوق ظهر البحار
حيث لم يكن بمقدورهم الاضطجاع بحرية
وبهذه الاستراحة القصيرة ، كل متاعبهم
بدأت تزول ، وأخذوا يعودون الى طبيعتهم
وفي الصباح مباشرة امتطى الملك حصانه
فهو الذي تولى هذا الأمر شخصياً
وفي داخل بستان للزيتون ، على محاذاة
طرف الطريق ، ليس بعيداً كان هناك حشد
من الاغريق واقفين ومعهم أعلامهم
ورايانهم من مختلف الأشكال والأنواع .

ومن هناك طردهم الملك ، ثم وضع
على رأسه خوذة من الفولاذ
وسريعاً أخذ بالمطاردة
ثم كان بإمكانك أن ترى رجال شجاعة وصدق
يطاردون عن قرب من قبل طلائعنا
وقد فروا ، وضغطنا عليهم بسرعة وشدة
حتى تصادم رجالنا مع
حشدهم الأساسي ، وطاردناهم ، وهربوا
ووقتها أوقفنا مطاردتنا
وهم بدأوا بالصراخ والنباح
وصاحوا وأصدروا صخباً عالياً
(فهذا ما أخبرنا به الذين سمعوا الأصوات)
إلى حد أن الامبراطور في خيمته
سمع — كما قيل — الصراخ والعويل
من مسافة تزيد على نصف مرحلة
مما جعله ينسحب ليقيم
وتغدى ونام بينها استمر الصراع
لكنهم بجرأة انقضوا عليه
فقام وصحبه بامتطاء الخيول

والى الجبال توجهوا وركبوا الطريق
ليروا فقط ما كان بإمكان رجالهم أن يفعلوا
وهم الذين عرفوا الرماية ولم يعرفوا شيئاً آخر .
وظلوا يصرخون ، وحول الحلبة يدورون
ورجالنا لم يتحركوا من مكانهم

رتشارد يطارد دون مبالاة بالمخاطر

والى الملك جاء كاتب غير مسلح
هيوج دي لى مير ، كان اسم الكاتب
والى الملك أعطى نصيحة ، مولاي
قال له : ابتعد من هنا ، وتراجع
إن لديهم قوة عظيمة تتجاوز التعداد
وقال الملك : الى دفاترك
عد أيها السيد الكاتب ، ابتعد واكتب
واجعل نفسك نائياً عن القتال
ودع لنا أمور الفروسية والنضال
من أجل الرب ومن أجل القديسة مريم
هكذا قال هذا الرجل مع آخرين
لدى رؤيتهم الأعداد بهذا العدد الهائل
لأنه في تلك الساعة وقف أمام ذلك الحشد

أربعين فقط ، أو إذا بالغنا قلنا
خمسين ، من الفرسان الجيدين وراء الملك
ولم ينتظر الملك الشجاع أن يُهاجم
بل انقض عليهم بإندفاع
أسرع من ضوء أي برق .
مثلما ينقض على قنبرة طائر صيد
(وكل من رأى الانقضاض ذلك اليوم أثنى عليه.)
وهكذا انقض الملك واندفع نحو الأمام
وطعن الحشد الأغريقي الشرير
ومزق وفرق جمعهم
ورماهم بالرعب وضربهم بالفزع
وسبب لهم الفوضى واليأس
وفي الوقت نفسه تجمع رجاله هناك
ومع ازدياد قوته بالعدد
أسروا كثيراً من الأغريق أو قتلوا
ودون احصاء للذين بدناءة فروا
ما من انسان يمكنه أبداً أن يحصي القتلى
لأن الذين منهم كانت لديهم خيول
صعدوا تلالاً وهبطوا ودياناً دونما توقف

فيْ حين الرجّالة ، الجماعات المتواضعة والبسيطة
أخذوا جميعاً أسرى ، أو قتلوا

الاستيلاء على العلم الامبراطوري

وكان القتال شديداً ، وحيثما ذهبت
كانت هناك خيول ملقاة على الأرض .
ودروع وأعلام ، ورماح وسيوف
ملقاة هنا وهناك ، شذ ر مذر فوق سطح الأرض
بينها تمايلت خيول محملة وتأرجحت ووقعت
ولدى رؤيته أن رجاله لن يستطيعوا ايقاف
حملتناوأن أكثر فأكثر
قوتنا ازدادت ، الامبراطور
الى ذروة الجبل انسحب
مع طا قمه من الأغريق والأرمن
متخلين لنا عن البسائط
وعندما رأى رتشارد ملك انكلترا
أنه هكذا فرّ وهرب
تاركاً عساكره في مأزق صعب
أقدم الملك على الرجل الذي حمل
راية الامبراطور

وضربه فألقاه أرضاً ، وتلقى بيده
الراية ، وأصدر أوامره
بأن تحرس بكل عناية
ورأى قواتهم المقهورة تنهزم
مثل ذبابات في وسط العاصفة ، وكثيراً من الرؤوس
وكثيراً من الأجساد المجروحة تنزف
ولم يعط أمراً بالمطاردة :
فقد عرف ، أنه لن يستطيع أسرهم
وكان فرنجتنا شجعاناً وأقوياء
قد طاردوهم مرحلتين كاملتين

الأسلاب الثمينة

ثم ببطء عاد أدراجه ، وعطف
طريقه ، أما جنده فلم يتوقفوا
عن الاستيلاء على صحون ثمينة
من الذهب والفضة ، غالية ، ومزينة
تخلى عنها الامبراطور
وكانت هناك خيمته المضروبة من قبل :
وفيها جهازه وثيابه وفراشه الشخصي
وكثير من الملابس الحريرية وأقمشة لونها أحمر

وخيول وبغال محملة الى أبعد الحدود
وكأنها كانت سوق البلدة
وهناك كانت دروع وخوذ وسيوف أيضاً
ملقاة جانباً هنا وهناك
وثيران وأبقار ، وماعز ،و أوز
كلها حيوية ، وجميلة ورائعة
وأكباش وشياه وخرفان كانت هناك
وكثير جداً من المهرة والأفراس
والديوك والدجاج وديكة مخصية سمينة
وبغال سمينة تماماً قد حملت على
ظهورها القوية ألحفة جميلة مطرزة
وثياباً ذات مظهر جميل وثمين
وخيول جيدة تساوي أكثر بكثير
من خيولنا،لكنها الآن منهكة ومعقورة
ومثل هذا أسروا ترجمانه
الذي اسمه — كما سمعت — جون
واغريق وأرمن بأعداد كبيرة
حتى أنهم أعاقوا الطرق العامة
وخمور جيدة وأطعمة بكميات هائلة

مامن أحد قادر على احصائها أو الحديث عنها.
وأمر الملك باعلان منع وتوقف
وأعطى الأمان بالطول والعرض
لجميع الناس سكان البلاد
الذين ليس لديهم رغبة بالحرب،و
الى الذين ليس لديهم رغبة بالسلام
١٧٠٠ — لم يعدهم لابهدنة ولابكف عن القتال

قدوم الملك غي من سورية

١١—أيار ١١٩١في يوم السبت من ذلك الأسبوع نفسه
الذي أحلّ بالاغريق الويلات الهائلة
وصل الى ليماسول ثلاثة غلايين
من قبرص عائدة بطريق البحر
مع ملك القدس
وعدد كبير من شعبنا حدقوا به
إنه غي لوزغنان،فهو كان الملك
الذي عانى كثيراً من الآلام والمصاعب .
للدفاع عن أرض ربنا ومولانا
١٧١٠ — وقد توجب عليه مغادرتها أخيراً
لأن ملك فرنسا كان يسره—

الأمر الذي سبب لقلبه الكثير من الآلام—
الاساءة إليه وطرده وخلعه
والى المركيز أن يعطي التاج
ولهذا ترك البلاد وفرّ
والى ملك انكلترا باردمسرعاً
لينقذه،خشية أن يسقط
وكان الملك مسروراً أنه جاء
وعلى الفور مضى للقائه واستقباله
ويمكنك أن توقن تماماً وتعرف
أنه استقبله بكل حرارة
لأنه كان من أسرة عظيمة
وحمل أقرباؤه كثيراً من الأسماء النبيلة
وكانوا معه عندما جاء
وكان واضحاً تماما
أنهم لم يكونوا من أصل دنيء
وأظهر الملك سروره بقدومه بشكل واضح جداً
وأكرمه وشرفه بمختلف الأنواع
وأعطاه من ممتلكاته
(وصدر ذلك عن حكمة ولطف زائد)

كما أعتقد،ألفي مارك تماماً

(وهي هدية ليست ذات قدر صغير)

وأعطاه عشرين كأساً،كما أخبرت

اثنتان منهن صنعتا من الذهب الخالص

زواج رتشارد من بيرنغاريا

١٢—أيار وفي اليوم التالي لذلك اليوم

كان زواجه من عروسه الجميلة

وحدث في ليماسول أن جرى تتويج

أجمل عروس يمكن أن توجد

في أي وقت وفي أي مكان

١٧٤٠— ملكة فاضلة مع وجه جميل

وبات الملك الآن الأكثر روعة

لأنه كان المنتصر

ولأنه تزوج من الفتاة

التي كرس لها حياته وعاهدها بلسانه

رتشارد ينظم قوته

والآن وقد جاءت غلايينه،التي

انتظرها بفارغ الصبر

وظهرت وهي مسلحة بشكل جيد

حتى أننا لم نر لها نظيرا
وكان مع السفن الأخرى،الخمس
التي ربحناها،ومعهم وصلت
ومع الأخرى التي كانت في الميناء
والتي التجأ إليها التجاء كاملاً
سلح من السفن أربعين سفينة تماماً
ساوت بالقيمة خمسين سفينة،وربما أكثر
واستولى فيها بعد على السفينة
الرائعة مع طاقم بحارتها الكبير من الرجال الشجعان
وكان تعدادهم ثمانمائة رجل،فهكذا قدروا
وكانوا جميعاً من الترك والفرس،غير معمدين
وأردا الملك انزال المزيد من ضرباته الغاضبة
على الأرمن الملعونين والاغريق
وأعد حشده للقتال
وطلب من حراسه الحراسة أثناء الليل
على أمل أسر الامبراطور
في قلب أملاكه الشخصية

الامبراطور يتوسل للسلام

بعد هذه المتاعب وإثرها

عندما تحمل الاغريق عاراً عظيماً
كان الامبراطور في نيقوسيا
هو شخصياً ومعه جماعته الكبيرة
وقد أصيب بحزن عظيم،وبغضب،واذلال
لأنه فقد جميع رجاله في القتال
ولأن قواته هربت وفرت
ولم يجد مواساة
فقد نظرت بلاده إليه نظرة كراهية
وكان خوفه من ملك انكلترا عظيماً
ولهذا بعث إليه برسول
يعده بتقديم تعويض.
وأكد أنه سيقدم إليه
وسوف يقسم بلسانه على الولاءله
والى سورية سوف يرسل
مساعدة أعدها للملك هي خمسمائه
رجل من الخيالة،سوف يقفون بثبات
في سبيل الرب،وسيطيعون أوامر الملك.
وزيادة على هذا وافق
على إعطاء الملك المزيد من الضمانات

من ذلك ضمانة وضع قلاعه تحت تصرفه
ومعها ميراثه الغني
وتعويضاً عن الرجال الذين قتلوا أثناء الاضطراب
سيدفع ثلاثة آلاف وخمسائة مارك.
وإذا ما أطاع أوامر الملك وخدمه
بأمانة،سوف يسترد منه بلاده.

إقسام أيمان التبعية لرتشارد

ولم يكن الملك غير مهتم بالصفقة
وكذلك مثله كان الامبراطور،وكلاهما
حددا بسرعة موعداً ومكانا
حيث يمكن خلاله وفيه التباحث
وكان المكان بستان تين وقع
فيما بين الشاطىء والطريق العام
المؤدي الى ليماسول،كما يبدولي
وهناك اجتمعا مع وفدين كاملين
وكانت هناك مسائل قيل عنها وأخبر
إنها أفضل مما كان قد أنجز
وجمع الملك اليه مستشاريه
تشاور مع أكثر رجاله عقلاً وحكمة

وقال للذين جلسوا هناك
والذين كثيرا رغبوا بمثل هذا السلام وإليه تطلعوا:
« سادتي اللوردات أنتم ذراعي الأيمن.انظروا
فيما إذا كان مثل هذا الاتفاق ممكناً
وانظروا أن ذلك لن يلحق ضرراً
بشرفكم،الذي هوهنا موضع رهان
لأنه إذا كان يرضيكم،سوف
يتم،لكن لن يكون إذا ابدا لكم سيئاً».
فقالوا:«مولاي،نعتقد أنه جيد
وبوساطة مثل هذا السلام نحن مشرفون»
وبناء عليه عادوا،وفي الحقيقة
وافقوا على جميع شروط السلام.
والى الملك،الامبراطور
أقسم الآن يمين الولاء
وأعطاه ضمانه،وبوقار
قبله قبلة الولاء والاخلاص

وتلقى الهدايا

وقام الملك بتعويض الحشد
الذي تضرر،وكان على الفور هناك

وأعطى وعداً صادقاً أنه سيضاعف ثلاث مرات ثرواته
والخيام الثمينة جداً،التي
استولى عليها أثناء الهزيمة
التي أنزلت بالاغريق الأدنياء
(وكانوا من أفخر القماش،كما كانوا
كما أعتقد،خيم الامبراطور الخاصة)
وصحون ثمينة بكميات هائلة
أرسلهم برفق كبير وبحكمه
الى الامبراطور،الذي لم يستخف أبداً ولم يرفض
—الصحون،وأعاد الخيم
الى البقعة التي كانوا فيها قبل
المفاوضات التي عنها تحدثنا.

الامبراطور يهرب بغدر

في ساعة صلاة المساء نفسها
عندما اتخذوا قرارهم حول هذا السلام
حدث أن كان لدى الامبراطور بين رجاله
فارس صاحب لسان شرير
كان اسمه بيان أوف كيفاس (صاحب حيفا)
أقذر من كلب كان

لقد جعل الامبراطور يعتقد أن الملك
— سوف يتخذه أسيراً،وكانت المسألة
ليست أكثر من مجرد كذب مخجل.
فانطلق الامبراطور،وقام بالفرار
وامتطى ظهر حصان سريع،وتقدم
نحو الأمام—وكان فوفلFauvel اسم حصانه—
وسار مسرعاً بعيداً وكأنه الى فرح متجه
وسار بعيداً غير قادر على ضبط نفسه
وترك الجهاز والخيام خلفه
مثل انسان فقد عقله تماماً.
وخلف فرسين سريعين وقويين
—وفر وهو يائس بلا توقف.

مطاردته من قبل رتشارد وغي

وعندما علم الملك رتشارد بخبر فراره
لم يمكنه اللحاق به أو مطاردته
لأنه لم يرغب في أن يحدث خرقاً
للهدنة،ولم يكن لديه فرس يمكنه من الوصول
إليه،ومع ذلك،عندما سمع بفراره
لم يرغب له الذهاب بهدوء

من دون ثمن،وبناء عليه أمر بالتماسه
براً وبحراً،والبحث عنه
من قبل غلايينه، التي كانت تبحر تلك الليلة
نفسها،ومالبث أن وصل الى فيماغوستا
وتوجه الملك نفسه معهم الى هناك
وهوقلق وراغب في تسوية الأمور
وأخبر ملك القدس بوجوب
أن يتبعهم على طول الشاطىءوأن يسايرهم
ليرى فيما إذا بامكانه العثور على الخائن
هذا الامبراطور،هذا المعتدي الناكث
ليمينه الذي أقسمه.ودونما تأخير
انطلق الملك غي وأخذ طريقه
وبعد مسير ثلاثة أيام
وصل الى فيماغوستا،بدون شك
التي منها سكانها هربوا.
وهناك ألقى الملك رتشارد بمراسي
سفنه،وأمرهم بالمراقبة
بعناية البوابات،وأن يتشوفوا
حتى لايتمكن رجلهم من الفرار بلا عقاب

ويتخذ طريق نجاته عبر البحر.
وترك الغلايين حيث مضت
ولمدة ثلاثة أيام مكثوا في البلدة

رفض رتشارد التماس فيليب بالاسراع نحو عكا

في أثناء استمرار إقامته
قدم الى هناك رسولان من فرنسا.
أحدهما درو دي ميلو،هكذا قالوا
ومعه أسقف بوفياس
وقد جاءا باصرار لحث
الملك—وضغطا عليه ليتجنب
الإهانة—للاسراع بالذهاب الى عكا
لأن ملك فرنسا لن يزحف
للقيام بأي نوع من القتال
حتى ينال دعم رتشارد وتأييده.
وضغطا عليه وشددا،وحاولا
إيلامه وما كانا ليتوقفا
حتى أثارا غضب الملك
ورفع الى الأعلى حاجبيه
وتفوه بكلمات غير موائمة

لتكتب هنا وتدون
وعبثاً كانت المحاولة في حثه على الاسراع
وكانت الكلمات التي تفوها بها مجرد ضياع
وهو نفسه قام بعمل سريع
وبما أنه مع الاغريق بدأ
نصف ثروات روسيا لن يعبأ بها
وسوف لن ينعطف ليتجه نحو سورية
حتى يسحق القبارصة
الذين من جزيرتهم يمكن الحصول على ميرة كثيرة
ولن يتخلي عن مغامرته
حتى ينال عنها جائزته
ومع هذا سعى هذان السفيران
الى حثه للتخلى عن تقاعسه

الزحف نحو نيقوسيا

وهكذا،مع حشده المجتمع،هو
تحرك مباشرة الى نيقوسيا
وحمل كل واحد سلاحه،وكل واحد
حمل من الطعام مؤونة كاملة.
والامبراطور الذي اختبأ قريبا من هناك

على الجيش الزاحف تجسس
وقاد الملك قوات الساقه،خوفاً
وخشية أن يأتيها الأذى من الخلف.
ثم من الكمين حيث اختبأ
قام الامبراطور بهجوم سريع
مع قوة سبعمائة رجل
الذين جبنهم سبب،ألماً محيراً.
فقد أرسلوا رماياتهم نحو رجال الطليعة
الذين تركوهم يتقدمون مباشرة
نحوهم،واشتبكوا معهم على الاطراف
ومثل توركبلي سريع ،ركب
الامبراطور،وبسرعة عدا
نحو الساقة التي قادها رتشارد
وباتجاه الملك رمى بنشابتين
كانتا قد غمستافي سم مخمر
واندفع الملك من وسط قواته
وكاد أن يأخذ انتقامه من
هذا الامبراطور الشرير الذي شعر بالخطر
لكنه كان ممتطياً فوفل السريع

وهرب بدون توقف على ظهر حصانه
مثل مهر عدا بأقصى سرعته
وعن ملجأ بحث،برعب شديد
في كانتارا،قلعته الحصينة
وحيث أن الملك لم يستطع أن يمنعه
توجه الى نيقوسيا مباشرة.

على الرغم من الامبراطور نيقوسيا تعلن الولاء لرتشارد

استولى رجالنا على عدد كبير من الخيول
القوية، وأسروا حشداً من
الاغريق-وكان بعضهم مجروحاً أيضاً-
الذين اقتربوا كثيراً من الجيش. -١٩٤٠
وزحفوا الآن وراء الملك
لايخشون من أي شيء
وهكذا وصلوا عند أول النهار
الى نيقوسيا،وهناك السكان
خرجوا مباشرة بارادة واحدة
وأسرعوا لدعوة الملك على أنه مولاهم
وبمثابة أب احترموه
شخصياً.وأمر بأن يحلق كل رجل لحيته.

١٩٥٠- ولدى سماع الامبراطور بهذا غضب غضباً عظيماً واكتأب
واقترب من الجنون،وأساء معاملة
رجالنا،ورجاله بطرائق غير لائقة:
من رجاله الذين أقاموا سلاماً
معنا،ومن رجالنا كل من استطاع أخذه
وحيثما كان بامكانه الامساك بهم
قطع أيديهم وبتر أرجلهم بوحشية
وجدع أنوفهم،واقتلع أعينهم
حيث لم يجد وسيلة للانتقام غيرها.
وفي الوقت نفسه تسلم الملك الولاء
١٩٦٠- من أكثر الناس جدارة ومن الحكماء
الذين عن طواعية تبرأوا
من الامبراطور،الذي كرهوه

استيلاء غي على كيريناcerines وأسره ابنة الامبراطور

وانقسم الآن حشد الملك الى ثلاثة
أقسام ليعمل كل منها على حده
وبذلك ألقى الحصار على
ثلاث قلاع،واستولى بسرعة على اثنتين.
وتوجه أحد الجيوش نحو كيرينا

وكان الملك من وراء البحار هو الذي
تولى بنجاح القيادة هناك
فعلى مقربة من الحصن سلح أتباعه
وحاصره من جانبي البر والبحر
وحمل عليه حملات شديدة
وحيث أن الرجال في داخله افتقروا
الى التأييد والضمان،لم يستطع
المدافعون أن يفعلوا سوى الاستسلام.
ولهذا استسلموا وسلموا بسرعة وطواعية
القلعة الى الملك غي الشجاع
مع ابنة الامبراطور
الأمر الذي أخافه وآلمه إيلاماً شديداً
حتى أنه فقد شعوره وخرج عقله من رأسه
ولم يعثر على مواساة من أحد
وهكذا على البرج أعلام
الملك غي رفعت عالياً.
وفي القلعة مركز حراساً
والى ديوادامور قاد الجيش.

حصار ديودامور(قلعه القديس هيلاريون)

كانت ديودامور ذات حصانة عظيمة
حتى يمكن أخذها عنوة أو قتالاً
لكن الذين كانوا يدافعون عنها كانوا مذهولين
ومخبولين جداً ومندهشين
بوساطة الأخبار التي رويت
إليهم،أنه من الصعب عليهم الصمود
والحفاظ،ومع ذلك قذفوا بين حين وآخر
بصخور عظيمة نحو رجالنا
ومع أنهم كانوا آمنين داخل
الأسوار،كان هؤلاء الناس مرعوبين
ومع رجاله حاصرها الملك غي
لعدة أيام،حتى الامبراطور
أعلن أنه لن يتابع الدفاع
عنها،وأمر الذين كانوا بداخلها بالنزول.
وعندما استسلموا الى الملك
حسبما سمعت الناس يروون الأخبار
أعطيت الى الملك غي
الذي أمر بالاهتمام الزائد والعناية
بحراسة الفتاة في داخل البرج

- ١٣٣٧ -

حتى لايمكن سرقتها أو اختطافها
وابعادها.ثم قاد قواته عائداً
غير أنه وجد البلاد عالية التكاليف

استسلام الامبراطور

الملك رتشارد في نيقوسيا
٢٠١٠— رقد مريضاً يعاني من علة.
وعندما شعر بالمعاناة،توجه نحو
حصار قلعة بوفانتوBuffavento
وكانت حصنا واسعاً جداً وحصيناً.
وحكي هنا عن المغامرة الغريبة
للامبراطور المزيف،الذي
الذي جلبت له شروره نهاية مؤسفة
وإلى داخل أسوار كنتارا جاء
ليستسلم للحزن والعار
وعندما علم،أنه سقط في الشرك،
وبأن بوفانتو باتت مطوقة
وأننا قد اتخذنا أسيراً
داخل البرج ابنته،التي
أحبها أكثر من أي كائن حي

- ١٢٣٨ -

وجعله هذا متشوقاً لبذل الجهد
لإقامة سلامه،مهما كلفه ذلك
لاخراجه من ورطته وتخليصه
وكان الثمن محزناً ومؤلماً
وهو أن يفقد القلاع التي امتلكها
وكل ممتلكاته ومقتنياته
بسبب ظلمه وجوره.
وكان أعظم ماحدث له وأثر عليه
أن رجاله تخلوا عن قضيته.
وتحت ضغط الحاجة لم يتابع المقاومة
بل نزل من كنتارا وأخذ
طريقه الى الملك رتشارد مقدماً
نفسه،قانطاً من الحماية أو الوقاية.

لكنه التمس الرحمة من رتشارد

وما أن جاء الى هنا حتى بعث يلتمس
الرحمة من رتشارد،ووافق على أن يمنحه كل شيء،وأن يُحرم
من كل شيء،وأن لايترك لنفسه شيئاً
لاأرضاً ولابيتاً،أو قلعة في أي مكان
والذي فقط تمناه فضلاً منه هو

أن لايصفد بسلسلة من حديد
حتى توفر كرامته وهذا الألم الكبير.
واستجاب الملك فأمر بأن يصفد
بسلسلة من فضة،وبذلك أسكت
جميع الصرخات،فقد جثا على ركبتيه
وطلب رحمة والتمسها حسبها يتفضل
الملك، الذي رأى أنه كان مخلصاً
ورأى أغلاطه وخسارته بشكل واضح
ورأى أنه لم يعد يمكنه أن يفعل شيئاً أكثر لنا
وأن الرب شاء أن تكون الأمور هكذا
وهكذا، ولكي ينهي هذه المغامرة
جعل الامبراطور ينهض
وأن يجلس الى جانبه وعن يمينه
وأن يرى ابنته ويشاهدها.
وبرؤيته لها،كان سروره أعظم كمالاً
مما لو أمسك الرب من قدميه.
وبكى،وقبلها ثم زاد تقبيلها
أكثر من مئة مرة.لكن لماذا أحكى أكثر؟
فبوساطة خمسة عشر يوماً من التأخير

استولى الملك على قبرص كلها،والذي أقوله
لاشيء غير الصدق،للرب كل الشكر
يعطى،فقد غدت تحت سيادة الفرنجة

أسلاب قبرص

عندما حصل الملك على سيادة
قبرص،في سبيل الصالح العظيم للرب
استولى على القلاع والحصون الحصينة
التي طرد منها الاغريق ونفاهم
ووجد هذه الحصون مشحونة بالأشياء بدون حصر
وبكل نوع من الثروات والكنوز:
وبقدور من فضة،ومراجل،وأباريق
وبطسوت وأوعية من معادن ثمينة
وبأحواض وكؤوس وأكواز من ذهب
وبألجمة،وأسرجة،وبركابات
وبأحجار كريمة ذات أثمان عالية،وبأشياء
لها قدرة شفائية ضد المرض
وبأقمشة حريرية وأرجوانية ذات لمعان جميل
(مثلها أنا لم أر قط في أي مكان)
وأشياء أخرى ذات سمات
تليق بالنبلاء.
وكان في سبيل الرب وسبيل مملكته

أن استولى ملك انكلترا على هذه الاشياء وتملكها.
وأرسل الحشد الى ليماسول
وحث رجاله،وطلب منهم جميعاً
أن يستعدوا للابحار بسرعة
وألا يبددوا ساعة أخرى من الوقت.
وأمر بحراسة الامبراطور
من قبل الملك غي الشجاع جداً.
أما ابنته الشابة،والجميلة جدا،
والفتاة الرائعة ذات الحسن النادر
فقد بعث بها الى الملكة،حتى
تتولى تعليمها بشكل جيدولائق*.

---

*-كانت حوادث حياة هذه الاميرة التالية مثيرة وخيالية الى أبعد الحدود،فقد رافقت الملكة الانكليزية والاميرة في طريق العودة الى أوربا بعد انتهاء الحملة،وعاشت لسنوات عدة في شينون،وجاء اطلاق سراحها ضمن الشروط التي وضعها هنري السادس لاطلاق سراح رتشارد،لكن هذا لم ينفذ،وقبل قليل من عام ١٢٠٢ تزوجت من ريموند السادس صاحب طولوز،لكن مالبثت أن انفصلت عنه عندما رغب الامير بالزواج من جوانا بلانتغنت،وكانت في سنة ١٢٠٢ في مرسيليا عندما تجمع هناك حشد صليبي من أجل الحملة الرابعة،وقابلها صليبي فلمنكي من أقرباء بلدوين صاحب فلاندرز،وتزوجها مع نية المطالبة بوساطتها بعرش قبرص،وذهبا الى قبرص وطلبا العرش من الملك عموري دي لوزغنان،وحثوه على أن يعطيها إياه على أساس أنه ليس بحاجة إليه لأنه كان ملك القدس،وأخفقا في اقناعه،ورفض طلبها،واضطرا وهما يشعران بالاحباط الى الفرار الى كليكيا الخاضعة للأرمن حيث اختفيا عن مسرح التاريخ.

مغادرة قبرص

وهكذا زحف الجيش الآن
عائداً الى الاسطول،وقام بكل سرعة
بتحميل السفن،حتى يمكنها
الاقلاع والابحار عندما يغدو كل شيء مناسباً وصحيحاً.
وبعدما صعدوا الى ظهور السفن،الاسطول
سار في البحر،في الساعة المقررة
وأبحرت الملكة أيضاً مع السفائن
وجميع الدرمونات كانت هناك
وفي الجزيرة ترك الملك رجالاً
بارعين جداً في القتال،وإثر هذا بعث هؤلاء
الرجال إليه بالمؤن،وبحزم
القمح والشعير،وبالأغنام والأبقار
التي وجدت عندهم بوفرة كبيرة
والتي أفادت في سورية فائدة كبيرة.
وأخذ الآن رجال يجلبون عبر البحر
أخباراً،تولوا روايتها الى الملك
وتحدثوا فيها كيف أن أعمال الحصار بدأت بداية
جيدة عند عكا،وما الذي يمكن حدوثه

قبل أن يصل،وقد قال:
« ليس من اللائق بدوني
أن يستولي رجل آخر على هذه البلدة»
ومنذ الآن قرر عدم البقاء أكثر
من الوقت الذي يحتاجه رفاقه
للتجمع هناك لمرافقته واصطحابه.
أنا لست أدري كم عددهم

الابحار نحوسورية

من فيباغوستا سفينة أخذ
وأعطى الأوامر بتجهيز
غلايينه. واتخذ هو نفسه مكانا
في سفينة قوية جدا، وكبيرة وواسعة.
مامن ميناء تحت السماء لن يكون
مرعوباً،ويعاني من الذهول
أمام سفن حرب بمثل هذه الروعة
ورجال حرب أشداء بمثل هذه البسالة.
انتبهوا، الغلايين تغادر الميناء
كلها لائق ومن أفضل الأنواع
وكان الملك كالعادة مشرقاً مسروراً

رشيقاً مثل ريشه،قاد الطريق
وسريعاً مثل أي غزال شرع
يعبر البحر وهو مسافر
ثم انه رأى المرقب،على طرف
بلاد الرب الحقيقية
ثم إنه رأى طرطوس من بعدها
مبنية على طرف البحر شديدة وللأمواج مقاومة
وجاز مسرعاً في طريقه
طرابلس،والبترون،وانفه
ورأى بعد ذلك جبلة
ببرجها القائم فوق القلعة

سفينة مسلمة كبيرة

قرب بيروت،ملاصق لساحل صيدا
وباتجاه الملك كانت هناك سفينة
مشحونة برجال من جند صلاح الدين.
ومجهزة من قبل سيف الدين
فيها رجال من خيرة الترك،انتخبوا من
بين أحسن جميع المسلمين
ولم يكن بامكانها الدخول الى عكا ،ولذلك

أبحرت خارجها ذهاباً وإياباً
حتى يتسنى لها الدخول بأمان الى الميناء.
لكن الملك انطلق في سبيل تعطيل
خطة رجالها،وبسرعة ساق
غليونه،حتى وصل
الى حيث كانوا، فرأى مركبهم
كان عريضاً،وعالياً،وذا قدرة عظيمة
له أشرعة ثلاثة طويلة:إنه لم يكن
مركباً صنع وجهز بشكل سريع.
ومن قبل المسلمين كانت السفينة
مغطاة،من أحد الجوانب،بلباد أخضر
مع لباد أصفر،حسبما وصفوا
كان يغطي الطرف الآخر.
والسفينة كلها كانت هكذا
مفروشة مزينة كأنها عروس مجلاة
وكانت مليئة بالسلاح
بدون تعداد أو قياس :
وتحدث رجل وأكد ما فوق الاشاعة
(وهو كان موجوداً في بيروت

عندما وضعوا على ظهر هذه السفينة هذه
الحمولة نفسها ، لترسل بشكل معيب)
أنه رأى سلاحاً أودع في المخزن
حمولة مائة جمل وأكثر منه :
القسي والرماح والقسي العقارة والجروخ
(حزم ، ودواليب ، أو فتائل ، وعدّ ما شئت)
وثمانمائة من خيرة نخبة الترك
أرسلوا من قبل الشيطان للعمل لصالحه
والمزيد من الأطعمة والمؤن
مما يستطيع انسان أن يفصل أو يجمل
ومثل هذا في قوارير كانت هناك
نفوط ، تكلم الناس عنها كثيراً
وخزن في السفينة جانباً
مائتي أفعى شريرة وسامة
(هكذا دّون ، وأخبر الذي
ساعد على وضعهم في الخزائن)
خططوا لاطلاقهم على
حشدنا ، ولتسبيب الفوضى ونشرها .

إثارة شكوك الانكليز

وجد ف غليوننا واقترب منهم كثيراً
حتى كاد أن يلامسهم
وقدم رجال غليوننا لهم التحية
ذلك أنهم كانوا لا يعرفون من يواجهون
وسألوهم من أين جاءوا
وما هو اسم أميرهم
وكان معهم مترجم فرنسي
وأعطوا جواباً بأنهم انكليز في طريقهم الى صور
وريح ثارت وقتها من أرسوف عالياً
فساقتهم وأبعدتهم عن جانب الغليون
وكان على ظهر الغليون رجل راقب عن قرب
السفينة والبحارة ، ولاحظ كم
كانوا حريصين راغبين في التجديف
بعيداً ، فقال للملك : « إنه لواضح
يا مولاي العظيم ، وإذا أخطأت اشنقوني أو اقتلوني ،
٢٢٠٠— أنك تقابل خدعة تركية ، وبناء عليه
قال الملك : « أو أنت متأكد من ذلك »؟
« حقاً يا سيدي تمام التأكيد

أطلق الآن وبسرعة قصوى
غليوناً آخر يتولى المطاردة
وأصدر اليه الأمر بعدم تقديم التحية
لرجالهم . ثم انظر ما الذي سوف يفعلون
وفيما إذا كان إيمانهم مزيفاً أو حقيقياً
وأعطى الملك الأمر ، والغلايين
— أسرعت نحوهم ، لكنها لم ترمهم

مهاجمة السفينة

ولم يتمهلوا إلاّ قليلا في تعاملهم مع رجالنا
وشرعوا في اطلاق نشابهم
من القسي العقارة والقسي الدمشقية
وانقض الملك ورجاله على الأعداء
بهجوم سريع وفعال
وذلك عندما رآهم يرموننا
وقد دافعوا عن أنفسهم بشكل جيد
ورنت أوتار القسي وتساقط النشاب
أكثف من البرد ، وكان العراك
على الجانبين شديداً متواصلاً
وسارت سفينتهم بسرعة بطيئة ، بسبب ركود الريح

ووصل رجالنا اليها وحاذوها بسهولة
وغالباً ما أرادوا ، لكن لم يتجرأوا على الصعود
عليها ، كما أنهم لم يتمكنوا من سحق الحشد المسلم
وأقسم الملك يميناً مؤكداً،أنه آنذاك
وهناك،سوف يشنق رجال الغليون
إذا ماتوانوا أو ضعفوا،أو إذا
ماسمحوا للترك بالنجاة والابتعاد.
ومثل عاصفة انقضوا عليهم
وبدون انتظار غاصوا في الماء
تحت السفينة،ومن الجانب الآخر
عادوا يسبحون،وبرشاقة ربطوا
الحبال التي كانت مشدودة الى مقود دفة
سفينة المسلمين،وبذلك كانوا يعطلون
المسلمين،ويسببوا انعطاف سفينتهم.
وبناء عليه تسلقوا عليها
ومباشرة تدفقوا على قلب السفينة.
ولم يقف الأعداء مكتوفي الأيدي،بل
انقضوا على رجالنا،لتقطيعهم وقتلهم.
ورجالنا الذين جرى اختيارهم

لهذه الأشياء،قفزوا بنشاط
الى داخل السفينة، في حين قطع المسلمون أيديهم
وأرجلهم،وألحقوا بناضرراً بالغاً
واغراقها
وقاتل رجالنا معركة كبيرة الى حد
أنهم ساقوهم الى داخل الميناء
والمسلمون الذين الى أبعد الحدود
خافوا الموت،قاتلوا بشكل يائس
وعلى شكل فرق صعدوا على ظهر السفينة
وأعدّت فرقة بعناية وقدمت
عساكر جديدة للمعركة الدائرة تقدموا
بصفوف جريئة،مسلحين بشكل كامل
وهكذا قاتلوا،وتبادل الطرفان الطعنات
والضربات العظيمة داخل مركب المسلمين.
وأقلع المسلمون بهجوم كان
قويا الى حد أنهم ردوا بحارتنا الى الخلف
لكن الذين كانوا في الغلايين أعادوا جمع
صفوفهم،وأقلعوا بهجوم جديد
وأخبرهم الملك بأن ينطحوا ويصدموا

السفينة حتى يخرقوها
ونطحوها مراراً،وهكذا خرقوها بشدة
حتى أنها خرقت في عدة أماكن.
وفتح قائدها ثغرة كبيرة في أسفلها
منهيا بذلك هذه المعركة الشرسة
وهكذا توقف المسلمون عن القتال
وقفزوا الى الماء عشرة بعد عشرة.
وقتل كل واحد من رجالنا منهم حسبما استطاع:
وكان بامكانكم أن تروا هناك ضربات عظيمة،وتعامل
الملك رتشارد بارادة
حادة ليدمرهم وليقتلهم.
وعلى كل حال،كان هناك خمسة وثلاثين
منهم أبقاهم على قيد الحياة
حيث كان بعضهم مهندسين جيدين
بارعين في الآلات،وبعض الأمراء:
وجرى اغراق البقية:فهكذا كانت نهاية
الفرس،والترك،والمرتدين.
ولو دخلت السفينة الى عكا،إنه لواضح تماماً
أن البلدة ماكانت لتسقط

ذلك أنها جلبت امكانات للدفاع هائلة
لكن الرب،الذي يعين عباده،هكذا كانت مشيئته
ثم إن ملك انكلترا،جيد،وشجاع
في الحرب،ومغامر.

حزن صلاح الدين العظيم وأساه

المسلمون من فوق أحد التلال شهدوا
هذا الحدث الذي جلب لهم السوء.
وهم ممتلئون بالغضب والغم
أرسلوا خبر ما حدث الى صلاح الدين بذلك
وبها حدث،ثلاث مرات نتف لحيته لغضبه
ثم مثل رجل بلاوعي،قال:
«يارب، الآن ضاعت عكا مني
ورجالي أيضاً،الذين ظننت أنهم بأمان
سببوا لي حزناً،صعب تحمله»
وصدر عن الجيش المسلم نواح عظيم-
وحكى الذين سمعوا ذلك ورووا-
بأن الترك نتفوا شعورهم
حزناً،ولثيابهم مزقوا
لأنهم في داخل هذه السفينة فقدوا

قادتهم والذين رعوهم كثيراً.

متابعة الاسطول ابحاره الى عكا

الملك،عندما هذه السفينة ذات القوه
وبحارتها استولى عليهم في القتال
كان متشوقاً للتحرك نحوعكا
والى ذلك الاتجاه حول مسار
غلايينه جميعا في نظام جميل
وهي التي ربحت المعركة من السفينة.
وعندما مع اسطوله ساق نحو الأمام
الرب أرسل له ريحاً طيبة من الشمال
وهكذا أمضوا تلك الليلة أمام صور
وكان كل من الملك والعساكر راضين كثيرا
الملك النبيل،قلب الأسد
رأى في الصباح اسكندرونة
ثم جاز قلعة الزيب ،ثم مباشرة
ظهرت أمامه عكا ورآها
وزهرة العالم كله وجدها
معكسرة هناك،وملتفة حول بعضها بعضاً
ورأى الجبال والوديان

والسهول المفتوحة والتلال والمنخفضات
مكسوة بالسراقات وبالخيام
ورجال امتلأوا حقداً وضغينة وخشية
أن يلحق سوء بالمسيحيه
وكانوا يشكلون حشداً جباراً
ورأى خيام صلاح الدين
وخيام أخيه سيف الدين
وكان المسلمون قريبين جدا الى حد أنهم كادوا
يركبون أكتاف الحشد المسيحي.
تقي الدين،على الجانب الآخر
المحامي عن ديار المسلمين
حرس ساحل البحر والشاطىء
وعلى حشدنا شن حرباً مستمرة
وكان دوماً مستنفزاً وجاهزاً للقتال
وللهجوم علينا وارغامنا على التراجع.

رسو رتشارد عند عكا

ونظر الملك الى كل شيء،وتفحصه
وعمل خططاً،وخططاً عمل.
وعندما جاء لينزل الى البر،كان بامكانك

رؤية حشد البارونات العظيم كله
الذي جاء مع الملك الفرنسي لاستقباله
وبشوق عظيم رحبوا به وحيوه.
وكثير من الناس كانوا على الرصيف
لرؤيته.ووضع قدمه على الأرض:
وسمعت وقتها البوق يصدح
— ليحيي رتشارد،الملك الذي لانظير له.
والحشد المسيحي كله
كان سعيداً،لأنه جاء.
لكنه عندما جاء،الترك في داخل
بلدة عكا كانوا مرعوبين.
كان معه سفنا كثيرة،وقد عرفوا
أنه سيضع حداً ويوقف
خروجهم من البلدة ودخولهم إليها
وهو ماكان يسبب لنا الأذى والنكد
والآن الملكان جنبا الى جنب
— ركبا معا وتسايرا طوال طريقهما.
ودخل الملك رتشارد الى خيمه
وعلّمه بكثير من اليقظة

ما يمكن أن يكون السبيل المؤكد
للاستيلاء على عكا،بأقل تأخير.

بهجة الصليبين وسرورهم

السرور كان عظيما وواضحاً تلك الليلة:
مامن ابن امرأة يمكنه قط ادعاء
رؤية أو معرفة مثل هذا الترحاب
الذي قدمه الحشد للملك.
فقد قرعت الأجراس وصدحت الأبواق
— والنفر،والنايات،وبقية أدوات الموسيقى
وكان بامكانك رؤية أناس من كل نوع
وقد امتلأوا بالمرح والسرور يلهون هم
أنفسهم مع الموسيقى والأغاني
وحملة كؤوس يحملون الخمرة ويقدمونها
بكؤوس جميلة خلال الشوارع لجميع
الناس سواء أكانوا كباراً أم صغارا.
ذلك أن استيلاء الملك على قبرص،قد
جعل الجيش كله مسروراً
لأنه من هناك سوف ترد الأطعمة
لتبقي الحشد الهائل حياً

وامتلأالناس بالأمل وكانوا مسرورين؛
وكان الوقت مساء السبت
حيثما كان من الممكن أن تذهب أو تكون
أعتقد أنه ماكان بامكانك أن ترى قط
أضواء أومشاعل مثل التي أشعت
ولهذا بدت الأمور للترك
كأنما الوادي،جمعية بلا استثناء
قد أنير بنار مشتعلة
وعلموا أن سرورنا ومرحنا
كان بسبب مجيء الملك
وملأوا الوادي بعرض عظيم
للقوات المقاتلة عندما جاء النهار:
هؤلاء القوم الكفرة،الدنسين القذره
هاجمونا،وقاتلونا حول خط خنادقنا
وأطلقوا النشاب،وأغاروا بدون توقف
على حشدنا،وعليه شددوا الضغط عن قرب.

الفصل الثالث

عودة الرواية الى حوادث أبكر

سوف ندع الآن الرواية لبرهة
(وعندما يأتي الوقت المناسب والمكان
اذا ما تابعتموني وسايرتموني،أنتم
سوف تسمعوني أتناولها من جديد)
عن قدوم الملكين اللذين عنهما أنا كتبت أشياء كثيرة
واللذين جلبتهما الآن الى عكا.
اسمعوا الآن،وضعوا في اعتباركم
أنني أرغب، ولابد أن أبذل جهدي
لقطع سياق روايتي
لكنني سوف أعود لربطه مرة جديدة
وأعيد مجرى السياق محكماكما كان من قبل :
لأن الملكين لم يكونا الأول،بل بالحري
كانا آخر من التحق بالحصار
ولهذا بالنسبة للذين سوف ينسرون
ليعلموا،أمبرويزسوف يشرح الآن ويبين

من الذي تولى القيام بالمخاطرة
للاستيلاء على عكا،والذي حسبما كما هو معروف
بنفسه لم ير شيئا من وقائعها
لكنه قرأ الذي كتب عنها.
والذين حاصروها أولاً،والجرأة
بالمحاولات التي تولوها سوف الآن عنه نتحدث
لقد سمعتموني أقول-ومن المفيد
أن أروي مرة أخرى وأن أحكي-
عندما بدأت هذا التاريخ
إذا ما كنتم تتذكرون
كيف نزل بنا في سورية
أعظم ضرر محزن،وأذى،وعار.
وكان ذلك في أيام الملك غي
الذي عانى كثيرا من ذلك
لكن الرجال الذين يعرفون الطريق
الذي تولى الحسد فيها خيانة الملك.

أسرة حكم القدس

ملك نشأ وتربى فيها وراء البحار
ملك كان اسمه عموري:

منه جاء ولد،كان هو الملك التالي
وبلدوين المجذوم كان اسمه
وعاش الملك بلدوين طوال حياته
حتى نخره المرض ومات.
وقد امتلك اختين،سيدتين جميلتين،
ذواتا فضائل،وجدارة،وجودة نادرة:
وهاتان السيدتان تزوجتا،احداهن-ايزابلا-
من البارون همفري دي تيرون
والأخرى من سيد نبيل-سيبلا-
٢٤٣٠— هو الكونت وليم الملقب بصاحب السيف الطويل
وصاحب يافا القائمة على الشاطىء
وأخ لمركيز مونتفرات
ومنه السيدة أنجبت
وريثاً ذكراً: بلدوين كان اسمه-بلدوين الخامس-
وعاش الطفل الصغير،لكن الكونت مات
وكان هذا مارضيه القدر وقرره.
ورغب غي لوزغنان وتمنى
الكونتسة،ومنها تزوج
وكان الطفل ملكاً،لكنه لم يتملك

لأن الرب هكذا قضى بكل شيء
فعندما سوء المصير استولى على الطفل
إنه الى السيدة بالحق وصدقاً
آلت إليها المملكة،وكان هذا صحيحاً
وفق منطق جيد،وسبب معقول.
ثم كان أن أخذ الملك غي التاج
وكثير من الصراع والخصام نجم عن ذلك

خيانة ريموند صاحب طرابلس

بين الكونت ريموند المزيف والساقط
وبين صلاح الدين،الذي عنه تحدثت
قام تحالف مديد منذ أمد طويل
عنه سورية تحدثت كثيراً.
تاق ريموند لتسلم المملكة،التي
اعتقد أنه سيحوذها،لأنه كان غنياً
ولأنه كان كونت طرابلس
لكنه لم يستحوذ عليها،الشكر هو
للرب.وعندما توج غي ملكاً
واختير من الرب للتشريف
دعا باروناته كلهم بلا استثناء

ومن بينهم بعث يستدعي
كونت طرابلس،لكن يمكنكم
أن تسألوا عبثا عن نوع استجابته
وعن الجواب الذي قدمه
وعاد الرسول بالفعل
وسار الكونت على الفور
ليعلن شكواه لصلاح الدين
قائلاً إنه لن يستطع البقاء في
أرضه، بسبب أن غي الذي جلس
على العرش يكرهه كراهية
عظيمة.وقال كثيراً من الأقوال وكذب
بأن المسيحية تأذت بسبب ذلك....
وسأله،من أجل خاطر حبه العظيم له
أن يعينه حتى ينتقم انتقاماً كاملاً.
ياسادتي،لقد تم في مكان الاجتماع ذاك
التخطيط هناك للخيانة الدنيئة
التي جلبت للمسيحية تلك الخسائر العظيمة
وجعلتنا نفقد الصليب المقدس.
واستدعي الكونت مرة أخرى

الى البلاط،وإليه توسلوا كثيراً
أن يأتي.فقال إنه لن يفعل ذلك
ومن الملك غي لن يأخذ شيئاً وبه لن يعترف
ومرة ثالثة أرسل إليه الملك،مع عهد موثق
بأن يتخلى له عن كل حقوقه.
وهكذا جاء.ومقدم سوء كان
لأنه كان واثقاً من أنه سوف يتدبر
تدمير البلاد. وبناء عليه
جعل العمل الشرير يبدأ.
غير أنه عندما مات،لحق عار كبير
به،حسبما يروي التاريخ.

صلاح الدين يغزو المملكه

سمعتم مراراً كثيرة من قبل
الحكاية، وسمعتموها مرة تلو مرة
كيف،عندما الملك غي جرى تتويجه
لم يدع شهرين يمران وينقضيان
قبل أن أمر بالاستنفار
لأتباعه في جميع أرجاء سورية
وأن يجتمعوا ليقدموا له العون

لأن رجال صلاح الدين قاموا بغزو
البلاد،وبناء على أوامره
تدفقوا وانساحوا بقوة كاملة في البلاد
وأنزلوا برجال غي هزيمة مؤلمة
مائة فارس من النخبة
وجاك دي ميلي هناك قتلوا
مماسبب للداوية آلاما مبرحة.
وكانت هذه الفاجعة
بداية للانتكاسة
التي جلبت كثيراً التعاسة وأنزلتها
بالمسيحية المقدسة
وقدم كونت طرابلس تعهداً-
شفته دوما معلقة مبوزة باستياء-
بأنه سوف يسير الى الملك غي وبه يلتحق
ليقدم له المساندة وقت حاجته
وإليه جاء،ومعه عمل اتفاق
لكن الناس تذكروا بعد ذلك
أنه كان اتفاقاً مزيفاً الذي عمله
وأنه فجأة خانه وتخلى

عنه في أشد ساعات القتال
عندما كثير من الناس الجيدين ماتوا.
ومن الممكن أنه فعل ذلك،مع أنه
من الممكن أنه لم يفعل كذلك.
لكن معظم الناس يشهدون.ويقولون
بأنه خدعه وغشه في المعركة
وإذا صح هذا،لقد استحق نهاية تعيسة
والآن صلاح الدين حشد
رجاله ليأتوا من ممالكه التسعة
مع قسي،ومع دروع،ومع خوذ
ووصلوا في جمع هائل
ومامن واحد تراجع لامن ضعيف ولامن قوي.
وعدد كبير من الأمراء من أعلى المراتب جاءوا
ورجال نبلاء ذوي أسماء ومكانة جبارة
استعدوا لمغادرة بلدانهم
لتدمير المسيحية.

سحق الجيش الصليبي في حطين

الآن الملك غي ،مع مسيحييه
ومعهم بعض البنادقة

شكل قواته في قسمين
من عساكره الرجالة،وعساكره الخيالة
واحداً الى ميناء طبرية
بعث،وواحداً الى صفورية
وتلك القوة مضت نحوحظها السعيد
والذين انحدروا نحو طبرية
مع أنهم فقدوا أجسادهم هناك
مباشرة أرواحهم توجهت نحو الرب.
كونت طرابلس،الذي خطط
للقيام بغشهم وخداعهم،هو الذي تولى قيادتهم.
ورجالنا لم يرتابوا به،وهم
فقط أصغوا، وأطاعوا
وهكذا فعل،وهكذا بذل جهده
لأن يتولى جيش العدو سوق
جيشنا نحو بحيرة طبرية
حيث لم يمتلك رجاله ماء،ثم جعلهم
يشربون،بخداعه وغشه
من ماء البحيرة،الذي كان حلوا وجيدا.
وعندما حان الوقت له ليشرع

الرمح،وأن يبذل غاية جهده
انهزم بعيداً،والذين تركوا
حرموا من أرواح أجسادهم.
من الذي طعن من أنا لاأعرف
ولامن نجا،ولامن تمدد مقتولاً
بسبب أنني لم أكن حاضراً ذلك المعترك
لكن صدقا، وهذا أقوله لكم
الرب هيأ ماحدث هنا ووقع
لأن لديه كان واضحاً
ان في العالم الكثيرمن الذنوب
وكان الناس يعربدون هناك ويقصفون
حتى أن هذا لو لم يحدث،
من خلاله كان سيأتي لكن قليلاً جداً.
وكان أن حدث عند لوبية Marescallia
القائمة على مقربة من طبرية
انشاب الملك غي ورجاله القتال
وقد قتلوا عدداً وافياً من المسلمين
لكن رجالنا عانوا من كثيرمن الجراحات
فارتموا أرضاً ميتين وبلا رؤوس.

ولم يكن هناك أمل بالنجاة
لأن الأعداء انقضوا على الملك
وجرحوه،وألقوا
به الى الأرض،وضربوه بشكل مؤلم.
بذراعه الأيمن صليب الصلبوت
حمل وأمسكه بشدة،لأن الاهانة تعاظمت
وكان يمكن أن يفعلوها،لولا وجوده
لكن الرب،كما يبدو، جعلها له عبرة.

اجتياح صلاح الدين للبلاد

وعندما جاءت نهاية العراك
٢٥٨٠— الذي قضى الرب بأن ينتهي على هذه الشاكلة
ووقع كل من الملك والصليب بالأسر
والجيش كله تقريباً قتل
(ولهذا أخذت أعداد كبيرة جدا الطريق
وتخلوا عن ثرواتهم وعن قوام حياتهم)
ثم ان صلاح الدين حسبما رغب وكما ارتضى
به، تمكن من الاستيلاء على جميع البلاد
باستثناء صور وعسقلان(الرب هكذا
أعطى لنا أرضه،ثم أخذها منا)

وباستثناء القدس،لكنه

٢٥٩٠— مالبث أن فتحها بكل سرعة.(٢ـ تشرين أول ١١٨٧)

وألقى حصاره على عسقلان

ظانا أنها بسرعة سوف تفتح

لكن من فيها ثبتوا بشجاعة

ضده،وقاوموا بعناد كبير.

ومات عدد كبير من المسلمين هناك

ولم يتمكن من الدخول إليها

حتى أمر رجاله أن يجلبوا

ويعرضوا أمام أسوارها ملكهم

وعرض مقابل القلعة

٢٦٠٠— اطلاق سراح الملك، الذي بعث يخبر

المدافعين عن البلدة أن لايقوموا

بأي استسلام من أجله:

لكنهم، وهم الذين لم يعد بإمكانهم الاستمرار،

كان لابد من أن يرتضوا بأية شروط يمكنهم تحصيلها.

ومن أجله تخلوا عن عسقلان

وبرفقه مقتنياتهم وجهازهم غادروا البلدة. (٤-تشرين ثاني ١١٨٧)

-١٣٧١-

اطلاق سراح غي وموت ريموند

وبناء على هذه الشروط،الملك غي
قال الكتاب،أطلق سراحه:
على أن يوافق على التخلي عن المملكة
وأن يسافر على الفور الى ماوراء البحار.
وركب وسافر بالبحر بشكل صحيح
حتى يمكنه الوفاء بيمينه
وإلى جزيرة(أرواد)طرطوس جاء
الأمر الذي أثار سكانها كثيراً
وإلى هناك بعث صلاح الدين برسالة—
ومسلماً عاقلاً وذكياً
هو كان،ويعلم أن الملك قد
كان سيء الحظ،لكنه ليس صلفاً ولادنيئاً
ولم يرغب أن يجلب الى نفسه
مخاطر ملك آخر—
أنه سوف يحلله من قسمه.
وعاد الملك الآن أدراجه
الى طرابلس،على شاطىء البحر
وهناك وجد زوجته،الملكة

والكونت،الذي كرهه،والذي
قال الناس إنه قد خانه أيضاً.
لكنه الآن أعطى الملك،كل ما
فكر به وتمناه،وبحفاوة تلقاه.
والفائدة هي قليلة في تقديم بيان
عن هذا الكونت الفاسد والخائن
الذي جعل عدداً كبيراً من الأطفال يتامى
والذي جلب العار للمسيحية:
ودفع الثمن غالياً من أجل خيانته
ولما اقترفه من خسة ونذالة
فهذا أحل به، بنعمة من الرب،وجلب
موتاً سريعاً،وموتاً مع عار وشنار.

حصار صور

كما أنني لن أتحدث عن حصار صور
الذي سبب لصلاح الدين الازعاج والايلام
وحيث وليم دي لى شابلchapelle

٢٦٤٠— قاتل بشجاعة عظيمة وبشكل جيد
وحيث الأخوة الطبرانيون*
الذين حموا المدينة ببسالة

*-الأخوة الطبرانيون هم: هيوج،ووليم،وأوستي،ورالف صاحب طبرية،أولاد وولترذي سينت أومر واشيفي Eschive صاحبة طبرية،التي كانت متزوجة من ريموند الثالث يوم حطين،وكان أولادها هؤلاء مع ريموند في حطين،أو أنهم كانوا برفقته عندما هرب من حطين في سنة ١١٧٨، وقد قصدوا مدينة صور حيث ساعدوا في الدفاع عن تلك المدينة،وأصبح هيوج الثاني في القيادة لكونراد بعدما استولى كونراد على شؤون صور،لكنه ذهب مع غي الى عكا في ١١٩٠-١١٩١،ورافق رتشارد في حملته على يافا سنة ١١٩٢، وبعد انتهاء الحملة الثالثة صار الأخوة بين أتباع ومستشاري هنري أوف شامبين،وصار رالف نائبه المسؤول عن القدس في ١١٩٤-١١٩٨،لكن موت هنري جلب مأساة للاسرة، فالملكة ايزابلا،تركت أرملة،وأخذت تبحث عن زوج، وكان رالف صاحب طبرية واحداً من المرشحين لطلب يدها،ففي سنة ١١٩٧ كان هيوج قد أعطى لوردية طبرية الى رالف،ليمتن وضعه كمرشح للعرش،لكن جرى تجاوز رالف لصالح عموري لوزغنان الذي كان أكثر قوة،كما كان ملك قبرص،وتطور عداء فيما بين عموري ورالف، وأدين رالف بالتآمر ضد الملك الجديد، وأرغم على مغادرة البلاد،ويبدو أن وليم صاحب طبرية قد توفي في هذه الآونة، فقد ظهر اسمه لآخر مرة في عام ١١٩٢،ولم يرد ذكره في رسالة جاءت من البابا انوسنت الثالث الى هيوج وأخويه أوستي ورالف في سنة ١١٩٩.وهرب هيوج ورالف وأوستي الى أرمينيا، والتحق أوستي بريموند روبن وليون ،وورد خبره معهما من ١٢١٠ الى ١٢١٦،وورد ذكره لآخر مرة في قبرص عام ١٢١٨، وذهب هيوج ورالف الى القسطنطينية في أعقاب الحملة الرابعة وتأسيس الامبراطورية اللاتينية،ومات هيوج هناك في حوالي سنة ١٢٠٥،لكن رالف عاد الى عكا وباشر عمله القديم من ١٢٠٧ الى ١٢١٠ ،وشارك في الحملة الصليبية ضد دمياط،وورد ذكره للمرة الأخيرة في عكا سنة ١٢٢٠، وكان رالف قانونياً بارزاً في أيامه،ومنه تعلم فيليب دى نافارعلم القانون،ومن المحتمل أن رالف هو الذي نقل قوانين القدس الى القسطنطينية،التي شكلت القاعدة لرومانيا اللاتينية،وآلت لوردية طبرية الى يودس مونتبليارد الذي تزوج من اشيفي ابنة رالف.

وكانوا مكرسين تماماً ومخلصين جدا
للرب ولمملكته الأرضية.
ولن أتحدث عن المركيز
الذي هناك بدأ بصمود ونجاح.
وكانت البلاد كلها مغزوة
عندما جاء،وبشكل ما أعان
عمل الرب،وبدأ ببسالة
وانتهى بزيف وخيانه.
وأنا لن أبتعد كثيراً،ولن أتحول
عن الملك غي،الذي هو موضوعي
والذي من سجنه وأسره الآن
تحرر،وعليه تركز تفكيري.

استعداد غي لاستئناف الحرب

أما والآن قد عاد الى طرابلس
فقد سرت عودته الناس من المراتب العلية والدنيا
والآن نال الفقر والبؤس كثيراً
من غي،ملك القدس،وجعله
مثل واحد جاء خارجاً من السجن.
ولم يأخذ أكثر مما استحقه

لأنه لم يكن لديه شيئاً ليأخذه

واحتاج الى بعض النفقة التي توجب عليه تدبرها

وقد عرف أن العدو

قد استولى على عكا،التي كانت المفتاح

لبلاده،وأنهم منها طردوا قواته

ولم يكن يعرف الى أين سيلتجيء.

والى الرب التجأ بأحزانه

والمولى الرب تماماً عوض عليه.

فعندما قرع الناقوس،صباح أحد الأيام هناك

٢٦٧٠— أمير أنطاكية قدم،وتجشم وتكلف

وبحثاً عن الملك غي هوذهب

ليسأله ويطلب منه أن يوافق

ليذهب معه،وليعود

الى انطاكية،وليقيم هناك

حتى يستطيع أن يجمع ويوحد

رجاله،ويسلحهم من أجل القتال

وليعرف أين الأفضل له لينقض على

على الترك،وأين الممكن ربح شيء ما

منهم وذهب الملك غي مع الأمير

الى انطاكية التي هي مقاطعته.
ووقتاً قليلاً أمضاه هناك
وبالوقت نفسه ذرف كثيراً من الدموع
وعندما ذكره دمعه بالمناخ وبالطقس
الذي كان لصالحه،وأنه الآن يضيع وقته.
عندها ذهب عائداً الى طرابلس
وجهز رجاله وأعدهم وسلحهم
وجمع وحشد ووحد كل
الرجال الذين تمكن من دعوتهم
مع ما استطاع جمعه من ديون،لأنه
لم يرغب بالتأخير أكثر.

والتحق به أخوه غيوفري

وأثناء اقامته هناك،كل اهتمامه تركز
على جمع الرجال والسلاح
غيوفري دي لوزغنان أخوه
شخصياً،قدم الى هناك،وكان معروفاً جداً
على أنه الاقطاعي الأقوى في البلاد،لأنه
نشأوتربى بشكل جيد على الحرب.
وعند صور توقف أولا

لكنه لم يجد هناك مأوى لنفسه
لأن المركيز وأتباعه
حرموا عليه الدخول الى الميناء.
وهكذا وقد رفض وطرد
عاد الآن الى طرابلس
وهناك أخوه وجد الملك غي
الذي رحب به ترحيباً صادقاً جداً.
وعندما الملك استعد استعداداً جيداً
للحرب،جنوده أخذوا طريقهم وزحفوا.
وجاء الى صور عبر الساحل:
وكانت جماعته تتكون من مجرد قليل من الفرسان والرجال.
ووجد الأبواب والمنافذ كلها مغلقة
بوجهه وبوجوه رجاله بوساطة الحراس:
وكان المركيز منحطاً وحقيراً
وعلى السماح له بالدخول ،لم يكن ليوافق
وأوعز بتصرفات سيئة
حرم بها الملك من مملكته الشخصية.
وهكذا،فإن الملك الذي سلب من حق الدخول
أعلن أنه لن يستطيع بشكل دائم تحمل

مثل هذه الاهانة.وبناء عليه اتخذ موقفاً صلباً
وأمر بخيمته فنصبت فوق الرمال.

على الرغم من كونراد عدد كبير التحق بغي
خارج صور تجمع الحشد

وأنتم تعلمون بأنه تألم ألماً عظيماً
لأن المدينة حظرت عليه
وهذه المواجهة كلها قد خطط لها
من قبل مونتفرات،المركيز المزيف
وكان هذا ابنا لكونراد الشجاع
الذي أسر في القتال الكبير.
وهذا ماكان قط ليعمل مثل هذه المراغمة:
لأنه كان مخلصاً،وفارساً خلوقاً
بينما كان ابنه خائناً
ورجال صور الذين أحبوا كثيرا
ربهم،وأحلوا مصلحة الرب فوق
كل شيء آخر،غادروا المدينة مباشرة
وطلبوا الالتحاق بالملك بدون تأخير
وكان هناك نبيل ألماني،عمل
تلك السنة وخدم باخلاص وصدق

وكان أيضاً الأخوة الطبرانيون الجيدون،
والذين كانوا أكثر مجموعة سورية اخلاصاً
والبيازنة،الذين خدمة منهم للرب
قدموا بشجاعة العون والسيف
وعن بيوتهم تخلوا ولها هجروا
وكذلك عن كثير من الثروات. وقادوا
أزواجهم وأولادهم أيضاً،ليسافروا
الى عكا،حيث كان المسلمون هناك.

الزحف لحصار عكا

أما وقد جلب عون أخيه
سروراً عظيما الى الملك
وحكت الروايات الصحيحة أنه أقام
أربعة أشهر قبل أن يعود
إلى صور فوق الرمل،وهي البلدة
التي بكل مقتضيات العدل بلدته.
وعندما جلب من الديار كلها ووضع
العساكر تحت امرته
مع قوات أخيه—
التي شكلت شطراً كبيراً من موارده—

بات لديه أربعمائه فارس،وأحصى وجود
سبعة آلاف راجل لاأكثر
للقيام بحصار عكا. والذي خلصتُ إليه
أن مامن أحد سواه كان سيتجرأ على مثل هذه المخاطرة
ورائع أنه بمثل هذه البراعة حاول
فيما عدا أنه عرف أن الرب الى جانبه-
قتال قوة كان تعدادها أكبر من تعداد
قوته،بمقدار مائة مقابل أربعة
لكن الرب أراد هذا كله، ووقع الأمر وحدث
ووصل الحشد الى أسوار عكا
التي بقدرة هائلة صلاح الدين
سعى الى تحصينها
لأنه كان متأكداً من وقوع هجوم
من قبل الذين سرهم استردادها.
وقدم الملك خدمة الرب على كل شيء
الرب الذي عن ثقته به لم يتزحزح.
والذي توفر لديه من الرجال، مع أنهم كانوا قلة،
قادهم عبر الطريق الذي جيداً عرفه
وجاز الحشد سريعاً خلال المخاطر

لقد جاز ماقام بين عكا وصور
وعرف المجاز هناك باسم ممر اسكندرونة، وهناك
اقتيد الحشد من قبل الملك غي.
لكن صلاح الدين لم يكن على دراية
بهذا،ولو أنه عرف الأمور
لجرى تدمير الحشد بكل سرعة
وذهب روسيا كلها ما كان ليجنبه
مثل هذا المصير،لكن الرب أراد مصيراً آخر.
وهكذا بدأت المخاطرة التي استهدفت
انقاذ المسيحية
والتي تطورت بسرعة كبيرة
فالآن باسم الجسد المبارك
نحن الذين بالمسيحية نؤمن،الى هنا
جاء جيش الملك الى عكا. وبناء عليه
صعد الملك الى ظهر احدى التلال.
والآن الحشد المسيحي الذي توجه
من صور الى عكا صعد الى
ظهر التل.ويمكنكم أن تعرفوا يقيناً
أنهم صعدوا الى هناك في ظلام الليل:

ولم يتجرأوا على البقاء في الشعراء
ولهذا توجب امتلاكهم لأعلى البقاع.

دفاع صلاح الدين عن عكا

وعندما حان وقت الفجر تحرك الترك وزحفوا
خارجين من البلدة، ورأوهم هناك
يا للهول، البلدة كلها اضطربت
واستثير فرسانها وقلقوا وتشوشوا.
وأرسلوا يخبرون صلاح الدين، أنه قد
حدث أن قليلاً من رجال الفرنجة
بحماقة تحركوا نحوهم ليهاجموهم
وأنه ينبغي أن يقدم مسرعاً
ليقطع رؤوسهم عن أجسادهم ولكي لايبقي حيا
ولا واحداً منهم، لأنهم لن يتجرأوا على
الدفاع عن أنفسهم، وإلى أقصى الحدود
ابتهج صلاح الدين بهذه الأخبار؛
وكان عند الشقيف، التي عليها ضغط
بفعالية، وأراد أن يحاصرها.
واستدعى الاحتياط، وأعطى أوامر
أن عليهم في جميع أطراف بلاده

وجوب التوجه إلى سورية وأخذ
الطريق فوراً، من أجل النهب
وجاءت أعداد كبيرة جداً، علّ الرب يخزيهم
إنه الرب الذي خلق الأرض والسماء من حولها.
ولو أننا قطعّنا إنشاً فإنشاً
مامن واحد كان سيجد مأواه.
وبعد مضي اليوم الثالث على وجود رجالنا على
القمة العالية للتل
(حيث طوال الليل احتفظوا بسلاحهم
خشية من عمل مفاجىء من قبل المسلمين)
خذوا حذركم، إن رجال صلاح الدين
من فرس وترك وبداة
الذين قدموا، عقدوا العزم على
احتلال الأرض كلها بلا استثناء.
وفي اليوم الثالث من الاسبوع
جاء صلاح الدين نفسه ليقوم
بانتقام سريع اشتهاه
وأن يقطع رأس كل فرنجي

- ١٣٨٤ -

بداية الحصار

وليست المسألة مدهشة
إذا توجب عليهم المراقبة بأعين مفتوحة
وإذا كانوا قد تحملوا الرعب والآلام
في محاولتهم لحفظ رؤوسهم وحمايتها
لأنهم عندما كانوا على قمة التلة
هاجمهم الترك في الليل وفي النهار
وحملوا عليهم مراراً وتكراراً بشدة
بلغت حداً أنهم نادراً ماتمكنوا للتوقف للأكل
وصنع غيوفري دي لوزغنان أعظم
الأفعال الكبيرة لحماية الحشد.
من قبل كان شجاعاً وباسلاً
والآن ذاعت شهرته أكثر.
ومن الاثنين حتى الجمعة هكذا
عاشوا في خوف وفي هول عظيم
وستسمعون الآن خبر ماأولاه
الرب من عناية لهؤلاء الذين قرر حمايتهم
فما من شيء يمكن أن يؤذيه أو يضره
الذي أوقف نفسه على خدمة ارادته

- ١٣٨٥ -

وصول جاك دي أفنس مع نجدات

وبينما عاشوا هكذا في رعب وقلق وشك
نظر الملك والذين معه وتطلعوا
نحو أعالي البحار في آخر الأفق
وصلّوا للرب بإخلاص وبحرارة
من أجل صيانتهم وحمايتهم حسبما
يشاء، وهم في ذلك، تطلعوا فرأوا قادماً مسرعاً
أسطولاً رائعاً بسفن مشحونة بالرجال
وفيها قوم قادمون إلى البلاد
جاك دي أفنس كان هناك، وهو صاحب فلاندرز
أنا لا أظن أن الاسكندر
أو هكتور أو آخيل كانوا
رجالاً أكثر نبلاً منه في أخلاقهم
لقد كان جاك هو الذي باع، أو ضمّن
أو رهن، ميراثه ومقتنياته
وباع كل ممتلكاته
ووهب بحكمة لانظير وبإخلاص عظيم
القلب، والنفس، والجسد وأعطاهم
إلى الملك الذي انبعث إلى الحياة من الموت.

وأربعة عشر ألفاً معه جاءوا
رجال شاكي السلاح ومعروفون ولهم شهرة
وكانت هذه المراكب هي الاسطول الدانماركي:
وكانت هناك أعداد كبيرة من كاستيلا كان من الممكن رؤيتهم
ومن كورنوول، ومن التخوم أيضاً
فهكذا الذين عرفوا الحكاية تحدثوا ورووا.
وخيول رائعة من خيول الحرب، كانت
قوية وسريعة، بنية وكستنائية
وعندما باتوا على وشك الرسو، يمكنكم
رؤية الترك وقد اقتربوا من حالة الجنون
وبعنف، نحو الشاطىء اندفعوا
لابل بعضهم حتى في الماء خاض.
وأصيب الذين كانوا بالبلدة بالجنون
فرموا بزخات من النشاب وأسقطوها
لكن الذين كانوا على ظهر التل انحدروا
ومن كل جانب واتجاه مضوا
حيث حملوا، وقاتلوا قتالاً عنيفاً.
لكن الترك — على كل حال — صدوهم، وإلى الخلف أعادوهم
مع رمايات كثيفة. ومع ذلك

نزل رجالنا إلى اليابسة بنجاح.
وعندما رأى صلاح الدين الحشد قد جاء، انشرح
وقال: «الآن غنائمنا قد ازدادت».

المناوشات الأولية

عندما الملك العالي، الذي له نركع
لنتعبده، رأى جيشه يزداد
حتى غدا ثابتاً بعض الشيء، وقوياً
قوة لم يعد بإمكانها الصبر أكثر...
وامتلك رجاله جميعاً الجرأة بوثام
وأخذوا طريقهم منحدرين من التل
وأقاموا ستائر لهم، ونصبوا الخيام
وشرعوا بحصار عكا.
بينما على الطرفين عدوهم، تحرش
بهم، كما أنهم تعرضوا لضغط مريع.
وتماسكوا وثبتوا بأنفسهم على طرف البحر.
وثبت البيازنة وقاوموا مقاومة شجاعة
وببسالة تولوا حراسة سيف البحر
ضد رجال قطيع الكفار المتوحش
حتى لايتمكنوا من تدمير، أو

الاستيلاء على السفن القادمة إلى الشاطىء.
وفي صباح أحد الأيام — وكان اليوم يوم جمعة —
جرى اشتباك عنيف
على بعد، باتجاه تل المصلبين
ووقع قتلى من الجند على كلا الطرفين.
والذين في البلدة قاموا بغارة
وإلى داخل عكا أدخلوا عنوة
قافلة ذات حجم كبير
من الجمال المحملة بالميرة والمؤن
وإلى صلاح الدين جلبوا
الأسلاب والغنائم التي من أجلها قاتلوا.
وكانوا يدخلون إلى البلدة ويخرجون منها تماماً
بكل يسر، مثلهم مثل الذين امتلكوا القدرة.
والذين تمركزوا في عكا لصدنا
لم يكونوا فلاحين، اعلموا هذا جيداً
ولم يجلبوا من وراء العربة أو المحراث
لأننا مؤخراً علمنا وتجددت معرفتنا
أن هؤلاء جميعاً الذين لايطيعون
الرب، مامن أحد كان أكثر أهلية وشجاعة

منهم لاقتحام القلاع، ومامن أحد أكثر شجاعة
٢٩٢٠— منهم لحماية المدن والدفاع عنها.
الصليبيون الغربيون يزدادون قوة
ولم يكن قد مضى أكثر من أربعة عشر يوماً عندما
وصل إلى هناك كونت برين (ايرارد الثاني ١١٦١ — ١١٩٢)
وأخوه أندرو كان قد جاء معه،
وهو ابن لسيد جيد ولسيدة جيدة.
وكافل مقاطعة فلاندرز الذي (هلين دي برين)
جلب عشرين باروناً بالتمام أيضاً
والأمير (لنغريف) الألماني (لويس الثاني لنغريف ثورنغيا ١١٧٢ — ١١٩٠)
وكان معه خيولاً جيدة من اسبانيا—
وكذلك أسقف بيوفياس (فيليب دي درو)
٢٩٣٠— وكان رجلاً مسناً، وضعيفاً، وأبيض الرأس.
لامعاً، ونشيطاً، وثابتاً لايتزعزع.
ووصل كونت بار إلى هناك (هنري الأول كونت بارلي دوك ١١٧٠ — ١١٩١)
وهو الذي لم يكن بين الناس من هو أكثر لطفاً منه؛
وكثير من الآخرين الأشداء والحكماء
رجال جاءوا للالتحاق بالمخاطرة.
ومثير للدهشة أنه كان كلما ازداد عدد القادمين، الأقل

من الخوف أو اليأس أعطوا للأعداء
الذين صدوهم وهاجموا دفاعاتهم
وزاد عليهم الضغط ولاحقوهم حتى إلى خيمهم
وقام رجال البلدة بحملات علينا
والآخرون ازدادوا عدداً
كل يوم، وملأوا البلاد. وتقريباً
أحاطوا بحشدنا الشجاع؛
الذي رجاله — على كل حال — لم يتزحزحوا
بل وقفوا ثابتين في سبيل ملكهم السماوي.
وبينما القتال العنيف دائر أمام عكا
مامن أسقف، أو كاهن، أو كاتب، كان بإمكانه أن يكتب
أو يتحدث عن الأهوال والآلام
التي توجب على العساكر الفرنجية تحملها
ولاعن شقائهم ونيلهم الشهادة حتى وصل الملكان إلى هناك
وهما ملكا انكلترا وفرنسا
ورجالهما ذوي الشجاعة البالغة
الذين أحبوا الرب بكل إيمان وصدق
والذين حولوا أسوار عكا إلى رماد.

-١٣٩١-

هجوم الأتراك وصدهم

في يوم جمعة من أيام شهر أيلول
حدث حسبما أتذكر جيداً
أن نزلت بنا نازلة قاسية
وكانت شديدة الإيذاء ومفجعة.
ففي كل يوم المسلمون هاجموا
رجالنا، ومامن يوم واحد تخلوا فيه عن ذلك
وسلح الفرنجة أنفسهم ليأخذ كل
واحد منهم مكانه، تبعاً لأوامر
قائد القوات والعساكر
الذين توزعوا على فئات
والاسبتارية والداوية أيضاً
كانوا على شاطىء البحر، حيث الجماعات
المسلمة المحتشدة كانت كثيرة
وبدأ القتال هكذا دائماً:
في القلب كونت بريين
أخذ موقفه مع رجاله
وهناك لنغريف ألمانيا
أخذ موقفه مع جماعته الكبيرة

قرب البيرهMahomerie للحراسة
العمل الذي أدوه أدوه بنجاح واستحقوا المكافأه.....
والعساكر التي جاءت من بيزا،وعساكر الملك غي
مع آخرين ذوي شجاعة كبيرة وبراعة
على اليمين وقفوا، لإدامة المراقبة
للقوات التركية،المعسكرة في النطرون.
وجاء المسلمون بشدة وعدة،وكان ممكنا
لكم رؤية عدد كبير من الوحدات الجيدة.
الداوية والاستبارية
حملوا وعلى قوات المقدمة انقضوا
ولصفوفهم خرقوا،وفعلوا بهم أفاعيل
وطاردوهم عندما شرعوا بالانهزام.
ومثل هذا فعلت بقية قواتنا.ومن جميع الجهات
تمزق المسلمون،وتخلواعن مواقفهم.
لكن الأعداء كانوا في أعداد هائلة
الى حد أنه مامن فرنجي كان يمكنه أن يعرف
أي طريق سيسلك والى أي اتجاه سيتحول
كما لم يكن بامكان الترك عرقلة الانهزام.

حتى حدث حادث حّول التيار لصالحهم

الى جانب الجبل هم كانوا

عندما الشيطان،دخل الى المعترك

فقام بأعظم أفاعيل الشر،مما كلفنا

حياة عدد كبير من رجال حشدنا

والذي حدث أن فرساً لألماني

هرب منه وركض بعيداً.وبسرعة قصوى

لحقه هو وأتباعه

لكنهم لم يستطيعوا إمساكه واللحاق به الى حيث فر

ذلك أن الفرس هرب باتجاه المدينة، وهنا

مائة ألف من المسلمين

ظنوا أننا كنا منهزمين. وبناء على هذا

لقد اعتقدوا أن صفوف الفرنجة قد تمزقت

فحملوا علينا.ونحو المعترك

انعطفوا،وأنزلوا بنا هزيمة ساحقة في ذلك اليوم

حتى أن الذين تعودوا على قيادة

الحشد هم أنفسهم تعرضوا لمحنة قاسية.

وقاتل الأعداء بشدة، وتفوقوا

علينا:وكنا واحداً مقابل أربعة وعشرين.

والذين منهم أجادوا استخدام الهراوات أو العصي
تركوا أعداد كبيرة من الأموات على المعترك.

خسائر الفرنجة

هناك لاقى أندرودي بريين مصرعه:
علّ روحه لن تعاني في الآلام
ولم يتوف قط فارس مثله شجاعة
أو مثله سرعة في تقديم العون للآخرين
وضيق المسلمون الخناق على مركيز
دي مونتفرات وشددوا الحملة حتى
بات مصيره الفناء،لولا أن
الملك غي بادر للتفريج عنه.
ولاقى مقدم الداوية مصرعه
وسط حمأة القتال وشدته
ولقد كان هو الذي تفوه بالكلمات النبيلة
ذلك أنه تعلم في مدرسة الرب الجيدة
عندما أثناء تلك الهجمة،أناس خائفون
وكذلك أناس لايعرفون الخوف،توجهوا
إليه بالخطاب:«تعال،ياسيد تعال،ودع القتال»،
ولو أراد ذلك،لكان بإمكانه تماماً

الرجوع،غير أنه قال:«لاسمح الرب
أن أكون قط في مكان آخر
أو أي انسان يشتم
الداوية،ويقول إنني هربت خائفاً».
هو لم يهرب،لكنه هلك،بعدما
غُلب وألقي أرضاً من قبل الترك الذين كانوا كثرة كثيرة
وخمسة آلاف من أوضع الناس وأدناهم قتلوا
وتبعثرت أجسادهم وتناثرت فوق البسيط.

وبطولات

ثم عندما الأعداء داخل المدينة
علموا أن رجالنا قد ألحقت بهم الهزيمة
امتطوا ظهور خيولهم العربية
وساقوا نحو الأمام،وانقضوا على قواتنا
بسرعة هائلة وباندفاع شديد
وكان مقدراً لهم سحقنا
لولا أننا قاتلناهم بعزيمة وصددناهم؛
فقد صمد رجالنا أمام الحملة الحادة،
وفعلوا أفاعيل طيبة،وضربوا ضربات جبارة
وأجادوا التعامل مع أعدائهم المبغوضين

وقاتل الملك ببسالة وجودة
أعني الملك غي ،الذي سمعتموني عنه أتحدث.
ومثله أجاد الفعال غيوفري دي لوزغنان
الذي عانى وتألم كثيراً أثناء هذه المخاطرة
وجاك دي أفنس،الجريء،الذي يده
صنعت أفاعيل جبارة في البلاد
والآخرون أيضاً،قاتلوا وناضلوا جيدا
حتى تمكنوا من صد الأعداء وردهم الى عكا.

الصليبيون يخندقون حول أنفسهم

هكذا حدث في ذلك اليوم ونزل بنا
عندما الحظ أشاح بوجهه عنا.
وتجددت أفراح المسلمين وزال الكرب عنهم
(الرب يلعنهم وأنا ألعنهم أيضاً)
لأنهم آذوا هنا وأهانوا
جنودنا الفرنجة،وشددوا الضغط
وأغاروا على رجالنا وهزموهم أكثر من ذي قبل.
وعندما وقع هذا،وصار قادتنا واعين
لما حدث،تحدث البارونات بحكمة وقالوا:
«أيها السادة،قليلاً من المرابح مانلناه.

دعونا نبدع نوعاً من التكتيك، يكون جيداً
لصد أبناء الشيطان هؤلاء وإبعادهم
الذين طوال النهار فرضوا علينا الإذلال
ويستولون على خيولنا ويسرقونها في الليل»
وكان هذا هو القرار الذي
اتخذوه:لقد أمروا بخندق هائل
أن يحفر عميقاً-وأن يكون عريضاً وواسعاً-
وأن يقام الكثير من الستائر الدفاعية الى جانب
الخندق،وحواجز خشبية وترسة
وهكذا قسموا مسارح العمليات وفصلوها
لكن المسلمين تابعوا التحرش
برجالنا، ولم يدعوهم ينعمون بالراحة

أجساد الموتى تلوث المياه

اسمعوا الآن عن اضطراب عظيم
نجم عن المقتلة التي أنزلت
بالفرنجة،المسألة التي أنا عالجتها
للتو،عندما هزموا هزيمة ساحقة.
وفي اليوم الذي جاء تاليا
لكوارث ذلك العراك الهائل

عندما جميع نخبة الحشد سحقوا وتمددوا
أرضاً، وقواهم زالت وتبددت
وعندما كثير من فقراء الناس الذين أخفوهم
هناك خدمة للرب وطاعة،ماتوا؛
أمر صلاح الدين بجثة كل مقتول
أن ترمى في مجرى ماء
عكا،وبذلك أعيدت مرسلة إلينا
ولقد كان منظرا مرعباً جداً
الأجساد،طافية، ثم قذفت
الى الشاطىء بوساطة تيار الماء، فصارت بين الناس
وازدادت أكوام القتلى وتعاظم حجمها،ومنها
جاءت روائح نتنه وامتلأ الجو بروائح الأجساد المتفسخة
ولهذا هرب الجيش كله من هناك
حتى تم دفن القتلى،ومع ذلك
حتى بعد مضى وقت طويل توجب تجنب
النتن الصادر عن التفسخ

حرب الخنادق

أكمل الجيش الفرنجي الآن حفر
الخندق الذي أفاد بمثابة حاجز

لحماية الجند ووقايتهم،عندما
يقاتلون من قبل قوات المسلمين
الذين هاجموهم في كل يوم، سواء
أكان المناخ ملتهبا أم قارصاً.
وحول الخندق جرت المعارك القتالية
بين رجال الرب وقطيع الكفار
وتركزت جهودنا في سبيل بقائه
في حين ناضلوا من أجل طمه وتدميره.
ولهذا كان من الممكن لكم أن تروا في تلك البقعة
٣١١٠— خمسمائة ألف نشابة رأكثر
حملها حفرة الخندق وناولوها هناك
الى الذين قاتلوا دفاعا عنهم،
وكان بامكانكم أن تروا على كلا الجانبين
رجالاً ذوي شجاعة عالية وقلوب صامدة
وكان يمكنكم رؤية رجال يسقطون،ويتدحرجون تحت
الآخرين،ويتمزقون،وأطرافهم تتبعثر.
ووجهت ضربات شديدة وتبودلت خلال القتال
الذي لم يتوقف حتى حلول الظلام.

نزول الحجاج الى اليابسة

فيما بين الوقت الذي تولى فيه الحشد الأول
٣١٢٠— إلقاء الحصار على عكا القائمة على الشاطىء
والاحتفال المقدس في يوم عيد جميع القديسين
إنني أعلم،وغالباً ماسمعت يقال
أن رجالاً قدموا الى هاهنا بلا انقطاع
كل واحد منهم مستعد لتقديم العون.
وجاء كونت فيرير،الذي بوساطته(وليم فيرير،إيرل دبري،وصل في ١١٨٦ ومات في ١١٩٠)
أكثر من مائة تركي واجهوا حتفهم
وكان رامياً بارعاً الى أبعد الحدود
حتى أنه لم يوجد من كان أسرع منه في رمي النشاب
وغي دي دامبير جاء،وهو الرجل
٣١٣٠— الذي امتلك قلاعاً جميلة، مبنية بالحجارة(في شامبين في فرنسا)
وجاء أسقف فيرونا(أدلرادو كاتانيو- أسقف ١١٨٨-١٢١٤، كاردينال ١٢١٤-١٢٢٨)
الذي كان جيدا وامتلك شهرة عالية.
وجميع هؤلاء الناس الذين جاءوا الى هاهنا
كانوا شهداء، ومعترفين أيضاً.
ذلك أنني يمكنني التجرؤبالقول بأن هؤلاء بيسر عظيم
عانوا من شهادة مأساوية

مع تيقظ مستمر ومع رعب دائم
وإنهاك بلا نهاية،ليلاً ونهاراً
لأنهم لم يتجرأوا على الاستراحة،كما لم يكن بإمكانهم
التوقف للحظة واحدة عن العمل
حتى اكتمل الخندق كله تماما
وهو الذي شهد كثيرا من البراعات الدموية

وصول اسطول اسلامي من مصر

قبل يوم من عشية عيد جميع القديسيين
وقعت هناك واقعة سببت الأسى
للحشد،وتعاسة مدهشة
ومؤلمة جداًومأساوية.
فيها العساكر الفرنجية منحنية
تحت وطأة ثقل اليقظة بلا توقف
والذين تمركزوا على ظهر التل
حولوا أنظارهم باتجاه حيفا.
فرأوا اسطولاً عملاقاً قادماً من هناك
مكوناً من غلايين مسلحة أعينهم قدمت لها التحيه.
وجاء هذا الاسطول من مصر
التي ناضلت مع عكا بوحدة وانسجام

- ١٤٠٢ -

وتحرك الاسطول بنظام حسن
وأخباره على الفور
انتشرت في أوساط الجيش الفرنجي
وحكت كيف أنه قادم بسرعة وبجرأة.
وهناك كان بينهم بعض من اعتقد-
مع أن مامن واحد في الحشد عرف شيئاً مؤكداً-
أنه كان اسطولاً بيزيا،واعتقد بعضهم
أنه جاء من جنوى،
أو من البندقية،أو من صقلية
لتقديم العون لهم لنيل نصرهم
ولاقتحام البلدة. وفيما هم هكذا يخمنون
ازداد اقتراب الغلايين أكثر
ثم ازداد أكثر، وببرهة قصيرة
شقوا طريقهم الى داخل ميناء
عكا. وقبل أن يصلوا الى البلدة
جعلوا إحدى سفننا ملكاً لهم
وكانت محملة بالجند والمؤن
وبسرعة ساقوا غنيمتهم
الى ماوراء حواجز المدينة،ثم

- ١٤٠٣ -

استولوا على الميرة،وقتلوا الرجال

عمل تركي مروع

واستمعوا الآن أنتم الى أخبار الأعمال الخبيثه
التي اقترفها بحق ربنا هؤلاء الترك الساقطين.
في يوم العيد المبجل
عندما تذرف الدموع التقية بغزارة.
ففي اليوم الذي نحتفل فيه بالعيد
عيد جميع القديسين الذين باركهم
في السماء ، أولئك التعساء المرغمين
الذين علقت أجسادهم على أسوار عكا في أعاليها
إنها أجساد الفرنجة الذين أخذوا
من داخل السفينة وبدناءة قتلوا
ويمكن للوعاظ أن يعلنوا بكل تأكيد وأن يصرحوا
أن مثل هؤلاء لهم نصيب
في المباركة السرمدية التي تبز
ما سواها ، وإنها بلا نهاية
تبريكات هؤلاء الذين اليهم نقدم
التبجيل في ذلك اليوم المقدس

- ١٤٠٤ -

بناء آلات الحصار

هذا الاسطول الذي سمعتموني عنه أتحدث
تولى حراسة الميناء والطريق بشكل جيد
ضد رجال الرب ، وبحراسته
للطريق والميناء كلاهما منعا
وهكذا ما من نجده بات بإمكانها أن تصل
الى الذين في سبيل ربهم ناضلوا
ونظراً لحلول الشتاء
لم يكن لديهم ميرة ولم يتمونوا
وحفروا خندقهم ، لكن بوساطة القوة
البرية ، طم فيها بعد مجدداً
وصنعوا في ذلك الشتاء برجاً خشبياً
ومجانيقاً وآلاتاً لرمي الحجارة الكبيرة
وقلاعاً متنقلة ، وسواتراً ، ودروعاً كبيرة وقوية
وبذلوا في سبيلها جهداً عظيماً وطويلاً
وفي الوقت نفسه العمال في الجهة المقابلة
وكان عددهم ثلاثين ألفاً، حصنوا
البلدة بأبواب وأبراج أيضاً
وبعرادات ثابتة وجديدة

لقد صنعوها قوية جداً وعلى درجة عالية من الثبات
الى درجة يمكنهم فيها ردّ العالم كله وصده .
وصلاح الدين الذي لم يدخر جهداً حتى
لا يفقد المدينة ، أقام هناك
عدداً كبيراً من المجانيق ، ومخزناً عظيماً
لحجارة الرمي ، ولالآت الحرب
وكثيراً من الحرفيين ذوي أيدي رشيقة بارعة
من الأجانب ومن أهل بلاده
وجرارا مليئة بالنفوط ، لا تعد ولا تحصى
وكميات هائلة من الأسلحة الفتاكة
الى درجة — كما علمنا فيما بعد وعرفنا —
ما من مدينة قط أو قلعة
حوت سلاحاً كثيراً جداً وجيداً مثلها
أو مثل ما كان فيها من كميات عظيمة من الميرة والطعام
وهكذا مرّ الشتاء على هذه الصورة
حتى الربيع الحلو جاء أخيراً.
ووقتها — حسبما عرض أمبرويز
الحكاية — في أثناء الصيام
استخدم الجنود الألمان براعتهم

لبناء أول طاحون هوائية
عرفتها سورية
بينما حدق الملعونون من الرب من داخل البلدة وراقبوا
ما كان يجري فأصيبوا بالحيرة
وامتلأوا بالرعب وبالخوف .

الأسى بسبب وفاة فردريك بربروسا

والآن الى جيش الرب الموجود هنا
جاءت أخبار في البداية كانت جيدة
لكن فيما بعد كانت محزنة جداً
غير مرحب بها ، ومرعبة ، ومؤلمة :
امبراطور ألمانيا
رجل جيد ، مع حشد قوي
زحف نحو الضريح المقدس براً
ليلتمس النعمة من يد الرب .
قد توفي ، وكانت تلك خسارة مؤلمة
عند نهر بذل جهد لعبوره
عبر مخاضة غير معروفة وغير مجربة
هكذا إرادة الرب فعلت وقررت .
وعندما الذين في داخل عكا

تلقوا هذه الأخبار كانوا مسرورين جداً
وما عادوا يفكرون بشيء آخر مطلقاً ، لقد قرعوا
الطبول وقفزوا ورقصوا في الشوارع
واندفعوا نحو أبراج المراقبة واعتلوها
هناك ، وإلى رجالنا ألقوا
بالأخبار التي سمعها صلاح الدين
وأعطاها لهم ، كلمة فكلمة .
وأعلنوا من فوق أعالي الأسوار
وصرخوا الينا بأصوات عالية وخافتة
وشتائم تكفير أرسلوا الينا، ومجمعين
قالوا لنا :« امبراطوركم قد غرق »
ثم بدأ جيش الفرنجة يبكي وينوح ،
واستبد الحزن برجاله ، واستولى عليهم يأس عظيم
وشعروا بكآبة كبيرة وبأمل صغير للحملة الصليبية
باستثناء الأمل بالعون القادم
ومع استثناء الوعود بالصمود
وفي أوساط الجيش انتشرت أخبار حول
اقتراب وصول الملوك العظماء الآن
الى البلاد ، وحول سيدينا القويين العظيمين

ملكي انكلترا وفرنسا
اللذان جلبا التفريج والعون فيما بعد :
وبهذا اطمأن الحشد وشعر بالراحة .

وصول اسطول فرنجي من صور

انتبهوا ، انتشرت الأخبار الآن
بعد عيد الفصح بوقت قصير
وتحدثت عن اسطول كبير كان على طريقه
من صور ، وما لبثت الأخبار أن وصلت الى الميناء
ثم لكم أن تتخيلوا حشداً كثيفاً
من النمل ، أخذ يتدفق من عشه
عبر كل بوابة، من الأمام ومن الخلف.
من داخل البلدة، لدى سماع النفير
تدفق الترك إلى خارجها، مثلهم مثل سرب جراد.
عشرة آلاف رجل مسلح ظهروا للعيان،
مُغطين، هم وغلاايينهم أيضاً،
بالسجاد، وبثياب من خالص
الحرير، وبالقباطي والمخامل.
وضد الاسطول أبحروا متقدمين
الاسطول، الذي أسرع أمام الريح

شمالية، وتقدم مثل لمح البصر نحو الرصيف
حيث الآخرون انتظروا ليصدوا
الحملة . وباندفاع فعال
تقدمت كل قوة نحو الأمام للاشتباك
وانقضت كل واحدة على الأخرى
وتقاتلنا بشجاعة قصوى وبشكل جيد
وكان تحت إمرة مركيز صور
٣٢٩٠ — خمسين مركباً مسلحاً ومشحوناً برجال
مع معداتهم كلها كاملة
وهؤلاء تحركوا ضد الاسطول التركي

وهزموا اسطول المسلمين

وكان بإمكانكم أن تروا هناك كثيراً من الرايات
ورجالاً عليهم سيماء الشجاعة والثبات
ذوي سرعة جاهزين لأعمال الفروسية ومغامراتها
وأطلق الأعداء في البداية جروخهم .
وهكذا الاشتباك والقتال بدأ
الذي ما لبث أن احتدم بين الاسطولين
والآن القوم الجبناء من أمثال :
٣٣٠٠ — البيازنة والجنويين

جرى اقتحام سفنهم وبوارجهم
من قبل رجال يحملون القسي العقارة والترسة
وحصلوا على مقربة من رجالنا
ثم شرعوا يرمون بالنشاب وبالجروخ
حتى رددنا اسطول الترك الى الخلف
واستولينا إثر قتال عنيف ، على
غليون ، جلبناه الى الميناء
وكان بإمكانكم ساعتها سماع أهازيج عالية
كما كان بإمكانكم رؤية فتيات وزوجات
يحملن في أيديهن سكاكين كبيرة
ويمسكون الأتراك من شعورهم ومن ضفائرهم
وينزلون بهم آلاماً مبرحة
ومن ثم يقطعون رؤوسهم ويحملونها
عالياً عائدين منتصرين الى الشاطىء .
وعلى الاسطولين ظلت المعمعة
مستمرة ، وكان كل واحد منهما يتقهقر
ثم نحو الآخر يتقدم
ثانية ، وكلاهما رميا بالنفوط
وكلاهما احترق ، وكلاهما تراجع لإطفاء

اللهب ، وعندما صدما بعضهما بعضاً
قاتلا واصطرعا بشجاعة منقطعة النظير
حتى سيقا الى داخل الميناء
ما من انسان قط شاهد
معركة كانت على هذه الشاكلة

وقاتل الأتراك من جهة البر

وكان حشدنا المحاصر حشد
الرب هو الذي دفع الثمن الغالي جداً
لأن الأتراك كانوا أكثر عدداً
كانوا كل يوم أكثر غضباً
وقد امتلأوا بحقد عظيم وخشية
أن يخسروا سفنهم في القتال
وعليه بينما القتال كان محتدماً
في البحر ، أقلعوا بهجوم حاد
على خندقنا، حتى أن مامن واحد بين
الفرنجة، عاليا كان أودانياً، أوشاباً
أو عجوزاً، وإن كان ذا شهرة وثبات
في الحرب، لم يستطع حماية نفسه،من دون بذل
جهد عظيم، من الترك الذين اقتحموا

الخندق، لأنهم مثل الذباب احتشدوا
مستخدمين كل ما امتلكوه من وسائل
لطم الخندق وتدميره
وكان بإمكانكم أن تروا هناك كل السهل
مثل حقل قمح حديث النضوج
من هاهنا إلى بدايات التلال
مغطى ومظلم بعشائر
الترك، التي بدون توقف نحو الأمام تقدمت
بدون لحظة توقف أو راحة:
وإلى عمق الخندق رجالها اندفعوا
بشكل كثيف جداً، حتى أنهم سقطوا وسحقوا
بعضهم بعضاً. رجال سود يتصببون عرقاً
كانوا هناك، إلى الرب مبغوضين
وإلى الطبيعة، يرتدون على رؤوسهم قلانس حمراء:
وحوش، أو أكثر قبحاً
الرب لم يخلق قط، وكانوا كثرة كثيرة
وكانوا همجاً لايعرفون الرحمة.
وبدوا وهم يتحركون بشكل مخيف
وعلى رؤوسهم قلانس حمراء عالية،

مثل أشجار كرز ممتلئة بالحبوب الناضجة.
ومزيد من الترك كانوا مع هؤلاء—
خمسمائة ألف رجل هناك اجتمعوا،
حسبما قيل. ومن المدينة حمل وتقدم
الترك الآخرون، وكانت أعلامهم تخفق
في الأعالي. وعلى كلا الجناحين حملوا على
رجالنا، وكان المعترك مميتاً جداً
إلى حد أنه أثناء النهار، مراراً
كان جند الفرنجة في حالة شك لايدرون
هل يمكنهم المناورة لكي يصمدوا.

لكن الفرنجة كانوا المنتصرين

الأعداء، الذين على رؤوسهم قلانس حمراء
كان لديهم راية واحدة حولها التفوا جميعاً
إنها كانت راية محمد (صلى الله عليه وسلم)
تحمل على رأسها تمثالاً (كذا)
فباسمه جاءوا إلى هاهنا
ليسحقوا الفرنجة ويدمروهم
وقاتل القوم الأوغاد والأشرار وحاربوا
مستخدمين أحجار كبيرة كانوا قد جلبوها.

هكذا كان القتال الذي بصعوبة بالغة قاتله
حشدنا على الجانب البري.
في حين القتال في الجانب البحري
استمر حتى حلول الظلام،
لكن، برحمة الرب، أخيراً
نال اسطولنا النصر
لأن فريقاً من البارونات، يوماً تلو يوم
اتفقوا ورتبوا أن يتناوبوا
فيما بينهم في السفن، وكانوا فريقاً تشكل
من رجال شجعان جداً، ومسلحين بشكل جيد
وقد قاتلوا بشجاعة، وبموارد وبدهاء
ودفعوا برجال العدو وهزموهم بالقوة في
داخل سلسلة الميناء، وهكذا
تمكن اسطولنا من الحاق أضرار بالغة جداً
في داخل أسوار المدينة بين
الترك — ثم ماذا، أربعين ألفاً أشداء —
لم يعد بإمكانهم التقدم والخروج أوالحصول
على العون من البر أو البحر
وبما أن موارد أطعمتهم أخذت تتناقص

عرفوا مجاعة شديدة وضيقاً عظيماً

الصليبيون يهاجمون الأبراج

في خميس الصعود
أثناء مسيرتنا المقدسة
في ذكرى كيف أن ربنا صعد إلى السماء
وحسبما جاء في نص مقدس صادق أعطي لنا
باسمه الذي نحن نعبد، جميع
رجالنا سوف بسرور يقتحمون أسوار عكا
ضد الأعداء امتلكنا ناراً اغريقية
وأبرجة مغطاة بالحديد وبالجلود بشدة
وكان هناك ثلاثة من هذا النوع، ذوات حجم هائل
بنيت من قبل ثلاثة نبلاء بالتعاون المشترك:
المركيز مع الجنويين
اللنغريف، والملك غي، كانوا هناك
وعندما حان الوقت للاقلاع
بالهجوم، كان هؤلاء النبلاء الثلاثة في
أبراجهم، وإلى الأسوار فوق
المدافعين تسلقوا، في حين إلى الأمام زحفت
عساكر الرب، وواجه الهجوم دفاعاً قوياً

من الذين كان لديهم قليلاً من الصمود
والذين دافعوا بثبات وشجاعة
جعلونا ندفع ثمناً عالياً مقابل تعاستهم.
لم يقاتل مدافعون قط بمثل هذا الجبروت
وقاتل أطراف الشيطان هؤلاء كما يلي:
ضرب بعضهم الكوسات، وبادر بعضهم الآخر مسرعاً
للاندفاع إلى حيث توفرت الحاجة الماسة.
٣٤٢٠ — وتدافعت على خنادقنا عساكر تلو عساكر
وانقضوا عليها، وقفزوا إلى داخلها
عندما شهدونا فيها متمركزين
وهاجمونا بشدة. وهكذا توجب علينا آنذاك
خرق الأسوار، والقيام بالدفاع
وبشدة وحدة هاجمنا الأسوار لوقت طويل
من انبلاج الفجر حتى حلول الظلام.
وتوجب علينا التوقف في المساء
ذلك أن المسلمين قاوموا مقاومة هائلة
وعلى الأبراج الثلاثة رمى الأتراك
٣٤٣٠ — النفوط والمواد المحرقة وأحرقوها، وهكذا أخيراً
بالقوة توقفنا وتراجعنا. فلقد أحرقوا

الأبراج وحولوا طاقتها إلى رماد.

مجاعة في المدينة جرى التفريج عنها

في عكا الكفار، أولاد
الكلاب عانوا مطولاً من قلة الطعام
ومع مرور الوقت، ازدادت المعاناة
وازداد النقص، وتحملوا مجاعة عظيمة
وباتوا في حالة مرعبة جداً
وصاروا قانطين بسبب العوز والمجاعة
واضطروا لذبح حيواناتهم، وأكل
لحومها، ورؤوسها، ورقابها، وأحشائها، وأقدامها.
وخارج أبواب المدينة ألقوا
بالأسرى من ضعفاء وشيوخ، أما الشباب
وذوي القدرة والنشاط، والمراهقين
فاحتفظوا بهم لتشغيل مجانيقهم.
وعانوا من مأساة حادة جداً
وآلام، وعوز، ومجاعة
من غير الممكن وصفها
بالتفصيل، وذلك حتى مابعد عيد القديس يوحنا؛
ثم الشيطان، حتى يحميهم

بعث بثلاثة مراكب، جرى اغراقها
مع قتل كثير من الأتراك
لكنهم أنقذوا المخزونات التي ملأت
السفن. وزودهم هذا بميرة جديدة
وبهذا استردوا شجاعتهم وعلاهم السرور
وقاموا بإغارة جديدة وهجوم
وقطعوا أطرافنا من الأمام ومن الخلف

الفرنجة يستدرجون بحماقة إلى هزيمة

وجاء يوم كلف غالياً
رجال الحشد المكرس للرب:
وكان هذا اليوم يوم عيد القديس يوحنا (الصحيح عيد القديس جيمس ٢٥ — تموز)
لكن الشيطان، الذي لم يوقف قط
أعماله، كان قادراً على ارهاق
الجيش وانقاص عدده.
أنا كذبت، إنه لم يكن الشيطان.
الرب قضى الأمور هكذا، هذا ماعرفته،
لأن إرادته قضت بالحصول
على مزيد من الشهداء لمملكته العلوية.
خيرة السير جندية ونخبهم

أحسن مارؤي من الرجال وماسوف يرى على الاطلاق
أولئك القوم المساكين، الذين كان نصيبهم المصاعب
انطلقوا بدون حراسة كافية.
لقد استهدفوا وضع حد لشقائهم وآلامهم،
وأعطى الجيش الناس قليلاً من الراحة.
كانوا عشرة آلاف رجل جيدي التسليح
الذين انطلقوا، وكانوا جميعاً في نظام حسن
وساروا على شكل وحدات شديدة الاتصال
ببعضها، في سرايا وأفواج
ونحو خيم الأتراك توجهوا
وإليها قصدوا، وعليها جهودهم ركزوا.
وعندما الترك رأوهم قادمين مباشرة
نحوهم، لم يتجرأوا على الانتظار.
ووصل رجالنا، والأفضل من جميع
ماوجدوه هناك تملكوه
لأنفسهم، وبهذا باتوا مثقلين بالأحمال
وبذلك باتوا صيداً سهلاً للأتراك
الذين بسرعة انصبوا عليهم وانقضوا
وبذلك سبعة آلاف رجل، لابل أكثر

١٤٢٠ -

تركوا، وكانوا بدون حماية
فيما عدا بعض الفرسان الذين سارعوا إلى هناك
لكن لقلة عددهم، عبثاً بذدوا جهودهم
وهكذا جميع الرجّالة قتلوا
وإنه هناك مات ثوريل دي مسنيل
الذي قاتل بشجاعة وغيرة
ولقد بكيناه، وعم النواح والأسى
الحشد كله، وعدد كبير إلى جانبه.

- ١٤٢١ -

الفصل الرابع

هنري أوف شامبين يجلب النجدات

على حشد الرب، المسلمون
قاموا بكثير من الحملات الجريئة، وانقضوا،
والرب، من خلال جماعته
عانى هناك من كثير من الانتكاسات.
الرب وضع شعبه أمام الاختبار
ومثلما امتحن القديسين: بارك هؤلاء
الذين تحملوا كثيراً من المحن
مثلما في الفرن الذهب يمتحن.
وهؤلاء الرجال الذين إلى المخلص قدموا
أنفسهم، عانوا من كثير من المصاعب
ووسط هذا كانت المعاناة المرة
انتبهوا، لبارونات فرنسا.
شرعوا في آب، عندما الوقت
كان موائماً، قبل صقيع الشتاء
وإلى هناك جاء الكونت هنري أوف شامبين

٣٥١٠ — مع جماعة عظيمة من الرجال
وجاء أيضاً كونت ثيبوت أوف بليوس
غير أنه لم يعش مايتجاوز الثلاثة أشهر
وكذلك كان حال الكونت ستيفن الذي لم يعش طويلاً
هو جاء، ثم مالبث أن مات.
وكونت أوف كليرمونت، الذي فروسيته (رالف ١١٦٢ — ١١٩١)
إلى الرب وإلى العالم بدت جيدة
وجاء كونت أوف شالون، وكان قوياً (وليم الثاني ١١٦٨ — ١٢٠٣)
ونبيلاً ثابتاً، وطويلاً، وأعطي بسطة بالجسم.
وعدد كبير جداً جاء من ذوي الشهرة الواسعة
٣٥٢٠ — تعدادهم لم يعرف قط.

معجزة

أمام عكا، في خلال ذلك المتسع حدث
أن هؤلاء الرجال المخلصين ذوي الأصل النبيل
من أجل خلاصهم هناك سكنوا
ومن أجل حب الرب، الذي شعروا به جميعاً
وقعت هناك وقائع فيها شجاعة وثبات
ومخاطرات، وحقق الرب
بقدرته كثيراً من المعجزات

تولى المؤرخون تدوين أخبارها.
وكان لدى الحشد مجانيق لرمي
الحجارة، وكان الناس دوماً يمضون
نحو الأمام ونحو الخلف وهنا وهناك. وقائع
هناك وقعت، وحوادث غريبة
في الساعة التي وقعت فيها، بدت
مثل معجزات، وهكذا عدّت.
في داخل المدينة وفيها وراء الأسوار كان هناك
حسبما ذكر الرواة
آلة رماية للحجارة كاملة
مثلها لم ير من قبل ولم يشهد
وكانت هناك واحدة هدّفت بشكل جيد جداً
حيث كانت تسبب دماراً كبيراً، وأينها سقطت
قذائفها كانت عن بعد تحطم
آلاتنا، ومعدات الحرب لدينا
لأنها قذفت بصخور كبيرة جداً
طارت كأنها على أجنحة حملت
وأنها احتاجت إلى قوة رجلين
لشد وترها ومدّ ذراعها، هكذا قال الكتاب

وعندما أرسلت القذائف بسرعة
ضربت الأرض التي عليها نزلت
وغطست القذيفة في الأرض
مقدار قدم عمقاً، وهناك وجدت.
هذه الآلة نفسها هي التي ضربت
رجلاً على ظهره. لاحظوا
أن شجرة خشب لم تستطع قط
أو عمود من الرخام أن يصمد
أمام مثل هذه الضربة، إلا وكان سينشطر إلى قسمين
فقد طارت القذيفة بشكل مستقيم وكانت قاسية.
لكن الرجل لم يعرف حتى
أنه قد ضرب. فالرب هكذا أراد.
ويحتاج الانسان إلى وجوب الايمان بالرب
الذي يمكنه تحقيق مثل هذه المعجزة.

القوة المنقذة لكتابة مقدسة

مع مضي الوقت بخطواته على الطريق
حدثت حوادث كثيرة.
ففي الوقت الذي تحول فيه نيسان إلى أيار
حدث حادث كان مغامرة عجيبة

مع سيرجنت كان في الحشد
الذي اتخذ موقعه في الخندق
وقد ارتدى سابغة من الزرد على رأسه وصدره
وصدرية مطرزة بشكل غني لبس
وواحد من الأعداء ممن ازدرى اسم الرب
— حدد هدفه من وراء فتحة الرماية
وأرسل بجرخ سريع من قوسه العقار
فأصاب رجلنا إصابة كاملة على الصدر
وقطع الزرد، وخرق الصدرية أيضاً
ثم نفذ من خلال الدرع.
وحول رقبته السيرجنت ارتدى،
حمداً للرب، تعويذة أنقذته من مصائب
سوء الحظ، لأنه كتب عليها
اسم الرب، وأكد الذين شهدوا
أنهم رأوا بشكل واضح كيف أن الجرخ
— انحنى عندما ضرب هذه التعويذة.
أعمال الرب حكيمة: أولئك الذين
يحميهم لايحتاجون إلى الخوف من أي عمل شرير.

- ١٤٢٦ -

مفارقة غريبة

مع مضي الوقت بخطواته على الطريق
حدثت حوادث كثيرة.
في أحد الأيام حدث خارج
الخندق أن كان فارساً مشغولاً
بالاستسلام لحاجة طبيعية
شعر بها كل مخلوق حي.
وفيما هو منحن نحو الأسفل ليطفىء
حاجته ولينال الراحة
واحد من الترك من الساقة
هو لم يوله أدنى اهتمام
ساق نحوه بسرعة كاملة
وكان هذا عملاً جباناً ودنيئاً
يقترّف بحق فارس غير منتبه
لانشغاله بمثل ذلك الأمر.
وخلّف الساقة وابتعد عنها
وامتطى فرسه، وشرع رمحه، وسدد
نحو الفارس، عازماً على قتله
عندما رجالنا بدأوا يقولون

وبأصوات عالية يصرخون: «خذ حذرك، ياسيدي خذ حذرك».
ولم يكد يمتلك الوقت ليقوم
لكنه تدبر الوقوف على قدميه
وترك واجبه دونما اكمال
وأسرع العدو بقدر مااستطاع حصانه
وحمل ظانا أنه سيلقيه أرضاً
لكنه أخفق، حمداً للرب، لأن الماهر
والرشيق، أي الفارس قفز جانباً.
وتناول في كل يد حجراً
٣٦١٠ — (اسمعوا كيف ينتقم الرب لأتباعه)
وعندما عطف التركي حصانه
ونحو الفارس حول اتجاهه
أخذ الأخير حذره الكامل منه
وعندما التركي نحوه جاء
صكه، تماماً مثلما كان قد خطط
بحجر كان يحمله بيده
تحت خوذته، وعلى رأسه:
فوقع التركي في مكانه ميتاً.
ثم تناول الفارس بيده مقود

فرس الرجل الذي قتله
ثم إن الشخص الذي حكى
القصة لي رآه يمتطي الفرس
هناك، ويركب عائداً إلى خيمته
وقد احتفظ بجائزته برضا عظيم.

امرأة بطلة

مع مضي الوقت بخطواته على الطريق
حدثت حوادث كثيرة
ومجدداً حدثت هناك حادثة
محاسنها علينا حكايتها بعناية.
كان عدد الرجال كبيراً الذين هاجموا
الأسوار، ومرات كثيرة أخفقوا.
وبعضهم حتى يطم الخندق، جلب كميات
من الحجارة، حملوها بحماس واندفاع
بينما بخيول الحرب وببغال التحميل
ساعدهم البارونات، حسبما قضى القانون؛
وكثير من النسوة حملن حصصهن
وكن مسرورات في حمل الأثقال.
وشعرت امرأة بمتعة خاصة

بالعمل في هذا المجال.
وواحد من رماة المسلمين من وراء
الأسوار رأى هذه السيدة مشغولة
بوضع حمولتها أرضاً، وعندما
أرادت الانتصاب ثانية والوقوف
أطلق عليها رمية، أصابت
هدفها، فوقعت إلى الأرض.
وأصيبت السيدة بجرح مميت
وكل الناس بسرعة
تجمعوا حولها، حيث انبطحت
فريسة آلام مميتة.
وجاء زوجها على الفور، وعندها
للسيدات والرجال الجديرين دعت
دعاءً مهيباً وصلت، ورجت
من أجل الرب ومن أجل خلاص أرواحهم
أن يستخدم جسدها لطم
الخندق، حيث بإرادة طيبة
عملت. ذلك أنها لن تقدم
جسدها إلى أي مصير آخر.

وحملت هناك بحزن وأسى
حيث الرب أخذ روحها بعيداً
وحسبما تقول الحكاية، مامن انسان
قط عليه أن ينسى مثل هذه المرأة

عقوبة تنال أميراً

مع مضي الوقت بخطواته على الطريق
حدثت حوادث كثيرة
وحدثت هناك مغامرات بأعداد كبيرة
أثناء الحصار، هي لم تكن واحدة، بل عشرين
وأكثر، لكنني لاأستطيع تذكرهم، أو تعدادهم جميعاً.
في أحد الأيام جاء متقدماً من عكا رجال
فوج تركي، رأوا رجالنا انشغلوا في العمل
على الاحتشاش وجمع الأعلاف، التي احتاجوها
وابتغوها في الحرب من أجل خيولهم
وقادهم أمير من البلدة
رجل عظيم وصاحب شهرة عالية
بقوته وشجاعته معروف ومشهور
بهاء الدين قراقوش كان اسم هذا الأمير
البارونات الذين أشرفوا على توجيه الرجال

توجهوا ضد المسلمين.

وتعرض جيشنا في ذلك اليوم إلى ضغط شديد

لأنه لم يملك ما يكفيه من الحراسة

ذلك أن عدداً كبيراً منه ذهب للاحتشاش

٣٦٨٠— وجمع الأعلاف، الأمر الذي جعل الحشد ضعيفاً،

وآل بهم الحال إلى وضع مخيف بسبب القتال الحاد

الذي ضرباته نزلت بهم من الأمام ومن الخلف

....

ومع ذلك رجالنا ردوهم

باستثناء الأمير، الذي تخلف

وبذهنه هدف واحد :

فقد كانت أعلى رغباته

احراق آلات الحرب بالنار

وأراد الوصول إليهم وصمم

لأنه حمل بيده قارورة مليئة

بالنفط، وهو قد استهدف

إلقاء النار في الآلات لاحراقها

وعندها فارس من الفرسان طعنه

وكان عازما على انزال عقوبة لائقة به :

وتمدد التركي على الأرض
وتدفقت نفوطة المهلكة وانصبت عليه
من القارورة التي انقلبت
وهكذا احترقت أعضاؤه التناسلية،
ومع أن الرجال الذين كانوا معه كانوا راغبين
باطفاء النار، عبثاً الجهد الذي بذلوه .

جزاء التدنيس

مع مضي الوقت بخطواته على الطريق
حدثت حوادث كثيرة
وغالباً ما حدث وما وقع
أن عساكر الكفار—
الذين ضد ارادة الرب احتلوا
البلدة — صعدوا إلى أعلى الأسوار،
ومن الكنائس هؤلاء الرجال غالباً ما
جلبوا صلباناً، رفعوها عالياً،
وعاملوها بدناءة معاملة سيئة
وبصقوا عليها، ودنسوها، وضربوها
ليظهروا الحقد الدفين الذي حملوه
نحو الايمان المسيحي : الذي لا يزدرون شيئاً أكثر منه .

وفي أحد الأيام بدأ تركي بضرب
صليب خشبي كان قد وجده
وعلى الأسوار رفعه ليقيمة .
وضربه بحقارة وقلة احترام
ولم يقتنع بهذا كله بل
رغب في تدنيسة والبول عليه
وكان هناك راميا بالقوس العقار جيدا، ولكي يوقفه
عند حده، أوتر قوسه العقار
وشد الوتر ووضع الجرخ بثبات وإحكام
راغبا بالانتقام من عمل الإهانة والمراغمة هذا
ونحو التركي الذي دنس الصليب،
رمى، وبما أن تهديفه كان جيداً
نحو بطن التركي طارت مسرعة
الرمية وخرقت أحشاءه ونفذت .
ووقع ميتاً وساقيه مرفوعتان نحو الأعلى،
وحدث هذا ورفاقه على مقربة منه يحدقون
بغضب، وهكذا انتقم الرب للشر الذي
اقترف بحق صليبه ولتدنيسه .

منازلات

مع مضي الوقت بخطواته على الطريق
حدثت حوادث كثيرة
وحدثت في أحد الأيام مغامرة
عنها سيتحدث أمبرويز في كتابه :
جاء تركي متقدما، عازماً على اطلاق
جروخه نحونا، وما كان ليتراجع
ورجل ويلزي صاحب شطارة وبراعة
انطلق لينازله رمية برمية .
وكان اسم الويلزي ماريدوك Mariduc
ولم يكن ابنا للملك أو لدوق
وكان المسلم يدعي جرير
وكان رجلاً قويا، وثابتاً، وبلا خوف .
والآن بقوسيهما انطلق كل منهما نحو العمل .
وأطلق التركي نحو الويلزي، ورمى الويلزي نحو التركي .
وأراد التركي أن يستوضح ، وسأل
من أين جاء الويلزي،ومن أي بلاد .
ورد عليه رجلنا قائلاً:«أنا قدمت من ويلز ،
وأنت كنت أحمقاً بالخروج والقدوم»،

وقال التركي:«إنك ترمي ببراعة،
فهل لك أن تتبارى معي وتتبارز؟
دعني أرمي أولاً،وتقف حيث أنت
بدون حراك إلى أي جانب من الجوانب.
وإذا أخطأتك ،أنا سوف أقف
وأنتظر،ولن أتحرك نحو أي طرف من الأطراف ».
وباصرار وبالحاح ناشده
حتى وافق الويلزي أخيراً.
وبناء عليه سدد التركي نحوه ورمى
لكن سهمه انزلق،وهكذا لم يصبه.
وقال الويلزي :«قف أنت واصطبر
بينما أرمي أنا» لكن الآخر قال:«لا،
دعني أرمي مرة ثانية نحوك،
وأنت بدورك يمكنك أن ترمي نحوي مرتين »
وجاء الرد من الويلزي« بكل سرور»
وفيما العدو مشغولاً
بتناول نشابة من جعبته،
وواقفاً ملاصقاًالغير المؤمن
الويلزي ،الذي لم تكن له مصلحة

بمثل هذا الإتفاق ،رماه فأصابه بالقلب
وقال:«انك لم تحافظ على الإتفاق ،
ولذابحق القديس دينس خرقت تعهدي ».

هجوم مخفق على برج الذبان

البيازنة مع الآخرين الذين
أجادوا معرفة فن الملاحة
أقاموابرجاعلى عددمن البطس
مع سلمين اثنين من ذوي الحجم الكبير،
وغطوا البرج وستروه مع الأجزاء الظاهرة
من سفن حربهم كلها بالجلود،
وهاجموا الآن برج الذبان
وعليه رموا زخات من النشاب
وقاتل رجال حاميته دون خوف
وباعوا حياتهم بثمن مرتفع جداً
ومن غلايين البلدة
أكثر من ألفي رجل كانوا هناك قدموا
وكانوا من المسلمين مسلحين للقتال
ولتقديم العون إلى أبناء جلدتهم،
وطير هؤلاء الرجال الجروخ وعدداً كبيراً من

الرماح ،وقذائف حادة نحونا
وحطموا ترستنا ورماحنا بعدد كبير من
الصخور الكبيرة ذوات الوزن المخيف.
والذين في البرج لم يتوانوا قط
في أعمال دفاعهم عندما رجالنا هجموا
ورمينا بجودة :وكثير من الرمايات سقطت
بين الأعداء الذين اعتلوا الأسوار
وكان يمكنكم أن تروا هناك الترك وهم يجهدون
للإختباء والإستتار ،بينما زخات كثيفة
من الرماح تساقطت ،ولحق الرجال البواسل
أحدهم بالآخر ،وقاموا بهجوم حاد.
ثم جرى توجيه السلمين
ضد البرج، وهناك أقيما ونصبا
بعد جهد جهيد، ومقابل ثمن كبير
لأن الذين في داخل البرج رموا
بجذوع خشبية ضخمة على رجالة الفرنجة وعلى فرسانهم
الذين رفعوا السلمين هكذا نحو الأعلى
ولم يلزموا طريق الجبناء
لكنهم عاودوا القتال دوما ولزموا الصفوف

وعلى برجنا رموا بالنفوط
التي اشتعلت وسط أكوام من الحطب
وجعلت شاغليه يهبطون
وهكذا دمروه في النهاية تدميراً كاملاً.
لكن لم يكن هناك قط مذبحة كبيرة كالتي وقعت
بين الترك الذين هلكوا في الماء
وأحرقوا برجنا احراقاً كاملاً
ومثل ذلك أحرقوا سلمينا
والسفن التي حملتها. وهذه الأعمال
منحت السرور والراحة إلى الأتراك
الذين صرخوا بأصوات عالية عندما رأوا
إنهم تمكنوا من ارغام رجالنا على التراجع
وسخروا من هؤلاء الذين أقسموا للرب
يميناً أعني الحشد الذي كرهوه.

تدمير آلات حرب الصليبيين

وتأذى حشد الرب وتألم كثيراً
من هذا ،لكن الرب جلب الطمأنينة
بوساطة بارونات قدموا يجلبون العون
إلى سورية من أجل الصليبيين

رئيس أساقفة بيسانكون Besancon — (تيري دي مونفوكون—ت ١١٩١)
دعونا عنه نتحدث أولاً— بناء عليه
أمر رجاله الموجودين أمام عكا أن يصنعوا
كبشاً يمكن به خرق وتدمير
الأسوار وقد كلف كثيراً ، وغطوه من كل جوانبه
بالحديد ،وشدوه شداً قوياً، وأحكموا ربطه
من كل من الأمام ومن الخلف ، ومن الأعلى ومن الأسفل
ولم يعودوا يخشون من أية آلات سوف ترميه،
لأن رئيس الأساقفة وضع في ذهنه
استخدام أحسن الأشياء من كل نوع
وبنى الكونت هنري واحداً آخر
بتكاليف عالية، وبأقسام كثيرة
والبارونات، والنبلاء، والكونتات
بنوا المزيد من الآلات أعظم مما يمكن
لروايتي أن تقول . لكنني سوف أتحدث عن مصير
التي بنيت من قبل رئيس الأساقفة —
الآلة التي حدثتكم عنها أولا —
عندما جهزت لخرق السور.
وبعناية بارونات الحشد

أعدوا للهجوم، وهكذا عرضوا
الآلات وأعطوا الأوامر ليوقف
كل واحد آلته أمام السور.
وسحب رئيس الأساقفة إلى الأمام
كبشه، الذي قرأتم للتو عنه،
الذي صنع بعناية عظيمة، وكلف غالياً جداً
وامتلك الحق أن لايخاف
أحداً في العالم. وكان من تحته
حسبما قيل، نوعاً من البيوت أو قبو.
وهناك كان لابد من وجود صاري سفينة كبيرة
بدون عقد، وكل نهاية مغطاة بالحديد
وتحت الكبش كان أولئك الذين
سيتولون تسديد ضربات شديدة إلى السور
وكان بامكانهم الشعور بأنهم أنفسهم آمنين.
والأتراك، الذين كراهيتهم كانت بلا توقف
جلبوا كميات كبيرة من الأخشاب الجافة
ثم إنهم شرعوا في رمي النفوط عليه
وبوساطة مجانيقهم تمكنوا من قذف
أعمدة هائلة إلى الأسفل فيما بيننا

وقطع من الرخام ومن الحجارة القاسية،
ورموا بأشجار وبجذوع ثقيلة.
ثم من مراكب كبيرة كانوا قد ملأوها
بجرار، وأباريق، وبراميل ضخمة، وحاويات، صبوا
كبريتاً، وشحوماً، وقطراناً، واسفلتاً،
وأتبعوا ذلك بعوارض خشبية، تولى
أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) اسقاطها، ثم بجرأة
أشعلوا النار فيها بوساطة النفوط، وازدادت ضراماً
حتى الذين في داخل الكبش، وجدوا في محنتهم
٣٨٧٠ — ألا أمل أمامهم، فلجأوا أخيراً إلى الفرار.
والترك، الذين تولوا هذه المواجهة
لكبشنا، فوق الأسوار عرضوا
أنفسهم. ثم الرماة ورماة الأقواس العقارة
أرسلوا رمايات حسنة التسديد إلى بين صفوف الأعداء
ثم حصل اشتباك حاد، لم تشهدوا له مثيلاً
وكان هناك جرحى على كلا الطرفين ،
وكان بامكانكم رؤية العديد من الأتباع الشجعان
يبادرون مسرعين للإنقاذ ، وللحفاظ
على الكبش، ولابعاد الركام والأنقاض

من هناك. وبامكانكم رؤية الترك يسقطون
بألبستهم البراقة وجهازهم الجميل
مباشرة من على ظهر الشرافات.
وأخيراً الرمايات من الأعلى
انصبت وتساقطت بكثافة إلى حد أنها أضرمت
الكبش وحطمت سلاحه في داخله
وشطرت جميع أطره وأطرافه أيضاً،
ومرة أخرى صبوا عليه النيران
حتى احترق الكبش احتراقاً كاملاً.
ومع ذلك كلفهم نصرهم غالياً
لأنهم في القتال فقدوا أميراً
ومن خيرة رجالهم خسروا ثمانين رجلاً
لكن نحن أيضاً عانينا من خسائر مؤلمة.
وهكذا انتهى القتال في ذلك اليوم،
فما من أحد كان بامكانه ازاحة الكبش وابعاده
ومامن أحد كان يمكنه اطفاء النار:
وسخر الترك منا بصرخات استهزاء.

موت الملكة سيبيلا

في نهاية آب فيما بين الثالث عشر والعشرين

مات هناك، داخل الحشد، ملكة

القدس، وإنه لأمر محزن جداً

٣٩٠٠ — أن يموت انسان وهو مايزال في شرخ الشباب

أرجو الرب أن يكون لروحها رحيماً

لأنها — كما هو معروف — كانت شجاعة

ومات أيضاً فتاتان جميلتان

كلتاهما كانتا ابنتي الملك غي.

وبموت هاتين الأميرتين

اللتان كانتا الوريثتين الشرعيتين للمملكة.

فقد الملك فيما بعد المملكة

الأمر الذي سبب له ضربة على الرأس قاسية.

معركة بحرية

جاء تشرين الأول إثر ايلول

٣٩١٠ — ومع اقتراب حلول تشرين الثاني

من الاسكندرية جاء اسطول

قوي وعظيم وبات قريباً من البلاد.

ورجالنا الذين رأوا السفن

وأحصوها، قالوا إنها كانت خمس عشرة.

وكانت هذه السفن في طريقها لجلب

العون للترك الذين كانوا يعانون
في عكا، والذين هم تحت حصار طويل
فيه شقاء عظيم، صبروا عليه وتحملوه.
وكان هناك ثلاث درمونات من أوسع الأنواع
٣٩٢٠ — جاءت تتبع الاسطول وتسير خلفه مباشرة
ومع اقتراب الاسطول من الشاطىء
أبقاهم رجال بحريتنا تحت المراقبة المتواصلة
وعندما الذين كانوا يسيرون سفنهم لمحوا
سفننا، امتلأوا بالرعب والأسى.
ومع أن الاسطول كان شجاعاً، ومامن أحد يمكن أن يواجهه
لقد تمنى أن يكون في مكان آخر؛
ومع اقتراب غياب الشمس
ومع الغسق، وهبوب الريح قوية نشطة
لم يتجرأ أحد من الفرنجة على الاقدام والمواجهة
٣٩٣٠ — أو الاقتراب من الاسطول الاسلامي
لأن كل واحد فيه امتلك كل مايحتاجه وليعمله
وللركوب وسط المخاطر والمخاوف
والآن وبينما اسطول المسلمين جاء مبحراً
بسرعة كاملة واقترب تدفعه ريح قوية مواتية

- ١٤٤٥ -

اجتاز السلسلة، لكن ليس بدون متاعب،
ليجلب العون والتفريج لأصدقائه
فقد نزلت نازلة بسفنهم ومصيبة
لم يكن بامكانهم تجنبها، ولحقهم عار
أيضاً: فقد ارتطموا، مع تأثير خطير
فوق الصخور، وهناك جنحوا
وتمّ هناك فقدان اثنتان من سفنهم
ولقد قذفتا بالحجارة من قبل الحشد كله.
وانشطرت أعني السفينتان لدى ارتطامهما بالأرض،
والقسم الأعظم من بحارتهما غرقوا.
وسخر الفرنجة منهما، واندفعوا لقتل
الكلاب الكفرة لدى نجاتهم من الماء.
وجرف أحد الغلايين إلى الرصيف
واستولوا عليه عندما وصل إلى اليابسة:
ومنه استخرجوا كميات هائلة من الأطعمة
وجميع الكلاب الكفرة قتلوا
لكن المركب الآخر ناور حتى يجتاز
السلسلة وليرسو من دون خسارة
حيث الترك انتظروا بكل اخلاص وتشوق

مع سيوف مسلطة ورماح مرفوعة
ومشاعل مضاءة من قبل الذين تولوا القيادة
ووصل المسلمون سالمين إلى الداخل.
وهؤلاء المسلمين الذين وصلوا إلى الشاطىء
ساعدوا المدافعين على استعادة
قواهم. وأبعدوا الكسالى من هناك
— والضعفاء، واحتفظوا بالأقوياء والثابتين.

الصليبيون يزحفون نحو دعوق

في اليوم العظيم لعيد القديس مارتن
عندما موارد الأطعمة تناقصت كثيراً
استدعي الحشد للاجتماع في الصباح التالي —
باسمه الذي ولدته مريم —
حتى يتحرك ويزحف نحو أعالي الجبل
لمواجهة الأتراك في معركة مكشوفة.
وكان هناك في البداية قداس المباركة
ثم تحليل عام وغفران
من قبل رئيس أساقفة كانتربري
— مع أساقفة آخرين ذوي مجد عظيم.
ثم لكل لورد وبارون مهمة

أعطيت لقيادة الحشد وتوجيهه.
وعندما جاء الصباح امتطى جندنا خيولهم
وأحصي هناك وجود عدد كبير من سرايا
الفرنجة المقاتلين ذوي الأهلية العظيمة
مثلهم من قبل لم يشهد أحد أبداً
انتظموا في صفوف متراصة وقوية
وكأنهم ربطوا بقوة بسلسلة أو بحبل.
وكانت مقدمة الجيش عريضة وقوية
لتصمد أمام كثير من حملات المعركة،
— وكان في الساقة مجموعة متميزة
من خيرة الفرسان الذين نادراً مايرى الانسان مثلهم
وامتد صفهم طويلاً وبعيداً حتى
أحدهم تسلق إحدى التلال العالية
ولو أن أحدكم رمى ببرقوقة لما وقعت
دون أن تصيب فارساً من ذوي الدروع اللامعة.
وسار الصف وزحف مباشرة نحو دعوق
ولم تكن قد فرغت من طبخ دجاجة
قبل أن بات صلاح الدين مدركاً
— أن عليه الاستعداد لمعركة

لو أنه اختار انتظار
الفرنجة. لكنه اختار اخلاء
حصنه الجبلي في تلك الليلة نفسها،
فأزال المعسكر، وأخلى الموقع.

التوجه نحو حيفا للامتيار

وجاء إلى حشدنا الآن جاسوس
قال بأن عدونا المكروه
قد نزل من أعلى الجبل
وأنه كان منهزماً، وسوف لن يقف
حتى يغدو بعيداً جداً عنا.
— وقمنا تقريباً باللحاق به، وكانت تلك
مطاردة خطرة، وغلطة
لأنه من غير الممكن هزيمته
وعندما لم تجد صفوفنا معركة وقتال
توجهت مباشرة نحو حيفا
حيث قيل فيها مخازن عظيمة
من الأطعمة، كنا بحاجة ماسة إليها.
وإلى تل كيسان وصلت الآن عساكرنا
ومن هناك اندفعت أسرع من نسر

نحو دعوق، وبدأ الترك يغضبون
فآذوهم. وقاموا أولاً بالانتشار،
ثم عادوا، وأطلقوا رماياتهم، وناوشوهم
وضربوا كوساتهم، وزأروا وصاحوا.
وعند وقت العشاء، قام الحجاج ببناء
معسكرهم، ونصبوا خيمهم،وهناك أقاموا
ثم استأنفوا زحفهم والسير على طريقهم
نحو حيفا للامتيار
لكن الميرة لم تكن هناك
وهي التي سمعوا بوجودها بكميات هائلة
ذلك أن الترك رأوا من المناسب نقل
هذه المخزونات عند الفجر، عندما خرجوا زاحفين.
والآن عندما نظر الفرنجة من حولهم
كل الترك في العالم وجدوهم هناك
وبدا الأمر لهم، أنهم تجمعوا هناك
ليقطعوهم من الأعلى ومن الأسفل
ومن اليمين ومن اليسار، وكانت الأرض مغطاة
بهم هناك إلى درجة أن رجالنا ماكان بامكانهم تحملهم
وقد رغبوا أنهم لم يكونوا هناك

ولم يكن هناك قط مثل هذا الحشد وهذا التجمع الهائل
واستعد جنودنا وباتوا جاهزين للقتال
وجعلوهم يتهيأون ويستعدون للنزال
لكن المسلمين، القطيع المنحط
لم يتجرأ على إنشاب القتال والحملة
على صفوف بمثل هذا الانتظام
واستدار الحجاج، وغيروا مقاصدهم
وأرادوا العودة إلى حيث جاءوا
لكنهم عانوا من الويلات ومن المصاعب
قبل أن يتمكنوا من العودة إلى خيمهم.

عودة الفرنج والتضييق عليهم من قبل المسلمين

في المكان الذي توجد فيه منابع النهر الذي مياهه
تجري نحو عكا، كانت هناك مقتلة عظيمة
فالقتال لم يتوقف مطلقاً، ومات هناك
كثير من الفرسان على كلا الجانبين.
وبوساطة الداوية صمدت الساقة
في ذلك اليوم ، وبوساطة رجال من قوات
ملك انكلترا :وكان بانتظار رجال الساقة
القيام بكثير من الأعمال ، وبالفعل قاتلوا بشدة .

ولو أن الرب لم ينزل قط ثلجاً ، أو برداً أو جمد المطر
أو مطراً إلا في أيار ، لما تساقط بشدة أكبر
أو انهمر ووصل الى الأرض أعظم كثافة وأسرع
من النشاب الذي انصب سواء بالسرعة أو الكثافة
على حشد الفرنجة في ذلك اليوم
قبل نهاية المعمعمة .
وأخيراً ، بنظام جيد أخذوا طريقهم
عائدين ، ونحو عكا سافروا
وسار جيشنا على طرف النهر الأيسر
وسار جيشهم على الطرف الأيمن . وهكذا رتل أمام رتل
زحفا ، وفي أثناء الزحف أرادوا ازعاج
واغضاب ، وايذاء كل واحد منهما الآخر .
وعلى جانبنا كان هناك بعض من أخذ
طريقه إلينا وجلبوا العون لنا .
وسير جنديتنا الرجالة ، الذين توجب عليهم
صد الهجمات عن ساقة جيشنا
والذين ساروا خلفه وتبعوا أثره
زحفوا وتقدموا لكن أبقوا دوماً وجوههم
متوجهة نحو الأتراك . وكان نصيبهم الآلام

قبل أن يصبح الحشد آمنا مرة ثانية

معركة دعوق

وحدث أنه في الصباح الباكر
أن انطلق رجالنا عائدين
الى عكا ، والى حصارها
لكن الترك نصبوا كميناً
إلى جانب جسر دعوق للايقاع
بنا ، لأنه توجب علينا اجتياز ذلك الطريق .
وحاولوا تدمير الجسر ، لكن كلما
هدموه وأنزلوه أرضاً، كان رجالنا يظهرون
حتى حشي بالرجال وحرس،لهذا
وضع الحجاج في مأزق صعب،وتوجب عليهم أن يعرفوا
كيف يمكنهم شق طريقهم
أو المرور خلال مثل هذا الحشد المقاتل القوي.
ووقتها غيوفري دي لوزغنان تولى القيادة
وكان ممتطياً ظهر مهر قوي جديد
ومعه خمسة فرسان شكلوا كوكبه
انقضوا بشدة على العدو
وبحدة وقسوة تمكنوا من دفع

ثلاثين من العدو أو أكثر من ثلاثين

الى النهر،حيث غرقوا

مع أن رفاقهم تجمعوا عن قرب حولهم بكثافة عظيمة.

وبشدة شديدة ضربوا وطعنوا

حتى كانوا قادرين على شق طريقهم بينهم

ورجعوا بلا مزيد من الحوادث

٤٠٩٠— وعادوا الى الحصار بتصميم عظيم

مجاعة في المعسكر

حلت الآن نهاية الفصل المعتدل

عندما قليل، لسبب عظيم أو ضئيل

جاءوا من وراء البحار للالتحاق بالحشد

ومع ذلك ظل قليل منهم يعبرون البحر.

ومع ازدياد تعدادهم تناقصت

الأطعمة بشكل مستمر.

ومع مرور الوقت أقل فأقل

باتت الاطعمة،والأزمة

تضاعفت ،ثم حدث أخيراً أنهم باتوا لايمتلكون شيئاً.

٤١٠٠— باستثناء عندما تجلب السفن مؤناً.

وكان مايزال لدى الأغنياء مخزوناً كافياً

لكن العوز الشديد انقض على الفقراء،
الذين تشكوا،وصرخوا كثيراً
بسبب وقوعهم في قبضة المجاعة.
وكثير منهم بسبب شدة
أزمتهم وعوزهم ،تمنوا أن يذهبوا من هناك
وعندما جاءت الشحنات البحرية جرى احتجازها
في صور،وهناك بقيت الأطعمة
لأن المركيز أراد ايقاف قدومها الى الحشد

كونراد يطلب التاج ويتزوج من ايزابلا

ستسمعون الآن أخبار مؤامرة خيانية
دبرها المركيز المزيف الذي طلب
بوساطة الثروة والتعامل الخفي
مع أناس من ذوي السلطة أن يتولى حكم البلاد.
وببراعته في الخداع والغش
تحرك وناور بمهارة في خداعه
وكان هناك أختا للملكة التي ماتت
في الجيش في تلك الآونة
وكانت زوجه لهمفري أوف تيرون
وهو لورد صاحب مكانة رفيعة

وقد فصلت عن المذكور
همفري،وبذلك بات بامكانها الزواج
من المركيز. وبناء عليه هو وافق
على التحاق رجاله بالحشد
بدون تردد. واتخذها لنفسه قرينة
له في بيته الشخصي ضد الرب وضد الشريعة.
رئيس أساقفة كانتربري
كان غاضباً،ورفض تزويج
هذين الاثنين،وأسقف بوفياس
جعل هذا الذنب شرعياً ذلك اليوم
ولأن المركيز كان لديه من قبل
زوجتين كل واحدة منهن سيدة شابةو جميلة
واحدة كانت في القسطنطينية
سيدة رائعة،جميلة ونبيلة
والاخرى في بلاده موجودة الآن
وللثالثة أقسم قسمه للزواج
ولهذا السبب رئيس الاساقفة الجيد،
ورجال الدين الآخرين والأساقفة حرموا
الزواج،الذي مقتوه

وعلى الفور حرموه كنسيا
وأخبروه بوضوح وجرأه
أنه يقترف زنا مضاعفاً ثلاث مرات
والرب لن يجيز ولن يوافق
على مثل هذا العرس غير المقدس

المسلمون يغيرون على احتفال العرس

بعد ما اقترن المركيز
بها التي أثارت شهوته منذ زمن طويل
وعمل حفلاً وأولم وليمة.
ومن الزوجات الأحياء بات لديه الآن ثلاث
واحدة في الحشد،وواحدة في البلاد
وثالثة جاهزة في متناول يده.
وكان مثل هذا العرس سيجلب كثيراً من التمزق
والأذى،وقد تحقق هذا وحصل ذلك في اليوم نفسه.
لأن الذين كانوا في ذلك الاحتفال بعدما
كانوا قد شربوا كثيراً وحسبما اشتهوا
الى المروج خرجوا وتوجهوا
للمثاقفات وللمبارزات.
وبناء عليه فإن المسلمين الذين كانوا

في كمين،قاموا بغارة سريعة
وتنبه الحشد،ومع ذلك
سجل المسلمون نجاحاً:
ذلك أن غي الساقي صاحب سنلس
وقع بالاسر،ومامن أحد يعرف اذا ماكان
قد قتل،أو أودع السجن
ذلك أن عشرين من رجالنا أسروا وقتلوا
وهكذا من أجل احتفال العرس دفعوا.

عودة كونرادإلى صور

وانزعج رجال الحشد انزعاجاًكبيرا
وشعر القادة الحكماء أنهم خدعوا
مع أن بعضهم حافظ على الأعتقاد
بأن كلمة المركيز ووعوده صحيحة
إلى الحشد، وأنه سيحافظ على يمينه .
غير أنه غادر آخذاً كلا من
فرقته المسلحة وعروسه
ومع أنه كانت لديه وفرة وفيرة من الميرة
مع الأطعمة ، بالمقابل شعر الحشد بالألم
وبالعوز الشديد ، ولم يرسل شيئاً باستثناء

ما بعثه إلى الذين أخزوا كثيراً
أنفسهم لأنهم قدموا العون لزواجه .

مثل الأبطال أيام زمان

سادتي عن موت الاسكندر
الذي كان له نتائج بعيدة الخطر
أو عن بعثة بالان BAlan
أوعن مغامرات ترستان tristan
أوعن باريس وهيلين ، هذان
الأثنان اللذان من أجل الحب عانيا من كثير من الويلات ،
أو عن آرثر البريطاني ،
عن أفاعليه وعن جماعته الجريئة ،
أوعن شارلمان أو عن بيبن ،
أو عن أغولاند أو عن غويتكلين Guiteclin
أو عن الأناشيد عن الحروب أيام زمان
التي رواها الشعراء المغنون بمتعة وسرور
أنا لا يمكنني اخباركم أهي كذب أم صدق
أو القول إنها زائفة أو أقوال كهنة
كما لا يمكنني أن أجد رجلاً واسع الحكمة
ليخبرني فيها إذا كانت صدقاً أم كذباً

لكن الذي رآه عدد كبير والأشياء
التي شهدوها ، والعذاب والآلام
التي الناس أمام عكا امتحنوا بها
وما لا يحصى عدداً من النوازل التي آلمت
كلا من الرأس والقلب ، وكذلك محن القر والحر
والمرض ،وكل نوع من العلل
هذه الأشياء كلها يمكنني روايتها على أنها صدق
ويمكنككم استطابة الإصغاء إليها

مجاعة وغلاء أسعار

عندما جلب الشتاء أمطاره
في البداية كانت هناك رياح شديدة وأمطار
وفي داخل المعسكر أمام عكا عمت الشكوى
وازدادت المجاعة دون توقف
وسط القوم ذوي الإمكانات المتوسطة أوالصغيرة ،
الذين استمرت آلامهم وتعاستهم
بالظهور ، وازدادت مع مرور الأيام ،
ولقد بكوا وتشكوا من دون توقف ،
لكنهم تدبروا الأمر ،صدقاً
بطريقة ما، حتى عيد الميلاد

ووقتها مجدداً بدأت لائحة لا نهاية لها
من المجاعة ،والعوز المؤلم :
وبعد عيد ميلاد يسوع
غدت الحاجة أكثر بؤساً .
وغدت زنة غرارة من القمح تكلف
مائة«دينار صوري»وسط الحشد
وهو ما كان ممكناًلانسان أن يحمله بيسر
٤٢٢٠— تحت ذراعه . لقد كانت أياماً غالية جداً
وأسعار الدقيق والقمح كانت عالية .
وكانت تكلفة شراء دجاجة واحدة اثني عشر سوس sous
وكانت أياماً صعبة حيث توجب على الإنسان دفع
ستة ديناري deniers
ثمناً لبيضة واحدة.
لكن معظم الأناس الجياع طلبوا
الخبز،وفي سبيله ناضلوا،وقاتلوا
وكثيراً شتموا ولعنوا
المركيز الذي سبب هذا الوضع.

أكلهم الخيول

سادتي،لاتظنوا أنني أمزح:

٤٢٣٠— حتى يمكن تأمين اللحوم للحشد

لأكلها،سلخوا عدداً كبيرا من خيول

الحرب،وأكلوها لابل التهموها بجشع

وتجمهرت أعداد كبيرة وتجمعت عندما كان أحدها يسلخ

وللحم أسعار عالية دفعت.

وطوال الشتاء ظلت الاسعار عالية:

وباعوا الخيول كل شريحة بعشرة سوسات SOUS

وبيع الحصان الميت بمبلغ أعلى بكثير

من ثمن أي حصان حرب حي.

ووجدوا كل ما في الحصان قابلاً للأكل

٤٢٤٠— حتى الاحشاء،لم يهدروها

وكثيراً شتموا ولعنوا

المركيز الذي سبب هذا الوضع

وادخروا فائضهم القليل

وكانت الاوقات عصيبة، والعوز مؤلماً

بالنسبة لكل انسان أغنياً كان أم فقيراً؛

ومع ذلك فإن الذي امتلك الثروة ،والذي بناء عليه

كان يمكنه تزويد نفسه بالطعام

مع أنه كان كريما، لم يتجرأ على

تقاسم حصته مع أناس آخرين:
وجاء أناس كثرة يطلبون العون
— لكن كل انسان تمسك بشدة بما كان لديه وكثيراًشتموا ولعنوا
المركيز الذي سبب هذا الوضع

وتماسكوا وعاشوا اعتماداً على الحشائش والأعشاب

ولولا وجود الحشائش والمزروعات
التي بذروها للحصول على مايتبلغوا به
وأنضجوها من أجل الحساء الذي جهدوا في
سبيل طبخه، لم يكن بإمكانهم الاستمرار أحياء
وكان بإمكانكم رؤية سيرجندية، رجال ذوي جدارة
وشجاعة، ورجال ذوي منبت طيب
نشأوا في وسط ثراء ولياقة
— اعتمدوا أثناء جوعهم وعوزهم
على أكل الأعشاب حيثما
رأوها تنبت وشهدوا لونها الأخضر
ثم إنهم شتموا ولعنوا
المركيز الذي سبب هذا الوضع

التورم يهاجم الحشد

ثم جاء وباء حل

بالحشد ونزل، حسبما سأروي:
هطلت الأمطار، بغزارة متناهية
لم ير لها مثيلاً من قبل
وفاضت المياه داخل المعسكر، والناس
بدأوا يسعلون، وبصوت أجش يتخاطبون
وازداد التورم في الأرجل وفي الرأس
وكل يوم كان يموت ألف
لأن المرض جعل وجوههم تتورم
وتساقطت أسنانهم من أفواههم ووقعت.
وبعض الذين لم يستطيعوا العثور على
أي طعام، لم يتعافوا مطلقاً
وعندها شتموا ولعنوا
المركيز الذي سبب هذا الوضع

سرقتهم للخبز

سادتي، بسبب العوز الرجال غالباً مافعلوا
أشياء جلبت اللوم لهم والنقد، أيضاً.
رجال من جميع البلدان لم يكن بإمكانهم إلا أن ارتعبوا
من عار التسول من أجل خبزهم
ولهذا سرقوا مخازن الخبازين

بدلاً من التماس الصدقات
وفي أحد الأيام حدث أن أخذ أحد الرجال
سجيناً لقيامه بغارة من هذا القبيل
والذي رآه وأمسكه يسرق طعاماً
ربطه بشدة بقدرما استطاع
لأنه لم يجد وسيلة آمنة أجدى
٤٢٩٠ — من ربط ذراعيه خلف رقبته
واهتاج الخبازون هنا وهناك
واهتم كل واحد منهم بشؤونه
ولهذا أولوا المعتقل قليلاً من الانتباه
ثم بفضل الرب، الذي يلبي بعونه حاجات شعبه
انزاحت الأغلال من يديه
وانبطح فوق كومة من الأرغفة
في حين غفل الخدم عنه وراقبوا الطريق
فأكل كل ماكان بإمكانه أن يأكله
ثم وضع رغيفاً تحت ذراعه
٤٣٠٠ — بينما أخفاه كرسي ووقاه من الأذى
وقد رضي بما حصل وبالأحوال
فاستلقى ينتظر فرصته

- ١٤٦٥ -

ثم هرب إلى الحشد حيث وجد ملاذه
وأخبر رفاقه كيف تدبر أمره وأكل
ومع الذين كانوا قريبين من الموت
جوعاً، طوعاً وكرماً تقاسم معهم الرغيف
الذي جلبه معه. ولوقت
قصير أمن لهم هذا التفريج.
ومع أنهم سوعدوا بالوجبة
— فإن شبعهم لم يكن ليدوم.
والآن لافتقارهم لما يعيل
ازداد عوزهم وجوعهم إلى حد كبير
ولهذا كثيراً شتموا ولعنوا
المركيز الذي سبب هذا الوضع

بعضهم تخلى عن إيمانه

أشد أنواع الآلام شعر بها
الذين قطنوا في معسكرنا
ومامن واحد أمكنه أن يقدر قط
كم كانت التعاسة عالية وإلى أي حد وصلت
حتى جعلت رفاقنا
— يعانون خلال هذه الحملة الصليبية.

واسمعوا الآن عن خراب ودمار
الناس الذين جعلهم الرب على صورته
وكم كانت التعاسة هائلة حتى جعلت
هؤلاء الناس الجائعين يتخلون عن ربهم
ففي داخل المعسكر كان النقص كثيراً
في كل شيء، وقد حاول أن يدمر
رجالنا حتى أن عدداً كبيراً منهم تخلوا الآن
عن ربهم، ومضوا خارجين، واتخذوا ملاذاً
بين المسلمين، وقالوا بشكل واضح
إنه مامن رب يمكن أن يتخلى أبداً عن
الذين ولدتهم النساء، لذا هجروا
التعميد، وأنكروا صلب الرب

مايشتريه بنس واحد من حبوب الفاصولياء

كان هناك رفيقان في الحشد
سيرجندیان لايمكنهما التفاخر بأي ثروة
باستثناء بنس أنجيفي واحد لاغير
جلب لهما لاشيء سوى النكد
في الحقيقة لم يكن لديهما لقمة من الطعام
ولاأي نوع من أنواع المقتنيات

باستثناء الثياب التي لبساها

٤٣٤٠ — وذلك بالاضافة إلى السلاح الذي حملاه.

ولهذا فكرا في ابداع خير وسيلة يمكنهما فيها

استثمار بنسيهما الانجيفي الواحد

في شراء طعام يمكن للثغر

أن يأتيهما به بطريقة ماأثناء النهار.

وتطلعا نحو شارة سماوية يمكن أن توجه

مسيرتهما وهما مرتديان لمعطفيهما الجلديين

وفكرا عميقاً ومنحا القضية الكثير من العناية

وأخيراً تمكنا من شراء ثلاث عشرة حبة فاصولياء

وقد وجدا إحدى حبات الفاصولياء فاسدة

٤٣٥٠ — ولكي يستبدلاها توجب على أحدهما

جواز حقل مساحته سبع اكرات Acre

وعندما التاجر الذي ترجاه

لتبديلها بحبة جيدة، قام

بابدالها وهو على درجة عالية من الإكراه

عاد الرجل بها وأكلا بنهم

فشدة حاجتهما دفعتهما إلى حد الجنون.

ثم عندما ذهبت حبات الفاصولياء؛ انتبهوا

تضاعفت تعاستهما ضعفين

٤٣٦٠ — وعندها لعنا وشتما

المركيز الذي سبب هذا الوضع

لقد شربوا حتى الثمالة وأسفوا

بيع في وسط حشد الرب

شيئاً اسمه الخروب، هكذا أخبرت.

وكان من السهل الحصول عليه: وبذلك

باتت اللحوم حلوة وجيدة للأكل.

وشرى كثير من الناس الخروب ممن كان بإمكانه الدفع

مكيال واحد كامل مقابل ديناري واحد

وسعى كثير بوساطة الخروب والجوز

بشكل ما لإبقاء أنفسهم أحياء

لكن الذين رقدوا مرضى غير قادرين على الحراك

٤٣٧٠ — والذين غالباً ماشربوا خمرة قوية

مما كان متوفراً وبكثرة

ازدادوا بالخمرة سكراً وتشرداً

يضاف إلى هذا أنهم لم يأكلوا شيئاً ماعدا

الطعام الذي تاقت إليه بطونهم واشتهته

ولهذا ماتوا على شكل قطعان، بينما أولئك

الذين تجنبوا ذلك وهجعوا بلا حراك

عاشوا واستردوا قواهم قليلاً

لكن بما أنهم لم يمتلكوا ولانوع من أنواع الأغذية

لعن هؤلاء الرجال وكثيراً شتموا

المركيز الذي سبب هذا الوضع

ووصل الأمر بهم إلى حد أنهم أكلوا اللحوم أيام الصيام

المصاعب والمجاعة كانت نصيبهم

قبلما يتجدد جلب المؤن:

فمامن شيء يؤلم مثل سوط الجوع

وعندما إنعدام الخبز يمسك بخناق

انسان، عندها كل يوم مآسيه

تزداد لأنه أكل الأقل

لذلك في أيام الصيام مكرهين

أكلوا اللحوم، وبذلك اقترفوا الاثم.

ولقد كان هو الوقت عندما كل انسان

٤٣٩٠ — توجب عليه الصوم، إنه الوقت الذي بدأ فيه الصيام

لكن عندما أرسل الرب المزيد من المؤن

فيما بعد، كلهم قام بالتوبة والاستغفار،

فعندما تذكروا كيف أنهم أذنبوا

وأكلوا اللحوم، كانوا مغمومين
وقتها شتموا ولعنوا
المركيز الذي كان السبب في هذا الوضع
ودوماً لعنوا المركيز
وهكذا، حتى نهاية الشتاء، بقيت
المجاعة، وكانت عظيمة وطويلة الاستمرار
حيث الناس في الحشد الذين قدموا لتقديم
العون للرب تحملوا وقاتلوا.
وصدقاً إنهم لم يكن أمامهم من وسيلة لاصلاح وتدارك
مانزل بهم من عيد الميلاد حتى نهاية
الصوم. أنا نفسي عرفت أن محنتهم
وصلت إلى درجة أنهم تجنبوا رؤية بعضهم بعضاً
عندما الصدقات غدت شحيحة جداً
وتضاعف الشح والبخل عدة مرات
حتى الذين كانوا الأكثر كرماً
أصبحوا الآن أشحاء بخلاء،
والبخل، وانعدام الهبات
جعل الكثيرين يموتون من محنتهم
وهؤلاء أثناء موتهم لعنوا وشتموا

المركيز الذي كان السبب في هذا الوضع

صدقات رجال الدين والنبلاء

وجاء تحمل هذا العذاب طويلاً

ولذلك كثير من الشكوى والنواح

سمعا، ولقد كانت إرادة الرب أن يجعل واضحاً

أن على الناس أن يحبوا الرب ويخشوه.

ثم إن أسقف سالسبري

دعا الأبناء والأخوان. لهؤلاء الناس

باسم الرب وعظ وعظاً جيداً

٤٤٢٠ — وضرب أمثلة جيدة علمهم بها.

وأسقف فيرونا، الذي

كان جديراً بترهبه، وصادقاً

ومستقيماً، دوماً قام بدوره

بالوعظ الذي نفذ إلى القلب،

وكان صاحب فانو في لومباردي

أسقفاً صاحب قداسة عظيمة (مونالدوس ١١٧٨ — ١٢١٤)

وعظ ببلاغة إلى الحشود.

وبعد هذا ليس بوقت طويل

جمعوا هناك ذهباً لإطعام

٤٤٣٠ — الفقراء الذين عانوا من العوز العظيم.
وازداد المبلغ بشكل كبير، وكل بذل أفضل مالديه
لزيادته واعطاء المعوزين
والجياع كل مايمكنهم تحمله.
وقدم القوم الجياع الشكر للمولى
وهم يأكلون المؤن التي
أعطيت إليهم من قبل الأغنياء.
وكان والشلين دي فيرير Walchelinde Ferrieres واحداً
ممن أعطى بإسراف زائد.
وأيدي روبرت تروسبوت Trussebot
٤٤٤٠ — فاضتا بالمعونات الانسانية.
ومثل هذا كان هنري أوف شامبين
أعطى بسعة ولم يعط بعبث.
وسير جوسلين دي مونتيور لابد من
أن يدون في التاريخ ويذكر،
وكان كونت كليرمونت لطيفاً
وعاطفياً وكريماً.
وأسقف سالسبري الجيد
أعطى بلا أثر للمن.

ومع هؤلاء كثيرون كانوا عبدوا الرب وأعاروا
أيديهم لعون المعوزين
وهكذا فإن المبلغ الذي جمع وبات جاهزاً
وزع فيما بين المحتاجين
فيما بين الكبير والصغير، والمخلوقات الفقيرة
والسيرجندية، وجنود المشاة، والفرسان؛
وإلى القوم الجياع أعطوا
وفقاً للحاجة وشدتها ومتطلباتها
ولتأمين كل انسان أعطوا
اعتماداً على رتبته ومدى معاناته.
الرب رأى أنه بإخلاص
شعبه تحرك لتقديم الصدقات
وبما أنهم عملوا بهذه الطريقة
تجلى عليهم برحمته وشفقته.

سفينة تجلب طعاماً

لربما أنكم قدعلمتم وأخبرتم
عن المعجزة التي عملت
من قبل رب السموات ،والذين سيسمعونها
عليهم أن يبتهجوا جميعاً بلا خلاف .

إلى ميناء عكا بارجة
وصلت ،إنها لم تكن طويلة ولا واسعة .
وكان في هذه البارجة قمح .والآن
أنتم جميعاً يمكنكم أن تسمعوا حكاية كيف
أن المولى الرب صان الفرنجة
وتخلصاً من العوز جعل الوفرة تأتي .
فالعوز لم يأت من الندرة
لأنه كانت هناك أطعمة بالكميات
لكن بسبب جشع التجار
الذين احتكروها ليحصلوا على أعلى الأسعار ،
لكن عندما الرب ،الذي بلطفه
وبنبع حنانه وشفقته
رأى شرور شعبه
أعطى أمراً :إن الشقاء لابد إن ينتهي
والمجاعة يتوجب أن تتوقف
وسعرالقمح ينبغي أن يهبط .

هبوط الأسعار منذ ذلك الحين

إنه في يوم سبت قبل الظهر
جلبت هذه البارجة مؤناً .

ولم يكن هناك الكثير مما سمع أوقيل
كيف تمكنت من متابعة سيرها
فيما عدا ما قيل من قبل الذين باعوا القمح
ولم يفكروا بشيء سوى بمرابحهم .
السفينة قدمت في يوم سبت
٤٤٩٠— فيما أظن ،كان الوقت بعد منتصف النهار
لقد كان الرب هو نفسه الذي جلبها إلى هناك .
وفي يوم الأحد وضع تحت رعايته
القمح الموجود في مخزن الحبوب —
وكانت قيمة غرارة القمح الواحدة مائة دينار صوري —
ومن مائة تدهور السعر ونزل
إلى أربعة . وأفلح الذي ساوم
تاجراً وأنزل هكذا الأسعار

عقوبة مستغل

اسمعوا كيف أن الرب عاقب
واحداً من الأتباع لغطرسته وجشعه
٤٥٠٠— وفعل ذلك بشكل موائم جداً:
كان هناك بيزيا في الحشد
سام قمحه بأسعار مرتفعة جداً إلى حد

أن ما من أحد كان بدون ثروة كبيرة أو مال عظيم
كان بإمكانه أن يشتري منه غرارة واحدة[1]
الرب، الذي يعرف كل انسان ،
سدد الآن ضربة موائمة ،
إلى جشعه، لم تتضاءل
أبداً ،لأن بالنار التهب
بيته وكلماكان يحويه
وهكذا كل ما جناه بالجشع
احترق. وقد فقد ثروته بالكامل
لأن ما من انسان أمكنه اطفاء النار.

عودة الوفرة

عندما رأى الناس الرب يعمل على هذه الصورة
ازدادت الصدقات وصارت كريمة أكثر .
فكل سيد صار أكثر كرماً
وزاد عطاياه ،ومع الآخرين اقتسم كل ما لديه .
وقدم الفقراء والجياع
الشكر للرب لأنهم أطعموا
والذين أكلوا اللحم في الصيام
اعترفوا بذنوبهم وتابوا ،

ونالوا التحليل ،لأن عوزهم
كان قد دفعهم إلى مثل هذه الأخطاء
ونالوا ثلاث ضربات على
ظهورهم ،وكانت خفيفة ،فهذا كان نصيب كل واحد ،
أسقف سالبسري أعطى
الضربات إليهم ،مثل أب ،لطيف وصارم .

وصول ملك فرنسا مع حشده

الرب فعل كما يلي:بعد مرور
يوم عيد الفصح ،عندها أخيراً
فيليب، الملك الفرنسي جاء وقام
٤٥٣٠— بالدخول إلى ما بين الصليبيين
وكونت اوف فلاندرز جاء إلى
جانبه ،وهو الذي سبب كثيراً من الحزن عندما مات ،
وكونت سينت بول ،جاء ،الذي رقبته (هيوج الرابع ١١٧٤—١٢٠٥)
بشجاعة قصوى غطاها وزينها بترس،
وإلى هناك جاء وليم أوف غارلاند Garlande
الذي كان أتباعه مجموعة جبارة
ومثله جاء وليم دي باري Barres(كونت روكفور، ت: ١٢٣٣)
وكان فارساً شجاعاً ،وبارعاً جداً بالحرب

وجاء مولاي سير درو دي أمين Dreux dAmiens

وكان مشهوراً ومعروفاً بثروته وببسالته

وفارس اسمه وليم دي ميلو

الذي أنا معجب به، وصل أيضاً،

وكونت أوف بيرشي perche أيضاً — وهو الذي جرد

نفسه من كل شيء —وصل

ومع الرجل الفرنسي إلى هناك عاد

المركيز ،حسبما بصدق علمت .

لكن لماذا يتوجب علي تعداد—

هم جميعاً ما من انسان له مكانة عالية

في فرنسا ،لم يقدم

إلى عكا ،عازماً على القيام بحصته.

وبناء عليه ،ملك فرنسا ،مع جميع

قوات الفرنجة تحت امرته

جلب حاشيته واتباعه الى الحشد

من عيد الفصح حتى عيد الحصاد

ثم ملك انكلترا الذي بيد قوية

استولى على قبرص— وصل الى البلاد .

الفصل الخامس

عودة الرواية الى وصول رتشارد

يتوجب علي الآن أن أتناول مجدداً
الحكاية ، وأن أجعل القصة واضحة
حول حصار عكا . أمبرويز سوف يعطي
تكملة لروايته
ويستأنف الحكاية التي تركها
ويربطها مرة أخرى بالعقدة التي قطعها
ويروي موضحاً كيف الملكان
وصلا الى عكا ، ويتحدث عن الأشياء
التي صنعاها ، ويحكي التاريخ كله
حسبما هو لديه في الذاكرة
وكيف جرى الاستيلاء على عكا بشكل أمين
حسبما رآه بأم عينيه
عندما جاء الى الأرض المقدسة

سخاء رتشارد

حسبما رويت من قبل

رتشارد ، ملك انكلترا ، فعل
أفاعيل عظيمة من اللطف ينبغي أن
تروى ، لأنه أظهر نبلاً
وكذلك ملك فرنسا قد تعهد أنه
سوف يعطي من خزانته
لكل انسان قدم الطاعة
إليه ، ثلاثة دنانير ذهبية
وجلب له هذا العمل كثيراً من الأتباع
ولهذا عندما الملك رتشارد الى هناك قدم
وسمع بهذا ، أمر بالاعلان
خلال الجيش بالطول وبالعرض
أنه سوف يعطي الى أي فارس
من أي البلدان يمكن أن يكون قد جاء
ويقبل عطاءه مبلغ أربعة
دنانير ذهبية يخرجها من خزانته .
وكان هذا هو العطاء الصحيح ويعدل
أعطي للرجال للخدمة هناك
وتصوروا ، عندما هذا الوعد جرى إعلانه
بالخارج ، كيف الحشد كله ابتهج

والذين كانوا من المراتب المنخفضة والوضيعة
والذين كانت مراتبهم معتدلة
ممن كان هناك منذ وقت طويل ، قالوا ،
« بحق المولى الرب ، متى سيكون الهجوم ؟
فالآن قد جاء الأكثر شجاعة
بين ملوك المسيحية ، والأفضل
قدرة على اقتحام البلدة بالقوة وبالبراعة .
الآن ربما المولى الرب ينفذ إرادته »
فالملك رتشارد حاز على ثقتهم .

مرض رتشارد يسبب التأخير

ثم ملك فرنسا بعث اليه يقول
بعدما تهيأ تماماً وأعدّ نفسه جيداً
منذ أيام عيد الفصح ، عندما جاء الى هناك
إنه يتوجب عليهما إعلان نداء الحرب ، والشروع
بالهجوم على دفاعات العدو .
لكن الملك رتشارد كان مريضاً ، وقدتحمل
كثيراً من الألم من الفم والشفتين لتورمهما
بسبب مرض لعين
دعاة الناس باسم «ليونارداي Leonardie

وبناء عليه بعث برسالة الى الملك

٤٦١٠— وقال بأن الأسطول ، الذي كان سيجلب

باروناته إليه ، ما يزال باقياً

في صور ، لأنه حجز هناك

بها يعرف باسم ريح أرسوف

التي سببت تراجعه وتخلفه

وأن آلاته ، هي الآن على الطريق

وسوف تصل بعد قليل من التأخير ،

وأنه عندما تصل قواته كلها

سوف يكون جاهزاً كلياً للكفاح

للاستيلاء على عكا بجميع طاقاته .

الفرنسيون يزحفون نحو القتال

٤٦٢٠— ومع ذلك فإن ملك فرنسا على الرغم

من هذا — عونك يا رب — ما كان ليتأخر

أكثر ، بل أعلن عن الهجوم

وسلح الفرنسيون أنفسهم عند انبلاج الصباح

لأنهم كانوا متشوقين للقتال .

وكان هناك الكثير جداً من السلاح مما يجعل

من الصعب عليكم تعداد كتائبهم

فكم من الدروع والسوابغ الجميلة المظهر
كان يمكنكم أن تروا ! وكم من الخوذ اللامعة المشعة
وكم من خيول الحرب كلها مضمرة مزينة
ولكم عرض من الملابس والثياب البيضاء
والفرسان النخبة ! فما من أحد يمكنه أن يرى
أو رأى مثل هذه الكثرة من الشجعان
وسادة ذوي رشاقة ، وهبوا
الإقدام ، ويتقدون حماسة وفخارا
وكم من الأعلام الخفاقة والرايات
مطرزة ملونة بأشكال مختلفة !
ثم استعرضوا القوات التي
كانت ستتمركز للحراسة فوق الخندق
ضد رجال صلاح الدين ، خشية من
إمكانية مهاجمتهم من الخلف .
ثم رجال الرب نحو القلعة
زحفوا وتقدموا ، وهاجموها بشكل حسن
وعندما المسلمون في عكا رأوا
جيش الفرنجة يزحف
مقترباً من الأسوار صرخوا صرخة مدوية

ملأت الأجواء ضجيجاً مثلما تفعل صواعق الرب
واستخدموا الكوسات والأجراس والطبول
ذلك أن بعضهم لم يقم بأي عمل
سوى ، من قمة القصر بالأعالي
راقبوا الحشد وتجسسوا
وأعطوا الانذار ، بالدخان وبالصوت
الى الذين تبعوا صلاح الدين
واستدعوهم لتقديم العون المطلوب

بطولات غيوفري دي لوزغنان

ثم هل رأيتموهم وهم يقومون بالاغارة
على الخندق ! فقد أرادوا أن يطموه
لكنهم لم يستطيعوا تنفيذ رغباتهم
لأن غيوفري دي لوزغنان ، الذي
بالشجاعة كان دوماً جديداً
جاء الى الحاجز الذي
استولوا عليه في حملتهم الأولى
وبحملة عنيفة تمكن من ردهم
فبيلطة القتال التي حملها
أرسل بعشرة من الأعداء الى القبر

حيث وجه اليهم ضربات ماضية جداً وشجاعة
الى درجة أنه ما من فارس استحق قط مثل هذا الثناء
منذ أيام أولفر ورولاند ؛
وهكذا جرى استرداد الحاجز
الذي استولوا عليه في هجومهم
لكن قبل أن يجري استرداد ه ، كان هناك صراخ كبير
وصراع وقتال في كل ما حوله .

اخفاق الهجوم

وتمكن المهاجمون لعكا في الوقت نفسه
من طم الخندق بكثير الفضلات
ومع هذا وجدوا من المواثم
تغيير تكتيكاتهم والتراجع
وهكذا تخلوا عن القتال
والى معسكراتهم ذهبوا راجعين
وبذلك بقي الهجوم بدون ثمار :
ورفع الناس أصواتهم وتشكوا
وبمرارة شتموا ولعنوا
الملكين اللذين انتظراهما
« مولاي ربي» قال كل واحد أمام خيمته :

« كم ضئيلاً جاءت نتائج انتظارنا »!

والآن بينما رجالنا يخلعون ملابسهم

المسلمون صرخوا بسخرية وبشماتة

ولدى رؤيتهم أن رجالنا غيروا ملابسهم

ألقى المسلمون من جديد النار

على آلات الحرب التي ملك

فرنسا بناها من أجل الاستيلاء

على عكا ؛ وملأ هذا قلبه بالغضب

٤٦٩٠— (وبات معروفاً ومتداولاً ، وأنا سمعت الحكاية)

وسقط مريضاً جداً حتى بات غير قادر على الركوب

على فرس حربه منفرج الساقين

المحاصرون تشجعوا بالنجدات

وهكذا كان رجال الحشد في حال نواح

وسخط ، وقنوط ، ويأس

مع الملكين اللذان كانا سيستوليان على البلدة

مصابان بالمرض وراقدان ،

ومع كونت فلاندرز وقد صار بين الأموات

لقد اضطربوا كثيراً وعانوا من ضيق عظيم .

لماذا يتوجب علي أن أكتب رواية أطول ؟

مع مرض الملكين ،وموت الكونت
بات رجال الحشد في حالة يأس مريرة
الى حد أنهم لم يعودوا يجدون سروراً
وكان يأسهم وقنوطهم كاملاً
باستثناء ماتعلق بقدوم الاسطول،
أسقف إفرو جاء آنذاك،
جالباً رجال حربه الأشداء؛
وإلى هناك جاء روجر دي تيوني Teoni
مع فرسان في كتيبة جيدة
والأخوة كورنبو Cornebu المتعددون (جون ورتشارد وتوماس)
٤٧١٠ — أولاد سيد واحد، جاءوا أيضاً
وروبرت دي نيوبروك الذي أنا لم
أعرف قط سيداً أكثر لياقة منه
وإلى هناك جاء جوردان دي هوفر
الذي كان مفوض الجيش في سيز Seez
وفي الوقت نفسه الحاجب
لتانكرڤيل Tancarville التحق بالحملة؛ (وليم الثاني دي تانكرفيل حاكم بواتو لهنري الثاني)
وروبرت أوف ليستر جاء من قبل
إلى الشاطىء قبل هؤلاء النبلاء،

وغيلبرت تالبوت، أيضاً، جاء،
وهو فارس صاحب أجمل اقطاعية،
ورالف دي تيسن Taissons، جاء، وهو سيد
ينبغي ألا نخفق في ذكره
والفيز كونت أوف شاتودون Chateaudun (رالف)
جاء، وبرتراندي فيردون Verdun
وجاء، أيضاً (الأخوة) التوزلياس Tozelais
وكانوا فرساناً بواسل، وأدباء وفق طرائقهم
وإلى هناك قدم رودن دي هيردكورت Rodin de Herdecourt،
وهو صديق الملك وأحد رجال بلاطه
وجاء غارين فتز — غيرولدGarin Fitz - Gerold، وهو الذي
جلب معه كوكبة جيدة
ومثله جاء كونت لامير Lamare
وكان غنياً وحسن التجهز للحرب
وعدد كبير آخر أنا لم أسمهم
جاءوا إلى هناك لتقديم العون للمولى الرب.

آلات الحصار تقصف أسوار عكا

وهكذا الملكان أصيبا
بالمرض أثناء حصارهما للبلدة

وقضى الرب ألا يموتا، بل أن يعيشا
ليضمن الاستيلاء على المدينة
وتحسن ملك فرنسا وتعافى
بينما بقي الآخر مريضاً يتحمل ويعاني.
وأطلقت الآلات نحو الأسوار
قذائفها، ولم تتوقف قط.
وكان لدى الملك آلة اسمها ميل فوزين Male Voisine (جار السوء)
في حين كان في عكا واحدة اسمها ميل كوزين Male Cousine (قريب السوء)
دوماً تولت تعطيلها وتدميرها.
وعندها كان الملك ينصرف لبنائها
مرة أخرى، ومن ثم تقذف وتضرب
حتى فتحت ثلمة في السور الرئيسي
وسببت دماراً عظيماً وهي تضرب
على البرج الذي يدعى الملعون
وكذلك فعلت فعلاً مؤثراً جداً
آلة دوق بيرغندي
وتسارعت قذائف آلة الداوية
ووقعت وصكت رؤوس عدد كبير من الأتراك
في حين نجد أن الآلة التي امتلكها الاسبتارية

وجهت ضربات أرضتهم جميعاً
وكان هناك آلة لرمي الحجارة اسمها
٤٧٦٠ — آلة رمي الرب، وكانت عالية
ولأجلها كاهن جيد، له صوت رخيم
وعظ بشكل جيد، وجعل الحشد يبتهج.
وجمع بوساطة قوة
الكلمات ثروة جيدة، وأمكن بوساطة هذه الآلة
قرب البرج المدعو الملعون فتح ثلمتين طويلتين
من السور الذي انشطر إلى شطرين بفعل قوتها.
وكان لدى كونت فلاندرز واحدة أيضاً،
عندما كان مايزال حياً، وكنتم
لايمكنكم أن تجدوا منجنيقاً أفضل.
٤٧٧٠ — وقد آل هذا المنجنيق إلى ملك انكلترا
وكان عنده منجنيق أصغر، مع
هذا، مشهور بقوته.
وبدأ هذان بالتركيز
على البرج القائم فوق الباب
حيث تجمع الأتراك، وبشكل جيد
سددا حتى أن نصف الأتراك سقطوا.

وأمر الملك ببناء آلتين
اثنتين زيادة، كانتا من القوة بمكان وجديدتان
وكان الذين يشغلوهما محميين
أثناء تسديد قذائفهما
وأنشأ برجاً له ارتفاع عظيم
ملأ الأتراك الأعداء بالارتعاب
وكان مغطى ومغلف من خارجه
بالأخشاب ، وبالحبال ، وبالجلود
حتى ما عاد يخشى نار النفوط
أو أي حجر ، أو أي قذيفة قذفت .
كما وبنى منجَنيقين أيضاً
كان أحدهما له قوة هائلة
حيث أن حجارته تجاوزت السور
وعلى سوق الجزارين قذائفه سقطت
وهكذا ليلاً ونهاراً أرسلت الآلات
بقذائفها ولم تتوقف قط .
وصدقاً حدث كما نحن الآن هنا
أن قذيفة وجهت من قبل إحدى الآلات
قتلت اثني عشر رجلاً بصخرة واحدة

وحملت الصخرة إلى صلاح الدين لرؤيتها
وكان بناء على أوامر ملك انكلترا .
أن جلبت مثل هذه الصخور الى البلاد
وكانت صخوراً بحرية ، جلبت عبر كل الطريق
من مسينا ، بقصد قتل المسلمين بها .
لكن الملك كان ما يزال راقداً مريضاً في الفراش
وكان تعيساً جداً ومتضايقاً الى أبعد الحدود .
فهو جاء الى هنا للمشاركة في القتال
ضد المسلمين ، القطيع المنحط
الذين على خندق جيشنا ضغطوا
بشدة متناهية ، لذلك غدا مضطرباً أكثر
لأنه لا يستطيع أن يمارس دوره
بسبب المرض الذي جعله يرتعد

المسلمون يدمرون الآلات

وكان الاستيلاء على عكا صعباً
وقد صنعوا كثيراً من المجانيق
مما كلفهم مبالغ عالية جداً
وبشق الأنفس كانت كافية
لأنهم عندما حولوا أنظارهم جانباً

أضرم المسلمون النيران فيهم
وصنع ملك فرنسا لصالح الحشد
قلعة على شكل سنور، بنفقة عالية جداً
ومظلة، سترها وغطاها بشكل جيد
وكانت نهايتها مرعبة وصامدة
وغالباً ما ذهب الى تحت المظلة
الملك نفسه مع قوسه العقار
في يده، وجعل جروخه تتساقط
بين المسلمين الذي شغلوا الأسوار.
وفي أحد الأيام بينما رجاله كانوا يشرفون على سنوره
مع الذين يشغلونه ويوجهون تهديداته
المسلمون ألقوا عليه كومة
من الخشب الجاف ازداد حجمها وصارت عالية
وكذلك رموا على المظلة أيضاً
(أمبرويز نفسه رأى هذا المشهد)
ثم بآلة قذف قذفوا نفوطاً محرقة
عليها، وحولوها الى محرقة
وهكذا أحرقت قلعة السنور
وكلها دمرت وتبعثرت

وفي الوقت نفسه المظلة الواقية ذات الثمن المرتفع
أحرقت وانشطرت الى ثلاثة أقسام
وغضب الملك ولهذا
اكتأب ، وصب لعناته على جميع الذين
أخذوا المال منه والأجر لكنهم كانوا غير قادرين
على الانتقام له من المسلمين .
وفي تلك الليلة أمر بالاعلان عن هجوم عام
ينطلق في صباح اليوم التالي يكون حامياً وبراقاً

القتال عند الخندق

وبشجاعة متناهية شرع رجالنا في الصباح
وتقدم جندنا زاحفين بقلوب صامدة
والذين تولوا في ذلك اليوم حماية الخندق
ما من خطر كان يمكنه أن يجعلهم يخنعون أو ينكصون
لأن خيرة رجال العالم كانوا هناك
موجودين ، فهناك التقوا وحول بعضهم بعضاً تجمعوا
فلقد كانت هناك حاجة ماسة اليهم في ذلك اليوم
لأن صلاح الدين سمع يقول
بأنه سيكون أول من يدخل الى هناك
ولوجوده سنكون مدركين .

هو لم يأت ، لكن شعبه جاء
واجتاح الخندق بقصد مميت
فقد ترجل رجاله وعلى الاقدام قاتلوا
ثم غدا القتال حاداً وحامياً
وضربات جبارة بالسيف وبالرمح
وجهت . واستمر القتال بلا انقطاع
لأن المسلمين في الخارج هاجموا بعنف وغضب
وعندها جرى استدعاء الذين داخل عكا وحركوا
لهم ، راية صلاح الدين .
٤٨٦٠— وكان الأمير سيف الدين
هو الذي اقتحم الخندق بإرادة وتصميم
فقد تمكن أولاً من طمه وبسطح الأرض
سوّاه ، لكن رجالنا صدوهم والى الخلف ردوهم
في حين الذين كان موكلاً إليهم الهجوم
على عكا بشجاعة أغاروا على السور .
علَّ الرب يمنحهم الجزاء وينزله عليهم

فتح ثلمة في السور

النقابون لدى ملك فرنسا
الذين تعهدوا بتقديم العون في هذا الظرف

حفروا عميقاً جداً تحت الأرض

٤٨٧٠ — حتى وصلوا الى أساسات السور

وملأوا الحفر بعوارض خشبية وبأطر علقوها

ثم وضعوا النار في الأطر وأشعلوها

حتى جزء كبير من السور

سقط ، لكن كاد أن يصيبهم أثناء السقوط

لأنه أثناء ترنحه غير اتجاهه وانحرف

وجميع رجالنا كانوا مرعوبين جداً

والعدو ، في صفوف كثيرة

اندفع رجاله الى حيث رأوا السور ينهار .

وكان بإمكانكم أن تروا هناك كل أشكال وألوان

٤٨٨٠ — عذبات المسلمين وراياتهم وأعلامهم

محمولة من قبل حشد الأشرار

الذين تجمعوا هناك ، وبكثافة ضغطوا

واجتاحونا وزحفوا علينا بقتال

جريء ، وعلينا رموا بالنفوط

وكان يمكنكم أن تروا حملات عنيفة

على حيث السلالم على السور نصبت .

مينة أوبري كليمنت البطولية

وهناك قام أوبري كليمنت بأفاعيل شجاعة ،
من قال إنه كان سيموت في ذلك اليوم
أو الى داخل عكا سيتخذ طريقه
هو لم يكذب ، هو جاء
ذلك اليوم الى شهادته .
على رأس سور المدينة صعد
ليقاتل الرعاع الأتراك
الذين هموا به ، وغير هياب
تحارب معهم ، وأثناء القتال مات
لأن الذين تبعوه في اقتحام
الأسوار ، وعلى السلم احتشدوا
سببوا انحناء السلم وترنحه
وسقوطه تحت ثقل أوزانهم
وهكذا سقطوا في قلب الخندق
مما جعل الترك يصرخون شامتين ويزأرون .
ونجا بعض رجالنا من تحت
الركام ، وبعضهم واجهوا هناك مناياهم .
وحلّ حزن عميم بالمعسكر

عندما أوبري كليمنت فُقد
وللبكاء عليه ولتشريفه ، الهجوم
على عكا توقف .

لغم ولغم مضاد

بعد اليوم الذي شهد وفاته
لم تمض أيام كثيرة
قبل أن تمكن رجالنا من لغم أساسات
البرج الملعون المتقدم ذكره
وأوهنوه وعلقوه حتى باتت أحواله
خطيرة ويائسة
ومثل هذا حاول الترك من جانبهم
حتى واجه كل طرف من المتعادين الطرف الآخر
وبناء عليه أوقفوا أعمال حفرهم.
وكان هناك أسرى فرنجة محبوسين
لحفر النفق مغلولين وبالسلاسل مصفودين
وعندما قابلوا ، رجالنا ، تكلموا
معهم ، ومن أغلالهم هربوا
ونجوا . وعندما وصل خبر فرارهم
الى الترك ، اشتعلوا غضباً

وبسرعة أغلقوا الثلمة

التي من خلالها قاموا بفرارهم .

على الرغم من مرضه رتشارد يتولى توجيه القتال

وكما رويت لكم من قبل ، ظل

الملك رتشارد في فراشه راقداً مريضاً

وقضت إرادته أنه وإن كان مريضاً

٤٩٣٠ — من المتوجب الهجوم على بلدة عكا

وكان تحت تصرفه مظلة واقية

جيدة سحبت حتى خط

الخنادق ، حيث منها رجاله من رماة القسي العقارة

أرسلوا رمايات جيدة التسديد نحو رجال أعدائهم .

وكان ملتفاً بلحاف حريري

يارب أعني ، وعلى الرغم من أوجاعه

أمر بأن يحمل نفسه وينقل الى

تحت المظلة من حيث هاجم

الأتراك بكثير من الرمايات ، التي

٤٩٤٠ — سددها نحو البرج ببراعة ونجاح .

وهاجمت آلاته ذلك البرج نفسه

وطوال ذلك الوقت قاتلهم الأتراك وردوا هجماتهم

ولم يتوقف لغاموه عن الحفر
عميقاً تحت الرج ، وتعليق
الأسوار ، حتى بهذه الوسائل
وبقذائف المجانيق
أمكن فتح ثلمة من أحد الجوانب .
وعندها صرخ ملك انكلترا
وسمع نداؤه في أرجاء المعسكر فقد
— وقف مناديه فوق السور واتخذ موقعاً له
وأعلن إن دينارين ذهبيين سوف الملك
يعطيهما لكل من سيجلب حجراً
من البرج ، ثم صار المبلغ ثلاثة ، ثم بأربعة
وعد ، وسير جنديه بالعشرات
اندفعوا نحو الأسوار ، وانجرح كثير هناك

....

وسقط عدد كبير جداً على الأرض
لذلك لم يتجرأ الباقون على المكوث
أو الاختباء وطلب الوقاية تحت الترسة
— فقد كان السور عالياً جداً وعريضاً
ومع ذلك قاموا بمحاولات

مؤثرة في انتزاع بعض الحجارة من السور

الترك يقامون ببسالة وثبات

وأطلق الترك نشابهم الى حيث رأوا
حجارة تشد لتنتزع ، وبنشاط عظيم
أرسلوا بجروخهم وبنشابهم نحو
الذين تولوا الحفر ، وكانوا مضطرين لاظهار
أنفسهم . وقام أحد الأتراك بلا مبالاة
بإرتداء سابغة ودروع أوبري
كليمنت وعلى مشهد عام وقف هناك
٤٩٧٠ — وبناء عليه أصابه الملك رتشارد إصابة قاتلة
برمية على صدره ، سددها بشكل جيد
فسقط ميتاً في مكانه .
ولكي يعوض الترك عن خسارته
وقفوا وعرضوا أنفسهم بشكل خطير
وألقوا بأنفسهم في المعمعة
وطعنوا ورموا بكل ما أوتوه من قوة .
ولم يحدث قط أن قاتل مدافعون بمثل شجاعة
هؤلاء : ولا بد للانسان لدى التفكير من أن يعجب بهم .
والدروع مهما كانت قوية وصحيحة

٤٩٨٠ — لا يمكنها أن تحمي الانسان وتقيه من الإصابة بجراحة :
والدروع والسوابغ فوق بعضها معاً
لم تغن ولم تفد أكثر من ثوب ملون
ضد القذائف الثقيلة التي رميت
بوساطة آلاتهم ، وكانت كثيفة جداً وسريعة .
وضد لغامينا حفر الأعداء
بشكل جيد حتى لم يعد بإمكانهم إنقاذ أنفسهم
إلا بالاسراع فراراً الى الوراء
وسخر المسلمون منهم واستهزأوا

الهجوم بوساطة المرشحين للفروسية

عندما بعد هجوم حاد
٤٩٩٠ — أنزل هذا البرج الى سطح الأرض
وعندما انقشع الدخان وترك
ظاهراً كثيراً من الثلم والتصدعات ،
المرشحون لمرتبة الفروسية شجعان وذوي رشاقة
سلحوا أنفسهم وباتوا جاهزين للقتال ،
انتبهوا لراية الكونت
صاحب ليستر ، لأنها رفعت بالأعالي
ومولاي أندرو دي كاين

كان هناك مع كوكبته ،
ومزين بزينة ثرية ومولاي هيوج
لي برن التحق بهم ، وأيضاً أسقف
سالسبري ، وعدد كبير من اللوردات
من كثير من البلدان ، بمقصد واحد
جاءوا الى هناك . وفي ساعة تناول الغداء
انتشروا أمام البرج .
وهجم الآن النبلاء من المرشحين للفروسية

....

ورآنا خفراؤهم ونحن نقتحم
الأسوار ، فصرخوا عالياً بصوت النفير
واستنفر الآن من في القلعة وهاجوا
ودهشوا عندما سمعوا صوت النفير
وتدفق الأتراك على الثلم وسدوها
والمرشحون للفروسية الذين بذلوا جهدهم للوصول
إلى هدفهم ، زحفوا متقدمين بخطوات سريعة
ثم كان بإمكانكم رؤية القوى تتلاقى
وتصطدم في معمعة عنيفة
وتضرب وتطعن وتجرح وتقتل .

وكان المرشحون للفروسية منا في القتال عددهم قليل
بينما ازداد عدد الأعداء بشكل مستمر
وكانوا يحملون نيراناً مضرمة ليحرقونا
بها ، ثم إنهم رأونا ننعطف
عائدين لأننا لم نتجرأ على مواجهة
اللهيب ، الذي أرغمنا على الهبوط .
أنا لا أعرف كم عدد الذين واجهوا
مناياهم في هذا الهجوم العنيف المضاد

وواجه البيازنة وقتاً عصيباً

ثم سلح البيازنة أنفسهم وهم
كانوا مقاتلين ذوي أفعال جريئة
وتجمهروا عند السور وتسلقوه
لكن رجال الإسلام هاجموهم
بشدة وحدة وهكذا المعركة
بين البيازنة وبين هذا القطيع
استعرت وكثيراً اشتدت وحميت
الى حد أن مدافعين بمثل هذه البسالة
ومهاجمين شجعان لم يعرف مثلهم قط ؛
وتوجب على البيازنة التسلق نزولاً

ولو أننا عرفنا كيف نتدبر الأمور
لكان من الممكن الاستيلاء على عكا ذلك اليوم ؛
غير أن القسم الرئيسي من الحشد
كان قد جلس للعشاء وانهمك بذلك
هناك . وكان الهجوم بدون خطة
لذلك تداعى ، وانتهى الى لا شيء

معاهدة فيما بين كونراد وغي

في داخل حشد الصليبيين
عقد اجتماع ووئام اقيم
فيما بين المركيز والملك غي وهو وئام كان مرغوباً به بشدة .
والمركيز في هذا الوضع
كان مدعوماً من قبل ملك فرنسا
في حين وقف الملك رتشارد
إلى جانب ملك البلاد ،
الملك الحقيقي للقدس
وبما أنه لم يكن بينهما حب
ولأن كل منهما اشتهى
نيل المملكة فقد تقرر ما يلي :
يبقى الملك غي كما هو الملك

لكن عليهما اقتسام كل شيء
هناك بمثابة ايجارات وموارد ،
وفي الوقت نفسه المركيز لاستخدامه
يتوجب أن يأخذ بيروت وصيدا وصور
وذلك حتى يكون السلام سليماً وعاماً .
وإذا ما حدث أن الملك غي
كان لقدره الأول موتاً
المركيز ينبغي أن ينال التاج وينال غيوفري عسقلان
ويافا ....وبعد هذا عليه
أن يتعامل مع البلاد حسبما يبدو له جيداً .
لكن المركيز كان خلال حياته كلها
حسوداً لهذين الأخوين معاً .

المدافعون الشجعان عن عكا يرتعبون

ذوي فخر وأمجاد هم الرجال
داخل البلدة ، ورائعين
ولولا أنهم كانوا غير معمدين
ما من أحد تفوق عليهم في شجاعتهم
ومع هذا باتوا خائفين
مما رأوه ، لأنه بدا وظهر

وكأن العالم أجمع قد اتحد
عازماً على سحقهم بجبروته ،
ورأواالآن أسوارهم القوية قد دمرت
وخرقت ،وفتحت فيها ثلمات ،وحطمت
ورأوا أن قوتهم تناقصت بسرعة قصوى
وعدد كبير منهم جرح وقتل
ومع هذا فيها وراء الأسوار
بقي هناك ستة ألاف رجل بمجملهم ،
وذلك بها فيهم المشطوب وقراقوش
فكل من هذين العدوين المحاصرين
لم يعد لديهما أمل بالتفريج
وقد عرفا بشكل جيد الغضب والأسى
اللذان شعر بهما جميع أفراد حشدنا ،وزيادة
على موت أوبري كليمنت
عرفوا بوفاة الأبناء والأخوان
وبوفاة الأعمام والأحفاد وبوفاة الآباء
وبوفاة أبناء العم الألمان أيضاً ،الذين سقطوا
على أيدي الكفار
مما جعلنا نكرههم بمرارة ،

وعرفوا بشكل مؤكد تماماً
أن رجال الفرنجة المسلحين
سوف إما يموتون أو يتغلبون
عليهم . ولا يمكنهم أن يزيلوا أدوات الحصار.
وعبر المدينة أقاموا
سوراً يقسمها إلى قسمين
وأقول لكم بكل صدق
إنهم أملوا أن يقاوموا قواتنا
لكن الرب ألهمهم إلى اتباع طريق
جلب لنا شرفاً عظيماً
وإليهم جلب دماراً مريعاً
وهكذا سقطت عكا إلينا ،لكن
بدون توجيه ضربة ،أو اطلاق رمية

وتوسلوا لصلاح الدين لارسال نجدة

وفي اجتماع عقد الآن خلف
الأسوار، قرر المسلمون
أن يطلبوا منا أمانا، حتى
يمكنهم ارسال رسالة إلى صلاح الدين .
ذلك أنه تعهد بلسانه وأقسم

٥١١٠— أنه إذا ما غدت مجموعتهم في وضع بائس جداً
سوف يقيم سلاماً معنا
وفقاً لمطالبهم : وقد أقسم موافقاً على هذا ،
ولهذا طلبوا منا منحهم ممراً آمناً
وأرسلوا إلى صلاح الدين رسالة ،
والتمسوا منه وترجوه في وضعه المؤلم
أن يتمسك بشدة بنبله وبأخلاقه
وبالشريعة ،التي لهم قديماً
أعطيت من قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) ولكي لا تخرب
البلاد أو تتعرض للفساد والدمار
٥١٢٠— من قبل أي من الفرنجة ، ولكي لا يهانوا
عليه أن يعقد مشاورة سريعة
وأن لا يهتم بأي شيء آخر
عدا التفريج عن المقاتلين
الذين بناء على أوامره ذهبوا
إلى بلدة عكا، وهناك ظلوا يدافعون
حتى كادوا أن يلامسوا سيوف الأعداء
وأن يفكر بتعاسة
أسرهم المهجورة

الذين منذ أن جاءت الجيوش ،أي منذ
ثلاث سنين مضت لم يمتلكوا الحظ في رؤيتهم
وأنه يتوجب عليه انقاذهم مع مقتنياتهم ومن يلوذ بهم
وأن لا يدعهم يموتون لقلة الإكتراث بهم
وأن عليه أن يحافظ على العهد الذي قطعه على نفسه
وإلا سوف يقيمون—حسبما أكدوا—
صلحاً مع الفرنجة على أساس أحسن
الشروط والضمانات التي يمكنهم تأمينها .

صلاح الدين يعد بنجدة

واستمع صلاح الدين إلى شكوى
رجاله ، فتألم وغاب عن وعيه
عندما سمع بويلاتهم وبضيقهم الشديد
وبحزنهم وبضعفهم .
ثم عمل جواباً لهؤلاء المكروبين
بأحسن ما لديه ، وقال : إنه
تلقى أخباراً من مصر
بأن عدداً من كتائب
العساكر المقاتلة ، الذين أمر من هناك
بجمعهم ،هم قادمون على سفن سريعة

لإنقاذ الجماعة الشجاعة
في عكا، التي لن يسمح بموتها
وقال بأن الخليفة قد أجاب ووعد
بأن نجدة من عنده ستصل في خلال
الأسبوع .وإذا هذه المعونات لم تنقذ —
هم ،عندها الوعد الذي أعطاهم إياه
سيحافظ عليه ،في أنه سوف يقيم صلحاً
مع الفرنجة من أجل تخليصهم
وذهب الرسل عائدين إلى
المدينة ،وهناك ازدادت التعاسة .
المجانيق استمرت ليل نهار في اسقاط
الصخور على الأسوار ،ولم تتوقف قط
وامتلأ الأتراك برعب كبير
إلى حد التفكير بتسلق الأسوار بالليل
ومن ذلك الارتفاع يتقدمون فيلقون
بأنفسهم ،لإنهاء شقائهم وعذابهم

عجز صلاح الدين عن ارسال نجدة

قدم الرسل وعادوا مرة أخرى
والى صلاح الدين حملوا

رسالة فيها أن الموت سوف ينهي تعاستهم
مالم يحصلوا على صلح أو نجدة .
ورأى صلاح الدين بشكل واضح وصريح
الأسى ، والعذاب ، والآلام
وسوء الحظ المرير لرجاله
— وهنا عقد مؤتمراً مع أعيان أصحابه ، ثم
سأل عن الطريق الذي يتوجب عليه سلوكه
وما الذي عليه أن يفعله تجاه ما طلب منه
وقام الأمراء والسادة الأثرياء
بإجابته بكلمات رصينة وموزونة وبينوا
أنهم كانوا الأصدقاء المقربين والأقرباء
للعساكر المدافعة في داخل
البلدة ، وأنهم يرغبون بخلاصهم
أي إن عليه أن لا يعمل شيئاًباستثناء الصلح
وفق أفضل الشروط التي يمكنه نيلها
— خشية الاضطرار الى اللجوء الى حلول محزنة
وعندما سمع السلطان هذا المطلب
الذي جرى التعبيرعنه من قبل كبار أعوانه
وعندما عرف بما تعانيه عكا

التي لا يمكن أن يجلب اليها تفريج
أجاب — راضياً أو بدون رضا —
وللرسل قائلاً : أيها الرجال الجيدين البواسل
ما دام الدفاع بات عاجزاً
عن انقاذ البلدة ، إنني سأوافق
على استسلامها . وتم الاتفاق
٥١٩٠ — قبل أن يذهب الرسل عائدين ،
على شروط الصلح التي
يعزمون على النقاش والتداول حولها
مع الفرنجة . وبسرور وفرح
عاد الرسل أدراجهم الى عكا .
واجتمع أعيان المدينة وأعياننا الآن
للتداول والتباحث معاً
وأصغى أصحابنا الى الذي اقترحه رجالهم
وذلك وسط صمت فرض على الحشد

شروط الاستسلام

وبمعونة ترجمان
٥٢٠٠ — قدم الأتراك عروضهم
وهي : لقد اقترحوا تسليم

الصليب الذي يؤمن به الفرنجة
والمدينة أيضاً ، ومن حشد
الأسرى الذين كانوا لديهم منذ أمد مديد
ألفين من الأسرى النبلاء
وكذلك خمسمائة من العوام
وأن يعطي صلاح الدين أوامر
بالبحث في جميع أراضيه
عن أسلحتهم وتجهيزاتهم وكل شيء
امتلكوه ، وأن ما من تركي ينبغي أن يجلب
معه شيئاً سوى قميصه الذ ي يرتديه
وذلك عندما تأتي اللحظة التي يسلمون بها
بلدة عكا، ويخرجون منها
ووعدوا أيضاً بتقديم
مائتي الف دينار بالتمام والكمال
تعطى للملكين بمثابة هدية
وعرضوا كضمانة
رهائن من أعيان الترك
ومن أصحاب المراتب والحكمة ، أي أفضل المعروفين
وأحسن الناس سمعة ومكانة في البلد

وعقد رجالنا اجتماعاً للبحث
في الشروط التي عرضها الأتراك علينا
ووجدوها شروطاً ممتازة
وعلى هذا النوع من الصلح أعطوا الموافقة

الحالة المحزنة للمدينة

في اليوم الذي استسلمت فيه عكا
وحسبما سمعت الحكاية تحكى ، كانت
أربع سنوات مرت منذ ذلك اليوم الذي
جرى فيه إستيلاء المسلمين عليها
وإذا ذاكرتي لم تتخل عني ولم
٥٢٣٠ — تخني ، حدث ذلك في اليوم
الذي أعقب عيد القديس بندكت (١٢ تموز ١١٩١)
على الرغم من إرادة العرق المحروم من الرب
والملعون من قبله . علّ اللعنة تبقى ولا تزول
أنا لا يمكنني التمنع عن استخدام هذه الكلمات .
ثم كان عليكم رؤية الحالة المأساوية
لكنائس عكا المهجورة
والتشويه والتخريب
الذي حل بالتماثيل المقدسة

تمثال الصلب رمي أرضاً
والصلبان والمذابح سحقت
للسخرية من مقدساتنا
ولإرضاء كفرهم الحقير
ولإقامة شعائر محمد (ﷺ)
غير أنهم دفعوا غالياً ثمناً لهذه الاهانات

خطة فيليب لإنهاء صليبيته

تماماً في الوقت الذي كان الترك فيه
سيسلموننا الصليب ويتخلون عنه
وبعدما استسلمت عكا
انتبهوا ، بين صفوف الحشد انتشرت
أقاويل بأن ملك فرنسا
الذي وضع الناس ثقتهم فيه
يرغب بالعودة الى الوطن ، وأنه الآن يعد
العدة ليكون جاهزاً لمثل هذا العمل
رحمتك يا رب ، ما هذا التوقيت للمغادرة
وهذا التفكير السيء الذي أبدعه
وأن يترك رجاله في الوقت الذي الحفاظ عليهم
وقيادتهم كان هو واجبه بشكل واضح

وأعلن الملك قائلاً ما الذي يمكن
أن يكون ذلك المرض الذي يدفعه للمغادرة ،
. لأن ما من أحد يمكنه تقديم أي برهان
٥٢٦٠ — على أن المرض هو السبب المسوغ
لترك خدمة ذلك الملك الذي يقود
كل ملوك الأرض بالطول وبالعرض.
أنا لا أقول إنه لم يكن هناك
كما لا أقول إنه لم يقدم حصة كاملة من الخشب والفولاذ
والفضة والذهب ، والبيوتر، والرصاص
ولا أقول أيضاً إنه لم يقدم الضمانة لكثير من الناس
وذلك حسبما هو لائق بملك مسيحي
وصاحب منصب هو الأعلى على وجه الأرض.
وكان ما تقدم ينبغي أن يكون سبباً لبقائه
وأن يبذل جهد طاقته بدون مواربة
في هذه البلاد غير السعيدة التي
امتحنت بقسوة وألم وغضب

تعرضه لانتقادات الصليبيين

وجرت بشكل واسع وحرّ مناقشة الأخبار
وبشكل مكشوف ، في أرجاء المعسكر

بأن الملك يخطط للسفر والعودة
وأنه أعدّ العدة لذلك كل يوم
انتبهوا جميع البارونات الفرنسيون
تضايقوا وامتلأوا غضباً
لأنهم رأوا هذا القرار لديه
(ورأس كل واحد منهم كاد يتفجر)
وكلما أنقص مدة إقامته
كلما إزدادوا بكاء وتصريحاً.
وعندما رأوا أنهم لم يتمكنوا من جعله
يغيّر مقاصده من أجل خواطرهم
أقول صدقاً إنهم بقسوة متناهية
لاموه ، واقتربوا كثيراً من
إنكار أنه ملكهم ومولاهم ، فكثيراً جداً
إزداد عدم رضاهم وكراهيتهم

إيكاله أمر رجاله الى دوق بيرغندي

أعد ملك فرنسا عدته ورسم طريقه
دون الإصغاء لما يمكن أن يقول رجاله
الذين حثوه على التريث
قبل أن يحمل نفسه عائداً الى فرنسا

ومضى البارونات والعساكر معه
وشكلوا حشداً عملاقاً .
وعهد بالقيادة من بعده
الى دوق بيرغندي وأوكل اليه
شؤون جميع الناس من بلاده
ومن الملك رتشارد طلب
مطلباً هو أن يعيره اثنتين من
سفنه . ثم الى الميناء مباشرة مضى
رجاله . وأعطاه الملك رتشارد بمثابة
هدية اثنتين من أحسن السفن قوة وسرعة ،
وكانتا أعطية كريمة أعطاه اياها
لكنه سددها بنكران وسوء

وأقسم على الحفاظ على السلام في الغرب

الملك رتشارد الذي خدم إرادة الرب
بقي في سورية ، وكان ما يزال
لا يثق بالملك الفرنسي ، تماماً مثلما
أبويهما بدون ثقة
نظر أحدهما إلى الآخر ، وكل واحد منهما
فعل الشر والأذى للآخر .

وطلب رتشارد منه أن يقسم
على الآثار المقدسة ، وأن يعطيه توثيقاً
جيداً وضمانة أن لا يرفع يده
ضده ، أو يحارب بلاده
ما دام غائباً في حجه
لحفظ تراث المولى الرب وصيانته
وأنه بعد عودته الى فرنسا
أن يقدم له انذاراً مبكراً
برسالة قبل أربعين يوماً تتقدم
على تحركه ضده أو اعلان الحرب عليه
أو الحاق الأذى بوساطة عمل عدواني
وأقسم الملك يميناً بالمحافظة على هذا العهد
وبإيمانه وعقيدته قدم رهائن
— حسبما نذكر — رجالاً عظماءً وشجعاناً
مثل دوق بيرغندي
والكونت هنري ، ومجموعة مكونة
من خمسة آخرين أو أكثر ذوي شهرة عالية
مع أنني لا أستطيع ذكر أسماء البقية

مصير رهائن فيليب

غادر الآن ملك فرنسا مودعاً
إنني أخبركم ، ويمكنكم أن تصدقوا
أن المزيد من اللعنات
أخذ معه ولم يصطحب تبريكات
وركب هو والمركيز البحر
وأخذا طريقهما الى صور ، حيث نقلاً
حصتهما من الأسرى المسلمين
وقراقوش كان بين هؤلاء الرجال
ومائة الف دينار هو الذي
طلبه من أجل تحريرهم
وقد اعتمد على ذلك لتزويد
جيشه بالنفقة حتى حلول عيد الفصح
لكن جميع هؤلاء الأسرى أصيبوا بالمرض
وعدد كبير ماتوا نتيجة إصابتهم
لذلك منهم لم يحصل على أي
ربح ، لا درهم ولا دينار
أو أي شيء يجعله غنياً
باستثناء نصف الغنائم التي

وجدوها في عكا . وبعدم رضا
جنوده غالبا ما تشكوا
أنهم لم يحصلوا على المزيد من العطايا
— ومن ها هنا جاء عدم وفاق كبير
لكن فيما بعد ، بناء على طلب الدوق —
الذي حصل من ذلك على منافع
واضحة — توفر هناك قرض
مقداره خمسة آلاف مارك فضي على
حساب الرهائن . والملك رتشارد هو الذي
قدم القرض : وبهذا جرى الدفع للعساكر الفرنسية
لكن جاء وقوع هذا بعد كثير من التأخير

استمرارية رتشارد

أدرك الآن الملك رتشارد ادراكاً جيداً
أنه طالما أن ملك فرنسا قد مضى وانصرف
— وأنه سوف لن يبقى ، فإن الجهد والمال
لابد من أن يتولاهما الآن تماماً
ولذلك أخذ من خزانته
فضة وذهباً بكميات كبيرة . وقد
أعطى بكرم وافاضة مما لديه

إلى الفرنسيين ، وبذلك أدخل السرور
عليهم جميعاً ، لأنهم كانوا حزينين جداً
وكان كريماً نحو الآخرين
حتى يمكن أن يمنحوه ولاءهم بسهولة .
ملك فرنسا الى بلاده قد
عاد . الملك رتشارد بيده تناول
المسؤولية . وهو لن يتزحزح عن جانب
الرب . وأعلن بوساطة المنادي وطلب
الى الحشد الاجتماع الذي انتظر أربعة عشر يوماً
ثم ازداد اسبوعاً ، فوق الميعاد المقرر
والمتفق عليه . لأن صلاح الدين لم يف
— أو أن الرب قضى أن تكون الأمور
هكذا — بالتعهدات التي على نفسه قطعها
ولهذا السبب الحشد تأخر
وأعدّ الملك العدة للارتحال
وحمّل السفن وأعدها
وآلاته ومجانيقه لموسم
الصيف كانت تقريباً جاهزة
ورغب الى الجميع أن يستعدوا .

وأمر بترميم أسوار عكا وجعلها
أقوى من ذي قبل وأعظم حجماً
وفي الوقت نفسه غالباً ما شغل نفسه ووجد متعة
بالاشراف على العمال وهم يعملون
لأن الأمل الأعظم للملك كان في
استرداد أرض الرب وجعلها سليمة
لنا . وهذا الانتظار جعله غاضباً
ولولا الحسد الذ ي أعاقه
لحقق أوفى نجاح وأعظمه

مماطلة المسلمين

حل الآن الوقت للعمل
وللوفاء باليمين والعهد
الذ ي قطعه المسلمون على أنفسهم
للفرنجة ، لكن ما زال الصليبيون لا
يعلمون أنهم بالمكر وبالمعاذير العابثة
قد خدعوا . والمسلمون قالوا
حتى يجدوا الصليب لمزيد من الوقت
طلبوا ، ودوماً تساءل رجالنا
حوله وطلبوا الأخبار .

لكن إرادة الرب قضت برفض
حفظ أو بقاء هؤلاء الذين عوضا عنه
كانوا سوف يتم تسليمهم .
وروى أحد الناس وقال «إنه موجود هنا »
وقال آخر :« هذا الرجل رآه بوضوح
لأنه ذهب الى ما بين المسلمين » !
لكن هذا كله كان كذباًوخداعاً.
فصلاح الدين لن يعين أو يرعى
الرهائن ، لكنه تركهم يهلكوا
لأنه كان في ذهنه أنه بوساطة الصليب
يمكنه أن يحصل على صلح أكثر موائمة

ضراوة كونراد ووحشيته

وبينما كانوا ما يزالون متأخرين ويستعدون
مقدموا الفرنجة بعثوا برسالة
إلى المركيز الذي كان في صور
وقد سألوه الآن ومنه طلبوا
وجوب القدوم الى عندهم ، وحمل
الرهائن وأخذ الحصة
العائدة الى ملك فرنسا وهي

نصفهم ، حسبما في المواثيق
وأسقف سالسبري الذي
اصطحب معه من البارونات اثنين هما
الكونت روبرت والمخلص بيير
دي برو الذي كان لطيفاً وشجاعاً
فهؤلاء السادة الثلاثة تولوا السفارة
المركيز الذي امتلأ غضباً
أعطى جواباً بأنه لن يستجيب
لأنه الى الحشد لا يجرؤ على الذهاب
ذلك أنه يخشى من رتشارد
أكثر من أي انسان حي آخر
وزيادة على هذا ، إذا كان سيتخلى عن
الأسرى الأتراك الذين لديه
فهو يطالب بتقسيم الصليب الحقيقي
حتى يمكن أخذ حصته منه
وإذا ما نفذ هذا هو سيطيع
وسوف يسلمهم من دون تأخير
وسمعوا الجواب الضاري
الذي قدمه المركيز الوقح

ولقد وثقوا بصدقه قليلاً
ومع ذلك بذلوا جهدهم لتهدئته
وقالوا له : واحداً منهم سوف هنا
يبقى رهينة . وبدون خوف
يمكن للمركيز المضي والمثول أمام
الملك . لكن مرة ثانية هو أقسم
أنه لن يخطو خطوة واحدة
على ذلك الطريق . ولم يودعوه ، بل حملوا
أنفسهم عائدين الى عكا وللملك
أخبروا بكل شيء ، ولم يغيروا شيئاً أبداً

المركيز يرفض الالتحاق بالمعسكر

وغضب الملك تجاه هذه الوقاحة
فبعث وأحضر دوق بيرغندي
وبعث خلف اللورد درو دي أمين
الذي كان سيداً نبيلاً وممتازاً
وكذلك خلف روبرت دي كوينسي ، والآن عندما
بحضرته مثل هؤلاء الرجال
عرض عليهم البعد عن
المنطق ، والجريمة ، والعذر الذي

بعثه المركيز وعلل به
عدم قدومه واحتفاظه
بالأسرى ، وأنه يريد المشاركة بالمملكة
بدون أن يحمل ترساً أو خوذة
وأنه قطع المؤن عنهم
وعلى هذا الى صور لم يعد يأتي شيء
وهذا ينبغي أن يوقف ويوضع له حد
وقال :« هذا تصرف مجنون وأحمق »
ثم أردف يقول : «سادتي الدوقات اليه ينبغي
الآن أن تذهبوا ، فإذا ما أخذ نا بالحمق
سوف لن نحقق شيئاً يستحق الذكر
وانطلق دوق بيرغندي وذهب
وروبرت دي كوينسي ، وكان مستقيماً وصادقاً
ومولاي درو دي أمين ، ذهب أيضاً
ومع المركيز في صور التقوا
ووجهوا باسم الرب له دعوة بالحضور
وكذلك باسم ملك انكلترا
وأن عليه تقديم العون لإعادة الاستيلاء
ولاسترجاع أراضي سورية

بما أنه يطالب بجزء منها .
وخاطبه هؤلاء الرجال بشكل لطيف
لكنه أجابهم بوقاحة وعجرفة
بأنه لن يخطو خطوة نحو الحشد
لكنه سوف يحمي مدينته ، وتبجح متفاخراً
أنه هناك لا يخشى من أي انسان حي
ولهذا لوقت قصير بذلوا جهدهم معه
لكن هؤلاء الشخصيات النبيلة الثلاث
أقنعوه بالتخلي عن رهائنه
ومعهم مرغمين عادوا راجعين
وذهبوا للالتحاق بالحشد عند عكا

اخفاق صلاح الدين في انقاذ رهائنه وتخليصهم

وهكذا جرى استرداد الرهائن
الذين كانوا محبوسين في صور
وبعد مضي أربعة عشر يوماً ، وأكثر
على الموعد المحدد
للأعداء للوفاء بمجمل
الوعود التي قطعوها
للصليبيين . فالسلطان صلاح الدين

كان مزيفاً ومخادعاً
أخفق في فداء أو استرداد
رجاله الذين الى الموت سلمهم
وبذلك فقد سمعته الجيدة
التي اكتسبها حتى هذا الحين
لأنه لم يكن هناك في البلاد بلاط
لم يحظ بداخله بسمعة طيبة
لأن الرب يمنح أحياناً عدوه
فرصة ، ثم الى الحضيض يسقطه
ويرفع بالوقت نفسه من شأن صديقه
ويقود جهوده نحو نهاية طيبة .
لكن صلاح الدين لن يتمتع ثانية
بالسمعة الطيبة التي نالها من قبل
لأن جميع الانتصارات التي
نالها من الصليبيين
نالها لأن الرب اختار من خلاله
أن يعمل ، وأن يرد من خلال عمله
هؤلاء الذين ضلوا من شعبه
وأن يعيدهم مرة أخرى الى جادة الصواب

الذين جرى قتلهم من قبل الصليبيين

وعندما بات الملك رتشارد أخيراً
مصدقاً، ومتأكداً ، بدون
أي شك ، أنه قد استحمق
من قبل صلاح الدين ، وسخر منه
وأنه عن عمد يعبث به
وكان آسفاً وحانقاً
لأن الحشد لم يقم بمغادرة
أكثر سرعة ، وذلك عندما علم بالخدعة
وكيف أن صلاح الدين لن يفعل شيئاً
ولن يدفع الى هؤلاء الرجال المزيد من الاهتمام
وهم الذين تولوا حراسة عكا عوضاً عنه ،
رتشارد عندها دعا الى اجتماع
النبلاء وعليهم عرض القضية
بإيجاز . وفكروا بالأمر وقرروا
أن عليهم قتل الجزء الأكبر
من المسلمين ، وأن يوفروا فقط
الذين من أسر نبيلة وعالية
حيث من الممكن بيعهم مقابل رهائننا

وقام الآن ملك انكلترا الذي
سمع هذا بقتل عدد هائل من المسلمين
فبعد الآن لن يعود ذهنه مشغولاً
بهم ، وبذلك كان يدمر فخار الأتراك وظلمهم
وينتقم للصليبيين
ألفين وسبعمائة ، جميعهم
بالأغلال ، اقتيدوا الى خارج السور
حيث قتلوا كل واحد منهم
وهكذا بوساطتهم جرى الانتقام
من ضرباتهم ومن جروخ قسيهم العقارة .
ولهذا سينال أعظم مباركة !

رتشارد يخطط للزحف جنوباً

صوت النفير وسط الحشد دوى
للاجتماع عند حلول المساء
وباسم الرب، المعطي
لكل الخيرات ، يتوجب عليهم عبور نهر
عكا ، ومن ثم عليهم الزحف مباشرة
وبلا توقف حتى يصلوا الى عسقلان
ليستولوا على الساحل بقوتهم

وحملوا — السفن — بالبقسماط وبالدقيق
وبالخمرة ، وباللحوم ، وببقية أنواع المؤن .
زيادة على هذا صدرت الأوامر
بأن على كل انسان أن يحمل معه مؤونة عشرة أيام
من الطعام ، وتوجب على البحارة الإبحار
على محاذاة الشاطىء ، وأن يجلبوا بوارجهم
معهم ، كلها محملة بما احتاجوا اليه
ثم على الغلالين التقدم
والسير بعدهم بسرعة
حيث ينبغي نقل كل من العساكر والأطعمة
بهم، وأن يكون الجند مسلحين جيداً ومجهزين
وهكذا خططوا بوساطة قوتين
القيام بالاستيلاء، واحدة بالبر
وأخرى بالبحر، لأنه لم يتوفر
سبيل آخر لتحقيق أغراضهم
والاستيلاء على سورية التي سقطت
تحت نير حكم الأتراك وتسلطهم

شهداء حصار عكا

وبقي الجيش واقفاً أمام عكا

صيفاً واحداً بكامله وشتائين اثنين
وتقريباً حتى منتصف آب، وقد تمزق
بالصراع وبالنفقة وبالمرض، وبالمخاطر،
وعندما أمر الملك بقتل
أولئك الذين استحقوا ذلك لما اجترموه
بحق الرب وبحق حجاجه، حيث
جعلوا اليتامى كثيرين جداً.
ولأن كثيراً من الفتيات بلا عون
تركن، وسببوا الترمل لعدد كبير جداً
ودمروا كثيراً من النبلاء
وتركوا أسقفيات وكنائس
خاوية ولرعاتهم دمروا.
وكتبت هناك رواية
من قبل كاتب جيد لأمير وكونت
مات هناك، وسجل ودون
أسماء الذين تمتعوا بشيء من الشهرة
لكن ليس أسماء الأناس الصغار أو الذين بلا اعتبار
ولو رغب في تسميتهم جميعاً
لطالت اللائحة طولاناً كثيراً

ولما انتهى عمله وكتابته أبداً.
وفي مخطوطته كتب أسماء
ستة رؤساء أساقفة (*) كما تلاحظون
وكذلك اثني عشر أسقفاهم ماتوا
والبطريرك، ولندع جانباً
الكهنة، ورجال الدين، الذين قليل
يمكنهم بتأكيد ذكر أعدادهم.
ومثل هذا في مخطوط الكاتب
أسماء أربعين كونتاً قتلوا.
وخمسمائة من كبار ملاك الأراضي
الذين ابتغوا التدوين في مخطوط ربهم
أرجو الرب أن يغفر لهم ويمنحهم الرحمة
ليجدوا أماكنهم في مملكة الرب
وكذلك لجميع الناس الذين هلكوا هناك

* كان من بين رجال الدين هؤلاء هرقل بطريرق القدس، وبلدوين رئيس أساقفة كانتربري، و(ليتارد؟) رئيس أساقفة الناصرة، و(تيري دي مونتفوكون) رئيس أساقفة بيسانكون، و(بيير دي اسنارد) رئيس أساقفة آرل،و(كاروس أووليم؟) رئيس أساقفة مونريال، و(يودس) أسقف صيدا، و(يودس؟) أسقف بيروت، وأسقف عكا، وأسقف القديس جورج في اللد، وأسقف الخليل، وأسقف طبرية.

وللجميع الذين إلى هناك توجهوا
وللعمال البسطاء وشحن القلاع
الذين ساعدوا جيش الرب على البقاء
ولكل انسان قام بدوره
فلهم جميعاً ينبغي أن نصلي بقلوبنا كلها
حتى يرحب الرب بهم ويستقبلهم بين
نخبته، وبين حشده السماوي
حيث يكون مقامهم رائعاً
— حسبما وعدهم ووعدنا
لصالحهم ولسعادتهم ولنا أيضاً حتى يمكن
لكل انسان للصلاة الربانية يقول .

اجراءات رتشارد الاحترازية

عند ماهؤلاء الكلاب الحقراء قتلوا، وهم الذين
تمسكوا بعكا طويلاً وقاموا بردنا
غالباً؛ أخذ الملك من الخندق
خيامه وأعطى أوامر بنصبها قرب الدفاعات
وذلك أثناء انتظاره للحشد ليشرع.
ووجد من الموائم والمفيد
— أن يحشر سيرجندية مشاة حول خيمته:

لأن المسلمين الخونة كانوا سيأتون
ويقلعون بحملات مرعبة جداً
ويزأرون ويقاتلون بحدة وشدة،
عندما قلة من رجالنا يتولون الحراسة.
واعتاد الملك على هذه الانذارات
وكان الأول فيمن ينهض ويحمل السلاح
ليحمل على العدو المكروه
وليعمل أفاعيل فروسية

أسر اثنين من لوردات الصليبيين

وصدف في أحد الأيام أنهم طاردوا—
— هم، وأن القتال تجدد
الملك وجميع الصف الذي معه
حملوا السلاح وانخرطوا في المعمعة
وكان معهم كونت هنغاريا
وعدد كبير من العساكر من أتباعه؛
وقد حملوا متقدمين ضد الأتراك
وعمل بعضهم أفاعيل شجاعة
لكنهم تبعوا رجال أعدائهم المنهزمين
بعيداً جداً، فوقعوا في محنة شريرة

وأسروا كونت هنغاريا—
وكان رجلاً عالي المقام والمكانة—
وأسروا أيضاً لورداً اسمه هيوج
وكان سيداً ولد في بواتو
وهو الذي كان مارشال الملك.
وقاتل الملك هناك وناضل بكل مأوتيه من قوة
ناوياً على انقاذ هيوج، لكنهم
كانوا قد أخذوه وحملوه بعيداً.

أسلحة المسلمين وتكتيكاتهم

ولأن الأتراك امتلكوا عوامل تقدم
خطيرة، كلفنا ذلك ثمناً غالياً:
فقد كان الفرنجة يرتدون السوابغ ويلبسون الدروع
وكان ذلك ثقيلاً. وكان كل واحد من المسلمين يحمل
دبوساً، وقوساً، وسيفاً، ويحمل رمحاً
بسنان حاد، ولايحمل معدات أخرى
سوى سكين ذات وزن خفيف.
وعندما تطاردهم يخيل للانسان
أن خيولهم لانظير لها واحدها مثل السنونو
عندما يطير، فما من أحد قادر على اللحاق به

والأتراك بارعين جداً بالتغرير
برجال أعدائهم عندما يكونون عرضة للمطاردة
تراهم مثل صل حاقد سام
ومثل ذباب بغيض يطير من حولنا.
إذا ماطاردته، تراه يطير ويهرب
وعندما تعود، يعود ويجدد مراغمته.
فهكذا ضايق جمع الكفار
وآذوا الملك رتشارد وتركوه بلا راحة:
وكان ينقض عليهم، فينهزمون
وينعطف ليعود، فيتبعوه
وكانوا أحياناً يطاردون فيخسرون
وأحيانا يربحون أكثر مما يخسرون

العالم والجسد والسيطان

كان الملك رتش . في داخل خيمته
ينتظر الحشد، وسر ف إلى الأمام،
ولعبور الخندق كان رجاله بطيئين جداً
وببطيء أعدادهم تزايدت،
ونادراً ما حوت اسوار عكا مثل
جمهور الناس هذا الذي هناك بقي.

ثلاثمائة ألف رجل،بدون شك
كانوا هناك داخل المدينة وفي خارجها.
وكانوا كسالى متراخين الى أبعد الحدود
لأن البلدة كانت قد امتلأت بالمسرات.
كانت هناك خموراً جيدة ووفرة من كل شيء
وكثيراً من الفتيات الجميلات
ومع الخمور ومع النساء
أسرفوا بالشرور وبالاعمال المخجلة
وكان هناك الكثير الكثير من المساوىء في داخل
البلدة،والكثير الكثير من البغاء ومن الذنوب
الى حد أن العقلاء والناس ذوي القدر ارتعبوا
وشعروا بالخجل تجاه ما اقترفه أتباعهم

زحف عساكر الفرنجة نحو الأمام

وجرى جمع الحشد،والى الأمام تقدم.
تماماً مثل شعلة شمعة مغطاة
تنطفىء عندما تتعرض لهبات ريح قوية
لذلك توجب اطفاءها وتركها وتخليفها
فلقد جاء الحمقى فقط
أما الحشد، فبسبب فساده

وبسبب النساء،كله حبس وأعيق
عن الذهاب، وفي عكا رجاله مكثوا وبقيوا
باستثناء بعض السيدات العجائز اللائي كدحن
والسيدات اللواتي تولين غسل الثياب المتسخة
وغسلوا رؤوس الحجاج،فهؤلاء كن
نافعات مثل القردة للتفلية والتقاط القمل
انتبهوا،الحشد عند انبلاج الصباح
تسلح واصطف في صفوف جيدة
واتخذ الملك موقعه في ساقة الجيش
ليحول دون وقوع حوادث مشؤومة
وقطعوا في ذلك اليوم مسافة قصيرة:
فعندما علم الشعب الكافر الملعون
وبات يعرف أن الجيش يزحف نحوالامام
كان بإمكانهم رؤيتهم مثل المطر يتدفقون هابطين
من التلال،هناك ثلاثين وهنا عشرين
لأنهم كانوا جداً محزونين ولشدة غضبهم متألمين
لرؤيتهم الذين جرى قتلهم
من أقربائهم،هناك موتى متمددين
لذلك لحقوا بدون راحة

-١٥٤٢-

الحشد،وضايقوه وشددوا الضغط عليه.

لكن حمداً للرب ضغينتهم

لم تجد نفعاً.وغادر رجالنا من هناك

وعبر نهر عكا اتخذوا

طريقهم،فنصبوا الخيام،وهناك أقاموا

وانتظروا،لأنه كان هناك مايزال بعض

الناس في داخل عكا،لم يقدموا بعد

من المدينة،وكان من الصعب جعل

٥٧٢٠- الجميع يتخلون عن البلدة في وقت واحد .